

في

السيرة النبوية المحمدية

الجزء الأول

على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأشرف السلام وأجل التحية

تاليف: الأستاذ الشيخ
محمد الصالح بن طيار رحمه الله



تقييد الدروس المسجدية

في

السيرة النبوية المحمدية

على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة

وأشرف السلام وأجل التحية

الجزء الأول

تأليف: الأستاذ الشيخ محمد الصالح بن طيار رحمه الله





عنوان الكتاب: تقييد الدروس المسجدية في السيرة النبوية المحمدية
(الجزء الأول)
تأليف: الشيخ محمد الصالح بن طيار
عدد الصفحات: 408
قياس الكتاب: 16 × 24

ردمك / ISBN: 8- 545- 36- 9947- 978
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018.



22 شارع قيطوني
عبد المالك قسنطينة
تلفاكس: 031.92.25.61
E.mail: Dar_numidia@yahoo.fr



عنـــوان الكتـــاب: تقييد الدروس المسجدية في السيرة النبوية المحمدية (الجزء الأول)

تـــــــأليف: الشيخ محمد الصالح بن طيار

عـــدد الـــصفحات: 408

قيـــاس الكتـــاب: 16 × 24

© منشورات نوميديا 2019.

ردمـــك / ISBN: 8- 545- 36- 9947- 978

الإيـداع القـانوني: السداسي الثاني 2018.



22 شارع قيطوني

عبد المالك قسنطينة

تلفاكس: 031.92.25.61

E.mail: Dar_numidia@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لكتاب "دروس السيرة النبوية"

تأليف الشيخ مُحَمَّد الصالح بن طيار ، أجزل الله ثوابه وأكرم مثواه بما يكرم به عباده الصالحين في عليين.

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله حمدا نستدرّ به نعمه ، ونتقي به نقمه ، ونشكره شكرا به تتوالى علينا سوابع الأفضال وسحائب الجود والنوال ، والصلاة والسلام على ينبوع الرحمة ومشكاة الحكمة سيدنا ومولانا محمد صاحب السيرة العطرة والسريرة الطيبة الطاهرة ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء ، وبعد:

ما أسعدني بهذا الشرف الذي أحظى به ، وما أبهج قلبي بهذه الفرصة التي أتيحت لي لتقديم هذا السِفر القيّم الذي يتضمن طرفا من سيرة الرسول الأكرم ، وتحفا من مواقف هذا النبي الأعظم خطها يراع الإمام البارع ذي البرهان الساطع شيخنا **مُحَمَّد الصالح بن طيار** طيب الله ثراه. وبقدر ما أنا سعيد بهذا التقديم ، بقدر ما أشعر بثقل المسؤولية التي أنيطت بعهدتي ، ذلك لأن الشيخ **مُحَمَّد الصالح بن طيار** ليس شخصا عاديا يسهل الحديث عنه وتقصّي مناحي تفكيره والغوص في أغوار نفسه الغنية بمبادئ الإسلام ، النيرة بشعاع الإيمان. ولعل الكثيرين لا يقيمون وزنا لهذا العالم ، ومردّ ذلك يرجع إلى أن الشيخ يفرّ من الأضواء فرار السليم من السقيم ، ويكره البهرج ويرى فيه زيفا لا ينبغي أن ينشغل به. من أجل ذلك يجهل الكثيرون هذه الشخصية ذات القدح المعلّى في دنيا الإصلاح وعالم الدعوة إلى الله. وحتى للذين أتيحت لهم معاشرة الشيخ من بعيد لا يكادون يتبيّنون ملامح شخصيّته بالقدر الكافي ، ولا تتضح شخصية هذا العالم إلاّ بطول المعاشرة ودوام الصلة به والأخذ عنه دهرا طويلا. وما دمنا بصدد

تقديم كتابه في السيرة النبوية يجدر بنا أن نرسم للقارئ الكريم صورة مصغرة لهذه الشخصية. وبادئ ذي بدء ، نشعر قارئنا الفاضل أننا لا ندعي الإحاطة بجوانب هذه الشخصية إذ أن ذلك يقتضي إفرادها ببحث مستقل ، ولعل الظروف تتيح لنا القيام بهذا الواجب. بيد أننا في هذه العجالة نمضي مع الشيخ لنتعرف على شخصيته والمؤثرات التي كونت هذه الشخصية التي نعتز بها كمسلمين وكجزائريين.

إن الشيخ **مُحَمَّد الصالح بن طيار** ينحدر من أسرة عرفت بالصلاح والتقوى والتبحّر في علوم الشرع ، وتلك هي البيئة النظيفة التي ترعرع فيها. فقد نشأ في حجر أب هو **الشيخ الأخضر بن طيار** ، هدفه الوحيد في الحياة تمجيد الفضيلة وإقامة العدل والتشبث بالحق مهما كلفه ذلك. ويكفي أن نقول للقارئ أن **الشيخ الأخضر بن طيار** من فتل أصابع **الشيخ عبد القادر المجاوي** المعروف **بالمغربي**. هذا الوالد ترك بصماته بارزة في شخصية مترجمنا ، فورث عنه كرم الخلق ونبل السجايا وطهارة القلب ، وسلامة الصدر والشغف بالعلم شغفا ملك عليه كل إحساسه. ودرج الشيخ الإمام في هذه البيئة منكبًا على طلب العلم ، مغترفا من ينابيعه لا يشبع ولا يقنع ولا يفتر ولا يسأم. ويكفي أن نقول لك قارئنا العزيز أن شيخنا قد تتلمذ على يد الشيخ **عبد الحميد بن باديس** ، وسرعان ما تحولت تلك التلمذة إلى صداقة خالصة بين شيخنا وابن باديس. ولعلك أدركت من هذا الإطار الذي يمكن أن تضع فيه هذه الشخصية فهو من أولئك العلماء المصلحين بأوسع معاني هذه الكلمة ، وهو من أولئك الرواد الذين حملوا مشعل الهداية الربانية والليل مرخم سدوله على هذا الشعب المبتلى بأبشع أنواع الاستعباد. ووسط الظلم الحالك شق الشيخ طريقه في عالم الإصلاح لا يهادن ولا يداجي ولا يمالئ. وكان سباقا لقول كلمة الحق جاعلا شعاره في الحياة قول الرسول صلى الله عليه وسلم " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " فيا ما أكثر الأهوال التي لقيها في مقارعة الاستعمار

وما أفدح الأخطار التي جابهها وهو يحمل لواء الحق وعلم الهدى. وإنك إذا تأملت جسمه ترى جسما نحيفا تحسبه يسقط لأول هبّة ريح ، ولكن حينما تواجه الرجل يروعك منه ذلك الثبات الذي دونه ثبات الأطواد. وتندهش لتلك الصلابة والعناد عندما يتعلق الأمر بنصرة الحق والدفاع عن الإسلام ما عرفناه لان يوما لظالم ولا انحنى أمام جبار ولا ساوم في حق ، ويوم اعتقلوه في حوادث خمس وأربعين (1945) وأخرجوه من بيته مكبلا بالسلاسل والقيود التفت إلى الجماهير الحيراء المبتلة الأجفان قائلا: "لا تفشلوا ولا تهنوا يد الله فوق أيديهم" قالها بكل قوة ، والجيش الفرنسي محيط به مدجج بأفتك الأسلحة.

إن شخصية الشيخ جمعت بين خصال أهلتها لاحتلال مكانة مرموقة في دنيا الإصلاح فبالإضافة إلى الفهم العميق للإسلام والإدراك الصحيح لمراميه والقدرة العجيبة على استنطاق نصوصه واستخراج ما فيها من أحكام وحكم ، فإنه ثوري الفكر يأنف من الجمود ، ويبغض التحجّر والتّزمت ، ويمضي مع روح الشريعة السمحة مسايرا آفاقها الرحبة في مراعاة التوفيق بين النص وبين مجريات الأحداث الحاضرة.

ولقد كان الشيخ خطيبا مسقعا وكاتبا مجيدا وناقدا بصيرا وفقيها متضلعا ومؤرخا محيطا كما سيبدو لك من خلال قراءة كتابه هذا. إلى جانب ذلك فإن له نظرات سياسية تتسم بعمق وإستعاب الأحداث والربط بينها ربطا محكما. وأن الشيخ إذا تلمسنا أبرز صفاته النفسية ، أو قل إن شئت وجه الإعجاز في هذه الشخصية ، فإننا نجد أنّ ترفعه وعفافه وتساميه عن المادة شكل أبرز مميزات شخصيته.

ومن حقك قارئي العزيز أن تسأل عن بعض أنشطة هذا الرجل ، والجواب ليس سهلا ولا ميسورا كما تتصور نظرا لتشعب هذه الأنشطة ، ويكفي أن نقول أنّه أحيى أسقاعا كثيرة من هذا القطر في مقدمتها عزابة وميلة وسوق أهراس وغيرها. وكانت هذه الأنشطة تتضمن دروسا وخطبا

وتأليف مسرحيات ، والإشراف على نشاطات الرجال والنساء معا. ذلكم هو شيخنا الإمام صاحب هذا الكتاب الذي نقدمه لك أيها القارئ الكريم وإنه لن يكمل التقديم حتى نطل إطلالة خفيفة على هذا السفر الجليل الذي يضاف إلى الذخيرة القيمة من كتب السيرة النبوية والذي سيسد فراغا في المكتبة الإسلامية.

إن طبع هذا الكتاب ليس معناه اجترار ما قيل في كتب السيرة ولكنه كتاب قد يعين الكثيرين على فهم السيرة وحل طلاسمها وإلقاء الضوء على كثير من الجوانب الغامضة في هذه السيرة. والكتاب سلسلة دروس ألقيت في مسجد **ميلة** ، وأنت حين تقرؤها ستلاحظ أنها تتسم بالصبغة التعليمية ممّا يجعلها قريبة من الإفهام ، بسيطة المبنى عميقة المدلول والمعنى.

و أن كتب السيرة التي بين أيدينا قد اتخذ أصحابها مناهج متعددة والتقصي في رواية الأخبار ونسبتها إلى أهلها مثل ابن إسحاق وابن هشام وما إليهما وآخرون انساقوا مع المدح وألفوا كتبا عرفت بالمولديات كالبزنجي وغيرهم. وآخرون مزاعم خصوم الإسلام وأعداؤه مثل العقاد ومحمد حسن هيكل وغيرهما. ومن هؤلاء من منح منحا أدبيا في هذه السيرة مثل طه حسين "على هامش السيرة". فأين مكانة شيخنا من هؤلاء وما هي مميزات كتابه الذي نحظى بشرف تقديمه للجمهور ؟

إن كتاب الشيخ حين يعالج السيرة النبوية لا يسلك طريقة السرد الجاف ، بل يأتيك بالمشهد من هذه السيرة محققا مدققا مضبوطا شكلا ومحتوى. ثم حين ينتهي من كل ذلك يستخرج من هذا المخرج ما ينطوي عليه من قضايا فقهية ومسائل شرعية ، ويوغل في ذلك إيغالا تشعر معه أن الرجل قد انقلب فقيها متمحصا للفقه ، ولكن سرعان ما تجده يعود بك إلى التاريخ القديم يستجلي غوامضه ، ويسبر أغواره. فتوقن أن الرجل متخصص في التاريخ ولا شأن له بشيء آخر. وتفاجأ بالرجل يقف بك أمام المفردات اللّغوية فيحققها ويضبطها ويأتيك بأوزانها وأشباهها ونضائرها ،

وما تنطوي عليه من معان ، ويضع أمامك الشواهد التي تدل على ذلك فتحكم مطمأنا حازما بأن الرجل لغوي يقضي حياته بين كتب سيبويه والخليل. ويتملكك العجب حينما تجده يستخلص من المشهد بعد ذلك العبرة التي يرمي من ورائها إلى إصلاح المجتمع وتطهيره من المثالب التي تنخر كيانه. ذلكم هو أسلوب الشيخ في هذا الكتاب ، لا يريم عنه ولا يحيد. وقليلون الذين صنعوا مثل هذا الصنيع مع السيرة المطهرة. ولن نحرجك أيها القارئ بإيراد نماذج وأمثلة على ما ذكرنا ، بل نتركك تدخل بنفسك هذه الروضة الشيقة تنشق نسيمها الندي ، وتنعم بزهرها الزكي وتتملى من باهر أنوارها.

و لا يخامرنا شك في أنك واجد أكثر مما قلنا ومستفيد فائدة تطلق لسانك حتما بالدعاء لهذا الشيخ. ونريد أن ندفع وهمًا ربّما يطوف بخيالك وأنت تتصفح الكتاب ، فتظن الشيخ قد وقف حياته على دراسة السيرة ، بل أن للشيخ آثارا أخرى لا تقل نفاسة عن هذا الأثر ، له أمالي في التفسير ، وله أحاديث اجتماعية في مختلف المواضيع ، وله مجموعة من خطب الجُمع هي في غاية الجودة والنفاسة ، بالإضافة إلى مذكراته الخاصة التي ما تركت شاردة ولا واردة إلاّ أحصتها.

و لعل التوفيق يحالف أسرته الكريمة فتطبع باقي الآثار حتى يعمّ النفع بها ، وتكون إسهاما قيما في إذكاء جذوة الصحوة الإسلامية وتعديل مسارها ، وإعطاء القائم عليها زادا جديدا يدفعهم قدما إلى الأمام. وإني وأنا أكتب هذه السطور أرى نفسي مدينا لأسرته بالشكر الجزيل على الثقة التي أولوني إياها لتقديم هذا الكتاب واصطفائهم لي من بين تلاميذه العديدين لأنال هذا المجد الذي لم أكن أحلم به.

و الله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب وبباقي كتب الشيخ ، وأن ينزل على شيخنا شئابب الرحمة ، وأن يلهمنا من بعده التوفيق حتى نسير على دربه ، ونهج نهجه إلى أن نلقاه عند رب العالمين.

الشيخ عبد الرحمن العائب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بجميع محامده حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، اللّهم صلّ وسلّم وبارك على من أرسلته رحمة للعالمين سيّدنا محمد النبي الأمي العربي القرشي الهاشمي. وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان ومن تبعهم إلى يوم الدين وبعد...

فهذا تقييد للدروس الواقعة بالمسجد الجامع بميلة الجديدة ، خاصا بما كان منها في موضوع السيرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام منقول الأصل من كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية تأليف الإمام عليّ بن برهان الدين الحلبي ، وكتاب السيرة النبوية والآثار المحمدية تأليف الشيخ أحمد زيني دحلان رحمهما الله ، وربما كان ذلك النقل تارة بالمعنى أي بتصرف في اللفظ بما لا يخرج عن أصل المعنى. وتارة بنص العبارة اللفظية مضافا إليه بعض التعاليق بما هو كالشرح لكلام الأصل أو بما فيه زيادة فائدة في الموضوع. أو دعت إليه المناسبة من موضوع آخر. نقلا من مؤلفات العلماء وأقوالهم بنص اللفظ أو بمعناه وربما كان ذلك مما فتح الله به من الفهم الخاص.

نقلت هذه الدروس في هذا التقييد كالترجمة للواقع في إلقائها عند أداء الدرس حيث كان الإلقاء بلغة العامة الدارجة وذلك لغرض حفظ الذكريات وتسهيل المراجعة والمطالعة والتدرب على ما يشبه النظام في العمل. ولعل أن لا يعدم منه نفع ما ولا تفقد منه فائدة على العموم. وبالله التوفيق وهو المستعان.

حرر افتتاحه بميلة يوم الإثنين الثامن والعشرين ذي القعدة الحرام عام ستة وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية ، الموافق للثالث عشر أكتوبر سنة سبعة وأربعين وتسعمائة وألف من الميلاد المسيحي.

الدرس 1

بمناسبة غرّة شهر ربيع الأول (ذكرى وتذكار) "مولده عليه الصلاة والسلام" (رحمة الله بعباده) من رحمته سبحانه بعباده هدايتهم وتلك الهداية هي بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع.... آيات: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ... ﴾ - ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ... ﴾ إلخ... وغيرها من الآيات. ومن حكمته تعالى أن جعل الرسل من جنس المرسل إليهم...آية: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾. (سورة الإسراء)

تعريف الرسول، تعريف النبيّ:

[جاء في كتب العقائد الاصطلاحية تعريف الرسول بأنه شخص من بني آدم أوحى الله تعالى إليه بشرع وأمره بتبليغه لغيره أي من الناس وعرف النبي بأنه كذلك فرد من بني آدم أوحى الله تعالى إليه بشرع ولم يأمره بتبليغه لغيره].

و المعروف أن الرسالة- وكذا النبوة- لم تكن في غير جنس الذكور... ويقول صاحب بدء الآمال: "ولم تكن نبيا قط أنثى ولا عبد...إلخ". وقيل بنبوة **مريم***.... وآسية* امرأة فرعون... وأم **موسى***.. ، من دلائل القول الأول أن كثيرا من الآيات وصفت الرسل بالرجال.....: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ -(سورة يوسف) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ -(سورة النحل) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. (سورة الأنبياء)

ومن دلائل القول الثاني ما جاء من الآيات التي تفيد أن الله أوحى (وخاطب) إلى كلّ من السيدات المذكورات، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران). ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ... ﴾ (سورة التحريم). ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... ﴾. (سورة القصص).

كمال الرسل الخَلقي والخُلقي :

لم يبعث الله رسولا إلا وهو كامل الخَلق حسن الخُلق صح هذا نقلا كما هو مفهوم نظرا لأنه محل القدوة للخلق والقائم بحجة الله عليهم....

{الرسل ذوُو أحساب وأنساب في قومهم}

آية التوبة: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾. في بعض القراءات **أنفَس*** بصيغة أفعل التفضيل، بمعنى من أنفس الأنساب والأحساب وأعزها وأرفعها وأكرمها، أنفسُ شيء أحبُّه، وشيء نفيس يُتنافس فيه أي يرغب فيه. ونَفُسَ الشيء (كَظَرُفَ) صار مرغوبا فيه. ونَفِس بالشيء (كَعَلِمَ) ضَنَّ[1] به لعزته ونافَسَ في كذا منافسة ونِفاسًا بمعنى رغب فيه على وجه المباراة في الكرم. والحَسَبُ* (بفتحتين) ما يعدُّ من مفاخر الآباء.... وقيل الحسب هو الدّين (وما يرجع إلى الأخلاق) وقيل بل هو راجع إلى المال (أي متحصل المادة)... ونقل عن **ابن السكيت***: الحسب والكرم يكونان بدون الآباء. والشرف والمجد لا يكونان إلاّ بالآباء، ومما جاء من سؤال **هرقل *لأبي سفيان*** في شأنه -عليه الصلاة والسلام- "أهو ذو نسب فيكم؟ " فأجاب أبو سفيان بنعم.

---

[1] ضن*: هذا الفعل يرسم بالضاد المعجمة غير المشالة فرقا بينه وبين الظن الذي بالظاء المشالة الذي معناه الحسبان وهذا الذي بالضاد معناه البخل ومعناه التمسك بالشئ لعزته وهو مفتوح العين في المضارع ويستعمل كسرها أيضا فيقال ضنّ يضِنّ بفتح الضاد وبكسرها والمصدر الضن بالفتح والكسر والضنة بالكسر والضنانة بالفتح.

"اللسان والبيان في رسالة الرسل":

كما كان الرسل من جنس المرسل إليهم فلسانهم كذلك أيضا بحسب من أرسل إليه ليحصل البيان وتقوم الحجة...آية: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ... ﴾. (سورة إبراهيم).

عدد الرسل:

من جاءت أسماؤهم في آية الأنعام ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ ... ﴾ وهم ثمانية عشر ويزاد على ذلك ما جاء في القرآن في غيرها وهم سبعة ، فيكون مجموع ما جاء في القرآن مصرحا باسمه كرسول أو نبي خمسة وعشرين (و هم حسب ترتيب الآية المذكورة): إبراهيم ، إسحاق ، يعقوب ، نوح ، داود ، سليمان ، أيوب ، يوسف ، موسى ، هارون ، زكرياء ، يحيى ، عيسى ، إلياس ، إسماعيل ، اليسع ، يونس ، لوط ، (والباقي في غيرها) آدم ، إدريس ، هود ، صالح ، شعيب ، ذو الكفل ، محمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

و ما جاء من عدد ثلاثمائة وبضعة عشر - ثلاثة عشر أو أربعة عشر أو خمسة عشر - في الرسل - ومائة ألف وأربعة وعشرين ألفا في الأنبياء - لم يقم دليل على صحته بل في القرآن ما ينافيه ، آية النساء: ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ ... ﴾ وآية غافر: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ ﴾

الأمة العربية:

مادة: (ع.ر.ب) من معانيها الإفصاح والبيان ومما جاء في تفسير "عُرُبًا أَتْرابًا" في نساء أهل الجنة أن العَروب هي حسنة الكلام وقد قيل أن "عرب" مصحف عن "غرب" (بالمعجمة) مغرب الشمس بالنسبة إلى قارة آسيا (و آسيا إذ ذاك هي التي تمثل المعمورة والعالم الأرضي كله).

الدرس 2:

أقسام العرب[1]

إصطلح علماء التاريخ على تقسيم أمة العرب إلى ثلاثة أقسام:

1. العرب البائدة وهي التي بادت قبل ظهور أزمنة التاريخ وكانت في العصور السالفة ولم يبق من آثارها اليوم إلاّ بعض أخبارها.

---

(1) و قد جاء لبعض من ألف في السيرة من العلماء تقسيم العرب كما يأتي:

الطبقة الأولى: تسمى العرب البائدة وتسمى العرباء وتدعى العاربة الأولى. وهم شعوب متعددة وأبوهم هو أرم*بن سام ابن نوح عليه السلام ومنهم عاد وثمود وجرهم* الأولى وغير ذلك. انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل* و مساكنهم باليمامة*.

الطبقة الثانية: تدعى العرب العاربة الثانية وربما سميت المتعربة وأبوهم جرهم بن قحطان بن عابر - على أن عابر هو هود عليه السلام - ومواطنهم باليمن ومنهم بنو سباء*بن يشجب*بالشين المعجمة والجيم بوزن يفعُل مضموم العين. إبن يعرب* بفتح الياء وكسر الراء بن قحطان. وكان هؤلاء أهل حضارة وملك ومنهم التبابعة باليمن والمناذرة ملوك "الحيرة"* حوالي العراق. والغساسنة بالشام وجرهم الذين تعلم العربية منهم إسماعيل* عليه السلام وتزوج منهم و ولّوا بعده ولاية الحرم المكي من هذه الطبقة.

الطبقة الثالثة: هي التي تعرف بالعرب المستعربة وهم أولاد إسماعيل عليه السلام قيل فيهم المستعربة لأن أباهم إسماعيل عليه السلام لم يكن عربيا أصالة أي لم يكن لسان أبيه العربية.

ما تقدم ذكره مما يفيد أن بني قحطان من العرب هم عنصر مقابل للعنصر الآخر الذي ينتسب إلى إسماعيل عليه السلام هذا هو المشتهر الذي درج عليه الأكثر من المؤلفين في الأخبار والسير ولكن يوجد ما يخالفه وهو رأي من يرى أن العرب الذين جاء الإسلام وهم قائمون بموطنهم (جزيرة العرب) بما فيهم سكان اليمن وغيرهم هؤلاء كلهم نسبهم ينتهي إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام. ويظهر مبنى هذا الخلاف في نسب قحطان فالذي مشى عليه الفريق الأول الذي يرى العرب عنصرين يجعل قحطان متقدما على إسماعيل وينسبه إلى أنه من ولد هود عليه السلام. كما ينسبه آخرون إلى نوح عليه السلام (أي من غير عمود هود). وهذا هو ما يتراءى مشتهرا في الأخبار وكثر تداوله في المؤلفات. أما الفريق القائل بأن العرب (أي الجيل الذي كان قائما حين البعثة المحمدية) كله من ولد إسماعيل بما فيه أولاد عدنان وأولاد قحطان فهو ينسب قحطان إلى إسماعيل على أنه الولد الرابع في سلسة بني إسماعيل (أي أن إسماعيل عليه السلام هو الجد الثالث لقحطان. وهذا الرأي الأخير و-إن لم يشتهر تداوله- إلا أن عدة من أئمة هذا العلم يرون أنه المعتمد في الباب ولهم على ذلك استدلالات).و على كل حال فالملاحظة على هذا أن البعد في الزمان سحيق والاشتباه في أسماء القبائل والقاب الأجداد كثير الوقوع متشعب غاية التشعب. فيطلق مثلا - اسم قحطان أو لقمان أو غيرهما على شخص في زمان ثم يطلق نفس الاسم على آخر في زمان متأخر بقرون عن الأول فمن هذا يتعين الأخذ بالتحفظ في مثل هذا الموضوع. (فالله أعلم بحقيقة ما هنالك).

2. العرب العاربة ويقال العرباء أي الخالصة ، وهي التي منها أمم عاد وثمود...... وكنعان.. والتبابعة والفراعنة وغيرهم....

3. العرب المستعربة ويقال المُتَعَرِّبَةُ وهم نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ومنهم العدنانيون [1] الذين منهم قريش قوم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم زيد في أقسام العرب -أخيرا:

4. العرب المستعجمة (وذلك بخصوص النظر إلى حالتهم الاجتماعية والسياسية) التي طرأ عليها ضعف وانحطاط في الجملة ، ويظهر ذلك -جليا- فيما بين القرن الخامس للهجرة والقرن الحالي الرابع عشر.

5. واليوم العرب العائدة للنهضة الجديدة... ، فالسائدة (بحول الله)...غدا....

هنا قصة إبراهيم * عليه السلام في نقله ولده إسماعيل * وأمّه هاجر * (عليهما السلام) من أرض الشام إلى أرض الحجاز... [2].

و جاء في الأخبار أن إسماعيل عليه السلام اشتهر بالصيد والفروسية بركوب الخيل...... والرماية.... [3].

---

(1) و قد اشتهر من ولد نزار بن معدّ بن عدنان أربعة شعوب كبيرة هم: إياد * وأنمار * وربيعة * ومضر * وكانت الكثرة والغلبة في الحجاز لمضر.

(2) تظافرت عامّة الأخبار التاريخية على أنّ إبراهيم عليه السلام كان بأرض فلسطين مع زوجتيه سارة * الزوجة الأصلية وهاجر الأمة القبطية المصرية وهي التي ولدت له إسماعيل. ثمّ أنه نقل - بوحي من الله تعالى إليه - هاجر وابنها إسماعيل إلى الحجاز بوادي مكّة الذي كان مكانا قفرا فأسكنهما به لما يريده الله تعالى من الشأن والعمارة لهذا المكان المقدس. فدرج إسماعيل عليه السلام بالحجاز وعاشر القوم الذين كانوا به وهم قبيلة جرهم وتزوّج منهم.

(3) يكفي مما جاء في الخيل في الإسلام الآية: ﴿و من رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾ فيما يدخل في القوّة والعدّة وقد جاء من الأخبار: «حق الولد على الوالد أن يعلّمه الكتابة والسباحة والرمي» ، ورواية: (من تعلّم الرمي ثمّ نسيه فهو نعمة جحدها). وجاء من الأحاديث قوله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه (و كانوا في حالة تدريب على الرمي): «أرموا بني إسماعيل فإنّ أباكم كان راميا...» وقوله صلّى الله عليه وسلّم أيضا: «أرموا وأنا مع بني فلان!؟ »... فأمسك

كما ورد أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح وهي الرواية الراجحة عند كثير من العلماء. وممّا جاء مأثورا في هذه المسألة عن عمر بن عبد العزيز* (رضي الله عنه) أنه سأل رجلا من علماء اليهود بعد ما أسلم عن الذبيح من ولدي إبراهيم من هو؟

فقال: "إنه إسماعيل... واليهود يعلمون ذلك حق العلم وإنما حرفوا ذلك إلى القول بأنه إسحاق* -فيما حرفوا- حسدا لكم معشر العرب!" ومما استدل به بعض العلماء المرجحين لكونه إسماعيل كون الذبح وقع بمنى- من الحجاز -(وإسحاق لم ينقل إلى الحجاز)، وورد أيضا أن إسماعيل عليه السلام كان رسولا إلى جرهم* كما أرسل إسحاق إلى أهل الشام، ويعقوب* إلى كنعان*.

الفريق المقابل لهم عن الرمي فقال صلّى الله عليه وسلّم لهم: ما بالكم؟ قالوا كيف نرمي وأنت معهم؟ (و في لفظ)... إذن ينضلوننا!! فقال صلّى الله عليه وسلّم: ارموا وأنا معكم جميعا (كلكم). وفي رواية: فرموا عامّة يومهم ثم تفرقوا على السواء ما نضل بعضهم بعضا.

الدرس 3

نسب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

المعروف في نسبه صلى الله عليه وسلم هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان. ومن جهة أمّه: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم بن مرة بن كعب....إلخ. فتجتمع معه صلى الله عليه وسلم في عمود نسبه للأب في حكيم الجدّ الخامس له صلى الله عليه وسلم والثالث لها.

جاء في النقل عن عائشة *رضي الله عنها قولها: ما وجدنا أحدًا يعرف ما وراء عدنان إلاّ تخرصا...(**التخرص*** أي القول بمجرد الظن. وقد جاء إطلاق الخرص على نفس الكذب).

مآثر هؤلاء الآباء الكرام

- عبد الله أبوه صلى الله عليه وسلم:

ورد في الأخبار أن جدّه صلى الله عليه وسلم عبد المطلب أُلْهِمَ إلى حفر بئر زمزم [1] (أي الكشف عنها) برءيا منامية رآها. ولما انتدب لهذا العمل كان يلقى مشاغبة من بعض سفهاء قريش ورعائهم فنذر نذرا على نفسه إن رزق عدة من الولد (معلوم أن المراد بالولد هنا خصوص الذكور) يعينونه على أموره ويدفعون عنه أذى من يريده بأذى لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة قربانا...!

وقيل بل سبب ذلك تعيير **عدي بن نوفل** * بن عبد مناف له بالقلَّة (أي قلة الولد)(وعدي هذا هو أبو المطعم * أحد رءوس كفار قريش الذي يمتاز عن زملائه بموقفه السمح مع الرسول صلى الله عليه وسلم كما ستأتي الإشارة إليه).

وقد حقق الله أمل عبد المطلب وأجاب رغبته فَرُزِقَ عددًا وافرًا من

---

(1) وذلك لأن بئر زمزم بعد ما كانت تعمل من عهد إسماعيل عليه السلام إلى آخر أيام جرهم الذين ولوا ولاية البيت الحرام بعد إسماعيل عليه السلام تعطلت فقد طمّها أي دفنها مضاض (بضم الميم وكسرها وبضادين معجمتين بالتخفيف) بن عمرو بن الحرث آخر رئيس لجرهم على مكة وهو المعروف بالأصغر ومضاض الأكبر * هو أول من ولي أمر مكة من جرهم وهو أبو زوجة إسماعيل عليه السلام... وإنما طم بئر زمزم مضاض بن عمرو عندما أيس من صلاح قومه وعلم أنهم سائرون إلى الاضمحلال وتقلص ظل دولتهم بما أكثروا من الفساد والظلم. فكان يقوم فيهم خطيبا يعظهم وينذرهم سوء مغبة ما هم مصرون عليه من الانحراف عن جادة الحق فلا يجدي فيهم ذلك شيئا. فلما رآى ذلك انسحب منهم راجعا إلى اليمن بعدما طمّ بئر زمزم وأدفن فيها مواد ثمينة من قطع ذهبية بصورتي غزالتين وأسياف ودروع وغير ذلك ، وبعد انسحاب مضاض قامت خزاعة على جرهم فأزاحوهم عن ولاية البيت وطردوهم من الحرم. ورجعت ولاية مكة لخزاعة حتى انتزعها منهم قصي الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم. وطوال تلك المدة كانت زمزم مطمومة حتى كشف عنها عبد المطلب واستخرج ذلك المال الذي دفنه مضاض بزمزم. وورد أنه ضرب الغزالتين الذهبيتين صفائح حلى بها باب الكعبة.

الأولاد: عشرة أو اثني عشر [1]. وكان منهم عبد الله أبو الرسول صلى الله عليه وسلم جميلا وضيئا وسيما يمتاز بجمال الخَلْقِ والخُلُق مع زيادة في خلق العفة وعلوّ الهمة [2].

فتذكر عبد المطلب نذره ، أو ذكِّر الوفاء به برءيا منامية أيضا فأقرع بين أبنائه أيّهم وقعت عليه القرعة نحره قربانا وفاء لنذره!! فوقعت القرعة على عبد الله! وصدق عزمه فأخرجه إلى الحرم وكاد يمضي في فعله لولا إجماع أهل الرأي من قومه على منعه من ذلك وحيلولتهم دونه... فقالوا نخشى أن تبقى فينا سنة متبعة: يقوم الرجل في مثل واقعتك فينحر ابنه!!! ومازالوا به يرونه وجوه المخرج الكافي في الوفاء بنذره...

و من ذلك الفتوى ممن يستفتونه في مثل هذه الشئون [3] حتى كان من أفتى عبد المطلب بالفدية وهي عدة من كرام الإبل...(عشرة) يقرع عنها فإن خرجت القرعة عليها فدي بها الابن ونحرت عنه وإن خرجت القرعة على الولد زيد لها مثلها فتصير عشرين وتعاد القرعة وهكذا يزاد عليها بقدرها الأول حتى تخرج القرعة على الإبل...

و صنع عبد المطلب بمقتضى هذه التعاليم في الفتوى ولازالت القرعة تقع على عبد الله فيزيد عدة الإبل حتى بلغت [4] ثلاثمائة ناقة وقعت القرعة

---

(1) اختلفت الروايات في عدة أولاد عبد المطلب من الذكور. فجاء أنهم عشرة. وجاء أنهم اثنا عشر. وجاء أنهم ثلاثة عشر وجاء في الإناث أنهن ست.

(2) وأم عبد الله هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم* بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب...إلخ.
وهي أكثر زوجات عبد المطلب أولادا لأن عبد المطلب تزوج نحو أربع زوجات في آن واحد.

(3) و الذين يستفتون في مثل هذه الشئون هم الكهان. فورد أنّ من أفتى عبد المطلب في نازلته هذه هي كاهنة كانت بمدينة خيبر*.

(4) قيل أنّ الصحيح هو ما جاء من الروايات يفيد أنّه لمّا بلغت الإبل مائة خرجت القرعة عليها. وإنما زاد عبد المطلب - احتياطا منه - أن أعاد الاقتراع إلى ثلاث مرات وقعت القرعة فيها كلها على الإبل.
و لما نحر الإبل خلى بينها وبين من يأكل من إنسان وغيره كالوحش والطير وغير ذلك.

عليها فنحرها عبد المطلب فداء لولده عبد الله ومن ثم دعي عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم بالذبيح. وقد جاء فيما جاء من الروايات عنه صلى الله عليه وسلم أن أعرابيا كان يستجديه (أو يسأل منه شيئًا) دعاه بقوله: " يا ابن الذّبيحين ". (يقال على هذا أن التاريخ أعاد نفسه في عبد المطلب وابنه عبد الله فحاكى الأول أباه إبراهيم وحاكى الثاني أباه إسماعيل (س. س)!؟

- **عبد المطلب**[1] اسمه شيبة ويدعى شيبة الحمد. ويلقب بالفيّاض لجوده. وإنما قيل عبد المطلب لأن عمه **المطلب بن عبد مناف*** كان مردفه يوما وهو بحالة رثة فاستحيا أن يقول ابن أخي، فمن سأله عنه قال عبدي. فلما قدم مكة أعلن الحقيقة وصار يقول لمن يدعوه عبده: " ويلك إنما هو شيبة ابن أخي هاشم " (لأن هاشما مات وخلف عبد المطلب يتيما فكفله المطلب). ولعبد المطلب مناقب ومآثر عديدة لا توجد إلاّ لأعاظم الرجال... فمما جاء فيه (من الأخبار) أنه ممن حرّم الخمر على نفسه. وأنه هو الذي حدد مقدار الدية، وسنّ قطع يد السارق ونهى عن الموؤودة وعن الطواف بالبيت عاريا... ومنها أنه ممن هداه الفكر والنظر إلى إثبات البعث وأنَّ ثمَّ وجودا آخر يستوفي فيه صاحب الحق حقه وينتصف المظلوم ممن ظلمه...إلخ.

- **هاشم***:[2] اسمه عمرو ويقال عمرو العلاء وإنما دعي هاشما لأنه أطعم الثريد في المجاعة وفيه يقول القائل: «عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مرملون عجاف». وهو توأم أخيه عبد شمس. قيل وُلدا

---

(1) و أمّ عبد المطلب هي سلمى* بنت عمر من بني عديّ بن النجار* من قبيلة الخزرج* القحطانية ومساكنهم بالمدينة. ويؤثر عن أم عبد المطلب هذه بأنها كانت ذات مكانة بارزة في الشرف. جاء ما يفيد أن عبد المطلب كان عند أمه بالمدينة وذلك بعد وفاة أبيه هاشم فقدم عمه المطلب وألح عليها أن تسلمه له ليكفله ففعلت بعد امتناع أول مرة وهنا أردفه لما كان راجعا به إلى مكة.

(2) و أمّ هاشم هي عاتكة بنت* مرة السُلَميَّة من بني سليم* (بصيغة التصغير) ابن منصور من قبائل قيس عيلان* بن مضر

ورِجْلُ هاشم ملاصقة بجلدةٍ لجبهة عبد شمس فلم يمكن فصلهما إلا بعملية جرح! فكانوا يقولون إنه سيقع بينهما دم. فكان ذلك في أعقابهم بني أمية وبني هاشم، لأن عبد شمس* هو والد أمية. وأبناء عبد مناف أربعة هاشم وعبد شمس التوأمان و**نوفل*** والمطلب. وكانوا يدعونهم بأقداح النضار (أي الذهب) لحسنهم وجمالهم. قيل وكان هاشم على السقاية والرفادة.

- **عبد مناف**[1] اسمه المغيرة ويلقب بقمر البطحاء لحسنه وجماله. ومناف قيل اسم صنم لمناة.

- **قصي** قيل اسمه زيد أو يزيد. وإنما دعي قصيا لأنه قصيى عن قومه بعد موت أبيه مع أمّه[2] إذ تزوجت ربيعة بن حزام*[3] العذري بالشام. جاء أنه عيّره البعض بهذا حينما كان عند أمّه فشكا لأمّه ذلك فأخبرته خبره وأنه من قريش بمكة فشخص إلى مكة مع حِجاج **قضاعة*** وتزوج بنت حُليل الخزاعي أمير مكة إذ ذاك. ثم بعد موت حليل أزاح*[4] يد خزاعة عن ولاية مكة وأعانته على ذلك قضاعة بواسطة أخيه للأم.

فنظم قريشا وجمعها بعد تفرقها. ولذلك كان يدعى بالمجمع. وقال

---

(1) وأمّ عبد مناف هي حُبّى* بضم الحاء المهملة بعدها باء موحدة تحتية مشدّدة ثم ألف مقصورة. بنت حليل* بضم الحاء المهملة بصيغة التصغير. إبن حُبْشِيَّة* وهو آخر أمير على مكّة من قبيلة خزاعة* ابن عمرو من قبائل قمعة ابن إلياس بن مضر.

(2) وأمّ قصي هي فاطمة بنت سعد* ابن سيل من قبيلة أزد* شنوءة من قبائل اليمن.

(3) جاء رسم حزام بالزاي المعجمة في بعض كتب السيرة كالحلبية ورسم في بعض كتب أخرى حرام بالراء المهملة.

(4) ورد من خبر زوال ولاية خزاعة* على الحرم أنه كالحال في سابقيهم قبيلة جرهم الذين كانوا ولاة عليه قبلهم ثم لما أفسدوا وطغوا وبغوا ذهب الله بهم وأجلاهم عنه بيد خزاعة الذين خلفوهم فكذلك خزاعة لما أفسدوا وظلموا وجاروا وبدلوا وغيروا قام عليهم قصي في قريش فقضى على ولايتهم وولي هو أمر الحرم، وكان ذلك فيما يذكر من التاريخ أنه في السنة الأربعين و الأربعمائة بعد الميلاد المسيحي و سنه إذ ذاك أربعون سنة. و بولاية قصي للحرم آلت هذه الولاية لقريش حتى جاء الإسلام. و يذكر عن ولاية جرهم أنها كانت شبه تغلب فإن أولاد إسماعيل (س) لم ينازعوهم فيها—مع أنهم أحق بها- تفاديا من الهرج في الحرم و مراعاة للخؤلة فقد كانت جرهم هم أخوال بني إسماعيل (س).

فيه شاعرهم [1] : «أبوكم قصي كان يدعى مجمعا* به جمع الله القبائل من فهر».

وقصي هو الذي بنى دار الندوة مجلس أعضاء الشورى في الأمور العامة.

و كانت قريش* على قسمين: قريش البطاح وهم ساكنو دواخل الحرم ، وقريش الظواهر وهم من كان يسكن خارج الحرم (و الأولى عندهم أشرف).

و قد حاز قصي كل وظائف الشرف التي لقريش البطاح ، وهي السقاية [2] ، والرفادة* و الحجابة واللواء والقيادة والندوة. وكان له ثلاثة أبناء:

1- عبد الدار* (و هو أكبرهم).

2- عبد مناف* (و هو أشرفهم).

3- المطلب* (و هو يلي عبد مناف في الشرف).

فعهد قصي بجملة تلك الوظائف لعبد الدار إلحاقا له بأخويه في الشرف. ثم بعد موت عبد الدار وعبد مناف ثارت الخصومة بين أبنائهما على نيل تلك الوظائف. فكان بنو عبد مناف وأحلافهم فريقا. (و يدعون

---

(1) قيل هو حذافة بن غانم* لما أخذه ركب من قبيلة جذام* فأوثقوه برجل فقدوه منهم حول ديار مكة فمر به عبد المطلب مع ابنه أبي لهب بعد ذهاب بصره فلما رآه حذافة هتف به ففداه عبد المطلب من أيديهم بمال التزم به لهم فلما أطلقوه أردفه عبد المطلب على راحلته حتى دخل به مكة فامتدح عبد المطلب بقصيدة منها هذا البيت ومطلعها: « بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه* يضيء ظلام الليل كالقمر البدر».

(2) المراد "بالسقاية" ما كانوا يصنعون من مناولة الحجاج الشرب وربما جعلوا مع الماء زبيبا ونحوه ، والرفادة هي إطعام الحجاج وبالأخص من كان محتاجا منهم. وأصل هذه المادة في اللغة راجع إلى العطاء والعون وما في هذا المعنى.

و "الحجابة" هي ولاية مفتاح البيت ، و"اللواء" هو الذي يحمل في الحرب. وكذلك "القيادة" هي قيادة الجيش في الحرب. وربما قيادة القافلة ولو في غير الحرب كقافلة التجارة. و"الندوة" المراد بها الدار التي يقع فيها اجتماع ذوي الرأي للمداولة في الشئون العامة والمهمة ومن معاني مادة (ندا) الاجتماع.

بالمطيبين)[1] و بنو عبد الدار وأحلافهم فريقا (و يدعون لعقة الدم)[2]. وأجمعوا على الحرب ثم وقع الصلح على أن السقاية والرفادة والقيادة تكون لبني عبد مناف والحجابة واللواء لبني عبد الدار. وأن دار الندوة تكون بينهما على الاشتراك.

فورث هاشم السقاية والرفادة، ثم ورثها منه ابنه عبد المطلب ثم ورثها أبو طالب فأملق فيها، فأسلمها لأخيه العباس.

و ورث عبد شمس* من أبيه عبد مناف القيادة فورثها بعده ابنه أمية* ثم كانت في بنيه. وبحكم هذه الوراثة كانت الحجابة لبني شيبة* (لأنهم من بني عبد الدار).

- **حكيم**: يدعى كلابا. قيل لأجل محبته للصيد[3].

ورد أن أعرابيا سئل" لم تسمّون أبناءكم بالأسماء المكروهة وتسمون مواليكم بالأسماء الحسنة؟ "(وذلك لأنهم يسمون الأبناء بمرة، وحرب وحنظلة وعلقمة...إلخ، ويسمون الموالي برباح ونجيح وسالم ويسار...ونحو ذلك.

فأجاب الأعرابي بقوله: " نسمي أبناءنا لأعدائنا ونسمي موالينا لأنفسنا"....!

---

(1) دعوا "بالمطيبين" لأنهم لما تحالفوا وتعاقدوا جعلوا علامتهم أن يغمس الواحد منهم يده في الطيب ويتمسح به فقد وضعوا جفنة مملوءة بالطيب لأجل هذا وقد تكوّن حلف المطيبين من خمس قبائل من قريش هي: بنو عبد مناف- وبنو زهرة- وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو تيم بن مرة وبنو الحرث بن فهر.

(2) دعوا "بلعقة الدم" لأنهم جعلوا العلامة والشعار بينهم أن يقوم الواحد منهم فيغمس يده في الدم ثم يلعق أصابعه منه. وقد جعلوا لهذا جفنة مملوءة دما من جزور نحروه.

و قد تكوّن حلف لعقة الدم هذا من خمس قبائل من قريش أيضا هي: بنو عبد الدار وبنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جُمَح وبنو عدي بن كعب. وقد جاء في كلام بعض من ألف في السيرة أن هذا الحلف المعروف بحلف لعقة الدم كان سببه الخلاف على وضع الحجر الأسود بمكانه عندما بنت قريش الكعبة وأصلح الأمر بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم.و لكن يبدو غير مأخوذ به إذ عامة من كتب في هذا الباب أورد سبب الحلفين كما ذكر أولا وهو الخلاف على وظائف الشرف.

(3) و قيل أن اسمه عروة. وأمّ حكيم هي هند بنت سرير*من بني فهر ابن مالك.

«**مرة**[1]»-«**كعب**[2]» جاء في كعب أنه كان خطيب العرب وواعظهم. يجمعهم يوم «**العروبة**»[3] (أي الرحمة) وهو يوم الجمعة فيعظهم ويرشدهم.

«**لؤي**»[4]: **غالب**[5]...**فهر**[6] و هو قريش في أكثر الأقوال. قيل فهر لقب له واسمه قريش وقيل العكس وإنما دعي قريشا لأنه كان " يقرش[7]" أي يفتش على خلة المحتاج فيسدّها بماله. وبنوه يقرشون أهل الموسم فيرفدونهم[8].

(و من معاني القرش «لغة» الكسب والجمع). وقيل اسم قريش مأخوذ من القرش[9] وهو الدابة العظيمة بالبحر تغلب جميع أسماك البحر وتأكلها...) وقد جاء في هذا قول القائل: «و قريش هي التي تسكن البحر* بها سميت قريش قريشا»

قال بعضهم: أجمع النسابون على أنّ قريشا إنما تفرقت عن فهر. وفهر هو الذي قاتل حسان بن عبد كلال* لما جاء من اليمن في جموع حمير وغيرهم يغزو مكة ليأخذ حجارة الكعبة يبني بها بيتا يحج إليه الناس باليمن ، فانهزم حسان وجيشه ووقع حسان في الأسر واستمر أسيرا في يد فهر ثلاث سنين. ثم قبل فهر منه الفداء ففدى نفسه بمال كثير فأطلقه. فلما خرج مات بالطريق. فكان هذا مما زاد في مكانة فهر

---

(1) و أمّ مرة هي وحشية بنت شيبان* من بني فهر بن مالك.

(2) و أم كعب هي مارية بنت كعب* من قضاعة*.

(3) (يوم العروبة) بفتح العين.

(4) و أمّ لؤي هي سلمى بنت عمرو من خزاعة*.

(5) و أمّ غالب هي ليلى بنت سعد* من بني هذيل*.

(6) و أمّ فهر هي جندلة بنت الحرث*من جرهم.

(7) الفعل من هذه المادة ق. ر. ش من باب ضرب ومن باب نصر.

(8) تقدم بيان معنى الرفد* وأنه العطاء والصلة والعون وهو من باب ضرب.

(9) و القرش الذي هو اسم هذا السمك بكسر القاف وإسكان الراء.

عند العرب.

و مما يؤثر عن فهر -في تربية ولده غالب وتعليمه- قوله: «قليل ما في يدك أغنى لك من كثير ما أخْلَقَ[1] وجهَك وإن صار إليك».

- **مالك** قيل دعي هكذا لأنه ملك العرب[2].

- **النضر:**[3] قيل اسمه قيس والنضر لقب له لحسنه وجماله. وهو جَماع قريش في قول الفقهاء فلا يقال في أولاد مَن فوقه قريش.

- **كنانة:** قيل دعي كنانة[4] لأنه لم يزل في كنّ من قومه. وقيل لستره على قومه وحفظه لأسرارهم وكان شيخا عظيم القدر تحج إليه العرب لعلمه وفضله. ورد في الأخبار عنه أنه كان يأنف أن يأكل وحده منفردا فإذا لم يجد أحدا يؤاكله واضطر إلى الأكل منفردا جعل يأكل لقمة ويرمي بلقمة إلى صخرة...بين يديه يضعها لهذا القصد ، قيل أنّ كنانة خلفه أبوه خزيمة على زوجته **برَّة بنت أدّ*** بن طابخة (على عادة الجاهلية: إذا مات الرجل عن زوجة خلف عليها أكبر بنيه من غيرها (بحيث أنها تورث) فولدت له النضر المذكور. وهذا الفعل هو الذي سماه القرآن فاحشة ومقتا وسبيلا سيئا ونهى عن اتباعه بآية سورة النساء: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

---

(1) أخلق من الخلوقة* وهي في الحسيّات بلى الشيء وتداعيه للانحلال والمراد هنا بالخلوقة سقوط الشرف والمساس بالكرامة على طريق المجاز.

(2) و أمّ مالك هي عاتكة بنت عدوان* من قيس عيلان* وما ذكر هنا عن مالك هذا بأنه ملك العرب إن كان يراد به الملك المعروف بالسلطان فغير ثابت إذ لم ينقل عن واحد من أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ولي الملك بالمعنى المتداول. بل أن إطلاق هذا اللقب لم يعرف - البتة- في العدنانيين عموما.... وإنما هو من عرف القحطانيين.

(3) و أمّ النضر هي برّة بنت مرّ* بن أدّ بن طابخة.

(4) و أمّ كنانة هي عوانة بنت سعد* من قيس عيلان*.و هذا التعليل للفظ كنانة -كما ذكر قبلا في مالك وكما سيذكر في البعض من بقية هؤلاء الأجداد إنما يظهر له وجه من الصحة عندما يكون مجعولا لقبا لقب به صاحبه اشتقاقا وآخذا مما قام به من الفعل أو الوصف أما ان يكون اسما شخصيا ابتداء فلا وجه لصحة هذا التعليل.

لكن أبو عثمان الجاحظ* بيَّن غلط هذا القول ووجه الخطأ فيه في خصوص ولادة النضر لأبيه كنانة من تلك الزوجة فقال:

إنّ كنانة خلفه أبوه على زوجته **برّة بنت أدّ*** بن طابخة غير أنها لم تلد لكنانة قط لا ذكرًا ولا أنثى وماتت عنده فنكح كنانة بعدها بنت أخيها وهي برّة بنت مرّ بن أدّ بن طابخة وهي التي ولدت له ابنه النضر ، قال: وإنما غلط الكثير لما سمعوا أن كنانة خلف على زوجة أبيه لاتفاق اسمي الزوجتين وتقارب النسب. قال: وهذا هو الذي عليه مشائخنا من أهل العلم والنسب. ومعاذ الله أن يكون أصاب نسبه صلى الله عليه وسلم نكاح مقت وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «مازلتُ أَخْرُجُ من نكاح كنكاح الإسلام». قال: ومن قال غير هذا فقد أخطأ وشك في خبر الرسول صلى الله عليه وسلم. المتقدم الذكر والحمد لله الذي طهّره من كل وصم تطهيرا.

- **خزيمة:**(1) قيل أنه تصغير خزمة و**الخزم*** لغة هو الجمع ، قال البعض دعي هكذا لأن نور الرسول صلى الله عليه وسلم جمع فيه...! (وقد يقال في المعنى من هذا: أنه جمع الخيرات والمزايا).

- **مدركة:**(2) قيل اسمه عمرو ودعي مدركة لأنه أدرك الفخر والعزّ في الحروب.

- **إلياس:**(3) قيل بهمزة قطع مكسورة. وقيل مفتوحة وقيل بل همزته همزة وصل بمعنى اليأس ضد الرجاء (و نسب هذا القيل للجمهور) قيل لأنه ولد لأبيه مضر بعد كبر سنه وكان له الولد الوحيد.

و قد جاء أن إلياس كان أمره عظيما عند العرب مثل لقمان الحكيم عند قومه. وكان يدعى سيد العشيرة ولا يقضى أمر ذو بال دون رأيه.

---

(1) و أمّ خزيمة هي سلمى بنت أسلم* من قضاعة.

(2) و أمّ مدركة هي خندف* (بالخاء المعجمة بعدها نون ثم دال مهملة) وقد اشتهرت شهرة عظيمة بالشرف.

(3) و أمّ إلياس هي الربابة* بنت جندة من معدّ.

و جاء أنه هو جماع قريش فلا يقال فيمن فوقه قريش ، قيل أنه أول من مات بعلّة السل. ولما مات حزنت عليه زوجته خندف حزنا شديدا لم يظلها سقف بعد موته حتى لحقت به ، حتى ذهبت مثلا: «أحزن من خندف»!.

- **مضر:**[1] قيل هو جماع قريش. فلا يقال في أولاد مَن فوقه قريش. ويقال له مضر الحمراء. كما يقال لأخيه ربيعة ربيعة الفرس. وذلك لأنهما لما اقتسما مال والدهما نزار اختار مضر الذهب فدعي مضر الحمراء، وأختار ربيعة الخيل * فقيل: ربيعة السواد وربيعة الفرس.

جاء في الأخبار أن مضر كان من أحسن خلق الله صوتا وأعذب شيء نغمة. وأنه أول من اتخذ الحُداء[2] للإبل وذلك أنه وقع يوما على يده فانكسرت وآلمته فكان يصح متألما «يا يداه! يا يداه!» فأقبلت عليه الإبل من مرعاها لحسن ما تسمع من الصوت!.

- **نِزار:**[3] مما قيل فيه أنه أول من كتب الكتاب العربي ومن الأخبار فيه أنه لما ولد كان يرى في وجهه النور النبوي ظاهرا[4] فلما رأى ذلك أبوه فرح به فرحا عظيما فأولم عليه ونحر وأطعم وقال: إن هذا كله نزر (أي قليل) بحق هذا المولود! ومن ثم قيل فيه نزار...!و جاء أنه كان أجمل أهل زمانه وأكبرهم عقلا.

- **معدّ:** قيل دعي بمعدّ لأنه كان صاحب حروب وغارات على بني

---

(1) و أم مضر هي سودة بنت عكّ *.قيل أيضا يدعى مضر لأنه كان يمضر القلوب أي يأخذها لحسنه وجماله فلا يراه أحد إلا أحبه لما كان يشاهد من نور الرسول صلى الله عليه وسلم في وجهه.

(2) الحداء: بضم الحاء المهملة وبالدال المهملة ممدودا وقد تكسر فيه الحاء. هو سوق الإبل بالغناء لها فإذا سمعت ذلك حملها على متابعة السير والإيغال فيه ، والفعل منه "حدا يحدو" والمصدر الحدْو من باب عدا.

(3) و أمّ نزار هي معانة بنت جوشم * من جرهم.

(4) توارد ذكر هذا النور الذي يشاهد في الكثير من آباء الرسول صلى الله عليه وسلم وليس من البعيد أن يكون مسحة بهاء يمتاز بها المنسوب إليه. ثم قيل فيه - بعد - أنه نور النبوة هذا ما يقرب للفهم عادة. أما ما حكي من تعليل لفظ نزار فيقال فيه ما تقدم في مالك لا يظهر وجهه إلا إذا كان لقبا.

إسراءيل وأنه ما حارب قط إلاّ ورجع ظافرا منصورا!.

جاء في الأخبار أنه لما سلط الله بَخْتَنَصَّر[1] على العرب حمل نبي الله **أرمياء*** معدّ بن عدنان إلى الشام بوحي من الله فكان بالشام مع بني إسراءيل. ولم يعد إلى موطن قومه بالحجاز إلاّ بعد أن أهدأت الفتن بموت بَخْتَنَصَّر.

-**عدنان**: قيل من **العدن*** وهو الإقامة[2]. قيل هو أول من كسا الكعبة (أو كسيت في زمنه) وأنه أول من وضع أنصاب الحرم.

قالوا والأقرب أن عدنان كان في زمن موسى عليه السلام والإجماع منعقد على أن عدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، قيل أن بين عدنان وإسماعيل ثلاثين جدًّا. وقيل سبعة وثلاثين وقيل أربعين... والوارد عنه صلى الله عليه وسلم في انتسابه أنه كان إذا انتسب ينتهي إلى عدنان. وربما قال بعد ذلك: «كذب النسابون[3]».

قال بعض العلماء: فينبغي لمن أراد أن يذكر نسبَ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوصله إلى عِدنان ويقف اقتداء به صلى الله عليه وسلم.

و من كلام الإمام **الماوردي*** - في نسبه صلى الله عليه وسلم-: وإذا اخْتُبِرْتَ حال نسبه صلى الله عليه وسلم وعرفت طهارة مولده علمتَ أنه سلالة آباء كرام ليس فيهم مسترذل، بل كلهم سادة قادة. وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة.

---

(1) ذكر في ضبط اسم بَخْتَنَصَّر أنه بفتح الباء الموحدة التحتية وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء المثناة الفوقية ثم نون مفتوحة ثم صاد مهملة مفتوحة مشددة وآخره راء (ويطلق عليه لقب آخر) وهو أحد ملوك الكلدانيين* بأرض بابل* كان في بحر القرن السادس قبل الميلاد المسيحي. واشتهر بإغارته على بيت المقدس وتخريبها وإجلاء بني إسراءيل عنها.

(2) جاء أن الفعل من هذه المادة إذا كان مرادا به الإقامة فهو من باب فعل يفعل مفتوح العين في الماضي مكسورها في المضارع ومصدره العدن* بفتح فسكون وهو أيضا من باب دخل أي مفتوح العين في الماضي مضمومها في المضارع ومصدره العدون بالضم قيل: ومن هذا «جنات عدن» أي إقامة للخلود.

(3) هذه الجملة (كذب النسابون) بينما ينسبها البعض بأنها من اللفظ النبوي، يرى البعض أنها ليست من الحديث المرفوع وإنما هي من كلام الرّاوي لحديث الرسول صلى الله عليه وسلّم في هذا الباب وهو عبد الله بن مسعود* (رضي الله عنه).

الدرس 4

طهارة هذا النسب الشريف

من المتفق عليه أن هذا النسب الشريف طاهر من جميع أوضار الجاهلية كما تقدمت الإشارة إليه في كلام الماوردي وكلام الجاحظ.

و ثمَّ قول لبعض العلماء بأن جميع أجداده صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين وأن آزر* والد إبراهيم لم يكن والدا لإبراهيم وإنّما كان عمًّا له! (وما جاء من تسميته في القرآن أبًا له إن هو إلاّ جري على استعمال العرب في إطلاقها اسم الأب على العم. ومن هذا ما حكاه القرآن عن **يوسف*** عليه السلام في قوله...«واتبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب....»فمن المعلوم أن إسماعيل لم تكن له ولادة ليوسف وإنما هو عمُّ أبيه.

و قد استدلّ أصحاب هذا القول لدعواهم هذه بآية من القرآن هي:

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

كما استدلوا بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من الأثر في قوله: «ما زلتُ أتقلب في الأصلاب الطاهرة والأرحام الطاهرة....إلخ».

على أنّ معنى الآية: تقلبه صلى الله عليه وسلم أي انتقاله وتنقله في أصلاب آبائه وأرحام أمهاته الساجدين لله أي العابدين لله الموحدين له من آدم إلى أبيه عبد الله وأمه آمنة. وعلى أنّ معنى الأثر في طهارة الأصلاب والأرحام كون أصحابها مسلمين موحدين إذ لا يوصف المشرك بالطهارة بدليل الآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ... ﴾....!!

غير أن الفريق -من العلماء- الذي لا يرى هذا الرأي يحملون الآية على معنى آخر...كما يرون أنّ الحديث يراد به طهارة النسب (خاصة)[1]. وعلى

---

(1) طهارة النسب بمعنى أن عمود نسبه صلى الله عليه وسلّم لم يلابسه -البتة- ما كان من السفاح بل كله نتج عن نكاح صحيح مشروع.

كلٍّ فجميع آبائه صلى الله عليه وسلم (باستثناء آزر) إمّا مؤمنون وإمّا ممن لم تبلغه الدعوة فهم ناجون...!

«تزوّج والده صلى الله عليه وسلم عبد الله بآمنة أمّه صلى الله عليه وسلم»

مما جاء في الأخبار أنّ أباه صلى الله عليه وسلم عبد الله كان على جانب من الجمال والوضاءة عظيم. الأمر الذي شغف به نساء زمنه، وعرض الكثير منهن عليه النكاح قبل زواجه بآمنة. وقد مرض من مرض منهن بعد زواج عبد الله بآمنة، ورفضت بعضهن- بسبب ذلك -الزواج إلى الموت![1]

و جاء في سبب اختيار عبد المطلب لبني زهرة أن يزوج ابنه عبد الله منهم روايتان من الأخبار:

الأولى: مقال «الحزّاء[2]» له: ألك شاعة[3] من بني زهرة؟ فقال عبد المطلب: لا! فقال: تزوج منهم....إلخ.

الثانية: كون عبد المطلب إذا سافر إلى اليمن ينزل عند صديق له وكان صديقه هذا رجلا عظيما يقصده الناس، فنزل عليه عبد المطلب ذات يوم فوجد عنده رجلا من أهل الكتاب... فلما رأى هذا الرجل عبد المطلب قال له: " أئذن لي أفتّش منخريك". فأجابه عبد المطلب إلى ذلك، فلما نظر في منخريه قال له: " أرى نبوّةً ومُلْكًا، وأراهما في **المنافَيْن**"* (أي

---

(1) ما جاء من الأخبار هنا أنه أحصي نحو مائتي امرأة في مكة رفضن الزواج إلى الممات أسفا على ما فاتهن من الزواج بعبد الله أبي الرسول صلى الله عليه وسلم...!

(2) الحزاء: بالحاء المهملة والزاي المشددة بعدها همزة بوزن "فعّال" ويقال الحازي بوزن فاعل. قيل فيه هو الذي ينظر في أعضاء الشخص وفي خيلان الوجه فيحكم عليه بأمور تقع أو هي واقعة عليه وذلك بطريق الفراسة وقد قال البعض فيما جاء في القرآن في «المتوسمين» أنهم الذين يعرفون الأشياء بسماتها - أي علاماتها- بمالهم من الفراسة.

والحزاء يعرف عندنا اليوم في اللغة الدارجة «بالخيَّال» لأن الأصل في هذا النظر أن يكون للخيل.

(3) الشاعة هي الزوجة لأنها تشايع وتناصر زوجها.

وهما عبد مناف بن قصي وعبد مناف بن زُهرَة). فلما رجع عبد المطلب - وكان لا نكاح له في بني زهرة- احتاط فتزوج هو **هالة بنت وهيب*** بن عبد مناف بن زهرة فولدت له حمزة (رضي الله عنه) وزوّج ابنه عبد الله **آمنة* بنت وهب** بن عبد مناف بن زهرة فكانت والدة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

قال **الإمام الواقدي***: المعروف أن عبد الله وآمنة لم يلدا غيره صلى الله عليه وسلم. (وهو ظاهر مما سيذكر بعد من وفاة عبد الله قبل وضع أمّه صلى الله عليه وسلم حملها به. ومن تأيُّمِ أمّه صلى الله عليه وسلم تلك المدة بعد زواجها حتى وفاتها...)[1]

الدرس 5

الحمل به صلى الله عليه وسلم

مما نقل عن أمّه آمنة قولها: " لم أجد ثقلا ولا وحما[2] لحمله (خلاف ما اعتيد في الحمل...) إلاّ أنني أنكرت رفع حيضتي!"

و جاء في الأخبار الصحاح أنه صلى الله عليه وسلم قيل له: " أخبرنا

---

(1) علق بعض من كتب في السيرة من العلماء على هذا المحل بما معناه:
لا ينظر الناظر فيما جاء من الأخبار عن أبوي الرسول صلى الله عليه وسلّم وأنهما ما كادا يقترنان في عملية الزواج حتى انفصلا بالموت ، فقد مات أبوه صلى الله عليه وسلّم وهو حمل وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز الثمانية عشر ربيعا حسب الوارد في بعض الروايات. كما أنّ أمّه صلى الله عليه وسلّم لم تكد تراه يرجع إليها من عند حليمة مرضعته وهو لم يبلغ العام السادس على قول أو الخامس على آخر حتى قضت نحبها أيضا.
لا ينظر الناظر ويتأمل هذا حتى يتبين له وأن هذين الزوجين كان الله تعالى لم يخلقهما إلاّ لهذه الوظيفة التي هي ولادة الرسول صلى الله عليه وسلّم. فبمجرد ما أديا المهمة ارتحلا عن هذه الحياة.

(2) الوحم: بفتح الواو والحاء المهملة مصدر وحمت المرأة تحِمُ بالكسر في الماضي والمضارع ويقال توحم في المضارع أيضا بإثبات الواو وفتح عينه (أي الحاء). وهو حالة تعرض للمرأة أول ما تحمل يتغير فيها مزاجها وتشتد شهوتها لبعض المآكل كما تشتد كراهيتها لبعض المآكل أو الأشياء وتوصف المرأة به بصيغة: وحمى بفتح الواو وإسكان الحاء مختوما بألف مقصورة والإسم منه الوحام بفتح الواو وكسرها.

عن نفسك يا رسول الله!" فقال:

1- أنا دعوة أبي **إبراهيم*** إذ قال: «ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم»

2-و بشرى أخي **عيسى*** إذ قال: «و مبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد»

3- و رأت أمّي نورًا خرج منها أضاءت له قصور **بُصْرى*** بالشام. (و في لفظ)" أضاء ما بين المشرق والمغرب".

فقيل أن هذا النور كان عند الحمل. وقيل كان عند الوضع. فقيل عند الحمل مناما ، وقيل عند الوضع يقظة. ومما جاء من الأخبار عن أمّه آمنة عليه السلام أنها لمّا حملت به صلى الله عليه وسلم قيل لها -منامًا- إنّكِ قد حملت بسيد هذه الأمّة ، وقولي إذا وضعته: «أُعيذُهُ بالواحد من شر كل حاسد».

و من الوارد في الأخبار أيضا: أن عام الحمل به صلى الله عليه وسلم كان عام فتح ويسر وابتهاج إذ كان قبله جدب وضيق عيش عظيم لقريش. فكانت فيه الأرض مخضرة زاهية. وتوفّر فيه حمل الأشجار وكان فيه رعود وأمطار من كل جانب.

وفاة والده

صلى الله عليه وسلم عبد الله

ورد أن أباه صلى الله عليه وسلم عبد الله لم يلبث بعد تزوجه بآمنة أن توفي. قيل: لمّا تمَّ لحمله صلى الله عليه وسلم شهران ، وكانت وفاته بالمدينة منصرفه من الشام في تجارة فمرض عند أخوال أبيه بني **عديّ بن النجّار*** وتوفي هنالك.

الإرهاصات[1] قبيل ازدياده صلى الله عليه وسلم:

من سنّة الله المشاهدة وعادته في هذا الكون أن يقدم بين يدي الأحداث الجسيمة والوقائع الكبيرة حوادث شاذّة كالعلامات والإشارات إلى ما سيعقبها من الأمر العظيم.

و قد كانت واقعة الفيل وأصحابه في الحرم المكي مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم حادثة فيما وقع من الإرهاصات قبيل ولادته صلى الله عليه وسلم.

(و الجمهور على أن هذه الحادثة وقعت قبل مولده صلى الله عليه وسلم بخمسين يوما فقط...)

[وحادثة أصحاب الفيل هذه هي التي أشارت إليها الآيات في السورة المسماة بهذا الاسم "الفيل": ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ والذي جاء في الأخبار عن هذه الواقعة يفيد أن أحد أمراء الجنود من الأحباش وهو المسمى **أبرهة*** الأشرم كان قد تغلب على أمير آخر كان قبله واليا على اليمن من قبل حكومة **النجاشي*** مالك الحبشة فخلصت السلطة في اليمن لأبرهة المذكور. ومضى به طغيان السلطان وحب الاستعلاء أن

---

(1) الإرهاص: مصدر أرهص وأشهر معنى لهذه المادة هو التأسيس والإثبات للشيء لأن أصله من (رِهْص الحائط) بكسر الرّاء وسكون الهاء وهو مبدأ بنائه على الأساس ، فمعنى الإرهاصات هنا المقدمات من أمور النبوة كالأساس والمبدإ لها.

يصرف الرعايا من أهل اليمن عن الحج إلى البيت الحرام بمكة حيث كان خارجا عن دائرة سلطانه فبنى بيتا سمي (القليس*)[1] بمدينة **صنعاء*** قاعدة بلاد اليمن وزخرف ما شاء له هواه هذا البيت وأمر أن يحج إليه الناس -من رعاياه- عوض البيت الحرام بمكة!!!هكذا إمعانا في السلطة...فورد أنه نتج عن هذا أن وقع اعتداء بالإهانة للبيت المذكور...حيث أصبح يوما ملطخا بالقاذورات إشعارا بالسخط على هذا التصرف الأهوج من أبرهة... وعند هذا قرر أبرهة أن يغزو مكة بقصد نقض البيت الحرام إمعانا في النكاية بالشعب الذي يقدس هذا البيت ولم يخضع لما أمر به من تقديس بيته الذي اتخذه مضارة للبيت الحرام فمضى إلى مكة في جيش عظيم تتقدمه الأفيال -كالعادة الحربية المعمول بها وقتئذ ولتلك الأفيال قيادة تسير بها وراء الفيل الأعظم...و هكذا مضى الجبّار المغرور حتى أشرف على مكة ، وقابل سيد القوم بها وهو يومئذ **عبد المطلب*** جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم وجرت بينهما مفاوضة ومحاورة أشار له فيها عبد المطلب -إيماء دون تصريح ولا إلحاح- بالكفّ عمّا عزم عليه من التعرض بالسوء للبيت الحرام وأنذره سوء المغبة في هذا الصنيع ولم يكن ليرده ذلك عن قصده... وورد أن الفيل الأعظم برك وامتنع عن السير إلى مكة ولم يُجْدِ فيه شيء ممّا صنع له ليقوم...و هكذا حتى أرسل الله على القوم الطير الأبابيل من ناحية البحر فرماهم بما ذكر القرآن من حجارة السّجّيل قيل وهو الطين المطبوخ.و جاء في الأخبار أن هذا الطير كان إذا رمى الشخص بتلك الحجارة أثار به حَبَّ الجُدَري وهكذا قضي على هذا الجيش بضاحية مكة قبل الدخول إليها فتك به الطير بما رماه به وما أصابه من مرض الجُدَري. وحُمل أبرهة مصابا إلى اليمن وهلك كعامة جيشه].

---

[1] جاء ضبط لفظ "القُلَّيس" بضم القاف وفتح اللاّم مع التشديد وإسكان المثناة التحتية وآخره سين مهملة. وذكر أن معناه يشير إلى العلوّ كما يقال في لباس الرأس القلنسوة.

الدرس 6

المولد الشريف على صاحبه وآله الصلاة والسلام

المعروف أنه صلى الله عليه وسلم ولد لتمام تسعة أشهر قمرية على الحمل به. والإجماع على أن المكان ببلدة مكة المشرفة.و ثم خلاف في الأخبار في وقت ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فقيل ليلا وقيل نهارا عند إبهار النهار (وسطه). والمشتهر أنه قبيل طلوع الفجر.... ولا خلاف[1] في كون اليوم هو الإثنين. كما أن المعروف في الشهر القمري أنه ربيع الأول. واختلف في يوم التاريخ منه على أقوال.قيل في الثاني منه وجزم به بعض العلماء وقيل في العاشر وصححه البعض أيضا. وقيل لثمان ليال مضت منه (نقل عن **ابن دحية*** أنه قال: هو الذي لا يصح غيره وهو إجماع أهل التاريخ ، واختيار أكثر أهل الحديث).وقيل ليلة الثاني عشر منه وهو قول **ابن إسحاق***. وعليه جرى العمل في إقامة الاحتفالات وإحياء الذكرى... ، وأمّا الشهر الشمسي فقد اشتهر أنه أبريل ويوافق يوم العشرين منه (و ربما ثَم من يقول...اليوم الثالث منه) كما أنّ الاتفاق على السنة الميلادية لعيسى بن مريم عليهما السلام أنها الإحدى والسبعون بعد الخمسمائة[2] وإلى شهر المولدِ الشريف وزمنه في فصول العام أشار من قال:

((يقول لنا لسان الحال منه * وقول الحق يَعْذَبْ للسميع))

((فوجهي والزمان وشهر وضعي * ربيع في ربيع في ربيع))

و اليوم والشهر القمري المذكوران في المولد ورد ما يثبت أن المبعث أيضا والهجرة والوفاة كلها وقعت فيهما أيضا.

---

(1) لا خلاف معتبر وإلا فقد قيل أنه ولد يوم الجمعة والإجماع على أنه غلط.

(2) و جرى بعض من ألف حديثا في السيرة وفاقا لبعض مؤرخي الإفرنج على أن المولد الشريف كان يوم العشرين أغسطس سنة سبعين وخمسمائة من الميلاد المسيحي.

الاحتفال بالمولد الشريف

الاحتفال بالمولد الشريف كعيد قومي حدث بعد الصدر الأول للإسلام. جاء أنّ أوّل من استعمله (رسميًّا) من ملوك الشرق هو أبو سعيد المظفّر صاحب أربل ،[1] فكان يحتفل به احتفالا رائعا. وينفق فيه في وجوه الإحسان المبالغ المعتبرة. وقد ألف له معاصره الحافظ **ابن دحية***الكتاب الذي سماه " التنوير في مولد البشير النذير" فأجازه الملك بألف دينار.

و قد توفي هذا الملك في موقف جهاد ، أدركته الوفاة وهو محاصر بجيشه جيش الفرنجة بمدينة عكا[2] ... وذلك في سنة ثلاثين[3] وستمائة هجرية.

و أول من استعمله من ملوك الإسلام في المغرب هو أحد ملوك أفريقية.[4] هذا وقد رأى **الحافظ ابن حجر*** أن يستنبط لمشروعية عمل المولد (الاحتفال به) مما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من صيامه يوم عاشوراء لما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه لأجل الذكرى. وقال صلى

---

(1) حدث الإحتفال بالمولد النبوي أواخر القرن السادس وأوائل السابع. وأبو سعيد مظفر* الدين هذا تركماني وكان واليا من قبل ملوك التتر ببغداد أواخر أيام الخلافة الاسمية لبني العباس على أربل من مقاطعات العراق ، وكان تاريخ ولايته ابتداء من سنة 586 إلى أن توفي سنة 630 هجرية. فيكون ابتداء عمل المولد في خلافة الناصر* أو الظاهر*أو المستنصر* من الخلفاء العباسيين لأن سقوط خلافة العباسيين من بغداد كان زمان المستعصم* سنة 656 هجرية. ويذكر بعض المؤرخين أن عمل المولد سابق لهذا التاريخ وأنه حدث أول ما حدث بمصر على عهد الفاطميين ولكن لم يأخذ صفة الشيوع والرسمية إلا في عهد صاحب أربل المذكور.

(2) عكا من بلدان الشام.

(3) معروف من هذا التاريخ أن هذا القتال كان في وقائع الحروب الصليبية المعروفة.

(4) بمعنى كان يحتفل به الاحتفال الرائع ويعتني به ، وهو أبو حمو الثاني* من ملوك بني زيان ملوك تلمسان فيما بين سنة 760 وسنة 791 كما أن ابنه أبا تاشفين* زاد مثل ذلك الاحتفال بسابع المولد أيضا. وأول من أمر بإقامة الاحتفال المولدي رسميا في المملكة من ملوك المغرب الأقصى هو يوسف المريني*و ذلك سنة 671 هجرية واعل سنة 691. غير أن الذي سبق الجميع لعمل المولد بالمغرب هو أحد رجال العلم والرئاسة بمدينة سبتة من إقليم المغرب المعروف بالريف وهو أبو العباس* أحمد العزفي وكانت حياته فيما بين سنة 557 وسنة 633 هجرية.

وقد استحسن عامة العلماء ما الله عليه وسلم: «نحن أولى بموسى منهم». وقد استحسن عامة العلماء ما تعورف من إقامة الحفلات المولدية بصورة ما تقدم من الوصف فيها. فقد نقل عن الحافظ **أبي شامة*** استحسانه لذلك لما فيه من الإحسان للفقراء والصدقات وعمل المعروف وإظهار الزينة والسرور. لأن ذلك مشعر بمحبته صلى الله عليه وسلم، [1] وكيف لا؟ وهو صلى الله عليه وسلم رحمة لعموم الخلق. وأي إحسان أعظم من الرحمة...؟

فالشيء -كما قيل- يُحَبُّ لحسنه أو لإحسانه فأما الحسن فيه صلى الله عليه وسلم فيكفي فيه ما جاء في آيات الكتاب من وصفه بالخُلُق العظيم. وأمّا الإحسان فقد مرّ كونه صلى الله عليه وسلم رحمة عامة للخلق ولهذا قال البعض [2]: لو أنصفتْ البشرية -بسائر أجناسها وأديانها ونحلها- محمداً صلى الله عليه وسلم لجعلت مولده عيدًا لها بشريًّا عامًّا... تذكارا لوجود ذلك الإحسان العام.

---

(1) هذه النبذة في بيان وجه محبة الرسول صلى الله عليه وسلّم هي من مقال للأستاذ الإمام عبد الحميد إبن باديس* عليه رحمة الله.

(2) هذا البعض هو الأستاذ المذكور- رحمه الله - وهذه الجملة من جملة مقاله المتقدم الذي حاضر به في أحد احتفالات المولد الشريف.

الدرس 7

الآيات الخوارق ليلة مولده صلى الله عليه وسلم

ورد أنه مما وقع من الأحداث والآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، ارتجاج إيوان *كسرى* ملك الفرس وسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته.[1] ومنها خمود نار الفرس المقدسة التي كانوا يعبدونها تدينا منهم. وجاء في الأخبار... أن هذه النار كانت بحيث لم تخمد مدة ألف سنة للقيام عليها بالوقود[2] ... و منها غيض بحيرة ساوة[3] ... ومقابل ذلك فيضان وادي سماوة[4] . (ورد أنّ كل هذه الأحداث وقعت في نفس الليلة التي وُلد فيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم).

قابلته[5] صلى الله عليه وسلم ودايته.

جاء أن قابلته صلى الله عليه وسلم والتي وقع صلى الله عليه وسلم

---

(1) الإيوان: بكسر الهمزة يقول البعض أنه لفظ معرّب وليس بعربي خالص وأصله فارسي وهو مكان الجلوس الرسمي لأرباب الدولة. وجاء في تعريفه أنه بناء يقوم على ثلاثة حيطان وتكون واجهته مفتوحة لا حائط لها وليس تام تربيع الشكل بل هو مستطيل أفقيا فيكون اتساعه عرضا أكثر منه طولا. و"الشرفة" بضم الشين المعجمة وإسكان الراء ، وحكي فتح الشين والرّاء أيضا قيل هي ما يبنى مربعا أو مثلثا من قطع زائدة في أعالي الأسوار أو في أعالي القصور.

(2) جاء في وقود هذه النّار أنها لم تخمد ألف عام وفي رواية أخرى ألفي عام.

(3) ساوة: مدينة من مدن الفرس كانت هذه البحيرة تجاهها.

(4) و وادي سماوة: داخل بلاد العرب بين بادية الشام والعراق قيل أن فيضانه كان من طغيان ماء نهر الفرات الذي ضل مجراه. هذا وليس ما ذكر هنا هو كل ما وردت به الأخبار على أنه وقع من الآيات ليلة المولد الشريف. بل جاء ذكر آيات أخرى غير ما ذكر حدثت عند مولده صلى الله عليه وسلّم أو في نفس ليلة المولد أو يومه فليراجع من يحب الاطلاع أخبارها في مصادرها المعروفة من كتب السيرة والتاريخ.

(5) القابلة: هي المرأة التي تتلقى الولد أول ما يقع من بطن أمه والفعل من هذا: قبِل ، يقبَل مكسور في الماضي مفتوح في المضارع والمصدر القِبالة بكسر القاف. وأما الداية بالدال المهملة وتخفيف الياء المثناة التحتية فهي المرأة التي تلي خدمة المولود وتقوم عليه في شئونه وربما جاء في كلام البعض أن الداية هي نفس القابلة ، والقابلة لفظ عربي خالص وليس كذلك الداية فهو دخيل.

على يديها حين وضع أمّه هي الشّفّاء[1] أم عبد الرحمـٰن بن عوف الزهري (رضي الله عنه) نقل عنها أنها قالت: " وقع صلى الله عليه وسلم على يدي..."

أمّا دايته صلى الله عليه وسلم فهي أم أيمن[2] بركة الحبشية. وقد ورد أن المبشر بولادته صلى الله عليه وسلم هي ثويبة[3] جارية عمّه أبي لهب...، وقد أعتقها سيدها لما أخبرتهم بهذه البشرى (فجاء في بعض الأخبار أن أبا لهب* جوزي من الله تعالى بأن يخفف عنه العذاب كل ليلة اثنين....و الله أعلم)!"؟"

تسميته صلى الله عليه وسلم والعقيقة عنه

المعروف في الروايات أن الذي سمّاه محمّدًا صلى الله عليه وسلّم هو جده عبد المطلب. فقد ورد أنه عقّ[4] عنه يوم سابع مولده وسماه محمّدًا. فقيل له كيف تسمّيه بهذا الاسم ولم يسمَّ به أحد من عشيرتك ؟ فأجاب قائلا: رجوت أن يحمده أهل السماوات والأرض.

فكان هذا بمحض الإلهام من الله تعالى له أن يسميه بهذا الاسم ويرجو له به ما يرجو من الحمد. وورد في بعض روايات هذا الموضوع أنّ

---

(1) الشّفّاء: بتشديد الشين المعجمة مفتوحة وتشديد الفاء أيضا هذا هو المشهور في اسمها. وروي بكسر الشين وتخفيف الفاء.

(2) و أم أيمن: هي جارية عبد الله أبي الرسول صلى الله عليه وسلّم ، ورثها الرسول صلى الله عليه وسلّم عن أبيه وأعتقها وزوّجها لمولاه زيد بن حارثة* فولدت له أسامة:* أما أيمن* فهو ابنها الأول من رجل آخر قبل زيد يدعى عبيدا.

(3) ثويبة الأسلميّة: ثبت أنها من مرضعات الرسول صلى الله عليه وسلّم ويذهب البعض إلى أنها أدركت الإسلام وأسلمت وإنما توفيت قبل فتح مكة ولم تهاجر لمانع منعها من ذلك هي وابنها مسروح*أخو النبي صلى الله عليه وسلّم من الرضاعة وقد كان عليه الصلاة والسلام يصلها هي وابنها بصلات يرسل بها إليهما وهي بمكة فلما كان يوم فتح مكة سأل عنهما فأخبر بأنهما ماتا بعد غزوة خيبر أي في بحر السنة السابعة للهجرة.

"؟"مثل هذه الأخبار التي تخبر بتخفيف العذاب عن بعض من تحقق كفرهم الله أعلم بصحتها وهي محل احتراز... بعد معرفة آيات القرآن المصرحة بأنّ عذاب الله لا يخفف ولا يفتر عن الكافرين.

(4) عقّ: من باب ردّ من العقيقة* والمراد بها هنا الذبيحة عن الولد احتفالا بمولده.

جده صلى الله عليه وسلم كان رأى رُؤيا قبل مولده صلى الله عليه وسلم: وهي كأنه خرج من ظهره عمود من نور ثم تفرع كالشجرة وذهبت أغصانها في السماء وأطراف الأرض. وطفق الناس يتعلقون بتلك الأغصان... فلمّا ولد الرسول صلى الله عليه وسلم أوّل الشجرة به فلذلك قال: رجوت أن يحمده أهل السماء والأرض.

و قد ذكر أنّ اسم "محمد" قد وقع أن سمي به البعض قبل مولده صلى الله عليه وسلم [1] أمّا "أحمد" فلم يسم به أحد قبله صلى الله عليه وسلم. قيل وكلا الاسمين من المبالغة في الحمد فمحمّد (المُحَمَّدُ) من كثر حمد الغير له. وأحمد (الأَحْمَدُ) من كان حمد الغير له أفضل... فالحمد فيهما هو من الفعل الواقع على المفعول لا من الصادر من الفاعل (و هذا في محمد محل اتفاق) إلاّ أنه جاء في "أحمد" ما يصح له وجه كونه من الفاعل وهوما ورد مأثورا: «أحمد الحامدين وأحمد المحمودين».

و ورد فيما ورد أنّ جدّه صلى الله عليه وسلم عقّ عنه يوم سابع مولده صلى الله عليه وسلم وسمّاه محمدا وختنه [2] فيه أيضا.

غير أنّ هذا الأخير قد تعقبه البعض بالمعروف من عادة العرب في ختان أولادهم. وأنهم يجعلونه قبيل المراهقة استنانا بسنة أبيهم **إسماعيل** * الذي وقع ختانه في هذا السّنّ حسب الوارد في الأخبار.

و إنما العمل في الختان في سابع المولود هو سنة بني إسراءيل استنانا بسنة أبيهم **إسحاق** * الذي وقع ختانه في السابع (حسب الوارد في الأخبار أيضا).

---

[1] أورد البعض ممن ألف في السيرة -كالحلبي- أسماء آباء هؤلاء الذين تسموا باسم (محمد) قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلّم. قال: وقد حمى الله دعوة النبوة فلم يدَّع أحد من هؤلاء النبوة ولا ادعاها أحد لواحد منهم. وحكى أن عدة هؤلاء المحمدين بلغت ثمانية عشر شخصا وعرّف بهم جميعا.

[2] ورد في ما ورد من الروايات هنا أنّه صلى الله عليه وسلّم ولد مختونا خلقة ولكن يظهر كأنها رواية متروكة عند البعض الذي صحح الرواية التي تفيد أنّ جدّه صلى الله عليه وسلّم هو الذي ختنه على عادة العرب والله أعلم بما هو حقيقة الواقع.

الدرس 8

رَضاعه عليه الصلاة والسلام

ورد أنّ أول من أرضعه صلى الله عليه وسلم هي والدته آمنة. ثم أرضعته أيضا ثويبة جارية عمّه أبي لهب. ثم استُرْضِعَ صلى الله عليه وسلم على عادة العرب في بني سعد بن بكر من **حليمة*** بنت أبي ذؤيب السعدية. وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم استُرْضِعَ قبل مرضعته المعروفة حليمة في عدّة نسوة قيل ثمان وقيل بل عشر منهن أم أيمن حاضنته صلى الله عليه وسلم ومنهن ثلاث من بني سليم كلٌّ تسمّى عاتكة.

غير أنّ من اشتهر بإرضاعه صلى الله عليه وسلم هي حليمة المذكورة فهي التي تولت إرضاعه وتربيته على العادة المتبعة عند العرب.[1] فذهبت به لمنزلها ببني سعد بن بكر من **هوازن*** حتى قضى الفصال سنتين وردّته إلى أمّه وهي حريصة على إبقائه عندها لِما رأت من بركته وشفقة منها عليه من وباء مكة ووخمها،[2] فأجابتها أمّه صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فأعادته عندها حتى قضى أربع أو خمس سنوات.

و قد جاء الشيء الكثير من الأخبار عن حليمة في يمنه وبركته صلى الله عليه وسلم أثناء مقامه عندها. كما جاء عنها قولها كان يشب شبابا لا يشبه الغلمان (عادة)، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يقطع سنته حتى كان غلاما جفرا[3].

---

(1) يسترضع العرب من أهل الحاضرة أولادهم بالبادية ويرون أن ذلك مؤثر في زيادة النجابة للولد وكذلك نافع من حيث اللهجة وفصاحة النطق.

(2) الوخم: بفتح الواو والخاء المعجمة في المكان هو تعفن الهواء فيه وثقله المفضي للمرض وهذا في مكة بمقابلتها مع بادية بني سعد حيث الهواء أنقى.

(3) جفر: بوزن ضخم وصف معناه الغليظ القوي وأصل استعماله لصغار الحيوان من المعز والضأن.

و كـان لتمـام شـهرين مـن عمـره يحبـي[1] فيجـيء إلى كـل جانـب ، ولثمانيـة أشـهر يتكلّم بحيث يـسمع كلامـه ، ولتسعة يتكلم بالفـصيح مـن الكلام ، ولعشر يرمي بالسهام.

الأحداث التي وقعت له صلى الله عليه وسلم أثناء الإقامة عند حليمة بعد الفصال

مما جاء في الأخبار...شق الملئكة صدره صلى الله عليه وسلم وهو عند حليمة في مقامه عندها للمرة الثانية (على بعض الروايات)[2] ومنها أنّ كاهنًا رآه صلى الله عليه وسلم بسوق عكاظ فاسترعى نظره واشتدّ حرصه على أن يأتوه به ليحقق فيه النظر فغيبه عنه زوج حليمة لما رأى من ذلك الحرص الذي أنكره...(أو هي نفسها لحضورها بالسوق)... فلما أيس الكاهن من مطلبه ذلك صاح في أهل السوق: «اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه!» ومنها نظير صنيع هذا الكاهن من بعض اليهود أيضا...

و كانت هذه الأحداث داعية لحليمة وأهل بيتها للخوف عليه صلى الله عليه وسلم أن يصاب بسوء عندهم.

و كانوا -إلى جانب ذلك- قد لاحظوا عليه صلى الله عليه وسلم ما يخالف المعتاد في الصبيان حتى أنه صلى الله عليه وسلم كان يتجنب اللعب مع جماعات الصبيان. وامتاز بما يلفت إليه الأنظار إعجابا به. فكانت حليمة تخشى عليه صلى الله عليه وسلم -زيادة على ما تقدم- شرّ العين والحسد ممن ترى ذلك منه من جيرانها وقومها.

---

(1) هكذا بالنسخة المنقول منها رسم الفعل بالياء من" حبى يحبي حبيا" كرمى يرمي وهذا الاستعمال قليل والمستعمل بكثرة هو بالواو حبا يحبو حبوا كعدا يعدو عدوا. وجاء في رواية أنه صلى الله عليه وسلّم كان في الثالث من شهور سنه يقوم على قدميه وفي الرابع يمسك الجدار ويمشي معتمدا عليه وفي الخامس حصلت له القدرة على المشي استقلالا.

(2) هذه الآية التي هي شق صدره صلى الله عليه وسلّم بيد الملئكة وغسلهم إياه ونزعهم منه ما سمي حظ الشيطان رويت بعدة وجوه ويثبت البعض أنها تكررت مرارا قيل أربعا إحداها هذه التي كانت في صباه عندما كان ببني سعد عند حليمة مرضعته صلى الله عليه وسلّم وأن هذا الحادث كان من جملة الأحداث التي خشيت حليمة منها عليه صلى الله عليه وسلّم فردته إلى أمه صلى الله عليه وسلّم.

فآثرت مع ما هي وقومها عليه من حبّه صلى الله عليه وسلم والتعلّق به أن ترده إلى أمّه صيانة له واطمئنانا عليه.

جاء في بعض الروايات أن حليمة لما قدمت به صلى الله عليه وسلم تردّه إلى أمّه أضلته بأعالي مكة وبلغ الخبر جدّه عبد المطلب فخف إلى التفتيش عنه فوجده هادئا تحت ظل شجرة فنحر البقر والشياه وأطعم الطعام (شكرا لهذه النعمة واحتفالا بمقدمه صلى الله عليه وسلم سالما) كما جاء أنّ أمّه آمنة سألت حليمة لمّا ردّته صلى الله عليه وسلم. فقالت لها: "ما أقدمك به يا ظئر [1] وقد كنتِ حريصة على بقائه عندك ؟ " فأجابت حليمة: " قضيت ما عليّ وبلغ فصاله وتخوفت عليه الأحداث..." وأخبرتها بما تخوفت عليه. فكان من جواب آمنة (عليها السلام) لها على هذا قولها: "كلاّ! والله ما للشيطان عليه من سبيل وإنّ لابني هذا لشأنا". وذكرتْ لها ما شاهدته من الآيات في حملها به والنور الذي رأته حين وضْعِه...إلخ ، ثم قالت لها: " دعيه وانصرفي راشدة".

وفاة أمّه وحضانة أم أيمن بركة الحبشية له صلى الله عليه وسلم:

الأخبار متظافرة على أن آمنة أمّه صلى الله عليه وسلم توفيت بعد مرجعه صلى الله عليه وسلم من عند حليمة ، قيل وذلك في السنة الرابعة من عمره صلى الله عليه وسلم وقيل في الخامسة وقيل في السادسة.

و كانت وفاة أمّه صلى الله عليه وسلم **آمنة*** في منصرفها من المدينة إلى مكة حيث كانت في زيارة أخوال جدّه صلى الله عليه وسلم [2] **بني**

---

(1) الظئر: بكسر الظاء المعجمة وإسكان الهمز وآخره راء. اسم للمرأة المرضعة لولد غيرها وأصل المعنى فيه يرجع إلى العطف والحنو على الشيء. والفعل منه ظَأَرَيَظْأَرُ بالفتح فيهما والمصدر الظَّأر بفتح فسكون والظِئار بكسر ففتح.

(2) يلاحظ شبه الحال في وفاة كلّ من أبيه صلّى الله عليه وسلّم وأمّه. فقد تقدم مثل هذا في وفاة عبد الله أبيه صلّى الله عليه وسلّم وأنه توفي بالمدينة عند أخوال أبيه بني عديّ بن النجار. و لهذا فقد وردت رواية أخرى تقول أن وفاة أمّه صلّى الله عليه وسلّم كانت بمكة وأن قبرها بالحَجون... غير أنّ الجمهور على تغليط هذه المقالة.

عدي ابن النجار* ، فأقامت عندهم شهرا وتمرضت هناك فأدركتها الوفاة في طريقها إلى مكة بالأبواء[1] قرب المدينة ودفنت بهذا الموضع ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم معها فحضنته مولاة أبيه أم أيمن* بركة الحبشية وهي التي قدمت به إلى مكة.

و ممّا جاء من الأخبار - في هذا الموضوع - أنّه صلى الله عليه وسلم مرّ بهذا المكان الذي به قبر أمّه وذلك في عمرة الحديبية[2] فقال: " إنّ الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمّه" فأقام صلى الله عليه وسلم عند القبر وأصلحه وبكى وبكى المسلمون لبكائه فقيل له في هذا البكاء ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " أدركتْني رحمتها فبكيتُ". وقد ورد -هنا- من الروايات ما يقول أنّ سبب بكائه صلى الله عليه وسلم عند قبر أمّه هو أنّه سأل الله تعالى أن يستغفر لها فمنع من ذلك ونزل عليه قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ فبكى لذلك...!

و ورد -في مقابل هذا- أنّ الله تعالى أحيا له كلاًّ من أبويه صلى الله عليه وسلم حتى آمنا برسالته ثم أماتهما...! غير أن التحقيق المعوّل عليه من أهل العلم كون الآية المذكورة في نفي الاستغفار للمشركين ليس هذا محل نزولها ولا هو سببه ، بل هي في أبي طالب* عمّه صلى الله عليه وسلم... أو في غيره[3].

هذا وقد رأى البعض أن يوجه القولين معًا باحتمال أن يكون دفن آمنة بالأبواء أولا... ثم وقع نبشها ونقل جثمانها إلى مكة فدفنت بالحَجون والله أعلم بالحقيقة.

(1) الأبواء: مكان بين المدينة ومكة وهو إلى المدينة أقرب.

(2) الحديبية: مكان قرب مكة قيل اسم لبئر وقيل لشجرة وواقعة الحديبية مشهورة في أحداث السيرة وكانت سنة ست من الهجرة وفيها كانت معاهدة الصلح بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين قريش وفيها كانت بيعة الرضوان وفيها نزلت سورة الفتح.

(3) كون الآية نزلت في شأن أبي طالب هي الرواية التي تداولها الجمهور بالنقل وربما اعتمدها الكثير. ولكن أُورِدَ على هذا بأنّ الآية مدنية وهي من أواخر ما نزل من القرآن. ووفاة أبي طالب -

كما أنه لا داعي للقول بإحياء أبويه صلى الله عليه وسلم حتى يؤمنا به إذ أنّ أهل الفترة ناجون من العذاب كما تفيده آية: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.

فلا عذاب على أهل الفترة بوجه العموم إلاّ ما جاء من بعض النصوص الصحيحة في تعذيب أفراد منهم مخصوصين كعمر بن لحي...[1] فأن ذلك لحكمة معقولة وله سببه الخاص ، فتكون مسألة استثنائية تخص ذلك الفرد بعينه ولا ريب في أن لله الحجّة البالغة على خلقه وهو سبحانه يقول في بعثة رسله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾.

كما هو معروف- كانت في مكة سنة عشر من النبوة!؟ وقد أجيب عن هذا الإيراد بأنه صلّى الله عليه وسلّم ربما استمر على الاستغفار لأبي طالب طوال هذه المدة. ثم كان- كما ورد في بعض الروايات- أن أخذ قوم من الصحابة يستغفرون لآبائهم وقرباهم ممن مات على الشرك عملا بما رأوا من الرسول صلّى الله عليه وسلّم في استغفاره لأبي طالب ، فنزلت هذه الآية بالنهي عن هذا الاستغفار لمن تحقق منه وأنه مات على الشرك وأنه مستوجب للخلود في النار بشركه وكفره وعداوته لله ولو كان قريبا للمؤمن الذي استغفر له.... فعند ذلك انتهى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأولئك القوم من الصحابة عن هذا الاستغفار.

(1) هذه الأخبار التي وردت في تعذيب أفراد معينين وهم من أهل الفترة لا تعدو كونها أخبار آحاد ولا تصل إلى درجة التواتر فضلا عن أن تكون من القواعد ولذا لم يأخذ بها كثير من أئمة العلم لما أنها قد تبدو مناهضة لما عرف من القواعد المقررة القطعية كالآية من قوله سبحانه: ﴿ وما كُنّا معذّبين حتى نبعث رسولا ﴾.

و الخبر الوارد في عمر ابن لحي هو ما جاء عنه صلّى الله عليه وسلّم من قوله: ﴿رأيت عمر بن لحي يجر قُصْبه في النّار﴾.و "القُصْب"* بضم القاف وإسكان الصاد المهملة هو المعي أي رآه يجرّ أمعاءه في النار.و عمر بن لحي هذا انتهت إليه رئاسة الحرم بمكة في زمان ولاية خزاعة للحرم ويدعى عمر بن عامر الخزاعي ونسبه البعض بأنه عمر بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر. وقمعة هو أبو خزاعة ويذكر عن عمر بن لحي هذا بأنه كان قد بلغ من السلطان في العرب شأوا بعيدا وأنه أول من غيَّرَ وبدّل في دين إبراهيم الذي كانت تدين به العرب كلها. فهو الذي جاء بأوّل صنم وضع حول الكعبة تقليدا لما رأى بأرض الشام عند العماليق * وبالجملة فيحكى عنه أنه أول من سنّ للعرب سنن الضلالات كلها دينية واجتماعية.

الدرس 9

كفالة جدّه عبد المطلب له صلى الله عليه وسلم

فهم من كون أبيه صلى الله عليه وسلم توفي قبل مولده أنه صلى الله عليه وسلم تربى تحت كفالة جدّه عبد المطلب ، وقد أفادت الأخبار أنّه كان على جانب عظيم من الحنان والشفقة به صلى الله عليه وسلم. وممّا جاء من الأخبار في هذا الموضوع أنّ عبد المطلب الذي كان سيد قريش في وقته كان يفرش له فراش خاص به في منتدى قريش لا يجرؤ أحد على الجلوس عليه سواه إجلالا له... فاتفق ذات يوم أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم فجلس على بساط جدّه ، فحاول بعض القوم منعه من ذلك فأبى إلاّ أن يجلس عليه وأداه ذلك إلى أن أخذه البكاء فلما جاء عبد المطلب وسمع بالحادثة وكان ذلك بعد أن كفّ بصر عبد المطلب في أواخر عمره قال لهم: " دعوا ابني يجلس مجلسي فإنه يحس من نفسه بشيء وإني أرجو أن يبلغ ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده". وصحّت الأخبار بأن عبد المطلب كان إذا استسقى لقومه لا يستسقي إلاّ وهو مستصحب لمحمد صلى الله عليه وسلم معه فلا يبرحون حتى يسقوا.

كما ورد أن **قيسا*** ومضر وفدوا على عبد المطلب يستسقون به -ذات يوم- فجعل لهم الموعد عرفات ولمّا خرج استصحب محمدا صلى الله عليه وسلم معه فكان يدعو وهو بحجره يؤمن فلمّا أتّم الدعاء قال لهم اذهبوا فقد سقيتم! (و كذلك كان)...

و يرجع السبب فيما يرجوه عبد المطلب لمحمد صلى الله عليه وسلم من علوّ الشأن وتوسّمه فيه ما توسّم -زيادة على نظره الخاص وحدسه[1]- إلى ما سمعه مرارا من أهل العلم والخبرة من أهل الكتاب وغيرهم في شأنه عليه الصلاة والسلام.

---

[1] حدس: من باب ضرب ومن باب نصر ومعناه النظر في الأمر اعتمادا على الظن.

فقد جاء في الأخبار أنّ عبد المطلب كان سمع من **سيف ابن ذي يزن*** أحد ملوك اليمن-لمّا وفد عليه- أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المنتظر بما لم يبق له معه شك في أنّه حفيده محمد صلى الله عليه وسلم.[جاء في هذه الرواية أن سيف بن ذي يزن الحميري هو الذي قام لاستنقاذ وطن اليمن واسترداد دولة حمير من أيدي الأحباش الذين تسلطوا على اليمن مدة نحو سبعين سنة فلمّا أن قضى على الأحباش واستتبّ له الأمر جاءته وفود العرب تهنئه بذلك وكان من جملة الوفود وفد قريش الذي كان على رأسه عبد المطلب وأن ذلك كان لمضيّ سنتين من مولد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقدم للخطابة بين يدي سيف في رجال الدولة عبد المطلب. فلمّا أن أتم عبد المطلب خطابه أعجب به الملك وسأله من يكون في القوم ؟ فعرفه عبد المطلب بنفسه فزاد إعجاب الملك به حيث قال له: "ابن أختنا"لأنّ عبد المطلب كانت أمّه من الخزرج وهم من عرب اليمن. وجاء فيما يخص خبر سيف بن ذي يزن عن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه خِلا بعبد المطلب وأفضى إليه بهذا الخبر الذي وصفه بأنه مسطور عندهم في الكتب كَسِرٍّ من الأسرار المكنونة التي تختص بها الملوك وأهل العلم في الأمة دون العامة.

و من بعض ما جاء في صيغة كلام سيف في هذا الخبر عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "إذا ولد بتهامه غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة". ولمّا طلب منه عبد المطلب زيادة الإيضاح قال: " هذا حينه الذي فيه يولد ، اسمه محمد ، يموت أبوه وأمّه ويكفله جدّه وعمّه ، قد ولدناه مرارا والله باعثه جهارا ، وجاعل له منا أنصارا ، يعز بهم أولياءه ، ويخذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض ، يعبد الرحمن ، ويدحض الشيطان ، ويخمد النيران ، ويكسر الأوثان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله" ، ومازال عبد المطلب يسأل

مزيد البيان والتوضيح حتى أفصح له سيف بقوله: " والبيتِ ذي الحجب والعلامات على النقب ، إنك لجدّه غير كذب " ، فعرفه عبد المطلب بما كان من تزويجه ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب بن زهرة ووفاته ، ثم ولادة محمد صلى الله عليه وسلم وأنّه أُلْهِمَ لأن يسمّيه بهذا الاسم.

وجاء هنا -أيضا- أن سيف أوصى عبد المطلب بأن يحذر اليهود على حفيده محمد قائلا: "فإنّهم له أعداء"...إلخ. وجاء أن الملك سيف أجاز وفد قريش وأتحفهم بتحف جليلة وأضعف المقدار لعبد المطلب ثم عهد إليه عندما ودعه بأن يأتيه عند رأس الحول بخبر محمد صلى الله عليه وسلم وما يكون من أمره ، ولكن قدر أن توفي سيف قبل تمام الحول]. وكذلك ورد أنه سمع مثل ذلك من أحد كهّان العرب لما رأى ذلك الكاهن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مع جدّه عبد المطلب واستلفت نظره إليه بوجه الخصوص ما رأى من حمرة بعينيه صلى الله عليه وسلم [1].

---

[1] تكرر في الروايات ذكر الحمرة التي كانت تبدو في عيني الرسول صلّى الله عليه وسلّم أيام صباه وأنها كانت تسترعي انتباه كل من نظر إليه من هؤلاء الذين توسّموا فيه علامة النبوة

وفاة عبد المطلب
وكفالة أبي طالب عمه صلى الله عليه وسلم له

ورد - في مشهور الروايات- أنّ وفاة جدّه صلى الله عليه وسلم عبد المطلب كانت حينما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ثمان سنوات من عمره قيل أنّ عبد المطلب توفي عن خمس وتسعين سنة وقيل بل عن عشرين ومائة ، وقيل عن أربعين ومائة (فهو ممن عمّر طويلا).

و جاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم مشى خلف نعش عبد المطلب باكيا ، وأنّه دفن بالحجون[1] عند جده قصي وأنه لم يبك أحد -من عظماء قريش- بعد موته مثل عبد المطلب. وقد أوقف سير السوق أيّاما عديدة عقب موته حدادا عليه[2].

و قد ثبت أنه بعد وفاة عبد المطلب تولى كفالة الرسول صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب[3]. قيل أن ذلك كان بوصية من عبد المطلب ، وقيل كان ذلك باختياره صلى الله عليه وسلم أبا طالب على غيره من أعمامه ، وقيل بل أن كفالة أبي طالب له صلى الله عليه وسلم تحصل عليها بحكم القرعة حيث تنازع أعمامَه صلى الله عليه وسلم في كفالته فاقترعوا لذلك.

و قد جاء في الأخبار المقدار الجمّ عن أبي طالب في شفقته بالرسول صلى الله عليه وسلم والحنان عنه وحمايته والذب عنه.

و قد أثر عن أبي طالب همة قعساء وشهامة عليا وثبات في المبدإ منقطع النظير مع دماثة في الخلق وعاطفة رقيقة ونفس متواضعة وأنه عاش على ضيق من ذات اليد وإقلال من المال وأنه ممن حرّم الخمر على نفسه.

---

(1) الحَجُون: بفتح الحاء المهملة وضم الجيم بالتخفيف من جبال مكة وبه مقبرتها في القديم.

(2) الحِداد: بكسر الحاء المهملة ويقال الإحداد أيضا أصله من إحداد المرأة وهو حزنها وتركها الزينة ولبسها السواد لموت زوجها ، ثم استعمل في مطلق إظهار الحزن لما يحدث من المصائب.

(3) اشتهر بكنيته قيل- والتحقيق في اسمه أنه يدعى عبد مناف.

و ممّا جاء من الأخبار عنه في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان لا ينام إلاّ إذا جعل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى جنبه وأنه كان يمنع أهله الأكل والشراب إلاّ بحضور الرسول صلى الله عليه وسلم مما يرى من البركة في محضره صلى الله عليه وسلم فكان يقول لهم -إذا حضر الطعام والرسول صلى الله عليه وسلم متغيب-: " مكانكم حتى يأتي ابني...!" ويقول له صلى الله عليه وسلم: " إنك لمبارك!"

كما جاء في الأخبار أنه هو أيضا كان إذا استسقى، استسقى بالرسول صلى الله عليه وسلم وقد أشار إلى هذا في قصيدته التي مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم[1]. فقال فيها: " وأبيض يستسقى الغمام بوجهه* ثمال اليتامى عصمة للأرامل".

و كذلك ممّا جاء في الأخبار أيضا أنّ قائف[2] بني لِهْب* كان -ذات يوم- ينظر في غلمان الناس فرأى محمدا صلى الله عليه وسلم ثم شغل عنه بشغل فلمّا فرغ اشتدّ حرصه على معاودة رؤيته صلى الله عليه وسلم وجعل يقول: "ويلكم! ردّوا عليّ الغلام فسيكون له شأن...!"

فما كان من أبي طالب إلاّ أن غيب الرسول صلى الله عليه وسلم حذرا مما رأى من ذلك الحرص البليغ الذي أنكره من ذلك القائف...[3]

---

[1] هذه القصيدة اللامية روي أن عدتها ثمانون بيتا وسيأتي إيراد البعض منها في مناسبته.
وكذلك سيأتي إيراد البعض من قصيدته الأخرى النونية التي يقول فيها مخاطبا الرسول صلّى الله عليه وسلّم: والله لن يصلوا إليك بجمعهم* حتى أوسد في التراب دفينا

[2] القائف: من فعل قاف الذي هو من باب «قال» وفعله القيافة. وهو وصف من يعرف الأمر بالنظر في الأثر -فالقائف يعرف نسب المولود بالنظر في أعضائه، وكذلك يعرف من أثر الماشي في مثل الرمل من هو الشخص الماشي. وبنو لِهْب* بكسر اللاّم وإسكان الهاء طائفة معروفة في العرب بكثرة هؤلاء المتعاطين للقيافة ولزجر الطير ونحو ذلك و هم بطن من الأزد باليمن.

[3] تقدم في باب الأحداث الواقعة له صلّى الله عليه وسلّم عند حليمة نظير هذه الواقعة من كاهن بسوق عكاظ وأنّ زوج حليمةأو حليمة نفسها فعَلاً مثل ما فعل أبو طالب من تغييبه صلّى الله عليه وسلّم عن عين الطالب...فلينظر وليحرر؟ ... لعل فيه تخليطا واشتباها في الرواية وإن كان تعدّد الواقعة غير ممتنع عقلا ولا شديد البعد عادة...(و الله أعلم).

سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام لأول مرة مع عمّه أبي طالب

قيل كان ذلك في السنة التاسعة من عمره صلى الله عليه وسلم وقيل بل في الثانية عشرة.

ورد أن أبا طالب كان -في هذا الأثناء- خرج في تجارة إلى الشام (مع القافلة من قريش كما هي عادتهم)، فلما عزم على السفر تعلّق به الرسول صلى الله عليه وسلم وصبّ به صبابة[1] شديدة فما كان من أبي طالب إلاّ أن صحبه معه، فلمّا بلغوا قرية **بُصرى*** من أرض الشام وكان بها بَحيرا[2] الراهب الذي انتهى إليه علم النصرانية إذ ذاك وشاهد بَحيرا القافلة ووقع نظره على الرسول صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى مأدبة من الطعام عنده.

و الحال أنه لم يكن ذلك من عادته معهم. فلمّا حضر القوم إلى المأدبة وكان الرسول قد تخلّف في السرح[3] لم يحضر، جعل بحيرا ينظر في الحاضرين متفقدا الغلام الذي استرعى نظره -قبلا- بوجه خالص...ثم سألهم إذا حضر جميعهم ولم يتخلف أحد؟ فذكروا الغلام الصغير فأكّد بحيرا في حضوره فأحضر صلى الله عليه وسلم.

فجاء من الأخبار ما يفيد أن **بحيرا*** انفرد به صلى الله عليه وسلم يسأله عدّة سؤالات...[4] وأنه ألقى إليه في جملة ما ألقى عليه من الأسئلة -

---

(1) الصبابة: بفتح الصاد المهملة مصدر صبَّ يصَب من باب فَعِلَ يَفْعَلُ مكسور العين في الماضي مفتوحها في المضارع والمعنى من هذا هو الشوق الشديد والولع القوي بالشيء والتعلق البالغ به.

(2) بحيرى: بفتح الباءِ الموحدة التحتية وكسر الحاء المهملة وبفتح الرّاء وآخره ألف مقصورة، قيل أنه لم يدرك البعثة وذكروا بحيرى آخر جاء مع مهاجرة الحبشة سنة سبع من الهجرة إلى المدينة فأسلم فهذا يعدّ من الصحابة.

(3) السّرح: بفتح السين المهملة وإسكان الراء وآخره حاء مهملة له عدّة معان والمراد به هنا دوابّ القافلة التي تركها القوم لمحمد صلّى الله عليه وسلّم يرعاها لهم.

(4) و قد جاء في بعض روايات هذا المحل أنّ بحيرى شاهد من محمد صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يتصل به بعض الآيات الخوارق وهي التي حفزته لأن يتصل بقافلة قريش ويصنع لهم مأدبة الطعام. وذكروا من هذه الآيات الغمامة التي كانت تظله صلّى الله عليه وسلّم وكذلك تظليل الشجرة عليه صلّى الله عليه وسلّم. ثم لمّا اتصل بمحمد صلّى الله عليه وسلّم زاد التعرف إلى علامة أخرى وهي الخاتم الذي كان بين كتفيه صلّى الله عليه وسلّم.

سؤالا طالبه في الجواب عنه أن يقسم له باللاّت والعزّىٰ (الصنمين المقدسين عند العرب وقتئذ) فما كان من محمد صلى الله عليه وسلم حينما سمع ذلك منه إلاّ أن ظهر عليه الاشمئزاز والتضايق من خصوص القسم المذكور ، وامتنع عن الجواب.

إثر هذا أقبل بحيرا على أبي طالب يوصيه خيرا بالرسول صلى الله عليه وسلم ويتوسّم فيه آية الله المعهودة في صفوة الخلق من الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) ثم نصح له بعدم إدخاله أرض الشام موطن اليهود[1] إذ ذاك وحذره شديد الحذر شرهم عليه صلى الله عليه وسلم. وإذ ذاك أرجع أبو طالب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى موطنه فبعث به إلى مكة وقيل إلى المدينة حيث **بنو النجار*** أخوال جدّه صلى الله عليه وسلم عبد المطلب.

---

(1) لم يخصص بعض من كتب في السيرة اليهود بل ذكر معهم النصارى أيضا قال أن بحيرى عزم على أبي طالب أن لا يدخل ابن أخيه محمدا بلاد الشام حذرا عليه من اليهود ومن النصارى ممن هم من أهل المعرفة لتلك العلامات الدّالة على ماله من الشأن وهو الأمر الذي يخشاه الطائفتان على مالهما من النفوذ والسلطان.

و قد أورد فيما يورد من القول بأنه إذا صحّ وأن هذا الرجل -محمدا- هو النبي المنتظر فكيف يفكر في قتله...؟ وأجيب بأن الخوف عليه صلّى الله عليه وسلّم هو من باب ما جرت به العادة من الاحتياط تفاديا من أذيّة-مطلق أذيّة- تقع له من الأعداء.

الدرس 10

حفظ الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في صغره من أمر الجاهلية

ممّا حقّقه أئمة هذا العلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه عليه الصلاة والسلام-سواء في مدة صباه وبعد البلوغ وقبل أن يوحى إليه- لم يشرب مسكرا قط ولا أكل حراما مما يذبح للأصنام ولا حضر موسما للمشركين أو إحتفالا ممّا يرجع إلى تقديس أصنامهم ، بل ولا حضر محضرا قبحه شرعه فيما بعد...[1]

و قد جاءت روايات من الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب منها رواية ابن إسحاق* عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال: لقد رأيتني في غلمان من قريش تنقل الحجارة لبعض ملاعب الصبيان وكلّنا قد تعرّى وجعل إزاره على رقبته...إذ لكمني لاَكِمٌ لكمةً ما أراها وجيعة (و في لفظ من الرواية) -لكمةً شديدة ، ثم قال لي: "شُدّ عليك إزارك! فشددته عليّ من بينهم".

و جاء في رواية أخرى أنّ هذا وقعِ له صلى الله عليه وسلم لمّا أعان عمّه أبا طالب في إصلاحه لبئر زمزم فإنّه صلى الله عليه وسلم كان ينقل له

---

(1) من كلام الأستاذ الإمام محمد عبده* المصري رحمه الله في هذا الموضوع قوله: لم يقم في تربيته مهذب ولم يُعْنَ به مؤدب بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين ، أدب إلاهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء خصوصا مع فقر القُوّام فاكتهل صلّى الله عليه وسلّم كاملا والنّاس ناقصون رفيعا والنّاس منحطّون ، موحدا وهم وثنيّون ، سلما وهم مشاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون- ربيّ بين قوم قد اعتادوا الفجور والفسق وسفك الدماء وغير ذلك من قبيح الأشياء...و مع ذلك كان لا يميل إلى ما إليه يميلون ، ولا يعبد ما يعبدون ولا يفعل ما يفعلون. فكان عليه الصلاة والسلام أحسنهم أخلاقا وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة. وقد حفظه الله منذ صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها وفي الجملة فقد خلق مفطورا على محاسن الأفعال ، مطبوعا على جياد الأعمال.

الحجارة فأخذ من إزاره يتقي به الحجارة من فوق رقبته فغشي عليه صلى الله عليه وسلم ولمّا أفاق سأله عمّه عمّا أصابه فقال: أتاني آتٍ عليه ثياب بيض فقال لي: «استتر»[1].

و جاء في رواية عن عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) عنه صلى الله عليه وسلم: " ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية إلاّ اثنتين من الدّهر كلتاهما عصمني الله منهما:

1) قلت لفتى كان معي من قريش في رعاية الغنم ونحن بأعلى مكة: أبصر لي غنمي حتى أسمُر[2] هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان. فجئت أدنى دار من مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير فقلت ما هذا؟ فقيل لي فلان تزوّج فلانة، فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتني عيناي فنمت فما أيقظني إلاّ حرّ الشمس فرجعت لصاحبي...

2)ثمّ وقع لي في الليلة التالية مثل ذلك...و والله ما هممت ولا عدت لمثلهما حتى أكرمني الله بنبوّته".

و جاء من هذا الباب أيضا رواية عن أم أيمن بركة الحبشية حاضنته صلى الله عليه وسلم أنه كان لقريش -في جملة الأصنام- صنم يدعى بُوانَة يحتفلون به سنويًّا يذبحون ويحلقون عنده ويعكفون حوله يوما إلى الليل.

---

(1) و سيأتي في بناء قريش للكعبة (و ذلك في عهد بلوغه صلّى الله عليه وسلّم السنة الخامسة والثلاثين من عمره) رواية مثل هذه في متعلق مطالبته صلّى الله عليه وسلّم بالستر لما تدعو الضرورة -في بعض الأحوال- إلى كشفه من بدنه. والمتأمل في هذه الأخبار المتشابهة والمتكررة يستقرب كونها من تخليط الروّاة وإعادة الحادث الواحد عدّةمرّات...إذ لا مانع أن يقال في قضية الستر هذه أنّ هيبة الواقعة ورهبة الحادث بالنسبة إليه صلّى الله عليه وسلّم تمنعه من العود -مرّة ثانية- إلى ما كان نهي عنه وحصل له به ذلك الحرج من الرّوع. أمّا احتمال التعدد فجائز غير أنه يظهرمستبعدا عادة ولا تخلو وجوهه من بعدٍ في الجملة.

(2) سمر: من باب نصر ومصدره السمر بوزن النصر و"السمر" بفتحتين وهو في الأصل الحديث ليلا والمناسب لإطلاقه هنا أنه يراد به مطلق اللّهو والتسلية.

فاتفق -ذات يوم- أن عزم عليه الصلاة والسلام في حضور هذا الحفل كل قرابته رجالا ونساء وبالتالي عمّه أبو طالب وعمّاته...فامتنع صلى الله عليه وسلم كما هي عادته. إذ ليست هذه هي المرّة الأولى التي يعزمون عليه فيها بالحضور معهم ومشاركتهم في احتفالاتهم الوثنية فيمتنع غير أنّ في هذه المرّة قابلوه بإنكار شديد وتعنيف بالغ النهاية فغضب عليه عمّه وكان غضب عمّاته أشدّ فأشبعنه لومًا بقولهن: "إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب الآلهة المقدسة عند قومك. وقد أسأت إلى قومك فلا تحضر لهم عيدا ولا تكثر لهم جمعا"...إلخ[1].

فما كان منه صلى الله عليه وسلم بحكم هذا التأثير الشديد والضغط البليغ إلاّ أن ذهب معهم (كارها) وسرعان ما رجع إليهم مرعوبا فزعا، فسألوه: ما دهاك؟ فقال: أخشى أن يكون بي لَمَمٌ؟ !فكان الجميع يقولون له: ما كان الله ليبتليك وفيك ما فيك من خصال الخير...و يحصون من تلك الخصال ما يمكن لهم استحضاره وعده[2]. ثم سألوه صلى الله عليه وسلم: ما الذي رأيت؟ ، فقال: كلما دنوتُ منها (أي الأصنام) تمثّل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: "وراءكَ يا محمد لا تمسسه!". جاء في هذه الرواية عن أم أيمن قولها: " فما عاد صلى الله عليه وسلم إلى عيد لهم حتى النبوّة".

هذا والذي جاء من الأخبار معتمد الثبوت في هذا الباب عنه صلى

(1) ربما كان ارتياع أهله صلّى الله عليه وسلّم من هذه الظاهرة منه لأنهم يرونها بمحل من الشذوذ والخروج عن الجماعة المتحمّل صاحبه عبء اللّوم من الجمهور والنفور عنه. وقريش كما هو معروف هم أولوا المكانة في قلوب الجمهور والتقدير في أعين العامّة. وقد جاء في الأخبار أنّ أنفارا من قريش قلائل...كانوا بهذه المنزلة من الخروج عن ديانة الجمهور فلم يكن لهم في العامّة أي قدم ولو حسنت سيرتهم من النواحي الأخرى وذكروا من هؤلاء: زيد بن عمرو بن نفيل* و ورقة بن نوفل* وعثمان بن الحويرث* وعبيد الله بن جحش*.

(2) هذا القول اشتهر عن خديجة (رضي الله عنها) فيما كانت تشجعه صلّى الله عليه وسلّم به عندما فاجأه الوحي وتأثّر به هيكله الجسماني.

الله عليه وسلم هو ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم: «مازلت أعرف أنّ الذي هم عليه كفر. وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان! » - وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «لمّا نشأت بغضت إليّ الأوثان وبغض إليّ الشعر».

و كذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه أخبر به زوجته خديجة (رضي الله عنها) في قوله: «و الله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط!». وكذلك ما ورد أنه قاله لبحيرا لمّا سأله الحلف باللاّت والعزّى! أو قاله للرجل الذي استحلفه بهما في سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشّام ثاني مرّة بتجارة خديجة ومفاد ذلك القول أنّه صلى الله عليه وسلم لم يحلف بمثل هذا قطّ وأنه من أشدّ ما يكون بغضا لهذه الأوثان.

رعايته[1] صلى الله عليه وسلم للغنم

ممّا تواتر في الأخبار وأورد في كتب سيرته صلّى الله عليه وسلّم أنّه صلّى الله عليه وسلّم باشر في صغره رعاية الغنم. وقد قيل أنّه رعاها لأهل مكة كأجير وعلى هذا رواية[2] قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ما بعث الله نبيّا إلاّ رعى الغنم» فقال له أصحابه: " وأنت يا رسول الله ؟ " قال: " وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط ". فقيل إن القراريط هي أجزاء الدّرهم (أي صرفه الدقيق) فالقراريط إنما يشترى بها الشيء الحقير. وجاء في معنى القراريط غير ما ذكر فقيل هي اسم لموضع بمكة (أي بأجياد). وجاء في رعايته صلى الله عليه وسلم الغنم خلاف ما ذكر وأنّه لم يرعها بصفة الأجير وإنمّا رعاها لأهله عملا بغير أجرة.

و ثّم قول آخر يقول إنّ رعايته صلى الله عليه وسلم الغنم لم تكن بغير بني سعد حينما كان مسترضعا عند حليمة.

و من الأخبار في إثبات رعايته صلى الله عليه وسلم الغنم (بوجه العموم) ما جاء عن جابر (رضي الله عنه): «كنا مع الرسول صلى الله عليه

---

[1] و الرعية بكسر أوّله (أي الهيئة).

[2] رواية واردة عن أبي هريرة (رضي الله عنه).

وسلم نجني الكَبَاث[1] (و هو النضيج من ثمر الأراك) فقال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه كنتُ أجتنيه إذ كنتُ أرعى الغنم». قالوا: " أو كنتَ ترعى يا رسول الله ؟ " قال: " نعم! وما من نبيّ إلاّ وقد رعى الغنم."

جاء من كلام العلماء -في رعايته صلى الله عليه وسلم الغنم- أنّ من حكمة الله تعالى كون الغنم من أضعف البهائم فراعيها يسكن قلبه الرأفة والرحمة واللطف والتعطُّف ، فكان هذا كالتهذيب -ابتداء- من حدّة الطبع والظلم الغريزي للانتقال إلى رعاية العباد.

و ممّا جاء أيضا قول البعض: إنّ وصف الراعي فيه صلى الله عليه وسلم هو كمال (أي وإن استنقص في غيره في بعض الأحوال) كوصف الأمّي أيضا.

حضوره صلى الله عليه وسلم حرب الفجار

و الفِجار[2] مصدر فجر[3] كالمفاجرة (أي الخروج عن الأصل) قيل سمّيت كذلك لأنّ العرب فجرت فيها إذ أنّ سببها وقع في الأشهر الحرم التي تمسك فيها العرب عن الحرب.

و حضوره صلى الله عليه وسلم حرب الفجار هذه من الأحداث التي أثبتها أهل السيرة في تاريخ صغره صلى الله عليه وسلم وقد ورد من الأخبار في ذلك عنه صلى الله عليه وسلم قوله: حضرت حرب الفجار مع عمومتي.

قيل أحضره عمّه أبو طالب وعمره صلى الله عليه وسلم إذ ذاك أربع عشرة سنة[4] وأنّه صلى الله عليه وسلم لم يرم فيها بسهم وإنّما كان ينبّل

(1) بفتح الكاف والباء المخففة بعدها ثاء مثلثة.

(2) الفِجار: بكسر الفاء على وزن القتال.

(3) فجر: يفجر فجورا بوزن خرج.

(4) و جرى بعض مؤلفي السيرة على القول بأنّ سنه صلّى الله عليه وسلّم لمّا حضر حرب الفجار كان عشرين سنة.

عن عمومته أي يردّ عنهم السهام التي يرميهم بها العدو.

و قد جاء في أخبار العرب عن مسمى حرب الفجار عندهم كونها أربع حروب.

(الأولى): كان سببها أنّ **بدر بن معشر*** الغفاري جلس يوما بسوق عكاظ وقال -مفاخرا- باسطا رجله: أنا أعزّ العرب فمن زعم أنّه أعزّ منّي فليضربها بالسيف (أي رجله)، فقام إليه رجل من قبيلة أخرى فضربها بالسيف قيل أسقطها. وقيل بل جرحه فقط فاقتتل الفريقان (أي في الشهر الحرام)[1].

(الثانية): كان سببها أن امرأة من بني عامر كانت بسوق عكاظ معتجرة فأطاف[2] بها شاب من بني كنانة وسألها كشف وجهها فأبت[3]. فعقد لها ذيلها من خلف بشوكة وهي لا تشعر فلمّا قامت انكشفت (من خلفها) فضحك منها النّاس فصاحت المرأة يا آل عامر فثاروا بالسلاح، ودعا الشّاب أيضا قومه بني كنانة فأقبلوا كذلك فاقتتل الفريقان أيضا.

(الثالثة): كان سببها مخاصمة رجل من بني عامر له ديْن على آخر من بني **كنانة*** لغريمه (و قد مطله بالدين) فاقتتلت القبيلتان.

(الرابعة): كان سببها قتل البرّاض[4] الكناني **لعروة الرحال*** من بني **هوازن***. وجاء في رواية القصة في ذلك أنّ **النعمان بن المنذر*** ملك

---

(1) لأنّ سوق عكاظ كانت تقام سنويا في أيام شهر ذي القعدة الحرام.

(2) يقال أطاف بالشيء إذا ألمّ به وقرب منه.

(3) لاحظ بعض مؤلفي السيرة هنا بأن من العرب حتى من البوادي من كانت نساؤهم تغطي وجوههنّ احتجابا عن الرجال. وقد حكيت نفس هذه الواقعة تماما في عهد الإسلام بعد هجرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة من شاب يهودي أطاف بامرأة مسلمة في سوق بني قينقاع وكانت الحادثة هي سبب غزوة بني قينقاع. فلينظر...أفي ذلك اشتباه ؟ في روايات الأخبار ؟ .. أم الحادث تعدّد ؟ والتعدّد ليس من الممتنع عادة!

(4) البراض ابن قيس وعروة ابن عتبة.

الحيرة[1] كان اعتاد -سنويًّا- أن يجهز لطيمة[2] من العير تحمل الطيب والثياب تباع في سوق عكاظ وتستورد الأدم[3] شراء من الطائف.

و كان من النظم في إرسال اللّطيمة أن تكون في جوار رجل من أشراف العرب وكان كلٌّ من البراض وعروة المذكورين بحضرة النّعمان وقت إرسال اللطيمة فكلّمهما النّعمان في أمر الجوار فقال البراض أنا أجيرها على بني كنانة. فقال له النّعمان أبغي من يجيرها على أهل نجد وتهامة[4] ، فقال له عروة: أنا أجيرها لك (أي على الجميع)...!فراجع البراض عروة - في هذه الدعوى- وقال له: أتجير على كنانة (أيضا)؟ فقال: نعم! وعلى أهل الشيح*و القيصوم[5]! وزاد على هذا بأن نال من البراض حظا بالكلام...فلمّا خرجا من عند النّعمان (و قد حملها البراض لعروة في قرارة نفسه)...استغفله حتى شرب عروة الخمر وغنته القينات[6] وأخذ منه السكر فنام جاءه فأيقظه فتراجع عروة وندم وقال له: ناشدتك الله لا تقتلني! كانت منّي هفوة وزلّة...إلخ ، فأبى البراض إلاّ قتله ، فقتله في الشهر الحرام.

بلغ خبر مقتله كنانة قوم القاتل وهم بسوق عكاظ فانطلقوا -سرا- يتسلّلون حتى لا يشعر هوازن بهم قبل أن يبلغهم الخبر. ثم بلغ الخبر هوازن فطلبوا كنانة وتبعوهم بالسلاح وأخيرا كانت الحرب بينهما (طبعا)...فأعانت قريش كنانة (ضد هوازن)...(وهذه حرب الفجار الرابعة هي التي حضرها الرسول صلى الله عليه وسلم مع عمومته).

---

(1) الحيرة : بكسر الحاء المهملة ، كانت ناحية الكوفة و عاصمة مملكة المناذرة الموالين للفرس.

(2) اللطيمة: اسم لقافلة الإبل الحاملة للثياب والطيب.

(3) الأدم: بفتحتين وكذلك الأديم هو الجلد المدبوغ.

(4) يريد النعمان -بنجد وتهامة- جبال وسهول البلاد العربية فنجد هي المرتفعات وتهامة هي المنخفضات وأصل المراد تعميم الجوار في القبائل كلّها.

(5) كلّ من "الشيح" و"القيصوم" نبات بريّ وربما كان أحدهما خاصا بالمرتفعات والآخر بالمنخفضات.

(6) القينات: جمع قينة* بفتح القاف ويراد به هنا المرأة المغنية.

ورد أنّ القتال فيها دام أربعة أيّام[1] وأنّ في اليوم الثالث منها قيد نفسه كلّ من **أميّة*** و حرب[2] **وأبي سفيان*** بن حرب بقيد حتى لا يتمكّن لهم الفرار. ومن ثمّ دُعوا (بالعنابس) أي الأسود.

ثمّ تقرّر بين الفريقين توقيف القتال موقتا على وعد أن يستؤنف من العام المقبل.

و جاء أنّ في هذا القتال كان جانب كنانة في الظفر راجحا على هوازن.

و لمّا حضر موعد استئناف القتال من العام المقبل سعى **عتبة بن ربيعة*** بن عبد شمس في أمر الصّلح ونادى بذلك على أنّ كنانة تودي[3] قتلى هوازن وتعفو عن قتلاها فنجح في مسعاه وانطفأت نار هذه الحرب بذلك.

---

(1) هذا والذي نقله البعض أنّ هذه الحرب دامت أربعة أعوام بحسب ما عرف عن حروب العرب الطويلة المدى لا تستغرق المدّة كلّها في السنة بل توضع في الأشهر الحرم وكذلك في أوقات العمل والكسب ثمّ يستأنف القتال لمدّة ما...و هكذا...

(2) ابني أميّة*بن عبد شمس.

(3) هكذا رسم هذا الفعل بإثبات الواو (تودي) في النسختين المنقول منهما الحلبية والنبوية. والمعروف عن هذا الفعل أنه ثلاثي تحذف في المضارع فاؤه التي هي الواو فيقال: وَدى يَدي وَديا ودِيَةً من باب وعد يعد وعدا وعِدة... ونظيره: وعىٰ يعي ووشى يشي..إلخ ومعناه دفع التعويض في قتل القتيل لمن له الحق في ذلك. وقد حكي عمّا اعتاده العرب في حروبهم بينهم عند الصلح أنّ الفريق الذي يكون القتلى منه أقل يدفع للآخر دية عدد ذلك الزائد فقط.

الدرس 11

شهوده صلى الله عليه وسلم حِلفَ الفُضُول

و هذا -أيضا- ممّا جاء في أخبار سيرته صلى الله عليه وسلم وأنّه كان زمان صباه صلى الله عليه وسلم لأنّ حلف الفضول هذا ورد أنّه وقع إثر الانصراف من حرب الفجار. وجاء في الأخبار في ذلك عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «ما أحبّ أنّ لي بحلف حضرته بدار بني جدعان حُمْرَ النَّعَم وأني أغدر به» [1] والحلف هو اليمين والعهد ولفظ (الفضول) المضاف إليه الحلف جاء في معناه أقوال. فقيل الفضول هي الأموال المغصوبة لأنهم تحالفوا وتعاهدوا على أن يردوا الفضول على أهلها (أي الأموال المغصوبة ظلما).

و قيل الفضول جمع فضل اسم علم. وذلك لأنّ هذا الحلف أشبه حلفا قبله كوَّنه ثلاثة من رجال جرهم كلٌّ منهم يسمى الفضل. وهم **الفضل بن فضالة** * ، **والفضل بن وداعة** * ، **والفضل ابن الحرث** *.و قيل الفضول هي فضول الأموال المرصدة للأضياف وسبل الكرم لأنّ الذين كوّنوه أخرجوا فضول أموالهم وأودعوها للصرف في سبيل الكرم وقيل...إنما سمي حلف الفضول لأنّ الذين انتقدوه- في ابتداء الأمر- من قريش قالوا في الدّاعين إليه والمكوّنين له: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر. وقد أثبت التاريخ في أيّام العرب أنّ حلف الفضول هذا كان أشرف حلف في العرب بإطلاق.

جاء أنّ أوّل داعٍ دعا لحلف الفضول هو **الزبير ابن عبد المطلب** * أحد أعمام الرسول صلى الله عليه وسلم وقيل **عبد الله بن جدعان** *التيمي. وقيل العبّاس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب. وأنّ الذي اجتمع إليه

---

(1) بيان المعنى من لفظ هذا الحديث أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يخبر عن نفسه بأنه لا يقبل ولا يرضى أن ينقض هذا العهد الذي هو حلف الفضول ولو أعطي في مقابل ذلك النقض حُمْرَ النِّعَم ولفظ (حُمْرَ النِّعَم) مستعمل للمال الكثير مع جودة النوع.

وارتضاه من أول مرة من القبائل هم بنو هاشم وزهرة وأسد وتيم وكان الاجتماع بدار عبد الله بن جدعان التيمي. فصنع لهم مأدبة أكل فتعاقدوا -إذ ذاك- وتعاهدوا بالله ليكونُنَّ مع المظلوم حتى يُؤدّى إليه حقّه شريفا كان أو وضيعا ، غنيّا أو فقيرا...إلخ. وجاء في صيغة تأبيد العقدة ودوامها قولهم: (ما بلَّ بحر صوفة وما رسا حِراء[1] وثبير[1] مكانيهما)!. ومما نصّوا عليه في هذا العهد هو أن يردوا «الفضول» على أهلها. ولا يقر ظالم على مظلوم...إلخ. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حاضرا هذا العهد الشريف كما تقدّم ذكره في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم الذي يدلّ صراحة على أنّه صلى الله عليه وسلم كان -بعد الرسالة- يجعل لهذا الحلف مكانة شامخة من الاعتبار. وقد جاء في الخبر المذكور عنه صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول -بعد ما تقدم- تتمة قوله صلى الله عليه وسلم: «ولو دعي به في الإسلام لأجبت»[2]

و جاء من الأخبار في السبب الداعي لتأسيس هذا الحلف أنّ رجلا من زبيد[3] قدم مكة ببضاعة يبيعها فاشتراها منه **العاصي بن وائل***السهمي (أحد كبراء مكة) ولم يؤده حقّه منها ومطله فاستدعى الزبيدي عليه الأحلاف المعروفين بلعقة الدم ، وهم قبائل عبد الدار ، ومخزوم وجمع وسهم وعدي فأبوا أن يعينوا الرجل بل انتهروه.

فلمّا رأى الأمر شرّا رقي أبا قبيس طلوع الشمس ، وقريش حول

---

[1] حراء وثبير* جبلان من جبال مكة.

[2] دلّ هذا على أنّ الإسلام يقف دائما بجانب قضية العدل والحق ويحارب الظلم والعدوان في سائر الحالات لأنّ هذا من أصوله ومبادئه التي بني عليها.

[3] زبيد: بصيغة التصغير مدينة من مدن اليمن وهو -أيضا- اسم لقبيلة من اليمن أيضا ويظهر أنّ المراد هنا الأخير.

الكعبة في أنديتهم ونادى بأعلى صوته يقول شعرا:

يـــا آل فهـــر لمظلـــوم بـــضاعته * بـبطن مكـة نـاءي الـدار والنَّفِـر[1]

و مُحْـرِمٍ أشـعثٍ لـم يقـض عُمْرتَـه * يا للرجال[2] وبين الحِجْرِ[3] والحَجَرِ[4]

إن الحـرَامَ[5] لمـن تمّـت مكارمُـه * ولا حـرام لثـوب*[6] الفـاجر الغُـدَرِ[7]

و عند هذا قام الزبير بن عبد المطلب فدعا لحلف الفضول وجاء أنه بعد انقضاض مجلس الحلف مضى نفر من المتعاهدين إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه البضاعة وردوها على صاحبها ، فكانت أوّل عملية لتنفيذ ذلك العهد وبأسرع ما عرف من الوقت...! وممّا جاء من الأخبار في تنفيذ هذا العهد وتحقيق الوفاء به بأصدق ما عرف من مظاهر الجدّ خبر الرجل الخثعمي[8] الذي قدم مكة للنسك يصحب معه إبنته وكانت وضيئة فاغتصبها منه **نبيه بن الحجاج*** (من سفهاء مكة) فاشتكى ذلك الرجل في أندية قريش فأحالوه على «حلف الفضول» فقام حول الكعبة ونادى: «يا لَحِلفَ الفضول!» فأقبلوا يعنقون[9] إليه من كل جانب قد انتضوا أسيافهم يقولون: جاءك الغوث! وما كادوا يتعرفون خبره حتى أحاطوا بدار نبيه بن الحجاج طالبين إليه الإسراع برد الفتاة إلى أبيها. فناشدهم إبقاءها عنده زمانًا

---

(1) النفر: بالنون والفاء هم عشيرة الشخص الذين يعتز بهم يقول أنه غريب عن بلده وأهله منقطع بعيد عنهم ، وقد رسم في نسخة الحلبية مصحفا بالقاف عوض النون- ومنه في القرآن ما في سورة الكهف من مقال صاحب الجنتين:﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾

(2) يا للرجال...لام الاستغاثة.

(3) الحِجر: بكسر الحاء وسكون الجيم هو المعروف بالحطيم وهو فضاء غير مبني حول الكعبة.

(4) و الحَجَر: بالفتح (الأسود).

(5) الحرام: (أي الاحترام).

(6) ربما يكون لفظ "الثوب" هنا مرادا به النفس لأنّه يطلق -مجازا- لفظ الثوب على النّفس. يقال: فلان طاهر الثوب أي طيب النفس.

(7) الغُدَر: بضم ففتح معدولا عن غادر أو الغَدِر -بفتح فكسر بوزن كَذِب (وصفا).

(8) خثعم* من قبائل اليمن.

(9) مأخوذ من العنق* بفتح العين المهملة والنون وآخره قاف وهو اسم للسير السريع سواء فيه الخيل أو الإبل يقال أعنقت الدّابة إذا سارت سيرا سريعا.

ما قائلا: متعوني بها الليلة فقط! فقالوا: لا! ولا **شخب*** لقحة... [1] فردها صاغرا إلى أبيها.

هذا وقد ورد عن **الحسين بن علي*** (رضي الله عنهما) أنه كان بينه وبين **الوليد بن عتبة*** بن أبي سفيان كلام في حقٍّ للحسين طالبه به ومما قال له: «أحلف بالله لتنصفني حقي أو لأقومنّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ لأدعون لحلف الفضول».قيل معناه: لأدعوَنَّ لحلف كحلف الفضول. فجاء أنّ هذا وقع -من الحسين (رضي الله عنه) بمحضر جماهير الصحابة (رضي الله عنهم) فأقرّوه على ذلك وأيّدوه فيه. الأمر الذي جعل خصمه يضطر لأداء ذلك الحق من فوره.

[1] الشخب: هو الحلب واللقحة هي الناقة أي مدّة حلاب ناقة وهو يراد به -هنا- الزمان اليسير.

سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام «ثانيا»[1]

تاجرا بمال خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)

صحبة غلامها ميسرة

جاء في كتاب سفر السعادة أنه صلى الله عليه وسلم باع واشترى قبل النبوّة وبعدها.

و كان بعد النبوّة وقبل الهجرة شراؤه أكثر ، وبعد الهجرة لم يبع إلاّ ثلاث مرات وشراؤه كثير. وأنّه صلى الله عليه وسلم أوجر[2] واستأجر واستئجاره أغلب. ووكّل[3] وتوكّل[4] وتوكّله أكثر وأنّه صلى الله عليه وسلم أتجر قبل النبوّة وباشر العمل في تجارة خديجة وكان صلى الله عليه وسلم شريكا في التجارة للسائب بن أبي **السائب*** المسمّى صيفي من بني المطلب. وقد قدم عليه يوم فتح مكة فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: مرحبا بأخي وشريكي نعم

---

(1) كونه صلّى الله عليه وسلّم سافر إلى الشام مرتين مرة مع عمّه وهو غلام يافع ومرة وهو فتى تاجر بمال خديجة (رضي الله عنها) هذا هو المشتهر من روايات الأخبار. وثمّ من الأخبار ما يفيد أنه سافر أكثر من مرّتين. فقد قيل أنه سافر إلى الشام ثلاث مرات بزيادة سفرة وهو ابن ثمان عشرة سنة.

(2) المعروف أنه صلّى الله عليه وسلّم لم يعمل أجيرا إلا ما ذكر من رعايته الغنم قبل بلوغ أشده. أو عمله في تجارة خديجة (رضي الله عنها) إن سمي هذا استئجارا. والذي ينطبق عليه أنه قراض ويسمى أيضا المضاربة (فالعامل هنا كشريك).

(3)و(4) وكّل يظهر أنه بصيغة البناء للفاعل أي جعل الغير وكيلا عليه -كما في الخبر الذي يفيد أنّه صلّى الله عليه وسلّم وكل النجاشي* ملك الحبشة في تزوجه بأم المؤمنين أم حبيبة* (رضي الله عنها) التي كانت بأرض الحبشة وقتئذ. و"توكل" بمعنى أنّه ولي الوكالة على الغير وناب عن النّاس في قضاء مهماتهم. هذا هو المناسب لحاله صلّى الله عليه وسلّم. ففهم الجمل المذكورة بهذا الوجه هو المتعين. أمّا أن يجعل فعل وكّل مبنيا للمفعول ، و"توكّل" بمعنى اتكل واعتمد على الغير فيكون عكس ما تقدّم فهو غير صالح المعنى هنا.

الشريك لا يداري[1] ولا يماري[2]. وكان الشريك يفتخر بهذا بعد. وقد وقع الخلاف فيمن هو القائل لذلك القول في الثناء على شريكه أهو الرسول صلى الله عليه وسلم (كما سبق ذكره) أم الشريك هو القائل ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم؟ وكذلك اخْتُلِفَ في اسم شريكه صلى الله عليه وسلم المذكور. فقيل السائب بن أبي السائب صيفي (كما تقدّم عن كتاب سفر السعادة) وقيل السائب بن يزيد وقيل ولده **قيس بن السائب***.و الوارد في الأخبار أن السائب بن أبي السائب من المؤلّفة قلوبهم أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم من غنائم حنين يوم الجعرانة.

و قد جاء في تجارته صلى الله عليه وسلم بمال خديجة أنه سافر بها إلى سوق حُباشة[3] وإلى جُرَش[4] من ناحية اليمن. قيل أنّ ذلك وقع مرتين وقد

---

[1]و[2] الأنسب بتفسير المداراة* والمراء* في هذا المقام أن المداراة هي المخاتلة والمخادعة وإن كان الأشهر فيها أنّها الملاطفة والملاينة.

و أن المراء -على بابه- هو الجدال والمخاصمة وجاء في لفظ آخر من هذه الرواية زيادة على قوله: لا يداري ولا يماري قوله: ولا يشاري وفسرت المشاراة* بأنها المشاحّة في الأمر وكثرة اللجاج فيه. فهي قريبة المعنى من المراء، ولكن تبدو المشاراة أعم من المراء لأنه يخص القول وهي تتناول غير القول من سائر الأعمال الأخرى إذ هي التتبع والاستقصاء وعدم التسامح في الأمور التي يحسن فيها التغافل والتسامح.

[3] حُباشة: بضم الحاء المهملة وتخفيف الباء الموحدّة ثم بشين معجمة.

[4] "جُرَش": بضم الجيم وفتح الرّاء وآخره شين معجمة. وهذه الرواية التي تفيد أنه صلّى الله عليه وسلّم سافر في تجارته قبل النبوّة إلى اليمن أو ناحيته مما لم يشتهر من الروايات الإخبارية.

قيل أنّ جرش هو سوق حباشة بينه وبين مكة مسير ست ليال. والمعروف في تاريخ سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام بتجارة خديجة أنه في السنة الخامسة والعشرين من عمره صلى الله عليه وسلم.

و قد ورد في سبب ذلك أن عمّه صلى الله عليه وسلم أبا طالب قال له - يوما-: «يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتدّ الزمان وألحت[1] علينا سنون* منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة وهذه عير[2] قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيراتها فيتجرون لها... فلو وضعت[3] نفسك عليها لأسرعتْ إليك وفضلتك -لما يبلغها عنك- من طهارتك..... وإن كنتُ أكره أن تأتي الشام وأخاف[4] عليك اليهود ولكن لا نجد

---

(1) ألحت: من مصدر الإلحاح وهو المداومة بمعنى توالت وتتابعت ولفظ "السنين": في الغالب يطلق على سنوات المحل القحط. فيقال في الشدّة: سنو الشدّة. وفي الرخاء: أعوام الرخاء. ويُؤخذ الشاهد على هذا من القرآن العظيم فمنه: ﴿و لقد أخذنا آل فرعون بالسنين...﴾ ومنه في سورة يوسف: ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا...﴾ إلىّ ﴿ثمّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد...﴾ ثمّ لما ذكر وقت انفراج الشدة عبّر بالعام. فقال: ﴿ثمّ يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث النّاس وفيه يعصرون﴾.

(2) العير: بكسر العين المهملة اسم مؤنث قيل أنّه في الأصل لقافلة الحمير ثمّ أطلق على قافلة الإبل إذا كانت معها حمير وتحمل مادة الطعام ، وتجمع على عيرات بكسر العين وفتح الياء المثناة التحتية وبكسر العين وإسكان الياء.

(3) هذا الكلام المحكي عن أبي طالب بأنه هو الذي رغب من الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يلتمس العمل لخديجة جاء نقله في الكثير من كتب السيرة والذي يفهم عن البعض ممن كتب في السيرة أنه لا أبو طالب ولا الرسول صلّى الله عليه وسلّم رغب واحد منهما في هذا بل أن خديجة (رضي الله عنها) هي التي تقدمت بهذا الطلب إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم راغبة منه أن يعمل لها وعندما استشار الرسول صلّى الله عليه وسلّم عمه أبا طالب في هذا الأمر تردّد أبو طالب في الموافقة ابتداء لما كان عليه من الإشفاق على الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثم وافقه على العمل لمّا رآه راغبا في إجابة خديجة لمطلبها هذا.

(4) هذه العبارة التي تفيد التخوف على الرسول صلّى الله عليه وسلّم من اليهود قبل ظهور أمره صلّى الله عليه وسلّم في النبوّة تكرّر إيرادها في شتى الأحاديث الواردة في هذا العهد ويمكن أن يحمل هذا الخبر على أنه مستند إلى ما كان أخبر به البعض من الرهبان حسبما يجدونه في كتبهم كما تقدم ذلك عن بحيرى وغيره من علماء أهل الكتاب.

من ذلك بدًّا». وكان من جوابه صلى الله عليه وسلم قوله: « فلعلّها أن ترسل (هي) إليّ في ذلك». فردّ أبو طالب بقوله: «أخاف أن تولّي غيرك». وبلغ هذا الحوار بينه صلى الله عليه وسلم وبين عمّه مسامع خديجة ، فأرسلت تقول عنه صلى الله عليه وسلم: «ما علمتُ أنّه يريد هذا»...ثمّ أرسلت إليه صلى الله عليه وسلم وكلّمته تدعوه إلى العمل لها فقالت له صلى الله عليه وسلم: « دعاني إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك. وأنا أعطيك ضعف ما كنتُ أعطي رجلا من قومك...»

فتم الاتفاق بينه صلى الله عليه وسلم وبين خديجة على العمل لها فخرج صلى الله عليه وسلم مع العير التي تخرج إلى الشام وبعثت خديجة معه صلى الله عليه وسلم بغلامها **ميسرة*** ليعينه ويخدمه في السفر. ومما ورد -هنا- أنّ خديجة (رضي الله عنها) كانت توصي ميسرة بما يجب عليه من الطاعة له صلى الله عليه وسلم فقالت له: لا تعص له أمرا ولا تخالف له رأيا...!

و كذلك ورد أن جملة أعمامه صلى الله عليه وسلم كانوا حين خروج العير يؤكدون الوصية لرجال القافلة به خيرا صلى الله عليه وسلم.

و قد قيل عن ميسرة المذكور أنه لا يعرف له إسلام. قيل -لأنّه لم يعش بعد البعثة[1].

و قد جاء -في سفره صلى الله عليه وسلم هذا- عدّة أخبار تحكي وقوع خوارق وآيات من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم في أثناء هذا السفر.

فمن ذلك رواية الغمامة التي كانت تظله صلى الله عليه وسلم[2].

---

(1) و ورد في كلام البعض عن ميسرة هذا بأنه كان نصرانيًّا.

(2) حديث تظليل الغمامة له صلّى الله عليه وسلّم كعامة ما جاء في هذا الباب من الأخبار وليس من المتواتر المقطوع بصحّته بل جاء على طريق آحاد فقط. ثمّ إنّ هذه الخوارق المحكية -هنا- ليس شأنها مما يحيله العقل عند التأمل. وقد جاء في كلام البعض أن الغمامة وتظليل الشجرة وتظليل الشخصين (اللذين يعتبران ملكين) له صلّى الله عليه وسلّم هو كلّه من الأمور التي لم تنطبق عليها المشاهدة العامة. فقد روي أنه بينما كان يراها البعض لم يكن يراها البعض الآخر في نفس الوقت وربما رئيت في وقت دون وقت وقد وقع الاختلاف في مكان وقوع هذه الخوارق بين رواياتها. فأورد حديث الغمامة وتظليل الشجرة في سفره صلّى الله عليه وسلّم الذي سافر فيه بتجارة خديجة وكان اجتماعه بالراهب المسمى نسطور كما هو السياق هنا. والبعض جعل واقعة

و منها رواية الراهب **نسطورا*** ببلد **بُصْرَىٰ*** من أرض الشام واجتماعه به صلى الله عليه وسلم. فجاء في هذه القصة أنه صلى الله عليه وسلم لما نزل حول بصرى استراح تحت شجرة قديمة قيل زيتون [1] فلاحظ ذلك الراهب هذه الآية لما هو مسطور عنده في الكتب من أنّ تلك الشجرة كانت في القديم لا يقصدها إلاّ الأنبياء ولم ينزلها أحد من غيرهم قطّ وأنّ من علامات النبي المنتظر أن ينزل -يوما- عند هذه الشجرة (كحال الأنبياء قبله). فكان هذا حافزا للراهب أن يخرج من صومعته ويقصد السوق ليتعرّف إلى هذا الرجل الذي دلّت علامات الكتب على أنه النبي المنتظر. فخرج إلى السوق وصار ينظر في وجوه القوم حتى رآه صلى الله عليه وسلم فزاد التعرف إلى علامة أخرى هي الحمرة التي بعينيه صلى الله عليه وسلم فقصد نسطورا- ابتداء- ميسرة خادمه صلى الله عليه وسلم وسأله عن شأنه صلى الله عليه وسلم فأفاده ميسرة بما يعرف عنه صلى الله عليه وسلم ثم اتصل به صلى الله عليه وسلم وأخذ يسأله وينقب في البحث حتى شاهد الخاتم (الخلقي) الذي بين كتفيه صلّى الله عليه وسلم.

كما جاء في رواية أنّ نسطورا كان أثناء سؤاله له صلى الله عليه وسلم ينظر في رق [2] مكتوب عنده ثم يورد تلك الأسئلة.

الغمامة في سفره صلّى الله عليه وسلّم الأول مع عمه أبي طالب وكان الرّاهب الذي اجتمع به إذ ذاك هو المسمى بحيرى* وعلى هذه الرواية فإنّ تظليل الشجرة كان مع تظليل الملكين له صلّى الله عليه وسلّم وقد رِيء ذلك كله في سفره الذي كان إلى الشام بمال خديجة.

(1) أورد بحث في حديث الشجرة هذا بأنه من الممتنع -عادة- أن تبقى هذه الشجرة من عهد الأنبياء قبله صلّى الله عليه وسلّم إلى زمنه لأنه يلزم على هذا أن تبقى عدّة قرون... ولهذا أجيب بأنها ربما كانت شجرة زيتون ، قالوا فإن من شجر الزيتون ما يبقى ثلاثة آلاف سنة. هذا.... وليلاحظ ما تقدم عن البعض من كون الشجرة كالغمامة رئيت مجرّد صورة في وقت نزوله صلّى الله عليه وسلّم ثم لم تشاهد بعد ذلك...! (و الله أعلم).

(2) الرَّق: بفتح الراء هو جلد رقيق يتخذ ليكتب فيه ، وقيل أن الرق يطلق أيضا على الصحيفة البيضاء المعدّة للكتابة.

ثمّ إنّ بعض النفر من أصحاب العير شاهد هذا فظن شرا بالراهب فدعا بالقوم: يا آل غالب [1]! ففزع الراهب لذلك والتجأ راجعا إلى صومعته فأغلقها على نفسه. ثم أطلّ على القوم وأبدى لهم خبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأنّه الذي تنطبق عليه علامات النبي المنتظر وذكر لهم من تلك العلامات نزوله صلى الله عليه وسلم تحت تلك الشجرة وغيرها مما رآه فيه صلى الله عليه وسلم...

و مما جاء من هذه الأخبار أيضا: أنه وقع بينه صلى الله عليه وسلم وبين رجل في السوق اختلاف في شأن البضاعة وثمنها فاستحلفه الرجل باللاّت والعزّى (الصنمين المقدسين إذ ذاك عند قريش) فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: إنّي لم أحلف بهما قطّ (أي ما أنا بالذي يحلف بهما على معنى الاستنكار والتبرّي)...

فقال له ذلك الرجل: القول قولك! (على معنى التبرير في الجميع) [2]، ثمّ إنّ الرجل اختلى بميسرة فقال له: صاحبك هذا نبي ولا شك... [3]

كما جاء -أيضا- في هذه الأخبار من آياته صلى الله عليه وسلم وبركته في هذا السفر أنّ جملين من عير خديجة قد أعياهما السير فوقعا طريحين في طريق رجوع القافلة فجاء صلى الله عليه وسلم وعوّذهما [4] فقاما كأن لم يصبهما شيء بل كانا السابقين في الدخول إلى مكة في جملة رواحل العير. وقد وردت الأخبار عن تجارته صلى الله عليه وسلم بمال خديجة في سفره هذا أن الصفقة كانت رابحة ربحا عجيبا ، الأمر الذي لم يقع قبله ما يماثله البتة.

---

[1] هذه العبارة دعوة للنجدة في وقت الفزع وغالب هو الجد المعروف في سلسلة نسب قريش غالب بن فهر.

[2] أي فصدّقه هذا الرجل وبرّر قوله في كل من مسألة الخلاف بينهما في السلعة ومسألة كراهيته للحلف بالصنمين.

[3] يدل هذا على أن هذا الرجل لم يكن من العامة بل كان أحد أهل العلم.

[4] لم يوردوا صفة تعويذه صلّى الله عليه وسلّم بماذا عوذهما.

فنقل عن ميسرة قوله: لقد أتجرنا لخديجة في أربعين سفرة ما ربحنا فيها قط مثل هذه المرة...

و جاء من ميسرة أنه من يوم سفره هذا مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم تملك قلبه حب النبي صلّى الله عليه وسلّم والميل إليه بعاطفة ودّ وحنان شديدة جدًّا.

و جاء أن ميسرة كان - بعد الرجوع من هذا السفر- شبه الولهان لما شغف به من مشاهدته ما شاهد من حاله صلّى الله عليه وسلّم فحدّث مولاته خديجة بكل ما شاهد من ذلك دقيقا كان أو جليلا.

و عند ذلك زادت خديجة (رضي الله عنها) في معلوم الاستئجار الذي وعدت به في ابتداء الأمر ووقع عليه الاتفاق بينه صلّى الله عليه وسلّم وبينها ، فأعطته صلّى الله عليه وسلّم ضعف المقدار المتفق عليه. قيل ومجموع ذلك هو أربع بكرات[1] .

---

(1) البَكر: بفتح الباء ومؤنثه البكرة وهو الفتيّ من الإبل ويجمع المذكّر على أبْكُر بهمز وإسكان الباء وضم الكاف والمؤنث على بكار بكسر الباء وربما جمع على صيغة الجمع السالم بكرات بفتحات كما نقل هنا.

الدواعي والبواعث التي حدت بأم المؤمنين الكبرى خديجة بنت خويلد الأسدية رضي الله عنها لأن ترغب في الزواج به صلّى الله عليه وسلّم وتتقدم (هي) إليه صلّى الله عليه وسلّم بعرض هذا الأمر عليه.

الأخبار مطبقة على أن خديجة *بنت خويلد بن أسد كانت - في نساء قومها -تمتاز بصفة خاصة بمزايا فذة ومواهب مرموقة يندر وجودها في عامة النساء. فقد جاء أنها كانت على جانب عظيم من جودة العقل مع ميزة خاصة في فرط الذكاء وأنها كانت توصف بأنها امرأة حازمة[1] ، جلدة[2] مع مالها من الشرف في الأرومة[3] والنفس وما وهبها الله من جمال الخلق وسعة المال. وجاء أنها كانت تلقّب -في العصر الجاهلي- بالطاهرة لعفافها ورفعتها ، كما تلقّب -أيضا- بالسيّدة لما سادت به نساء قريش.

فقد ورد أنّ ما استفادته خديجة (رضي الله عنها) من غلامها ميسرة عنه صلّى الله عليه وسلّم في سفر تجارته بمالها المذكور كان شيئا زائدا يضاف إلى ما كانت استفادته من علمها ونظرها الخاص في شأنه صلّى الله عليه وسلّم وجعلها تطمح أن يكون لها نصيب في هذا الخير الذي هو أعلى ذروة في أماني كلّ ذي همّة طموح.

فمن ذلك ما جاء في رواية (من مرويات ابن اسحاق) أنه كان لنساء قريش عيد خاص بهنّ يجتمعن فيه بالمسجد ، فاتفق ذات يوم أن جاءهنّ يهودي - وهنّ في اجتماعهن المذكور- فقال لهن: يا معشر نساء قريش

---

(1) حازمة: صاحبة ضبط في الأمور.

(2) معنى "جلدة" قوية والأغلب أنّه يراد به هنا القوّة المعنوية وإن كان في الأصل لقوّة الذات (ماديّا) ولا يبعد أن يكون مرادا هنا أيضا.

(3) الأرومة: بضم الهمزة وفتحها اسم للأصل واستعماله لأصل الشجرة والموارد -هنا- النسب فحاصل المعنى أنّ خديجة (رضي الله عنها) كانت شريفة من حيث النّسب شريفة من حيث الأخلاق.

يوشك[1] فيكنّ نبيّ قد قرب زمانه فأيتكنّ استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل...!فأكبرت النسوة ذلك القول منه وعددنه قبيحا فأغلظن له القول حتى حصبته البعض منهن بالحصى. وتفرّدت خديجة من بينهنّ فأغضت على قول اليهودي فلم ترد عليه بشيء ووقع قوله ذلك من نفسها موقعا... (فكانت تنظر إلى أبعد مما نظر نساؤها)...، هذا وقد ورد أنّه بعد أخبار ميسرة لخديجة بمشاهداته لما وقع منه صلّى الله عليه وسلّم في سفره المذكور بلغ بها الحال لأن تهتم بأمره صلّى الله عليه وسلّم وتدرسه بإمعان وعناية زائدين، فأخبرت بذلك ابن عمّها **ورقة بن نوفل*** الذي كان من رجال العلم المعروفين في قريش لممارسته أهل الكتاب والأخذ عنهم حتى شذ عن جمهور قومه بتديّنه بالمسيحية ورفضه ديانة الوثنيّة السائدة فيهم (إذ ذاك). فجاء أنّ خديجة (رضي الله عنها) جلست معه لمداولة هذا الحديث فجلسا خصوصيا وطلبت إليه إبداء ما عنده في خبره صلّى الله عليه وسلّم. وجاء ممّا أجاب به ورقة خديجة أن قال لها: «قد عرفتُ أنه كائن لهذه الأمّة (العربية) نبي منتظر وقد حان زمانه، فإن كان هذا (أي ما حدّثته به عنه صلّى الله عليه وسلّم) يا خديجة حقا فمحمد هو نبيّ هذه الأمّه.»

(1) يوشك: أي يقرب أن يظهر فيكنّ أي في المجتمع والجيل الذي أنتنّ فيه.

الدرس 12

زواجه صلّى الله عليه وسلّم بأمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها

من الثابت أنّ هذا الزواج منه صلّى الله عليه وسلّم هو أوّل زواج له وأنّ ذلك كان في سنّ خمس وعشرين سنة من عمره صلّى الله عليه وسلّم.فقد ورد أنه وقع بعد شهرين لسفره صلّى الله عليه وسلّم إلى الشام بتجارة خديجة رضي الله عنها. أمّا هي فكان سنّها حينئذ أربعين سنة على أحد الأقوال. وقيل أقلّ من ذلك ، وعلى كلّ فالمعروف -في الأخبار- أنها تزوّجته صلّى الله عليه وسلّم وهي أسنُّ منه وأنّها ثيب قد تزوّجت قبله رجلين الأوّل يدعى النباش[1] **أبا هالة بن زرارة*** التميمي (لم يدرك الإسلام) فولدت له**هندا*** **وهالة*** (و كلاهما ذكر) ، أدركا الإسلام وأسلما فهما صحابيان (رضي الله عنهما)[2]. ثمّ بعد النباش تزوّجت **عتيق بن عابد*** (بالباء الموحدّة والدال المهملة) أو عائذ (بالهمزة والذال المعجمة)؟ ؟ ...من بني مخزوم فولدت له **هندا*** (أنثى) أدركت الإسلام وأسلمت فهي صحابية (رضي الله عنها).و قيل العكس وأنّها تزوّجت عتيقا المخزومي أوّلا...ثمّ النباش التميمي ثانيا. ثمّ بعد تأيّمها من الرجلين تمنعت خديجة رضي الله عنها من الزواج رغم الرغبة الملحّة فيها والطلب المتكرر عليها من سادات قريش ، حتى عرضت نفسها على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ورد من خبر عرض خديجة الزواج عليه صلّى الله عليه وسلّم بها عن نفيسة[3] بنت مِنيَّة قولها: خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما وهبها الله من

---

(1) المشهور في اسمه هو الكنية (أبو هالة*) وقيل أنّ اسمه هند أيضا.

(2) المعروف بالصحبة هو هند وأنّه كان من روّاة الحديث يروي عنه الحسن* ابن علي ويقول: حدّثني خالي هند...
أمّا هالة أخوه فلم تشتهر صحبته فلعله لم يدرك هذا ما نقله البعض.

(3) أخت يعلى بن منية* وكلاهما من الصحابة رضي الله عنهما ويبدو أنّ حديثها هذا حدّثت به قبل الإسلام كما يدل عليه تسميتها له صلّى الله عليه وسلّم (محمد)...كما يحتمل أنه على حكاية الحال الواقعة وأنّ ذلك الحديث حدّثت به بعد الإسلام.

الخير والكرامة أرسلتني دسيسا[1] إلى محمد بعد رجوعه من العير...فجئته فقلت يا محمد ما يمنعك أن تتزوّج ؟ فقال: ما بيدي ما أتزوّج به ، قلتُ: فإن كُفِيتَ ذلك ودُعِيتَ إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ ، قال: فمَنْ ؟ ...قلتُ: خديجة بنت خويلد. قال: كيف لي بذلكِ[2] ...؟ فجئتُ خديجة فأخبرتها بذلك فأرسلت إليه ببيان الكيفية التي يخطبها بها من وليها.

و ورد أنّ بعد رجوع نفيسة لخديجة من عنده صلّى الله عليه وسلّم صارحت خديجة الرسول صلّى الله عليه وسلّم برغبتها فيه فأرسلت إليه صلّى الله عليه وسلّم تقول له: يا ابن العمّ إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خُلُقِكَ وصدق حديثك. فأبلغ صلّى الله عليه وسلّم الخبر لأعمامه فخطبوها له. قيل الخاطب له هو أبو طالب وقيل **حمزة*** رضي الله عنه.

كما جاء في بعض الروايات أنّ خديجة استقدمت إليها أبا طالب وأشارت عليه بأن يكلّم في خطبتها عمها **عَمْرُ بن أسد***. وأنّ عمها هذا لمّا بلغه أنّ الخاطب لها هو محمد صلّى الله عليه وسلّم قال: هو الفحل لا يقرع أنفه...[3]

و كون المزوّج لها هو عمّها المذكور هو الذي صحّحه المحققون خلافا للخبر الذي يقول أنّه أبوها **خويلد* بن أسد*** وأنّه صدر ذلك منه حال سكر

---

(1) قيل أي خفية.

(2) بكسر الكاف لأنه خطاب للمؤنث.

(3) لا يقرع*: بالرّاء وما يوجد بنسخة الحلبيّة من رسمه الدّال هو تصحيف ولا شك. وجاء في هذه العبارة أنها مثل عند العرب يضرب لخاطب المرأة إذا كان كفؤا والأصل في ذلك أنّ فحل الإبل يضرب وجهه لصدّه عن الناقة التي لا يحبون نتاجها منه.

ثم أنّ هذه العبارة نفسها نقلها البعض عن أبي سفيان حينما بلغه تزوج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بابنته أم حبيبة* رضي الله عنها وذلك نحو السنة السادسة للهجرة قبل إسلام أبي سفيان. فلينظر ما هو الأصح ؟ وإن كان جائزا ثبوت القولين معا.

فألبسته خديجة رضي الله عنها حلّة جديدة وضمخته بالطيب فلما أفاق وسأل عن الخبر فعرف به امتنع قائلا: أزوج ابنتي يتيم أبي طالب...؟ لا لعمري...! فراجعته خديجة في ذلك وقالت: « أترضى أن يظهر عليك عار السكر[1]؟ » ومازالت به حتى رضي... ومما استدل به على صحة الخبر الأول (دون الأخير) كون أبيها خويلد مات قبل حرب الفِجار.

كما جاء أنّ المزوّج لها هو أخوها **عمرو ابن خويلد***...

جاء أنّه صلّى الله عليه وسلّم أصدق خديجة رضي الله عنها أربعمائة دينارًا وقيل عشرين بكرة وقيل اثنتي عشرة أوقيّة ونشًّا...[2].

و أنه حضر مجلس العقد كل من **أبي بكر*** الصديق رضي الله عنه **وورقة بن نوفل***. كما حضر عامة سادات قريش وخطب في المجلس أبو طالب من جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكان مسرورا إلى حدّ بليغ ومما قال: «الحمد لله الذي أذهب عنّا الكرب ودفع عنّا الغموم»...كما خطب - أيضا- ورقة بن نوفل من جهة خديجة رضي الله عنها ، وأنّه صلّى الله عليه وسلّم أولم لعرسه هذا وليمة معتبرة نحر فيها الإبل وأطعم العموم. وكذلك خديجة رضي الله عنها من جهتها أولمت وأقامت حفلات لجواريها وذويها...

ذكروا أنّ زواجه صلّى الله عليه وسلّم بخديجة تمّ لمضي شهرين وخمسة عشر يوما من سفره صلّى الله عليه وسلّم إلى الشام بتجارتها.

و قد ثبت أنّ جملة أولاده صلّى الله عليه وسلّم ما عدا إبراهيم الذي ولد له من سريّته **مارية*** رضي الله عنها هم من خديجة رضي الله عنها. فقد ولدت له صلّى الله عليه وسلّم **القاسم*** **وعبد الله*** **وزينب ورقيّة*** وأم

---

[1] عدّ السكر بمثل حال هذه القصة معرّة معروف في العرب وخصوصا الأشراف منهم.

[2] النَشّ: بفتح النون وتشديد الشين المعجمة. جاء فيه أنّه يطلق على النصف من كل شيء. والذي جاء فيه هنا أنه مقدار عشرين درهما. وقد اشتهر أنّ الأوقية فيها أربعون درهما. فعلى هذا يكون جملة الصداق خمسمائة درهم وقد نص البعض من مؤلفي السيرة على أنّ هذه الدراهم كانت ذهبا لا على المشتهر من إطلاق لفظ الدرهم على ما كان من الفضة.

كلثوم وفاطمة الملقبة بالزهراء* والبَتُول...

فجملة ما ولد له صلّى الله عليه وسلّم سبعة ، الذكور ثلاثة والإناث أربع.

ولدت خديجة رضي الله عنها ذكرين والبنات الأربع والابن السابع (الأخير) هو إبراهيم المولود له مؤخرا من مارية.

و قد أقامت خديجة رضي الله عنها في عشرتها الزوجية معه صلّى الله عليه وسلّم خمسا وعشرين سنة كانت فيها المثال الأعلى والطراز الرفيع في شرف المقصد من الزواج والمهمة العليا منه [1].

فمن مكانتها -و هذا من حيث فضلها في خصوص الإسلام- التي عزّ إدراكها على غيرها ومزيّتها التي بلغت شأوا قصر عنه من سواها... كونها أوّل النساء إسلاما...بل أول أمة الإجابة على الإطلاق في عموم المكلفين. وأنّها شاركت في تبليغ [2] دعوته صلّى الله عليه وسلّم بمالها وبرأيها ، وقد كانت الأنيس المشجع له صلّى الله عليه وسلّم عندما فاجأه الوحي لأول مرة (و ناهيك به عبئا ثقيلا وحالا رهيبا)! فمن حيث المال كونها أنفقت مالها في سبيله صلّى الله عليه وسلّم قبل النبوة وبعدها. وهي التي كانت تزوده في تحنّثه صلّى الله عليه وسلّم بغار حراء قبيل مجيء الوحي.

و كانت - حينما فاجأه صلّى الله عليه وسلّم الوحي وتأثرت به قوّاه الجسمانية - تسعى له في التداوي والرقية وتسأل- مع ذلك- ابن عمها **ورقة بن نوفل*** الذي عرف بالعلم اللاهوتي ، وتعرض عليه ما جدّ من الحال عليه صلّى الله عليه وسلّم لتتعرف الحقيقة عمّا إذا كان الأمر يرجع إلى النبوّة -كما تتوّسم- أم لا؟ حتى أنها كانت تكشف رأسها بمحضره صلّى الله عليه وسلّم لتختبر ما يلابسه صلّى الله عليه وسلّم أهو من جهة الملك أم

(1) أي بالنظر لكونها مطلق زوجة وبقطع النظر عن فضلها في الإسلام.

(2) على معنى المشاركة بالإعانة على التبليغ إذ كانت معينا له صلّى الله عليه وسلّم على تبليغ دعوته بوسائل شتّى.

من جهة الشيطان[1]؟؟ ثم تشجعه صلّى الله عليه وسلّم بالقول كقولها له: ما كان الله ليخزيك وفيك ما فيك من خصال الخير. ثمّ تأتي على تلك الخصال عدّا...إلخ

أمّا ما جاء من الأخبار عنه صلّى الله عليه وسلّم في مطلق فضلها رضي الله عنها ، فمن ذلك ما ورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم بشّرها في مرض موتها على لسان جبريل (بطريق الوحي منه تعالى) أنها زوجته صلّى الله عليه وسلّم في الجنة مع **آسية*** ومريم **وأخت* موسى** عليهنّ السلام ، وأن الله سبحانه يقرئها[2] السلام[3] ... و أنّ لها بيتا في الجنة من ياقوتة مجوفة لا نصب فيه ولا صخب[4].

و من ذلك ما ورد عنه صلّى الله عليه وسلّم من قوله: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون...ثمّ قال صلّى الله عليه وسلّم: وفضل خديجة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[5].

و من ذلك ما ورد عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه أجاب به زوجه أم المؤمنين **عائشة*** الصدّيقة رضي الله عنها حيث كان يذكر خديجة وقالت له: «قد أبدلك الله خيرا منها» ، إذ أجابها صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «والله ما أبدلني خيرا منها ، وقد آمنت بي إذ كذّبني الناس ، وآتتني مالها إذ منعني

---

(1) سيأتي التعرض لمواقف خديجة هذه في موضوع الوحي من حيث الرواية والتعليق.

(2) إقراء السلام وقراءة* السلام: بمعنى تبليغه. والأوّل رباعي متعدّ بنفسه -كما هنا- والثاني يتعدّى بحرف الجر(على) يقال "اقرأ عليه السلام" بمعنى سلّم عليه بصيغة الأمر.

(3) سلاما خاصا بها. وأكرم بها منقبة.

(4) علق بعض العلماء على هذا الخبر بأنه مما جاء من الجزاء بجنس العمل ونظيره. وذلك لكون خديجة رضي الله عنها هي التي تكوّن منها أول بيت في الإسلام أي وأنها التي سعت في تكوينه.

(5) هذه رواية في لفظ هذا الحديث ذكر فيها خديجة رضي الله عنها وتبدو غير مشتهرة. وإنما المشتهرة هي التي جاء فيها عائشة رضي الله عنها عوض خديجة رضي الله عنها هكذا(..وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).

الناس ، ورُزِقْتُ الولد منها وحُرِمْتُه من غيرها». هذا وقد تناول البعض من العلماء مسألة البحث في أفضلية امرأة في الإسلام ووقع بينهم اختلاف فيمن هي ؟ فمن قائل خديجة... ومن قائل فاطمة...ومن قائل عائشة... والكل يدلي بحجج وشواهد...غير أنّه لا بدّ أن يقال إذا روعيت القاعدة المعروفة من كون الأفضلية إنما هي بالسابقية وبالعمل زمان الضيق والشدة. تحقق فضل خديجة رضي الله عنها على سائر أزواجه وبناته صلّى الله عليه وسلّم وبالأحرى بقيّة نساء الإسلام.

هذا... وسيأتي ذكر بقية مما يتعلق بفضل خديجة رضي الله عنها عند ذكر وفاتها رضي الله عنها وذلك في سنة عشر من النبوة.

أولاده صلّى الله عليه وسلّم من خديجة رضي الله عنها

المعروف كما مرّ ذكره أنّ جملة ما رزق صلّى الله عليه وسلّم من الأولاد سبعة ، ثلاثة أبناء وأربع بنات. وكلّهم من خديجة رضي الله عنها ما عدا الابن الأخير الذي سمّاه **بإبراهيم*** فإنّه ولد له من سريته **مارية القبطية*** وذلك سنة ثمان من الهجرة ثمّ توفي في سنة عشر ، وسيأتي التعرض لولادته ووفاته في محلّهما.

و قد عرف أنّ أولاده الذكور كلّهم ماتوا صغارا لم يجاوزوا السنة الثانية من العمر. وأنّ البنات الأربع كلهنّ عشن حتى تزوّجن وتوفين في حياته صلّى الله عليه وسلّم ما عدا فاطمة رضي الله عنها فإنها عاشت بعده صلّى الله عليه وسلّم حوالي الستة أشهر. وكأنّ الاتفاق حاصل على أنّ أوّل ولد وُلِدَ له صلّى الله عليه وسلّم من خديجة رضي الله عنها -طبعا- هو الابن المسمّى بالقاسم وبه كان صلّى الله عليه وسلّم يكنّى قبل النبوّة (و بقى كذلك في الإسلام أيضا). ورد أنّه عاش حوالي السنتين (على أحد الأقوال). وفي الباقي عدّة أقوال مختلفة فيمن هو الثاني والثالث...إلى السادس (فبعض الأقوال على أنّ الثاني هو الذكر عبد الله ثمّ زينب ثمّ رقية ثم أم **كلثوم*** ثمّ فاطمة أصغر الجميع.... والبعض على أنّ البنات أكبرهن رقية

وأصغرهن أم كلثوم...إلى غير ذلك من وجوه الترتيب.) وكأن البعض من العلماء يعتمد الخبر الذي يقول أنّ أول ولد له صلّى الله عليه وسلّم من خديجة كان ذكرا وهو **القاسم*** وآخر ولد لها كان ذكرا أيضا وهو المسمى **بعبد الله*** والملقب بالطاهر والطيب وهو المولود بعد النبوة. فتكون البنات الأربع قد توسطن بين الابنين. وقد جاء أنّ وفاة هذا الولد (عبد الله) كان وقتما ناصبه صلّى الله عليه وسلّم كفّار قريش العداء.

فقال العاصي[1] بن وائل: « قد أصبح محمد اليوم أبتر*...»

وجاء -في بعض الروايات- أنّ نزول سورة الكوثر كان في هذه المناسبة... ، أمّا البنات فقد تزوّجت زينب رضي الله عنها ابن خالتها **أبا العاص*** بن الربيع رضي الله عنه وتوفيت سنة ثمان من الهجرة ، كما سيأتي ذكره في محلّه. وتزوجت[2] **رقية*** رضي الله عنها **عثمان بن عفان*** رضي الله عنه وتوفيت في السنة الثانية من الهجرة... كما سيأتي ذكره أيضا...فتزوج عثمان أختها أم كلثوم رضي الله عنها وتوفيت سنة تسع من الهجرة كما سيأتي ذكره في محله أيضا. وتزوجت **فاطمة*** رضي الله عنها **عليّ بن أبي طالب*** رضي الله عنه وكانت وفاتها بعد وفاته صلّى الله عليه وسلّم بستة أشهر[3].

---

[1] و قيل أنّ القائل ذلك هو عمّه صلّى الله عليه وسلّم أبو لهب* والمعنى على المتعارف عند العرب إذ ذاك في الأبتر أنّه المقطوع النسل من الذكر خاصة.

[2] و في المتداول من الأخبار أنّ كلاً من بنتي الرسول صلّى الله عليه وسلّم رقية وأم كلثوم قد تم عليهما عقد زواج قبل عثمان ولكن لم يقع الدخول الأولى لعتبة بن أبي لهب* والثانية لأخيه عتيبة* بالتصغير. وكان ذلك قبيل الدعوة الإسلامية. فلما جاء الإسلام كان سببا في فسخ هذا العقد. ويوجد - أيضا - من الروايات ما يفيد أنّ عملية الزواج تمت فعلا ولكن لما جاء الإسلام وكان أبو لهب في أوّل المناهضين له أمر ابنيه بطلاق ابنتي النبي صلّى الله عليه وسلّم.

[3] لا التفات لما ورد من الأخبار الشاذّة الغريبة في كون عدّة أولاده صلّى الله عليه وسلّم -من خديجة- تزيد على ما ذكر... وأنّ منهم التوأمين الذكرين (الطيب والمطيب) أو (الطاهر والمطهر) ومنهم غير التوأمين أيضا..؟ فكل هذا لم يثبت.كما لا ثبوت -أيضا- لما يذكر من ولادة غير

الدرس 13

حكمه صلّى الله عليه وسلّم في قضية النزاع الخطير الواقع بين قبائل قريش على الحجر الأسود حينما جُدّد بناء الكعبة المشرفة

هذا الحادث من أعظم الأحداث التي تضمنتها سيرته صلّى الله عليه وسلّم بل لعله أعظم حدث في دور السيرة الأوّل (أي دور ما قبل النبوة) وذلك من حيث الناحية الاجتماعية وعمله صلّى الله عليه وسلّم فيها ولما له من الصلة بما يستقبل من شأنه صلّى الله عليه وسلّم في إصلاح المجتمع الإنساني عموما ولمّ شعث الأمة العربية خصوصا ، والنهوض بها على يده صلّى الله عليه وسلّم. فكأنه من الإرهاصات لحادث النبوّة الأعظم وتقدمة لما سيبدو من أمر الإسلام وفأل حسن صدّقه ما بعده من دعوته صلّى الله عليه وسلّم. والوارد في تاريخ هذا الحادث أنّه كان عند بلوغه صلّى الله عليه وسلّم السنة الخامسة والثلاثين من عمره. فكان قبيل ابتداء نزول الوحي عليه صلّى الله عليه وسلّم الذي كان في تمام السنة الأربعين من عمره صلّى الله عليه وسلّم.

و قد جاء من الأخبار في تجديد قريش لبناء الكعبة أنه جاء سيل فصدع بنيانها وكان ذلك بعد وهن من حريق أصابها قبله ، فارتأى ذوو الأمر من قريش أن يجددوا بناءها جملة. ومما قرّروه في شأن النفقة الخارجة في هذا البناء (و الحاصلة بوجه الجمع من الجمهور) أن تكون من كسب طيب فلا يكون فيها مهر بغي[1] ولا ربا... ولا ما حصل من مظلمة بسائر وجوهها. فورد أن القبائل اجتمعت للعمل وتقدم الإشراف للعمل ومباشرته بأيديهم من نقل الحجارة من أجياد يحملونها على أعناقهم كسائر

خديجة ومارية من أزواجه صلّى الله عليه وسلّم كالسقط الذي أسقطته عائشة رضي الله عنها فإنّه غير ثابت خبره.

(1) البغيّ: هي المرأة الفاجرة التي لا تتورع عن فعل فاحشة الزنا. ومهرها هو ما تأخذه من الرجل على اتّصاله بها.

مواد البناء الأخرى.و كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمعية أعمامه في جملة من باشر العمل في نقل مادة البناء.

و مما جاء من الروايات -هنا- يخص جانبه صلّى الله عليه وسلّم أنّ القوم كانوا في حالة حمل الحجر يرفعون أزرهم على عواتقهم وذلك ممّا يؤدي -غالبا- إلى كشف العورة أو ما دونها مما يستر عادة. وكان صلّى الله عليه وسلّم أول ما بدأ بالعمل على خلاف القوم ، فلازم الائتزار بمئزره. حتى رآه عمه **العباس*** فأشار عليه أن يفعل كباقي القوم قائلا له: «اجعل إزارك على عنقك يقيك الحجارة» ، فعمل صلّى الله عليه وسلّم بإشارة عمّه (و كأنه بدا منه صلّى الله عليه وسلّم مما كان يستره) فسرعان ما سقط صلّى الله عليه وسلّم إلى الأرض وغشي عليه وطمحت عيناه صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء فضمّه عمّه العباس إليه يسائله: «ما الذي أصابك ؟ » فقال صلّى الله عليه وسلّم سمعت صوتا شديدا (من العلوّ): «أن شدَّ عليك إزارك!» فأعاد صلّى الله عليه وسلّم شدَّ المئزر وتمادى على العمل كذلك [هذه هي الرواية الثالثة مما جاء يفيد عنه صلّى الله عليه وسلّم التحرج من كشف ما يعدّ عورة وذلك قبل أن يوحى إليه بالشريعة. فهو ممّا حفظه الله به من أمر الجاهلية وبالرغم من كون هذه الرواية تحكي عنه صلّى الله عليه وسلّم وقوع هذا الحادث في سنه البالغ خمسة وثلاثين سنة ، وقد ورد مثلها روايتان تحكي أولاهما وقوع ذلك في عهد صباه حينما كان يباشر بعض ملاعب الصبيان. وتحكي الثانية وقوع ذلك-في صباه أيضا- ولكن حينما كان صلّى الله عليه وسلّم يباشر إعانة عمّه أبي طالب في إصلاح بئر زمزم. ولا يخفى -من جهة النظر- بعد تعدد الواقعة وأنّ الأقرب كونها واقعة واحدة ، كما تقدمت الإشارة إليه في التعليق عند إيراد الروايتين المتقدمتين بالرغم من جميع ما ذكر فإنّ هذه الرواية الثالثة الواردة هنا هي التي اشتهرت في هذا الموضوع. وربما اقتصر عليها بعض مؤلفي السيرة تاركا الروايتين قبلها. وكأنها التي لها سند صحيح من جهة الرواية... ومع هذا

فالذي يرجحه النظر -زيادة عن كون الواقعة واحدة فقط -هو كونها في إبّان صباه صلّى الله عليه وسلّم كما تحكيه الروايتان الأوليان... ، والله أعلم. وقد نقل مؤلف السيرة الحلبية عن بعض الحفاظ من علماء الحديث ترجيح فحوى هذا التقرير ، وأنه استبعد أن يعود الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما كان نهي عنه -فالحمد لله إن كان لنا سلف من العلماء وسند في هذه النظرية-]. ثم إنّ قريشا لما عزمت على تجديد بناء البيت المعظم وكان ذلك -طبعا- يستدعي أن يقع منهم هدم ما بقي من البناء القديم قائما مما خلّفه السيل ، فكان القوم في تخوّف وتهيّب أن يباشروا ذلك العمل من الهدم...كما جاء في بعض الأخبار ممّا يرجع إلى معنى ذلك التهيّب الذي حصل للقوم ويقوم كالمانع لمن يحاول شيئًا من المساس بالبيت كالحرس لها. ما ذكر أنّه كان للبيت بئر حول زمزم تلقى فيها الهدايا ، وأنّ رجلا من جرهم في زمان ولايتهم للبيت حاول أن يسرق شيئًا من تلك الهدايا فوقع في البئر. ثم ظهرت في تلك البئر حيّة عظيمة بيضاء اللون عدا رأسها الذي يشبه رأس الجدي وذنبها فهما أسودان. فكانت ملازمة للبئر وتخرج عند ظهور الشمس. ومهما دنا منها أحد كشَّت عليه[1]. وبقيت هذه الحية إلى عهد قريش (قيل فإنها حرست البيت حوالي الخمسمائة سنة...!) وبينما كانت قريش تأتمر في تجديد بناء البيت...جاء طائر مجهول أعظم من النسر فانقضّ على تلك الحية فرفعها وذهب بها على مرأى منهم.

و رغم هذا بقى القوم متهيبين لنقض ما بقي من جدران البيت. فقد ورد أيضا أنّ أبا وهب عَمْرُو بن[2] عابد (خال عبد الله والد الرسول صلّى الله

(1) الكشيش: هو صوت الحيّة. قالوا وهو خارج من جلدها لا من فيها. وصوتها من فيها هو "الفحيح" بالفاء وحاءين مهملتين.

(2) عمرو بن عابد: وهو من بني مخزوم ويعدّ في أشراف قريش وقد جاء رسم عابد بالباء الموحدّة التحتية وآخره دال مهملة. ونصّ على ذلك صاحب السيرة النبوية. وجاء أيضا رسمه بالهمزة والذال المعجمة (عائذ). وقد تقدمت الإشارة إلى الاختلاف في هذا الاسم في باب تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بخديجة رضي الله عنها حيث ذكر زوجها الأول المسمى بعتيق بن عابد؟

عليه وسلّم) تقدم -أولا- فنزع حجرا من الجدار فانفلت من يده راجعا إلى موضعه!

هذا ولا يخفى أنّه لا يخلو الحال -عادة- في مثل هذه المواقف من شخصية قوية لها من الجراءة ما تسبق به إلى تنفيذ العمل الذي تهيبه الكافة. ولا يلبثون -إذا رأوا من بدأ به- أن يتبعوه مادام ذلك محل اتفاق بينهم في الآراء واقتناع بصلاحيته في الأنظار.

فجاء في الأخبار أنّ الوليد[1] بن المغيرة كان يراجع القوم في هذا التهيب الواقع لهم في مباشرة عملية هدم البقية من البناء القديم فكان يقول لهم: يا قوم ما تريدون من وراء ذلكم الهدم؟ أهو الإصلاح أم الإفساد؟، فكانوا يجيبون: اللهم إنه الإصلاح!فيقول: فإنّ الله لا يغضب عليكم إن كنتم تريدون الإصلاح!ثم أعلم القوم أنه ماض في العمل وفعلا تقدم فشرع يهدم ما قدر عليه وقضى يومه ذلك في العمل.... فكان المتهيبون ينتظرون ما يحدث له. قالوا نتربص هذه الليلة فإن لم يطرأ على الوليد ما يدل على خطإه مضينا نعمل مثله. ثم قام الوليد من الغد مبكرا إلى عمله -حاملا معوله وباقي آلة العمل- فشرع يعمل كأمسه!. إلى هنا زالت عن القوم أوهامهم وخيالاتهم، فهرعوا إلى عملية نقض ما بقي مما يجب نقضه من قديم الجدران في البيت المعظم. ورد أنهم بلغوا في نقض الجدران إلى الكشف عن الأساس الذي وضعه **إبراهيم الخليل*** عليه

أوعائذ المخزومي. وربما كان أخا لأبي وهب* هذا. والمعروف الذي أثبته الجمهور في اسم والدة عبد الله أبي الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو فاطمة بنت عمرو بن عائذ* بالهمزةو الذال المعجمة من بني مخزوم. وعليه فلا يتأتى ما ذكر هنا في اسم أبي وهب المذكور وكونه خالا لعبد الله. إلاّ إذا كان متحد الاسم مع أبيه (عمرو بن عمرو) ولعل أن يكون سقط في النسخة لفظ ابن فيكون الصواب: أبو وهب بن عمرو بن عائذ؟.

[1] الوليد بن المغيرة المخزومي: أحد أساطين قريش. وقد أدرك الإسلام ولم يسلم ومات في السنة الأولى من الهجرة. وهو والد السيد خالد ابن الوليد* رضي الله عنه.

السلام ، فوجدوه أحجارًا خضرًا كالأسنمة[1] آخذا بعضها ببعض.

و قد جاء في بعض الأخبار أنه حينما فرغ القوم إلى الشروع في البناء صادف أن رمى البحر في ساحل **جدّة***بسفينة فيها كل ما يلزم من عدّة البناء ، فوقعت بأيدي قريش. ومنها كانت إقامة بناء البيت.[حكي في هذه الرواية أنّ سفينة كانت قاصدة ناحية الحبشة أو اليمن فحطمها موج البحر بالساحل المكي مكان مدينة جدّة اليوم. فبيعت أنقاضها واشترتها قريش. ومنها كانت عدّة بناء البيت مما يخص الخشب ونحوه[2]].

و جاء أنّ القبائل من قريش اقتسمت أركان البيت في البناء ، كلّ قبيلة تبني ركنا. ومما جاء في شكل بناء البيت الذي كان من عهد إبراهيم عليه السلام ، أنّ ارتفاعه كان تسعة أذرع ولا سقف له[3]. وكان بالبيت بئر[4] على يمين الدّاخل تلقى فيها الهدايا. وكان باب البيت ملاصقا للأرض. فلما جددت قريش البناء وقصرت بهم النفقة (بالصورة التي تعهدّوا بها[5])...أخرجوا الحِجْر[6] من البيَت وهو نحو ستة أذرع من عرضه.

---

(1) الأسنمة: جمع سنام بفتح السين المهملة وتخفيف النون وهو حدبة البعير المعروفة. وهذا تشبيه لحجارة أساس البيت من حيث الحجم.

(2) رواية في الباني المدعوّ "باقوم". وحكيت هذه الرواية التي تفيد أنّ باقوم هذا كان صانع بناء ماهرا وليس بعربي. وهو الذي ولّي بناء البيت كمهندس.

(3) و يذكر أنّ سقف البيت أحدثه قصي جدّه صلّى الله عليه وسلّم.

(4) و تسمى هذه البئر بخزانة الكعبة.

(5) أي قصرت بهم النفقة الخالصة من شوائب المال المذموم كما مرّ بيانه في أوّل الباب.

(6) الحجر: بالحاء المهملة مكسورة بعدها جيم ساكنة وآخره راء. ويعرف الحجر أيضا باسم "الحطيم". وسمي الحجر لاستدارته. وهو مساحة بشكل نصف دائرة خارج جدار البيت إلى جهة الشّام (أي الجهة الشمالية).

و يظهر أنّ الحجر ليس هو مقدار الستة أذرع المذكورة بل هو أوسع من ذلك. كما ورد أنّ إبراهيم عليه السلام جعله عريشا تأوي إليه الغنم بإزاء البيت. وإنما مقدار الستة أذرع منه يرجع إلى البيت. وجاء في كلام بعض العلماء خلاف هذا وأن الحجر كلّه من البيت.

وأحاطوا ذلك الحِجْر بجدار[1] قصير علامة على أنّه من البيت. وزادوا في ارتفاع البيت تسعة أذرع أخرى فصار إرتفاعه ثمانية عشر ذراعا. ورفعوا الباب عن الأرض فلا يرقى إلى البيت إلاّ بمدرج.

ثمّ أنهم لمّا انتهوا إلى رفع الحجر الأسود ووضعه مكانه تنازعوا في ذلك ، فكلّ قبيلة ترى أنها الأولى بذلك وأن تنازلها في هذا لغيرها يحطّ بشرفها وكرامتها عند القبائل الأخرى فكان مشكلا من أعظم ما عرفه القوم في مشاكلهم الإجتماعية التي جرت عليهم ويلات الحروب وسفك الدماء.

فقد ورد في الأخبار-هنا- أنّ مداولة الكلام في النزاع والخصومة بينهم -في هذه العويصة -دام نحو خمسة أيام بلياليها ثم أخذ الموقف -بينهم- يتدحرج إلى مثل ما اعتادوه-قبلا- من الالتجاء إلى استعمال قوّة السلاح. فأخذ القوم يستعدّون للقتال ويتأهبون له.

و إذا بإشارة حكيمة تبدو -في آخر وقت- من رجل كريم فيهم ، وكان أسن أهل الحل والعقد من قريش في ذلك الحين وهو أبو أمية حذيفة* بن المغيرة المخزومي[2] المعروف لكرمه بزاد الراكب. وهو والد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها (ولم يدرك الإسلام) فأشار على القوم أن يحكّموا -في حل هذا المشكل- أوّل داخل عليهم في ذلك المجلس (بطريق الصدفة) ويكون دخوله من باب بني شيبة الذي عرف بعدُ بباب " السلام "!

---

[1] هذا الجدار كالذي عرف -بعد- باسم "الشاذروان" بكسر الذال وفتحها واللفظ ليس عربيا خالصا. وهذا الشاذروان بناء قدر ثلثي الذراع متصل بجدار البيت خارج عنه ، جعلوه علامة على أنّ أساس البيت يوازيه. فيكون هو حدّ الأساس الأصلي للبيت. لأن جدران البيت لم تكن بالمقدار الذي يملأ جميع عرض الأساس.

[2] لقّب "بزاد الراكب" لأنّه يزود المسافرين من نفقته. ومن سافر معه لا يحتاج إلى حمل زاد بل زاده محمول على أبي أميّة* قال في النبوّة وهو أخو الوليد بن المغيرة* الذي تقدم ذكره وأنه والد خالد بن الوليد. أما أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي فهو المعروف بأنّه حليف ياسر* والد عمّار* رضي الله عنهما. وعرف هذا بأنه عمّ أبي جهل* بن هشام. فهو أخو أبي ربيعة كذلك يذكر زعيم آخر من بني مخزوم وهو أبو ربيعة* بن المغيرة فهو أخوهم أيضا.

على أن يفوضوا له الحكم بالصفة التي يريدها وعليهم قبول ما يحكم به هذا الحكم بأي صفة كان حكمه (حبًّا في حسم النزاع وشرّه الخطير). فوافق القوم على هذه الإشارة التي كانت آخر محاولة في التسوية والتوفيق، وترجع إلى نوع من حكم القرعة التي يرضاها الجميع ولا يأنف منها أحد.

هذا وقد سبقت مشيئته سبحانه وتقديره للأشياء بما يهيئ من الأسباب لما سيبدو من الآيات على أيدي من اختارهم للإصلاح والخير وخصهم بهذا المقام (دون سواهم)!

فكان من المقدّر أن دخل على القوم -في أول ما دخل- من باب السلام- محمد صلّى الله عليه وسلّم، فهتف له القوم، "هذا محمد الأمين.... وقد رضيناه حكما "! [جاء في تعليق بعض العلماء على هذا ما يفهم منه أنّ قريشا وإن كانوا راضين بإشارة أبي أمية من حيث هي إلاّ أنّ رضاهم بتحكيمه صلّى الله عليه وسلّم واختياره لهذه المهمة -دون غيره- كان أشدّ وذلك لما اشتهر عنه صلّى الله عليه وسلّم من الإنصاف وترك المماراة فيما كان يفصله من المشكلات في المعاملة بين أفراد قومه. وهذا يفيد عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه ولي هذه المهمة كثيرا في قومه قبل النبوّة. كما يقتضيه دعوتهم له صلّى الله عليه وسلّم بالأمين المتواتر خبره الثابت]. ثمّ عرضوا القضية عليه صلّى الله عليه وسلّم (أي عرض القضية في النزاع عموما وعرض مهمة التحكيم عليه خصوصا) فحكم فيها حكما أرضى الجميع وطابت له نفوسهم ظاهرا وباطنا.

و الذي جاء من الأخبار في صورة ما حكم به صلّى الله عليه وسلّم هو أنّه صلّى الله عليه وسلّم بسط رداءه ووضع الحجر فيه، وأشار على كل ممثل قبيلة من القبائل المتنازعة أن يأخذ بطرف من الرداء وأن يرفعوه كذلك حتى محلّه الذي يوضع فيه. فلما انتهوا به إلى موضعه، تقدّم هو صلّى الله عليه وسلّم فرفعه ووضعه موضعه. فانتهى المشكل الخطير كأن لم يكن منه شيء وحلّ السلام والطمأنينة مكان الهول والشغب، وبات

الناس يحمدون العاقبة. [يوجد -هنا - بعض روايات تفيد أنّه عندما فض الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا المشكل لم يرق ذلك لبعض عناصر الشّر والفتنة وجاء فيها نسبة ذلك للشيطان (المطلق) فحاول أن يفسد ما تم من أمر الصلح والرضى بحكمه صلّى الله عليه وسلّم. ولكنه خاب سعيه وباء بالفشل الذريع. من ذلك رواية نسبت حكايتها للإمام **السهيلي***: " كان في القوم شيخ (مجهول) في زيّ بدو نجد صاح -بعدما رضي القوم بحكمه صلّى الله عليه وسلّم-: يا معشر قريش أرضيتم أن يضع الركن الذي هو شرفكم وشرف أسلافكم الأولين غلام يتيم دون ذوي الرأي والمكانة منكم؟ " قال فكاد يثيرهم ثم تغافلوا عن لغطه وتركوه.

و من ذلك في رواية أخرى أنّه صلّى الله عليه وسلّم لما وضع الحجر بموضعه وطلب ما يشدّه به تقدّم إليه من بين القوم شيخ مجهول في زي أهل نجد فناوله ما يشدّه به فحال **العبّاس*** رضي الله عنه دون الشيخ ومنعه ذلك وناول هو للرسول ما يشدّ به الحجر ، فغضب الشيخ وقال: "وا عجبا لقوم أهل شرف وأحلام وأموال عمدوا إلى أصغرهم سنّا وأقلهم مالا فولّوه عليهم في مكرمتهم كأنهم خدم له! أما والله ليفرقنّهم شيعا وليقسمنّ بينهم حظوظا." ، أي وكان كلامه ذلك عديم النتيجة كما يبغي فأهمله القوم -على أنّ ذلك الشيخ المجهول هو مثال للشيطان الرجيم- ، غير أنّ هذه الروايات لم يقع اشتهارها ولا تداول الكلام فيها بين جمهور علماء السيرة. وكان حظها بوجه العموم عندهما الإغفال والإهمال أيضا]. هذا هو الحدث الذي عرف عند علماء الأمة بأنّه أعظم أعلام نبوّته صلّى الله عليه وسلّم مع ما فيه من الفال الحسن للأمّة العربية المتفرقة الكلمة ، المشتتة الجمع -إذ ذاك- بأن يوحد الله كلمتها ويجمع شتاتها ، ويلمّ شعثها على يد رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم. وربّ قائل يقول في الصورة التي فض بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا المشكل المستعصي الحلّ على سائر أهل الحجا والرأي من قومه ، بأنّها أمر بسيط للغاية فكيف عزّ عليهم

الاهتداء إليه...؟ إلخ. ولعلّ من الأحسن في الجواب عن هذا أن يقال فيه بإيجاز: ليس مدار السر في الحادث هو الصورة الشكلية التي فض بها المشكل وإنما هو المعنى الراجع إلى عبقريته صلّى الله عليه وسلّم الفذّة وما يملكه من الصلاحيات التي تجعله ينجح -دون بقية القوم- في عمليته، تلك الصلاحيات المعدومة فيمن سواه.هذا زيادة على كون الاهتداء إلى الشيء ثمّ النجاح فيه ليس بالأمر الهيّن ولا باللآزم لرجاحة العقل وجودة الفكر وقوّة النظر، فهو كمعرفة الشيء نظريا، وتطبيقه عمليا بينهما فرق واسع وبون شاسع لا يستلزم أولهما ثانيهما. والعبرة بالنتائج لا بالمقدمات. فالمعجزة في هذا الحادث إنما هي النتيجة الحاصلة منه والتي لم تحصل إلاّ على يده صلّى الله عليه وسلّم.

نبذة من الأخبار التاريخية في بناء البيت المعظّم

على ذكر البيت المعظم وبنائه أورد -للمناسبة بعض علماء السيرة كالحلبي- نبذة من الأخبار فيما يتعلّق بالبيت الحرام وبنائه.

فمن ذلك تسميته بالبيت العتيق (كما ورد في نصّ القرآن) فقيل سميّ بذلك لأنّه أوّل بيت وضع للنّاس (كما جاء ذلك في آية من القرآن [1]). وقيل لأنّه أعتق [2] من الجبابرة فلم يدعه أحد منهم بأنه بيته. أو أعتق من تسلطهم عليه واستيلائهم عليه (كما وقع لأصحاب الفيل). وقيل لأنّه أعتق من الطوفان الذي أتى على كل بناء في المعمورة فطمسه ما عدا البيت المعظم فإنه بقي ولم يعف أثره.

---

(1) هي الآية من سورة آل عمران في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنّ أوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا...﴾.

(2) و لفظ "العتيق" على هذا القول، صفة مشبهة باسم الفاعل من " العتق " الذي معناه " قدم المدة وطولها". وأمّا على الأقوال الأخرى فالعتيق اسم مفعول من العتق الذي معناه التخليص" ومنه عتق الرقاب بتحريرها من الرق والعبودية.

أمّا ما يخصّ بناءه فقد جاءت بعض أخبار تعزو بناءه -أوّل مرة- للملائكة عليهم السلام ، ثمّ بناه **آدم*** عليه السلام ، ثمّ **شيث***عليه السلام (أي وهذا قبل بناء إبراهيم عليه السلام الثابت نصًا) ثمّ بعد إبراهيم بناه قوم من **العمالقة***...ثمّ بنته **جرهم***، ثمّ بناه بعدهم **قُصيّ*** جدّه صلّى الله عليه وسلّم ثمّ كان بناء قريش الذي تقدّم ذكره.لكن التحقيق في المسألة أنّ الباني له -أولا- هو إبراهيم عليه السلام (كما هو المعروف من النصّ القطعي الثبوت) وما ذكر من بنائه قبل إبراهيم عليه السلام لم يرد به خبر ثابت.

[هذا... وقد جاء في كلام البعض ما يفيد الأخذ بما جاء من تلك الأخبار القائلة بأنّ البيت كان قد تقدّم له قيام قبل بناء إبراهيم عليه السلام ويستدلّ لهذا بعبارة الآية من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ . ففي التعبير بالرفع إشعار بأنه كان موضوعا وموجودا بالفعل وإنّما هو غير مرفوع وغير قائم فولي إبراهيم عليه السلام رفعه وإقامته].

أمّا ما ذكر من بنائه بعد إبراهيم ، فهو -إن ثبت- لا يعدو الترميم والإصلاح فقط ، ولا يصدق عليه أنّه تجديد بناء من الأساس.

و بناء قريش الذي تقدم ذكره هو الذي على عهده بعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبقي طوال عهده صلّى الله عليه وسلّم وعهد الخلفاء من بعده حتى السنة (أي سنة أربع وستين من الهجرة) التي خرج فيها **عبد الله بن الزبير*** رضي الله عنهما على بيعة بني أمية بعد وفاة **معاوية*** رضي الله عنه ودعا إلى نفسه بالخلافة جاعلا عاصمته مكة. فارتأى أن يجدد بناء الكعبة مستندا في ذلك إلى حديث كان صدر منه صلّى الله عليه وسلّم في هذا الشأن [وجاء في الأخبار أيضا أنّ ابن الزبير رضي الله عنهما واتته أسباب أخرى ومبررات لينفذ بها هذا الرأي من هدم البناء القديم وتجديده

بالصفة التي يريد. فجاء أنه ما عزم على ذلك إلاّ بعد أن تداعى بناء الكعبة وذلك من جراء ما أصابها من ضرب المنجنيق الذي رميت به مكة من جيش **يزيد ابن معاوية** الذي وجهه لقتال ابن الزبير حيث خرج عن بيعته وهو الجيش الأوّل لبني أمية فيما وجّه منهم لقتال ابن الزبير ومحاصرته وقد انسحب هذا الجيش من غير طائل حينما بلغ إليه الخبر بموت يزيد.

و ربما جاء من الأسباب أيضا زيادة سيل كالذي وقع زمان قريش، وقد عرف عن مكة أنها منحدر السيول المخطرة مهما سقطت الأمطار بجبالها].

و قد جاءت رواية هذا الحديث عن **عائشة*** رضي الله عنها أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال لها ما نصه: «لولا حدثان قومك بالجاهلية» وفي لفظ آخر «لولا الناس حديثو عهد بالجاهلية» وفي لفظ آخر «لولا الناس حديثو عهد بكفر... وليس عندي من النفقة مَا يقوى على بنائها (أي الكعبة) لهدمتها وجعلت لها بابين شرقيا وغربيا. وألصقت بابها بالأرض ولأدخلت الحِجْر فيها». فكان مراد عبد الله بن الزبير في تجديد بناء البيت تنفيذ ما ورد عنه صلّى الله عليه وسلّم في هذا الحديث، بعد زوال تلك الموانع التي تعلّل بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم لترك البناء على صورة ما بنته قريش. وكأن في الحديث إذنًا منه صلّى الله عليه وسلّم لمن يتمكن من هذا العمل أن ينفذه... ما في ذلك من بأس.

و قد ورد عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه لما حضر له وقت تحقيق هذه الفكرة استشار بعضا من الصحابة ممن كان معه ومنهم **عبد الله بن عباس** * رضي الله عنهما. فكان نظر ابن عباس رضي الله عنهما خلاف نظر ابن الزبير رضي الله عنهما في هذه القضية.

فجاء أنّه نهاه[1] عن ذلك ومما قال له: «دع بناء وأحجارا أسلم عليها المسلمون وبعث عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فإنه يوشك بعدك من يهدم ويبني حتى لا تبقى لهذا البيت حرمة».

غير أنّ ابن الزبير رضي الله عنهما لم يبلغ به مقال إبن العباس رضي الله عنهما ذلك إلى الاقتناع بالعدول عن فكرته بل بقي في موقفه الأول وأجاب ابن عباس بقوله: «إنّي مستخير ربي ثلاثا ثمّ ماض على أمري!». وهكذا كان فإنه بعد الاستخارة ومضيّ ثلاثة أيام أنجز عمله في عملية تجديد البناء.

ورد أنه لما أمر العَمَلَةَ بالشروع في الهدم تقدم هو نفسه أولهم وشرع يعمل في الهدم. كما ورد أنّ ابن عباس خصمه في هذه الفكرة ، لما بلغه الخبر بهذا خرج من مكة إلى الطائف (و الأقرب أنّ ذلك كان منه كاحتجاج الغاضب).

و لما انتهى ابن الزبير رضي الله عنهما إلى الكشف عن الأساس أحضر خمسين رجلا من وجوه أهل مكة كشهود على الأساس الذي أقام

---

(1) و كانت مخالفة ابن عباس لابن الزبير فيما يخص هدم الجملة من البناء فقد ورد أنّ ابن الزبير راجعه مظهرا له تداعي البناء مما وقع من الحريق والسيل.فصمم ابن عباس على رأيه من وجوب الاقتصار على الترميم والإصلاح دون مجاوزة ذلك إلى هدم جملة البناء وتجديده بشكل آخر.

قد يعلم من هذا حال كل من الرجلين ونظره في الأمور وأسلوب سياسته فيها. فابن الزبير رضي الله عنهما رجل العمل الجريء الذي لا يعبأ بالواقع مهما كان ذلك الواقع مخالفا للحقيقة ، بل يحاول إخضاع الواقع للحقيقة شأن ذوي الإرادة الحديدية. وابن عباس رضي الله عنهما رجل السياسة المرن والحكيم المتبصر الذي يضمن لنفسه التقدم دائما ولايتقدّم حيث يمكن أن يتأخر شأن الداهية الذي يستفيد من الواقع كما يستفيد من الحقيقة.

و لعلّ من الوضوح بمكان أن يقال في نظر ابن عباس رضي الله عنهما هنا أنّه أحدّ وأبعد وإن ظهر أنزل وألطف.

و فيما حدث بعد على أيدي بني أمية بعد ظهورهم على ابن الزبير رضي الله عنهما من تغيير البناء الذي بناه ورده إلى الشكل الذي بنته قريش تصديق لنظرية ابن عباس رضي الله عنهما وبرهان جليٌ على أنها الحكيمة الحاذقة.

عليه البناء من بعد. [فعل هذا ليثبت أنّه ما بنى شكل البيت إلاّ على قواعد إبراهيم عليه السلام وهو الشكل الأصلي له. لأنه-كما تقدم ذكره-لم يكن بناء قريش للجدران موازيا لكل جهة من القواعد الأساسية التي وضعها **إبراهيم*** عليه السلام، بل قصروا عن ذلك لضيق النفقة. فأخرجوا المساحة المسماة بالحِجْر وهي نحو ستة أذرع وأحاطوها بعلامة على أنّها من البيت كما مرّ ذكره].

و قد التزم عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في بناء البيت الصفة التي وردت عنه صلّى الله عليه وسلّم في الحديث. فأدخل الحِجْر في البيت وفتح الباب الذي جعلته قريش مرتفعا لا يرقى إليه إلاّ بمدرّج فجعله ملاصقا للأرض. وفتح بابا جديدا من خلف وهو الباب الغربي المشار إليه في الحديث. وكان ارتفاع كل باب مقدار أحد عشر ذراعا، وزاد على ذلك بأن رفع جدران البيت مقدار تسعة أذرع زيادةِ على ما زادته قريش. فصار ارتفاع البيت مقدار سبعة وعشرين ذراعا.

ورد أنه لما أتمّ البناء كسا البيت وخلقه[1] بيده، ونحر نحو مائة ناقة وأحرم بعمرة ودعا في الناس بالإحرام بعمرة وسوق الهدي كلّ حسب طاقته [ومما ورد من الأخبار عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في بنائه للبيت ويعرف منه جزئي مما كان عليه من السياسة والمقدرة في إدارة الشؤون العامة. أنه لما هدم البيت وجد بالحجر الأسود صدعا فأصلحه بالفضة وأودعه دار الندوة مدّة جريان العمل حتى إذا حان وقت وضعه بمكانه بعد تمام البناء. وكان يعلم أنّ الحال الآن في هذا الأمر لا يبعد بكثير عن سابقه في زمان قريش حينما تنافسوا في ذلك واختلفوا لأنها مكرمة يتنافس فيها سواء قبل الإسلام وبعده. فأبى ابن الزبير رضي الله عنهما أن يعاد تمثيل الدور بسائر فصوله. ذلك أنّه عهد إلى ابنه **حمزة***

(1) جعل فيه "الخلوق" أي طيّبه وعطّره. والخلوق بفتح الخاء اسم لطيب مركّب من عدّة مواد.

ورجل آخر أن يرفعا الحجر ويضعاه موضعه المعتاد ، وأن يكون ذلك في وقت أداء الصلاة جماعة (و ربما المغرب ؟) وأوصاهما أن يرفعا أصواتهما بالتكبير إذا أتمّا العمل كعلامة لذلك بينه وبينهما ، وكان الأمر كذلك.

فورد أنّه لما قضي الأمر وعلم بذلك وجوه القوم ممن كانوا معه بمكة إستاؤوا لذلك أيّما استياء وغضب عليه البعض منهم أشدّ الغضب. إذن فقد حاكت واقعة ابن الزبير واقعته صلّى الله عليه وسلّم ولكن بقصور كما قال القائل:

«يا بارقًا بأعالي الرقمتين بدا * لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنبُ! »]

و قد جاء ذكر المدّة بين بناء البيت في عهد إبراهيم عليه السلام وبين تجديده في عهد قريش وأنها خمس وسبعون وسبعمائة وألفان من السنين.

كما أنّ بين بناء قريش وبناء ابن الزبير رضي الله عنهما اثنتين وثمانين سنة. [هذا النقل الذي يحدد المدّة بين بناء إبراهيم عليه السلام للبيت وبين بناء قريش بخمس وسبعين وسبعمائة وألفين من السنين ليس له أدنى مستند من الصحة.

و لا ينبغي أن يعوّل عليه ويطلق بهذا الإطلاق الذي يكتسي به صبغة القضية المسلّمة. وها هو تاريخ اليهود الذي تعارفوا عليه إلى اليوم ومبدؤه -عندهم- من خروج موسى عليه السلام ببني إسراءيل من مصر يعّد ثلاثا وعشرين وثلاثمائة وأربعة آلاف من السنين عام بناء قريش للكعبة ، وأين **موسى** * من **إبراهيم** * عليهما السلام ؟ فالشواهد المقبولة العديدة تشير إلى أنّ تقدّم إبراهيم على موسى عليهما السلام كان تقدما غير قريب المدّة.

و ليس تاريخ اليهود الذي ذكر وحده الذي يناقض ما في هذا القول بل عامة ما يعرف من التواريخ كلها تناقضه وتخالفه ، وكلها تزيد عليه في المدّة بكثير. ولعل هذا القول مستنده من مثل تلك الرواية التي هي أشبه

ما يكون بالقصص الخرافي ، والتي تحدد مدة الدنيا كلها بسبعة آلاف سنة. فلا وجه لمثل هذا التحديد البتة. وهو مما ينبغي أن لا يحشى به الدماغ]

ثمّ أنه لمضيّ نحو تسع سنوات لبناء **عبد الله بن الزبير*** رضي الله عنهما للبيت نقض ذلك البناء (جزئيا) على يد **الحجاج بن يوسف*** بأمر **عبد الملك بن مروان***و أعيد إلى الشكل الذي بنته قريش.

فقد ورد أنه في سنة ثلاث وسبعين للهجرة وجه عبد الملك بن مروان من الشام جيشا لقتال ابن الزبير رضي الله عنهما بقيادة الحجاج ابن يوسف الثقفي عضد بني أمية المشهور فحوصر ابن الزبير بمكة من قبل هذا الجيش نحو الخمسة أشهر. وآل أمر ابن الزبير رضي الله عنهما إلى ضعف ، فكانت بعض مناوشات بين فريقه وجيش الحجاج أصيب أثناءها ابن الزبير رضي الله عنهما بضربة حجر أودت بحياته. وكان ذلك كافيا في انحلال أمره ودخول من كان معه في طاعة بني أمية وقبول بيعة عبد الملك بن مروان.

و كان من أول تصرفات الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك -عقب استتباب الأمر له بمكة- تغيير ما بناه ابن الزبير من الكعبة [قد ورد من الأخبار أنّ **عبد الملك بن مروان*** لما حج وذلك في سنة خمس وسبعين للهجرة ، وتناول حديث بناء الكعبة كان يبدي إنكاره لما فعله ابن الزبير في بناء البيت على أنه فعل ذلك بمجرّد رأيه الخاص من دون استناد إلى عمدة يصح الاعتماد عليها في الأمر....حتى أخبره من يثق به بثبوت الخبر عنه صلّى الله عليه وسلّم بما مرّ ذكره من حديث **عائشة*** رضي الله عنها وعرفه بأنّ ابن الزبير رضي الله عنهما لم يكن ليقدم على ما أقدم عليه من هدم للبيت وتغيير بنائه لولا ما ثبت من هذا الخبر عنه صلّى الله عليه وسلّم وجعله مستندا له...فتغير - حينئذ- موقف عبد الملك من القضية وكأنّه تحيّر فأطرق برأسه مفكرا وبيده قضيب صار ينكت به أمامه في الأرض. ثمّ قال: «وددت أنّي تركته وما تحمل (يعني ابن الزبير)» هكذا جاء

في هذه الرواية والله أعلم بحقائق الأمور].

و المعروف من الأخبار عن هذا التغيير أنّه لم يكن هدما لعموم البناء بل إقتصر فيه على ما حقق به ردّ الشكل إلى ما كان عليه قبل- أي وهو بناء قريش ، والذي كان على عهده صلّى الله عليه وسلّم وعهد الخلفاء من بعده قبل ابن الزبير رضي الله عنهما.

فقد نقض الحجّاج الجدار الذي أدخل الحِجْر في البيت وأقامه مقهقرا في الحجر بنحو ستة أذرع ، وسدّ الباب الغربي الجديد ، ورفع الباب الشرقي القديم عن الأرض بأن سدّ منه من الأسفل نحو الأربعة أذرع وشبر.

هذا ولمّا دالت دولة بني أميّة وقامت بعدهم دولة بني العباس بعد سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة فكّر ثاني خلفائهم **أبو جعفر المنصور**-هو الآخر أيضاً-أن ينقض بناء البيت ويبنيه من جديد على الشكل الذي كان بناه عليه **عبد الله ابن الزبير** رضي الله عنهما [وفي بعض روايات أخرى من الأخبار أنّ الخليفة العباسي الذي فكر هذه الفكرة هو **هارون الرشيد**....و في بعضها أنه **المهدي**. وعلى كلٍّ فالنّاهي له عن ذلك هو **الإمام مالك**]. فورد أنّ عالم الأمة **الإمام مالك بن أنس** عارضه في ذلك -لما إستشاره فيه- مناشدا له الله أن لا يقدم على هذا الفعل فقال له: «-أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك لا يشاء أحد منهم أن يغيّره إلاّ غيّره ، فتذهب هيبته من قلوب الناس»... ، فأقلع المنصور عن فكرته تلك.

هكذا توارد بعد كرات من الزمان صدق نظر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيما توقعه من فعل ابن الزبير رضي الله عنهما في تجديد بناء البيت ، حيث كان عمله ذلك ليس بمأمن من غوائل السياسة (السياسة بمعناها الخاص المعروف اليوم لامعناها عند أهل الحكمة) ولا بمنجإ من ملابساتها وهي كما قال فيها حكيم من علماء هذه الأمة: « ما دخلت شيئا

إلاّ أفسدته». وكتب النجاح -في هذه المّرة- لنظرية ابن عباس رضي الله عنهما الصادرة من الإمام مالك رحمه الله فأمن البيت بها مدّ الأيدى إليه بالتغيير والتبديل مهما تطوّرت الأحوال السياسية وتبدّلت هيئات الحكم والتصرف. [لا ينافي هذا ما ورد من الأخبار عن طائفة القرامطة -التي هي فرقة ملحدة هدّامة- من التعدّي على حرمة البيت وقتل الحجيج فيها...إلخ (لأنه موضوع آخر في قصد الهدم عموما). فقد ورد أنّ **أبا طاهر كبير القرامطة*** الذي خلف أباه **أبا سعيد*** بالكوفة سنة سبعين ومائتين للهجرة بنى دارا بالكوفة ودعاها دار الهجرة (مضارة للحج). وقد هجم جيشه على مكة في يوم التروية. فأثخن في الناس قتلا داخل الحرم واقتلع الحجر الأسود فأخده معه إلى الكوفة وبقي تحت يده نحو العشرين سنة. فكان الطائفون -تلك المدّة- يستلمون موضعه. وعبثا حاول **المقتدر*** الخليفة العباسي التغلب على أبي طاهر. فقد وجّه لقتاله الجيوش مرارا ، فكانت كلها تهزم من قبل أبي طاهر. كما ورد أنّه بذل المقادير الضخمة من المال في فداء الحجر فلم ينجح ذلك شيئًا مع القرامطة ورأسهم أبي طاهر....حتى كان زمان الخليفة **المطيع*** فهو الذي تغلب جيشه عليهم واسترجع الحجر بعد ما تقدم ذكره من المدّة. كما ورد -فيما يخص الحجر الأسود - أنّ في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة تقدّم ملحد من الحجر الأسود وضربه بدبوسه قصد إزالته ، فتصدّع من ذلك وأصلحه **بنو شيبة*** (لما لهم من حق ولاية سدانة البيت). وعلى ذكر الحجر الأسود وتسميته هكذا فقد نقل عمن رأى الحجر حال قلعه أنّ الأسود منه هو القدر البارز فقط ، وباقيه أبيض ، فقيل في علّة ذلك من عدّة أقوال أنّ اسوداده ذلك كان من الحريق الذي كان يطرأ على البيت].

و لم يزل بناء البيت على ما بناه ابن الزبير رضي الله عنهما مع ما أدخل عليه من التغيير على يد الحجّاج بأمر عبد الملك بن مروان إلى سنة

تسع وثلاثين بعد الألف من الهجرة ، فداهم مكة سيل عظيم هدم الكثير من منازلها وأغرق عدّة نفوس. وأصاب من البيت نحو الجُلّ بالهدم حسبما حكاه مؤلّف السيرة الحلبية المعاصر للحادثة قال: «كان ذلك بعد عصر يوم الخميس العشرين من شهر شعبان على عهد ولاية السلطان مراد[1] العثماني وعند مجيء الخبر بذلك إلى مصر جمع واليها محمد[2] بَاشَا جمعا من العلماء كنتُ من جملتهم (أي فاستشارهم في الأمر) ووقعت الإشارة بالمبادرة للعمارة...إلخ».

فكان بهذا ترميم شامل لبناء البيت في سنة تسع وثلاثين وألف من الهجرة.

و أمّا ما جاء في كسوة البيت فقد ورد أنّ أوّل من كساه هو تُبَّعْ[3] الحميري. فكساه البرود الحميرية وهي برود حمر مخطوطة.

و كذلك ورد أنّ **عدنان** *جدّ الرسول الأعلى كسا البيت أيضا (و هذه الكسوة على معنى أنّها من النّفقة الخاصة للشخص الكاسي يقوم بها بمفرده).

و ورد عن قريش -في زمان ولايتهم للبيت- أنهم كانوا يجعلون نفقة الكسوة موزّعة على جمهور الأكابر منهم والزعماء. ولهذا ورد أنّهم لمّا جددوا البناء وتمّ العمل طفق الزعماء منهم يقدّمون أرديتهم ليكسى بها البيت.

هذا وقد ورد عن زعيم من زعماء قريش أنّه كان ينفرد بكسوة البيت من نفقته الخاصّة. وربما رأى عمله هذا بقيّة الزعماء تطاولا منه عليهم فكان

---

[1] المطابق لهذا التاريخ أن يكون السلطان "مراد" هنا هو "مراد الرابع" لأنّ سلاطين بني عثمان تولى منهم باسم مراد خمسة.

[2] لعلّ "محمد باشا" هذا هو المعروف بمحمد باشا سلطان زاده. وهو الذي ذكر عنه أنّه وليّ ولاية مصر والشام وغزا جزيرة "أقريطش" وتوفي بها.

[3] تُبّع: بضم المثناة الفوقية وتشديد الموحدة السفلية مفتوحة وآخره عين مهملة. وملوك حمير التبابعة عدّة لأنّ لفظ تُبّع لقب رسمي لكل ملك منهم زيادة على إاسمه الشخصي.

يناوبهم ، فيكسو هو نوبة ويكسون هم نوبة.

و ربما شاركهم فينفق من عنده نصف الكسوة وينفقون هم نصفها. وهذا الزعيم هو **أبو ربيعة بن المغيرة**[1] وقد عرف في قومه بالعدل[2] ، قيل جاء هذا من عمله المذكور بينه وبين قريش في شأن كسوة البيت.

أمّا كسوة البيت في الإسلام فقد ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه كسا البيت في حجة الوداع من القباطي أي الثياب اليمانية. وكذلك ورد أنّ خلفاءه الثلاثة **أبا بكر*** **وعمر*** **وعثمان*** رضي الله عنهم كلّ منهم قام بكسوة البيت مما كساه الرسول صلّى الله عليه وسلّم (أي القباطي). ثمّ في خلافة **معاوية***رضي الله عنه كساه القباطي والديباج. وزاد **المأمون*** الخليفة العباسي بأن جعل الكسوة ثلاثا في العام: القباطي والديباج الأبيض والديباج الأحمر. ثمّ في خلافة الناصر العباسي جعل الكسوة من الحرير الأسود. وبقي العمل على هذا إلى اليوم.

---

(1) أبو ربيعة بن المغيرة: نسبه في قريش من بني مخزوم حسبما يظهر. وأنّه عم أبي جهل بن هشام. وربما هو الذي ذكروه في موضع آخر بأنه يلقب "بذي الرمحين".

(2) العدل: أي كان يسمّى بالعدل ويقال لبنيه "بنو العدل" والمراد به -هنا- المثل والمقدار المساوي لمقابله لأنه كان بمفرده يعادل القوم كلّهم. وهو بكسر العين. والمفتوح هو الذي من معانيه الإنصاف وضد الجور والشخص المرضي...إلخ

الدرس 14

ما جاء من التبشير به صلى الله عليه وسلم رسولا للعالمين قبل ظهور زمنه صلى الله عليه وسلم

• وذلك من طريق الكتب السماويّة الأولى ،
• وألسنة الرسل قبله ،
• وأخبار الأحبار من اليهود ،
• والرهبان من النصارى ،
• والكهّان من العرب ،
• وعلى طريق هواتف الجن ،
• وما عرف بطريق الإشارة من العلامات الكونية العامة المسماة بالإرهاص ككثرة تساقط الشهب من النجوم لمنع استراق السمع ، وغير ذلك...إلخ.

قد مرّ ذكر جملة من أنواع هذه البشائر فيما تقدّم من أبواب السيرة. غير أنّ مؤلفي السيرة خصصوا بابا لها جمعوا فيه نبذة من الأخبار في هذا الموضوع فيها المقطوع بصحته ، وفيها ما هو دون ذلك.

فأمّا أنّه صلّى الله عليه وسلّم ورد التنويه به وذكره كرسول لله تعالى إلى عموم خلقه في الكتب السماوية المتقدمة وعلى ألسنة الأنبياء والرسل قبله صلّى الله عليه وسلّم فهذا ممّا جاء -بوجه العموم- النص القطعي به في القرآن الكريم. فمنه دعوة **إبراهيم الخليل** * عليه الصلاة والسلام في آية البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

فالإجماع منعقد على أنّ المراد بهذا الرسول المبعوث إلى ذريّة إبراهيم عليه السلام هو محمد صلّى الله عليه وسلّم ومنه ما في آية الأعراف المفيد أنّه صلّى الله عليه وسلّم قد بشّر به وبصفته في كلّ من الكتابين التوراة والإنجيل وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ

ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ... ﴾.

[لعلّ من المستحسن هنا إبداء ملاحظة تنبه النظر إلى ما في أسلوب القرآن من الدقائق وما في نظمه من اللطائف. ذلك هو المناسبة فيما جاء عن إبراهيم عليه السلام في شأن محمد صلّى الله عليه وسلّم وكونه على سبيل الإشارة المبهمة لتقدّم زمن إبراهيم عليه السلام عن زمنه صلّى الله عليه وسلّم. وكان الحال في **موسى*** عليه السلام الذي هو أقرب من إبراهيم مزيد وضوح في صفته صلّى الله عليه وسلّم بذكر أوضح صفة له صلّى الله عليه وسلّم وهي "النبيّ الأميّ". ولما كان عيسى عليه السلام هو الذي يليه ويساوقه. وقد أظلّ زمانه صلّى الله عليه وسلّم كان من عيسى عليه السلام التصريح الذي لا يقبل أيّ تأويل وذكر فيه اسمه الشخصي "أحمد"].

و منه ما ذكر صريحا في التبشير به على لسان **عيسى*** ابن مريم عليهما السلام وهو ما في سورة الصف: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ... ﴾.

و قد جاء من كلام بعض العلماء في آية الشعراء من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ ، أنّ الضمير هنا يرجع إليه صلّى الله عليه وسلّم وإلى شأنه من النبوّة والرسالة. هذا ما يمكن جعله أصلا مما حقّقه العلماء من ورود المقدار الجمّ الذي لا يكاد يحصر من التبشير به صلّى الله عليه وسلّم والتنويه بشأنه كنبيّ ورسول يأتي خاتمة للرسل قبله وذلك كلّه في الأسفار الدينيّة والكتب المقدّسة القديمة.

[أورد الكثير من مؤلفي السيرة وغيرهم ممن ألّف في الاستدلال للدعوة الإسلامية من المتقدمين والمتأخرين العدد العديد من هذه

النصوص المثبتة في الكتب الدينيّة القديمة التي تناولت بعث الرسول المنتظر وكونه محمدا صلّى الله عليه وسلّم سواء بطريق الإشارة وذكر العلامات العامّة ، أو بطريق يكاد يكون في حكم التصريح ولما في هذه النصوص من الطول -في الجملة- ولاشتهارها لم نورد منها شيئًا في هذا التقييد على أنّ الاطلاع عليها للراغب في ذلك ميسور من جهة رواج هذه المؤلفات التي تضمنتها وممن أورد منها المقدار الجمّ مؤلف الرسالة الحميدية الشيخ **حسين الجسر*** رحمه الله ، وكذلك مؤلف "إظهار الحق"..... وغيرهما].

و لذا قال **البوصيري***(رحمه الله) في همزيّته خطابا له صلّى الله عليه وسلّم:

ما مضتْ فترةٌ من الرُّسْلِ إلاّ* بشَّرتْ قَومَها بكَ الأنبياءُ

و أمّا ما جاء من خبره صلّى الله عليه وسلّم عن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى وعن حكماء العرب وكهانهم فقد أورد منه مؤلفو السيرة قدرا غير قليل من طريق الروايات الإخباريّة المعهودة وتناقلوا -في صدر هذا الباب- مقالة **ابن إسحاق*** كالديباجة له وهي قوله: «كانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهّان من العرب قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل مبعثه لمّا تقارب زمانه» قال: «أمّا الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فلِمَا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه. وأمّا الكهّان من العرب فجاءتهم به الشياطين فيما تسترق به من السمع إذْ كانت لا تحجب عن ذلك كما حجبت عند الولادة والمبعث. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره صلّى الله عليه وسلّم ولا تلقى العرب لذلك بالاً حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرونها ، فعرفوها.

و فيما يلي طائفة من هذه الأخبار الواردة عن خصوص أحبار اليهود بعد الذي تقدّم عن اليهوديّ الذي رآه صلّى الله عليه وسلّم في صغره عند

حليمة. وخبر اليهودي الذي كلّم نساء قريش في حفل العيد النسوي....إلخ. [هذه الروايات من الأخبار لا تخلوا -كل منها- من فائدة أوفوائد خارجة عن أصل الموضوع ، وذلك هو الغرض من نقلها -هنا- مع ما هي عليه من النزول عن درجة الاعتماد عليها كحجّة لها اعتبار في هذا الباب].

رواية أولى:

عن سلمة بن سلامة[1] الأنصاري رضي الله عنه وكان ممن شهد بدرا قال: كان لنا جار من يهود **بني عبد الأشهل** * فذكر -ذات يوم- بين قوم أهل أوثان وجاهليّة ، (لا يعتقدون المعاد) القيامة والبعث وما فيه من الحساب والجزاء بالجنّة والنّار فقال له القوم (على سبيل الإنكار والتعجّب) «ويحك يا فلان أو ترى هذا كائنا ؟ الناس يبعثون بعد الموت إلى دار فيها جنّة ونار فيجزون فيها بأعمالهم ؟ » قال: «نعم! والذي يُقْسَمُ به. وليودُّ الشخص أن له بحظّه من تلك النّار أعظم تنور يحمى ثمّ يدخل فيه فيطبق عليه بأن ينجو من تلك النّار غدًا!!»

فقالوا له: «ويحك وما آية ذلك ؟ » قال نبيّ يبعث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة واليمن. قالوا: ومن يراه ؟ فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سنّا ، فقال إن يستنقد[2] هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا صلّى الله عليه وسلّم. وذلك اليهودي بين أظهرنا فآمنّا به وكفر بغيا وحسدا فكنّا نقول له:

---

(1) جاء في تعريفه أيضا: سلمة بن سلامة بن وقش الأوسيّ رضي الله عنه.

(2) يستنقد: بمعنى يستكمل من مادة النون والقاف والدال المهملة. هكذا جاء تفسيره بالحلبية. ويظهر أنّ هذا المعنى لهذا اللفظ ليس على الحقيقة اللغوية ففيه ضرب من المجاز. فالمستنقد هو الذي يقبض الثمن نقدا أي معجلا لا يؤخر له منه شيء. وليس من البعيد أن يكون هذا الفعل بالذال المعجمة فيكون من النقذ ، ومنه الإنقاذ والاستنقاذ. والكلّ يرجع معناه إلى التخليص من الهلكة وإلى النجاة والسلامة.

«ويحك يا فلان ألستَ الذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ » فيقول: «بلى! ولكن ليس به[1] ».

رواية ثانية:

عن عمرو بن عبسة[2] السُّلَمي رضي الله عنه قال: «رغبت عن معبودات قومي بالجاهلية فلقيت -ذات يوم- حبرا من أهل الكتاب من أهل تيماء[3] فقلت له إنّي امرؤ ممن يعبد الحجارة فينزل الحيّ ليس معهم إله فيخرج الرجل منهم فيأتي بأربعة أحجار فيعيّن ثلاثة لقذره[4] ويجعل أحسنها إلهًا يعبده ثمّ لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره. وإذا نزل منزلا سواه ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك الأحسن! فرأيت أنّه إله باطل لا ينفع ولا يضر. فَدُلَّنِي على خير من هذا. قال: يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها. فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنّه يأتي بأفضل الدّين. قال عمرو: فلم يكن لي همة منذ سمعت ذلك إلاّ مكة آتيها فأسأل: هل حدث حدثٌ ؟ فيقال: لا!ثمّ قدمت مرّة فسألت فقيل لي: حدث رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها. فشددت راحلتي ثم قدمت منزلي الذي كنت أنزله بمكة فسألت عنه فوجدته مستخفيا ووجدت قريشا عليه أشدّاء فتلطفت حتى دخلت عليه فسألته أيّ شيء أنت ؟ قال: نبيٌّ! ، قلت: من نبأك ؟ ، قال: الله! قلت: وبم أرسلك ؟ ، قال: بعبادة الله وحده لا شريك له وبحقن الدماء وبكسر

---

[1] اسم " ليس " ضمير مستتر يعود على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. والباء هي المزيدة في خبر ليس المجرور بها لفظا ، فالضمير المجرور بها هو الخبر ، وهو يعود - حسب لفظ القائل الزاعم لهذا الزعم- على النبي الذي تقدّم ذكره له وأنّه يخرج من البلاد المشار إليها. فالتقدير على زعم هذا اليهودي الجاحد " ليس محمد بالنبي الذي كنتُ حدّثتُ عنه!".

[2] عمرو بن عبسة ، بالعين المهملة والباء الموحّدة التحتية والسين المهملة بفتحات.

[3] تيماء: من بلاد الشام.

[4] يعني بالقذر الاستجمار.

الأوثان وصلة الرّحم وأمان السبيل. فقلت: نعم! ما أُرسِلتَ به قد آمنتُ بك وصدّقتك ، أتأمرني أن أمكث معك أو أنصرف ؟ ، قال: ألا ترى كراهة الناس ما جئتُ به ؟ ، فلا تستطيع أن تمكث ، كن في أهلك فإذا سمعت بي قد خرجتُ مخرجا فاتبعني».

قال عمرو فكنت في أهلي حتى خرج صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة فسرت إليه فقدمت المدينة فقلت: يا نبيّ الله أتعرفني ؟ ، قال: نعم !أنت السلمي الذي أتيتني بمكة(رواية عمرو بن عبسة هذا مما اشتهر من الروايات وجاء فيها في طرق أخرى زيادات عما هنا في السؤال الذي كان يوجهه على الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى تعدى إلى فروع الأعمال في العبادات وذلك مما يدعو إلى احتمال كون مثل هذا السؤال إنّما وقع بالمدينة).

رواية ثالثة:

عن **عاصم بن عمرو*** ابن قتادة الأنصاري رضي الله عنه حدّث عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى لنا وهداه ما كنّا نسمع من أحبار يهود وكنّا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم من العلمِ ما ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبيّ يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم[1] . فكان كثيرا ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله

---

(1) عاد وإرَم: قيل عاد وإرَم قبيلة واحدة فالآية من قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد﴾ ذكر فيها إرم بعد عاد على سبيل عطف البيان. وهذه هي عاد الأولى وبعدها عاد الأخيرة ، والبعض يقول أنّ إرَم جدّ أعلى ترجع إليه كل من قبائل عاد وثمود. ويجعل البعض إرَم اسم أرض قبيلة عاد المذكورة. وعلى كلّ فما هنا يشير إلى ما كانت عليه قبيلة عاد من الشدّة والقوّة في البطش فإضافة القتل إلى عاد يقتضي المقام أن يكون من إضافة المصدر إلى فاعله لأنّ عادًا كانوا سفاكين كما تدلّ على ذلك آيات القرآن ومنها ما جاء في سورة الشعراء: ﴿و إذا بطشتم ، بطشتم جبّارين﴾.

محمدا صلّى الله عليه وسلّم أجبناه حين دعانا إلى الله عزّ وجلّ وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا[1] به ، فبادرناهم إليه فآمنّا به وكفروا. وفي ذلك نزلت هذه الآيات من سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[مما جاء من الأخبار فيما تشير هذه الآية: -أنّ اليهود كانوا إذا ما وقعت لهم موقعة حرب مع جيرانهم عرب المدينة الذين كانوا إذ ذاك مشركين استفتحوا ، بمعنى طالبوا الفتح والنصر بالرسول المنتظر الذي سيأتي من بعد (و ما هو إلاّ محمد صلّى الله عليه وسلّم) فلما جاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم المدينة كفر به أولئك اليهود الذين عرفوه حقا كما يعرفون أبناءهم وكانوا يستفتحون به على أعدائهم].

رواية رابعة:

عن شيخ من بني قريظة (ممن أسلم منهم) قال: كان رجل من يهود الشام يقال له **ابن الهيبان*** (أي الجبان) قدم إلينا قبل الإسلام بسنين فحلّ بين أظهرنا ، والله ما رأينا رجلا قطّ لا[2] يصلي الخمس أفضل منه.
[الرواية التي اشتهرت في اسم الرجل الذي أنذر **بني قريظة*** عاقبة مخالفة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وعداوتهم له وبين لهم أحقّية رسالته وأنّه الرسول المنتظر الوارد في كتبهم نعته... أنّه "**ابن خراش** *". حتى ورد في تلك الرواية أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عند مقدمه لمحاصرة بني قريظة كان يحتج عليهم في جملة حججه بمقال "ابن خراش" فيهم].

---

[1] تواعد: بالمدّ وتوعّد بالتشديد وأوعد بالهمز. كلها بمعنى تهدد وترجع إلى الوعيد.
[2] جاء في التعليق على هذه العبارة أنّ لفظة " لا " في قوله لا يصلي.... هي أصلية على معناها في النفي أي هو أفضل رجل فيمن لا يصلي الخمس أي هو أفضل رجل من غير المسلمين.

فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر قلنا له يا ابن الهيبان اخرج فاستسق لنا فيقول: لا والله ، حتى تقدموا بين يدي نجواكم صدقة ، فنقول: كم ؟ فيقول: صاعا من تمر ومدّين من شعير فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرّتنا فيستسقي لنا ، فو الله ما يبرح من محلّه حتى يمر السحاب ونسقى. قد فعل ذلك غير مرّة. ثم حضرته الوفاة عندنا فلمّا عرف أنّه ميّت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أهل الخَمَر [1] والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ ، قلنا: أنت أعلم. قال: إنّما قدمت هذه الأرض أتوكّف [2] خروج نبيّ قد أظلّ زمانه وهذه البلد مهاجره وكنتُ أرجو أن يبعث فأتبعه. فقد أظلكم زمانه فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر اليهود. فإنّه يبعث بسفك الدماء وبسبي الذراري والنساء ممن خالفه. فلا يمنعكم ذلك منه.... (قال الراوي) فلما بعث الله رسوله محمدا صلّى الله عليه وسلّم وحاصر بني قريظة قال لهم نفر من هدل [3] وكانوا شبانا [4] أحداثا "يا بني قريظة والله إنه لهو

(1) الخَمَر: بفتحتين. قالوا هو الشجر الملتف ببعضه بعضا للكثرة فيخمر ما خلفه أي يغطيه. والخمير هو خمير العجين. والمعنى المراد من هذا التعبير وصف أرضه الشام التي خرج منها بالخصب ووفرة أسباب المعاش فيها.

(2) فسر لفظ "أتوكّف" هنا بمعنى أتوقّع واللفظ له عدّة معان ومنه هذا المعنى فيقال: "توكّف الخبر" بمعنى انتظر ظهوره.

(3) هدَل: بالدال المهملة بفتحتين وقيل بسكون الدال ، إخوة لبني قريظة وليسوا منهم. وقد جاءت رواية في أسماء النفر الشبان المذكورين أنّهم ثعلبة بن شعبة (و في بعض النسخ بن سعيد أو سعية ؟) وأخوه أسد أو أسيد بالتصغير (و ربما جاء زيادة أسيد على أنه الأخ الثالث). وابن عمّهم أسد بن عبيد. ورد أنّ هؤلاء النفر فارقوا قومهم ونزلوا من الحص إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فاعتنقوا الإسلام في الليلة التي كان في صبيحتها نزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه دون حكم الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنفة منهم أن ينزلوا على حكمه لما أعماهم من العداوة والبغضاء له صلّى الله عليه وسلّم.

(4) في اسم أبي هؤلاء الشبان الذين أسلموا من بني قريظة اختلاف كثير بين كتب السيرة في رسم صورته ، ففي البعض: ثعلبة بن "شعبة" بشين معجمة وعين مهملة وباء تحتية موحّدة. والبعض: سعيد بسين مهملة وعين مهملة وياء مثنّاة تحتية آخره دال مهملة. والبعض: سعيّه: سين مهملة وعين مهملة وياء مثناة تحتية وآخره هاء أي تاء التأنيث.

بصفته" فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم. [هذا التعبير في وصف بعثة النّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم بأنّه يبعث بسفك الدماء....إلخ ممن خالفه ، لا يصح له وجه الإطلاق في معرض التعريف به صلّى الله عليه وسلّم البتّة. إذ المعروف أنّ بعثته صلّى الله عليه وسلّم هي أرحم بعثة فيما وقع من كلّ بعثة رسول على العموم.

و الذي وقع على يده صلّى الله عليه وسلّم من ملاحم القتال بينه وبين مخالفيه لا يعدو الشيء البسيط العادي بالنسبة لغيره. ومع ذلك يتجلّى فيه روح السلم إلى أقصى حدّ عرف في التأثّم من سفك الدم والنيل من باقي حرمات الآدمي يعرف هذا جليّا بأدنى إلمام من العلم يحصل لمن استوعب النظر في سيرته صلّى الله عليه وسلّم ولم تخدعه شواذ الأخبار وشوارد الروايات عن الأصول الأساسية والقواعد المطردة منها- ولعلّ في هذه القصة إشارة إلى واقعة بني قريظة معه صلّى الله عليه وسلّم حيث كتب لهم الاستئصال... دون بقيّة محاربيه صلّى الله عليه وسلّم. فكانوا - في الجملة- بين القتل والأسر كما جاء نصًا في الآية].

رواية خامسة:

عن **العباس بن عبد المطلب** * رضي الله عنه قال: خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب فيه **أبو سفيان** * بن حرب ، فورد علينا كتاب **حنظلة بن أبي سفيان** * يخبر فيه أنّ محمدا قائم في أبطح مكة يقول: أنا رسول الله أدعوكم إلى الله!. قال ففشا ذلك (أي خبر الكتاب) في مجالس أهل اليمن فجاءنا حَبر من اليهود فقال: "بلغني أنّ فيكم عمّ هذا الرجل الذي قال ما قال". فقال العبّاس فقلت: نعم! قال: نشدتك الله! هل كان لابن أخيك صبوة[1] ؟ ، قلت: لا والله ولا كذب ولا خان. وما كان اسمه عند قريش إلاّ الأمين. قال: هل كتب بيده ؟ قال العباس: فأردتُ أن أقول نعم! فخشيت

---

[1] الصبوة: من معانيها (و هو المراد هنا) الميل إلى الجهل والخلاعة والتهتك.

من أبي سفيان أن يكذّبني ويردّ عليّ فقلت: لا يكتب. فوثب الحبر وترك رداءه وقال: ذبحت يهود!. وقتلت يهود! قال: فلمّا رجعنا إلى منزلنا قال لي أبو سفيان: يا أبا الفضل إنّ اليهود تفزع من ابن أخيك. فقلت: قد رأيت لعلّك أن تؤمن به. قال: لا أُؤمن به حتى أرى الخيل في كداء[1]. قال العباس فقلت له ما تقول[2]؟ قال كلمة جاءت على فمي إلاّ أنّي أعلم أنّ الله لا يترك خيلا تطلع على كداء. قال العباس: فلمّا فتح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكة ونظر أبو سفيان إلى الخيل وقد طلعت من كداء قلتُ له: يا أبا سفيان أتذكر تلك الكلمة ؟ ، قال: أي والله إنّي لأذكرها.

[لا يخفى على المتأمّل الناقد ما في هذه الحكاية من التلفيق الذي لم يوات بعضه بعضا. فمثل هذا المقال الذي يقوله أبو سفيان للعباس عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم (أنّ اليهود تفزع منه) وكذلك مقال العباس لأبي سفيان (لعلك أن تؤمن به)، كل هذا لا يناسب مقدم الحكاية ولا يلتئم معه. إذ الحال كما حكي أولا أنّ هذا الخبر كان أوّل ما شاع عن دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولا زال الأمر لم يصل إلى ما يقوله أبو سفيان في اليهود. ولا إلى ما يقوله العباس، وإنّما المقال الأخير يناسب حال ما بعد الهجرة -أو على الأقل- حال شيوع الإسلام وظهور أمره حتى يعرف أبو سفيان عداوة اليهود للرسول صلّى الله عليه وسلّم ويمكن العباس أن يرجعه في القضية بمقاله هذا].

و قد أورد البعض من مؤلفي السيرة:

رواية سادسة:

من مثل هذه الروايات الواردة عن أحبار اليهود في شأنه صلّى الله

---

(1) كداء: بالفتح والمدّ. مدخل مكة من أعلاها. كما أنّ كُدًى بالضم والقصر مدخلها من أسفل.

(2) (ما تقول ؟) استفهام إنكار واستغراب لما كانوا عليه من الاعتزاز بحرم مكة الآمن واعتقادهم استحالة غزوها من أيٍّ كان.

عليه وسلّم ، وهي خبر مخيريق[1] اليهودي ، فقيل أنّه كان حبرا عظيما لليهود بالمدينة ، وكان ذا مال كثير. وأدرك مجيء الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة فكان يعرف صدق نبوّته إلاّ أنّه غلب عليه ما ألف من حاله حتى كان يوم غزوة أحد (في السنة الثالثة للهجرة) وخرج الرسول صلّى الله عليه وسلّم إليها وكان ذلك يوم سبت. قال مخيريق لقومه: يا معشر يهود إنكم تعلمون أنّ نصر محمد حق عليكم (يريد معونته صلّى الله عليه وسلّم في القتال) فامتنع القوم من ذلك.

و جاء أنهم ممّا تعلّلوا به لذلك كون اليوم يوم سبت (يمنع فيه -عندهم- كل عمل ومنه الحرب). فردّ عليهم مخيريق قائلا: إنّكم لا سبت لكم! ثمّ أخذ سلاحه وخرج حتى أتى الرسول صلّى الله عليه وسلّم (و هو بأحد) فأسلم على يده. وعهد إلى قومه قبل الخروج بأنّ جميع أمواله -إن مات- هي لمحمد صلّى الله عليه وسلّم يصنع بها ما بدا له. ثمّ قاتل بجانب الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقتل فيمن قتل من المسلمين في هذه الغزوة. فجعل الرسول صلّى الله عليه وسلّم ماله صدقة بالمدينة. وكان صلّى الله عليه وسلّم يقول: مخيريق خير يهود!

رواية سابعة:

ومما جاء من أخبار الأحبار المتقدمين خبر **شامول*** الذي كان حبرا بالمدينة على عهد الملك تبع الحميري ، ويعدّ في المعمرين الذين عاشوا الأمد الطويل ، وهو الذي منع تبعا من تخريب المدينة لمّا جاءها غازيا يريد

---

[1] كان نقل رواية "مخيريق" هذا من السيرة النبويّة ورسم الاسم هكذا بصيغة التصغير لمخراق: بالخاء المعجمة والراء المهملة وآخره قاف. هذا وقد أورد بعض من ألّف في السيرة أنّ هذا الحبر المعروف بمخيريق خلف ابنا كان يدعى كعبا* وكان صبيا صغيرا عندما مات أبوه. فانتقلت به أمّه إلى الشام حتى إذا كان عهد فتح الشام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقع لكعب هذا نظير ما وقع لأبيه فإنّه انضم لجيوش المسلمين ، وقاتل معهم واستشهد في جملة من استشهد من المسلمين في إحدى وقائع الشام.

تخريبها واستئصال من بها من اليهود غضبا لقومه القحطانيين المجاورين لليهود بالمدينة حيث شكوا إليه ما يلقون من أذى اليهود. فكان مما ردّ به الحبر المذكور عن المدينة لدى تبع تعظيم حرمتها من حيث كونها دار هجرة الرسول المنتظر.

و مما جاء من مقال هذا الحبر لتبع*: الملك أجل من أن يطرقه فرق، أو يستخفه غضب، وأمره أعظم من أن يضيق حلمه أو ينخرم صفحه وهذه البلدة مهاجر نبيّ من بني إسماعيل يبعث بدين إبراهيم اسمه أحمد، مولده مكة وهذه هجرته. وتابع ذكر صفاته صلّى الله عليه وسلّم، فسأله تبع عن أشياء في شأنه صلّى الله عليه وسلّم فأجابه عنها. فتراجع تبع عما كان يريده وتبدّل موقفه من المدينة إلى احترام وإكرام. (و ستأتي الإشارة إلى هذه القصّة في ذكر الهجرة).

رواية ثامنة:

ومما جاء -أيضا- من أخبار الأحبار في اليهودية رواية **النعمان السبائي*** وهو من يهود اليمن، يروى عنه أنه قال: سمعت بذكر النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم فقدمت عليه وسألته عن أشياء. ثمّ أخبرته بما كان من أبي (وكان من الأحبار أيضا) حيث كان ختم على سفر من أسفار كتبه وأوصاني أن لا أقرأه على يهود إلاّ إذا سمعت بذكر نبي قد خرج بيثرب. قال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: فلمّا سمعت بك فتحت السفر، فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة. وإذا فيه ما تحلّ وما تحرّم، وإذا فيه أنت خير الأنبياء، وأمتك خير الأمم، واسمك أحمد وأمّتك المحمادون، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، لا يحضرون قتالا إلاّ وجبريل معهم يتحنّن عليهم كتحنن الطير على فراخه....إلخ. قال:... وقد أوصاني أبي أن أخرج إليك -إذا سمعت بك- وأن أومن بك وأصدّقك. ثمّ شهد النعمان شهادة الإسلام بين يديه صلّى الله عليه وسلّم، وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يحب أن يسمع أصحابه حديث النعمان المذكور. فلمّا قدم عليه

في مرّة أخرى أمره أن يسمع الناس حديثه المذكور. فحدّث به فكان الاستبشار والتبسم يعلوان محيّاه صلّى الله عليه وسلّم. قال البعض: والنعمان هذا قتله **الأسود العنسي** * الدجّال الذي ادّعى النبوّة على عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بناحية من اليمن لمّا كذّبه النعمان وقال له: أشهد أنّ محمدا رسول الله حقا وأنّك كذّاب مفتر على الله.

جاء إيراد هذه الرواية -في كتب السيرة- في باب ذكر أخبار الكتب القديمة في شأنه عليه الصلاة والسلام.

و جاء ممّا يخصّ الأخبار الواردة عن الرهبان من النصارى طائفة من الروايات أيضا منها (زيادة على ما تقدم من خبر بحيرا ونسطورا.....):

رواية أولى:

عن **طلحة بن عبيد الله** * التيمي (أحد العشرة) رضي الله عنهم قال: حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: «سلوا أهل هذا الموسم هل فيكم أحد من أهل الحرم؟ » قال طلحة فقلت: نعم أنا! فقال لي: «هل ظهر أحمد؟ » قلتُ: ومن أحمد؟ قال: « ابن عبد الله بن عبد المطلب. هذا شهره الذي يخرج فيه (أي شهر المبعث) وهو آخر الأنبياء فخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخلة وحرة وسباخ. فإيّاك أن تُسبق إليه (أي أن يسبقك غيرك إليه)»

قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال الرّاهب. فلمّا قدمت مكة حدّثت أبا بكر بذلك. فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخبره الخبر فسرّ بذلك (...أي وأسلم طلحة رضي الله عنه).

فما كان من سيّد بني تيم **نوفل بن العدويّة** * إلاّ أن أخذ كلاًّ من أبي بكر وطلحة رضي الله عنهما (لأنّهما من بني تيم) فعذّبهما وشدّهما في حبل واحد. ومن ثمّ سمّيا القرينين.

قال البعض من مؤلفي السيرة: وهذا الراهب المذكور في خبر طلحة وكونه ببلد بُصرى التي هي موطن كلٍّ من بحيرا ونسطورا، الأقرب فيه أنّه

غيرهما لما ورد عن بحيرا ونسطورا بأنهما لم يدركا البعثة.

رواية ثانية:

عن **سعيد بن العاص*** قال: لمّا قتل أبي العاص يوم بدر مع المشركين بقيتُ في حجر عمّي **أبان بن سعيد***. وكان ممن يكثر سبّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويبغضه. فخرج تاجرا إلى الشّام ومكث بها سنة. فلمّا قدم كان أوّل شيء سأل عنه أن قال: "ما فعل محمد؟" فقال له عمّي **عبد الله بن سعيد***: "هو (أي محمد صلّى الله عليه وسلّم) والله أعزّ ما كان وأعلاه!"قال: فسكت ولم يسبّه كما كان يسبّه قبلا، ثمّ صنع طعاما ودعا إليه سُراة[1] بني أمية فحدّثهم عمّا رآه في الشّام فقال: إنّي كنت بقرية فرأيت بها راهبا يقال له "**بكاء***" لم ينزل من صومعته منذ أربعين سنة. فنزل يوما فاجتمع إليه النّاس فجئته فقلت إنّ لي إليك حاجة، فسألني ممن الرجل؟ فقلت: من قريش وقلت إنّ رجلا هناك خرج يزعم أنّ الله أرسله. قال: ما اسمه؟ قلت: محمد. قال: منذ كم خرج؟، قلت: عشرين[2] سنة. فقال لي الراهب: ألا أصفه لك؟، قلت بلى!فوصفه فما أخطأ في صفته شيئا ثمّ قال لي: هو، والله، نبيّ هذه الأمّة. والله ليظهرَنَّ! ثمّ دخل صومعته وقال لي: اقرأ عليه السلام!و جاء في هذه الرواية أنّ هذا الخبر وقع زمن الحديبيّة.

[و قد أسلم أبان هذا. كما أسلم أخوه عبد الله المذكور هنا -وكان اسمه الحكم- وإنّما سمّاه عبد الله الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأسلم أيضا أخوهم **عمرو***. وأمّا أخوهم خالد فهو من السابقين الأوّلين إلى الإسلام كما سيأتي ذكر قصّة له في سبب إسلامه عند التعرّض للسابقين في إجابة

---

(1) سراة: بضم السين المهملة جمع كقضاة ومفرده سَريّ بفتح السين وكسر الرّاء بالتخفيف وتشديد الياء بوزن فعيل وهم الأشراف ذوو المروءة والفضل.

(2) العشرون سنة بحسب التقريب لأنّ عام الحديبية هو السادس للهجرة يزاد لذلك ما قبل الهجرة وهو ثلاثة عشر عاما.

الدعوة الإسلامية. وسعيد هذا صاحب هذه الرواية سمّي باسم جدّه **سعيد بن العاص*** المعروف من سادات قريش ويكنّى **أبا أحيحة***، وقد مات كافرا كما سيأتي ذكر ذلك في قصة إسلام ابنه **خالد***. كما سمي أبوه العاص الذي قتل ببدر كافرا، باسم جدّه أيضا. فهو (أي صاحب الرواية) **سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص*** من بني أميّة].

رواية ثالثة:

عن **حكيم بن حزام*** رضي الله عنه قال: دخلنا الشّام لتجارة قبل أن أسلم ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكة. فأرسل إلينا ملك الروم فجئناه. فقال: «من أيّ العرب أنتم من هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ ؟ » قال حكيم فقلت: يجمعني وإيّاه الأب الخامس. فقال: « هل أنتم صادقيّ فيما أسألكم عنه ؟ » فقلنا نعم !فقال أنتم ممّن اتّبعه أو ممن ردّ عليه ؟ ، فقلنا ممن ردّ عليه وعاداه.فسألنا عن أشياء مما جاء بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأخبرناه. ثمّ نهض واستنهضنا معه فأتى محلا في قصره وأمر بفتحه وجاء إلى ستر فيه فأمر بكشفه، فإذا صورة رجل، فقال: أتعرفون مَنْ هذه صورته ؟ ، قلنا لا! قال هذه صورة آدم...! ثمّ تتبع أبوابا يفتحها ويكشف عن صور للأنبياء، ويقول أما هذا صاحبكم ؟ ، فنقول لا!، فيقول هذه صورة فلان (من الأنبياء) حتى فتح بابا وكشف عن صورة فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا نعم !هذه صورة محمد بن عبد الله صاحبنا. قال أتدرون متى صوّرت هذه الصورة. قلنا لا!، قال منذ أكثر من ألف سنة وإنّ صاحبكم لنبيّ مرسل فاتبعوه، ولوددت أنّي عبده فأشرب ما يُغسِلَ من قدميه!

و جاء نظير هذه الرواية عن **جبير بن مطعم*** رضي الله عنه بزيادة فيها في تلك الصور، حيث رأى صورة **أبي بكر الصدّيق*** رضي الله عنه آخذة بعقب صورة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصورة **عمر بن الخطاب*** رضي الله عنه آخذة بعقب صورة أبي بكر. فقال لنا الملك: من هذا الذي

آخذ بعقبه؟ ، قلنا: ابن أبي قحافة. قال: وتعرفون الذي أخذ بعقبه؟ ، قلنا: نعم! هو عمر بن الخطاب!فقال: أشهد أنّ هذا رسول الله ، وأنّ هذا هو الخليفة بعده ، وأنّ هذا هو الخليفة من بعد هذا.

رواية رابعة:

و هي خبر **ضُغاطر**[1] أكبر أساقفة الرّوم في عهد القيصر **هرقل***الذي كاتبه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأبلغه الكتاب بواسطة صاحبه **دحية الكلبي*** رضي الله عنه. فجاء عن دحية رضي الله عنه لمّا بلّغ الكتاب لهرقل قال: لمّا خرج عظماء الروم من عند هرقل أدخلني عليه وأرسل إلى أسقف (سيأتي تفسير لفظ الأسقف في حديث سليمان الفارسي رضي الله عنه) كان صاحب أمرهم فسأله عن أمر النّبي صلّى الله عليه وسلّم فقال الأسقف: "هذا الذي كنّا ننتظره وبشّرنا به عيسى عليه السلام أمّا أنا فمصدّقه ومتّبعه" ، فقال هرقل: إن فعلتَ ذهب ملكي! قال دحية فقال لي الأسقف: خذ هذا الكتاب واذهب به إلى صاحبك واقرأ عليه السلام وأخبره أنّي أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا رسول الله! وأنّي قد آمنت به وصدّقته ، ثمّ ألقى ثيابه[2] و لبس ثيابا بيضا وخرج. فصار يدعو الروم إلى الإسلام ويعلن فيهم شهادة الحقّ فقتلوه!.

قال دحية: فلمّا رجعت -مرّة أخرى- إلى هرقل قال لي: أماقُلتُ لك إنّا نخافهم على أنفسنا؟ (أي عامّة الروم) وقال هرقل: فضغاطر كان أعظم شأنا عنهم مني.

(فمعنى كلام هرقل هذا هو التدليل على ما كان قاله سابقا من كونه

---

(1) ذكروا في ضبط اسم "ضُغاطَر" هذا أنّه بالضّاد المعجمة مضمومة ثمّ الغين المعجمة مفتوحة بتخفيف ثمّ الطاء المهملة مفتوحة ثمّ الرّاء في الأخير.

(2) ربما يصحّ أن يفهم من هذا أنّه كان للأساقفة لباس رسميّ خاص ، فخلعه عنه ضغاطر هذا لما أن اعتنق الإسلام ولبس الثياب البيض التي هي شعار الإسلام أو لكونها اللباس العامي المجرد عن الرسميّات.

يخاف على نفسه من عامّة الروم إذا هو جاهر بإعتناق الإسلام ، فاستشهد على هذا بما وقع من قتل ضغاطر ، مع أنّ ضغاطر كان أعظم شأنا وأعلى منزلة في قلوب العامّة من هرقل. ومع ذلك فقد أقدموا على قتله لمّا أعلن بإسلامه).

رواية خامسة:

تتضمن خبرا عن **زيد بن عمرو بن نفيل*** العَدَوّي والد **سعيد بن زيد*** أحد العشرة رضي الله عنهم ، وهو من حكماء العرب في الجاهلية وأحد المفكرين الأفذاذ الذين شذوا عن إجماع قريش بنبذ التديّن بالوثنية. فورد عنه أنّه لقي راهبا بأرض الجزيرة فسأله عن دين إبراهيم (الحقيقي) فأجابه ذلك الرّاهب بقوله: إنّ كلَّ ما تراه اليوم من الأحبار والرهبان في أمر الدين هو ضلال ، وإنّك لتسأل عن دين الله الحق وقد خرج في أرضك (أي الحجاز)-أو هو خارج- نبيٌّ يدعو إلى دين الله ، فارجع إليه (أو إليها أي الأرض) وصدّقه (أي النبيّ).

و جاء أنّ زيدًا اجتمع بالرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد هذا ، وكان ذلك قبل أن يوحى إليه صلّى الله عليه وسلّم. فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما يرى من نفور العامة عنه لفكرته المذكورة: "يا عمّ ، ما لي أرى قومك قد أبغضوك ؟ " فقال زيد: "أما والله إن ذلك لغير ثائرة مني إليهم ، ولكنّي أراهم على ضلالة فخرجت أبتغي هذا الدين" (أي دين إبراهيم عليه السلام) ومضى يحكي للرسول صلّى الله عليه وسلّم ما أخبره به الرّاهب المذكور. والمعروف أنّ زيدا هذا لم يدرك البعثة. وجاءت أخبار عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الثناء عليه وعدّه في صلحاء الرجال.

[جاء فيما جاء مما كتب في أخبار السيرة أنّ زيد بن عمرو بن نفيل هذا اجتمع بأحد علماء أهل الكتاب وفلاسفة الروم خارج بلاد العرب ، وسمّي هذا الفيلسوف **كلكراتيس***. وكان هذا الفيلسوف قد أسر من يد **بني كلب*** بن وبرة ، واسترقوه عندهم زمنا طويلا ، فتعرّب لذلك وسمّي

صبيحا*. ثمّ وقع أن نزل عندهم زيد بن عمرو، ووقعت الألفة بينه وبين الفيلسوف المذكور. فاستوهبه منهم فوهبوه له، فخرج الاثنان من بلاد كلب قاصدين الحجاز يتحسّسان خروج النبي المنتظر المتوقّع خروجه بأرض الحرم. فلمّا كانا بأرض **بني لخم*** عدوا عليهما، فقتلوهما قصد سلب المال].

و من هذه الأخبار الواردة عن الرهبان من النصارى في شأنه عليه الصلاة والسلام:

رواية سادسة:

عن **سلمان الفارسي*** رضي الله عنه، ورويت من طرق عدّة بينها بعض الاختلاف في حكاية وقائع القصة. من ذلك الطريق الذي يحكي فيه سلمان عنه بقوله: "كنت رجلا فارسيا من قرية تسمّى «جَيَّى» [1] من عمل **أصبهان***، وكان أبي دهقان [2] قريته. وكنتُ أحبَّ خلق الله إلى أبي، لم يزل به حبّه لي حتى حبسني في بيت كما تُحبس الجارية. واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النّار [3] (بمعنى خادمها) الذي يوقد عليها فلا يتركها تخبو لحظة". قال وكان لأبي ضيعة [4] عظيمة يعمل فيها. فشغل عنها يوما في بنيان له، فأمرني أن أقوم مقامه بالضيعة ذلك اليوم وأوصاني-مع ذلك-أن لا أحتبس عنه قائلا: «ولا تحتبس عليّ فأنت أهم إليّ من **الضيعة***».قال: فخرجت أريد الضيعة، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، و سمعت أصواتهم وهم يصلون ويقومون [5] بعبادتهم فيها. قال

---

(1) جَيَّى: بفتح الجيم وتشديد الياء.

(2) الدهقان: لغة فارسية في الأصل ؛ معناه كبير القرية وزعيمها.

(3) هذه النار هي النار المقدّسة عند المجوس - يتعبدون بوقودها- وفعل " قطن "* من باب دخل.

(4) غلب الاستعمال في لفظ "الضيعة" أن يطلق على القطعة من الأرض المشجرة والمزروعة التي تفلح.

(5) يؤخذ من هذا الخبر أنّ حرية التديّن كانت مكفولة في مملكة فارس التي تدين بالمجوسية.

وكنت لا أدري من أمر الناس شيئًا لما أنا عليه من العزلة بالحبس الذي صنعه معي أبي.

قال: فلمّا سمعت تلك الأصوات دخلت عليهم أنظر ما يصنعون. فلمّا رأيتهم أعجبتني صلاتهم ، ورغبت في أمرهم ، فكنت أقول في نفسي: «و الله هذا خير من الذي نحن عليه (في أمر الديانة وأفعال التعبد)». قال: فو الله ما برحت عنهم حتى غربت الشمس ولم أذهب إلى الضيعة بالمرّة. قال: ثمّ كلّمت القوم فسألتهم عن أهل هذا الدين أين يكونون؟ (يعني الرؤساء الذين لهم الاختصاص في إدخال من يريد الدخول في الدين)....فقالوا هم بالشام. قال: فرجعت إلى أبي وقد كان بعث في طلبي لمّا أبطأت عنه وشغلته عن عمله كلّه. فلمّا جئته واستفهمني أين كنتُ؟ أخبرته بالأمر فقلت: يا أبت مررت بأناس يصلون بمعبد لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم فو الله مازلت عندهم حتى غربت الشمس! فقال لي: أي بنيّ ليس في ذلك الدين خير! دين آبائك الذي هو دينك خير منه.

فراجعته وقلت: كلاّ والله إنّه لخير من ديننا!قال وخاف أبي أن أهرب إلى القوم فشدّد عليّ الحبس بالبيت ، وجعل في رجلي قيدا. وبعثت إلى النصارى أقول لهم إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني.

قال: فلمّا كان ذات يوم قدم فيه ركب من نصارى الشام تجّارا أخبروني الخبر ، فبعثت إليهم أن يخبروني بالساعة التي يسافر فيها الركب راجعا إلى الشام. فلمّا جاءني الخبر بذلك ألقيت عنّي القيد ولحقت بالركب. فقدمت معهم أرض الشّام ، فسألت عن أجلّ شخص في دين النصارى ، فدلّوني على الأسقف[1] بالكنيسة فجئته وأخبرته خبري برغبتي في الدين والانقطاع إليه ، و أن أخدمهُ وأتعلّم منه فأجابني الأسقف إلى ما طلبت

[1] الأسقف: اسم لمرتبة من مراتب رؤساء الدين في المسيحيّة وجعله البعض مشتقا من السّقف بفتحتين وهو طول القامة مع انحناء لأنّ الأسقف يتخاشع. وعلى هذا فتكون اللفظة عربية. والمعروف في ضبطه ضمّ الهمزة وسكون السين وضمّ القاف. وقد يشدّد آخره وقد لا يشدّد.

فكنت معه.

قال فرأيت من هذا الأسقف رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغب الاتباع فيها حتى إذا جمعها منهم بيده اكتنزها لنفسه من غير أن يواسي المساكين منها بشيء حتى جمع سبع قلال من ذهب وفضة كان محتفظا بها لنفسه، فكنت -لهذا- أبغضه أشدّ البغض. قال ولمّا مات هذا الأسقف واجتمعت جموع النصارى لدفنه كشفت لهم ما أعلم من صنيع الرجل، وقلت لهم أنّه كان يأمركم بالصدقة ويرغّبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا!

و لمّا طالبوني بالدليل على صحّة ما أقول دللتهم على الكنز وأريتهم موضعه الذي كنت على علم به فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبا وورِقا (وفي لفظ)...وجدوا ثلاثة قماقم[1] فيها نَصف أردب[2] فضة، فلمّا رأوا ذلك أقسموا أن لا يصلّوا عليه ولا يدفنوه مدفن القداسة الذي كانوا يجعلونه لرهبانهم. بل زادوا على ذلك أنّهم صلبوه ورجموه بالحجارة. مع أنّ هذا الأسقف كان من ناحية أفعال التعبّد على غاية الاجتهاد. فكان يصوم الدهر وكان نقيًّا من حيث الشهوات الجسمانية.

قال: وجاءوا برجل آخر جعلوه مكان الأسقف المتوفى فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس[3] أفضل منه ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا

---

(1) القماقم: جمع قمقم أو قمقمة. واللفظ لغة روميّة موضوع لشكل من الأوعية المصنوعة من المعدن.

(2) الأردب: مكيال كبير يحتوي على عدّة آصع. قيل يحتوي على أربعة وعشرين صاعا.
و القُمقُم بضم القافين، بينهما ميم ساكنة. والإِرْدَب بكسر الهمزة وسكون الرّاء وفتح الدال المهملة وآخره باء غير مشدّدة.

(3) لا يصلي الخمس: تقدّم نظير هذه العبارة في إحدى هذه الروايات الواردة عن أحبار اليهود من هذا الباب، وهي رواية ابن الهيبان. وجاء في معنى العبارة أنّ مفاده مدح الرجل المتحدث عنه، وكونه أفضل رجل من غير المسلمين. لأنّ أداء الصلوات الخمس المفروضة هو العنوان الأوّل لكل مسلم، وهو ميزة المسلم التي يمتاز بها عن غيره.

أدأب ليلا ونهارا (على العمل المطلوب) فأحببته حبّا شديدا لم أحبّه شيئا قبله. وأقمت معه زمانا حتى حضرته الوفاة هو أيضا، فقلت له إذ ذاك: إنّي كنت معك وأحببتك حبّا لم أحبه شيئا قبلك، وقد حضرك من أمر الله ما نرى فإلى من توصي بي بعدك ؟ فقال لي يا بنيّ والله ما أعلم أحدا على ما كنتُ عليه ولقد هلك النّاس وبدّلوا وغيّروا وتركوا أكثر ما كانوا ينبغي أن يكونوا عليه إلاّ رجلا واحدا، هو الآن ببلدة الموصل، وهو فلان، فهو الذي أعلم أنّه على مثل ما كنت أنا عليه.

قال: فلما مات الرجل ودفن لحقت بصاحب الموصل وأخبرته خبري وما أمرني به صاحبي، قال فتقبّلني الرجل وأمرني بالإقامة معه. فلمّا أقمت عنده وجدته على حال صاحبه الذي أخبرني خبره فكنت عنده عند خير رجل حتى حضرته الوفاة أيضا.

فلمّا احتضر سألته الإشارة عليّ في أمري مثل ما وقع لي مع الذي قبله. فقال لي: يا بنيّ والله ما أعلم رجلا على ما كنت عليه إلاّ رجلا بنصيبين[1]، و هو فلان فالْحق به.

قال: فلمّا مات وغيّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري وما أشار به عليّ صاحبي المتوفى **بالموصل** *. فتقبّلني هذا أيضا وأمرني بالإقامة عنده. فوجدته على حال صاحبيه، و أقمت مع خير رجل. ووالله ما لبثت أن نزل به الموت. ولمّا رأيته في الاحتضار سألته مثل ما سألت من قبله فيمن يوصي بي إليه.

فقال لي: يا بنيّ والله ما أعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلاّ

---

(1) نصيبين: بصيغة جمع المذكّر السالم. والظاهر من الكلمة أنها ليست عربيّة. يقول البعض أنّه اسم لبلدة بأرض اليمن. بينما يقول آخر أنّ البلدة بأرض الشام، مما يتاخم العراق وهي الناحية المعروفة قديما "بالجزيرة"*. وربّما يكون ما في هذه القصّة أشبه بما في القول الأخير. وجاء للبعض ضبطها بكسر النون وكسر الصاد مشددّة نِصّيبين.

رجلا واحدا بعموريّة[1] من أرض الروم ، فإنّه على مثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته.

قال: ولمّا مات ودفن لحقت بصاحب عموريّة وأخبرته خبري. فأمرني بملازمته والإقامة عنده ، فوجدته خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم.

قال واكتسبت مدّة الإقامة مع هذا حتى كان لي بقرات وغنيمة. ثمّ نزل به أمر الله فحضرته الوفاة. ولمّا احتضر جئته فقلت ، يا فلان إنّي كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ، ثمّ أوصى بي فلان إلى فلان....ثمّ أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصي بي أنت ؟ وبم تأمرني ؟ فقال: أي بنيّ والله ما أعلم أنّه أصبح على ما كنّا عليه أحد من النّاس آمرك أن تأتيه ولكنّه[2] قد أظلّ زمان نبيّ يبعث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرّتين[3] بينهما نخل. له علامات يأكل الهديّة ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوّة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

[هذه هي الرواية المشهورة في عدّة من صحبه سلمان رضي الله عنه من الرهبان. وثمّ من الروايات ما يفيد أنّهم أكثر مما ذكر حتى قيل أنّهم أربعة عشر ، وقيل ثلاثون وعلى كلّ حال فالمتواتر في الأخبار عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنّه من المعمّرين الذين عاشوا المدّة التي يندر نظيرها].

قال: ثمّ مات الرجل ودفن. وبعد ذلك مرّ بي نفر تجّار من العرب من

---

(1) عموريّة: تعرف اليوم باسم "بروسة"*.

(2) هذا هو محلّ الشاهد من سياق هذه القصّة.

(3) الحرّة: بفتح الحاء المهملة هي الأرض ذات الحجارة السود كأنّها لامستها النّار. والمدينة المنوّرة واقعة بين حرّتين هما حرّة واقم شرقيها وحرّة الوبرة غربيها. ويطلق على الحرّة بمعناها المذكور لفظ "اللّوبة" بضم اللام وتخفيف الباء ، ولفظ اللاّبة: بتخفيف الباء أيضا. وقد جاء من الأخبار عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم في تحديد حرم المدينة أنّه عليه الصلاة والسلام حرّم ما بين لابتيها أي الحرّتين.

قبيلة كلب [1] فسألتهم أن يحملوني معهم إلى أرض العرب. وجعلت لهم لذلك جعلا فقلت أعطيكم بقراتي وغنمي هذه فأجابوني إلى ذلك وسلّمتهم الجعل جملة الرءوس من البقر والغنم وحملوني حتى إذا بلغوا بي وادي القرى (موقع من أعمال المدينة) ظلموني فباعوني من رجل يهودي.

فمكثت عنده، ولمّا رأيت النخل بالمكان رجوت أن يكون البلد الذي وصفه لي صاحبي، ولكني لم أكن على تحقيق من الأمر. وبينما أنا كذلك إذ قدم على الرجل ابن عمّ له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه وحملني إلى المدينة. فو الله ما هو إلاّ أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي (راهب عمورية).

قال سلمان رضي الله عنه فأقمت بالمدينة وبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرّق. ثمّ هاجر الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة، فو الله إنّي لفي عذق [2] لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عمّ له حتى وقف عليه فقال يا فلان قاتل الله بني قيلة [3] (و هم الأوس * والخزرج) والله إنّهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنّه نبيّ! قال سلمان فلمّا سمعت هذا أخذتني العرواء [4] حتى

---

(1) كلب بن وبرة: وقد تقدّم في التعليق على حديث زيد بن عمرو ابن نفيل أنّ رفيقه الفيلسوف الرومي أسره طائفة من بني كلب بن وبرة هؤلاء واسترقوه ظلما. وكذلك يوجد القول بأنّ الصحابي المعروف باسم صهيب * الرومي هو أيضا ممن ظلم بالرّق من طرف بني كلب بن وبرة المذكورين أيضا. فهل هذا من الواقع الذي يدلّ على اشتهار هذه القبيلة بهذا الصنيع؟ أو هو من الاتفاق للحوادث حتى يقع استرقاق هؤلاء الرجال ظلما من جانب بني كلب؟ أو نقل الروايات جاء على غير تحرٍّ ولا تمحيص؟.

(2) العذق: بالعين المهملة والذال المعجمة. حكي فيه فتح العين وكسرها مع إسكان الذال. هو في الأصل للعرجون من النخل بثمره ويطلق على كامل النخلة إذا كانت حاملا.

(3) جاء أنّ "قيلة" بفتح القاف اسم لجدّة عليا تجمع بين قبيلتي الأوس والخزرج بنت الأرقم الغسانية.

(4) العرواء: أصله وصف للمؤنّث. والمراد به هنا الحمّى النافض التي تغشى صاحبها برعدة لأنّها تسمى هكذا كما تسمّى الحمّى الصالب التي تكمن في الجسد "بالبرحاء".

ظننت أنّي ساقط على سيدي. فنزلت عن النخلة وجعلت أقول لذلك الرجل المخبر: ما تقول؟ ....فغضب سيدي لهذا غضبا شديدا ولكمني لكمة شديدة وقال لي: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك! فقلت له: لا شيء وإنّما أردت أن أستثبت الرجل فيما قال.

قال سلمان: "وقد كان عندي شيء من الطعام جمعته[1]، فلمّا أمسيت أخذته فذهبت به إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو بقباء. فلمّا دخلت عليه قلت له: قد بلغني أنّك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة. وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحقّ به من غيركم فقرّبته إليه فقال صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه "كلوا."

و أمسك هو يده فلم يأكل فقلت في نفسي هذه واحدة! (من العلامات). ثمّ انصرفتُ فجمعت شيئًا (من الطعام أيضا) وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد تحوّل إلى المدينة فجئته ثاني مرّة فقلت إنّي رأيتك لم تأكل من الصدقة وهذه هديّة أكرمتك بها فقدّمت إليه ذلك الطعام، فأكل الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأمر أصحابه فأكلوا معه. فقلت في نفسي: هاتان ثنتان (أي من العلامات).

قال: ثمّ جئت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل[2] من أصحابه، وكان عليه صلّى الله عليه وسلّم شملتان، فجلس مع أصحابه، فسلّمت عليه ثمّ ابتدرت النظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي الرّاهب؟.

قال: وألقى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رداءه عن ظهره وما أسرع

(1) جاءت عدّة أخبار في تعيين نوع الطعام الذي قدّمه سلمان للرسول صلّى الله عليه وسلّم فقيل تمر وقيل خبز ولحم. كما جاء في الوسيلة التي اكتسب بها هذا الطعام أنّه استوهب سيّده أجرة يوم من عمله. وأنّه طلب منه رخصة في ترك العمل. فاحتطب وباع الحطب فاشترى منه هذا المقدار من الطعام الذي قدّمه صدقة للرسول صلّى الله عليه وسلّم ثمّ هديّة إلخ.....

(2) جاء في الأخبار تعيين هذا الرجل المتوفي من أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأنّه كلثوم بن الهدم* الذي نزل عنده الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقباء في مجيئه مهاجرا إلى المدينة.

ما تراءى لي الخاتم. فنظرت إليه فأكببتُ عليه أقبّله وأبكي. فأمرني صلّى الله عليه وسلّم أن أتحوّل إلى ما بين يديه، فتحوّلت، وقصصت عليه حديثي كلّه.

جاء في هذه الرواية أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أعجب بخبر سلمان هذا وبأمره كلّه أيّما إعجاب!

و قد جاء في الأخبار أنّ سلمان الفارسي رضي الله عنه أسلم في موقفه هذا. وأمره الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأن يكاتب[1] صاحبه اليهودي على عتقه مما هو فيه من الرّق.

فكاتبه على ثلاثمائة نخلة يغرسها له حتى تثمر، وعلى أربعين أوقيّة ذهبا. وأمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم أصحابه أن يعينوا سلمان في كتابته هذه. وورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم باشر بنفسه غرس تلك العدّة من النخيل. فأثمرت كلّها من عامها الأوّل[2]. ولمّا أدّى سلمان ما عليه من عمل غرس النخيل وبقي عليه المبلغ من الذهب ناوله الرسول صلّى الله عليه وسلّم قطعة من الذهب في حجم البيضة من بيض الدجاج تقريبا مما وقع بيده صلّى الله عليه وسلّم من المال، وكان المعروف أنّها لا تفي بالمبلغ، فقال سلمان له صلّى الله عليه وسلّم وأين تقع هذه يا رسول الله ممّا عليّ؟ فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: خذها فإنّ الله تعالى سيؤدي بها عنك! فيقول سلمان رضي الله عنه فأخذتها فوزنت منها لأصحابي الذين لهم الحق عليَّ-و الذي نفس سلمان بيده- أربعين أوقيّة فأوفيت لهم حقّهم

---

(1) الكتابة: بهذا المعنى معروفة بأنّها اتفاقية بين المملوك وسيّده يلتزم فيها المملوك ببذل مقدار من المال للسيد مقابل عتقه. ويكون المملوك في المدّة التي يسعى فيها لجمع المقدار المقرر الذي يدفعه أقساطا على آجال معلومة في شبه حريّة يعمل لنفسه.

(2) مماّ جاء في هذا المحل من مباشرة الرسول صلى الله عليه وسلم غرس هذه النخل بيده أن شجرة واحدة تخلّفت عن الإثمار، وكان الذي وليّ غرسها غير الرسول صلّى الله عليه وسلّم. قيل غرسها كلٌّ من سلمان وعمر بن الخطاب. فما كان منه صلّى الله عليه وسلّم إلاّ أن أقلعها ثم أعاد غرسها بيده، فأثمرت حينئذ كباقي النخل المغروس بيده صلّى الله عليه وسلّم.

وبقي منها عندي مثل ما أخذوا!

و أمّا ما جاء في شأنه عليه الصلاة والسلام- على ألسنة حكماء العرب والكهّان منهم ، فكذلك هو أيضا أورد منه مؤلّفو السيرة عدّة من الأخبار. فمن ذلك:

رواية أولى:

و هي الرواية المتضمنة خبر **قسّ بن ساعدة*** الإيادي الذي يرجع نسبه إلى قبيلة **إياد**[1] بن نزار. واشتهر بالحكمة ، وكان من أفذاذ مفكري الأمّة العربية قبل العهد الإسلامي. وقد جاء خبره هذا على طرق متعدّدة منها ما ورد في قدوم وفود **عبد القيس*** على الرسول صلّى الله عليه وسلّم في عام قدوم وفود العرب عليه صلّى الله عليه وسلّم. وذلك في السنة التاسعة للهجرة. فورد أنه صلّى الله عليه وسلّم سأل الوفد فقال: أيكم يعرف القسّ بن ساعدة الإيادي ؟ فقالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله! قال: فما فعل ؟ قالوا: هلك. فقال صلّى الله عليه وسلّم: ما أنساه بعكاظ وهو على جمل أحمر يقول: «أيّها الناس اجتمعوا ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إنّ في السماء لخبرا وإنّ في الأرض لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور. أقسم قسٌّ قسما حاتما لئن كان في الأمر رضا ليكوننّ سخطا. إنّ لله دينا هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه. مالي أرى النّاس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرَضُوا بالمقام فقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ »ثمّ قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم للوفد أيّكم يروي شعره ؟ فأنشدوه:

في الذاهبين الأوّلين ... من القرون لنا بصائر

لما رأيتُ مواردًا ... للموت ليس لها مصادر

(1) إياد: بكسر الهمزة وتخفيف الياء المثناة التحتية آخره دال مهملة.

ورأيــــت قــــومي نحوهــــا تــسعى الأصــاغر والأكـــابر
لا يرجـــع الماضـــي إلـــيّ ولا مـــن البـــاقين غـــابر
أيقنـــت أنّـــي لا محالـــة حيــث صــار القــوم صــائر»

و في طريق آخر من رواية قس بن ساعدة هذه أنّه لمّا قدم وفد عبد القيس على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وكان فيهم سيّدهم **الجارود*** بن عبد الله [1]، قال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قسّا؟ »قالوا: كلّنا نعرفه يا رسول الله! وقال الجارود: وأنا بين يدي القوم كنت أقفو أثره وكان من أسباط العرب شيخا أوّل من تأله [2] من العرب. و قال الجارود عن قسّ: «كأنّي أنظر إليه يقسم بالرّب الذي هو له. ليبلغنّ الكتاب أجله. وليوفينّ كل عامل عمله». ثمّ أنشأ يقول:

«هـاج للقلـب مـن جـواه ادِكـارُ وليـــال خـــلا لهـــنّ نهـــارُ
و جبـــال شـــوامخ راسـيات وبحـــار مياههـنّ غـــزار
و نجـوم تلـوح فـي ظلـم الليـل تراهـــا فـــي كـــل يـــوم تُـــدار
والـذي قـد ذكـرت دلّ علـى الله نفوســا لهـــا هـــدى واعتبـــار»

---

(1) هكذا جاء اسم أبي الجارود "عبد الله" في السيرتين الحلبيّة والنبويّة. وجاء في بعض كتب السيرة الأخرى نسب الجارود هكذا: الجارود بن المُعَلّى بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد اللام مفتوحة، بصيغة اسم المفعول من مادّة "العلوّ".

(2) التأله: بمعنى النسبة إلى الإله أي "عبد الله" وتديّن. وقد أثر عن قس بأنّه خالف الجمهور بنبذه دين الوثنيّة.

ورد أنّه ممن أدرك بعض الحواريين لكونه من المعمّرين طويلا. كما جاءت أخبار عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم في قس المذكور بأنّه يبعث أمّة وحده، وأنّه كان على ملّة إبراهيم الحقة.

فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للجارود: «على رسلك[1] يا جارود! فلستُ أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق[2] وهو يتكلّم بكلام ما أظنّ أنّي أحفظه» (وفي لفظ من الرواية) «...تكلّم بكلام له حلاوة لا أحفظه الآن» فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله فإنّي أحفظه، كنتُ حاضرا ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته (أي قس): يا أيها الناس اسمعوا وَعُوا وإذا وعيتم فانتفعوا. من عاش مات. ومن مات فات. وكلّ ما هو آتٍ آت. مطر ونبات. وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، جمع وأشتات، وآيات بعد آيات. إنّ في السماء لخبرا وإنّ في الأرض لعبرا. ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، و بحار ذات أمواج. مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟ أقسم قس قسما حاتما، لاحانثا فيه ولا آثما. إنّ لله دينا هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيّا[3] قد حان حينه وأظلكم زمانه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه فعصاه». ثمّ قال (أي قس):

«تبّا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية، والقرون الماضية، يا معشر إياد! أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعُواد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ أين من بنى وشيد؟ وزخرف ونجد[4]؟ وغرّه المال والولد؟ أين منْ بغى وطغى؟

---

(1) الرِّسل: بكسر الرّاء وسكون السين معناه حالة التؤدة والتمهّل. والكلمة تقال لمن يطلب منه الإمهال فيما هو فيه من الفعل. وورودها في هذا الحديث ليس على معنى المطابقة التّامّة لما ذكر من معناها الاستعمالي وإنّما هي بمثابة التماس الإصغاء لما سيقوله الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

(2) الاستعمال في وصف "الأورق" أنّه لما كان لونه مختلط البياض بالسواد. وقد جاء في التعليق على ما يبدو من الاختلاف بين الرواية التي تخبر بأنّ الجمل أحمر، والرواية التي تخبر بأنّه أورق، بأنّه لا منافاة بينهما. فلعلّ حمرة الجمل كانت دكناء. والعرب تطلق على الحمرة إذا كانت كذلك لفظ السواد. فيكون سوادا ممتزجا بغيره، وهو ما يصدق عليه لفظ أورق.

(3) هذا هو محلّ الشاهد من إيراد هذا الخبر عن قس بن ساعدة.

(4) نجد: بمعنى رفع وطول والمراد في البنيان. وقد يكون بمعنى التزيين أيضا. لأنّ التنجيد هو التزيين.

وجمع فأوعى! وقال أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا؟ وأطول منكم آجالا؟ وأبعدَ منكم آمالا؟ طحنهم التراب بكلكله، ومزّقهم بتطاوله. فتلك عظامهم باليه، وبيوتهم خاويه، عمّرتها الذئاب العاويه كلاّ! بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود». ثمّ أنشأ يقول أبياته من الشعر المتقدّمة الذكر.

و ورد في طريق آخر لخبر قس بن ساعدة هذا أنّه لمّا قدم على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وفد إياد قال لهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يا معشر وفد إياد ما فعل قس بن ساعدة؟ »قالوا: «هلك يا رسول الله!»قال: «لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على خمل أحمر يتكلم بكلام معجب موفق لا أجدني أحفظه الآن» فقام أعرابي من أقاصي القوم فقال أنا أحفظه يا رسول الله!.

فسرّ النبي صلّى الله عليه وسلّم لجواب هذا الأعرابي الذي كان على ذكر من كلام قس المذكور. وتفيد هذه الرواية حكاية الأعرابي لكلام قس بنحو ما تقدّم ذكره في الروايات الأخرى. وفيها زيادة في المقال الخطابي عمّا تقدّم وهي قوله: «أين الصعب ذو القرنين؟ ملك الخافقين، وأذلّ الثقلين، وعمّر ألفين، ثمّ كان ذلك كلمحة عين...إلخ». كما جاء في بعض طرق هذه الرواية الواردة في خبر قس بن ساعدة أنّه قال في إحدى خطبه التي يخطبها على القوم: وإنّه سيأتيكم حق من هذا الوجه (و أشار بيده إلى ناحية مكة). فقيل له: وما ذلك؟ قال: رجل أبلج [1]، أحور [2] من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص وعيش ونعيم لا ينفدان. فإذا دعاكم فأجيبوه. ولو علمتُ أنّي أعيش إلى مبعثه لكنتُ أوّل من يسعى إليه.

---

(1) الأبلج: من البلوج وهو الإشراق. والبلج بفتحتين وهو ضياء النهار. والمراد "أبلج الوجه" لأنّها صفته صلّى الله عليه وسلّم.

(2) الأحور: من الحور بفتحتين. قيل هو شدّة سواد العين، وشدّة بياضها. وقيل كبر سواد العين وهي صفة ثبتت للرسول صلّى الله عليه وسلّم.

رواية ثانية:

و هي خبر **كعب بن لؤي*** الجدّ السابع للرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقد ورد عنه أنّه كان في وقته يعرف بخطيب العرب وحكيمها. وقد تقدم ذكر شيء عنه في التعليق على مآثر أجداده صلّى الله عليه وسلّم، وأنّ كعبا كان يجمع الناس يوم الجمعة المعروف إذ ذاك بيوم العروبة فيعظهم ويرشدهم وأنّه كان يتناول فيما يتناول من حديثه أمر النّبي المنتظر الذي يبعث في الأمّة العربية. ومما نقل من كلامه قوله يخاطب قومه ساكني الحرم المكي: «و حَرَمَكُم زيّنوه وعظّموه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبيّ كريم...إلخ».

رواية ثالثة:

و هي ما ورد عن **أميّة بن أبي الصلت*** الثقفي. وكان من حكماء العرب ومفكّريهم، واعتنق الديانة المسيحية كما وقع لجماعة من العرب. قبيل البعثة المحمدية. وكان يقول الشعر بمعناه العالي. وهو الذي ورد فيه أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا سمع شعره أُعجب به وقال: «آمن قلبه وكفر لسانه».

فجاء في الأخبار أنّ أميّة بن أبي الصلت قال لأبي سفيان ابن حرب (و كان صدّيقا له): «إنّي لأجد في الكتب صفة نبيّ يبعث في بلادنا (أي البلاد العربية) فكنت أظنّ أنّي هو، و كنتُ أتحدّثُ بذلك، ثمّ ظهر لي أنّ هذا النّبي يخرج من بني عبد مناف، فنظرت فلم أجد من هو متصف بأخلاقه إلاّ **عتبة بن ربيعة***، إلاّ أنّه قد جاوز الأربعين من عمره، ولم يوح إليه. فعرفت أنّه غيره». قال أبو سفيان فلمّا بعث محمد صلّى الله عليه وسلّم قلت لأميّة عنه فقال: «اما أنّه حق فاتّبعه»، فقلت له: «و أنت فما يمنعك؟» قال: «الحياء من نساء ثقيف كنت أخبرهنّ أنّي هو. فكيف الآن أتبع فتى من بني عبد مناف؟»

و ممّا يدخل في أخبار حكماء العرب المتقدمين عن شأنه صلّى الله عليه وسلّم:

رواية رابعة:

و هي ما يؤثر عن **تُبَّع** * الحميري أحد ملوك اليمن. وقد تقدّمت الإشارة إلى خبر تبّع هذا في أخبار الأحبار من اليهود عندما غزا تبّع المدينة واستشفع إليه الحبر شامول وذكر له أمر الرسول المنتظر وأنّ هذه المدينة هي دار هجرته. فآمن تبّع بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم من يومئذ.

[لا يخلو الحديث الذي يذكر فيه تبّع الحميري في مختلف ما ورد من الروايات الإخبارية من اشتباه وإبهام كما يظهر فيه أيضا قلّة التحرير. فالملوك التابعة متعدّدون وفي أزمان متطاولة كما يستفاد من مصادر التاريخ والذي يتساءل به هنا هو أن يقال: هل تبع المتقدم ذكره مع الحبر شامول هو هذا الذي ذكر في هذه الرواية على أنّه من حكماء العرب الذين بدا على ألسنتهم ذكر الرسول العربي المنتظر...؟ أو هما تبعان متغايران ؟]

و بناء على هذا جاء مأثورا عن **تبع** * ما يفيد الأخبار بالرسول صلّى الله عليه وسلّم المنتظر من العرب. وروي له في ذلك شعر قاله فيه ويعلن فيه إيمانه به ويتمنّى أن لو يدرك بعثته....إلخ.[مما أوردوا من شعره قوله:

شهدت على أحمدْ أنّه * نبيّ من الله باري النسم

فلو مدّ عمري إلى عمره * لكنت وزيرا له وإبن عمّ

وجاهدت بالسيف أعداءه * وفرّجت على صدره كلّ غمّ

له أمّة سميّت في الزبور * وأمته هي خير الأمم

و منه أيضا:

ويأتي بعدهم رجل عظيم * نبيّ لا يرخص في الحرام

يسمّى أحمدا يا ليت أنّي * أعمر بعد مبعثه بعام

و سيأتي في باب هجرته صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة ذكر شيء من هذا الخبر الوارد عن تبع وأنّه هو الذي بنى الدار التي نزلها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في مقدمه المدينة ، وهي دار **أبي أيوب** * الأنصاري رضي الله عنه. ويذكر أهل الأخبار أنّ المدة بين وفاة تبع ومولد الرسول صلّى الله عليه وسلّم هي ألف سنة. وأمّا هذا الشعر المعزوّ لتبع وأنّه قاله في النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم كما هو ظاهر كلّ الظهور لا يحتمل التأويل ، فشأنه عجب كيف لا يشتهر أمره ؟ وكيف يبقى -هكذا- في زاوية من الخمول ، لا يورد إلاّ في موضعه هذا ؟ فلا مبالغة أن يقال فيه: هو أولى وأجدر بالحكم الذي حكم به بعض الأئمّة على حديث قس بن ساعدة الآنف الذكر ، بأنّه مصنوع].

و الرواية الخامسة:

فيما يدخل في أخبار الحكماء من العرب في شأنه صلّى الله عليه وسلّم هي ما تقدّم من خبر سيف ابن ذي يزن ملك اليمن عندما وفد عليه عبد المطلب. وقد مرّت حكاية هذه الرواية في الدرس التاسع في باب كفالة جدّه عبد المطّلب له صلّى الله عليه وسلّم.

و من هذه الأخبار:

رواية سادسة:

و هي عن **عبد الرحمن بن عوف** * رضي الله عنه يذكر فيها خبر **عكلان الحميري** * الذي كان شيخا مسنّا ويشار إليه بالمعرفة والعلم في قبيلة **حمير** * اليمنيّة. قال: كنت أسافر إلى اليمن (أي في مهمة التجارة) وكنت أنزل على عكلان الحميري [1] ، فسألني مرّة عن مكة والكعبة وزمزم. وقال هل ظهر منكم أحد خالف دينكم ؟ فقلت: لا!، ثمّ قدمت عليه بعد

(1) في الحلبية: عكلان بن عواكف.

مبعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وكان قد ضعف وثقل سمعه فنزلت عليه واجتمع عنده ولده وولد ولده وأخبروه بمكاني فشدّ عليه عصابة ، واستند جالسا وقال لي: « انتسبْ يا أخا قريش!» فقلت: «أنا عبد الرحمن[1] بن عوف بن عبد الحرث بن زهرة!»قال: «حسبك يا أخا زهرة ، ألا أبشّرك ببشارة هي خير لك من التجارة ؟ » قلت: بلى ! ، قال: «أنبّئك وأبشّرك أنّ الله قد بعث من قومك نبيّا ، وارتضاه صفيّا ، وأنزل عليه كتابا ، وجعل له ثوابا ، ينهى عن الأصنام ، ويدعو إلى الإسلام ، يأمر بالحقّ ويفعله ، وينهى عن الباطل ويبطله».فقلت: ممن هو ؟ ، قال: «لا من **الأزد**[2] **ولا ثماله**[3] ، ولا من السرف ولا تُباله[4] .هو من بني هاشم وأنتم أخواله ، يا عبد الرحمن أخف الوقعة[5] ، وعجل الرجعة»....إلى آخر ما جاء في الرواية التي ذكر فيها أبياتا شعرية تتضمن شهادة عكلان المذكور للرسول صلّى الله عليه وسلّم بالصدق والرسالة.

و جاء في الرواية أنّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لمّا أسرع الإياب إلى مكة كما أشار عليه بذلك عكلان لقي أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه فسأله عن أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فأخبره أبو بكر برسالته صلّى الله عليه وسلّم ، وأدخله على الرسول صلّى الله عليه وسلّم في بيت

---

(1) مما يلاحظ أنّ الوارد في الأخبار عن أسم عبد الرحمن ابن عوف * أنّه لم يسم بعبد الرحمن إلاّ بعد إسلامه ، سمّاه بذلك الرسول صلّى الله عليه وسلّم.و كان قبل ذلك يسمّى بعبد الكعبة. وقد يحمل ما في هذه الرواية على التجوز ، وأنّه قال: أنا عبد الكعبة.

(2) الأزد: من قبائل اليمن القحطانية.

(3) و كذلك ثمالة اسم لبعض قبائل اليمن أيضا.

(4) تبالة: بضم التاء المثناة الفوقية وتخفيف الباء الموحدّة التحتية ، اسم بلدة باليمن.

(5) أخف الوقعة: يظهر أنّ أخف من الخفة ضد الثقل ، وهو فعل طلب بمعنى خفّف. والوقعة: يناسب المعنى منها هنا قولهم: " وقع إلى كذا " بمعنى انطلق مسرعا. فالجملتان من هذا السجع مترادفتان في المعنى....تخفيف الوقعة / وتعجيل الرجعة.

خديجة رضي الله عنها فتلقّاه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالبشر، وذكر له عبد الرحمن حديث عكلان المذكور. فأثنى الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليه خيرا، وأسلم إذ ذاك عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه[1].

و من هذه الأخبار الواردة عن حكماء العرب وكهّانهم:

رواية سابعة:

عن **عمرو بن معدّ يكرب*** الزبيدي رضي الله عنه قال: والله لقد علمت أنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم رسول الله قبل أن يبعث ويظهر أمره. ولمّا سئل: كيف ذلك؟ أخبر بقوله: «كنّا ذات يوم فزعنا إلى كاهن لنا في أمر نزل بنا، فقال لنا ذلك الكاهن (فيما قال): أقسم بالسماء ذات الأبراج[2]، والأرض ذات الأدراج[3]، والريح ذات العجاج[4]، إنّ هذا لأمر آج[5]، ولقاح ذو نتاج[6]» فقيل له: وما نتاجه؟

فقال: «ظهور نبي صادق، بكتاب ناطق، وحسام فالق»، فقيل له: وأين يظهر؟ وإلى ماذا يدعو؟ ، فقال: "يظهر بصلاح، ويدعو إلى

---

(1) يشير ما في هذه الرواية إلى أنّ إسلام عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كان من تأثير حديث عكلان المذكور.

(2) الأبراج: جمع برج بضمّ الباء وسكون الرّاء وهي المعروفة بمنازل الشمس في السماء. وهي اثنا عشر وأسماؤها معروفة.

(3) الأدراج: جمع درج بفتح الدال المهملة وإسكان الرّاء وتحتمل عدّة معان والأشبه بما هنا أنّها الطرق لأنّ لفظ الدرج يطلق على الطريق.

(4) العجاج: بفتح العين المهملة وتخفيف الجيم وآخره الجيم أيضا هو الغبار الذي تثيره الريح إذا اشتدّت.

(5) أمر آج: يظهر أنّه بوزن فاعل، فهو وصف للأمر، ومعناه غامض ولا يفسّر إلاّ بما قاله صاحب الحلبيّة حيث قال: لعلّه من أجيج النّار وهو التهابها.

(6) في نسخة الحلبيّة: ولقاح ذي نتاج، وفي النبويّة: ولقاح ذات نتاج. فعلى الأوّل هو مفرد ولامه مفتوحة، وهو الشيء الذي يلقح (بصيغة الفاعل) وعلى الثاني هو جمع لقحة وهي الناقة الحلوب ولامه مكسورة.

فلاح ، ويعطل القداح [1] ، وينهى عن الراح [2] والسفاح [3] ، وعن كل أمر قباح [4]"

فقيل له: ممّن هو؟ ، قال: «من ولد الشيخ الأكرم [5] ، حافر زمزم. عزّه مسرمد ، وخصمه مكمد».

رواية ثامنة:

هي خَبَر **نافع الجُرَشيّ** * عن بطن من اليمن كان لهم كاهن فلمّا ذكر خبر مبعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم وانتشر في القبائل جاء هؤلاء القوم إلى كاهنهم واجتمعوا إليه يستخبرونه الأمر. فنزل إليهم ، وكانوا في اجتماعهم ذلك بأسفل جبل ، ولم يزل الكاهن واقفا لهم متكئا على قوس ، وهو شاخص ببصره إلى السماء مدّة طويلة ، ثمّ خاطب القوم مقتصرا على الجمل الآتية وهي قوله: «أيها الناس إنّ الله أكرم محمدا واصطفاه ، وطهّر قلبه وحشاه [6] ، ومكثه فيكم - أيها الناس - قليل».

رواية تاسعة:

وهي خبر **سفيان بن مشاجع** * التميمي جد **الفرزدق** * الشاعر المعروف. وكان سفيان هذا قد احتمل عن قومه ديات التزم بها. فخرج في هذه المهمة إلى أحد أحياء بني تميم ، فوجدهم مجتمعين على كاهنة لهم

---

(1) القداح: بكسر القاف جمع قدح بكسر فسكون ، وهو السهم المستعمل في الميسر. وكان العرب في الجاهلية يستعملون هذه القداح لأمور كثيرة تلابس الشرك من ذلك الاستقسام بالأزلام.

(2) الراح: هو الخمر.

(3) السفاح: هو الزنا.

(4) أمر قباح: هكذا بنسخة الحلبيّة قباح وصف لأمر بصيغة الإفراد. فيكون لفظ قباح من بناء المبالغة المعروف بضم أوّله مع تخفيف ثانيه وتشديده. وفي التشديد مزيد مبالغة ومنه في سورة نوح: ﴿و مكروا مكرا كبّارا﴾. وأمّا بنسخة النبويّة فرسم هكذا: "و عن الأمور القباح" فيكون صيغة جمع بكسر القاف وتخفيف الباء.

(5) المتبادر أنّه يعني بالشيخ "الأكرم" "عبد المطلب".

(6) يظهر أنّ لفظ "حشاه" معطوف على قلبه عطفا مرادفا أي باطنه جيء به لإقامة السجع.

وهي تحدّثهم فجلس سفيان إليها يستمع.

فكان مما سمعه من حديثها قولها: «...العزيز مَن والاه ، والذليل من لاحاه[1] ، والموفور[2] من والاه. والموتور[3] من عاداه». فقال لها سفيان: من تذكرين لله أبوكِ ؟ فقالت: «صاحب هدى وعلم ، وبطش وحلم ، وحرب وسلم ، ورأس رؤوس ، ورابض شموس ، وماحن بؤس ، وماهد رغوس وناعس[4] ومنعوس».

---

(1) لاحاه: من الملاحات وهي المنازعة والمخاصمة. جاء في المثل: "من لاحاك فقد عاداك"

(2) الموفور: يطلق على الكامل في الشيء ويستعمل في الحسن. يقال: «الموفور في كذا...و من كذا» ، مما هو حسن ، وقد يستعمل في غير الحسن أيضا.

(3) الموتور: المعروف في إطلاقه بهذه الصيغة أنّه من فقد الشيء العزيز كالأهل والولد والمال...إلخ.

(4) هذه الألفاظ من الأسماء والأوصاف العشرة ابتداء من "رأس ، رءوس...إلى " " ناعس منعوس" لم يوردها صاحب الحلبية عندما تعرض لقصة هذه الكاهنة في باب تسمية الرسول صلّى الله عليه وسلّم "بمحمد" وساق من كلامها ما قبلها وما بعدها مما هو ظاهر المعنى مستأنس اللفظ. والذي أوردها كما هي هنا هو صاحب النبوية في باب ما جاء من الأخبار عنه صلّى الله عليه وسلّم على لسان الكهنة. وهذه الألفاظ السجعية كأكثر ما سيق في هذا الباب من جنسها ليس تحتها طائل من المعنى زيادة عما تحتمله من التصحيف والتحريف ، وما هي عليه من فقد الحلاوة في المسمع. وعلى كلّ فالمتعين أن تكون -هنا- كلها معطوفة على الإضافة لما تقدم من لفظ: "صاحب هدى وعلم...إلخ".وليست أسماء ولا أوصافا للنبي صلّى الله عليه وسلّم وهذه الألفاظ وإن كانت مغلقة المعاني إلى أقصى ما عرف في المغلقات ، ومحتملة لشتى التأويل والتقديرات ، إلاّ أنّ إيرادها يقتضي - لزاما- تفسير ما يمكن منها تفسيره -و لو في الجلمة- بحسب ما يناسب الموضوع

فلفظ "رأس رءوس" ربما كان من نعت الشيء بما يشتق من اسمه للمبالغة والتفخيم ، كما يقال: «ليل أليل ، وظل ظليل ، وحرز حريز»و قد جاء في الأخبار الصحيحة من وصف الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه كان عظيم الهامة ، والهامة هي الرأس.

أمّا "رابض شموس" بالراء والباء الموحدّة والضاد المعجمة وشموس بتقديم الشين المعجمة ثمّ الميم ثمّ السين المهملة. فالأول بصيغة اسم الفاعل وقد حكيت هذه البُنية في كتب اللغة صفة للأسد. والمادة في جملتها مما يسند -في الغالب- إلى الدواب كالإبل والبقر والغنم. والثاني يظهر أنّه بصيغة فَعول مفتوح الأول. وأغلب ما تستعمل فيه هذه المادة هو معنى الامتناع والاباية. ويقال في الفرس "شموس" إذا كان صعبا لا يكاد يركبه أحد. وللمادتين معان أخرى فيما حكي في بعض معاجم اللغة إلاّ أنّها كلّها لا تبدو لها أيّ مناسبة لهذا المقام. فلينظر ما هو وجه المعنى

فقال سفيان: «لله أبوكِ من هو ؟ » قالت: «بني مؤيّد قد أتى حين[1] يوجد. ودنا أوان[2] يُولَد. يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يفنّد[3] اسمه محمد!!» فقال لها سفيان: لله أبوكِ أعربيٌّ هو أم عجميٌّ ؟

فقالت: «أمَا والسماء ذات العَنان[4] ، والشجر ذوات الأفنان[5] إنّه

في إيراد اللفظين هنا ؟

وأمّا "ما حن بؤس" فصورة الرسم فيهما هي: الأوّل بصيغة إسم الفاعل من مادّة (م.ح.ن) الميم والحاء المهملة والنون. والثاني بصيغة فعول أيضا وهو من مادّة (ب.أ.س) الباء الموحّدة التحتية والهمزة والسين المهملة. فأمّا "ماحن" فقد جاء في معنى مادّته ما يدل على الاختبار والتجربة والتصفية. والاسم من هذا هو "المحنة". كما جاء في معناها أيضا "العطيّة" والاسم من هذا هو "المَحْن" بفتح الميم وإسكان الحاء آخره نون. وفي معناه "المنح". هذا ما يظهر من معاني هذه المادّة أن يصلح هنا.

وأمّا "بؤس" فلا يليق بتفسيره -هنا- إلاّ ما يرجع به إلى البَأس بفتح الباء الرّاجع معناه إلى القوّة والشجاعة والجلادة. فلينظر ما هو هذا الشيء الذي بهذا الوصف صحّ في هذا الكلام إضافته للرسول صلّى الله عليه وسلّم ؟ .

وأمّا "ماهد رغوس" فهو في المفرد الأوّل بوزن فاعل ، ومادّته من الميم ثمّ الهاء ثمّ الدال المهملة. وأشهر معنى لهذه المادة هو التهيئة للشيء وبسطه وتوطئته ليكون صالحا للاستعمال. وكذلك تستعمل هذه المادّة في الكسب والعمل. أمّا إذا كان اللفظ مصحفا عن "ماهل" باللام فالماهل هو المتقدم للخير كما ذكر ذلك في معاجم اللغة. وكذلك الماهر بالرّاء هو الحاذق البارع في العمل.

وأمّا اللفظ الثاني: زغوس" فهو بوزن فعول أيضا ورسمه بالراء والغين المعجمة وآخره سين مهملة. والمعنى المعروف لهذه المادّة (ر.غ.س) والاسم منها: الرغس بفتح الرّاء وإسكان الغين وبابه "فتح" أنها تطلق في النعمة الوافرة والخير الواسع والبركة والنماء. وما هو من هذا المعنى ، فالمعنى الإجمالي لهذين اللفظين مما يناسب الموضوع (و لو في الجملة). وإنّما الذي لا يظهر له أي معنى مناسب ولا لائق بوجه ما من الوجوه هو المفردان الأخيران في هذا السجع ، في قوله: وناعس ومنعوس" فهذه المادة من النون والعين المهملة والسين المهملة لم ندرك لها -لعمر الحق- أي علاقة بهذا الموضوع ، فما أجدرها بالإهمال والإضاعة.

[1] حين يوجد: يقرأ لفظ "حين" مرفوعا بضمّة واحدة على أنّه فاعل "أتى".

[2] و كذلك "أوان يولد"

[3] الفَنَد: بفتحتين هو "الخطأ".

[4] العنان: بفتح العين وتخفيف النون. جمع عنانة وهو "السحاب".

[5] الأفنان: جمع فنن بفتحتين. وهو الغصن.

لمن معدّ بن عدنان». وجاء في هذه الرواية أنّه عند هذا أمسك سفيان المذكور عن الحديث مع الكاهنة مكتفيا بما سمع. وأخذ خاطره يشتغل بالفكر في النبإ الذي أخذ منه كلّ مأخذ. وقد ولد لسفيان المذكور بعد هذا ولد فسماه مُحَمَّدا* (طمعا فيما سمع من هذه الكاهنة) وكان ذلك قبل ظهور النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

و محمد بن سفيان هذا أحد جماعة ممن سمي بمحمد قبل ظهور النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم حسبما يذكره الإخباريون.

هذا، وقد قسم أصحاب مؤلفات السيرة ما جاء في هذا الموضوع من أخبار الكهّان بشأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى قسمين: الأول ما صدر من ألسنة الكهّان أنفسهم. والثاني ما كان مصدره قرناؤهم من الجنّ ونقله الكهان عنهم مجرّد نقل.

و من هذا القسم الثاني ما يعدّ في هذا الباب:

رواية عاشرة:

و هي الخبر الوارد عن **سواد**[1] **ابن قارب الدَّوْسِيّ** رضي الله عنه نسبة إلى **دوس**[2] قبيلة أبي هريرة الصحابيّ المعروف رضي الله عنه.

و كان سواد بن قارب المذكور شاعرا ويتكهّن في الجاهلية ثمّ أسلم رضي الله عنه. وقد جاء من ترجمته أنّه لمّا توفي الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وكان سواد في قومه قبيلة دوس، وخشي عليهم ما وقع لبعض القبائل من الردّة عند انتشار خبر موت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، قام سواد رضي الله عنه خطيبا في قومه فكان مما خطبهم به قوله[3] : «يا معشر

(1) سواد: بفتح السين المهملة وتخفيف الواو آخره دال مهملة.

(2) دوس: بفتح الدال المهملة وإسكان الواو وآخره سين مهملة.

(3) هذه الخطبة أثبتتْ -هنا- بحسب صورتها في كلّ من نسختي "كتاب السيرة الحلبية" و"كتاب السيرة النبوية" المنقول معظم هذا التقييد منهما ويظهر أنّ فيها بعض جمل غير واضحة المعنى. وسبب ذلك هو الاختصار في تلك الجمل.

دوس من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم. ومن شقائهم أن لا يتعظوا إلاّ بأنفسهم. وأنّه من لم تنفعه التجارب ضرّته ، ومن لم يسعه الحق ، لم يسعه الباطل ، وإنما تسلمون[1] اليوم بما أسلمتم به الأمس. ولا ينبغي[2] لأهل البلاء إلاّ أن يكونوا أذكر من أهل العافية للعافية. ولستُ[3] أدري لعله يكون للناس جولة ؟ فإن لم تكن فالسلامة منها الأناة[4] ، والله يحبها فأحبوها». فكان لخطبته هذه في القوم أحسن الأثر في الثبات على الإسلام ولم يحدث فيهم شيء مما حدث من الانتقاض على الإسلام كبعض القبائل الأخرى.

و ملخص الخبر الوارد عن سواد بن قارب رضي الله عنه في الإخبار بشأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قبل ظهور أمره يشير إلى أنّ سوادا حكاه للرسول صلّى الله عليه وسلّم يوم وفد عليه ليعلن إسلامه بين يديه بعد سماعه ما سمع من رئيه[5] من الجن في أمر الرسول صلّى الله عليه

---

(1) فقوله: " إنّما تسلمون اليوم....إلخ " غير بارز المعنى بوضوح. وإن كان مفاده في الجملة مفهوما بأنّه يعني أنّ ما حدث من موت الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا ينبغي أن يكون له تأثير سيّء على اعتناق عقيدة الإسلام.

(2) و هذه الجملة في قوله: " ولا ينبغي لأهل البلاء...إلخ " ظاهر معناها في حدّ ذات اللفظ. وإنّما تبقى الحاجة ماسّة لمعرفة ما هي صلة هذا بالقوم ؟ وقوله: أذكر هو أفعل تفضيل من الذكر والتذكر الذي هو ضد الغفلة والنسيان.

(3) و هذه الجملة من قوله " ولست أدري...إلخ " المستقرب أنّه يعني بالجولة الثورة والانتقاض كما حدث للقوم الذين ارتدّوا عندما سمعوا بوفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

(4) الأناة: بفتح الهمزة وبالنون المخففة. من معانيها التمهل في الأمور والتنظر وعدم التسرع فيها وهو الأشبه بالموضوع هنا. والضمير في: " الله يحبّها " عائد على الأناة.// وعلى كلّ ، فهذه الجمل الأخيرة من قوله: " فإن لم تكن...إلخ " غامضة المعنى كما تبدو في نصّها المنقولة به هنا ، و هو ما في نسختي كلّ من كتاب السيرة الحلبية ، وكتاب السيرة النبويّة ، الذي هو بهامش الحلبيّة.

(5) الرئيّ: بفتح الراء وكسر الهمزة بعدها ياء مثناة تحتية مشددة بوزن فعيل. ومأخذه من مادة (ر.أ.ي) ومن معناه في اللغة صاحب الرأي الذي يُرجَع إلى رأيه. وجاء إطلاقه على القرين من الجن يتصل بالإنسان ، ويلقي إليه ما يلقي من الأخبار وبهذا يصبح هذا الإنسان كاهنا. فلكل كاهن من الإنس رئيٌ من الجن ويقال لمن به اختبال في عقله: " به رئي من الجنّ ".

وسلّم. وكان **عمر بن الخطاب*** رضي الله عنه ممن فاته هذا المجلس الذي وقع فيه حديث سواد يوم قدم على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأسلم.

و لم يقدر لعمر رضي الله عنه أن يجتمع بسواد بعد ذلك حتى زمن خلافته. وكان عمر رضي الله عنه حريصا كل الحرص على الاجتماع بسواد رضي الله عنه ليسمع منه ذلك الخبر. فلما كان زمن قدوم الناس من الآفاق للمدينة في الزيارة[1]، قام يوما عمر رضي الله عنه على المنبر وسأل عن سواد، فقال: «أيها الناس أفيكم سواد بن قارب؟ »فلم يجبه أحد حيث لم يحضر سواد. فلمّا كان العام المقبل في مثل الوقت الذي يقدم فيه الناس للزيارة، كرّر عمر رضي الله عنه السؤال عن سواد رضي الله عنه بمثل الصورة السابقة. فقال له البعض: «و ما شأن سواد بن قارب يا أمير المؤمنين؟ »، فقال عمر رضي الله عنه: «أنّ سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئا عجيبا»، يقول راوي الرواية فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب. فأرسل إليه عمر رضي الله عنه، واستحضره بمجلسه، وحقق معه السؤال فقال له: «أنت سواد بن قارب؟ »، قال: «نعم!»، قال: «أنت الذي أتاك رئيك (من الجن) بظهور النبي صلّى الله عليه وسلّم؟ ». قال: «نعم!». واختلفت الألفاظ الواردة في طرق هذه الرواية فيما كان بين عمر وسواد رضي الله عنهما من المحاورة بعد الذي تقدّم.

فجاء في لفظ أنّ عمر رضي الله عنه قال لسواد: « فأنت على ما كنتَ عليه من كهانتك؟ ». فغضب سواد رضي الله عنه من هذا وقال لعمر: «ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمتُ يا أمير المؤمنين!» فأجابه عمر رضي الله عنه: «سبحان الله!ما كنّا عليه من الشرك أعظم مما كنتَ عليه من كهانتك».

و جاء في طريق آخر للرواية أنّ عمر رضي الله عنه خاطب سوادا رضي الله عنه يمازحه، فقال له: «ما فعلتْ كهانتُك يا سواد؟ ». فغضب

(1) المتبادر للفهم من لفظ "الزيارة" هنا أنها زيارة الروضة النبوية الشريفة الواقعة في موسم الحج. وقد يكون المراد بالزيارة هذه وفود الناس من الآفاق على الخليفة، وزيارتهم له.

سواد من هذا وقال لعمر: «قد كنتُ أنا وأنت على شرّ من هذا من عبادة الأصنام وأكل الميتة...إلخ أفتعيرني بأمر قد تبتُ منه ؟ » فقال عمر رضي الله عنه: «اللهم غفرًا».

ثمّ بعد هذا خلص عمر رضي الله عنه إلى ما كان يرغب فيه من سواد ، فسأله قائلا: «يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان ؟ » قال: «نعم! يا أمير المؤمنين ، بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، إذْ أتاني رَئِيّي وضربني برجله وقال: «قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنّه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عزّو جلّ وإلى عبادته ثمّ أنشأ يقول:

«عجبت للجن وتطلابها[1] * وشدّها العيس[2] بأقتابها[3]

تهوي إلى مكة تبغي الهدى * ما صادق الجن ككذابها

فارحل إلى الصفوة من هاشم * ليس قداماها[4] كأذنابها»

قال سواد: فقلت له «دعني أنام فإنّي أمسيتُ ناعسا[5]» ، فلمّا كانت

---

(1) التطلاب: بوزن التفعال بفتح التاء هو مما جاء من المصادر مستعملا في كثرة الفعل. فالمراد هنا العجب من كثرة طلب الجن وتطلبها لما هي تطلبه من الأمور وينصرف - بحسب هذا المقام- إلى خبر الدين الإسلامي والبعثة المحمدية.

(2) العيس: بكسر العين المهملة وآخره سين مهملة ، وصف للجمع كالبيض ، وهو للإبل التي يكون لونها بين سواد وبياض. وربما خصص بما كان بياضها أكثر.

(3) الأقتاب: جمع قتب بفتح القاف والتاء المثناة الفوقية آخره باء موحّدة تحتية ، وهو الرحل الذي يوضع على ظهور الإبل كالسرج للفرس. وقيل أنّ القتب أعظم من الرحل.

(4) قُدامى: بضم القاف وتخفيف الدال المهملة وآخره ميم بعدها ألف مقصورة. جمع كالأسارى يرجع معناه هنا إلى ضد التأخر. وهذا البناء مستعمل في كبار الريش التي تقع في مقدم جناح الطائر. فيقال فيها: القدامى والقوادم. كما هو مستعمل أيضا في متقدّمي الجيش من الجند ، والضمير في قوله: "قداماها وأذنابها" لم يتقدّم ما يصلح أن يعود عليه ويبعد أن يعود على أقرب مذكور وهو هاشم المؤنث باعتبار القبيلة أو الفصيلة ، وأبعد منه أن يعود على الجنّ. فلعل إن يقدّر مضمر يفهم من اللفظ نفسه يعود عليه الضمير ؟

(5) النعاس: هو مقدمة النوم وغلبته على الشخص فالناعس هو المغلوب بالنوم.

كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: «قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل أنّه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عزّ وجلّ وإلى عبادته» ثمّ أنشأ يقول:

عجبت للجن وتخبارها[1] * وشدّها العيس بأكوارها[2]

تهوي إلى مكة تبغي الهدى * ما مؤمن الجن ككفارها

فارحل إلى الصفوة من هاشم * بين روابيها[3] و أحجارها

قال سواد: فقلت له «دعني أنام فإنّي أمسيت ناعسا» ، فلمّا كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله وقال: «قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل أنّه بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عزّ وجلّ وإلى عبادته» ثمّ أنشأ يقول:

عجبت للجن وتَحساسها[4] * وشدّها العيس بأحلاسها[5]

تهوي إلى مكة تبغي الهدى * ما خيِّر الجن كأنجاسها

فارحل إلى الصفوة من هاشم * وارم[6] بعينيك إلى راسها

---

(1) التخبار: بيانه كما مرّ في التطلاب.

(2) الأكوار: الغالب فيه أنّهُ يريد به جمع مَكْور بفتح الميم وإسكان الكاف وفتح الواو وآخره راء، وهو الرحل أيضا المتقدم ذكره بلفظ القتب.

(3) الروابي: جمع رابية. وهي المكان المرتفع من الأرض ارتفاعا لا يبلغ مسمى الأكمة ولا الجبل الصغير. والضمير هنا كما تقدّم في الأبيات الأولى ليس في متقدّم اللفظ ما يدّل عليه وضروري أن يعود على ما هو من الأمكنة فلزم أن يكون - هنا- إضمار مكة المشرفة. فالضمير يعود عليها لشهرتها. وقد تقدم له ذكر مكة ولكن عود الضمير على لفظها ذلك غير لائق للفصل القاطع بينهما.

(4) التحساس: هو كما مرّ في التطلاب والتخبار مستعمل في الكثرة ، ومأخذه من التحسس في الأخبار وطلب الاطلاع على الأمر وهو بالحاء المهملة.

(5) الأحلاس: جمع حلس بكسر الحاء المهملة وإسكان اللام وهو كالرحل أو هو الحل نفسه.

(6) هكذا بنسخة الحلبية: "وارم بعينيك إلى رأسها" من الرمي ولا يستقيم وزن مصراع البيت معه. لأنّ همزة ارم همزة وصل. وأمّا بنسخة النبوية فرسم هكذا: "و اوميء بعينيك...إلخ" من الإيماء أي الإشارة ووزن البيت مع هذا حاصل وكذلك لفظ الإيماء مستعمل في العين ولكن معنى الجملة والضمير في رأسها لا يظهر لهما مرجع في الكلام إلّا إذا جعل مرجع الضمير هو لفظ الصفوة.

قال: فقمت وقلت قد امتحن الله قلبي فرحلت[1] ناقتي حتى أتيت المدينة ، (و جاء في لفظ آخر من الرواية بدل المدينة مكة).

و اعتمد البعض اللفظِ الأخير قائلا إنّ الجنّ أتت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للإيمان به بمكة حسبما هو معروف. [استماع الجنّ للقرآن وإيمانها بالإسلام جاء في القرآن في سورة الجنّ وفي سورة الأحقاف. واختلفت روايات الأخبار في المكان الذي وقع فيه ذلك. فقيل مكة في شعب الحجون منها. وقيل بل وقع ذلك في رجوعه صلّى الله عليه وسلّم من الطائف إلى مكة بمحل يقال له "بطن نخلة" قرب مكة وسيأتي ذكر هذه الواقعة ببسط في ذكر أحداث ما بعد المبعث].

يقول سواد رضي الله عنه: فإذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه حوله ، فلمّا رآني قال: «مرحبا بك سواد قد علمنا ما جاء بك!» ، قال سواد فقلت: «يا رسول الله قد قلت شعرا فاسمع مقالتي يا رسول الله!» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «هات!»

فأنشأتُ أقول:

أتاني رئيي بعد ليل وهجعة * ولم يك فيما قد بَلَوْتُ بكاذب[2]

ثلاث ليال قوله كلّ ليلة * أتاك رسول من لؤي بن غالب

---

[1] رحل يرحل بفتح الحاء فيهما مخففا كما يأتي لازما يأتي متعديا للمفعول بنفسه -و هو المراد هنا- فيقال رحل البعير أو الناقة بمعنى شدّ عليهما الرحل وبمعنى ركبهما.

[2] "و لم يك فيما قد بلوت...إلخ": المعنى منه أنه لم يجرب على رئيّه ذلك كذبا طول المدّة الفارطة. و"بلوت" بمعنى اختبرت هكذا بالنسخة من الحلبية (و هو الظاهر صوابه). وفي النبوية: تلوت بالتاء المثناة ولا يظهر له معنى فهو تصحيف ولا شك. في لفظ آخر ورد هذا الشطر هكذا: «أتاني نجييّ* بعد هدء ورقدة»و النجي بفتح النون وكسر الجيم والياء المثناة التحتية المشدّدة بوزن فعيل مأخوذ من النجوى وهي الإسرار بالكلام فنجيّه هو الذي يسارّه الكلام.

فشمّرت من ذيل[1] الإزار ووسطت[2] بي الذِعلب[3] الوجناء بين السباسب[4]

فأشهد أنّ الله لا ربّ غيره * و أنّك مأمون على كلّ غائب

وأنّك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل * وإن كان فيما جاء شيب الذوائب

وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة * سواك بمغنٍ عن سواد بن قارب

وجاء البيت الأخير في رواية أخرى بصيغة قوله:

و كن لي شفيعا يوم لا ذو قرابة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

قال ففرح النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه بمقالتي فرحا شديدا وضحك النبي صلّى الله عليه وسلّم حتى بدت نواجذه ، وقال لي: «أفلحتَ يا سواد».

جاء في هذه الرواية التي تحكي حديث سواد بن قارب رضي الله عنه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه لمّا انتهى سواد من حديثه هذا وكان

(1) و جاء لفظ هذا الشطر هكذا: فشمرت عن ساقي الإزار....إلخ.

(2) وسطت: أصله مخفف أي توسطت ودخلت بين كذا وكذا....و فاعل التوسط هو الناقة الموصوفة بالذعلب والوجناء.

(3) والذي اطلعنا عليه في بعض معاجم اللغة مما يقارب هذا اللفظ في وصف الناقة هو "الدِّعلبة" بالدال المهملة مكسورة وثمّ عين مهملة ساكنة. ثمّ باء موحدة تحتية مكسورة ثمّ لام ثمّ تاء التأنيث. وهو وصف للناقة إذا كانت قويّة الجسم حسنة الشكل. وجاء رسمه بصورة: ذلعبة بلام بعد الدال ثمّ العين ثمّ الباء.و جاء رسمه بصورة ثالثة تقارب ما هو في هذه الأبيات بالدال المهملة ثم عين ثم لام ثم الباء. هكذا: (دعلبة). وأمّا الذي بالذال المعجمة -كما هو هنا- فقد ذكره صاحب فقه اللغة في ضروب مشي الإنسان بصيغة "التذعلب". قال: وهو المشي في استخفاء. وأمّا الوجناء: بالجيم والنون فهو وصف للناقة إذا كانت شديدة اللحم. قال في فقه اللغة: هو مشتق من الوجين وهي الحجارة.

(4) السبسب: اسم للأرض المستوية المتباعدة الأطراف.

عمر رضي الله عنه قد راقه الحديث وأعجب به كلّ الإعجاب فالتزم[1] سوادا وقال له: «لقد كنتُ أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك» ثمّ سأله: «فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ »فقال سواد: « منذ قرأت القرآن فلا »! ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجنّ.

و من روايات هذا القسم:

رواية حادية عشرة:

في خبر عن امرأة كاهنة تدعى **حطيمة** ، وكانت بالمدينة. فامتنع منها قرينها من الجان ولمّا سألته عن السبب أخبرها بمبعث رسولٍ لله تعالى بعث بمكة يحرّم فيما يحرّم من الفواحش فاحشة الزنا. فشاع هذا الخبر بالمدينة ، وكان هو أوّل ما وقع من الأخبار بالمدينة عن شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا القسم الموسوم من هذه الأخبار الواردة في شأنه صلّى الله عليه وسلّم قبل ظهور أمره -بأخبار الهواتف فالذين أولعوا به من مؤلفي السيرة قد قسموه إلى أنواع:

1- ما سمع من هواتف الجن.

2- و ما سمع من أجواف الأصنام.

3- و ما سمع من أجواف الذبائح.

و أوردوا في كلٍّ من هذه الأنواع عدّة روايات إخبارية فمما حكوا من النوع الأوّل:

رواية أولى:

عن **أبي هريرة** * رضي الله عنه يحدّث عن قوم من قبيلة **خثعم** * كانوا ذات يوم جلوسا حول صنم لهم يتحاكمون إليه في نازلة لهم ، فبينما هم كذلك إذ سمعوا هاتفا يهتف بهذه الأبيات من الرجز:

---

(1) التزمه: معناه المراد هنا المعانقة أي اعتنقه.

يا أيها الناس ذوو الأحلام[1] ومسندو الحكم إلى الأصنام

أما ترون ما أرى أمامي؟ من ساطع يجلو دجى الظلام

ذاك نبيّ سيد الأنام من هاشم في ذروة السنام

مستعلن[2] بالبلد الحرام جاء لهدم[3] الكفر بالإسلام

أكرمه الرحمن من إمام

فأنصت القوم لمقال الهاتف حتى حفظوه. ثمّ تفرّقوا فلم يمض بهم ثالث يوم حتى فاجأهم الخير بظهور الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمكة.

و من هذا أيضا:

رواية ثانية:

في خبر زمل أو **زميل ابن عمرو*** العذري. يحكي عن قومه بني **عذرة**[4] قبيلة من قبائل اليمن ، قال كان لهم صنم يدعونه بخُمام[5] بيته في **بني هند*** بن حرام[6]. وكان له سادن[7] اسمه طارق ، وكان القوم يعترون[8] عند هذا الصنم. فلمّا كان أيام ظهور النبي محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، سمعنا

---

(1) الأحلام: معناها - هنا - العقول الكاملة كالألباب. وهذا اللفظ جاء في كل من نسختي الحلبية والنبوية بما لا يستقيم له معنى. ففي الحلبية: "ذوو الأجسام" و في النبوية: "ذوو الأحكام"

(2) مستعلن: من العلانية ، بمعنى أنه مجاهر وظاهر بدعوته غير مختف بها.

(3) في نسخة النبوية: "جاء بهدم الكفر بالإسلام (بالباء). وفي نسخة الحلبية: جاء يهُدُّ الكفر بالإسلام (بصيغة الفعل المضارع من الهدّ).

(4) عذرة: بضم العين المهملة وإسكان الذال المعجمة.

(5) خمام: جاء ضبطه بضم الخاء المعجمة بعده ميم مخففة.

(6) هند بن حرام: بفتح الحاء المهملة بعدها راء مخففة.

(7) و السادن: معناه الخادم لكل ما له حرمة تقديس.

(8) يعترون: فعل من العتيرة* بالعين المهملة والتاء المثناة الفوقية بوزن الذبيحة ، ومعناها أيضا. فقد جاء في معنى العتيرة أنها الذبيحة التي كانوا يذبحونها للأصنام تنسكا منهم. وربما جاء تخصص هذا الاسم للذبيحة التي تجعل في شهر رجب خاصة دون سائر الشهور.

سمعنا صوتا (هاتفيا) يقول: «يا بني هند بن حرام. ظهر الحق وأودى[1] خمام. ورفع الشرك الإسلام[2] ».

قال زمل ففزعنا لذلك وهالنا الأمر فمكثنا أياما ثمّ سمعنا صوتا آخر يقول: «يا طارق ، يا طارق ، بعث النبي الصادق ، بوحي ناطق ، صدع صدعة[3] بأرض تهامة[4] ، لناصريه السلامة ، ولخاذليه الندامة ، هذا الوداع مني إلى يوم القيامة!»و خرّ الصنم واقعا لوجهه.

يقول زمل راوي القصّة ، فابتعت[5] راحلة وقدمت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع نفر من قومي ، وأنشدت الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذه الأبيات:

«إليك رسولَ الله أعملتُ[6] نصّها أكفلها حَزْنا[7] وقَرْزا[8] من الرمل

---

(1) أودى: فعل ماض من الإيداء. وإذا كان إستعماله هكذا لازما مكتفيا بفاعله كان معناه الهلاك أي هلك خمام. ويستعمل أيضا متعديا بالباء. فيقال أودي به بمعنى ذهب به وأضاعه وأتلفه.

(2) هذه الجملة جاءت في نسخة الحلبية هكذا. ويظهر أنّ فيها نقصا.

و في النبوية "و رفع الشرك منا" أي رفع منا الشرك الإسلام أي أزاله وعلى كل فالشرك مفعول والإسلام فاعل.

(3) صدع: هنا بمعنى جهر بكلمة الحق.

(4) تهامة: بكسر التاء. يطلق اسما على نفس بلد مكة المكرمة. كما يطلق على القسم المعروف بهذا الاسم من البلاد العربية ، وهو ما بين الحجاز واليمن.

(5) ابتاع: بمعنى اشترى.

(6) "أعملت نصها": الضمير يعود على الراحلة. وفعل أعمل بتقديم الميم على اللام هو اللائق خلافا لما في نسخة الحلبية من العكس. و"النص ": بفتح النون وتشديد الصاد المهملة قال في الحلبية هو الغاية في السير. فيكون المعنى أنّه استعمل غاية الجهد في استحثاث الناقة للسير.

(7) الحزن: بفتح الحاء المهملة وإسكان الزاي آخره نون. "هو المرتفع من الأرض" وخلاف السهل المنبسط.

(8) القرز: بفتح القاف وإسكان الراء ثم بزاي هو "التلّ والأكَمَة" من الرمل أو التراب. وقد رسم في كل من النسختين المنقول منهما الحلبية والنبوية مصحفا بالفاء والواو والزاي "فوزا". وجاء في الحلبية التعليق عليه. فقال هو بالقاف والزاي التل الصغير...فلعل سقط لفظ (والراء).

لأنـصر خيـر النـاس نـصرا مـؤزرا[1] وأعقد[2] حبلا من حبالك في حبلي

و أشــهد أنّ الله لا شــيء غيـره أدِينُ[3] له ما أثقلتْ قدمي نعلي[4] »

و من هذا أيضا:

رواية ثالثة:

عن **تميم الداري*** رضي الله عنه وقد قيل أنّ ما تضمنته هذه الرواية هو سبب إسلام تميم الداري رضي الله عنه.

و جاء من صورة الرواية أنّ تميمًا الدّاريَّ يقول كنت بالشام حين بعث النبيُّ محمد صلّى الله عليه وسلّم وخرجت -ذات يوم- لبعض حاجاتي أمشي في البريّة فأدركني الليل بفلاة.

فقلت: «أنا في جوار عظيم هذا الوادي[5] !» وأخذت مضجعي لأنام، وإذا بي أسمع صوتا لا أرى صاحبه يخاطبني: «عذْ بالله! فإنّ الجن لا تجير أحدا على الله!»

قال تميم: فقلت: «أيّم[6] تقوله ؟ ».فقال: «قد خرج رسول الأميين

---

(1) مؤزرا: بصيغة اسم المفعول بمعنى "قوي".

(2) هذه الجملة من قوله: " وأعقد حبلا...إلخ " كناية عن التعاهد والارتباط بالميثاق الذي هو ميثاق الدين.

(3) أدين: من دان يدين بمعنى خضع وأطاع.

(4) هذه الجملة الأخيرة كناية عن دوام التمسك بالدين إلى نهاية الحياة.

(5) هذه الجملة كانت معروفة في الجاهلية عند العرب كتعويذة يستعملونها احتماء من سفهاء الجن أن يصيبوهم بسوء فيستجيرون بعظيم الجن والمكان الذي يريدون المبيت أو المقيل به من سفهائه (بزعمهم). وقد ورد في الأخبار أنّ هذا هو ما تشير إليه الآية من سورة الجن بقوله تعالى: ﴿و أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾.

(6) " أيّم تقوله ؟ ": هذا استفهام ولا شك والكلمة الأولى مركبة من "أيّ" المفتوحة الهمزة المشددة الياء ومن " ما " المحذوفة منها الألف كما هو شأنها إذا كانت استفهامية مجرورة كما يقال: عَمَّ؟ وفيم ؟ ولِمَ ؟ ومِمَّ ؟ . ولكن العبارة هنا قدّم فيها: " أيّ " ودلالتها هنا لا تحتمل غير الاستفهام. فالاستفهام هنا حاصل بها " بأيّ " ثم زيد لها الميم. وهذه الميم تحتمل معاني عدّة - يطول ذكها- والهاء في لفظ "تقوله أشبه شيء بهاء السكت ، ولكن هذه الهاء ليس هذا محلّها في المعروف

وصلّينا خلفه بالحجون[1] وأسلمنا له واتبعناه ، وذهب كيد الجن ، ورميت بالشهب فانْطَلِقْ إلى محمّد وأسلم». قال تميم: فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب فسألت راهبه عن هذا الأمر وأخبرته الخبر فقال: «صدقوك[2]! نجده[3] يخرج من الحرم ومهاجره الحرم وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه». يقول تميم رضي الله عنه: فطلبت الشخوص حتى جئتُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأسلمت.

و قد ورد في لفظ هذه الرواية أنّه جاء مكة والرسول صلّى الله عليه وسلّم بها مختفيا من قريش ، ويعقّب البعض من العلماء على هذا بأنه من الغلط بل إن البلد المدينة لأنّ إسلام تميم رضي الله عنه لم يقع قبل السنة التاسعة للهجرة. [وفود تميم الداريّ* رضي الله عنه على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإسلامه ، وكون ذلك إنّما وقع في السنة التاسعة للهجرة ، هو مبني على المشتهر المعروف من الأخبار. ولكن في شواذ الروايات وغريب الأخبار التي هي معظم ما اشتمل عليه هذا الباب من أبواب السيرة. في هذه الروايات رواية تقول أنّ تميما الداري وفد على الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمكة في أوّل ما بدا الإسلام. وتحكي هذه الرواية قصة فيها زيادة عما ذكر هنا فيما كان بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين تميم الداري وأخيه وبعض آخر من قوم تميم من الداريين ، فما ذكر هنا من مجيء تميم إلى مكة هو مبني على هذه الرواية التي هي من القسم المقابل للمشهور المعروف].

و من نظير رواية تميم الداريّ المتقدمة:

عند النحاة لأنها تكون بعد حركة بناء لازمة ويؤتى بها لإظهار تلك الحركة ، وما هنا ليس كذلك. فقد والت حركة إعراب وهي ضمّة الفعل المضارع. فلا ندري ما في هذه العبارة أهو جار على الشذوذ؟ أم أنّ هذه الهاء هاء ضمير يعود على "ما" أو ضمير القول من "تقوله" فيكون مفعولا مطلقا؟ أم غير ذلك؟ .

[1] الحجون: بفتح الحاء المهملة ثم جيم مضمومة بالتخفيف آخره نون. أصله جبل وهو من بقاع مكة وكان في القديم مقبرة.

[2] صدقوك: بالتخفيف بمعنى أخبروك بالصدق.

[3] نجده: الضمير يرجع إلى الرسول الذي هو محمد صلّى الله عليه وسلّم.

رواية رابعة:

أسندت إلى **سعيد بن جبير*** رحمه الله رواها عن رجل من **بني تميم*** كان قد أسلم على يد الرسول صلّى الله عليه وسلّم يحدّث عن بدء إسلامه. فيقول أنه كان يسير ذات ليلة برمل عالج [1] وغلبه النوم. فنزل لينام وأتى بتلك التعويذة التقليدية المعمول بها في الجاهلية فقال: «أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجنّ».

و لمّا نام رأى في منامه حلما أزعجه وذلك أنه رأى رجلا يريد أن ينحر ناقته. فلما استيقظ عاود التعوّذ ، وعاوده الحلم ثاني مرّة. ولما استيقظ ثاني مرّة وجد ما كان يحلم به حقيقة واقعة. فشاهد الشاب الذي يريد الناقة بحربته. وبجانبه رجل شيخ [2] يردّه عن الناقة ، وبين الرجلين نزاع ومشادَّة.

و فيما كان الرجلان يتنازعان ويتدافعان ، ظهر ثلاثة من أثوار الوحش فأشار الشيخ على الشاب أن يأخذ أحد الأثوار فداء للناقة ويخلي عنها ، ففعل.

و لما انصرف الشاب التفت الشيخ إلى الرجل صاحب الناقة فقال له: «يا فتى إذا نزلتَ واديا من الأودية فخفتَ هوْلَه فقل: أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي! ولا تعذ بأحد من الجن ، فقد بطل أمرها».

و سأله الرجل عن محمد من هو؟ . فقال: «نبيّ عربيّ! لا شرقيّ ولا غربيّ.» فسأله عن مسكنه فقال: «يثرب ذات النخل».

ثم أنّ الرجل ركب ناقته يحثّ السير حتى أتى المدينة (و الرسول صلّى الله عليه وسلّم بها) فلما اجتمع به كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي حدّث الرجل بما وقع له في هذه الواقعة قبل أن يحدّث به الرجل. ثمّ أسلم الرجل يومئذ!.

---

(1) عالج: اسم موضع اشتهر برمله الكثير.

(2) مفهوم بأن المراد "شيخ في السن".

و من نظير هذه الرواية أيضا:

رواية خامسة:

أوردها عن مجهول من الصحابة يقول: «خرجت في طلب إبل لي فأدركتها ببعض الأودية ، وكنّا إذا نزلنا بواد استعذنا بعزيزه وسيده من شر سفهائه (أي من الجنّ)قال: "فلمّا أردت النوم توسّدت ناقتي وقلت: «أعوذ بعزيز هذا الوادي...» (تقدّم الكلام في هذا الموضوع الذي هو استعاذة الإنس بالجنّ) وإذا هاتف يهتف بي يقول:

و يحك عذ بالله ذي الجلال * منزل الحرام والحلال [1]

و وحد الله ولا تبال * ما كيد ذي الجنّ من [2] الأهوال

[3] إذ يذكر الله على الأحوال * وفي سهول الأرض والجبال

[4] قد صار كيد الجن في سفال * إلاّ النبيّ وصالح الأعمال [5]

قال فخاطبته بقولي:

«يا أيها القائل ما تقول * أرَشَدٌ عندك أم تضليل»

هذه الأبيات - هي أيضا- كمعظم ما سيق في هذا الباب غير متناسقة لا في اللفظ ولا في المعنى:

(1) فالبيت الأول والمصراع الأول من البيت الثاني ظاهر معناه.

(2) و أمّا المصراع الثاني من البيت الثاني في قوله: " ما كيد ذي الجن من الأهوال ؟ " فغير بارز المعنى ، والأقرب للاحتمال أن يجعل استفهاما لتحقير كيد الجن واستصغار شأنه.

(3) و كذلك المصراع الأول من البيت الثالث في قوله: " إذ يذكر الله على الأحوال " والأقرب -كذلك- أن يجعل هذا هو العلة والسبب في استصغار كيد الجن وتقدير المعنى: " لا ضرر من كيد الجن مادام يذكر اسم الله في سائر الأحوال وفي سائر الأمكنة".

(4) و المصراع الأول من البيت الرابع في قوله: "قد صار كيد الجن في سفال" مستقيم التركيب اللفظي ، وكذلك معناه ظاهر في إفادة الأخبار بأنّ سلطان الجن قد سقط وأمرها قد بطل.

(5) و أمّا المصراع الأخير في هذه الأبيات الذي جاء فيه استثناء النبي صلّى الله عليه وسلّم وصالح الأعمال ولا ندري ممن ؟ ولا ممّ ؟ وإن كان الظاهر أنّه من الكلام قبله... وهل هو استثناء متصل ؟ وهذا ظاهر الفساد...أو منقطع ؟ وهو بيّن الاختلال. إذن فلا بدّ من تقدير محذوف هذا المصراع. على كلّ حال وكلّ تقدير ...ركيك العبارة (و الحّق يقال). وعند الرجوع إلى اعتبار مجرد المعنى المقصود فالفائدة حاصلة بالإخبار عن كون الفلاح والنجاة والرشاد إنّما هي في طاعة النبي صلّى الله عليه وسلّم واتباع ما جاء به من الدين وما يقتضيه ذلك الدين من الأعمال الصالحة.

فأجابني بقوله:

هـذا رسـول الله ذو الخيـرات * جـاء بيـسين[1] وحاميمـاتِ[2]

و سُـورٍ بعـدُ مفـصَّلات * يـأمر بالـصلاة والزكـاة

و يزجـر الأقـوام عـن هَنَـات[3] * قـد كـنَّ فـي الإسـلام مُنكَـرات

يقول الراوي: فلما سمعت ذلك قلتُ: أما لو كان لي من يؤدي إبلي هذه إلى أهلي لأتيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى أسلم[4]. فقال لي الهاتف: "أنا أؤديها لك!" يقول فعند ذلك ركبت بعيراً من تلك الإبل ثمّ قدمت على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فوافيت الناس في صلاة الجمعة. فإنّي أنيخ راحلتي إذ خرج إليّ **أبو ذر*** الغفاري رضي الله عنه فقال لي: «يقول لك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ادخل.» فدخلت. فلمّا رآني الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال لي: «ما فعل الشيخ الذي ضمن لك أن يؤدي إبلك ؟ أمّا أنّه قد أدّاها سالمة»

---

(1) يسين: رسم هكذا بالياء والنون بعد السين ، محاكاة لصورة اللفظ. وتقرأ نونه مفتوحة مراعاة لاستقامة وزن البيت (و إن كان المراد به اللفظ القرآني وهو يس) المرسوم بالياء والسين فقط.

(2) مفهوم ما يقصد " بحاميمات" المتداول في لفظها: (الحواميم) وتقرأ الميم المكسورة في: حاميمات مخففة. هذا وقد ذكر بعض أئمة التفسير أنّ لفظ "حواميم" ليس من المستعمل في الصدر الأول وإنّما يقال "آل حم" أو "ذوات حم".

(3) الهَنات: بفتح الهاء وتخفيف النون الموحدّة الفوقية جمع هنة ، وهي مؤنث هنّ ، وهو اسم يكنّى به عمّا لا يراد التصريح به. والهنات -كما هنا- يراد بها الخصلات الممقوتة لأنّ هذا اللفظ لا يستعمل إلاّ فيما يكره ويقبح.

(4) في هذا دلالة على أنّ هذا الرجل كان على علم من شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وأنّما هو لازال لم يقتنع بالإسلام ، وليس ممن لم يبلغه أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم إلاّ من طريق هذا الهاتف. وإنّما الذي كان سبب اقتناعه بالإسلام هو ما سمع من هذا الهاتف. وكذلك يعرف من قوله أنّه وافى الناس وهم في صلاة الجمعة أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان إذ ذاك بالمدينة المنورّة.

ومن هذا النوع أيضا:

رواية سادسة:

عن رجل من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، لم يعين اسمه. وكان مجهولا أيضا كما في الرواية التي قبلها. وتفيد هذه الرواية عن هذا الصحابي أنّه حكى حكايته هذه للرسول صلّى الله عليه وسلّم وذكر فيها (زيادة على ما سمع من صوت الهاتف) ما شاهده من **قس بن ساعدة*** الإيادي في تعبّده وانقطاعه عن مجتمع الناس للاتعاظ والادكار. فأثنى الرسول صلّى الله عليه وسلّم على قسّ وأخبر عنه بأنّه يرجو له المنزلة الحسنة عند الله. ومحل الغرض من هذه الرواية فيما يخص الموضوع الذي سيقت فيه هو ما جاء عن هذا الصحابي من قوله: خرجت أطلب بعيرا لي حتى إذا عسعس الليل وكاد الصبح أن يتنفس هتف بي هاتف يقول:

«يا أيها الراقد في الليل الأحم[1] قد بعث الله نبيا بالحرم

من هاشم أهل الوفاء والكرم يجلو دجنّات[2] الليالي والبهم[3]

قال: فلمّا سمعت ذلك أدرت طرفي أنظر فما رأيت شخصا. فأنشأت أقول:

«يا أيها الهاتف في داجي[4] الظلم أهلا وسهلا بك من طيف[5] ألَمّْ

---

(1) الأحم: وصف من "الحمة" بضم الحاء وهي "السواد".

(2) دجنّات: جمع دجنة بضم الدال والجيم، وبفتح الدال وكسر الجيم وبكسر كل من الدال والجيم مع تشديد النون. في الجميع هي الظلمة والغيم.

(3) البُهَم: بضم الباء الموحدة التحتية وفتح الهاء. جمع بهمة بضم فسكون. وهي المشكلات من الأمور.

(4) الداجي: وصف من الدجا، وهو من الظلام أيضا فيكون التقدير شديد الظلم.

(5) الطيف: بفتح الطاء المهملة وإسكان الياء التحتية. آخره فاء هو الخيال. وألمّ: فعل من الإلمام ومن معانيه الإتيان والذهاب بسرعة وهو المراد هنا.

بيّن -هداك الله- في لحن[1] الكلم　　من ذا الذي تدعوا إليه يغتنم»

قال: فإذا بنحنحة وقائل يقول:

«ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمدا بالحبور[2]، صاحب النجيب[3] الأحمر، والتاج[4] والمغفر[5]، والوجه الأزهر[6]، والجبين الأقمر[7]، والطرف الأحور[8]، صاحب شهادة أن لا إله إلاّ الله، فذاك محمد المبعوث إلى الأسود والأحمر، من أهل المدر والوبر[9]».

ثمّ أنشأ يقول (أي بنغمٍ ترنّمٍ وتغنٍّ):

الحمد لله الذي　　لم يخلق الخلقَ عبثْ

أرسل فينا أحمدا　　خير نبيّ قد بعثْ

---

(1) اللّحن: له عدّة معان. فإذا أضيف إلى الكلام كما هو هنا كان مراد به فحوى الكلام أي مذهبه ومعناه الأصلي. وقد يكون لحن الكلام كما في -لحن القول- معنى خاصا به يفهمه المخاطَب من مُخاطِبه دون غيرهما من السامعين. ويظهر أنّ هذا ليس هو المراد هنا بل المراد هنا ما تقدّم، وهو فحوى الكلام.

(2) الحبور: هو السرور.

(3) النجيب: الجمل وقد ركبه الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

(4) التاج: فسر في كثير من كلام العلماء بالنسبة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه العمامة، وهي تاج العرب.

(5) و المغفر: معروف بأنه لباس الرأس المختص بالحرب، وقد صحّ أنّه صلى الله عليه وسلم لبسه في بعض مواقع القتال.

(6) الأزهر: هو الأبيض المشرب بحمرة. وكذلك كان عليه الصلاة والسلام.

(7) الأقمر: هو الشبيه بالقمر كما هو الأشدّ ضياء وبياضا ويقال أيضا في الأقمر أنه ما لونه القمرة وهي البياض المشرب بخضرة.

(8) الأحْوَر: من الحَوَر بفتحتين و"الطرف" بفتح وسكون هو العين. والحور شدّة سواد الحدقة مع شدّة بياضها- وقد تقدّم هذا في الرواية التي ذكر فيها قس بن ساعدة* الإيادي.

(9) ممّا جاء في تفسير أهل "المدر" و"الوبر" أنّ المراد بهم الحضر والبدو. لأنّ المدر هو ما صنع من الطين مع القرمد والأجر وهما يكونان في مساكن أهل المدن والقرى. والوبر المراد به الخيام وهي مسكن البادية.

صــلّى عليــه الله مــا حجَّ[1] لـه ركْـبٌ وحَـثّْ

و ممّا أوردوا من هذا الجنس من الروايات يخص النوع الثاني من الهواتف ، وهو ما سمع من أجواف الأصنام:

رواية أولى:

عن **عباس ابن مرداس*** السلمي [2] رضي الله عنه وأشير فيها إلى أنّ الواقعة فيها هي سبب إسلام عباس رضي الله عنه.

و تفيد الرواية أنّ مرداسا والدَ عباس كان له صنم يعبده يدعى باسم ضِمَار [3]. ولمّا حضرت مرداسا الوفاة كان في جملة ما أوصى به ابنه العبّاس الاحتفاظ بضمار كمعبود يضر وينفع!.و مضى عباس على ذلك وقتا حتى سمع يوما صوتا من جوف الصنم ينشد هذه الأبيات:

«مـن للقبائـل مـن سـليم[4] كلهـا ؟ أودى[5] ضمار وعاش أهل المسجد»

إنّ الــذي ورث النبــوّة والهــدى بعـد ابـن مريم مـن قـريش مهتدي

أودى ضــمار وكــان يُعبَــد مــدة قبـل الكتـاب[6] إلـى النبـيّ محمـد

فلمّا سمع عباس هذا أثّر فيه الأثر الكافي في الموعظة والانصياع

---

(1) حجَّ: فعل بمعنى قصدَ و"ركْبٌ" هو فاعله. و"حثّ" فعل معطوف على حجّ بمعنى حثّ السير. وقد جاء في كتب السيرة أيضا أنّ هذه الأبيات أنشأها قس بن ساعدة الإيادي في خبره المتداول الذي بشّر فيه بالنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم.

(2) السُّلَمي: بضم السين المهملة وفتح اللام نسبة لسليم* بصيغة التصغير القبيلة البادية المعروفة.

(3) ضِمار: بكسر الضاد المعجمة وتخفيف الميم آخره راء.

(4) من: استفهامية. والكلام فيه حذف. التقدير: مَن للقبائل يعلمها بأنّ ضمارا هلك ؟ أو مَن لها بمعرفة كذا...؟ وليلاحظ أنّه عبر بلفظ "قل" عوض "من" في الرواية الآتية مثل هذه.

(5) أودى: يدي إيداءً. إذا استعمل هكذا لازما مكتفيا بالفاعل دلّ على الهلاك أي هلك ومات. ويستعمل متعديًا بالباء. فيقال أودى به بمعنى ذهب به وأضاعه ونحو ذلك.

(6) قبل الكتاب: أي قبل نزول الكتاب.

للحق فلم يلبث أن حرق الصنم وخرج يريد الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، والرسول صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة إذ ذاك ، فقصّ عليه القصّة وأسلم.

وحُكيتْ هذه الرواية بصورة أخرى:

كان عباس بن مرداس في لقاح[1] له وقت الظهيرة ، وإذا براكب على نعامة بيضاء يطلع عليه ويلبس الراكب أثوابا بيضاء أيضا.فناداه: يا عباس ألم تر أنّ السماء قد تعب حراسها[2] ؟ و أنّ الحرب قد حرقت أنفاسها[3] ؟ وأنّ الخيل وضعت أحلاسها[4] ؟ وأنّ الذي نزل عليه البر والتقوى ، صاحب[5] الناقة القصواء ؟ .قال عباس: فراعني ذلك! فجئتُ وثنا لنا يدعى الضمار كنا نعبده ، ونُكَلَّمُ[6] من جوفه. فكنستُ ما حوله ثمّ تمسحت به. فإذا صائح يصيح من جوفه:

«قل للقبائل من قريش كلها	هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد مدّة	قبل الصلاة على النبيّ محمد

---

(1) اللقاح: جمع لَقْحة ولَقوح وهي الناقة الحلوب الكثيرة اللبن.

(2) تفهم الإشارة من هذا على أنها إلى رجم الشهب لمسترقي السمع من الشياطين.

(3) و أما الجملة الثانية فيظهر أن التعبير الذي فيها وحشيّ وفاقد السلاسة والانسجام والمعنى منه لا يخلو من غموض وأحتمال. والأقرب أن يكون المعنى الأصلي من هذا التركيب انطفاء نار الحرب. وينصرف هذا إلى الحرب الظالمة التي كانت تلتهم الأمم قبل مبعث محمد صلّى الله عليه وسلّم. وقد انطفأت ببعثته عليه الصلاة والسلام. ولكن التعبير -كما يبدو في صورة الرسم- في النسخ المنقول منها كان عكس المستعمل. فقد جعل للحرب أنفاسا وأنّ تلك الأنفاس قد حرقت...!

(4) والجملة الثالثة يناسب معناها -ما تقدّم من خمود الحرب- إذا فهم وضع أحلاس الخيل ، وهي جمع حِلْس وحَلَس بكسر فسكون وبفتحتين: وهو ما يوضع على ظهور الدواب المركوبة تحت السرج إذا فهم الوضع على أنه الوضع عنها أي إزالتها وتنحيتها. أمّا إذا فهم الوضع بأنه عليها أي تحليسها للركوب ، فقد ينقلب معنى الجمل كلها إلى ضد ما تقدّم فهمه. فيكون المعنى أنّ بعثته صلّى الله عليه وسلّم إيذان بقيام الحرب وهي حرب الجهاد الذي قام به الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

(5) أما الجملة الأخيرة في وصفه صلّى الله عليه وسلّم بصاحب الناقة القصواء فهي واضحة المعنى.

(6) نكلّم: بصيغة البناء للمفعول أي كان يكلمهم الهاتف من جوف الصنم.

إنّ الـــذي ورث النبـــوّة والهـــدى بعد ابن مريم من قريش مهتدي[1] »

يقول عباس رضي الله عنه فخرجت مع قومي بني حارثة* إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالمدينة. ولمّا دخلت المسجد ورآني الرسول صلّى الله عليه وسلّم تبسّم وقال: «كيف إسلامك يا عباس ؟ » فقصصت عليه القصة فقال: «صدقت!» وأسلمتُ أنا وقومي.

و من هذا أيضا:

رواية ثانية:

عن مازن* بن الغضوبة[2] (و ضبط في نسخة أخرى: بن القصوية) يحكي عن نفسه أنّه كان يسدن[3] صنمًا بقرية تدعى سمائل (أو سمال*) من إقليم عُمَان[4] و يسمى صنمه هذا "ببادر" (و في لفظ) "باجر" (بالحاء المهملة). قال: فعترنا ذات يوم عند الصنم عتيرة[5] فسمعنا صوتا من جوف الصنم يقول: " يا مازن اسمع تسر ، ظهر خير وبطن شر ، بعث نبيّ من مضر ، بدين الله الأكبر ، فدع نحيتا من حجر ، تسلم من حرّ سقر" ، قال: ففزعت لذلك ، وقلت إنّ هذا لأمر عجب. قال: ثمّ وقع مني أن عترت عتيرة أخرى لذلك الصنم نفسه فسمعت صوتا من الصنم يقول:

---

[1] تقدّمت هذه الأبيات في الرواية الأولى ببعض مغايرة لما هي عليه في هذه الرواية ففي الأولى: " من للقبائل من سليم ؟ ": وسليم هي قبيلة عباس بن مرداس صاحب هذه القصة.
وها هو هنا يبدل سليما بقريش ويعبر بقوله: " قل للقبائل من قريش "و في الأولى قوله: "قبل الكتاب إلى النبي محمد". وهنا: "قبل الصلاة على النبي محمد".

[2] في نسخة السيرة الحلبية: مازن بن الغضوبة بالغين المعجمة والضاد المعجمة بعدها واو ثمّ الباء الموحدة التحتية ثمّ تاء التأنيث. فيكون تأنيث غضوب من الغضب. هكذا صورة رسمه ، ولينظر بعد ذلك ما هو المعنى ؟
وفي نسخة السيرة النبوية: مازن بن القصوية بالقاف ثمّ الصاد المهملة ثم واو ثم ياء مثناة تحتية ثم تاء التأنيث... ولينظر ما المعنى في اسم والد مازن هذا ؟ وهل هو اسم أمه أو أبيه ؟ .

[3] فعل يسدن من السدانة وهي خدمة ما له حرمة وصفة قداسة.

[4] عمان: بضم العين المهملة وتخفيف الميم. هو ساحل شبه الجزيرة العربية الشرقي والجنوبي الشرقي على الخليج المسمى بالفارسي ، والناحية الشرقية من البحر المحيط المعروف بالمحيط الهندي.

[5] مرّ -قريبا- تعريف العتيرة.

أقبــــلْ إلـــيّ أقبِــلْ * تــسمع مـــا لا تجهــلْ
هـــذا نبـــيّ مرســلْ جـــاء بحـــق مُنــزلْ
آمِــنْ بــه كـــي تعــدِلْ[1] عـــن حـــرّ نـــار تـــشعل
وقودها بالجندل[2]

قال: فقلتُ أنّ هذا لعجب وأنه لخير يُراد بي! قال فبينما نحن كذلك إذ قدم رجل من أهل الحجاز فسألناه: "ما الخبر وراءك ؟ " فقال: «ظهر رجل يقال له أحمد يقول لمن أتاه[3]"أجيبوا داعي الله!"»

قال مازن: فقلت: هذا نبأ ما سمعته. فنزلت إلى الصنم فكسرته. وركبت راحلتي فأتيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فشرح لي الإسلام فأسلمت. وقلت شعرا:

«كسرتُ بادِرَ أجْذاذا[4] وكان لنا ربًّا نطيف[5] به ضلا[6] بتضلال
بالهاشميّ[7] هُدانا من ضلالتنا ولم يكن دينُه شيئًا على بالي

---

(1) فعل " تعدل " هنا من العدول وهو الميل والمراد النجاة من النّار.

(2) الجندل: بفتح الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة. هو العظيم من الصخور.

(3) ليس المعنى تام الوضوح في التعبير بلفظ "أتاه" ولعلّ يكون التعبير أحسن لو قيل: "لمن دعاه".

(4) الأجذاذ: كالجذاذ بضم الجيم اسم لقطع الشيء المنكسر. ولفظ بادر، هنا، اسم الصنم، يقرأ بغير تنوين ليستقيم وزن مصراع البيت.

(5) نطيف: مضارع من أطاف، وهو مستعمل في الإكثار من الطواف بالشيء.

(6) "ضلا بتضلال": هكذا صورته بنسخة الحلبية. وفي نسخة النبوية «ملاً بتضلال». والمعنى على كل غير ظاهر بل فيه غموض شديد. واللفظ يظهر أنه حال أو مفعول من أجله. والضَل بفتح الضاد المعجمة غير المشالة كما هو هنا لغة في الضلال الذي هو الغيّ والغيبوبة والهلاك. ويحتمل أن يكون الصواب في اللفظين الرسم بالظاء المعجمة المشالة. فيفيد معنى الدوام والعكوف، وهو مناسب للمقام. كذلك لا يبعد أن يكون بالذال المعجمة "ذلاً"، فيفيد معنى الهون ضد العز كما يفيد معنى الانقياد والسهولة والخضوع، وهو لائق بالموضوع أيضا.

(7) هكذا بكل من نسختي الحلبية والنبوية (بالهاشميّ) بالباء الموحدّة التحتية. وفاعل الهداية غير مذكور وإن كان معلوما بأنه الله سبحانه!. فلعلّ أن يكون في اللفظ تصحيف ؟ (و هكذا عامة ما جاء من أبيات النظم والشعر في هذا الباب، ظاهر فيه طابع التكلف مع برود في اللفظ وقلة الانسجام في المعنى) وإنما يظهر معنى اللفظ بغير تقدير حذف إذا كان لفظ " هدانا " اسما وهو الهدى.

يا راكبًا بلّغنْ عمرا وإخوتها[1]
إنّي لما قال ربّي بادر تالي[2] »

بقول مازن رضي الله عنه: وقلت للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يا رسول الله إنّي رجل مولع بالطرب[3] وبشرب الخمر وبالهَلوك[4] من النساء. وألحت[5] علينا سنون * فذهبن بالأموال وهزلن الذراري والعيال. وليس لي ولد. فادع الله أن يذهب عني ما أجد. ويأتينا بالحيا[6] ويهب لي ولدا». فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال، و بالخمر ريًّا لا إثم فيه، وبالعهر[7] عفّة الفرج، وأته بالحيا، وهب

(1) أفاد صاحب الحلبية بأن المراد "بعمرو وإخوتها" بطن خطامة* أحد بطون قبيلة "طيء"*.

(2) هذا المصراع الأخير من هذه الأبيات غير ظاهر المعنى أيضا حسبما تبدو صورة كتابته في كل من النسختين المنقول منهما وهما الحلبية والنبوية. فصورته في الحلبية هكذا: «إنّي لما قال ربي بادر قالي »لفظ قالي بالقاف. وفي نسخة النبوية «.....تالي»بالتاء المثناة الفوقية. وهو على كل غير مفهوم بوضوح. والذي يحتمل أن يكون صوابه فيه وجوه:

أ- فعلى أن اللفظ الأخير "قالي" بالقاف فهو من القلى و هو البغض فربما كان التصحيف في لفظ "ما" و صوابه "من" هكذا: «إني لمن قال ربي بادر قالي»أي مبغض لمن يعبد بادرا.

ب- يحتمل أن يكون لفظ "بادر"هنا إسم فاعل من فعل بَدَرَ يبدر بوزن دخل يدخل و هو مستعمل في الإسراع إلى الشيء، و لا بدّ أن يكون مع هذا اللفظ الأخير "تالي" بالتاء فيفيد أنه مسارع لما قال ربه تعالى و تال لما قال و هو القرآن كما ذكر ذلك في أبيات أخرى. فهو إعلان عمّا أعتقد من دين الإسلام مخالف للقوم المذكورين.

ج- يحتمل أن يكون لفظ "ربي" بالياء مصحفا. و صوابه ربُّ بادر على الإضافة أي الله تعالى ربُّ ذلك الصنم المسمى ببادر. و أنه لما قال -أي في القرآن- رب بادر تالي من التلاوة. فيكون إخبارا منه أنه يتلو القرآن الذي هو كلام رب الصنم الذي يعبده قومه إلخ.....؟

(3) الطرب: هنا هو خصوص الغناء وأصوات المعازف المستعملة غالبا مع الخمر في مجالس اللهو مع النساء.

(4) الهلوك: بفتح الهاء بصيغة فعول، وصفا للمؤنث. جاء فيه عدّة أقوال. وحاصلها أنه وصف للمرأة الفاجرة الشديدة الشبق المستفزّة لشهوة الرجل إليها.

(5) ألحّت: يظهر أنه بتشديد الحاء المهملة من الإلحاح. وهو المواظبة. والمراد هنا تتابع السنين المجدبة عليهم. ولفظ "سنون" و"سنين" توارد استعماله في خصوص سني الجدب. بل يظهر أن التعبير بالسنة مطلقا ينصرف إلى المعنى المذكور من الشدّة والمحل في أكثر الأحوال. فإذا عبروا بالعام كان ذلك في الرخاء واليسر. وفي القرآن والأحاديث النبوية ما يدل لهذا المعنى بكثرة.

(6) الحيا: بالقصر. وقال البعض يجوز فيه المدّ أيضا. فيقال الحياء. المراد به هنا المطر الذي ينزل على الأرض بعد جدبها. فيكون به الخصب.

(7) العهر: ضبطه البعض بضم العين المهملة وإسكان الهاء. هو فاحشة الزنا.

له ولداً». قال مازن: فأذهب الله عني ما كنت أجده ، وتعلمت شطرا من القرآن ، وحججت حججا ، وأخصبت عمان ، وتزوّجت أربع حرائر ، ووهب الله لي حيّان [1] ، وأنشأت أقول في هذا:

إليك رسول الله حنَّتْ مطيتي
تجوب الفيافي من عُمان إلى العرج [2]

لتشفع لي يا خير من وطئ الحصى
فيغفر لي ذنبي وأرجع بالفُلْج [3]

إلى معشر خالفت في الله دينهم
ولا رأيهم رأيي ولا شَرْجُهم شَرْجي [4]

وكنت امرءا بالعهر والخمر مولعا
شبابي [5] حتى آذن الجسم بالنَّهْج [6]

---

(1) حيّان: جاء ضبطه بالياء المثناة التحتية بعد حاء مهملة اسم الولد الذي ولد له بعد هذه القصة. وهذا الاسم محتمل لأن يكون من الحياة ، فيكون نونه زائدة. ويحتمل أن يكون من الحين (الوقت) فتكون نونه أصلية.

(2) العرج: بفتح العين المهملة وإسكان الراء. ذكر أنها قرية في واد من نواحي مدينة الطائف وأنها مبدأ أرض تهامة. فالمراد ليس خصوص هذه القرية وإنما بعد المسافة بين الإقليمين. إقليم عمان وإقليم تهامة الذي به المدينة المنورة.

(3) الفلج: بضم الفاء وإسكان اللام بعدها الجيم. هو الفوز والظَفَر وجاء فيه بهذا المعنى أيضا لأنه بفتحتين أي بفتح الفاء واللام.

(4) الشرج: بالشين المعجمة مفتوحة وبالراء الساكنة بعدها جيم يطلق على النوع والشكل يقال في الشيئين يكونان من جنس واحد أو هما متشابهان: "هما شرج واحد".

(5) لفظ شبابي - هنا - ظرف لقوله مولعا بالخمر والعهر ، أي مدّة شبابي.

(6) النهج: بفتح النون الموحّدة الفوقية وإسكان الهاء بعدها جيم المراد به هنا البلى والضعف. وأصل استعماله في الثياب (ثوب نهيج) بمعنى أدركه البِلى ومسّته الخلوقة.

فبـدلني بـالخمر خوفـا وخـشية

وبـالعهر إحـصانا فحـصن لـي فرجـي

فأصبحتُ همّـي فـيَ الجهـاد ونيتـي

فللّــه مـا صــومي[1] ولله مـا حجــي

و يَحكي مازن فيقول: «لمّا رجعتُ من عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى قومي أنّبوني[2] وشتموني ، وأمروا شاعرهم فهجاني ، فقلت: إن أجبته وهجوتهم فإنّما أهجو نفسي. فتنحّيت عنهم. وبنيت مسجدا أتعبّد فيه.

فكان لا يأتي هذا المسجد مظلوم فيتعبّد فيه ثلاثا ، ويدعو على من ظلمه إلاّ استجيب له ولا ذو عاهة من برص أو غيره إلاّ عوفي».قال: ثمّ إنّ قومي ندموا على ما كان منهم ، وطلبوا إليّ الرجوع إليهم. وأسلموا كلّهم.

و منه أيضا:

رواية ثالثة:

عن **وائل بن حجر**[3] الحضرمي رضي الله عنه ويكنّى أبا هنيدة وكان قيلا[4] من أقيال حضرموت. وأبوه من ملوكها.

---

(1) الأقرب أنّ اللام في قوله: "لله ما حجّي " و"لله ما صومي" هي اللام المعروفة للاستحقاق كما في «إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»و قد يبدو أن تكون لام التعجب كما في: "لله درّه" اغتباطا بحاله في الإسلام: ولكن ربما كان هذا مستبعدا- وكذلك الأظهر انّ "ما" في قوله " ما صومي وما حجي " هي صلة في الكلام زائدة للتقوية والاعتماد.

(2) التأنيب: هو اللوم بعنف وشدّة.

(3) وائل بن حجر: بضم الحاء المهملة بعدها جيم بسكون وآخره راء.

(4) القيل: بفتح القاف مراد به هنا اللفظ الذي كان يطلق إسما لكل ملك من ملوك حمير باليمن. هكذا جاء في كلام بعض أصحاب معاجم اللغة. ولكن الذي يظهر من عبارة مؤلفي السيرة وهي المنقولة هنا أنّ القيل يغاير الملك فيكون أقلّ رتبة منه. فربما أطلق على أبناء الملوك كما يقال في العهد الأخير: "النبيل " و"الأمير" ونحو ذلك لقبا لمن كان من عائلة ملكية.

و يحكي وائل رضي الله عنه (في هذه الرواية) فيقول: «وفدت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد كان بشّر أصحابه بقدومي فقال: «يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة (من حضرموت) راغبا في الله عزّ وجلّ وفي رسوله، وهو بقية أبناء الملوك»».

قال وائل: فما لقيني أحد من الصحابة إلاّ قال: «بشرنا بك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قبل قدومك بثلاث».

قال: فلمّا دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رحّب بي وأدناني من نفسه وقرّب مجلسي وبسط لي رداءه فأجلسني عليه ودعا لي فقال: «اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده. ثمّ صعد المنبر وأقامني بين يديه ثمّ قال: «أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة (**حضرموت**)* راغبًا في الإسلام.» قال وائل، فقلتُ: «يا رسول الله بلغني ظهورك وأنا في ملك عظيم فمنّ الله عليّ أن رفضت ذلك كلّه وآثرتُ دين الله».قال: «صدقتَ! اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده».

ويحدّث وائل رضي الله عنه عن سبب وفوده على الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى أسلم فيقول: «و سبب وفودي على رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم أنه كان لي صنم من العقيق. فبينما أنا نائم في الظهيرة إذ سمعت صوتا منكرا من المخدع[1] الذي به الصنم. فأتيت الصنم وسجدت بين يديه وإذا قائل يقول:

وأعجبًا لوائل بن حجر ... يخال[2] يدري وهو ليس يدري

ماذا يُرَجّي[3] من نحيت[4] صخر ... ليس بذي نفع ولا ذي ضر

(1) المخدع: مثلث الميم وبفتح الدال المهملة هو بيت صغير داخل بيت كبير.

(2) هذا الفعل من أفعال القلوب ومعناه الظنّ فمعنى "يخال": يَظُنُّ ويعتقد، وألفه منقلبة عن ياء وماضيه " خال ". وجاء مصدره على عدّة أبنية منها: الخيْل والخَال والخيْلَة والخَيَلان بفتحتين.

(3) هذا الفعل من الرجاء وهو الأمل في الشيء أن يحصل منه فائدة للراجي وهو هنا من باب فعل مضاعف العين يقال: رجّى، يُرَجّيّ بمعنى ارتجى وترجّى.

(4) النحيت: إسم مفعول من النحت أي مصنوع من صخر وهو الصنم.

لو كان ذا حجر[1] أطاع امري

قال: فقلتُ أسمعت أيها الهاتف الناصح ، فماذا تأمرني ؟ فقال:

ارحل إلى يثرب ذات النخل * تدين دين الصائم المصلي

محمد النبيّ خير الرسل

قال: ثمّ خرّ الصنم لوجهه فاندقّت عنقه. فقمت إليه فجعلته رُفاتًا[2] ، ثمّ سرت مسرعا حتى أتيت المدينة ، فدخلت مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم....إلخ الحديث!

-هذا والذي تناقله هذا الفريق من مؤلفي السيرة من روايات القسم الثالث من الهواتف ، و هو ما سمع من أجواف الذبائح ليس فيه ما يبعث على إيراده هنا لخلوّه من الفائدة المقصودة بنقل ما نقل من معظم روايات هذا الباب ، حيث علم وأنها -في جملتها- روايات لا يعبأ بها من جهة صحّة السند وفيها الشيء الكثير مما يستنكر أو يصادم ما تواترت صحّته من أخبار أخرى. وفيها ما تتوفر الدواعي على نقله تواترًا ، وهو قد نقل أحادًا بل وعن مجاهيل في السند مع غرابة بالغة النهاية في المتن كما في البعض منها ، الأمر الذي تبدو به هذه الروايات أشبه ما يكون بالوضع القصصي المعروف.

غير أنّ ما في المنقول منها هنا من بعض الفوائد الخارجة عن أصل الموضوع (موضوع الاستدلال على نبوة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم) بما حدث من التنويه بشأنه قبل ظهوره (و الموضوع في غنى تام عن كل ما

[1] الحجر: بكسر الحاء المهملة وإسكان الجيم يراد به هنا العقل الراجح.

[2] الرفات: بضم الراء. اسم لما كان محطما من الأشياء ، وانحلّ إلى أجزاء صغيرة ، وهو ما يعبّر عنه -تارة- بالحُطام.

ذكر من أمثال هذه الروايات) ما فيها من الفوائد المتعددة[1] النواحي -غير الموضوع الذي سيقت فيه- هو الداعي الوحيد لإيراد ما أورد منها في هذا التقييد. ولذا كان الإضراب صفحا عمّا أورده الفريق المذكور من مؤلفي السيرة من روايات هواتف الذبائح، وما سمع من بعض الوحوش، وما سمع من بعض الأشجار وما وجد مكتوبا -بالخط العربي- وعلى أنه خلقة إلٰهية -لا صنعة بشرية- على بعض الأحجار، وأوراق الأشجار وبعض أنواع النبات، وعلى بعض حيوانات البر والبحر والجو...إلخ وعلى بعض السحب في السماء.

فما أوردوا من روايات هذا القسم كان خلوا من تلك الفوائد التي تضمنتها الروايات الإخبارية السابقة وكان الاقتصار فيه على مجرد ما يقصد من الموضوع ذاته بأسلوب غاية في السذاجة. وربما ضمنت بعض الروايات منها شيئا زائدا لم يخف فيه طابع التنميق الاصطناعي وكان -مع ذلك- تافها ليس فيه ما يستملح.

هذا مما دعا للعدول عن نقل ما في هذا القسم من الروايات التي نقل البعض من مؤلفي السيرة المقدار الجمّ منها في هذا الباب. وأمّا ما جاء من البشائر بظهور رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم بطريق العلامات الكونية ومعظم هذا الباب يرجع إلى تساقط الشهب من الكواكب، ورجم الشياطين ومسترقي السمع من السماء بها فكذلك قد أورد منه مؤلفو السيرة عدّة أخبار وروايات. ومعتمد ما يخص الرمي بالشهب في هذا الباب هو الآية من سورة الجن مما حكي عن مقال النفر من الجن الذين استمعوا للقرآن من الرسول صلّى الله عليه وسلّم والآية هي: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن

(1) هي فوائد لغوية وأدبية في الأكثر.

يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿9﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿10﴾ ﴾.

و تناقلوا في هذا الباب مقالة **ابن إسحاق** * إذ يقول ما معناه: لمّا تقارب أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحضر مبعثه حُجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها لتسترق السمع من السماء ، فرُموا بالنجوم فعرف الجنُّ أن ذلك لأمر حدث من الله في العباد. ثم ساق الآية المذكورة.

ثمّ أنّه مما ينبغي أن يعرف عن الرمي بالشهب هذا وكونه علامة من علامات الرسالة المحمدية كون ذلك بكثرة جاوزت المعتاد مما كان معروفا قبل ذلك. وإلاّ فإن هذا الرمي بالشهب كان مشاهَدًا من قديم الزمان.

و يفهم كون هذا الرجم قديما من ابتداء الزمان من الآيات القرآنية التي ذكرته كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ... ﴾ وغيرها من مثيلاتها العديدة (فهذه الآيات تدل على أن النجوم من أصل خلقتها مجعولة لرجم الشياطين مسترقي السمع فهي من ابتداء خلقها هكذا زينة للسماء ورجوم للشياطين. كما هي للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر وغير ذلك من المنافع التي لا تتعطل في وقت من الأوقات).

و حينئذ فالذي يعدُّ من بشائر رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم من تناثر شهب النجوم إنّما هو كثرة وقوع هذا الأمر إبّان مبعثه السعيد صلّى الله عليه وسلّم كثرةً استلفتت الأنظار وحيرت الأفكار. وكما جاء في أخبار عن هذا الرجم أنه كان قبل المبعث المحمدي يصيب مسترقي السمع من الشياطين -ولم يكن مع ذلك- بحيث يمنعهم من الاستراق المنع الباتّ.فكان ربما سمع الشيطان الكلمة أو بعض الكلمة فيزيد لها من عنده ما شاء ويأتي بها الكاهن. ولكن بعد المبعث المحمدي كان المنع باتّا

وانقطع استراق السمع بالمرّة.

ورد من الروايات الإخبارية عن هذا الرمي بالشهب الذي تكاثر عند مبعث الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم رواية تفيد أنّ أول قبيلة من العرب راعها هذا الرمي وفزعت له هي قبيلة **ثَقِيف*** الذين موطنهم مدينة **الطائف*** وناحيتها. فلما أهمهم ذلك أتوا رجلا منهم كان انتهى إليه التدبير في الأمور العامة عندهم لخبرته ودهائه وعلمه وكان -مع ذلك- أعمى. وجاء في لفظ من الرواية تسميته "**بعَمْرو بن أُمَيَّة**"* وفي لفظ آخر تسميته **بعبد يَاليل*** بن عمرو الثَّقفيّ. فأخبروه الخبر وسألوه ما عنده في الأمر. وجاء فيما جاء من خبرهم في الفزع أنّهم قالوا له: «إنّ الناس قد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم». فقال لهم: «لا تعجلوا! وانظروا فإن كانت هذه النجوم التي يرمى بها هي معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء[1] فهو -والله- طيّ هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها. وإن كانت نجوما غيرها، وهي ثابتة على حالها، فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق (و في لفظ) فهو من حدث! فنظروا فإذا هي نجوم لا تعرف. فقالوا: هذا من حدث. فلم يلبثوا أن سمعوا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم. (وفي لفظ) فما مكثوا إلاّ يسيرا حتى قدم الطائف **أبو سفيان*** بن حرب فقال: ظهر محمد بن عبد الله يدّعي أنّه نبيّ مرسل.

و قد فهم مما مرّ أن هذا الرمي بالشهب كان عند مبعثه صلّى الله عليه وسلّم وهو الذي جاء في كلام عامة أئمّة علم السيرة. ولكن جاء -مع

(1) الأنواء: جمع نوء بفتح النون وسكون الواو وبعدها همز قيل وهو عبارة عن غروب نجم من المنازل المعروفة بمنازل القمر في المغرب وطلوع رقيبه من المشرق من ساعته. وذلك في كلّ ثلاثة عشر يوما ما عدا المنزلة المسماة بالجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوما. وكانت العرب في جاهليتها تضيف الأمطار والأحداث من الرياح والحر والبرد وغير ذلك إضافة على الحقيقة إلى تلك الأنواء قيل تضيفها إلى الطالع. وقيل إلى الغارب فيقولون مطرنا بنوء كذا من أسماء تلك الكواكب. وقد جاء في هذا حديث مشهور عنه صلّى الله عليه وسلّم يحذّر من هذا الاعتقاد الشركي.

ذلك - للبعض من أئمّة هذا العلم ما يفيد أنّ الرمي المذكور كان قبيل المولد الشريف وبعده.

فنقل الإمام الماورديُّ عن الإمام **نجم الدين الغيطي*** قوله: «و سبب الرمي بالنجوم أنّ الله تعالى لمّا أراد بعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم رسولا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ففزع أكثر العرب منها، وفزعوا إلى كاهن لهم ضرير، وكان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها، فقال انظروا البروج الاثني عشر، فإن انقضَّ منها شيء فهو ذهاب الدنيا، وإن لم ينقض منها شيء، فسيحدث في الدنيا أمر عظيم. فلما بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان هو الأمر العظيم.

و من الروايات الإخبارية في هذا الباب أيضا ما روي عن أبي لهْب (أو أبي لهيب*) بن مالك (و هو صحابي) من قبيلة **بني لهْب**[1].

و قد كانت هذه القبيلة فزعت للرمي بالنجوم كما وقع لقبيلة ثقيف. فحدّث الصحابي المذكور قال: حضرت مجلسا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذُكِرَتْ عنده فيه الكهانةُ فقلتُ: بأبي أنتَ وأمّي -يا رسول الله- نحن أوّل من عرف حراسة السماء ومَنْع الجن من استراق السمع وذلك أنّا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له **خطر**[2] بن مالك، وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مائتان وثمانون سنة! وكان من أعلم كهاننا فقلنا له: «يا خطر هل عندك علم من هذه النجومُ التي تُرمَى بها فإنّا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها؟ »فقال: «ائتوني بسحَرْ أخبركم الخبرْ، ألِخيرٍ أم ضرر؟ أم لأمْنٍ أو حَذر؟ » قال: "فانصرفنا عنه يومنا، فلما كان من الغد في وجه السحر

---

[1] بنو لهْب بإسكان الهاء وهي القبيلة المشهورة بزجر الطير التي قال فيها الشاعر:

«خبير بنو لهْبٍ فلا تك ملغياً* مقالة لهبيّ إذا الطيرُ مرَّتِ»

[2] خطر: بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة بعدها راء.

أتيناه فإذا هو قائم على قدميه شاخص في السماء بعينيه ، فناديناه ، يا خطر !يا خطر! فأومأ إلينا أن أمسكوا! فأمسكنا. فانقضّ نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعا صوته:

«أَصَابَهُ[1] إِصَابُهْ. خامره[2] عقابُهْ. عاجِلَهُ[3] عذابُهْ. أحرقه[4] شهابُهْ. زايله[5] جوابُه. يا ويلَه[6] ما حالُهْ. بلبلَهْ[7] بِلْبَالُهْ. عاوده[8] خَبالُهْ. تقطّعتْ حِبالُهْ. وغُيّرَتْ أحوالُهْ[9]».

ثمّ أمسك عن الكلام طويلا ثم قال: «يا معشر بني **قحطان***، أخبركم بالحق والبيان: أُقسم بالكعبة والأركان ، والبلد المؤتمن السدان[10] قد مُنِع السَّمعَ عُتاةُ الجآنّ! بثاقب من ذي سلطان. لأجل مبعوث عظيم الشان. يبعث بالتنزيل والفرقان وبالهدى وفاصل[11] القرآن. تبطل به عبادة الأوثان.»

الضمير الغائب في جميع هذه الجمل العشر يعود على الجنيّ المسترق للسمع المصاب بالشهاب وجاء في تفسير هذه الجمل أنّ لفظ

(1) أصابه: (الأول) هو فعل ماض من الإصابة والثاني بكسر الهمزة وهي بدل عن واو (وصابه)" والوصاب" جمع "وصب" وهو في الأصل المرض " ومعناه العذاب" ووزنه كجَمل وجِمال.

(2) و الجملة الثانية ظاهر معناها " أي حَلّ به عقابه".

(3) و كذلك الجملة الثالثة ظاهرة المعنى.

(4) و كذلك الرابعة.

(5) و المعنى في الخامسة أنّه زال عنه جوابه وامتنع عنه الكلام.

(6) و السادسة ظاهرة المعنى بأنّها توجع وتهويل لحال المصاب.

(7) فعل "بلبل" له معان منها الإفساد والتفريق والتخليط والتهييج و"البلبال" بكسر الباء كما يأتي مصدرا لبلبل يأتي إسما للغم وضيق الصدر.

(8) أشهر معاني لفظ "الخبال" هو الفساد في العقل. وقد يطلق على فساد بعض الأعضاء الحسية وشللها.

(9) والجملتان الأخيرتان ظاهرتا المعنى.

(10) مادّة "سدن" معناها الخدمة. وأكثر استعمالها في خدمة ماله صفة القداسة. ومن هذا يقال في القيام على الكعبة «السدانة»فالسدّان هنا بمعنى الخدّام. ولينظر ما هو معناه أعلى الفاعلية؟ فيكون البلد الخادم أي أهله وهم أهل مكة يخدمون البيت الحرام ، أم على المفعولية فيكون بمعنى البلد المخدوم ؟ وعلى كل فالمراد بالبلد مكة المكرمة.

(11) في كلتا النسختين المنقول منهما رسم لفظ "فاضل" هنا بالضاد المعجمة وهو ، وإن كان له معنى الفضل إلاّ أنه يبدو ثقيلا ينبو عنه الذوق. ولعل رسمه بالصاد المهملة أولى كما أثبت هنا

قال: فقلنا له: «ويلك يا خطر إنك لتذكر أمرا عظيما فماذا ترى لقومك ؟». فقال:

«أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير نبيّ الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس يُبْعَث في مكة دار الحُمْس[1]

بمحكم التنزيل غير اللَّبس»

إلى آخر ما جاء في هذه الرواية التي تفيد أنّ القوم زادوا فطلبوا من الكاهن مزيد بيان في شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأخبرهم عنه بأنه من سلالة هاشم من **قريش** * الأكارم وبعد ما أتمَّ ما نعت به الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال: «الله أكبر جاء الحق وظهر. وانقطع عن الجن الخبر»ثمّ أغمي عليه فما أفاق إلاّ بعد ثلاثة أيام.

و جاء في هذه الرواية -أيضا- عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنه قال في شأن هذا الكاهن نظير ما قال في قس بن ساعدة ، ونظرائه: «لقد نطق عن مثل نبوّة وإنه ليبعث يوم القيامة أُمّةً وحده».

في هذا التقييد وكونه بالمهملة أنسب بنعت القرآن ﴿إنه لقول فصل﴾ والفصل من معناه البيان والتمييز ومن معناه الحكم والقضاء ، والقرآن أولى ما ينعت بهذا.

[1] الحُمْسُ: بضم الحاء المهملة وإسكان الميم. وهو نعت للجمع. والمراد بهم قريش لأنهم دانوا بالحماسة وهي التشدد في مذهبهم ومبدئهم. جاء في هذا أن قريشا* بحكم هذه الحماسة التي كانوا يدينون بها احترفوا التجارة ولم يحترفوا الغزو الذي كان شائعا في غيرهم من قبائل العرب. وذلك كراهية منهم وتفاديا من سبْي النساء الذي ينجم عن عملية الغزو.

خاتمة

و الذي يظهر من هذا الدور من السيرة الذي هو الدور الأول كما رتب ذلك بعضُ مؤلفي هذا الفن ، ومنهم الأستاذ الجليل **مصطفى الغلاييني*** في مؤلَّفه المسمَّى «لباب الخيار في سيرة المختار»صلّى الله عليه وسلّم ، حيث جعل مجمل السيرة النبوية يشتمل على ثلاثة أدوار:

- الأول من المولد الشريف إلى المبعث
- و الثاني من المبعث إلى الهجرة
- و الثالث من الهجرة إلى انتقاله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الرفيق الأعلى بالوفاة.

يظهر أن من أهم أحداث هذا الدور الأول هو ما أطبقت عليه الأخبار بوقوعه كخاتمة لأحداث هذا الدور من حياته صلّى الله عليه وسلّم ألا وهو اعتزاله صلّى الله عليه وسلّم الناس وانقطاعه للتبتل الليالي ذوات العدد بغار في جبل حراء[1]. فقد تواترت الأخبار الصحيحة بهذا وأنه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقيم بذلك الغار المدّة التي تبلغ الثلاثة أيام فما فوقها حتى قيل أنه أقام فيه ما يقارب الشهر في بعض المرات. وربما كانت هي المرة الأخيرة التي فاجأه الوحي في نهايتها.

و مما يدل على أنّ الأزمنة التي كان صلّى الله عليه وسلّم يقضيها بالغار مختليا ، هي مما يطول عرفا اتخاذه صلّى الله عليه وسلّم للزّاد مما كان يتقوَّت بهِ من الطعام. فقد جاءت الأخبار العدّة بأنه صلّى الله عليه وسلّم كان يتزوّد ، تُزَوّدُه زوجه **خديجة*** رضي الله عنها بالنوع الذي يتحمّل طول المدّة من الطعام ولا يسرع إليه التغير والفساد. وعين من هذا النوع

(1) هذا الجبل الذي فيه الغار المسمى بغار حراء بكسر الحاء المهملة وتخفيف الراء يبعد عن بلد مكة ثلاثة أميال إلى جهة الشمال منها ويقع يسار الذاهب إلى منىً ومنىً* شرقي مكة. وقد أطلق على هذا الجبل فيما بعد من العهد الإسلامي اسم "جبل النور".

الكعك[1] والزيت فإذا فرغ منه الزاد رجع إلى منزله فتزوّد مرّة أخرى وهكذا... إلى أن فاجأه الوحي وهو بغار حراء.

هذا وقد شاء البحث والتنقيب لطائفة من العلماء أن يبحثوا في نوع ما كان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يشتغل به حال اختلائه بغار حراء ويعَرفوه حسبما استندوا إليه من الأدلة مع أنّ المأثور من الأخبار في هذا الأمر لم يأت فيه شيء من التصريح بشيء مما يعيّن نوع ما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يشتغل به في خلوته تلك - وغاية ما جاء من ذلك هو لفظ التحنث[2] ونحوه مما يدل على مطلق الاعتزال للخلق والانقطاع عن شواغل الحياة الدنيا والانفراد بالنفس.

و لكن من المنقول عن البعض من هؤلاء العلماء أنه صلّى الله عليه وسلّم كان يتعبّد في غار حراء قبيل المبعث بشريعة نوح عليه السلام! ويقول آخر أنه كان يتعبّد بحسب شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام. وقيل بشريعة موسى عليه السلام. كما قيل بشريعة المسيح عيسى عليه السلام. ويقول بعض آخر أنه صلّى الله عليه وسلّم كان يتعبّد بذكر الله. ولعل أكثر ما يستأنس إليه السّمع من هذه الأقوال هو قول من يقول أنّ تحنثه صلّى الله عليه وآله وسلّم بغار حراء إنما كان بالافتكار، ومناجاة خالقه تعالى في طلب تخليص قومه. والمجتمع الكائن إذ ذاك من الشر

(1) لفظ "الكعك" ليس من العربي الخالص بل هو من الدخيل المعرب قيل فيه أنه فارسي. والغالب أن إطلاقه يختلف بحسب العصور على طعام يصنع من الدقيق، وربما كان المراد هنا هو ما جاء تعريفه بأنه نوع من الخبز ولكنّه يصنع يابسا.

(2) التحنث: بصيغة التفعّل، من الحنث بكسر الحاء المهملة. والحنث هو الذنب والإثم. والبناء المذكور مستعمل في الترك والتنزّه. يقال: تحنّث إذا تحاشى الوقوع في الحنث واجتنبه. كما يقال مثل ذلك في الإثم. فيقال: - تأثم من كذا بمعنى تورّع عنه وخاف الوقوع في الإثم. وقد ورد إطلاق لفظ التحنّث على مطلق التعبد. كما جاء إطلاقه - أيضا - في عهد ما قبل الإسلام على اعتزال الأوثان والأصنام التي كانت تعبد إذ ذاك من الجمهور.
فربما شذّ بعض الأفراد برفض عبادتها فيقال فيه "تحنّث" وبمعنى التحنّث بالثاء التحنّف بالفاء. فكما يقال تحنث يقال بتمام معناه تحنف بالفاء.

والشقاء اللذيْن كان عليه الصلاة والسلام يرى -بكل إشفاق- عالم ذلك اليوم واقعا فيهما ، وغارقا كله في لجج من المنكر والضلال والفساد. يدل لهذا القول دلائل لها مكانتها من القوة كالخبر الثابت عنه صلّى الله عليه وسلّم بما معناه: «مازلتُ أعلم أنّ ما هم عليه باطل». يشير إلى قومه وما هم عليه من الديانة والاعتقاد.

و كما ورد عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال لزوجه **خديجة*** رضي الله عنها: «و الله ما أبغضتُ شيئا بُغْضي لهذه الأصنام». وغير هذا كثير ممّا كان عليه صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يُكْرَم بالنبوّة. فقد كان عليه الصلاة والسلام في همّ عظيم واحتمال عبء ثقيل من الاستياء والحيرة مما يشاهده من حال قومه وجيله من الاعوجاج والفساد. بل وفي نفس اعتزاله صلّى الله عليه وسلّم الناس وإيثاره الخلوة كفاية من الدليل في جانب القول الأخير مما جاء من الأقوال في تعيين نوع ما كان يشتغل به صلّى الله عليه وسلّم ويتحنّث به في خلوته.

و قد جاء في تلك الروايات المأثورة عن تحنّثه صلّى الله عليه وسلّم واختلائه هذا ما يفيد أنه صلّى الله عليه وسلّم كان كلما تقدم به السن ازداد اعتزالا للناس وحبًّا للاختلاء بنفسه حتى أكرمه الله بالوحي واصطفاه للرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، و الصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين سيدنا محمد النبيّ الأميّ الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدّين أمّا بعد ، فهذا تابع التقييد للدروس بالمسجد الجامع ببلدة ميلة في موضوع السيرة النبوية الشريفة كان افتتاحه يوم الإثنين التاسع من شهر شوال المبارك من عام 1377سبعة وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق للثامن والعشرين 28 من شهر أبريل من سنة 1958 ثمان وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد المسيحي.

ببلدة ميلة

و الله المستعان وبه التوفيق

الدرس 15

مبدأ الوحي والبعثة المحمدية رسولا إلى الخلق [1]

المتداول في الأخبار أن مبدأ الوحي إليه صلّى الله عليه وسلّم ، كان عندما تمّ له صلّى الله عليه وسلّم من العمر أربعون سنة قمرية.

و جاء في ذلك أن مبدأ الوحي كان في شهر ربيع الأول وفي اليوم الثامن منه [ويفيد من أشار إلى تاريخ مبدأ الوحي بالتقويم الشمسي أنّ ذلك واقع فيما بين شهر يوليو وشهر أغسطس من سنة 610 عشر وستمائة من الميلاد المسيحي وثمّ من حدّد اليوم بأنه اليوم السادس من شهر أغسطس وفي كلام البعض ما يشير إلى أنّ التحقيق في تاريخ مبدأ الوحي- بناء على عمليات حساب مدقّق- أنّه يوافق يوم17 السابع عشر رمضان وفي شهر يوليو من السنة الميلادية عشر وستمائة وممّا يستفاد أيضا كون الاتفاق حاصلا على أنّ اليوم هو يوم الإثنين].

و في مقابل هذا جاء أنّ مبدأ الوحي كان في شهر رجب وفي اليوم السابع والعشرين منه.كما جاء ، أنّ مبدأ الوحي كان في شهر رمضان وفي اليوم السابع عشر منه.

و من المعلوم أنّ مدّة الوحي إليه صلّى الله عليه وسلّم استغرقت ثلاثة وعشرين عاما حيث أنّه صلّى الله عليه وسلّم توفي على رأس ثلاثة وستين عاما من عمره.

و في موضوع مبدأ الوحي جاء الحديث المشهور (وهو ما في رواية البخاري ومسلم في صحيحيهما) عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «أوّل ما بُدِئَ به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من الوحي

---

(1) من اصطلاح بعض مؤلفي السيرة أن هذا هو الدور الثاني من حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهو من البعثة إلى الهجرة.

الرؤيا الصالحة. فكان لا يرى رءيا إلاّ جاءت كفلق الصبح[1] ».

و جاء أنّ مدّة الرءيا كانت ستة أشهر قبل أن يفاجئه الوحي يقظة [من مقدار مدّة الرءيا هذا ، أخذ البعض نظرية التوفيق بين مختلف الأخبار في تاريخ مبدأ الوحي. فبالنسبة للمبدأ بالرءيا يكون افتتاح الوحي على رأس الأربعين عاما من عمره صلّى الله عليه وسلّم ، وبالنسبة لمفاجآة الملك له يقظة يكون افتتاح الوحي في أثناء العام الواحد والأربعين من سنّه صلّى الله عليه وسلّم. ومن هذا يظهر التوفيق بين من يقول بأن شهر ربيع الأول هو تاريخ مبدأ الوحي. ومن يقول مبدؤه شهر رمضان.

و فيما يتعلق بالرءيا الصالحة جاء الحديث المشهور عنه صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «الرءيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» ، فقيل في شرح الحديث ، كما هو في هذا اللّفظ ، أنّه صلّى الله عليه وسلّم يشير إلى ما كان له من الرءيا في مدّة ستة أشهر من مجموع أيام الوحي وهو ثلاث وعشرون سنة. فمدّة الرءيا بالنسبة لكامل مدّة الوحي جزء من ستة وأربعين جزءا ، غير أنّ الحديث أُوّل بوجوه أخرى كما أنّه ورد بصيغ مختلفة في مقدار الجزئية المذكورة].

و تواصل أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها حديثها في مبدأ الوحي فتقول: «ثمّ حُبّبَ إليه صلّى الله عليه وسلّم الخلاء [ربما يصح أن يفهم معنى ثمّ -هنا- الذي هو الترتيب على أنه ترتيب في الذكر فقط. لا أنّه الترتيب في الوقوع الدّال على أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يمارس الاختلاء إلاّ بعد أن تواردت عليه الرؤى الصادقة والتي حدد زمانها في بعض الأقوال بستة أشهر قبل مفاجأة الوحي... وذلك لأنّ المأخوذ من سياق الأخبار المتعدّدة عن حاله صلّى الله عليه وسلّم في الاختلاء والمفهوم من عامة الأخبار أن الاختلاء كانت مدده طويلة بالسنين. وكلما تقدّم به السن زاد

[1] فلق الصبح أي ضياؤه وفيه لغة بالراء عوض اللاّم (فرق الصبح) وقد جاءت به رواية. والكل بفتحتين.

حبّا في الخلوة وإكثارا منها وحينئذ يتعين فهم الترتيب على الذكر فقط. وإذا لزم أنه الترتيب في الوقوع كما يدل عليه لفظ رواية: ثمّ بعد ذلك حبب إليه الخلاء» ، إذا لزم هذا فيتعين أن تفهم مدة الرءيا على أنها أطول بكثير ممّا جاء يحددها بستة أشهر].

و كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد [جاء في هذا العدد أنه ثلاثة وسبعة وعشرة إلى شهر] قبل أن ينزع[1] إلى أهله» ويتزوّد لذلك. ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها -حتى جاءه الحق [و في رواية فجأه ثلاثيا ويقال فاجأ أيضا بمعنى أتى على حيث غفلة] وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ ، قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطّني[2] حتى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ!

فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثمّ أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة ثمّ أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (2) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (3) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (4) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (5)﴾.

---

(1) نزع: ينزع بفتح في الماضي والكسر في المضارع ومصدره النزوع فهو من باب (جلس) ويقال في مصدره النزاع أيضا. والفعل بهذا المعنى معناه الرجوع إلى ما هو محبوب كالأهل والوطن وربما أطلق على الشوق إلى ما كان كذلك ومن معناه أيضاالشبه فيقال نزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه في شبه الصورة.

(2) جاء في لفظ "الغط" بفتح الغين المعجمة وبالطاء المهملة أنّ معناه الضم الشديد والعصر والكبس. وقد جاء في بعض ألفاظ هذه الرواية أنه غطه بنمط. والنمط نوع من البسط مما ينام عليه ومن الصيغ الواردة في الرواية قوله صلّى الله عليه وسلّم (فغطّني حتى ظننت أنه الموت). ففهم ، على الكل ، أنّ الغط كان شديدا للغاية القصوى ولبعض العلماء كلام هنا فيما يومئ إليه الغط المذكور وفي تحديده بثلاث مرات. ومما قيل أنه إشارة إلى ما سيلقاه صلّى الله عليه وسلّم من الشدائد كحصار الشعب والتبييت على الفتك به. ثم إخراجه من وطنه....إلخ. وقيل غير ذلك (استدراك)...جاء في لفظ الغط أنه تبدل فيه الطاء تاء فيقال (الغت والحرفان متقاربان كما هو ظاهر.

فرجع[1] بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرجف[2] فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمّلوني[3]، زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع[4]. فقال لخديجة -وأخبرها الخبر-: لقد خشيت[5] على نفسي!

فقالت خديجة: «كلاّ والله ما يخزيك[6] الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ[7] وتكسب المعدوم[8] وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.»

(1) ورد في رواية عنه صلّى الله عليه وسلّم قوله بعد هذا: «فقرأتها. وانصرف عنّي (أي الملك) وقد استقرّ ذلك في قلبي». وفي لفظ آخر: فكأنما كتب في قلبي (أي الآيات المذكورة) كتابا.

(2) و في رواية: (رجع ترجف "بوادره") جمع بادرة وهي اللحمة الواقعة بين المنكب والعنق وهما اثنتان ترجفان من الشخص إذا حصل له فزع.

و هذا كما يقال (ترتعد فرائصه) لأنّ الفريصة* لحمة بين الكتف والجنب. أو بينهما وبين الثدي. وهما اثنتان ترتعدان من أثر الفزع والانفعال كالغضب.

(3) التزميل: هو اللف في الثياب وهو بمعنى واحد مع "التدثير" فمع كلٍّ يحصل الدفء للجسم وتسكن أعضاؤه.

(4) و الروع: بفتح الراء وهو الفزع والخوف وقد فهم من هذا مقدار ما حدث له صلّى الله عليه وسلّم من الانفعال الجسماني والنفساني للحال التي اعترته من نزول الوحي. ومن هذا فسرت

(5) الخشية من قوله صلّى الله عليه وسلّم (خشيت على نفسي) وأنه ليس له معنى إلاّ الشكوى من ضعف الهيكل الجسماني حتى كان صلّى الله عليه وسلّم يتوقع أن قواه الجسمانية لا تحتمل ما أتى عليه من هذه الأعراض التي لا عهد له بها.

(6) روي لفظ (ما يخزيك الله أبدا) بالخاء المعجمة وبالزاي المعجمة وآخره ياء من الخزي وهو الهوان والذل وروي بالحاء المهملة والزاي والنون من الحزن.

(7) و الكَلّ: بفتح الكاف يطلق على الضعيف والمهمل وعلى رب العيال المحتاج وعلى معنى ما فيه ثقل فالمراد أنه صلّى الله عليه وسلّم كان يحمل مؤنة من هذه صفته من الناس إحسانا منه صلّى الله عليه وسلّم.

(8) و المعدوم: قيل فيه أنه صفة للشخص المحتاج مجازا فكانه معدوم. كما قيل أنه صفة للشيء المحتاج إليه فيكون في الكلام حذف أحد المفعولين - أي تكسب وتعطي الشيء المعدوم لمن كان محتاجا إليه -. وثمّ من قال أنه المعدم وهو الفقير الفاقد للشيء. وقيل في معنى " نوائب* الحق " أي حوادثه وشؤنه. وقد جاءت الرواية بهذا الحديث بزيادة في تعداد هذه الخصال، كقولها (وتصدق الحديث وتنصر المظلوم)، إلخ.... و" تؤدي الأمانة ". جاء في هذا أنه مما يدل على مبلغ ما عليه السيدة خديجة رضي الله عنها من وفرة الفقه ورجاحة الفكر. فقد استدلت رضي الله عنها، جازمة الاعتقاد، بأن من كان خلقه كريما وصنائعه مشكورة وعمله الخير والإحسان فهو بمنجاة من السقوط في المكاره ويصدق هذا ما ورد في الأحاديث الشريفة عنه صلّى الله عليه وسلّم وأنه كان يقول: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل * إبن أسد بن عبد العزّى ابن عمّ خديجة. وكان امرءً قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرائي (في بعض الروايات لفظ: العربي عوض العبراني، فوفق بينهما بأن ورقة كان يحسن كتابة اللغتين معًا فربما كان يعرب الإنجيل الذي بالعبرانية إلى العربية)، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخا كبيرا قد عمي. فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس[1] الذي نزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعا[2] أليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أوَ مُخْرجيَّ هم؟ قال: نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرًا[3].

هذا وقد وردت رواية في مبدأ الوحي يفيد مضمونها أنه صلّى الله عليه وسلّم كان يسمع نداء يقول له: «يا محمد أنا جبريل وأنك رسول الله إلى الخلق». وعندما ذكر ذلك لخديجة رضي الله عنها مضت هي، منفردة، إلى ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال: قدوس!قدوس[4]! ما لجبريل يذكر في هذه البلاد؟ والله إنه الناموس الذي يأتي عيسى بن مريم. وفي لفظ: موسى بدل عيسى. وكان هذا قبل أن يجتمع ورقة بالرسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

(1) هذه المادة ن.م.س: تدل على السر والخفاء فيما هو كالحديث. وجاء في معنى الناموس أنه صاحب السر والمطلع على الخفايا وربما خصص بأنه صاحب المناجاة والسر في كل ما هو خير ويشاكله الجاسوس وهو صاحب السر ولكن في كل ما هو شر ومكروه وللفظ الناموس معان أخرى منها المنهاج والخطة المتبوعة ومنها الصورة الاعتبارية التي تحفظ للشيء قوامه المعنوي.

(2) الجذع: بفتحتين على الجيم المعجمة والذال المعجمة وآخره عين مهملة يطلق على الشاب الحدث وهو المراد هنا.

(3) من معنى مادة (أ. ز. ر) القوة والمعونة والتغطية. فمعنى النصر المؤزر أي القوي.

(4) قدوس: من أسماء الله الحسنى ومن معناه التنزه عن النقائص والاتصاف بالكمال والاتيان به هنا للتعجب والإعجاب كما يقال في الشيء الذي يعجب أو يتعجب منه (سبحان الله)، على أنه قد ورد في رواية أخرى لفظ (سبوح عوض قدوس).

و بعد الاجتماع به صلّى الله عليه وسلّم كما تقدّم في حديث عائشة قال له: «لقد جاءك الناموس الأكبر. ولتُكذَّبَنَّهْ ولَتُؤذَيَنَّهْ، ولتُقَاتَلنَّهْ، ولتُخرجَنَّهْ [الهاء في الأفعال الأربعة هي هاء السكت التي تلحق آخر الكلمة وتلازم السكون وقد جاء من تعليق البعض هنا ما معناه أن في سكوته صلّى الله عليه وسلّم وعدم ردّه الجواب عما أبداه ورقة من الأخبار بأنه سيكذب وسيؤذى، وسيقاتل. ثم لمّا أخبره بأنه سيخرج من بلده أبدى عليه الصلاة والسلام ما يدل على الاهتمام لهذا الأمر خاصة واستفهمه استفهام المنزعج بقوله: "أو مخرجيّ هم؟". في هذا دلالة، وأي دلالة، على مقدار حب الوطن والتعلق به وأن الوطن بمكان من العاطفة لا يكاد يساويه فيه شيء آخر من سائر ما يحبه الشخص ويتعلق به] فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: أو مخرجيّ هم؟ ...إلى آخر ما جاء في رواية عائشة رضي الله عنها.

و تفيد بعض الروايات أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يرافق الرسول صلّى الله عليه وسلّم وخديجة في مقدمهما على ورقة.

كما تفيد بعض الأخبار عن موقف خديجة رضي الله عنها الجليل في هذا الظرف الخطير من حياتها الزوجية معه صلّى الله عليه وسلّم أنّها عندما سمعت منه صلّى الله عليه وسلّم كلمة "جبريل" التي لم تكن تعرف في وسطهم بالمرّة أخذت رضي الله عنها تسأل عن ذلك أهل العلم سواء ببلادها أو بالبلاد الأجنبية حتى أنها أرسلت تسأل عن ذلك في بلاد الشام التي هي موطن أهل الكتاب إذ ذاك.

و من هذه الأخبار أيضا أنّ خديجة رضي الله عنها سألت، في شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا، رجلا آخر من رجال العلم كورقة بن نوفل كان يقيم إذ ذاك بمكة وهو من أصل رومي وكان قد تقدمت به السن حتى سقط حاجباه عن عينيه وقد ثقل سمعه وجاء تعريفه في بعض

الروايات باسم "عداس" وأنّه من أهالي بلدة نينوى[1] من أرض الموصل وكان في مكة عبدا مملوكا لعتبة بن ربيعة* وأخيه شيبة اللذين هما من سادات قريش [مما يبدو من بعض الاطلاع أنه كان يوجد بمكة ، في هذا الظرف قبيل المبعث ، أفراد من الأجانب يوسمون بالعلم وعامتهم مسترقون لسادات مكة. وقد ذكر في كتب الأقدمين والمتأخرين من أسماء هؤلاء وأشخاصهم ، عداس ونسطاس ولسياس* وجبر* وغير ذلك...فإطلاق اسم عداس بجملة ما فيه من الصفات على شخصين اثنين كبير وصغير ليس من قبيل الممتنع. وإن كان المستقرب أنه وقع اشتباه في إطلاق هذا الاسم والمشتهر به هو الغلام الذي اجتمع بالرسول صلّى الله عليه وسلّم في الطائف.

و لهذا ، جاء في كلام من ألّف في السيرة حديثا كالدكتور طه حسين المصري في كتابه المسمى «على هامش السيرة».

إطلاق اسم نسطاس لا عداس ، على العالم الذي سألته خديجة رضي الله عنها وهو الشيخ المتقدم في السن وكان قرينا وصاحبا لورقة بن نوفل.

و قد أفاد المؤلف المذكور عن الرجل الذي اجتمع بالرسول صلّى الله عليه وسلّم في الطائف أنّه يسمّى عداسا وأنّه استمر في مكانه بالطائف حتى سنة ثمان من الهجرة عندما غزا الرسول صلّى الله عليه وسلّم مدينة الطائف، فثار عداس على أهلها المشركين وقتل على أيديهم. فكان من جملة شهداء غزوة الطائف.

و من هذا الاشتباه من الأسماء المذكورة ، حتى في كتب المتأخرين ، ما جاء في كتاب حياة *محمد للدكتور محمد حسن هيكل المصري من إطلاقه اسم نسطاس على غلام صفوان بن أميّة الجمحي الذي كلف بقتل الصحابي الأسير في يد قريش زيد بن الدثنة رضي الله عنه.

---

(1) نينوى: بكسر النون الأولى وفتح الثانية وفتح الواو قيل هي بلدة نبي الله يونس.

بينما يقول الدكتور طه حسين أنّ غلام صفوان المذكور الذي أرغم على قتل زيد بن الدثنة اسمه لسياس الرومي وقد ضاق ذرعا بما أرغم عليه من هذه الفعلة فاختفى أثرها.

وكذلك مما يبقى محل نظر من كلام الدكتور طه حسين ما أفاد عن نسطاس وأنّه ظهر يوم اليرموك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مناصرا للمسلمين...مع ما ذكر وأنّه متقدم السن كورقة بن نوفل فلعل الذي ظهر هو لسياس الذي كان اختفى والله أعلم].

و يلاحظ بعض مؤلفي السيرة أنّ عداسا هذا ليس هو الغلام المعروف بهذا الاسم والذي كان يقيم بمدينة الطائف يعمل في حائط لعتبة وشيبة إبني ربيعة. وكانت له قصة مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم حينما خرج عليه الصلاة والسلام إلى الطائف في سنة عشر من النبوة فهما اثنان يتحدان في الاسم والأصل والموطن والوظيفة وإنما الأول كان شيخا والأخير كان شابا. وتفيد هذه الأخبار عن سؤال خديجة رضي الله عنها لهذا الرجل الذي سمّاه البعض بعداس أنّه أجاب بمثل ما أجاب به ورقة بن نوفل.

بل ثمّ من الأخبار ما يذكر أنّ كلا الرجلين كان لهما اهتمام وتفاوض بينهما في شأن محمد صلّى الله عليه وسلّم من حيث أنّهما كانا يتوقعان مبعث النبي المنتظر من العرب [تقدّمت الإشارة-باقتضاب- في الدرس الثاني عشر في باب زواجه صلّى الله عليه وسلّم بخديجة إلى أنّها رضي الله عنها كانت تختبر حاله عندما بدت عليه أعراض نزول الوحي فكانت - بناء على أنّ الملك لا يحضر مجلسا تكشف فيه المرأة عن رأسها- تقول له هل ترى شيئا الآن ؟ بعد أن تجلسه على فخدها الأيمن... ثمّ الأيسر... ثمّ تجلسه في حجرها وهي مستترة الرأس فيجيبها بأنّه يراه... ثمّ تميط الخمار عن رأسها ، وعندما تميط الخمار يتغيب الملك فلا يراه فتفرح خديجة لذلك مستدلّة به على أنّ الشأن شأن ملك لا شأن شيطان ولا كهانة ولا ما هو من

هذا القبيل الممقوت. والرواية بهذا الخبر ليست في المستوى المعتبر من الأخبار وقد جاءت هذه الرواية ، في اختبار خديجة رضي الله عنها ، بطرق تختلف عن بعضها البعض فيقول البعض أنّ ذلك كان بإشارة ورقة بن نوفل ويقول آخر أنّه بمحض اجتهاد من خديجة رضي الله عنها ، وعلى كلّ فإنّ هذا إنّما وقع قبل مفاجأة الوحي له بغار حراء الوارد به الخبر الصحيح وليس بعده كما توهّمه البعض].

هذا وقد جاء من أخبار مبدأ الوحي أنّ الآيات المتقدمة الذكر من قوله تعالى: ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ... ﴾ أوحي بها إليه صلّى الله عليه وسلّم مناما في ليلة السبت ثمّ في ليلة الأحد بعدها ثمّ كان الوحي بها يقظة يوم الاثنين كما تقدّم ذكره في الرواية المشهورة.

و من الروايات الواردة في باب بدء الوحي الرواية التي تفيد أنّ جبريل عليه السلام لمّا تراءى للرسول صلّى الله عليه وسلّم وسمع الرسول منه النداء بقوله: «أنا جبريل وإنّك رسول الله إلى الخلق» أملى عليه جبريل إذ ذاك سورة الفاتحة بتمامها [فمسألة أول ما نزل من القرآن مسألة خلافية بين أئمة الأمة ؟. ويتبع ذلك خلاف متعدد الجوانب في مسألة البسملة هل هي أية من سورة الفاتحة فقط ؟ أو هي آية من كل سورة من القرآن عدا سورة "براءة" المعروفة بسورة "التوبة" فهذه محل اتفاق على عدم البسملة في افتتاحها... أو أنّ البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من باقي السور ؟ مع الاتفاق طبعا على أنها آية من سورة النمل في أثناء السورة عند حكاية كتاب سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ... ؟ في ذلك أقوال ومذاهب كلّ ذهب إلى قول مما ذكر]. وهذا مما يدل على أن الفاتحة هي أول ما نزل من القرآن. وبهذا أخذ جمع من أئمة الأمة. وإن كان خلاف المشتهر الذي دلّ على أنّ أول ما نزل هو فواتح سورة العلق من قوله تعالى: ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾... الخ.

الدرس 16

فترة الوحي: (1- فترة الوحي، 2 -أقسام الوحي)

1- جاء في رواية الصحيحين المتقدمة الذكر عن عائشة رضي الله عنها إتمامًا لما تقدم من الحديث في بدء الوحي ، قولها: «ثمّ لم ينشب[1] ورقة أن توفي وفتر الوحي» ، وقد وقع الخلاف في مدّة فترة الوحي هذه ، ففي قول البعض أنّها امتدت إلى ثلاث سنين وقيل سنتين ونصفا. ويرى البعض خلاف هذا ، فيقول إنها لم تزد على أيام معدودة ورجح البعض القول الذي حدد مدّتها بأربعين يوما (و رأي القائلين بأن فترة الوحي إنّما كانت لمدّة أيّام ولم تطل بالشهور أو السنين يسانده المعروف من تاريخ الدعوة حيث ورد أنها كانت سرًّا لمدة ثلاث سنوات ثم كان الجهر بها في السنة الرابعة للنبوة عملا بالآية من قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ... ﴾.

وقد جاء للعلماء في حكمة فترة الوحي هذه أنّ ذلك ليشتد شوقه عليه الصلاة والسلام إلى الوحي وليتقوّى استعداده لتلقِّي ما سيرد عليه منه. وهذا ما أفصحت عنه روايات الأخبار في هذا الشأن. فقد ورد أنه صلّى الله عليه وسلّم كان طوال مدّة هذه الفترة في شوق وهيام[2] بلغ الغاية القصوى ينتظر عود نزول الوحي واشتدّ به القلق إلى درجة لم يطب له معها العيش ولم تستقر به الحياة حتى عاوده الوحي (جاء هنا من روايات الأخبار ما يفيد أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان في هذا الظرف الذي

---

[1] لم ينشب: بفتح الشين بمعنى لم يلبث فيدل المعنى على قرب مدّة وفاته. ولهذه المادة معان أخرى والماضي منه مكسور العين. ويؤخذ من هذا أن ورقة* لم تدركه الدعوة الإسلامية وإنما حضر النبوة وهذا هو المشتهر ويوجد من الأقوال ما يحكي أنّه حضر الدعوة حتى أنه كان يقف على بلال رضي الله عنه وهو يعذب في سبيل إسلامه وأنه توفي في السنة الرابعة للنبوة (و الله أعلم).

[2] هيام: إذا جعل بكسر الهاء والياء منه مخففة ، فهو مصدر والفعل منه هام يهيم ومعناه الحب. وإذا جعل بضم الهاء فهو إسم لأشدّ حالة في العشق ولهذا اللفظ معان أخرى منها شدّة العطش والحيرة وغير ذلك والمراد هنا هو المعنى الأول.

فتر فيه الوحي في حالة قلق أدّى به إلى أن صار يحاول أن يتردّى من شواهق الجبال ويلقي بنفسه من أعاليها إلى أسفل وفي كل مرة يحاول ذلك يتراءى له الملك "جبريل" فيصبّره ويبعث فيه ما يشدّ من عزمه ويطمئن فؤاده فكان يخاطبه: «يا محمد إنك رسول الله» فيسكن لذلك جأشه عليه الصلاة والسلام).

و في فترة الوحي هذه جاء من الأحاديث الصحيحة رواية عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «بينا[1] أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت[2] منه فرجعت فقلت: دثّروني! دثّروني! وفي لفظ آخر: زمّلوني! زمّلوني! فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾

فحمي[3] الوحي وتتابع» [جاء للبعض من العلماء في خطاب الله تعالى للرسول صلّى الله عليه وسلّم بالمزمّل والمدثّر أنّ من عادة العرب في ملاطفة المخاطب وإيناسه أن تخاطبه باسم مشتق من الحالة التي هو عليها إذ ذاك. ومن هذا ما خاطب به الرسول صلّى الله عليه وسلّم سيدنا عليّا رضي الله عنه حين نام وهو مغاضب وقد لعق به تراب فقال له: «قم يا أبا تراب». وجاء في نكتة أفراد النذارة هنا عن البشارة أنه لم تذكر البشارة لأنّ المقام يقتضي ذلك من حيث أنه لم يكن أحد قد استجاب للدعوة بعد وإنما البشارة لمن استجاب] وقد أخذ من هذا الحديث أن فترة الوحي هي

---

(1) بَيْنَ: من أسماء الظروف بمعنى وسط. وتزاد لها الألف -كما هنا- وقد تزاد معها ميم فيقال بينما ليدل ذلك على محذوف تقديره بين أوقات مشيي.

(2) الرعب: بضم الراء وفتحها مع إسكان العين هو الفزع والخوف والفعل منه مفتوح العين ماضيا ومضارعا.

(3) حَمِي يَحْمَي: من المكسور العين في الماضي المفتوح في المضارع ومصدره الحَمْيُ بفتح فسكون يستعمل في الشدّة والقوة في الشيء وعبّر به هنا ليقابل الفترة.

ما مضى من الوقت بين نزول الآيات الأولى من سورة العلق ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾... إلخ وبين نزول فواتح سورة المدثّر. ومن هذا قال البعض أن نبوته صلّى الله عليه وسلّم كانت بنزول آيات سورة العلق ورسالته كانت بنزول آيات سورة المدثّر (فيما يتعلق بالنبوة والرسالة وأول ما نزل من آيات القرآن روايات من الأخبار عديدة تبدو متعارضة أحيانا وتبع ذلك آراء وأنظار مختلفة فقيل أن كلا من النبوة والرسالة حصل له صلّى الله عليه وسلّم في وقت واحد كما قيل بأن أول ما نزل من الآيات هو فواتح من سورة المدثّر وقيل بل أوائل سورة القلم ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ... ﴾ ...إلخ.

و قيل نزل قبل المدثّر فواتح سورة المزمّل إلى غير ذلك من الأقوال ولمّا كان للنظر مجال للترجيح في هذا المحل فقد رجّح البعض ، بل الكثير - الصورة الآتية - أوّل ما سمع صلّى الله عليه وسلّم من الوحي وتلقّاه من الملك هو سورة الفاتحة كما تقدّمت الإشارة إليه في الرواية التي أفادت هذا الأمر وأنه تلقاه عن الملك قبل أن يتصل به ويضمه إليه. ثم كان اتصال الملك به اتصالا قويّا وضمه إليه وأوحى إليه بفواتح سورة العلق:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ... ﴾ ...إلخ. ثم بعد فترة الوحي وبعد استجماع قواه لتلقي أعباء الرسالة أوحى إليه بفواتح سورة المدثّر حسبما أفادته الرواية المشهورة عن جابر رضي الله عنه. وفور هذا قام عليه الصلاة والسلام بتبليغ الرسالة واستمرّ كذلك زمنا ما بصفة كأنها سريّة ليس فيها إشهار وإصداع..... ثمّ أوحي إليه صلّى الله عليه وسلّم بالأمر بإشهار الدعوة والجهر بها وذلك بالآية من قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ... ﴾ ... إلخ. فكان منه عليه الصلاة والسلام الإعلان بالدعوة والجهر بها وهذا هو ما تقتضيه سنّة التمهيد والتدريج ترقيا من القليل إلى الكثير ومن القوي إلى الأقوى وقد شوهد هذا في تشريع الأحكام وتوجيه التكاليف).

2- أقسام الوحي

و عبّر عنه البعض بلفظ: «مراتب الوحي» والمعنى بيان الكيفيات والحالات التي يتلقى فيها الرسول عليه الصلاة والسلام الوحي من ربّه عزّ وجلّ.

و من الروايات الصحيحة في هذا الباب رواية صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنّ الحرث[1] بن هشام سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كيف يأتيك الوحي ؟ »

قال: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة[2] الجرس ، وهو أشدّ عليّ فيفصم[3] عني وقد وعيت[4] ما قال. وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول». وقد أفادت هذه الرواية بيان حالتين لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتلقى به نزول الوحي. وقد جاء للعلماء في أقسام الوحي هذه كلام في تعداد هذه الأقسام بناء على ما ورد من الأخبار في ذلك.

وأشهر ما جاء في عدّ هذه الحالات أنّها ستة أقسام:

الأول: الرءيا المنامية ودليل هذا ما تقدم من حديث عائشة رضي الله عنها

---

(1) الحرث بن هشام المخزومي: ذكر صاحب الحلبية أنه أخو أبي جهل لأبويه وأنه أسلم إثر فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم ويعتبر في قومه أحد الأشراف الممتازين.

(2) صلصلة: مصدر صلصل بمعنى صوّت وهو تصويت بترجيع ورنّة. والجرس: بفتحتين وهو آلة للصلصلة يستعمل مجوفا من معدن يرنّ كالنحاس والحديد ويُدقّ عليه فيرنّ وله اسم آخر هو الجلجل بضم الجيمين وجمع الجرس أجراس وأمّا الجَرْس بفتح الجيم وكسرها مع إسكان الراء فله معان منها الصوت الخفي والقطعة من الشيء وبكسر الجيم خاصة يطلق على الأصل فيقال: هو من خير جرس أي أصل.

(3) مادة فصم من باب (ضرب) ومن معانيها الكسر والانقطاع يقال: أفصم المطر وأفصمت الحمى بمعنى الانقطاع والاقلاع وهو المراد هنا فالفعل هنا بضم الياء وكسر الصاد من المزيد بالهمزة بمعنى يقلع وزنا ومعنى.

(4) وعى ، يعي وعيا: كرمى يرمي رميا أصل معناه الجمع والحفظ والمراد هنا حفظ الحديث وتدبّره وتمام الإدراك لمعناه.

من قولها: «أوّل ما بدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي الرءيا الصالحة» إلخ.

و قد جاء من الأخبار في هذا ما يفيد أنّ رءيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلها حق ووحيَ من الله تعالى وأوضح ما يدلّ لهذا رءيا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في ذبح ابنه عليه الصلاة والسلام.

الثاني: الإلقاء في الرّوع[1] بمعنى أنّ الملك يلقي بالأمر في قلبه صلّى الله عليه وسلّم ويفضي إليه به من غير أن يكون ذلك برؤية للملك.

و يدلّ لهذا القسم ما جاء في خبر صحيح عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «إنّ روح القدس نفث[2] في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحمّلنّكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإنّ ما عند الله لا ينال إلاّ بطاعته».

الثالث: تمثُّلُ الملَكِ له في صورة رجل فيكلمه فيحفظ عنه ما يقول له وهي الصورة الثانية في حديث سؤال الحرث بن هشام المتقدم ذكره.

و هذا القسم دلت عَليه الأخبار المتواترة العديدة ويشهد له النص القطعي من آيات القرآن الكريم ففيه الدليل على أنّ الملَك يتمثل في صورة بشر وإذ ذاك تُمْكِنُ رؤيته لعامة الناس[3].

و من هذه الآيات ما جاء في سورة مريم عليها السلام عند ذكر حملها بعيسى عليه الصلاة والسلام في قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا

[1] الروع: بضم الراء يطلق على القلب والذهن والعقل.

[2] قيل في النفث أنّ أصل المعنى فيه هو النفخ بغير إخراج ريق فهو نفخ خفيف وجاء في تعريف روح القدس أنّه جبريل عليه السلام.

[3] المراد بعامة الناس غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد صحّ في روايات الأخبار أنّه كثيرا ما كان البعض من الصحابة يرى مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم رجلا يظنه دحيّة الكلبي*، أو غيره...ثمّ يخبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم عنه بأنّه جبريل.

فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾.

و في سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (9) ﴾[1].

و جاء في هذا العدد الجمّ من الأخبار يفيد أنه صلّى الله عليه وسلّم كان كثيرا ما يتلقى الوحي من جبريل عليه السلام متمثلا له في صورة أحد أصحابه رضي الله عنهم وهو دحية الكلبي (جاء في تعريف دحية بأنه بكسر الدال المهملة وإسكان الحاء المهملة ثمّ ياء مثناة تحتية وهو ابن خليفة من قبيلة كلب. وهو إنما أسلم بالمدينة. بل بعد غزوة بدر والأقرب أنّ الملك لم يتمثل بصورته إلاّ بعد إسلامه. وعليه فيكون تمثل جبريل قبل ذلك بصورة شخص آخر. وقد جاء أنّ دحية المذكور رضي الله عنه كان من أحسن خلق الله صورة وأجملهم منظرا).

و في بعض المرّات في صورة رجل غريب لا يعرفه أحد كما في حديث جبريل المشهور عندما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة ، وفي بعضها في صورة أعرابي وغير ذلك.

الرّابع: ما كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وهي الحالة الأولى المخبر عنها في حديث الحرث بن هشام وقد أخبر عنها صلّى الله عليه وسلّم بأنها أشد حالة فيما كان يتلقى فيه الوحي من الحالات (مما جاء من كلام البعض هنا أن الوحي كله شديد ولكن هذا القسم أشدّه وذلك لأنّ الملك يتلبّس به

(1) فعل "لبس" مفتوح اللام ماضياً مكسورها مضارعاً ومصدره اللبس بفتح أوله وسكون ثانيه، يستعمل في الاشتباه والاختلاط والخفاء ويتعدى بنفسه وبحرف "على" فيقال "لبس عليه الأمر" أي خفي واشتبه وأما المكسور في الماضي المفتوح في المضارع ومصدره اللبس بضم اللام فهو المستعمل في لباس الثوب. وقد فهم من آية الأنعام هذه أن الملك لا تمكن رؤيته على أصل خلقته لبني آدم. وانما تمكن إذا تمثّل في صورة واحد من جنسهم.

صلّى الله عليه وسلم تلبسا قويًّا فيقع له صلّى الله عليه وسلّم انسلاخ من الطبائع البشرية إلى الأوضاع الملكية.

و مما جاء من الروايات في هذا أيضا انه صلّى الله عليه وسلّم كان عند نزول الوحي عليه يسمع حوله صوت كدويّ النّحل يقول البعض أنّ هذا بالنسبة للسامع ممن يشاهد نزول الوحي وهو نفسه صلصلة الجرس بالنسبة لسمعه هو عليه الصلاة والسلام).

و هذه الحالة هي التي أفادت الأخبار بأنه صلّى الله عليه وسلّم كان يعاني فيها جهدا عظيما حتى أن جبينه ليتفصّد[1] عرقا في اليوم الشديد البرد وأنّ راحلته لا تطيق حمله إذا كان راكبها فربما بادر عليه الصلاة والسلام بالنزول عنها. وربما بركت به إلى الأرض. وقد حدث أن جاءه الوحي مرة على هذه الحالة وكان مسندا فخذه[2] صلّى الله عليه وسلّم إلى فخذ زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه. فأحس زيد بثقل على فخذه كاد يرُضُّها[3].

الخامس: رؤيته صلّى الله عليه وسلّم الملك على صورته الأصلية التي خلقه الله عليها. فيوحي إليه عند ذاك ما شاء الله أن يوحيه إليه.

وقد ورد عن هذا القسم أنه لم يقع له صلّى الله عليه وسلّم إلاّ مرّتين فقط.

المرة الأولى في أوائل البعثة عندما طلب عليه الصلاة والسلام من

---

[1] فعل فصد من باب (ضرب) وهو يرجع إلى معنى الشقّ والانشقاق في الأجسام يقال أفصدت الشجرة وانفصدت إذا انشقت عن عيون الورق ويقال أيضا تفصّد الدّم بمعنى سال وجرى وانفصد أيضا.

[2] الفخذ: بفتح فكسر وبفتح فسكون وبكسر فسكون ما بين الركبة والورك واللفظ بهذا المعنى مؤنث ، وأما الفخذ بفتح فسكون ولفظه مذكّر فيطلق على ما يسمى الحيّ الذي هو رتبة أقل من القبيلة في مراتب تقسيم الشعوب والجمع في الكلّ أفخاذ.

[3] رضى يُرضى: بالضم في المضارع والمصدر الرّض بالفتح بوزن ردّ وهو كسر الشيء ودقه من غير أن يكون الدق بليغا إلى درجة السحق.

جبريل أن يراه على صورته الأصلية فتجلّى له بها وشاهد عليه الصلاة والسلام من ذلك روعة عظيمة إذ قد رآه طلع من المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب (و ذكر في هذه الرواية أن هذا كان حول جبل حراء بعد فترة الوحي).

وجاء أن في هذه الرؤية غشي على الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى تمثل له جبريل في صورة آدمي وضمّه إليه فسكن روعه صلّى الله عليه وسلّم.

وجاء أن هذه المرّة في رؤية جبريل على خلقته الأصلية من طرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم هي المشار إليها بالآية من سورة التكوير: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[1] وإليها أيضا الإشارة بآية سورة النجم: ﴿فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦﴾[2] إلخ.

والمرّة الثانية التى رأى فيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم جبريل على صورته الأصلية هي الواقعة له ليلة الإسراء. واليها الإشارة بالآية من سورة النجم أيضا: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭﴾[3].

وفي كلتا المرّتين كان عليه الصلاة والسلام يتلقى وحيا من الله تعالى بواسطة جبريل.

---

(1) و بناء على هذا فإن الضمير الفاعل في (رآه) يعود على الرسول صلّى الله عليه وسلّم والضمير للمفعول يعود على جبريل وأن الأفق هو هنا بالأرض حول جبل حراء.

(2) وكذلك ما جاء في آية النجم فالضمير الفاعل في (استوى) يعود على جبريل والأفق الأعلى هو في الأرض وكذلك يقال في الضميرين من آية:

(3) النجم الثانية: ﴿و لقد رآه نزلة أخرى﴾ والمكان هنا هو فوق السماوات عند سدرة المنتهى وجميع ما ذكر في هذا هو قول الجمهور ومقابله قول من يرى خلاف هذا ومنه القول بأن المرئي هو الله جل شأنه وأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم رأى ربه مرة أو مرتين في ليلة المعراج ويظهر من مقال المحققين أن القول بإثبات هذه الرؤية هو الضعيف والمرجوح وإن تمسّك به البعض وحاول ترجيحه والله أعلم.

السادس: ما أوحاه الله إليه ليلة المعراج وهو فوق السموات وكان في هذا الوحي فرض الصلوات الخمس. كما جاء في بعض الروايات أنه كان فيه أيضا الوحي بالآيات الخواتيم لسورة البقرة ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ... ﴾ إلخ السورة (جاء في كلام بعض العلماء لبيان الوجه في كون سورة البقرة نزلت كلها بالمدينة ، والمعراج إنما كان بمكة قبل ذلك فكيف يتصور فهم نزول خواتيم السورة بموطن المعراج ؟

فجاء في ذلك قوله: ليس المراد أن الآيات نزلت عليه صلّى الله عليه وسلّم في مشهد المعراج بألفاظها المعروفة وإنّما المراد أنه أعطي له صلّى الله عليه وسلّم واستجيب له المطلوب من معنى تلك الآيات استجيب له صلّى الله عليه وسلّم ولأمّته مضمون تلك الآيات من الدعاء بالغفران وما بعده من تخفيف التكليف وعدم المؤاخذة بالخطأ والنسيان إلى آخر تلك المطالب التي ختمت بها السورة. وهذا واضح لمن تأمل لفظ رواية الحديث فإنّ فيه العبارة هكذا «أعطي خواتيم سورة البقرة». وليس فيه لفظ: أنزل عليه أو أوحي إليه بها أي بنفس اللفظ المتلوّ هذا وقد يقال بناء على ما جاء من اللفظ بصيغة النزول والوحي ، أنه لا مانع من أن تكون هذه الآيات مما تكرر نزوله كما قيل بذلك في عدة آيات من القرآن. والله أعلم بحقيقة ما هنالك).

وجاء في بعض الروايات أيضا أن في هذا الموطن كان الوحي أيضا ، من هذا القسم ، ببعض آيات من سورة "الضحى" وبالبعض من سورة "الانشراح".

ويفهم مما ذكر في هذا القسم أنه وحي منه تعالى لرسوله صلّى الله عليه وسلّم بغير واسطة ملك.

وجاء ، زيادة على ما ذكره من الأقسام الستة ، أن في الوحي إليه صلّى الله عليه وسلّم قسما سابعا وهو تكليم الله إياه كما كلّم موسى عليه

الصلاة والسلام. ومن أثبت هذا القسم جعل مستنده فيه روايات الأخبار الواردة في حديث الإسراء والمعراج وعلى أن تكليمه تعالى له صلّى الله عليه وسلّم كان في مشهد المعراج.

وجاء أيضا ، زيادة قسم ثامن وهو تكليم الله تعالى له صلّى الله عليه وسلّم مع الرؤية أي رؤيته صلّى الله عليه وسلّم لربّه عزّ وجلّ وذلك في مشهد المعراج أيضا.

و قد حكى البعض قول من يقول بأن أقسام الوحي تبلغ عدّة ستة وأربعين قسما (وكأنَّ من أوصل أقسام الوحي إلى ستة وأربعين قسما حاول بذلك المطابقة لما جاء في حديث: «الرءيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة». ويقول البعض في هذا أنه مجرّد مبالغة في التحليل لأقسام فرعيّة.

و أن الأصل هو ما تقدّم بيانه من كونها ستة أو سبعة أوثمانية على الأكثر والباقي مما يذكر على أنه قسم مغاير هو في الحقيقة فرع يرجع إلى واحد منها).

الدرس 17

تسليم الحجر والشجر عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

هذه آية تعدّ من أعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام ، أثبتها البعض من مؤلفي السيرة من طريق الروايات الإخبارية غير المتواترة كما تقدّم في الأخبار بالتبشير به صلّى الله عليه وسلّم قبل ظهوره. وذكرت هذه الآية على أنها تقدمت عن النبوة. كما ذكرت على أنها وقعت بعد نزول الوحي عليه صلّى الله عليه وسلّم.

فمن الروايات على أن ذلك قبل النبوّة رواية عن سمرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن».

وقد جاء عن هذا الحجر أنه الحجر الأسود ، كما جاء أنه حجر آخر بمكة في أحد أزقتها ويعرف بزقاق الحجر.

وجاء في رواية أخرى أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان من عادته إذا خرج لقضاء حاجة الإنسان أن يبعد عن البناء ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية. فلما كان أوان أراد الله كرامته بالنبوّة ، كان إذا خرج للحاجة لم يمر بحجر ولا شجر إلاّ سمع منه: «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله». فكان صلّى الله عليه وسلّم يلتفت يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا.

ومن الروايات على أنّ ذلك وقع بعد نزول الوحي عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

رواية رويت من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لمّا أوحي إليَّ جعلت لا أمرّ بحجر ولا شجر إلاّ قال السلام عليك يا رسول الله ».

ومنها الرواية الواردة في تعليم جبريل له صلّى الله عليه وسلّم الوضوء والصلاة أوّل ما علّمه ذلك في مبدإ النبوّة ، فقد جاء فيها أنه بعد ما علّمه الوضوء وصلّى به ركعتين ثمّ عرج إلى السماء ورجع الرسول صلّى الله

عليه وسلّم إلى أهله. فكان لا يمرّ بحجر ولا مدر[1] و لا شجر إلاّ وهو يقول: «السلام عليك يا رسول الله».

وضوءه وصلاته صلّى الله عليه وسلّم أوّل البعثة.

[أورد البعض من مؤلفي السيرة ممن اعتاد البسط وإيراد البحوث وحكاية أقوال العلماء المختلفة في هذا الباب من السيرة ما حاصله ملخصا: ففي موضوع الوضوء يرد القول بأنّ الآية التي دلّت على فرض الوضوء هي آية سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ...﴾ إلخ الآية.

و هي آية نزلت بالمدينة بالاتفاق. فيقول البعض في الجواب على هذا أنّ ما تضمنته آية المائدة المذكورة هو مما تقدّم حكمه على قرآنيته (و تلاوته). فالوضوء مكيّ المشروعية مدنيّ التلاوة.

و المراد بالمشروعية هنا الفرضية سواء على القول بأنّه لم يفرض إلاّ مع الصلوات الخمس ليلة الإسراء أو على القول بأنّه فرض قبل ذلك أي مع مبدإ الصلاة في أوّل البعثة أو مع فرض قيام الليل الذي دلّت عليه آيات سورة المزمّل وهو متقدّم كذلك على فرض الصلوات الخمس على المشهور.

و يقول آخرون أنّ الوضوء لم يشرع بوجه الفرضية إلاّ بآية المائدة وما كان قبلها كان مندوبا إليه بوجه الاستحباب والكمال. على أنّه قد ثبت أنّ من عادة العرب - وقبل الإسلام- الغسل من الجنابة والمداومة على المضمضة والاستنشاق والسواك.

وفيما يتعلّق بالصلاة يوجد القول الذي يقول بأنّ الركعتين بالغداة والعشيّ في أوّل ظهور الإسلام كانت شرعيتها بوجه الفريضة على الرسول

(1) المدر: بالدال المهملة وبفتحتين اسم للطين الخالص من الرمل وإطلاقه في الغالب على الأبنية. ومن ذلك جاءت مقابلته بالبدو. فيقال سكان المدراي القرى وسكان البدو أي الخيام المتنقلة. والمعنى المفهوم من الحديث كون عموم الأجرام القائمة كانت تسلّم عليه صلّى الله عليه وسلّم.

صلّى الله عليه وسلّم وعلى الأمّة ولم تنسخ إلاّ بالصلوات الخمس. بينما يقول آخرون أنّ فرضيتها خاصة به صلّى الله عليه وسلّم وقيام الأمّة بها إنّما كان بوجه التأسي به صلّى الله عليه وسلّم وليست فرضا عليهم.

وآخرون علىَ أنّها ليست فرضا مطلقا أي لا عليه صلّى الله عليه وسلّم ولا على الأمّة بل أوّل ما فرض على الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الصلاة هو قيام الليل الواردة به فواتح الآيات من سورة المزمّل.و قد جرى الخلاف أيضا في قيام الليل هذا من حيث كونه مفروضا عليه صلّى الله عليه وسلّم وعلى أصحابه - كما يفهم من عدّة روايات- أو هو فريضة خاصة بالرسول صلّى الله عليه وسلّم قيام أصحابه به إنّما كان أسوة به صلّى الله عليه وسلّم.

وعلى كل فمحل اتفاق الجميع هو أنّ الأمّة لم يبق شيء من الصلاة مفروضا عليها إلاّ الصلوات الخمس التي ثبتت مشروعيتها ليلة الإسراء. وكذلك المعروف أنّ قيام الليل استمرّت فريضته على الرسول صلّى الله عليه وسلّم مدى حياته خصوصية له عليه الصلاة والسلام من بين ما اختُصّ به من التكاليف] المستفاد من مجمل ما جاء من كلام العلماء هنا اعتمادا على مختلف الروايات الإخبارية أنّه صلّى الله عليه وسلّم أمر بالطهارة للصلاة وبالصلاة في أوّل مبدإ نبوّته وأنّه تلقّى ذلك بصورة تعليمية من ملك الوحي جبريْل عليه السلام وأنّ الصلاة كانت موقتة بوقتين هما الغداة والعشي وأنّها كانت ركعتين بالغداة قبل طلوع الشمس وركعتين بالعشي أي قبل الغروب. وأنّ القبلة فيها هي الكعبة بالمسجد الحرام. فكان صلّى الله عليه وسلّم يصلي ويأمر بذلك كل من استجاب للدعوة الإسلامية.

وإستمرّ الحال في الصلاة هكذا إلى أن فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء فنسخ حكم الصلاة الأولى.

ومن الروايات الواردة في هذا أنّ جبريل عليه السلام تبدى للرسول

صلّى الله عليه وسلّم وهو بأعلى مكة ، وفي لفظ: وهو بجبل حراء - في أوّل ما أوحي إليه صلّى الله عليه وسلّم- فتبدى له في أحسن صورة وأطيب رائحة وقال له: «يا محمد إنّ الله عزّ وجلّ يقرئك السلام ويقول لك إنّك رسولي إلى الجنّ والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلاّ الله محمد رسول الله».

ثمّ ركض[1] جبريل برجله الأرض فنبعت عين ماء ، فتوضّأ جبريل والرسول صلّى الله عليه وسلّم ينظر إليه ليعلّمه كيفية الطهور للصلاة ثمّ أمره أن يتوضّأ كما رآه يتوضّأ. ثمّ قام جبريل يصلّي مستقبلا[2] نحو الكعبة وأمره أن يصلّي بصلاته. فصلّى ركعتين ثمّ عرج إلى السماء.

ورجع الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى أهله فكان لا يمرّ بحجر ولا مدر ولا شجر إلاّ وهو يقول السلام عليك يا رسول الله.

حتى رجع إلى زوجه خديجة رضي الله عنها فأخبرها الخبر فغشي عليها من الفرح لذلك. ثمّ أخذ صلّى الله عليه وسلّم بيد خديجة فأتى بها العين فتوضّأ ليريها الوضوء ثمّ أمرها فتوضّأت وصلّى بها كما صلّى به جبريل عليه السلام.

ويذكر البعض أنّ ما أفادته هذه الرواية كان في نفس اليوم الذي فاجأه صلّى الله عليه وسلّم فيه الوحي بالآيات الأولى من سورة العلق فيقول ما حاصله أنّه صلّى الله عليه وسلّم صلّى أوّل صلاة في أوّل يوم نزل عليه فيه الوحي وأنّ خديجة رضي الله عنها صلّت في عشيّ ذلك اليوم.

ويظهر مما جاء لبعض آخر عدم التقيّد بمثل هذا التحديد والضبط لوقت قيامه صلّى الله عليه وسلّم بالصلاة أوّل بعثته. وإنّما الأمر المحقق

(1) ركض: مفتوح في الماضي مضموم في المضارع ومصدره الركض بفتح فسكون يأتي لازما ومتعديا ومن اللازم الغدو أي سرعة المشي ومن المتعدّي ما جاء هنا وهو بمعنى ضرب ، خاصا بالرجل أي أنّ الضرب بالرجل يطلق عليه لفظ الركض.

(2) ورد أنّ القبلة في صلاته صلّى الله عليه وسلّم كلها قبل الإسراء كانت هي الكعبة بالمسجد الحرام فلمّا فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء أمر عليه الصلاة والسلام باستقبال بيت المقدس في صلواته. ثمّ حوّلت القبلة إلى الكعبة أيضا بعد الهجرة كما هو معلوم.

هو مشروعية الصلاة في أوّل مبدإ الإسلام بوجه العموم.

و قد اشتهر أنّ أوائل الآيات من سورة المزمّل من أوّل ما نزل من القرآن حتى قيل بنزولها قبل المدثّر وفيها الأمر بقيام الليل وهو بمعنى الصلاة فيه.

أمّا الروايات الإخبارية بصلاته صلّى الله عليه وسلّم وصلاة أصحابه في أوّل ظهور الإسلام وقبل أن تفرض الصلوات الخمس التي عرف أنّها لم تفرض إلاّ في ليلة الإسراء الذي لم يعرف أنّه وقع قبل السنة العاشرة من النبوّة فقد جاء منها العدد البالغ حدّ التواتر.

الدعوة الإسلامية وأوّل الناس استجابة لها

بناء على المعروف بأن رسالته صلّى الله عليه وسلّم كانت بنزول الآية الأولى من سورة المدثّر بقوله سبحانه: «قُمْ فَأَنْذِرْ».فقد ورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم قام -على الفور- يدعو إلى الله وسلك في ذلك طريقة الإسرار بالدعوة وعرضها على كل من آنس فيه القبول والاستجابة ويقتضي هذا -طبعا- أن يكون التبليغ للأفراد دون الإشهار العمومي في الجماهير. وقد ورد أنّ هذه الطريقة في الدعوة استمرّ على العمل بها ثلاث سنوات.

وقد استجاب لدعوته صلّى الله عليه وسلّم هذه طائفة من الناس ذكورا وإناثا كانوا السابقين إلى اتباع الحق ونالوا فضيلة التقدّم على غيرهم في هذا المضمار. وتثبت الأخبار أنّ عامّة هؤلاء الناس كانوا ضعفاء الحال وأحداثا في السنّ (ضعفاء الحال من جهة المال والجاه. وإلاّ فالمعتقد أنّهم الأقوياء من الناحية المعنويّة وأنّهم كانوا النخبة ذات الفكر النيّر في الشعب مع تحرّر هذا الفكر من القيود التي كانت تعترض الآخرين ممن قعد عن الاستجابة للدعوة أو أحجم عن قبولها وهو يعلم أنّها الحق).

وقد جاء في تعيين أشخاص السابقين الأوّلين إلى الدعوة الإسلامية أسماء عدّة منهم. ويبدو أنّ ما أطبقت عليه الأدلّة المختلفة في تعيين أوّل من استجاب لدعوة الإسلام بصفة الأوّلية المطلقة هو القول بأنّه أمّ

المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فهي التي لم يسبقها أحد إلى الاستجابة لداعي دين الإسلام ولم يتقدمها إلى هذا غيرها على الإطلاق.

هذا وقد جاء للعلماء، في مسألة أوّل الناس إسلاما، عبارات متغايرة، فيقول البعض إنّ أوّل من آمن بالله هم أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويشتمل على زوجه خديجة رضي الله عنها وبناته اللاتي كنّ موجودات إذ ذاك ويظهر أنّهن الثلاث زينب ورقيّة وأمّ كلثوم لأنّ رابعتهنّ فاطمة الزهراء إنّما ولدت بعد الرسالة (أي في نفس السنة أو بعدها بنحو السنة وهذا بناء على المشهور المأخوذ به من أنّ أصغر بنات الرسول صلّى الله عليه وسلّم هي فاطمة رضي الله عنها خلافا لما يحكى من أنّ صغارهنّ غيرها).

وممن يشتمل عليه بيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم حين ابتداء الدعوة، عليّ بن أبي طالب الذي ضمه الرسول إليه وكفله ومولاه زيد بن حارثة وأم أيمن بركة الحبشيّة التي كانت مولاة لعبد الله والد الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهي زوج زيد بن حارثة.

وفي كلام بعض آخر ما معناه، الأورع والتحري أن لا يطلق القول في تعيين أوّل المسلمين بل يحسن أن يقال أوّل من أسلم من الرجال البالغين الأحرار هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومن الصبيان علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. ومن النساءخديجة رضي الله عنها. ومن الموالي زيد بن حارثة رضي الله عنه ومن العبيد بلال بن رباح رضي الله عنه.

وجاء في عبارة بعض آخر قوله: الأولى التوفيق بين الروايات في تعيين أوّل الناس إسلاما وتصديقها كلها فيقال أوّل من أسلم مطلقا خديجة رضي الله عنها لم يتقدّمها رجل ولا امرأة بإجماع المسلمين.

وأوّل ذكر صبي لم يبلغ الحلم أسلم وكان مستخفيا بإسلامه هو عليّ بن أبي طالب. وأوّل رجل بالغ عربي أسلم وأظهر إسلامه هو أبو بكر الصدّيق. وأوّل من أسلم من الموالي هو زيد بن حارثة رضي الله عنهم أجمعين.

أسماء بعض أفراد الطائفة السابقين

إلى إجابة الدعوة الإسلامية من الذكور والإناث

أثبت عامّة مؤلفي السيرة الأسماء الآتي ذكرها في طائفة السابقين إلى الإسلام. ويظهر أنّ ذلك ليس واقعا على سبيل الاستقصاء فقد يكون منهم من لم يذكر اسمه في هذا المحل.

فجاء في تعداد الذكور:

1)أبو بكر الصديق ، 2) عليّ بن أبي طالب ، 3) عثمان بن عفان ، 4) عبد الرحمن بن عوف ، 5)سعد بن أبي وقاص ، 6)الزبير بن العوام ، 7)أبو عبيدة عامر بن الجراح ، 8)سعيد بن زيد ، 9)طلحة بن عبيد الله ، 10)زيد بن حارثة ، 11)عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، 12)عبد الله بن مسعود ، 13)جعفر بن أبي طالب ، 14)أبو ذرالغفاري ، 15)أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، 16)بلال بن رباح ، 17)صهيب بن سنان ، 18)عمار بن ياسر ، 19)أخوه عبد الله ، 20)أبوهما ياسر ، 21)عامر بن أبي وقاص أخو سعد ، 22)عمران بن حصين ، 23)أبوه حصين ، 24)أنيس الغفاري أخو أبي ذر ، 25)عثمان بن مظعون ، 26)أخوه عبد الله ، 27)أخوه الثاني قدامة ، 28)خالد بن سعيد بن العاص ، 29)الأرقم بن أبي الأرقم.

و جاء في تعداد أسماء الإناث بعد خديجة(1) رضي الله عنها وبنات الرسول صلّى الله عليه وسلّم منها وهنّ ثلاث:

(2) زينب ، و (3) رقية ، و (4) أم كلثوم فذكرت (5) أمّ أيمن بركة الحبشية و (6) أسماء بنت أبي بكر الصديق ، و (7) فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوج سعيد بن زيد ، و (8) أمّ الفضل زوج العباس بن عبد المطلب ، و (9) سمية بنت خباط أم عمار بن ياسر ، و (10) أم أبي ذر الغفاري ، و (11) أم سلمة زوج أبي سلمة المذكور والتي صارت بعد ذلك أم المؤمنين. فجاء في تعداد الذكور تسعة وعشرون وفي الإناث إحدى عشرة.

الدرس 18

تعريف ببعض أشخاص السابقين إلى الإسلام

وبعض أخبار عنهم في بدء إسلامهم

جاء في التعريف بأبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّه ممن اشتهر بكنيته واسمه عبد الله ولقّب بالصدّيق وبالعتيق (أي كان يدعى بعتيق فقيل أنّ هذا كان اسماً له سمّته به أمّه. وعلى كل فهو لقب له قبل الإسلام. وأمّا الصديق فهو لقبه في الإسلام خلعه عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ومعلوم أنّ هذا الوصف له معنى خاص في اصطلاح الدين إذ هو يختص برتبة لأصفياء الناس كما تدلّ عليه الآية من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ...﴾. وهو ابن أبي قُحافة" عثمان. ومن الوارد أنّ إسلام أبيه وأمّه تأخر إلى يوم فتح مكة (و جاء في كلام البعض أنّ أمّ أبي بكر وهي أمّ الخير" أسلمت في السنة السادسة من الإسلام. فهي من السابقين).

و هو ينسب إلى قبيلة تَيْم" بن مُرّة القرشيّة وأنّه لم يكن من عامّة الشعب المغمورين. بل كان من الذوات البارزة في المجتمع القرشي، ومكان المشورة والتّدبير والاحترام.

و كان مع ذلك محببا في قومه من حيث كان على دماثة[1] خلق ومآثر جليلة في فعل المعروف والإحسان وبذل المساعدة المادية والأدبية للعموم.

و مما أهّله ، أيضا ، لهذه المكانة أنه كان على سعة في ذات اليد

---

(1) الدماثة: بفتح الدال المهملة مصدر دمث يدمُث بضم عينه في الماضي والمضارع ومعناه السهولة والليونة يقال أرض دمثاء أي لينة رخوة... وكما يقال الدماثة ، يقال الدُموثة.

(ماليًّا) إذ كان من حذّاق تجّار قريش. وزاد إلى ذلك ما كان عليه من علم أنساب العرب والبصر بأخبارها. ومما ورد هنا أنّ علم أنساب العرب وأخبارها انتهى في هذا الأثناء إلى اثنين في قريش هما أبو بكر الصدّيق وعقيل * بن أبي طالب. وكان أبو بكر يمتاز عن عقيل بكونه يتحاشى ذكر المثالب [1] بخلاف عقيل. فلهذا كان أبو بكر محببا في القوم ومحتلا مكانة التقدير والاحترام في قلوب الجماهير دون عقيل.

و كذلك جاء أنّ أبا بكر كان يمتاز بعلم تعبير الرؤى المناميّة. وهكذا ثبت أنّ أبا بكر كان- قبل الإسلام- على مكانة مرموقة فقد جمع إلى كرم الخلق ورجاحة العقل مزيّة الثقافة والبسطة في المال إلى قوّة في الشخصية مع لين جانب في المعاملة وميزة خاصة في عاطفة الرحمة والإحسان إلى الغير. وهذه مواهب قلّما تجتمع لفرد من الناس.

هذا ولمّا جاء الإسلام بنوره الوضاء أزاح الستار عن عبقرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكشف عن عظمة هذه الشخصية الفذّة. فإذا الرجل من عظماء الرجال في التاريخ البشري وقد كان في الإسلام- بحق- أعظم شخصية بعد الرسول عليه الصلاة والسلام وتبدو هذه العظمة في مآثره الجليلة التي امتاز بها عن غيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وكونها مآثر عليها طابع الفخامة وعلوّ الشأن وعزّة المنال.

و ممّا ورد ذكره من هذه المآثر أنّه رضي الله عنه لمّا أسلم أعلن الإسلام من فوره وأخذ يدعو الناس إليه ويبشّر به فكان عامّة فضلاء الصحابة السابقين إنّما أسلموا بدعاية أبي بكر رضي الله عنه.

و منها أنّ عامة المستضعفين من الموالي الذين أسلموا فاستهدفوا بذلك للتعذيب والتنكيل بهم من طرف مالكيهم من طغاة المشركين إنّما تخلّصوا من هذا العناء وتحرّروا من سيطرة الإرهاق الواقع بهم بفضل أبي

---

[1] المثالب: هي المعائب والفعل منه من باب (ضرب).

بكر رضي الله عنه. فقد كان يبذل الأموال الطائلة لمالكيهم مقابل تحريرهم من الرّق زيادة على ما كان يقوم به من المجهود الأدبي في سبيل ذلك.

و كلّما اشترى رقبة منهم واستخلصها من أيدي أولئك الباغين بادر بتحريرها فورا فبلغ عدد الموالي الذين أعتقهم من أيدي مشركي قريش إلى جمهور فيهم الرجال والنساء والأطفال.

و من مآثره في الإسلام التي عزّ منالها على غيره صحبته للرسول صلّى الله عليه وسلّم في طريق الهجرة وما قارن ذلك من مجهودات وأعمال كانت عديمة النظير في باب البرّ. وهكذا كان حاله رضي الله عنه حتى تبوّأ مقام الخلافة للرسول صلّى الله عليه وسلّم.

و لقد كان استخلاف الرسول له لإمامة الصلاة بالمسلمين أيّام مرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي توفيّ فيه وموقفه الفذّ الذي وقفه حين عظم الخطب وتبلبلت أفكار الصحابة بأجمعهم بموت الرسول صلّى الله عليه وسلّم الآية البالغة والإيذان الحق بأنه المرشّح الوحيد لمقام الخلافة عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

و كما كان له رضي الله عنه فضل الاختصاص بنشر دعاية الإسلام أوّل ما جاء ، كان له فضل الإختصاص بحماية الإسلام وحفظ بيضته عندما قامت الفتنة بارتداد بعض قبائل العرب وانتقاضها إثر وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم فكان الفضل في إخماد هذه الفتنة وإرجاع المياه إلى مجاريها يرجع إلى سياسة أبي بكر وفكرته الخاصة في علاج الموقف بالثبات والصمود في وجه الأحداث واتخاذ إجراءات الدفاع بعزم وحزم في درجة منقطعة النظير حتى مرّت العاصفة بسلام وبدا الإسلام إثرها كأقوى ما يكون.

و جاء من حديث بدء إسلام أبي بكر رضي الله عنه أنّه كان صديقا حميما للرسول صلّى الله عليه وسلّم من عهد الصبا ، وقد كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يكبره بنحو سنتين أو ثلاث من العمر. فكان كثير التردّد

على الرسول صلّى الله عليه وسلّم في منزله ومن أجل ذلك كان له اطلاع زائد على أحوال الرسول الخاصة.

و جاء في كلام البعض أنّ من الأسباب التي جعلت أبا بكر يبادر إلى اعتناق الإسلام أوّل ما عرضه عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم مرافقته للرسول في سفره إلى الشام واتصاله ببحيرى الراهب، الذي توسم إذ ذاك في الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه النبي المنتظر. وكان أبو بكر يلاحظ ذلك ووقع ذلك منه موقعا بليغا. فلمّا جاء الإسلام لم يتردّد أبو بكر في استجابة دعوته[1].

و قد تقدّم في حديث بدء الوحي أنّ أبا بكر شهد أيضا مجلس ورقة بن نوفل وما كلّم به الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما عرضته عليه خديجة رضي الله عنها، كذلك ذكر أنّ أبا بكر كان له اجتماع بأحد علماء أهل الكتاب ببلاد اليمن، وأشار هذا العالم إلى قرب ظهور النبي المنتظر الذي يخرج من الحرم المكي.

إلى غير ذلك من أخبار أخرى تحكي كلّها عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان من المفكرين الذين كانوا في تشوّق إلى ظهور نبيّ يبعث في الأمّة العربية، وأنّ زمان ذلك قد حلّ بالفعل (و من هذا جاء أنّ أبا بكر كان أحد الأفذاذ الذين لا يعبأون بديانة الجاهلية كزيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه، حتى ورد أنّه لم يقع منه أن سجد لصنم من أصنام القوم التي كانوا يقدّسونها).

و من الروايات التي جاءت في صورة إسلام أبي بكر أوّل ما أسلم أنّه رضي الله عنه كان في مجلس مع حكيم بن حزام* أحد أقرباء خديجة رضي

---

[1] يفهم من مقال الكثير أنّ هذه منقبة خاصة تضاف إلى خصائص أبي بكر رضي الله عنه وهي مبادرته باعتناق الإسلام.

فقد روي من الأحاديث عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلاّ كانت عنده كبوة* إلاّ ما كان من أبي بكر» وفسرت الكبوة بأنّها التوقف والتردد.

الله عنها وإذا بمولاة لحكيم جاءته فقالت له أنّ عمّتك خديجة تزعم في هذا اليوم أنّ زوجها نبيٌّ مرسل مثل موسى عليه السلام!فلم يكن من أبي بكر بعد سماعه هذا إلاّ أن انسلَّ من المجلس. فذهب من فوره إلى منزل الرسول صلّى الله عليه وسلّم فسأله عن خبره فقصّ عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم مضمون خبر ما جاءه من الوحي وأنّه رسول الله إلى الخلق. فكان جواب أبي بكر رضي الله عنه أن قال: «صدقت بأبي وأمّي أنت. وأهل الصدق أنت. وأنا أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله!» وكانت خديجة رضي الله عنها تستمع إلى هذا ، فدخلت وقدّمت التهنئة إلى أبي بكر بإسلامه. ومما قالته له: «الحمد لله الذي هداك يا ابن أبي قحافة!».

و مما جاء في هذه الرواية أنّ في هذا اليوم خلع الرسول صلّى الله عليه وسلّم على أبي بكر لقب "الصدّيق" بوحي من الله عزّ وجلّ.

هذا وقد تظافرت الأخبار على أنّ أبا بكر رضي الله عنه أعلن إسلامه من أوّل الأمر ، و زاد على ذلك بأن أخذ يدعو إلى الإسلام ويبشّر به. فكان جمع من فضلاء الصحابة رضي الله عنهم إنّما أسلموا بدعايته رضي الله عنه. وقد ذكر من هؤلاء الصحابة: عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوّام وأبو عبيدة عامر بن الجرّاح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبدالأسد.

و أمّا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه ، فقد كان معدودا من أفراد عائلة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقد ورد أنّ أبا طالب كان على قلّة من المال ثمّ توالت على قريش سنون ذوات قحط فارتأى الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يخفف عن أبي طالب من العيال لأنّه كان يعول عائلة عديدة الأفراد فدعا الرسول عمّه العباس قائلا له لنخفف عن أبي طالب فتضمّ إليك أنت جعفرا وأضمّ أنا عليًّا. ولما كلما أبا طالب في ذلك رضي على أن يتركا له الولدين الكبيرين وهما عقيل وطالب. فكفل العباس جعفرا وكفل الرسول صلّى الله عليه وسلّم علياً ، فكان أحد أفراد عائلة

الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وورد أيضا أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي سمّاه عليّا وحنكه [1] يوم ولادته. والذي جاء في مآثر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وفضائله ومناقبه لا يكاد يوجد لشخص آخر من الصحابة رضي الله عنهم ، وهو بالمقدار الذي لا يكاد يحصر عدّا. وقد جاء من صحاح الأخبار عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه لمّا زوّج إبنته فاطمة الزهراء من علي رضي الله عنهما قال لها: «**لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة، وأنّه لأوّل أصحابي إسلاما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما**» ومن خصائصه في السابقين أنه لم يتقدّم له شرك ، ولم يسجد لصنم قط ، إذأنّه كرّم الله وجهه اعتنق الإسلام حال طفولته. قيل كان له إذ ذاك من العمر ثمان سنين ، وقيل عشر.

و جاء في كلام بعض مؤلفي السيرة قوله: «و أمّا علي بن أبي طالب فلم يكن مشركا بالله -حين البعثة- لأنّه كان مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في كفالته كأحد أولاده يتبعه في جميع أموره. فلم يحتج أن يدعى للإسلام». ولعلّ ما في هذا المقال لا ينافي ما ورد في الرواية التي اشتهرت في بدء إسلام علي رضي الله عنه وهي الرواية التي تحكى أنّ عليّا رضي الله عنه دخل على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فوجده يصلّي مع خديجة رضي الله عنها. فسأل عن ذلك فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «هذا دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده وعبادته لا شريك له ، وأن تكفر باللاّت والعُزّى...إلخ».فتوقّف عليّ من حيث أنّه تعجّب من أمر عظيم لم يكن سمع به من قبل. واستكتمه الرسول صلّى

[1] حنك: هذه المادّة فعلها من باب "ضرب" ومن باب "نصر" ومن معانيها وضع الشيء داخل الفم. كما يقال احتنك الفرسَ أي جعل في فيه الرسَن والمراد هنا تحنيك الصبيّ أوّل ما يولد فيجعل في فيه ممضوغ التمر مثلا ليكون ذلك أوّل مذاق له قبل الرضاع. وقد ورد أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ألقم لسانه لعليّ يمصّه فكان له ذلك أوّل غذاء غذيّ به. وجعل بعد ذلك لا يقبل ثدي أمّه بل يتغذى بمص لسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم. واستمرّ الحال هكذا إلى مدّة ما.

الله عليه وسلّم هذا الأمر وأن لا يستعلن به للعموم. فتمهّل عليّ رضي الله عنه ليلته ، ثمّ أصبح من الغد ، فتقدّم بين يدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم معلنا إسلامه ومستجيبا للدعوة.

و مما جاء - هنا - أنّ عليًّا رضي الله عنه كان - بعد إسلامه - يخفي إسلامه خوفا من أبيه أبي طالب. وكان يرافق الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما يخرج إلى شعاب مكة ليصلي بها مستخفيا. واتفق - يوما - أن عثر عليهما أبو طالب وهما يصليان. فقال أبو طالب للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يا ابن أخي ما هذا الذي أراك تدين به ؟ » فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «**هذا دين الله وملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولا إلى العباد. وأنت أحقّ من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى. وأنت أحقّ من أجابني إلى الله تعالى، وأعانني عليه.**»

و كان جواب أبي طالب على خطاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم بما حاصله أنّه لا يرى في عمل الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا من بأس وأنّه ليعلم أنّ قوله حقّ غير أنّه لا يستطيع أن يفارق دين آبائه وما كان عليه أسلافه ثمّ أنّه أمر ابنه عليًّا بأن يطيع أمر الرسول ويتبعه في كلّ ما هو عليه.

و جاء في روايات أخرى أنّ أبا طالب بعد اطلاعه على ابنه عليّ يصلي مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم قائما على جانبه الأيمن ، أمر ابنه جعفرا أن يصلّي كذلك فقال له: «صلّ أنت جناح ابن عمّك يساره»و من هذا قيل أنّ إسلام جعفر رضي الله عنه كان بعد إسلام أخيه عليّ بقليل. وقد جاء أنّ جعفرا كان أكبر من عليّ بعشر سنين وأخوهما الثالث وهو عقيل كان يكبر جعفرا بعشر سنين أيضا. كما أنّ أخاهم الأكبر وهو **طالب*** كان يكبر عقيلا بعشر سنين...! وقد تأخر إسلام عقيل رضي الله عنه إلى حين فتح مكة. أمّا

طالب فلم يعرف خبره. وقد ذكر أنّه اختفى بصورة غامضة[1]. فلذا كان مجهول التاريخ.

و قد كان **لجعفر بن أبي طالب** رضي الله عنه مقام مرموق بين أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقد كان أبرز شخصية في جماعة المهاجرين الذين هاجروا الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة من الصحابة رضوان الله عليهم. وبفضله رضي الله عنه بما كان عليه من حسن سياسة ومقدرة في الدعاية للإسلام نجح المسلمون الذين نزلوا الحبشة واستمالوا إليهم النجاشي ملكها ، و وثقوا بينهم وبين شعب الحبشة رابطة المودّة والعطف. وقد بقي جعفر رضي الله عنه مع جماعة من مهاجري الحبشة بها إلى السنة السابعة للهجرة وبعد أن فتح الرسول صلّى الله عليه وسلّم خيبر. ولمّا قدم رضي الله عنه المدينة وأدخل بذلك عظيم السرور على الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يلبث طويلا ، وخرج في الجيش الذي وجّهه الرسول صلّى الله عليه وسلّم سرية إلى مؤتة[2] يقاتل الروم فاستشهد جعفر رضي الله عنه في جملة من استشهد بها من فضلاء الصحابة كزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة الأنصاري وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

وقد جاء إطلاق لقب "الطيّار" على جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بعد استشهاده بواقعة مؤتة وذلك عندما أخبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّ الله تعالى عوّضه عن ذواعيه اللتين قُطعتا في الوقعة ، جناحين يطير بهما في الجنّة.

و أمّا **زيد بن حارثة** فقد كان - كذلك - معدودا في جملة أفراد عائلة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فيكون إسلامه مقارنا لإسلام عليّ بن أبي

---

[1] و العبارة الواردة في هذا هي أنّ طالبًا اختطفته الجنّ. فلم يعثر له على أثر...؟ وورد في كلام البعض أنّ طالبا هذا فقد في وقعة بدر وكان في عسكر المشركين.

[2] مؤتة: بالهمز اسم لموضع قرب مدينة الكرك وهي جنوبي شرقي بحيرة لوط من أرض فلسطين. وكان تاريخ خروج هذا الجيش أواسط السنة الثامنة من الهجرة.

طالب رضي الله عنهما، وذلك لأنه كان غلاما مملوكا لخديجة رضي الله عنها ووهبته للرسول صلّى الله عليه وسلّم فأعتقه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ زاد فتبنّاه حسب العادة التي كانت معمولا بها إذ ذاك قبل الإسلام. وبقي حكم هذا التبني جاريا في الإسلام مدّة حتى نزل القرآن بإبطال هذه العادة. وبقي - على كل حال - لزيد رضي الله عنه شرف هذه الصلة الخاصة بالرسول صلّى الله عليه وسلّم.

و جاء من التعريف بزيد بن حارثة رضي الله عنه أنه زيد بن حارثة بن شرحبيل ينسب إلى قبيلة كلب، وأنّ أمّه سعدى من قبيلة طي.

و جاء في خبر استرقاقه أنّ أمّه ذهبت به - وهو - غلام نحو ثمان سنين زائرة لأخواله بني معن، فأغارت عليهم قبيلة بني القين. فوقع زيد في جملة السبي فبيع بسوق عكاظ. وكانت خديجة رضي الله عنها قبل تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بها كلّفت ابن أخيها حكيم بن حزام أن يشتري لها غلاما يكون ظريفا عربيًّا. فصادف زيدًا يباع فاشتراه لها. فكان عندها. فلمّا تزوّجها الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأعجبه زيد وهبته له.

و هذه هي الرواية المشتهرة في تملّك خديجة لزيد.

و جاء في رواية أخرى أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي اشتراه لخديجة بعد تزوّجه بها.

و تحكي هذه الرواية أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال لخديجة يوما: " لقد رأيت الساعة غلاما بالبطحاء أوقفوه ليبيعوه ولو كان لي ثمنه لاشتريته".

قالت: "و كم ثمنه ؟ قال سبعمائة درهم".

قالت: "خذ سبعمائة درهم فاذهب فاشتره". فاشتراه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وجاء به إليها، وهو معجب به، فقال لها: "لو كان لي لأعتقته". قالت: "هو لك". فأعتقه الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

و جاء في الأخبار أنّ أولياء زيد كانوا يتحسّسون[1] خبره بعد السبي جاهدين أن يعثروا عليه ليفتدوه حتى اتفق -يوما- أن مرّ زيد بأرض قومه قاصدا الشام يتجر في إبل لأبي طالب. فوقع عليه نظر عمّه **كعب بن شرحبيل** *. فعرفه على اشتباه. فسأله السؤال الآتي ليتحقق منه قال: من أنت يا غلام؟ قال: غلام من أهل مكة. قال: من أنفَسهم[2] أنت؟ قال: لا! قال: فحرٌّ أنت أم مملوك؟ . قال: مملوكا. قال: عربيٌّ أنت أم أعجميّ؟ قال: بل عربي. قال: ممن أهلك؟ قال: من كلب. قال: من أيّ كلب؟ قال: من بني عبد ودّ. قال: ويحك! ابن من أنت؟ قال: ابن حارثة بن شرحبيل. قال: فأين أصبت؟ قال: في أخوالي. قال: ومن أخوالك؟ قال: طيّ. قال ما اسم أمّك؟ قال: سعدى. فعند ذلك التزمه[3] و صاح بأخيه: «يا حارثة هذا ابنك!» فجاء أبوه حارثة. فجعل ينظر إليه فعرفه. فقال له: كيف صنع[4] مولاك إليك؟ قال: يؤثرني على أهله وولده وقد رُزِقْتُ منه حبًّا ، فلا أصنع إلاّ ما شئت وحينئذ ركب معه أبوه وعمّه وأخوه وقدموا مكة لمقابلة الرسول صلّى الله عليه وسلّم في شأنه. (و جاء في بعض الروايات أنّ خبر مقام زيد عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم بلغ أهله بواسطة الحجاج الذين حجّوا ورجعوا إلى بلاد كلب. فأخبروا بذلك أهله. وهذا لا ينافي الرواية التي تفيد اجتماع عمّه وأبيه به في طريق سفره).

---

(1) تحسّس الأخبار: بمعنى طلب معرفتها. وقد قيل أنّ التحسس بالحاء المهملة يستعمل في أخبار الخير خاصة. والتجسس بالجيم يستعمل خاصة في خبر الشرّ ، بمعنى أنّ الأوّل في كلّ ما هو محمود ، والثاني فيما هو مذموم.

(2) أنفسهم: بفتح الفاء بصيغة أفعل التفضيل ، بمعنى عليّة القوم وأشرافهم. وما جاء في هذه الرواية من أخبار زيد عن نفسه بأنّه مملوك ليس بحرّ لا ينافي ما في مشهور الروايات التي تحكي أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أعتقه بمجرّد شرائه أو تملّكه إذ يحتمل مقال زيد الجري على الأصل من صلته بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وسببها وما ذلك إلاّ كونه عبدا.

(3) مرّ في الجزء الأوّل أنّ لفظ الالتزام من معناه الاعتناق ، وهو المراد هنا أيضا.

(4) الظاهر أنّ لفظ صنع بصيغة المصدر والمراد منه المعاملة.

و جاء في صورة مقابلة أبي زيد وعمه للرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّهما لمّا وصلا مكة سألا عن مكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم فوجداه بالمسجد. فلمّا دخلا عليه قالا: «يا ابن عبد المطلب! يا ابن هاشم ، يا ابن سيّد قومه! أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكّون الأسير العاني وتطعمون الجائع جئناك في ولدنا عندك فامنن علينا وأحسن في فدائه. فإنّا سندفع[1] لك». فقال لهما الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «و ما ذاك ؟ »قالا: «زيد بن حارثة!» قال: «أو غير ذلك ؟ » قالا: «و ما هو ؟ » قال: «ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على الذي اختارني فداء». فقالا: «زدتنا على النصف[2] وأحسنت!» ثمّ دعا الرسول صلّى الله عليه وسلّم بزيد فسأله من هذان؟ فقال: هذا أبي حارثة بن شرحبيل ، وهذا عمي كعب بن شرحبيل. فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأنا من علمتَ وقد رأيتَ صحبتي لك فاخترني أو اخترهما.

فقال زيد -والدمع يتساقط من عينيه- «ما أنا بالذي أختار عليك أحدا. أنت منّي مكان الأب والعمّ!» فخاطبه أبوه وعمّه: «ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية ؟ وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك ؟! » ، قال: «نعم! ما أنا بالذي أختار عليه أحدا!»[هذا كالذي سبق قريبا ليس فيه منافاة للخبر الذي أفاد أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان أعتق زيدا قبل هذا الوقت. فقد يكون الرجلان أطلقا لفظ العبودية على مجرّد الصلة التي كان أصلها العبودية لما يحتمل أنهما لم يكونا يعلمان أنه أعتق على أنّه قد ورد في بعض الروايات أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان قد أعتق

(1) هكذا في بعض النسخ بالدال وفي نسخ أخرى ما صورته: "فإننا سنرفع لك في الفداء". وهذا ما يظهر انّه الأتمّ فائدة.

(2) النصف بكسر النون وسكون الصاد. وقد تفتح وتضم النون أيضا من معانيه - وهو المراد هنا- العدل والإنصاف. وقد جاءت صورة هذه الجملة أيضا هكذا: "رددتنا إلى النصف".

زيدا وتبنّاه قبل مجيء أبيه وعمّه بمدّة طويلة غير أنّه لم يشهد بذلك في الملإ من العموم. فلمّا وقع أن قدم أولياء زيد وجرى ما جرى من تخيير زيد، واختياره المقامِ مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أعلن الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما كان سبق من أمر العتق والتبني. وأكّد ذلك بإشهاره والإشهاد عليه.]

و عند هذا قام الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأخذ بيد زيد يطوف به على الجماعات من قريش في أنديتهم يشهد الناس على تبنِّيه له قائلا: «هذا زيد ابني وارثًا وموروثًا».

فكان لهذا الإجراء من الرسول صلّى الله عليه وسلّم تجاه زيد البالغ نهاية العطف والامتنان الأثر البليغ في إرضاء أبيه وعمّه، وطابت أنفسهما لمقامه مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وانصرفا أشدّ ممنونية للرسول صلّى الله عليه وسلّم ممّا لو كان أجابهما لمطلبهما في تسليم زيد لهما.

و قد جاء في كلام البعض أنّ **حارثة***أسلم فيمن أسلم أخيرا بعد عهد السابقين. وكذلك ورد أنّ أخا زيد المسمى **جبلة***أسلم هو أيضا كذلك، وهو أكبر سنا من زيد. وقد أثر عنه أنّه سئل يومامن الأكبر منكما؟ أنت أم زيد؟ فأجاب: «زيد أكبر مني. وأنا ولدت قبله!» (النكتة في هذا هي توقير زيد لسبب واحد، وهو سابقيّته للإسلام).

و لمّا تبنّى الرسول صلّى الله عليه وسلّم زيدا صار يعرف بزيد بن محمد. ولم ينزع عنه هذا التعريف إلى أن نزلت شرعة إبطال التبنيّ وذلك في حادثة تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بزينب بنت **جحش*** مطلّقة زيد بن حارثة، وهي حادثة مشهورة في التاريخ الإسلامي وكانت في السنة الرابعة من الهجرة. وقد كان تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بزينب بنت جحش وهي مطلّقة زيد بن حارثة الذي كان ابنا الرسول صلّى الله عليه وسلّم بحكم العادة المعمول بها إذ ذاك. كان هذا التزوج تكليفا من الله تعالى لرسوله صلّى الله عليه وسلّم لتأكيد وتدعيم شرعة إبطال عادة التبنّي

الجاهلية (سيأتي عند التعرض لذكر أحداث السنة الرابعة من الهجرة مزيد بسط وبيان لهذه المسألة المشتملة على تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بزينب بنت جحش وإبطال عادة التبنّي).

و قد جاء في نفس الآيات التي نزلت بإبطال عادة التبنيّ ذكر اسم زيد بن حارثة باسمه الصريح ، الأمر الذي لم يكن لغيره من أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وهي الآيات من سورة الأحزاب في قوله عزّ وجلّ:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ويقول البعض من العلماء إنّ من حكمة ذكر زيد بن حارثة في آيات القرآن باسمه الصريح دون سائر الصحابة التعويض عمّا فقده من لقب الابن للرسول صلّى الله عليه وسلّم. وكان ذلك شرفا له على كلّ حال. فاكتسب- عوضه- شرف ذكر اسمه في آيات القرآن يتلى ويذكر على ممرّ الأجيال والأزمان.

و لمّا استقرّ زيد بن حارثة بمقامه مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم زوّجه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمولاته أمّ أيمن بركة الحبشية. فكانت هي أمّ ولده أسامة* الذي صار من أفاضل شبّان الصحابة حتى بلغ من شأنه أن ولاّه الرسول صلّى الله عليه وسلّم أميرًا على جيش كان فيه من عامّة العسكر شيوخ الصحابة وأعيانهم كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأضرابهما. وهو آخر جيش عقد الرسول صلّى الله عليه وسلّم لواءه في حياته إذ كان في ظرف مرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي توفي فيه وتعطّل خروجه إلى ما كان يقصد إليه من أرض الروم بسبب وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى تمت البيعة بالخلافة لأبي بكر الصديق ، فأنفذه. ولم يكن ليسوغ لأبي بكر أن يتخلّف عن الخروج في هذا الجيش نظرا لمقامه في الخلافة المقتضي ضرورة هذا التخلف ، إلاّ بعد أن طلب الإذن بذلك من أمير الجيش أسامة بن زيد وأذن له.

و مما صحّت به الأخبار في فضل زيد بن حارثة أيضا أنّه كان يطلق عليه لقب "حِبّ[1] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم" كما أطلق - أيضا - على ابنه أسامة ، فقيل فيه: "حِبّ رسول الله وابن حِبّه". وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّ زيد بن حارثة رضي الله عنه استشهد في واقعة مؤتة. وكان هو الأمير الأوّل الذي عيّنه الرسول صلّى الله عليه وسلّم لهذا الجيش. ثمّ جعفر بن أبي طالب. وثالثهم عبد الله بن رواحة الأنصاري. وقد استشهد الأمراء الثلاثة في هذه الواقعة رضي الله عن الجميع. [تفيد الأخبار أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا وجّه هذا الجيش عيّن لقيادته الأمراء الثلاثة على الترتيب قائلا: «زيد فإن أصيب فجعفر ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فإن أصيب فالله تعالى يولّي عليكم أميرا...» فكان الأمر كذلك. أصيب الثلاثة واجتمعت بعدهم الكلمة على تولية **خالد بن الوليد***. فهو الذي أتمّ المأمورية ورجع معزّزا منصورا بعدما أبلى البلاء الحسن في هذه الموقعة. ومن يومها خلع الرسول صلّى الله عليه وسلّم على خالد رضي الله عنه لقب "سيف الله"].

و أمّا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقد وردت الأخبار بأنّه من جملة الجماعة الذين دخلوا الإسلام بدعاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ونسبه في قريش يرجع إلى بني أميّة. وشأنه في الإسلام معروف ، إذ هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو ثالث الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم وعن سائر أصحاب رسول الله أجمعين. وعثمان بن عفان رضي الله عنه - كباقي أفراد فضلاء الصحابة - له خصائص في الفضل ومزايا من الشرف امتاز بها - منها الإنفاق الواسع في سبيل الله. ومنها مقامه الملحوظ في الحلم والمرحمة والروح المسالمة. وقد عرف من خصائصه أنّه تزوّج بابنتين من بنات الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، الأولى رقيّة رضي الله عنها. ثمّ بعد

---

[1] الحِبّ: بكسر الحاء المهملة وصف يطلق على المحبّ كما يطلق على المحبوب. ولعلّ المعنى الأخير هو المراد هنا.

وفاتها زوّجه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأختها أمّ كلثوم رضي الله عنها. فلمّا توفيت أمّ كلثوم أيضا تأسف الرسول صلّى الله عليه وسلّم ان لم يكن له بنات الآن. وأبدى عليه الصلاة والسلام أنّه لو كان له من البنات العدد العديد لزوّجهن من عثمان كلهن لو قدّر لعثمان أن يحتاج للزواج المرات المتكررة بعددهن.

و قد عرف عثمان رضي الله عنه بلقب "ذي النُّورَيْنِ" وذلك للمزيّة المذكورة من تزوّجه بابنتيْ الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقد قيل أنه لم يسمع فيما عرف من التاريخ عن رجل تزوّج بابنتيّ نبيٍّ غير عثمان بن عفان رضي الله عنه.

و جاء من حديث بدء إسلام عثمان رضي الله عنه أنه قال: «أخبرتني خالتي **سعدى بنت كريز العبشمية*** (العبشمية نسبة إلى عبد شمس) أنّ الله تعالى أرسل محمدا صلّى الله عليه وسلّم وحثتني على اتباعه. وكان لي مجلس من أبي بكر الصديق رضي الله عنه فجئته فأصبته وحده. وصرت متفكرا. فسألني عن تفكري فأخبرته بما سمعت من خالتي فحثّني أبو بكر ورغّبني في الإسلام.» (يلاحظ على ما جاء في هذه الرواية أنه ينبني عليه أن سعدى هذه تعدّ في السابقين إلى الإسلام. بل من أسبق السابقين مع أنها لم تذكر في جملة النساء اللائي سبقن إلى الإسلام في باب ذكر السابقين).

يقول عثمان رضي الله عنه: «و ما كان بأسرع مِن أنْ مرَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه عليٌّ رضي الله عنه يحمل له ثوبا. فقام أبو بكر إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فسارّه. فقعد النبي صلّى الله عليه وسلّم ثمّ أقبل عليّ فقال: «أجب الله تعالى إلى جنّته فإنّي رسول الله إليك وإلى جميع خلقه.» قال عثمان رضي الله عنه: فما تمالكت حين سمعته أن قلت أشهد أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّك رسول الله!».

و جاء في الأخبار أنّ عثمان بن عفّان رضي الله عنه أوذي وعذّب عندما أسلم وأظهر إسلامه. فقد ورد أنّ عمّه الحكم بن أبي العاص بن أمية

أخذه - لمّا أظهر إسلامه- فأوثقه كتافا ، وأقسم أن لا يحلّ وثاقه إلاّ بعد أن يرجع عن الدين الجديد (دين محمد صلّى الله عليه وسلّم). فقابله عثمان رضي اللهِ عنه بصلابة وثبات مما جعل محاولة عمّه المذكورة ضربا من المستحيل وأيس منه فترك سبيله.

و من الجماعة الذين أسلموا بدعاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه الزبير بن العوّام ونسبه في قريش يرجع إلى قبيلة بني أسد بن عبد العزى وهي قبيلة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها. والزبير رضي الله عنه أحد العشرة الفضلاء من الصحابة المبشرين بالجنة.

و قد حاز من ألقاب الشرف في الإسلام لقب "حواريّ[1] رسول الله". وله فضائل وخصائص في الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، خبرها مشهور في التاريخ الإسلامي. وقد جاء من أخبار بدء إسلامه أنّه رضي الله عنه ممن عذّب وأُوذي عند إعلان إسلامه ، فورد أنّ عمّه عذّبه لذلك بتدخين الدخان عليه ، فلم ينل ذلك من عزيمته شيئا.

و من الذين أسلموا بدعاية أبي بكر أيضا عبد الرحمن بن عوف ونسبه في قريش يرجع إلى قبيلة بني زهرة قوم آمنة والدة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وهو رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وله - كباقي أفراد هذه الطبقة الممتازة من الصحابة- مناقب وخصائص عزيزة المنال سامية المقام ، منها أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم خلع عليه لقب "الأمين". فقد ورد من الأخبار عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول لعبد الرحمن بن عوف "أنت أمين في أهل الأرض ، أمين في أهل السماء!"».

---

[1] الحواري: بصيغة النسبة إلى الحوار بفتح الحاء المهملة وتخفيف الواو. ومن أصل المعنى فيه الصفاء وبياض اللون الناصع. وعرف إطلاقه على الفئة من الرجال الذين اتبعوا عيسى بن مريم عليهما السلام ، وأخلصوا له وناصروا دينه الحق. ومن هذا المعنى أطلق على الزبير رضي الله عنه. فهو بمعنى المخلص المناصر.

و خبر بدء إسلام عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تقدّم ذكره في حكايات الأخبار الواردة في شأن مبعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم والتبشير به ممّا جاء من كلام حكماء العرب وكهانهم. وذلك هو خبر **عكلان * الحميري**. فقد سمع عبد الرحمن بن عوف خبر مبعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم من عكلان المذكور ، وهو من حكماء العرب بأرض اليمن. ورجع بذلك إلى مكة. فاجتمع بأبي بكر الصديق. وحكى له الخبر. فدلّه الصدّيق على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أوّل ما بدأ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يدعو إلى الدين خفية. فأسلم عبد الرحمن رضي الله عنه إذ ذاك.

قيل والرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي سمّاه بعبد الرحمن[1] بعد إسلامه إذ لم يكن اسم عبد الرحمن مستعملا ولا معروفا لدى جاهلية قريش.

و من الذين أسلموا بدعاية أبي بكر أيضا:

— سعد بن أبي وقاص ، وهو من قبيلة بني زهرة كعبد الرحمن بن عوف ، ومن العشرة المبشرين بالجنّة. وله - رضي الله عنه- مزايا في الفضل والشرف. وخصائص ومآثر معروفة في سجلّ التاريخ. وقد ورد أنّه أوّل رجل أراق دما في سبيل الله.

و ذلك في حادثة اصطدام بينه وبين المشركين بمكة أوائل بدء الإسلام ، كما سيأتي حكاية هذه الحادثة قريبا. ومن الأخبار عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه عليه الصلاة والسلام رأى ذات يوم سعدا مقبلا على مجلسه صلّى الله عليه وسلّم مع أصحابه ، فقال صلّى الله عليه وسلّم في معرض المباهاة والملاطفة لسعد رضي الله عنه: «**هذا سعد خالي! فليرني امرؤ خاله!**» وجاء في بدء إسلام سعد رضي الله عنه أنه تلاقى مع أبي بكر ، فعرض عليه أبو بكر عقيدة الإسلام ورغّبه فيه ، ثمّ ذهب به إلى

---

(1) الوارد أنّ عبد الرحمن بن عوف كان قبل الإسلام يدعى "عبد الكعبة". وقيل " عبد عمرو"

الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فكان بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين سعد حديث وسؤال في شأن الإسلام انقاد بعده سعد إلى الإسلام، وشهد شهادة الحقّ من حينه.

وَ مما جاء أيضا في إسلام سعد رضي الله عنه أنّه كان من أبرّ الناس بأمّه [1]. و لمّا علمتْ أمُّه بإسلامه، ساءها ذلك، فكانت تعترض عليه في هذا. ومن جملة ما قالت له يوما: «ألست تزعم أنّ الله يأمرك بصلة الرحم وبرّ الوالدين ؟ » فقال: «نعم!»فقالت: «فأنا - والله- لا أكلت طعاما ولا شربت شرابا حتى تكفر بما أنت عليه من هذا الدين المحدث.»(هذه هي العادة المعروفة باعتصاب الجوع. تبدو قديمة جدا ولازال العمل بها حتى عصرنا).

و ورد أنّها واصلت هذا الإضراب عن الطعام والشراب حتى كان أهلها يفتحون فاها فيلقون فيه شيئًا من طعام. واستفتى سعد رضي الله عنه الرسول صلّى الله عليه وسلّم في قضية أمّه هذه. فأنزل الله الآية من قوله سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ ﴾ [2]. فورد عن سعد رضي الله عنه أنّه قال: «فلما رأيت ذلك (أي صلابة أمّه في إضرابها عن الطعام) قلت لها تعلمين - والله- يا أُمّه لو كان لكِ مائة نفس تخرج نفسا نفسا ما تركت دين محمد فكلي إن شئت، أو لا تأكلي!» قال سعد: «فلمّا رأت ذلك مني تراجعت فأكلت».

و جاء في رواية أخرى عن سعد رضي الله عنه يقول: أُخْبِرَتْ أمي بأنني كنت أصلي العصر (وهما الركعتان بالعشي) فجئت فوجدتها على بابها تصيح: ألاَ أعوان يعينونني عليه من عشيرتي أو عشيرته. فأحبسه وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدَث ؟ قال سعد: فرجعت من

---

[1] جاء من التعريف بأمّ سعد هذه أنها حمنة* بنت أبي سفيان ابن أمية بن عبد شمس.

[2] هذه الآية هي آية سورة العنكبوت. و مثلها آية سورة لقمان، و آية سورة الأحقاف، و كل في الإحسان إلي الوالدين- و خصوصا الأم - من غير طاعتهما فيما يمسّ بالدين و لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

حيث جئت ، وقلت لها لا أعود إليك ولا أقرب منزلك. فهجرتها حينا. ثمّ أرسلتْ إليّ: أن عُدْ إلى منزلك ولا تتضيفنَّ الناس فيلزمنا عار. فرجعت إلى المنزل. وكنت معها مرّةً تلقاني بالبِشْرِ ومرّة تلقاني بالشرّ. وكانت تعيرني بأخي عامر وتقول هو البَرّ لا يفارق دينه ، ولا يكون تابعا. وما كان بأسرعِ من أن أسلم أخي عامر هو أيضا. فلقي منها ما لم يلق أحد من الأذى والصياح عليه حتى هاجر إلى الحبشة.

و يحكي سعد عمّا لاقاه أخوه عامر -رضي الله عنهما- من أمّه لمّا أسلم فيقول: «ولقد جئت يوما والناس مجتمعون على أمي وعلى أخي عامر ، فقلت ما شأن الناس ؟ فقالوا: هذه أمّك قد أخذت أخاك عامرا وهي تعطي العهد أن لا يظلّها سقف ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صبأته [1]».

قال سعد رضي الله عنه فقلت لها ، والله يا أمّه لا تستظلّين ولا تأكلين ، ولا تشربين حتى تتبوّئي مقعدك من النار.

و من السابقين إلى الإسلام وبدعاية أبي بكر الصديق طلحة بن عبيد الله التيمي نسبة إلى قبيلة تيم بن مرّة من قريش ، وهي قبيلة أبي بكر. وطلحة هذا رضي الله عنه أحد خواصّ الصحابة رضي الله عنهم. وأحد العشرة المبشرين بالجنّة. وله -كباقي أصحاب هذه الرتبة من الصحابة- مزايا ومناقب ومآثر مشهودة جعلته محل الاغتباط من جمهور أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

و من ألقاب الشرف والفضل التي ورد الخبر بأنّ طلحة كان يلقب بها في عهد الإسلام " طلحة الخير" و" طلحة الجود" و" طلحة*الفيّاض ".

---

(1) الصَّبْأة: اسم من فعل صبَأ يصبَأ بفتح الماضي والمضارع وصَبُؤَ يصبُو بالضم فيهما أيضا. والمصدر الصَّبْء بفتح فسكون. والصُّبُوء بضم الصاد. والمعنى فيه الخروج من دين إلى دين. وقد كثر نقل هذه الكلمة في كلام مشركي قريش يلزمون بها كل من أسلم. وجاء في بعض النسخ " الصبوة " بالواو من دون همز. وقد تقدّم ذكر معناه وهو الجهالة والميل مع الهوى.

(جاء في كتب السيرة تناقل التنبيه الذي أفاده بعض الحفاظ وهو أنّه قد ورد في الأخبار عن رجل كان يعدّ في الصحابة واسمه طلحة بن عبد الله التيمي وأنّه صدر منه ما يعدّ سوء أدب تجاه مقام النبي صلّى الله عليه وسلّم. وبسبب ذلك نزلت الآية من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

فهذا الرجل قد أشبه - في الاسم واسم الأب والنسبة- السيد طلحة بن عبيد الله التيمي ، أحد فضلاء الصحابة. ولذا وجب التنبيه على أنّ من قيل أنّ الآية المذكورة نزلت فيه ليس هو طلحة المشهور ، المبشّر بالجنة ، المعدود في السابقين إلى الإسلام).

و جاء من حديث بدء إسلام طلحة رضي الله عنه الرواية المتقدّمة الذكر في باب أخبار الرهبان عن أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم قبل ظهوره. وفيها يقول طلحة أنّه سمع راهبا بسوق بصرى من أرض الشام يسأل أهل مكة عن خروج نبي في الحرم واسمه أحمد ، وأنّ هذا زمنه. فوقع ذلك من قلب طلحة موقعا ذا أهميّة بالغة. فلما رجع إلى مكة سأل عن الخبر واتصل بأبي بكر ، فأخبره أبو بكر بمبعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وأدخله على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فأسلم طلحة حينئذ.

و قد جاء في الأخبار أنّ طلحة وأبا بكر لمّا تظاهرا بالإسلام أخذهما نوفل بن العدوية *-وهو زعيم قبيلة بني تيم إذ ذاك- فاعتقلهما وشدّهما في حبل واحد. ومن هذا كان يطلق على طلحة وأبي بكر اسم " القرينيْن ".

و في كلام البعض من مؤلفي السيرة أنّ من الذين أسلموا بدعاية أبي بكر الصديق أيضا من فضلاء الصحابة السابقين ، أبو عبيدة عامر بن الجراح. ونسبه يرجع إلى فهر بن مالك ، فهو قرشيٌّ أيضا. وأبو عبيدة هذا رضي الله عنه معدود في العشرة المبشرين بالجنة من أصحاب الرسول

صلّى الله عليه وسلّم. وله مقام ملحوظ من بين الصحابة رضي الله عنهم. وقد ثبت أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم خلع عليه لقب "أمين الأمّةُ" ومما يرشد إلى علوّ مقامه أنّ الصديق رضي الله عنه رشّحه للخلافة عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم عند موت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، يوم كانت المفاوضة بين الصحابة تجري في شأن الخلافة، وقبل أن يقع الإجماع على بيعة أبي بكر الصديق بها.

و على هذا فيكون عدّة من أسلم على يد أبي بكر الصديق من خصوص الصحابة المبشرين بالجنة والعدّة فيهم أنّهم عشرة. ستة منهم وهم: عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف. والزبير بن العوام. وسعد بن أبي وقاص. وطلحة بن عبيد الله. وأبو عبيدة بن الجراح.

و الأربعة الباقون من العشرة هم: أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب وسعيد بن زيد وعمر بن الخطاب، رضي الله عن جميع أصحاب رسول الله أجمعين.

و سعيد بن زيد المذكور في السابقين وفي جملة العشرة المبشرين بالجنة. جاء في التعريف به أنّه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي أي من قبيلة بني عديّ القرشيّة. وهي قبيلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

و والد سعيد الذي هو **زيد بن عمرو بن نفيل** *، قد تقدّم ذكر خبره في حكماء العرب وأفذاذ مفكريهم الذين كانوا ينتظرون خروج النبي المنتظر. ولم يدرك البعثة. فلما ظهر الإسلام كان ابنه سعيد رضي الله عنه من أوّل الناس إسلاما هو وزوجه فاطمة بنت الخطاب.

و ذكر من الذين أسلموا بدعاية أبي بكر الصديق أيضا، من أفراد هذه الطائفة السابقة إلى الإسلام عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو ابن عمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم [يوجد في بعض النسخ كما في نسخة السيرة النبوية لدحلان تعريف عبيدة بن الحرث هذا بأنه عبيدة بن الحرث ابن المطلب ابن عبد مناف ومعلوم أنّ المطلب ابن عبد

مناف هو عمّ عبد المطلب جدّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وعلى هذا فيكون عبيدة المذكور ليس ابن عمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وليس هاشميًّا. ويبدو هذا غير محرر. بل المعروف أنّ عبيدة هو ابن عمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أي عبد المطلب بن هاشم. وهو الذي كان زوجا لزينب **بنت خزيمة*** التي تزوّجها الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد وفاة عبيدة كما في المشهور من الروايات].

و قد صحّ في الأخبار أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم شهد له بالحصول على مرتبة الشهداء وذلك عندما أصيب بجراحة يوم وقعة بدر. ثمّ لم يلبث أن توفي من أثر جرحه ذلك. فكان رضي الله عنه أوّل شهيد معترك في الإسلام (أو من أوّل الشهداء).

– و أخبار غزوة بدر التي هي أوّل معركة قتال في الإسلام تفيد أنّ أوّل من استشهد فيها من الصحابة هو **مهجع* بن صالح** أو ابن عبد الله. وهو مولى لعمر بن الخطاب. وكان قد أسلم في السابقين بمكة-. ومن السابقين الذين أسلموا بدعاية أبي بكر الصديق أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد. وهو من قبيلة مخزوم القرشية. وهو زوج أمّ سلمة بنت أبي أميّة المخزومية التي تزوجها الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد وفاة أبي سلمة المذكور. فكانت من فضليات أمهات المؤمنين. وقد كان لأبي سلمة المذكور مشاهد في الإسلام. وكثيرا ما وجّهه الرسول صلّى الله عليه وسلّم أميرا على سرايا وبعوث بعد مشروعية الجهاد. وكما كان له رضي الله عنه سابقية الإسلام ، كان في السابقين إلى الهجرة أيضا. فقد هاجر إلى أرض الحبشة مع زوجه أمّ سلمة. وهاجر بمفرده إلى المدينة. ثمّ لحقت به أمّ سلمة. وأبو سلمة هذا أخ للرسول صلّى الله عليه وسلّم من الرضاع ، وابن عمّته بَرَّة بنت عبد المطلب. وجاء في كلام البعض من مؤلفي السيرة أنّ ممن أسلم بدعاية أبي بكر الصديق أيضا من هذه الطائفة السابقة إلى الإسلام عثمان

بن مظعون رضي الله عنه. وهو ينسب إلى قبيلة جمح [1]، من قبائل قريش. وله -كسائر أفراد هذه الطائفة من الصحابة- مزايا وفضائل تبعث على الاغتباط والإعجاب. وكان عثمان هذا ممن تحمّل الأذى في سبيل إسلامه. وممن هاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى. وهاجر إلى المدينة في جملة من هاجر إليها من المسلمين قبل الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وكان من أوّل من مات من الصحابة المهاجرين بعد قدوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم المدينة. والمشتهر أنه توفي بعد شهوده غزوة بدر بقليل.

و مما جاء من التعريف بعثمان بن مظعون رضي الله عنه أنّه أخ للرسول صلّى الله عليه وسلّم من الرضاع. وجاء من الأخبار في فضله أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قبّله وهو ميت وتساقط دمعه صلّى الله عليه وسلّم على وجه عثمان رضي الله عنه. وأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما توفي ابنه إبراهيم دفنه عند رجلي عثمان بن مظعون، وقال عليه الصلاة والسلام عند دفن ابنه إبراهيم: «ألحق بسلفنا الصالح: عثمان بن مظعون». أمّا أَخَوَا عثمان بن مظعون وهما عبد الله وقدامة. فكلّ منهما معدود في فضلاء الصحابة الذين نالوا شرف حضور غزوة بدر.

و أمّا **الأرقم بن أبي الأرقم**، فقد جاء في التعريف به أنّه ينسب إلى قبيلة مخزوم القرشية. وهو رب الدار التي اتخذها الرسول صلّى الله عليه وسلّم مقرًّا لدعايته يجتمع فيها إليه الصحابة الذين لبوا الدعوة كمنتدى سِرّيٍّ طوال مدة إخفاء الدعوة، كما سيأتي الكلام عن ذلك قريبا. والأرقم رضي الله عنه أحد أفاضل الصحابة الذين شرّفهم شهود غزوة بدر.

و أمّا بلال رضي الله عنه، فقد جاء في التعريف به أنّه حبشيّ الأصل. وينسب إلى أبيه المسمّى برباح. كما ينسب إلى أمّه فيقال بلال بن حمامة. وورد أنّه لمّا أسلم كان مملوكا لأميّة بن خلف أحد رؤوس المشركين من

(1) جمح: بضم الجيم وفتح الميم آخره حاء مهملة.

قريش. وكان **بلال رضي الله عنه** من أبرز شخصية في المستضعفين الذين تحمّلوا العناء الشديد والعذاب المرّ في سبيل إسلامهم. فقد جاء من الأخبار العجب العجاب في وصف ما كان يعذّب به بلال رضي الله عنه كما سيأتي ذكر ذلك في حديث المستضعفين. وأمّا فضل بلال رضي الله عنه في الإسلام فخبره معروف وكان أحد مؤذّني الرسول صلّى الله عليه وسلّم. بل هو أشهر من عرف بهذه الوظيفة. كما أنّه ممن لم تفتهم مشاهد الفضل الكبرى مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم كغزوة بدر وغيرها.

و أمّا **صهيب رضي الله عنه**، فقد نسبه البعض بأنّه صهيب بن سنان. واشتهر بنسبته إلى الروم. فيقال صهيب الرومي. ولكن الوارد في الأخبار أنّ أصله فارسي. وكان أبوه عاملا لكسرى ملك الفرس. وحدث في إغارة للروم على الفرس أن سبي صهيب من طرف الروم وهو صبي صغير فنشأ في بلاد الروم. ثمّ بيع منهم لطائفة من العرب وباعه هؤلاء أيضا بسوق عكاظ. فاشتراه عبد الله بن جدعان التيمي أحد زعماء مكة. فكان في ملكه إبّان ظهور الدعوة الإسلامية. وصهيب رضي الله عنه كباقي أفراد هذه الطائفة السابقة إلى الإسلام. له ميزة في الفضل وممن تشرّفوا بشهود مشاهد الفضل الممتازة مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم كلّها.

و جاء في حديث بدء إسلام صهيب رضي الله عنه أنّه كان مقارنا لإسلام صديقه عمّار بن ياسر. فقد ورد أنّهما كانا صديقين لبعضهما البعض. ولمّا ظهرت الدعوة الإسلامية كان لهما بها اهتمام. واتفق - يوما - أن التقيا فسأل عمار صهيبا أين أنت قاصد يا صهيب؟ فقال صهيب أريد أن أدخل على محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه. (و كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم إذ ذاك بمنزله) فدخلا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأمرهما بالجلوس إليه وتلا عليهما القرآن ودعاهما إلى الإسلام. فأسلما حينئذ. وبقيا يومهما ذلك بمنزل الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى أمسى المساء. فخرجا

مستخفيين وعمار بن ياسر المذكور، جاء في نسبه أنّه من قبيلة عنس[1] اليمنية. وكان أبوه ياسر حليفا لأبي حذيفة بن المغيرة* أحد زعماء قبيلة مخزوم القرشية. وأبو حذيفة هذا هو عمّ أبي جهل بن هشام طاغية الشرك المعروف. وكانت سمية[2] بنت خباط أمة مملوكة لأبي حذيفة. فزوجها لحليفه ياسر. فولدت له ابنه عمارًا المذكور. فلما جاء الإسلام كان أهل بيت ياسر هذا في أوّل السابقين إلى تلبية دعوة الإسلام. فلقوا في سبيل ذلك أشدّ أنواع التعذيب والأذى من مواليهم المشركين، وهلك الأبوان سميّة وياسر كلاهما في هذا العذاب، كما سيأتي خبر ذلك ببعض تفصيل في باب حديث المستضعفين. وكان عمار رضي الله عنه من أبرز الشخصيات الفاضلة في الصحابة. فقد عاش إلى خلافة عليّ بن أبي طالب. ونال شرف المشاهد كلها مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وجاء في الأخبار أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم خلع عليه لقب " الطيّب المطيّب." وبإسلام عمار رضي الله عنه أسلم أبوه ياسر وأمه سميّة. كما أسلم في السابقين- أيضا- أخوه عبد الله (لم يقع التعرض في هذا الباب لخبر عبد الله هذا، وهل هو شقيق لعمار؟ أم هو أخوه للأب؟ أمّا خبر تعذيبه في جملة أهل بيت ياسر، فقد نصّت عليه بعض الروايات، وأغْفلته بعضها).

فقد ورد أنّ عمّارًا رضي الله عنه بعد ما خرج من منزل الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع صهيب - كما تقدّم ذكره- ورجع إلى منزله سأله أبواه أين كان؟ فأخبرهما خبر دخوله على الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع صهيب، وما كان له مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم من حديث حتى أسلم هو ورفيقه صهيب. ثمّ حدَّث والديه حديث الدعوة وتلا عليهما ما حفظ من القرآن الذي تلقاه من الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فأثر ذلك فيهما أثره

(1) عنس: بالنون الموحدة الفوقية.

(2) ضبط لفظ (سمية) بصيغة التصغير. و(خباط) بضم الخاء المعجمة وتشديد الباء الموحّدة التحتية وآخره طاء مهملة.

المطلوب وفقها حقيقة الإسلام ، فأسلما من ساعتهما على يده. وأمّا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فينسب إلى قبيلة هذيل [1] الأعرابيَّة. ومما جاء من التعريف به أنّه كان يعرف بأمّه وهي تدعى أمّ عبد. فكان يعرف بابن أم عبد. وأنّه كان قصير القامة جدًّا. فقد قيل أنّ قامته كانت نحو الذراع مع نحافة في بدنه وأعضائه. وهو من أجلّ الصحابة قدرا وأعظمهم مكانة. ويعدّ في فقهاء الصحابة وعلمائهم البارزين. وله ميزات خاصة امتاز بها من بين الصحابة زادته فضلا وشرفا ، وجعلته بمقام يستحق الغبطة والإعجاب. فمن ذلك أنّه كان بمكان خاص عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فكان يدنيه ولا يحجبه. فكان كثير الولوج والتردد على الرسول صلّى الله عليه وسلّم في منزله. ويلي من أمور الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما لا يلي غيره بحيث يرى في منزلة أقرب قريب. فكان يستر الرسول صلّى الله عليه وسلّم حال اغتساله عليه الصلاة والسلام. ويوقظه إذا نام. ويلبسه نعليه إذا قام. ويحفظهما عنده إذا خلعهما. إلى غير ذلك مما لم يكن لغيره. ومن هذا عرف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأنه "صاحب سرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ". وأطلق عليه هذا التعريف من طرف الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. ومما جاء من الأخبار النبويّة مما يدلّ لمكانة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من العلم وثقة الرسول صلّى الله عليه وسلّم به - الحديث الوارد بصيغة قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «رضيتُ لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد ، وسخطتُ لها ما سخط لها ابن أمّ عبد!!!».

و جاء في بدء إسلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الرواية الآتية وهي تتضمن - زيادة على ذلك - ذكر آية من خوارق العادة على يده صلّى الله عليه وسلّم ، ومن أعلام نبوّته.

و يحكي راوي الرواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول:

---

[1] هُذَيل: بضم الهاء وفتح الذال المعجمة بصيغة التصغير وهي قبيلة من أعظم القبائل المضريّة.

«كنت أرعى غنما لآل عقبة بن أبي معيط ، فمرّ عليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه أبو بكر فقال لي النبي صلّى الله عليه وسلّم: «هل عندك من لبن ؟ » فقلت نعم! ولكني مؤتمن! قال: «هل عندك من شاة لم ينز عليها الفحل ؟ » قلت: «نعم!» يقول عبد الله بن مسعود: «و أتيته صلّى الله عليه وسلّم بشاة شصوص [1] فمسح صلّى الله عليه وسلّم مكان الضرع فإذا الضرع حافل مملوء لبنا. فأتيته صلّى الله عليه وسلّم بصخرة منقورة فاحتلب فيها. فسقى أبا بكر ثمّ سقاني ثمّ شرب هو ثمّ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال للضرع " أقلص [2]! " فرجع كما كان».

[ناقش البعض من مؤلفي السيرة ما جاء في هذه الرواية من قول ابن مسعود " إني مؤتمن " الذي يدلّ على أنّه لم يكن سائغا له أن يناول اللبن لمن طلبه وهو الرسول صلّى الله عليه وسلّم وذلك لما عرف من أخبار التاريخ القاطعة عن عادة العرب بأن يسقي اللبن من يد الرعاة ونحوهم لكل من احتاج إليه من ابن السبيل ، كان مباحا بل من المكارم التي يرغب فيها... ثمّ أجاب على ذلك بأنّه يحتمل أن يكون الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصاحبه اجتمعا بعبد الله بن مسعود في هذه الواقعة على مقربة من مكة. بحيث لا يعدّان في أبناء السبيل وليسا بغريبين ولا ببعيدين عن سكنهما].

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فلمّا رأيت هذا من النبي

---

(1) مادة: "ش. ص. ص": يتراءى أنّ معناها الأصلي يرجع إلى فقد الشيء وإلى الجدب والصعوبة فيقال في السنة المجدبة " سنة شصوص " والناقة أو الشاة الشصوص قيل هي من ذهب منها اللبن. وقيل هي التي لا ضرع لها. ويصاغ من هذه المادة الفعل ثلاثيا لازما بالفتح والكسر في مضارعه. ومصدره الشصوص بالضمّ ، والشِّصَاص بالكسر فيقال شصت المعيشة أي اشتدّت وتنكّدت. ويأتي الفعل منها متعديا أيضا. فيقال شصه وأشصه ، يشصه بالضم شصا بالفتح ، بمعنى منعه وأبعده.

(2) مادة: " ق. ل. ص ": من معانيها الارتفاع والانقباض والانكماش. وهو المراد هنا. والفعل منه مفتوح ماضيا مكسور مضارعا. والمصدر القلوص ، فهو من باب "جلس".

صلَّى الله عليه وسلَّم قلت له: يا رسول الله علمني! فمسح رأسي وقال: «بارك الله فيك فإنّك غلام معلّم»».

هذه هي الرواية التي اعتمدها البعض على أنّ في واقعتها كان بدء إسلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - ولكن- كما يبدو واضحا ليس في الرواية ما يعد صيغة ممّا عهد في بدء إسلام من يسلم من الصحابة. ولهذا لم يخصص الكثير بدء إسلام عبد الله بن مسعود بهذا الحديث الوارد في هذه الرواية.

و أمّا أبو ذرّ رضي الله عنه فقد جاء من التعريف به أنّه يسمّى جُندب بن جُنادة - بضم الجيم فيهما- وإن كان الأشهر دعوته بكنيته ، وهو ينسب إلى غفار* (بكسر الغين المعجمة وتخفيف الفاء ، وهي من قبائل الأعراب) وهذا الصحابي الجليل من أفذاذ المفكرين ونوابغ أهل النظر الثاقب وأصحاب البصائر النيرة. (جاء ممّا يشهد لهذا من الأخبار أنّ زوجة أبي ذرّ سئلت عمّا كان عليه أبو ذرّ من عمله في منزله. وربما يقصد بهذا خصوص مسألة العبادة ، فقالت: «كان طول يومه في زاوية البيت متفكرا!».

جاء في الأخبار عنه أنّه كان ممن هداهم الفكر إلى التدين بحسب الفطرة - لا بحسب التقليد- فورد عنه أنّه كان يصلي لله تعالى ويتوجّه في صلاته حيثُما وجّهه الله. وقع له هذا قبل ظهور الإسلام بنحو ثلاث سنين. ثمّ لمّا أسلم رضي الله عنه إبان الإسلام عن عبقريّته وكشف عن مواهبه مما جعله مضرب الأمثال في الثبات على المبدإ وحريّة الفكر ورسوخ القدم في الإخلاص ، وخلق التضحية والصبر.

و مما جاء من الأخبار في ميزات أبي ذرّ رضي الله عنه أنّه بايع الرسول صلّى الله عليه وسلّم في جملة ما بايعه عليه على أن **لا تأخذه في الحق لومة لائم، وأن يقول الحق ولو كان مُرًّا** [وقد عرف في أخبار التاريخ حال أبي ذر رضي الله عنه ، ومذهبه الخاص في الميدان الاجتماعي حيث كان يذهب مذهب الاشتراكية المتطرّفة فيما يخص المال. ولمّا أمعن

في الدعاية لمذهبه هذا وإغلاظه القول لمخالفيه فيه وكان ذلك ببلاد الشام حيث معاوية بن أبي سفيان هو العامل عليها من طرف عثمان بن عفان. فشكا معاوية أبا ذرّ إلى عثمان. فاستقدم عثمان أبا ذرّ إلى المدينة وأشار عليه أن يعتزل بمكان يكون فيه كالمنقطع عن الاحتكاك بالجماهير، وذلك لصالح الجميع وراحتهم. فسكن أبو ذرّ بمكان قرب المدينة يعرف بالربذة* وبقي به حتى وفاته رضي الله عنه].

و جاء من الكلام النبوي في الشهادة لأبي ذرّ رضي الله عنه، قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ما أظلّت الخضراء[1] ولا أقلّت الغبراء[2] أصدق لهجة[3] من أبي ذرّ. وأنّه يمشي على زهد عيسى بن مريم عليه السلام».

و جاء من حديث بدء إسلامه رضي الله عنه ما حدّث به هو حيث قال: «بلغنا أنّ رجلا خرج بمكة يزعم أنه نبيّ فقلت لأخي أنيس انطلق إلى هذا الرجل فكلّمه وأتني بخبره. فلمّا رجع إليّ أنيس سألته: ما عندك من الخبر؟ فقال: «و الله رأيت رجلا يأمر بخير وينهى عن شر، وهو يزعم أنّ الله أرسله. ورأيته يأمر بمكارم الأخلاق». قلت: فما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون شاعر؟ كاهن؟ ساحر؟ وهو والله صادق! وأنّهم لكاذبون!».

يقول أبو ذرّ فقلت لأنيس اكفني، حتى أذهب فأنظر بنفسي. قال: «نعم! وكن على حذر من أهل مكة!» قال فحملت جرابا[4] وعصا وأقبلت فأتيت مكة. فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه. فمكثت في المسجد ثلاثين ليلة ويوما. وما كان لي طعام إلاّ ماء زمزم.

---

(1) يطلق لفظ الخضراء على السماء.

(2) يطلق لفظ الغبراء على الأرض.

(3) لفظ اللهجة إذا ضبط بفتح اللام وإسكان الهاء وقد تفتح، كان المراد به اللسان. ويكون باعتبار النطق كما هو هنا. وقد يطلق ويراد به الكيفية الخاصة لنطق الشخص أو القوم. فإنّ لكل متكلّم لهجة متميزة عن غيره. والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع. ومصدره اللّهج بفتحتين، ويدلّ على الولوع بالشيء والمواظبة عليه.

(4) الجراب بكسر الجيم وتخفيف الراء. وعاء من الجلد.

فسمنت حتى تكسرت عكن[1] بطني وما وجدت على بطني سحنة[2] جوع. ففي ليلة لم يطف بالبيت أحد وإذا برسول[3] الله صلّى الله عليه وسلّم جاء فطاف بالبيت ثمّ صلّى !فلماّ أتمّ صلاته أتيت فقلت: «السلام[4] عليك يا رسول الله! أشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمدا رسول الله!» يقول أبو ذرّ رضي الله عنه ، فرأيت الاستبشار في وجه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثمّ قال لي: «ممن الرجل ؟ » فقلت من غفار! قال: «متى كنت هنا ؟ » قلت من ثلاثين بين يوم وليلة. قال: «فمن كان يطعمك ؟ » قلت ما كان لي من طعام إلاّ ماء زمزم ، فسمنت حتى تكسرت عكن بطني. فقال صلّى الله عليه وسلّم: «**مبارك إنّها طعام طعم. وشفاء سقم**».

و جاء في هذه الرواية أنّ أبا بكر قال - حينئذ - للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يا رسول الله ائذن لي في إطعامه الليلة» يقول أبو ذرّ ، فانطلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر ، وانطلقت معهما. ففتح

---

[1] العُكَن بضم العين وفتح الكاف. جمع عكنة بضم فسكون ، وهي ثنايا لحم البطن حَالَمَا يكون صاحبه قد سمن. فالمراد بتكسر عكن البطن تثنيها بعضها فوق بعض.

[2] جاء هنا في مؤلفات السيرة تفسير لفظ السحنة بأنه بالتحريك بفتحات وأنّ معناه حرارة يحسّ بها الشخص عندما يمسّه الجوع. ورسمه في نسخة السيرة النبويّة لدحلان بالشين المعجمة ثمّ حاء مهملة ثمّ نون. وفي الحلبية بالسين المهملة. ولم نطلع فيما وقع اطلاعنا عليه من كتب اللغة على هذا المعنى للفظ السحنة بالمهملة أو الشحنة بالمعجمة. وإنّما جاء في السحنة المهملة أنّها " هيئة الشيء المرئية" والشحنة بالمعجمة من معانيها الامتلاء وغير ذلك ممّا يرى بعيدا عما قيل في معناه هنا ؟...

[3] في لفظ آخر من هذه الرواية أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم جاء ومعه صاحبه أي أبو بكر.

[4] جاء فيما جاء من خصوصيات أبي ذرّ رضي الله عنه أنّه أوّل من حيًّا الرسول صلّى الله عليه وسلّم بهذه الصيغة الإسلامية وهي " السلام عليك...إلخ" فألهم إليها هو قبل أن تظهر شرعيّتها في الإسلام.

أبو بكر بابا فجعل يفيض[1] لنا من زبيب الطائف. فكان ذلك أوّل طعام أكلته.

[توجد بجانب هذه الرواية في اجتماع أبي ذرّ بالرسول صلّى الله عليه وسلّم أوّل ما اجتمع به رواية أخرى تفيد أنّ أبا ذرّ اجتمع بعليّ بن أبي طالب. وكان ضيفا عنده لمدّة ثلاثة أيّام. ثمّ لمّا سأله عليّ عن حاله عرّفه أبو ذرّ بما يقصد من الملاقاة مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فأوصله عليّ رضي الله عنه إلى ما يقصد من الملاقاة بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وكان ذلك بمنزل الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإذ ذاك أعلن أبو ذرّ إسلامه على يد الرسول صلّى الله عليه وسلّم... إلخ.

ما جاء في هذه الرواية وقد حاول بعض مؤلفي السيرة أن يوفّق بين الروايتين.... ولكن يبدو ذلك - بادئ ذي بدء - أمرا مستبعدا لعدم مواتاة حديث وقائع إحدى الروايتين للأخرى. والله أعلم بحقيقة ما هنالك...!]

و جاء في هذه الرواية أيضا أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أشار على أبي ذرّ رضي الله عنه بأن يرجع إلى قومه وأن يكتم أمره بمكة. ولكن أبا ذرّ رضي الله عنه فضّل إعلان أسلامه بمكة. فقال للرسول صلّى الله عليه وسلّم والذي بعثك بالحق لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم.

و يحكي رضي الله عنه حديث هذه الواقعة فيقول: «فلمّا اجتمعت قريش بالمسجد جئت فناديت فيهم بأعلى صوتي: أشهد أنّ لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمدا رسول الله! فارتاع القوم لذلك وقاموا. فقال قائلهم: «قوموا إلى هذا الصابئ» (أي لضربه ليموت) يقول: فمال عليّ أهل الوادي بكلّ مدرة وعظم ونعل...إلخ حتى خررت مغشيا عليّ. فأكبّ عليّ العباس بن عبد المطلب (يحميه من الضرب) وقال للقوم: «ويلكم ألستم تعلمون

(1) يفيض: من الإفاضة. رباعيا من مادّة الفاء والياء المثناة التحتية وآخره ضاد معجمة. ورسم في بعض النسخ يقبض من القبض، بالقاف والباء الموحّدة التحتية. وربما يظهر أنّ المعنى الأوّل أنسب بالمقام.

أنّه من غفار وأنّ طريق تجارتكم عليهم ؟ » قال: فخلوا عني فجئت زمزم فغسلت عني الدماء... فلمّا أصبحت من الغداة رجعت لمثلها. فصنع بي مثل ما صنع بي بالأمس وأدركني العباس كما حدث بالأمس. يقول أبو ذرّ رضي الله عنه وبعدها خرجت من مكة فلما أتيت أخي أنيسا قال: ما صنعت ؟ قلت: قد أسلمت وصدقت! فقال مالي رغبة عن دينك فإنّي أسلمت وصدقت! ثمّ أتينا أمنا ، فأخبرناها الخبر فقالت مالي رغبة عن دينكما فإنّي أسلمت وصدقت».

[جاء في هذه الروايات المتضمنة حديث إسلام أبي ذرّ أنّه قال كنت خامس خمسة أو رابعًا في الإسلام. وحمل على أنّ ذلك بالنسبة للأعراب خارج مكة إذ لا يستقيم ذلك إذا أطلق حتى يَشمل أهل مكة].

و يخبر أبو ذرّ رضي الله عنه -في هذا الحديث- عن قبيلته غفار بأنّ نصفها أسلم في هذا الأثناء أيضا وتمّ إسلام باقيها بعد هجرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة -والوارد في الأخبار أنّ أبا ذرّ رضي الله عنه لم يقدم المدينة إلاّ بعد غزوة الأحزاب ، وقد كانت في السنة الخامسة من الهجرة-.

و أمّا **خالد بن سعيد بن العاص** رضي الله عنه فهو ينسب إلى قبيلة بني أميّة المعروفة. وأبوه سعيد هو المعروف بأبي أحيحة[1] كان من زعماء قريش. وبلغ من إعظام العامّة له أنّه إذا اعتمّ لم يعتمّ أحد بالبلد..! واشتهر خالد رضي الله عنه بوظيفة الكاتب للرسول صلّى الله عليه وسلّم. وجاء من الروايات في بدء إسلامه أنّه رأى في منامه نار جهنّم. وشاهد ما هاله من فظاعتها ورأى نفسه كأنّه على شفيرها وأنّ أباه يدفعه يريد أن يلقي به فيها.

(1) جاء في كتب اللغة عن هذه المادّة من الهمزة والحاءين المهملتين أنّ فعل "أح" من باب "ردّ". وهو السُّعال. والأحاح بضمّ الهمزة يطلق على العطش والأحيح والأحيحة بفتح الهمزة وكسر الحاء اسم للغيظ.

ورأى الرسول صلّى الله عليه وسلّم آخذ بحجزته[1] يمنعه من الوقوع فيها. فاستيقظ من نومه هذا فزعا مرعوبا. فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقصّ عليه الرءيا. فقال له أبو بكر: «لقد أريد بك خير! هذا محمد رسول الله فاتبعه». فأدخله على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فكان مما خاطب به خالد الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن قال له يا محمد ماذا تدعو إليه؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: «أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله. وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع». فأسلم خالد على يد الرسول صلّى الله عليه وسلّم حينذاك.

و جاء من حديث سبب إسلام خالد بن سعيد المذكور رواية أخرى عنه أنّه قال رأيت ذات ليلة رءيا قبل مبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرأيت كأنّ ظلمة غشيت مكة حتى لا يبصر امرؤ كفّه. فبينما الأمر كذلك إذا نور خرج من زمزم ثمّ علا في السماء فأضاء في البيت (أي الكعبة) ثمّ أصاب مكة كلّها ثمّ تحوّل إلى يثرب، فأصابها حتى أنّي لأنظر إلى البسر في النخل. فلمّا استيقظت قصصت الرءيا على أخي عمرو* - وكان جزل[2] الرأي - فقال يا أخي إنّ هذا الأمر خير يأتي من بني عبد المطلب. ألا ترى أنّه خرج من حفر أبيهم؟ فلما بعث الرسول صلّى الله عليه وسلّم واجتمع به خالد حكى له هذه الرءيا فقال صلّى الله عليه وسلّم: «يا خالد أنا - والله - ذلك النور. وإنّي رسول الله». فأسلم خالد يومئذ.

و جاء أنه لمّا أسلم خالد بن سعيد واطلع على ذلك أبوه سعيد أبو أحيحة انتهره وأغلظ له القول وضربه بمقرعة كانت بيده على رأسه. فكسرها

---

(1) الحُجزة: بضم الحاء وسكون الجيم هي موضع عقد الإزار ويطلق عليها لفظ الحقو بفتح الحاء المهملة وإسكان القاف وآخره واو. ويطلق لفظ الحجزة - أيضا - ويراد به موضع التكة من السراويل.

(2) الجزل بفتح الجيم وإسكان الزاي وصف بمعنى الجيّد. وللمادة معان متقاربة المعنى كالكثرة ونحو ذلك.

على رأسه. ومما قال له توبيخا على إسلامه: «اتبعت محمدا وأنت ترى خلافه لقومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم..؟!» فردّ عليه خالد بما أبدى به له من تصميمه وثباته قائلا: «نعم اتبعته على ذلك وعلى وكل ما جاء به!» فاستشاط أبو أحيحة غضبا وطرده قائلا: «اذهب يا لكع[1] والله لأمنعنَّك القوت!» فأجابه خالد: «إن منعتني فالله يرزقني ما أعيش به!» فأخرجه وأقبل على باقي بنيه. فهدّدهم قائلا: «لا يكلّمه أحد منكم إلاّ صنعت به مثله...!» فانصرف خالد رضي الله عنه. فكان يعيش مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتارة يتغيّب في نواحي مكة حتى كان خروج الصحابة في هجرتهم إلى أرض الحبشة. فكان خالد في أوّل من هاجر إليها ، (المنصوص عليه في كل من السيرة الحلبية والسيرة النبوية في الهجرة هنا أنها الهجرة الثانية.... ويوجد في غيرهما أنّها الهجرة الأولى).

و مما ورد من الأخبار هنا أنّ أبا أحيحة المذكور مرض - بعد ذلك- فكان يقول في مرضه هذا: «لئن رفعت[2] من مرضي هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة بمكة أبدا.!».

و لمّا بلغت هذه المقالة ابنه خالدا رضي الله عنه دعا الله تعالى أن لا يعافى من مرضه ذلك. وكان الحال كذلك. فقد هلك أبو أحيحة في مرضه هذا ، وعلى هذه العقيدة من العداء للإسلام.

[هذه النسبة إلى أبي كبشة تواردت كثيرا في كلام أعداء الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ينسبونه إلى أبي كبشة ويريدون بها لمزًا وتعريضا بالذم. فقيل أنّ أبا كبشة هذا جدّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم للرضاع أي هو من آباء حليمة السعدية. وقيل كبشة اسم بنت لحليمة. فكان يكنّى

---

(1) لكع: بضم اللام وفتح الكاف. وصف يطلق على اللئيم وضعيف النفس. وهو المراد هنا. وله إطلاقات أخرى لا تدلّ على الذمّ كما إذا أطلق على الصبي الصغير تلطفًا به.

(2) هكذا رسم في النسخ المنقول منها بالراء والفاء وآخره عين من الرفع. وعليه فيكون المعنى الرفع من سقوط المرض.

أبوها بها وهو أب الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الرضاع. وقيل غير ذلك وأنّ أبا كبشة هو أبو أمّ عبد المطلب جدّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لأبيه ، وكان يخالف قومه في العبادة فكان يعبد النجم المسمى بالشعرى.

فدعوة مشركي قريش للرسول صلّى الله عليه وسلّم بابن أبي كبشة فيها تنكيت عليه صلّى الله عليه وسلّم بأنّ له سلفا في الخروج عن ديانة قومه. ويوجد قول آخر في أبي كبشة هذا بأنّه رجل من قبيلة خزاعة. كان قد خرج عن ديانة قومه واتخذ معبوده نجم الشعرى. فكان مشركو مكة يشبهون الرسول صلّى الله عليه وسلّم به في صنيعه هذا. أفاد هذا مؤلف السيرة الحلبية ولاحظ أنّ لفظ كبشة ليس مؤنّث الكبش الذي هو ثني الضأن ، والمادة لها معان منها تناول الشيء بجمع الكف كما يطلق اللفظ على بعض الحجارة ، وعلى آلة تستعمل في الحرب كالمنجنيق...إلخ].

و جاء أنه أسلم من أبناء أبي أحيحة - زيادة على خالد- عمرو المتقدّم ذكره وأنّه عبر الرءيا لأخيه خالد وأبان والحكم. وقد غيَّر الر سول صلّى الله عليه وسلّم اسم الحكم هذا إلى عبد الله بعد إسلامه ، غير أنّ إسلام هؤلاء الثلاثة من أبناء أبي أحيحة لم يكن في عهد السابقين كما هو الحال في أخيهم خالد رضي الله عنه.

و أمّا **عمران بن حصين** رضي الله عنهما ، فقد ورد عنه أنّه أسلم في السابقين ، وأنّه تقدّم إسلامه على إسلام أبيه حصين الذي كان شيخا موقرا في جماعة قريش. وقد ورد في بدء إسلام حصين والد عمران خبر مفاده أنّ الملأ من قريش لمّا تضايقوا من الدعوة التي يقوم بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم ارتأوا يوما أن يبعثوا إليه بشخص كسفير يكلّمه صلّى الله عليه وسلّم في أمر الكفّ عن إعلان الدعوة والخفض من لهجة الدعاية لها. فوقع اختيارهم على حصين المذكور لما أنّه كان محترما لديهم لسنّه وقدره. فجاءوا إلى حصين فقالوا كلّم لنا هذا الرجل فإنّه يتناول آلهتنا بالسبّ. وتوجّه حصين إلى مكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم والملأ من قريش

خلفه ينتظرون ما يخرج به إليهم بعد مقابلته للرسول صلّى الله عليه وسلّم. ودخل حصين المكان الذي كان به الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع جمع من أصحابه ، وكان في هذا الجمع ابنه عمران رضي الله عنه.

فلمّا رأى الرسول صلّى الله عليه وسلّم حصينا داخلا قال: «أوسعوا للشيخ!» (احتفاء به!). وابتدأ حصين حديثه مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم في المهمة التي جاء من أجلها فقال: «ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ أنّك تشتم آلهتنا وتذكرها بالسوء...؟ . إلخ» (يلاحظ عل ما جاء في قصّة حصين من ذكر سبّ الآلهة أنّ هذا العهد كان بعد إعلان الدعوة وليس في ابتدائها. فيكون إسلام حصين - عليه- ليس في السابقين الأوّلين).

و كان من جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم له أن قال له: «يا حصين كم تعبد من إله ؟ » قال: «سبعة في الأرض وواحد في السماء!» قال صلّى الله عليه وسلّم له: «فإذا أصابك الضرّ لمن تدعو..؟ » قال: «للذي في السماء!» قال صلّى الله عليه وسلّم: «فإذا هلك المال من تدعو؟ » قال: «الذي في السماء!» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «فيستجيب لك وحده وتشرك معه...[1] ؟ » ثمّ أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم دعا حصينا إلى الإسلام وقال له: «يا حصين أسلم تسلم!» فاقتنع حصين وأسلم في مكانه ذلك. ولمّا شهد حصين شهادة الإسلام قام إليه ابنه عمران فأخذ يقبّل رأسه ويديه ورجليه. ولمّا شهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم صنيع عمران هذا مع أبيه فاضت عيناه عليه الصلاة والسلام بالدموع باكيا ، وقال: «بكيت من صنع عمران. دخل أبوه وهو كافر فلم يقم إليه ولم يلتفت ناحيته. فلمّا أسلم وفى بحقّه. فدخلني من ذلك الرقّة!».

و ورد في هذا الخبر أنّ حصينا لمّا أراد الخروج من مجلسه هذا مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم أمر صلّى الله عليه وسلّم أصحابه أن يشيعوه

[1] يوجد هنا في كل من نسخة الحلبية والنبوية بعد قوله "و تشرك معه " كلمتان لم يتضح معناهما هكذا: " أرضيته في الشرك " أو "أ أرضيته في الشرك".

إلى منزله. ففعلوا. وخرج حصين على الملإ من قريش ممن كانوا ينتظرون نتيجة سفارته ، فرأوه على ذلك الحال فعلموا أنّه أسلم فقالوا: «قد صبأ» وتفرّقوا خائبين.

و أمّا ما جاء في النسوة السابقات إلى الإسلام. فقد ذكر أنّ أمّ أيمن بركة الحبشية حاضنة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومولاة أبيه عبد الله بن عبد المطلب.

و قد ورّثها الرسول صلّى الله عليه وسلّم من تركة أبيه. فكانت ممن يشتمل عليه بيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الأهل الخاص به صلّى الله عليه وسلّم ، يظهر أنّها أوّل امرأة أسلمت بعد خديجة أمّ المؤمنين رضي الله عنها. أي ومع بناته صلّى الله عليه وسلّم الثلاث الموجودات حين البعثة ، وهنّ زينب ورقية وأم كلثوم ، كما تقدّم بيان ذلك. وكانت أم أيمن المذكورة - طبعا - من فضليات نساء الإسلام وقد طالت بها الحياة حتى تخلّفت بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأمّا أمّ الفضل زوج العباس عمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فقد عرفت بأنّها تسمى لبابة بنت الحرث من قبيلة بني هلال الأعرابية وتعرف بلبابة الكبرى لأنّ لها أختا تعرف بلبابة الصغرى* ، وهي أمّ خالد بن الوليد. وأمّ الفضل رضي الله عنها أخت لأمّ المؤمنين ميمونة آخر زوجات الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

و قد قيل عن أمّ الفضل أنّها أوّل امرأة أسلمت بعد من في بيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم من النساء.

و على ذكر إسلام أمّ الفضل في السابقين - وهي زوج للعباس عمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فقد قيل أنّها أظهرت عقيدتها دون زوجها العباس الذي تخلّف إظهار إسلامه إلى حين فتح مكة. فكان **العباس*** رضي الله عنه يخفي إسلامه طوال المدّة المذكورة لضرورة مآسّة ولمصلحة داعية إلى ذلك ، وبإذن من الرسول صلّى الله عليه وسلّم له في ذلك كما تشهد لهذا عدّة دلائل لمن تتبع أحداث السيرة. فهي وضعية خاصة كانت

للعباس رضي الله عنه تستحقّ الاعتبار بها وتسترعي الأنظار إليها من حيث كونها مثالا مما كانت عليه سياسة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، التي هي سياسة الإسلام المهيمنة على مختلف الأحوال ، والتي لها من طول الباع ، واتساع الأفق وفسحة النطاق ما يشمل سائر الأوضاع والاعتبارات مهما تباينت وتباعدت. [أليس في الموقفين المتقابلين المتباعدين موقف أبي ذرّ رضي الله عنه في حديثه المتقدّم ذكره عند بدء إسلامه ، وموقف العباس بن عبد المطلب الذي عرف عنه نحو الإسلام من الاختفاء به المدّة الطويلة. وما في كلا الموقفين من الخدمة الجليلة للإسلام والعمل العظيم لصالحه ما يبعث على الاعتبار. ويدعو إلى الموعظة والادكار ؟ ويرشد إلى معرفة شيء من حكمة هذا الدين القويم ؟ وأنّه تنزيل من حكيم عليم ؟ ؟].

و أمّا أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، فهي أكبر من أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها. ومآثرها في الإسلام معروفة. وهي زوجة الزبير بن العوام حواري رسول الله المعروف ، ووالدة ابنه عبد الله رضي الله عنهما. ومن ألقاب الشرف التي عرفت بها في الإسلام لقب " ذات النطاقين ".

و النطاق [1] ثوب تلبسه المرأة فوق لباسها العادي تشدّه عليها وقت مزاولتها الشغل. لقبت بذلك عندما شقّت نطاقها نصفين جعلت أحدهما رباطا للجراب [2] الذي كان به الزاد الذي جعل للرسول صلّى الله عليه وسلّم ولأبيها ليلة خروجهما من مكة ودخولهما غار ثور في طريقهما إلى المدينة في الهجرة. وجعلت الآخر رباطا لقربة الماء. وذلك عندما أعجلها الحال ولم تجد ما تربط به الجراب والقربة.

---

(1) النطاق: بكسر النون وكما جاء في لقب أسماء رضي الله عنها صيغة " ذات النطاقين" جاء بلفظ الأفراد: " ذات النطاق ".

(2) الجراب: بكسر الجيم تقدّم تعريفه في حديث أبي ذرّ وأنّه وعاء يتخذ من الجلد وهو نفس ما يعرف بالمزود والمستعمل في النطق الجاري اليوم أنّ جيمه ينطق بها قافا معقودة.

و أمّا فاطمة بنت الخطاب ، فتعرف أيضا بكنيتها أم جميل. وهي أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وزوج سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد أعيان الصحابة والعشرة المبشرين بالجنّة رضي الله عنه. وكانت في الفوج الأوّل من السابقين لاستجابة الدعوة الإسلامية مع زوجها المذكور. ومن مواقفها المشكورة ما حدث لها مع أخيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يدخل في الإسلام يوم جاءها للمنزل عندما بلغه خبر إسلامها وإسلام زوجها. فكان لها معه موقف شريف كما سيأتي ذكر القصة في باب إسلام عمر رضي الله عنه.

و أمّا سميّة بنت خباط أمّ عمار بن ياسر فسيأتي شيء من الحديث عن شأنها في باب حديث المستضعفين الذين كانوا يعذّبون في سبيل إسلامهم من طرف طغاة الشرك في مكة. إذ هي رضي الله عنها من نساء الإسلام ذوات المقام الرفيع.

و كانت أوّل شهيد - على الإطلاق - استشهد وذهبت حياته ضحيّة في سبيل دين الإسلام وعقيدته الحقة.

و أمّا أمّ أبي ذرّ الغفاري - رضي الله عنهما - فتظهر منقبتها في كونها ممن أقبل على عقيدة الإسلام بالواسطة ، واسطة ولديها أبي ذرّ وأخيه أنيس مع بعدها عن موطن الدعوة إذ كانت في قبيلة غفار بعيدا عن مكة والشأن في مثلها أن يمانع في هذا الأمر وأن لا ينقاد إلى نبذ التقاليد بسهولة سيما مع تقدّم السن وطبيعة النساء في المحافظة كما وقع ذلك للكثير بل للعامة من النسوة ، وهو المثل الذي ضربته أم سعد بن أبي وقاص.

و أما أم سلمة رضي الله عنها فقد أسلمت مع زوجها سلمة كما تقدّم ذكره. وهي من فضليات النساء. وترجمتها مشهورة ، سيأتي بعض الإشارة إليها عند ذكر تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بها بعد وفاة أبي سلمة.

استخفاؤه صلّى الله عليه وسلّم مع أصحابه مدّة من الزمن بدار الأرقم بن أبي الأرقم

تقدّم أنّه بعد الوحي إليه صلّى الله عليه وسلّم بآية الرسالة وهي بالآيات الأول من سورة المدثّر أخذ صلّى الله عليه وسلّم في الدعوة إلى دين الله بطريق الإسرار واستجاب له في ذلك طائفة من الناس ما بين ذكور وإناث. وأنّ هذا الإسرار بالدعوة استمر ثلاث سنين. فورد أنّ في هذا الأثناء كان المسلمون يقيمون الصلاة ، وهي الركعتان بالغداة والركعتان بالعشي. فكانوا يستخفون بهذه الصلاة عن أعين الجمهور من المشركين. وكلّ من أراد الصلاة يذهب إلى بعض شعاب مكة فيؤديها هناك. وحدث يوما أن كان سعد بن أبي وقاص مع نفر من أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم في أحد الشعاب وهم يؤدون الصلاة فاطلع عليهم نفر من المشركين ، فناكروهم على ذلك وعابوا عليهم ما رأوهم عليه من الصلاة وآل الحال بين الفريقين إلى المقاتلة. فضرب سعد رضي الله عنه رجلا من المشركين بلحي[1] بعير فشجّه[2]. وكان هذا أوّل دم أهريق في سبيل الإسلام. فكانت هذه الواقعة هي السبب في استخفاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم والجماعة من أصحابه بدار الأرقم بن أبي الأرقم. وجعلها صاحبها تحت تصرّفهم مقرًا سرّيًا للدعاية الإسلامية وأداء الصلاة ، حتى كان الإعلان بالدعوة وإشهارها للعموم.

و الذي ورد في مدة استخفائه عليه الصلاة والسلام بدار الأرقم غير محدّد بالضبط. فقد قيل أنّ ذلك كان لمدّة شهر واحد فقط. كما قيل بأنّ المدّة طالت كثيرا بالنسبة للشهر ونحوه. وممّا جاء في هذا أنّ إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أيّام استخفاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه بدار الأرقم. وأنّ عمر رضي الله عنه كان أوّل من أشار على

(1) اللّحي: بفتح فسكون هو العظم الذي فيه منبت الأسنان والمراد الأسفل.

(2) الشّج: بالشين المعجمة و الجيم. و الفعل منه مضارعا يأتي بالكسر و بالضم. و معناه الجرح في الرأس خاصة. و كما يقال فيه الشجّ يقال الشجج بفتحتين.

الرسول صلّى الله عليه وسلّم وألحّ عليه في الخروج من دار الأرقم إلى المسجد حيث الملأ من المشركين ، أي الخروج بصورة مظاهرة من جمع الصحابة. وذلك بإثر إسلامه رضي الله عنه. فأجابه الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى هذه الرغبة. وخرج الرسول صلّى الله عليه وسلّم في أصحابه كما رغب عمر رضي الله عنه. ومن المعروف أنّ إسلام عمر رضي الله عنه كان في السنة الخامسة أو السادسة من بدء الدعوة. وعلى هذا فيكون الاستخفاء في دار الأرقم استمرّ إلى ما بعد الجهر بالدعوة. وأنّه طال بالسنين نحو الثلاث أو الأربع. ويفهم - حينئذ- على مجرّد اتخاذ الدار مقرا للدعوة ومكانا للاجتماع. وربما يؤخذ من هذا وجه التوفيق بين من قال أنّ مدّة الاستخفاء كانت شهرا ونحوه. ومن قال أنّها طالت بالسنين ، وذلك بحمل المدّة القصيرة على خصوص مدّة الاستخفاء قبل الجهر بالدعوة ؟

الدرس 19

الجهر بالدعوة وإنذار العشيرة الأقربين.

المشتهر في الأخبار أنّ الجهر بالدعوة كان بعد ثلاث سنين من الإسرار بها. وأنّ الجهر بالدعوة تدلّ عليه من آيات القرآن الآية من سورة الحجر: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾.

و كذلك الآية من سورة الشعراء في الأمر بإنذار العشيرة الأقربين هي أيضا من الآيات الدالّة على الأمر بالجهر بالدعوة وهي: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

فيستفاد أنّ الأمر بإعلان الدعوة وبإنذار العشيرة الأقربين كلٌّ منهما كان في ظرف واحد.

[مما جاء لبعض مؤلفي السيرة في ترتيب الدعوة أنّه كان أوّلا: النبوة والإسرار بالدعوة ثلاث سنين. ثمّ: إنذار العشيرة الأقربين. ثمّ إنذار قومه وهم عامّة قريش وسكان مكة. وهذا كان في السنة الرابعة من بدء الوحي. ثمّ إنذار قوم ما أتاهم من نذير وهم عامّة قبائل العرب وهذا كان عندما ابتدأ عليه الصلاة والسلام في عرض الدعوة على القبائل في مواسم الحج وأسواق العرب. ثمّ إنذار كافة الشعوب وسائر أمم الأرض إلى يوم القيامة. وكان إبداء هذه المرتبة بعد هدنة الحديبية سنة ست من الهجرة. فكاتب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ملوك الأرض ورؤساء الأمم والجماعات يدعوهم إلى الإسلام].

و الذي جاء من روايات الأخبار في صورة ما بدأ به الرسول صلّى الله عليه وسلّم تنفيذ أمر الجهر بالدعوة وإنذار عشيرته الأقربين يبلغ عدّة روايات بينها بعض التغاير بزيادة حكايات بعض الوقائع في البعض منها وإغفال ذلك في البعض الآخر. كما يوجد - أيضا - تفاوت بين هذه الروايات. فتذكر الأولى - مثلا - حادثا لم تذكره الثانية ، بينما تكون الثانية أشارت إلى

حادث آخر لم تتعرض له الأولى.

و ذلك بالنسبة للموضوع الواحد والظرف المتحد. وقد يكون - تارة- مصدر التغاير والتفاوت تعدّد الواقعة واختلاف الظرف. إذ ممّا لا شكّ فيه أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يكن له من مواقف التبليغ في هذه الرتبة رتبة الجهر بالدعوة وإنذار عشيرته الأقربين - الموقف والموقفان فقط- بل كانت له المواقف المتعدّدة المتكرّرة. وكان عليه الصلاة والسلام يتخير الوسائل المختلفة ويتخّذ الأساليب المتنوّعة. ويتحيّن الفرص ويراعي مقتضيات الأحوال والظروف. وكلّ ذلك ممّا ينجم عنه اختلاف ما ينقل في هذا الموضوع من الأخبار وتباين ما يحكى من أحداث على أنّه يتعلّق بالقصّة الواحدة. ولذلك فإنّ عامة ما جاء في هذا الباب من روايات تبدو كأنّها متنافية ليس فيها منافاة لبعضها البعض. والتوفيق بين ما يرى مختلفا منها حاصل بوجه الجملة.

و المراد بالعشيرة الأقربين بالنسبة إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم قبيلة بني عبد مناف بعامّة بطونها وتشتمل على بني هاشم وبني المطلب وبني عبد شمس وبني نوفل. فكلّ هؤلاء أولاد عبد مناف بن قصيّ.

و ممّا جاء من الروايات في شأن إنذاره صلّى الله عليه وسلّم عشيرته الأقربين ، رواية تفيد أنّه لمّا نزل الوحي عليه صلّى الله عليه وسلّم بالآية من قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ اشتدّ ذلك عليه صلّى الله عليه وسلّم. وضاق به ذرعا. فمكث جالسا في بيته نحو شهر ، حتى ظنّ عماته أنّه شاكٍ أي مريض. فدخلن عليه عائدات. ولمّا جرى الكلام بينه صلّى الله عليه وسلّم وبينهنّ قال لهنّ: «ما أشتكيتُ شيئًا ولكن الله أمرني بقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فأريد أن أجمع بني عبد المطلب لأدعوهم إلى الله!».فقلن له صلّى الله عليه وسلّم: «ادعهم ولا تجعل فيهم عبد العزى فإنّه غير مجيبك إلى ما تدعو إليه.»و تعني عمّاته صلّى الله عليه وسلّم بعبد

العزى عمّه **أبا لهب*** لأنّ هذا هو اسمه ، وأبو لهب كنيته.

فلمّا كان من الغد بعث صلّى الله عليه وسلّم إلى بني عبد المطلب فحضروا عنده صلّى الله عليه وسلّم بمنزله وكان فيهم أبو لهب. فجاء في هذه الرواية أنّه صلّى الله عليه وسلّم اقتصر في هذا المجلس الذي جمع طائفة من عشيرته على مجرّد إخبارهم بما أنزل الله عليه من آية إنذار العشيرة الأقربين. وبمجرّد ما سمع ذلك أبو لهب بادر بإغلاظ القول للرسول صلّى الله عليه وسلّم. وأسمعه المكروه. وكان مما قاله له: «تبّا لك! ألهذا جمعتنا ؟ » وأخذ حجرا يريد أن يرمي الرسول صلّى الله عليه وسلّم به! فسكت الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولم يقم بشيء آخرفي الموضوع زيادة على ما أخبرهم به من نزول الآية. وممّا ورد في طريق من هذه الرواية أنّ أبا لهب كان عندما حضر هذا المجلس باستدعاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم يخامره ظنّ بأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يريد أن يرجع عمّا هو عليه من شأن الدعوة وأنّه يريد أن ينزع عمّا يكرهون إلى ما يحبون.

و بتأثير هذا الخيال على أبي لهب فإنّه شرع يتكلّم عندما حضر منزل الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتقدّم هو للكلام قبل أن يعرف ما عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي هو صاحب الدعوة.

فكان ممّا قال مخاطبا الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «هؤلاء عمومتك (و في لفظ زيادة قوله وبنو عمومتك) فتكلّم بما تريد واترك الصبأة. واعلم أنّه ليس لقومك بالعرب طاقة[1] وأنّ أحقّ من أخذك وحبسك أسرتك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش وتمدّها العرب فما رأيتُ يا ابن أخي أحدا قطّ جاء بني أبيه وقومه بشرّ. ممّا جئتهم به.» أي وبعد كلام أبي لهب هذا تكلّم الرسول بما عرّفهم به بنزول آية إنذار العشيرة الأقربين. فواجهه أبو لهب

(1) هكذا في نسخة الحلبية وفي نسخة النبوية: " واعلم أنّه ليس للعرب بقولك طاقة" ويظهر أنّ الأوّل أقرب معنى.

بالغلظة كما تقدّم ذكره. وجاء أنّ بهذه المناسبة نزل من القرآن سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.

و من الروايات - أيضا - في كيفية ما بدأ به الرسول صلّى الله عليه وسلّم إنذار عشيرته الأقربين ما ورد عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه صلّى الله عليه وسلّم استدعى بني عبد المطلب ، وكانت عدّتهم أربعين أو خمسة وأربعين رجلا. وفيهم امرأتان فجمعهم في دار أبي طالب وصنع لهم مأدبة[1] طعام من رجل شاة ومدٍّ من البر وصاع من لبن. فقدّمت إليهم جفنة الطعام فقال صلّى الله عليه وسلّم: «كلوا باسم الله!» (و في لفظ) قال: «ادنوا عشرة عشرة» فدنا القوم كذلك. فأكلوا حتى شبعوا ثمّ ناولهم قعب[2] اللبن فجرع هو عليه الصلاة والسلام منه. ثمّ ناولهم منه فشربوا جميعا حتى نهلوا[3]. وكان الواحد منهم يأكل الجذعة بتمامها. ويشرب العس[4] من الشراب في مقعد واحد!.

ثمّ بعد ذلك أراد عليه الصلاة والسلام أن يشرع في الكلام معهم. فبادره أبو لهب قائلا للقوم: «لقد سحركم محمد سحرا عظيما!» وفي لفظ: «ما رأينا كالسحر اليوم!»

فعدل الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن الكلام وتفرّق القوم من دون أن يسمعهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم شيئا ممّا كان يريد أن يكلّمهم به.

يقول عليّ رضي الله عنه (في هذه الرواية): «فلمّا كان الغد قال صلّى الله عليه وسلّم يا عليّ عد لنا بمثل ما صنعت بالأمس من الطعام والشراب». قال ففعلت ثمّ جمعت القوم له فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا. فتكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في القوم ، فقال: «يا بني عبد

---

(1) المأدُبة: بضمّ الدال وبفتحها. ويقال الأدُبة بضمّ الهمزة وإسكان الدال: الطعام الذي يدعى إليه.

(2) القَعْبُ: بفتح القاف وإسكان العين: قدح كبير.

(3) نهل: مكسور في الماضي. مفتوح في المضارع. ومعناه هنا الكفاية وبلوغ الغاية من الريّ.

(4) العُسّ: بضم العين المهملة. وتشديد السين المهملة: اسم لما كبر من أواني الشراب.

المطلب إنّ الله تعالى قد بعثني إلى الخلق كافّة وبعثني إليكم خاصة فقال: "وأنذر عشيرتك الأقربين" وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان. شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازرني على القيام به ؟ »

قال عليّ رضي الله عنه فقلت: «أنا يا رسول الله!» (أي وكان عليٌّ أحدث القوم سنًّا) وسكت القوم جميعا. فقال صلّى الله عليه وسلّم لعليّ: «اجلس!». ثمّ أعاد له صلّى الله عليه وسلّم القول على القوم بما تقدّم ثانيا. فصمتوا. وقام عليٌّ فقال: «أنا يا رسول الله». فأعاد له القول صلّى الله عليه وسلّم: «اجلس!». وأعاد صلّى الله عليه وسلّم القول على القوم لثالث مرّة. فلم يجبه منهم أحد!. وأعاد عليّ رضي الله عنه قوله: «أنا يا رسول الله!». فأمره الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالجلوس كذلك.

[نبّه البعض من الأئمّة على ما في بعض الروايات هنا من زيادة مصنوعة ألصقت بهذا الحديث وليست صحيحة. وفيها ثناء من الرسول صلّى الله عليه وسلّم على عليّ رضي الله عنه يصفه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه خليفته ووصيّه ، ونحو هذا. قال.. وهي باطلة وضعها واضعوها لغرض تنقيص بعض أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم كأبي بكر وعمر... إلخ].

و جاء في رواية أخرى عن عليّ رضي الله عنه أنّه صلّى الله عليه وسلّم أمر خديجة رضي الله عنها ، فصنعت طعاما أي بمنزله عليه الصلاة والسلام. وأمر عليّا رضي الله عنه أن يجمع له بني عبد المطلب. فحضروا وكانوا نحو أربعين شخصا. وهذه الرواية تغاير الأولى التي تفيد أنّ الاجتماع كان بمنزل أبي طالب. فمن الجائز (بل الأقرب) أنّ الواقعة تعدّدت بالمرّات. لأنّ من الروايات ما يفيد أنّ صنع الطعام هذا تكرّر ثلاث مرّات.

و من الروايات في إنذاره صلّى الله عليه وسلّم عشيرته الأقربين أنّه صلّى الله عليه وسلّم جمعهم يوما فخطبهم وكان ممّا قاله: «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النّار! يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النّار. يا بني

عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النّار. يا بني زهرة أنقذوا أنفسكم من النّار. يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النّار. فإنّي لا أملك لكم من الله شيئا» - وفي لفظ - «لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلاّ أن تقولوا: لا إله إلاّ الله! غير أنّ لكم رحما سأبلها ببلالها[1]».

[نبّه الأئمّة في هذا الموضع على ما جاء في بعض الروايات من زيادة في قوله عليه الصلاة والسلام: «أنقذوا أنفسكم من النّار يا بني فلان... يا بني فلان... » ومن تلك الزيادة ذكر ابنته فاطمة وزوجه عائشة، وغيرهما... فهذه الزيادة ليس هذا محلها إذ لم تكن فاطمة موجودة... ولا عائشة... وإنَّما ورد في كلامه صلّى الله عليه وسلّم ذكر فاطمة وعائشة وغيرهما من أمثالهما في مواعظ أخرى قام بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في وقت آخر، أي في المدينة المنوّرة. إذ من المعروف أنّ هذا الأسلوب من خطب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومواعضه تكرر منه صلّى الله عليه وسلّم في المناسبات العديدة، وفي أوقات مختلفة. فذكر فاطمة وعائشة ومثلهما هو من خلط بعض الرواة بالنسبة لهذا المحل].

و بعد هذا مكث صلّى الله عليه وسلّم بعض أيّام ثمّ نزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى. فجمعهم صلّى الله عليه وسلّم ثانيا وخطبهم. وكان ممّا خطبهم به في هذه المرّة قوله عليه الصلاة والسلام:

«إنّ الرائد[2] لا يكذب أهله! والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم! ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم! والله الذي لا إله إلاّ هو إنّي لرسول الله

---

(1) بلَّ، يَبُلّ: بالضم في المضارع. والمصدر البلّ بالفتح والبلل بفتحتين. والبلّة بالكسر. ومعناه تندية الشيء بالماء والبَلال بفتح الباء وكسرها وضمّها اسم لما يبّل به الحلق من ماء أو لبن ونحوه. والمعنى في هذه العبارة صلة الرحم وإيصال النفع إليها جهد المستطاع. لأنّه من المستعمل قولهم: بلّ رحمه. بمعنى وصلها. ومما يؤثر: " بلّوا أرحامكم ولو بالسلام".

(2) الرائد: اسم فاعل من فعل راد يرود. والمصدر الرَّوْد بفتح الرّاء على وزن قال يقول قولا. ومعناه الطلب. ويطلق لفظ الرائد على الرسول الذي يرسله القوم لينظر لهم المكان الصالح للنزول والذي به الماء والمرعى لمواشيهم.

إليكم خاصة وإلى الناس كافّة! والله لتموتُنَّ كما تنامون. ولتُبعثُنّ كما تستيقظون. ولتُحَاسَبُنَّ بما تعملون. ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا. وإنّها لجنّةٌ أبدًا. ولنارٌ أبدا! واللهِ يا بني عبد المطلب ما أعلم شابًّا جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به! إنّي قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».فلمّا أتمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كلامه هذا. تكلّم القوم فيما بينهم بكلام ليّن إلاّ ما كان من أبي لهب. فإنّه قال: «يا بني عبد المطلب هذه - والله- السوأة. خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم. فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم. وإن منعتموه قُتلتُم!» فقالت له أخته **صفيّة* بنت عبد المطلب** رضي الله عنها (و هي أمّ الزبير بن العوام): «أي[1] أخي! أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله مازال العلماء يخبرون بأنّه يخرج من ضئضئي[2] عبد المطلب نبيّ فهو هو!».فقال أبو لهب: «هذا - والله- الباطل والأماني وكلام النساء في الحجال[3] . فإذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قُوَّتُنَا بهم ؟ فواللهِ ما نحن عندهم إلاّ أكلة رأس!».فتكلّم أبو طالب فقال: «و اللهِ لنمنعنَّه ما بقينا!».

و أمّا ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام العامّة لقومه من قريش وسكان مكة ومن حولها ، فقد جاء فيه من الروايات الرواية التي تخبر بأنّه صلّى الله عليه وسلّم قام يوما على الصفا. (و في لفظ) قام على جبل أبي قبيس. (و في لفظ آخر) أنّه صلّى الله عليه وسلّم وقف على رضمة[4] من

---

(1) أيْ: بفتح الهمزة وإسكان الياء من غير تشديد. أداة نداء وتستعمل في نداء القريب.

(2) ضِئضِئي: بكسر الضادين المعجمتين بينهما همزة ساكنة. ويقال فيه أيضا ضُؤضُؤ بضم الضادين. ويطلق على أصل الشيء والمعدن. وقد حكيت لغة أخرى في الضئضئ بأنه بضادين مهملتين.

(3) الحجال: بكسر الحاء المهملة جمع حجلة بفتحتين. وهي اسم لستر يتخذ في البيت. وأكثر إطلاقه على الستر الذي يتخذ للمرأة العروس.

(4) الرضمة: بفتح الراء وإسكان الضاد المعجمة. واحدة الرضم بالسكون والرضم بفتحتين. والرضام بكسر الراء. وهي الصخور العظيمة. والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع والمصدر الرضم بفتح فسكون. يقال رضم البيت أي بناه بالرضم ورضم الأرض حرثها. والموجود بنسخة الحلبية والنبويّة: "أضمة" بالألف عوض الراء ، ولم يظهر معناه ، فلعلّه تصحيف ؟ .

جبل فعلا أعلاها حجرًا وأخذ يهتف: «يا صباحاه! يا صباحاه[1]!». فلمّا سمع القوم هذا النداء تساءلوا فيما بينهم من هذا الذي يهتف؟ فقيل: محمد! فاجتمعوا إليه في اجتماع شمل العموم حتى أنّ البعض الذي لم يستطع الحضور أرسل رسولا عنه يشهد الحادث ويأتيه بالخبر. فناداهم صلّى الله عليه وسلّم، وعمّ وخص في النداء بقوله: «يا بني كعب بن لؤي! يا بني مرّة! يا آل هاشم! يا آل عبد مناف! يا بني فلان...يا آل كذا إلخ...» وكان مما خاطبهم به قوله: «يامعشر قريش إن أخبرتكم أنّ خيلا تخرج عليكم من سفح[2] هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذبوني...؟» قالوا: «ما جربنا عليك كذبا!...» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أغني عنكم من الله شيئًا. إنّي لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد».

و جاء في رواية أخرى من صيغة ما خاطب به الرسول صلّى الله عليه وسلّم قومه لما جمعهم قوله: «إنّما مثَلي ومثَلكم كمثَل رجل رأى العدوّ فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف: يا صباحاه! يا

---

(1) "يا صباحاه": جاء في صيغة "يا صباحاه" بأنّها دعوة معروفة في العرب إذا دعا بها الشخص اجتمعت إليه عشيرته. وظاهر منها أنّها للإنذار. فقد جاء في معنى لفظ الصباح أنّه من جملة ما يدلّ عليه الإغارة. فيقال "يوم الصباح" بمعنى يوم الإغارة لأنّ ممّا اعتيد عند العرب أنّ الإغارة من قوم على قوْم تكون -غالبا- في وقت الصباح. ويدلّ ما في هذه الرواية على أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم استعمل- جريًا على عادة القوم- هذه الصيغة "يا صباحاه" ليتوصّل إلى جمع القوم بما أن ذلك هو الوسيلة الناجعة لمقصده. والذي تدلّ عليه رواية أخرى - وهي ستذكر بعد-أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يستعمل- مباشرة- هذه الصيغة. وإنّما أشار إليها حاكيا لها في خطابه للقوم حينما اجتمعوا إليه فقال لهم: «إنّما أنا مثل رجل رأى العدوّ فصاح بقومه "يا صباحاه"».

(2) سفح الجبل: بفتح السين المهملة وإسكان الفاء وآخره حاء مهملة. وهو أصل الجبل وأسفله الذي يسفح فيه الماء أي ينصبّ. وورد أيضا بلفظ: سنح* الجبل: بالنون عوض الفاء وهو بضم السين. ومعناه الوسط والعرض لأنّه يقال سنح الطريق أي وسطه. ووردت هذه الرواية بلفظ آخر وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلا تغير عليكم من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ »فقالوا: «ما جرّبنا عليك كذبا».

صباحاه! أُتِيتُم! أُتِيتُم! [1]». وممّا ورد من صيغة ما خاطب به الرسول صلّى الله عليه وسلّم القوم وعد من الأمثال البليغة التي اختصّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم بضربها قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا النذير العريان! [2]».

و هكذا كان حال الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذا الظرف العصيب من بدء الدعوة. قام فريدا وحيدا في قوم ذوي شوكة وصلابة يدعوهم إلى نبذ ما هم عليه ممّا يرونه دينا مقدسا عندهم من الشرك بالله وتقاليد ضالّة منكرة.

و في هذا المعنى يقول الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري في قصيدته الهمزيَّة:

ثمّ قام النبي يدعو إلى الله * وفي الكفر شدّةٌ وإباءُ [3]

أُمَمًا أُشرِبتْ قلوبهم الكفر * فداءُ الضلالِ فيهم عَيَاءُ [4] »

و الوارد عن ردّ الفعل من جماعة قريش بعد سماعهم دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان - في الجملة- موقفا سلبيًا. فلم يستجيبوا ولم يردّوا بقبيح. وكان حديث شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا يحتل

---

(1) أتيتم: بالبناء للمفعول بمعنى أتاكم العدوّ. فهو من الثلاثي المجرّد الذي معناه الإتيان والمجيء.

(2) جاء في بيان معنى هذا المثال أنّ المراد به الظهور والوضوح لأنه يقال " عريَ الأمر" يعري بالكسر في الماضي والفتح في المضارع بمعنى ظهر واِتّضح. وأصله التجرّد من الثياب. كما يقال أيضا الحق عار أي واضح بيّن. وفسّر المثال بمعنى آخر. وهو أنّ النذير العريان هو الذي جرّده العدوّ من ثيابه فلم يبق فيه تهمة بل تحقق صدقه فيما يخبر به بخلاف الذي لم يجرّد من ثيابه. فربّما يتهم فيما ينذر به. فالمعنى الأصلي للمثال أنه صلّى الله عليه وسلّم النذير الصادق الذي لا تتطرّق إليه التهمة.

(3) الإباء: بكسر الهمزة ممدودا يطلق على الامتناع تعاظما وترفعا وجاء فعله مفتوحا في كلّ من الماضي والمضارع "أبىٰ ، يأبىٰ".

(4) والعَيَاء: بفتح العين المهملة وتخفيف الياء ممدودا. مصدر "عيي ، يعيىٰ" بالكسر في الماضي والفتح في المضارع الذي معناه العجز. ويستعمل- كما هو هنا- وصفا للداء الذي يعجز عن علاجه ولا يرجى برؤه.

المكانة الأولى في المجتمعات والأندية. وكان من حديث العامة عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان إذا مرَّ بقوم رمقوه بأبصارهم ثمّ قالوا: «إنّ غلام بني عبد المطلب ليكلَّم من السماء!» واستمرّ الحال على هذا الوضع إلى أن كان منه عليه الصلاة والسلام الموقف الذي تناول فيه آلهتهم بالعيب وجابه القوم بما هم عليه من سفاهة عقولهم وضلالتهم في تقليدهم الأعمى لمن مضى من آبائهم ومتبوعيهم في عقيدة الشرك. فقبح عليهم صنيعهم وصرح لهم بما عدُّوه مسًّا بآبائهم وانتقاصا لهم. فعند هذا ناصبوه صلّى الله عليه وسلّم العداء وجهدوا في إلحاق الأذى به صلّى الله عليه وسلّم وبأصحابه الذين آمنوا بدعوته.

و ممّا جاء من الروايات عن هذا الموقف للرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه صلّى الله عليه وسلّم مرّ يوما على القوم وهم بالمسجد الحرام يسجدون للأصنام فخاطبهم بقوله: «يا معشر قريش! والله لقد خالفتم ملّة أبيكم إبراهيم وغيّرتموها...إلخ».

و كان ممّا أجابوا به أنّهم إنّما يعبدون هذه الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى. وأنّهم يعبدونها حبًّا لله! قيل وفي هذا نزل بعض آيات من القرآن كالآية من سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. والآية من سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ردّ الفعل من قوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم على دعوته صلّى الله عليه وسلّم بإظهار العداوة ومقاومته بمختلف الوسائل.

ورد من نص العبارة في ردّ فعل قريش على دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد أن صرّح لهم بتسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم وتضليل

آبائهم وأئمّتهم في الشرك ومنكرات التقاليد أنّه حينئذ شري[1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا[2] وتذامروا[3] عليه وحضّ بعضهم بعضا على عداوته وحربه ومقاطعته. وورد أنّ في هذا الأثناء ذهب ملأ من قريش إلى أبي طالب شاكين إليه الحال بينهم وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فكان من مقالهم لأبي طالب: «إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ينسبنا إلى قلّة العقل وضلّل آباءنا...إلخ فإمّا أن تكفّه عنّا وإمّا أن تخلي بيننا وبينه. فنحن نعلم أنّك على مثل ما نحن عليه من خلافه».

وكان ردّ أبي طالب على كلام الملإ من قريش في هذه المرّة بكلام ليّن رقيق. وتوصّل معهم أن أقنعهم بالانصراف عنه على حالة جميلة.

وأمّا الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقد مضى في القيام بالدعوة لا يألو جهدا في التبليغ ولا يبالي في هذا السبيل بعارض ولا يعبأ بكلّ ما يلاقيه من عقبات. وإثر هذا يتزايد الجوّ تجهّما ويكثر القيل والقال في شأنه عليه الصلاة والسلام. ويملأ ذكره المحافل. وتتكاثر أنواع العداوة والبغضاء في القوم. فيأتي الملأ من قريش أبا طالب - للمرّة الثانية - وكان من خطابهم له في هذه المرّة قولهم: «يا أبا طالب إنّ لك لسنّا وشرفا ومنزلةً فينا. وإنّا قد

---

(1) شرِيَ، يَشْرَى: بالكسر في الماضي والفتح في المضارع. والمصدر الشَّرَى بفتح الشين المعجمة ثمّ راء مقصورة. وهذه المادّة لها عدّة معان والمراد منها هنا تزايد الشرّ وانتشاره لأنّه يقال شرى الشرّ بينهم أي زاد واستطار. كما يقال شري الرجل بمعنى غضب. وشري البرق بمعنى توالى لمعانه وتكاثر...إلخ.

(2) فعل ضغِن: بالضاد والغين المعجمتين وآخره نون. مكسور في الماضي مفتوح في المضارع. والمصدر الضَغَن بفتحتين. والضغن بكسر فسكون ومعناه الحقد وإضمار العداوة. فمعنى تضاغنوا حقد بعضهم على بعض.

(3) وفعل ذمر: بالذال المعجمة ثمّ ميم ثمّ راء. أصله مفتوح في الماضي مضموم في المضارع. ومصدره الذمر بفتح فسكون. وهو متعدٍّ للمفعول بنفسه. يقال ذمره بمعنى تهدّده. ويتعدّى بحرف على فيقال ذمره على كذا بمعنى حضّه عليه مع لوم. فمعنى تذامر القوم حضّ بعضهم على بعض على ما هو كالقتال والعداوة والأذى ونحو هذا.

طلبنا إليك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنّا. وإنّا - والله - لا نصبر على هذا الأمر من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنّا أو ننازله وإيَّاك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين...!». قالوا له هذا ثمّ انصرفوا عنه.

و عند هذا عظم الأمر على أبي طالب وتحرج موقفه بين عداوة قومه وخذلانه للرسول صلّى الله عليه وسلّم بصفته ابن أخيه. فلم تطب نفسه بذا ولا بذاك! فاستدعى إليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكلّمه في هذا الشأن قائلا له: «يا ابن أخي إنّ قومك جاءوني فقالوا لي: كذا....و كذا. فأبق عَليَّ وعلى نفسك ولا تحمَلْني من الأمر ما لا أطيق!».

و تفيد هذه الرواية أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا سمع مقال عمّه أبي طالب هذا داخله الظنّ بأنّ عمّه خاذله وأنّه ضعيف عن نصرته والقيام بمنعته.

و كان جوابه صلّى الله عليه وسلّم لأبي طالب أن قال: «يا عمّ! واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أنزل عن هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركتُه!»...

[يعدُّ هذا المثال الذي ضربه الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الثبات على المبدإ والمضاء في الخطة ورسوخ العزيمة في السير على المنهاج المتّبع من أجل آيات البيان ومعجزات البلاغة العديمة النظير ممّا أوتيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم من جوامع الكلم واختصّ به من جزيل اللفظ] ثمّ استعبر[1] الرسول صلّى الله عليه وسلّم (بمعنى بكى) وقام منصرفا. فلمّا ولّى ناداه أبو طالب فقال: «أقبل يا إبن أخي!» فأقبل الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال أبو طالب*: «اذهب - يا ابن أخي - فقل ما أحببتَ! فواللهِ لا أسلمك أبدا..!».

و جاء في الرواية أنّ أبا طالب زاد في خطابه هذا للرسول صلّى الله

(1) استعبر: أي حصلت له العبرة ، بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة السفلية وآخرها راء، وهو اسم لما يجرى من دمع العين.

عليه وسلّم فأنشأ يقول قصيدته النونيّة المشهورة أثبت منها - في هذا المحل- مؤلف السيرة النبوية[1] الأبيات الخمسة وهي:

والله لـن يـصلوا إليـك بجمعهـم * حتـى أوسـد فـي التـراب دفينـا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة[2] * وأبـشر وقـرّ بـذاك منـك عيونـا

ودعـوتني وزعمـتَ أنـك ناصحي * ولقـد صـدقت وكنـتَ ثَـمَّ أمينـا

وعرضـت دينـا لا محالـة أنـه * مـن خيـر أديـان البريَّـةِ دِينـا

لـولا الملامـةُ أو حـذار مَـسبَّة * لوجـدتني سـمحا بـذاك مبينـا

بعد هذا وضح للقوم من قريش موقف أبي طالب نحوهم ونحو الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وعلموا أنّه غير خاذله بالصفة التي كانوا يحاولون تحقيقها. فعمدوا إلى محاولة أخرى. وكانت هذه المحاولة الأخيرة من أغرب ما يمليه شيطان الطغيان على قرنائه ومن أبعد ما يذهب إليه الغرور بأصحابه ومن أعجب ما تسوّله نفوس أهل العناد لذويها من أماني يرونها وسائل لمقاومة الحق إذا شدد عليهم الخناق وضيّق عليهم المجال.

فورد في الأخبار أنّه حصل اتفاق بين الملإ من قريش على أنّ يقدّموا لأبي طالب عرضا هو في نظرهم صالح لفضّ المشكل الذي بينه وبينهم بسبب الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وذلك بأن يعوّضوه عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم (الذي هو ابن أخيه) شابًّا من قريش فيه الصفات اللاّئقة. فيتبنّاه ويُسلِّم لهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم يفعلون به ما يرونه ناجعا في درء الخطر الذي يأتي منه ولو كان ذلك الفعل القتل نفسه![هذا الإجراء

---

[1] مؤلف السيرة النبوية: الشيخ أحمد زيني دحلان.

[2] الغضاضة: بفتح الغين المعجمة ثمّ بالضاد المعجمة. ولهذه المادّة معان. والمراد باللفظ هنا اسم للمنقصة والحطّة ونحو هذا.

الذي اتّخذه القوم من قريش في مقاومة الإسلام ، وإن كان بالغا أقصى درجة في الغرابة إلاّ أنّهم ليسوا فيه بدْعًا. فمازال الطغاة المتجبّرون قديما وحديثا إلى يومنا هذا يتخذون نظير هذا الإجراء وشبهه بل ونفسه لمقاومة ما يقوم في وجوههم من ردود الفعل على ظلمهم وجورهم ومنكرات تصرفاتهم. وإذا كان هذا الفريق من الناس في القديم والحديث قد تشابهت قلوبهم وتماثلت أغراضهم ، فلا جرم.... تتشابه أفعالهم وتتماثل أقوالهم. سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا].

فورد أنّهم جاءوا أبا طالب - للمرّة الثالثة- جاءوه بعمارة[1] بن الوليد بن المغيرة. وكان عمارة هذا أنهد[2] وأقوى وأجمل فتى في قريش في هذا الوقت. فقدّموه إليه وهم يخاطبونه بأبلغ ما يرونه مؤثرا من عبارات الخطابة. وممّا قالوه: «هذا عمارة خذه لك ابنا - وهو ما تعلم في فتيان قريش- وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك. وفرّق جماعة قومك وسفه أحلامهم...و فعل...و فعل...» إلى آخر ما أجهدوا فيه ألسنتهم من مقال في هذا المنحى الغريب! والمعنى السخيف! وقد أثبتت الأخبار الواردة في هذا المحل أنّ الملأ من قريش كانوا مع أبي طالب صرحاء إلى حدّ أنّهم لم يكتموه بأنّ هدفهم الذي يسعون إليه من الاستيلاء على الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو قتله عليه الصلاة والسلام ما دام هذا هو العلاج الفعّال للخطر الذي نجم عن دعوته صلّى الله عليه وآله وسلّم. وكان جواب أبي طالب على ملتمس الملإ من قريش هذا بما لا يتعدّى حدود المنطق ولا يخرج عن عرف الفطرة أو يشذّ عن المألوف من سنن الكون. فرفض لهم هذا المطلب التعسفيّ رفضًا باتًّا. وندّد بأصل هذه الفكرة

(1) سيأتي في خبر الهجرة إلى الحبشة أنّ عمارة بن الوليد هذا مات بأرض الحبشة موفدا من طرف قريش مع من أوفد لمضايقة مهاجري المسلمين. وقد ورد أنّه مات مجنونا هائما على وجهه في البريّة.

(2) أنهد: فسر بمعنى أشدّ. وهذه المادة لها عدّة معان متقاربة أشهرها الامتلاء والارتفاع.

وعابها وتبرأ منها في أسلوب جمع بين الصلابة واللين. وأظهر من شدّة الشكيمة[1] وقوّة العزيمة مع رفق اللهجة وحسن المقابلة التي قابلهم بها ما قضى به على أطماعهم وجعلهم ينقلبون خائبين يتعثّرون في أذيال الحسرة والخزي.

و من الوارد في صيغة جواب أبي طالب على ملتمس قريش هذا أنّه قال لهم: «بئس ما تسومونني! أتعطوني ابنكم أغذوه[2] لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ أرأيتم ناقة تحنّ إلى غير فصيلها[3] ؟ إنّ هذا الأمر - والله- لن يكون أبدا!!!».

و لمّا باءت قريش بالخيبة المرّة في هذا المسعى مع أبي طالب ، أبى زعيم من زعمائهم وهو المطعم ابن عدي إلاّ أن يوجّه اللّوم على أبي طالب في ختام هذا المجلس فقال له: «و الله - يا أبا طالب- لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلّص ممّا تكره. فما أراك تريد أن تقبل شيئًا منهم!» ولكن أبا طالب لم يكن الرجل الذي فيه قابلية التزحزح عن موقفه مهما كانت الأعاصير والمؤثّرات. فردَّ على المطعم مقاله ونفذ مضمون ذلك اللّوم الجائر. فقال له: «و الله ما أنصفوني ولكن قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم عليّ. فاصنع ما بدا لك!».

[**والمطعم بن عديّ* بن نوفل** بن عبد مناف مات على الشرك. وسجّل له من المواقف المحمودة قيامه في نقض صحيفة المقاطعة التي فرضتها قريش على بني هاشم وبني المطلب بسبب الرسول صلّى الله عليه وسلّم كما سيأتي ذكر ذلك في محلّه.

---

(1) الشكيمة: بفتح الشين المعجمة وكسر الكاف ومعنى هذا اللفظ قريب من معنى الطبيعة والسجية. والعبارة مما يمتدح به. فشديد الشكيمة هو بمعنى شديد الغيرة وما في معنى هذا.

(2) غذا: بالغين والذال المعجمتين، ومضارعه يغذو. والمصدر الغذو بفتح فسكون. معناه إعطاء الغذاء أي الطعام. وهو متعدّ بنفسه كمّا في هذا المثال يقال غذاه ، يغذوه بالطعام وهو بمعنى واحد مع غذى ، يغذّي تغذية المشدّد الذال.

(3) الفصيل: بفتح الفاء وكسر الصاد. هو ولد الناقة أو البقرة. يطلق عليه هذا الاسم إذا فصل عن أمّه.

و له أيضا من هذه المواقف أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم دخل مكة بعد خروجه إلى الطائف في جواره هو أيضا كما سيأتي خبر ذلك في محلّه إن شاء الله].

اشتداد الأزمة بين أبي طالب وفريقه وبين القادة من قريش وتزايد الأذى من المشركين على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وعلى أصحابه.

كان من الطبيعي أن يزداد الحال سوءا بين القوم من قريش من جهة وبين أبي طالب والرسول صلّى الله عليه وسلّم من جهة أخرى بعد خيبة السعي الأخير الذي سعاه القوم لدى أبي طالب ليسلّم لهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم يحكمون في شأنه بما يشاءون. فورد أنّه بعد هذا - وقد رأى أبو طالب من قريش التبييت على الشرّ والمضيّ في سبيل العداء- دعا إليه جميع بني هاشم وبني المطلب. فحضّهم ودعاهم بلسان الغيرة القَبَلِيَّةِ لأن يكونوا معه مناصرين له في حماية الرسول صلّى الله عليه وسلّم والذود عنه ومنع ما يتوقّع من أذى يصيبه صلّى الله عليه وسلّم من طرف قريش الغاضبين الحاقدين ، فأجاب الجمع من بني هاشم وبني المطلب أبا طالب إلى هذه الدعوة ووافقوه عليها بجملتهم إلاّ أبا لهب ، فإنّه شذّ بمفرده وانحاز إلى فريق قريش.

و قد أثبت مؤلفوا السيرة في هذا المحل عدَّة من وقائع الأذى أو محاولة الأذى الصادر من كفّار أهل مكة على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وعلى أصحابه.

فمن ذلك: رواية عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنّه قال: سمعت أبا جهل يقول: عليَّ إن رأيت محمدا ساجدا أن أطأ عنقه... فأخبرت الرسول صلّى الله عليه وسلّم بذلك (و كان بمنزله) فخرج صلّى الله عليه وسلّم مستعجلا وهو غضبان. فأتى المسجد وأسرع أن يدخل من الباب فتسور الحائط ودخل وهو يتلو الآيات من سورة العلق: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ ﴾ ...إلخ حتى بلغ آخر السورة فسجد على مرأى من القوم فقال أحدهم لأبي جهل: «يا أبا الحكم هذا محمد ساجدا فدونك وما كنت أقسمت عليه!». فأقبل أبو جهل يريده صلّى الله عليه وسلّم ثمّ لم يلبث أن نكص على عقبيه راجعا. فقيل له: «مالك ؟ فقال لهم: ألا ترون ما أرى ؟ إنّي رأيت دونه خندقا من نار لو اقتحمته لأحترقت». (و في لفظ آخر من هذه الرواية): «أنّ أبا جهل أقسم أن لو يرى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ساجدا ليرضخنّ رأسه بحجر! ويقول للقوم ثمّ أسلموني عند ذلك أو امنعوني! أو ليصنع بي بنو عبد مناف - بعد ذلك - ما بدا لهم!. فلمّا رأى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ساجدا. أخذ الحجر وأقبل نحوه. وبأسرع ما رجع منهزما منتقعا[1] لونه. وقد التصق الحجر بيديه (و يبست يداه عليه) فلم يمكن نزعه إلاّ بعد جهد جهيد. فلمّا رجع أبو جهل إلى حالته الطبيعية (بعد الفزع الذي أصابه) وسأله القوم عمّا ألمّ به قال: لمّا دنوت منه عرض لي فحل من الإبل ما رأيت مثله قطّ كاد يقتلني». وقد ورد أنّ الآية من سورة "يس" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾[2]. نزلت في واقعة أبي جهل هذه التي حاول فيها إلقاء الحجر عليه صلّى الله عليه وسلّم. وكذلك قيل في الآية التالية وهي قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

أنها أيضا نزلت في واقعة محاولة أذى به عليه الصلاة والسلام،

---

[1] يقال "انتقع لونه" بالبناء للمفعول كما تبدل النون ميما فيقال "امتقع". ومعناه تغير اللون بصفرة مع كدرة كلون النقع بفتح فسكون وهو الغبار.

[2] فعل قمح المجرّد بفتح الماضي وضم المضارع. والمصدر القموح. فهو بوزن خرج. ومن معانيه رفع الإبل رأسها إعراضا عن الشرب. وتزاد فيه الهمزة فيقال "أقمح" أيضا وهو رفع الرأس مع غض البصر حيث يكون ذلك اضطراريًا. ومن هذا قيل أقمح الغل الأسير بمعنى ضاق عليه. فبقي رأسه مرتفعا لا يستطيع خفضه. وهذا المعنى هو الذي تفهم به الآية.

حاول بعض المشركين إلحاق الأذى به صلّى الله عليه وسلّم فعمي بصره ولم ير شيئًا.

كما قيل أنّها نزلت في واقعة أخرى روي حديثها عن الحكم بن أبي العاص. وذلك أنّ ابنته قالت له ما رأيت قوما كانوا أسوأ رأيا وأعجز في أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منكم معشر بني أميّة. فقال لها لا تلومينا يا بنيّة إنّي لا أحدّثك إلاّ بما رأيت. لقد كنّا أجمعنا ليلة على اغتياله صلّى الله عليه وسلّم رأيناه يصلّي فجئناه من خلفه. فسمعنا صوتا ظننّا أنّه ما بقي بتهامة جبل إلاّ تفتّت علينا. فما عقلنا شيئًا حتى قضى صلاته وانصرف إلى أهله. ثمّ تواعدنا على صنيعنا هذا ليلة أخرى. فلمّا جاء نهضنا إليه نريده. فرأينا الصفا والمروة تلتصق إحداهما بالأخرى فحالتا بيننا وبينه.

هذا وقد ذكر أنّ ممّا نزل من القرآن في شأن أبي جهل وأذيّته للرسول صلّى الله عليه وسلّم الآيات من سورة العلق إلى ختام السورة. فجاء في رواية أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يوما يصلي (بالمسجد الحرام) فجاء أبو جهل فآذاه بكلام وقال له فيما قال: «ألم أنهك عن هذا؟».

و فيه نزلت الآية: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿9﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿10﴾ ﴾ وفي رواية أخرى أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّ أتمّ صلاته وانصرف. تعرّض له أبو جهل فأسمعه قبيح الكلام وانتهره[1]. وممّا قال له: «أنك لتعلم أنّ ما بها أكثر ناديًا منّي!». وفي هذا نزلت الآية: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿17﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿18﴾ ﴾.

(1) هكذا موجود في كلّ من نسختي السيرتين الحلبية والنبوية لفظ "انتهره" مسندا إلى أبي جهل أنّه انتهر النبي صلى الله عليه وسلّم ولكن الذي أثبت في عدّة من كتب التفسير عند تفسير الآية وسياق الرواية في الواقعة أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي انتهر أبا جهل وردّ عليه حينما تصدّى له أبو جهل وأسمعه القبيح لصلاته صلّى الله عليه وسلّم فلمّا أغلظ الرسول القول لأبي جهل وانتهره قال أبو جهل -حينئذ- أتهدّدني وإنّك لتعلم أنّ ما بها أكثر ناديا منّي ولأملأنّ عليك الوادي خيلا جردا ورجالا مردا...إلخ... فنزلت الآية.

وكذلك ورد أنّ أبا جهل قال - يوما - للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «لقد علمتَ أنّي أمنعُ أهل البطحاء وأني العزيز الكريم!» وفي هذا نزلت الآية من سورة الدخان من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (43) طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ (44) ﴾...إلخ إلى قوله سبحانه: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ (49) ﴾.

الدرس 20

1- متابعة ذكر وقائع الأذى من مشركي قريش عليه صلّى الله عليه وسلّم.

2- إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

و من وقائع الأذى الذي أوذي به الرسول صلّى الله عليه وسلّم من طرف مشركي مكة ما ورد أنه لمّا أنزل الله تعالى سورة « تبَّتْ يدا أبي لهب وتبَّ »...إلخ وشاع خبر هذه السورة في أوساط المشركين جاءت امرأة أبي لهب وهي المدعوة أم جميل ، واسمها العوراء ، وقيل أروى بنت حرب* أخت أبي سفيان المعروف ، وبيدها فهر[1] ولها ولولة[2] . فجاءت قاصدة مجلس الرسول صلّى الله عليه وسلّم لتؤذيه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حينئذ في مجلس ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فلما رآها أبو بكر على بعد أشار على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يتنحى عن المكان خوفا من أذاها ، حيث قال: يا رسول الله إنها امرأة بذيئة. فلو قمت كي لا تؤذيك. فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: « إنها لن تراني!». فلما جاءت قالت لأبي بكر: «إن صاحبك هجاني!» (و في لفظ): « ما شأن صاحبك ينشد فيَّ الشعر ؟ » فأجابها أبو بكر رضي الله عنه: «لا وربّ هذا البيت ما هجاك وما صاحبي بشاعر»! فأقنعها كلام أبي بكر. ورجعت بعد ما قالت له: « أنت عندي لصادق»! وأخذت تقول: « قد علمت قريش أني بنت سيدها[3] . هذا وقد وردت قصة امرأة أبي لهب هذه ومجيئها نحو الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقصد إذايته بوجوه متعددة متغايرة منها أيضا أنها جاءت ومعه صلّى الله عليه وسلّم صاحباه أبو بكر وعمر ومنها أنّها جاءته صلّى الله عليه وسلّم وكلّمته وهو في ملإ من الناس. ولذلك قال

---

(1) قيل في الفهر بكسر الفاء وإسكان الهاء أنه حجر قدر ما يملأ الكف وهو مستطيل يستعمل في دق الأشياء

(2) الولولة: مصدر ولول. وهو حكاية صوت من يدعو بالويل.

(3) هذه عبارة افتخار قالتها بدافع الغضب الذي تملكها.

البعض أن مجيء امرأة أبي لهب هذا تكرر لعدّة مرات.

فجاء في الرواية التي تثبت وجود عمر بن الخطاب بمجلس الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنها لما وصلت المجلس لم تر الرسول صلى الله عليه وسلم فكلمت أبا بكر فقالت: «أين صاحبك؟» قال: وما تصنعين به؟» قالت: «بلَغني أنه هجاني والله لو وجدته لضربت فاه بهذا الحجر!» فقال عمر رضي الله عنه: «ويحك! إنه ليس بشاعر!» فقالت له: «إني لا أكلمك يا ابن الخطاب!» (علّق على هذا بأنها تجنبت عمر بن الخطاب لما هو معروف به من شدته، خلاف ما عليه أبو بكر من اللين). وأقبلت نحو أبي بكر فقالت له: «والثواقب[1]، إنه لشاعر. وإني لشاعرة، فلأهجونَّه كما هجاني!» فلمّا انصرفت وقيل للرسول صلّى الله عليه وسلّم إنها لم ترك! فقال صلّى الله عليه وسلّم: «إنها لن تراني. جعل بيني وبينها حجاب!» (أشير هنا إلى ما جاء في الآية من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

و في رواية أخرى أنها جاءت، ومعها فهران وهي تقول: مُذَمَّمًا[2] أبيْنا* ودينَه قلينا[3]* وأمره عصَينا* فقالت أين الذي هجاني، وهجا زوجي؟ لئن رأيته لأضربنه بهذين الفهرين: فقال لها أبو بكر: «يا أم جميل والله ما هجاك ولا هجا زوجك، وما هو بشاعر» فقالت ما أنت بكذاب وإن الناس ليقولون ذلك ثم ولّت. وجاء في الرواية التي تذكر أنها كلمت الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنها أتت الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو جالس في ملإ

---

(1) الثواقب جمع ثاقب والمراد بها النجوم. وهو قسم أقسمت به.

(2) صيغة مذَمَّم في مقابلة "محمد" على الضد. وكانت هي عبارة أعداء الرسول صلّى الله عليه وسلّم يستعملونها اسما له صلّى الله عليه وسلّم. وقد جاء من الروايات عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "ألا ترون كيف يصرف الله عني سبَّ قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمما ويلعنون مذمّما وأنا محمد؟ ".

(3) فعل قلى: بمعنى أبغض، وهو مفتوح في الماضي والمضارع. يقال قلاه، يقلاه. وفيه لغة بالكسر في الماضي. فيقال قَلِيَه. يقلاه ومصدره القِلى بالكسر مقصورا. والقَلاء بالفتح ممدودًا.

من الناس فقالت: « يا محمد علام تهجوني ؟ » فقال صلّى الله عليه وسلّم: « والله إني ما هجوتك ما هجاك إلا الله!». فقالت: « أرأيتني أحمل حطبا؟ أو رأيت في جيدي حبلا من مسد[1] ؟ ».

و قد جاء للمفسرين فيما تشير إليه هذه الآية من حمل الحطب والحبل من المسد قولان. القول الأول يحمل ذلك على الحقيقة. وذلك لأنّ امرأة أبي لهب هذه كانت من فرط عداوتها للرسول صلّى الله عليه وسلّم تحمل الشوك والحسك. فتطرحه بباب منزل الرسول صلّى الله عليه وسلّم قصد إذايته بذلك.

و القول الثاني يحمل ذلك على المجاز. فالحطب الذي تحمله معناه السعاية بالنميمة ونقل الحديث بقصد الإضرار. وكانت هذه خصلة امرأة أبي لهب وخصوصا نحو الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فكانت تقوم بالتحريش عليه صلّى الله عليه وسلّم. وجاء في هذا من الروايات ما ورد أنّها عندما بلغها خبر سورة: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ ذهبت إلى منزل أخيها أبي سفيان - وهي مضطرمة[2] غضبى - فقالت له: «ويحك يا أحمس[3] أما تغضب أن هجاني محمد؟... ». فقال لها سأكفيك إيّاه وأخذ سيفه وخرج يريد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالسوء. فلمّا قرب منه صلّى الله عليه وسلّم إذا به يرى نحوه ثعبانا فاغرا فاه لو تقدّم لالتقم رأسه. ولمّا رجع خائبا قالت له: «ما فعلت؟ أقتلته؟» فقال لها: «يا أُخَيَّة أيسرّكِ أنّ رأس أخيك في فم ثعبان؟ » قالت: «لا والله!» قال: «هو ذاك! فقد كان ذلك يكون الساعة لو قربت منه!».

---

(1) قيل في المسد أنّه الليف كما قيل أنّه نبات خاص يكون باليمن تتخذ منه الحبال. وما جاء في هذه الرواية من إنكار امرأة أبي لهب حمل الحطب والحبل في عنقها يراه القائلون بأنّ ما في الآية مجاز عن نقل الحديث بالنميمة وأنّ الحبل هو وعيد لها بعذاب الآخرة. يرون ذلك دليلا لما أخذوا به في تفسير الآية.

(2) مضطرمة: وصف قيل منحرقة من الغضب.

(3) فسّر لفظ الأحمس هنا بالشجاع.

و ممّا ورد من أخبار الأذى الذي أوذي به الرسول صلّى الله عليه وسلّم على إثر نزول سورة: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ﴾... ذلك أنّ أبا لهب - لمّا بلغه ذلك- أمر كلاًّ من ابنيه عتبة (بصيغة التكبير) **وعتيبة*** (بصيغة التصغير) أن يردّا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم ابنتيه اللتين كانتا زوجين لهما وهما رقيّة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما. وجاء هنا أنّه كان قد تمّ عقد نكاح عتبة على رقيّة وعتيبة على أمّ كلثوم. وقبل إنجاز عمليّة الدخول عرض حادث الجهر بالدعوة الإسلامية. وكان الموقف العدائي الذي وقفه أبو لهب من الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ثمّ نزلت السورة المذكورة. فاتخذ أبو لهب هذا الإجراء من جملة ما آذى به الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقال لابنه عتبة: «رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد». وقال مثل ذلك لأخيه عتيبة ، ولما كان عتيبة (بالتصغير) يشبه أباه في التطرّف والإمعان في عداوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فقد أبى أن يقتصر على مجرّد إجابة طلب أبيه في طلاق ابنة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فزاد على ذلك بأن جابه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بموقف بالغ النهاية في الوقاحة وشدّة الأذى فقال لآتينّ محمدا فلأوذينّه في ربّه. فأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم وهو في ملإ من الناس. فقال له: «يا محمد هو كافر بالنجم...» ثمّ بصق في وجه النبي صلّى الله عليه وسلّم وأبلغه طلاق ابنته. [قيل في هذه الرواية أنّ عتيبة يريد بالنجم الذي هو كافر به ما نزل في القرآن من قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ إلخ... ويقول البعض على هذا فإنّ واقعة عتيبة كانت بعد نزول سورة النجم ، ولكن عند النظر في سياق القصة يبدو أنّ هذه الواقعة كانت في أوّل ما وقع من الأحداث بناء على أنّ نزول سورة "تبّت" كانت بإثر اجتماع العشيرة الأقربين لإبلاغهم الدعوة. وسورة النجم في المعروف أنّها متأخرة عن هذا الأوان بمدّة. أي بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة ؟]. فكان ردّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أن دعا عليه

فقال: «اللهم سلّط عليه كلبا من كلابك» (و في لفظ) «اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك!» وكان أبو طالب حاضرا هذا المجلس فوجم[1] لهذه الدعوة وقال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «ما أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة».

و رجع عتيبة إلى أبيه. فأخبره بما حدث. وقد تملّكه الرعب من دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقد كان في هذا الأثناء كلٌّ من أبي لهب وابنه عتيبة المذكور على أهبة السفر إلى الشام في القافلة التجارية من قريش. ولمّا خرجت القافلة وفيها أبو لهب وعتيبة. ونزلوا منزلا في الطريق كان حوله دير لأحد الرهبان. أشرف عليهم الرّاهب فحذّرهم قائلا: «إنّها أرض مسبعة!» (و هنا أخذ يتبدى للقوم تحقيق ما دعا به الرسول صلّى الله عليه وسلّم). فقام أبو لهب يحتمي ويستنجد القوم. وكان من مقاله: «إنّكم قد عرفتم حقي ونسبي فيكم!» فقالوا: «أجلْ» فقال: «أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة فإنّي خائف على ابني دعوة محمد!» فكان من جملة الإجراء الذي اتخذه القوم لحماية عتيبة أن جمعوا متاعهم إلى الصومعة وأفرشوا لعتيبة عليه. ثمّ أفرشوا لهم حوله وجعلوا الإبل وأناخوها حول ذلك. وأحدقوا بعتيبة. ولمّا عسعس الليل إذا بالأسد يأتي فيقتحم المنزل على القوم. ويتشمّم وجوههم حتى يصل عتيبة فيضغمه[2] ضغمة كانت القاضية عليه!. ويقول عتيبة -و هو بآخر رمق- «ألم أقل لكم أنّ محمدًا أصدق الناس لهجة...؟» ولمّا مات قال أبوه: «قد عرفت - واللهِ- ما كان لينفلت من دعوة محمد!».

---

(1) فعل وجم مفتوح في الماضي مكسور في المضارع. ومصدره الوجم بإسكان الجيم ، والوجوم. وله معان منها السكوت عجزا عن الكلام من شدّة الغيظ أو الخوف. ومنها العبوس وإطراق الرأس من شدّة الحزن* أو الغمّ أو الإشفاق... وغير ذلك.

(2) فعل ضغم بالضاد والغين المعجمتين. مفتوح في الماضي والمضارع. ومصدره الضغم. بفتح فسكون. ومعناه العض بملء الفم. وأكثر ما يسند إلى الأسد. ولذلك سمي الأسد بالضيغم ، وورد في الرواية أيضا أنّ الأسد ثنى ذنبه وضربه به ضربة واحدة. فخدشه ، فمات مكانه.

[وهكذا كانت دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على عتيبة هذا الذي أشبه الكلب في وقاحته وقبح ما أتى به من الإذاية نحو الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، بتسليط كلب عليه. وللأسد شبه بالكلب في بعض الخصائص. فسبحان الحكم العدل الديّان الحكيم].

هذا وقد ورد أنّه أسلم من أولاد أبي لهب - في عام الفتح- **عتبة*** **ومعتب**. وقد عرف في الأخبار- وكما تقدّمت الإشارة إليه- أنّ بنتي الرسول صلّى الله عليه وسلّم رقيّة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما كتب لهما الزواج كلتيهما من عثمان بن عفان رضي الله عنه. فتزوّج رقية أوّلاً. وبعد وفاتها تزوّج أم كلثوم.

و من الأخبار في الأذى الصادر من مشركي قريش عليه صلّى الله عليه وسلّم ، ما جاء في رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال كنّا في المسجد مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلي وكان قد نحر حول المكان جزور[1]. فبقي فرثه وروثه وسلاه[2] ... إلخ. (و في لفظ) إنّ هذه الفضلات كانت بالمكان من منذ يومين أو ثلاثة. فقال أبو جهل: «ألا رجل يقوم إلى هذا القذر ، فيلقيه على محمد؟ » (و في لفظ) قال: «ألا تنظرون إلى هذا المرائي ؟ أيكم يقوم إلى سلا هذه الجزور ثمّ يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه ؟ » فقام أحدهم (و في لفظ) فقام أشقى القوم عقبة بن أبي معيط. وجاء بذلك القذر فألقاه على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو ساجد. وعند ذلك أغرق القوم في الضحك حتى جعل بعضهم يميل على بعض من شدّة الضحك! (يقول ابن مسعود رضي الله عنه): فهبنا أن نلقي ذلك القذر عنه صلّى الله عليه وسلّم. (و في لفظ) قال: «و أنا قائم أنظر ولو

---

(1) الجزور: بفتح الجيم. اسم لما يجزر من الحيوان وأكثر إطلاقه على الإبل. ويطلق على كلّ من الذكر والأنثى. ولفظه مؤنث.

(2) السلا: بفتح السين هو الغلاف الجلدي الذي يكون الجنين داخله في بطن الأمّ. ويعرف باسم المشيمة ، بفتح الميم وكسر الشين في الإنسان خاصة.

كانت لي منعة لطرحته عن ظهر الرسول صلّى الله عليه وسلّم. حتى جاءت فاطمة بنته صلّى الله عليه وسلّم - بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها بذلك- فطرحته عنه. وقد استمرّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ساجدا. وبعدما طرحت فاطمة رضي الله عنها ذلك القذر عنه صلى الله عليه وسلم أقبلت على القوم تشتمهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه ثمّ قام النبي صلّى الله عليه وسلّم يصلي فسمعته صلّى الله عليه وسلّم يقول: «اللهم اشدد وطأتك[1] على مضر. اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. اللّهم عليك بأبي الحكم بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد وأمية بن خلف» (و في لفظ آخر من الرواية): فلما قضى الرسول صلّى الله عليه وسلّم صلاته دعا عليهم فقال: «اللهم عليك بقريش» ثمّ سمّى الأشخاص المذكورين. (و في لفظ): - رفع يديه صلّى الله عليه وسلّم ودعا عليهم- وكان إذا دعا دعا ثلاثا فقال صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم عليك بقريش!» وكرّر ذلك. فلمّا سمعوا دعوته صلّى الله عليه وسلّم ذهب عنهم الضحك وهابوا الدعوة.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: والله لقد رأيت النفر الذين سمى الرسول صلّى الله عليه وسلّم هنا صرعى يوم وقعة بدر. فسحبوا إلى القليب[2].

وجاء من التعليق على ما في هذه الرواية أنّ المراد بسني[3] يوسف

---

(1) لفظ الوطأة له معان. والمراد هنا الأخذة الشديدة الألم والحادث الذي يكون له ضغط على النفس.... وما في معنى هذا.

(2) القليب: بفتح القاف وكسر اللام. اسم للبئر وربما خصص بالبئر المهجورة. ولفظه يذكّر ويؤنث. وقد كان هذا القليب ببدر. كما سيأتي ذكر ذلك في محلّه. وجاء من التعليق على ما في خبر ابن مسعود هذا بأن المراد معظم القوم المذكورين لأن منهم من لم يلق في القليب، وهم الثلاثة المذكورون أخيرا: فعقبة بن أبي معيط قتل بعرق الظبية، وعمارة بن الوليد مات مجنونا بأرض الحبشة، وأمية بن خلف قتل ببدر. ولكن لم يلق بالقليب.

(3) المراد بسني يوسف السنون السبع الشداد المشار إليها بآيات سورة يوسف في حكاية رءيا عزيز مصر.

القحط والجدْب ، وقد استجاب الله دعوة رسوله صلّى الله عليه وسلّم هذه. فأصابت قريشا إثرها سنة عصيبة حتى أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام والعلهز[1]. وصار الشخص منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من تأثير الجوع حتى جاءه صلّى الله عليه وسلّم جمع من المشركين فيهم أبو سفيان يسترحمونه. مما قال له بعضهم: «يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة وقد هلك قومك. فادع الله لهم.» فدعا صلّى الله عليه وسلّم لهم. فسقوا الغيث وعاودتهم الرفاهية. فعادوا إلى ما كانوا عليه من حالهم معه صلّى الله عليه وسلّم بالأذى وأعمال العدوان حتى انتقم الله منهم بوقعة بدر. وإلى هذا تشير الآيات من سورة الدخان في قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ⑩ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ⑪ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ⑮ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ⑯ ﴾.

[وممّا جاء أيضا أن الآية من سورة القلم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ... ﴾ إلخ.

هي في مشركي قريش حيث دعا عليهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالقحط. فأصابتهم سنة مسّتهم فيها المجاعة.... أي على أن ضمير بلوناهم يعود على القوم من قريش. وأنّ الفعل من الابتلاء بقحط العيش والبلوى بسني الجذب].

فالبطشة الكبرى هي ما أصابهم من الهزيمة في وقعة بدر. هذا وقد تعلّق بهذا المحل بحث ، نظرا لكون هذه الدعوة التي دعاها الرسول صلّى

[1] العلهز: بكسر العين المهملة وإسكان اللام ثمّ هاء مكسورة وآخره زاي. وجاء في تعريفه أنّه طعام يتخذ من أوبار الإبل تخلط بالدم ثمّ يشوى على النار ، يؤكل لسدّ الرمق في وقت المجاعة. وهكذا كانت إجابة دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على القوم الذين ألقوا عليه القاذورات عوقبوا بالاضطرار إلى أكل القاذورات والحاجة إليها. ومن أعدل من الله حكما...؟ !.

الله عليه وسلّم على قريش وبنفس الصيغة المذكورة. وردت بها روايات أخرى على أنها كانت بعد هجرته صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة. فكان صلّى الله عليه وسلّم يدعو - بالصيغة المذكورة- بعد رفعه من الركعة الأخيرة في صلاة الصبح. (و في لفظ من الرواية) بعد رفعه من الركعة الأخيرة في صلاة العشاء. وجاء في هذه الروايات من دعائه صلّى الله عليه وسلّم هذا أنّه كان يدعو فيه لنجاة المستضعفين من المسلمين الذين كانوا في قبضة المشركين من قريش بمكة. وقد آل البحث ببعض من بحث هذا المحل من الأئمة إلى القول بأنهما واقعتان اثنتان قبل الهجرة وبعدها نظرا لكون كلٍّ من الروايتين تعتبر صحيحة.

[والرواية التي تفيد أنّ هذه الدعوة من الرسول صلّى الله عليه وسلّم كانت بمكة هي ممّا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وكذلك تأويل الآية من سورة الدخان بأنّ العذاب هو عذاب القحط والبطشة هي وقعة بدر. كل ذلك نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه. ونقل عنه أنّه استدلّ على التأويل المذكور للآية بقوله وهل عذاب الآخرة ممّا يكشف قليلا؟ أي أنّ العذاب المذكور في الآية هو من عذاب الدنيا الذي يتأتى أن يكشف ، بخلاف عذاب الآخرة ، فلا كشف فيه ولا تخفيف. والرواية التي تفيد أنّ صيغة هذه الدعوة كانت بالمدينة. ودعا بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في صلاته. واشتهر أنّها صلاة الصبح. فعرف الدعاء المذكور باسم القنوت. هي من صحيح الروايات باتفاق. ويرى الكثير أنّها أشهر من مقابلها. والوارد في تعيين تاريخ هذه الدعوة وكونها بالمدينة أنّها فيما بعد غزوة أحد. وقد عرف أنّ غزوة أُحُد كانت أواخر السنة الثاثة من الهجرة. وهي متأخرة عن غزوة بدر بأزيد من سنة.

و أمّا تأويل الآيات المذكورة من سورة الدخان المقابل لما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه فيذهب إلى أنّ الدخان الذي يغشى الناس ، هو من أحداث قيام الساعة ، وأنّ البطشة الكبرى هي ما يكون من عذاب الله

للكافرين يوم الجزاء في الحياة الآخرة. وجاء هذا التأويل في رواية عن ابن عباس رضي الله عنه، وإذا كانت الرواية التي تفيد أنّ الدعوة كانت بالمدينة تبدو أشهر. فإنّ تأويل الآيات بما جاء عن ابن مسعود يقول فيه بعض أئمة التفسير أنّه الأشهر الذي أخذ به أكثر أهل العلم].

و من هذه الأخبار في الأذى الصادر من المشركين على الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما جاء في رواية عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر رضي الله عنه. وفي الحجر ثلاثة نفر من المشركين جلوس: عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام وأميّة بن خلف. فمرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليهم، فلمّا حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره فعرف ذلك في وجهه صلّى الله عليه وسلّم- قال عثمان: فدنوت منه حتى وسطته (جعله وسطا بينه وبين أبي بكر) وأدخل صلّى الله عليه وسلّم أصابعه في أصابعي. وطفنا جميعا. فلمّا حاذاهم قال له أبو جهل: «و الله لا نصالحك ما بلّ بحر صوفة، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا» فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا ذلك!» ثمّ مشى عنهم. فصنعوا به في الشوط الثاني والثالث مثل ذلك. حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه. ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه صلّى الله عليه وسلّم. (قال عثمان) فدفعت في صدر أبي جهل، فوقع على أسته [1]. ودفع أبو بكر في صدر أميّة بن خلف. ودفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عقبة بن أبي معيط. ثمّ انفرجوا عنه صلّى الله عليه وسلّم، وهو واقف ثمّ قال صلّى الله عليه وسلّم: «أما والله لا تنتهون حتى يحلّ بكم عقاب الله.» يقول عثمان: فو الله ما منهم رجل إلاّ وقد أخذته الرعدة! وجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «بئس القوم أنتم لنبيّكم» ثمّ انصرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى بيته

[1] الأست: بهمزة وصل تطلق في الإنسان على المخرج المعروف بالدبر.

وتبعناه حتى انتهى إلى باب منزله. فأقبل علينا بوجهه فقال: «أبشروا فإنّ الله عزّ وجلّ مظهر دينه ومتمّم كلمته وناصر نبيّه. إنّ هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا ». قال عثمان: ثمّ انصرفنا إلى بيوتنا. فو الله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر».

و من أخبار هذا الأذى ما ورد في رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما ، أنّ عقبة بن أبي معيط وجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم ساجدا فوطئ على رقبته الشريفة وطأ شديدا كادت عيناه صلّى الله عليه وسلّم تبرزان منه.

- وفي لفظ -: دخل عقبة الحجر فوجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم يصلي. فوضع ثوبه على عنقه صلّى الله عليه وسلّم وأخذ يخنقه خنقا شديدا. وأدركه - على هذا الحال- أبو بكر رضي الله عنه. فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يقول: «أتقتلون رجلا أن يقول ربيّ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم!؟».

و في رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ما رأيت قريشا أصابت من عداوة أحد ما أصابت من عداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولقد حضرتهُم يوما وقد اجتمع ساداتهم وكبراؤهم في الحجر، فذكروه صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: «ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط. وقد سفّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرّق جماعتنا وسبّ آلهتنا لقد صبرنا منه على أمر عظيم». فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأقبل يمشي حتى استلم الركن. ثمّ مرّ طائفا بالبيت. فلمّا مرّ بهم لمزوه ببعض القول. فعرفنا ذلك في وجهه. ثمّ مرّ بهم الثانية فلمزوه بمثلها. فعرفنا ذلك في وجهه صلّى الله عليه وسلّم. ثمّ مرّ بهم الثالثة فلمزوه كذلك. فوقف عليهم وقال: «أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح!» يقول عبد الله: فارتعبوا لكلمته صلّى الله عليه وسلّم تلك وما بقي رجل منهم إلاّ كأنّما على رأسه

طائر واقع. فصاروا يقولون: «يا أبا القاسم انصرف فو الله ما كنت جهولا!» فانصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر -وأنا معهم- فقال بعضهم لبعض: «ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون: «أنت الذي تقول كذا وكذا...؟» (أي من عيب آلهتهم ودينهم...إلخ) فقال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم! أنا الذي أقول ذلك!» فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه عليه الصلاة والسلام فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله...؟» فأطلقه الرجل ووقعت الهيبة في قلوبهم. فانصرفوا عنه صلّى الله عليه وسلّم. فذلك أشدّ ما رأيتهم نالوا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

و جاء في لفظ آخر من هذه الرواية أنّ القوم لمّا تواثبوا إليه صلّى الله عليه وسلّم كانوا يقولون له: «ألست تقول في آلهتنا كذا وكذا...إلخ؟» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «بلى!» فتشبثوا به بأجمعهم. فأتى الصريخ إلى أبي بكر. فقيل له: «أدرك صاحبك!» فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم والناس مجتمعون عليه فقال: «ويلكم! أتقتلون رجلا أن يقول ربيّ الله. وقد جاءكم بالبينات من ربكم!؟» فكفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأقبلوا على أبي بكر يضربونه. وتقول بنته أسماء رضي الله عنها: " فرجع إلينا فجعل لا يمسُّ شيئًا من غدائره[1] إلاّ أجابه وهو يقول: «تباركت يا ذا الجلال والإكرام!»".

و جاء في هذه الرواية أنّ القوم جذبوا رأس الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولحيته حتى تساقط أكثر شعره. فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول: «أتقتلون رجلا أن يقول ربيّ الله...؟» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «دعهم

(1) الغدائر: جمع غديرة. وهي ضفائر شعر الرأس، وعبارة الإجابة هنا مجازية. المراد بها تساقط الشعر.

يا أبا بكر! فو الذي نفسي بيده إنّي بعثت إليهم بالذبح!» فانفرجوا عنه صلّى الله عليه وسلّم.

و من هذه الأخبار في الأذى الواقع عليه صلّى الله عليه وسلّم ما جاء في رواية عن بنته صلّى الله عليه وسلّم فاطمة الزهراء رضي الله عنها أنّ الملأ من قريش اجتمعوا- يوما- بالحجر وتذاكروا شأنه عليه الصلاة والسلام فسمعتهم يقولون: «إذا مرّ علينا فليضربه كلُّ واحد ضربةً. فرجعت فاطمة رضي الله عنها إليه صلّى الله عليه وسلّم وهو بمنزله فأخبرته الخبر وهي باكية... فقال لها صلّى الله عليه وسلّم يا بنيّة اسكتي (لا تبكي...!) ثمّ توضّأ صلّى الله عليه وسلّم وخرج من فوره. فقصد المسجد حيث القوم. فلما دخل عليهم رفعوا رءوسهم ، فأبصروه ثمّ نكسوا رءوسهم. فقبض عليه الصلاة والسلام قبضة من تراب ورمى بها نحوهم ، وهو يقول: «شاهت[1] الوجوه».

و ممّا جاء عن الأذى الصادر عليه صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يسكن بجواره صلّى الله عليه وسلّم كلّ من أبي لهب وعقبة بن أبي معيط والحكمَ بن أبي العاص. فكانوا يطرحون على باب منزله صلّى الله عليه وسلّم أنواعا ممّا يحصل به الأذى له صلّى الله عليه وسلّم من شوك وقذر ونحو ذلك. فكان صلّى الله عليه وسلّم إذا وجد ذلك ربما يأخذه ويخرج به إلى الملإ ليريه للعموم وهو يقول: «يا بني عبد مناف أيُّ جوار هذا ؟!... » ثمّ يلقيه جانبا.

و جاء من أنواع ما كان يؤذيه صلّى الله عليه وسلّم به القوم ويقاومون به الدعوة ، أنّه إذا قرأ القرآن ليسمعه الناس تقف عدّة من القوم يمينه ، وأخرى يساره. ويأخذون في التصفيق والصفير. وسائر ما يقع به التشويش من الهتاف بإنشاد الأشعار ونحو ذلك ، حتى لا يمكن من أراد

(1) شاهَ: فعل من باب قال. وهو لازم* بمعنى قبح. فمعنى شاهت الوجوه قبحت تلك الوجوه. وهي عبارة ذمّ. وقد وردت كثيرا عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يطلقها على فئة أهل البغي والعدوان من أعدائه.

الاستماع إليه أن يسمع شيئا. ولهذا كان كلّ من يريد استماعه صلّى الله عليه وسلّم يأتي لذلك خفية يسترق السمع استراقا....

و من وقائع الأذى الواقع على الرسول صلّى الله عليه وسلّم الواقعة التي كانت هي السبب لإسلام عمّه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وورد في هذه الواقعة أنّ أبا جهل مرَّ على الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالصفا، وقيل بالحجون. فآذاه وشتمه وصبّ التراب على رأسه صلّى الله عليه وسلّم. وقيل بل ألقى عليه بعض القاذورات ووطئ برجله على عاتق الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ولم يكلّمه الرسول صلّى الله عليه وسلّم - في هذه المرّة - بشيء حتى انصرف أبو جهل إلى نادي قومه وأخذ يحدّثهم (أي في هذا الشأن!... وغيره). ووقع أنّ مولاة لعبد الله بن جدعان كانت تسكن حذو محلّ الواقعة شاهدت ذلك الفعل من أبي جهل. ولم يلبث حمزة رضي الله عنه أن أقبل متوشحا سلاحه. وكان راجعا من قنصه[1] وكان من عادة حمزة رضي الله عنه إذا رجع من عمله في القنص أن لا يدخل منزله إلاّ بعد أن يطوف بالبيت. فلمّا مرَّ على تلك المولاة، أخبرته بما شاهدت من اعتداء أبي جهل على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وذكرت له ما كان من الرسول صلّى الله عليه وسلّم من عدم ردّه بشيء على أبي جهل - وفي طريق من الرواية - أنّ المولاة التي أخبرت حمزة هذا الخبر هي مولاة لأخته صفيّة بنت عبد المطلب - ويذكر في طريق آخر من الرواية - أنّ حمزة رضي الله عنه عندما كان راجعا من قنصه كانت امرأتان تمشيان خلفه، وهما تتحدثان كأنّهما تريدان إسماعه. فتقول إحداهما للأخرى (مشيرة إلى حمزة)...«لو علم ماذا صنع أبو جهل بابن أخيه لأقصر[2] عن مشيته

---

(1) القنص: بفتح فسكون. هو الصيد. والفعل منه من باب ضرب، أي مفتوح في الماضي مكسور في المضارع.

(2) فعل أقصر المزيد بالهمزة. يستعمل في الإمساك عن الشيء وتركه. والمراد هنا أنه لو علم بما وقع لأبدل مشيته بما هو أسرع. وقد نبّه مؤلفو السيرة على أنّ ما جاء في الروايات في اختلاف المخبر لحمزة، وكونه المولاتين أو المرأتين بأنّه لا ينافي بعضه البعض. ولا مانع من أن يكون الجميع وقع.

هذه...» فألتفت حمزة إلى المرأة، فقال لها: «و ما ذاك ؟...» قالت: «أبو جهل فعل بمحمد كذا وكذا...» وحكت له جميع ما وقع. فاحتمل الغضب حمزة رضي الله عنه. وذهب من فوره. فدخل المسجد ووجد أبا جهل جالسا وسط القوم فمضى إليه. وما لبث أن ضربه بالقوس على رأسه فشجّه[1] شجّة منكرة. ثم كلّمه فقال له: «أتشتمه (يعني الرسول صلّى الله عليه وسلّم) وأنا على دينه أقول ما يقول...؟ فردّ عليَّ ذلك إن استطعت!»...

و جاء في الرواية أنّه لمّا قام حمزة بالقوس على رأس أبي جهل، صار هذا يلاطف حمزة ويتضرّع إليه قائلا عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «إنّه سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا، وخالف آباءنا...إلخ...» وما كان من جواب حمزة له إلاّ أن قال: «و مَن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله». ثمّ أعلن بشهادة الإسلام حينئذ فقال: «و أنا أشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا رسولُ الله!». وقام قوم من بني مخزوم عشيرة أبي جهل لينصروا أبا جهل، وقالوا لحمزة ما نراك إلاّ قد صبأت. فردّ عليهم حمزة رضي الله عنه بقوله: «وما يمنعني من ذلك وقد استبان لي منه أنّه رسول الله وأنّ ما يقوله حق ؟ » وتحدّاهم بقوله: «و الله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين...!» وتداخل أبو جهل يلاطف حمزة رضي الله عنه فقال لهم: «دعوا أبا عمارة (وهي كنية حمزة رضي الله عنه كما يكنّى أبا يعلى) فلقد أسمعت ابن أخيه شيئا قبيحا!» وهكذا كان إسلام حمزة رضي الله عنه في سورة[2] غضب وبعامل عاطفة الحميّة والحفاظ[3].

---

(1) تقدّم في الدرس الثامن عشر في حديث الإستخفاء بدار الأرقم التعليق على لفظ الشّج وأنّه الجرح بالرأس خاصة.

(2) السورة: بفتح السين المهملة. إسم لحدّة الشيء وشدّته. فكما يقال سورة الغضب، يقال سورة الخمر، وسورة الحمى، وسورة السلطان، ونحو ذلك.

(3) الحفاظ: بكسر الحاء المهملة. وكذلك الحفيظة، يطلق على خلق الذبّ والدفاع عن الحرمات.

فورد أنّه رضي الله عنه لمّا رجع إلى منزله وراجع نفسه فيما صدر منه من إعلان إسلامه بتلك الصورة بات بليلة لم يبت بمثلها قبل ذلك. فتنازعته الأفكار المختلفة بين ما تدعوه إليه التقاليد في المحافظة على دين آبائه وما تراءى له من صدق الدعوة المحمدية. وقد أعلن به في الملإ من الناس. فاحتار في أمره. وصار يدعو الله أن يهديه إلى ما هو الرشد والسداد. فلمّا أصبح ، ذهب إلى حيث الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فشكا له حاله هذا. وممّا جاء من صيغة كلامه في شكواه يخاطب الرسول صلّى الله عليه وسلّم قوله: «يا ابن أخي إنّي قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه. وإقامة مثلي على ما لا أدري أرشد هو أم غيٌّ ؟ شديد!» فأقبل عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم فذكّره ووعظه وخوّفه وبشّره. فانشرح صدره للإيمان واطمأنّ قلبه به. وعند هذا كان منه الإقبال الكامل على اعتناق الإسلام.فشهد بين يدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم شهادة الإسلام موقنا بها ، مخلصا لها. وقال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «أشهد أنّك لصادق» وحثّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم على أن يظهر الدين ، فقال: «فاظهر يا ابن أخي دينك!».

و ممّا ورد في الأخبار من إسلام حمزة رضي الله عنه أنّ إسلامه رضي الله عنه سرّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين معه سرورا عظيما. وذلك من حيث كون حمزة رضي الله عنه معدودا كأعزّ فتى في قريش. وأشدّهم شكيمة[1] وأقواهم شهامة. وممّا تعلّق بخبر إسلام حمزة رضي الله عنه الرواية الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله في آية سورة الأنعام أنّها نزلت بسبب واقعة حمزة مع أبي جهل المتقدّم ذكرها ، وهي

(1) لفظ الشكيمة بفتح الشين المعجمة وكسر الكاف. له معان ومنها المراد هنا ، وهو طبع النفس وسجيتها. فشديد الشكيمة هو بمعنى واحد مع شهم النفس. ويؤدي ذلك معنى خلق الأنفة والإباء والقوّة وذكاء القلب. وقد مرّ التعليق على هذه العبارة في الدرس التاسع عشر.

قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾.

فلإشارة فيها بالميت الذي أحياه الله وجعل له نورا يمشي به في الناس إلى حمزة رضي الله عنه الذي كان ميتا بالشرك فأحياه الله بالإيمان في الواقعة المذكورة. والذي هو مقيم في الظلمات لا يخرج منها هو أبو جهل الذي أقام على ظلمات الكفر والباطل حتى هلك فيها.

[لا يخفى أنّ ما جاء في رواية ابن عباس عن آية سورة الأنعام ليس المراد منه أنّ معنى الآية مقصور على الواقعة المذكورة لا يتعداها ، بل المعنى فيها عام ، لأنّها من باب ضرب المثل. وهو يعمّ سائر الأشباه في كل من كان في مثل حال حمزة وحال أبي جهل ، أي حال كل من كان ضالا فاهتدى. ومن كان ضالاّ واستمرّ على الضلالة حتى النهاية.

و لهذا جاء عن بعض علماء السّلف غير ابن عباس القول بأنّ الإشارة في الآية إلى عمر بن الخطاب وأبي جهل. والقول بأنّهما عمار بن ياسر وأبو جهل وغير ذلك من الأقوال في تعيين شخصيات ما ينطبق عليه المثل].

الدرس 21

1- إيراد بعض وقائع الأذى الصادر من مشركي مكة على بعض الصحابة رضي الله عنهم.

2 -تنويع الوسائل التي اتخذها أولو الأمر من قريش لمقاومة الدعوة.

جاء منَ أخبار ما أوذي به أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، أنّه لمّا بلغ المسلمون في دار الأرقم ثمانية وثلاثين نفرا وهم يعبدون الله ويتعلمون الإسلام سرّا ، لمّا بلغوا هذه العدّة ارتأى أبو بكر رضي الله عنه أن يخرجوا إلى المسجد وأن يعلنوا إسلامهم في الجماهير قصد الدعاية ، وراجعه الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذه الفكرة قائلا: «إنّا قليل». ولكنّ أبا بكر ألحّ في الخروج ولم يزل بالرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى وافقه على الخروج. فخرجوا إلى المسجد. وقام أبو بكر يخطب في الناس (و قد ترك الرسول صلّى الله عليه وسلّم المجال لأبي بكر. فكان جالسا لم يتكلّم). فخطب أبو بكر في الناس ، ودعا إلى الدين (فهو أوّل خطيب في الإسلام). وكان ردّ الفعل من المشركين على هذا أنّهم ثاروا على المسلمين يضربونهم الضرب الشديد. وكان أبو بكر رضي الله عنه من أوّل أهدافهم. فضرب رضي الله عنه ضربا شديدا ، ووطئ بالأرجل. وممّا ورد أنّ عتبة بن ربيعة ، أحد زعماء المشركين ، كان ضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين [1] (مطبقتين) يحرفهما إلى وجهه ، حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه. ثمّ لمّا بلغ الخبر قبيلة بني تيم (قوم أبي بكر) جاءوا فأجلوا المشركين عن أبي بكر ، واحتملوه إلى منزله في ثوب ، وهم لا يشكّون في موته. ونادى منادي بني تيم في الملإ يتوعّدون المعتدين على أبي بكر رضي الله عنه.

و أقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلُنَّ عتبة بن ربيعة. واجتمع بنو تيم على أبي بكر في منزله ، فكان أهله يكلمونه وهو لا يجيب. واستمرّ الحال هكذا عامة النهار ، حتى إذا كان آخر النهار ، تكلّم رضي الله عنه. فكان أول ما نطق به هو أن استفهم عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «ما فعل

---

(1) الخصف: بالخاء المعجمة و الصاد المهملة بفتح فسكون. هو إلصاق طبقة تزاد على الطبقة الأولى في النعل. فالنعل المخصوف هو المطبق عليه مثله. و الفعل منه من باب ضرب.

رسول الله؟ » فعذله[1] القوم في هذا السؤال. وبقي هو يكرر لهم السؤال المذكور، فقالت له أمّه والله ما لي علم بصاحبك هذا. فقال لها اذهبي إلى أمّ جميل[2] بنت الخطاب، فاسأليها عنه. فخرجت أمّه حتى أتت أمّ جميل، فسألتها وقالت لها أنّ أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله. وكان جواب أمّ جميل - بعامل الحذر - أن أنكرت كلّ شيء. فقالت لها أنا لا أعرف محمدا ولا أبا بكر! ثمّ رأت أم جميل أن تذهب مع أمّ أبي بكر فتنظره. فأتت معها. ولمّا قابلت أبا بكر ووجدته صريعا من جرّاء ما حدث له من أذى المشركين. لم تتمالك أن صاحت تقول: «أنّ قوما نالوا منك هذا لأهل فسق وإنّي لأرجو الله تعالى أن ينتقم منهم». ولمّا سألها أبو بكر عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكيف حاله؟ أومأت إليه بأنّ أمّه تسمع الحديث. (هكذا كان موقف أمّ جميل رضي الله عنها موقف الحذر وأخذ الحيطة. فلم تأمن جانب أمّ أبي بكر مادامت لم تدخل الإسلام... حتى طمأنها أبو بكر بأنّ أمّه ليست مما يخشى جانبه ولو أنّها مازالت لم تدخل الإسلام) فقال لها لا عين عليك منها - أي أنّها ليست محلّ ريبة ولا خطر منها لإفشاء السّر - وحينئذ أخبرته عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقالت: هو سالم فسألها أين هو الآن؟ فقالت في في دار الأرقم! وعند هذا قال أبو بكر والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم! فأمهلوه حتى إذا سكن الناس. وهدأت الأرجل. خرج يتكئ على البعض، ومنهم أمّه، حتى دخل دار الأرقم حيث كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم وجماعة المسلمين معه. ولمّا اجتمع أبو بكر بالرسول صلّى الله عليه وسلّم رقّ له الرسول صلّى الله عليه وسلّم رقّة شديدة وأكبّ عليه يقبّله. وكذلك

(1) العذل: بالعين المهملة والذال المعجمة. وهو من باب ضرب ومن باب نصر. ومعناه اللوم وأكثر ما يستعمل في اللوم على التعلق بالشيء ومحبّته.

(2) تقدّم التعريف بأمّ جميل وأنها تسمى فاطمة. وهي زوج سعيد بن زيد وأخت عمر بن الخطاب. وكانت من السابقين إلى الإسلام.

فعل الجماعة من المسلمين. وتكلّم أبو بكر عن حاله فقال يخاطب الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ما بي من بأس إلاّ ما نال الناس من وجهي ، وأشار إلى أمّه فقال: وهذه أمّي برّة بولدها ، فعسى الله أن يستنقذها بك من النّار». فدعا لها الرسول صلّى الله عليه وسلّم بخير. ودعاها إلى الإسلام فأسلمت حينئذ. (و هذا ممّا يدلّ لما تقدّم ذكره من أنّ **أمّ الخير*** وهي أمّ أبي بكر أسلمت في العهد الأوّل للإسلام).

و على ذكر هذه الواقعة في الأذى الواقع على أبي بكر رضي الله عنه. فقد ذكر هنا - استطرادا - (فذكر هذه الواقعة هنا يعتبر مقدما عن محلّه إذا اعتبر الترتيب بحسب التاريخ.) ما وقع له رضي الله عنه من أذى وابتلاء في سبيل الإسلام والدعوة إليه وهو حادث محاولته الهجرة من مكة. وكان هذا بعد هجرة الصحابة رضي الله عنهم الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة. وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذا الأثناء محصورا بشعب أبي طالب مع من حصر معه من بني هاشم والمطلب. فورد أنّ أبا بكر رضي الله عنه خرج مهاجرا من مكة حتى إذا كان ببرك[1] الغماد لاقاه زعيم قبيلة القارة[2] ، وهي من فروع بني الهون - بضم الهاء - بن خزيمة بن مدركة. وقد اشتهرت هذه القبيلة بإجادة الرّمي حتى سمّوا برماة الحدق. وزعيمها المذكور هو الحرث بن الدغنة[3]. وكان له معرفة خاصة بأبي بكر رضي الله عنه.

---

(1) برك الغماد: جاء أنّه بفتح الباء ، وقد تكسر وسكون الراء وبكسر الغين المعجمة وقد تضم. وبتخفيف الميم وآخره دال مهملة. وهو موضع قرب الساحل بين الحجاز واليمن. وذكر أنّ بينه وبين مكة مسيرة خمسة أيام. ويفهم من هذا أنّ أبا بكر كان - في الأغلب - يقصد أرض الحبشة حيث هاجر عامّة الصحابة قبله.

(2) ذكر في اسم القارة أنّه في الأصل اسم لأكمة سوداء كانت القبيلة المذكورة تنزل حولها. فسميت باسمها. والأكمة* بفتحتين مفرد. وجمعه آكام وأكم. وهو يطلق على المرتفع من الأرض كالتل والرابية ، ونحو ذلك.

(3) ذكر في لفظ الدغنة أنّه بفتح الدال المهملة وكسر الغين المعجمة ثمّ نون مفتوحة مخفّفة. كما جاء أنّه بضم الدال وضمّ الغين وتشديد النون.

فسأله عن خروجه فقال أين تريد يا أبا بكر ؟ فأجاب أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنة: إنّ مثلك يا أبا بكر لا يخرج إنّك تكسب[1] المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. وأنا لك جار. فارجع فاعبد ربّك ببلدك. فرجع أبو بكر مع ابن الدغنة ، وطاف به ابن الدغنة على أشراف قريش في مجامعهم يعلن جواره له ، ويذكر تلك الخصال الخيرية التي تحلّى بها أبو بكر ، فكان يقول لهم أنّ أبا بكر لا يخرج مثله[2] ولا يخرج. أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويفعل.... ويفعل ؟ إلى آخر ما ذكر من الخصال. وأخيرا قال لهم: «إنّ أبا بكر في جواري!» ، ولم يسع القوم إلاّ أن يقبلوا بجوار ابن الدغنة ، ولكنّهم اشترطوا عليه أن لا يتظاهر أبو بكر بأعمال الدين والدعوة إليه. فقالوا له: «مُرْ أبا بكر ، فليعبد ربّه في داره وليصلّ فيها ، وليقرأ ما يشاء ولا يؤذنا بذلك ، فلا يستعلن به فإنّا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا والضعفاء منّا». واقتنع ابن الدغنة بهذا الشرط من قريش ، فذكره لأبي بكر وحمله عليه. فمكث أبو بكر رضي الله عنه على هذا مدّة ، وهو لا يقرأ ولا يصلّي ولا يفعل شيئًا ممّا يظهر به الإسلام إلاّ بداخل داره. ثمّ إنّه بعد ذلك ابتنى مسجدا بفناء داره لخاصّة نفسه فكان يصلّي فيه ، ويقرأ القرآن. وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلا رقيق القلب مرهف الإحساس ، شديد الخشوع إذا ما تلا القرآن يغلبه البكاء. فكانت النساء من قريش (وربما غيرهنّ من عامة الرجال) تستمع إليه في مسجده ذلك. حتى كان

---

(1) تقدم في باب بدء الوحي تفسير هذه الألفاظ المتضمنة هذه الخصال الكريمة وأنها من مقال أمّ المؤمنين خديجة تصف بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وقد جاء التعليق لبعض الأئمة على ما في هذه الرواية من وصف ابن الدغنة لأبي بكر الصديق بهذه الخصال المطابقة - تماما - لما وصفت به خديجة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وأفاد أنّ هذا ممّا يدلّ لعلو مقام الصديق. وكونه قد بلغ الذروة العليا في سمو الأخلاق الأمر الذي شابه به الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

(2) جاءت الرواية في حكاية مقال ابن الدغنة هذا باستنكاره خروج أبي بكر وإخراجه معًا. فقال مثله لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ - ببناء أحد الفعلين للفاعل والآخر للمفعول-.

الازدحام يقع حول المكان. ولمّا اطّلع على هذا الأمر كبراء القوم من قريش، أفزعهم ذلك وهالهم، ورأوا فيه عين الخطر الذي يتّقونه -وهو سريان الفكرة في العامّة بعامل الدعوة المؤثّرة- فما كان منهم تجاه هذا إلاّ أن أرسلوا إلى ابن الدغنة فاستقدموه إلى مكة، وأعلموه بما وقع ممّا عدّوه إخلالا من أبي بكر بالشرط الذي اشترطوه عليه مقابل قبولهم بجوار ابن الدغنة له. فقالوا له إنّا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره ولا يعلن ذلك، وها هو قد تجاوز ذلك.

فابتنى مسجدا بفناء داره وأعلن فيه بالصلاة والقراءة (أي بالدعاية إلى الدّين الذي يرونه خطرا عليهم.) وقالوا له ما معناه أنّ الحال بلغ بهم إلى ما كانوا يخشونه من فتنة نسائهم وأبنائهم بما يقوم به أبو بكر من عمل، وأخيراً قالوا له: فإن أحبَّ أبو بكر أن يعبد ربّه في داره وأن يقتصر على ذلك، فليفعل، وإن رأى أن يعلن بأمره فاسأله أن يردّ لك ذمّتك. فقد كرهنا أن نخفرك[1] ونبطل عهدك.

فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر -وهو مقتنع بموقف القوم من قريش- وكان من مقاله لأبي بكر: «قد علمت الذي عاقدت لك عليه. فإمّا أن تقتصر على ذلك وإمّا أن ترجع إليَّ ذمّتي. فإنّي لا أحبّ أن تسمع العرب بأنّي أُخفرتُ في رجل عقدت له». وكان جواب أبي بكر رضي الله عنه لابن الدغنة هنا هو جواب أهل الثبات وأرباب اليقين المطمئنّة قلوبهم بما يؤمنون به من حقّ الواثقين بالحق المعتمدين عليه، فقال له: «فإنّي أردّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله!».

ورد أنّه بمجرّد ما شاع خبر ردّ أبي بكر لجوار ابن الدغنة له، وكان أبو بكر في طريقه إلى داخل مكة فلقيه رجل من مشركي قريش -من عامّتهم-

---

(1) فعل خفر بالخاء المعجمة والفاء والراء. مفتوح في الماضي ويكسر ويضمّ في المضارع. ومصدره الخفر بفتح فسكون والخفر بفتحتين معناه الحماية والتأمين والاسم منه الخفارة، مثلث الخاء، فإذا استعمل مزيدا بالهمزة "أخفر" كما هو هنا كان معناه نقض العهد والغدر. والماضي منه المكسور معناه شدّة الحياء. يقال خفِرت الجارية بالكسر بمعنى اشتدّ حياؤها.

فحثا ترابا على رأس أبي بكر (قصد إهانته) وذهب إلى حال سبيله. وفي الحين مرّ آخر على أبي بكر منهم أيضا، وهو من كبرائهم، فقال له أبو بكر (يشير إلى الذي حثا التراب): «ألا ترى ما صنع هذا السفيه؟» فقال هذا: «أنت الذي فعلت بنفسك ذلك!» (أي بردّ جوار ابن الدغنة).

فكان أبو بكر رضي الله عنه حينئذ يقول: «ربّ ما أحلمك» كرّرها ثلاث مرّات.

و جاء - هنا- من أخبار ما أوذي به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ جمعا من الصحابة اجتمعوا يوما وتناولوا الكلام في إسماع القرآن للمشركين فقالوا: «لم تسمع قريش القرآن جهرا إلاّ من الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فمن فينا يسمعهم القرآن جهرا؟» (زيادة عمّا كانوا يسمعون من الرسول صلّى الله عليه وسلّم).

فانتدب لهذه المهمّة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: «أنا أسمعهم ذلك!» فقال له أصحابه: «إنّا نخشى عليك من القوم أن يعظم بك أذاهم. إنّما نريد لهذه المهمّة رجلا له عشيرة تمنعه وتحميه» (وابن مسعود ليس له ذلك)، فقال: «دعوني أفعل فإنّ الله سيمنعني...!» ومضى ابن مسعود إلى تنفيذ المهمّة. فقام عند المقام وقت طلوع الشمس، وقد إجتمعت قريش في أنديتها. فشرع يتلو رافعا صوته بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ② خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ③ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ④ ... ﴾ إلخ، فتأمّله القوم فعرفوه. فكان من قال: «ما بال ابن أم عبد؟» فقيل: «إنّه يتلو بعض ما جاء به محمد!». فقاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمرّ على تلاوته حتى أتى على أغلب السورة. ثمّ انصرف وقد أدموا وجهه. فقال له الصحابة هذا ممّا كنّا نخشاه عليك! فقال: «و الله ما رأيت أعداء الله أهون عليّ مثل اليوم. ولو شئتم لأتيتهم بمثلها غدا» فأبى الصحابة ذلك عليه وقالوا: «حسبك وقد أتيتهم (أو أسمعتهم) ما يكرهون!».

جاء في الأخبار أنّ في هذا الأثناء الذي أعلن فيه حمزة رضي الله عنه إسلامه جعلت قريش سلوكها في مقاومة الدعوة الإسلامية يتغاير حسب الطبقات الآتي ذكرها:

– ففيما يخص الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحده ، جعلوا يوردون الشبه على الدين ، ويطلبون منه عليه الصلاة والسلام خوارق العادات كدليل لصدق دعوته كما عرضوا عليه صلّى الله عليه وسلّم ضروبا من المغريات ، وعروضا في المساومات ممّا يؤدّي إلى تعطيل الدعوة أو شلّها...و أخيرا يحاولون - بما أمكن- تغطية الحقيقة وإنكار الواقع المحسوس ، والتعامي عنه عنادا وعبثا. وبالنسبة لمن يستجيب إلى الدعوة ويعلن إسلامه المقاومة بالدعاية والتهديد لمن كان ذا مكانة قويّة.

– فإن كان ذا رأي وشرف قالوا له: «ليذهبنّ شرفك وليغلبنّ رأيك».

– و إن كان من أرباب المال والتجارة قالوا له: «لتكسدنّ تجارتك وليهلكنّ مالك».

– و إن كان من ضعفاء الحال استعملوا معه طريقة العنف والشدّة بالضرب والحبس والتجويع والتعذيب بسائر أنواعه. وكان من هذا الصنف فريق نالت منه فتنتهم فارتدّ إلّى الشرك بعد أن كان أعلن إسلامه. وذكر من هذا الفريق: الحرث بن ربيعة وأبو قيس بن الوليد وعلي بن أميّة بن خلف والعاص بن منبه. فكلّ هؤلاء قتلوا بوقعة بدر كفارا.

و الفريق الذي ثبت على الإسلام رغم التعذيب ، منهم من قتل في التعذيب ، ومنهم من مات فيه ومنهم من جاوزه إلى أن فتح الله على المسلمين بالهجرة إلى أرض الحبشة ، ثمّ بالهجرة إلى المدينة.

[من المعلوم أنّ هذه الأعمال الصادرة عن مشركي مكة في مقاومة الدعوة الإسلامية كان يقوم بها أفراد مخصوصون. غير أنّه ممّا تواترت به الأخبار أنّ **أبا جهل بن هشام*** كان أنشط القوم في هذا الميدان حتى أنّ

في بعض الروايات كان الاقتصار على ذكر اسمه بمفرده بأنّه هو الذي قال كذا... وفعل كذا من كلّ ما هو بالغ درجة التطرّف والعنف الخالي من كلّ اتّزان. وربما يتساءل المتسائل هل أنّ موقف أبي جهل هذا الذي جعله يمتاز عن بقيّة أقرانه من زعماء قريش في مناهضة الإسلام كان سببه إخلاصه الزائد لمبدئه في الشرك؟ فالجواب -فيما يرى- أنّ الحال ليس كذلك. إذ لا دليل على كون الرجل يفوق قومه إخلاصا في المبدإ الذي هم عليه. وإنّما الذي يتراءى أنّه العلّة في بروز اسم الرجل في هذا الميدان ليس هو غير كونه زعيما وهو مع ذلك سفيه. فإنّ هذا الصنف من الناس الذين يملكون التصرّف مع كونهم على درجة منحطّة في الخلق وسفاهة في الرأي كان الأحقّ بهم معها أن يكونوا في عداد العامّة التابعة لا في الزعماء والقادة المتصرفين المتبوعين. هذا الصنف من الناس لازال أثرهم -قديما وحديثا- يظهر ويبرز بصبغة الشذوذ المنكرة في كلّ تصرّفاتهم الممقوتة. وأكثر ما تكون الغلبة لهم على من خالفهم في أمر من زملائهم. وكثيرا ما كانت تلك التصرفات منهم عائدة بالضرر عليهم أو على فريقهم. وكلّ هذا من شيء واحد هو " رئاسة وسفاهة "].

الدرس 22

ما جاء من أخبار المستضعفين من المسلمين وتعذيب المشركين لهم قصد إرجاعهم عن الإسلام

يؤخذ من عامّة الأخبار الواردة في هذا الباب أنّ هذه الطائفة من المسلمين الذين بادروا بالسبق إلى إجابة الدعوة الإسلامية وكانوا مستضعفين في المجتمع من حيث أنّهم عبيد مملوكون أو هم عديموا الجوار والناصر تزيد عدّتهم على الثمانين شخصا ما بين رجال ونساء. فهؤلاء هم الذين نالهم التعذيب من طرف أولي الأمر من مشركي قريش والمراد التعذيب المستمّر لا مجرّد الأذى الذي يقع بين الحين والحين. فإنّ هذا كان يقع حتى على ذي المكانة ممن أسلم كأبي بكر وأضرابه. وقد وقع ذلك حتى على الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع قيام عمّه أبي طالب بحمايته كما عرف ممّا تقدّم.

و ممّن اشتهر اسمه وتواتر خبره في تحمّل العذاب من هذه الطائفة المستضعفة عدّة من الرجال والنساء. فمن الرجال: بلال بن رباح الحبشي ، وصهيب بن سنان الرومي ، وياسر العنسي وابنه عمّار وابنه الثاني عبد الله ، وخباب بن الأرت ، وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة. و من النساء: سميّة بنت خباط زوج ياسر وأمّ عمّار ، وحمامة أمّ بلال ، وزنيرة وابنتها ، والنهدية وابنتها ، وأمّ عنيس ، ولطيفة ، ولبينة ، وكذلك ذكرت امرأة قريبة لعامر بن فهيرة أمّه أو أخته.

فممّا ورد في خبر بلال رضي الله عنه أنّه كان مولّدا[1] من مولدي مكّة. وكان في ملك عبد الله بن جدعان التيمي ، أحد زعماء قريش ، كان له في جملة مائة مملوك من المولدين. فلمّا برزت الدعوة الإسلامية ، أمر

---

[1] المولّد: بفتح اللام مشدّدا. صيغة مفعول يطلق - كما هنا - على من كان عربيا غير خالص العربية في نسبه. وجرى غالب الاستعمال على إطلاق هذا اللفظ على كل ما كان محدثا جدّد به القديم ، فيقال "كلام مولّد أو لغة مولّدة" ومن ذلك لفظ المولدين من الأدباء والشعراء وهم من أعقبوا المتقدمين ممن كانوا قبل الإسلام.

بإخراجهم من مكة خشية اعتناقهم الدعوة إلاّ بلالا فإنّه أبقاه يرعى له غنمه. فأسلم بلال رضي الله عنه، وكان يكتم إسلامه - طبعا- وورد أنّه جاء يوما نحو الأصنام المنصوبة حول الكعبة ونال منها ببعض الإهانة. قيل صار يبصق عليها ويقول: «خاب وخسر من عبدكنّ». وشعر به بعض القوم من المشركين وهو يفعل ذلك. فأبلغ خبره إلى سيّده، وبلغ الخبر أيضا إلى الفريق القائم بمناهضة الدعوة. فجاءوا إلى سيّده يشكون له ما وقع من بلال، وممّا قالوا له: «أصبوت أنت؟» فأنكر ذلك! فأعلموه بما صنع مملوكه. فدفع لهم كتعويض وترضية مائة من الإبل تنحر للأصنام، وأطلق لهم اليد في عقاب بلال بما يرونه لازما من العقاب. فقبضوا على بلال وأخذوا يعذّبونه. والمشتهر في الروايات أنّ مالك بلال الذي تولّى تعذيبه هو أميّة بن **خلف* الجمحي** أحد رؤس المشركين والذي قتل ببدر في جملة من قتل من رؤس الشرك وكان قتله بإغراء بلال رضي الله عنه، وهنّأ - يومئذ- أبو بكر بلالا بإدراك ثأره من أميّة. ولذا فإنّ ما جاء من ذكر عبد الله **بن جدعان*** على أنّه هو مالك بلال وقت ما كان بلال يعذّب يظهر أنّه غير مطابق للواقع. وقد أفاد البعض من مؤلفي السيرة - في الجمع بين الروايتين- أنّه يحتمل أن يكون تملّك عبد الله بن جدعان لبلال متقدّما على ملك أميّة بن خلف. وإنّما كان تعذيب بلال في وقت تملك أميّة له [والملاحظ حسبما يتراءى من الأخبار أنّ عبد الله بن جدعان هذا وإن كان من زعماء المشركين، وقد هلك على الشرك -ولعلّه مات أوائل البعثة- إلاّ أنّه لم يسجّل عليه ما سجّل على أمثاله من عصابة الزعماء المشركين، الذين منهم أميّة بن خلف، من الأعمال المنكرة في مقاومة الإسلام. وقد جاء من التعريف به أنّه من بني تيم من قرابة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ولفظ جدعان بضم الجيم ثمّ دال مهملة ساكنة ثمّ عين مهملة، وأنّه كان في ابتداء أمره صعلوكا شريرا. ثمّ تموّل وكان له مآثر في أعمال المعروف. وقد ورد أنّ عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم عنه ذات يوم فقالت أنّ ابن جدعان كان يعمل المعروف ويغيث الملهوف إلخ... فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا! لأنّه لم يقل ساعة من ليل أو نهار ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»].

فمن الوارد من صور تعذيب بلال رضي الله عنه أنّه كان يوثق حبل في عنقه ويدفع للصبيان يجرونه في شعاب مكّة ، ويطوفون به كذلك في أزقّتها ، وهو يقول: «أحد! أحد!»[1].

و منها أنّ مالكه - أميّة بن خلف - كان يجيعه ويعطّشه اليوم واليومين. ثمّ يخرجه وقت الظهيرة فيطرحه على ظهره في الرمضاء[2] ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ثمّ يخاطبه قائلا: «لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد وتعبد اللاّت والعزّى أو تموت» فيجيبه بلال بقوله: «أحد! أحد!».

و لم يزل بلال رضي الله عنه يعذّب وهو ثابت صابر حتى قدّر الله له النجاة والخلاص من هذا العذاب على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقد مرّت الإشارة عند حكاية إسلام أبي بكر إلى ما كان له رضي الله عنه من مآثر جليلة ومنها تخليص طائفة عديدة من هؤلاء المستضعفين الذين كانوا عبيدا في قبضة المشركين. ومن أجل ذلك أذاقوهم مرّ العذاب لمّا أسلموا ،

---

(1) جاء في هذه الصيغة أنّها بالرفع من غير تنوين أو مع التنوين ويفهم من كلام البعض أنّها بالسكون. وورد فيها أنّها إشارة إلى التوحيد ونفي الشرك. فهي نفس اسم الله "الأحد" وقد ورد أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم مرّ على بلال وهو في حال تعذيبه - يوما - فقال له: «سينجّيك أحد»و قيل أنّ ورقة بن نوفل وقف يوما على بلال وهو يعذّب فقال له: «نعم! أحد أحد يا بلال!»ثمّ ذهب إلى أميّة بن خلف فقال له والله لئن قتلتم بلالا على هذا الحال لأتخذنّه حنانا* - بفتح الحاء المهملة وتخفيف النون- بمعنى أنّه يتخذ قبره مزارا يتبرّك به ويترحّم عليه. وقد ضعف نسبة هذا إلى ورقة لأنّ الصحيح موت ورقة قبل البعثة. فلعلّ القائل رجل آخر ؟ .

(2) الرمضاء: بفتح فسكون. يطلق على الرمل حال اشتداد حرارته من تأثير الشمس. قيل أنّ حرارته تنضج قطعة اللحم إذا ما ألقيت فيه. لا فرق بينه وبين النّار. وهذا الاسم مأخوذ من الرمض بفتحتين وهو شدّة وقع الشمس على الأرض.

فقد كان رضي الله عنه يبذل المال الطائل لأولئك المالكين في عتق مماليكهم. فيتخلّصون بذلك من التعذيب.

فممّا جاء من الروايات عن تخليصه لبلال أنّه (أبا بكر) مرّ يوما على بلال وهو ملقى في الرمضاء وعلى صدره صخرة عظيمة فتصدّى إلى مالكه أميّة بن خلف وقال له: «ألا تتّقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذّبه؟» فقال له أميّة: «أنت الذي أفسدته فأنقذه ممّا ترى!» فقال أبو بكر: «إنّ لي عبدا هو أجلد منه وأقوى وهو على دينك أعطيكه به (مبادلة) أفتقبل؟». فرضي بذلك أميّة، فأخذ أبو بكر بلالا وأعتقه فوره.

و ممّا ورد - هنا - أنّ العبد الذي بادل به أبو بكر أميّة يسمّى قسطاس[1]. وكان يأبى الإسلام. وكان لقسطاس هذا زوجة وبنت، وكان يزاول التجارة وبيده مال يتصرّف فيه. فجاء في رواية أخرى أنّه حينما أخذ أبو بكر يساوم أميّة في بلال بيّت أميّة على أن يستغلّ حاجة أبي بكر لتخليص بلال ويتغالى في أخذ العوض عن بلال أقصى ما يمكن. فقال أميّة لأصحابه لألعبنّ بأبي بكر لعبة ما لعبها أحد بأحد. فبعد ما تمّ الاتفاق على أن تكون مبادلة العبدين رأسا برأس، رجع أميّة فتضاحك وقال لأبي بكر: «لا! والله حتى تعطيني مع قسطاس امرأته!» فقال له أبو بكر: «إن فعلتُ تفعل؟» قال: «نعم!»قال: «قد فعلتُ» فتضاحك أميّة ثانيا وقال: «لا والله! حتى تعطيني ابنته أيضا!» قال أبو بكر: «و إن فعلتُ تفعل؟» قال: «نعم!» قال: «قد فعلت!» فتضاحك ثالثا وقال: «لا والله حتى تزيدني على ذلك مائتي دينار!» فقال له أبو بكر: «أنت رجل لا تستحيي من الكذب» وأسمعه توبيخا. فعند ذلك قال أمية: «و اللّات والعزّى لئن أعطيتني ذلك لأفعلنّ!» فقال له أبو بكر: «لك ذلك كلّه!» فأسلم لأبي بكر بلالا مقابل جميع ما طلب منه.

---

(1) قسطاس: بالقاف ورسمه آخرون بالنون (نسطاس)* ويظهر من هذا اللفظ أنّه من لغة الروم.

هذا وقد أفادت بعض الروايات أنّ أميّة بن خلف قال لأبي بكر ، بعد أن أنجزت هذه الاتفاقية بينهما: «لو كنت أبيت شراءه (أي بلال) إلاّ بأوقيّة واحدة لبعتكه بها!» فقال له أبو بكر: «و أنا لو كنتَ طلبتَ فيه مائة أوقيّة لأعطيتكها به».

و توجد روايات أخرى في خبر عتق بلال رضي الله عنه بأنّ للعباس عمّ النبي صلّى الله عليه وسلّم ، يدًا في شرائه ، وعتقه من يد أميّة وقد حمل هذا على أنّ العباس -عملا برغبة النبي صلّى الله عليه وسلّم- سعى لدى أميّة في تخليص بلال أي رغبه في بيعه لأبي بكر.

و ممّا جاء من روايات هنا أيضا أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم لمّا بلغه خبر شراء أبي بكر لبلال أحبّ أن يشارك أبا بكر في ثمن الشراء فقال له: «الشركة يا أبا بكر!» فقال له أبو بكر: «قد أعتقته يا رسول الله!» ويروى في بعض الأخبار أنّ بلالا رضي الله عنه أبدى رغبته لأبي بكر في العتق -عندما دخل في ملكه- فقال له: «إن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني ، وإن اشتريتني لله تعالى فدعني لله تعالى». وعلى كلّ حال فليس طلب بلال هذا هو الحامل لأبي بكر على عتقه وإنما يمكن أن بلالا رضي الله عنه تسارع إلى هذا الطلب ، وبادر به أبا بكر.

و أبو بكر -مع ذلك- كان غرضه العتق على أوّل الأمر كما برهن على ذلك بقية أعماله في شرائه الرقاب الكثيرة وعتقها. وهي رقاب في جملتها لطائفة من الضعفة والعجزة ممن لا يرجى منه فائدة في باب الدنيا كما يدلّ عليه الخبر الآتي ذكره ، والذي يفيد أنّ والده أبا قحافة عاتبه على بذل أمواله في رقاب لا يعود عليه نفع من أصحابها (لضعفهم). فعملية الشراء إنّما عمد إليها أبو بكر رضي الله عنه لكونها الوسيلة الوحيدة لتخليص أولئك الأفراد من قبضة طغاة الشرك حتى يمكنهم القيام بالدين كغيرهم من الأحرار الذين لم تنل منهم قبضة المشركين كما نالت ممن كان مملوكا لهم. كما أنه من لازم هذا العمل في شراء هذه الرقاب خدمة الدين بكسب

أفراد ذوي مواهب في الأعمال الصالحة ظهرت آثارها الجليلة فيما بعد الحرية. وما كانت لتظهر مع الرق الذي كان يشلها ولو مع اعتناق الإسلام، كما تبين هذا من حال بلال وأضرابه.

و مما جاء من الأخبار - في هذا المعنى الذي هو شرف المقصد بابتغاء وجه الله تعالى والعمل لصالح دينه من أبي بكر رضي الله عنه بشرائه رقاب المستضعفين ثمّ تحريرها- الخبر الذي يفيد أنّه بعدما سمع القوم من مشركي قريش نبأ شراء أبي بكر لبلال من أميّة (و على تلك الصورة المتقدم ذكرها)، وكان ذلك أمرا نال من معنوياتهم وزادهم تبكيتا في جملة ما يتوارد عليهم كل يوم من آيات الإسلام القاهرة لهم. فعمدوا إلى ما يخفف عنهم من وقع هذه الحادثة ونسجوا من الاختلاق إشاعة يحاولون بها الحط من قدر الحادثة والتهوين من شأنها، فقالوا: ما اشترى أبو بكر بلالا - على تلك الصفة- ثمّ أعتقه إلاّ لنعمة عليه من بلال ربما كانت سبقت؟ فكافأه بها!؟!.

و جاء في هذا الخبر أنّ بهذا السبب نزلت الآيات[1] من سورة الليل التي ذكر فيها: ﴿ مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿5﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿6﴾ ﴾ والإشارة به إلى أبي بكر رضي الله عنه ومقابله ﴿ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿8﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿9﴾ ﴾ والإشارة به إلى أميّة بن خلف. ثمّ ثنيت الإشارة بالأشقى الذي كذّب وتولّى إلى أميّة. وبالأتقى الذي يؤتي ماله يتزكّى إلى أبي بكر. وختمت هذه السورة بالآية التي أفصحت بنفي أكذوبة المشركين الآنفة الذكر، وبالشهادة لإخلاص الأتقى الذي بذل ماله في سبيل الله وابتغاء مرضاته. وأنّ ليس لأحد عليه نعمة

(1) و هذا القول الذي يقول في هذه الآيات أنّها تشير إلى أبي بكر الصديق وإلى مقابله أميّة بن خلف أو هو أبو سفيان بن حرب، هو القول الذي أخذ به أكثر المفسرين في سبب نزولها. وأمّا الوجه الذي فسّرت به الآية الأخيرة على أنّ الأتقى ليس لأحد عليه نعمة (أي نعمة دنيوية) وحمل ذلك على أبي بكر، فهو أحد وجوه عديدة لتفسير الآية. لأنه قد جاء في تفسيرها ما يغاير هذا الوجه.

جازاه عليها بإنفاق ذلك المال وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ (19) إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (20) وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ (21)﴾!

[ومن المعلوم أنّ هذه الآية هي كآية الأنعام التي سيقت في حديث إسلام حمزة رضي الله عنه. وذكر عنها أنّها نزلت فيه وفي أبي جهل. وذلك هو عموم الحكم وشموله مع خصوص السبب المناسب لنزولها ابتداء. وهذا أمر تقرّر في أسلوب القرآن، وتكرر حتى لا يكاد يخفى على أحد. فالآية وإن نزلت في واقعة أبي بكر وأميّة بن خلف إلاّ أنّها عامّة التعلق لسائر أفراد جنس هذه الواقعة بالإطلاق.]

و من هؤلاء المعذبين في سبيل الله الذين قدّر الله لهم الخلاص على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاشتراهم من أيدي مالكيهم ثمّ أعتقهم حمامة أمّ بلال رضي الله عنهما. فقد كانت هي أيضا كابنها مملوكة وتعذّب لإسلامها. فاشتراها أبو بكر رضي الله عنه وأعتقها.

و منهم عامر بن فهيرة [1] رضي الله عنه. وكان مملوكا لبيت من بني تيم، قبيلة أبي بكر. فكان عامر يعذّب كأشدّ ما يكون حتى يبلغ به الحال أن يتلفّظ بغير وعي منه. فاشتراه منهم أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه.

و منهم أبو فكيهة رضي الله عنه. وكان في ملك صفوان بن أميّة بن خلف الجمحي. وكان أسلم مع بلال لما أنّهما كانا خليطين. وهما في ملك بني جمح. وورد حديث تخليصه على شبه من حال بلال. فورد أنّهم أخرجوه يوما نصف النهار في شدّة الحرّ، وهو موثق بحبل. فطرح على ظهره في الرمضاء ووضعت صخرة على بطنه، فبرز لسانه.

---

[1] ممّا ورد عن عامر بن فهيرة أنّه ممن لمع اسمه في الصحابة بما لا يبعد عن بلال. فقد شهد بدرا وأحدا. وكان أحد الشهداء الذين أصيبوا في بعث بئر معونة المعروف ببعث القرّاء رضي الله عنهم.

و وافق في هذا الحال أن مرّ به أبو بكر رضي الله عنه ، فرآه على تلك الحالة ، وكان القائم على تعذيبه أميّ بن خلف والد صفوان ومعه أخوه أبيّ بن خلف يغريه بالمزيد من العذاب فيقول له: «زده عذابا حتى يأتي محمد فيخلّصه بسحره!» فكلمهم أبو بكر في شرائه. وبذل لهم ما أرضاهم من الثمن فاشتراه وأعتقه. (و في رواية أخرى أنّ الذي تولّى تعذيبه هو مالكه صفوان نفسه. وعمّه أبيّ يغريه).

و من هؤلاء المعذبين في سبيل الله الذين أعتقهم أبو بكر رضي الله عنه من أيدي مالكيهم من كفار قريش طائفة من النسوة ، فيها العجائز والجواري. فذكرت زنّيرة [1] . ويفهم من كلام البعض أنّها كانت في ملك بني زهرة. وحكى البعض أنّها كانت في ملك عمر بن الخطاب رضي الله عنه (وذلك قبل أن يسلم). ويلاحظ في خبر تعذيبها أنّ من تولّى تعذيبها أطلق فيه بأنه فئة الجلادين المباشرين لهذه العملية من المشركين. والبارز اسمه منهم هو الطاغية أبو جهل بن هشام. وورد عن هذه السيّدة أنّها ممن عذّب في الله أشدّ العذاب وأمرَّه ، وكانت -مع ذلك- على موقف من الثبات والصبر ورباطة الجاش شامخ المكانة. فورد من الأخبار أنّها رضي الله عنها فقدت [2] بصرها من تأثير العذاب الذي كانت تلاقيه. واتّخذ المشركون من ذلك طبلا للدعاية لآلهتهم وأشاعوا أنّها ما عميت إلاّ بفعل الأصنام التي كفرت بها. وجاءها أبو جهل في ملإ من قومه ، فقال لها: «أرأيت ما صنعت بك اللّات والعزّى ؟ » فأجابت زنّيرة قائلة: «كلاّ واللهِ ما هو كذلك ولا تملك

---

(1) زِنّيرة: بكسر الزاي. ثمّ نون مكسورة مشدّدة. ثمّ مثناة تحتية ساكنة للمدّ ، ثمّ راء. ذكر أنّه في الأصل اسم للحصاة الصغيرة. كما جاء ضبطه بفتح الزاي وكسر النون مع التخفيف بوزن "سكينة". هذا ما أثبت في كتابي السيرة الحلبية والسيرة النبوية لدحلان. ويوجد في بعض الكتب الأخرى إطلاق اسم "زهرة" أو "زهيرة" عليها أيضا ؟ .

(2) المفهوم من السيرتين الحلبية والنبوية لدحلان أنّ زنّيرة فقدت بصرها حين كانت تعذّب بأيدي كفّار قريش. ويوجد في غيرهما التصريح بأنّها فقدت بصرها بعد الخلاص منهم وهي حرّة بعتق أبي بكر لها.

اللّات والعزّى نفعا ولا ضرّا وما تدري اللّات ولا العزّى من يعبدهما. ولكن ما أصابني هو أمر من السماء. وربي قادر على أن يردّ عليّ بصري!».

و شاء الله أن يصدق قولها ويخزي ظالميها ، فتراجع إليها بصرها بعد ذلك. ومضى القوم المعاندون على غيّهم. فقالوا: وهذا أيضا من سحر محمد!]خبر تراجع بصر زنّيرة إليها أورده البعض مطلقا ولم يشر فيه إلى تحديد المدّة. ونصّ البعض كما في السيرة الحلبية والنبوية لدحلان على أنّ بصرها تراجع إليها في صبيحة الليلة التي كانت تكلّمت فيها بالرّد على دعاية المشركين. وعلى كلّ فالحدث فيه -ولا شكّ- كرامة للحق وأهله مع كونه ليس من صنف خوارق العادة البالغ معنى المعجزة].

و جاء من الروايات ما يفيد أنّ أبا بكر رضي الله عنه كما اشترى زنّيرة وأعتقها ، اشترى وأعتق بنتا لها كانت مملوكة ، وتعذّب لإسلامها هي أيضا.

و ذكر من النسوة اللّاتي اشتراهنّ أبو بكر وأعتقهنّ من أيدي المشركين ، وكنّ يقاسين التعذيب بسبب إسلامهنّ: أمّ عنيس (بالنون) ورسمه البعض بالباء الموحّدة التحتية عبيس. وذكره البعض بالميم عميس. وكانت هذه السيدّة رضي الله عنها تعذّب لإسلامها. وهي في ملك بني زهرة ، ومولاها هو الأسود بن عبد يغوث ، ممن اشتهر بشدّة العداء للإسلام. فكان يعذّبها حتى خلّصها أبو بكر بالشراء ، ثمّ العتق.

و جاء في كلام البعض أنّ أمّ عنيس هذه كانت لها بنت في ملك الوليد بن المغيرة المخزومي تسمّى لطيفة ، وأسلمت كأمّها ، فكانت تعذّب هي أيضا. فاشتراها أبو بكر مع أمّها وأعتقها أيضا.

و جاء من أسماء الإماء اللّاتي كنّ يتلقّين العذاب والإرهاق في سبيل إسلامهنّ ، وتخلّصن من ذلك على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالشراء والعتق ، ذكر النهديّة وابنتها. وفي كلام البعض أنّهما كانتا مملوكتين لامرأة من بني عبد الدّار (و في السيرة الحلبية أنّهما كانتا في ملك الوليد بن المغيرة) فكانت ترهقهما لإسلامهما. ورآهما أبو بكر -يوما- وقد

بعثتهما مولاتهما يحتطبان لها وهي تهدّدهما وتقول: «و الله لا أعتقهما أبدا!» وكان حضور أبي بكر لقصد الكلام معها في شرائهما. فكلّمها وهو يلاطفها قائلا: «كلاّ يا أمّ فلان!» فقالت: «كلاّ! أنت أفسدتهما فأعتقهما!» قال: «فبكم تبيعينهما؟» فقالت بكذا وكذا...(لمقدار ذكرته)، قال: «قد أخذتهما به وهما حرّتان!». وجاء من أسماء هؤلاء الإماء اسم لبينة. وكانت في ملك بني المؤمل[1] بن حبيب. وورد أنّ أبا بكر رضي الله عنه مرّ بها وهي تعذّب لإسلامها. فساوم مواليها في شرائها ولم يفارق المكان حتى أتمّ عقدة الشراء وأردف ذلك بعتقها.

و ذكر من هؤلاء الإماء أيضا امرأة قريبة لعامر بن فهيرة المتقدّم ذكره. لم يضبط تعريفها أهي أمّه؟ أم أخته؟ وجاء من خبرها أنّها كانت جارية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل إسلامه. فكان يعذّبها عندما علم بإسلامها. وصادفه يوما أبو بكر وهو يضربها. وقد فتر عن ضربها بعد أنّ ملّ ذلك. فكلّمه أبو بكر في شرائها فباعها منه وأعتقها أبو بكر.

و ممّا جاء من الأخبار في هذا المحل أنّ في هذا الأثناء الذي قام فيه أبو بكر رضي الله عنه بشراء رقاب المستضعفين من المسلمين ثمّ عتقهم، وبذله في ذلك الأموال الباهظة ممّا ألفت إليه الأنظار عاتبه في ذلك والده أبو قحافة -ولم يكن في ذلك الوقت قد أسلم- وممّا قاله له: «يا بنيّ أراك تعتق ضعافا لن يغنوا عنك شيئًا. فهلاّ أعتقت رجالا جُلْدًا يمنعونك ويقومون دونك!!».

(أفادت بعض الروايات أنّ أبا بكر ردّ عل ما عاتبه به أبوه. فقال له: «يا أبت أو الدنيا أريد؟ إنّما أريد ما عند الله تعالى!»).

و كذلك ورد أنّ أبا سفيان بن حرب عاتبه كذلك. وكان من مقاله له: «لقد أضعت مالك ولن تصيبه أبدا!».

---

(1) و جاء رسمه في بعض نسخ بصورة (الموئل).

و ممّن تواتر خبره في هؤلاء المعذّبين في سبيل إسلامهم خباب بن الأرتّ رضي الله عنه. وهو من الشخصيات البارزة في أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وجاء من خبره أنّه ممّن وقع في الرّق بسبب الأسر الذي يقع بإغارة القبائل بعضها على بعض. فباعه القوم الذين سبوه لامرأة كانت تسكن مكّة تسمّى **أمّ أنمار***. وكان خباب رضي الله عنه قينا[1] يزاول صنعة الحدادة. وكان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يألف خبابا ويجالسه. فلمّا جاء الإسلام ، كان خباب رضي الله عنه ممّن بادر إلى استجابة دعوته. فلمّا اطلعت على ذلك مولاته -وكانت في تيار المشركين المنكرين دعوة الإسلام- أخذت تعذّب خبابًا رضي الله عنه حتى أنّها كانت تحمي حديدة وتكويه بها على رأسه. وشكا خباب ما يلقى منها إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فدعا له الرسول صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم قائلا: «اللهم انصر خبابا!».

و أصاب المعتدية داء برأسها ، فكانت تعوي من شدّة ما تحسّ من الألم كما يعوي الكلب سواء. وأشير عليها في العلاج بالاكتواء ، فكان خباب رضي الله عنه هو نفسه الذي يتولّى إحماء نفس الحديدة التي كانت تكويه بها. فيكويها بها على رأسها (و هي صاغرة). وسبحان الواحد القهّار!!!.

و ممّا جاء من الأخبار عمّا قاساه خباب رضي الله عنه من التعذيب في سبيل إسلامه رواية عنه قال: «لقد رأيتني يوما وقد أوقدوا لي نارا فوضعوها على ظهري فما أطفأها إلاّ ودك[2] ظهري».

و جاءت عن خباب رضي الله عنه رواية له عن النبي صلّى الله عليه وسلّم ، تواترت ، ووردت في الصحاح ، تتعلّق بهذا الباب الذي هو باب الصبر على البلاء في سبيل مبدإ الحق ، تعُدُّ من أروع ما جاء عنه عليه

---

[1] القين: بفتح القاف وإسكان المثناة التحتية ، وآخره نون. قيل فيه أنّه يطلق على الصانع مطلقا. ولكن اشتهر إطلاقه على صانع الحديد خاصة.

[2] الودك: بالدال المهملة وبفتحتين هو الدسم والدهن الذي يكون مع اللحم صادرا من الشحم.

الصلاة والسلام من التعاليم في هذا الباب. يقول خباب رضي الله عنه: «أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهو متوسّد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا (معشر المسلمين) من المشركين شدّة شديدة. فقلت يا رسول الله ، ألا تدعو لنا ؟» فعقد صلّى الله عليه وسلّم محمرّا[1] وجهه فقال: «إنّه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه! ويوضع المنشار على فرق[2] رأس أحدهم فيشقّ...ما يصرفه ذلك عن دينه» ثمّ قال صلى الله عليه وسلّم: «و ليظهرنّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير[3] الراكب من صنعاء إلى حَضْرَمُوت لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه!»...

و ممّن اشتهر خبره من هؤلاء المستضعفين في تحمّل التعذيب وملاقاة الأذى الشديد في سبيل عقيدة الإسلام ، أهل بيت ياسر العنسي بجملتهم فكان كلٌّ من ياسر وزوجه سميّة بنت خباط وابنيه عمّار وعبد الله يلاقي مرّ التعذيب من أيدي جلّادي قريش من أنصار الشرك وحلفاء الضلال والطغيان.

و مما ورد من صورة تعذيبهم أنّهم كانوا يلبسونهم دروع الحديد المحمّاة في اليوم الصائف.

و جاء عن هذه الأسرة أنّها كانت تعذّب في آن واحد مجموعة في مكان واحد. ويمرّ بهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وهم يعذّبون ، فيقف صلّى الله عليه وسلّم تجاههم ويصبّرهم بقوله: «صبرا آل ياسر (مرّتين) فإنّ

---

(1) المتبادر للفهم أنّ احمرار وجهه صلّى الله عليه وسلّم كان من شدّة تأثّره لمقال خباب رضي الله عنه فكأنّه غضب لذلك. وفي هذا ما فيه من قوّة التأثير ، زيادة على أثر المقال البالغ الشأو البعيد فيما يقصد إليه من التربية.

(2) الفرق: بفتح الفاء وإسكان الراء. المراد به هنا الخط الذي يكون في الرأس يفصل بين منابت الشعر. والمفرق بفتح الميم وإسكان الفاء مع كسر الرّاء وفتحها إذا أضيف إلى الشعر فهو اسم لموضع افتراقه.

(3) يسير: بالسين في بعض النسخ. ويظهر أنّه الملائم للمعنى وفي بعض النسخ رسم بالصاد.

موعدكم الجنّة!».

و جاء في لفظ آخر أنّه صلّى الله عليه وسلّم مرّ بهم يوما وهم يلاقون التعذيب ، فقال لهم: «صبرا آل ياسر. اللهم اغفر لآل ياسر».

و جاء عن عمّار رضي الله عنه -كما عن خباب- أنّه كشف يوما عن ظهره ، فإذا هو كالبرص مِن أثر ما كان يكوى به ، فقيل له عن ذلك ، فقال: «هذا ممّا كانت تعذّبني به قريش في رمضاء مكّة» وجاء في بعض الأخبار أنّ الر سول صلّى الله عليه وسلّم دعا له بأن تكون النّار عليه بردا وسلاما كما عن إبراهيم الخليل عليه السلام.

و لاحظ البعض على ما في هذه الرواية مع ما اشتهر من خبر تعذيبه بالنّار بأنّ أثر دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لعمار إنّما كان بعد أن نالت منه النّار قبل ذلك. وقد شكا للرسول صلّى الله عليه وسلّم ما يلقى من العذاب وبالخصوص حرق النّار ، فدعا له الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأن تكون النّار عليه بردا وسلاما. فكان بعد ذلك في مأمن من النّار لا يشكو منها ضررا إلاّ ما كان تقدّم له قبل دعاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

قيل وفي أهل بيت ياسر وتعذيبهم من طرف طغاة قريش نزلت الآيات الفواتح لسورة العنكبوت من قوله عزّ وجلّ: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾.

[وثمّ من يقول أنّ سبب نزول هذه الآيات غير ما ذكر من بيت ياسر بل في طائفة من المسلمين ممن جزعوا من أذى الكفّار لهم بمكّة. وجاء من الأقوال فيها تسمية أفراد آخرين يشبه حالهم حال بيت ياسر. وعلى كلّ فهي عامّة في هذا الموضوع].

و القول المشتهر في كتب السير أنّ ياسرا رضي الله عنه توفيّ في أثناء هذا التعذيب. [ويوجد في عبارات أخرى من كتب التفسير وغيرها

لفظ القتال أيضا بالنسبة لياسر وأنّه قتل كزوجه مع التصريح بأنهما - الاثنين - كانا أوّل شهيدين في الإسلام. وعند التأمل يبدو أنّه لا تعارض. فقد يطلق لفظ القتل على التعذيب الذي يؤدي إلى الموت ، وهو الأمر الواقع بياسر رضي الله عنه حسبما ورد في كتب السيرة. وعلى هذا فغاية ما ثمّ أنّ ما في كتب السيرة أضبط وأكثر تحريرا للعبارة].

و أمّا زوجه سميّة رضي الله عنها ، فقد قتلت فيه قتلا بيد الطاغية أبي جهل ، فقد كانت مملوكة لعمّه أبي حذيفة بن المغيرة وأسلمها إلى أبي جهل ، فتولّى بنفسه تعذيبها. وممّا قال لها الخبيث - يوما - إنّك ما اتبعت محمدا إلاّ لأنّك عشقته لجماله. وكان قتله لها بأن طعنها بحربة. [ممّا يفهم أنّ قتل أبي جهل لسميّة رضي الله عنها كان منه عندما ثارت ثائرته من مساجلة كلاميّة بينه وبينها. ولا يبعد أن يكون ذلك حينما قال لها ما قال من المقال القبيح المذكور. وقد وقع اختلاف بين نسخ الكتب التي ذكرت فيها حكاية قتل سميّة. فبينما يوجد في البعض منها أنّ الطعنة أصابتها في " قلبها " بتقديم اللام على الباء. يوجد في أخرى أنّها في "قبلها" بتقديم الباء فيكون الموضع هو القبل المقابل للدبر. وقد نصّ البعض على صحّة هذا الأخير].

وورد في خبر آخر أنّها ربطت بين بعيرين ووجئت [1] بحربة فماتت.

---

(1) جاء نص العبارة في هذا الخبر هكذا "و وجئت بحربة في قبلها ، فماتت" أي "القبل" بضم القاف والباء. وفعل " وجأ " بوزن وضع ، ومن بابه. والاسم منه الوجاء بكسر الواو وبالمدّ ، وربما جاء بضمّ الواو. ويستعمل هذا الفعل في طعن الشيء من غير تحرّ لموضع معين منه. وهو المراد هنا. كما يطلق أيضا على رضّ الشيء ودقّه مطلق رض كذلك من غير ما يبالغ فيه من مأثرة سميّة رضي الله عنها هذه وما فيها من النكتة التي تلفت الأنظار وتدعو إلى مزيد الاعتبار ، وهي كون أوّل شهيد - على الإطلاق - في الإسلام جاء من جنس النساء.

كتب الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله في مجلّته " الشهاب " بالجزء الثالث من المجلد الثالث عشر المؤرّخ بشهر ربيع الأول من عام ستة وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة ، المقارن لشهر مايه من سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد المسيحي - تعليقا بعدما أورد قصّة تعذيب الشهيدة واستشهادها - تحت عنوان " أوليات النساء في الإسلام" قال فيه ما نصه:

والاتفاق حاصل على أنّ هذه السيدة هي أوّل شهيد في سبيل الإسلام ضحّى بحياته. وكانت حينئذ عجوزًا ضعيفة البنية الجسديّة. فهي مأثرة من أروع ما سجّله التاريخ من المآثر ومثال في بابه فيه العبرة كلّ العبرة وفيه الإعجاب الذي ما فوقه إعجاب!.

أمّا ابنها عمّار رضي الله عنه، فبعد أن تحمّل ما تحمّل من التعذيب، وقاسى فيه ما قاسى من أنواعه، فقد عذّب بالنّار - كما مرّ ذكره - وعذّب بالماء أيضا. فقد ورد أنّهم كانوا يغطونه[1] في بئر تعرف ببئر ميمون، وبعد موت والديه وكان الحال أن يمتدّ به أمد التعذيب طويلا، فاتخذ - للخلاص - مسلك التقية من الأعداء وتلفّظ لهم ظاهريًّا ببعض ما كانوا يرغبون فيه منه من عبارات ترضيهم في جانب الإسلام أو في جانب

«لا تقوم الحياة إلاّ على النوعين اللّذين يتوقف العمران عليهما، وهما الرجال والنساء وفي الإسلام - كتابه وحياة رسوله صلّى الله عليه وسلّم وتاريخ بدايته - آيات وأنباء ووقائع تدلّ على ذلك، وتدعو إلى اعتباره والعمل بموجبه. وانظر إلى حظّ المرأة في السبق إلى تأييد الإسلام بالنفس والمال والعطف والحنان. فأوّل مال وجده رسول الإسلام صلّى الله عليه وسلّم هو مال خديجة. وأوّل عطف لقيه وأوّل قلب انفتح لسماع كلمة النبوّة - كما في حديث بدء الوحي - هو عطف خديجة وقلب خديجة. وأوّل شهيد في الإسلام - كما اتّفق عليه علماء السيرة - هو سميّة. فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلاميّة إلاّ إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم في نطاق عملهنّ الذي حدّده الإسلام، وعلى ما فرضه عليهن من صون واحتشام.» ثمّ أفاد - رحمه الله - تحت عنوان " الأسوة " قوله: «هذه سنّة الله عرفناها في تاريخ البشريّة، لابدّ في سبيل الحقّ من ضحايا!...» ولقد كانت هذه العجوز الضعيفة مثلا رائعا في الصبر والثبات واليقين حتى فازت بتلك الأولية. وكانت في ذلك أحسن قدوة - لا لخصوص النسوة - بل لأهل الرجولة والقوّة. فاللهم إيمانا كإيمان هذه العجوز، وصبرا كصبرها وشهادة كشهادتها. آمين يا ربّ العالمين.

[1] الغط: بالغين المعجمة والطاء المهملة. فعله من باب ردّ. مضموم الغين في المضارع، وحكي كسرها، وربما يستعمل بزيادة الهمزة فيقال أغطُّ. وهو متعدّ بنفسه يستعمل في غمس الشيء في الماء وتغويصه فيه - كما هو هنا - وقد تقدّم في حديث بدء الوحي أنّه يستعمل في الضم والكبس الشديد. والمعنيان متقاربان. وكان جلّادو قريش من المشركين يعذبون من عذّبوه من المسلمين بالغط في الماء لخنق النفس بمقدار ما من الزمن على كرّات طمعا في رجوع المعذّب إلى ما يريدون منه من الردّة عن دينه بعد أن يذوق هذا النوع من العذاب.

الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وهذه خطّة وعادة ربما جرى عليها قديما وحديثا الجبّارون المصيطرون ممن هم في مثل حال مشركي قريش مع من يملكون عليه السلطة إذا قاومهم في سبيل الحقّ. فنراهم يكتفون منه بمجرّد اللفظ ، ويقنعون بالمظهر وهم على يقين بأنّه مظهر زائف ، وعلى تحقيق بأنّه لفظ كاذب وخيال باطل أملاه الإكراه وأنتجه الإرهاب ولكن حرص أهل الباطل على نفوذهم وسلطانهم وجعلهم ينزلون إلى هذه الدركة من سفاسف الأمور. فيعمدون إلى تدعيم ذلك النفوذ - إذا ما عصف به عاصف- ولو بما هو أوهىٰ من خيط العنكبوت من الشكليات الفارغة والمظاهر الزائفة والأقوال الكاذبة. ولا عجب في هذا ، فهو جار على مقتضى طبيعته. فليس يرجى من أهل الباطل إلاّ العمل بالباطل وإلاّ السير على نهج الباطل !!

فورد أنّ عمارا رضي الله عنه تخلّص من التعذيب الذي كان يقاسيه من كفار قريش ، وأفرجوا عنه عندما تلفّظ لهم عن إكراه بعبارات تنال من الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقد كانوا يأمرون من يعذّبونه بسبّ محمد على أن يكون ذلك هو ثمن إطلاق سبيله من أيديهم!.

و أفادت الأخبار أنّ عمارا رضي الله عنه كان على أشدّ ما يكون استياءً ممّا صدر منه من سلوكه هذا المسلك فمضى - بمجرّد إطلاق سبيله من طرف المشركين- إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وكان قد أشيع عنه أنّه ارتدّ وكفر بعد إيمانه. وبلغت الإشاعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فردّها ولم يعبأ بها. فقال صلّى الله عليه وسلّم ممن أبلغه الخبر: «كلاّ! إنّ عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه. واختلط الإيمان بلحمه ودمه!».

و لمّا حضر عمار رضي الله عنه لدى الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان أكثر ما يكون بكاء ، فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «ما وراءك ؟ » قال: «شرّ يا رسول الله! - لقد نلت منك!» فقال له صلّى الله عليه وسلّم: «و كيف وجدت قلبك ؟ » قال: «مطمئنا بالإيمان!» فجعل

الرسول صلّى الله عليه وسلّم يمسح له عينيه من الدموع ويقول له: «مالك ؟ إن عادوا لك فعد لهم بمثل ما قلت!» وهكذا برّر الرسول صلّى الله عليه وسلّم لعمار بن ياسر ما اتخذه في سبيل التقية. وأجاز له ما اتّخذ من الوسيلة لخلاصه بألفاظ جوفاء أكره عليها.

[ليتأمل المتأمل ويلاحظ الملاحظ ويعتبر المعتبر بما في الموقفين المتقابلين منه صلّى الله عليه وسلّم موقفه مع خباب لمّا شكا له ما شكا. وموقفه هذا مع عمّار! فممّا لا شكّ فيه ولا ريب أنّ لكلّ حكمة ولكل وجهة من الصواب والمصلحة الذي لا يمكن ولا يحسن أن يكون كذلك بغيره من الوجوه. يشهد لهذا شاهد الواقع والمشاهدة ويتبين لمن يمعن النظر في الأمور ويوليها حقها من التدبر]. فكان عمار رضي الله عنه محل مثال التقية المشروعة المبررة كما كان أبواه رضي الله عنهما مثال التضحية. وكان بلال ومثله[1] مثال الثبات والسلامة. وبذلك تمّت جميع الأمثلة للتشريع والأسوة في هذا الباب.

و قد جاء أنّ الآية التي نزلت بشرعية التقية في سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿ ... إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ نزلت بسبب حادثة عمّار المذكورة.

و كذلك الآية التي نزلت برفع الحرج في الإكراه من سورة النحل في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ نزلت هي أيضا في حادثة عمار رضي الله عنه.

و يوجد قول لبعض علماء السلف بأن سبب نزول آية النحل في الإكراه هو حادثة جبر الرومي الذي كان قينا يصنع السيوف بمكة وكان ممّن يقرأ الكتب وهو مملوك لعامر[2] بن الحضرمي. وقد أسلم جبر في أوّل

---

[1] و مثل بلال وخباب رضي الله عنهما.

[2] و قد أسلم عامر بن الحضرمي من بعد غير أنّه لم يكن في أهل السبق.

من أسلم، وعذّب لذلك. ووقع له كما وقع لعمّار، حيث أكره على كلمة الكفر. فتلفّظ بها -ظاهرا- ففيه نزلت الآية. ويوجد من الأقوال في الآيتين من حيث سبب النزول غير ما ذكر. وعلى كل، فكلٌّ من آية آل عمران في التقية وآية النحل في الإكراه متعلقهما عام. والحكم فيهما يتناول جميع الأشباه. وينطبق على المجموع من أمثلة هذا الباب.

و ممن ورد اسمه من أجلّة الصحابة فيمن عذّب في سبيل الإسلام، وثبت، وقدّرت له السلامة سالم مولى أبي حذيفة[1] بن عتبة بن ربيعة. وورد أنه كان في الزمرة الذين قبض عليهم في دفعة واحدة، وعذّبوا كذلك وهم سبعة، ياسر وزوجه سميّة وابنهما عمار وصهيب وبلال وخباب وسالم المذكور.

هذا وقد مرّت الإشارة إلى ما أثبته العلماء بالسيرة واستقصاء أخبارها من أن عدّة هؤلاء الأبرار الذين تحمّلوا التعذيب والبلاء في سبيل الإسلام وضربوا الأمثلة النادرة النظير في الصبر والثبات. وخلّدوا في التاريخ الأحدوثة الرائعة الحسن والجمال، والمفخرة البالغة منتهى العظمة والجلال، تزيد عدّة هؤلاء الكرام على الثمانين نسمة ما بين ذكور وإناث، رضوان الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين.

و ممّا جاء أيضا من أقوال العلماء -في هذا الباب- أنّ في شأن المستضعفين الذين عذّبوا في سبيل الدين، نزل من القرآن الكريم السورة -بكاملها- المعروفة بسورة البروج. وذكرت فيها قصّة أصحاب الأخدود، وهم من الأمم السابقة للإسلام. فحكى القرآن العظيم حادثتهم التي هي من جنس ما هو واقع بمستضعفي المسلمين. وكانت -مع ذلك- أروع مثال ومن أشدّه وأقساه في هذا الباب، حيث أنّ أصحاب الأخدود قتلوا -بصورة

---

(1) و مولى سالم هذا وهو أبو حذيفة، هو أيضا ممن سبق إلى الإسلام، وممن ناله الأذى والتضييق من أبيه وعمّه وعشيرته حتى كان من أوّل من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة. فتعذيب سالم لم يكن من جهة مولاه الأصلي كعامة المماليك الذين عذبوا من أيدي مالكيهم.

جماعية - ذكرانا وإناثا تحريقا بالنّار وإلقاء في الأخدود من أجل أمر واحد ، هو إيمانهم بالله !فكان في هذه السورة تثبيت للمستضعفين المعذبين من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وتسلية لهم وحضّ لهم على التأسّي والقدوة بمن سبقهم في هذا الشأن. كما ذلك في الحديث الذي أجاب به الرسول صلّىَ الله عليه وسلّم خبابا عندما شكا إليه شدّة أذى المشركين وسأله الدعاء ، وقد تقدّم نصّ الحديث في حكاية تعذيب خباب رضي الله عنه.

و أورد البعض من مؤلفي السيرة - في هذا الباب أيضا - بعض ما كان يقوم به طغاة الشرك من قريش من الدعاية وما يرجونه من الأقوال المضلّلة في هذا الأثناء الذي أعلن فيه المستضعفون إسلامهم. فكانوا إلى جانب ما يقترفونه من الجرائم والفظائع في تعذيب المستضعفين يزيدون على ذلك رميهم بالسفه والطيش والفساد. وأنّ ما أقدم عليه أولئك المستضعفون من اعتناق الإسلام إن هو إلاّ غيّ صادر عن قلّة العقل واستهتار[1] ناتج عن ضلال الرأي. فيقول أبو جهل: «لا تعجبوا إلى هؤلاء (أي أتباع محمد) لو كان ما أتى به محمد حقّا وخيرا ما سبقونا إليه. أفتسبقنا زنّيرة وأمثالها إلى رشد...؟ »و يقول آخرون: «لو كان الأمر خيرا ما سبقنا إليه فلان وفلان» (ممن يستضعفونهم) إلى غير ذلك من جنس هذا القول الماكر.

و جاء أنّ في هذا نزل من القرآن آية الأحقاف في قوله سبحانه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾.

[ويوجد في أقوال أخرى أنّ الآية تشير إلى مقال اليهود عن عبد الله بن سلام * لمّا أسلم. فكان في ذلك تحدّ لهم وتبكيت وخزي.أو إلى مقال

[1] سيأتي في الدرس الرابع والعشرين تفسير لفظ "الاستهتار".

بعض القبائل التي تخلّفت عن الإسلام ، وقد أسلم من ينافسها من القبائل الأخرى. غير أنّ هذه الأقوال يلاحظ عليها أنّ الآية مكية فتدلّ على كفار مكّة ابتداء. ثمّ هي إذا دلّت على من كان قد أشبه حاله حالهم ممن ذكر بالمدينة ، فهو شأن جميع آيات القرآن. وهذا بناء على ما رجّحه وأكدّه بعض علماء السلف من أنّ جميع آيات سورة الأحقاف نزل بمكة. ومقابله القول بأنّ فيها المدني كالآية الخاصة بشاهد بني إسرائيل وعلى أنّه عبد الله بن سلام].

الدرس 23

1- محاولات من أولي الأمر من كفّار قريش تجاه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وعروض يعرضونها عليه ومفاوضات معه صلّى الله عليه وسلّم.

2- قصة ابن أم مكتوم الأعمى مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

ورد أنّه في الأثناء الذي أسلم فيه حمزة رضي الله عنه وقد رأى الملأ من قريش أنّ جانب الرسول صلّى الله عليه وسلّم آخذ في القوة والمنعة عمد القوم إلى محاولات منهم في صد الرسول صلّى الله عليه وسلّم عمّا هو بصدده من نشر دعوة الإسلام التي أخذ الإقبال عليها يتزايد يوما بعد يوم.

فممّا ورد من هذا أنّه في ذات يوم كان الملأ من قريش مجتمعين في ناديهم وفيهم عتبة بن أبي ربيعة أحد زعمائهم المشهورين ، وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم في المسجد وحده. فقال عتبة للقوم وهم يلحظون الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «ألا أقوم لمحمد فأكلّمه وأعرض عليه أمورا لعلّ يقبل بعضها فنعطيه إيّاها ويكفّ عنّا» ؟ (استشارهم في هذا)... فوافقه القوم على هذا المسعى قائلين: «قم إليه يا أبا الوليد!».

و جاء في رواية أخرى أنّ القوم اجتمعوا ذات يوم اجتماعا شمل كلّ قبيلة منهم. فتذاكروا أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وكان ممّا قيل في اجتماعهم هذا - ووافقوا عليه - انظروا هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وسفه آباءنا وعاب آلهتنا... إلخ... فابعثوا إليه بمن هو أعلم الناس بالسحر والكهانة والشعر فيكلّمه ولينظر ماذا يريد ؟ .و اتفقوا -أخيرا- على الشخص الذي فيه الكفاءة المذكورة ، وهو عتبة بن ربيعة المذكور. فقام عتبة ، فأتى نحو النبي صلّى الله عليه وسلّم وشرع يكلّمه. وجاء من نصّ خطاب عتبة للرسول صلّى الله عليه وسلّم قوله: «إنّك منّا حيث قد علمتَ من الوسط[1]

[1] أثبت البعض نصّ العبارة هكذا: «إنّك منّا حيث قد علمت من السطة والعشيرة...إلخ». ولفظ السطة كما يقال الهبة والثقة والصلة ونحو ذلك ممّا أوّله واو في الأصل. وهي بكسر السين.

في العشيرة والمكان في النسب وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم. فرّقت جماعتهم وسفهت آباءهم - أنت خير- أم عبد الله ؟ (يعني به والد الرسول صلّى الله عليه وسلّم) أنت خير أم عبد المطلب ؟ إن كنت تزعم أنّهم خير منك فقد عبدوا هذه الآلهة التي عبت. وإن كنت تزعم أنّك خير منهم فقل يسمع قولك! لقد فضحتنا في العرب حتى طار[1] فيهم: إنّ في قريش ساحرا ، وإنّ في قريش كاهنا[2]... ما تريد إلاّ أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى! فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلّك تقبل بعضها». فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «قل يا أبا الوليد أسمع قولك!». فقال عتبة: «يا ابن أخي إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالا! وإن كنت إنّما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك! وإن كنت إنما تريد به ملكا[3] ملّكناك علينا. فيصير لك الأمر والنهي. وإن كان هذا الذي يأتيك تابعا من الجن تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أعزَّ ما نملك حتى نبرئك!».

أصلها من لفظ الوسط بفتحتين. ومعناه الخيار والأفضل. ويستعمل لفظها في شرف الحسب. والفعل منها مفتوح ماضيا مكسور مضارعا. يقال وسط يسط سطةً ، أي شرف في حسبه. ولهذا عطف عليها المكان في النسب أي المكانة ، فهو يقول له ما معناه أنّك شريف في الحسب، شريف في النسب.

(1) فعل "طار" يستعمل في انتشار القول والخبر فيقال "طار صيت فلان".

(2) وما جاء في كلام عتبة هنا يفهم منه أنّ قريشا كانت تأنف أن يكون منها الكاهن والساحر ويستنقص ذلك وتعيبه. وإن كان هذا في قبائل أخرى غير معيب.

(3) جملة "فيصير لك الأمر والنهي" يبدو أنّها مما علّق به سياق اللفظ لتفسير لفظ الملك. فليست من نصّ كلام عتبة. وممّا يلاحظ هنا أنّ الملك أخصّ من الشرف. فالملك يقتضي كما هو الحال في ذلك الزمان الاستئثار بالحكم. ولم يكن هذا النظام معروفا عند العرب العدنانية وبالأخصّ قريش. فعرض عتبة هذا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيه أقصى مجهود من القوم بذلوه في المساومة معه صلّى الله عليه وسلّم حيث رضوا بقلب نظامهم المألوف وتغيير وضعهم التقليدي في هذه الناحية إلى ما لم يكن عرف قبل ذلك فيهم قطّ.

و هكذا استمرّ عتبة يعدد أنواع عروضه حتى فرغ منها فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «أقد فرغت يا أبا الوليد»؟. قال: نعم! فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «فاسمع منّي!» قال: نعم! فأخذ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يتلو الآيات من سورة حم السجدة: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿2﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿3﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... ﴾ إلخ.

و كان عتبة ينصت إليه جاعلا يديه خلف ظهره معتمدا عليهما حتى بلغ الرسول صلّى الله عليه وسلّم في تلاوته الآية من قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

و هنا أمسك عتبة بفم الرسول صلّى الله عليه وسلّم قائلا له: «ناشدتك الرحم أن تكفّ!». وبعد ذلك تابع الرسول صلّى الله عليه وسلّم تلاوته حتى بلغ السجدة، فسجد. ثمّ التفت إلى عتبة فقال له: «قد سمعت أبا الوليد، ما سمعت، فأنت وذاك!»

وانصرف عتبة راجعا من عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وكان قومه يرقبونه، فجعل البعض منهم يقسم للبعض: «لقد رجع إليكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!» فلمّا اجتمعوا به سألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: «ورائي أنّي سمعت قولا، والله ما سمعت بمثله قطّ! ما هو بالشعر. ولا هو بالسحر. ولا هو بالكهانة! ولا ولا... يا معشر قريش، أطيعوني فاجعلوها خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه! فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ! فإن تصبه العرب (من غيركم) فقد كُفيتموه، وإن يظهر فملكه ملككم وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به!».

و كان ردّ القوم على عتبة أن قالوا له سحرك، والله، يا أبا الوليد بلسانه! فقال: «هذا رأيي واصنعوا ما بدا لكم...!»

و جاء في رواية أخرى أنّ عتبة انصرف من عند الرسول صلّى الله

عليه وسلّم ولم يرجع لقومه. بل ذهب - أدراجه- إلى داره. فدخل على القوم من ذلك اضطراب شديد. وكان أبو جهل يقول: «و اللاّت والعزّى ما نرى عتبة إلاّ قد صبأ. فقد سحره محمد بلسانه!»

فقصدوه إلى داره ، فكلّموه بما ظنّوه منه من إسلامه فأجابهم بما مرَّ ذكره. وجاء في هذه الرواية أنّ عتبة قال لهم: «و الله الذي نصبها بنية (يعني الكعبة) ما فهمت ممّا قال شيئا غير أنّه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. فأمسكت بفيه فناشدته الرحم أن يكفّ. وقد علمت أنّ محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخشيت أن ينزل عليكم العذاب!» فقالوا له: «ويلك! يكلّمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال... !؟ » فأجابهم بما تقدّم ذكره في الرواية الأولى.

و تذكر بعض الروايات أنّ القوم لمّا أكثروا اللّوم على عتبة فأغضبوه أقسم أن لا يعود - أبدا- للكلام مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم مطلقا!.

و جاء من الروايات في هذا الموضوع أنّه جاء إلى منزل أبي طالب طائفة من مشركي قريش هم القادة منهم والأشراف عدّتهم أربعون شخصا منهم الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، والأسود بن زمعة وأميّة بن خلف ، والعاص بن وائل ، والنضر بن الحرث ، وأبو جهل بن هشام ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البحتري ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وعبد الله بن أبي أميَّة[1] ، فكلّموا أبا طالب وسألوه أن يحضر لهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويأمره بإشكائهم[2] ممّا يشكون منه وأن يجيبهم إلى ما يريدون من أمر فيه الألفة والإصلاح!.

---

(1) كلّ هؤلاء الذين ذُكروا هنا هلكوا على الكفر إلاّ اثنين منهم فإنّهما أسلما حين فتح مكّة ، وهما أبو سفيان بن حرب ، وعبد الله بن أبي أميّة ، وهو أخو أمّ سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم.

(2) فعل "شكا" الثلاثي المجرّد مضارعه يشكو. والمصدر الشكوى. من معانيه التظلّم ، أي طلب رفع الظلامة ممّا يعدّه الشاكي ظلما وأذى لحقّه. فإذا زيد فيه الهمزة فصار رباعيا ، فيقال أشكى ، يُشكي ، ومصدره الإشكاء. فهو بمعنى إجابة طلب الشاكي ، وقبول ما يدعي وإزالة ما يشكو منه. وهو المراد هنا.

فدعا أبو طالب الرسول صلّى الله عليه وسلّم فجاءهم مسرعا- وهو يطمع في هدايتهم- فجلس بينهم فتكلّم أبو طالب يخاطب الر سول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «يا ابن أخي هؤلاء الملأ من قومك جاءوا فأشكهم وتألفهم!».

ثمّ تكلّم القوم فعاتبوه صلّى الله عليه وسلّم ، وممّا قالوا: «يا محمد إنّا بعثنا إليك لنكلّمك فإنّا - والله - لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك. لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسببتَ الآلهة وسفهت الأحلام وفرّقت الجماعة. ولم يبق أمر قبيح إلاّ أتيته فيما بيننا وبينك».

ثمّ عرضوا عليه صلّى الله عليه وسلّم ما مرّ ذكره من عروض المال والشرف والملك ، والعلاج من تابع الجنّ وإلى آخر ذلك. فكان جوابه صلّى الله عليه وسلّم لهم أن قال: «ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم. ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم. ولكنّ الله بعثني إليكم رسولا. وأنزل عليَّ كتابا. وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا. فبلّغتكم رسالات ربي ونصحت لكم. وان تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم».

و جاء من روايات هذا الباب أنّ القوم من قريش دعوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم - يوما- ففاوضوه فيما بينه وبينهم من الشأن. ثمّ عرضوا عليه أن يعطوه من المال ما يكون به أغنى رجل بمكّة. وأن يزوّجوه ما أراد من النساء ، مقابل أمر واحد يلتزم لهم به وهو أن يكفّ عن شتم آلهتهم ولا يذكرها بسوء!.

كما ورد في خبر أن عتبة بن ربيعة كان يكلّم الرسول صلّى الله عليه وسلّم يوما في هذا الشأن فقال له: «إن كان أنّ ما بك الباه[1] فاختر أيَّ

---

(1) لفظ "الباه" آخره هاء ، جاء في بعض كتب اللغة أنّه بوزن الجاه وفيه لغة أخرى ، يقال فيه الباءة بالهمز وتاء التأنيث ومعناه داعية شهوة الجماع. وربما أطلق على نفس الفعل.

نساء قريش فنزوّجك عشرا...!»

و من صيغ عروضهم التي عرضوها عليه صلّى الله عليه وسلّم، وجاءت بها بعض الروايات - أنّهم كانوا معه صلّى الله عليه وسلّم في مجلس مفاوضة تقدّمته مجالس عديدة من نوعه- فقالوا له: «اترك ما أنت عليه ونحن نتكفّل لك بكل ما تحتاج إليه في دنياك وآخرتك! وإن تفعل فإنّا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح!»

فسألهم صلّى الله عليه وسلّم وما هي تلك الخصلة؟

فقالوا: «تعبد معنا آلهتنا سنة. ونعبد معك إلٰهك سنة. فنشترك في الأمر. فإن كان الذي تدين به أنت خيرا، كنّا قد أخذنا منه بحظّنا. وإن كان الذي ندين نحن به خيرا كنت قد أخذت منه بحظّك...!»

و في بعض طرق هذه الرواية، كما نقل ذلك عن جعفر الصادق، أنّهم أعطوه صلّى الله عليه وسلّم الفضل عليهم في هذه الصفقة. فقالوا: «تعبد معنا آلهتنا يوما. فنعبد معك إلٰهك عشرة أيام وتعبد معنا آلهتنا شهرا. فنعبد معك إلٰهك سنة!»

و تذكر بعض الروايات[1] أنّه صلّى الله عليه وسلّم توقّف - عندما قدّموا له هذا العرض- فلم يجبهم بشيء وقال: «سأنتظر ما يأتيني من ربي» فنزل الوحي عليه صلّى الله عليه وسلّم بالسورة من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ إلى آخرها.

فغدا الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المسجد الحرام وكان الملأ من

---

(1) على تقدير صحّة هذه الرواية الواردة بتوقفه صلّى الله عليه وسلّم عن الجواب للقوم انتظارا لما يأتي به الوحي، فالمعتقد بوجه القطع أنه صلّى الله عليه وسلّم كان يرفض - بتاتا - هذا العرض. وإنّما ترك الجواب من عنده. فأحب أن يجيبهم بنص الوحي الذي يتحقّق أنّه يمنع قبول العرض كل المنع. هذا وقد جاء في القصة لفظ رواية أخرى تفيد أنّه صلّى الله عليه وسلّم رفض لهم العرض في حينه قائلا لهم: «معاذ الله أن أشرك معه في عبادته غيره!» ثم جاءه الوحي بالسورة المذكورة.

قريش هناك فتلا عليهم السورة معلنا بها على رءوس الأشهاد. فعند ذلك أيسوا منه عليه الصلاة والسلام.

[ممّا ورد في وجه تكرار الجمل في هذه السورة أربع مرّات تنفي عبادته صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ نفي عبادة المخاطبين ثم نفي عبادته صلى الله عليه وسلم ثمّ نفي عبادتهم أيضا. فقيل - على ما روي عن جعفر الصادق - ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يوما ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ عشرة ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ شهرا ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ سنة.

و الذي أشتهر من تأويل أهل التفسير أن التكرار المذكور جاء من حيث التعلق بالزمان في الحال وفي المستقبل لكل من الطرفين. فلا هو عليه الصلاة والسلام يعبد عبادتهم في الحال، ولاهم يعبدون ما يعبد هو في الحال. كما هو صلّى الله عليه وسلّم ليس عابدا ما يعبدون في المستقبل، ولا هم يعبدون ما يعبد في المستقبل كذلك.

و قال أصحاب هذا التأويل أنّ هذا الخطاب الموجّه للكافرين مقصود به طائفة مخصوصة منهم علم اللهُ أنّهم لن يؤمنوا في المستقبل.

و جاء في كتب التفسير أنّه في هذا العرض الذي عرضه المشركون عليه صلّى الله عليه وسلّم نزلت الآيات من سورة الزمر في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾. ومناسبتها لهذا الموضوع جليّة للغاية].

و ممّا ساقه مؤلفوا السيرة - في هذا المحل - من الأخذ والردّ القائم بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم والملإ من قومه المشركين وما كانوا يحاولونه من المحاولات، ويقدمونه له صلّى الله عليه وسلّم من العروض والاقتراحات ويتعلّق ذلك بآيات القرآن التي تنزل بما لا يوافق هواهم، وترد في وجوههم كلّ ما يريدونه من صنيع يحاولون به الإبقاء على مبدئهم

الضال ومعتقدهم الفاسد كما تقدّم في نزول سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. فلمثل ما نزل في هذه السورة قالوا له صلّى الله عليه وسلّم: «إئت بقرآن غير هذا... أو بدله!» وقالوا: «إئت بقرآن ليس فيه ما يغيظنا نتبعك!» وقالوا له صلّى الله عليه وسلّم إجعل مكان الآية الفلانية (في العذاب) آية أخرى (في الرحمة) نقبل منك! وقالوا أسقط من هذا القرآن الذي أتيت به ذكر الآلهة وما فيه من ذمّ عبادة الآلهة نؤمن بك...إلخ....إلخ.

و فيما يخص مقال القوم المذكور في مطلبهم السخيف للإتيان بقرآن غير القرآن الذي أتى بما لا يقرهم على باطلهم وإبداله بما يكون به ملائما لأذواقهم وأهوائهم ، جاءت الآيات من سورة يونس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

و ورد أنّ من الجواب على مثل هذه السؤالات الباطلة منهم الآية من سورة الحاقة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (47)﴾.

[من المعلوم أنّ آية الحاقة هذه جاءت في تقرير حقيقة القرآن وأنّه منزّل من عند الله ليس من المخلوق. وأفادت نفي الشاعرية والكهانة عنه صلّى الله عليه وسلّم. كما نفت أن يكون له صلّى الله عليه وسلّم قول من عنده يتقوّله على الله من دون ما يكون أوحى به إليه. فمناسبتها لهذا الموضوع حاصلة بوجه العموم غير أنّها تظهر بعيدة بعض الشيء. وقد لاحظ على هذا بعض مؤلفي السيرة وقال أنّ الأنسب لنفس هذا السياق من آيات القرآن هو آية سورة يونس...]

و من الأخبار الواردة في هذا الموضوع الذي هو ذكر مجالس

المفاوضات بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين القادة من كفار قومه خبر المجلس الذي حدث في حادث ابن أم مكتوم الأعمى معه صلّى الله عليه وسلّم. وتلقّى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بسببه عتابا من الله تعالى له بقي خالدا يتلى في آيات القرآن أمد الدهر. ذلك أنّه صلّى الله عليه وسلّم لحرصه الشديد على اهتداء الناس بما جاء به من النور الذي به وحده سعادتهم ونجاتهم. ولرأفته صلّى الله عليه وسلّم وشفقته البالغة كانت أمنيته أن يهتدي العموم ويسترشد الكافة حتى أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يغتمّ الغمّ الشديد إذا ما رأى إعراضا عن قبول دعوته أو لقي في هذا السبيل -كما هو في وقائع خاصة- ما ييأس به من حصول هذا الغرض لفواته. عرف هذا من شأنه عليه الصلاة والسلام وأشار إليه القرآن في العدد العديد من آياته.

و في هذا المعنى جاءت الأخبار بأنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يبذل الجهد الجهيد لإقناع الكبراء من قومه والأشراف المتبوعين منهم. وذلك عملا بطبيعة الأشياء الجارية وجريا على المعروف من عادة الناس في كون العامة تتبع الخواص والمسود يتبع السيد، فتعم الهداية كما هو الغرض المقصود.

فورد أنه كان منه صلّى الله عليه وسلّم في يوم من الأيام أن اجتمع في مجلس للغرض المذكور مع نفرهم الكبراء والقادة المتبوعون في قريش، جاء من أسماء هؤلاء القوم الوليد بن المغيرة، أبو جهل بن هشام، عتبة بن ربيعة أخوه شيبة، أميّة بن خلف، أخوه أبيّ.

وامتاز هذا المجلس بما كان فيه من العبارات المتبادلة بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين النفر المذكورين حيث كانت تلك العبارات تصطبغ بصبغة اللّيونة والمؤانسة وفيها ما يبعث على الأمل في التقارب، ويقوي الطمع في استجابة القوم إلى ما يعرض عليهم كلّ حين من دعوة الإسلام.

و ورد من صيغة ما دار بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين القوم من هذه

العبارات اللّينة، أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال فيما قال لهم: «أليس ما جئت به حسنا؟» فقالوا: «بلى! واللهِ!» وفي لفظ آخر قال صلّى الله عليه وسلّم: «هل ترون بما جئت به بأسا؟» أو قال: «هل ترون بما أنا أقول بأسا؟». فأجابوا: «لا!».

فكان هذا داعيا له صلّى الله عليه وسلّم أن يصرف كلّ اهتمامه بهم وأن يحصر كلّ اشتغاله معهم. فبينما الحال هكذا إذا بابن أمّ مكتوم الأعمى يدخل هذا المجلس آتيا مع من يقوده. وجاء من التعريف به أنّه يسمّى عبد الله، وقيل عمرو، وهو من قبيلة بني عامر[1] من قبائل قريش. قيل أنّه جاء قاصدا الدخول في الإسلام. وقيل بل هو ممن أسلم قبل ذلك، وجاء يطلب العلم بشرائع الإسلام. وكان من ابن أمّ مكتوم -وهو الأعمى- ما عهد بكثرة من أمثاله، فأقحم كلامه على المجلس وأخذ يدعو الرسول صلّى الله عليه وسلّم بإلحاح وتكرار، يسأله مهمّته التي جاء من أجلها.

و جاء من صورة خطابه للرسول صلّى الله عليه وسلّم قوله: «يا رسول الله علّمني ممّا علّمك الله!» (و هذا ممّا يدلّ لكونه أسلم سابقا) كما جاء أنه كان يقول: «استدنني[2] يا محمد!» (و هذا ممّا يدلّ على أنّه لم يكن أسلم قبل ذلك) فكان هذا ممّا ضايق الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتحرج منه. فأشار صلّى الله عليه وسلّم إلى قائده أن يكفّه بعض الوقت ريثما يتفرّغ له. ولمّا حاول قائده ذلك دفعه ابن أم مكتوم، ومضى في ندائه للرسول وطلبه ما يطلب منه يكرّر ذلك ويلحّ به...!

و هنا كان من الرسول صلّى الله عليه وسلّم العبوس الذي أشارت إليه الآية التي نزلت بعتابه. وأعرض صلّى الله عليه وسلّم عن ابن أم مكتوم

---

(1) قبيلة "بني عامر" ترجع إلى فهر بن مالك. فكما يقال العامري يقال الفهري. وجاء من التعريف به أنّه ابن خال خديجة أم المؤمنين. ورسم في لفظ ابن خالتها.

(2) إستدنني: فعل طلب من الدنو أي القرب فهو يقول للرسول صلّى الله عليه وسلّم قرّبني إليك.

يواصل حديثه مع القوم الذين كان يشغله شأنهم. وبإثر هذا الحادث نزل الوحي على الرسول بالآيات التي هي فواتح السورة التي سمّيت باسم "عبس" وهي قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ إلى الآية: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ ...﴾ إلخ

فكانت هذه الآيات تتضمن عتابا من الله تعالى لرسوله صلّى الله عليه وسلّم في موقفه الذي وقفه مع ابن أمّ مكتوم الأعمى إذ رأى أن يؤخّر الاشتغال به إلى ما بعد الاشتغال بالقوم الذين كانوا معه صلّى الله عليه وسلّم من كبراء قريش. [ممّا ينبغي أن يفهم به هذا الأمر الذي سمي عتابا من الله تعالى للرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه عتاب بحسب مقام الرسول صلّى الله عليه وسلّم وعلى مقتضى خصوصيّته كنبيّ لله تعالى ورسول له. فهو من نوع خاص أعلى رتبة وفوق المعنى المعتاد المعروف بالنسبة لغير الأنبياء. إذ لو كان ما صدر من الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وعوتب عليه صدر من غيره من عامّة الناس غير الأنبياء لما كان فيه عتاب. فعتاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم هنا فيه معنى حمل الرسول صلّى الله عليه وسلّم على أن يكون سلوكه وتصرّفه في هذا الجزئي مطابقا لما علّمه وجرى به قدره وجاريا على مقتضى عدله وحكمته سبحانه وعلمه تعالى بحقائق الأمور كما هي في الواقع وإن خفيت على العباد. والذي يؤخذ من هذه الآيات في عتاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ووجوه استحقاقه صلّى الله عليه وسلّم هذا العتاب هو كما يلي: بينما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الراغب في إسلام الملإ من قريش وإسماعهم التذكرة التي يهتدون بها ، كان الأعمى ابن أم مكتوم هو الراغب كذلك في الإسلام والاهتداء والسماع. بينما كان الملأ المذكورون في موقف استغناء عن هذه التذكرة وليس لهم أدنى رغبة فيها.

ابن أم مكتوم أعمى وتكلّف المجيء ليتزكّى بسماع ما يسمع من تذكرة

القرآن. وفي المجيء مع العمى تجسّم مشقّة ودليل على الإخلاص. وهذا من جملة السرّ في التعبير بالأعمى (في الآية) فكان حال ابن أم مكتوم هذا يستحق العطف الزائد والتقدير والاعتناء والتقديم على غيره.

ليس على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أي تبعة إذا لم يهتد بدعوته من أعرض عنها. فما عليه إلاّ البلاغ. إذا كان اهتداء الجماعة وكونهم رؤساء متبوعين مرغوبا فيه أكثر من اهتداء الفرد الواحد كابن أم مكتوم، فهذا إنّما هو عند الخلق. أمّا عند الخالق جلّ شأنه فلا معنى لهذا التفضيل. حاجة الناس إلى الاهتداء بتذكرة القرآن متساوية في حقيقة الأمر الواقع ولا تفاوت بينهم في قدرها مطلقا. كما أنّ هذه التذكرة في استغناء مطلق عمّن يعرض عنها. فلا يضيرها من ذلك شيء، وليكن ما يكون شأن هذا المعرض مكانة عند العباد. وهكذا كشف واقع القدر بعد هذه القصّة. فكان الأعمى ابن أم مكتوم رضي الله عنه من أفضل أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فكان أحد مؤذني الرسول صلّى الله عليه وسلّم. واستخلفه الرسول صلّى الله عليه وسلّم في غير ما مرّة لإمامة الصلاة بالمسلمين نيابة عنه صلّى الله عليه وسلّم، و كفى بها منقبة له رضي الله عنه. والنفر المذكورة أسماؤهم في هذه القصة -حسب هذه الرواية- من كبراء قريش، والذين كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم حريصا على إسلامهم أثبتت الأخبار أنّه لم يسلم أحد منهم. وهلكوا جميعا على الكفر، وأظهر الله دينه. ونصر نبيّه وحزبه كما أراد هو، لا رادّ لحكمه ولا معقّب لقضائه].

و بالتأمّل فيما جاء في هذه الآيات، وما فيها من البيان المعجز لوجوه ما استوجب به الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا العتاب ومن ذلك عرض حال كلّ من الفريقين الواقع بسببهما الحادث فريق القوم من قريش وفريق الأعمى. ثمّ بيان طبيعة ما جاءت به الرسالة وكونه تذكرة للجميع يقتضي التسوية بين الجميع، إلى غير ذلك....

بالتأمل في هذا يحصل العلم بأنه تعليم من التعاليم الإلهية أوحى

به الله لنبيه - في هذه المناسبة وبهذا السبب - زاده به رفعة وكمالا في المستوى الذي هو عليه من السلوك في تبليغ الرسالة. وليكون ذلك تشريعا يقتدى به في بابه، وموعظة تهدي إلى التحفظ والاتزان حتى لا يسقط المرء من حسابه ما هو من مقادير الله الجاري وفق علمه المحيط والذي يأتي - أحيانا - وراء ما تقتضيه طبيعة الأشياء الجارية. وعلى خلاف ما يعرفه الخلق بعلمهم القاصر ونظرهم المحدود.

جاء في روايات هذه القصة أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان بعد هذا يقابل ابن أم مكتوم إذا جاءه - بغاية الاهتمام والحفاوة ويباسطه بأرق عبارات الإيناس والتقدير فيرحب به ويدنيه ويبسط له رداءه يجلسه عليه - وكانت عبارته صلّى الله عليه وسلّم في الترحيب به هي قوله: «مرحبا بمن عاتبني ربي في حقه!»

و ورد في هذا خبر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنّه حضر عندها ذات يوم - وذلك فيما بعد عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم - ابن أم مكتوم المذكور، فجعلت تقطع له الأترج[1]، وتغمسه في العسل وتطعمه إيّاه، فلاحظ البعض ممن كان حاضر المجلس ذلك، وقال لها فيه ما يؤدي معنى السؤال عن هذه المبالغة في الإكرام. فقالت له: «مازال هذا له من آل محمد منذ عاتب الله عزّ وجلّ فيه نبيّه صلّى الله عليه وسلّم!».

---

(1) الأترج: بضم الهمزة وإسكان التاء وضم الراء، وآخره جيم مشدّدة. وتزاد فيه نون فيقال الأترنج. كما يقال أيضا الترنج، بضم التاء والراء. وهو فاكهة معروفة من جنس الليمون.

الدرس 24

- تعنّت الملإ من قريش تجاه الدعوة.
- اقتراحهم على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أشياء من خوارق العادة.
- و إيرادهم مختلف الشبه على ما جاء به من الحق وردّ تلك الشبه عليهم بما ينزل من آيات القرآن.

جاء من كلام بعض مؤلفي السيرة كالترجمة لما في هذا الباب ما معناه: كان القائمون في معارضة الدعوة الإسلامية من كفار قريش يقترحون[1] على النبي صلّى الله عليه وسلّم آيات كثيرة يريدون أن يأتيهم بها. وكان ذلك منهم تعنّتا[2] وعنادا. وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم مع ذلك شديد الرغبة في إسلامهم رجاء أن يسلم عامّة الناس بإسلامهم. فكان عليه الصلاة والسلام يسأل الله تعالى ويتضرّع إليه في إعطائهم ما يسألون، وإظهار تلك الآيات لهم. وقد علم الله سبحانه أنّها لو جاءتهم لا يؤمنون كما أشارت إلى ذلك الآية من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ سورة الأنعام. وكانت قد جرت عادة الله القديمة المستمرّة في خلقه أنّ أقوام الأنبياء إذا اقترحوا الآيات وجاءتهم ولم يؤمنوا، فإنّ الله عزّ وجلّ يأخذهم بعذاب الاستئصال[3]. وكان قد سبق في علم الله أن هذه الأمّة (المحمديّة) لا تؤخذ بعذاب الاستئصال تشريفا لها

---

(1) صيغة "الاقتراح" في مجموع معناها تدلّ على ابتداع الشيء واختراعه. وتستعمل - غالبا - في السؤال، فتختص بالسؤال مع التشهي كما تأتي - كما هو المراد منها في هذا الموضوع - في سؤال الشيء بالتحكم والإحراج وقصد التشديد على المسئول.

(2) العنت: بفتحتين. الفعل منه مكسور ماضيا مفتوح مضارعا من معناه المشقة ولقاء الشدّة في الأمور كما يطلق على عموم الهلاك والفساد والإثم. والتعنت بمعنى الفعل المتعدّي للغير هو إدخال الأذى وطلب الزلّة والمشقّة له. وسؤال التعنت من هذا المعنى فهو قريب من معنى الاقتراح.

(3) معنى الاستئصال هنا هو ما يعرف من قلع الشيء من أصله كما تقلع الشجرة كذلك.

بنبيّها محمد صلّى الله عليه وسلّم. فكان تأخّر هذه الآيات التي يقترحها كفار قريش عليه صلّى الله عليه وسلّم رحمة لهم وشفقة بهم أن يؤخذوا بعذاب الاستئصال.

وجاء في هذا المعنى من آيات القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ إلخ (سورة الإسراء). أي كذّبوا بها فأُخِذوا بعذاب الاستئصال. فلو جاءت الآيات هؤلاء القوم ولم يؤمنوا لأخذوا كما أخذ الأوّلون. ثمّ إنّ هؤلاء كان منهم من هداه الله، فآمن. ومنهم من بقي على كفره، على أنّ بعض ما اقترحوا من هذه الآيات جاءهم، فعلا، كآية انشقاق القمر. وبعد ذلك كان منهم من آمن وكان منهم من كفر.

و قد جاء من أخبار سؤال المشركين خوارق العادة منه صلّى الله عليه وسلّم، رواية سؤالهم انشقاق القمر. وكان في نصّ هذه الرواية تغاير بين طرقها. ففي بعض طرقها أنّهم سألوه صلّى الله عليه وسلّم آية من الخوارق غير معيّنة. فكانت تلك الآية هي انشقاق القمر.

و في طريق آخر أنّهم هم الذين عيّنوها بانشقاق القمر. ويفيد هذا أنّه اجتمع يوما جمع من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل، والعاص بن وائل. والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحرث، فتحدّثوا فيما بينهم واتّفقوا على أن يقترحوا عليه صلّى الله عليه وسلّم انشقاق القمر، كآية على صدق نبوّته (وكان ذلك منهم محض تعنت وإمعانا في اللّدد لا عن إخلاص منهم في قبول الدعوة إذا ما وقعت الآية). وتفيد هذه الرواية أنّ الليلة كانت إذ ذاك ليلة الرابع عشر من الشهر، والقمر باد في تمامه. (لاحظ البعض أنّ ما نصّ عليه في بعض الروايات من كون القمر كان لِيَلْتَئِذ في الرابعة عشرة لم يرد في الروايات الثابتة. وإنّما الثابت هو مطلق

لفظ القمر). فقالوا له صلّى الله عليه وسلّم: إن كنت صادقا فشقّ لنا القمر فرقتين[1]. فكان مما قاله صلّى الله عليه وسلّم لهم ما معناه: «أو تؤمنون إن وقع ذلك ؟ » فأجابوا بالإيجاب. فدعا الرسول صلّى الله عليه وسلّم ربّه أن يأتيهم بهذه الآية. وكان الأمر كذلك. فانشقّ القمر فرقتين. فكانت فرقة منه على جبل أبي قبيس[2]، وفرقة على جبل قعيقعان. قيل أي فكان نصف القمر إلى المشرق ، ونصفه الآخر إلى المغرب ، وعند ذلك أخذ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: «اشهدوا! اشهدوا!».

[جاء في كيفية الانشقاق عدّة عبارات بحسب طرق الرواية. فجاء - زيادة على ما ذكر - أنّه انشقّ نصفين كان بينهما جبل حراء. وأنه انشقّ فكان شطره على الصفا والشطر الآخر على المروة... إلى غير ذلك من العبارات. كما أنّ في بعض الروايات زيد أنه ما تمادى منشقا قدر ما بين العصر إلى المغرب. وفي البعض أنه التأم بعد ذلك. وفي بعضها أنه بعد مضي زمان انشقاقه غاب كذلك..إلخ].

و ما كان من القوم - بعد أن رأوا هذه الآية - إلاّ أن أخذوا يقولون لبعضهم البعض: «لقد سحركم ابن أبي كبشة[3]...!»

ثمّ بعد ذلك قالوا: «لئن سحرنا نحن هنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلّهم. فلنسأل من يأتي من الآفاق هل رأوا ما رأينا ؟ » وبعد ما

---

(1) الفرقة وكذا الفلقة: بكسر الفاء بوزن القطعة ومعناها. وكما جاء التعبير بلفظ الفرقتين بالراء جاء أيضا بلفظ الفلقتين باللام ، لأنّ المعنى واحد. وإنّما المغاير هو ما جاء في بعض الروايات يقول انشقّ القمر مرّتين. وأخذ من أخذ بظاهر هذه الرواية على أنّه انشقّ مرّتين أي في زمانين. فكان من العلماء من غلط هذا المأخذ. ومن الوجوه التي ردّ بها هذا المأخذ أنّ لفظ المرّة قد يستعمل - تارة - في الأعيان وإن كان أصل استعماله في الأفعال. فيكون ما جاء في رواية المرتين جاريا على الاستعمال القليل أي في الأعيان ، ومرادا به القطعتان أو الفرقتان كما في الرواية المعروفة.

(2) فجبل "أبي قبيس" شرقي مكّة ، وقعيقعان غربيها.

(3) مرّ التعليق في الدرس الثامن عشر باب التعريف بالسابقين إلى الإسلام وعند الكلام عن إسلام خالد بن سعيد بن العاص على المعنى المراد من هذه النسبة التي تداولت في كلام كفار قريش وقولهم عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم: ابن أبي كبشة.

تواردت أخبار الآفاق عن مشاهدة هذا الحادث في نفس الوقت الذي وقع فيه بمكّة... أوبمنىً (كما أفادته بعض الروايات) مضى القوم على ما هم عليه من العناد. فأخذوا يقولون: «إنّه سحر مستمرّ...!». وفي هذه الواقعة نزلت الآية من قوله سبحانه: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾[1] ...إلخ.

و هكذا ثبت من طريق روايات الأخبار وقوع هذه الآية الخارقة للعادة معجزة للرسول صلّى الله عليه وسلّم في جملة ما جاء من معجزاته عليه الصلاة والسلام. وكانت هذه الرواية مما صحّحه علماء الحديث ، وورد في الكتب الموثوق بها كصحيحي البخاري ومسلم. فقد جاء من كلام حافظ الإسلام **إبن حجر** *العسقلاني في كتابه " فتح الباري لشرح كتاب البخاري" قوله: «حنين الجذع وانشقاق القمر كلاهما مستفيض الخبر ، يفيد القطع.»

أمّا الآية فلم يبلغ ما فيها إلى أن يكون نصا صريحا لا يقبل التأويل في إثبات الخارقة كما ذكرت الرواية. بل اختلف علماء التفسير في تأويلها. فبينما يرى البعض -ويبدو أنه الجمهور[2]- ورودها في الخارقة كما في الرواية يرى فريق آخر أنّها تشير إلى انشقاق القمر قرب قيام الساعة ، كما في تكوير الشمس وانشقاق السماء وتسيير الجبال ، وغير ذلك من أحداث قيام الساعة. والتعبير بصيغة الْماضي في الانشقاق (وانشق القمر) طريقة

---

(1) جاء من التعليق ببيان معنى لفظ "مستمر" فقيل أنه بمعنى دائم ومتواصل. وقيل بمعنى محكم وقوي. فيكون من المرّة بكسر الراء. وهي القوة. وقيل هو بمعنى مارّ أي محدود بوقت ثمّ ينقطع فهو من المرور. وقد حكي في معنى اللفظ أيضا قول آخر وهو أنه مأخوذ من المرارة- في الذوق- فهم يقولون أنه سحر مستبشع المذاق عبر عنه بلفظ مستمر من المرارة...

(2) بينما يقول البعض هكذا إن الجمهور على تأويل الآية في كونها جاءت في معجزة للرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول آخر عكس هذا ، وأن الجمهور من المفسرين على كون الآية تشير إلى انشقاق القمر عند قيام الساعة.

معروفة في القرآن أطلقت -كثيرا- ويراد بها الاستقبال ، ومن رأي الفريق الذي يرى ورود الآية إنما هو في الخارقة معجزة للرسول صلّى الله عليه وسلّم -كما أثبته الأثر- أنّ السياق الذي جاءت فيه الآية فيه الدلالة الكافية على أنّ الأمر هو ما ذكر من وقوع خارقة للعادة جاءت آية لصدق النبوّة وقهر المكذبين وحمل انشقاق القمر في خصوص هذا السياق على ما سيقع يوم قيام الساعة واضح كلّ الوضوح بعد المناسبة بينه وبين معرض الكلام. بل وفاقد التلاؤم والانسجام في المعنى المراد حصوله في هذا المقام.

[وسياق الآية -على قول المثبتين للانشقاق بأنّه وقع آية للرسول صلّى الله عليه وسلّم هو سياق في معنى الآيات الشاهدة لصدق النبوّة. فيكون انشقاق القمر منها. ولكن لا يخفى أنّ هذا الاستدلال غير مسلّم لدى الفريق المقابل إذ يقال أنّ انشقاق القمر يرجع إلى السياق الأول في ذكر اقتراب الساعة. ثم عطف عليه موضوع التنديد بعناد المعاندين في آيات النبوّة -على الجملة- وتكذيبهم بها في سياق ثان جريا على المعهود من أسلوب القرآن في الإيجاز البليغ من غير ما يفقد التركيب ، الانسجام والمناسبة ، والرّبط في معنى جامع. وقد جاء نظير هذا في العدد العديد من آيات القرآن].

و بجانب هذا يوجد قول من ناقش في إثبات خارقة انشقاق القمر هذه بصورة كونها وردت في رواية لم تتجاوز طريق الآحاد. وحاصل هذا الاعتراض أنّ انشقاق القمر -كما ذكر- أمر لا يخفى عظم وقعه في المشاهدة العامّة. فكان يجب أن يكون خبره متواترا يكتسي صبغة الشهرة العالمية لأنه ممّا تتوفر الدواعي على نقله تواترا والحال أنه إنّما نقل آحادا فقط...!

و قد كان الجواب على هذا الاعتراض بعدّة وجوه أبداها ، مختلف العلماء المثبتين لهذه المعجزة من المتقدمين والمتأخرين. فممّا جاء للبعض من المتقدمين ما معناه: من الجائز أن يكون المانع لتواتر خبر انشقاق القمر بكونه معجزة تدلّ على صدق نبوّة محمد صلّى الله عليه

وسلّم الاكتفاء بمعجزة القرآن التي لا تدانيها معجزة سواها. فإنّه ممّا أثبتت الملاحظة أنّ الصدر الأوّل للإسلام لم يكونوا يحفلون - بالغا - بهذه الخوارق المادية. ويدلّ على ذلك أنّ جميع ما جاء من أخبار هذه الخوارق جاء من طريق الآحاد ، ولا يدلّ ذلك على أنها غير ثابتة الوقوع. بل لما غطّى عليها من الوقع العظيم الحاصل بمعجزة القرآن العظيم ويتوفر فهم هذا المعنى والاقتناع به بما جاء في الآية من سورة العنكبوت من قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) ﴾. ولهذا يصحّ أن يقال لا غرابة ، بل من الطبيعي أن لا يتواتر خبر انشقاق القمر في مجتمع كان يغمره الإعجاب بمعجزة القرآن وكان يعرف حقّ المعرفة معنى ما جاء في آية سورة العنكبوت المذكورة وأمثالها من الآيات القرآنية في هذا الموضوع. وإذن فلهذا الاعتبار كانت حادثة إنشقاق القمر هذه نازلة عن درجة ما تتوفّر الدواعي على نقله تواترا. وكان يكفي فيها النقل آحادا إذا لا يبعد أن تكون عند المجتمع إذ ذاك بمثابة الخسوف.

و ممّا قيل من وجوه الجواب لرد الاعتراض المذكور أنّ آية انشقاق القمر هذه كانت آية ليلية وقعت في جوف الليل ولوقت محدود ، ويعتبر قصيرا. ثمّ إنّ هذا الظرف ليس من شأنه - عادةً - توفّر مشاهدة الجماهير لما يكون فيه من المرئيات. فهو ظرف الانصراف إلى المضاجع والإخلاد إلى الراحة والسكون. فبطبيعة الحال - هنا - لا يلزم أن تكون مشاهدة مثل هذه الحادثة صادرة عن الجماهير الغفيرة. وإنّما الذين يمكن أن يشاهدوها هم طائفة مخصوصة ، ولا بدّ أن تكون أقليّة في الناس وهم مثل المسافرين الذين يفضلون المشي في الليل. وهذا ما وقع بالنسبة إلى أرض الحجاز ، حيث أنّ الروايات أفادت -كما مرّ ذكره- أنّ المسافرين الذين قدموا من

مختلف النواحي أخبروا برؤية الانشقاق للقمر كما رآه أهل مكّة ممن حضر الواقعة.

و جاء من وجوه الجواب أيضا أنّه مما هو معلوم بالضرورة أنّ القمر لا يكون في حدّ واحد بالنسبة لجميع أقطار الأرض فإذا كان مرئيا في إقليم - كالحجاز مثلا-فقد تكون رؤيته جزئية في إقليم آخر ، وقد لا يرى في إقليم آخر -وهذا مع عدم الموانع الجوية كالسحب والغيوم مع أنّ هذه الموانع لا تنفك موجودة في أغلب الزمن وبالنسبة للغالب أو للكثير من أقطار المعمور.

و من الأمثلة المؤيدة لما ذكر من هذا المعنى مسألة الخسوف - وحتى كسوف الشمس الذي هو أبرز للعيان من الخسوف- لا يمكن أن يستوي جمهور أهل الأرض في رؤيته.فقد يرى ذلك في إقليم - كليًّا- بينما يرى في إقليم آخر - جزئيًا- وفي آخر لا يرى بالمرّة. [و من الأجوبة لدفع هذا الاعتراض ما قاله البعض وحاصله: أنّه لم يرد أنّ عامّة سكان المعمورة رصدوا القمر ليلة الانشقاق المذكور ، فلم يشاهدوه! ولو ورد هذا لكان ثمّ مجال للأخذ والردّ. أمّا والحال ما ذكر من كون النفي لم يرد مبنيًّا على هذه الصورة ، فالمتعيّن حينئذ البناء على القاعدة الأصولية المعروفة من الاعتماد على القول المثبت وتقديمه على النافي سيما وللمثبت ما يكفي من الدلائل وما يقنع من الحجج].

و بالجملة فشبهة طلب المشاهدة العامّة لانشقاق القمر مدفوعة بما لا يحتاج إلى كثير من الأدلّة ولا إلى شيء من العناء في إبداء وجوهها لأنّه أمر واضح يدرك بأدنى تأمّل ويستوي في معرفته الخاصة والعامة.

أمّا ما جاء من إنكار هذه الخارقة رأسا بناء على أنّ قواعد علم الفلك تمنع وقوع مثل هذا الحدث كما ذهب مع هذا الرأي فريق من المتقدمين والمتأخرين على السواء. فهي شبهة أيضا وقد تبدو أوّل ما تبدو كأنّها أقوى ممّا قبلها غير أنّها بعد التأمّل تُلفَ أضعف ممّا قبلها وأوهى وقد تصدّى

للجواب عنها والردّ عليها من تصدّى لذلك من الذاهبين لإثبات الخارقة من المتقدّمين والمتأخرين المعاصرين. وكان في هؤلاء المجيبين من أوجز وفيهم من أطنب. وملخّص المعنى من جملة ما جاء في هذا الجواب لردّ هذه الشبهة أن هذه الخارقة بانشقاق القمر هي مثل نظائرها من مثل الإسراء وانفلاق البحر وإحياء الموتى وإبراء الأكمه ونطق الجماد ونحوها ، ليست إلاّ خوارق عادة غير مألوفة للعباد فيما عهدوه من جريان الأحداث الكونية. وليست خوارق عقل لا يجيزها العقل. بل هي من قسم الجائزات بالنظر لقدرة الله ، وتصرّفه في ملكه الذي يفعل فيه ما يشاء.

فإذ أورد فيها النص القاطع بخبر الصادق الذي لا يجوز عليه الكذب تعين الإيمان بها والاعتقاد بوقوعها من دون ما تردّد ولا ارتياب مهما بدت في طريق هذا الإيمان شبهات وعوارض. لأنّ هذه الشبهات والعوارض تبلغ ما تبلغ من القوة فلن تصل - عند العاقل المتبصر - لأنْ تحدّ من قدرة الله أو تضيق من واسع مشيئته في التصرّف في خلقه. أو تجعل لما يجري من أحداث الكون نطاقا لا يتعدّاه ذلك النطاق الذي ليس هو إلاّ من صنع العبد بعلمه القاصر.

و ما هو مبلغ هذه القواعد التي يطنطنون بها من العلم؟ إن هي إلاّ ظنون وبناء على التخمين [1] ، فكم من مسميات هذه القواعد ممّا كان يعرف قديما كذلك كشف الواقع عنها بعد ذلك. فإذا هي أغلاط وأخطاء وخرافات. وكم أثبت العلم الحديث من حقائق كان يعتقد في السابق أنّها من قسم المستحيل.[ممّا أثبته في كتابه "لباب الخيار في سيرة المختار" للأستاذ مصطفى الغلاييني * الشامي من المتأخرين في فصل المعجزات عند التعرض لمعجزة انشقاق القمر ما نصّه: «ذكرت بعض الجرائد الأجنبية مقالة عرّبتها جريدة "الإنسان" العربية التي كانت تطبع في قسطنطينية ،

(1) فعل خمّن: بالخاء المعجمة مفتوح في الماضي مكسور ومضموم في المضارع. والمصدر الخمن بفتح فسكون. من معناه القول بمجرّد الظن وهو المراد هنا.

حاصلها أنّه عثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بنيّ عام كذا... الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم هو انشقاق القمر نصفين. فحرّر الحساب ، فوافق سنة انشقاقه سيدنا ومولانا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» (من هامش "باكورة الكلام على حقوق المرأة في الإسلام") ثم قال الغلاييني- بعد ذلك- «أقول قد علمت أنّ هذه المعجزة ذكرت في القرآن. والقرآن - كما لا يخفى على ذي بصيرة- منقول إلينا نقلا متواترا لا يتطرّق إليه الشكّ والريب. فهي بلا شكّ كانت تتلى على رءوس الناس من مؤمن وكافر. فلو لم يكن الانشقاق صحيحا ، بل كان مجرّد كذب لنقل إلينا ولو عن المخالفين لنا. أمّا ولم ينقل أحد المعارضة في ذلك ، فهي مسألة حقيقية لا مرية فيها. لأنّ أعداء الدين في ذلك الوقت كانوا له بالمرصاد يتطلعون إليه ليروا له هفوة أو غلطة ليأخذوا بها عليه. وكيف يمكن ذلك والقرآن كلام الله ؟ ولمّا ظهرت الطبعة الأولى من كتابنا هذا "لباب الخيار" ورد إلينا كتاب من أحد أعلام العلم... يأخذ فيه علينا اعتمادنا لمعجزة انشقاق القمر لأنّها تخالف قواعد علم الفلك. فأجبناه على ذلك بما يأتي: «معجزة انشقاق القمر لم يدعني إلى الجزم بها إلاّ سياق الآيات وما ألهمني الله فهمه منها. ولم أقلّد بذلك رأيا ولا ما ورد فيها من الأخبار. وإن جزمت طائفة من العلماء بتواتره ثمّ زادني يقينا أن قرأت عنها ما قرأت من الأثر التاريخي الصيني - المنقول في كتاب السيرة- وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ بعد ذكر الانشقاق يؤيد ذلك وأنّه حصل. ويبعد حمله على الاستقبال كما قالت طائفة من المفسرين كالزمخشري والبيضاوي الآلوسي وغيرهم. وإما أن الحكم بذلك يرد عليه كثير من قواعد العلم الفلكي الجديد. فلا يخفى على الأخ الفاضل أنّها من قسم الخوارق التي يستدعي الدين الاعتقاد بها إجمالا. فالاعتقاد بها والاعتقاد بالإسراء وإحياء الموتى وانفلاق البحر سواء ، فما يرد عليها من قواعد الفلك يرد

عليها من قواعد الطبيعة. والمخلص من ذلك كلّه أنّ للطبيعة خوارق والطبيعيون أنفسهم لا يستطيعون إنكارها. بل يثبتونها ويقرّون بجهل سرّها ويسمّونها بفلتات الطبيعة. وإن لهم من تلك الخوارق أكثر ما للملّيين غير أنّهم يرون القذى في أعين غيرهم وأعينهم ملآى بالحجارة. بل أشهر علمائهم يقرّ بأنّهم إلى الآن لم يكتشفوا كثيرا من أسرار الطبيعة. وأنّ هناك أشياء وراء الطبيعة لا يستطاع حلّها. أقول لم يدعني إلى الاعتقاد بها تقليد أو آحاد الأحاديث، وإنّما سياق الآيات يثبتها. وما صحّ من الروايات يعضدها. فلذا جزمت بها».

ثمّ يقول الغلاييني لمخاطبه: «و إن رأيتم رأيا في الموضوع فابعثوا به إليّ لأنّي - وأيم الله - أحبّ الانتقاد، لأنّ فيه من الفوائد ما لا يكاد يحصى»]

فإنكار ما أثبته النص الشرعي القاطع من هذه الخوارق العادية والحكم بامتناعه هو تصرّف وعمل أقلّ ما يقال فيه أنّه تسرّع في الحكم وقصور في النظر وظاهرة لجمود في الفكر بمثابة من ينكر ما لم يصل إليه علمه هو في خاصّة نفسه غاضا النظر عمّن حوله ممن علم ما لم يعلم هو. ومن الدليل على إنكار هذه الخوارق صادر عن قلّة العلم لا عن وفرته - كما يدّعيه لسان حال هؤلاء المنكرين - التراجع والاستئناس إليها إذا ما ذكر لها توجيهات ببيان وجه التفاعل وتهيؤ الأسباب لوقوعها - ولو كانت هذه التوجيهات واردة على سبيل الاحتمال - فقد ينكر المنكر خارقة انفلاق البحر مثلا ابتداء. ثمّ إذا وجّه له وقوعها بمثل القول إنّ الريح تشتدّ في البحر على خطّ ما فتحدث في الماء انقساما فيكون ذلك الخطّ بمثابة طريق في البحر. فإذا يبس الماء بشدّة برد الريح أمكن المشي فيه. وهكذا يتصوّر وقوع هذا الحادث بوجه معقول وغاية ما في الأمر أنّه شيء غير مألوف في العادة - إذا وجّه للمنكر انفلاق البحر بنحو هذا استأنس له، أو توقف على الأقل. ولا يسعه عموم الإنكار بعد ذلك -

و قد جاء للبعض مثل هذا التوجيه فيما يخص انشقاق القمر. فقد

جاء النقل عن البعض من المتقدمين بأنّ انشقاق القمر هذا يمكن أن يقال فيه بأنّه صورة من صور الخسوف [ممّا أثبته في هذا المحل عند تفسير الآية نظام الدّين النيسابوري* في كتابه لتفسير القرآن المسمّى " غرائب القرآن ورغائب الفرقان" ما يلي: «و زعم بعض أهل التنجيم أنّ ذلك -أي الانشقاق- كان حالة شبه الخسوف: ذهب بعض جرم القمر عن البصر وظهر في الجو شيء مثل نصف جرم القمر...» وعقّب النيسابوري على هذا بقوله: « ونحن نقول أخبار الصادق بأن يتمسّك به أولى من قول الفلسفي هذا مع أنّ استدلاله على امتناع الخرق في السماويات لا يتم كما بيّنا في الحكمة... إلخ »].

و من كلام بعض المتأخرين أنّه من أشباه حوادث الزلزال في الأرض... إلى غير ذلك ممّا قيل من التوجيهات إلاّ أنّ المصير الذي يجب أن يصار إليه في مثل هذه القضية هو ما تقدّمت إليه الإشارة من أنّ المدار في هذا إنّما هو على ورود النص القاطع بإثبات الخارقة. فإذا ثبت ذلك بما لا يحتمل التأويل ، فالمتعين -حينئذ- هو الإيمان بذلك على وجه الإجمال. لأنه ممّا يجوزه العقل وتتعلق به قدرة الله الخلاّق الفعّال في ملكه ما يريد.

[هذا التوجيه لانشقاق القمر بالزلزال في الأرض أفاده الأستاذ حسين الجسر* الطرابلسي الشامي ، وهو من المتأخرين يتقدّم الغلاييني بجيل واحد ، وذلك في كتابه " الرسالة المحمديّة في حقيقة الديانة الإسلامية" المؤلف أوائل القرن الهجري الحالي الرابع عشر. فبعد ما أورد معجزة انشقاق القمر هذه واعتمدها قال: «وانشقاق القمر ليس إلاّ من قبيل ما يحصل عند الزلازل من انصداع الجبال العظيمة وانقلاب عاليها سافلها ، ومن قبيل ما يزعمه بعض متأخري الطبيعيين من أنّ الأرض وكواكب أخر منفصلات عن الشمس ، و سيعدن إليها يوما ما...!»قال: «و كلّ ذلك من الجائز عقلا الداخل تحت تصرّف الإله القادر ، وإن كان غير معتاد سواء

جعل له سبب أم لا. وطول الزمان الذي يلزم أن يكون عوضا عن زيادة القوّة في أحداث الأعمال إنّما هو شرط في جانب القوّة الناقصة ، أي قوّة المخلوقات لا في جانب قدرة الإله التامة وإنّما جعل الله سبحانه تلك الأزمنة والأسباب في أعماله ذات الإعجاب ، ابتلاء لأولي الألباب. يضلّ بذلك من يضلّ. ويهتدي آخرون إلى الصواب»].

و ممّا جاء من هذه الأخبار عن تعنّت كفّار قريش بسؤالاتهم من الرسول صلّى الله عليه وسلّم الخوارق ما ورد أنّهم سألوه صلّى الله عليه وسلّم أن يغيّر لهم وضع بلادهم إلى أفضل ممّا هي عليه. وجاء من لفظ في هذه الرواية أنّهم قالوا له صلّى الله عليه وسلّم - بعد العروض التي عرضوها عليه ورفضها- فإن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنّه ليس أحد من الناس أضيق بلادا ولا أقلّ مالا ولا أشدّ عيشا منّا. فسل ربّك فليسيّر عنّا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليجر فيها أنهارا كما في الشام والعراق.

كما جاء أنّهم سألوه صلّى الله عليه وسلّم بعث الموتى ممن مضى من آبائهم فقالوا: وسل ربّك ليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث قصي بن حكيم ، فإنّه كان شيخ صدق ، فنسأله عمّا تقول أحقّ هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنّه أرسلك - حقًّا- إلينا رسولا كما تقول!

فكان جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم لهم على هذا قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ما بهذا بعثت إليكم وإنّما جئتكم من الله بما بعثني به»

و من هذه السؤالات أنّهم سألوه صلّى الله عليه وسلّم أن يأتيهم بمن يشهد له على صحّة ما يدّعي على أن يكون الشاهد ملكا ينزل من السماء فقالوا له صلّى الله عليه وسلّم سل ربّك يبعث معك ملكا يصدّقك فيما تقول ويراجعنا!

و جاء من صيغ تعنّتهم أنّهم قالوا له صلّى الله عليه وسلّم - ذات يوم:

«لم لا تنزل عليك الملائكة فتخبرنا بأنّ الله أرسلك فنؤمن بك حينئذ...؟!»

و كذلك قول بعضهم له صلّى الله عليه وسلّم: «يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا»[1].

و من هذه السؤالات قولهم: اسأل ربّك يجعل لك قصورا وجنانا ويفتح لك كنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغي من الرزق فإنّك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما هو شأننا نحن. فلا بدّ أن تتميّز عنا. فنعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسوله...!

و جاء أنّهم قالوا: إنّ محمدا يأكل الطعام كما نأكل ويمشي في الأسواق ويلتمس المعاش كما نلتمسه نحن. فلا يجوز أن يمتاز عنّا بالنبوّة....!

و جاء في هذه الروايات أنه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يجيبهم على هذه السؤالات التعنتيّة بقوله: «ما أنا بالذي يسأل ربّه هذا...!».

و قد جاء في بعض الروايات أنّ كثيرًا من هذه المواقف من التعنّت والتشدّد من الملإ من قريش بدا منهم في المجلس الذي جالسهم فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وجاءه في أثنائه عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى كما مرّ ذكره. فختم هذا المجلس بما ذكر من هذه التعنتات بعد ما كان بدا من القوم أوّل المجلس شيء من اللين والاستئناس. فعند ذلك انفضّ المجلس وقام الرسول صلّى الله عليه وسلّم منه حزينا آسفا آيسا من جهتهم.

هذا وقد بلغ بالقوم تعنّتهم حتى تطاولوا إلى طلب أن يروا الله سبحانه وتعالى عيانا- كما وقع ذلك من قوم موسى عليه السلام-![فقد جاء

---

[1] فسّر القبيل بأنّه الكفيل والشاهد بصحّة الدعوى. كما فسّر اللفظ - أيضا- بأنّه من المقابلة والمواجهة ، أي رؤيتهم ذلك عيانا. وذكر البعض في تفسير القبيل بالإضافة إلى الملائكة على معنى كثرتهم أي قبيلة قبيلة ، وفريقا فريقا.

في آية سورة النساء عن سؤال اليهود بالمدينة منه صلّى الله عليه وسلّم - كما سأل المشركون بمكّة - إنزال كتاب عليهم بصدق نبوّته يعنون كتابا ينزل جملة فيه خطابهم على التعيين (وهو سؤال تعنّت) وكان اليهود أسلافهم قد سألوا سؤال تعنّت رؤية الله تعالى من موسى عليه السلام فقصّت هذه الآية ذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾... إلخ.

و سؤال مشركي مكّة رؤية الله أشارت إليه الآيات بما في سورة الإسراء وسورة الفرقان كما سيأتي في سياق الآيات الواردة في هذا الباب].

و ممّا جاء من روايات هذا الباب ما ورد أنّ الملأ من قريش كان لهم معه صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم أخذ وردّ ، فأقسموا له بالله عزّ وجلّ ليؤمننّ بما جاءهم به إذا ما انقلب الصفا[1] ذهبًا...!

فلمّا قام الرسول صلّى الله عليه وسلّم يدعو الله تعالى أن يأتيهم بهذه الآية الخارقة نزل عليه جبريل عليه السلام بوحي من الله تعالى يقول له فيه ما معناه ، أنّه إن أجابهم إلى ما طلبوا من هذه الآية ثمّ لم يؤمنوا حلّ بهم العذاب كشأن الأمم السالفة.

و خيّر الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين إجابة سؤال القوم بهذا القيد وبين عدم الإجابة مع فتح باب التوبة لمن يتوب والرحمة بهم. فاختار صلّى الله عليه وسلّم الأمر الأخير شفقة منه ورأفة فقال: «بل حتى يتوب تائبهم!».

[وحكى مؤلف السيرة الحلبية نص الرواية الواردة بهذا عن محمد بن كعب القرظي أنّ الملأ من قريش أقسموا للنبي صلّى الله عليه وسلّم بالله

---

[1] جاء أنّ الأصل في لفظ "الصفا" بحسب هذا الموضوع الحجارة الصلبة كما أنّ "المروة" هي الحجارة الرخوة. والصفا والمروة هما الجبلان المعروفان بمكّة من مناسك الحج يقع بينهما السعي.

عزّ وجلّ أنّهم يؤمنون به إذا صار الصفا ذهبا فقام يدعو الله تعالى أن يعطيهم ما سألوه. فأتاه جبريل فقال: «إن شئت كان ذلك. ولكنّي لم آت قوما بآية اقترحوها فلم يؤمنوا بها إلاّ أمرت بتعذيبهم.» ثمّ لاحظ المؤلف المذكور على هذا بقوله: وفيه أنّه حينئذ يشكّل رواية سؤالهم انشقاق القمر].

هذا وقد علم أنّ هؤلاء المتعنّتين من كفار قريش كما سألوا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم الأمور المتقدّمة الذكر من الخوارق وغيرها، فكذلك سألوه أيضا تعجيل ما يتوعّدهم به القرآن من أنواع العذاب والعقاب الذي نال الأمم السالفة. وممّا جاء النص فيه من هذا السؤال سؤالهم أن يسقط عليهم من السماء كسفا[1] وأن تمطر عليهم السماء حجارة وأن يأتيهم العذاب كيفما كان جنسه!!!.

و ممّا ورد من الأخبار ممّا بلغه عناد القوم وتعنّتهم من المدى البعيد حكاية عبد الله بن أبي أميّة المخزومي الذي كان ابن عمّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم عاتكة بنت عبد المطلب، وهو أخو أم المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها. فورد أنّ عبد الله هذا قال ذات يوم للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يا محمد قد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل. ثمّ سألوك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدّقوك ويتبعوك فلم تفعل. ثمّ سألوك أن تعجل عليهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل. والله لن نؤمن بك أبدا حتى تتّخذ إلى السماء سلّما ثمّ ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثمّ تأتي معك بصكّ[2] معه أربعة من الملائكة يشهدون أنّك كما تقول! وأيم الله لو فعلت ذلك كلّه ما ظننت أنّي أصدّقك!...»

---

(1) كسفا: بكسر الكاف وفتح السين بصيغة الجمع. ومفرده الكسفة وهو بمعنى ووزن قطع وقطعة. وجاء - أيضا - بإسكان السين.

(2) الصكّ: بفتح الصاد هو الكتاب. ويجمع على أصُك وصِكاك وصُكوك. قالوا وأصل اللفظ فارسي ولكنّه عرّب.

و قد أفادت الأخبار عن عبد الله بن أبي أميّة صاحب هذا المقال بأنّه كان من أشدّ أعداء الرسول صلّى الله عليه وسلّم وألدّ خصومه طيلة مدّة كفره. ثمّ قدّر الله له أن أسلم أيام فتح مكّة وحسن إسلامه وختم له بالاستشهاد في سبيل الله ، إذ قد أصيب في غزوة الطائف ، فمات شهيدًا! وفي هذا أعظم عبرة لمن يعتبر بتصاريف قدر الله ، وأكبر عظة لمن يتّعظ بآيات الله في خلقه.

و كان لهؤلاء الملأ من مشركي قريش من مواقف التّعنت والعناد في مقابلة الدعوة الإسلامية إلى جانب تلك السؤالات والاقتراحات في طلب الخوارق المجهودات العظيمة في إيراد الشبه فقالوا عنه صلّى الله عليه وسلّم: هو ساحر. وقالوا مسحور وقالوا كاهن وقالوا مجنون وقالوا شاعر. وقالوا معلّم يتلقّى التعليم من بعض أهل الكتاب أو غيرهم كالكهان. وقالوا في القرآن: هو أساطير الأوّلين. وقالوا لم لا يكون نزول القرآن دفعة واحدة ؟ وعابوا عليه صلّى الله عليه وسلّم اتخاذ الزوجة وولادة الأولاد ، إلى غير هذا ممّا وردت به الأخبار. وقد قصّ القرآن الكريم العدد الوفير ممّا جاء عن متعنّتي قريش هؤلاء سواء ما يخص تلك الاقتراحات السخيفة أو ما يتعلّق بالشبه التي أوردوها في جانب شخص الرسول صلّى الله عليه وسلّم وفي جانب ما ينزل عليه من القرآن العظيم. فكان في الآيات القرآنية الردّ المفحم عليهم ، والبيان الشافي لنقض تلك الشبه بما وضح به الحق أبلج وزهق الباطل وتبدّد. وفيما يخص تلك السؤالات للخوارق والمطالب المبنية على الجهل والتعنّت حيث منعت إجابتها عنهم. فإنّ ذلك كان للرحمة بهم والشفقة عليهم ، لأنّه قد علم أنّ من بين سؤالاتهم هذه ما لو أجيب لاقتضى الإلجاء إلى الإيمان وكشف الغطاء عن الغيب فيحصل العلم الضروري الخالي عن النظر والاستدلال ولا يبقى - حينئذ- محل للمقصود من إرسال الرسل وامتحان الخلق بإيمان من آمن فيستحق الثواب. وكفر من كفر فيستوجب العقاب. وبعبارة مجملة: لا يبقى - حينئذ- تكليف البتّة! ومن هذا المعنى ما أشارت إليه الآية من خواتيم سورة

المؤمن (غافر) في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿84﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴿85﴾ ﴾[1].

فسؤالهم ما سألوا من هذا القسم كرؤيتهم لله جلّ وعلا، وإنزال الملائكة إليهم وتعجيل العذاب الذي أنذروا به، ونحو هذا هو - زيادة على كونه صادرا عن التعنّت - سؤال جهل بحقيقة المسؤل وتهافت[2] غير معقول. فقد جاء في القرآن من الجواب على ما سألوا من إنزال الملائكة عليهم قوله تعالى (سورة الأنعام): ﴿ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿8﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿9﴾ ﴾.

(دلّت هذه الآية على عدم إمكان رؤية الملك كما هو على صورته الأصلية. كما دلّت على أنّ نزول الملك - كما هو - عبارة عن نزول العذاب بالقوم الذين يسألون هذه المسألة).

و جاء في هذا قوله سبحانه (سورة الإسراء): ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾.

(ممّا ورد في تأويل هذه الآية أنّها تشير إلى أنّ الرسول يكون - ولا بدّ - من جنس المرسل إليهم).

وجاء في الردّ عليهم لمّا سألوا نزول العذاب بهم قوله عزّ وجلّ (سورة

---

(1) معلوم وأنّ البأس هنا هو العذاب. وقد فهم من عدّة آيات بأنّ مجيء بعض الآيات كنزول الملائكة هو بمعنى واحد مع حلول العذاب. وحلول العذاب لا تقبل معه التوبة ولا ينفع معه الإيمان.

(2) التهافت: هو تساقط الشيء متعاقبا هنا وهناك كتساقط أجزاء الثلج ونحوه. فإذا أضيف إلى الكلام، كان معناه الكلام الكثير الملقى بغير رويّة ولا تدبّر. والمادّة من باب " ضرب " فيقال: هفت، يهفت، هفْتا.

يونس): ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ...﴾ إلخ.

(ورود هذه الآية في هذا المعنى أحد وجوه ما أوّلت به وفيها - أيضا- أنّها فيما يدعو به الشخص من دعاء الشرّ على نفسه أو ولده أو أهله أو ماله، إذا ما انتابه غضب ونحوه. ولكن الأكثر على أنّها في موضوع استعجال المشركين العذاب الذي يوعدون به).

و جاء في هذا أيضا قوله تعالى (سورة الأنفال): ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿32﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ...﴾ إلخ

و كان من الحق امتناع إجابة مثل هذه المطالب لأنّها مطالب سفيه جاهل. فكان في امتناعها تعليم، زيادة على ما في ذلك من الرحمة من الله تعالى بهم ولشفقة الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليهم، ورأفته بهم كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك في قصّة سؤالهم قلب جبل الصفا ذهبا وأمثالها العديدة.

أمّا كون سؤالاتهم كلّها صادرة عن التّعنّت والاستهزاء وأنّهم كانوا عاقدين العزم على التكذيب ولو بعد إجابة تلك السؤالات. فهو شيء محقّق وفضحتهم فيه آيات القرآن النازلة بذلك. وكان هذا من موجبات امتناع إجابة سؤالاتهم تلك. ومن الآيات الواردة في هذا المعنى، قوله عزّ وجلّ (سورة الأنعام): ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

(التقييد بالقرطاس واللّمس باليد لإفادة مزيد من المبالغة في التحقق من الكتاب. وقد قيل أنّ اللمس أبلغ في تحقق الشيء من النظر مثلا....، كما قال القوم إنّما سكرت أبصارنا).

و قوله سبحانه (سورة الحجر): ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿14﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿15﴾ ﴾[1].

و في سؤالهم نزول الملئكة وبعث من مضى من آبائهم ونحو ذلك قوله تعالى (سورة الأنعام): ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[2].

و لمّا سألوه صلّى الله عليه وسلّم أن يسقط عليهم السماء كسفا، جاء الجواب على ذلك من القرآن بقوله عزّ شانه (سورة الطور): ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿44﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿45﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿46﴾ ﴾[3].

و من هذا المعنى الآية من قوله تعالى (سورة الرعد): ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾.

[من التأويل الذي جاء في هذه الآية أنّ جواب شرط " لو" محذوف يفهم من السياق. وقدّر هذا الجواب بوجوه منها ما يخصّ الموضوع الذي

---

(1) في هذه الآية أيضا ما فيها من المبالغة مقابلة لمبالغة القوم في العناد. وقد جاءت القراءة في لفظ "سكرت" بالتشديد، وبالتخفيف. إلاّ أنّ القراءة المشتهرة هي التشديد. وقد جاء في اللفظ أنّه مأخوذ من سكر النهر، بمعنى حبسه عن الجري. وهو فعل من باب نصر. يقال سكر النهر ونحوه يسكره سكرا، بمعنى سدّه وحبسه. وقيل أنّه من السكور، بضم السين بوزن السكون وبمعناه أيضا، يقال سكرت الريح بمعنى ركدت. وقيل هو مأخوذ من السّكر بالضم أي التغطية والغشيان. وهو الأثر الذي تحدثه الخمر. والفعل من هذا الأخير مكسور في الماضي مفتوح في المضارع.

(2) جاءت القراءة للفظ قبِلا بضم القاف وضم الباء على أنّه جمع قبيل كما جاءت بكسر القاف وفتح الباء على أنّه مصدر أو ظرف مكان للمقابلة وقد مرّ تفسير اللفظ.

(3) المركوم بمعنى المجموع والمتراكب بعضه على بعض.

هو موضوع تعنّت القوم باقتراح ما يقترحون ممّا ذكر في الآية من تسيير الجبال وتقطيع الأرض. وفي معنى ذلك توسيعها وتفجير الماء بها وتكليم الموتى ممّن مضى من أجدادهم...إلخ فالتقدير في صيغة الجواب هكذا: «ولو أنّ قرآنا سيّرت به الجبال... أو... أو... إلخ لما آمنوا. وما في معنى هذا.

و جاء في تقدير الجواب وجه آخر ممّا يدلّ على تفخيم شأن القرآن. وذلك كأن يقال: «و لو أنّ قرآنا سيّرت به الجبال... إلخ لكان هذا القرآن المنزّل على محمد....»].

و ممّا جاء من آياتِ القرآن بالقول الفصل في خصوص هذا الموضوع الذي هو سؤال القوم الآيات الخارقة وهم مع ذلك مصرّون على التكذيب ولو أجيبوا إليها.

الآية من قوله عزّ من قائل (سورة يونس): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ (96) وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (97)﴾.

و قد بدا من الآيات القرآنية التي جاءت بالجواب على هذه السؤالات التي كان يسألها متعنّتو المشركين من قريش أنّ الجواب كان يأتي عليها تارة ببيان جهل القوم ووجه امتناع الإجابة، وتارة بالإشارة إلى تعنّتهم والكشف عن نيتهم في الإصرار على الإنكار ولو أجيبوا إلى ما سألوه. وتارة يأتي الجواب بمعنى خارج ليس من جنس السؤال. وإنّما تفهم دلالته كجواب للسؤال بإمتناع إجابته ضمنًا، ويكون في هذا المعنى الخارج مزيد تقريع[1] وتبكيت لهم.

---

(1) كل من التقريع والتبكيت يرجع إلى معنى التعنيف بالكلام الذي يشتدّ وقعه على الخصم وتقوم به عليه الحجة. ومادّة قرع لها أوزان ومعان عديدة. من معناها القرع بالعصا على الرأس. وهو مفتوح ماضيا ومضارعا. ومصدره بفتح فسكون، ومأخذ التقريع منه.

وأمّا البكت بفتح فسكون، فمصدر بكت بالفتح، يبكُت بالضم (فهو من باب نصر) ويستعمل متعديا، فيقال بكته بمعنى غلبه بالحجة. وربما يستعمل - أيضا - في الضرب بالعصا ونحوها. وقريب من معنى البكت الكَبْت بتقديم الكاف على الباء. وهو من باب (ضرب) إلاّ أنّ معنى هذا

و ذلك مثل ما جاء في الردّ عليهم لمّا سألوا رؤية الربّ سبحانه وإنزال الملئكة عليهم وقصّته الآية من سورة الفرقان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿21﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿22﴾ ... ﴾ إلخ.

[ممّا قيل في تأويل هذه الآية أنّ " العتو "* هو مجاوزة الحدّ المعتاد في الظلم والطغيان ثمّ زيد على هذا فوصف العتو بالكبر. ويرجع هذا العتو إلى اقتراحهم رؤية الربّ جلّ جلاله. وقد فهم من الآية ترك الجواب على رؤية الرب ، بل كان الجواب مقتصرا على رؤية الملئكة بأنّ في ذلك اليوم الذي تحصل لهم فيه هذه الرؤية يحلّ معها العذاب بهم. فيكون هو يوم الموت أو يوم الحساب. وجاء أنّ عبارة " حجرا محجورا" من مقال الملئكة لهم تيئيسا لهم من الرحمة. ومعنى الحجر* المنع أي حراما محرّما عليهم البشرى والنجاة وما في معنى هذا. وقيل أنّ من عادة العرب إذ أذاهم مكروه ، أو حلّت بشخص منهم شدّة يقول حجرا محجورا (عبارة تعوّذ وما في معناه) فعلى هذا يكون المقال المذكور من المتحدّث عنهم من المجرمين].

و كان الجواب من هذا القسم الأخير وبصيغة من الإيجاز في اللفظ وعلى روعة بالغة في المعنى فيما جاء في سورة الإسراء على سؤالاتهم العناديّة وفيها ما روي أنّه من مقال عبد الله بن أبي أميّة المخزومي قبل إسلامه ، كما تقدّم ذكره ، فجاء في السورة المذكورة حكاية المقال المذكور وأجيب عليه ، وذلك بقوله جلّ ذكره: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ

الأخير أوسع. ففيه معنى السقوط على الوجه والغمّ الداخلي والصرف والذّلة وغير ذلك. وجاءت منه الآية في سورة آل عمران: ﴿أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾.

ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿90﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿91﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿92﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿93﴾ ﴾.

و يشبهه ما جاء في سورة هود في الجواب على سؤالهم إنزال الكنز عليه صلّى الله عليه وسلّم ومجيء الملك معه وذلك ما في قوله جلّ وعلا: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

و في أحد سؤالاتهم البالغ درجة في نهاية التعنّت والسخافة وهو ما سألوا فيه أن ينزل عليهم كتاب فيه خطاب كلّ واحد منهم باسمه الخاص ومع ذكر اسم أبيه وجدّه ونحو هذا... حتى يؤمنوا ، (ممّا جاءت به الروايات من هذه الاقتراحات أن تنزل على كلّ فرد منهم صحيفة من الله بعنوانه الخاص فيها بيان ما يحمله على الإيمان) ، نزلت الآيات من سورة المدثّر في قوله عزّ شأنه: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿49﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿50﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿51﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿52﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿53﴾... ﴾[1] إلخ.

(1) ورد في تأويل الآية أنّ " الحمر المستنفرة " هي الوحشية. ثمّ زيد نفارها وفرارها. ولفظ "قسورة" قيل فيه أنّه مفرد تزاد فيه تاء التأنيث ، وربما تسقط منه ، فيقال قسور ومأخذه من القسر الذي معناه القهر والغلبة. فإنّ العرب تطلق هذا اللفظ على كلّ ضخم شديد. وجاء في معناه - على هذا- أنه الأسد. وقيل ضجيج الأصوات واللغط. وقيل شدّة ظلمة الليل. كما قيل في اللفظ أنّه جمع لا واحد له من لفظه. وفسّر بجماعة الرماة وبحبال الصيادين... إلى غير ذلك ممّا قيل في معناه. شبه إعراض القوم ونفورهم من تذكرة القرآن بحال الحمر الوحشية حال فزعها وفرارها ممّا تخاف منه وفيه الإشارة إلى بلادة القوم وطيش أحلامهم.

أمّا الآيات القرآنية النازلة في الردّ على ما يبدي القوم من الشبه فأمر عرفت كثرته في الكتاب وتوارد في سورة حتى لا تكاد تخلو سورة في القرآن منه.

و قد ساق البعض من مؤلفي السيرة في هذا المكان بعضا من هذه الآيات. منها ما جاء في الجواب على إنكار القوم على النبيّ أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وهو الآية من سورة الفرقان في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ... ﴾ إلخ.

و في استنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر جاءت الآية من سورة النحل في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿43﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾[1].

و نظائر هذه الآية في الجواب على الموضوع نفسه متعدّدة ، جاءت في كثير من سور القرآن.

و جاء في الردّ عليهم لمّا عابوا أن يتّخذ الرسول الأزواج ويلد الأولاد الآية من قوله سبحانه (سورة الرعد): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً... ﴾ إلخ.

و كـــان مـــن كبريـــاء هـــؤلاء القـــوم واســـتهتارهم[2] وتعنّـــتهم

---

(1) جاء في التفاسير في متعلّق الجار والمجرور من لفظ " بالبينات والزبر " أنّه فعل " أرسلنا " وأنّه فعل يوحي ، وأنّه الذكر من أهل الذكر ، وأنّه فعل تعلمون. وأنّه لفظ رجالا أي باعتبار صفته المقدّرة كأن يقال: رجالا متلبسين بالبينات والزبر. فهي خمسة أقوال.

(2) الاستهتار فعل المستهتَر بصيغة اسم المفعول. يقال هو مستهتر بكذا من كلّ ما هو باطل ومذموم كالخمر وغيرها مع ملاحظة معنى عدم المبالاة. والمادّة من باب " ضرب " وجملة المعنى فيه يرجع إلى القول. فيطلق على سقط الكلام والكذب والسباب وما يصدر عن السكران والخرف والمحموم ونحو ذلك. ويقال في السبّ الشديد القبح والدعوى بالباطل مهاترة... إلخ.

وتنطعهم[1] في مقاومة دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن تطاولوا إلى طلب أن ينزّل عليهم وحي كما نزل عليه صلّى الله عليه وسلّم. وتفيد روايات الأخبار أنّ أبا جهل* بن هشام كان ممن ذهب به غروره وطغيانه إلى هذا المدى، فجاء عنه أنّه قال: «تزاحمنا نحن (أي مخزوم) وبنو عبد المطلب الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منّا نبي يوحى إليه والله لن نرضى به ولن نتبعه أبدا إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه...!».

فنزلت في هذا الآية من قوله تعالى (سورة الأنعام): ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ....﴾ إلخ.

و من هذا ما ورد أنّ الوليد بن المغيرة* قال يوما أينزل القرآن على محمد وأُتْرَكُ أنا، وأنا كبير قريش وسيّدها؟ ويترك أبو مسعود الثقفي سيّد ثقيف ونحن عظماء القريتين (مكّة والطائف)؟

و في رواية أخرى أنّ البعض من القوم قال- يوما- كان الأحقّ بالرسالة الوليد بن المغيرة من مكّة وعروة بن مسعود* الثقفي من الطائف!

فأنزل الله سبحانه وتعالى في الرد على هذا المقال (الآية من سورة الزخرف): ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (32)﴾.

[ممّا جاء في تأويل هذه الآية من وجوه المعنى الذي تضمّنه الرّد على مقال المستكبرين هذا أنّ معيشة الدنيا على ما هي عليه من حقارة

(1) المراد بالتنطع هنا، مطلق التعمق والإمعان في الذهاب إلى أبعد مدى، وأصله من نطع الفم بكسر النون وإسكان الطاء، وهو باطن الفم حيث منبت اللسان لأنّ المتنطع في أصل الاستعمال هو المتشدق المتعمق في كلامه.

الشأن والتفاهة بالنسبة لرحمة الله وكرامته ، ومنها الرسالة والنبوّة هي أي معيشة الدنيا ممّا استأثر الله بتصريفه كما يشاء وتفرّد سبحانه بالقضاء فيه ووضعه كما يريد هو ويختار. فكيف بما هو أفضل وأعزّ شأنا منها كالرسالة ونحوها...؟].

و ممّا اصطنعوه من الأباطيل جاعلينها شبهة لمعارضة دعوته عليه الصلاة والسلام حتى فضحهم فيها القرآن وقضى على باطلهم ما ورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يجالس عبدا مملوكا لبني الحضرمي بمكّة. وكان هذا المملوك رومي الجنس ونصرانيّ الدّين. وجاء في بعض الروايات تسميّته بأبي اليسر* ، وفي البعض بجبر* ، ولم يكن هذا الرجل يحسن العربية جيدا ، بل كان لسانه أعجميا. وإنّما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يجالسه ويخالطه لما آنس فيه من قابلية الاستجابة للإسلام. وقد تحقّق ذلك فعلا. فقد أسلم الرجل في أوّل من أسلم. وقد تقدّم في حديث المستضعفين أنّه ممّن أوذي وعذّب في سبيل إسلامه ، وأكره على كلمة الكفر ، حتى قيل أنّ آية الإكراه على الكفر الواردة في سورة النحل نزلت فيه ، رأى القوم من معاندي الدعوة جلوس الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى أبي اليسر هذا ، فقالوا إنّما يجالسه لأنّه يتلقّى عنه التعليم ، وأنّه الذي علّمه هذا القرآن الذي أتى به!

[ليس ما جاء من حديث أبي اليسر هذا هو كلّ ما جاء في هذا الباب ، بل أنّ هذه الفرية من فجّار قريش كانت لهم منها الأمثال العديدة والمجالات الواسعة كما هو الحال من طبيعة الكذب والاختلاق ولا يعجز صاحبه أن ينوّع ما شاء ويأتي بالكثير ما استطاع. فبعدما تقوّل القوم على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يأتي به من الوحي بأنّه يتعلّمه من غيره عمّموا وخصّصوا في هذه الفرية وذهبوا فيها كلّ مذهب حسبما يتاح لهم من صنع هذه الشبه. فجاء في الروايات الإخبارية من أسماء الأشخاص الذين كانوا بمكّة وعلقت هذه الشبهة بهم لأنّهم كانوا في عامّتهم أجانب

يدينون بالنصرانية أو غيرها ، وكانوا مماليك أو صناعا وذوي ثقافة ، يقرأون الكتب. فذكر من هؤلاء زيادة على خبر أبي اليسر اسم جبر على أنّه غير أبي اليسر وبلعام* وعائش* وسمّاه البعض يعيش واسم يسار* ، وغيرهم ، وذهبوا في هذا الإختلاق إلى أنّ معلّمه صلّى الله عليه وسلّم هو من خارج مكّة. فقد ورد أنّهم قالوا إنّما يتعلّم من كاهن باليمامة. كما قالوا أنّه يتعلّم من طائفة من اليهود وليس بمكة طائفة من اليهود.... ، كما أطلقوا فيما يتعلّق بهذه الفرية وعمّموا وأبهموا... فقالوا: إنّما يتعلّم من قوم آخرين. وقد جاء في آيات القرآن ما يشير إلى هذا الموضوع. ومنه الآيات من سورة الفرقان بقوله جلّ جلاله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿4﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿5﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿6﴾ ﴾].

و هكذا بلغ بالقوم عنادهم وتعنّتهم إلى التمسّك بشبهة شاهدة بنفسها على نفسها بالبطلان ، يعجز عباقرة البيان منهم وأهل الاختصاص الممتازون في لسانهم ويقصرون عن محاكاة أقصر جملة من القرآن وينشئه رجل أعجمي لا يحسن مطلق التكلم بالعربية. ثمّ لا يظهر هو بذلك بل يلقيه لغيره سرّا ليدّعي هذا الغير به النبوّة!!

و تفيد الأخبار أنّ في الردّ على هذا العناد وما جرّ إليه أصحابه من التخبّط في ظلمات الضلال نزلت الآيات من سورة النحل بقوله عزّ من قائل: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿103﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿104﴾ ﴾.

و حاصل ما يقال في هذا الباب أنّه ما من شبهة تمسّك بها القوم

يتوهّمون- أو يتظاهرون- بها أنّها حجّة لهم ضد الرسول صلّى الله عليه وسلّم وما جاء به من الوحي إلاّ ردّت عليهم في وجوههم بأبلغ ردّ وأحسنه كما جاء في مقالهم الذي انتقدوا فيه مجيء القرآن مفرّقا بحسب المناسبات والوقائع وقالوا هلاّ كان نزوله دفعة واحدة...!فجاء الجواب على هذا بما في سورة الفرقان من قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) ﴾.

هذا والذي ينبغي أن يستفاد من عموم ما جاء في هذا الباب هو حقيقة أمر واحد ذلك أنّ الملأ من قوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم أعني الذين قاموا بمعارضة دعوته صلّى الله عليه وسلّم لم يكونوا في جميع ما قاموا به من هذه الاقتراحات والسؤالات والانتقادات وإيراد الشبه إلاّ معاندين متعنّتين. وقد قامت عليهم الحجة من أوّل يوم قام فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالدعوة وما تلك الحجّة البالغة والآية القاهرة إلاّ ما جاء به من القرآن الكريم فشاهد العقل يثبت ، وواقع الحال يقرّر بأنّ آية القرآن أغنت عن كلّ آية ، وحجّته كفت عن كلّ حجّة. فكلّ ما سألوا من الآيات الخوارق وما أوردوا من الشبه بعد جحودهم بآية القرآن إن هو إلاّ مشاغبة[1] ومهاترة ونوع من العبث أملاه العناد. وجاءت الإشارة إلى هذا المعنى في العدد الكثير من آيات القرآن كالآية من قوله سبحانه (سورة العنكبوت): ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

(1) الشغب: بفتح الشين المعجمة وإسكان الغين المعجمة. وقد تفتح مصدر. والفعل منه مفتوح في الماضي ويكسر أيضا مع الفتح في المضارع. كلّ معناه مذموم. فيطلق على تهييج الشرّ والميل عن الطريق والتعاصي والامتناع ، وعلى اللغط والجلبة في الخصومة بقصد تهييجها... إلخ.

و الآية من قوله تعالى (سورة طه): ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

[جاء فيما جاء من تأويل آية طه هذه أنّ المراد ببيّنة ما في الصحف الأولى القرآن الكريم، و هو أحد عدّة أقوال في تفسير لفظ " بيّنة ". فقد جاء أيضا أنّ المراد به البشرى برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم. فقد ذكرت في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل].

و الآية من قوله عزّ شأنه (سورة الشعراء): ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾. وغيرها من العدد العديد من الآيات المشيرة إلى هذا المعنى.

[وجاء في تأويل هذه الآية من سورة الشعراء نحو ما ذكر عن آية طه. ففي الضمير من لفظ " يعلمه " كما في الضمير قبله من " وإنّه لفي زبر الأوّلين " جاء قول بأنّ الضمير يعود على النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم من حيث التبشير به، وذكر صفته وخصائصه. فقد ثبت هذا بأنّه وارد في الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل. وكان علماء بني إسرائيل ممّن لهم اتصال بالعرب كأحبار المدينة يعلمون هذه الحقيقة حقّ العلم. ومن الأخبار في هذا ما ورد أنّ أولي الأمر من قادة قريش سألوا عن أمره صلّى الله عليه وسلّم أحبار اليهود بالمدينة وأوفدوا في هذه المهمّة جماعة من زعمائهم كما سيأتي ذكره في الباب الذي يلي هذا الباب من السيرة.

و يظهر ممّا درج عليه البعض من المفسرين هنا التفرقة بين الضميرين يجعل ضمير " وإنّه لفي زبر الأوّلين " عائدا على القرآن. والضمير في " يعلمه " عائدا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. كما يظهر من تحرير بعض آخر أنّ الضميرين كليهما يعودان على القرآن العظيم، وهو ما يوافق الاستشهاد به هنا. ولعلّ هذا - أيضا- هو المتبادر للفهم من سياق الآية].

و لعمر الحق أنّ القرآن آيات بينات وحجج باهرات بأيّ اعتبار كان

النظر إليه. وفي أي مجال كان حمله عليه. آيات متعدّدة الجوانب متنوّعة الوجوه سواء في نزوله وعلى من نـزل في نظم لفظه وأسلوبه في جمله ومفرداته. والمعنى وما أحاط به من أبواب ، والموضوع وما دلّ عليه من أكوان آيات الخلود الأبدي ، ومعجزات البقاء السرمدي ، لذا كان القرآن آية الله القائمة وحجّته البالغة لما جاء به الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم من دين الله الإسلام.

هذا ومن المعلوم أنّه جاء في العدد الجمّ من الآيات القرآنية الخطاب الصريح والنص اللفظي الواضح بالتنبيه والتذكير بما في القرآن من تلك الآيات الشاهدة بصدق نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وما فيه من براهين لحقية دعوته الإسلاميّة. فزيد تقرير هذا المعنى بلسان المقال فوق ما هو حاصل بدلالة واقع الحال.

فكثير - جدّا - ما جاء في القرآن من التعقيب على حكاية قصّة أو إفادة خبر أو تقرير حقيقة من العلم بآية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾.

و فيما يتعلّق بشأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم من حيث معجزة نزول القرآن عليه على أُمِيته وأنّه لم يقرأ قط ، ولم يكتب ، ولم يتعلّم ، ولم يتنقل عن موطنه ليكتسب علما ما. بل كانت إقامته بين ظهراني قومه على هذا الحال طيلة أربعين سنة من عمره. ففاجأه الوحي بما فاجأه به بعدها.

جاءت في هذا الآية من قوله عزّ وجلّ (سورة يونس): ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

و فيه أيضا الآية من قوله جلّ شأنه (سورة العنكبوت): ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿48﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ

بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿49﴾ ﴾.

و فيما جاءه صلّى الله عليه وسلّم من الوحي بأخبار الغيب ممّا لم يكن ليحصل العلم به إلاّ من طريق الوحي. جاء في القرآن التنبيه إلى هذا المعنى وأنّه من إحدى آيات القرآن العظمى، ومعجزاته الكبرى فجاء في قصّة خلق آدم عليه السلام وما تعلّق به من حديث الملئكة وسجودهم لآدم وإمتناع إبليس من ذلك وما ترتّب على ذلك كلّه، الآية من سورة (ص) بقوله جلّ وعلا: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿67﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿68﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿69﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿70﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿71﴾ ... ﴾ إلى آخر الآيات.

(جاء في تفسير الآية أنّ النّبأ العظيم هو القرآن كما فسّر بعموم ما جاءه صلّى الله عليه وسلّم من الوحي) وجاء بعد قصّة نوح عليه السلام التعقيب عليها بالآية من سورة هود من قوله جلّ ذكره: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

و جاء بعد قصّة موسى عليه السلام ما في الآيات من سورة القصص بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿44﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿45﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... ﴾ إلى آخر الآيات.

(فالرحمة - هنا - هي ما أوحي به إليه صلّى الله عليه وسلّم من القرآن الكريم وفيه هذه الأخبار الغيبية).

و في سورة يوسف عليه السلام بعد ذكر قصّته جاء التعقيب عليها

بقوله عزّ من قائل: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾.

و عقب قصّة مريم عليها السلام في سورة آل عمران وردت الآية بقوله تبارك اسمه: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

[ساق البعض من مؤلفي السيرة كالحلبي في هذا الموضع ممّا يخصّ معجزة القرآن العظيم الأبيات المتعلّقة بهذا المعنى من منظومة الإمام شرف الدين البوصيري المعروفة بالهمزية حيث يقول:

عجب الكفار زادوا ضلالا — بالذي فيه للعقول اهتداء

والذي يسألون منه كتاب — منزل قد أتاهم وارتقاء

أولم يكفهم من الله ذكر — فيه للناس رحمة وشفاء

أعجز الإنس آية منه والجنَّ — فهلاَّ تأتي به البلغاء

إلى أن يقول:

فأطالوا فيه التردد والريب — فقالوا سحر وقالوا افتراء

و إذا البينات لم تغن شيئًا — فإلتماس الهدى بهنّ عناء

و إذا ضلّت العقول على علم — فماذا تقوله النصحاء.]

هذا بعض من كلٍّ ممّا ورد في القرآن من هذا المعنى. والواقع أنّ هذا الباب من السيرة الذي سيق فيه موضوع معجزة القرآن عرضا واستطرادا ليس ممّا يفي -ولو بالبعض منه -المجلّد والاثنان والثلاثة ونحوها لما هو عليه من الاتساع بحيث يعدّ كمادّة لتاريخ الدعوة المحمديّة بكاملها ، ولا يكاد يوجد مكان في هذا التاريخ وهو خلو ممّا يتعلّق بهذا الباب.

فهرس في أعلام أشخاص وأسماء قبائل

على ترتيب حروف الهجاء

المجَلد الأول

فهرس في أعلام أشخاص وأسماء قبائل
على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الثاني

فهرس في مفردات لغوية وأسماء أماكن وبلدان على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الأول

فهرس في مفردات لغويّة

حسب ترتيب حروف الهجاء

المجلد الثاني

فهرس الأبواب والموضوعات



ولد الشيخ محمد الصالح بن طيار بمدينة باتنة يوم 07 ديسمبر سنة 1900م في بيت علم وثقافة حيث استقى منه التعاليم الأولى للإسلام. لقد كان أبوه الشيخ الأخضر بن طيار قاضيا شرعيا (في كل من باتنة - خنشلة- عين البيضاء- القالة - عزابة ولاية سكيكدة وسوق أهراس) وكان عمه العلامة الشيخ سليمان بن طيار إماما بمدينة تبسة، وكان عمه الحاج البشير بن طيار أول أمين المالية لأول جمعية دينية لمدينة ميلة أي "جمعية حياة الشباب" التي أسسها العلامة مبارك الميلي في فبراير 1936.

نال الشيخ الفاضل أكبر قسط من العلم والتكوين من تتلمذه على يد شيوخ أجلاء بمدينة قسنطينة وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد بن باديس إذ كان يلازمه ويرافقه في كل حركاته الإصلاحية عبر الوطن ومن أبرز زملائه نذكر: الشيخ العباس بن الشيخ الحسين- محمد العيد آل خليفة- زهير الزاهري- نعيم النعيمي- الشيخ بيوض- الصادق حماني....

زيادة على تخصصه في العلوم الإسلامية تحصل الشيخ في 27 ماي 1941 على شهادة الكفاءة لوظيفة "عادل" (موثق).

أظهر في الفترة ما بين -1931إلى 1945 نشاطا كبيرا في التربية والتعليم بتأسيس وإدارة المدارس الحرة، إنشاء الجمعيات الدينية والنشاط كمرشد في الكشافة الإسلامية في كل من مدينة سوق أهراس وضواحيها ومدينة عزابة (نذكر من تلاميذه: الشيخ عبد الرحمان العائب- علي منجلي- عبد الحميد لطرش- محمد الشريف مساعدية....).

اعتقلته السلطات الفرنسية إثر حوادث 08 ماي 1945 ونقل من سجن مدينة عزابة إلى سجن مدينة سكيكدة ونفي من مدينة عزابة بعد إطلاق سراحه فاستقر بمدينة ميلة مسقط رأس أسرته وتولى فيها إمامة المسجد ورئيس فرع جمعية العلماء المسلمين ورئيس الجمعية الدينية حياة الشباب.

في سنة 1964 أدمج الشيخ محمد الصالح بن طيار في هيئة أساتذة التعليم من طرف وزارة التربية الوطنية ولكنه رفض التوظيف، وبقي الشيخ محمد الصالح بن طيار الإمام الواعظ والمرشد الأمين للأمة إلى أن وافته المنية يوم 11 أكتوبر سنة 1984 بمدينة ميلة.

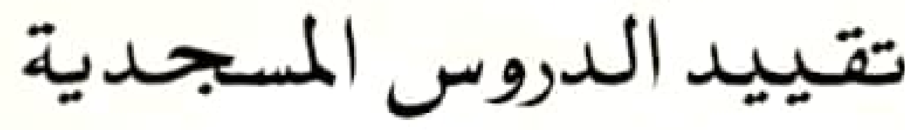
نشير إلى أنه تم بناء مسجد باسم الشيخ محمد الصالح بن طيار بحي العربي بن رجم (500 مسكن) بميلة وبتاريخ 23 جوان 2013 تخرجت دفعة أئمة تحمل اسم الشيخ محمد الصالح بن طيار على مستوى المعهد الوطني للتكوين المتخصص للأسلاك الخاصة بإدارة الشؤون الدينية والأوقاف بمدينة التلاغمة ولاية ميلة.

ISBN: 978-9947-36-545-8



نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع

22. شارع قيطوني عبد المالك
قسنطينة - الجزائر
هاتف فاكس: 213.31.92.25.61 +
E.mail: dar_numidia@yahoo.fr



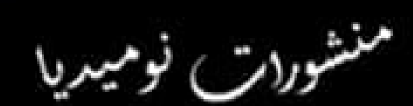
في

السيرة النبوية المحمدية

الجزء الثاني

على صاحبها وآله وصحبه
أفضل الصلاة وأشرف السلام
وأجل التحية

تأليف: الأستاذ الشيخ
محمد الصالح بن طيار رحمه الله



تقييد الدروس المسجدية

في

السيرة النبوية المحمدية

على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة

وأشرف السلام وأجل التحية

الجزء الثاني

تأليف: الأستاذ الشيخ محمد الصالح بن طيار رحمه الله





عنوان الكتاب: تقييد الدروس المسجدية في السيرة النبوية المحمدية
(الجزء الثاني)
تأليف: الشيخ محمد الصالح بن طيار
عدد الصفحات: 312
قياس الكتاب: 16 × 24

ردمك / ISBN: 5- 546- 36- 9947- 978
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018.



22 شارع قيطوني
عبد المالك قسنطينة
تلفاكس: 031.92.25.61
E.mail: Dar_numidia@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين خير حمده وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على أشرف خلقه وأصفى من بعث بعبده سيدنا محمد بن عبد الله رسوله وخاتم أنبيائه ورسله صلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريّته وأتباع دينه وأنصار ملّته وسنّته أفضل صلاة وأزكاها وأبرك سلام وأكمله.

و بعد: فهذا تابع التقييد والنقل لدروس السيرة النبوية الواقع إلقاؤها بالمسجد الجامع الجديد من مدينة ميلة افتتح نقله تباعا لما تقدّم نقله وتهذيبه في المجلّدين السابقين بعد فترة انقطاع من الزمن طال أمدها حتى يسّر الله ذلك في يوم الإثنين العشرين من شهر ربيع الأنور المبارك من عام تسعين وثلاثمائة وألف هجرية الموافق للخامس والعشرين من شهر مايه سنة 1970 سبعين وتسعمائة وألف للميلاد المسيحي.

فعلى الله الاتكال في بلوغ الآمال وعلى الله قصد السبيل وهو المولى فنعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدرس 25

بعث قريش وفدا منهم إلى أحبار اليهود بالمدينة يسألونهم في شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم

ورد أنّ قريشا بعثت بوفد منهم إلى أحبار اليهود بالمدينة يتركب من النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط ليسألا الأحبار عن شأنه صلّى الله عليه وسلّم. فكان ممّا تكلّم به المبعوثان قولهما: «أتيناكم لأمر حدث فينا عظيم - منّا غلام حقير يقول قولا عظيما يزعم أنّه رسول الله. وأنّه رسول الرحمن... إلخ. فكان ممّا أجاب به الأحبار أن قالوا لهما صفوا لنا صِفة الرجل. فوصفاه صلّى الله عليه وسلّم بما هو عليه ممّا هو معلوم لدى العموم. فسألوهما: من يتْبَعُه منكم ؟ فأجابا: يتْبَعُه سَفَلَتُنَا! وهنا ضحك أحد الأحبار وقال: هذا هو النبي الذي نجد عندنا نعته ونجد أنّ أشدّ الناس عداوة له هم قومه! ثمّ قال الأحبار للمبعوثين: سلوه عن ثلاث فإن أخبر بالأولين ويعارض في الأخيرة فهو نبيّ وإن لم يفعل كذلك ، فالرجل مُتَقَوِّل.سلوه عن فتية ذهبوا في الدّهر الأوّل ما كان من أمرهم ؟ فقد كان لهم حديث عجيب! وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ .

و رجع المبعوثان إلى مكّة فقالا: قد جئناكم بما هو الفصل بينكم وبين محمد (خاطبا قومهما بهذا). وعند ذلك تقدّم القوم إليه صلّى الله عليه وسلّم فسألوه المسائل الثلاث. فورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال لهم: «سأجيبكم غدا.» ولم يستثن (أي لم يقل إن شاء الله).

فاحتبس الوحي عنه صلّى الله عليه وسلّم مدّة اختلفت فيها الروايات. فجاء أنّها ثلاثة أيام ، وأنّها أربعة ، وأنّها خمسة عشر وغير ذلك.

و هنا أطلقت قريش العنان لأفواهها فتكلّموا بما شاء لهم الغرض أن

يتكلّموا. فممّا ورد من عباراتهم في هذا قولهم قلاه[1] ربّه. وممّا قالته حمّالة الحطب زوج عمّه أبي لهب مخاطبة له صلّى الله عليه وسلّم: ما أرى صاحبك إلاّ قد ودعك[2] وقلاّك.

و يقول آخرون ها هو محمد قد أبطأ عليه شيطانه إلخ... وبعدما شقّ الأمر عليه صلّى الله عليه وسلّم جاءه الوحي بسورة "الضحى". وعندها كبّر صلّى الله عليه وسلّم «الله أكبر». ومن هذا جاء التكبير (بصيغة الله أكبر) فيما ذهب إليه البعض من القرّاء كابن كثير عند أوّل السورة ابتداءً من سورة الضحى إلى الختم أو عند آخر السورة.

و ربما ثمّ من يرى التكبير أولا وآخرا لكل سورة من الضحى إلى الناس [ممّا ورد في هذا التكبير رواية عن عكرمة بن سليمان قال: قرأت على إسماعيل ابن عبد ربّه فكبّر... قال: قرأت على عبد الله بن كثير أحد الأئمّة القرّاء السبعة فكبر، أمره بذلك مجاهد. ومجاهد أمره بذلك ابن عبّاس، كما أمر بذلك ابن عباس أبيّ بن كعب الذي أمره بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ويقول في هذه الرواية بعض الحفاظ هو حديث غريب. ونقل عن الإمام الشافعي أنّه قال لرجل إنّك إن تركت التكبير من الضحى إلى الختم في الصلاة أو خارجها فقد تركت سنّة من سنن نبيّك صلّى الله عليه وسلّم. ويقول الحافظ ابن كثير لم يرد في هذا الباب ما يحكم عليه بصحّة أو بضعف].

ثمّ إن الوحي نزل بالجواب عن سؤال السائلين في سورة الكهف (وفيها خبر الفتية، وفيها خبر الرجل الطوّاف بالأرض وهو ذو القرنين*.

---

(1) قلاه: بمعنى أبغضه وقد تقدّم في الدرس العشرين التعليق على هذه المادّة ببسط.

(2) الودع: بفتح الواو وإسكان الدال المهملة آخره عين مهملة من معانيه وهو المراد هنا الترك. والفعل الماضي منه قليل في الاستعمال والماضي منه كالمضارع مفتوح العين (أي الدال) والذي جاء في الآية: ﴿ما ودّعك ربّك﴾ قرأه جمهور القرّاء بتشديد الدّال من التوديع الراجع إلى الترك والبغض بالتخفيف من الترك.

وقد جاء من الأقوال في تسمية ذي القرنين بهذا الاسم العدد الكثير. كما جاء في التعريف به بأنّه من ولد يونان بن يافث وأنّه رجل من الصالحين، ومن الملوك العادلين إلى غير ذلك. ونقل عن الضحاك من أئمّة السلف بأنّ ذا القرنين نبيّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام).

و نزل الوحي بالجواب عن سؤالهم عن الروح بما جاء في الآية من سورة الإسراء من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

هذا وقد جاء لمن تكلّم من العلماء في مبحث الروح العدد العديد من الأقوال والتعابير. كما جاء من تأويل الآية من لفظ " أمر ربّي "،بأنّ الأمر هنا بمعنى العلم. وجاء أن الأمر بمعنى اسم المفعول أي مأمور فهو من مأمورات الله تعالى أي خلق من مخلوقاته.

و ممّا نسب من النقل إلى الإمام الغزالي أنّ الروح يطلق على معنيين اثنين: الأوّل الرّوح الحيواني وهذا ما يتناوله علم الطب وما يعرف بالمزاج وهو جسم لطيف بخاريّ معتدل سارٍ في البدن حامل لقُواه، يفنى بفناء الحياة وينعدم بالموت. والمعنى الثاني الروحاني وهو ما يعبّر عنه بالنفس الناطقة واللطيفة الربانية. كما أنّ ألفاظ: العقل، والقلب، والروح، كلّها دالّة على معنى واحد وهذا المعنى له تعلّق بقوى النفس الحيوانية وهو الذي يبقى بعد الموت ولا يفنى بفناء المادّة (لأنّه ليس من جنسها). وللرازي وجماعة من الحكماء: أنّ الروح جوهر مجرّد غير حالّ بالبدن متعلّق به تعلّق العاشق بالمعشوق وجه تدبيره للبدن لا يعلمه إلاّ الله.

و للفظ الروح إطلاقات أخرى منها خلق من الملائكة وجبريل على الخصوص وعيسى بن مريم في القرآن الكريم، وقد فهم أنّ هذه الإطلاقات ليست مرادة (و لا واحدا منها) في هذا الموضع، وإنّما المراد المعنى المتقدّم الذكر.

هذا، وقد ورد مقابل ما جاء في هذه الروايات من خبر سؤال قريش

للأحبار في شأنه صلّى الله عليه وسلّم ، الرواية المعروفة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه والتي مفادها أنّ السؤال عن الثلاث المذكورة إنّما كان من اليهود أنفسهم عند مقدمه صلّى الله عليه وسلّم المدينة مهاجرا إليها وذلك حينما بدأ الاتصال بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين اليهود.

و قد أجيب عن هذا بأنّه من الجائز أن يكون الحادث ممّا تكرّر وقوعه (أي من حيث السؤال والجواب عنه بنزول الوحي).

و على ما ذكر من احتباس الوحي في هذه الواقعة ورد القول بأنّ الآية من سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ نزلت في هذه الواقعة كعتاب له صلّى الله عليه وسلّم لمّا ترك الاستثناء (نسيانا).

و لقد جاء في سبب احتباس الوحي المذكور أقوال نقلت في هذا الموضع زيادة عمّا تقدّم من العتاب عن ترك الاستثناء. فقيل كان السبب وجود جرو كلب ميت ببيته صلّى الله عليه وسلّم (أي لأنّ الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة بمعنى تمثال أو جنب. وهذا على معنى الدخول إكراما وتشريفا).

و قيل كان السبب (عتابا من نوع آخر) وهو أنّه صلّى الله عليه وسلّم ردّ سائلا ممن يسأل إلحافا ويلحُّ.

و قيل (ما معناه يقرب من أمر جرو الكلب) وهو قول جبريل جوابا له صلّى الله عليه وسلّم عن سؤاله عن الاحتباس المذكور ، فقال: كيف ندخل ؟ وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تأخذون من شعوركم ولا تنتفون براجمكم [1] ولا تستاكون (أي لا تعملون بخصال الفطرة)؟ . ويفهم من هذا -ولا بدّ- بأنّه لا يتناول شخص الرسول صلّى الله عليه وسلّم بل من يختلف

(1) البراجم: بالباء الموحدة السفلية والراء والجيم وآخره ميم. جمع برجمة بضمّ فسكون فضمّ والاسم للمفاصل الرقاق من العظام في الأيدي والأرجل وبتصرّف هنا إلى الآباط فهي التي جاء الأمر بنتف الشعر الذي ينبت بها لإتمام النظافة.

إلى بيته ويتصل به. ثمّ إنّه لا يخفى مقدار هذه الأقوال من الاعتبار، فإنّها مطلق روايات إخبارية. وقد نقل عن الحافظ بن حجر أنّه استغرب الرواية التي تفيد أنّ احتباس الوحي الذي نزل عقبه الوحي بسورة الضحى كان سببه جرو الكلب ببيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ المعروف أنّ قصّة الجرو هذه كانت بالمدينة (و الوارد أيضا في جواب جبريل للرسول صلّى الله عليه وسلّم عن سؤاله إيّاه في شأن احتباس الوحي أنّ جوابه كان بصورة لفظ الآية من سورة مريم وهو: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ... ﴾ إلخ).

(و بالجملة فإنّ ما عرف من خبر احتباس الوحي، وردت في سببه عدّة روايات وقد اشتهر منها الرواية التي تفيد أنّ ذلك كان لمدّة مرض فيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمكّة).

الدرس 26

بعض من آيات النبوّة[1]

فمن ذلك واقعة الزبيدي وهو رجل من زبيد[2] أتى مكّة تاجرا عرض للبيع ثلاثة جمال كأحسن ما يكون من الإبل وسامه أبو جهل فبخسه القيمة إذ لم يزد فيما بذله فيها على ثلث قيمتها المعتادة فأبى الرجل أن يبيع. ثمّ أنّ التجّار أمسكوا فلم يسمه بعد ذلك ولا واحد إجلالا لأبي جهل. فكان الرجل يطوف على حِلَق قريش يشكو ما وقع عليه من المظلمة يقول: «يا معشر قريش كيف تدخل عليكم الميرة[3] ويُجْلَبُ إليكم الجَلَبُ[4] ويحلّ بساحتكم تاجر وأنتم تظلمون من دخل حرمكم...؟ الخ » وهكذا حتى انتهى إلى مجلس الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فكلّمه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وسأله: «مَن ظَلَمكَ ؟ »فأخبره الخبر عن أبي جهل وقال: قد أكسد عليّ سلعتي. فسأله الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «أين جمالك ؟ »قال: ها هي بمكان كذا... فقام صلّى الله عليه وسلّم فساومه في الجمال واشتراها منه بما أرضاه من الثمن. ثمّ أنّه صلّى الله عليه وسلّم باع منها جملين ردّ بثمنهما جملة الثمن الذي اشترى به الصفقة. وأفضل الجمل الثالث فباعه وأعطى ثمنه أرامل قرابته من بني عبد المطلب. وكان أبو جهل بناحية السوق يلاحظ جميع ما وقع بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين الرجل الزبيدي. ولمّا فرغ الرسول صلّى الله عليه وسلّم من العملية أقبل على أبي جهل فخاطبه الخطاب الآتي نصّه: «إيّاك يا عمرو أن تعود لمثل ما صنعت مع الرجل فترى منّي ما تكره!». فكان جواب أبي

---

(1) هي آيات دقيقة المغزى ممّا أكرم الله تعالى به رسوله صلّى الله عليه وسلّم في مواقف له مع قومه.

(2) تقدّم في الدرس الحادي عشر التعليق على (زبيد) إمّا بلد وإمّا قبيلة وهي باليمن.

(3) الميرة: بكسر الميم. الطعام الذي يقتات به ويمكن ادّخاره.

(4) الجَلَبُ: بفتح الجيم واللاّم آخره باء موحدّة سفلية ، اسم لما يجلب من ناحية إلى ناحية أخرى من سلع ونحوها.

جهل: «لا أعود!لا أعود!». ورجع أبو جهل إلى أصحابه الذين كانوا يرقبون الواقعة وفيهم أميّة بن خلف وآخرون فعنّفوه وعابوا عليه موقفه الذليل مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقالوا له: «لقد ذللت في يد محمد ، فهل تريد اتّباعه أم هو رعب مسّك منه ؟ أو ماذا ؟ فمالك ؟ » فأجاب: «لقد كان معه رجال عن يمينه وشماله بأيديهم رماح يشرحونها نحوي». ووقع نظير هذه الحادثة مع أبي جهل أيضا فإنّه كان وصيّا على يتيم أكل ماله وأساء إليه وشكاه اليتيم إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقام صلّى الله عليه وسلّم مع اليتيم حتى أخذ له حقّه من أبي جهل تحت طائلة الخوف.

و من هذا أيضا حادثة الأراشيّ وهو رجل من أراشة[1] (أراشة بطن من قبيلة خثعم) قدم مكّة تاجرا واشترى منه أبو جهل جمالا مطله بثمنها. فكان الرجل يتردّد على أندية القوم يشكو مظلمته فدلّه البعض من القوم على الرسول صلّى الله عليه وسلّم (عن استهزاء منهم به صلّى الله عليه وسلّم) ، وإثارة للشغب وتحريشا لما عسى أن يكون من حوادث بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين أبي جهل. فمضى الرجل إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ممتثلا الإشارة عن سلامة نيّة ، فقام معه صلّى الله عليه وسلّم وقصد أبا جهل فكان بمنزله ، فورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم دقّ باب الدار فخرج إليه أبو جهل فما كان منه صلّى الله عليه وسلّم إلاّ أن قال له: «أعطِ هذا الرجل حقّه» ، وشوهد أبو جهل وقتها منتقع اللون[2] مرعوبا فأجاب: نعم! لا تبرح حتى أعطيه ماله. فأتى بالمال فورا فدفعه لصاحبه. وقد كان مدبّرو العملية من الذين قصدوا التحريش بعثوا بمن يرقب ما يحدث في الأمر ، فشاهدوا حال أبي جهل. فلمّا اجتمعوا به بعد ذلك وسألوه أجابهم بأنّه كان يرى إذ ذاك فحلا من الإبل فاغرا فاه بجانب الرسول صلّى الله عليه

(1) جاء ضبط "إراشة" بكسر الهمزة وتخفيف الراء آخره شين معجمة وتقدّم أنّ قبيلة خثعم من قبائل اليمن.

(2) أي وجهه متغير كلون النقع وهو الغبار وقد تقدّم بيان هذا في الدرس التاسع عشر.

وسلّم يقول: أرى لو مانعت لالتقمني ذلك الفحل التقاما.

ثمّ إنّ الرجل الإراشي قام في أندية القوم يثني الجميل على الرسول صلّى الله عليه وسلّم بما صنع معه يقول جازى الله عني ذلك الرجل فقد - والله- أخذ لي بحقّي.

و إلى قصّة الإراشي هذه يشير صاحب الهمزية مكنيا عن أبي جهل فيقول:

واقتضاه النبي ديْن الأراشيّ * وقد ساء بيعه والشراء

ورأى المصطفى أتاه بما لم * ينج منه دون الوفاء النَّجاء

هو ما قد رآه من قبل لكن * ما على مثله يَعدّ الخطاء

و أورِدَ في هذا الباب حديث الاستهزاء به صلّى الله عليه وسلّم[1] والأشخاص الذين عرفوا بهذه الخطيئة فوسموا بالمستهزئين والذين كانوا يقترفون هذه الجريمة من أعدائه صلّى الله عليه وسلّم كثير ، ولكن الذين علق بهم اللقب ، ربما لإكثارهم ومواظبتهم على الصنيع ، خمسة. ورد أنّهم المراد بما في الآية من سورة الحجر وقد كفاه الله شرّهم ، وهم الأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والوليد بن المغيرة والعاص إبن وائل ، والحرث بن عيطلة (أو ابن قيس).

و يشير صاحب الهمزية إلى ما كان من أمر هؤلاء الخمسة بما قال:

وكفاه المستهزئين وكم ساء * نبيًّا من قومه استهزاء

ورماهم بدعوة من فِناء البيت * فيها للظالمين فناء

خمسة كلهم أصيبوا بداء * والردى من جنوده الأدْواء

(1) الاستهزاء بالرسل من طرف أعدائهم المكذبين عادة جارية من قديم كما تشير إليه الآيات العديدة في القرآن: ﴿و لقد استهزئ برسل من قبلك﴾.

فــدهى الأســودَ بــنَ مطلــب * أيُ عمــىً ميّــتٌ بــه الأحيــاء

ودهــى الأســودَ بــن عبــدِ يغــوث * أن ســقاه كــأس الــردى استــسقاء

وأصــاب الوليــدَ خدشــةُ ســهم * قــصرتْ عنهــا الحيّــة الرقطــاء

و قضت شوكة على مهجة العاص * فللــــه النقعــــة الــــشوكاء.

و على الحرث القيوح وقد سال * بهــا رأســه وســاء الوعــاء

خمــسة طُهِّــرتْ بقطعهــم الأر * ضُ فكــفُّ الأذى بهــم شــلاء.

و كان من المستهزئين أيضا غير الخمسة المشهورين أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والنضر ابن الحرث والحكم بن أبي العاص (و هذا قد أسلم) ولكن بقي ما يقال أنّ إسلامه فيه شيء ؟!

و المعروف أنّ الآية النازلة في المستهزئين الواردة في سورة الحجر[1] تشير إلى الخمسة المذكورين أولا خاصة ، وهم الذين ورد الخبر عنهم بأنّهم هلكوا قبيل الهجرة وفي ليلة واحدة...

و قد ألحق البعض بالمستهزئين الأخوين: نبيهًا ومنبهًا ابني الحجاج ، وحمّالة الحطب زوج أبي لهب. وقد ورد من صورة استهزاء أبي لهب بأنّه كان يلقي الأذى والقذر بباب منزل الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقد رآه يوما يفعل ذلك أخوه حمزة رضي الله عنه فردّ ذلك القذر على رأسه ولوّثه به. فأخذ أبو لهب يتحرج ويقول عن حمزة رضي الله عنه "صابئ أحمق!" وجاء من استهزاء عقبة بن أبي معيط أنّه صنع مأدبة طعام بمنزله لأشراف القوم عند مقدمه من سفر ودعا إليها الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيمن دعا من العشيرة (تمشيا مع العادة) وحضر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولكنّه أبى أن يتناول الطعام قائلا: ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد (شهادة

---

(1) ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) ولم يكن لعقبة من سبيل (و هو حريص على أن يأكل الرسول صلّى الله عليه وسلّم) إلاّ أن يشهد الشهادة المطلوبة فتلفّظ بها مجاملة واستهزاء.

و تناول الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما تناول من طعام ثمّ إن عقبة لمّا لقي صديقه أُبيَّ بن خلف وقد سمع أبيٌّ بالحادث فعنف عقبة ولامه أمرّ اللوم والتوبيخ واعتذر له عقبة بما قال: كيف أفعل ؟ ورجل شريف دخل منزلي بمناسبة ولم يطعم فاستحييت... إلخ ، فقال أبيٌّ: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تبصق في وجهه وتسمعه ما يكره.... إلخ وفعلا فقد لقي عقبة الرسول صلّى الله عليه وسلّم فبصق في وجهه. وقد وردت الأخبار هنا بأنّ البصاق رجع في وجهه هو وشواه بحريق بقي أثره بوجهه كالبرص.

و من استهزاء الحكم بن أبي العاص أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم فطن به ذات يوم وهو يمشي خلفه ويخلج بفمه وأنفه (استهزاءً به صلّى الله عليه وسلّم) ، فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «كن كذلك!» (دعوة أجيبت). فغشي على الحكم يوما كاملا وربّما قيل أنّه مرض شهراً وبقي به ذلك الاختلاج كعاهة.

و من استهزاء العاص بن وائل ما كان يقول: «غرّ محمد أصحابه إذ يعدهم أنّهم يحيون بعد الموت وما يهلكنا إلاّ الدهر.» كما كان يستهزئ ببعض أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومنهم خباب بن الأرت ، فقد باعه سيوفا فمطله العاص بثمنها فإذا ما اقتضاه قال له: «أنظرني إلى يوم القيامة».

و من استهزاء الأسود بن عبد يغوث ما كان يقوله إشارة إلى أتباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون قيصر وكسرى!». وما يقوله للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «أما كُلِّمتَ اليوم من السماء يا محمد؟ ». ومن استهزاء الأسود بن المطلب أنّه كان هو وأصحابه

إذا رأوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو أصحابه يتغامزون بهم وتارة يأخذون في التصفير... إلخ والوليد بن المغيرة كان من عظماء قريش في سعة من العيش ومكانة من السيادة مع طلاقة لسان كان ينهى أن توقد نار أيام الحج غير ناره لهذا كان له جبروت واستطالة فيما تناوله من إذاية واستهزاء بالإسلام والمسلمين.

و الحرث بن عيطلة كانت تحت يده الأموال التي تجعل للآلهة. فلا عجب إذا كان له مزيد تحمس في العداء للإسلام.

و قد جاء في الروايات التي تخبر بصورة ما كفاه صلّى الله عليه وسلّم ربّه شرّ هؤلاء النفر الخمسة ، وذلك بعدما دعا عليه الصلاة والسلام ربّه وهو بفناء الكعبة أن يكفيه شرّ هؤلاء الأشرار الذين تفاقم به أذاهم. فأتاه جبريل عليه السلام وهو صلّى الله عليه وسلّم يطوف بالبيت فقال: «أُمرتُ أن أكفيك هؤلاء المستهزئين.» فمرّ الوليد بن المغيرة فقال: «كيف تجد هذا ؟ » فقال صلّى الله عليه وسلّم: «بئس عبد الله!» فأومأ جبريل إلى ساق الوليد وقال: «كُفيتَهُ!» فأصاب الوليد سهم بساقه تعلّق به فخدشه فورم فكان سبب هلاكه. ومرّ الأسود بن المطلب فقال: «كيف تجد هذا!» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «بئس العبد» (كما قال فيمن قبله) فأومأ جبريل إلى عيني الأسود فأصابه عمى قضى على حياته (أي لم يكن كالعمى المعهود). ومرّ الأسود بن عبد يغوث وسأل جبريل عنه وأجاب صلّى الله عليه وسلّم كما سبق في صاحبيه فأومأ جبريل إلى بطن الأسود هذا فأصابه استسقاء أودى بحياته. ومرّ العاص بن وائل ، فكذلك وأومأ جبريل إلى قدمه فأصابته شوكة بأخمص قدمه فتورّم به الجرح وقضى عليه. ومرّ الحرث بن عيطلة وكذلك أومأ جبريل إلى رأسه فأصيب بقروح برأسه قضت عليه (أي وكان جبريل عليه السلام في كلّ ما يومىء إلى الشخص من المذكورين يخاطب الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «كفيتَهُ!»). وقد أفادت بعض الروايات أنّ الخمسة هلكوا جملة في ليلة واحدة.

و ممّا جاء من النقل عن استهزاء أبي جهل أنّه لمّا سمع ما جاء في آيات القرآن عن زبانية سقر وأنّ عدّتهم تسعة عشر (في سورة المدثّر) فقال: «يا معشر قريش يزعم محمد أنّ جنود الله الذين يقذفون بكم في النار تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عددا ، أفيعجز كلُّ مائة منكم عن واحد منهم ؟» فيجيبه البعض من القوم (ممّن هو معجب بقوّته): أنا أكفيكم سبعة عشر فأكفوني الاثنين الباقيين.

و يقول أبو جهل ، بعدما سمع آية شجرة الزقوم (في سورة الدخان): «يخوّفنا محمد بشجرة الزقوم في النار والنار تأكل الشجر! إنّما الزقوم التمر والزُّبدُ (يؤكل جمعا)» ، يقول: «هاتوا تمرا وزبدا وتزقّموا». ومن استهزاء النضر بن الحرث أنّه كان إذا ما جلس الرسول صلّى الله عليه وسلّم مجلسا يدعو إلى الإسلام أو يحدّث أو يتلو القرآن ، خلفه في المجلس يقول: «هلمّوا يا معشر قريش فإنّي أحسن منه حديثا ، ما حديث محمد إلاّ أساطير الأوّلين». فيشرع يحدّثهم عن أخبار ملوك الفرس... وبلغ به الاجتهاد في هذه الخطّة من مناهضة الدعوة الإسلامية إلى التجوال والسفر وذهب إلى أرض الحيرة فاشترى منها مكاتيب وأسفارا في قصص الأعاجم ليحدّث بها القوم. وقد قيل أنّ النضر هذا هو القائل: «سأنزل مثل ما أنزل الله» (فيما تشير الآية من سورة الأنعام). وأنّه القائل لو نشاء لقلنا مثل هذا (كما تشير إليه الآية من سورة الأنفال). و ورد عن النضر هذا أنّه لقي الرسول صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم بأسفل ثنية الحجون منفردا لم يكن معهما أحد ، فهمّ باغتياله ولمّا همّ بالجريمة ودنا من الرسول صلّى الله عليه وسلّم إذا به يرى عدّة أساود[1] تضرب بأذنابها على رأسه صلّى الله عليه وسلّم وهي فاتحة أفواهها فولّى هاربا على حالة رعب شديد. ولمّا اجتمع بصاحبه أبي جهل حكى الواقعة له فقال له أبو جهل: «هذا بعض من سحر محمد!».

---

(1) أساود: جمع أسود وهو الثعبان.

و في هذا الموضع أورد سبب نزول الآية من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾إلخ ، المفيدة النهي عن سبّ آلهة المشركين إذا ما أدّى ذلك إلى سبّ الحقّ تعالى.

كما ورد أنّه لمّا نزلت الآية من سورة الأنبياء في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ...﴾ إلخ شقّ هذا على المشركين وعظم عليهم فأتوا عبد الله بن الزِبَعْرى [(1)] وكان متفلسفا فشكوا إليه الأمر فقال: أنا أخصم لكم محمدا. فأتى الرسول صلّى الله عليه وسلّم (و كان ذلك في مجمع حافل كمناظرة) فقال للرسول صلّى الله عليه وسلّم (في مضمون الآية): «يا محمد أهذا لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد مع الله ؟ » فأجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّ الحكم عام في كلّ ما عبد من دون الله. فقال ابن الزبعرى مخاطبا الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «الآن خصمتَ وربّ الكعبة! ألستَ تزعم أنّ عيسى والعُزَيْر والملائكة كلّ هؤلاء عبدوا من دون الله ؟ فهم في النار ؟ » فضجّ القوم بالهتاف والضوضاء فرحا (زعماً بأنّه صلّى الله عليه وسلّم محجوج) وإذا بالآية تعقب هذا بالنزول وهي الآية التالية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾... إلخ ويستخلص من هذا الموضوع قاعدتان في العلم والعمل: -الأولى: لا يسبّ معبود الكفار إذا ما

(1) الزِّبَعْرَى: بكسر الزاي ثمّ باء موحّدة سفلية مفتوحة ثمّ عين مهملة ساكنة ثمّ آخره راء مفتوحة. لفظ يوصف به الشيء البالي يطلق على الفليظ كما يطلق على من كان أشعر الوجه والحاجبين وكذلك هو اسم الأنثى من التماسيح.
و ابن الزبعرى هذا جاء عنه فيما ينقل من الأخبار أنّه أسلم عام فتح مكّة وكان شاعرا فأنشأ قصيدة شعر قدّمها للرسول صلّى الله عليه وسلّم ضمنها اعتذاره إليه فيما كان صدر منه في عهد ضلالته.

كان ذلك يؤدي إلى النيل من جانب الحق من طرفهم مقابلة بالسب. - الثانية: الصالحون الذين اتّخذهم الضّالون آلهة من دون الله بريئون ليس عليهم أيُ جناح فيما علّقه بهم أولئك الضّالون.

و من الشواهد لهذا المعنى من آيات القرآن ما جاء في خاتمة سورة المائدة عن عيسى عليه السلام حيث اتّخذه النصارى معبودا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾.

و ما جاء في سورة سبأ عن الملائكة في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿40﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ... ﴾ إلخ[1].

(1) تنظير: فكلّ من آيتي المائدة وسبأ يفيد التوبيخ والتقريع للذين عبدوا إلها من دون الله ويفيد كذلك براءة المعبود من التبعة إذا كان من الذين سبقت لهم الحسنى كعيسى عليه السلام والملائكة عليهم السلام ومعروف من هذا العموم أنه يدخل فيه من اشتهر بالصلاح من المسلمين وقدّس حتى العبادة كمشايخ علم وعمل منهم الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيره كثيرا وكثيرا جدًا.

الدرس 27

هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى أرض الحبشة وهي الهجرة الأولى

جاء من النقل عن محمد ابن إسحاق أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا رأى الأذى يتزايد على أصحابه من المشركين وهو لا يستطيع أن يردّ عنهم أو يكفّ عنهم ، كلّم صلّى الله عليه وسلّم أصحابه فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها مِلِكا لا يُظلَم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا ممّا أنتم فيه». وممّا قاله صلّى الله عليه وسلّم لهم: «تفرقوا فإنّ الله سيجمعكم». وفعلا فقد خرج جمع[1] من الصحابة رضوان الله عليهم فرارا من الفتنة ومخافة منها وفرارا إلى الله بدينهم فكانت أوّل هجرة في تاريخ الإسلام ، وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة من النبوّة وبدء الإسلام. فكان هذا الجمع المهاجر يشمل الجنسين من الرجال والنساء وكان منهم الفرادى ومنهم من هو مع أهله. فممّن كان بأهله عثمان بن عفان رضي الله عنه مع زوجه رقيّة بنت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد مع زوجه أمّ سلمة رضي الله عنها (و هي التي صارت من بعد من أمّهات المؤمنين) ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مع زوجه سهلة بنت سهيل ابن عمرو ، هاجر هذان الزوجان فارّين من أذى أبويهما ، وبأرض الحبشة ولدت سهلة محمد بن أبي حذيفة. وعامر بن أبي ربيعة[2] مع زوجه ليلى العدوية* (و هي من فريق عمر بن الخطاب) ، ورويت لها هنا حكاية معه قبل إسلامه ، قالت: «إنّا لنتهيّأ للخروج وقد ذهب عامر إلى بعض حاجته وإذا بعمر بن الخطاب يأتينا ،

(1) يفيد بعض من تكلم في السيرة فيما يخص الهجرة أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم في أمره بهذه الهجرة إلى الحبشة لم يكن الغرض منه مجرّد راحة المهاجرين بل كان من ذلك غرض آخر وهو البحث عن معقل من الوطن يكون للدعوة حتى تظهر وتنتشر.

(2) لعلّ الصواب كما في نسخة الحلبيّة (عامر بن ربيعة).

وكنّا نتقيه لشدّته علينا لإسلامنا. فقال: أخروجًا يا أمّ عبد الله ؟ فإلى أين ؟ »
قالت: «فقلت إلى أرض حيث لا نؤذى وفرارا بديننا فقد آذيتمونا وقهرتمونا. قالت: فلم يزد على أن قال: صحبكم الله! و ولّى. قالت: فرأيت له حزنا لخروجنا وآنست منه رقة ما كنّا نعهدها.» قالت: «فلمّا جاء عامر ذكرت له ذلك فقال: أتطمعين في إسلام عمر؟ لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب».

و كذلك هاجر أبو سبرة بن أبي رهم مع زوجته أمّ كلثوم [1]. وممن هاجر من الرجال بغير أهل عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير وعثمان بن مظعون وسهيل بن بيضاء وحاطب بن أبي عمرو وسليط بن عمرو وعبد الله بن مسعود (على قول، وقيل إنّما هاجر هو في الهجرة الثانية). وهاجر من النساء أيضا أمّ أيمن بركة مولاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكانت مع رقيّة رضي الله عنها تخدمها.

خرج هذا العدد من الصحابة رضي الله عنهم متسلّلين قيل كلّهم مُشاةً، وقيل فيهم الراكب وفيهم الماشي حتى بلغوا ساحل البحر، فوافقوا بعض السفن للتجار المتوجّهة إلى الحبشة فحملتهم بأجرة إلى أرض الحبشة.

ثمّ إنّ الملأ من قريش لمّا فطنوا للأمر حاولوا التعرض إليهم ليمنعوهم من الغرض فلاحقوهم للمكان ولكن بعد إقلاع السفينة، فرجعوا على خيبة.

* ورد هنا من روايات الحديث ممّا يدلّ على فضل عثمان ابن عفان رضي الله عنه وأنّه أوّل من هاجر.

---

(1) أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أحد الغلاة في عداوة الإسلام.
و جاء في التعريف بزوجها أبي سبرة بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة ثمّ راء، و رهم: بضم الراء وإسكان الهاء آخره ميم، بأنّه قرشي من بني عامر وممن شهد المشاهد كلّها مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

إنّ عثمان أوّل من هاجر في سبيل الله بعد نبي الله لوط عليه السلام. وجاء من آيات القرآن في هذا قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ ... ﴾ إلخ.

تفيد الأخبار أنّه لمّا وصل هؤلاء الجمع من مهاجري الصحابة إلى الحبشة تلقوا إكرام وفادة وتقديرا واحتراما وأكرمهم ملكها النجاشي بعناية زائدة. فأقاموا مطمئنين آمنين قالوا جاورنا بها خير جار وعبدنا ربّنا آمنين على ديننا لا نؤذى ولا نسمع ما نكره. وردت الأخبار بأنّه بعد إفلات مهاجري الحبشة هؤلاء من قبضة مشركي مكّة شدّد هؤلاء الخناق بزيادة الأذى على من بقي بمكّة من المسلمين.

و أفادت بعض الأخبار أنّ في هذا الأثناء كان خروج أبي بكر الصديق رضي الله عنه يريد الهجرة وعارضه ابن الدغنة كما تقدّمت الحكاية في الدرس الحادي والعشرين. ولكن الذي عليه المحقّقون أنّ خروج أبي بكر وحكاية ابن الدغنة إنّما كان بعد الهجرة الثانية والرسول صلّى الله عليه وسلّم محصور بالشعب.

و أقام مهاجرو الحبشة بقية رجب وشعبان ثمّ في أثناء شهر رمضان ورد أنّه نزلت عليه صلّى الله عليه وسلّم سورة النجم فقرأها حول الكعبة في الملإ من القوم مسلمين ومشركين ، ولمّا بلغ محلّ السجدة منها في آخرها سجد ، فسجد معه الجمهور الحاضر بتمامه من مسلم ومشرك إلاّ رجلا واحدا لم يسجد وإنّما رفع كفًّا من تراب فألصق به جبهته وقال: «يكفيني هذا!».

واختلفت روايات الأخبار في تعيين هذا الرجل فقيل: أبو لهب ، وقيل أميّة بن خلف ، وقيل الوليد ابن المغيرة وقيل غير ذلك.

وعلى حادث سجود المشركين هنا وما هو السبب فيه وردت الروايات المتنوعة ومنها ما عرف برواية «الغرانيق».[1] ففي بعض هذه الروايات أنّه سمع في أثناء قراءة الرسول صلّى الله عليه وسلّم للآية من قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿19﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿20﴾ ﴾. الأسماء الثلاثة لأصنام لهم. سمع زيادة لفظ (تلك الغرانيق العلى وأنّ شفاعتهن لا ترتجى) فقيل زاد هذه الزيادة بعض المشاغبين من القوم وقيل صوت شيطان أي مجهول وقيل غير ذلك ومن ذلك كان سجود المشركين. وبجانب هذه الرواية توجد الرواية التي أوردت سجود المشركين مع عدم التعرّض لحديث الغرانيق بالمرّة. و ورد من هذا أيضا أنّ المسلمين تعجبوا من سجود المشركين فلم يعرفوا ما يدعو إليه فلذلك يقول البعض في تعليله أن المشركين لما سمعوا من تلاوته عليه الصلاة والسلام أسماء الآلهة التي يقدّسونها توهّموا حسن الثناء عليها (كما هو الأمر الذي يلازم مشاعرهم طول حياتهم) بل يقال أيضا أنّهم إنّما سجدوا لمجرّد ذكر أسماء الآلهة[2]. (أي ولو هم يسمعون مع ذلك الحط منها إعرابا منهم عن صلابة عقيدتهم الضالة وإمعانا في العناد). أمّا حديث الغرانيق فقد ورد بشتّى الصيغ المختلفة المتنوعة مع تفاوت بينها ممّا يدلّ على إطلاق العنان للتصرف في التعبير بالزيادة والنقص والإيجاز والإطناب. و ورد منه ما يمسّ قطعا بأمانة تبليغ الوحي ويؤدي حتما إلى رفع الثقة بأداء مهمّة الرسالة. ولذلك ذهب أئمّة العلم المحقّقون من الذين انبروا لبحث هذا الخبر

---

(1) جاء في لفظ الغرانيق أنّه إسم جمع للذكور من طيور الماء طويلة المنقار واحدها غرنوق بوزن عصفور وغرنَوْن بوزن فردوس وغرنيق بوزن مسكين وغُرنيق بضم العين المعجمة وإسكان الراء وفتح النون آخرها قاف شبّهت بها الأصنام المنصوبة لتقديسها من المشركين.

(2) سيما وقد سمعوا أسماءها من طريق الأسلوب القرآني الفذ في بلاغته وعلوّ كعبه في الطلاوة والتأثير. كما حكي عن الكثير من العرب ممن لم يزل غير مؤمن بالقرآن وسمع تلاوة القرآن فكان يسجد إجلالا وإعجابا بالفصاحة لما سمع من الكلام.

وتمحيصه إلى اعتبار الخبر خرافة وأكذوبة مصنوعة لا أساس لها ولا أصل حتى قال البعض أنّه من مكائد الزنادقة. فالقصّة - زيادة على ما فيها من مناقضة للقواعد المقطوع بها شرعا وعقلا- فهي من حيث السند الإخباري ساقطة أيضا فكلّ ما جاء فيها منقطع ومرسل ينقل من هنا وهناك كمطلق إشاعة وحكاية. و إذا كان البعض من أئمّة الحديث الحفاظ من راعى تعدّد الطرق الواردة في هذه الرواية من القصّة فاقتنع لذلك بإثبات أصل لها في الجملة وذهب من أجل ذلك إلى الأخذ بتأويل ما جاء فيها مما يخالف القواعد بوجوه عدّة من التآويل التي لم تقنع الفريق المنكر لها فإنّ القصّة مع ذلك لم تأخذ مكانها من الشهرة إلاّ من جهة أخرى وهي تعليقها بتأويل آية من آيات القرآن الكريم حيث جعلت هذه القصّة في كثير من كتب التفسير هي تأويل الآيات من سورة الحج في قوله تعالى[1]: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (52) لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ (53) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (54) ﴾.

بناء على أن سبب نزول هذه الآيات هو قصّة الغرانيق وجاء من هذا التأويل تفسير التمني في الآية بمعنى القراءة والحديث من الرسول أو النبي فيما يقرأ أو يحدث به من الوحي وإلقاء الشيطان بما يفيد أنّ للشيطان - أوّل الأمر - مكنة ليخلط في الوحي ما ليس منه ويضع من بين آيات الوحي

(1) و كما علقت قصة الغرانيق بآية الحج علقت أيضا بآية الإسراء بقوله تعالى: ﴿و إن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره...﴾ إلخ. ولكن الذي عليه المحققون أنّ آية الإسراء هذه ليس بدأ محلها ولا هو سبب نزولها فهي مما نزل مأخرا عن هذا العهد بكثير.

من الألفاظ ما هو من صنعه. ثمّ بعد ذلك تكون للوحي عملية تصفية بنسخ وإبطال ما أدرجه الشيطان في صميمه من الألفاظ الدخيلة المدسوسة. فيتخلص الوحي بعد ذلك ممّا علق به من باطل ويظهر وجهه الحق. وتكون بهذا فتنة في قلوب أهل النفاق الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم وكذلك يكون هذا فتنة للقاسية قلوبهم من المكذبين المصمّمين على الإنكار فيزدادون تصميما على التكذيب من حيث تطمئنّ قلوب أهل العلم بأنّ القرآن هو الحق المنزل من الله... إلخ. وقد علم أنّ تأويل هذه الآيات بهذا المعنى وما يضارع هذا المعنى مما يسلب عن الوحي صفة حفظه وصيانته وينال من عصمة الرسول وأمانته في تبليغ الوحي وأداء رسالته ، إنّما مبناه حديث الغرانيق فإذا كان هذا الحديث باطلا كما حقّقه المحقّقون من أئمّة العلم فالتأويل حينئذ خطأ يتعين رفضه ولا يلتفت إليه. وقد جاء لمن ذهب إلى إبطال هذه القصّة من العلماء إيراد وجوه من التأويل الآيات المذكورة ممّا تركن إليه النفوس وتتقبّله الصدور بانشراح على عكس الحال في التأويل المردود بما يدخله على الصدور من حرج ويبعث الحيرة والارتباك في نفس سامعه.

و ليست رواية الغرانيق هذه هي الفريدة في هذا الباب ممّا يرد من الأخبار يمسّ بمقام النبوّة فلها أخوات كَرِواية ما جاء في سبب تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأمّ المؤمنين زينب بنت جحش ، فقد دسّت الأباطيل في الروايات التي تعرّضت لهذا الحادث وعلّقت أيضا بتأويل الآية النازلة في الموضوع[1]. والقرآن على كلّ حال كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، و كذلك كان الدسّ في رواية سحر اليهودي للرسول صلّى الله عليه وسلّم. وقد جاء لبعض من تكلّم من العلماء في

---

(1) الآية من سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ... ﴾ إلخ.

مسألة الغرانيق ما أفاد به قاعدة يجب التمسك بها ومراعاتها بكامل التصميم تجاه كل ما ينقل من مثل هذه الأخبار الأحادية ممّا يدخل الريب في الأمور الاعتقادية ، ومنها عصمة الأنبياء و كمال درجتهم وذلك هو. الإعراض الكلّي عن مثل هذه الأخبار والضرب بوجهها عرض الحائط وأن ترفض ولا تقبل على أي وجه جاءت. هذا وقد فهم من هذا الموضوع أنه لا تلازم بين رواية الغرانيق وبين الرواية الأخرى التي أفادت قراءة الرسول صلّى الله عليه وسلّم سورة النجم على الملأ وسجود المشركين معه عندما سجد ، بل ربّما تكون هذه الرواية الأخيرة ممّا يعارض رواية الغرانيق ، ومع هذا فقد جاء للبعض من علماء التفسير تعقّب رواية القراءة والسجود أيضا من جهة النظر وذلك من حيث مخالفة الحال المعهود والمعروف من وقائع تاريخ هذا الوقت إذ لم يعرف أنّه صلّى الله عليه وسلّم تمكن - يوما- من القراءة علانية بغير تشويش ولا مشاغبة من طرف المشركين حول الكعبة حتى يتم قراءة سورة كاملة في حالة هدوء وإنصات شامل. اللهم إلاّ أن تكون واقعة شاذّة واتفاقية لها من الأسباب ما سمح بوقوعها. كما لوحظ على هذه الرواية أيضا بما لا يتلاءم مع تاريخ نزول الآيات المشتهر وذلك أنّ سورة النجم إذا كان نزولها بعد الإسراء والمعراج فإنّ المعروف عن تاريخ الإسراء والمعراج إنّما كان في أثناء السنة الحادية عشرة للنبوّة. وحادثة القراءة والسجود هذه قد أدرجت في أحداث السنة الخامسة للنبوّة.

و ممّا تعلّق بهذا الموضع بحث مسألة موضع سجود التلاوة فللعلماء هنا طرائق. فالبعض يأخذ بمذهب السجود خمس عشرة سجدة بزيادة أربع عن المشهور وهي آخرة سورة الحج (فتكون سورة الحج ممتازة بسجدتين) وثلاث في المفصل (و المفصل من سور القرآن قيل ابتداؤه من سورة الحجرات وقيل بعدها) والثلاثُ هي سجدة النجم هذه وسجدة الإنشقاق وسجدة العلق. بينما لا يرى البعض سجدة الحج الثانية. والبعض على

أنّ السجود إنّما هو إحدى عشرة ليس فيها ثانية الحج وليس فيها من المفصل شيء.

رجوع مهاجري الحبشة إلى مكّة:

ورد أنّ سجود المشركين مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم المتقدّم ذكره كان هو السبب في رجوع مهاجري الحبشة ، فإنّ ذلك الحادث شاع وذاع وتطاير نبؤه إلى الحبشة وكان -كطبيعة الأخبار الطائشة- متخالفا ، فسمع المسلمون بأرض الحبشة أنّه صلّى الله عليه وسلّم اصطلح مع قريش وسمع أنّ المشركين بعامّتهم أسلموا وقبلوا الدعوة إلى غير ذلك... وتفاوض المسلمون بالحبشة في الأمر فيما بينهم فكان يقال- إذا أسلم عشائرنا ففيم المقام هنا ؟ ... فالرجوع إلى الوطن أحبّ إلينا... وتقرّر الرجوع ، و ورد أنّ الرجوع لم يكن شاملا للجميع ، فكان منهم من بقي. وجاء أنّ عدّة من رجع بلغت نحو ثلاثة وثلاثين شخصا ، وكان الرجوع أثناء شوّال من تلك السنة أي الخامسة للنبوّة. و ورد من تعيين من رجع من مهاجري الحبشة عثمان بن عفان ، الزبير ابن العوام ، عثمان بن مظعون ، عبد الله بن عبد الأسد المكنى بأبي سلمة ، كما قيل أنّ عبد الله بن مسعود كان منهم أيضا ، ولكن يوجد قول بأنّ ابن مسعود لم يكن من مهاجري الهجرة الأولى هذه وإنّما هو من مهاجري الحبشة في الهجرة الثانية.

ورد أنّه لمّا وصل الراجعون إلى مكّة من مهاجري الحبشة إلى ضواحي مكّة سألوا المارّة عن الحالة الاجتماعية فيما بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين قريش فأخبروا أنّه لا جديد في الأمر ولا أثر لما سمع من حديث الصلح بل أنّ الأذى يتزايد على المسلمين من المشركين. وعند هذا وقعت محاورة أخرى بين هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم فيما يمضون عليه من الأمر ، فورد أنّ البعض قرّر الرجوع إلى الحبشة من دون أن يدخل مكّة ، والبعض (و ربّما هو الأكثر) قرّر إمضاء الدخول.

و كان الدخول يحتاج -ولا بدّ- إلى جوار[1] شخصية من أعيان مكّة- وجاء أنّ كلّ من دخل تمّ له ذلك بجوار إلاّ عبد الله بن مسعود فإنّه دخل مستخفيا ولم يطلب جوارا (أي وقضى بمكّة برهة ثمّ رجع إلى الحبشة). ولمّا نزل الجمع الراجع من الهجرة بمكّة شاهدوا ما ساءهم من تزايد الأذى على المسلمين وأنّ ما كان بلغهم من الخبر الذي غرّهم حتى رجعوا إنّما كان من الأباطيل.

جاء أنّ عثمان بن مظعون* رضي الله عنه كان دخوله مكّة بجوار الوليد بن المغيرة ، فلمّا شاهد ما يصيب المسلمين من الأذى بينما هو آمن لا يلحقه من ذلك شيء تضايق من هذا الأمر ، فمضى إلى الوليد يردّ عليه جواره قائلا: «-و الله- إنّ غدوّي و رواحي آمنا وأصحابي وأهل ديني يصيبهم من الأذى ما لا يصيبني لأني في جوار مشرك لنقص كبير». فأتى الوليد بن المغير فقال له: يا أبا عبد شمس قد جئتك أردّ عليك جوارك ، فقال له الوليد: لعلّ أن يكون قد آذاك أحد؟ قال: لا ولكن لا أرضى بجوار غير جوار ربيّ!!!قال الوليد: «أمّا وقد رددت جواري فانطلق فرده علانية كما أجرتك علانية». فانطلقا إلى منتدى الملإ من قريش فتكلّم الوليد فقال: «هذا عثمان قد كنت أجرته وقد جاء اليوم يردّ عليّ جواري فسلوه هل وجد من ذلك نقصا؟ » فتكلّم عثمان فقال: «صدق أبو عبد شمس وقد وجدته وفيا ولم يلحقني في جواره أي أذى ولكنّي لا أرضى بجوار غير جوار الله!» وعند ذلك أشهد الوليد القوم على عثمان بردّ الجوار ، وكان في نفس الوقت ينعقد مجلس لقريش فيه لبيد بن ربيعة* بن مالك أحد الشعراء المشهورين ينشد الشعر للقوم فجلس معهم عثمان رضي الله عنه (لبيد هذا لا زال في هذا

(1) الجوار: بمعنى الحماية من الأذى. نظام اجتماعي معمول به وسيأتي بعض بسط في تعريفه في الدرس الثاني والثلاثين في خروج الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف.

الوقت على دين قومه ولكنّه ممن أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه) أنشد لبيد من قصيدته اللامية المعروفة قوله: « ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلُ» فقال له عثمان: «صدقت!» وتابع لبيد إنشاده فقال: «و كلّ نَعيم لا محالةَ زائل» فقال عثمان: «كذبتَ! نعيم الجنّة لا يزول» واستاء لبيد لما سمع فقال: «يا معشر قريش ما كان جليسكم يؤذى بمثل هذا قبل اليوم فمتى حدث فيكم هذا!؟ ...» فأجابه أحد الحاضرين من القوم: «هذا سفيه من سفهائنا من سفاهته أن فارق دين قومه وصبا إلى دين محمد فلا تجدنَّ في نفسك من قوله» وردّ عثمان على هذا القائل بما دحض به باطله وأخرسه فقام هذا فلطم عثمان وأصابه بإحدى عينيه حتى اخضرّت ، وكان الوليد يراقب كلّ هذا وينظر فقال لعثمان: «يا ابن أخي ما كان أغناك عن هذا - أما والله- كانت عينك ممّا أصابها لغنيّة ولقد كنتَ في ذمّة منيعة تخرّجت منها إلى ما ترى» فأجابه عثمان: «بل كنتُ إلى الذي لقيتُ فقيرا وإنّ عيني السليمة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها ولي أسوة فيمن هو أحبّ إليَّ منكم وإني لفي جوار من هو أعزُّ منك!!».

و كان ممن دخل مكّة بجوار في الرجوع من الحبشة أبو سَلَمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي وأمّه برّة بنت عبد المطلب عمّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، دخل بجوار خاله أبي طالب ، وقامت عشيرته بنو مخزوم بمعارضة هذا الجوار فنقموا على أبي طالب صنيعه هذا قائلين له: «منعت منّا ابن أخيك (يعنون الرسول صلّى الله عليه وسلّم) فمالك ولصاحبنا...؟» ودافعهم أبو طالب قائلا: «إنّه ابن أختي واستجار بي وإن لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي». ورد أنّ في هذه الخصومة بدأ أبو لهب بعاطفة القرابة وتغلّبت عليه فناصر أخاه أبا طالب ، فكان ممّا قاله للقوم: «يا معشر قريش لا تزالون تعارضون هذا الشيخ في جواره والله لتنتهُنَّ أو لأقومنّ معه في كلّ مقام يقوم فيه حتى يبلغ ما أراد».

و حسب القوم لموقف أبي لهب هذا حسابه ، وخشوا سوء مغبته عليهم فأذعنوا له يقولون: «بل ننصرف عمّا تكرهه يا أبا عتبة». وأطمع هذا أبا طالب في جانب أبي لهب ليقوم معه ويعينه فيما هو قائم به من حماية الرسول صلّى الله عليه وسلّم والدفاع عنه وأنشأ أبياتا من الشعر يحرّض أبا لهب ويستنهضه بها لهذه المهمّة غير أنّ أبا لهب لم يستجب له. وتمادى على خطّته في عداوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى النهاية.

الدرس 28

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ورد أنّ سنّه رضي الله عنه يوم أسلم كان نحو ست وعشرين سنة وأنّه أسلم في الفترة بين هجرتي الحبشة ، وتعدّدت روايات الأخبار في سبب إسلامه ومع ما بين هذه الروايات من تغاير فيما يحكى من الوقائع فهي لاتنافي بعضها البعض ، ويمكن الجمع بينها جميعا. فمن هذه الروايات: **رواية أولى:** ورد أنّ أبا جهل أعلن عن جعل جعله لمن يقتل الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال: «يا معشر قريش إنّ محمدا قد شتم آلهتكم وسفه أحلامكم وزعم أنّ من مضى من آبائكم وأسلافكم هم يتهافتون في النار. ألا ومن قتل محمدا فله عليّ مائة ناقة حمراء وسوداء وألف أوقيّة فضّة (و في لفظ: وألف أوقيّة ذهبا وفضّة) وكذا وكذا نافجة[1] مسك وكذا وكذا ثوبا»... إلخ. وتقدّم إليه عمر بن الخطاب فقال: «أنا له» وتعاهد مع أبي جهل وفريقه على هذا الأمر. فخرج عمر متقلّدا سيفه يريد الرسول صلّى الله عليه وسلّم فصادفه في طريقه سعد بن أبي وقاص (و كان قد أسلم) فقال له: «أين تريد يا عمر ؟ » قال: «أقتل محمدًا!» قال سعد: «أنتَ أصغر وأحقر من ذلك! أتقتل محمدًا وتتركك بنو عبد مناف تمشي على الأرض ؟ » قال عمر: «ما أراك إلاّ قد صبأت فأبدأ بك!» فأجابه سعد بإعلان الشهادة قائلا: «أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا رسول الله» وهنا سلّ كلّ منهما سيفه على الآخر وحمّلا وكادا أن يختلطا فبادر سعد عمر بقوله: «مالك يا عمر لا تفعل هذا بختنك[2] وأختك ؟ » (يريد زوج

---

(1) النافجة: بالنون والفاء وآخره جيم. يطلق على مطلق وعاء المسك كما يطلق على خصوص الجلدة التي يتكوّن فيها المسك من الغزال والجمع نوافج. ويظهر أنّ المراد هنا هو الوعاء المجعول للمسك.

(2) الخَتَن: بفتح الخاء المعجمة والتاء وآخره نون ، يطلق على الصهر كزوج البنت وكذا على من كان من قبيل الزوجة كأبي الزوجة وأخيها فيقال فلان خاتن فلانا بمعنى صاهره وتزوّج من قبيله.

أخته سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل و زوجه فاطمة بنت الخطاب) فقد كان سعيد بن زيد هذا من قبيلة عمر (قبيلة بني عديّ) وهو متزوّج بأخت عمر وعمر متزوّج بأخت سعيد (عاتكة) وما فعل سعد بن أبي وقاص هذا إلاّ ليصرف عمر عن قصده في إذاية الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فما كان من عمر لمّا سمع بإسلام أخته و زوجها إلاّ أن ترك ما هو فيه ومضى من فوره إلى منزل أخته حيث جرى له ما جرى من الواقعة التي حكتها الرواية الخاصة بهذه الواقعة كما سيأتي إيرادها فيما بعد.

رواية ثانية: مفادها أنّه لمّا أعلن أبو جهل عن جُعْله الذي جعله لقتل الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتقدّم إلى ذلك عمر فقال: «أنا لها» وتعاهد مع القوم على الفعلة خرج متقلّدا سيفه متنكبا[1] كنانته فاعترضه في الطريق نعيم بن عبد الله النحّام[2] (و كان نعيم قد أسلم ولكنّه يخفي إسلامه لم يتظاهر به أمام القوم) فخاطب عمر قائلا له: «أين تريد يا ابن الخطاب (يفهم هنا أنّ نعيما كان على علم بما عزم عليه عمر فأراد أن يصرفه)...» فأجابه عمر: «أريد هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش وسفه أحلامهم وسبّ الآلهة...إلخ فأقتله» قال نعيم: «و الله لقد غرّتك نفسك! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمدا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم وتصلح من شأنهم فهو أولى بك؟ » قال عمر: «و أيّ أهل بيت تريد؟ » قال: «ختنك وابن عمّك سعيد وأختك!» (فأخبره بإسلامهما قصد أن يصرفه عمّا يريد من أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم). وكان الأمر كذلك فانصرف عمر يريد منزل أخته.

---

(1) المنكب: بفتح فسكون فكسر اسم لمجتمع الكتف والعضد و"الكنانة": بكسر الكاف: الوعاء الذي توضع فيه السهام أي جعل كنانته على منكبه.

(2) وصف من "النحيم" بالنون والحاء المهملة آخره ميم وهو صوت يخرج من الجوف والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع بوزن ضرب ومصدره النحم والنحيم ويطلق على التنحنح وعلى صوت الأسد.

رواية ثالثة: أدرجها بعض مؤلفي السيرة هنا ممّا أورد من الروايات الإخبارية في باب أعلام النبوّة ممّا نصصوه بقسم ما سمع من أجواف الذبائح ، فقد جاء في هذه الرواية أنّ عمر لمّا خرج يريد التعرّض للرسول صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يلاقيه نعيم النحام مرّ على قوم يذبحون عجلا لهم: فسمع صوتا من جوف الذبيحة بما صيغته: (يا آل ذريح[1] أمر نجيح صائح يصيح بلسان فصيح يدعو إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله محمد رسول الله!)[2] ثمّ بعد ذلك اعترضه نعيم النحام كما تقدّم ذكره.

رواية رابعة: نقل فيها الحديث عن عمر نفسه قال: خرجت أتعرّض له صلّى الله عليه وسلّم فإذا هو يسبقني إلى المسجد فقمت خلفه فأخذ يصلّي واستفتح التلاوة بسورة الحآقة ، فأنصتُّ له وجعلت أتعجّب من تأليف القرآن فقلت في نفسي: «هذا - والله- شاعر كما قالت قريش ، فقرأ الآية: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ ... ﴾ فقلت هو كاهن علم ما في نفسي فقرأ: ﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ حتى ختم السورة. فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع».

رواية خامسة: عنه أيضا قال: «جئت المسجد أريد الطواف فإذا هو صلّى الله عليه وسلّم قائم يصلي يستقبل الصخرة بالشام يجعل الكعبة بينه وبين الشام فكان مصلاه صلّى الله عليه وسلّم بين الركن الأسود والركن اليماني فقلت في نفسي لو أنّي استمعتُ إليه. فدنوت نحوه من قِبل الحجر ودخلت تحت ثيابها (يعني الكعبة) فاستمعت إليه صلّى الله عليه وسلّم وهو يقرأ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ... ﴾ فرقَّ قلبي حتى بكيتُ

---

(1) بالذال المعجمة والراء وآخره حاء مهملة. وصف للشيء الأحمر الشديد الحمرة. يقال أحمر ذريحي. والمراد هنا الذبيح المطرج بالدم.

(2) و قد تقدم في باب إيراد هذه الروايات المتعلقة بأعلام النبوّة التنبيه إلى تفاهة هذه الروايات وأنّها ممّا يستغني عنها الموضوع.

ودخلني الإسلام. ولم أزل كذلك حتى أتم صلّى الله عليه وسلّم صلاته وانصرف فتبعتُه فسمع حسّي خلفه وعرفني ، فظنّ بي سوءا فزجرني فقلت له: «جئتُ لأؤمن بالله».

رواية سادسة: من حديث عمر نفسه أيضا يقول: ضرب أختي المخاض في جوف الليل فخرجت حتى أتيت المسجد ودخلت أستار الكعبة. فجاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقام يصلي بالحجر (على معنى أنّ عمر كان يختفي عنه صلّى الله عليه وسلّم بحيث لا يراه وهو يستمع لقراءته) يقول: «فصلّى صلّى الله عليه وسلّم ما شاء الله أن يصلي فكنت أسمع لشيء لم أسمع مثله قطّ. فلمّا انصرف صلّى الله عليه وسلّم تبعته». وجاء في هذه الرواية أنّ عمر رضي الله عنه أعلن إسلامه هنا يقول: «قال لي الرسول صلّى الله عليه وسلّم أتسره؟ (يعني الإسلام)» فقلت: «لا! والذي بعثك بالحق ، لأعلننّه كما أعلنتُ الشرك». يقول فحمد الرسول صلّى الله عليه وسلّم الله تعالى ودعا لي فقال: «هداك الله يا عمر. ومسح صدري ودعا لي بالثبات».

رواية سابعة: ممّا حدّث به عمر نفسه عن مبدإ إسلامه قال: «كنتُ من أشدّ الناس على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. و بينما أنا في يوم شديد الهاجرة ببعض طرق مكّة إذْ لقيني رجل (و جاء تعريف الرجل بأنّه نعيم النحام المذكور قبل) فأخبرني أنّ أختي أمّ جميل * فاطمة بنت الخطاب أسلمت هي و زوجها سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل ، فرجعتُ مغاضبا (إلى منزل أخته)... وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يجمع الرجل والرجلين (من أصحابه) عند الرجل منهم يكون له قوّة (من حيث المقدرة المالية) فيصيبان من طعامه. وقد ضمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى زوج أختي رجلين هما خباب ابن الأرتّ * ورجلا آخر (لم يعين إسمه) ، وفي لفظ من هذه الرواية الاقتصار على خباب. قال: كان خباب يأتي منزل أختي و زوجها يعلّمهما القرآن. يقول: فجئت فقرعت الباب فقيل من؟ قلت عمر بن

الخطاب ، وكانوا بالمنزل يجتمعون إذ ذاك على صحيفة يقرأون ما فيها من القرآن. فبادروا إلى الصحيفة فدسّوها وفتحت لي أختي الباب فقلت لها: «يا عدوّة نفسها قد بلغني أنّك صبوت[1] (أو صبأت) وضربتها بشيء كان بيدي أسال منها الدم على وجهها فلمّا رأت الدم وهي تبكي قالت: «ما كنتَ فاعلا فافْعَلْ فأنا قد أسلمتُ» (و جاهرته بما هي و زوجها عليه من الدخول في دين الإسلام)، يقول: «ثمّ إنّي جلست على السرير و رميت ببصري فتراءت لي الصحيفة (و كان عمر ممن تعلّم الكتابة في قريش) يقول: فسألتها ما هذا الكتاب ؟ أعطينيه» فامتنعت. وجاء هنا عدّة ألفاظ من الرواية: منها أنّها قالت له لا أعطيكه أنت لست من أهله! وقولها إنّك غير مُتطهر وهذا الكتاب لا يمسه إلاّ المطهرون. وأنّ عمر حرصا منه على الاطلاع على الكتاب تطهر فعلا فأعطته الصحيفة. كما جاء أنّها قالت له: «إنّا نخشاك عليها (أي الصحيفة)» فطمأنها وحلف لها أن لا ينال الصحيفة بسوء وأن يرجعها إليها بعد أن يقرأها يقول: «و دفعت إليّ الصحيفة فأخذت أقرأ فيها: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فلمّا مررت على الرحمـن الرحيم ذعرت[2] ورميت بالصحيفة ثمّ تراجعت إليّ نفسي فأخذت الصحيفة ثانيا وتابعت القراءة فإذا هي: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ من سورة الحديد[3]. يقول فكنت كلمّا مررت باسم من أسماء الله تعالى ذرعت فألقي الصحيفة ثمّ أتراجع فأتناولها وأواصل القراءة حتى بلغت الآية: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... ﴾ إلى آخر الآية ﴿ ...وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال فقلت:

(1) تقدّم في الدرس الرابع عشر معنى "الصبوة" بالواو وأنّها الميل مع الهوى وفي الدرس الثامن عشر معنى الصباَة بالهمز وأنّها الخروج من دين إلى دين آخر.

(2) ذعرت: بالذال المعجمة والعين المهملة وآخره راء وهو هنا مبني للمفعول. فإذا بني للفاعل كان متعديا مفتوح العين في الماضي والمضارع ومعناه الفزع والخوف.

(3) يلاحظ هنا أن سورة الحديد قيل هي مكيّة. وقيل هي مدنية وربما المشتهر أنّها مدنية.

«أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا رسول الله»» فخرج النفر الذين كانوا بالمنزل مختفين يكبرون فرحا واستبشارا بما سمعوا ، يقول أحدهم (ربما خباب): أبشر يا عمر فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا قريبا (أي يوم الأربعاء ، وإسلام عمر كان أثره يوم الخميس) فقال في دعائه: «اللهم أعزّ الإسلام (أو)أيّد الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمرو بن هشام (أبي جهل) أو عمر بن الخطاب (أي فقد اختارك الله)».

و قد ورد هنا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في معرض ذكر هذه القصّة ممّا يخصّ صيغة دعائه عليه الصلاة والسلام قولها: «إنّما قال عليه الصلاة والسلام «اللهم أعزّ عمر بالإسلام»» أي لأنّ الإسلام هو الذي يعزّ صاحبه. فالإسلام هو الذي يكسب العزّ لمن اعتنقه ولا حاجة به أن يعزّه أحد من العباد[1]!.

جاء في هذه الرواية قول عمر رضي الله عنه: فلمّا عرفوا منّي الصدق قلت لهم أخبروني بمكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم. قالوا هو بأسفل الصفا بدار الأرقم. فانطلقت أريده صلّى الله عليه وسلّم بين رجلين هما خباب بن الأرت وسعيد بن زيد. فطرقت الباب (بدار الأرقم) فقيل من بالباب ؟ قلت عمر بن الخطاب. فما اجترأ أحد أن يفتح لي. فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «افتحوا له فإن يرد الله به خيرا يهده» وفي لفظ آخر من الرواية: نظر بلال من خلل الباب فرجع إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا سيفه ، نعوذ بالله من شرّه» فقال حمزة: «ائذن له فإن جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن جاء

(1) لا مراء في وجاهة ما جاء عن عائشة رضي الله عنها إذا كان المراد بالعزّ مقابل الذلّ. غير أنّه يمكن أن يحمل لفظ العز في الرواية المتداولة على معنى التعزيز وهو الزيادة والتقوية وتكثير العدد ، كما جاء في الآية من سورة "يس" عن المرسلين إلى أصحاب القرية ، في قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم إثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالث﴾ فيكون المعنى أنّه صلّى الله عليه وسلّم دعا أن يكثر الله جمع الإسلام ويقوّي صفّه ويزيد فيه بأحبّ الرجلين إليه عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب.

يريد شرا قتلناه بسيفه!» فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «افتحوا له .... إلخ».

فلمّا دخل عمر المكان ابتدره الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فقام إليه وأخذ بمجامع ثوبه وجذبه إليه جذبة شديدة (و في لفظ) نتره نترة شديدة لم يتمالك عمر معها أن وقع على ركبتيه ، وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ ألا تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ؟ » (عبارة تهديد). وفي لفظ آخر قال صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم اهد عمر!» وهنا أجاب عمر رضي الله عنه: «جئت لأؤمن بالله ورسوله! أعرض عليّ الذي تدعو إليه!»فقال صلّى الله عليه وسلّم: «تشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا رسول الله» فقال عمر: «أشهدأنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا رسول الله ». فكبّر الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكبّر أصحابه الذين بالمجلس تكبيرة سمعها من بالمسجد الحرام.

و بمضمن هذه الرواية ، مع بعض تغاير ، وردت رواية ثامنة مفادها أنّ عمر رضي الله عنه لمّا أتى منزل أخته ودقّ الباب ، وكانوا إذ ذاك يتدارسون القرآن مع خباب بن الأرت رضي الله عنه وعرفوه اختفى خباب. وفتحت له أخته فدخل المنزل فقال لها: «ما هذه الهيْنَمة[1] التي أسمع ؟ ». قالت: لا شيء! ، قال: يا عدوّة نفسها قد بلغني أنّك صبأت... إلخ وواجهه زوجها سعيد بن زيد فعدا عليه عمر وصرعه وضرب به الأرض وجلس على صدره وأخذ بلحيته ، وتدخّلت أخته هنا لتكفه عن زوجها فضربها عمر بما خدشها وأسال منها الدم بوجهها. وهنا جابهته أخته بمظهر التحدي ، وقالت له: "قد أسلمنا وآمنّا فافعل ما أنت فاعل!" وإن عمر تراجع عند هذا وكأنّه استحيا عندما رأى صنيعه بالخدش الذي أسال الدم ، فسكن وجلس على السرير فأبصر الصحيفة التي كانوا يقرأون بها القرآن. واشتدّ حرصه على

(1) الهينمة: بالهاء والياء المثناة السفلية والنون وآخره ميم ، والياء فيه مزيدة ، وهو اسم للصوت الخفي.

الاطلاع على ما في الصحيفة فسأل أخته أن تعطيه الصحيفة فمانعت في ذلك وتعلّلت بما قالت له أنّ هذا كتاب لا يمسّه إلاّ المطهرون ونزل عمر عند أمرها فمضى إلى حيث تطهّر. وفي أثناء غيبته عن المكان كلّم خباب المرأة فعارضها إلى دفع الصحيفة إلى عمر قال: كيف تمكّنين له كتاب الله وهو مشرك لا يؤمن بالله ؟ فقالت: أرجو أن يكون ذلك سببا لهدايته للإسلام. وعندما رجع عمر وقد تطهّر زادت أخته ممّا تتمنّع به من مناولته الصحيفة فقالت له: «إنّا نخشاك عليها» فأكّد لها القسم بأن يرجعها إليها سليمة بعد قراءتها (وفي سياق آخر) تقديم مسألة الخشية هذه على مسألة التطهر. ولمّا أخذ عمر في قراءة الصحيفة وجدها مفتتحة بسورة: ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾. ورد هنا أن عمر رضي الله عنه لمّا مضى في قراءة الصحيفة كان يقول: «ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه!» وأنّه لمّا وصل الآية من قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾.

قال: «ينبغي لمن يقول هذا أن لا يعبد معه غيره! » وأنّه لما بلغ من قراءته الآية من قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ... ﴾إلخ ، تَشهّد بشهادة الإسلام بصيغتها المعهودة ، و عند ذلك خرج خباب من مخبئه فقال له: «أبشر يا عمر فأرجو أن يكون الله تعالى قد خصّك بدعوة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم». (إلى آخر ما سبق ذكره في الرواية السابقة). كما جاء في صورة دخول عمر رضي الله عنه على الرسول صلّى الله عليه وسلّم بدار الأرقم ليعلن لديه إسلامه أنّهم لمّا فتحوا له الباب و دخل ابتدره رجلان من الصحابة رضوان الله عليهم هما حمزة بن عبد المطلب والزبير بن العوّام. فأخذ أحدهما بعضده الأيمن والآخر بالأيسر قابضين عليه بينهما حتى أدخلاه على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أرسلوه» وقام إليه

الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأخذ بمجامع ثوبه وجذبه...إلى آخر ما جاء في الرواية السابقة.

هذا وقد فهم من مجموع ما ورد من هذه الأخبار عن مبدإ إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ ما جاء في الروايتين الآخرتين هو الذي ينبغي اعتماده وهو المشتهر أيضا ولذلك يفهم أن ما يتراءى من التنافي بين البعض من وقائع الحادث إنّما جاء من الخلط بين ما هو في مقام وما هو في مقام آخر وبين ما هو في ظرف وما هو في ظرف آخر. فالقصة لها ظروف مختلفة و متعدّدة وكذلك تكتنفها ملابسات أحوال متغايرة ومع ذلك يمكن التنسيق بين هذه الوقائع بما تتلاءم به بين بعضها البعض. فلا مانع من أن يكون عمر رضي الله عنه سمع القرآن من الرسول صلّى الله عليه وسلّم عند الكعبة أوّل الأمر ولكنّه لم يذعن إلاّ بعد قراءته الصحيفة. كما لا مانع من أن تكون الصحيفة تحوي السورتين "الحديد" و"طه" معا. أو هما صحيفتان إلى غير هذا ممّا يمكن به الجمع والتناسق في حكايات القصّة.

ثمّ إنّ من الوارد المتواتر عن إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه بمجرّد ما أعلن إسلامه بين يدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم سلك طريق الإعلان والتظاهر بعقيدته غير عابيء بكل ما يعترضه في هذا السبيل من أذى من المشركين الذين كانوا لا يتحمّلون مظهر الإسلام بينهم. وقد جاء في هذا الموضوع العديد من روايات الأخبار... فمن ذلك ما تقدّم ذكره من قوله للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «لأعلننّه كما أعلنت الشرك».

و ممّا جاء من هذا ما نقل عنه رضي الله عنه أنّه قال: «أحببتُ أن أظهر إسلامي ويصيبني ما أصاب من كان أسلم قبلي من الأذى والضرر».

ففي رواية أنّه بإثر إعلان إسلامه مضى إلى خاله وهو أبو جهل عمرو بن هشام فدقّ عليه الباب بمنزله فلمّا فتح له الباب ورحّب به (و كان له مكانة عنده) قال له عمر: «جئت أبشّرك ببشارة!» قال: «و ما هي يا ابن أختي ؟ » قال: «إنّي قد أسلمت واتبعت دين محمد صلّى الله عليه وسلّم» فما كان

من أبي جهل إلاّ أن أقفل الباب في وجهه قائلا: «قبحت وقبح ما جئت به!».

و في رواية أنه لما رآه البعض حريصا على إذاعة خبر إسلامه دلّه على شخص ممن عرف بالولوع بهذه الصنيعة في مجتمع قريش فكان دأبه إشاعة الأقاويل وكشف ما هو سرّ منها بالخصوص وهذا الشخص جاء تعريفه باسم «جميل بن معمر»* وقيل جميل بن حبيب وهو ممن أسلم يوم فتح مكّة وكان يعرف بلقب (ذي القلبين) حتى قيل أنّ الآية من سورة الأحزاب من قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ فيها تعريض به).

فقال هذا البعض لعمر إذا أحببت أن يشيع خبر إسلامك فاذهب إلى جميل وأخبره فمضى عمر رضي الله عنه إلى جميل وهو جالس بالمنتدى فكلّمه (كحديث خاص بينهما) فقال له: «يا جميل ألم تشعر بأنّي قد أسلمتُ واتّبعتُ محمدا؟ ».

فلم يلبث جميل أن قام من فوره يجرّ رداءه يصيح في الأوساط: «يا معشر قريش ألا إنّ عمر بن الخطاب قد صبأ!» وكان عمر خلفه يقول: «كذب! وإنّما أسلمتُ!...» أو (كذب بل أسلمتُ).

و في رواية يقول عمر رضي الله عنه: وجئت عظيما آخر من عظماء قريش فأخبرته بإسلامي فلم يصبني منه هو الآخر أي شرّ.

و في رواية أنّ عمر كان له مع عتبة بن ربيعة أحد عظماء قريش حادثة عنف لمّا جابهه عمر بإعلان إسلامه فوثب عتبة على عمر ليضربه فصرعه عمر وألقى به على الأرض وبرك على صدره يضربه وأدخل أصابعه في عينيه مما جعل عتبة يصيح ويستغيث و ربما تقدّم من القوم البعض

لإغاثة عتبة فكان عمر يأخذ الواحد منهم بشراسيفه[1] (أطراف أضلاعه) فيرمي به جانبا ، ومضى عمر رضي الله عنه على هذه الخطة التي اختارها من مجابهة الأعداء وتحدّيهم ، فورد عنه أنّه قال: ومازلت أضربهم ويضربونني حتى قام ذات يوم خالي (أي أبو جهل) فأشار بكمّه في الجمع وقال: «ألا إنّني قد أجرت ابن أختي» (أي فكفّ عنه القوم وصار عمر لا يتعرض له أحد بالأذى). يقول عمر رضي الله عنه: «فكنت - بعد هذا- أرى الرجل من المسلمين يُضرَب وأنا لا أُضرَب ، فقلت أنّ هذا ليس بشيء» (لم يرض بهذه الحال) يقول: فأمهلت حتى اجتمع الناس (ليكون ذلك من مرأى من الجمهور) فأتيت أبا جهل فقلت له: «جوارك ردٌّ عليك!» (أي خلع عقد الجوار ومضى في خطّة الكفاح).

ورد أنّه بعد هذا كان لعمر رضي الله عنه ذات يوم مع الأعداء واقعة عظيمة إذ تجمّع عليه جمهور غفير مصممين العزم على الفتك به. وردّ الله عنه ذلك من غير ما استجار بأحد. إذ كان العاص بن وائل أحد عظماء قريش يرى تلك الجَلَبة[2] فقال: «ما هذا؟ » قالوا: «عمر بن الخطاب صبأ!» قال: «رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون منه...؟ أترون بني عديّ (قبيلة عمر) مسلمين صاحبهم تقتلونه ولا يأخذون له بالثأر؟ » فسكنت عند هذا ثائرة الجمع وتفرقوا. ومن المعروف فيما جاءت به الأخبار أن بإسلام عمر رضي الله عنه تأتى للمسلمين أوّل تظاهر قاموا به أمام العموم من أهل مكّة بعدما كانوا مختفين بدار الأرقم. فقد ورد أنّ عمر رضي الله عنه فور ما أعلن إسلامه على يدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم أخذ يبدي فكرته و رأيه في

---

(1) الشراسيف: جمع شرسوف بضمّ الشين المعجمة ثمّ راء ساكنة آخره فاء. اسم لطرف الضلع مما يلي البطن.

(2) الجَلَبَة: بفتح الجيم واللاّم آخره باء موحدّة. اسم لعديد الأصوات المرتفعة المختلطة بما فيها الصياح.

التظاهر والبروز بأبّهة[1] الإسلام أمام المشركين وراجع الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذا الأمر كثيرا حيث أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يبد أوّل الأمر موافقته على ذلك فكان يجيب عمر بقوله: «إنّا قليل...» ولكن عمر ألحّ على الخروج. فجاء من صيغ ما وقع من هذا الحوار بينه وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «يا رسول الله ألسنا على الحق متنا أو حيينا؟ » فقال صلّى الله عليه وسلّم: «بلى» فقال: «ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت فيه أجلس بالكفر إلاّ جلست فيه بالإسلام (و أظهرت فيه الإسلام)».

و هكذا صمّم عمر رضي الله عنه على رأيه في الخروج يقول: «لنخرجنّ».حتى وافق الرسول صلّى الله عليه وسلّم على الخروج فخرجوا. فورد أنّ جمع الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا يشكلون المجتمع الإسلامي مختفين بدار الأرقم خرجوا عند هذا معلنين عن عقيدتهم في أثناء النهار في مسيرة نحو المسجد الحرام في صفين أحدهما فيه حمزة بن عبد المطلب والثاني فيه عمر بن الخطاب ، فكان لهم أثناء السير كديد[2] ككديد الطحين. و جاء أنّ عمر رضي الله عنه كان في هذه المظاهرة شاهرا سيفه ينادي: «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله». حتى بلغوا الحرم فأقاموا به حيث طافوا وصلّوا وقرأوا القرآن (جهارا في هذه الأبّهة لأوّل مرّة من تاريخ الإسلام). والوارد هنا أنّ الملأ من قريش لم يكن منهم إزاء هذا أي ردّ فعل وإنّما كان منهم ملاحقة النظر بتأمّل في وُجوم[3] وعلى كآبة[4] لم يسبق لها

(1) الأُبَّهَة: بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة السفلية آخره هاء ويقال أيضا الأُبْهة بضم الهمزة وإسكان الباء. وهو فخامة الشيء وعظمته ومنظر التباهي به والاعتزاز.

(2) الكديد: بفتح الكاف وبدالين مهملتين بوزن فعيل جاء في كتب السيرة تعريفه هنا بالغبار الرقيق وأصله في اللغة اسم للأرض الغليظة وما كان من رقاع الأرض سهلا واسعا.

(3) تقدّم في الدرس العشرين التعليق على لفظ الوجوم.

(4) الكآبة: بفتح الكاف ومدّ الهمزة مصدر من كئِب يكأب بالكسر في الماضي والضم في المضارع... ومعناه الغمّ والانكسار النفسي من تأثير الحزن.

مثيل. ثمّ إنّ الصحابة رضوان الله عليهم وبعد حصّة من الوقت رجعوا إلى مقرّ اجتماعهم بدار الأرقم.

و تفيد بعض الروايات - هنا- أنّ في هذا المشهد خلع الرسول صلّى الله عليه وسلّم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب "الفاروق" ومن يومئذ لقِب عمر رضي الله عنه بالفاروق.

و الوارد من مآثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخصائصه وفضائله سيق منه العدد العديد في هذا الموضع ، فمن ذلك ما ورد أنّ الملأ من قريش كانوا يتحدّثون بعد إسلام عمر رضي الله عنه فيقولون عن المسلمين: «الآن قد انتصف القوم منا!». ومنه ما ورد أنّ جبريل عليه السلام نزل على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «مازلنا أعزّة منذ أسلم عمر وما استطعنا أن نصلّي حول الكعبة إلاّ بعد إسلام عمر». وعن صهيب رضي الله عنه قوله: «لمّا أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقا». وأمّا ما تميّز به عمر رضي الله عنه من موافقته للحق وإصابة الصواب عند عرض الآراء والأنظار وقتما تحدث حوادث تتطلب إعمال الرأي فقد ورد من هذا الباب العدد الجم من الروايات كان الحق والصواب يحالف رأي عمر رضي الله عنه من بين مختلف الآراء المعروضة تجاه تلك الحوادث التي جاءت بها الأخبار. فورد عنه رضي الله عنه أنّه قال: «وافقت ربي في ثلاث (و هي مما نزل به القرآن بنص اللفظ الذي اقترحه عمر):

الأولى قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت الأية من سورة البقرة بذلك.

الثانية قلت: يا رسول الله إنّ نساءك يدخل عليهن البَرّ والفاجر فلو أمرتَهنَّ أن يحتجبن. فنزلت بذلك الآية من سورة الأحزاب (في فرض الحجاب لهنّ).

الثالثة: اجتمع على الرسول صلّى الله عليه وسلّم نساؤه في الغيرة[1] ... فقلت لهنّ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ فنزلت الآية من سورة التحريم بنص العبارة.

يضاف إلى هذا ما ورد أنّ عمر لما سمع اليهود يقولون عن جبريل عليه السلام: «هو عدوّنا من الملائكة» قال: «من كان عدوّا لله و ملائكته و رسله فإنّ الله عدوّ للكافرين». فنزلت الآية من سورة البقرة بنحو ما قال عمر رضي الله عنه.

وأنّه رضي الله عنه لمّا سمع الآية من سورة الفلاح (المؤمنون): ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ... ﴾ إلى آخر ما تضمنته الآية من الأطوار نطق رضي الله عنه معتبرا بعبارة "فتبارك الله أحسن الخالقين". فنزلت الآية عقب ذلك بنص مقاله: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾. ومما نزل به القرآن موافقا لرأي عمر رضي الله عنه مقابلا للرأي المخالف له ما نزل في حادث أسارى المشركين بغزوة بدر[2].

---

(1) الغيرة: بفتح الغين المعجمة وإسكان الياء المثناة التحتية آخره راء، اسم لحالة من الحمية تعتري الشخص تحمله على الدفع لما يراه تعديا وانتقاصا لحقّه وحظّه الذي يرى أنه لا حقّ لغيره في النيل منه، ولها حالات محمودة. وربما تكون في بعض التارات غير محمودة بل متطرفة ومتجاوزة الحد كما هو المعروف في سائر الشئون. والفعل من هذه المادة بهذا المعنى مفتوح في المضارع فيقال غار يغار على كذا غَيْرَة. والغيرة من حيث هي من متممات الخلقة حتى في الحيوان غير الإنسان فانعدامها من النقائص والمعائب. وحادث غيرة بعض أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن معروف في أحداث السيرة وفيه جاء الخبر باعتزاله صلّى الله عليه وسلّم لنسائه شهرا بتسعة وعشرين يوما. وفيه نزلت الآيات من سورة التحريم وكان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة.

(2) خالف عمر رضي الله عنه عند الشورى الجمهور من الصحابة رضوان الله عليهم فقد رأى الجماعة أن يأخذوا بعملية الفداء ورأى عمر أن يعدم الرءوس من أهل الشرك والعدوان. وقد مضى العمل على رأي الجمهور وقد نزل الوحي بعد مضي العمل بالفداء فشرّعه مع تصويت رأي عمر نظريا وسيأتي في سياق غزوة بدر بسط هذه المسألة.

و في حادثة صلاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على جنازة عبد الله بن أبي بن سلول[1] وقد أورد من هذا الباب أحاديث مرفوعة إليه صلّى الله عليه وسلّم منها قوله: «إنّ الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه» وقوله: «إن يكن في أمتي محدثون[2] فمنهم عمر».

و نقِل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال: «ما نزل بالناس (أي في المجتمع الإسلامي وفي عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم) أمر فقال الناس فيه وقال عمر إلاّ نزل القرآن بنحو ما قال عمر». وجاء للبعض من العلماء في ما يخص هذا الموضع أن المسائل التي تعد من موافقات عمر لما نزل به القرآن بلغ تعدادها ما يزيد على عشرين مسألة. هذا وقد ورد من الصحيح مما يعدّ من فضائل عمر بن الخطاب الجليلة أنّه رضي الله عنه استأذن الرسول صلّى الله عليه وسلّم مرّة في أداء العمرة فأذن له وقال له مع ذلك: «يا أخيّ[3] أشركنا في صالح دعائك» وفي لفظ آخر: «لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعائك». يقول عمر رضي الله عنه: «ما أحبّ أن لي بقوله: (يا أُخَيَّ) ما طلعت عليه الشمس».

---

(1) حادثة صلاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على جنازة ابن سلول هي أيضا كنازلة الأسارى فقد نزل الوحي بعد مضي عملية الصلاة. فكان ما مضى من فعله صلّى الله عليه وسلّم مشروعا وما ارتآه عمر صوابا.

(2) المحدثون بفتح الدال المهملة مشدّدة بصيغة المفعول. جاء في بيانه أنّه كالإلهام الذي يهتدى إليه الشخص بتفكّره في الأمر ويقع فيه على ما هو الحق والصواب ومثله: "المروعون" كذلك وهم الذين يلقى في روع (بضمّ الراء) الواحد منهم بمعنى في قلبه الأمر أي الخاطر فيكون كذلك حقا وصوابا.

(3) جاء ضبط لفظ (أخيّ) بصيغة التصغير بضم الهمزة وفتح الخاء وتشديد الياء آخره مفتوحة وقد تكسر.

الدرس 29

الحصار بالشعب، كتابة صحيفة المقاطعة من طرف قريش ضدّ من تظاهر مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم من بني هاشم وبني المطلب. ثمّ ما آل إليه الأمر في الأخير من نقض هذه الصحيفة وفكّ الحصار

ورد أنّه بعد إسلام كل من حمزة وعمر رضي الله عنهما وما كان لإسلامهما من صدى بالتظاهر والإعلان الذي يحدث - طبعا- الشيوع والتأثير في العموم وقد أدّى ذلك - فعلا- إلى انتشار الفكرة الإسلامية في القبائل من غير قريش زيادة عمّا كان من منعة الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة أحسّ أولو الحلّ والعقد والمتصرفون في الشئون من قريش بجسامة الخطر الذي يواجه مبدأهم الذي عاشوا عليه وشعروا أنّهم صائرون إلى الزوال - لا محالة- إن لم يقوموا بردّ فعل حاسم فقر قرارهم وأجمعوا على رأي واحد هو إعدام الرسول صلّى الله عليه وسلّم (و لا شيء دون هذا)... وصمّموا على هذا الأمر (كائنا ما كان من النتائج والعواقب له) وأخذوا يسعون لتنفيذ هذه الخطّة بما قدّموا لقبيلته عليه الصلاة والسلام وبالأخص لحاميه عمّه أبي طالب ممّا رأوه كافيا في الإقناع والقبول من وسائل التعويض والترضية ، فعرضوا المقادير الضخمة ممّا يسمّى دية حتى يسلّموه لهم لينفذوا فيه حكمهم. ومما لاحظوا من تلك الوسائل أن يباشر قتله صلّى الله عليه وسلّم يوم يقتل شخص من غير قريش - إبعادا لكل ما يبقى بينهم مما يثير الضغينة)...

فجاء من صيغ ما تقدموا به لقومه صلّى الله عليه وسلّم وعلى رأسهم عميد القبيلة أبو طالب: «ها نحن نقدّم لكم دية مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش ، إنّكم قد علمتم أنّه قد أفسد علينا أمرنا ، وأفسد أبناءنا ونساءنا و...و.... إلخ ، إنّكم بتسليمه تريحوننا وتريحون أنفسكم مما أنتم فيه ونحن من العناء.... إلخ».

لم يكن من جواب أبي طالب عن هذا إلاّ أن دعا القبيلة (بني عبد

مناف) إلى التجمع والصمود في وجه هذا العدوان وذلك باللجوء إلى مكان واحد ليمكن التحرز من كل غائلة تصل إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتتحقق الحماية له صلّى الله عليه وسلّم بصورة أوثق. فأمر القبيلة أن تتجمع بالشعب[1] خارج مكّة وهو المعروف بشعب أبي طالب فيكون الرسول صلّى الله عليه وسلّم بينهم موثوقا بحراسته وفي منعة يطمئنّ بها. وقد لبّى دعوة أبي طالب هذه من قبيلة بني عبد مناف المدعوّة بطنان[2] منها هما بنو هاشم وبنو المطلب بجميع أفرادهما سواء منهم المسلم والمشرك ما عدا أبا لهب فإنّه شذّ بمفرده فظاهر قريشا، كما لم يجب الدعوة أيضا البطنان الآخران من القبيلة وهما بنو عبد شمس وبنو نوفل. ورد أنّ أبا طالب الذي كان له عدّة قصائد من الشعر تناول فيها موقفه المعروف في الذب عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، تعرض لهذا الموقف الذي اتخذه بنو عبد شمس وبنو نوفل في الانخزال[3] بما قال في قصيدته اللامية:

جزى الله عنّا عبد شمس ونوفلا * عقوبة شر[4] عاجل غير آجل.

كما كان له أيضا في قصيدته الميمية قوله:

«جزى الله عنّا عبد شمس ونوفلا * وتيما ومخزوما عقوقا ومأثما»

---

(1) الشعب: ويجمع على شعاب بكسر الشين المعجمة وسكون العين المهملة آخره باء موحدة. هو في الأصل اسم للطريق الكائن في الجبل كما يطلق على المسالك التي تكون بين الجبال المتقاربة والمراد به هنا مكان خارج مكّة به بيوت لبني هاشم وكان ملك لعبد المطلب جدّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقسّمه بين أولاده وللرسول صلّى الله عليه وسلّم حظّه منه وراثة من أبيه.

(2) البطن: بفتح الباء وسكون الطاء المراد به هنا الفرع من القبيلة لأنّ البطن أقلّ من القبيلة فقد تجمع القبيلة الواحدة عدّة بطون فهو فرع كالفصيلة والعشيرة والعمارة والفخذ...إلخ.

(3) الانخزال: هذه المادة من الخاء المعجمة والزاي المعجمة واللام من معانيها الانقطاع والانفراد. يقال انخزل عن المكان بمعنى انقطع عنه.

(4) و جاء لفظ (عاجل) بالنصب " عاجلا غير آجل " فيكون ظرفا لفعل جزى.

فتجمّع بنو هاشم وبنو المطلب بالشِعْب تاركين مساكنهم بمكّة آخذين الرسول صلّى الله عليه وسلّم معهم لحمايته. وعندما اشتدّت الأزمة إلى هذا الحدّ أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم من كان معه من الصحابة بالهجرة إلى الحبشة (و هي الهجرة الثانية).

كان لهذا الموقف الأبي الذي اتّخذه قوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقيادة أبي طالب وهو الجواب العملي عمّا عرضه الملأ من قريش عليهم من عروض لتسليم الرسول صلّى الله عليه وسلّم للقتل أثره البالغ على الملإ من قريش بالخيبة في مسعاهم الأثيم وحصول الأياس من مطمعهم البشع فكان منهم ردّ الفعل على ذلك بكتابة وثيقة المقاطعة أو المنابذة[1] كما جاء التعبير بذلك. وهذا هو ما تفيده الروايات المتداولة في الموضوع ويبدو أنّه المعتمد حيث اقتصر عليه البعض من مؤلفي السيرة. ومقابله ما ورد في بعض الروايات من العكس وهو أن كتابة الصحيفة هو الأمر السابق على دخول الشِعْب بمعنى أنّ الملأ من قريش لمّا أيسوا من إجابة مطلبهم في تسليم قوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم له عليه الصلاة والسلام للقتل عمدوا إلى مقاطعة قومه فاضطر هؤلاء إلى الاعتصام بالشِعْب.

و الوارد في كتابة الصحيفة أنّ الملأ من قريش خصّصوا لاجتماعهم لاتخاذ قرار المقاطعة المذكورة وكتابة الوثيقة بها المكان المعروف «بخيف[2] بني كنانة» بأعلى مكّة ويعرف أيضا «بالمحصب» فأتمروا وتعاقدوا وتعاهدوا ضد الفريق الذي يحمي الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو كافة بني هاشم وبني المطلب بما فيهم المسلم والمشرك وعلى رأسهم

---

(1) مادّة (نبذ): بالنون والباء الموحدة التحتية آخره ذال معجمة معناها في الجملة طرح الشيء وإلقاؤه على وجه عدم الاعتناء به. والمنابذة لها معان منها المراد به هنا وهو الافتراق عن عداوة والمجاهرة بالحرب.

(2) الخيف: بفتح الخاء المعجمة وإسكان الياء المثناة التحتية آخره فاء، هو ما كان من الأرض بين مرتقى الجبل ومسيل الماء في الوادي أي تحت الجبل وفوق الوادي.

أبو طالب وذلك بأن لا يعاملوهم معاملة الانتفاع مطلقا فلا يناكحونهم ولا ينكحوا منهم ولا ينكحونهم ولا يبتاعون منهم ولا يبيعون ولا يقبلون منهم أي صلح ولا أي صلة أخرى مهما كانت وأن لا تأخذهم أي رأفة بهم إذا ما أصابتهم نائبة أو حلّ بهم مكروه ولا... ولا... غير ذلك من وجوه الصلة المعروفة والمعاملة الجارية بين الناس إلاّ إذا نزلوا على حكمهم واستسلموا فسلّموا الرسول صلّى الله عليه وسلّم لهم يحكمون فيه حكمهم. فكتبوا بهذه البنود[1] وثيقة عرفت بالصحيفة وجعلوا منها عدّة نسخ احتفظ بها البعض عنده وعلّقوا منها واحدة على جدار الكعبة (وفي رواية علّقوها في جوف الكعبة) كقانون رسمي له قداسته. وكان تعليق الصحيفة بالكعبة مستهلّ هلال المحرّم من السنة السابعة للنبوة.

و ممّا ورد هنا أنّ الكاتب الذي باشر كتابة هذه الصحيفة لم يلبث أن شلّت يده[2]، وقد اختلفت الروايات في تعيينه، فقيل هو بغيض بن عامر وقيل النضر بن الحرث وقيل منصور بن عكرمة (و هؤلاء الثلاثة ماتوا على الكفر) وقيل كتبها هشام بن عمرو العامري (و هو أوّل من قام فيمن قام لنقضها كما سيأتي ذكره وقد أسلم من بعد). كما قيل في الكاتب أنّه طلحة بن أبي طلحة العبدري أو منصور بن عبد شرحبيل (و هما ممن أسلم أيضا). وقد ورد هنا عمّا كان يتخذه أبو طالب من التدابير الحازمة في أخذ الحيطة لحماية الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يشير على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقت النوم أن يأخذ مكانه لذلك على مرأى من العموم فإذا ما نام القوم حوّله إلى مكان آخر وأمر شخصا من خاصّته من أبنائه

---

(1) البنود: صيغة جمع مفرده بند بفتح الباء الموحدة التحتية وإسكان النون آخره دال مهملة، ومن معاني البَنْد وهو المراد هنا، الفصل من الكتاب والفقرة من فقرات ما تضمنه في جملته.

(2) أفاد بعض مؤلفي السيرة مما يجمع بين الروايات المختلفة عن كاتب الصحيفة بأنّه من الجائز أن يكون الجميع كتبوا لتعدّد النسخ وأنّ الذي شلّت يده هو أوّل كاتب للنسخة الأصلية وهي التي علّقت بالكعبة.

أو إخوته أو بني عمومتهم بالنوم مكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم المعروف كان هذا كلّ ليلة طيلة المدّة التي قضوها بالشِعْب ، وقد جاء تقدير هذه المدّة بما يزيد على العامين ، بل رجّح البعض أنّها تناهز الثلاثة أعوام.

و مما جاء من الأخبار أنّ ممّن ولد في الشِعْب أثناء هذا الحصار عبد الله بن عباس * رضي الله عنهما أحد علماء الصحابة والمعروف بلقب «ترجمان القرآن». و أفادت مختلف روايات هذا الحدث أنّ قوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم هؤلاء نال منهم الجهد وأثّرت فيهم هذه المقاطعة أثرها البليغ وبلغ بهم الحال في بعض الأحيان أن جاعوا حتى احتاجوا إلى أكل الخبط[1] وهو ورق الشجر فاقتاتوا به ، و كان يخرج البعض منهم ممن له عيال وأطفال في المناسبات كمواسم الحج و أوقات القدوم بالميرة إلى مكّة وإقامة بعض الأسواق لمحاولة التحصيل على التموين ولو بالثمن المشط فيقوم أبو لهب بالنداء في السوق: «يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئا ، فقد علمتم مالي و وفائي» يحرض على تشديد المقاطعة والتضييق على قوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فيزيدون عليهم في أثمان السلعة الأضعاف المضاعفة الفاحشة إلى حدّ غير مقدور عليه فيرجع الواحد منهم خائبا ويجد أطفاله يتضاغَوْن[2] من الجوع وليس بيده ما يعلّلهم به[3] ويرجع التجار بما كسد في أيديهم من السلعة على أبي لهب فيعوّضهم عن ذلك بل و يزيد فيربحهم من ماله الخاص[4].

فلم يكن للمحاصرين بالشعب طول مدّة الحصار أن يحصلوا على شيء من التموين الضروري لهم إلاّ عن طريق التهريب سرّا في جنح ظلام الليل مما كان يسعفهم به بعض أقاربهم وأحبابهم بدافع عاطفة الشفقة عليهم مع

(1) الخبط: بفتح الخاء المعجمة بعدها باء موحدة تحتية مفتوحة آخره طاء مهملة.

(2) يتضاغون: بالضاد المعجمة والغين المعجمة ومعنى "يتضاغى" يصيح من ألم الضرب أوالجوع.

(3) يعلّلهم به: يقال علّله بكذا بمعنى شغله به وألهاه به.

(4) كان أبو لهب يتطاول بماله الذي جاء في القرآن عنه: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾.

مشقّة التعرّض للخطر والخوف من الأذى الذي يتهدّد هؤلاء المهربين من أجل المراقبة التي فرضتها قريش حتى لا يصل شيء إلى المحاصرين. فكما كان يقوم على تنفيذ المقاطعة أبو لهب بدور التمويل وصرف المال ، كان يقوم أبو جهل بدور المراقبة والجوسسة على التهريب والإسعاف الذي ربما يصل إلى المحاصرين.

و ممّا ورد من خبر هؤلاء الذين يقومون بالإسعاف لأصحاب الشعب ما قام به هشام بن عمرو* بن الحرث العامري (و هو الذي تقدّم عنه أنه ممن كتب الصحيفة وأنّه أوّل من ثار عليها وسعى في نقضها يوم نقضت) فقد أوصل ذات ليلة ثلاثة أحمال من الطعام لأصحاب الشعب و وصل الخبر بعد ذلك إلى قريش فاستنطقوه في الأمر وأقر وطلب العفو و وعد بعدم العودة قائلا: «إنّي غير عائد إلى ما فعلت». ولكنّه عاد بعد ذلك فأوصل حملا أو حملين إلى الشعب كذلك. وبلغ الخبر أيضا قريشا -بعد الفوات- فقبضوا عليه وأغلظوا له القول وكادوا أن يقتلوه فعلا. وما كان لينجو منهم لولا تدخّل أبي سفيان بن حرب* الذي كان ذا مكانة فيهم (و هو ممن لم ترقه المقاطعة وقد أسلم من بعد كما هو معروف) فدافع عن هشام قائلا: «دعوا الرجل فقد فعل ما وصل به رحمه. وأنا أحلف بالله لو فعلنا مثله لكان أحسن بنا». فتخلص هشام منهم بهذا.

و وقع لحكيم بن حزام* (و هو ممن أسلم بعد هذا العهد) أن ذهب -ذات ليلة- بمقدار من القمح يحمله له أحد غلمانه إلى الشعب يسعف به عمّته أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها. فإذا به يقع في قبضة المراقبة حيث اعترضه أبو جهل فتعلق به وأخذ في توبيخه يقول له: «أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ ... لا تبرح بطعامك حتى أفضحك به بين أهل مكّة...!» وحكيم مع ذلك يراجعه ويلاطفه. وكان من حسن المصادفة أن

حضر في نفس الوقت أبو البحتري[1] بن هشام (و كان من الساخطين على المقاطعة وممن سعى إلى نقض الصحيفة كما سيأتي ذكره ولم يقدر له إسلام) فتدخّل أبو البحتري يخاطب أبا جهل بما يقنعه ليخلي عن حكيم قائلا: «دع الرجل فهو طعام كان لعمّته عنده. أفتمنعه أن يوصله لها ؟ » ولم ينجع هذا مع تصلّب أبي جهل فكان التراشق بالكلام بين أبي جهل وأبي البحتري وأغلظ كلّ منهما القول لصاحبه وأدّى ذلك إلى الملاكمة بينهما فضرب أبو البحتري أبا جهل بلحي بعير فشجّه وتغلّب عليه فداسه برجليه بالغا.

و هكذا فقد فهم مما جاء في روايات هذا الحادث أنّ تقرير هذه المقاطعة وتنفيذها لم يكن عن إجماع شامل من قادة قريش وذوي الرأي منهم فضلا عن العامّة وإنّما كان من فئة مخصوصة جمعهم التحمّس للفكرة ودبّروا للأمر بما ملكوا به زمام التصرف وأخذوا لذلك بخطّة المبادرة مما جعل غيرهم أمام للأمر الواقع رضي أو لم يرض ، و بحكم العادة في مثل هذا أن يسود ظاهرا ويمضي في سيره إلى وقت ما حتى إذا ما تهيّأت الظروف لسقوطه وسقط. كان لسقوطه صدى استحسان وارتياح لدى العموم.

و قد أفادت روايات مما ورد عن هذا الحادث أنّ الحديث باستنكار هذه المقاطعة في مختلف أوساط قريش كان جاريا بينهم فيقال مثلا: «انظروا إلى كاتب الصحيفة كيف شلّت يده!...»

ثمّ إنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أخبر ذات يوم عمّه أبا طالب بأنّ الأَرَضَة[2] قد أكلت كلّ ما في صحيفة القوم من مواد تتضمن الظلم

(1) البحتري: جاء ضبطه بالباء الموحّدة التحتية مضمومة ، بعدها حاء مهملة ساكنة ، بعدها تاء مثنّاة فوقية مضمومة ، ثمّ راء مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية. كما جاء بدل الحاء المهملة خاء معجمة وضبطه البعض بفتح الباء وإسكان الخاء المعجمة وفتح التاء بعدها.

(2) الأَرَضَة: بفتح الهمزة وفتح الراء بعدها الضاد المعجمة. وقد تسكن منها الراء أحيانا. وهي واحدة السوس الذي يأكل الخشب والورق ونحوهما. ذكر عنها أنّها إذا عمرت سنة نبت لها جناحان تطير

والقطيعة ، ولم تترك ممّا فيها إلاّ ما ذكر فيها من اسم الله. (و ذلك لأنّهم كانوا يكتبون في مثل هذه الوثائق بينهم ألفاظا من هذا المعنى كلفظ " باسمك اللهم " ونحو ذلك). هكذا جاءت إحدى روايات هذا الموضوع.

و جاء في رواية أخرى عكس هذا وأنّ الأرضة لحست[1] من الصحيفة كلّ ما فيه اسم لله تعالى ونحوه وتركت ما يتضمّن الظلم والقطيعة من المكتوب الذي كتبوه. (على معنى تنزيه اسم الله عن جمعه مع ألفاظ الظلم والعدوان خزيا لهم. وقد بحث البعض من مؤلفي السيرة في هذا الاختلاف بين الروايتين وخرج بما يفيد الجمع بينهما وذلك لأنّ الوثيقة تعدّدت نسخها فكان البعض من النسخ ملحوسا منه أسماء الله. والبعض ملحوسا منه الفقرات الخاصّة بالقطيعة.

و لكنَّ بعضا آخر من المؤلفين يرجح ما جاء في الرواية الأولى ويعتمده مقتصرا عليه باعتبار أنّ الخبر يتعلّق بالنسخة المعلقة بالكعبة[2].

ورد أنّ أبا طالب قال للرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا أخبره خبر الأرضة: «أَرَبُّكَ أخبرك الخبر ؟ » قال: «نعم!» قال أبو طالب: «و

بهما كباقي الحشرات وأنّها المعنية بما جاء في القرآن باسم دابّة الأرض التي أكلت عصا سليمان عليه السلام ودلّت الجنّ بذلك على موته.

(1) اللحس: بفتح اللام وسكون الحاء المهملة آخره سين مهملة مصدر الفعل الماضي منه مكسور الحاء والمضارع مفتوحها وكما يستعمل في لحس الإناء من باقي الطعام. والمعروف يستعمل في أكل الدود والسوس والجراد لما يأكله ويتلفه من الأشياء.

(2) يفهم من موضوع حدث أكل الأرضة للصحيفة هذا أنّه اعتبر إذ ذاك كإشعار وعلامة دلالتها قاطعة على أنّ صانعي هذه الوثيقة كانوا على طريق ممقوت بصنيعهم هذا مخالفين للحق والصواب محالفين للباطل والضلال فكأنّ الأرضة أرسلت كنذير لهم بسوء عقبى ما فعلوا فباتلافها لفقرات مخصوصة من تلك الصحيفة معيّنة بدقّة كاملة وترك الفقرات الأخرى باقية كذلك تقول بلسان حالها لا بركة في عملكم فلا يجوز ولا يسوغ أن يوضع ما فيه البركة من أسماء الله وشبهها في مكان واحد مع مواثيق الزور والظلم والعدوان" حاصل هذا المعنى سواء تعدّدت النسخ واختلف اللحس أم لا... وربما كانت دلالة هذا مع اختلاف اللحس والتعدد أقوى وأظهر في إفهام هذا المعنى.

الثواقب[1] ما كذبتني قطّ».

ثمّ أنّ أبا طالب لمّا سمع خبر الأرضة هذا أحبّ أن يخبر به قريشا تبكيتا[2] لهم وتوبيخا.

فاختار من قومه عدّة رجال منهم أمرهم أن يتجمّلوا ويلبسوا أحسن ثيابهم وخرج بهم من الشعب - ذات يوم- وقت ما كانت أندية قريش غاصّة بهم ولمّا أبصر الملأ من قريش جمع أبي طالب هذا مقبلا نحوهم بالحرم لم يتبادر لخواطرهم عن سبب هذا الأمر إلاّ شيء واحد هو ما كانوا يطمعون فيه ويترقّبونه وذلك هو استسلام قوم أبي طالب والخضوع للقرار السابق بتسليم الرسول صلّى الله عليه وسلّم لهم ليحكموا فيه بحكمهم وما هو إلاّ القتل!... لم يتطرّق أدنى شكّ لأذهانهم في تحقق هذا الظنّ. وذلك لأنّ المدّة طالت والمقاطعة بالغة أقصى حدود الفعالية والمراقبة صارمة. فما جاء هؤلاء إلاّ ليستسلموا ويسلّموا... وأقبل أبو طالب في جماعته متدرّعين بالتجلّد محافظين على الاتّزان في موقفهم. فلمّا حصل الاتصال بين الجانبين سارع القوم من قريش بتوجيه الكلام القارص بالتوبيخ والتقريع لفريق أبي طالب يقولون: «قد آن لكم أن ترجعوا عمّا أحدثتم علينا وعلى أنفسكم (أي من أحداث العناء والعنت...إلخ)».

ورد هنا أنّ أبا طالب كان يخشى أن يطلع القوم على الصحيفة بما حدث لها من أكل الأرضة قبل أن يخبرهم هو بذلك فكان يتفادى هذا الأمر ويودّ أن لا يطّلعوا حتى يفاجئهم هو به. فكان جوابه لهم (عمّا جابهوه به من التوبيخ) بأسلوب رزين قائلا: «قد جرت أمور وحدثت أحداث بيننا بعد كتب هذه الصحيفة تقتضي مراجعة الأمر بيننا فأتوا بصحيفتكم هذه لننظر في الأمر فعسى أن يكون بيننا صلح (و كان أبو طالب يريد بهذا أن لا تفتح الصحيفة إلاّ بمشهد الجمهور)» وحيث كان القوم من قريش لا يشكّون في

(1) الثواقب: هي النجوم وقد مرّ في الدرس العشرين أنّه قسم يقسم به العرب.

(2) مرّ في الدرس الرابع والعشرين معنى التبكيت وأنّه قريب من معنى التوبيخ والتقريع...

كون النتيجة من هذا إنّما تكون تسليم أبي طالب وقومه برأيهم والخضوع لما كانوا اتّخذوه من قرارات. فقد أحضروا الصحيفة مغلقة إلى المجلس كما كان يقصد أبو طالب وتزايد بهم في هذا الأثناء حماس الغرور فأكثروا من توجيه عبارات التوبيخ والتقريع إلى أبي طالب وجماعته. وعند هذا كلّمهم أبو طالب بُما هو الواقع والحقيقة في الداعي لحضوره فقال: «إنّما أتيتكم في أمر هو نصف بيننا وبينكم لا حيف فيه علينا ولا عليكم. إنّ ابن أخي (يعني الرسول صلّى الله عليه وسلّم) قد أخبرني - ولم يكذبني قط - أنّ صحيفتكم هذه قد بعث الله عليها دابّة لم تبق فيها اسما لله تعالى إلاّ لحسته ولم تترك منها إلاّ غدركم لنا وتظاهركم علينا بالظلم والقطيعة والعدوان (هذا بحسب ما جاء في إحدى الروايتين)» ، وعلى ما في الرواية الأخرى قال: «لم تترك ما هو من عذركم وظلمكم لنا إلاّ لحسته ولم تبق فيها إلاّ ما هو اسم لله تعالى» يقول أبو طالب: «فإن كان الأمر كما يقول ابن أخي فأفيقوا وأقلعوا عن غيّكم وارجعوا عمّا قدمتم عليه من الإثم واقترفتم من البغي علينا والعدوان.فإن نزعتم عن سوء رأيكم فذاك! وإلاّ فنحن لا نسلّمه لكم حتى نموت عن آخرنا. وإن كان ما يقول ابن أخي باطلا دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم».

ورد أنّه بعد تمام مقال أبي طالب هذا صدر من مجلس القوم كجواب عنه قول البعض: أنصفتنا. وقول الآخر رضينا. وعند هذا تقدّموا لفتح الصحيفة والكلّ يرمق ويتطلّع فوجدوا الأمر طبق ما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

ورد أنّه بعد الاطّلاع على الصحيفة اضطرب الأمر بين الملإ من قريش وتناقض الفريق المصمّم على المقاطعة فتعالت الأصوات بالاختلاف بينهم وبقي فريق على موقف العناد فقالوا لأبي طالب: «هذا من سحر ابن أخيك» بينما تراجع فريق منهم فقالوا: «نعم هذا والله بغي منّا». وعند

ذلك تكلّم أبو طالب فقال: «علامَ[1] نُحصر ونحبس وقد بان الأمر وتبيّن أنّكم يا معشر قريش أولى بالظلم والقطيعة الإساءة؟ » ثمّ قام وأمر قومه بالقيام فدخلوا بين أستار الكعبة آخذين بها يدعون قائلين اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحلّ منّا ما حرّم عليه...إلخ ثمّ انصرفوا أدراجهم راجعين إلى الشعب.

و بعد هذا تهيّأ العمل لمن قام في نقض الصحيفة فقام الخمسة الذين تقدّموا لهذا العمل وتمّ ذلك لهم. كما سيأتي ذكره.

و قد استخلص البعض من مؤلفي السيرة ممّا جاء في هذا الموضوع من مختلف الروايات أنّ ما أفادته هذه الرواية المذكورة هنا في ترتيب وقائع هذا الحادث هو الصحيح الذي ينبغي الاعتماد عليه وهو يفيد أنّ الفريق المتعصّب من قريش أصرّوا على إبقاء الاعتبار للصحيفة بعد الاطلاع على ما حدث لها من أكل الأرضة كما أخبر به الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثمّ قام من قام لنقضها بعد ذلك.

و ما جاء من الروايات يخالف هذا في ترتيب الوقائع وذكر فيه أنّ الاطلاع على ما حدث للصحيفة من أكل الأرضة لها إنّما كان بعد نقضها يوم نقضت بسعي الخمسة الذين قاموا لهذا الأمر. فهي روايات مضطربة لم يراع فيها التحقيق لجريان الأحداث فلا يعتمد عليها. والوارد فيما جاء ممّا يخصّ نقض الصحيفة أنّ أوّل من تقدّم لهذا الأمر هو هشام بن عمرو العامري (المتقدّم ذكره وقد أسلم يوم الفتح رضي الله عنه) فمضى إلى زهير بن أبي أميّة* المخزومي وأمّه هي عاتكة بنت عبد المطّلب عمّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقد أسلم يوم الفتح أيضا رضي الله عنه ، فكلّمه هشام في الأمر وممّا قال له: «يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح

(1) (علام): أصله على ما؟ أو على ما ذا؟ تحذف الألف بعد الميم إذا كان التركيب يفيد الاستفهام ومثله إلى مَ؟ ولِمَ؟ وفيمَ؟ وعمَّ؟ وممَّ؟ وبِمَ؟ فحروف الجرّ هذه إذا دخلت على (ما) الاستفهامية حذفت الألف من (ما) اصطلاحا رسميا.

النساء...و... وأخوالك حيث قد علمت.... من البلاء؟ ».

فقال زهير: «ويحك يا هشام ماذا أصنع؟ وأنا فرد واحد والله لو كان معي رجل واحد لقمت في نقض هذه الصحيفة!» قال هشام: «ها أنا معك» قال: «أبغنا ثالثا».فاختارا أن يمضيا إلى المطعم ابن عديّ. (و كان من زعماء قريش وله بعض مواقف مشكورة نحو الإسلام وإن مات على دين قومه بمكّة). فكلّمه هشام أيضا وممّا قال له: «أترضى أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك». فأجاب المطعم أيضا: ما أصنع وأنا واحد؟ قال هشام قد وجدت لك ثانيا. قال: «من؟ » قال: «أنا». قال: «أبغنا ثالثا». قال: «قد وجدت لك ثالثا وهو زهير». قال: «أبغنا رابعا». فذهب هشام إلى أبي البحتري (و في رواية: ذهب الثلاثة كلّهم إلى أبي البحتري) فكلّموه في الأمر فقال: «هل من معين على الأمر؟ » فأخبروه بأنّهم الثلاثة على هذا الأمر فوافقهم على أن يلتمسوا خامسا. فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود* فكلّمه فقال زمعة: «هل من معين على هذا الأمر؟ » فسمّى له هشام الرجال الأربعة فوافق زمعة على ذلك (و في رواية أنّهم ذهبوا جميعا إلى زمعة فوافقهم). واكتفوا بهذا العدد (و ممّا يلاحظ أنّ كلاً من أبي البحتري وزمعة بن الأسود قتل مع المشركين بوقعة بدر).

ورد أنّ الخمسة عقدوا مجلسهم للثورة على الصحيفة ونقضها (كائنا ما يكون من الأمر) في ظلام الليل بالحجون حيث مقابر مكّة ، فتفاوضوا في الأمر وتعاهدوا على السعي في نقض الصحيفة يسعون جهدهم إلى تحقيق الغرض ، وتمّ الاتفاق بينهم على تنسيق العمل بما صورته أن يقوموا لذلك في مجلس القوم حيث العدد متكامل والجمهور مشاهد وأن يكون أوّل بادئ بالكلام زهير بن أبي أميّة ، و فعلا فقد وقع في صبيحة تلك الليلة أن كانت الأندية من قريش عامرة وبمحضر جميع الزعماء ومعهم الأربعة من الخمسة وهم جلوس. وإذا بزهير يشرف على المجلس وهو في هيأة تلفت إليه الأنظار حيث كان لابسا لحلّة فاخرة فطاف بالكعبة (ابتداء) ثمّ أقبل

على المجلس (و الأعين ترمقه وهو قائم) فقال: «يا أهل مكّة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وكِيتَ[1] ... وكِيتَ... (يسمّي أنواعا من المتعة) وبنو هاشم والمطلب هلكىٰ لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم... ولا... ولا... (يعدّد ما فعله بهم الحصار)» قال: «و الله لا أجلس حتى تُشقّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة!» فقال أبو جهل: «كذبتَ والله لا تشقّ...!» فنطق زمعة فقال لأبي جهل: «أنت والله أكذب. ما رضينا كتابتها حين كتبت!» فقال أبو البحتري: «صدق زمعة!...»فقال المطعم بن عدي: «صدقتما وكذب من قال غير ذلك. نبرأ إلى الله من كتابتها وممّا كتب فيها...!» فقال هشام مثل ما قال المطعم ، فقال أبو جهل: «هذا أمر قضي بليل!» وفي لفظ (هذا أمر دبّر بليل).

و إثر هذا ماج المجلس بالكلام وارتفعت الأصوات بالقيل والقال ، فقام المطعم بن عدي فتناول الصحيفة ومزّقها على مرأى من الجمهور! وبذلك أخذ نقض الصحيفة صبغته الرسمية واعتبر قرار المقاطعة منسوخا. وقد فهم أنّ الفكرة لهذا قد اختمرت في المجتمع وتمّ نضوجها بما تقدّم من الأحداث قبل قيام الخمسة بما قاموا به من هذا التدبير فكان هذا الإجراء الذي قام به الخمسة في المجلس كافيا في هزيمة الفريق المتصلّب الداعي إلى التّمسّك بالمقاطعة فلم يحدث منهم أي شيء من ردّ الفعل بعد تمزيق الصحيفة.

ورد هنا أنّه بإثر الفراغ من هذا المجلس قام الخمسة المذكورون بلبس السلاح وانضمّ إليهم فريق معينا لهم فتوجّهوا إلى الشعب فأشعروا من فيه بالخروج والرجوع إلى منازلهم بمكّة ، فتمّ ذلك على الوجه المعتاد وانتهت المأساة وعاد الوضع على ما كان عليه قبل.

و في خمسة الصحيفة هؤلاء يقول ناظم الهمزية بعد الخمسة

---

(1) كِيتَ وكَيتَ: بكسر الكاف وفتح التاء وقد تضم التاء وهما كلمتان يكنّىٰ بهما عن الجُمل من الكلام... كما يكنّى بكلمتي كذا وكذا عن المفردات.

المستهزئين:

فديت خمسة الصحيفة بالخمسة * إذ كـــان للكـــرام فـــداء

فتيــة بيتــوا علــى فعــل خيــر حمــد الــصبح أمــرهم والمــساء

يــا لأمــر أتــاه بعــد هــشام زمعـــة إنـــه الفتـــى الأتـــاء

و زهيــر والمطعــم بــن عــدي وأبـو البحتـري مـن حيـث شـاءوا

نقـضوا مبـرم الـصحيفة إذ شـدّ ت عليـــه العـــذا الأنـــداء

أذكرتنــا بأكلهــا أكــل منــساة ســليمان الأرضـــة الخرســـاء

وبهــا أخبــر النبــيّ وكـم أخـرج خَبْـــأ لـــه الغُيـــوبُ خبـــاء.

الدرس 30

الهجرة الثانية إلى الحبشة

تقدّم أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما كان يدخل الشعب وقت فرض الحصار أمر الصحابة رضي الله عنهم بالهجرة إلى الحبشة لثاني مرّة. فهاجر عامّة من آمن بالله من أهل مكّة (أي الغالبية منهم). والمتداول في الروايات أنّ عدّة من هاجر في هذه المرّة بلغ ثلاثة وثمانين من الرجال وثمان عشرة امرأة. وممّن عيّن اسمه من هؤلاء المهاجرين في هذه الهجرة من الشخصيات البارزة في الصحابة جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس وعبد الله بن مسعود والمقداد ابن الأسود ، وأمّ حبيبة* بنت أبي سفيان مع وزجها عبيد الله (بالتصغير) ابن جحش*.

فلحقوا بأرض الحبشة ولقوا بها -كما في الهجرة الأولى- مقاما هنيئا وعيشا طيّبا. وقد نقلت الروايات هنا ممّا يقع من تصاريف القدر أنّ عبيد الله بن جحش هذا وقع له بعد مدّة من إقامته بالحبشة أن تنصّر فاعتنق دين النصرانية السائد بأرض الحبشة ومات عليه بها.

فورد أنّ الرجل عندما بدأ به الانحراف انهمك في معاقرة الخمر فانكبّ عليها يشربها بغير مبالاة ، وشاقّ جماعته فعابهم بقصور أنظارهم فيما يدينون به من الإسلام حيث كان يقول لهم: «أبصرنا وصأصأتم[1]!».

و حكت الأخبار أنّ زوجته أمّ حبيبة (رضي الله عنها وقد صارت فيما بعد إحدى أمّهات المؤمنين) رأت رءيا منامية فيها زوجها عبيد الله هذا ممسوخ الصورة وقد تغيّرت معالم وجهه إلى ما يستقبح ، ولم يمض وقت طويل بعد هذه الرءيا وإذا به يقول لها ذات يوم: «يا أمّ حبيبة* قد نظرت في أمر الدين فلم أرَ دينا خيرا من النصرانية وقد كنت دنت بها سابقا ثمّ

(1) يقال صأصأ: بصادين مهملتين: الجرو من الكلاب إذا بدأ يفتح عينيه بعدما يولد. يقول أنه هو قد أبصر الأمر على حقيقته وأصحابه لازالوا لم يدركوا الحقيقة بعد.

دخلت في دين محمد والآن قد رجعت إليها (أي النصرانية)» فقالت له: «لا تفعل والله ما هو بخير لك وقد رأيت في المنام ما هو كذا...» وأخبرته برءياها ، فلم يحفل بتحذيرها ومضى على رأيه حتى النهاية. وقد ثبتت أمّ حبيبة رضي الله عنها على الإسلام رغم معاشرتها لعبيد الله ابن جحش وقد ارتدّ عنه. كما أنّها رضي الله عنها رأت في المنام من يناديها: «يا أمّ المؤمنين» ومفهوم أنّ تأويل هذه الرءيا ظاهر بأنّها ستصير يوما ما زوجة للرسول صلّى الله عليه وسلّم وقد تحقّق ذلك من بعد حيث خطبها الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأرسل بذلك إلى مقامها بالحبشة وهو صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة حوالي السنة السادسة من الهجرة ، وتمّ ذلك فعلا في نفس السنة بقدوم أمّ حبيبة إلى المدينة (بما سيأتي ذكره في أحداث السيرة). وهذا كباقي زوجاته عليه الصلاة والسلام يراد منه غرض آخر زائد على مطلق العشرة الزوجية إذ كانت أمّ حبيبة تستحقّ هذا التكريم إذ فقدت زوجها وهي في موطن الغربة مهاجرة لأجل عقيدة الدين وتثبت وحدها على المبدإ بعد أن تخلّى عنها زوجها الذي هاجرت معه. (فنعم الجزاء ونعم العوض!).

و قد ورد عن مهاجري الحبشة هؤلاء أن تزايد عددهم بعد مدّة. فقد جاء أنّ بعد هجرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة ، وكان فريق الأشعريين باليمن وعميدهم أبو موسى الأشعري قد اعتنقوا الإسلام بأرضهم فأرادوا أن يلحقوا بالرسول صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة ، فركبوا سفينة أقلعت بهم من اليمن بقصد النزول على مواني الحجاز فإذا بالسفينة تغيّر وجهتها إلى الحبشة فأنزلتهم بها وكانت عدّة هذا الفريق نحوا من خمسين شخصا يقودهم أبو موسى رضي الله عنه ، وإذ ذاك كانت الملاقاة بينهم وبين الفئة النازلة بالحبشة من المسلمين فطلب إليهم هؤلاء أن يبقوا معهم بالحبشة إلى أن يتيسّر للجميع الرحيل من الحبشة إلى موطن الإسلام بالمدينة ، فكان الأمر كذلك حتى كان رجوع الجميع في السنة

السابعة للهجرة و وافوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم منصرفه من غزوة خيبر ، و بهذا يعرف أنّ مهاجري الهجرة الثانية للحبشة أقاموا بها نحوا من ثلاث عشرة سنة[1]. والمشتهر في الأخبار أنّه كان لهذه الفئة من الصحابة عميد إليه المرجع في شئونها وأنّه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. و قد قضت مدّة هذه الإقامة في هناءة عيش بفضل ملك البلاد إذ ذاك وهو النجاشي (أصحمة[2]). و ورد عن النجاشي هذا أنّه كان على جانب وافر من العلم حتى قيل أنه كان أعلم أهل زمانه بعلم النصرانية وكان قيصر ملك الروم يبعث إليه بالعلماء ليأخذوا عنه المزيد من العلم ، هذا إلى ما امتاز به من وفرة عقل وسياسة حزم وحكمة. وجاه فيما جاء من الأخبار عن النجاشي هذا أنّ المُلك قبل كان لوالده فثار عليه شعب الحبشة وقتلوه و ولّوا مكانه أخاه الذي هو عمّ النجاشي المتكلّم عنه ، وكان هذا إذ ذاك صغيرا تربّى في حجر عمّه وبدت تظهر عليه علامات النجابة وكان الفريق من الحبشة الذين تحمّلوا تبعة قتل أبيه يرقبون أمره يخشون أن يئول إليه الأمر فيأخذ منهم بثأر أبيه. فكانوا يسعون للملك عمّه به يريدون قتله أيضا حتى يأمنوا جانبه ولكنّ الملك لم تطب نفسه لهذا مع ما يحسب من حساب للفريق المذكور فاختار للخروج من المأزق أن يبعد الغلام ابن أخيه ويشرّده خارج الوطن وذلك بأن أمر به فبيع كعبد مملوك لقوم من العرب فاشتراه رجل من بني ضمرة بأرض الحجاز فأقام معه مدّة ليست بالقليلة حتى كان يرعى له الماشية بوادي بدر الذي وقعت به غزوة بدر المعروفة. وازداد النجاشي بهذا ثقافة وعلما فحذق اللسان العربي والأخلاق والعادات

---

(1) وممّا ينبغي التنبيه إليه أنّ مهاجري الهجرة الثانية إلى الحبشة لم يكونوا بجملتهم كممّن أقام المدّة المذكورة ثلاث عشرة سنة بل فيهم من رجع إلى مكّة قبل الهجرة إلى المدينة وهاجر إلى المدينة.

(2) أصحمة: جاء اسمه هكذا بعد الهمزة بالصاد المهملة والحاء المهملة ثمّ ميم. وهو الاسم الشخصي لملك الحبشة الملقّب بالنجاشي كاسم النجاشي الآخر أبرهة.

العربية مارسها كذلك وهكذا حتى هيّأ الله له الظروف للرجوع إلى الملك فمات الملك عمّه بصاعقة أصابته وكان له اثنا عشر ابنا لا يصلح ولا واحد منهم للولاية ، ومرج[1] أمر الحبشة واختلّ بها أمر الولاية وقرّ في الأخير قرارهم على أن يعودوا بالأمر إلى النجاشي المشرّد وليس غيره ، فاتخذوا لذلك ما كلّفهم به الحال من تكاليف و وسائل واسترجعوا صاحبهم فبايعوه بالملك ، فكان للحبشة في عهد ولاية النجاشي هذا أحسن ما تذكر به الممالك من رفاهية واستقرار وجميل أحدوثة.

و قد تواترت الأخبار عن النجاشي هذا بما له من مواقف مشكورة ومآثر محمودة نحو الإسلام والمسلمين ابتداء من معاملته لمهاجري الحبشة في الهجرة الأولى إلى أن صلّى عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم - يوم مات- صلاة الجنازة للغائب بالمدينة وذلك في السنة التاسعة للهجرة. فقد ردَّ النجاشي الهدايا التي قُدِّمَتْ إليه من الوفد الذي أرسلته قريش إليه ليطرد المهاجرين من بلده ورفض لهم هذا المطلب كما سيأتي ذكره قريبا. واحتفل بانتصار الرسول صلّى الله عليه وسلّم يوم بدر لمّا بلغه الخبر بذلك فقد ورد أنّه لمّا سمع بالنبإ أرسل إلى الجالية من المهاجرين لمقابلتهم بمكانه فلمّا دخلوا عليه وجدوه قد غيَّر الهيأة المعتادة بمجلسه فوجدوه جالسا عل الأرض مفترشا التراب والرماد وقد لبس المسوح[2] وهو مستبشر فهنّأهم وقال لهم فيما قال: «إنّا نجد في تعاليم الكتاب المقدّس أنّه إذا ما أنعم الله على عبد بنعمة متجدّدة وجب على العبد أن يقابل تلك النعمة بتواضع جديد يحدثه شكرا لله تعالى على تلك النعمة وإنّي قد بلغني نبأ نعمة قد أحدثها الله تعالى علينا وعليكم وذلك بأنّه قد نصر نبيّه محمدًا

---

(1) مرج: بالميم و الراء آخره جيم ، الفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع ومصدره المرج بفتحتين معناه إضطراب الأمر وفساده.

(2) المسوح: صيغة جمع مفرده مسح بكسر فسكون وهو الكساء ينسج من الشعر يلبسه أهل الإقلال ومن يظهر التقشّف والتواضع.

يدعى بدرا[1] صلّى الله عليه وسلّم على أعدائه حيث التقوا بواد كثير الأراك كنت أرعى به الغنم لسيدي ، فنصر الله رسوله وهزم أعداءه...إلخ» كما ستأتي الإشارة إلى هذه الحادثة في سياق غزوة بدر. ثمّ بعد هذا ورد على النجاشي وفد قريش لثاني مرّة يحاول تسليم المهاجرين بالحبشة إلى قريش ليقتلوهم بمن قتل منهم ببدر. فوقف النجاشيْ مع هذا الوفد موقفا صارما و ردّه ردّا شديد المرارة و سيأتي ذكر القصّة في أحداث غزوة بدر. و كذلك كان النجاشي الواسطة في تزويج أمّ المؤمنين أمّ حبيبة بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وكانت ببلده مهاجرة كما تقدّم ذكره. فحضر مجلس عقد النكاح وهو الذي دفع الصداق من ماله وجهّزها أحسن التجهيز يوم سافرت إلى المدينة.

و لمّا بلغه كتاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي دعاه فيه إلى الإسلام كما كاتب بذلك عامّة الملوك والولاّة وذلك في السنة السادسة للهجرة ، تقبّل الدعوة بمزيد الرضا والتكريم واحتفظ بالكتاب بعناية بالغة فجعله مستودعا عنده كأثر مقدَّس وردّ الجواب للرسول صلّى الله عليه وسلّم بالقبول والاستجابة في أسمى عبارات التبجيل والاحترام مشيرا إليه بأنّه قد تلقّى الدعوة الإسلامية من الفريق المهاجرين ببلده وصدّق بها واستجاب إليها قبل ورود الكتاب من الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليه. وقد تداول فيما يذكر من الآثار أنّ النجاشي هذا كان هو السبب في إسلام الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه لما كان كثير التردّد عليه بإيفاد قريش له حتى تمكّنت بينهما علاقة صارت من بعد ودادية. ويلغز بهذا فيقال: «صحابي أسلم على يد تابعي!».

و ممّا كان في روايات أخبار السيرة ما يأتي مناقضا لبعضه البعض في الخبر الواحد كما جاء في بعض الروايات من أنّ النجاشي الذي كاتبه

(1) الأراك: بفتح الهمزة شجر معروف يكثر بالحجاز.

الرسول صلّى الله عليه وسلّم يدعوه إلى الإسلام لم يردّ الجواب ولم يعرف له إسلام فقد نبّه الكثير من المؤلفين إلى ما يزيل هذا الالتباس وذلك بأنّ في نقل الروايات خلطا بين واقع و واقع يجمع بينهما الاسم ويفترقان في المسمّى.

فالنجاشي الذي تقبّل المهاجرين وحكي له ما حكي من المآثر هو الذي صلّى عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم صلاة الجنازة للغائب يوم مات بالحبشة وكان ذلك في السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة وهو مسلم من فضلاء التابعين لم يفته إلاّ صحبة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وقد كاتبه الرسول صلّى الله عليه وسلّم يوم كاتب الملوك في السنة السادسة و قبل الدعوة و ردّ الجواب بالقبول كما هو معروف. وحينئذ فيتعيّن أن يكون - محتملا- أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كاتب النجاشي الجديد الذي خلف النجاشي الذي مات وهذا النجاشي الجديد هو الذي لم يعرف عنه خبر بردّ جواب الرسول وإجابة دعوة الإسلام.

(العود إلى الموضوع الأصلي من الدرس)

بعد أن علمت قريش بهذه الهجرة من الصحابة إلى الحبشة زاد بهم العناد في مضايقة المسلمين فعمدوا إلى إرسال وفد إلى النجاشي يحاولون طرد المسلمين وردّهم لينكّلوا بهم إمعانا في محاربة الدعوة الإسلامية واختاروا لهذه السفارة رجلين منهما هما عمرو بن العاص (و قد أسلم بعد هذا العهد) رضي الله عنه ، وعُمارة بن الوليد بن المغيرة وكان من شبان قريش الذين ترمقهم الأعين و هو الذي حاولت قريش أن يتّخذه أبو طالب عوضا فيتبنّاه إذا ما انقاد إلى رأيهم في إعدام الرسول صلّى الله عليه وسلّم (تلك الفكرة الحمقاء الشنعاء) ، وحمّلوا السفيرين هدايا يُقَدِّمَانِهَا للنجاشي وبطارقته[1] ورجال حاشيته وكانوا يعلمون أنّ النجاشي كان معجبا بأدم[2] مكّة فجعلوا منه في الهدايا الشيء الكثير.

و خصّصوا للنجاشي في جملة الهدايا جبّة ديباج ممتازة وجوادا من جياد الخيل. ومن التعليمات التي أوصوا بها المبعوثين أن قالوا لهما: «قدّما أولا الهدايا للبطارقة ورجال الحاشية قبل أن تتكلما بشيء ، ثمّ قدّما الهدايا للنجاشي قبل أن تتكلّما معه بشيء ، ثمّ كَلِّمَاه في الطلب على أن يكون ذلك قبل أي حوار يقع بين النجاشي وبين القوم المطلوبين (أي المهاجرين)». ولمّا حلّ ميعاد مقابلة المبعوثين للنجاشي ودخلا عليه سجدا له (كما هي التحية التي كانوا يقومون بها للملوك والعظماء...).

و قابلهما النجاشي بتجلّة[3] فأجلسهما معه على السرير أحدهما يمينه والآخر شماله.

و افتتح حديث السفارة فكان مضمن ما تكلّم به المبعوثان: أيّها

---

(1) البطارقة: جمع "بطريق" بكسر الباء. اسم لرتبة في الولاية يطلق على القائد في الجيش في ذلك العهد.

(2) الأدم والأديم تقدّم ذكره في الدرس العاشر وهو الجلد المدبوغ.

(3) التجلّة: بوزن التحية وهي بمعنى التحيّة أيضا لأنّ معناها الإجلال والتعظيم.

الملك قد صبأ منّا غلمان سفهاء إلى بلادك فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك بل جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم. جاءهم بهذا الدين رجل كذّاب خرج فينا يزعم النبوّة ولم يتّبعه منّا إلاّ السفهاء ، وقد جئناك فيهم مبعوثين إليك من أشراف قومهم من أبائهم وأعمامهم وعشائرهم يطلبون إليك ردّهم إليهم فهم أعلم بحالهم وما عابوا عليهم... إلى آخر الحديث.

و بعد ذلك تكلّم بطارقة النجاشي ومستشاروه فقالوا: «صدق الوفد. فقوم هؤلاء أعلم بهم والرأي أن يسلّم المطلوبون إلى المبعوثين...!».

فغضب النجاشي وهو يقول: «ها الله[1] لا أسلّمهم ولا يُكادُ قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوَهم فأسألهم عمّا يقول هذان من أمرهم». فأرسل النجاشي إلى المهاجرين ليحضروا مجلسه جمعًا بينهم وبين وفد قريش. فلمّا بلغ هذا الاستدعاء المهاجرين عقدوا مجلسا فتفاوضوا فيما بينهم في الشأن فقالوا: «ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ » وتكلّم جعفر ابن أبي طالب * رضي الله عنه فقال: لا عليكم أنا خطيبكم في اليوم ، إنّما نقول ما علّمنا وما أمرنا به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم و ليكن ما يكن من الأمر!.

ولمّا حضر ميعاد الاجتماع عقد النجاشي مجلسا للمناظرة كان حافلا له أبهته الخاصة ، فكان إلى أرباب الحاشية الأساقفة[2] ناشرين صحائفهم ، وحضر وفد قريش سابقا فريق المهاجرين. ثمّ قدم المهاجرون يتقدّمهم جعفر رضي الله عنهم أجمعين. ونقل هنا أنّ عمرو بن العاص كان ألقى إلى النجاشي فيما ألقى إليه من التحريش بالمهاجرين أن قال له أنّهم

(1) ها الله: قسم يختص بلفظ الجلالة (الله) فالهاء هنا مثل الواو والباء والتاء: والله ، بالله ، تالله ، ها الله و يختص لفظ الجلالة بالتاء والهاء.

(2) تقدّم تعريف الأسقف في الدرس الرابع عشر وأنّه اسم لرتبة في الديانة المسيحية وبهذا يعرف أنّ البطريق رتبة في الحكم والأسقف رتبة في الديانة.

مستكبرون عنك وعن دينك وآية ذلك أنّهم لا يحيّونك بالسجود ولا بتحيّة التعظيم التي يحيّيك بها الناس...إلخ. ولمّا وصل جعفر إلى مكان الاستئذان للدخول صاح بقوله: «جعفر يستأذن ومعه حزب الله!» فردّ النجاشي قائلا: «نعم! يدخل بأمان الله وذمّته!» و تأثر لهذا عمرو فأسر إلى صاحبه عمارة قائلا: «ألا ترى كيف يكتنون بحزب الله ؟ وما ردّ به الملك ؟ ».

و لمّا دخل الصحابة المجلس أدُّوا التحية بالصيغة الإسلامية (السلام عليكم...) وعندها قال لهم من تعيّن لهذا من حاضري المجلس: «ما لكم لا تسجدون للملك ولا تحيّونه بالتحيّة المعهودة من سائر الناس؟ » فأجاب جعفر: «إنا لا نسجد إلاّ لله وحده!» فقال السائل: «و لم ذلك؟ » فأجاب جعفر: «لأنّ الله تعالى أرسل فينا رسولا أمرنا فيما أمرنا به أن لا نسجد إلاّ لله عزّ وجلّ ، وأخبرنا أنّ تحيّة أهل الجنّة هي السلام نحيّي بها فحيينا بالذي نحيّي به بعضنا بعضا». وعند هذا تكلّم النجاشي فخاطب جعفرا: «ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا ديننا ولا دينًا آخر من الملل المعروفة!» (و كان هذا مفتاح الكلام للمهاجرين فيما يتعلّق بالموضوع الذي عقد من أجله المجلس).

و تقدّم جعفر[1] للكلام فقال: «أيها الملك كنّا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام و نأكل الميتة و نأتي الفواحش ونقطع الأرحام و نسيء الجوار و يأكل القويُّ منّا الضعيف ، كنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا كما بعث الرسل إلى من قبلنا ، وذلك الرسول منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله تعالى لنعبده و نوحّده و نخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، و أمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا و أمرنا بالصلاة (أي ركعتين بالغداة و ركعتين بالعشي) و بالزكاة (و فسّرت بأنّها مطلق الصدقة.

[1] هذه هي الرواية المعروفة المشتهرة من أنّ المتكلّم باسم المهاجرين هو جعفر. وجاء في رواية أخرى أنّه عثمان بن عفّان أي قبل أن يرجع إلى مكّة ثمّ أنّه لم يتابع هجرته بالحبشة. وجمع البعض بين الروايتين بأنّ مجالس المناظرة تعدّدت فربما تكلّم عثمان أيضا في البعض منها.

كما فسّرت بالطهارة عموما) و بالصيام (أي ثلاثة أيام من كلّ شهر) وأمرنا بصدق الحديث و أداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء. و نهانا عن الفواحش و قول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات. فصدّقناه و آمنّا به واتّبعناه على ما جاء به. فعدا علينا قومنا ليردّونا إلى عبادة الأصنام واستحلال الخبائث ، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا فخرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك و رجوناك أن لا نُظلَم عندك أيُّها الملك». فقال النجاشي لجعفر: «هل عندك شيء[1] ممّا جاء به هذا الرجل الذي ذكرت ؟ » قال: «نعم!» قال: «فاقرأه عليّ». فقرأ جعفر صدرا من سورة مريم (و في رواية: قرأ من سورة العنكبوت وسورة الروم). فلمّا سمع النجاشي القرآن من جعفر لم يتمالك أن بكى حتى اخضلّت لحيته وكذلك كان الأساقفة يبكون ، وقالوا لجعفر: «زدنا من هذا الحديث الطيّب» فزاد فتلا عليهم سورة الكهف ، وبعد هذا تكلّم النجاشي فقال (عن الذي سمع من القرآن): «هذا والله الذي جاء به موسى. (و في لفظ... عيسى) وأنّه ليخرج من مشكاة واحدة». وفي إحدى الروايات أنّ النجاشي قال(بعد سماعه القرآن): «ما زاد هذا على ما في الإنجيل إلاّ مثل هذا» (و أشار إلى عود رفعه كان موضوعا أمامه). و ورد أنّ جعفرا زاد بعد هذا على ما تقدّم من كلامه فخاطب النجاشي مشيرا إلى مبعوثي قريش فقال له: «سلْهما أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنّا عبيدا أبقنا[2] فارددنا إليهم...!» فسأل النجاشي عمرو فقال عمرو: «بل أحرار!» زاد جعفر فقال: «سلهما هل أرقنا دماء بغير حقّ فنردّ ليقتصّ منّا ؟ » فسأل النجاشي عمرا بذلك فقال عمرو: «لا» ، فزاد جعفر: «هل أخذنا أموال الناس بغير

---

(1) المراد بالشيء هو الكلام المتلو من الوحي.

(2) فعل أبق يأتي مكسورا في الماضي مفتوحا في المضارع. كما يأتي مفتوحا في الماضي مكسورا في المضارع أو مضموما ومصدره "الإباق" بكسر الهمزة مخفف الباء ، أو الأبق بفتح فسكون أو الأبق بفتحتين. وهو موضوع لهرب العبد المملوك من يد مالكه.

حقّ فعلينا ردُّها ؟ » وسأل النجاشي عمرا كذلك فقال عمرو: «لا!».

و بعد هذا توجّه النجاشي إلى عمرو بسؤال خاص من جهته فقال له: «هل لكما عليهم ديْن ؟ » فأجاب عمرو بالنّفْي أيضا (لا!) وعند هذا أصدر النجاشي كلمته في موضوع طلب وفد قريش فقال للوفد: «انطلقا...! لا أسلّمهم إليكما أبدا ولو أعطيتموني دَبْرا[1] من ذهب»! وتفيد الروايات أنّ عمرو بن العاص (و هو المعروف بخلق الدهاء وما كان له من مواهب خاصّة في فنّ السفارة وطول المصابرة في معالجة شئون هذا الباب).

لم يقعد به الأياس نهائيا بعد خيبة مسعاه مع النجاشي (كما تقدّم بيانه) فواصل العمل ما أمكنه ذلك و رجع إلى النجاشي في يوم آخر فكان ممّا حدّث به عن المهاجرين أن قال: «إنّهم يقولون في عيسى وأمّه قولا عظيما» (أي ممّا ينافي ما يعتقده النصارى من الإطراء[2]) وقال له: «فسلهم عن ذلك إن شئت!...» وفعلا فقد أرسل النجاشي إلى جعفر المتكلّم من المهاجرين وكالمه في الموضوع فقال له: «و ما تقولون في عيسى وأمّه؟ » فأجاب جعفر: «نقول ما قال الله تعالى» «رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه». فيرجع النجاشي إلى الأساقفة الذين كانوا حاضري المجلس فيقول لهم: «يا معشر الأساقفة إنّ هؤلاء (يعني المهاجرين) ما يزيدون على ما تقولون أنتم في عيسى وأمّه شيئا». وجاء في إحدى الروايات أنّ النجاشي بعد سماعه ما سمع من كلام جعفر بن أبي طالب فيما يرجع إلى الدّين الإسلامي ،إلتفت إلى الأساقفة الحاضرين مجلسه فقال لهم: «يا معشر الأساقفة أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى ،هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيّا مرسلا؟ » قالوا: «نعم! بشّر به عيسى

---

(1) الدبر: بفتح الدال المهملة وإسكان الباء الموحدّة التحتية آخره راء ، المراد به هنا الجبل والقطعة من الأرض تكون في البحر. والكلمة لها معان عديدة وخصّصت في كتب السيرة بأنّها هنا الجبل.

(2) الإطراء: يطلق على المدح المتجاوز الحدّ والنصارى أطروا عيسى عليه السلام حيث تقوّلوا عليه أنّه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك.

وقال من آمن به آمن بي ومن كفر به كفر بي». وتفيد الروايات هنا أنّ النجاشي أفصح في هذا الأثناء عن إيمانه بالرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أنا أشهد أنّه رسول الله الذي بشّر به عيسى» وقال: «لو ما أنا فيه من الملك لأتيته وأكون الذي يحمل نعله»، وفي بعض ألفاظ من الروايات قوله: «و أكون الذي أوضئه وأغسل قدميه...إلخ». ثمّ يخاطب النجاشي المهاجرين فيقول: «انزلوا بأرضي حيث شئتم سُيُوم[1]... ومن سبّكم غرم (كرّرها ثلاث مرّات)».

جاء أنّه فرض أربعة دراهم غرامة مضاعفة على كلّ من صدر منه نحو المهاجرين قول لم يرضهم. وقال: «من نظر إلى هؤلاء نظرة تؤذيهم فقد عصاني» وأمر بإجراء مرتّب من الرزق يدفع للمهاجرين.

ثمّ أمر بالهدايا التي قدّمتها إليه قريش فردّت إليهم وقال في هذا الصدد: «ما أخذ الله منّي الرشوة حين ردّ إليّ ملكي، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه»، يشير بهذا إلى ما سبق له في ابتداء أمره عندما حاول فريق أعدائه من الحبشة قتله وما وقع له من تولّيه الملك من حيث لم يطلبه. هذا وقد جاء فيما جاء من الأقوال عن نزول الآية من سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ... ﴾ إلى آخر الآية، بأنّ هذا نزل في النجاشي وأساقفته لمّا سمعوا القرآن من مهاجري الحبشة.

[أدرج البعض من مؤلفي السيرة عقب هذا الفصل من أحداث السيرة قصّة حادثة وقعت لوفد قريش هذا، وذكر أنّها من مرويات الطبراني وأنّ سندها فيه رجال الصحيح، وذلك أنّ عمرو بن العاص* لمّا سافر مع عمارة بن الوليد* كان يصحب معه زوجته، وقد كان عمارة على جانب

[1] سيوم: صيغة جمع مفرده...سائم وهو الطليق الذي يتجوّل في الأرض حيث شاء وزيد في تعليق كتب السيرة على الكلمة بأنّ معناها آمنون.

ملحوظ من جمال الصورة وبسطة الجسم على خلاف ما كان عمرو من دمامة وشكل ليس فيه ما يستملح (و قد يناسب أن يزاد هنا ملاحظة ما كان بين الرجلين من تناقض من حيث الشخصية ، فالنقص الجسماني الذي كان عليه عمرو كان معه زيادة مضاعفة من قوّة المعنى عقلا وفكرا وأدبا ، وجمال الشكل الذي كان عليه عمارة كان ينقصه القيم المعنوية من عقل وذهن وأدب ببون شاسع بينه وبين عمرو) ، وبفعل الاختلاط وطول مدّة الاتصال بين الرفقاء في هذه السفرة المديدة المسافة من الحجاز إلى الحبشة في السفينة على البحر ، حدث ما يحدث طبعا من إعجاب المرأة بما عليه عمارة من جمال حتى كأنّها فتنت به ، مع ما عليه عمارة هذا من عجب بنفسه وتهوّر فقد أملى عليه نزقه أن قال لعمرو: مر امرأتك فلتقبّلني! وعاب ذلك عليه عمرو في رزانة ، ولم يردّ عليه في هذا إلاّ قوله له: «ألا تستحيي» فما كان من عمارة إلاّ تحامل عمرا على هذا انتقاما في صورة مداعبة ظاهريا. فأمسك به وألقى به في البحر. فأخذ عمرو يسبح وهو يستغيث بملاحي السفينة ويناشد عمارة لينتشلوه ، ولمّا انتشلوه و رجع إلى السفينة لم يجابه عمارة بما يقتضيه الحال من عنف بل ملك أعصابه وأبقى على العمليّة صيغتها المزاحية ظاهرا ، بل زاد في التعمية فأمر زوجته أن تفعل بإرادة عمارة فقال لها: «قبّلي ابن عمّك لتطيب نفسه!» وهكذا قرّر عمرو حالة الظرف التي لا تسمح بالقيام بشيء من الملاحاة مع عمارة وأضمرها في نفسه ، إلى حين ما يواتي الظرف فلمّا تمّ أمر السفارة مع النجاشي وأسفر المسعى على الخيبة فيما كان يراد من طرد المهاجرين رأى عمرو إذ ذاك أنّه تفرّغ لمجازاة صاحبه بما يستحقّه فدبّرها له مكيدة بالغة النكاية ونسجها من خيوط وعناصر غاية في التأثير والاستهواء فقال له: «يا عمارة أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال فلو تعرّضت لامرأة النجاشي فلعلّ أن تكون لنا بها يد عند الملك وتشفع لنا عنده...» وكذلك كان الأمر فأخذ عمارة يتقرب إلى زوجة النجاشي وكانت له معها مقابلات وصار يتردّد

إليها واستأنست به حتى أهدت له من عطرها. ولمّا وثق عمرو من وقوع عمارة في الفخ ضرب ضربته القاضية فأوغر إلى النجاشي بالأمر حيث كلّمه في حديث بينهما عن عمارة قائلا له: «إنّ صاحبي صاحب نساء ولا نأمن أن يكون له نحوكم شيء من هذا الشأن (يتبرأ منه ويوقع به)». و أرسل النجاشي من يراقب الأمر و وجدوا عمارة بمجلس مع المرأة فقبض عليه، وكان عمرو مع النجاشي إذ ذاك فقال النجاشي: «لو لا أنّه كان بجوارنا لقتلناه ولكن سنفعل به ما هو شرّ من القتل» فأمر بساحر أجرى على عمارة عمليّة سحر بأن نفخ بشيء في إحليله فجنّ من ساعته وهام على وجهه ملتحقا بالأدغال مع الوحوش.

و جاء في هذه القصّة أنّ عمارة بقي على هذه الحالة مدّة تزيد على العشرين سنة أي إلى زمن خلافة عمر بن الخطاب، وكان لعمارة ابن عمّ هو عبد الله بن أبي ربيعة* المخزومي (هو الذي كان سفيرا ثانيا مع عمرو بن العاص أيضا من قريش إلى النجاشي بعد واقعة بدر في محاولة تسلّم المهاجرين أيضا لقريش. وخابت المحاولة أيضا كما سيأتي ذكره في أحداث غزوة بدر). وقد أسلم عبد الله هذا من بعد كما أسلم عمرو بن العاص، والرسول صلّى الله عليه وسلّم هو الذي سمّاه بعبد الله، وكان اسمه قبل ذلك (بجيرا). استأذن عبد الله هذا عمر بن الخطاب وهو الخليفة أن يأذن له بالمسير إلى أرض الحبشة ليفحص خبر ابن عمّه عمارة المذكر. فأذن له فقدم الحبشة وعانى ما عانى من أمر الفحص وتحسس الأخبار عن عمارة حتى تمكّن منه في أحد الجبال يصاحب الوحوش، فكمن له وأمسك به وكلّمه فكان عمارة يتخبّط في يده ويصيح وقال له: «أرسلني وإلاّ أموت الساعة» فلم يرسله وبقي متشبّثا به فمات فعلا بين يديه.

و قد أثبت في هذه القصّة عن عمرو بن العاص أنّه بعد ما انتقم من عمارة بهذه الواقعة كان يتمثّل ببيتين من الشعر أنشأهما في الموضوع يقول:

إذا المرء لم يترك طعاما يحبّه * ولم ينه قلبا غاويًا حيث يمّما

قضى وطرا منه وغادر سُبَّة * إذا ذُكرتْ أمثالُها تملأ الفما.

و قد أسندت رواية هذه القصّة إلى أبي موسى الأشعري * الذي كان الحكم الثاني لعمرو بن العاص حيث جعلا الحكمين في الخلاف الخطير الذي وقع بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان على الخلافة بعد واقعة صفين المعروفة. و وقع ما وقع من خلاف بين الحكمين أيضا كما هو مسطّر في صحف التاريخ رضي الله عن الجميع. وإذا كان بحث قصّة عمارة هذه من حيث صحّتها لا داعي له فالله أعلم بما هو الحقيقة في الأمر فكذلك لا داعي إلى مناقشة فقراتها فقرة فقرة إذ فيها ما يقبل المناقشة، فإن الذي يحسن أن يعلّق به عليها أن لها نظائر مشهودة معروفة لدى سمع العموم وبصره فلن تكون عاقبة التحلّل والخلاعة إلاّ مثل عاقبة قصّة عمارة ولن تكون نتيجة هتك الحدود التي جعلها الدّين بين الذكر والأنثى بمنع الاختلاط المشين إلاّ كمثل تلك النتيجة كيفما كان الحال].

الدرس 31

كانت الفترة الزمانيّة التي أعقبت حادث فكّ الحصار والخروج من الشعب مباشرة ، تحتوي (حسبما جرى عليه البعض من مؤلفي السيرة) على الأحداث الآتي ذكرها:

وفد نصارى نجران ،

مقدم ضماد الأزدي واجتماعه بالرسول صلّى الله عليه وسلّم ،

وفاة أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها ،

وفاة عمّه صلّى الله عليه وسلّم الرجل العظيم أبي طالب ،

زواجه صلّى الله عليه وسلّم بأمّ المؤمنين سودة بنت زمعة ،

عقد زواجه صلّى الله عليه وسلّم على أمّ المؤمنين عائشة.

جاء أنّ نجران * (بفتح النون وإسكان الجيم) بلدة في الحدود بين الحجاز واليمن وهي على مسافة سبع مراحل من مكّة ، وكان هذا الوفد يتركّب من عشرين شخصا يدينون بالنصرانية بلغهم ، خبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ممّا تلقّوه من مهاجري الحبشة ، فوفدوا عليه صلّى الله عليه وسلّم لغرض التحقيق من الأمر. فوصلوا مكّة وكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقتئذ بالمسجد الحرام فقصدوه وتفاهموا معه جيّدًا وأنّهم كانوا يحسنون اللسان بما أنّهم عرب.

فتلا الرسول صلّى الله عليه وسلّم القرآن عليهم ودعاهم إلى الإسلام فما كان بأسرع من استجابتهم للدعوة وشهدوا بين يديه شهادة الإسلام ، وقد ذكر هنا أنّ الآية من سورة المائدة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ نزلت في شأن هذا الوفد لأنّ روايات الأخبار تفيد أنّهم كانوا يبكون حينما سمعوا القرآن منه صلّى الله عليه وسلّم ، غير أنّه قد تقدّم أنّ آية المائدة هذه إنّما هي في النجاشي وأساقفته لمّا سمعوا القرآن من مهاجري الحبشة.

والمتداول في خبر نصارى نجران يفيد أنّ الآية التي تتعلّق بشأنهم إنّما هي الآية من سورة القصص من قوله عزّ وجلّ: ﴿ ...وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ... ﴾ وفي هذا الوفد أيضا بقية الآيات من القصص من قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

كان هذا موقفهم مع كفّار قريش لمّا عرفوا منهم أنّهم أسلموا فعابوا ذلك عليهم وعيّروهم وقبّحوا عليهم ما صنعوا من سرعة إجابة الدعوة التي دعاهم إليها الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقد ورد أنّهم بعدما انفضّ مجلسهم معه صلّى الله عليه وسلّم وخرجوا اعترضهم القوم من قريش ناقمين عليهم. فممّا خاطبوهم به أن قالوا لهم: «لا نعلم ركبا كان أحمق من ركبكم بعثكم قومكم ترتادون الأخبار فما أسرع ما غيّرتم دينكم!» فكان جوابهم ما تقدّمت الإشارة إليه ممّا تضمّنته الآيات من سورة القصص ، جواب العقلاء الثّابتين على مبدئهم مع الملاينة والمسالمة وجميل اللفظ والردّ اللطيف.

و أما خبر ضِماد الأزدي فورد منه أنّ الرجل من قبيلة أزد شَنُوأة من قبائل اليمن وكان طبيبا يعالج عموم الأمراض. فيعالج بالأدوية ويعالج بالرقى. فقدم مكّة في الوقت الذي كانت فيه الدعوة للإسلام من الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد انتشر خبرها ومعارضوها قائمون على أشدّ ما يكون بمحاربتها. فتلقّى ضماد أقاويل السفهاء ممّا لقّنهم به رؤساؤهم المفرضون من أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم القائم بتلك الدعوة هو رجل مجنون أو مسحور ؟ ونحو ذلك ممّا يرمونه به! فأحبّ ضماد أن يجتمع بهذا الرجل الذي يقال عنه ما يقال فلعلّه يعالجه فيشفى على يده! واتّخذ ضماد ما أمكنه من وسائل متعبة ليتّصل بالرسول صلّى الله عليه وسلّم ، لما هو معلوم من العراقيل التي كانت فئة قريش تقيمها في طريق من يريد

الاتّصال به صلّى الله عليه وسلّم وذلك للخوف من انتشار الدعوة بقبول من يقبلها من الآفاقيين الذين يردون مكّة حتى تمكّن من الاجتماع به صلّى الله عليه وسلّم ، فورد أنه عندما تعرف إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكلّمه قال له: «يا محمد إنّي أرقي من هذه الريح (أي ريح الجنون) وإنّ الله يشفي على يدي من شاء فهل لك أن أرقيك ؟ » فما أجابه الرسول صلّى الله عليه وسلّم للردّ على هذا إلاّ بما قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الحمدَ لله نحمده ونستعينه. مَن يهده الله فلا مضلّ له. ومَن يضلل فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله. أمّا بعدُ...» وهنا قاطع ضماد الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولم يتركه ليواصل خطابه وقال له (في تلهّف وإصاخة سمع): «أعدْ عليّ كلماتك هؤلاء!» فأعادها عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ثلاث مرّات فقال ضماد: «لقد سمعت قول السحرة وقول الكهنة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء. ولقد بَلَغْنَ قاموس البحر!» ثمّ قال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «هاتِ يدك أبايعْك! (أي على الإسلام)» فبايعه. فقال له الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «و على قومك» قال: «و على قومي!» فالتزم أن يقوم بتبليغ الدعوة الإسلامية في قومه ويدعو إليها.

[للأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله تعليق على قصّة ضماد هذه أثبته في مجلّته " الشهاب " بالجزء الثالث من المجلّد الثالث عشر الصادر بتاريخ ربيع الأوّل من عام 1356 هجري ستة وخمسين وثلاثمائة وألف ، ومايه من سنة 1937 سبع وثلاثين وتسعمائة وألف ميلادية جعله تحت عنوان " رقية الله ". فمن فقرات التعليق المذكور: فقد عملت هذه الكلمات الجوامع (كلمات الرسول صلّى الله عليه وسلّم) عملها من نفس ضماد وأثرت أثرها في قلبه فبادر بقوله: «أعد عليّ كلماتك هؤلاء» فأعادها عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم فتجلّى لضماد من توحيد الله وتنزيهه والثقة به ، والاعتماد عليه والحمد له ما بهره منه المعنى الكبير

الكثير في اللفظ البيّن القليل وعرفه أنّ هذا لا يخرج من قلب مجنون وكيف لا؟ وهو لم يطرق سمعه قطّ مثلهنّ فيما سمع من كلام الناس فقال معلنا لإيمانه مبيّنا لدليله وبرهانه: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعتُ مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر (أي عمق البحر ولجّته).

و العبرة من هذه القصّة: جاء ضماد لا يحمل في قلبه على محمد صلّى الله عليه وسلّم حقدا ويضمر له بغضا، بل كان ينظر إليه بعين الشفقة نظر الطبيب إلى المريض فلمّا سمع الحقّ بلغ من قلبه ذلك المبلغ! فأعظم ما يحول بين الحقّ وبين الناس ما تنطوي عليه قلوبهم من بغض أو حقد على من دعاهم إليه (أي الحق).

و هكذا كان حال ضماد مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم جاء ليشفي فاستشفى هو شفي على يد الرسول من مرض الضلالة الجاهلية بنور الهداية الإسلامية، وحصل بذلك على السعادة جميعها. وقد كان ذلك جزاء له من الله تعالى على حسن نيته وجميل قصده فيما كان ينوي من النفع للرسول صلّى الله عليه وسلّم بطبّه عطفا إنسانيا ورحمة منه عن إخلاص لم تشبه شوائب الأغراض].

و أمّا وفاة أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد و وفاة عمّه صلّى الله عليه وسلّم أبي طالب فهما حادثان متقاربان في الزمن ليس بينهما طويل مدّة. واختلفت روايات الأخبار في أسبقية أحد الحادثين للآخر. فورد أنّه بعد الخروج من الشعب بنحو شهر واحد توفيّ أبو طالب ثمّ بعد ثلاثة أيّام فقط توفّيت خديجة، وقيل بعد نصف شهر. كما ورد أنّ وفاة خديجة سبقت وفاة أبي طالب بنحو شهرين وحدّد البعض المدّة بخمسة وثلاثين يوما (أي على أنّ وفاة خديجة هي السابقة).

و تبعا لاختلاف الروايات اختلف مؤلفو السيرة فأثبت البعض وفاة أبي طالب قبل خديجة، وأثبت البعض عكس ذلك. والمتحصّل من

الأخبار عن هذين الحادثين أنّ كلاًّ منهما كان له وقع شديد بالحزن والأسى على الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فجاء أنّ هذه السنة التي هي العاشرة من النبوة عرفت بعام الحزن. و الوارد عن وفاة أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها أنّها عمّرت نحوا من خمسة وستين عاما قضت منها مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم نحو خمسة وعشرين عاما ، وأنّه صلّى الله عليه وسلّم دخل عليها يوما في أثناء مرضها الذي ماتت فيه فقال لها: «أشعرتِ أنّ الله تعالى سيزوجني معك في الجنّة بمريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون ؟ ».

فقالت له: «اللهُ أخبركَ بهذا...؟ » قال: «نعم!» قالت: «بالرفاء[1] والبنين!». وقد تقدّم في حادث زواج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بخديجة من الدرس الثاني عشر إيراد هذا الحديث بالرواية التي أفادت أنّه صلّى الله عليه وسلّم أخبر خديجة بأنّ الله تعالى يزوّجه في الجنّة معها بثلاث نسوة هنّ أفضل نساء العالمين مريم ابنة عمران وآسية زوج فرعون وكلثم أخت موسى.

كما تقدّم إيراد الحديث الذي يفيد أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم دخل على أمّ المؤمنين خديجة وهي في مرضها الذي ماتت فيه فأبلغها على لسان جبريل عليه السلام بوحي من الله تعالى بأنّه سبحانه وتعالى يقرئها السلام منه سبحانه تحيّة تشريفية خاصة بها ويبشّرها بأنّ الله تعالى أعدّ لها بيتا في الجنّة من قصب[2] (أي من لؤلؤة مجوّفة) لا صخب فيه ولا نصب. (و قد علّق بعض العلماء على هذا بأنّه جزاء لها رضي الله عنها بما كان لها

---

(1) مادّة "رَفَأ" بالراء والفاء والهمز معناها ضمّ الشيء بعضه إلى بعض ليلتئم ويتكامل. والفعل منه مفتوح في الماضي والمضارع ومصدره "الرفء" بفتح فسكون. (و الجملة هنا "بالرفاء" بكسر الراء والبنين) أي الأولاد عبارة تهنئة قديمة عند العرب تتضمّن الدعاء لمن تزوّج بالموافقة والملاءمة والانسجام بين الزوجين وحصول النسل الصالح بينهما.

(2) القصب: بفتح القاف والصاد المهملة آخره باء موحّدة يطلق على أشياء كثيرة ومنها وهو المراد هنا الدّر (الذي هو من الأحجار الكريمة). و"الصخب " بفتح الصاد المهملة والخاء المعجمة معناه الصوت المرتفع بالصياح والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع. والنصب (كذلك) من حيث الضبط ومعناه التعب والإعياء وما في معنى هذا.

يد في بناء أوّل بيت في الإسلام). وقد أفادت بعض الروايات أنّ وفاة أمّ المؤمنين الكبرى خديجة رضي الله عنها كانت في شهر رمضان وأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم باشر بيده إلحادها في القبر ونزل به قبل إلحادها ودفنت بالحجون ، ولم تكن صلاة الجنازة مشروعة إذ ذاك لأنّ المعروف أنّها إنّما شرّعت بعد الهجرة ، وأوّل صلاة جنازة صلاّها الرسول صلّى الله عليه وسلّم إنّما كانت على صاحبه أسعد بن زرارة الأنصاري أوّل مقدمه صلّى الله عليه وسلّم المدينة في الهجرة. أمّا تغسيل الميت وتكفينه وتحنيطه[1] فقد كانت معمولا بها قبل الإسلام ، وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يوضع الميت بعد تجهيزه على سرير ويقوم من يذكر محاسنه وآثاره المرضية ويثني عليه أمام الحاضرين ثمّ يرحم عليه ثمّ يدفن.

هذا وقد أجمعت الروايات على أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وجَد[2] لموت خديجة وجْدا شديدا جدّا حتى خيف على حياته فلزم بيته وانقطع عن الخروج والاتصال بالناس لمدّة من الزمان.

و أمّا ما جاء في وفاة أبي طالب فقد أفادت الأخبار أنّه لمّا ثقل بالمرض أكثر الملأ من قريش المناهضون للدعوة الإسلامية التردّد على منزله والاتصال به (للغرض الأصلي الذي يهتمّون به في شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم). فمن جملة ما كلّموه به قولهم: «نخاف أن تموت فيكون بعدك شيء منّا نحوه (أي نحو الرسول صلّى الله عليه وسلّم ممّا يلحقون به من الأذى) ، فتعيّرنا العرب يقولون تركوه حتى مات عمّه الحامي له فتداولوه» ، وقالوا له أيضا وهم في مجلس معه ضَم الجميع من قادتهم

(1) تحنيط الميت: بمعنى يجعل له الحناط بفتح الحاء المهملة وتخفيف النون ، و"الحنوط" بفتح الحاء وتخفيف النون مضمومة. ويطلق على مطلق أنواع الطيب كما يطلق على العقاقير التي تمنع فساد الجلد واللحم فهو كالتصبير.

(2) وجد: مفتوح في الماضي مكسور في المضارع ومصدره "الوجْد" بفتح فسكون والمَوْجِدَة بفتح الميم وسكون الواو وكسر الجيم ويطلق على عدّة معان فإذا عدي باللام كما هنا فمعناه الحزن وإذا عدي بعلى فمعناه الغضب.

وأشرافهم: «يا أبا طالب قد علمت ما بيننا وبين ابن أخيك من الشأن فادْعُه ليحضر فنتفاوض في الأمر بين يديك وخُذْ لنا منه وخُذْ له منّا لكيفَّ عمّا هو قائم به من سبّ آلهتنا وتسفيه آرائنا وتفريق جمعنا...و...و...!» فأرسل أبو طالب إليه صلّى الله عليه وسلّم فحضر هذا المجلس فوجد القوم قد احتلّوا جميع بقاع المكان بحيث لم يبق منه إلاّ فرجة قرب أبي طالب فبادر أبو جهل فجلس بها خيفة أن يحتلّها الرسول صلّى الله عليه وسلّم فلم يبق له صلّى الله عليه وسلّم من مكان يجلس به إلاّ قرب باب البيت فجلس به. و ورد في رواية أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال للقوم: «خلّوا بيني وبين عمّي لأقرب منه» فامتنعوا من ذلك و ردُّوا عليه يقولون ما أنت بأقرب إليه منّا ولا أحقّ به منّا!!! وكلّم أبو طالب الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الأمر الذي بينه وبين قريش وقال له: «يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك وعشيرتك جاءوا يطلبون إليك أن تكون الحسنى بينك وبينهم فلا تتعرّض لهم بما يكرهون ولا يتعرّضون لك كذلك» ، وتكلّم في هذا المعنى بعدّة جمل. وأجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن هذا بما حاصله أنّه لا يريد منهم شيئا غير ما يدعوهم إليه من الهدى وإنقاذهم من الضلالة حتى يقول: «لا أريد منهم إلاّ كلمة واحدة...» فتدخل البعض منهم قيل هو أبو جهل فقال: «نحن نعطيه عشرا (أي عشر كلمات وأكثر لا كلمة واحدة) فما هي الكلمة ؟ » فقال صلّى الله عليه وسلّم: «هي أن تشهدوا أن لا إله إلاّ الله وتخلعوا ما تعبدون من دون الله من الأوثان» وهنا تعالى الضجيج من القوم وأخذوا يصفّقون إنكارا لما سمعوا يقولون: «أتجعل الآلهة إلها واحدا ؟ » وبعد أخذ و ردّ من الكلام في هذا المجلس ، تكلّم أبو طالب يخاطب الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «يا ابن أخي ما أراك سألتهم شحطا[1] (أي ما طلبت منهم شيئا بعيدا)».

---

(1) شحطا: بفتح الشين المعجمة وفتح الحاء المهملة وآخره طاء مهملة. يقال مكان شاحط بمعنى بعيد والفعل الماضي منه مكسور والمضارع مفتوح شَحِطَ يَشحَطُ.

و أفادت الأخبار أنّ أبا طالب لمّا تقارب من الموت (و هو كامل الوعي بإحتمال أن يكون في هذا المجلس نفسه أو في مجلس آخر لأنّ المجالس تعدّدت كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك) اختصّ بالكلام مع القوم فأخذ يوصي وينصح لهم بعموم ما يعود بالنفع على المجتمع فوجّه الخطاب إلى الحيّ من قريش فذكّرهم بما هم عليه من الامتياز بزيادة الشرف والفضل من بين الجنس العربي. وأوصى برعاية الكعبة المشرّفة لأنّ في ذلك تعظيما للخالق وقياما بحقّه وضمانا لرغد المعاش وحثّ على صلة الرحم وجمع كلمة الجماعة وإجابة الداعي وإطعام الجائع ونصرة المظلوم وحسن الجوار وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد. وقبح البغي والعقوق وكلّ ما يسيء إلى العواطف ويورث البغضاء إلى غير ذلك من أبواب مكارم الأخلاق ، ثمّ تطرّق إلى شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم فبالغ في الثناء عليه والإكبار لشأنه فقال إنّه مجمع ما قلته لكم من النصائح وخصّ ما يتعلّق بدعوة الإسلام التي يدعو إليها الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فجاء من نصّ مقاله: «و أوصيكم بمحمد خيرا فإنّه الأمين وقد جاءنا بأمر قَبِلَهُ الجَنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن». وأكّد الوصية بالإستجابة إلى ما يدعو إليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أن تطيعوه ترشدوا وأن تتّبعوه تسعدوا». وأبدى نظريته في ظهور الإسلام في المستقبل من الوقت قائلا: «و كأنّي أرى أمره قد ظهر وأنّ الأباعد والمستضعفين من الأقوام قد سارعوا إلى تلبية دعوته فملكوا الأمر دون الآخرين (من الأشراف والأقوياء) وسادوا عليهم فصار الأشراف اليوم أذنابا وصار الضعفة أربابا...» إلى آخر ما جاء في روايات أخبار هذا الحدث ممّا يدلّ على صدق فراسة أبي طالب ، وإصابة نظره صميم حقيقة الأمور في جانب الدّين الإسلامي واعتقاده القاطع بأحقيّة الدعوة المحمديّة وتصديقها وهو في آخر لحظة من حياته.

و الوارد في الأخبار أنّ في هذا الأثناء بدا على الرسول صلّى الله عليه

وسلّم الحرص الشديد على نطق أبي طالب بكلمة الشهادة بصيغتها المعهودة المشروعة في الإسلام (لا إله إلاّ الله) كما كان - في مقابل ذلك- الملأ من قريش وهم يستأثرون بمكان القرب من أبي طالب يعملون غاية الجهد في المشاغبة والحيلولة دون أبي طالب وما يدعوه إليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويصدّونه عن ذلك بكلّ ما أمكنهم ، مخافة أن تُؤْثَر الكلمة المعروفة عن أبي طالب بأنّه شهد بها عند موته فيكون ذلك وبالا عليهم.

فبينما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يخاطب أبا طالب بقوله: «يا عمّ قل لا إله إلاّ الله. كلمة أحاجّ لك بها عند الله»كان القوم من كبراء قريش يقحمون قولهم لهم: «أتترك يا أبا طالب ملّة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف ؟ أتموت على غير ما كان عليه أسلافك...؟ » إلى مثل ذلك ممّا كانوا يصدّونه به ويشاغبون عليه حتى لا يستجيب لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم (و هو في آخر معالجة سكرات الموت).

و قد جاء هنا العدد الكثير من الصيغ المتغايرة فيما كان يخاطب به الرسول صلّى الله عليه وسلّم أبا طالب ويدعوه به إلى النطق بالشهادة وكذلك ما كان يجيب به أبو طالب عن ذلك وأنّه لم يستجب للنطق بنصّ ما طلبه منه الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع أنّ هذه الصيغ الواردة حقّق فيها الباحثون من العلماء بأنّها من تصرّف الرواة فيما ينقلون حسبما فهموه من ملابسات الحال.

و لم يرد من الأخبار ما يفيد أنّ أبا طالب نطق بكلمة الشهادة كما دعاه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، إلاّ رواية واحدة أسندت إلى العباس بن عبد المطلب عمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يصحّحها من جهة السند أئمّة الحديث ، وتفيد هذه الرواية أنّ العباس رضي الله عنه (و هو في هذا العهد لازال على دين قومه لا يعرف إسلامه وإنّما عرف إسلامه من بعد) تفطّن لأبي طالب وهو في آخر رمق يحرّك شفتيه فأصغى إليه بأن وضع أذنه على فم أبي طالب فقال العباس للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «يا

محمد إنّ أخي قد قال الكلمة التي دعوته إلى النطق بها...». فأجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «إنّي لم أسمع!».

هذا وقد كانت مسألة الحكم بإسلام أبي طالب أو عدمه محلّ أخذ و ردّ و خلاف فيما بين من تكلّم في هذا الموضوع من علماء الأمّة مع الاتفاق بين الجميع على أنّه ممّن آمن واطمأنّ قلبه وانشرح صدره بالإسلام وأعرب عن ذلك بلسانه بجمهرة ما نقل عنه متواترا من أقواله فيما أنصح به نثرا وشعرا في قصائده التي أنشأها في المواقف التي كانت له مع أعداء الرسول صلّى الله عليه وسلّم يكافح وينافح بها دفاعا عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى آخر لحظة من حياته ، وحيث لم ينقل ممّا يعرف بالصحيح من السند ما يفيد أنّ أبا طالب أذعن واستجاب للصيغة المعهودة في الشهادة بالإسلام بل ورد خلاف ذلك وأنّ عدم إذعانه هذا سلبه صفة المسلم وجعله في عداد المشركين. و وردت - بناء على هذا- روايات إخبارية عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه ربّما يكون أبو طالب أخفّ أهل النار عذابا وكذا ما ورد أنّ الآية من سورة القصص من قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ نزلت في شأن أبي طالب (أي بعد موته غير مستجيب للدعوة التي حرص الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليه أن يستجيب لها). كما ورد أنّ الآية في النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى (وهي من سورة التوبة) بقوله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ إنّها هي أيضا في شأن أبي طالب إلى آخر ما جاء من هذه الروايات. فاستنادا إلى هذا أمسك الفريق الذي يبدو أنّه الجمهور من علماء الأمّة عن القول بإسلامه وفي مقابل هذا أقدم الفريق الذي استعمل

النظر وأخذ بالتحفّظ نحو الروايات الإخبارية التي تقبل المناقشة على القول بنجاة أبي طالب حتى كان من ألّف التأليف الخاص في هذه المسألة واستخلص النتيجة من البحث فيها بأنّ أبا طالب لا يصحّ الحكم عليه بأنّه ممّن جحد الإسلام وكفر بدعوته حتى يعدّ من المشركين فهو لذلك ناج، كما أنّ البعض من مؤلفي السيرة أفاد عندما تعرّض لهذه المسألة بأن مذهب القائلين بنجاة أبي طالب هو مذهب أهل التحقيق من العلماء من حيث أنّهم تعمّقوا في بحث القضيّة (إذ أنّ وضعية أبي طالب وضعية شاذّة وغامضة وهي بمكان من الأشكال البالغ التعقيد). ومن الوارد في وفاة أبي طالب أنّه عمّر نحوا من سبع وثمانين سنة وأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم اغتمّ لموت أبي طالب غمًّا شديدا. ثمّ كان من سوء النتائج لموت أبي طالب أن تكالب السفهاء من المشركين على الرسول صلّى الله عليه وسلّم ونالوا منه من الأذى ما لم يكونوا يطمعون فيه أيّام حياة أبي طالب. وممّا ورد من هذا أنّ بعض سفهاء قريش حثا التراب على رأس الرسول صلّى الله عليه وسلّم ودخل عليه الصلاة والسلام منزله وكان شيء من التراب على رأسه فأسرعت إحدى بناته صلّى الله عليه وسلّم تمسح عنه التراب وهي تبكي متأثرة للأمر فقال لها: «يا بنيّة لا تبكي فإنّ الله مانع أباكِ».

و لمّا تزايد الأذى عليه صلّى الله عليه وسلّم من قريش عقب موت أبي طالب ورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال مبديًا أسفه لموت أبي طالب ذات يوم (و طبعا أنّه قال هذا إثر حادثة ممّا يحدث له من حوادث الاعتداء عليه) قال: «يا عمّ ما أسرع ما وجدت فقدك!»و لمّا بلغ مسمع أبي لهب نصّ هذه المقالة أثارت فيه حميّة حاول أن يحاكي بها موقف أبي طالب في هذا الشأن (سيما وهو الذي كان بعد أبي طالب يبدو الزعيم في العشيرة)، فاتصل بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وقال له: «يا محمد امض لما أنت عليه كما كان أبو طالب حيّا لا يلحقك ضيم من أحد...!» وقام بمناصرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم والدفاع عنه مدّة من الزمن. فقد كان من

الحرث بن العيطلة أحد الخمسة المعروفين بالمستهزئين أن آذى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم ، فلمّا اطّلع أبو لهب على ذلك انتقم من الحرث وألحق به إهانة ارتاع لها الحرث فأخذ يصرخ في مجتمع قريش: «يا معشر قريش لقد صبأ أبو عتبة (يعني أبا لهب)» ومضى الملأ من قريش إلى أبي لهب يستفهمونه في الأمر مشفقين أن يكون قد أسلم فأجابهم بواقع الأمر وأنّه لم يفارق دينه وقال لهم: «و إنّما أمنع ابن أخي!» فبرّروا له صنيعه شاكرين له الموقف يقولون: «لقد أحسنت وصدقت و وصلت الرحم!» إنّما هم مع ذلك لم ينفكّوا يعملون لصدّه عن هذه الخطة بطريق الوسوسة والمكر والسعاية ، وكان من شياطينهم البارعين في هذا الصنيع أبو جهل وعقبة بن أبي معيط فإنّهما لم يزالا بأبي لهب يدسّان له ما يوغر صدره على الرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى نجحا في ذلك وانقلب الرجل على عقبيه وارتدّ إلى ما كان عليه من شدّة العداء والأذية للرسول صلّى الله عليه وسلّم. فورد أنّ الاثنين أو أحدهما وسوس لأبي لهب ذات يوم بأن قال له: «أشعرت يا أبا عتبة بأنّ محمّدًا يزعم أنّ مدخل عبد المطلب هو نار جهنّم؟ » ومن شدّة الاستياء الذي حصل لأبي لهب من هذا فقد ذهب إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم يستفسره في الأمر فقال له: «يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ » فكان جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم (حسبما يناسب المقام وتقتضيه طبيعة الأحوال الراهنة إذ ذلك) لم يقل له كما كان يحب أن يقول له: (هو في الجنّة أو الرحمة ونحو ذلك...) ممّا يعين ويثبّت أعداء الدعوة الإسلامية على مواقفهم ويزيد في تصلّبهم ويوهن الدعوة ويدخل ما يدخل من الفتنة والا--رتياب على المسلمين وعدل عن ذلك لوجوه من المصلحة ودفع المضرّة التي تلحق بالدعوة في ذلك الظرف لو كان الجواب صريحا بما يرضي أبا لهب مع أنّه من المعروف شرعا أنّ أهل الفترة غير معذّبين وعبد المطلب منهم). فكان جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم متّسما بالإجمال وفيه الإبهام والصرف عن صميم الهدف المقصود من

السؤال وجاء في صيغة جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا عدّة صيغ منها قوله صلّى الله عليه وسلّم (عبد المطلب مع قومه) ومنها (من مات يشرك بالله دخل النار) ومنها (من مات على ما كان يعبد عبد المطلب دخل النار)... ونحو هذا. بل ورد أنّ هذا الإبهام في جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم حمل أبا لهب بتحريش من قرنائه الذين دسّوا له هذه الدسيسة على التردّد على الرسول صلّى الله عليه وسلّم يستزيده الإيضاح في الجواب فلم ينتزع منه أي زيادة على ما تقدّم. وقد يفهم هنا أنّه ولو أجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم أبا لهب بما يرضيه في هذا الصدد لما قربه ذلك من الإسلام بل هو ممّا يزيده تصميما وتمسّكا بضلالته التي هو عليها وهذا هو الأمر الحاصل على كلّ حال سواء كان الجواب بما يرضيه أو بما يسخطه. فلم يبق حينئذ ما يبدو مصلحة لو كان الجواب بما يرضيه إلاّ مجرّد تماديه على القيام بمناصرة الرسول دفاعا عن شخصه عليه الصلاة والسلام ضدّ الأذى من قريش. ومعلوم أنّ مثل هذا المطلب ممّا يستغني عنه الرسول صلّى الله عليه وسلّم الاستغناء المطلق، وليس هو من شأنه عليه الصلاة والسلام إذ أنّ ما قام به أبو طالب من حمايته عليه الصلاة والسلام والذب عنه لم يكن إلاّ من تلقاء نفسه (أي أبي طالب) وعن بواعث اختصّ بها أبو طالب لا يملك منها أبو لهب مثقال ذرّة.

و لما كان أبو لهب ليس من طراز أبي طالب (و لا قلامة ظفر) ولم يقنعه ما سمع من جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن سؤاله، فقد عملت فيه وسوسة شياطين قريش المذكورة عملها فتخلّى عمّا كان التزم به من الدفاع عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحمايته من الأذى، بل ازداد عداء له وخذلانا واقترف هو نفسه مع زوجته حمّالة الحطب من الأذى للرسول صلّى الله عليه وسلّم ما هو معلوم ممّا تواترت به الأخبار، وهكذا كانت حميّة أبي لهب العابرة كاذبة لم تلبث أن تلاشت كما يقع من الفجر الكاذب.

و أمّا ما جاء في زواجه صلّى الله عليه وسلّم بأمّ المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها وعقده عقد الزوجية على أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، فتفيد الأخبار أنّ كلاّ من الحادثين كان الفضل في وقوعه والسعي في تحقيقه - ابتداء من أوّل مرّة- للصحابية خولة بنت حكيم * رضي الله عنها وهي زوج عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

فقد ورد أنها لمّا لاحظت على الرسول صلّى الله عليه وسلّم التأثر الشديد لموت أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها وكلّمته في هذا الخصوص قصد التخفيف عنه تقول: «يا رسول الله كأنّك وجدت على خديجة شديد الوجد؟ » وأجابها عليه الصلاة والسلام بأنّ ذلك واقع حقيقة وله أسبابه القويّة التأثير ففاتحته بالكلام في الزواج فقالت: «ألا تتزوّج ؟ » فقال: «من ؟ » قالت: «إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا» فطالبها صلّى الله عليه وسلّم بتعيين كلٍّ فقالت: «أمّا البكر فأحقّ عباد الله بك عائشة ابنة صاحبك أبي بكر. وأمّا الثيب فأحقّ الناس بك سودة بنت زمعة آمنت بك وصدّقت بما جئت به من الشرع وقد تأيّمت من زوجها». وكان هذا العرض من خولة لديه عليه الصلاة والسلام محلّ قبول منه فأسند إليها مهمة السفارة بينه وبين كلّ من الجهتين آل أبي بكر وآل زمعة. فقامت خولة رضي الله عنها بالمهمّة في الجهتين على أحسن ما يكون القيام وتمّ الأمر بزواجه صلّى الله عليه وسلّم بسودة وعقده على عائشة. وتذكر الأخبار أنّ ذلك كان في الأمد القريب من وفاة خديجة رضي الله عنها حتى قيل أنّه لم يتجاوز الشهر. فقد كانت وفاة خديجة رضي الله عنها في رمضان وكان عقد الزواج هذا في شوّال الموالي والمفهوم من سياق الأخبار أنّ العقد على سودة رضي الله عنها كان السابق ثمّ كان العقد على عائشة رضي الله عنها ، أمّا الدخول فقد كان بمكّة في هذا الأثناء بالنسبة لسودة ، وتأخّر بناؤه صلّى الله عليه وسلّم بعائشة إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة. وفيما يخصّ أمّ المؤمنين سودة رضي الله عنها ورد أنّها ممّن هاجر الهجرة الثانية إلى

الحبشة مع زوجها الذي هو ابن عمّها يدعى السكران وهو أخو سهيل بن عمرو العامري أحد نصحاء قريش وخطبائهم والذي كان سفيرا لقريش في صلح الحديبية ، وأسلم من بعد كما هو معلوم. ورجعت سودة وزوجها السكران رضي الله عنهما إلى مكّة فيمن رجع من مهاجري الهجرة الثانية إلى الحبشة ولم يلبث السكران أن توفي عنها رضي الله عنه ، وكان قد توقّع موته هذا لرؤىٰ منامية رأتها سودة ممّا يتعلّق بالرسول صلّى الله عليه وسلّم ولمّا قصّتها عليه قال لها: «إن صحّت رؤياك فسأموت ويتزوّجك الرسول صلّى الله عليه وسلّم» فكانت سودة رضي الله عنها الزوجة الثانية له صلّى الله عليه وسلّم بعد خديجة رضي الله عنها ، وعاشت إلى السنة الرابعة والخمسين للهجرة حيث توفّيت ودفنت بالبقيع رضي الله عنها (في عهد خلافة معاوية رضي الله عنه).

و قد جاء في صورة ما قامت به خولة من مهمّة السعي في زواج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بسودة أنّها لمّا ذهبت إلى المنزل بدأت بمقابلة سودة فكلّمتها على انفراد ، فتحكي أنّها قالت لها: «ماذا أدخل الله عليكِ من الخير والبركة!...» فسألتها سودة: «و ما ذاك ؟ » قالت: «رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخطبك[1] على نفسه» قالت: «وددت ذلك ، ولكن ها هو أبي بالمكان فاذهبي فاذكري له الأمر» وكان زمعة والد سودة شيخا كبيرا قد طعن في السنّ وهو على دين قومه من الجاهلية. فتحكي خولة أنّها لمّا دخلت على زمعة حيّته بتحيّة الجاهلية[2] ...إلخ.

---

(1) هكذا الاستعمال في فعل خطب إذا أريد به معنى طلب الزواج فإنّه يتعدّى بحرف (على) فيقال خطب فلان فلانة على نفسه ويتعدّى إلى المخطوب منه كالولي والفريق بحرف (إلى) فيقال خطب إليه ابنته أو خطب إليهم امرأة منهم على ابنه كما يقال أصهر إليهم أي تزوّج منهم وقد يضمن لفظ (ذكر) معنى خطب في هذا الموضوع إذا ما كان ذلك في الإبتداء ممّا يسمّى مراكنة وقد ورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا سمّت له خولة الجهتين قال لها: «اذكريهما عليّ».

(2) تحتوي حكاية خولة بنت حكيم رضي الله عنها هذه التي صوّرت فيها واقع ما سعت به لزواج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بسودة رضي الله عنها على فقرات هي نقط لا يحسن إهمالها بغير

فقال: «من هذه ؟ » فعرّفته بنفسها وأنّها خولة بنت حكيم قال: «وما شأنكِ ؟ » قالت: «أرسلني محمد بن عبد الله يخطب سودة!» قال: «كُفْءٌ كريم! فما تقول صاحبتُكِ ؟ (يعني سودة)...» قالت: «هي راضية!» قال: «ادعيها لي!» فأتت بها. فخاطب سودة يقول: «أيْ[1] بُنَيّة إنّ هذه تزعم أنّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبكِ على نفسه وهو كفء كريم فهل أنت راضية بذلك ؟ ...» فأجابت سودة رضي الله عنها بالإيجاب فقال لخولة: «ادعيه لي (يعني الرسول صلّى الله عليه وسلّم)» فمضت خولة إليه عليه الصلاة والسلام فأبلغته الأمر. فقدم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بنفسه وقابل زمعة وجرى بينهما صيغة عقد النكاح فزوّجه من سودة وقد أصدقها الرسول صلّى الله عليه وسلّم صداقا قدره أربعمائة درهم (فضّة). كما جاء هنا أيضا أنّ عبد الله بن زمعة* أخا سودة كان في هذا الأثناء الذي تمّت فيه عقدة الزوجيّة بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين أخته وكان متغيّبا فلمّا حضر وعلم بالأمر استاء لذلك أيّما استياء (وهو في الوقت لازال على دين قريش) فأخذ يحثي[2] التراب على رأسه تحسّرا شأن المصاب برزيّة غلب على أمره فيها (كما هي العادة بذلك عندهم). ولمّا جاء الظرف الذي هداه الله فيه للإسلام وأسلم رضي الله عنه

ملاحظة للتدّبر والاعتبار بما أرشدت إليه من أمثلة في باب معالجة الأمور بالحكمة وما للظروف المختلفة وملابسات الأحوال المتغايرة من أحكام تخصها لا سبيل للخروج عنها وما تفرضه الأحوال الراهنة من اختصاصات لا مندوحة عن الأخذ بها ، وبالاختصار مراعاة المناسبة لكلّ مقام وما يقتضيه من غير ما تفريط ولا تخليط. أثرت خولة هنا أن تحيّي زمعة بتحيّة الجاهلية وهي مسلمة. وذكرت له الرسول صلّى الله عليه وسلّم باسمه الشخصي (محمد بن عبد الله) وهي مؤمنة بأنّه رسول الله. ويعمد الرسول إلى القدوم بنفسه للكلام مع زمعة حتى يتمّ الوفاق بينهما في هذا الشأن دون ما تثار مسألة الدعوة التي هي في الوقت هجيراه عليه الصلاة والسلام وشأنه الذي يتملّكه بكليّته.

(1) أيّ: بفتح الهمزة وإسكان الياء المثناة التحتية ، حرف نداء للقريب.

(2) حثى يحثي حثيا: بوزن رمىٰ بمعنى صبّ التراب. يأتي يائيّا كما هنا ويأتي واويا "حثا يَحْثُوا حَثْوا" بوزن عَفَا...

كان يبدي التحسّر أيضا لما كان صدر منه من حثي التراب هذا ويقول: «لقد بلغ بي السفه أيّ مبلغ يوم كنت أحثي التراب على رأسي إذ تزوّج الرسول صلّى الله عليه وسلّم سودة».

و أمّا ما يخصّ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها فمن المعلوم أنّها نشأت في بيت إسلام بيت أبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي يعتبر ثاني بيت في الإسلام بعد بيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فعموم أعضاء بيت أبي بكر رضي الله عنه كانوا مسلمين وكانت عائشة رضي الله عنها حين عقد زواجها من الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا تزال في عهد الصبا لم تبلغ الحلم بعد. وقد جاء هنا من روايات الأخبار ما يفيد أنّه صلّى الله عليه وسلّم تقدّم له قبل هذا الأوان أن رأى في المنام (و ربما رأى ذلك مكرّرا عدّة مرّات) صورة عائشة رضي الله عنها مرسومة على ورقة من ورق الجنّة يريه إيّاها الملكُ وهو يقول له هذه زوجك! ولما يعلمه عليه الصلاة والسلام من حال عائشة في ذلك الوقت من صغر السنّ الذي لا يصلح معه الزواج بمعناه الكامل فقد كان عليه السلام يكتم في نفسه شأن هذه الرءيا ولم يتحدّث به قطّ حتى كان ما كان من حديث خولة رضي الله عنها، وألهمها الله تعالى أن تذكر أوّل ما تذكر من حديث تزوج الرسول صلّى الله عليه وسلّم عائشة أوّلا ثمّ تذكر سودة كما تقدّم بسطه وقد كان عليه الصلاة والسلام إذ يكتم حديث رؤياه تلك يفوّض الأمر لله فيقول: «إن كان هذا من الله فسيمضيه» و لعلّ من هذا يفهم بعض الحكم في عمده صلّى الله عليه وسلّم إلى المضاء في عقد الزواجين معًا في آن واحد.

فبالنظر إلى سودة يبدو الأمر واضحا لتوفّر الدواعي المقتضية للإنجاز مع تنوّعها أيضا.

و بالنظر لعائشة فلتصديق الرءيا التي تعتبر وحيًا ولأنه الأجل المقدر من الله عزّ وجلّ لإمضاء الأمر الذي كان يتوقعه الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الرؤيا. فالمأخوذ حينئذ من حادث زواج الرسول صلّى الله عليه

وسلّم بعائشة في هذا العهد أنّه إنّما كان بوحي من الله سبحانه فهو بمثابة أمر له صلّى الله عليه وسلّم بذلك. فعقد عليها وهي في سنّ الصبا استجابة لهذا الأمر ليتحقّق مجرّد المعنى من الزواج. ولذلك تأخّر البناء بها الذي تحصل به وظائف الزوجية العادية إلى الوقت المناسب.

و الوارد من الأخبار الذي لا يكاد يعرف خلافه أنّ العقد على عائشة رضي الله عنها كان في شهر شوّال من السنة العاشرة للنبوّة وأنّ سنّها إذ ذاك كان سبع[1] سنوات إلاّ ما ذكر من بعض الروايات أنّ سنّها كان ست سنوات وأنّ بناءه صلّى الله عليه وسلّم بها إنّما كان بالمدينة بعد الهجرة بسنة وستة أشهر أي كان البناء بها في شهر شوّال أيضا من السنة الثانية للهجرة وهي السنة الخامسة عشرة من النبوّة. ويعرف من هذا أنّ البناء تأخّر عن العقد بخمس سنوات كاملة. وأنّ سنّ عائشة رضي الله عنها حين البناء بها كان اثنتي عشرة سنة كاملة أو تزيد شيئًا أو تنقص شيئًا. ويتّضح من هذا أنّ ما يقال في معرض الكلام عن ترجمة عائشة رضي الله عنها من طرف البعض وأنّ سنّها حين عقد عليها الرسول صلّى الله عليه وسلّم الزوجية كان سبع سنوات وبنى بها وهي ابنة تسع سنوات هو إطلاق من القول لم يراع فيه التحرّي اللاّزم ولا يصحّ بأيّ وجه من وجوه الاحتمال. والمعروف من الأخبار أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يتزوّج فيمن تزوّج من زوجاته رضي الله عنهنّ بِكرًا إلاّ عائشة رضي الله عنها. وما امتازت به من الفضل من بين أمّهات المؤمنين أمر معلوم كسائر الحقائق التي لا تقبل المناقشة ولا تحتاج إلى إقامة دليل. وإذا ما دعا الحال إلى الاختصار في ذكر ما لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الفضل بغضّ النظر عن متعدّد نواحي هذا الفضل وتجاوزها للاقتصار على البعض منها كباب العلم

---

(1) و يطابق هذا ما أثبته المؤرخون من كون مولد عائشة رضي الله عنها في السنة الثالثة عشرة من القرن السابع الميلادي وهم يثبتون أنّ ظهور النبوّة المحمديّة كان أثناء السنة العاشرة من القرن السابع للميلاد المسيحي.

والمعرفة مثلا فأقلّ ما يقال عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من هذه الحيثية أنّها فرد من عظماء أئمّة العلم في هذه الأمّة الإسلامية ونابغة من بين أفذاذ الفكر والعرفان الذين تخرّجوا من المدرسة المحمديّة ، بفضل ما كان لها رضي الله عنها من مزيد صلة بالرسول صلّى الله عليه وسلّم مع ما حباها الله تعالى به من ذكاء طبيعي بالغ الذروة في الحدّة إلى مواهب عقليّة ونفسية وخُلُقِيّة امتازت بها ممّا جعلها مثالا للكمال وشخصيّة لها ما لها من العظمة والتقدير لا في المجتمع النسوي خاصّة بل في المجتمع الإسلامي بعموم رجاله ونسائه ، و ربما يفهم من هذا بعض السرّ فيما كان لها من مكانة عند الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمزيد القرب والتعلّق بها. ويكفي من الأمثلة لهذا ما تحقّق من الأخبار عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه لمّا ثقل بالمرض الذي توفي فيه جمع زوجاته أمّهات المؤمنين فرغب منهن أن يأذنّ له بالمكث ببيت عائشة رضي الله عنهنّ جميعا. فأجبنه إلى ذلك (طبعا) فلازم بيت عائشة إلى أن اختمت أنفاسه الشريفة عليه الصلاة والسلام بين يدي أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وفي حجرها كما دفن صلّى الله عليه وسلّم في حجرتها. وتفيد الأخبار أنّ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عاشت إلى السنة السابعة والخمسين من الهجرة أو الثامنة والخمسين على قول آخر. فتوفّيت ودفنت بالبقيع كباقي رفيقاتها أمّهات المؤمنين (على الجملة) وذلك في عهد خلافة معاوية رضي الله عنه. ويلاحظ أنّ في هذا العقد من سني الهجرة تتابعت وفيات أمّهات المؤمنين حتى كان آخرها وفاة أمّ سلمة رضوان الله على الجميع. وجاء في صورة ما قامت به خولة بنت حكيم رضي الله عنها من السعي في خطبة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لعائشة رضي الله عنها أنّها لمّا قدمت منزل أبي بكر قابلت به أمّ رومان وهو اسم والدة عائشة رضي الله عنها فقالت لها: «ماذا أدخل الله تعالى عليكم من الخير والبركة. قد أرسلني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخطب عليه عائشة!» فقالت لها أم رومان انتظري أبا بكر. فلمّا أتى أبو بكر

كلّمته خولة كذلك: «ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة لقد أرسلني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخطب عليه عائشة!» فقال أبو بكر: «و هل تصلح له! (بمعنى تحلُّ له) إنّما هي ابنة أخيه ؟ » (على معنى أنّ أبا بكر لم يكن ليجهل علم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بحرمة زواج ابنة الأخ. وإنّما يبدي ما هو عليه من اعتقاد يكنّه في قرارة نفسه بأخوّة كاملة بينه وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم فلعلّ كمال هذه الأخوّة يؤثر كالأخوّة النسبية الطبيعية فيتحرّم زواج بنت الأخ من أخيه). فرجعت خولة إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأبلغته مقال أبي بكر هذا فأجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم بما قال لخولة: «ارجعي إلى أبي بكر فقولي: أنا أخوه وهو أخي في الإسلام وابنته تصلح (أي تحلّ) لي!» ورجعت خولة إلى منزل أبي بكر فوجدت أمّ رومان وأبلغتها جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن مقال أبي بكر وهنا أبدت أمّ رومان أمرا آخر ممّا رأته كالعارض يعترض هذا المطلب فقالت لخولة: «إنّه قد سبق للمطعم بن عدي أن ذكر عائشة على ابنه جبير وحصل على وعد من أبي بكر بإجابته إلى ذلك. و والله ما رأيته (تعني أبا بكر) وعد وعدا فأخلفه قطّ!».

يفهم من قرينة الحال هنا أنّ أمّ رومان رضي الله عنها كانت تبدي ما تبدي من هذا الأمر للحيرة التي أصابتها والإشفاق من أن يكون الوعد الصادر من أبي بكر ممّا تفوت به فرصة زواج عائشة من الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، (ومن المعلوم أنّ بيت المطعم بن عديّ بيت شرك ، فقد مات المطعم على دين قومه وكان له مواقف محمودة نحو الإسلام وهو أحد القائمين في نقض صحيفة المقاطعة كما تقدّم بسطه آنفا ، أمّا ابنه جبير فقد أسلم رضي الله عنه بعد هذا العهد فقيل أنه أسلم فيما بين صلح الحديبية وفتح مكّة ، وقيل بل في عهد الفتح). وعندما قدم أبو بكر إلى المنزل وأبلغته خولة جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم في مسألة الأخوّة التي أغمض أمرها على أبي بكر وأنّها أخوّة الإسلام التي تجمع حتى بين

الزوجة وزوجها ولا تؤثّر بتحريم التناكح. فتح الكلام بين أبي بكر وزوجته أمّ رومان رضي الله عنهما فيما يخصّ مسألة الوعد المذكور واشتدّ اهتمام أبي بكر بالقضية وحرصه على فصلها سريعا بما يمكن أن تكون عليه من الوجوه. فعمد إلى التوجه إلى منزل المطعم لتحقيق هذا الغرض. و ورد في صورة ما جرى بين الجانبين من تداول الحديث في هذا الشأن أن أبا بكر لما حلّ بمنزل المطعم استقبله المطعم مع زوجته التي هي أمّ جبير وبدأ أبو بكر الكلام فوجّه الخطاب إلى المطعم فقال له: «ما تقول في شأن هذه الجارية التي ذكرتها على ابنك ؟ » فأحال المطعم الجواب على زوجته وقال لها: «ما تقولين يا هذه في هذا الأمر ؟ » فأقبلت المرأة على أبي بكر فقالت له: «لعلّنا إن أنكحنا هذا الفتى إليكم تصبيه وتدخله في دينك الذي أنت عليه...!» ولم يجبها أبو بكر عن هذا ، وإنّما توجّه بالخطاب إلى المطعم فقال له: «و ماذا تقول أنت ؟ » وسلك المطعم هنا طريق التملّص من القضيّة كأنّه على حياد فيها لا يريد أن يتناولها مباشرة تاركا هذه المباشرة لزوجته ، فقال لأبي بكر: « إنّك لتسمع ما تقول (أي زوجته)»[1]

و عند هذا شعر أبو بكر رضي الله عنه بأنّه قد تخلّص تمامًا من تبعة الوعد ، فلم يكن منه إلاّ أن غادر المنزل وهو مرتاح الضمير بما كفاه الله تعالى من إزاحة هذا العبء عن كاهله. فرجع من فوره إلى منزله حيث كانت خولة تنتظره فقال لها: «أدعي لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»

---

[1] يفهم هنا أنّ جانب المطعم في هذه المراكنة لخطبة عائشة على ابنه هو الجانب الذي كان منه التراجع بسبب إتمام مسألة الدين في القضية ، وكان منهم الإحجام عن إبداء موقفهم هذا حتى قام أبو بكر رضي الله عنه بالضغط عليهم لينهي تعليق القضية ويخرجها من الغموض ، فكان ما كان من جواب زوجة المطعم جواب المتعثّر في المسئولية ولم يسع المطعم إلاّ السكوت ومع هذا فقد كان هذا ما يبغيه أبو بكر رضي الله عنه ولا شكّ. فقد هيّأ الله له الظروف المواتية على كلّ حال وفاز ظاهرا وباطنا ببركة ما هو عليه من إخلاص للمبادي والقيم المعتبرة فلا يغفل من الملاحظة أنّ هذا الوعد الذي أحرجه إنّما كان لمشرك والمطلب الذي اعترض هذا الوعد كان مطلب رسول الله. أفلا يكون من هذا عبرة في مقدار ما للوعد من خطر ؟ ...

وأبلغت خولة الرسول صلّى الله عليه وسلّم الرسالة فقدم عليه الصلاة والسلام إلى منزل أبي بكر حيث جرى هناك بينهما معهود الصيغة في عقد الزواج وتمّ بذلك عقد زواج الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأمّ المؤمنين عائشة الصدّيقة رضي الله عنها.

الدرس 32

خروج الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى مدينة الطائف

تفيد الأخبار أنّ قريشا نالت من الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالأذى منالا لم يتقدّم مثله وذلك بعد موت أبي طالب الذي كان ترسا لدفع هذا الأذى. وقد تقدّم عند حكاية موت أبي طالب أنّ أبا لهب قام أيّاما بالدفاع عنه صلّى الله عليه وسلّم محاكيا صنيع أبي طالب ولكنّه لم يداوم على ذلك بل زاد في تقوية هذا الأذى من طرفه هو نفسه ومن معه كزوجته حمّالة الحطب. والوارد في خروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف أنه كان في ذلك الظرف المتجهم بالنسبة إليه صلّى الله عليه وسلّم أي عقب موت أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها وموت عمّه أبي طالب ، وقد اشتدّ الأذى من قريش عليه صلّى الله عليه وسلّم. قيل كان الخروج في شهر شوّال سنة عشر من النبوّة وأثبت البعض أنّه كان يرافقه في هذا السفر مولاه زيد بن حارثة ، بينما يفيد البعض أنّه صلّى الله عليه وسلّم خرج منفردا لم يرافقه أحد. وتجمع الأخبار على أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان أثناء هذا الخروج في حالة كرب[1] شديدة وتشويش خاطر متزايد ، وكان الهدف من خروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف * تبليغ الدعوة - أساسا - ثمّ ما طمع فيه من مناصرة قوم آخرين له على قومه الذين أغرقوا في محاربة دعوته وصبّ أذاهم عليه.

تفيد الأخبار أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا وصل الطائف عمد إلى زعمائها وكبرائها يبلّغهم الدعوة ، وجاء من تعيين هؤلاء الزعماء الذين هم من قبيلة ثقيف السائد صيتها على الطائف اسم عبد ياليل كما يسمّى

(1) جاء في تعليق بعض من ألّف في السيرة على هذا الموضوع بأنّ مدينة "الطائف" لم تزل من يوم خروج الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا إليها متنفّس المكروب ومحلّ راحة واستجمام العليل بالنسبة لمن كان بمكّة وخرج إلى الطائف ، ميزة جعلها الله تعالى لهذا المكان من إحدى بركات رسوله عليه الصلاة والسلام.

بكنانة واسم مسعود أو عبد كلال و اسم حبيب والكلّ إخوة أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفي [1]. واتّصل الرسول صلّى الله عليه وسلّم بهؤلاء القوم في مجالسهم فكلّمهم بما دعاهم به إلى الهدى والإسلام بما هو شأنه عليه الصلاة والسلام من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. والمعروف من أخبار هذه المحاولة التي حاولها الرسول صلّى الله عليه وسلّم نحو قبيلة ثقيف في الطائف، يفيد أنّ هؤلاء القوم كانوا أشدّ بعدا عن الاستجابة للدعوة وأكثر قبحا في الردّ من قريش، وكان موقف الإنكار الذي اتّخذوه تجاه الدعوة ينطبع بطابع العنف البشع الصادر عن سفالة وسفاهة زائدتين إلى حدّ بعيد عمّا كان من قريش، فكان بهذا بيان التفاوت البعيد في المميزات الأدبية بين هاتين القبيلتين، كما يؤخذ من هذا مثال من الشواهد على صدق ما شاع وذاع وسلّم به العموم من تفوق قبيلة قريش على سائر قبائل العرب في باب الكمال والفضائل.

و قد جاء من حكاية ما أجاب به زعماء ثقيف عندما أبلغهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم دعوته إلى الإسلام فقال واحد منهم: «أنا أمرط [2] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!...» وقال آخر: «ما وجد الله أحدا يرسله غيرك...؟ !» وقال آخر: «أنا لا أردّ عليك كلاما أبدا. فإن كنت نبيّا كما تزعم فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك وإن كنت كاذبا فما يحسن بي أن أكلّمك». إلى غير ذلك من هذا الطراز من مقالهم البالغ درجة قاصية في الجفاء والسفالة. وعند ذلك قام الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن مجلسهم آيسا من جهتهم كامل الإياس. وجاء في الأخبار أنه صلّى الله عليه وسلّم

---

(1) أفاد مؤلّفو السيرة بأنّ هؤلاء الإخوة الثلاثة لم يعرف عن واحد منهم بأنّه أسلم بعد هذا العهد. إلاّ ما ذكر عن ثالثهم المسمى حبيبا فقد بحث في إسلامه مع تعقّب هذا الخبر الذي يذكر إسلامه.

(2) أمرط: يقول أنّه يخلع عن الكعبة كساءها على معنى التمرّد والاحتجاج ضدّ الرسالة... جاء في هذه المادّة أنّ الفعل منها مفتوح في الماضي مضموم في المضارع ومصدره "المرط" بفتح فسكون ومعناه نتف ما هو كالريش أو الشعر وله معان منها الجمع يقال مرط الشيء بمعنى جمعه ومفهوم أنّ المراد هنا يرجع إلى المعنى الأوّل.

عندما قام يفارقهم طلب إليهم أن يكتموا الأمر فلا يذاع عن هذا الحادث أيّ نبإ، بل يبقى سرّا يخصّهم دون غيرهم، ولكنّ القوم بلغ بهم السفه إلى ما هو أبعد من ردّ الفعل المعاكس لهذا الطلب فأمعنوا في التشهير بهذا الحادث وأخرجوه إلى الغوغاء[1] السفلة منهم وأثاروها ضجّة عامّة في المكان ضدّه صلّى الله عليه وسلّم. فكانوا يصيحون به: «أُخرج من بلدنا» وأغروا به سفهاءهم (و كلّهم سفهاء) فكانوا يشاغبونه صلّى الله عليه وسلّم في الطريق العام ويهتفون بعبارات الأذى والحطّ عليه ويرمونه رشقا بالحجارة وغيرها. وتناقلت روايات أخبار هذا الحادث ما يعدّ أبشع صورة ممّا يقع في مثل هذه الأحداث. فجاء من ذلك أنّ القوم عمدوا إلى جعل صفيّن منهم على جانبي الطريق الذي كان الرسول سالكه حال مفارقته لهم خارجا من مكانهم والكلّ يصيحون بالشتم والسبّ ويرمونه بالحجارة فلا يرفع صلّى الله عليه وسلّم في مشيه رجلا ويضع أخرى إلاّ ورضخوهما[2] بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدم، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أزلقته[3] الحجارة يجلس في بعض المرّات دفعا لشدّة الألم، فإذا رأوه جلس عمدوا إلى إقامته بأن يأخذوا بعضديه فيوقفوه فيمضي صلّى الله عليه وسلّم ماشيا فيعودون إلى رميه بالحجارة ضاحكين شامتين، وهكذا حتى خلص عليه الصلاة والسلام إلى خارج المنطقة التي كان بها هؤلاء الأنذال وبعد عنهم. وقد

---

(1) الغوغاء: بفتح الغين المعجمة اسم لجموع الجراد ونحوه إذا تهيّأ للطيران كما يطلق أيضا على الجمع من الناس فيه اختلاط. ويطلق أيضا على الجمع من السفلة المتسارعين للشرّ (كما يقال الفلتاء).

(2) رضخ: بالضاد المعجمة والخاء المعجمة مفتوح في الماضي ويفتح ويكسر في المضارع ومصدره "الرضخ" بفتح فسكون أشهر معانيه في كسر الشيء ودقّه ويستعمل في الرمي بالحجارة ونحوها بصيغة المفاعلة، فيقال تراضخوا بالحجارة وهو كما يكون بالخاء المعجمة يكون أيضا بالحاء المهملة سواء بسواء غير أنّ الفعل المضارع بالمهملة يأتي بالفتح فقط.

(3) الوارد في كتب السيرة تفسير لفظ أزلقته بمعنى آلمته فهو عدول إلى المعنى والأثر من الفعل. والأصل في المادة إنّما هو عدم رسوخ القدم فيما تقع عليه بالانحراف عنه، ومنه "الإزلاق" بخروج الجنين من بطن أمّه قبل تمام الخلقة وإزلاق الطعام من البطن في خروجه سريعا قبل المدّة المعتادة لمكثه. وهذا على أنّ المادّة بالزاي أصلا وقد رسمت بالذال المعجمة أزلقته بالزاي و هو الوارد في كتب السيرة و أوردت المادة في بعض الكتب بالذال المعجمة هكذا إذ لقته. و المعنى في الكل متقارب.

أفادت بعض الروايات أنّ مولاه صلّى الله عليه وسلّم زيد[1] بن حارثة الذي كان يرافقه في هذه السفرة كان قد تعرّض هو أيضا لمثل الأذى الذي أصاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وكان يقيه بنفسه وقع الحجارة وما يرمون به ممّا يحصل به الأذى للرسول صلّى الله عليه وسلّم فقد شجّ[2] رأسه شجاجا بليغا. ومحصل ما جاء من التعليق على هذا الحدث ممّا وقع له صلّى الله عليه وسلّم يفيد أن ما أصيب به عليه الصلاة والسلام من أذى في خروجه إلى الطائف كان على جانب عظيم من الشدّة لم يعرف له مثيل على الإطلاق ،[3] ويشهد لهذا ما سيأتي إيراده من روايات الحديث الذي أجاب به الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن سؤال أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها الذي قالت له فيه: «هل أتى عليك يوم أشدّ من أُحُد؟ » ويستفاد ممّا جاء من التعليق على حادث خروج الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف وما شاغبه به أهل هذه البلدة أنّ القوم المشاغبين تابعوه صلّى الله عليه وسلّم بالأذى كما تقدّم ذكره إلى أن خرج من عمران البلدة والتجأ إلى بستان حولها فجلس يستظلّ ويرتاح تحت ظل حَبَلَة[4] (و هي شجرة العنب)، وكان ذلك البستان للأخوين عتبة وشيبة ابني ربيعة المعروفين بأنهما من زعماء قبيلة بني عبد مناف القرشية. وعند ذلك كفّ عنه صلّى الله عليه وسلّم أولئك الجمع المشاغبون وتراجعوا أعقابهم ، ويفهم أنهم ما كفوا[5]

---

(1) يلاحظ هنا أنّ هذا يتمشّى على الرواية التي تخبر أنّ زيدا كان معه صلّى الله عليه وسلّم لا على مقابلها.

(2) و يفهم من كلام البعض أنّ الذي شجّ رأسه هو زيد بن حارثة و"الشجاج" الجرح الواقع بالرأس خاصة. وقد تقدّم بعض تعريف للفظه في الدرس الثامن عشر.

(3) جاء في عبارة بعض من كتب في هذا الموضع قوله: «و هكذا كانت حاله صلّى الله عليه وسلّم بالطائف الجوع في بطنه والسبّ في أذنيه والحجارة في رجليه وهو لا يشعر بناصر غير الله ولا يرى ذنبا إلاّ دعوته إلى الله» (من عبارة المرحوم الأستاذ مبارك الميلي ربّما؟).

(4) الحَبَلَة:بفتح الحاء المهملة و الباء الموحدة السفلية مفتوحة أيضا.

(5) قد يلاحظ من يلاحظ هنا على صنيع ثقيف هذا نحوه صلّى الله عليه وسلّم أنهم لم يكونوا يتحرجون من محاولة الفتك به بالقتل أيضا لولا خشية ردّ الفعل من قبيلته عليه الصلاة والسلام كما هو الشأن المعروف لدى القبائل بصرف النظر عن الإعتبارات الأخرى فإن قبيلته تثأر له ولو هي معادية له في العقيدة.

عنه إلاّ مراعاة لجانب مالكي البستان الذين هم من أهل مكة بل ومن القبيلة التي ينتمي إليها الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وهنا يرد ذكر حادث مما تعلق بخروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف وهو قصة اجتماعه عليه الصلاة والسلام بأحد علماء أهل الكتاب ممن رمى بهم القدر إلى الإقامة بأرض العرب. وحاصل ما ورد في هذا الخبر أنه صلّى الله عليه وسلّم لما تخلص من غوغاء ثقيف عندما آوى إلى بستان عتبة وشيبة* ابني ربيعة الكائن بضواحي مدينة الطائف وجد متنفسا من النصب الذي أصابه فجلس تحت الحبلة للاستراحة. وكان في نفس الوقت كلٌّ من مالكي البستان المذكورين حاضرا بالمكان وقد شاهدا ما كان من المشاغبين له صلّى الله عليه وسلّم كما أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا تفطن لوجود الرجلين المذكورين بالمكان لم يزده ذلك إلاّ تضايقا وكره الأمر من حيث أن الرجلين كانا ممن يناصبه العداء بمكة (و لكن هي من إحدى معاكسات الظرف إذا ما تجهم)... جاء أن الأخوين عتبة وشيبة رقّتْ عاطفتهما له صلّى الله عليه وسلّم بعض الشيء لمّا شاهدا حالته تلك. فأمرا غلاما لهما كان يعمل لهما بالبستان المذكور بأن يأخذ قطفًا من العنب فيضعه في طبق ويقدمه له صلّى الله عليه وسلّم إطعاما له. قالا للغلام: «يا عداس خذ قطفا[1] من العنب فضعه بطبق[2] وقدمه لذلك الرجل الجالس تحت الحبلة وقل له ليأكل». وتفرغ عتبة وشيبة لمراقبة ما يحدث من حال الرسول صلّى الله عليه وسلّم. أفادت الأخبار أن غلام عتبة وشيبة هذا كان من أصل رومي من إقليم الموصل وله علم مما كان يوسم به إذ ذاك أفراد من أتباع الديانة الموسوية والمسيحية وقع بيد عتبة وشيبة

---

(1) القِطف من العنب: بمعنى العنقود أول ما يجنى من الشجرة وهو بكسر القاف وإسكان الطاء المهملة. يجمع على قطوف وقطاف. والفعل من هذه المادة مفتوح الماضي مكسور المضارع والمصدر القطف بفتح فسكون ومعناه أخذ ثمر الشجرة المسمى بالجنا وكذلك يطلق الفعل على أخذ الشيء بسرعة.

(2) الطبق: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة يجمع على أطباق وهو من أدوات الأكل كالأواني يوضع عليه المأكول. وهو المعروف في الدارجة (بالصينية) ويلاحظ هنا في صنيع ابني شيبة التزام اللياقة في تقديم الهدية.

بطريق الاسترقاق الذي كان واقعا معروفا في ذلك العصر، فكان يعمل لهما في فلاحة الأرض التي لهما بالطائف واشتهر عن اسم هذا الرجل لفظ (عداس). ولما أنجز الغلام العملية وقدم للرسول صلّى الله عليه وسلّم الطبق بالعنب وكلّمه كما أوصاه به سيداه لم يكن منه عليه الصلاة والسلام إلاّ قبول العرض، فسمى الله قائلا " باسم الله " وأخذ يتناول من العنب.

و هنا كانت دهشة عداس بالغة الشدّة فأخذ يمعن النظر في وجه الرسول صلّى الله عليه وسلّم(و يفهم من هذا ضرورة أنّ الغلام كان يحذق اللسان العربي) لم يتمالك عداس أن يفتح الخطاب معه صلّى الله عليه وسلّم وهو في غمرة التعجّب لما سمع ولاحظ من حال الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فقال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أحد من أهل هذه الأرض...» (في ضمن هذه العبارة التساؤل عن شأنه عليه الصلاة والسلام)، وبأسلوبه اللطيف الجذّاب صلّى الله عليه وسلّم ردّ الجواب وفتح المخاطبة مع عداس فقال له: «و من أي البلاد أنت وما دينك ؟ ... يا عداس!» فأجاب: «أنا نصرانيّ الدّين ومن أهل بلدة نِينُوىٰ على شاطئ دجلة بإقليم الموصل». و ردّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم على هذا فقال: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى[1]!» و زادت دهشة عداس عند هذا الخطاب منه صلّى الله عليه وسلّم فقال له عداس: «وما يدريك ما يونس بن متّىٰ ؟ فوالله ما خرجتُ من تلك القرية وفيها عشرة يعرفون ما يونس بن متّىٰ! (و في لفظ آخر من الرواية لقد خرجت من تلك

(1) يونس عليه الصلاة والسلام: جاء في القرآن الكريم التصريح بأنّه رسول الله وذكر في غير ما آية باسم يونس وباسم ذي النون واسم صاحب الحوت وأنّه اختصّ من بين الرسل بإيمان جميع القوم الذين أرسل إليهم وقد آمنوا عندما رأوا أمارات العذاب كما جاء ذلك في الأخبار.
قيل إنّ اسم متّى بفتح الميم بعدها تاء مثناة فوقية مشدّدة بالفتح والمدّ هو اسم أبيه على القول المشهور ومقابله القول بأنّه اسم أمّه حتى نقل عن بعض علماء الأخبار من السلف أن جميع الرسل والأنبياء عرفوا بأسماء آبائهم إلاّ ما كان من عيسى ابن مريم ويونس ابن متّى.

القرية وما فيها إلاّ القليل ممن يعرف يونس بن متّى!) فمن أين عرفت يونس بن متّى وأنت أُمِّيّ في أمّة أميّة ؟ ».

"ذلك أخي رسول الله وأنا رسول الله والله أخبرني خبره...!" هكذا أجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم على سؤال عداس التعجبي ، ولم يكن من عداس عند هذا إلاّ أن أكبّ على الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقبّل رأسه ويديه وقدميه و في ضمن هذا إيمانه برسالته عليه الصلاة والسلام وتصديقه رسولا من عند الله[1]. وفي هذا الأثناء كان عتبة وشيبة يرقبان الحالة كما هي بغاية التأمّل فقال أحدهما للآخر: «أمّا غلامُك فقد أفسده عليك!» (يعني الرسول صلّى الله عليه وسلّم). ولمّا تمّ مجلس عداس معه صلّى الله عليه وسلّم و رجع عداس إلى مكان عمله حيث كان سيّداه ينتظرانه فقالا له: «ويحك يا عداس! مالك تقبّل قدمي ذلك الرجل ؟ و... و...إلخ» فأجاب: «يا سيديَّ والله ما في الأرض خير من هذا! وقد سمعتُ منه ما سمعتُ ممّا لا يصدر إلاّ عن نبيّ أرسل من عند الله!...».

فراجعاه الكلام قائلين له: «ويحك! إنّ الرجل خدّاع لا يصرفنّك عن دينك! وإنّ دينك لَخير من دينه» إلى نحو هذا ممّا حاولا به صدّه عما سلكه من طريق الاهتداء للعقيدة التي اعتنقها عن بصيرة ونظر ولذلك فلم يكن منه أيُّ جواب أو مراجعة لمخاطبيه ولم يقابلهما -بعد هذا- إلاّ بالإعراض والصمت[2]. هذا والذي أثبته مؤلفو السيرة القدامى أنّ هذا الرجل المسمى

---

(1) بل ورد في بعض الروايات التي أوردها البعض هنا بأنّ عداسا لم يتردّد لما سمع ما سمع منه صلّى الله عليه وسلّم أن أشهد شهادة الإسلام بنصّها المعروف حيث قال: «أشهد أنّك رسول الله حقًّا...» وما في معنى هذا وهو يقبّل رأسه عليه الصلاة والسلام ويديه وقدميه.

(2) للأستاذ الإمام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله تعليق على قصّة عداس مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذه أثبته في مجلّة الشهاب بالجزء الثاني من المجلّد الحادي عشر الصادر بتاريخ صفر من عام 1354 هجرية ومايه عام 1935 ميلادي وجعل للتعليق عنوان " ضلال شيخين واهتداء غلام " ومما أفاده من الحقائق العلمية المأخوذة من هذه القصّة أنّ كلّ ما عرف من الأسباب المانعة لصاحبها من قبول الحق والإذعان إليه الحاملة على التمادي على الباطل

بعداس وكانت له هذه القصّة مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم في بستان عتبة وشيبة ابني ربيعة ببلدة الطائف كان رومي الجنس ونصراني الدين وكان في سنّ الشباب وأسلم على يد الرسول صلّى الله عليه وسلّم إذ ذاك فهو صحابي معدود من مستضعفي المؤمنين ممّن لم يستطع الهجرة وقد مات بمكّة قبل واقعة بدر بقليل من الزمن.

بينما يثبت من كتب في السيرة حديثا وهو الأستاذ طه حسين المصري أنّ عداسا هذا بقي بالطائف كما هو من مستضعفي المؤمنين إلى أن غزا الرسول صلّى الله عليه وسلّم مدينة الطائف بعد فتح مكّة فثار عداس فيمن ثار على أرباب السلطة بها من المشركين فقتل على أيديهم شهيدا. (أي فيعدُّ من شهداء غزوة الطائف[1]).

و قد تقدّم في الدرس الخامس عشر من هذه الدروس تحرير ما وقع فيه الاشتباه في مسمّى عداس. وأنّهما شخصان من عبيد قريش ممّن عرفوا

والتنكّر للحق إنّما هو أربعة أمور هي المال والجاه والرئاسة ورابعها السلطة الكهنوتية (المعروف بالسلطة الروحية) كسلطة الأحبار والرهبان والكهّان وشبه ذلك. وقد كان عداس سليما من جميع هذه الأسباب من حيث كان الشيخان الضالآن عتبة وشيبة كلّ منهما متورّطا في ثلاثة منها فهما من أصحاب الثروة الماليّة الطائلة ومن ذوي الجاه العريض في قومهما ومن أرباب الرئاسة في قريش وما حاول عتبة وشيبة صدّ عداس عمّا اهتدى إليه من الإيمان بمحمد صلّى الله عليه وسلّم إلاّ لأمر واحد فقط وهو أن يوفّر عدد أتّباع محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي يحسدانه ويخافان منه على مكانتهما من الرئاسة ، وإلاّ فلا يهمّهما في شيء أن يكون عداس على أي ملّة من الملل غير ملّة الإسلام التي يدعو إليها محمد صلّى الله عليه وسلّم. ولكن الإيمان إذا كان عن نظر واقتناع قلبي وخالطت بشاشته القلوب - كما وقع لعداس - فهيهات أن تؤثّر فيه الصدود كيفما كانت صبغة الله التي لا مبدّل لها وفطرته التي لا تتغيّر ، ولذا فقد ذهبت محاولة عتبة وشيبة مع عداس جفاء وأعرض عنهما إعراض العارفين عن الجاهلين.

(1) و على هذا توجد رواية إخباريّة أوردها البعض من مؤلفي السيرة ومفادها أنّه عندما وقع النفير في قريش للخروج إلى بدر وقد شمل هذا الخروج عامّة الزعماء منهم فكان منهم الأخوان عتبة وشيبة وقد قتلا الاثنين بنفس الوقعة. تذكر هذه الرواية أنّ الرجلين حاولا من عداس المذكور أن يخرج هو أيضا مع من خرج من العسكر ولكنّه امتنع وحاجّهما بأنّه لا يمكنه أن يخرج لقتال من يعرفه كرسول لله بعد ما شاهد ما يكفي من البينّات على هذا.

بعلم أهل الكتاب وأنّ الأوّل كان قرينا لورقة بن نوفل وكان نظيرا له في التقدّم في السنّ ولم يدرك البعثة ولم يثبت من خبره مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلاّ مثل ما كان لورقة بن نوفل حيث عرضت خديجة رضي الله عنها خبر بدء الوحي إليه صلّى الله عليه وسلّم أوّل ما بدأ على هذين الرجلين لما لهما من العلم لتتبين حقيقة الأمر فيما حدث له صلّى الله عليه وسلّم ، فاتّصل كلٌّ منهما بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وأجرى معه حديثا بحثيّا في الأمر ، وأثبت كلّ منهما في شأنه عليه الصلاة والسلام أنّه الوحي الذي كان يأتي الأنبياء قبله ، ولم يُذْكَر بعد ذلك خبر عنه صلّى الله عليه وسلّم مع عداس هذا... حتى كان حادث خروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف فجاء حديث عداس معه صلّى الله عليه وسلّم ببستان ابني ربيعة ونعت عداس الأخير بأنّه كان شابّا في مقتبل العمر. وليس في اتّحاد الاسم والنسبة والمركز الاجتماعي بين الشخصين ما هو ممتنع عادة وإن كان فيه شيء من الغرابة. ولعلّ أن يكون الخلط وقع من ناقلي الخبر ولعلّ ثمّ تغاير بين اسمي الرجلين كما يجوز أن يكون إطلاق اسم عداس على الشخص الأخير وضع له من مواليه محاكاة واتّباعا لما كان يدعى به الأوّل حيث كان الأوّل هو أيضا مولى لهم إلى غير ذلك من وجوه الاحتمال الذي يثبت به - على كلّ حال- كون الاسم لشخصين اثنين جمع الشبه بينهما في عدّة نواح.

و في خروجه صلّى الله عليه وسلّم هذا إلى الطائف ورد أنّه لما تخلّص من مشاغبة سفهاء ثقيف والتجأ إلى بستان ابني ربيعة فجلس تحت الشجرة دعا بهذا الدعاء الذي اشتهر باسم دعاء الطائف ونصّه: «اللهم إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت ربّ المستضعفين إلى من تكِلُني إلى عدوّ بعيد

يتجهّمني[1] أو إلى صديق قريب مَلَّكْتَهُ أمري. إن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي (و في لفظ: إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي) غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ولك العتبى[2] حتى ترضى ولا حول ولا قوّة إلاّ بك».

و قد عرف من عامّة الأخبار من شأنه عليه الصلاة والسلام أنّه كان مهما اشتدّت به أزمة إلاّ و زاد في الثناء على ربّه و بالغ في الشكر لله تعالى وتمجيده وحمده ، فكذلك كانت وقعة أُحُد على أشدّ ما يكون حدّة في إيلامه والنيل منه صلّى الله عليه وسلّم ، فلمّا انتهى الحادث وانصرف عليه الصلاة والسلام بمن معه من أصحابه الذين كان عامّتهم جرحىٰ توقّف في بقعة من الطريق قبل الدخول إلى المدينة وأمر أصحابه رضوان الله عليهم أن يقفوا خلفه قائلا لهم: «قفوا هنا حتى أُثني على ربي...» ثمّ أخذ في الابتهال إلى الله والشكر له والحمد والثناء عليه طويلا من المدّة. هذا وقد ورد ممّا يتعلّق بحادثة خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف هذه (و هو من روايات الصحيح) أنّه عليه الصلاة والسلام سألته يوما أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها (أي بعد وقعة غزوة أُحُد الواقعة في السنة الثالثة من الهجرة) فقالت له: «هل أتى عليك يوم أشدّ من يوم أُحُد؟ » فأجابها عليه

---

(1) جاءت هذه الرواية بلفظ آخر في هذا الموضع نصّه: «و أنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عدوّ ملّكته أمري..»و لفظ "التجهم" مستعمل في عبوس الوجه. يقال تجهّمه وتجهّم له إذا عبس في وجهه وقابله بغير لياقة ولا مجاملة. فالتجهّم ضد البشاشة والفعل منه من اللاّزم المضموم في الماضي والمضارع "جَهُم ، يجْهُم" ومصدره الجَهامة بالفتح والجُهومة بالضم والوصف منه الجَهْم بفتح فسكون.

(2) العُتْبى: بضم العين اسم من مادة "العتب" كالرجعىٰ والعمرىٰ والحسنىٰ واليسرى...إلخ ومأخذه من الإعتاب الذي هو قبول الاستعتاب يقال استعتبه فأعتبه بمعنى استرضاه فمنحه الرضا. فلفظ العتبى يرجع في الجملة إلى معنى الرضا وطرح المؤاخذة واللّوم... إلخ.

الصلاة والسلام فقال: «لقد لقيتُ من قومك[1] وكان أشدّ كما لقيتُ يوم العقبة[2] إذ عرضت نفسي عل عبد ياليل وعبد كُلال فلم يجيباني إلى ما أردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب[3] فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرت فيها فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: «إنّ الله قد سمع قول قومك وما ردّوا عليك وقد بعث إليك بِمَلَك الجبال لتأمره بما شئت». فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ ثمّ قال: « يا محمد إنّ الله قد سمع قول قومك وما ردّوا به عليك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[4] فعلتُ!» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا! بل أرجو أن يخرج

---

(1) المفهوم من قوم عائشة رضي الله عنها أنّهم قريش فقدّم صلّى الله عليه وسلّم هذه الجملة المحملة عن قريش أولا المفيدة كثرة ما لاقاه منهم من الأذى وشدّته... ثمّ تابع وخصّص من الأذى ما لاقاه من ثقيف خاصة وصرّح بأنّه أشدّ ما لاقى. وإن كان قليلا بالنسبة لما لاقى من قريش من حيث الكميّة فلذلك لا يرد إشكال من حيث أنّ ثقيفا لا يسمّون بقوم عائشة وقد ورد في بعض التعاليق عن توجيه لفظ القوم بإضافة إلى عائشة رضي الله عنها بأنّه يفهم على وجه أنّ قريشا كانوا هم السبب فيما لاقاه من ثقيف الذين كان أذاهم أشدّ وأبلغ.

(2) جاء عن لفظ "العقبة" بأنّه المكان الذي كان فيه اجتماعه عليه الصلاة والسلام بزعماء ثقيف، فهو مكان بالطائف وليس هو في شيء من المكان المعروف بهذا الاسم قرب مكّة والذي كانت فيه البيعة بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين الأنصار.

(3) قرن الثعالب جاء تعريفه بأنّه بفتح القاف وإسكان الراء لا بفتحها كما أنّه يسمّى أيضا بقرن المنازل وهو على مرحلة من مكّة وهو ميقات الإحرام لداخل مكّة ممّن يقدم من ناحية نجد.

(4) بعدما جاء تعريف "الأخشبين" بأنّهما الجبلان اللذان يحتضنان مكّة وهما أبو قبيس وقعيقعان الأوّل شرقا والثاني غربا. جر ذلك إلى البحث في توجيه هذا التخصيص للجبلين المذكورين فورد من ذلك عدّة وجوه من هذا التوجيه وكلّها احتمالات. فمنها أنّ المطبق عليهم هم قريش لأنّهم السبب في خروجه صلّى الله عليه وسلّم من مكّة حتى أصابه ما أصابه من ثقيف ولا يخفى ما في هذا الوجه من البعد والخروج عن السياق الأصلي الذي تناوله الخطاب حيث يقول له الملك: «قد سمع الله قول قومك وما ردّوا به عليك». وهو أظهر ما يكون بأنّ المراد به ثقيف. ومنها أن يراد بذكر "الأخشبين" على أنّهما بمكّة نقلهما من مكّة حتى يطبقا على أرض ثقيف فتكون زلزلة للأرض من مكّة إلى الطائف ومنها غير ذلك.

الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا!...» و في لفظ آخر من هذا الخبر قال ملك الجبال: «إن شئتَ دمدمت[1] عليهم الجبال وإن شئت خسفت بهم الأرض!» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «لعلّه أن يخرج منهم ذريّة يقولون لا إله إلاّ الله!» فقال ملك الجبال: «أنت كما سمّاك ربّك رءوف رحيم». ساق في هذا الموضع مؤلفو السيرة بيتين من القصيدة التي أنشأها الإمام البوصيري في مدحه عليه الصلاة والسلام المشهورة بالهمزية حيث قال:

«جهِلتْ قومُه عليه فأغضى * وأخو الحِلْمِ دَأْبُهُ الإغضاء

وسِعَ العالمين عليما وحِلْمًا * فهو بحْرٌ لم تُعيِه الأعباء»

هذا وقد جاء من روايات خروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف ما يفيد أنّه كلّم فيمن كلّم من الزعماء من ثقيف شخصيات أخرى زيادة عمّا ذكر من عبد ياليل وأخويه وأنّه عليه الصلاة والسلام أقام بالطائف لهذه المهمّة شهرا كاملا ومن حيث مدّة غيبته عن مكّة على الجملة أنّ المدّة كانت أربعين يوما. ومن نص عبارة هذه الرواية: " أقام صلّى الله عليه وسلّم بالطائف شهرا وعشرة أيام يدعو ثقيفا لا يدع أحدا من أشرافهم إلاّ كلّمه فلم يجبه أحد. ومما تعلّق بحادث خروجه عليه الصلاة والسلام إلى الطائف ما أدرجه العدد من مؤلفي السيرة في جملة الوقائع التي حواها هذا الحادث وهو استماع الجنّ للقرآن من تلاوته صلّى الله عليه وسلّم الأمر الذي جاء به الخبر في القرآن الكريم في غير ما آية. فقد جاء من الروايات الإخبارية في

هذا وقد ذكر أيضا أنّ المراد بالأخشبين جبلان غير أبي قبيس ومقابله قعيقعان. وربما يؤيّد هذا الوجه ما في الروايات الأخرى من عدم لفظ الأخشبين وتعويض ذلك بدمدمة الجبال وخسف الأرض وعلى كلّ حال فالأقرب والمتبادر للفهم أنّ الوعيد يتناول قوم الطائف خاصّة.

(1) لفظ "الدمدمة" كما يطلق على مطلق الهلاك ويتعدى بحرف " على " ، يطلق أيضا على وضع الشيء إلى أسفل حتى يكون لازقا بالأرض ، وعليه يفهم معنى دمدمة الجبال. وقريب لفظ الدمدمة بهذا المعنى من لفظ الدّك.

هذا أنّه عليه الصلاة والسلام لمّا وصل في طريقه منصرفا من الطائف قاصدا مكّة إلى المكان المعروف بنخلة* ويقال بطن نخلة ، نزل فبات ليلته به وهو على مرحلة من مكّة أو مسير ليلة إلى مكّة. فقضى الليلة يصلّي ويتلو القرآن فصرف الله تعالى إليه إذ ذاك نفرا[1] من جنس الجنّ فاستمعوا إلى ما يتلو من القرآن فأنصتوا إليه يتفهّمونه ويتدبّرون فيه حتى أتمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قراءته. فكان لهذا الاستماع منهم للقرآن الوقع الكافي في تصديقهم لرسالته عليه الصلاة والسلام والإيمان بما جاء به من الشرع والاستجابة لما يدعو إليه من العقيدة الإسلامية ، وإذ تحقّقوا من ذلك عن كامل اقتناع خفّوا[2] بالرجوع إلى أقوامهم فبلّغوا إليهم الرسالة وقاموا بالدعوة فيهم ، فكان بهذا إيمان أمّة الجنّ بالرسالة المحمديّة واعتناق العقيدة الإسلامية ممّن آمن بها من هذا الجنس من الجان. وهكذا يلاحظ هنا في حادث خروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف ليبلّغ الرسالة إلى طائفة من قومه العرب إن كانت النتيجة هي ما أراده الله وقدّره مغايرا لما يراه المخلوق فلم يكن شيء من حصول الغرض بإيمان قبيلة واحدة هي ثقيف. وكان ما هو أعظم وأوفر من ذلك إذ كان المتحصّل من خروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف إيمان ذلك الرجل العظيم على يده ثمّ إيمان أمّة كاملة ممّن بعث إليهم من خلق الله[3]. ولمّا وصل عليه الصلاة

---

(1) النفر: بفتحتين المراد به هنا العدد من الأشخاص لا يتجاوز التسعة فهو جمع يبتدئ من ثلاثة... قيل أصله من النفير أي الخروج إلى ما كان من الأمور يستدعي القتال والكفاح لأجله.

(2) فعل خفّ: من المفتوح في الماضي المكسور في المضارع "خفّ يخفّ" ومصدره الخفّ بالفتح والخفّة بالكسر والخفة بالفتح والخفوف بالضم. ومعناه الإسراع إلى العمل الذي فيه معاناة ومقاومة كالقتال. يقال خفّوا إلى العدوّ. وجاء فيه أيضا أن يقال خفّ القوم إذا ارتحلوا مسرعين وهم على قلّة.

(3) فإنّ القول المأخوذ به في مسمّى الجنّ أنّه جنس مخصوص من خلق الله يشارك البشر في كثير من الخصائص ومنها العقل ، فلذا كان الجنّ ممّن يتناوله التكليف كما هو الأمر المعلوم من نصّ القرآن تصريحا.

والسلام قرب مكّة اعترضه إذ ذاك مشكل دخوله البلد، وذلك لأنّ متصرّفي قريش وجدوها فرصة للتخلّص منه عليه الصلاة والسلام بإبعاده عنهم وكان هذا الإبعاد بمكان من الصعوبة أن يتوصّلوا إليه مراعاة للتقاليد المعمول بها عندهم. فلمّا أن خرج من تلقاء نفسه وحاول موالاة غيرهم من القبائل ساغ لهم بذلك أن يمنعوه من الدخول والرجوع إلى موطنهم بعد أن خرج منه. كان هذا معلوما ضرورة لحقّ الجميع أن يقع من قريش. والوارد أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا وصل جبل حراء وكان بمعيّته مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه توقّف عن السير وكلّمه في الأمر زيد فقال له: «كيف تدخل الآن وهم قد أخرجوك؟» بمعنى أنّهم تسبّبوا في خروجك الذي لا يمكن معه أن تدخل. وأجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن سؤال زيد هذا - كالعادة[1] - منه عليه الصلاة والسلام فقال لزيد: «يا زيد إنّ الله تعالى جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وأنّه سبحانه مظهر دينَه وناصر نبيّه».

ثمّ إنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يمكنه في مواجهة هذا المشكل إلاّ اتّخاذ الوسائل العادية ومسايرة الواقع من ظروف الوقت والعمل بالعرف المعمول به إذ ذاك وهو طلب الجوار[2] من شخصيّة لها هذا الحقّ. فورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم عمد إلى رسول يبعثه إلى من يطلب جواره وكان هذا الرسول هو الرجل المعروف باسم عبد الله بن

---

(1) شأنه عليه الصلاة والسلام وهو الثبات والثقة بربّه القوي العزيز.

(2) الجوار: بكسر الجيم الذي هو بمعنى العهد والإيمان والذمّة من النظم المعمول بها عند العرب فإذا كان الشخص خائفا من جهة ما، يطلب الحماية من شخصية لها هذا الامتياز فإذا منحه المجير هذه الحماية ويعلنها في الجانب المخوف منه ساغ للمستجير أن يخالط ذلك الجانب المخوف منه بغير تحفّظ. وذلك فيما إذا كان الجوار مجازا ومقبولا من الطرف المخوّف منه. فطالب الجوار هو الخائف ويطلق عليه لفظ المستجير. والمجير هو باذل حمايته له ويطلق لفظ المجار عليه على الجانب المخوف منه ولهم في هذا النظام تراتيب واصطلاحات يتقيدون بها كقوانين مرعية في حياتهم الاجتماعيّة.

الأريقط[1] فأرسله إلى الأخنس ابن شريق* الثقفي يقول له: «إنّي داخل إلى مكّة في جوارك...» فاعتذر الأخنس وردّ الجواب يقول بأنّه حليف والحليف لا يجير (بمعنى أنّ له حلفا مع قريش كما هو الأمر المعمول به عندهم يحالف الرجل غيره أو القبيلة قبيلة أخرى اتفاقيّة للمناصرة والمعاونة ونحو ذلك وعلى أنّه من الاصطلاح الجاري به العمل في الحلف أنّ الحليف لا يجير على حليفه) تأكيدا لوثيقة المناصرة والموالاة.

و عند هذا زاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم فبعث بالرسول إلى سهيل بن عمرو العامري* فاعتذر هذا أيضا بأن ردّ مع الرسول يقول: «إنّ بني عامر (المنسوب هو إليها) لا تجير على بني كعب!» بنو كعب القبيلة التي منها زعماء قريش المختصون بالتصرّف في منع الرسول صلّى الله عليه وسلّم من العودة إلى مكّة (و هم الجانب الذي يطلق عليه لفظ المجار عليه). وقد تصدّى البعض من مؤلفي السيرة لبحث موضوع امتناع الزعيمين المذكورين اللذين طلب الرسول صلّى الله عليه وسلّم الجوار منهما والتعليق عليه. ففيما يخص الأخنس بن شريق الذي اعتذر بالحلف وأنّ ذلك يمنعه أن يجير على محالفيه. فأورد هنا أنّه من البعيد جدّا إلى حدّ الاستحالة العادية أن يكون الرسول صلّى الله عليه وسلّم يخفى عليه هذا الاصطلاح الذي يمنع الحليف أن يجير على حليفه فكيف إذن ساغ له صلّى الله عليه وسلّم أن يطلب الجوار من الأخنس ؟ فربما يقال أنه صلّى الله عليه وسلّم لم يكن يخفى عليه الاصطلاح المذكور وإنّما لم يكن يعلم أنّ الأخنس له حلف مع قريش. وهذا أيضا بعيد كلّ البعد من جواز الاحتمال لأنّ عقد التحالف ممّا يشاع ويذاع في العموم ، فاحتمال أن يكون الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا علم له بحلف الأخنس مع قريش ممتنع الجواز أيضا ولهذا فقد أقدم البعض على القول بأنّ اعتذار الأخنس لم يكن

[1] سيأتي في أخبار حادث الهجرة إلى المدينة أن الدليل الذي كان يسير بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه كان يسمّى عبد الله بن الأريقط.

إلاّ مجرّد مجاملة كما يقال ، فهو في الواقع تملّص ومحاولة لتبرير الهروب من أداء المهمّة. ويرى أصحاب هذا الرأي أنّ الاصطلاح المذكور ليس بمكانة ما يطرد جريانه من شروط الحلف فقد يجير الحليف على حليفه إذا مسّت الحاجة إلى ذلك (أي في حالات استثنائية...). وجاء فيما يخصّ سهيل بن عمرو أنّ اعتذاره لم يكن إلاّ إحجاما منه عن الإقدام على هذه المهمّة من أجل الشكّ في إجازة جواره حيث كان من بني عامر وجوار هؤلاء لدى بني كعب[1] ليس ممّا يتحتّم إجابته بمعنى أنّ بني كعب لها أن تجيز جوار بني عامر ولها أن تردّه ولا تجيزه ، فهذا ما قعد بسهيل عن القيام بإجابة طلب الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

بعد جواب الأخنس وسهيل زاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم فبعث مبعوثه بالطلب المذكور إلى المطعم ابن عديّ* فكان منه الجواب بالإيجاب بمضاء لا تردّد فيه.

ورد أنّه لبس سلاحه وكذلك أبناؤه لبسوا السلاح قيل كانوا ستة وقيل بل سبعة. ثمّ ركب ناقته وطاف في مجامع الناس يعلن جواره للرسول صلّى الله عليه وسلّم قائلا: «إنّي أجرت محمدا يدخل مكّة فلا يتعرّض له أحد». وردّ المبعوث للرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول له: «أدخل فقد أجرتك!» و ورد أنّه بعث بأبنائه مسلّحين إلى حيث يقف الرسول صلّى الله عليه وسلّم خارج مكّة فأحاطوا به عليه الصلاة والسلام يرافقونه في السير دخولا[2] إلى مكّة ، وأعينُ الجماهير تنظر المسيرة حتى الحرم. (المعروف أنّ داخل مكّة لا بدّ وأن يبدأ بالحرم فيطوف بالكعبة)

---

(1) و من بني كعب الملأ القائم بالأمر من قريش.

(2) جاء في بعض الروايات هنا أنّ المطعم لمّا أمضى جواره للرسول صلّى الله عليه وسلّم بادر في الوقت بالإشارة إليه أن يدخل مكّة مستخفيا في جنح الليل وبات الرسول صلّى الله عليه وسلّم تلك الليلة بمنزل المطعم ثمّ لمّا أصبح الصباح أعلن المطعم في الملأ جواره ذلك ومضى مع أعوانه بالرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى حيث طاف الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالكعبة.

حيث كان المطعم نفسه واقفا ينتظر. فطاف الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالكعبة (وربّما يكون صلّى بعد ذلك) وكان أربعة من أبناء المطعم يقفون بأسلحتهم على أركان الكعبة الأربعة. بينما كان الباقي منهم حوله صلّى الله عليه وسلّم مطيفين به بالسلاح أيضا. وتقدّم في هذا الأثناء أبو سفيان بن حرب إلى المطعم وقال له: «أمجير أنتَ أم تابع؟» قال: «مجير!» قال: «إذن لا يُخفَر[1] جوارك قد أجرنا من أجرتَ!» وبقي أبو سفيان بجانب المطعم مشاركا له في الرقابة التي كان المطعم يوليها حراسته عليه الصلاة والسلام. وهكذا حتى أتمّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عمله من الطواف فتوجّه إلى منزله محاطا بآل المطعم المسلحين حتى دخل منزله. ثمّ أنّ الوارد هنا في الأخبار وينبغي أن يكون به الاعتبار أنّ كلاًّ من الأخنس بن شريق وسهيل ابن عمرو قدر الله له أن يعتنق الإسلام ويدخل في عداد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فهما ممّن أسلم في عهد فتح مكّة الذي كان عهد الإقبال الجماعي على إجابة الدعوة المحمديّة.

و على خلاف ذلك كان حال المطعم بن عديّ الذي قام بهذه المأثرة العظيمة نحو الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فلم يقدّر له ما قدّر لصاحبيه بل بقي على دين قومه حتى مات بمكّة بمدّة نحو سبعة أشهر قبل واقعة غزوة بدر التي كانت في السنة الثانية للهجرة. ورد أنّه مات عن عمر يناهز المائة سنة وقد سجّل التاريخ الإسلامي للمطعم بن عدي هذا صحائف ذهبيّة لمواقف جليلة وأيادي ناصعة البياض كانت له نحو الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالتالي للإسلام والمسلمين وفي موقفه من أمر وثيقة المقاطعة والحصار بالشعب المتقدّم ذكره ومن حدث الجوار هذا ما يكفي للدلالة على عظمة ما له من هذه المآثر.

و في مكافأة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لجميل المطعم هذا

[1] تقدّم في الدرس الحادي والعشرين بعض ما يتعلّق بتعريف هذه المادّة... والفعل ثلاثي فإذا زيد بالهمزة كما هو هنا فمعناه نقض العهد.

وحفظه له التقدير المقابل لهذا المعروف حسب ما كان له صلّى الله عليه وسلّم من خصوصيات في هذا الباب لا يقارنه فيها أحد إذ كان يقابل الإساءة بالإحسان. فكيف الحال إذا ما كانت المقابلة للإحسان ؟ فجاء ممّا جاء ونقل في هذا أنّه عليه الصلاة والسلام أعلن يوم كان التشاور في مجمع الصحابة رضوان الله عليهم يجري في شأن الأسارى من المشركين الذين وقعوا بأيدي المسلمين في غزوة بدر أعلن عليه الصلاة السلام عن رأيه الذي كان يمضي عليه وينجزه في شأنهم وهو تحريرهم وإطلاق سبيلهم بدون أي مقابل ولا شرط لو كان الشفيع فيهم لديه المطعم بن عديّ. وتقريرا لهذا فقد وقع بعد ذلك أن قدم من مكّة ابن المطعم وهو جبير[1] يسأل الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويكلّمه في شأن سراح بعض أسارى من جملة أولئك الأسارى فصرّح له الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما أجابه به بالرأي الذي كان أعلنه عليه الصلاة والسلام وقال له: «لو كان الشيخ أبوك حيّا فكلّمنا فيهم». ويعني جملة الأسارى لشفعناه فيهم (أي جميعا)! ولا حاجة للنص على خطورة شأن مسألة أسارى بدر هذه وما لها من مكانة بين الأمور المعدودة من ذوات البال لدى العرف العام على اختلاف ظروفه قديما وحديثا. جاء ذكر هذا كمثال لما كافأ به الرسول صلّى الله عليه وسلّم المطعم بن عديّ على ما قام به من مواقف مشكورة.

و ورد أيضا فيما ورد من هذا أنّه لمّا مات المطعم بن عديّ وبلغ الخبر بذلك إلى المدينة ، قام حسان بن ثابت* رضي الله عنه الذي كان أشهر القائمين بوظيفة الإنشاء الشعري لديه عليه الصلاة والسلام فرثى المطعم بقصيدة[2] خاصّة عدّد مزاياه وشكر له مواقفه المحمودة وبكاه بما يعدّ من أبلغ ما يعهد من الرثاء. (و لا حاجة لملاحظة أنّ هذا لم يكن إلاّ بإجازة من الرسول عليه الصلاة والسلام).

---

(1) و قد أسلم جبير رضي الله عنه فيما يروى في عهد ما بين صلح الحديبية وفتح مكّة.

(2) أورد القصيدة البعض من مؤلفي السيرة وهي على قافية الميم الممدودة بالفتح.

انتهى حادث خروج الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف وهو يحمل من أوّله إلى آخره وقائع لها ما لها من نقط الاعتبار، حيث كانت تجري على مجرى معاكس لما يلائم وتبعث في الناظر إليها سطحيًا شعور حيرة وأسف حتى إذا ما كان الالتفات إلى ما هو الحقيقة وأنّ كلّ ما يجري من الأحداث له - لا محالة- حكمته وتأويله هي حكم وتأويل منها الظاهر ومنها الخفي وفيها القريب وفيها السحيق البعد، كلّ يجري بقدر وتقدير من حكيم عليم، عند ذلك تذهب الحيرة وتزول الوحشة وإذا مازال الالتباس حصل الاستئناس فكان اطمئنان القلوب بردّ الأمر إلى علاّم الغيوب. وقد أبي عدّة من مؤلفي السيرة إلاّ التعقيب بالتعليق على حادثة دخوله صلّى الله عليه وسلّم مكّة راجعا إليها من الطائف بجوار وكيف لم يمكن له هذا الدخول إلاّ بجوار رجل كافر، فالمطعم بن عديّ مع ما له من فضل في مواقف كانت له في صالح الإسلام، وأهمّها كما يبدو جليّا بذل جواره للرسول صلّى الله عليه وسلّم حتى عاد به إلى موطنه بمكّة. فالمطعم معدود ممّن ظاهر على الدعوة الإسلامية وأحد زعماء الشرك، وقد نقل عنه أنّه كان ممّن شدّد النكير وشنع على الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقت ما أخبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم بخبر الإسراء به إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس. فكان محصّل ما أفاد به هؤلاء المعلّقون على نقطة الجوار هذه من تعليق يشير إلى التنبيه والتذكير بأنّ لذلك حكمة - ولا ريب- وقد تكون تلك الحكمة ممّا يخفى على المدارك ويَبعُد عن مستوى المفهوم.

غير أنّه لا مانع أن يقال -وفي خصوص حادثة الجوار هذه- أفلا يكون من حكمها ما هو قريب المأخذ و واضح المدرك. وهو التشريع للأمّة في مزاولة ما يعرض من مهمّات ومواجهة ما يعترض من مشكلات وعوارض باتّخاذ وسائل الحلّ وبلوغ القصد.

الدرس 33

نبذة فيما يتعلّق باستماع الجنّ لقراءة القرآن من الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإيمانهم بما جاء به

أفاد البعض من مؤلفي السيرة عن مجموع ما ورد في هذا الباب أنّ ذلك ورد على أربعة أوجه من الروايات.

الأولى: عند خروجه صلّى الله عليه وسلّم من مكّة عامدا إلى سوق عكاظ[1] ومعه أصحابه يصلّي بهم (المراد صلاة الصبح وكانت الصلاة إذ ذاك ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي قبل فرض الخمس) أو أنه صلّى الله عليه وسلّم خرج مع أصحابه ليؤدوا صلاة (مطلقا) أي قصد البعد بها عن أنظار المشركين.

المادة الثانية: في رجوعه صلّى الله عليه وسلّم من الطائف ببطن نخلة (و هذا ما تقدّم ذكره في أحداث الخروج إلى الطائف).

المادة الثالثة: فيما وقع بمكّة بالحجون ومعه صلّى الله عليه وسلّم ابن مسعود رضي الله عنه وكان هذا في جوف الليل.

المادة الرابعة: ما جاء في رواية ممّا رواه الأئمّة أحمد بن حنبل ومسلم والترمذي وهي رواية عن علقمة رضي الله عنه قال: قلتُ لابن مسعود: «هل صحب النبي صلّى الله عليه وسلّم ليلة الجنّ أحدٌ منكم؟» فقال: «ما صحبه منّا أحد ولكنّا فقدناه ذات ليلة فقلنا: أستُطير[2]؟

---

(1) عكاظ: بضم العين المهملة وتخفيف الكاف وآخره ظاء معجمة مشالة والفعل من مادة "عكظ" مفتوح في الماضي مكسور في المضارع ومصدره "العكظ" بفتح فسكون ولهذا اللفظ معاني متغايرة بحسب تغيّر الصيغة فيقال عكظه إذا غلبه وردّ عليه مدّعاه. وعكظ الشيء عركه. وعكظ الجلد دلكه للدبغ. وتعكظ القوم تجمّعوا. وتعاكظوا بمعنى تجادلوا وتفاخروا. وسيأتي في الدرس الموالي (34) مزيد تعليق على لفظ عكاظ من حيث اسم السوق.

(2) استطير بالبناء للمجهول بمعنى اختطف تستعمل هذه العبارة في فقد الشخص الذي لا يظهر له أثر فكأن الطير طارت به. ومعلوم أنّ ذلك في العادة يقع على شخصية من طرف أعداء لها ويعرف اليوم بالاختطاف.

أواغتيل[1]؟ وطلبناه فلم نجده. فبتنا بشرّ ليلة. فلمّا أصبحنا إذا هو جاء من جهة الحجون (و في لفظ آخر من الرواية من جهة حراء) فقلنا: يا رسول الله إنّا فقدناك فطلبناك فبتنا بشرّ ليلة» فقال: «إنّه أتاني داعي الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن» وانطلق صلّى الله عليه وسلّم فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم...

و الوارد في عدد الجنّ الذين استمعوا القرآن في مجموع هذه الروايات أنّهم نفر سبعة وأنّهم ثمانية وأنّهم تسعة ، وأنّهم جمع من ثلاثمائة ومن اثني عشر ألفا. كما ورد في المكان الذي جاءوا منه أنّه بلدة نصيبين[2]. فقيل أنّها بالشام أو باليمن أو بين الشام والعراق كما جاء في المكان أيضا أنّه نينوى وأنّه جزيرة الموصل. وجاء غير هذا أيضا من الروايات في هذا ما جاء فيه أنّه بعد منع استراق السمع وحراسة السماء بالشهب تحيّر الجنّ من ذلك ولم يدركوا السبب فضربوا في الأرض للبحث عن علّة الحدث ، إذ قالوا إنّ هذا لم يكن إلاّ بسبب حَدَثٌ حَدَثَ في الأرض- وتفرقوا أفواجا لهذا البحث فكان منهم طائفة توفّقت لاستماع القرآن منه عليه الصلاة والسلام (أي ببطن نخلة) من غير أن يكون الرسول صلّى الله عليه وسلّم رآهم ولا شعر بهم. ولازالت سورة الجنّ لم تنزل بعد وكانت هذه الطائفة تتكوّن من نفر دون العشرة. و يحتمل أن يكون هذا ببطن نخلة في رجوعه صلّى الله عليه وسلّم من الطائف كما يحتمل أن يكون في خروجه صلّى الله عليه وسلّم إلى سوق عكاظ مع أصحابه للصلاة كما حكي في الرواية الأولى من هذه الروايات الأربع الواردة في استماع الجنّ للقرآن.

و ممّا جاء من الأقوال في هذا الموضع أنّ الجن الذين استمعوا

---

(1) اغتيل: مبني للمجهول من الاغتيال (من بناء الافتعال) وهو مأخوذ من الغيلة بكسر الغين المعجمة وهي الخديعة فالاغتيال قتل الشخص خديعة من حيث لا يشعر فيدفع عن نفسه.

(2) تقدّم التعليق على اسم هذه البلدة ببسط في الدرس الرابع عشر في روايات ما جاء من خبر الرسول عن طريق علماء أهل الكتاب.

القرآن منه صلّى الله عليه وسلّم ببطن نخلة أرسلهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم رسلا منه إلى أقوامهم لينذروهم ويبلّغوا عنه. وقد جاء في رواية عن كعب الأحبار ما مفاده: لمّا انصرف النّفر السبعة من جنّ نصيبين من بطن نخلة جاءوا قومهم منذرين ثمّ وفدوا عليه صلّى الله عليه وسلّم في قومهم بعدّة ثلاثمائة شخص منهم وهو بمكّة. فجاءه الداعي منهم يخبره بقدومهم للاجتماع به فوعده الرسول صلّى الله عليه وسلّم جوف الليل بالحجون فالتقى بهم هناك. وفي هذا جاءت الرواية الواردة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « قال لنا الرسول صلّى الله عليه وسلّم إنّي أمرت أن أقرأ القرآن على إخوانكم من الجنّ الليلة فليقم معي رجل منكم» وفي لفظ من هذه الرواية زيادة قوله صلّى الله عليه وسلّم: «و لا يقم رجل في قلبه مثقال حبّة خردل من كبر» وكرّر هذه الجملة ثلاث مرّات فلم يقم معه أحد (وأطرقوا).

و جاء التعليق على ما في هذه الرواية من امتناع الصحابة رضي الله عنهم عن القيام معه صلّى الله عليه وسلّم ، بأنّ ذلك كان لسوء فهم منهم لمعنى الكبر. فتجاوزوا به إلى مثل أن يحبّ أحدهم لبس الثياب الحسنة والمركوب الحسن ونحو ذلك (أي والحال أنّ هذا ليس من الكبر الذي هو مراد الرسول صلّى الله عليه وسلّم فالكبر المراد هو احتقار الخلق وغمط[1] الحق كما فسّره الرسول صلّى الله عليه وسلّم في أحاديث وردت عنه). قال

---

(1) نصّ الرواية: الكبر بطر الحق و"غمص" الناس وفي لفظ آخر "غمط" الناس. "البطر" بفتح الباء الموحدة وفتح الطاء المهملة مصدر الفعل الماضي منه مكسور والمضارع مفتوح قيل في معناه أنه غمرة تصيب الشخص إذا ما وردت عليه النعمة فيكون الفعل هنا لازما. ويكون متعديا للمفعول فيقال بطر الحق أي ردّه وأنكره ولم يقبله. وبطر الشيء إذا كرهه ظلما من حيث لا داعي لتلك الكراهة. و"الغمص" بفتح الغين المعجمة وسكون الميم آخره صاد مهملة مصدر والفعل منه يأتي مفتوح الماضي مكسور المضارع. كما يأتي مكسور الماضي مفتوح المضارع وهو متعدّي بنفسه بمعنى احتقار الغير والازدراء به وجحود الحق وكفران النعمة. "والغمط" بالغين المعجمة وآخره الطاء المهملة (عوض الصاد) مثله تماما تصريفا ومعنى.

ابن مسعود: «فكنت أنا الذي قمت معه صلّى الله عليه وسلّم وذهبت معه ليلا حيث توجّه نحو الحجون فخطّ لي خطّا (في الأرض) وقال لي: لا تخرج عنه» (بمعنى أن يلزم الحدّ الذي حدّده له في المكان لا يتجاوزه مطلقا) وقال (في لفظ آخر): «لا تحدثنّ شيئا حتى آتيك»، وفي لفظ: «لا يروّعنّك ولا يفزعنّك شيء تراه».

قال: «ورأيته صلّى الله عليه وسلّم جلس وإذا هم يقبلون عليه وإذا هم رجال سود كأنّهم رجال الزطّ». جاء تعريف الزطّ[1] بأنّها طائفة من السودان وعبّر عنه أيضا بطائفة معروفة من الأعاجم. وجاء في رواية ابن مسعود هذه أنّ أفواج الجنّ المقبلين عليه صلّى الله عليه وسلّم في هذا المجلس كانوا يتراكمون عليه وكادوا يكونون عليه لبدا[2] متسارعين حريصين على الاتصال به والاستماع منه يركب بعضهم بعضا حتى أنّهم حجبوا عنه رؤية الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصوته، يقول: «فأردت أن أقوم وأدعوا للغوث من الناس (و في لفظ) أن أقوم أذب عنه فذكرت عهده إليّ بأن لا أفارق الخطّ فمكثت. ثمّ لمّا تفرّقوا عنه كانوا يتقطّعون

---

(1) جاء ضبط لفظ "الزطّ" هنا بأنّه بضم الزاي المعجمة. وأمّا بالفتح فهو مصدر لفعل زطّ يزُط بالضم بمعنى صوت الذباب. وقد ورد مقابل ما جاء في هذه الرواية عمّا ذكر عن قتادة أنّه قال: قدم ابن مسعود رضي الله عنه الكوفة (بعد عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم) فرأى بها شيوخا شمطا ففزع لرؤيتهم حتى قال: اظهروا...؟ فقيل له إنّ هؤلاء قوم من الزطّ. فقال ما أشبههم بالنفر الذين استمعوا للقرآن من الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليلة الجنّ.

(2) مادّة "لبد" معناها في الجملة يرجع إلى التجمّع والتراص وتراكم الشيء بعضه على بعض يقال تلبّد الصوف مثلا إذا تداخلت أجزاؤه بعضها ببعض. وتلبّد السحاب...إلخ. واللّبد هنا بكسر اللأم وفتح الباء الموحدّة جمع لبدة بكسر اللأم وإسكان الباء وتضمّ اللأم أيضا وهي اسم لمّا يتجمّع من الشعر بين كتفي الأسد. والفعل يأتي مفتوح الماضي مضموم المضارع ومصدره اللبود بالضم كما يأتي مكسور الماضي مفتوح المضارع ومصدره اللبد بفتحتين ومعنى الكلّ هو الإقامة بالمكان على وجه الاستقرار به ويقال أيضا ألبد بالمكان بمعنى أقام به. وألبد بالأرض بمعنى لزق بها.

كالسحب وسمعتهم يقولون: «يا رسول الله إنّ شقّتنا[1] بعيدة ونحن منطلقون فزوّدنا» فقال صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ عظم ذكر اسم الله عليه يقع في يد أحدكم أوفر ما كان لحما (أي فهو طعام لكم) وكلّ بعر هو علف لدوابكم» وفي لفظ آخر من الرواية: «كلّ عظم عراق ، وكلّ روثة خضرة» وجاء في تفسير العراق* بأنّه بضمّ العين المهملة وهو جمع عَرْق (بفتح العين وإسكان الراء) ومعناه العظم الذي أخذ منه اللحم أو معظم اللحم.

و جاء في إحدى روايات هذا المكان أنّ الجنّ أجابوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن مقاله هذا في شأن الزاد لهم فقالوا له: «يا رسول الله إنّ الناس يقذرونهما علينا (أي العظم والروث)» بمعنى التنجيس المنافي للطهارة فيمنعهم ذلك من الانتفاع بهما. أي فمن أجل هذا نهى الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن الاستجمار بالعظم والروث كما جاء في بعض أحاديثه إذ يقول: «لا يَستنقينَّ أحدكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة لأنه زاد إخوانكم من الجنّ». وجاء من تمام رواية ابن مسعود هذه قوله: «فلمّا سطع الفجر أقبل صلّى الله عليه وسلّم(أي من جهة الحجون) فكلّمني فقال لي: أنمتَ؟ فقلتُ لا والله. ولقد هممتُ مرارا أن أستغيث بالناس لمّا تراكموا عليك وسمعت منهم لغطا[2] شديدا حتى خفت عليك. إلى أن سمعتك تقرع بعصاك وتقول لهم اجلسوا!».

و جاء في هذه الرواية أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ردّ على كلام ابن مسعود هذا فقال له: «أنّك لو خرجت من الخطّ لم آمن عليك أن يختطفك بعضهم». (و في لفظ): أنك لو خرجت لم ترني ولم أرك إلى يوم

---

(1) الشقّة: بضم الشين المعجمة وقد تكسر أيضا وتجمع على شقق بضم الشين. المراد بها هنا السفر البعيد وتطلق على المسافة من الطريق التي يقطعها المسافر كما تطلق الشقّة أيضا ويراد بها الطريق الشاق على سالكه.

(2) اللّغطُ: بفتح اللام وإسكان الغين المعجمة آخره طاء مهملة مصدر والفعل منه مفتوح في الماضي والمضارع ومعناه مطلق الصوت. واللغط بفتحتين اسم للجلبة من الأصوات وللأصوات المجتمعة المبهمة التي لا يفهم منها شيء. يجمع على ألغاط وهو المراد هنا في هذه الرواية.

القيامة». وأجاب صلّى الله إليه وسلّم عمّا ذكر ابن مسعود من اللّغط بأنّ الجنّ تداعوا إليه في شأن قتيل منهم فتحاكموا إليه فحكم عليه الصلاة والسلام في القضية بما فصل الأمر بينهم ، وقد قيل في هذه الرواية أنّها تفيد الخبر الذي حدّد عدد الجنّ الذين استمعوا القرآن منه صلّى الله عليه وسلّم باثني عشر ألفا.

كما جاء من تمام رواية ابن مسعود هذه أيضا أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال - بعد ذلك- لابن مسعود: «هل معك وَضُوء[1] ؟ ... (أي لأنّه وقت الصلاة)» قال فقلت: «لا! إلاّ إداوة[2] بها نبيذا[3] » فقال صلّى الله عليه وسلّم: "ثمرة طيبة وماء طهور". وأمر صلّى الله عليه وسلّم ابن مسعود ليصبّ عليه ، قال: فتوضّأ منه وأقام الصلاة! وقد أورد البعض من مؤلفي السيرة هنا ملاحظة فيما يتعلّق بمسألة وضوء الرسول صلّى الله عليه وسلّم بماء فيه نبيذ وأنّ هذا لا يدلّ على جواز التطهّر بالنبيذ ، وإنّما هو محمول على أنّ ذلك الماء الذي كان مع ابن مسعود رضي الله عنه لم يتغيّر بالنبيذ بدليل قوله صلّى الله عليه وسلّم (ماء طهور) ومع هذا فإنّ هذا الحديث الخاص بوضوء الرسول صلّى الله عليه وسلّم بماء فيه نبيذ عدّه الحفّاظ من الأحاديث الضعيفة.

هذا والوارد في أخبار مسألة استماع الجنّ للقرآن من الرسول صلّى الله عليه وسلّم عدد عديد من الروايات فيها ما يمكن الجمع بين بعضه البعض ، وفيها ما ينافي بعضه البعض ، كما أنّه فيه من الروايات ما هو غريب شديد الغرابة وما هو منكر شديد النكارة ، فمع ما عرف عن استماع فريق من الجنّ للقرآن منه عليه الصلاة والسلام وكان بذلك إيمانهم برسالته واتّباع

---

[1] الوَضوء: بفتح الواو هنا. وهو اسم للماء الذي يخصّص للوُضوء.

[2] الإداوة: بكسر الهمزة وتخفيف الدال المهملة اسم لوعاء صغير يتّخذ من الجلد.

[3] النبيذ: هو المعروف من الأشربة يجعل من بعض الثمار كالزبيب والتمر وغير ذلك وقد جاء في هذه الرواية أنّه نبيذ تمر.

شريعته عليه الصلاة والسلام فمضوا إلى أقوامهم يبشّرون بالدعوة الإسلامية ويدعون إليها. كما جاء هذا صريحا في آيتين من آيات القرآن العظيم الآية الأولى من سورة الأحقاف في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿29﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿30﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿31﴾ ﴾.

و الآية الثانية هي من السورة المسماة بسورة الجنّ وكان افتتاحها بهذا الخبر من استماع الجنّ القرآن، وتضمّنت زيادة في عدّة[1] آيات تتعلّق بشأن الجنّ وذلك ما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿1﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿2﴾ ... ﴾ إلى آخر ما جاء من الآيات في الموضوع[2].

فالمستفاد من آيات القرآن في الموضوع هو وقوع استماع الجنّ لقراءة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما يقرأ من القرآن وأنّ هؤلاء المستمعين من أشخاص الجنّ كانوا بعدّة نفر منهم، والمعروف في استعمال اللّغة أنّ النفر يطلق على ما دون العشرة من ثلاثة إلى تسعة وأنّ هؤلاء المستمعين للقرآن آمنوا بالرسالة المحمّديّة بمجرّد ذلك الاستماع ثمّ أنّهم قاموا بالدعوة في أقوامهم إلى الاستجابة لما استجابوا هم إليه من

(1) جاءت هذه الآيات حكاية لمقال الجنّ تفيد حقائق وعقائد ممّا جاء به الدين الإسلامي وتحقّق بها أولئك النفر من الجنّ في ضمن إيمانهم بالقرآن.

(2) يؤخذ من تحرير بعض المفسرين عند التعرض لهذا المكان أنّ ما جاء في القرآن عن استماع الجنّ للقرآن هو في كلتا الآيتين الواردتين في الموضوع من سورتي الأحقاف والجنّ بمعنى واحد وإنّما جاء في سورة الأحقاف مجملا وفي سورة الجنّ مفصلا.

الإيمان والتصديق بما جاء من الشرع على لسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم. ويطابق هذا ما ورد من الروايات الإخبارية ما نقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، وأنّه قال ما حاصله أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يكن يشعر بوجود الجنّ وقت ما كان يقرأ القرآن وهم يستمعون إليه ولا رآهم ولا اجتمع بهم إلى أن نزل عليه الوحي بالآيات المتعلّقة بشأن هذا الحادث في سورتي الأحقاف والجنّ ، مع هذا توجد الروايات الإخبارية التي تفيد اجتماعه صلّى الله عليه وسلّم بوفد الجنّ ومداولة الكلام بينه وبينهم زيادة على استماع القرآن منه عليه الصلاة والسلام وأنّ عدّتهم تبلغ العدد من المئات بل من الآلاف. ومع ما عرف عن حادث استماع الجنّ للقرآن منه صلّى الله عليه وسلّم من حيث الوقت وأنّه كان في عهد مقامه صلّى الله عليه وسلّم بمكّة قبل الهجرة كما يستدلّ على ذلك بمكّيّة الآيات النازلة في هذا الحادث توجد روايات عن نفس الحادث وكونه بالمدينة بعد الهجرة. وقد فهم ممّا تقدّم ذكره عن هذا الحادث في هذه النبذة أنّه يوجد تغاير بعيد بين منطوق الآيات القرآنية الواردة في هذا الخبر وبين بعض ما ورد من الروايات الإخبارية فيه ، كما أنّ في الروايات الإخبارية تنافيا بين بعضها البعض ، وممّا هو ظاهر كلّ الظهور من هذا التنافي ما جاء في الرواية الثالثة والرواية الرابعة المتقدّمتي الذكر في هذه النبذة وكلّ من الروايتين من المرويّ عن ابن مسعود رضي الله عنه يذكر في إحدى الروايتين أنّه رافق الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليلة الجنّ وخطّ له الرسول صلّى الله عليه وسلّم الخطّ في الأرض لا يفارقه حتى يأمن خطر الجنّ وأنّه رآهم يجتمعون بالرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى آخر الحكاية. ويذكر في الرواية الأخرى ما ينافي خبر الرواية المتقدّمة ، حيث يقول لسائله علقمة: "ما صحب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولا رافقه منّا أحدٌ ليلة الجنّ ، وإنّما فقدناه ذات ليلة وطلبناه فلم نجده ، فبتنا بشرّ ليلة بات بها القوم حتى أصبح الصباح فقدم الرسول صلّى الله عليه وسلّم علينا من ناحية حراء أو الحجون". وأخبر

الرسول صلّى الله عليه وسلّم أصحابه لمّا سألوه عن سبب تغيّبه تلك الليلة بأنّه كان أثناءها يقوم بمهمّته مع الجنّ ثمّ طفق الرسول صلّى الله عليه وسلّم يُري أصحابه آثار الجنّ بالمكان الذي اجتمع فيه بهؤلاء[1]. وإزاء هذا فقد عمد البعض إلى القول بتعدّد الواقعة لعدّة مرّات كان فيها استماع الجنّ للقرآن منه صلّى الله عليه وسلّم، والله أعلم بما هنالك!.

(1) أفادت هذه الروايات الإخبارية عمّا قرأ الرسول صلّى الله عليه وسلّم من سور القرآن على الجنّ بأنّه قرأ عليهم سورة العلق وسورة الرحمن وسورة الجنّ إلى غير ذلك.
و ممّا ورد من هذا أنّه صلّى الله عليه وسلّم باهى أصحابه رضي الله عنهم بالمؤمنين من الجنّ يوم قرأ على الصحابة سورة الرحمن حتى أتى على آخرها وهم سكوت، فقال لهم: "مالي أراكم سكوتا إنّ إخوانكم من الجنّ كانوا أحسن منكم ردّا، ما أتيت على قول الله ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ إلاّ أجابوا: «و لا بشيء من نعمك ربّنا نكذب فلك الحمد ولك الشكر».

الدرس 34

عرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم نفسه على قبائل العرب لتبليغ الدعوة والتماس مناصرتهم له على هذه المهمّة وقد أدرج في هذا الباب قدوم زعيم من زعماء العرب إلى مكّة واجتماعه بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وإيمانه به وهو الطفيل بن عامر زعيم قبيلة دوس

فأمّا ما جاء في خبر الطفيل بن عامر فذكر أنّه كان شريفا نبيلا معظّما في قومه مسموع الكلمة فيهم وكان معدودا من الشعراء أيضا. قدم مكّة في هذا الأثناء أي بعد الجهر بالدعوة والرسول صلّى الله عليه وسلّم يعرض نفسه على القبائل يدعوها. فاتّصل به الملأ من قريش وكلّموه في شأن ما بينهم وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم فكانوا يحذرونه أن يركن إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم خوفا أن يتّبعه. فجاء من هذا أنّهم قالوا له: «يا أبا الطفيل (عبّروا بالكنية عوض الاسم للتشريف) إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل[1] أمره بنا فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا قوله كالسحر يفرّق بين المرء وزوجه وبين الأب وابنه والأخ وأخيه والصديق وصديقه...إلخ ، وإنّا لنخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا منه فلا تكلمه ولا تسمع إليه وإيّاك إيّاك منه....! » إلخ.

يقول الطفيل: «فوالله مازالوا بي حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئا وأن لا أكلّمه مطلقا.» يقول: «حتى لقد حشوت أذنيَّ كرسفا[2] لمّا غدوت

---

(1) أعضل: بالعين المهملة والضاد المعجمة آخره لام. أعضل بالبناء للفاعل الأمر أو الشيء بمعنى اشتدّ ومنه المعضلات وهي المسائل البالغة شدّة الإشكال والتعقيد. والفعل من هذه المادّة مفتوح في الماضي مضموم في المضارع والمصدر العضل بفتح فسكون ومعناه في الجملة الضيق والمنع.

(2) الكُرْسُف: بضمّ الكاف وإسكان الراء وضم السين المهملة آخره فاء هو اسم للقطن ويقال فيه أيضا الكرسوف بمدّ السين. والمتداول تقديم السين على الفاء كما هنا وقد يستعمل بتقديم الفاء فيقال " الكرفس ".

إلى المسجد حيث يقوم الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فوجدته قائما يصلي عند الكعبة وكنتُ قريبا منه ، قال: «وأبى الله إلاّ أن أسمع بعض كلامه صلى الله عليه وسلّم فسمعت من ذلك ما أعجبني ورأيته من الحسن بمكان ففكّرت في نفسي فقلت أنا ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح فما يضيرني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان حسنا قبلت وإن كان غير ذلك تركت...!» (أي فاستمع إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما أذعنت إليه نفسه واطمأنّ به قلبه) يقول: «وانصرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم فتبعته ودعوته ليقف لي فأكلّمه. فقلت له: يا محمد إنّ قومك قالوا لي عنك كذا... وكذا... حتى لقد سددت أذني بكرسف. والآن أريد أن تعرض عليّ أمرك هذا الذي أنت تدعو إليه».

و عرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم صورة الدعوة التي يدعو بها إلى الإسلام على الطفيل وتلا عليه بعض الآيات من القرآن ، (ورد أنّه سور الإخلاص والفلق والناس). فلمّا سمع ذلك الطفيل قال: «و الله ما سمعت قطّ قولا أحسن من هذا ولا رأيت أمرا أعدل منه». فأسلم إذ ذاك الطفيل على يد الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: ثمّ إنّي قلت له صلّى الله عليه وسلّم: «يا نبيّ الله إنّي امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام فادعُ الله لي أن يكون لي عونا عليهم». فدعا له الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: «اللهم اجعل له آية!...».

فورد هنا أنّ الطفيل لمّا رجع إلى قومه و وصل إلى إحدى الثنايا بأرضهم تشرف على الحاضر ،[1] وكان ذلك في ليلة شديدة الظلمة وقع له أن أضاء بين عينيه نور كان كالمصباح يضيء له الطريق ويتراءى للناظر من بعيد ، فدهش الطفيل لذلك وجعل يدعو الله أن يحوّله عن جبهته حتى لا

(1) جاء التعليق على لفظ "الحاضر" بأنّ هذا اللفظ مراد به هنا القوم النازلون على الماء يقيمون حوله أي يرتادونه كما هو الحال في المرعى لمواشيهم وغيرها.

يرى عند القوم كأنّه مُثْلَة ،[1] وإذا بذلك النور يتحوّل إلى رأس سوط كان يحمله فكان بيده كالمصباح دخل به على أهل المكان ، وكانوا يتراءَوْنه من بعيد. وشاع أمر هذا الضياء عن الطفيل إلى حدّ الاستفاضة حتى كان يدعى بذي النور.

و جاء في حكاية الطفيل بعدما رجع إلى قومه مسلما قوله: «أتاني أبي فقلت له: إليك عنّي فلستَ منّي ولستُ منك!» فقال: «لمهْ[2] يا بنيّ ؟ » قلت: «قد أسلمت واتّبعت دين محمد!» فقال: «ديني دينك وأنا معك. فعرضت عليه الإسلام فأسلم» (و كذلك كان الحال مع زوجته) يقول لمّا أتتني صاحبتي قلت لها: «إليكِ عنّي فلستُ منكِ ولستِ منّي!» قالت: «لم ذاك ؟ » ، قلت لها قد اتّبعت دين محمد ، فقالت: «ديني دينك» فأسلمتْ أيضا.

و جاء أنّ الطفيل قام بالدعوة إلى الإسلام في قومه وأنّه رأى منهم تباطؤا في الإقبال فتضايق من ذلك فرجع مرّة أخرى إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمكّة. فشكا قومه إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا رسول الله قد غلبتني دوس! غلبني على دوس الزنا[3] فادع الله عليهم». فكان دعاؤه عليه الصلاة والسلام أن قال: «اللهم أهد دوسا !»[4] ورجع

---

(1) جاء التعليق على هذا بأنّ الطفيل خشي أن يكون هذا الضوء الذي وقع بجبهته مثلة في اعتقاد قومه أو هم يصرفونه إلى هذا المعنى من حيث أنّه (أي الطفيل) فارق دينهم فأصيب بهذه المثلة. و"المثلة": بضم الميم وإسكان الثاء المثلّثة هي الآفة في البدن تحدث التشويه وكلّ ما يدخل العيب والقبح على الشكل.

(2) الهاء الساكنة هنا هي المعروفة بهاء السكت زائدة في آخر الكلمة والأصل لِمَ ؟ (صيغة استفهام).

(3) جاء في التعليق على هذا بأنّ معناه أنّ قبيلة دوس كان يستهويهم الزنا وهذا هو سبب إبطائهم بالإستجابة للطفيل لما دعاهم للإسلام وحيث علموا أنّ الإسلام يحرّم الزنا.

(4) و قد أفاد بعض من تكلّم في السيرة أنّه ورد في الأخبار عن الطفيل الدوسي في مقدمه هذا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه عندما شاهد ما شاهد من محاربة قريش للدعوة الإسلامية عرض على الرسول صلّى الله عليه وسلّم بل اقترح عليه الانتقال إلى قبيلة دوس ، على معنى اتّخاذ موطنها معقلا للدعوة الإسلامية من حيث أنّ لدوس حصنا حصينا بمنازلهم. وهذا هو معنى

الطفيل إلى قومه واستمّر قائما بالدعوة للإسلام فيهم مدّة ما مرّ فيه حادث الهجرة إلى المدينة وغزوات بدر وأحد والخندق ، فعمّ الإسلام قبيلة دوس بتمامها. و وفدوا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم في عدّة ثمانين بيتا (أسرة) منهم ، كان من بينهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وذلك وقت فراغه صلّى الله عليه وسلّم من غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة. و وافق ذلك أن قدم عليه صلّى الله عليه وسلّم أيضا مهاجرو الحبشة الذين انضمّ إليهم الأشعريون الذين كانوا التحقوا بالحبشة مع مهاجريها الأوّلين. وبحث مؤلفو السيرة هنا مسألة الإسهام في غنيمة وقعة خيبر فقد وقع الخلاف في كون الرسول صلّى الله عليه وسلّم أسهم منها للقادمين عليه من قبيلة دوس أو لم يسهم لهم منها وإنّما أعطاهم من الفيء الذي يختصّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالتصرّف فيه أو من خمس الغنيمة[1] ؟...!.

و الاتفاق واقع على أنّه صلّى الله عليه وسلّم أسهم للقادمين من الحبشة بمن فيهم من الأشعريين.

أمّا عرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم أمره على قبائل العرب وقيامه

المنعة التي جاء أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يطلبها من القبائل التي يدعوها إلى الإسلام. وعلى هذا فقد بقي هنا ما لم يحصل الاطلاع عليه. وهو السبب الذي من أجله لم يجب الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا العرض الذي عرضه عليه الطفيل وكذا صورة الجواب الذي أجاب به الرسول صلّى الله عليه وسلّم الطفيل على اقتراحه هذا...

(1) فمسمى الغنيمة هو المال المأخوذ من المحاربين بقتال وجهد بالمضاربة وحكمه أن يقسم بين المقاتلين بعد إخراج الخمس منه ، والخمس يصرف في مصارف أخرى غير المقاتلين وهذا هو ما جاء في سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...﴾ ومسمّى الفيء هو المال المأخوذ من المحاربين والمتحصّل بأيدي المسلمين بغير ما قتال ولا جهد بالمضاربة واستعمال السلاح ، وهو ما تشير إليه الآيات من سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿و ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ وحكمه أن يصرف في المصارف التي يصرف فيها خمس الغنيمة وتشير إلى هذا الأيات من سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿و ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾.

بالدعاية العامّة لما جاء به من الشرع والعقيدة الإسلامية فقد أورد مؤلفو السيرة منه عددا من الروايات الإخبارية تخصّ بعض الوقائع ، إذ لا يخفى تعذّر الإحاطة بمعظم هذه الوقائع ضبطا واستيعابا وهي قد أخذت من الوقت لجريانها عشر سنوات. فمن المعروف من النقل أنّ الدعوة للإسلام على وجه الجهر والإعلان بها للعموم كانت منه عليه الصلاة والسلام بعد ثلاث سنوات من نزول الوحي عليه صلّى الله عليه وسلّم. فواصل عليه الصلاة والسلام القيام بدعوته هذه معلنا بها إلى حين الإذن له بالهجرة إلى المدينة وقد تمّ له صلّى الله عليه وسلّم من العمر ثلاث وخمسون سنة وقد علم أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يوح إليه إلاّ بعد أن استكمل من العمر أربعين سنة.

و الوارد فيما يخصّ عرض نفسه صلّى الله عليه وسلّم على قبائل العرب أنّه كان يقوم بهذا في المواسم والأسواق ومختلف المجتمعات التي تقع ، بل وفي كلّ مناسبة لتجمّع الناس كثيرا كان ذلك أو قليلا.

فجاء أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يقصد الحجّاج في منازلهم الخاصّة وفي عرفات ومنًى.

و في الأسواق كان يحضر الأسواق المشهورة كعكاظ [1] ومجنّة* وذي المجاز*. فقد كان من العادة تجمّع قبائل العرب بسوق عكاظ كامل شهر شوّال. ثمّ سوق مجنة يقيمون به عشرين يوما من ذي القعدة. ثمّ سوق ذي المجاز إلى انتهاء موسم الحج.

فكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يسأل ويتعرّف إلى الناس قبيلةً

---

[1] أماكن هذه الأسواق متقاربة فيما بين نخلة ومكّة من طريق الطائف وخلف عرفة. وعكاظ بضم العين المهملة وتخفيف الكاف آخره ظاء مشالة معجمة ، كان يمتاز بإقامة السوق للتجارة مع هو ملتقى أدبي أيضا يتبارى فيه الشعراء بما أنتجوا من الشعر ، وتنتخب القصائد الشعرية وتقع المناظرة بينها وتجاز القصائد الفائزة بالتعليق على جدار الكعبة. وجاء ضبط "مجنّة" بفتح الميم والجيم ثمّ نون مشدّدة.

قبيلة ومنزلاً منزلاً وتشكيلة تشكيلة من هيئات جماعاتهم وزعيما زعيما من رؤسائهم يدعو عليه الصلاة والسلام إلى ما أرسل به من هداية الإسلام. وأفادت الأخبار عن الوجه والأسلوب في دعوته هذه أنّه كان يعرض الأمر عرضا تاركا الخيار للسامع يضعه أمام مسؤليّته بعد الكفاية من البيان وإقامة قاطع البرهان. كما أفادت الأخبار تخصيص بعض ما كان يدعو إليه من هذه الدعوة وهو طلب المناصرة له ضدّ المعارضين القائمين بمحاربة دعوته الجادّين كلّ الجدّ في وضع العراقيل لها وسدّ الطريق عنها حتى لا تنتشر وتبلغ مسامع العامّة. و ورد من هذا أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يدعو- فيما يدعو إليه من هداية الإسلام- إلى طلب المنعة[1] والحماية لشخصه كي يواصل الدعوة والتبليغ لما جاء به من هدى وتبصرة لكافّة الناس.

فممّا ورد من الروايات عن هذه المواقف التي كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقفها لعَرْض الدعوة على قبائل العرب ما ورد عن جابر رضي الله عنه (و هو يفيد صورة هذا العرض) قال: «كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقف في الملإ من قبائل العرب فيقول فيما يقول: ألا رجلٌ يعرض على قومه؟ (الدعوة التي يدعو إليها) فإنّ قريشا منعوني أنّ أبلّغ كلام ربّي؟».

و جاء في رواية عن بعض الصحابة (لم يذكر اسمه) قال: «رأيت الرسول صلّى الله عليه وسلّم يطوف على الناس بمنًى (في موسم الحج) وهو يقول: «يأيّها الناس إنّ الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا...»، و وراءه رجل وضيء عليه حلّة عدنيّة يقول: "يا أيّها الناس إنّ هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم وأسلافكم وتتّبعوه على ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له». قال الراوي: «فسألنا عن الرجل الذي يردّ على دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقيل لنا هو عمّه عبد العزّىٰ (أبو لهب)».

(1) المنعة: بفتح الميم وإسكان النون وبكسر الميم أيضا هي الحماية للشيء ودفع الأذى والضرر عنه.

و في رواية[1] ممّا جاء من هذه الروايات أنّه صلّى الله عليه وسلّم شوهد يوما يقوم بدعوته بسوق ذي المجاز يقول فيما يدعو إليه: «أيّها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا وتربحوا...» وخلفه رجل يتبعه له غديرتان[2] يرجمه بالحجارة حتى أدمى كعبيه، ويقول هذا الرجل (عن الرسول): «أيّها الناس لا تسمعوا منه كلاما فإنّه كذّاب...إلخ» (و هذا الرجل هو أبو لهب).

و في رواية أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم يوما بدعوته في منىً (في موسم الحج) فيقول: «يا بني فلان، يا بني فلان... (تعدادا لأسماء القبائل) إنّي رسول الله إليكم أن تعبدوه لا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأوثان وأن تصدّقوني وتمنعوني (من المنعة) حتى أنبّيء عن الله ما بعثني به!» وخلفه صلّى الله عليه وسلّم رجل أحول له غديرتان ويكتسي حلّة عدنيّة ينتظره حتى يفرغ من كلامه، فيقوم هذا الرجل فيقول: «أيّها الناس إنّ هذا يدعوكم لتسلخوا الآلهة اللأت والعزّى ومناة و... وممّا كان يعبد آباؤكم إلى ما يدعوكم إليه من البدعة والضلالة... و... و...».

و يقول الراوي: «وسألنا عن الرجل الداعي فقيل لنا هو غلام عبد المطلب (محمد)، وعن الرجل الذي يردّ عليه ويشاغبه فقيل هو عمّه عبد العزّى (أبو لهب)». وجاء من ذكر أسماء القبائل التي دعاها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذه الدعوة العامّة التي كان يقوم بها في المجتمعات

---

[1] و عيّن راوي هذه الرواية بأنّه طارق ابن عبد الله المحاربي وقد أسلم بعد هذا العهد فهو يحكي هذه الواقعة وشهوده لها قبل أن يسلم.

[2] الغديرة: بفتح الغين المعجمة وكسر الدال المهملة آخره راء المراد به هنا المضفور من شعر الرأس الواحدة منه غديرة والجمع غدائر. وقد تقدّم في الدرس العشرين ذكر الغدائر أيضا.

قبائل كنده وكلب[1] وعامر بن صعصعة وحنيفة وثقيف ، وأنّ أقبح ردّ على دعوته من بين القبائل كان ردّ قبيلة بني حنيفة وبني ثقيف. وممّا جاء من ردّ بني عامر ما ردّ به المتكلّم عنهم عندما دعاهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم حيث قال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «أرأيت إذا نحن أجبناك إلى ما تدعو إليه ثمّ أظفرك الله أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ » فقال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «الأمر لله تعالى يضعه حيث يشاء». فقال ذلك المتكلّم: «أنهدف[2] نحورنا للعرب دونك فإذا ظفرت كان الأمر لغيرنا؟ ... ، لا حاجة لنا بأمرك الذي تدعو إليه...! » ولمّا انقضى هذا المجلس ورجعوا إلى منازلهم وكان فيهم رجل قد طعن في السنّ لم يستطع الخروج من المخيّم فلم يحضر المجلس فأخبروه بما جرى بينهم وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فما كان من هذا الشيخ إلاّ أن وضع يده على رأسه[3] وهو يقول: «يا بني عامر هل لها من تلافٍ ؟ (هل لهذه الفُرصة من تدارُكٍ)». وأخذ يُقسم الأيْمان يقول: «والله ما يقولها - كاذبا- أحد من بني إسماعيل قطّ! وإنّها لحقّ! وما أراكم إلاّ وقد غاب عنكم رأيكم!» بمعنى أنّ النبوّة لا يدّعيها أحد من بني إسماعيل وهو كاذب ، أي فالذي ادّعاها اليوم

---

(1) جاء أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم دعا فيمن دعا من هذه القبائل بطنا من بني كلب يدعون بني عبد الله فلمّا دعاهم قال: «إنّ الله تعالى قد أحسن لكم اسم أبيكم...»و دعاهم فكانوا كغيرهم ممّن ردّ عليه بعدم القبول والرفض.

(2) هذه المادة من الهاء والدال المهملة والفاء مرجع المعنى فيها إلى القرب والقصد والمقابلة ومنها: الهدف بفتح الدال وهو الغرض الذي تقصد رمايته وإصابته. فهذا القائل يقول لا نجعل نحورنا وصدورنا هدفا للسهام ونحوها من السلاح يريد لا نقاتل في سبيلك وحمايتك.

(3) من المعروف عن هذا التصرّف بحركة بعض الأعضاء على وضع خاص أنّ ذلك يؤدّي معاني يعرب عنها الشخص زيادة عمّا يعرب عنه بالكلام ففي حركة بعض الأعضاء على وضع مخصوص إفهام وإعراب عن معاني بطريق الإشارة تفهم هذه المعاني حسب العرف المصطلح عليه مع ملاحظة ملابسة الحال. فمثال ذلك وضع اليد على الصدر يؤدي معنى القبول والترحيب ، ويفهم وضع اليد على الرأس في هذا المقام على التحسّر والأسف وقد يكون للتوجّع لحلول كارثة ونحو ذلك.

(الرسول صلّى الله عليه وسلّم) صادق ولا ريب!. وجاء أيضا فيمن سجّل عليهم ردّ قبيح على الدعوة من قبائل العرب ذكر بني عبس وسليم وغسّان ومحارب وفزارة ومرّة والنضر وعذرة والحضارمة ، كلّ هؤلاء تشابهت ردودهم فكانوا يجيبونه صلّى الله عليه وسلّم بما يقولون " أسرتك وعشيرتك أعلم بك! " (تقليدا للملإ من قريش) ومع هذا فقبيلتا بني حنيفة وثقيف هما القبيلتان المعروفتان بأقبح ردّ.

و ورد في أخبار هذا الباب أنّ أبا بكر الصدّيق * رضي الله عنه كان يعين الرسول صلّى الله عليه وسلّم في هذه المهمّة من دعوته صلّى الله عليه وسلّم قبائل العرب المختلفة. فكان يحضر مجالس الحوار الذي يجري بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين القبائل ، وكان يتقدّم بفتح الكلام مع زعماء القبائل لما له من الخبرة الدقيقة بأنساب العرب والاطلاع الواسع على أخبارهم فيخوض معهم في أحاديثهم الخاصّة ويتجاذب معهم من الحديث ما يعدّ من الدقائق والخبايا من شئونهم بالنسبة لكلّ قبيلة وما تختصّ به.

و ممّا نقل من أخبار مجالس الدعوة هذه ما جاء عن المجلس الذي عقد بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين زعماء بني شيبان بن ثعلبة بمسعى من أبي بكر رضي الله عنه. فورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان ذات يوم يقوم بالدعوة في القبائل ويصحبه أبو بكر وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما فلقي نفرا من زعماء شيبان بن ثعلبة وكانوا أربعة: مفروق ابن عمرو * وهانيء بن قبيصة [1] ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك. فتقدم إليهم أبو بكر فسألهم: «ممّن القوم ؟ » فقالوا: «من شيبان» فتعرّف إليهم والتفت إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «بأبي [2] أنت وأمّي يا رسول الله إنّ

---

(1) جاء ضبط " قبيصة " بأنّه بفتح القاف وكسر الباء الموحّدة السفلية بعدها صاد مهملة.

(2) (بأبي انت وأمّي) هذه صيغة التفدية الجارية في لسان العرب تطلق هكذا بحذف متعلّقها على معنى (أفديك) (بأبي وأمّي) ومعناها واضح في المبالغة في محبّة من تقال له والإعراب عن عزّته ورفعة قدره.

هؤلاء غرر[1] في قومهم!» وكلّم أبو بكر أولئك الزعماء يعرض عليهم عقد المجلس للكلام ، فأجابوه لذلك ، فكان مفروق أدنى القوم مجلسا من أبي بكر ، وكان مفروق هذا يفوق أصحابه في بروز الشخصية من حيث الصورة الخلقية وطلاقة اللسان. وافتتح الكلام أبو بكر رضي الله عنه متوجّها بالسؤال لمفروق فقال له: «كيف العدد فيكم ؟ » قال مفروق: «إنّا لنزيد على الألف ولن تُغلَب الألف من قلّة ؟ » فقال أبو بكر: «وكيف المنعة[2] فيكم ؟ » قال مفروق: «علينا الجهد[3] ولكلّ قوم جدّ[4] » فقال أبو بكر: «فكيف الحرب بينكم وبين عدوّكم ؟ » فقال مفروق: «إنّا لأشدّ ما يكون غضبا حين نلقى[5] وإنّا لأشدّ ما يكون لقاء حين نغضب وإنّا لنؤثر الجياد[6] على الأولاد. والسلاح على اللقاح[7]. والنصر من عند الله يديلنا[8] مرّة ويديل علينا أخرى». و أعقب هذا بقوله: «لعلّك أخو قريش!» فقال له أبو بكر: «أو قد بلغكم أنّه رسول الله ؟ فها هو ذا» (يشير إلى الرسول صلّى

---

(1) غرر: بضم الغين المعجمة وفتح الراء ثمّ راء آخره صيغة جمع. وأصله من "غرّة" الفرس بضم الغين أي بياض بجبهتها وكلّ ما يبدو ظاهرا كضوء الفجر فمعناه الأصلي الظهور والتقدّم. "فغرّة" القوم شريفهم ومقدمهم فالمراد هنا وصف هؤلاء القوم بأنّهم السادات والأشراف في قبيلتهم.

(2) تقدّم بيان معنى "المنعة" وأنّها حماية الشيء والدفاع عنه. فالسؤال هنا هو عن مقدار القوّة التي لهم في حماية من يحمونه ويذودون عنه.

(3) الجهد: بفتح الجيم وضمّها وإسكان الهاء آخره دال مهملة معناه هنا أقصى الطاقة ونهاية الاستطاعة في مزاولة الأمر.

(4) و الجدّ: بفتح الجيم آخره دال مهملة مشدّدة يراد به هنا الحظ والنصيب الذي يتحصّل عليه من الرغبات.

(5) و مفهوم من عبارة مفروق في اللقاء أنّه يراد به الصدام في القتال مع العدوّ كما لا يخفى ما في جوابه هذا من العبارات المتّزنة وما تضمّنه مجمل كلامه من مراعاة الدقّة والتحديد في إطلاق الكلمات على معانيها بغير ما إفراط ولا تفريط.

(6) الجياد: جمع جواد بتخفيف الواو. وهي الخيل السريعة الجري.

(7) اللقاح: جمع لقوح بفتح اللأم وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(8) أدال ، يديل ، إدالة: مأخوذ من " الدُولة " بضم الدال وهي الشيء الذي يتداول بين الجهات تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء فمعنى يديل يعطي ويكسب . ويديل عليه بنقل ماله إلى غيره والمراد النصر والغلبة بيد الله يداول ذلك بين خلقه.

الله عليه وسلّم). فقال مفروق: «بلغنا ذلك» وتوجّه بالخطاب إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «فإلام[1] تدعو يا أخا قريش؟» وهنا تقدّم الرسول صلّى الله عليه وسلّم للحوار مع مفروق، فأجابه: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّي رسول الله و إلى أن تؤوني وتنصروني فإنّ قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذّبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحقّ والله هو الغني الحميد!».

فقال مفروق: «و إلامَ تدعو أيضا يا أخا قريش؟» فأجاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم على هذا السؤال بتلاوته الآيات من سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ولمّا سمع مفروق ما تلا عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم من آيات القرآن قال: «ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه!...» ثمّ قال للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «و إلامَ تدعو أيضا يا أخا قريش؟» فتلا عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم الآيات من سورة النحل في قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. وعند هذا خاطب مفروق الرسول صلّى الله عليه وسلّم قائلا له: «دعوتَ - والله- إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. ولقد أفِك[2] قوم

---

[1] إلام: تقدّم التعليق على هذا اللفظ ونظائره: علام؟ ممّ؟ بم؟ لم؟ عمّ؟ فيم؟ في الدرس التاسع والعشرين.

[2] هذه المادّة "افك" يأتي الفعل منها في الماضي مفتوحا أفَكَ ومضارعه مكسورا يأفِك ومصدره الأفك بفتح فسكون بوزن (ضرب) ويأتي أيضا مكسورا في الماضي أفِكَ مفتوحا في المضارع "

كذّبوك وظاهروا عليك!» ثمّ أنّ مفروقا أحبّ أن يشاركه في الكلام صاحبه هانئ بن قبيصة فقال: «و هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا[1]! (أي أحال عليه الكلمة فيما هو جار من الحوار)».

فتكلّم هانئ يخاطب الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش وأنّي أرى أن تركنا ديننا واتّباعنا إيّاك على ما تدعو إليه من دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أوّل ولا آخر لزلّة في الرأي وقلّة نظر في العاقبة. وإنّما تكون الزلّة مع العجلة ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدا» (أي نقطع ونمضي أمرا دون مشاركتهم ومشاورتهم) قال: «ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر! » (يريد التريث في الأمر) وأحال هانئ أيضا الكلمة على صاحبه المثنّى ابن حارثة* فقال: «و هذا المثنّى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا» (يشير إليه ليتكلّم أيضا). فتكلّم المثنّى يقول: «قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة!» (لا نترك ديننا إلى دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أوّل ولا آخر). ثمّ زاد المثنى من كلامه الخاص لما له من اختصاص بالتصرّف في شئون الحرب والدفاع فقال للرسول صلّى الله عليه وسلّم معقّبا على ما تقدّم له من كلام: «وإن أحببتَ أن نُؤويكَ وننصركَ ممّا يلي مياه العرب دون ما يلي أنهار كسرى

يأفك " ومصدره " الأفك " بفتحتين. ومعناه الكذب والفرية الفاحشة والبهتان. ومنه الإفك بالكسر ويأتي هذا الفعل متعدّيا للمفعول مفتوحا في الماضي فيقال أفَكَهُ وهو بمعنى صرف الأمر من وجهه الأوّل إلى وجه آخر مغاير ويخصّ ما يتعلّق بالرأي والنظر فيقال أفكه عن رأيه أو عقيدته بمعنى صرفه إلى رأي آخر وغيّر نظره. وجاء أيضا في هذه المادّة إطلاق فعل " أفِك " مكسورا في الماضي لازما على معنى ضعف الرأي وسوء النظر الفكري. (يقال: إفِك الرجل أي ضعف عقْله).

(1) أخذ من هذا بأنّ القوم كانوا في شأنهم الجماعي على نظام شوري موزّع فيه السلط المختلفة على المختصّين الأكفّاء فذكر هانىء على أنّه يلي أمر الديانة ويفهم أنّ له الرأي في التوجيه والتربية ونحو ذلك. وذكر المثنى على أن له أمر الحربية والدفاع ونحو ذلك. ويفهم ممّا جاء هنا أنّ مفروقا كان له ما هو كالسفارة والإعلام والدعاية ...إلخ.

فعلنا ذلك! فإنّا إنّما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرىٰ أن لا نحدث حدثا ولا نؤوي محدثا» (أي في أرضهم المتاخمة لأرض الفرس حيث يملك كسرىٰ). وزاد المثنى فعقّب على كلامه هذا أيضا يقول للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «و إنّي أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه هو ممّا تكرهه[1] الملوك!» فكان جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم على كلام المثنّى أن قال عليه الصلاة والسلام: «ما أسأتم في الردّ إذ أفصحتم بالصدق (و في لفظ: إذ أوضحتم بالصدق) وإنّ دين الله عزّ وجلّ لن ينصره إلاّ من أحاط به من جميع جوانبه». ثمّ زاد عليه الصلاة والسلام يخاطب الجملة من محاوريه: «أرأيتم إن لم تلبثوا إلاّ قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ؟ » (يريد الفرس قوم كسرى الذين يخضعون لسلطانهم ويخشون بأسهم). وفي بعض الروايات زيادة قوله: «و ينزلكم[2] منازلهم ويفرشكم نساءهم تسبّحون الله وتقدّسونه!؟ !» وهنا نطق الزعيم الرابع منهم وهو النعمان ابن شريك* ردّا على كلام الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا فقال: «اللهم لك ذا!![3] (تصديقا للرسول صلّى الله عليه وسلّم في مقاله هذا)».

و ورد هنا أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قام بعد هذا بتلاوة الآيات[4] من سورة الأحزاب من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ

---

[1] (هو ممّا تكرهه الملوك): على معنى الجزئية هكذا في بعض النسخ المنقول منها. وفي بعض النسخ (هو ما تكرهه الملوك) على معنى القصر والتخصيص.

[2] الأقرب في فهم الجملتين الأخيرتين من كلامه عليه الصلاة والسلام واللتين ذكر فيها تسبيح الله تعالى وتقديسه على أنّه تصوير للحال المستقبل الذي يعلو فيه العرب على المستعلين عليهم اليوم من الفرس. فكأنّه يقول يورثكم الله أرضهم إلى آخره وأنتم مسلمون تسبّحون الله وتقدّسونه فبالإسلام يكون هذا الانقلاب وكذلك كان فعلا وصدق الله ورسوله.

[3] (اللهم لك ذا) فقد أقرّ بأنّ قدرة الله حقيقة بأن تحقق ما ذكره الرسول صلّى الله عليه وسلّم من انقلاب الحال فتدول دولة الفرس وتعلوها دولة العرب هؤلاء. ولو استبعد ذلك أهل الخنوع واستخفّوا به ، كما وقع ذلك من بعض القبائل كما سيأتي ذكره.

[4] قد ترد هنا ملاحظة بأنّ هذه الآيات من سورة الأحزاب مدنيّة...؟ .

أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿45﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿46﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿47﴾﴾. ونهض عقبها مفارقا للمجلس فكان بهذا انفضاض هذا المجلس مع زعماء بني شيبان. وبعدما علم من سياق هذا الخبر عن مجلس الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع زعماء بني شيبان بأنه لم يسفر عن النتيجة المطلوبة من دعوته عليه الصلاة والسلام بحيث لم يكن الإيجاب بقبول ما عرضه الرسول صلّى الله عليه وسلّم على هؤلاء الزعماء بالوجه المعهود المعروف شرعا ، وإن كان ردّهم على درجة عالية من حسن المقابلة كما شهد لهم بذلك الرسول صلّى الله عليه وسلّم حيث يقول: «ما أسأتم إذ أوضحتم بالصدق».

فقد بحث البعض من مؤلفي السيرة في موضوع إسلام هؤلاء الزعماء بعد هذا العهد. فجاء من ذلك أنه يوجد في مؤلفات من ألّف في ضبط أسماء الصحابة ذكر اسم المثنّى [1] بن حارثة الشيباني وأنه كان فارسا في قومه وسيّدا مطاعا فيهم فمن الاحتمال القريب جدّا أن يكون هو المثنّى الذي حاور الرسول صلّى الله عليه وسلّم في مجلس بني شيبان في عهد قيام الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالدعوة في قبائل العرب! سيما وقد عرف في قومه بالاختصاص في شئون القتال كما ذكر آنفا من قول صاحبه هانيء عنه " أنه شيخنا وصاحب حربنا ".

و كذلك جاء في هذه المؤلفات ذكر اسم النعمان بن شريك على أنه ممّن وفد في وفود العرب على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أي بالمدينة حوالي السنة التاسعة للهجرة ، وكلّ هذه الوفود وفدت لمبايعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على الإسلام والدخول في دينه (كما هو معلوم)

(1) ممّا جاء في المؤلفات الحديثة وهو المنجد في العلوم والأدب لمؤلّفه فردينان توتل من أدباء لبنان أنّ المثنّى بن حارثة شيخ بني شيبان كان له حلف مع خالد بن الوليد وأنه حمل معسكره على مهران قائد الفرس وهزمه في وقعة البُوَيب على نهر الفرات سنة 635 هجري.

وكذلك أثبت في هذه المؤلّفات اسم مفروق بن عمرو على أنه في عداد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

أمّا ما يلاحظ في خصوص المداولة الواقعة بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين زعماء بني شيبان هؤلاء في هذا المجلس ، فهو ما امتازت به من أصالة وسُمُوّ بحيث أنّه لم ينقل في جميع ما نقل من أخبار هذا الباب ما يضاهي ما نقل عن مجلسه صلّى الله عليه وسلّم مع زعماء بني شيبان ، فهو نموذج ممّا يتحلّى به العرب من مواهب فطرية في تدبير الشئون العامّة وهو مثال لما لهذه الأمّة من عبقريّة في مجال السياسة العامّة وممارسة فنّ السفارة بالخصوص ، ولهذا لمّا جاءهم الإسلام و رفع مستواهم إلى أعلى بما أكسبهم من ثقافته العالية وعلّمهم من الحكمة وبرزوا بهذا إلى الميدان الإنساني العام صنعوا المعجزات وأتوا بالخوارق المدهشات فيما قاموا به من أعمال الإنشاء والتنظيم ، ومنها سياسة الملك وتسيير شئون الدولة كما يشهد بذلك سجلّ التاريخ وبالأخصّ تاريخهم في الأندلس.

و إذا كان ما جاء في موقف زعماء بني شيبان هؤلاء وما ردّوا به على ما دعاهم إليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ممّا يستحقّ التقدير والإعجاب من حيث الرصانة والمرونة والتزام حسن الأدب واللياقة في الخطاب ، فليس جميع من دعاهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم من قبائل العرب كان لهم مثل هذا الموقف. فقد كانت المواقف متفاوتة بحيث يصحّ أن يوصف البعض منها بالبرود المجرّد أو الجمود ، والبعض بمطلق التحفّظ أو الإحتراز ، والبعض لا يخلو من جفاء والبعض بالإغراق في الإنكار والرّد القبيح كما وسم به موقف بني حنيفة وبني ثقيف. وممّا ورد به النقل من هذه المواقف التي كانت للرسول صلّى الله عليه وسلّم مع قبائل العرب يبلّغ بها رسالة الرحمة التي أرسل بها من ربّه للعالمين أنه لمّا قدمت مكّة قبائل بني بكر بن وائل كلّم الرسول صلّى الله عليه وسلّم صاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما له من معرفة بالقبائل - كما تقدّم ذكره آنفا- فقال

له: «أعرضني عليهم» فقام أبو بكر بالمهمّة حتى أمكن له أن يجمع بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهذا الفريق من زعماء القبائل المذكورة... وكان من جملة الخطاب الذي جرى في هذا المجلس أن سأل الرسول صلّى الله عليه وسلّم مخاطبيه هؤلاء (أو السائل أبو بكر ؟) فقال لهم: «كيف العدد فيكم ؟ » فأجابوا كثيرا كالثرىٰ!. فقال: «و كيف المنعة ؟ » فأجابوا: «لا منعة عندنا! نحن نجاور فارس لا نمنع منهم ولا نجير عليهم».

(مدلول هذا الجواب أنّهم خاضعون لحكم الجوار مع الفرس. لموالاة هؤلاء ومراعاة مساعدتهم بحيث لا يتصرّفون تصرّفا يأباه الفرس في ميدان السياسة). وقد تقدّم ذكر نظير هذا لبني شيبان ، وأنّه شيء التزموه بمقتضى معاهدة بينهم وبين الفرس. ولم يرد في جواب بني بكر هذا ذكر شيء من معنى التعاهد إنّما ذكر الجوار مجرّدا. فيحتمل أن يكون ما هم عليه من موالاة للفرس جاريا بحكم التعاهد أو هو شيء تلقائي منهم وعن طواعية درجوا ومرنوا عليه بحكم التأثير الواقع من الجانب القوي على الجانب الضعيف والحاصل بالمعاشرة.

جاء في رواية هذا المجلس مع بني بكر بن وائل أنّه لمّا أجاب القوم بما أجابوا به عن المنعة ممّا ذكر كلّمهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال لهم (عن الفرس): «أفتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم. وتستعبدوا أبناءهم أن تسبّحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين وتكبّروه ثلاثا وثلاثين... ؟ ».

يؤخذ عن هذه الجمل الوارد أنّها من جواب الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي ردّ به على كلام زعماء بني بكر ، وما أجابوا به عن السؤال الملقى عليهم في شأن المنعة ، فأخبروا بالحال الذي هم عليه من فقد المنعة لديهم للقيد المضروب عليهم من سلطة الفرس بأنّه عليه الصلاة والسلام عمد حين ذاك إلى نقل الحديث ممّا كان فيه قبل والخروج به إلى المقصود بالذات وهو تبليغ الدعوة إلى الإسلام لهؤلاء القوم ، وبأسلوب بالغ الدرجة

القصوى في قوّة التأثير والنفوذ إلى أعماق المشاعر حيث كانت الدعوة في قالب عرض لطيف يصطبغ بما يصطبغ به من شدّة الترغيب والوعد على الإستجابة بما يستهوي ويغري من عزيز المطالب وبعيد المنال من الأماني.

فمن الطبيعي والواقع الذي لا مجال للشك فيه أنّ هؤلاء القوم ومن كان في وضعهم من حيث الخضوع لقوّة الأجنبي إلى حدّ الإياس والقنوط هم - مع كلّ هذا- لا يعدمون مطلق الشعور بأصالة ذاتيتهم. فكان خطاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا يرمي إلى إحياء هذا الشعور وبعثه من مرقده بادئ ذي بدء ، وقدّم الدعوة إلى ما يدعو إليه من عقيدة الإسلام على أنّ هذا هو الكفيل باسترجاع عزّة الذاتية وقيام كيانها المستوجب لقلب الوضع بإدالة المغلوب على الغالب. وكان التعبير عن هذا المعنى بذكر اللآزم الذي لا يقصد لذاته وإنّما ذكر إيجازا للفظ وتأكيدا لتحقيق الوعد ، وهو الحصول على ما هو في الحال شديد المناعة إلى أبعد ما يعرف من الحدود وقويّ الشوكة في الحصانة والحرز أبلغ ما تكون القوّة. ألا وهو التملّك لموطن هذا العدوّ القوي الغالب - اليوم- بما يتبع ذلك من نزول منازله وامتلاك رقاب رجاله ونسائه!. وبجانب هذا ذكر مما تتحقّق به استجابة هذه الدعوة اللآزم الذي لا يقصد بخصوصه الخفيف المؤنة السهل المأخذ ، وهو تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره. فكأن مضمون هذا الخطاب بالأسلوب الدارج البسيط: " هل أنتم على استعداد لتقوموا بما هو المقابل لما يولّيكم الله من شهودكم ردّ الكرّة لكم على غالبكم اليوم الذي خضد منكم شوكة السيادة حتى منعكم المنعة فتمتلكون أرضه...و...و...إلخ ولا يكلّفكم هذا الأمر المقابل إلاّ تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره ، بمعنى إلاّ أن تستجيبوا للدعوة في اعتناق الإسلام ؟ ". وكأنّ القوم دهشوا لمّا سمعوا من هذا الخطاب وبهرهم ما تضمّنه من معنى ، فردّوا عليه بالسؤال عن شخصيته عليه الصلاة والسلام فقالوا له: «إثر ذلك ومَنْ أنتَ ؟ » فأجاب عليه الصلاة والسلام: «أنا رسول الله!...» ولم يرد في الرواية خبر عماذا

وقع بعد هذا... وإنّما ورد أنّه بإثر هذا حضر أبو لهب الذي كان بالمرصاد لكلّ موقف يقفه الرسول صلّى الله عليه وسلّم لتبليغ الدعوة فيردّ على ذلك بكلّ ما يستطيع من وجوه المحاربة والمعارضة والصدّ. فجرى بينه وبين القوم الحديث في الموضوع وحكوا له ما دعا إليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وما أخبر به من أنّه رسول الله... فقال لهم أبو لهب: «لا ترفعوا بقوله رأسا فإنّه مجنون يهذي من أمّ رأسه!». فقالوا: «قد رأينا ذلك حيث ذكر من أمر فارس ما ذكر!».

و هكذا قعد بهؤلاء القوم ما استحكم فيهم من خنوع واستسلام لقوّة الأجنبي المتسلّط حتى إلى حدّ الإياس. الإياس الذي أملى عليهم أن يصادقوا على مقال أبي لهب ليبقوا على ما هم عليه من استكانة.

و قد دلّ هذا على ما ذكر آنفاً من التفاوت والتغاير في مواقف هذه القبائل التي كان يدعوها الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الإسلام. وما ذلك إلاّ نتيجة التفاوت في المستوى النظري والفكري أيضا. فلا يخفى ما قابل به زعماء بني شيبان كلام الرسول صلّى الله عليه وسلّم الذي هو بمعنى واحد للكلام الذي كلّم به زعماء بني بكر هؤلاء من حيث استنهاض الهمم لخلع القيد الذي فرضه عليهم الفرس وأنّ هذا المطلب إنّما يحصل باستجابة الدعوة التي هو يدعوهم إليها باعتناق الإسلام فصادقوا على خبره صلّى الله عليه وسلّم هذا وصدّقوه (و إن لم يستجيبوا للدعوة) حيث قال قائلهم: «اللهم لك ذا!».

لا يخفى التفاوت البعيد بين هذا الجواب وبين جواب بني بكر المتمثّل في مصادقتهم على مقال أبي لهب الذي رمى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالجنون إنكارا لما يقول من الصدق وما يعد به ويدعو إليه من الحقّ!.

ثمّ إنّ للناظر في هذا الباب من السيرة النبويّة الشريفة ومن فحوى الدعوة التي كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يدعو بها القبائل العربيّة

للدخول في الدّين أن يأخذ منه دليلا من بين الدلائل التي تثبت أنّ الدعوة كما كانت للدّين كانت للسيادة القوميّة وعزّتها وحريّتها وأنّ الإسلام كما هو دين فهو دولة ، وكما هو منهاج للمعاملة التي بين العبد وخالقه تعالى. فهو نظام للحياة بسائر مناحيها و وجوهها.

و يوجد هنا ملحق لخبر مجلس الرسول صلّى الله عليه وسلّم هذا مع قبائل بني بكر بن وائل ، أورده البعض من مؤلّفي السيرة جاءت به رواية أخرى و واضح كلّ الوضوح منه أنّه ينافي المنافاة التامّة القاطعة جميع ما تضمّنته الرواية الأولى من الوقائع ولا وجه له - وعلى صحّة الروايات - إلاّ بصرفه إلى كونه مجلسا آخر كان له صلّى الله عليه وسلّم مع هؤلاء القبائل ، كما يقرب ذلك ما ذكر من تعدّد القبائل المنسوبة إلى بكر بن وائل المتاخمة أرضها أرض الفرس.

فجاء في هذه الرواية (الثانية) أنّ القوم لمّا سمعوا ما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام من الدعوة إلى الإسلام أوقفوا الجواب إلى أن يحضر زعيمهم الذي كان متغيّبا عن المجلس فقالوا له صلّى الله عليه وسلّم: «أنظرنا حتى يأتي شيخنا حارثة». ثمّ حضر شيخهم حارثة هذا وسمع الدعوة فأجاب يقول للرسول صلّى الله عليه وسلّم: «إنّنا اليوم في حرب مع الفرس قائمة بيننا وبينهم ، فإذا فرغنا من هذا رجعنا إليك فنظرنا فيما تقول من هذه الدعوة (على معنى إنهاء المجلس على هذا الوجه من التريّث والتأجيل)» وتعقّب هذه الرواية بخبر ما وقع بعد ذلك وهو أنّ القوم لمّا رجعوا لموطنهم وكان لهم مع الفرس موقعة قتال - فعند التهيّؤ للمعركة - وكما هو من النظم المعمول بها - إذ ذاك - أن يتّخذ العسكر شعارا من كلمة يتعارفون بها حين الالتحام مع العدوّ ، وضع لهم قائدهم (لفظ الشعار المذكور) اسم الرسول صلّى الله عليه وسلّم " محمد.... " بعدما تذاكروا ما كان بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام من مجلسهم معه بمكّة إذ سألهم القائد فقال: «ما اسم الرجل الذي دعاكم إليه بمكّة ؟ » قالوا: «محمد!»

قال: «فهو شعاركم اليوم!». وتحكي الرواية أنّ القوم كان لهم النّصر المطلوب في هذه المعركة. وأنّ خبر هذا الانتصار لمّا بلغ مكّة وسمع به الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال ما معناه: «بذكر اسمي نُصروا!» ، هذا كلّ ما جاء في هذه الرواية التي ألحقها بعض المؤلّفين بموضوع دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لبني بكر بن وائل. وظاهر منه ما فيه من الخروج عن الموضوع الأصلي إلى موضوع آخر. فبينما كان السياق في مجلس من مجالس تبليغ الدعوة إلى القبائل وإذا به ينتقل إلى الأخبار المتعلّقة بأعلام النّبوّة ممّا تقدّم إيراده من روايات هذا الباب عمّا جاء عن استفتاح يهود المدينة باسمه صلّى الله عليه وسلّم في حروبهم مع مجاوريهم من عرب الأوس والخزرج وقد تقدّمت الإشارة إلى هذه الروايات بموضعها في الدرس الرابع عشر. ولهذه الرواية الملحقة التي أغفل فيها الموضوع الأصلي من حديث الباب أخت لها نظيرتها من حيث إغفال الموضوع الأصلي والخروج بالحديث إلى موضوع أجنبي وهذه كسابقتها أوردها البعض من مؤلفي السيرة كالحلبي ودحلان أغفل فيها الموضوع تماما وتركّز الحديث فيها على ما يرجع إلى فضل النسب النبوي الشريف مع ما يستشفُّ منه من نحلة التشيع لأهل البيت. وجاء في هذه الرواية أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان ذات يوم مع أبي بكر وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما وهو في عمله الذي يقوم به من تبليغ الدعوة إلى قبائل العرب فدفع [1] هو وأبو بكر إلى مجلس من مجالس العرب. وتقدّم أبو بكر (كما هي الخطة) فسلّم على القوم وسألهم فقال: «مِمّن القوم؟» قالوا: «من ربيعة!» (و قد تقدّم ذكر ما لأبي بكر رضي الله عنه من علم واطّلاع على أنساب العرب) فقال للقوم: «من أي

---

(1) دفع: هو هنا من اللازم الذي يتعدّى بالحروف فإذا عدّي كما هنا بحرف (إلى) فمعناه القصد إلى المكان والانتهاء إليه. وإذا عدّي بحرف (عن) كان معناه الانتقال عن المكان ولا شكّ فيه أنّه يستعمل مبنيًا للفاعل ومبنيًا للمفعول ومصدره الدفع بفتح فسكون.

بيعـة ؟ مـن هامتهـا[1] أو مـن لهازمهـا...؟ » فأجـابوا: «مـن هامتهـا العظمى!»قال: «فمن أيّها ؟ (أي الهامة)» قالوا: «من ذهل * الأكبر!» فقال لهم: «أمنكم حامي الذمار[2] ومانع الجار فلان ؟ »قالوا: «لا!» قال: «أمنكم قاتل الملوك وسالبها فلان ؟ » قالوا: «لا» قال: «أمنكم صاحب العمامة[3] الفردة...؟ فلان ؟ » قالوا: «لا!»... فقال لهم: «لستم من ذهل الأكبر أنتم من ذهل الأصغر!».

و عند هذا قام إلى أبي بكر من القوم شاب كان قد بقل[4] وجهه فقال لأبي بكر: «إنّ على[5] سائلنا أن نسأله كما سألنا». فقال (يخاطب أبا بكر): «يا هذا إنّك قد سألتنا فأخبرناك. فممّن الرجل أنتَ ؟ » فأجابه أبو بكر: «أنا من قريش!» فقال الشاب: «بخ بخ[6]! أهل الشرف والرئاسة!» ثمّ قال: «فمن أيّ قريش أنت ؟ » فأجابه أبو بكر: «من ولد تيم بن مرّة!». فقال

---

(1) الهامة: بتخفيف الميم هي الرأس والمراد هنا الجهة العليا من الشيء. و"اللهازم": بالزاي المعجمة جمع لِهْزِمَة بكسر اللاّم وإسكان الهاء وكسر الزاي واللفظ في الأصل اسم للعظم الناتئ من اللحي يلي الأذن أي تحت الأذن - فالمعنى من الكلمة الأسفل-.

(2) الذمار: بكسر الذال المعجمة آخره راء معناه على العموم الحرم الذي يحمى ويحترم ويدافع عنه.

(3) وصف "العمامة" هذا رسم في نسخة الحلبية بالفاء والراء والدال المهملة كأنّه تأنيث الفرد مقابل الزوج ورسم في بعض النسخ المفردة ، ورسم في نسخة النبوية بالفاء والواو والدال المهملة كأنّه من "الفود" الذي هو جانب الرأس ممّا يحادي الأذن. والمعنى على كلّ غير ظاهر وإن كان الظاهر من المعنى بالتقريب يفيد كبر العمامة وعظمها وهو ممّا يرجع إلى ما يتباهى به.

(4) بقل: هذا الفعل مفتوح في الماضي مضموم في المضارع ومصدره البَقْل بفتح فسكون والبقول كالطلوع والظهور ومعناه الظهور والبروز والمعنى هنا أنّ الغلام كان قد بدأ ظهور الشعر في وجهه أوّل ما بدأ. يقال بقل وأبقل شعر وجه الغلام. وأثبت البعض أنّه يقال بقّل بالتشديد. بينما ينصّ بعض من ألّف في اللغة استعمال التشديد متروك.

(5) (إنّ على سائلنا) يبدو ما في نسخة الحلبيّة: " إنّ " حرف التأكيد والإبتداء المعروف وفي نسخة النبوية آن بمدّ الهمزة وتخفيف النون فهو فعل من الأوان بمعنى حان أي حلّ وقت السؤال والجاري في تعزية هذا الفعل يكون بحرف اللاّم آن له... وهو هنا قد عدّي بحرف على.

(6) بخ بخ: بالباء الموحدة السفلية والخاء المعجمة وهو اسم فعل كلمة تقال للدلالة على الرضا والإعجاب فإذا أفرد بني على السكون وإذا كرّر كما هنا كان مكسورا منوّنا.

الشاب: «أمكنت الرامي [1] من صفا الثغرة! أمنكم قصيّ الذي كان يدعى مجمعا؟ » قال أبو بكر: «لا!» فقال الشاب: «فمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه؟ »قال: «لا!» قال: «أمنكم شيبة الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء والذي كان وجهه يضيئ كالقمر في الليلة الظلماء؟ » فأجاب أبو بكر كذلك: «لا!». وتفيد هذه الرواية أنّه بإثر هذا انقطع أبو بكر رضي الله عنه عن الكلام مع الشاب وأسرع بالرجوع إلى المكان الذي يقف فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع عليّ رضي الله عنه. فحكى للرسول صلّى الله عليه وسلّم الحديث فكان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يسمع ذلك وهو يتبسّم! فقال عليّ رضي الله عنه لأبي بكر: «لقد وقعتَ من الأعرابي على باقعة [2]!» فأجاب أبو بكر: «أجل يا أبا الحسن [3]! ما من طامّة إلاّ فوقها طامّة! والبلاء موكلّ بالمنطق!...» هذا كلّ ما جاء في هذه الرواية ومع ما هي عليه من إغفال الموضوع الذي سيقت لأجله ، فهي أيضا لا تخلو من فقرات قد تقبل النقاش وترد عليها ملاحظات وأسئلة لبيان الوجه الذي تكون به محلّ قبول. ولكن من ساقها من مؤلفي السيرة - حسب ما وقع عليه الاطلاع - لم يعلقوا عليها بشيء من هذه الجهة كما هو الحال بالنسبة للرواية التي هي نظيرتها في إغفال الموضوع الأصلي من الباب والخروج بالحديث إلى مواضيع أجنبيّة [4].

---

(1) " أمكنت الرامي "... إلخ ظاهر منه معنى الأصل وهو لسنوح الفرصة لإصابة الهدف من كلامه وبقي لفظ "الصفا" وإضافته إلى الثغرة لم يتبيّن معناه...؟ . ويوجد في مراجع أخرى في سياق هذه القصّة نصّ عبارة الشاب هنا هو قوله مخاطبا أبا بكر: " أمكنت - والله- من سواء الثغرة ".

(2) جاء في تعريف "الباقعة" بأنه وصف للمذكّر كما يقال الداهية للرجل الذكي الحاذق وعرف الباقعة بأنه المجرّب الخبير للأمور. وهو في الأصل مأخوذ من اسم طير شديد الحذر من الصيّادين فإذا طار لم يلتزم جهة واحدة بل يأخذ يمنه ويسرة وهو يقصد المستنقعات.

(3) ممّا يلاحظ على ما في هذه الرواية التساؤل: هل كان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يكنّى هكذا بأبي الحسن في هذا العهد وهو لم يتزوّج بعد ولم يولد له الحسن؟ إذ المعروف أنه ما ولد له ولد الحسن رضي الله عنهما إلا بعد الهجرة بمدة وإذ ذاك كني بأبي الحسن.

(4) يوجد في مراجع أخرى غير كتب السيرة سياق هذه القصّة بين أبي بكر الصديق والفتى الأعرابي من بني شيبان بأبسط ممّا أورده هنا مؤلفو السيرة فقد جاء أنّ الفتى معروف وأنّه "دغفل" (بفتح

هذا ما ورد نقله في هذا الباب الذي هو عرض الرسول صلّى الله عليه وسلّم أمر الرسالة على قبائل العرب والمستخلص منه أنّ عامّة من دعاهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم من هؤلاء القبائل لم تكن منهم نتيجة إيجابية للغرض الذي كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقصد إليه منهم. والذي تواتر ذكره وتكرّر إيراده في كتب السيرة عن صورة ما كان يدعو إليه الرسول أولئك القبائل هو أنّه كان يدعو إلى الإسلام ويذكر ويعظ ثمّ يقول بعد ذلك: «لا أكره أحدا على شيء ممّا أدعو إليه من رضي الذي أدعو إليه فذاك! ومن كره فلا أكرهه وإنّما أريد منعي من القتل حتى أبلّغ رسالة ربّي...».

و أنّ عامّة ما كان به جواب هؤلاء القبائل على الدعوة كان مبنيّا على تقليد الملإ من قريش الجادّين في معارضة الدعوة والوقوف في طريقها، فكان مجمل مقال هؤلاء القبائل: «قوم الرجل أعلم به! أترون رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه؟!»، وهكذا حتى كان ما كان من عرضه صلّى الله عليه وسلّم الدعوة على قبائل المدينة المنوّرة من الأوس والخزرج فهو المجلس الوحيد في الباب الذي كان به الإيجاب.

و قد انكشف ما في الغيب عن مراد الربّ الخبير المدبّر الحكيم، وأنّ هذه الدعوة المحمديّة إنّما تقوم شوكتها على أيدي قبائل العنصر الثاني من عنصري العرب، عنصر القبائل القحطانية من سكان المدينة المنوّرة بعدما كانت أوّل ما ظهرت في أوساط العنصر الأوّل عنصر القبائل المضريّة العدنانيّة بمكّة المكرّمة ليقع التوازن ويحصل التكامل. وقد أفادت الأخبار المعتمدة عن تاريخ هذا المجلس الذي كان النواة للشوكة الإسلاميّة بأنّه كان بعد مضي إحدى عشرة سنة للدعوة التي قام بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم منها ثلاث سنوات سرّا أوّل الأمر وثماني سنوات بعد ذلك جهرا.

الدال المهملة وإسكان الغين المعجمة وبعدها فاء بالفتح وآخره لام) "ابن حنظلة" من بني شيبان وهو النسابة المعروف وأنّه ممّن أسلم وكان له لقاء مع معاوية زمان خلافته.

فالوارد أنّه صلّى الله عليه وسلّم فيما كان يقوم به من تبليغ الدعوة الإسلامية لقبائل العرب أيام موسم الحج قصد جماعة من عرب المدينة ممّن جاءوا مكّة للحج وكانوا نفرا قيل ستّة رجال وقيل ثمانية وكانوا يحلقون الشعر (من أفعال شعيرة الحج)، وذلك بالمكان المعروف بالعقبة[1] عند الجمرة الأولى التي ترمى من الجمار الثلاث (الرمي المعروف في أفعال شعيرة الحج). فانتهى عليه الصلاة والسلام إليهم وتعرّف إليهم كما اعتاد مع سائر القبائل التي كان يبلّغها الرسالة ولمّا عرض عليهم ما عرض من دعوته عليه الصلاة والسلام كان موقف القوم على خلاف ما كانت عليه مواقف القبائل الأخرى ممّن أبلغت إليهم الدعوة جميعا. فكان منهم القبول والإيجاب والتصديق بغير ما تردّد ولا تحفّظ ، فإنّهم بعد ما استمعوا إليه صلّى الله عليه وسلّم ممّا دعا وتلا من آيات القرآن الكريم تبادلوا الكلام فيما بينهم يحضّ بعضهم البعض على المضاء والمسارعة لإجابة الدعوة استدلالا منهم على صدقه عليه الصلاة والسلام وحقية دعوته بما كانوا يتلقّونه ويروّج عندهم من خبر نبيّ منتظر يخرج بأرض العرب ممّا صدر عن معاشريهم من أهل الكتاب من يهود المدينة. فقد كانت المدينة إذ ذاك مسكن طائفة كبيرة من اليهود إلى جانب سكّانها من عرب الأوس والخزرج. و ورد ممّا كلّم به البعض البعض الآخر من هؤلاء النفر بعد سماع الدعوة منه صلّى الله عليه وسلّم قولهم: «إنّه النبي المنتظر الذي تذكره لنا اليهود فلا تسبقنا إليه اليهود!» وما تمّ هذا المجلس من مجالس دعوته صلّى الله عليه وسلّم قبائل العرب للإسلام إلاّ بإسلام هؤلاء الجماعة من عرب المدينة وشهادتهم الشهادة المطلوبة على يده عليه الصلاة والسلام. فكان بهذا مبدأ اسم الأنصار لعرب المدينة المنوّرة. و ورد أنّ الجماعة

(1) العقبة: بفتحتين وهي التي تضاف إليها الجمرة فيقال جمرة العقبة وتأتي على يسار الطريق لقاصد منى من مكّة. وقد بني بها مسجد يدعى مسجد البيعة حيث بايع الأنصار رضي الله عنهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم البيعة الأولى والبيعة الثانية المعروفة بالبيعة الكبرى.

ودّعوه صلّى الله عليه وسلّم على وعد أن يبلّغوا الرسالة إلى أقوامهم بالمدينة وعلى تحديد ميعاد ملاقاة أخرى واجتماع معه صلّى الله عليه وسلّم في القابل أيّام موسم الحج الموالي. وكذلك كان الأمر فبعد مرور سنة وقد حلّ موسم الحج قدم من قبائل عرب المدينة هؤلاء اثنا عشر رجلا فاجتمعوا به صلّى الله عليه وسلّم وبايعوه على الإسلام وما كان يدعو إليه صلّى الله عليه وسلّم ممّا تتضمّنه الدعوة. فكان هذا مجلسا ثانيا للأنصار معه عليه الصلاة والسلام نظّمت فيه نظم وخطّت فيه خطط لقيام الكيان الإسلامي وأجّل الاجتماع الثالث إلى الموسم المقبل أيضا. فلمّا حضر الموسم وقد تمّ لمبدإ إسلام الأنصار سنتان كان الحاضرون لديه عليه الصلاة والسلام لإجراء البيعة ما يزيد على سبعين شخصا وحضر في العدّة جنس النساء فكانت البيعة الكبرى المعروفة ببيعة العقبة التي تمّ فيها الأمر بقيام الدولة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة ولم يمض بعد هذه البيعة إلاّ أقلّ من ثلاثة أشهر حتى كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يحلّ بالمدينة المنوّرة مهاجرا إليها وهي دار إسلام.

كان ذكر بعض ما تعلّق بهذا المجلس من مجالس دعوته صلّى الله عليه وسلّم لتبليغ الرسالة اقتضابا وإيجازا للمناسبة، وإتمام الباب وسيأتي - بحول الله- التعرّض بالتفصيل في الدرس الخمسين (50) الخاص بحادث الهجرة الشريفة إلى المدينة لوقائع مجالس دعوته صلّى الله عليه وسلّم قبائل عرب المدينة المنوّرة الذين كان ظهور الإسلام انتشاره بموطنهم وعلى أيديهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ربنا ورب آبائنا الأولين أرحم الراحمين وخير الوارثين مجازي المحسنين و مولى الفضل على المؤمنين وصلى الله وسلم وبارك على أفضل خلقه وأشرف رسله وأنبيائه وأكرم عبيده وأقرب أصفيائه سيدنا محمد بن عبد الله من اصطفاه ربه وأولاه القرب والزلفى ، وأراه من آياته الكبرى وعلى آله الأطهار الصالحين وأصحابه الأبرار الصادقين ومن تبعهم في سننهم المثلى إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذا تقييد الدروس المسجدية في السيرة المحمدية تابعا لما تقدم نقله في المجلدات الثلاثة السابقة تيسر بعون الله وتوفيقه افتتاحه يوم الاثنين السادس عشر من شهر رجب الحرام من العام 1391 الواحد والتسعين في القرن الرابع عشر للهجرة النبوية الشريفة يوافق السادس من شهر سبتمبر من السنة 1971 الحادية والسبعين في القرن العشرين للميلاد المسيحي وذلك ببلدة ميلة. فعلى الله الاتكال ومنه التوفيق لصلاح الأحوال وبه الاستعانة لبلوغ الآمال إنه السميع المجيب.

من قلم كاتبه

الدرس 35

موضوع الإسراء والمعراج

الإسراء:

آية له صلى الله عليه وسلم انعقد عليها الإجماع ونصه صريح في القرآن العظيم في سورة « سبحـٰن» والأحاديث الواردة به عن الصحابة رضوان الله عليهم بلغت رواتها نحو ثلاثين (بل ذكر أن رواة حديث الإسراء والمعراج من الصحابة بلغ الأربعين). صحابيا ما بين رجال ونساء. وذهب البعض من العلماء إلى أن الإسراء به صلى الله عليه وسلم تكرر ثلاثين مرة [ذكر هنا أن القائل بتعدد الإسراء بنى على أن كل راو من الرواة يخبر عن إسراء خاص وقد أنكر البعض من علماء التفسير غاية الإنكار هذا القول من تعدد الإسراء].

و المتفق عليه والمعروف أن الإسراء كان بعد البعثة. ويوجد حديث في البخاري عن أنس رضي الله عنه يفيد أن الإسراء كان قبل الوحي. وحمل هذا الحديث على أنه يشير إلى ما كان عرف عنه صلى الله عليه وسلم من الرءيا الصادقة ، فهذا الإسراء إنما كان نوما لا يقظة.

لأن ثم من العلماء من يقول بأن الإسراءات به صلى الله عليه وسلم بلغت عدتها أربعة وثلاثين منها واحد بجسمه وثلاثة وثلاثون بروحه صلى الله عليه وسلم.

ثم أن المعروف الصريح النص أن هذا الإسراء الذي كان بجسمه صلى الله عليه وسلم وقع من حيث الوقت ليلا [بحث في هذا بأن من المعروف في الاستعمال أن الإسراء كله إنمايكون بالليل ليس بالنهار ، فما الفائدة في ذكر الليل هنا ؟ وأجيب عن هذا بأن ذكر الليل يراد به التقليل أي تقليل المدة بمعنى أنه كان في جزء يسير من الليل].

و الجاري به العمل المشتهر من حيث تاريخ آية الإسراء هذه أنه السابع والعشرون من شهر رجب الحرام في السنة الحادية عشرة أو الثانية

عشرة للنبوة [وثم قول آخر وهو القول الذي حدد التاريخ بأن الإسراء وقع قبل الهجرة بستة عشر شهرا ويوافق هذا أن الإسراء كان في شوال].

و أسند القول للإمام ابن دحية بأن ذلك وافق ليلة الاثنين. وثم قول بأن الليلة الجمعة ، وأنها السبت وبجانب هذا توجد أقوال عديدة في تاريخ وشهر الإسراء فقيل سابع عشر ربيع الأول وقيل السابع والعشرون منه وقيل التاسع والعشرون رمضان وقيل الشهر ربيع الأخير وفي السابع والعشرين منه ، وقيل الشهر شوال وقيل ذو الحجة.

و على هذا فقد جاء عن البعض قوله جميع ما ذكر في الشهر والتاريخ صحيح كل ذلك وقع فيه الإسراء ولكنه الإسراء بروحه عليه الصلاة والسلام.

ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان ليلة الإسراء قد بات ببيت أم هانئ ابنة عمه أبي طالب (وتسمى فاختته) [الذي ذكره البعض ممن كتب في السيرة أن أم هانئ هذه تسمى هندا وأنها أخت للرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاع] ، وقد أعلنت إسلامها يوم الفتح وهرب إذ ذاك زوجها هبيرة* (ابن أبي وهب المخزومي) إلى نجران فمات بها على دينه.

وقيل كان مبيته بشعب أبي طالب وقيل بل بالمسجد الحرام ، ويمكن الجمع بين الروايات الثلاث بأن بيت أم هانئ* إنما هو بشعب أبي طالب فكان صلى الله عليه وسلم به وأفرج[1] عنه السقف (كما ذكر في الروايات) فخرج به الملك إلى المسجد الحرام وهو صلى الله عليه وسلم لازال به أثر النوم فاضطجع بالمسجد أيضا [يوجد في كلام بعض أئمة التفسير ما يدل على ترجيح القول بأن ذلك كان في نفس المسجد الحرام ليطابق نص اللفظ القرآني].

---

(1) جاء من التعليق على انفراج السقف بأنه كالتمهيد لما سيراه من الآيات والخوارق فإن الملك لا يحتاج في نزوله إلى خرق السقف ولا غير ذلك.

و جاء في رواية أخرى عن أم هانئ قالت: «دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلس[1] وأنا على فراشي ، فقال لي أشعرتِ بأني صليت العشاء معكِ ثم أتيت بيت المقدس فصليت به ، ثم صليت الغداة معكم كما تَرَيْن ؟ » (وعلق على هذا بأن المراد بالصلاة هي الصلاة المعهودة إذ ذاك وهي الركعتان بالغداة والركعتان بالعشي).

وفي رواية أخرى عن أم هانئ* أيضا قالت: «فقدته صلى الله عليه وسلم ليلة فامتنع مني النوم مخافة أن يكون عرض له بعض القوم من قريش» وتوصل هذه الرواية برواية أخرى تقول: فقدناه تلك الليلة فتفرق بنو عبد المطلب يطلبونه فوصل العباس إلى ذي طوى[2] وهو يصرخ: « يا محمد! يا محمد!» فأجابه صلى الله عليه وسلم: «لبيك!» فقال له العباس: « يا ابن أخي عنيت[3] قومك أين كنت ؟ » فقال صلى الله عليه وسلم: «ذهبت إلى بيت المقدس ثم رجعت»قال العباس: «من ليلتك ؟ » قال صلى الله عليه وسلم: « نعم!» قال العباس: «هل أصابك الأخير ؟ » قال صلى الله عليه وسلم: « ما أصابني الأخير!».

وجاء في حديث الإسراء هذا من الروايات ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلّم شق صدره الشريف وغسل باطنه بيد الملكين جبريل وميكائيل قبل ركوبه البراق ، كما وقع من هذا الشق له صلى الله عليه وسلم إبان رضاعه

(1) الغلس: بفتح الغين المعجمة واللام آخره سين مهملة هو اسم للظلمة التي تكون آخر الليل ومع ظهور الفجر.

(2) ذوطوى: يلفظ بضم الطاء وبكسرها والأكثر الضم ، جاء في المؤلفات القديمة أنه موضع واد على مسافة ثلاثة أميال من مكة في طريق التنعيم طريق القوافل نحو المدينة.
وذكر أنه يعرف باسم الزاهر في عهد القرون الوسطى ومنها القرن الثامن الهجري. أمّا اليوم فذو طوى داخل في بناءات مكة حيث تضخمت البلدة وتزايد بنيانها.

(3) عنيت: الأقرب أنه بالتشديد عَنَّى يُعَنِّي تَعْنِيةً. والتعنية من العَنَاء بفتح العين وهو التعب والمشقة كما تستعمل التعنية أيضا في حبس الشيء فمعنى " عنيت قومك ": أدخلت عليهم العناء وما يشق عليهم أو حبستهم.

عند حليمة السعدية وعند المبعث وعند بلوغه السنة العاشرة من عمره. وعند بلوغه السنة العشرين أيضا [هذه الروايات المتعددة في شق صدره صلى الله عليه وسلم يبدو أنه لم يستأنس منها إلا بما ورد في رضاعه عليه الصلاة والسلام عند حليمة].

وقد أنكر البعض من الأئمة رواية الشق الواردة هنا وأبطلها كالقاضي عياض وخالفه في ذلك ابن حجر فأثبتها.

و الوارد من الروايات في حادث الإسراء هذا أنّ مسراه صلى الله عليه وسلم كان ركوبا على دابة (أي حيوان) [علق على الركوب بأنه مما يدخل في مزيد التكريم والتشريف فإنه كان من الجائز أن يرفع عليه الصلاة والسلام على أجنحة الملائكة أو على غير ذلك ولكن الأمر فيه اعتبار العرف من الركوب الدال على معنى التكريم والتبجيل واستئناسا بالعادة] وسميت هذه الدابة بالبُراق بضم الباءالموحدة السفلية ثم راء مخففة ممدودة بالفتح آخره قاف، وبحث في هذا اللفظ بأن مأخذه من البرق لسرعة سيره (كما سيأتي ذكره). وقيل لِلَونه وأنه مختلط البياض بالسواد. فإنه يقال شاة برقاء إذا كان لونها كذلك وسيأتي مزيد بيان في وصف البراق. ومما جاء من البحث في البراق أيضا: هل ركب البراق غيره صلّى الله عليه وسلّم من الأنبياء....؟ .فقيل كان ذلك لإبراهيم عليه الصلاة والسلام. ويسند القول باختصاصه صلى الله عليه وسلم بركوب البراق للإمامين ابن دحية والنووي.

و من الوارد في حديث الإسراء صلاته صلى الله عليه وسلم إماما بسائر الأنبياء والمرسلين الذين كانوا قبله تلك الليلة ببيت المقدس (أي في المسجد الأقصى).

و جاء -على هذا- قول البعض من العلماء بأن الآية من سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ

ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (الاستفهام للإنكار والنفي) أي بأن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت. فيكون السؤال على حقيقة الأمر الواقع المتعارف!

و كذلك سيق في هذا الموضع ما يروى عنه صلى الله عليه وسلم ، وأنه لما علا الصخرة التي ببيت المقدس غاصت[1] قدمه بالحجر الصلد فبقي أثره به إلى الآن.

فقد سئل الحافظ جلال الدين السيوطي * عن هذه الرواية وما مقدارها من الاعتبار فأجاب بأن هذه الرواية لا أصل لها في كتب الحديث (فهي من الخرافات الباطلة).

و كذلك مما جاء من البحث في الموضوع مسألة صلاته عليه الصلاة والسلام بالأنبياء قبله وأنهم نشروا[2] له (في حياة برزخية) وقيل في البرزخ[3] بأنه عالم مثال.

وفي مسألة صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء هذه ورد عن حذيفة[4] رضي الله عنه أنه أنكر هذا وأوله بأن المراد بلفظ الصلاة إنما هو الدعاء ومع هذا فالروايات متظافرة على أنها الصلاة المعهودة.

واختلفت الأقاويل في وقت الصلاة هذه فقيل كانت قبل العروج به صلى الله عليه وسلم إلى السماء(أي على القول بالمعراج تلك الليلة). وقيل

---

(1) غاصت قدمه: لفظ القدم * مؤنث في أغلب الاستعمال وربما يذكر تارة.

(2) النَّشر: بفتح النون وإسكان الشين المعجمة آخره راء مهملة ومثله النشور بالضم مصدر نشر بالفتح ينشر بالضم معناه هنا إحياء الميت ومعلوم أن هذا الفعل لا يطلق في الحقيقة إلا على الله تعالى ويستعمل هذا الفعل بهذا المعنى مزيدا بالهمزة فيقال أنشر الميت.

(3) البرزخ: : بفتح الباء الموحدة السفلية ثم راء ساكنة ثم زاي مفتوحة آخره خاء معجمة هو في أصل اللغة اسم للحاجز بين شيأين ثم يطلق كما هنا على ما بعد الموت إلى البعث. فالأرواح بعد الموت إلى أن تبعث في النشأة الآخرة تعتبر في البرزخ.

(4) حذيفة بن اليمان: الصحابي المعروف ويعرف بصاحب سرّ الرسول صلى الله عليه وسلم وبأنه له فراسة خاصة في تمييز المنافق من المؤمن الصادق ، وقد ذكر عن حذيفة أيضا أنه كما أنكر رواية الصلاة أنكر رواية ربط البراق بحلقة باب المسجد ، وأنه ضحك من هذه الرواية يحط من اعتبارها.

بعد العروج أي في مرجعه صلى الله عليه وسلم [يوجد لبعض أئمة التفسير هنا رأي بترجيح كون الصلاة بعد العروج حيث انتهت المهمة وحصل المراد من الرحلة فختم الأمر بالصلاة] ، وقيل بل كانت مرتين قبل العروج وبعده ، وثم قول آخر بأن صلاته صلى الله عليه وسلم بالأنبياء كانت في السماء (في العالم العلوي) ، وليست في الأرض بالمرة.

وتشعب البحث في هذه الصلاة حتى تناول نوعها فما هي أفرض أم نفل ؟ ....إلخ

أما من تعليل حادث الإسراء وكونه وسيلة لرؤيته صلى الله عليه وسلم آيات الله وما تلقاه من العلم ومن ضرب الأمثال لمعرفة حقائق أمور وأشياء فهذا قد جاء به النص صريحا في الآية من قوله عز وجل: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾.

ثم أنه مما يؤخذ من هذه الآية الشريفة بكامل الوضوح ومن لازم ما جاء فيها من هذا الخبر مما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم أن هذه آية من أعظم ما له عليه الصلاة والسلام ، من آيات النبوة ومن التكريم والتشريف لقدره عليه الصلاة والسلام ولذلك فلا يجوز بحال أن تكون آية الإسراء هذه مجرد رءيا منامية كما حكي ذلك من قول وحشي بلغ أقصى مستوى في النزول والهبوط بالمعنى من الآية.

فالقيل بأن الإسراء إنما كان بالروح فقط هو في معنى الرءيا المنامية ، وغير جائز ولا مقبول بل ومن قبيل غير المعقول أن يكون تأويل الآية ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ... ﴾ راجعا إلى رءيا منامية [ليس المقام هنا مقام التنظير بين الرؤى المنامية بين الأنبياء وعامة الناس فمعلوم أن رءيا النبي صادقة ومنها ما هو وحي ، وإنما المراد أن الرءيا المنامية من حيث هي بطبيعتها بالنسبة لجميع العباد فلا يمكن أن تكون

آية الإسراء على ما فيها من التنويه به صلى الله عليه وسلم مجرد رءيا منام]، يرى مثلها أو أكثر منها عامة عباد الله ولقد أبدى التعجب من صدور هذا القيل واستفهم عن الداعي الذي دعا إليه البعض من المفسرين عندما تطرق إلى تفسير الآية الواردة في الإسراء. ومن هؤلاء المؤلفين من قال عنه: أنه قيل لا يعبأ به (و لا يستحق المناقشة لسقوطه) ومنهم من أغفله بتاتا فلم يتعرض لذكره. وفيهم ممن توخى طريق الإطناب في إيراد الروايات والأقوال - من تصدى لمناقشته ومحاجته مجاراة شكلية بإقامة دليل من الطبعي المعروف بديهة لدى العموم يدل على بطلان القول المذكور وكونه من الخطإ البالغ الوضوح ، وذلك بأنه من المعلوم بالأخبار المتواترة المستفيضة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أخبر بآية الإسراء صبيحته وأحب أن ينشرها لإقامة الحجة على خصومه [و مما جاء من التعليق للعلماء هنا أن من الحكم في الإسراء به عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس أن قومه كانوا يترددون كثيرا على هذا المكان ويعرفونه غاية المعرفة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم معلوما حاله عندهم بأنه ممن لا يعرف هذا المكان وأنه لم يدخله قط ، وبهذا تظهر آية صدقه في الإسراء وبالتالي في دعوته عامة كاملة الوضوح قاطعة البرهان]، قابله قومه هؤلاء بضجة صاخبة من الإنكار والتشنيع وأغرقوا في تكذيبه الإغراق كله. فكان البعض لما سمع الخبر يصفق والبعض يضع يده على رأسه استعظاما لما أنكر ، وجابهه منهم من كان متحفظا نحوه في السابق بالإعلان بتكذيبه وحتى كان من ارتد وقد كان قبلا ممن أسلم. أفيجوز أن يكون هذا الإنكار لخبر رءيا منامية أخبرهم بها عليه الصلاة والسلام ؟!.

هذا ومن الوارد أن قومه صلى الله عليه وسلم مع إنكارهم هذا لخبر الإسراء تصدوا إلى مناقشته فطالبوه بإقامة الدلائل على صدق خبره. فقالوا له: «صف لنا مسجد بيت المقدس مفصلا بابًا بابًا وجدارا جدارا ، وناحية ناحية»...إلخ. فكان عليه الصلاة والسلام يجيبهم على ذلك بكل تدقيق.

و زادوا على ذلك بأن قالوا له: « زدنا آية أخرى مما يكون كشاهد عيان لك على صدق ما تقول ». فذكروا له عيرا لهم كانت ذهبت الى أرض الشام وهي في الوقت في طريقها راجعة إلى مكة! فأخبرهم عليه الصلاة والسلام بما كان له مع هذه العير وشرود جمل من الجمال التي توجد في هذه العير... إلى آخر ما ورد في هذه الرواية التي سيأتي ذكرها تفصيلا.

ومما جاء من البحث في باب حديث الإسراء المدة التي استغرقها الإسراء من الزمان فقد قيل أن الواقعة كلها بتمامها إنما استغرقت لحظة يسيرة من الوقت حيث قيل أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع الى مضجعه بمكة وجده دافئا من أثر نومه قبل الحادث!.

و جاء التعليق على هذا بأن لله تعالى أن يطوي الزمان كما يطوي المكان ، فكما يكون الإسراع في قطع طرق السير يكون مثل ذلك في الوقت أيضا. وقيل أيضا أن حادث الإسراء بكل ما فيه استغرق من الوقت مقدار ثلاث ساعات أي من أربعة وعشرين من مجموع الوقت الذي يقدر مثلا من الغروب إلى الغروب الموالي.

و على كلٍّ فالوارد المعروف أنه صلى الله عليه وسلم أسري به ليلا ورجع به في ليلته فكان بموطنه بمكة بالغلس.

و أما المعراج فهو عروجه صلى الله عليه وسلم إلى العالم العلوي (رحلة أخرى كرحلة الإسراء أو هي مرحلة من الرحلة) أي بالجسد والروح من المسجد الأقصى إلى حيث شاء الله من منازل العالم العلوي حيث شاهد ما شاهد ورأى ما رأى من آيات الله الكبرىٰ ووقوع مثل هذا الأمر ليس مما يمتنع عقلا وما هو إلا من الآيات الخارقة للعادة فقط [أثبت عند تقييد الدرس مؤخرا أي بعد إلقائي للدرس بنحو ربع قرن: صدق الله سبحانه وتعالى القائل في كتابه العزيز: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ . فإذا كان للخلاف في المعراج أهو يقظة أو مناما ؟

شيء من الموضوعية في سالف ما مر من الزمان ، فنحن الذين نعيش في أواخر القرن الرابع عشر الهجري الموافق للشطر الأخير من القرن العشرين الميلادي قد شاهدنا ما بلغ إليه علم الطبيعة وتسخيرها على أيدي بني الإنسان من عجائب الصنع وغرائب المنتجات حتى تعلقت الهمم بقطع الأفلاك للوصول إلى ما يتراءى من كواكب السماء وتحقق فعلا وصول بني البشر إلى كوكب القمر ووطئوه بأقدامهم واقتطعوا العينات من تربته بأيديهم فرجعوا بها إلى الأرض مغتبطين بالرحلة على أن تعاد الكرة وتتعدد العودة لتوسيع الخطة ، فلسنا بحاجة إلى التأويل فيما ورد من آيات الإسراء والمعراج].

و هذا هو مذهب الجمهور ، ومقابله القول بأن المعراج إنما كان بالروح فقط فيكون من الرؤى المنامية (رؤى الأنبياء التي لها الاعتبار الخاص من حيث الصدق والحق حتى أنها تعد من الوحي الإلهي). وعلى أن المعراج كان بالجسد والروح كالإسراء وأنه كان من صخرة بيت المقدس إلى العالم العلوي فهو من حيث الوقت في نفس ليلة الإسراء فهي رحلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم إلى عالم السمٰوات ثم كان الرجوع مرورا بالمسجد الأقصى إلى المسجد الحرام. وعلى أن المعراج إنما هو رءيا منامية فهو في ليلة أخرى غير ليلة الإسراء.

و يلاحظ هنا أن المعروف من الأخبار عن مبدإ فرض الصلوات الخمس إن ذلك كان في مشهد المعراج وأنها فرضت قي السماء وأتى بها الرسول صلى الله عليه وسلم كتحفة مما أتحف به من الكرامات في رحلته القدسية وأنه صلى الله عليه وسلم ابتدأ أداء الصلوات الخمس من صلاة الظهر من اليوم الذي أصبح عن ليلة مسراه إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس حيث نزل عليه جبريل عليه السلام فعلمه الصلاة... أي أمّه فيها. فالدلائل والروايات متظافرة على اتحاد الإسراء والمعراج في ليلة واحدة.

وإذا عرف أن الإسراء دليله من القرآن واضح وهو مفتتح سورة «سبحان» وقد سميت بسورة الإسراء ، فإن المعراج دليله من القرآن أيضا الآيات من سورة النجم ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿13﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿14﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿15﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿16﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿17﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿18﴾ ﴾.

فمن المفهوم أن المعني بالكلام الراجع إليه الضمير في فعل الرؤية مما جاء في مفتتح سورة النجم هذه إنما هو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. وقد أثبتت له هذه الآيات مشهدا في العالم العلوي وأنه رأى ما رأى من الآيات ببصره ، فمن هنا أخذ دليل المعراج من القرآن الكريم [ظاهر كل الظهور ما بين آيتي الإسراء في سورته والمعراج في سورة النجم من التغاير في الأسلوب ، فبينما يكون في الإسراء النص واضحا صريحا كان الأسلوب دقيقا لطيفا في المعراج ، ولا يخفى ما في ذلك من التناسب لكل من الحادثين. فالأول يتعلق بعالم الشهادة المعروف والثاني يتعلق بعالم الملكوت الغيبي المحجب. ولهذا - أيضا - جاءت معظم الروايات بأنه عليه الصلاة والسلام إنما أخبر قومه صبيحة الحادثين بالإسراء إلى بيت المقدس وعلى هذا وحده انصبّ الحديث وتداول الكلام بينه وبينهم. وأبقى على حديث المعراج فكان هذا كالخبر الخاص بينه صلى الله عليه وسلم وبين المسلمين المصدقين له.

و إن كان في البعض من الروايات أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن قام الدليل على صدق حديثه من الإسراء مع القوم المنكرين ، ووضعهم بذلك موضع المعاند المكابر عقب على ذلك وزاد فأخبر بالمعراج أيضا].

هذا وقد قيل أنه مما يشير إلى آية الإسراء من القرآن الآية التي هي من سورة الإسراء أيضا وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً

لِّلنَّاسِ ﴾.

فيقول أصحاب هذا القول أن هذه الآية تشير إلى حادث الإسراء ذلك الحادث الذي أوقع فتنة للقوم بمكة عندما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم. والرءيا هنا يراد بها رؤية العين لا رءيا المنام كما هو المستعمل الجاري بأن الرءيا المرسومة بالألف تدل على رءيا المنام فهي هنا مستعملة في رؤية البصر يقظة أي فيجوز أن تكون الرءيا بالألف يراد بها رؤية العين أيضا.

و لكن هذا القول يعارضه القول المقابل له وهو القائل بأن الرءيا المرسومة بالألف لا تستعمل إلا في رءيا المنام وهو الأمر الذي تتميز به عن رؤية البصر يقظة والتي تتميز برسمها بالتاء وأن هذا الاستعمال لا ينبغي العدول عنه لأنه المعروف ولذا فإن هذا القول المعارض يجعل الرءيا المذكورة في آية الإسراء هذه رءياه عليه الصلاة والسلام بالحديبية بأنه دخل وصحبه المسجد الحرام وتخلف تحقيق الرءيا إلى العام المقبل.

و هذه الرءيا هي التي تشير إليها آية سورة الفتح في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾...إلخ.

و يوجد قول ثالث في آية الرءيا المذكورة في سورة الإسراء يصرف الرءيا إلى رءيا المنام ولكنه يجعلها تشير إلى رءياه صلى الله عليه وسلم يوم وقعة بدر حيث رأى مصارع صناديد قريش بالمكان فكان الأمر كذلك واقعا حقا من صبيحة الليلة [محصل ما جاء في تأويل الرءيا المذكورة بأنها جعلت فتنة للناس أقوال عدة: القول الأول بأنها رؤيته صلى الله عليه وسلم ما رأى ليلة الإسراء وهذا هو الوارد عن عامة المفسرين من السلف ويؤيده سياق الآيات ، وإنما يرد عليه العدول عن الاستعمال المألوف في الرءيا بالألف بأنها رءيا المنام وهو يصرفهاهنا إلى رؤية اليقظة البصرية.

القول الثاني هو الذي راعى الإستعمال المعروف في لفظ الرءيا بأنها منامية وجعلها رءياه صلى الله عليه وسلم في وقعة الحديبية وقد أوقعت فتنة في الناس الذين هم الصحابة رضوان الله عليهم حتى زال ذلك بتحقيق رءياه في العام المقبل...و هو لا بأس به من جهة النظر وإنما يرد عليه أن السورة مكيَّة فيجاب بأنه قد ذكر أن سورة الإسراء فيها العدة من الآيي المدنية.

و يظهر - والله أعلم - أن هذين القولين هما اللذان لهما وجاهة.

القول الثالث هو الذي جعلها رءياه صلى الله عليه وسلم يوم وقعة بدر مصارع رؤس المشركين يومها ووجه الفتنة فيه غير واضح وأن جعل له تأويل كما يرد عليه أن السورة مكية.

القول الرابع هو الذي تمشى مع الاستعمال في لفظ الرءيا فجعلها مناما مع أنها هي واقعة الإسراء والمعراج مستدلا بها على أن الإسراء كان رءيا منامية ولا يخفى ضعفه إذ كيف تكون الفتنة من أجل الرءيا المنامية ؟ وقد ذكرت أقوال أخرى في تأويل هذه الرءيا التي جعلها الله فتنة للناس لا حاجة لإيرادها لأنها ليست بذات بال في الموضوع].

ثم أنه مما ينبغي الانتباه إليه في باب حديث الإسراء والمعراج من أبواب السيرة النبوية الشريفة ما أفاده الكثير من العلماء المحققين في هذا الموضوع وهو أن روايات الأخبار في هذا الباب جاءت متغايرة في كثير من حكايات الوقائع بل ومتضاربة تارة وفيها الخلط بين ما هو من موضوع الحادث وما هو أجنبي عنه وفيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة كما أنه دس فيها الكثير من الأخبار المنكرة والمستغربة الوحشية وحتى الخرافات المبتذلة إلى غير ذلك مما هو من طبيعة الحال في الأحداث العظيمة التي تتناقلها الأخبار وتتكاثر عنها الروايات. والواقع مع ذلك أن آية الإسراء والمعراج في مقدمة ما ثبت من آيات النبوة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام مما يستغني الاستغناء كله عما يلصق به للتنميق والتأنيق مما صح سنده وثبت دليله مما يروى في جزئيات الآيات التي أخبر بها القرآن -

وهو على كل حال بعض من كل - تعين الأخذ به لا محالة وما لم يكن كذلك فلا حاجة به ولا داعي لإعارته أي اهتمام فيكفي ما أفادته الآيات القرآنية في كل من حادثي الإسراء والمعراج بأن مدار الأمر في كل منهما على أراءته صلى الله عليه وسلم ورؤيته آيات الله وأنها الآيات الكبرى. أما ما يحتمله باب حديث الإسراء والمعراج من بحوث وتعاليق فهو باب من أوسع ما يكون لهذا المعنى وقد أفرد بالتأليف الخاص.

و مما جاء لبعض من ترجم لآية الإسراء والمعراج هذه ما معناه: هي كرامة وإكرام ، ووفادة للتكريم والإكرام.

فكما كان يأتيه الوحي من الحضرة القدسية نودي عليه ودعي ليأتي هو تلك الحضرة القدسية ، وكما يأتيه الناموس المطهر دعي ليأتي عالم الملكوت المطهر.

الدرس 36

عرض الصورة المنسقة لحادث الإسراء والمعراج "كما جاءت به الروايات الإخبارية"

- **ففيما يخص الإسراء:**

بعد انفراج السقف [سقف البيت الذي كان به الرسول صلى الله عليه وسلّم نائما ، إنفرج لينزل منه الملك جبريل عليه السلام وتقدم التعليق على حكمة هذا الانفراج لأنه من المعروف أن الملك كان ينزل عليه كيفما كان الحال لا يحجبه قفل باب ولا سمك جدار] للبيت الذي كان به الرسول صلى الله عليه وسلم نائما (كما تقدم ذكره). و حديث شق صدره صلى الله عليه وسلم على أيدي الملئكة جاء في إحدى الروايات عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « بينما أنا نائم جاءني جبريل فهمزني[1] فجلست فأخذ بعضدي فأخرجني إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض فوق الحمار دون البغل مضطرب الأذنين (أي طويلهما) فركبته فكان يضع حافره مدّ بصره. وفي رواية: « ينتهي خفها حيث ينتهي طرفها »[هكذا كان يورد الحديث عن البراق تارة بصيغة التذكير وتارة بصيغة التأنيث باعتبار المركوب والدابة... وجاء هنا من التعليق وإيراد الروايات العدد العديد حتى قيل أن البراق لا يوصف من جهة الجنس لا بالذكورة ولا بالأنوثة. وكذلك تعددت روايات وصف البراق فذكر في البعض منها أن له جناحين بفخذيه وآخر تطول رجلاه وتقصر يداه إذا كان في مصعد من المكان ، وعلى العكس من ذلك أي تطول يداه وتقصر رجلاه إذا كان في منحدر من الأرض إلى غير ذلك مما جاء في وصفه].

---

[1] الهمز: بفتح الهاء وإسكان الميم آخره زاي مصدر يأتي الفعل منه مفتوحا في الماضي ، مكسورا أو مضموما في المضارع وينصرف إلى معان متغايرة ومعناه هنا مخصوص بمطلق الغمز والمس للتنبيه.

ورد هنا رواية نفور هذه الدابة منه صلى الله عليه وسلم وما قال جبريل للدابة. وما كان بعد ذلك للدابة من استكانة... وتراجع وخجل وما علق على هذا الخبر وما نقل عن حذيفة رضي الله عنه من إنكار هذا الخبر وإستبعاده. وتوصل هذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم: «ثم سرت وجبريل لا يفارقني» (و بحث هنا في ركوب جبريل معه صلى الله عليه وسلم أولا) يقول صلى الله عليه وسلم: «حتى انتهيت إلى بيت المقدس فأوثقته (أي المركوب) بالحلقة بالباب حيث كانت الأنبياء توثق بها». (وفي هذا المحل بحث عن الربط كما ورد عن حذيفة رضي الله عنه استنكاره لهذه الرواية في ربط الدابة...). وتوصل الرواية بقوله صلى الله عليه وسلّم: فنشر لي رهط[1] من الأنبياء فيهم إبراهيم وموسى وعيسى فصليت بهم» ، (وفي رواية) أنه صلى الله عليه وسلم صلى مع جبريل فلم يلبثا حتى اجتمع ناس في عدد كثير من النبيئين وهم بين قائم وراكع وساجد ، وأقيمت الصلاة (و قدمني جبريل فصليت بهم أي إماما).

و في رواية أسندت لابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس جمع الله له الأنبياء آدم فمن دونه في سبعة صفوف أربعة من الأنبياء وثلاثة من الرسل فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إماما ، وتوصل الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم: « واستويت على البراق فما كان بأسرع من أن أشرفت على مكة ومعي جبريل فصليت بها الغداة».

و جاء هنا أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر أم هانئ خبر الإسراء هذا قال لها: « أني أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت». (و جاء من التعليق على هذا بأنه صلى الله عليه وسلم أحب أن يظهر آيات الله وما

---

(1) الرهط: بفتح الراء وإسكان الهاء آخره طاء مهملة وقد يستعمل بفتح الهاء ، له معان والمراد منها هنا العدد ويستعمل هذا العدد فيما بين الثلاثة إلى العشرة ويخص الذكور دون الإناث (ويشبه في هذا المعنى لفظ - النفر -)

يدل على عظمة قدرة الله وكذا ما منّ الله تعالى به عليه من النعماء ولم يستطع أن يخفي هذا الأمر ويكتمه للعلم بأن هذا من مزيد البراهين على صدق ما جاء به من الدعوة.

و يوصل سرد الرواية بقول أم هانئ: «فعلقت[1] بردائه وقلت له أنشدك[2] الله ابن عم أن تحدث (أي أن لا تحدث) قريشا فيكذبك من كان صدقك». وفي لفظ: «أن يكذبوك وأخاف أن يسطوا بك»...قالت: « فضرب صلى الله عليه وسلم بيده على ردائه فانتزعه من يدي»(تقول أم هانئ هنا): « فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عكنه[3] و كأنه طي القراطيس واذا نور ساطع عند فؤاده كاد يخطف بصري فخررت ساجدة ولما رفعت رأسي فإذا هو قد خرج فقلت لجاريتي نبعة[4] اتبعيه وانظري ما يقول ، ولما رجعت الجارية أخبرتني بأنه صلى الله عليه وسلم انتهى إلى نفر من قريش بالحطيم[5] فيهم المطعم بن عديّ وأبو جهل والوليد فأخبرهم الخبر.

ومن سياق رواية أخرى هنا: أنه صلى الله عليه وسلم لما مضى إلى الحرم ليحدث قومه بحديث الإسراء كان يعرف على القطع بأن الناس تكذبه من الأصل وما أحب أن يكتم ما هو دليل على قدرة الله وعلى علوّ مقامه صلى الله عليه وسلم الباعث على أتباعه ، فأخذ مجلسه من الحرم يبدو عليه الحزن ، وإذا بأبي جهل يأتيه فيجلس إليه وقال له كالمستهزئ: " هل

---

(1) علقت: الفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع ومصدره العُلُوق بالضم وله معان متغايرة ويختص هنا بمعنى الاستمساك والاتصال الشديد التعلق.

(2) من النشدة بكسر النون وهي في معنى القسم للتوسل إلى المنشود أن يقبل الطلب ، فالفعل يتعدى لمفعولين وماضيه مفتوح والمضارع مضموم وقد يكسر.

(3) العكن: بصيغة الجمع جمع عكنة وهي ثنايا لحم البطن وتقدم بيانه في الدرس الثامن عشر.

(4) جاء في ترجمة نبعة هذه ، بالنون والباء الموحدة التحتية والعين المهملة ، أنها جارية حبشية الأصل وهي ممن اعتنق الإسلام معدودة في النساء الصحابيات.

(5) الحطيم: بفتح الحاء المهملة وكسر الطاء المهملة وهو المكان الواقع بين باب الكعبة والحجر الأسود وعرفه البعض بأنه ما بين الركن ومقام إبراهيم ، وسمي بالحطيم للازدحام الذي يقع بين الناس عنده كأنهم يحطمون بعضهم فيه وربما ورد إطلاقه على كامل المكان المسمى بالحجر.

كان من شيء ؟ " ، فأجاب صلى الله عليه وسلم: نعم! قال: فما هو ؟ قال: أسري بي الليلة! قال: إلى أين ؟ قال: إلى بيت المقدس! قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم! (و تفيد هذه الرواية هنا) أن أبا جهل تمالك أعصابه فأبدى مصطنعا حالة الاعتياد قائلا له صلى الله عليه وسلم: أرأيت إن دعوت القوم أن تحدثهم بما حدثتني ؟ ظنا منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يجحد الخبر إذا ما كان ذلك في ملإ من الناس. فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: نعم! وإذ ذاك أخذ أبو جهل يصيح في الناس: " يا معشر بني كعب بن لؤي أقبلوا لتسمعوا".

فهرعت إليهما الجموع من كل ناحية ، فقال أبو جهل له صلى الله عليه وسلم: « حدث قومك بما حدثتني!» ، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يحدث الملأ بخبر الإسراء كما تقدم ذكره حتى بلغ قوله: «فنشر لي رهط من الأنبياء فيهم إبراهيم وموسى وعيسى» وهنا ابتدره أبو جهل كالمستهزئ قائلا: «صفهم لي [1]».

فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يصف الرسل فقال عن عيسى عليه* السلام أنه فوق الرُبْعة [2] و دون الطويل عريض الصدر ظاهر الدَّم كأنما يتحادر من لحيته الجُمان [3] (أي اللؤلؤ) وكأنما خرج من ديماس [4] (أي الحمام).

---

(1) مفهوم أن هذا السؤال عن وصف الرسل (عليهم الصلاة والسلام) ليس بمعنى السؤال عن مسجد بيت المقدس فهو سؤال لمحض التعنت.

(2) الربْعة: : بفتح الراء وسكون الباء وصف لمقدار القامة من الشخص يدل على التوسط بين الطول والقصر.

(3) الجمان: بضم الجيم وتخفيف الميم آخره نون ، اسم للؤلؤ جمعا فيقال في الواحدة منه جمانة.

(4) الديماس: يستعمل بكسر الدال وبفتحها مع إسكان الياء ، آخره سين مهملة خصص هنا بالحمام وهو في الأصل مأخوذ من الدمس بالسكون وهو شدة الظلمة حيث يقال ليل دامس ودمس وأدمس الليل ، ومن هذا جاء اسم الداموس للمكان السفلي المظلم.

و في رواية أخرى عن وصف عيسى عليه السلام أنه آدم تعلوه صهبة كأنه عروة بن مسعود الثقفي *[1] (تشبيها للتقريب بمن يعرفه القوم).

و في وصف موسى عليه السلام قال صلى الله عليه وسلم وأمّا موسى * فضخم آدم طويل كأنه من رجال شنوأة، كثير الشعر، غائر العينين متراكم الأسنان مقلّص[2] الشفتين خارج اللثة[3] عابس.

و أما إبراهيم * عليه السلام فوالله إنه لأشبه الناس بي خلقًا وخُلقًا - وفي لفظ من الرواية - وأما إبراهيم فلم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه...! (يعني صلى الله عليه وسلم بالصاحب نفسه صلى الله عليه وسلم). وهنا قامت الضجة في القوم وأعظموا الأمر مشددين الإنكار فأخذ البعض منهم يصفق والبعض يضع يده على رأسه تعجبا وسخطا - وورد هنا أن البعض ممن كان أسلم قبل جاهر بالإرتداد عما كان أعلنه قبل من الإسلام[4].

وورد هنا عن المطعم بن عديّ أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم:

---

(1) جاء من التعريف بعروة بن مسعود هذا أنه رجل من قبيلة ثقيف الذين هم أهل مدينة الطائف ولما غزا الرسول صلى الله عليه وسلم الطائف بعد فتح مكة وحاصرها جيش الصحابة ثم رجع عنها الرسول صلى الله عليه وسلم وقفل راجعا إلى المدينة لحق به عروة هذا في الطريق فأسلم على يده ثم رجع إلى قومه يدعو إلى الإسلام فقتلوه، وقد شبهه الرسول صلى الله عليه وسلم بالرجل المؤمن الذي قتله قومه من أهل القرية وقصته في سورة" يس"، وقد اشتهر في اسم هذا الرجل بأنه حبيب النجار لأنه كان صانع نجارة.

(2) قلصت الشَّفة: بمعنى انكمشت مرتفعة إلى الأعلى، والفعل منه بهذا المعنى مفتوح في الماضي مكسور في المضارع، مصدره القلوص بالضم.

(3) واللِّثة: بكسر اللاّم وتخفيف الثاء المثلثة اسم لما يظهر من اللحم الذي هو منبت الأسنان وتجمع على لِثىً بالكسر ولِثات بالكسر ولُثي بضم اللام وكسر الثاء.

(4) إذا كان ثم ما يقال عن ردة من ارتد عن الإسلام عندما سمع بخبر الإسراء فالذي ينبغي أن يقال فيه أن إسلامه من أول الأمر لم يكن عن إيمان صادق صحيح، ذلك لأن الإيمان الحق ليس من شأنه أن يتزعزع أو يتراجع بعدما تحتل بشاشته القلب، بلغت ما بلغت عظمة التيار المعاكس له، بل الشأن أن مثل آية الإسراء مما يتجدد ويزداد بها إيمان من كان آمن من قبل. والشاهد على هذا موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

«أن أمرك قبل اليوم كان أَمَمًا[1] (أي يسيرا) غير قولك اليوم. وأنا أشهد أنك كاذب!» ، وقال: « نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس-مصعدًا شهرا ومنحدرًا شهرا- وتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة!! واللاَّتَ والعزىٰ لا أصدقك...» ، وهنا تدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال للمطعم: «بئس ما قلت لابن أخيك! ، جبهته بالمكروه وكذبته! ، أنا أشهد أنه صادق».

و جاء في رواية أخرى ، أن القوم بعد ما سمعوا منه صلى الله عليه وسلم خبر الإسراء ، هرعوا إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا له: « أولم تسمع صاحبك يقول كذا وكذا ؟ » (مما ذكر من خبر الإسراء) فأجابهم أبو بكر رضي الله عنه يقول: « أو قد قال ذلك ؟ ، فإن كان قال ذلك فهو صادق!» (وهذا قبل أن يتصل أبو بكر به صلى الله عليه وسلم) وأكبر القوم ما أجابهم به أبو بكر ، فقالوا له: « أتصدقه أنت في مقاله هذا ؟ » فأجاب أبو بكر: « إنّي لأصدقه فيما هو أبعد من هذا! إني أصدقه في خبر السماء في غدوة وروحة! (وردت هنا الروايات التي تفيد بأن في هذا اليوم صدرت تسمية أبي بكر* رضي الله عنه وتلقيبه بلقب "الصديق "و أن هذا نزل به الوحي بلسان جبريل[2] عليه السلام " فإنه رضي الله عنه صدق يوم كذب الناس "....

و جاءت روايات الخبر تفيد بأنه بعد هذا الموقف ، تصدى القوم من قريش لمناقشة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به من خبر الإسراء ، فأخذوا يوجهون إليه الأسئلة عما يعرفون من بيت المقدس ، فجاء

---

(1) أَمَمًا: بفتح الهمزة وفتح الميم الأولى ثم آخره ميم هو بوزن لَمَم ومعناهما متقارب فإن الأمم بالهمزة جاء في معناه أنه القرب ، وفسر في بعض كتب السيرة بأنه اليسير والقليل والسهل ونحو ذلك.

واللّمم باللام معروف بأنه مقاربة الذنب والخطأ كما فسر بأنه صغار الذنوب.

(2) ذكر في هذه الرواية التي تفيد أن لقب الصديق نزل به الوحي بأنها من مرويات نبعة جارية أم هانئ بما أنها كانت تشاهد الواقعة.

في رواية أن المطعم بن عدي قال- بعدما تقدم-: « فصف لنا بيت المقدس» (المفهوم أنه المسجد) فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: « أني دخلته ليلا وخرجت ليلا[1]».

و ما أسرع ما كان أن تمثل له صلى الله عليه وسلم المسجد مقابلا له بصورته كما هو... ، وذلك على جناح الملك جبريل عليه السلام. فجعل عليه الصلاة السلام يصف لهم المكان باباً بابا و ركناً ركناً... الباب الفلاني مقابل كذا ، والنافذة كذا تقابل الناحية كذا ، وما مقدار المسافة بين بناية المسجد وجبل المدينة إلى غير ذلك من التفاصيل... وفي كل ما يجيب الرسول صلى الله عليه وسلم ينطق أبو بكر رضي الله عنه بقوله: «صدقت! أشهد أنك رسول الله!» ، ويتهامس القوم فيما بينهم يقول الواحد منهم للآخر وأبيك لقد أصاب وما غادر منه شيئا!.

و مع هذا كله فقد تمادى القوم على عنادهم فقالوا فيما بينهم لعله أن يكون حفظ الوصف وأخذه عمن يعرف المكان فزادوا يقولون له صلى الله عليه وسلم زدنا آية نستدل بها على صدقك (غير وصف بيت المقدس[2]) ، فهل رأيت في مسراك شيئا مما يدلنا على صدقك ، فأخبرنا عن عيرنا الذاهبة والقادمة من بيت المقدس فهي في الطريق فهل لقيت من هذه

---

(1) في انكشاف المسجد الأقصى له صلى الله عليه وسلم عند هذا الموقف ورد الكثير من التعليق على واقع هذا الانكشاف ، فمما قيل من ذلك أن المسجد رفع له كما وقع لعرش بلقيس ، ونوقش هذا القول بأنه قول يعوزه التحقيق فلا يعتمد به. وقيل أنه انكشاف بإزاحة الحوائل وتقريب المسافة (أي بواسطة النور) حتى كان يرى المسجد بمكانه من غير ما رفع ولا نقل ، واعتمد البعض من الأئمة هذا القول ولكن القول الذي يبدو أنه المأخوذ به والمشتهر هو ما تقدم في أول السياق وأنه انكشاف بعرض المثال طبق الأصل مرسوما على جناح الملك وأشهد على هذا القول بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم وأنه قال رأيت الجنة والنار في عرض هذا الحائط ، فهذا من باب المثال.

(2) فقد ذكرت إحدى الروايات أن القوم بعدما سمعوا منه صلى الله عليه وسلم وصف بيت المقدس ، قالوا للمطعم بن عدي وهو الذي سأل وصف بيت المقدس: دعنا يا مطعم من بيت المقدس فما لنا وبيت المقدس ؟ ، فلنسأل عن شأننا (وما يخصنا ويتعلق بنا). فسألوا عن العير.

العير شيئا ؟ وهل عندك من خبر عنها ؟ وأجاب صلى الله عليه وسلم عن سؤالهم عن العير ، فقال: « مررت في ذهابي بعير بني فلان فأنفر عيرهم حس الدابة (أي البراق) فند[1] لهم بعير فدللتهم عليه ، ولما رجعت مررت بعير بني فلان القادمة) فوجدت القوم نياما ولهم إناء ماء قد غطوا عليه فشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان». وزاد عليه الصلاة والسلام هنا فقال لهم عن العير القادمة: « أنها ستصوب من الثنية " فانتظروها فإنها يقدمها جمل أورق[2] عليه غرارتان سوداء وبرقاء[3] ». وتفيد هذه الرواية أن القوم خفوا للمكان يترقبون العير فطلعت عليهم كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فابتدرها القوم يسألون عما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من شرود البعير[4] وفراغ إناء الماء ، وغير ذلك فأجابهم المسؤلون عن ذلك كله بما تبين به صدق خبره عليه الصلاة والسلام.

ويوجد في هذا المحل من حديث سؤال قريش للرسول صلى الله عليه وسلم عن العير وما أجاب به الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك العدد المتغاير بين بعضه البعض من الروايات ، ففي البعض منها زوائد لم تذكر في البعض الآخر ، وفي البعض مايخالف الوارد في البعض الآخر ، بل يوجد في هذا المحل ما يعارض بعضه البعض ويتضارب معه في صلب السياق الواحد من الرواية نفسها.

فمما جاء من هذه الروايات المتعلقة بالعير التي سألته صلى الله عليه وسلم عنها قريش رواية تخبر بأنه صلى الله عليه وسلم مر بالعير فسلم عليهم (أي على أصحاب العير من حيث لم يروه..... فقالوا هذا صوت

---

(1) ندّ البعير: بمعنى شرد ونفر والفعل بالنون والدال المهملة من المضاعف بكسر في المضارع ومصدره الند بالفتح والنديد والندود بالضم والنداد بالكسر.

(2) الأورق: وصف لما كان ممتزج اللون ببياض وسواد.

(3) وكذلك البرقاء كما تقدم في أول الحديث.

(4) يلاحظ أن شرود البعير كان في العير الذاهبة إلى بيت المقدس فربما يكون في سياق هذه الرواية طي في الكلام وأن القوم سألوا العير الأولى يوم قدمت كذلك.

محمد...) ولماقدمت هذه العير مكة أخبروا بهذا الخبر أيضا.

ومنها الرواية التي أفادت أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر قريشا بقدوم عيرهم حدّد لهم وقت وصولها مكة ، فقال لهم أنها تطلع عليهم مع بزوغ الشمس من يوم كذا... وتجمع القوم في الوقت يترقبون قدوم العير وبزغت الشمس فقال البعض: هذه الشمس قد بزغت (أي والعير لم تقدم) وإذا بالبعض يقول: وهاهي العير قد أقبلت (أي حيث كان من يراقب الشمس لم ينتبه لقدوم العير).

و قد زيد في هذه الرواية المتعلقة بشأن طلوع الشمس خبر آخر يفيد أن الشمس كان ميقات طلوعها في الواقع قبل قدوم العير ولكنها[1] حبست (أي في انتظار قدوم العير) حتى تكون مقارنة لقدوم العير تصديقا لنص خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتكون هذه آية أخرى لصدق خبره صلّى الله عليه وسلّم وهي أي الآية وقوف الشمس له عليه الصلاة والسلام.

و مع أن هذا الخبر عن وقوف الشمس كغيره مما زيد في أخبار حادث الإسراء والمعراج لم يتعرض لذكره عامة مؤلفي السيرة.

فإن البعض الذي أورده أضاف إليه البحث الصادر من العلماء في هذه المسألة مما لا حاجة لإيراده في هذا الباب لبعده وخروجه عن الوضوع.

و إنما الثابت من الأخبار هنا أن القوم المنكرين عليه صلى الله عليه وسلم خبر الإسراء عمدوا بعدما قهرتهم آيات صدقه صلى الله عليه وسلم وأفحموا فلم يجدوا ما يردون به - إلى محض العناد - فقالوا: صدق الوليد! أي في قوله أنه ساحر. فردوا الأمر إلى السحر وهو آخر ما أمكن لهم التعلل به ليبقوا على إنكارهم.

---

[1] في هذه الرواية ذكر طلوع الشمس ، وتوجد رواية أخرى بجانبها تذكر غروب الشمس ، وإن حبس الشمس إنما كان من الغروب.

هذا ومن الوارد المعروف أن في صبيحة[1] ليلة الإسراء نزل جبريل عليه السلام بتعليم وقوت الصلاة أي الصلوات الخمس المعروفة ، فعلمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، يؤُمّه في كل صلاة منها في وقتها المحدد ، وكان البدء بصلاة الظهر من نفس اليوم.

و بناء على ما تظافرت عليه الأخبار من كون الصلاة (أي الخمس) فرضت في مشهد المعراج عند سدرة المنتهى ، فيتعين على هذا أن تكون ليلة المعراج في نفس ليلة الإسراء.

(1) يؤخذ مما جاء من التعليق أن الصبيحة ما يصدق على مبدإ النهار إلى الزوال لأن مما ورد في نزول جبريل كونه في وقت فرض الصلاة وهو زوال الشمس.

الدرس 37

- آيات الإسراء -

وهي مناظر رآها الرسول صلى الله عليه وسلم في مشهد مسراه وترجع في جملتها إلى باب ضرب الأمثال ، وضرب الأمثال كما يقع بالكلام يقع بالتشخيص في عالم المثال والتشخيص بيان للحال في دار العمل. ثم أن المثال واقع حقيقة في دار الجزاء ، ورؤيته صلى الله عليه وسلم ما رأى من هذه الأمثلة هو تعليم وإنذار للأمة.

و جاء هنا التعليق على ما لباب ضرب الأمثال من مكانة واعتبار ، حيث كان أحد عناصر الدعوة للإرشاد والهداية ويكفي للدلالة على عظم خطره ما جاء في القرآن العزيز من التنويه بشأنه وما ورد في القرآن الكريم من عديد الآيات المتضمنة ضرب الأمثال. جاء خبر هذه الآيات من طريق الروايات الإخبارية وفيها ما اشتهر وفيها ما هو دون ذلك. وأفاد البعض من مؤلفي السيرة أن آيات الإسراء هذه وقعت له صلى الله عليه وسلم في طريق ذهابه (مسراه) من مكة إلى بيت المقدس.

و فيما يلي سردها مرتبة بحسب مراعاة واقع الظرف ومعينة بالأرقام:

(1)- فجاء أنّه صلى الله عليه وسلم لما ركب البراق وسار به وبمعيته جبريل عليه السلام ووصل إلى أرض ذات نخيل قال له جبريل اِنزل فصلّ هنا ، فنزل صلى الله عليه وسلم فصلى ثم ركب وتابع سيره فقال له جبريل أتدري أين صليت ، إنك صليت بطيبة وإليها المهاجرة (المراد المدينة المنورة). ثم لما وصل صلى الله عليه وسلم إلى بقعة بعدها قال له جبريل انزل فصل هنا ، فصلى كذلك وقال له جبريل أنك صليت بمدين*[1] .

ثم لما وصل إلى بقعة بعدها قال له أيضا أنزل فصل هنا فصلى.

---

[1] جاء تعريف "مدين" بأنها قرية سميت بمدين بن إبراهيم حيث تراها وهي قرب مدينة غزة بأرض سيناء وعندها الشجرة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وأرسله إلى فرعون.

كذلك وقال له جبريل إنك صليت ببيت لحم[1] (حيث ولد عيسى عليه الصلاة والسلام).

(2)- وورد أنه صلى الله عليه وسلم فيما كان يسير به البراق التفت فرأى عفريتا من الجن بيده شعلة من نار وهو يركض قصد اللحاق بالركب (من حيث لا يصل). وقال جبريل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم (يشير إلى العفريت)«ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لوجهه ؟ قل أعوذ بوجه الله الكريم[2] ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ماذرأ[3] في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق[4] الليل والنهار إلاّ طارقا يطرق بخير يا رحمٰن». فلما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم انطفأت شعلة العفريت وخر منكبا على وجهه.

(3)- وورد أنه بينما كان عليه الصلاة والسلام يسير إذ رأى يمينه بجانب الطريق شخصا يدعوه إليه: "يا محمد!" ، فلم يلتفت إليه. ثم أوضح جبريل عليه السلام حال هذا الداعي فقال للرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا داعي اليهودية ولو كنت تستجيب له لتهودت أمتك!

---

(1) بيت لحم*: القرية المعروفة قريبا من بيت المقدس وقد اشتهر أن عيسى عليه الصلاة والسلام كانت ولادته في هذه البقعة.

(2) وفي لفظ آخر بوجه الله العظيم.

(3) ذرأ: بالذال المعجمة ثم راء ثم آخره همزة ، فعل من المفتوح في الماضي والمضارع ومصدره الذرء بفتح فسكون بوزن قطع وهو متعد للمفعول ومعناه الخلق. يقال ذرأ الله الخلق ومنه في القرآن «و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس»و كذا«يذرؤكم فيه» ونظيره في جميع الوجوه فعل برأ بالباء الموحدة السفلية. يقال "برأ"الله الخلق. أمّا إذا استعمل هذا الفعل بالدال المهملة (درأ) فهو كذلك مفتوح ماضيا ومضارعا ومصدره الدرء بفتح فسكون ومعناه الدفع. فيكون متعديا ويستعمل لازما ومصدره الدُّروء بالضم بوزن الدخول والطلوع ومعناه هنا ظهور الشيء وطلوعه على حال مفاجأة ومباغتة.

(4) و في لفظ آخر " ومن شر طوارق الإنس والجان وطوارق الليل والنهار".

(4)- ثم رأى عليه الصلاة والسلام شخصا مثل الأول بجانب الطريق شماله يدعوه أيضا ولم يلتفت إليه ، وأوضح له جبريل الأمر كما في الأول يقول له أن هذا داعي النصرانية ولو أنك استجبت له لتنصرت أمتك!.

(5)- كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم رأى في طريقه الدجال الأكبر الموعود بخروجه قبيل قيام الساعة وهو الملقب بالمسيخ بالخاء المعجمة وشبهه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تحدث للقوم عنه بمن هو معروف عندهم وهو رجل هلك في الجاهلية يسمى بعبد العزىٰ* ابن قطن[1].

(6)- وورد أيضا أنه صلى الله عليه وسلم بينما كان يسير إذ رأى شخصا منتحيا عن الطريق وهو يدعوه بشدة وجد يقول: « هلمّ يا محمد!» ، فقال جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم: « سر يا محمد! هذا عدوّ الله إبليس يحاول أن تميل إليه!".

(7)- كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم فيما كان يسير هبت ريح استنشق منها طيبا وأخبره جبريل بأن هذه ريح ماشطة* بنت فرعون (وهذه المرأة لها قصة وردت بها أخبار التاريخ. كانت هذه المرأة تخدم بيت فرعون المعروف تلي شئونها ومنها مشط شعرها وكانت الماشطة هذه ممن آمن برسالة موسى عليه السلام ولم تعلن إيمانها كما هو حال الرجل المؤمن[2] من آل فرعون المذكورة قصته في القرآن الكريم حتى ناسبت المناسبة لإعلان إسلامها وإيمانها بدعوة موسى عليه السلام. ولما بلغ مسمع فرعون خبر إيمانها حاول صدها فامتنعت وآل الأمر إلى الانتقام منها بالقتل فقتلت هي وجميع أعضاء بيتها الذين كانوا كلهم مؤمنين برسالة موسى عليه السلام. وتفيد الأخبار عنها أنها قتلت حرقا بالنار فكانت لذلك

---

(1) القَطَن: بفتح القاف وفتح الطاء المهملة آخره نون من معاني هذه الكلمة أنها اسم للموضع الذي هو بَيْن وركني الإنسان (في مؤخر الظهر) وهو المراد هنا حيث سمي به أبو هذا الرجل.

(2) وقد اختلفت روايات الأخبار في اسم هذا الرجل المؤمن ويعتمد البعض أن اسمه (سمعان)* وقيل خربيل بالخاء المعجمة ثم راء ثم باء موحدة تحتية وقيل حزبيل بالحاء المهملة ثم زاي ثم باء وآخره لام.

شهيدة من أعلى مقام في الشهداء.

(8)- وورد أنه صلى الله عليه وسلم مرّ في مسراه إلى بيت المقدس بواد به ريح باردة ورائحة ذكية مسكيَّة ويسمع منه صوت نغم جميل، فأخبره جبريل عليه السلام بأن هذه ريح الجنة وصوتها تدعو فيه الله تعالى تقول: « اللهم ائتني بما وعدتني به (و أعددتني إليه) من جوار عبادك الصالحين (وما في معنى هذا)».

(9)- وورد أنهُ عليه الصلاة والسلام مرّ كذلك بواد به ريح خبيثة ويسمع منه صوت مزعج فأخبره جبريل عليه السلام بأن هذه ريح جهنم وهذا صوتها، وهي كذلك تدعو الله أن يعجل لها بما وعدها به من سكنى الأشرار من عباد الله الظالمين المتجبرين (وما في معنى هذا...).

(10)- وورد أنه صلى الله عليه وسلم مرّ في طريق مسراه بقبر رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام بالكثيب الأحمر المعروف في الطريق إلى بيت المقدس فرآه قائما يصلي في قبره فسلم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فرد السلام ورحب به ودعا له بخير وأبدى موسى عليه السلام اغتباطه بمقام محمد صلى الله عليه وسلم، وخصوصا ما يتعلق بجهة الأمة. وورد في هذه الرواية أنه صلى الله عليه وسلم لما فارق موسى عليه السلام سمع منه صوتا فيه تذمر[1] يقول فيه أكرمتَه! فضلتَه!(يناجي ربه).

و سأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عما يقول موسى فأجابه يقول أن موسى يعاتب ربه فيك! (ويفهم هذا على معنى الاغتباط من موسى عليه السلام بعلوّ مقام محمد صلى الله عليه وسلم).

(11)- وورد أنه صلى الله عليه وسلم التقى في طريق مسراه هذا بخليل الله إبراهيم عليه السلام فوجده تحت ظل شجرة مع عياله ومع من يرعى من الصبيان، فسلم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر جبريل الذي عرفه إليه فقال له: « هذا أبوك إبراهيم» ورحب إبراهيم عليه السلام

(1) التذمر: بالذال المعجمة هو بهذه الصيغة صيغة التفعل معناه اللوم على سبيل الغضب. وقيل فيه أنه رفع الصوت الصادر عن التفضب وقد يكون هذا اللوم والتفضب على نفس المتذمر، بمعنى أن المتذمر هو من يلوم نفسه بكلام فيه تغضب من نفسه لنفسه.

به صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير، وأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخص جمع الصبيان حول إبراهيم عليه السلام بأنهم أولاد الناس الذين يموتون قبل بلوغ سن التكليف، فكلهم سواء كانوا أولاد مؤمنين أو أولاد كفار تحت كفالة إبراهيم عليه السلام[1].

و يلاحظ هنا أن هذا اللقاء بينه صلى الله عليه وسلم وبين إبراهيم وموسى[2] عليهما السلام هو غير اللقاء المذكور في لقاء عدة من الأنبياء في مشهد المعراج في العالم العلوي وبذلك يفهم أن لقاءه صلى الله عليه وسلم مع هذين الرسولين تكرر مرتين: الأولى في مشهد الإسراء والثانية في مشهد المعراج).

(12)- كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم لما وصل في مسراه إلى بيت المقدس واستوى على الصخرة، رأى حول ذلك جمعا من النسوة وعرفه جبريل عليه السلام بأنهن فريق من الحور العين. فقال له: «أتريد أن ترى الحور العين؟ فها هن فاذهب فسلم عليهن». وسلم الرسول صلى الله عليه وسلم عليهن وأجبنه بالترحيب وتبادل معهنّ الحديث، فكان مما قلنَ له صلى الله عليه وسلم عن شأنهنّ " نحن خيرات حسان نساء قوم أبرار نقوا

---

(1) جاء في لفظ رواية أخرى إبراهيم يعلّم أو يكفل أولاد المؤمنين ولكن الذي أخذ به أهل التحقيق من أئمة العلم هو هذا: أولاد الناس ليشمل الجميع بناء على المذهب المعتمد من نجاة أولاد الكفار الذين يموتون صغارا فهم من أهل الجنة.

(2) ينظر في حكمة تخصيص هذين الرسولين عليهما الصلاة والسلام بتكرر اللقاء به صلى الله عليه وسلم. فهو ولا بد لحكمة ومعنى وإشارة لأمر ما. وقد عرف من آيات القرآن العظيم في غير ما آية قرن اسمي هذين الرسولين في سياق واحد، ففي سورة سبح ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ و في سورة النجم: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿36﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿37﴾ ﴾ وفي سورة الشورى: ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وفي سورة مريم: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ثم سيق بعده: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ﴾ وقد عرف من الأخبار أن إبراهيم كان مظهر رحمة وسماحة وحنان وأن موسى كان مظهر قوة وفتوّة، كما وصف إبراهيم في القرآن بأنه الأواه الحليم وموسى بأنه القوي الأمين ومحمد صلى الله عليه وسلم جمع بين الوصفين وبدا بالمظهرين فيكون الأمر إشارة إلى الكمال الجامع بين الجمال والجلال وأن هذا حال محمد صلى الله عليه وسلم.

فلم يدْرَنوا[1] وأقاموا فلم يضعنوا فخلدوا فلم يموتوا...".

(13)- وورد أنه صلى الله عليه وسلم لما وصل بيت المقدس وصلى بالأنبياء فيه كما تقدم ذكره حسب الروايات الواردة في هذا ، شعر عليه الصلاة والسلام بعطش شديد حصل له فأوتي بالشراب بواسطة جبريل عليه السلام وقدم له صلّى الله عليه وسلّم عدة من أنواع الشراب على أن يختار منها ما يريد. واختلفت الروايات هنا في عدد ونوع الشراب واشتهر من ذلك أنه قدم له إناءان أبيض وفيه لبن وأحمر وفيه خمر[2]. وفي رواية أخرى إناء به ماء وآخر فيه لبن وفي رواية أخرى إناء به ماء وآخر فيه لبن وفي رواية أخرى أواني لبن وعسل وماء.

و في رواية أن الأواني أربعة بها الأشربة الأربعة المذكورة في أنهار الجنة وهي اللبن والماء والعسل والخمر. وعلى كل فالوارد أنه صلى الله عليه وسلم اختار مما قدم له من الأشربة إناء اللبن الذي كان لونه أبيض فهو الذي شرب منه ، وعند ذلك قال له جبريل عليه السلام لقد أصبت الفطرة[3].

---

(1) لم يدرنوا: من الدرن بالدال المهملة والراء وآخره نون محرك فتحتين وهو الوسخ الذي يعلو الشيء فيذهب بنقائه. والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع.

(2) ومن المعلوم أن في هذا العهد كانت الخمر مباحة ولازال لم يشرع تحريمها. فقد حرمت بعد الهجرة ، كما هو من المعلوم أيضا أنه صلّى الله عليه وسلّم لم يشربها قط في جملة ما تنزه عنه من الأمور من أول نشأته حفظا وإلهاما من الله.

وهذه الرواية في كون الإناءين اثنين فقط وأنهما لبن وخمر هي الرواية التي يبدو رجحانها وعليها الاعتماد وما عداها هو مما اعتيد من زيادات الأخبار التي لا مكانة لها من الاعتبار بالنظر لحال السند الذي يرد به الخبر.

(3) الوارد في معنى لفظ الفطرة بكسر الفاء وإسكان الطاء المهملة بعدها راء ، لغة أنه إنشاء الشيء ابتداءً لأول مرة فلذلك عرفت الفطرة بالخِلقة بكسر الخاء ، وجاء في التعليق على لفظ الفطرة هنا عدة عبارات فقيل السنة ، وقيل الصواب ، وقيل الأصل وقيل الدين الحق وهو الإسلام إلى غير ذلك مما هو من معنى الأصالة والثبوت.

الدرس 38

- تابع آيات الإسراء وما يخص منها مناظر ضرب الأمثال -

(1)- ورد أنه صلى الله عليه وسلم رأى قوما يزرعون حقولا[1] لهم وبمجرد ما يزرعون ينبت الزرع ، و يحصدونه في نفس الوقت فإذا حصدوا نبت من جديد وهكذا حالهم ، زرع وحصاد في آن واحد. وسأل صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فأخبره بأن القوم هم المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم يضاعف لهم ثواب العمل وأجر ما أنفقوا في سبيل الله من النفقة.

(2)- ورأى صلى الله عليه وسلم في الطريق امرأة تعترضه حاسرة عن ذراعيها شأن الجاهد في عمله المقتص[2] لغيره ، وعليها من أنواع الزينة الكثير المختلف الأصناف وهي تدعوه صلى الله عليه وسلم تقول: " يا محمد أنظرني أكلمك!" فأهمل أمرها عليه الصلاة والسلام ولم يلتفت إليها ، وأخبره جبريل عليه السلام بأن هذه هي الدنيا.

(3)- ثم رأى صلى الله عليه وسلم بجانب الطريق امرأة عجوزا قد أفنى عليها الدهر وأخذ منها الهرم كل مأخذ وأخبره جبريل عليه السلام بأن العجوز هي الدنيا باعتبار عمرها وما بقي لها من الوجود.

(4)- وأبصر عليه الصلاة والسلام شخصا يجمع حزمة حطب يريد حملها على ظهره ، وأخذ يكدس الحطب في الحزمة ويزيد عليه مما لا يتصور حمله ومع ذلك فهو يزيد ويتابع التكديس قصد الحمل ومع ذلك فهو لم يحمل. وأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا المثال بأنه الرجل الذي ينتدب لحمل الأمانة وهو غير أهل لها ولا قادر على الوفاء

---

(1) حقول: جمع حَقل بفتح الحاء المهملة وسكون القاف وآخره لام ويطلق الحقل على القطعة من الأرض الطيبة ، كما يطلق على نفس الزرع حَالَمَا يكون أخضر قبل أن تغلظ سوقه.

(2) المقتص لغيره: الأشبه به أنه من اقتصاص الأثر. يقال اقتص أثره بمعنى تتبعه وطلبه ليتمكن منه ، فهو بمعنى ملاحقة المطلوب على حالة شدة الحرص والجد لإدراكه.

بحقها ، ثم هو يزج بنفسه في هذه المسؤلية فيقبلها ويلتزم بها من حيث لا يوفي.

(5)- وشاهد عليه الصلاة والسلام أشخاصا ترضخ[1] رءوسهم ، كلما رضخت عادت فيعاد عليها الرضخ وهكذا... لا يفتر عنهم. وأخبره جبريل بأن هؤلاء القوم هم الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة (أي هم تاركو الصلاة).

(6)- وأبصرعليه الصلاة والسلام ناسا على إقبالهم[2] رقاع وعلى أدبارهم رقاع (يفهم على الجملة عراة) يسرحون كالأنعام ويأكلون الضريع[3] والزقوم[4] ورضف[5] جهنم.

و أخبره جبريل عليه السلام بأن هؤلاء القوم هم الذين لا يؤدُّون حق الله في أموالهم (فهم مانعو الزكاة).

(7)- واطلع صلى الله عليه وسلم على قوم بين أيديهم لحم نضيج طيب في قدور نظيفة ، وبجانب ذلك لحم نيء خبيث المنظر نتن الرائحة ، وجعل هؤلاء القوم يعدلون عن اللحم الطيب إلى الخبيث فكانوا يأكلون

---

(1) ترضخ رءوسهم: أي تكسر. وتقدم في الدرس الثاني والثلاثين التعليق على هذه المادة بشيء من البسط.

(2) أقبالهم: جمع قُبُل بضمتين وهو مقابل الدُّبر.

(3) الضريع: بالضاد المعجمة وآخره عين مهملة جاء في تعريفه أنه الشوك وأنه شوك نبات بالحجاز يسمى بادام رطبا بالشِبرق بكسر الشين المعجمة بعدها باء موحدة سفلية ساكنة ثم راء مكسورة وآخره قاف ، فإذا يبس صار شوكا وهو المسمى بالضريع.

(4) الزقوم: بفتح الزاي وتشديد القاف مضمومة آخره ميم وأصل هذه المادة يرجع إلى معنى الالتقام والابتلاع والبلع بمشقة ، والزقوم جاء فيه أنه نبت مُرُّ الطعم معروف بأرض تهامة. ومن المعلوم أن هذه المسميات مما جاءت به الآيات القرآنية هي مما يعرف مسماه في الدنيا ولكنها في الآخرة على معنى يغايرالمعروف في الدنيا ، ذكر للتقريب للفهم. وهذا شامل لما هو من أنواع النعيم كأنواع الفواكه والمأكولات والملبوسات والحلي ونحو ذلك. وما هو من أنواع العذاب والمكروه كالزقوم والضريع والغسلين والحميم وغير ذلك.

(5) الرضف: بفتح الراء وإسكان الضاد المعجمة آخره فاء ويستعمل بفتح الضاد أيضا هو اسم جمع ، واحده رضفة ويطلق على الحجر المحمى الذي يصير كالجمر يكوى به.

من الخبيث. وأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا المنظر بأن قال له هذا الرجل تكون له الزوجة الحلال يتركها ويذهب فيبيت مع المرأة التي يخادنها[1] حراما ، وهذه المرأة يكون لها الزوج الطيب الحلال فتخونه وتذهب فتبيت عند (مع) الرجل الفاجر الذي تخادنه حراما وفسوقا (فهذا المثال لفريق الزناة).

(8)- ونظر صلى الله عليه وسلم بالطريق خشبة لا يمر بها شيء إلا اعترضته وما هو كالثوب إلا وخرقته. وأخبره جبريل عليه السلام عن هذا المثال بأنه لقاطع الطريق ومن يقوم بالبغي والأذى للمارة في السبيل.

(9)- ورأى صلى الله عليه وسلم أشخاصا يسبحون في نهر من دم ويلقمون الحجارة وأخبره جبريل عليه السلام عنهم بأنهم أكلة الربا.

(10)- ورأى عليه الصلاة والسلام بالطريق حجرا صغيرا يخرج منه ثور عظيم ثم يريد الثور أن يرجع إلى داخل الحجر فلا يستطيع ذلك ويبقى الثور في محاولته اليائسة وأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا المثال بأنه للمتكلم بالكلمة الفاحشة أو الخاطئة التي يندم صاحبها.

(11)- ورأى صلى الله عليه وسلم قوما شغلهم كله إنما هو خمش[2] وجوههم وصدورهم بأظفارهم وهي أظفار من نحاس وأخبر جبريل عليه السلام خبر هؤلاء القوم بأنهم المغتابون.

(12)- ورأى صلى الله عليه وسلم قوما تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد وكلما قرضت عادت ، فيعاد القرض وهكذا لا يفتر عنهم ، وأخبره جبريل عليه السلام عن هؤلاء الصنف من الناس بأنهم خطباء الفتنة (كما جاء

---

(1) المخادنة: بين الشخصين صلة صداقة وتعلق لأن الخِدن بكسر الخاء المعجمة وإسكان الدال المهملة وآخره نون هو الصاحب بعلاقة خاصة. وجمعه أخدان وقد جاء في غير آية من القرآن عند وصف المحصن من الرجل والمرأة بأنه من لا يتخذ أخدانا.

(2) الخَمش: بفتح الخاء المعجمة وسكون الميم وآخره شين معجمة مصدر الفعل الماضي منه مفتوح والمضارع يكسر ويضم ويأتي منه المصدر بوزن الدخول والطلوع فيقال الخُموش ومعناه معروف بأنه الخدش واللطم بأظافر اليد ونحوها.

في لفظ بعض الروايات)، فهم الذين يسخرون حناجرهم وألسنتهم للدعاية الضالة المغرضة مما يضلل الناس ولا يأتي بخير.

وجاء في لفظ بعض روايات أخرى أنهم الذين يقولون ما لا يفعلون والذين يعظون ولايتعظون، فهم الخطباء الزائفون، المتشدقون[1] والمتحذلقون[2] القائمون على خدمة المظاهر مع خراب الضمائر.

والوارد من أخبار هذه الآيات يفيد أن جميع ما ذكر من تعريف جبريل عليه السلام لتلك المناظر وتفسير تلك الأمثلة إنما كان جوابا لسؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عما يسأله عنه. فإنه صلّى الله عليه وسلّم عندما يرى المنظر يسأل جبريل عليه السلام يقول له: " ما هذا يا جبريل؟ " فيجيبه جبريل بما هو حقيقة ذلك الأمر.

و كذلك مما تفيده هذه الروايات في معظم ما ذكر من مناظر ضرب الأمثلة أن جبريل عليه السلام كان ينص في الجواب على أن المثال للفريق من الأمةالمحمدية (أي أمة الإجابة).

فجاء من هذا المعنى في تفسير مثال حامل الأمانة العاجز عن الوفاء - عبارة -" هذا الرجل من أمتك تكون عنده أمانات للناس لايقدر على أدائها ثم يزيد عليها" إلخ.

و في مثال الزناة: " هذا الرجل من أمتك تكون له الزوجة الحلال إلخ... وهذه المرأة من أمتك...كذلك". وجاء التعبير هكذا: " من أمتك"، في باقي الأمثلة الأخرى.

---

(1) المتشدق: مأخوذ من الشِدق بكسر الشين المعجمة وإسكان الدال المهملة وآخره قاف. ويقال الشدق بفتحتين وهو جانب الفم بمعنى زاويته، لأن للفم زاويتين هما الشدقان. والمتشدق هو الذي يتفصح ويتكلف ويتصنع في الكلام يلوي به شدقيه مع كون كلامه ذلك فارغا من المعنى هزيلا من الإفادة، ليس فيه إلا المظهر، فهو كلام الأفواه، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

(2) المتحذلق: من مادة الحاء المهملة والذال المعجمة وآخره القاف وزيد قبلها اللام. وعرف المتحذلق بأنه المتكلف المتصنع لمظهر الحذق والمهارة بالشيء. فإذا كان المتحذلق بالكلام فهو المكثار المهدار على غير طائل فكل من التشدق والتحذلق بمعنى واحد أو كالمعنى الواحد.

الدرس 39

- المعراج وما فيه من الآيات -

ورد من روايات الأخبار فيما يخص آية المعراج أنه صلى الله عليه وسلم بعد وصوله إلى بيت المقدس ، وشهوده ما شاهد من آيات الإسراء كما تقدم ايراده ، أُتي له صلى الله عليه وسلم بالمعراج [1] وهو كالآلة التي يرقى عليها للعلوّ ذات أدراج ومراقي وهو أيضا ما يطلق عليه اسم السُلَّم ، فنصب على صخرة مسجد بيت المقدس وعليه كان الرقيّ الى السماء مع رفقة جبريل عليه السلام ، وانتهى الصعود إلى السماء الأولى المسماة بالسماء الدنيا ، وكان التوقف عند بابها فاستفتح الباب جبريل ، وكان السؤال من حفظة هذه السماء من الملائكة لجبريل عمن استفتح وعن المجيء بالصيغة المعهودة " من الطارق ؟ "قال: « جبريل!» ومن معك ؟ قال: « محمد!» فقال الحافظ: « أوقد بعث إليه ؟ »(وفي لفظ: « أوقد أرسل إليه ؟ ») فأجاب جبريل: نعم! فرد الحفظة: « مرحبا وأهلا فنعم القادم ونعم المجيء».

و تفيد مختلف روايات الأخبار هنا عبارات ترحيب وتكريم للرسول صلى الله عليه وسلم من الملائكة الموكلين بهذا المقام من العالم العلوي مختلفة فيما بينها بالطول والإيجاز [2].

و فيما شاهد عليه الصلاة والسلام من آيات المعراج ، ما ورد من الروايات عن لقياه عليه الصلاة والسلام بإخوانه الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه.

فجاء من ذلك أنه صلّى الله عليه وسلم لما حل بالسماء الأولى

---

(1) جاء في المعراج العدد الكثير من الأخبار عن شكله وأنه من أحسن ما خلق الله من الخلقة من حيث جمال الصورة وبهاء المنظر الخ... ما جاء من هذه الأخبار.

(2) فمما ورد من صيغة ما يرد به الحفظة من الترحيب به عليه الصلاة والسلام (مرحبا به وأهلا حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء).

استقبله بها آدم[1] عليه السلام ، وقام جبريل عليه السلام بالتعريف بينهما يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: « هذا أبوك آدم». ويقول لآدم: « هذا محمد!» فرحب آدم به صلى الله عليه وسلم قائلا: « مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح!»[جاء من التعليق للعلماء على لفظ الصلاح * الذي وصف به الأنبياء عليهم السلام الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المشهد من المعراج ، فيقول البعض منهم مرحبا بالابن الصالح والنبيّ الصالح ، ويقول البعض مرحبا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح.

جاء في هذا أنه بعدما عرف عن معنى الصلاح بأنه جامع خلال الخير والشخص الصالح هو من يقوم بما يلزم من حقوق الخالق والمخلوق ، فإنه مع هذا لابد أن يفهم وأن صلاح الأنبياء جنس آخر أو هو طراز أعلى من صلاح الأمم والأفراد. يدل على هذا المعنى ما ورد عنهم عليهم الصلاة والسلام من طلبهم ودعائهم لله تعالى الحصول على هذا الوصف كما في دعاء إبراهيم: " رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين " ويوسف: « توفني مسلما وألحقني بالصالحين» وسليمان: " وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين " إلى غير ذلك مما جاء عنهم عليهم السلام). وفي لفظ من بعض الروايات قوله صلى الله عليه وسلم: " فلما فتح لنا فإذا أنا بآدم عليه السلام ، فرحب بي ودعا لي بخير".

و من روايات حكاية ما شاهد عليه الصلاة والسلام من الآيات في هذه السماء الأولى: أن آدم عليه السلام كان إذ ذاك يستعرض أرواح بنيه ذات اليمين (للسعداء) وذات الشمال (للأشقياء) فيقول: "روح طيبة من جسد طيب اجعلوها في عليين ، وروح خبيثة من جسد خبيث اجعلوها

---

(1) بحث في لفظ آدم هل هو عربي أم عجمي ؟ فقيل عجمي وأنه لفظ سرياني. ولكن حقق البعض أنه عربي وأنه مشتق من الأدمة بضم الهمزة وإسكان الدال المهملة وهي سمرة اللون التي هي امتزاج البياض بالحمرة ، أو هو مشتق من الأديم بفتح فكسر وهو وجه الأرض كما يطلق الأديم أيضا على ما يبدو من وجه الأرض أو السماء أو غير ذلك حتى أنه يقال أديم النهار أي معظمه وعامته.

وقد جاء في الروايات عن صورة آدم عليه السلام مما حكاه الرسول صلى الله عليه وسلّم عنه في هذا المشهد أنّه على أحسن ما يكون صورة يوم سواه الله تعالى وأبرزه للوجود في أحسن تقويم.

في سجين". وأنه كان في هذه الحال إذا التفت الى اليمين ابتهج وانبسط وضحك ، وإذا ما التفت إلى الشمال عبس واكتأب وبكى.

و جاء هنا من الروايات ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم شاهد عدة من مناظر ضرب الأمثال المتعلق بأحوال الناس من أمته (كما تقدم ذلك له في طريق مسراه من مكة إلى بيت المقدس):

(1)- فمن ذلك رجال [1] لهم مشافر [2] كمشافر الإبل بأيديهم قطع من نار كالأفهار [3] يقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أدبارهم. وسأل عليه الصلاة والسلام جبريل عليه السلام عن هؤلاء الفريق فأخبره بأنهم أكلة أموال اليتامى ظلما.

(2)- ومن ذلك: رجال لهم بطون متفاحشة الاتساع (وفي لفظ لهم بطون كأمثال البيوت وترى في بطونهم حيات مختلفة الأشكال ، ترى تلك الحيات من خارج وهي داخل البطون موقوفون(هؤلاء الفريق) في طريق آل فرعون (الذين يعرضون على النار غدُوّا وعشيا) ، ويمر فريق آل فرعون وهم كالإبل المَهْيومَة [4] على القوم غلاظ البطون فيطاؤنهم من حيث لا يستطيعون الخلاص منهم إذ كلما حاول الواحد منهم أن يسعى

---

(1) جاء من التعليق على لفظ الرجال بأنه لا يفيد الاختصاص فالنساء معهم سواء وإنما ذكر الرجال للتغليب ولمراعاة غالب جريان العادة بأن الرجال مقدمون في هذه الولاية أكثر.

(2) المشافر: جمع مِشفربكسر الميم وسكون الشين المعجمة آخره راء وهو اسم للشفة ويختص بشفاه الإبل.

(3) الأفهار: وكذا الفهور صيغة جمع لفِهر بكسر الفاء وسكون الهاء آخره راء وهو الحجر الذي يملأ الكف.

(4) المهيومة: بصيغة المفعول بمعنى الإبل التي أصابها الهُيام بضم الهاء وتخفيف الياء المثناة التحتية آخره ميم. وجاء في تعريفه أنه داء يصيب الإبل فتنقطع عن الأكل وغيره وتشرد وتسوء حالها شبه مرض الكلب الذي يصيب البعض من الحيوان غيرها.كما جاء في تعريفه أنه العطش ، فالهيام يطلق على العطش أيضا وقد أفاد البعض أن الهيام الذي هو المرض ينشأ عن العطش فمن كثرة العطش تصاب الإبل بمرض الهيام. ويتم فهم هذا المشهد لقارئ القرآن من سورة المؤمن (غافر) عند الآيات من قوله تعالى: ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾.

خرّ لوجهه ساقطا. وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هؤلاء المعذبين من هم؟ ، فأخبره بأنهم أكلة الربا. (و يلاحظ أنه قد تقدم مثال لأكلة الربا في بعض آيات الإسراء بأنهم يسبحون في نهر من دم ويلقمون الحجارة).

(3)-... رجال (أي أشخاص) بين أيديهم لحم نضيج طيب يعرضون عنه ، ويذهبون إلى تناول لحم نيء خبيث منتن الرائحة فيأكلون من هذا.(وهذا المثال قد تقدم ذكره في سياق آيات الإسراء وأنه مثال لفريق الزناة). والوارد هنا يفيد تغايرا في الصيغة الجوابية التي أجاب بها جبريل عليه السلام عن سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم - فورد هنا أنه لما سأل صلى الله عليه وسلم جبريل عن هذا الفريق أجابه بأنهم الذين يتركون الحلال ويأكلون (أويأخذون) الحرام.

و لذا يتجه أن يجعل هذا المشهد عامّا في الزناة وغيرهم ممن يستبدل الخبيث بالطيب ومن يرغب عن الحلال مستعذبا للحرام في عامة وجوه ما يتصور فيه هذا التصرف المنحرف.

(4)- ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم شاهد فريقا من النساء معلقات بثديهن[1] و سأل جبريل عن شأنهن فأخبره بأنهن اللاتي أدخلن على أزواجهن ما ليس من أولادهم.

(5)- وورد أنه صلى الله عليه وسلم بعد مشاهدته ما شاهد من مناظر السماء الأولى (كما تقدم سياقه) مضى هُنَيْهَةً[2] وإذا به يرى أقواما من

---

(1) بثديهن: صيغة جمع مفرده ثدي بفتح الثاء المثلثة واسكان الدال المهملة آخره ياء وهو قطعة من اللحم المعبر عنها بالغدة بضم الغين المعجمة وتشديد الدال المهملة ، الواقع في صدر الإنسان من ذكر وأنثى وهما ثديان منه يمتص الرضيع لبن أمه وهو يذكر ويؤنث في كل من الرجل والمرأة ويجمع على ثدي بضم الثاء وكسر الدال وتشديد الياء آخره ويستعمل جمعه أيضا هكذا بكسر الثاء.

(2) هُنَيْهَةً: بصيغة التصغير مضموم الهاء الأولى ثم نون مفتوحة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ثم هاء مفتوحة يطلق على المدة اليسيرة من الوقت ، وهو مأخوذ من الهن بفتح الهاء آخره نون بوزن الأخ

الناس يعذبون بأن يقطع اللحم من جنب الواحد منهم ويلزم بأكله فيلقمه ويقول له الموكل بتعذيبه "كل كما كنت تأكل لحم أخيك"! وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عن هذا الصنف من المعذبين فأخبره بأنهم الهمازون اللمازون (جاء لفظ الرواية بصيغة: هؤلاء هم الهمازون من أمتك اللمازون). وفسر هذا بأنه لفريق المغتابين والنمامين (و قد تقدم مثال لهذا الفريق مما ورد في آيات الإسراء، بصورة خمش الوجوه والصدور بأظافر من حديد أو نحاس)[ساق البعض من مؤلفي السيرة في هذا الموضع من المعراج مما شاهده الرسول صلى الله عليه وسلم من المناظر في السماء الدنيا الرواية التي تخبر باطلاعه صلى الله عليه وسلم على المنبع الأصلي لنهر الفرات الكائن بأرض العراق ونهر النيل الكائن بأرض مصر، وأنهما نهران من الجنة يصلان إلى السماء الدنيا ثم ينزلان منها إلى الأرض. وليس في هذا شيء من الغرابة مادام المقام مقام الغيبيات وما يعبر عنه بضرب الأمثال وكثيرا ما يتداول على الألسنة بالاستناد الى الروايات الإخبارية عن أشياء في هذه الدنيا ومواد اطرد نفعها وجلت قيمتها في النتاج الصالح مما يعبر عنه بالبركة بأنها خرجت من الجنة. وإنما الذي يحسن أن يكون محل تساؤل هنا هو تخصيص هذين النهرين من بين أمثالهما من أنهار الأرض التي لا تقل بركتها عن الفرات والنيل؟].

و أفادت الروايات أنه صلى الله عليه وسلم بعدما شاهد من آيات ومناظر في السماء الدنيا، عرج به إلى السماء الثانية، وكان استفتاح جبريل وسؤال الحفظة وما ردوا به من ترحيب وتفخيم لقدره عليه الصلاة والسلام بمثل ما تقدم ذكره في السماء الدنيا. فجاء أنه صلى الله عليه وسلم لما حل بهذه السماء الثانية استقبله فيها من الأنبياء عيسى بن مريم ويحيى بن

والأب وهو كلمة يكنى بها عما يقصد من جميع الأشياء وأصله ثلاثي محذوف الحرف الأخير يجعله البعض واوا (هنو) ويجعله البعض هاء (كما هنا) ويجمع على هنات فيقال لفلان هنات أي أشياء أو خصال وأكثر ما يستعمل هذا في المذموم من الأشياء مما لا يصرح به فيعدل به إلى الكناية.

زكرياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وورد هنا من لفظ الرواية عن هذين النبيّيْن أنهما ابنا خالة (أي كلٌّ منهما ابن خالة الآخر).

و أفاد الباحثون من العلماء إعتمادًا على ما تحقق من علم التاريخ في هذه الصلة بين عيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام أن زوجة زكرياء وهي أم يحيى كانت أختا لزوجة عمران[1] والدة مريم ، فمريم التي هي أم عيسى ابنة خالة يحيى.

و جاء في هذه الرواية عن هذين النَّبِيَّيْن أنهما كانا يشبه أحدهما الآخر تمام الشبه في جميع النواحي.

و ورد كما في السابق ، أنهما تعرفا إليه صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل فرحبا به ودعوا له بالخير ، (كما تقدم: " مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح "). [ما جاء في هذه الرواية من تعيين الأنبياء الذين لاقاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بحسب أماكنهم من السمٰوات وأن آدم في الأولى وفي الثانية عيسى ويحيى وفي الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم عليهم جميعا صلوات الله وسلامه. هذا هو المشتهر. وفي الباب روايات تخالف هذا ، حكم عليها الحفاظ بأنها شاذة.

فقد جاء أن عيسى ويحيى في السماء الثالثة كما جاء ما يخالف الترتيب المذكور في عدة من الأنبياء وكله شاذ غير مأخوذ به].

و جاء للبعض من مؤلفي السيرة الذين يتصدون للتعليق من البحث في ترجمة " يحيى "* عليه السلام ، القول بأن الظاهر أن اسم " يحيى " عجمي وكذلك عيسى. فقيل أنهما بالسريانية وقيل بالعبرانية ومقابل هذا ما نقل عن البعض من الجزم بأن اسم يحيى عربي بوزن الفعل. فلذا لا ينصرف للعلمية ووزن الفعل قال وكذلك لفظ عيسى هو عربي مشتق من

---

(1) لأنه ورد في الأخبار أن زكرياء وعمران تزوجا أختين فزوجة عمران ولدت مريم ، وزوجة زكرياء ولدت يحيى.

العيس[1] وهو البياض الذي تخالطه صفرة.

وفيما يخص فضل يحيى عليه الصلاة والسلام فبعدما عرف من آيات الكتاب العزيز الواردة في شأنه في عديد من الجمل ومختلف سور القرآن جاءت أخبار من الأحاديث النبوية تشير إلى خصائص من المناقب والفضل اتصف بها نبي الله يحيى عليه الصلاة والسلام. فمنها ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جمعا من الصحابة كانوا ذات يوم بالمسجد النبوي يتذاكرون فضل الأنبياء فذكروا نوحا بطول مدته في الدعوة والعبادة ، وإبراهيم بخلته ، وموسى بتكليم الله تعالى له ، و عيسى برفعه إلى السماء. ثم إنتهوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم جميعا. فذكروا أفضليته ببعثته إلى الناس كافة. وغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكونه خاتم النبيين إلخ...وبينما هم كذلك إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليهم ، فقال لهم: " فيم أنتم ؟ " فذكروا له الموضوع فقال: " لا ينبغي لأحد أن يكون خيرا من يحيى بن زكرياء ". ومن ذلك ما ورد أن يوم القيامة يتمثل فيه الموت بصورة كبش ويتقدم يحيى بن زكرياء عليهما السلام لهذا الكبش فيذبحه بشفرة في يده والناس جميعا ينظرون.

فيزداد بذلك فريق السعداء في الجنة فرحا على فرحهم وهناء على هنائهم... ويزداد فريق الأشقياء في النار حسرة على حسرتهم (لأنه لاموت بعد ذلك وإنما هو خلود إلى الأبد. وقد كان أولئك الأشقياء يرون في الموت راحة ونجاة مما هم فيه من العذاب).

و الوارد فيما جاءت به الأخبار أن يحيى عليه السلام قتل على أيدي

---

(1) العَيَس: بفتح العين المهملة وفتح الياء التحتية المثناة آخره سين مهملة وهو لون أكثر ما يطلق في الإبل ، فيقال فيها العِيس بكسر العين والذكر منها أعيس والأنثى عيساء. وعرف في بعض مؤلفات السيرة كما هنا بأنه البياض تخالطه صفرة وفي بعض معاجم اللغة: بياض بشقرة ، ويوجد في البعض من هذه المعاجم أنه البياض يخالطه قليل السواد ، هذا ويبدو أن عربية اسم يحيى قريبة من فهم السامع بخلاف ذلك في عيسى وموسى ولذا نرى البعض يجزم بعبرانية اسم عيسى ويحيى مقتصرا عليها.

اليهود في جملة من قتلوا من الأنبياء.

أما عيسى * بن مريم عليه الصلاة والسلام فمعلوم كذلك ما جاء في شأنه من آيات القرآن الكريم تفضيلا وتبجيلا في العديد من الآيات والسور.

و في الآثار الإخبارية العدد الجم مما جاء في ترجمة عيسى * عليه السلام * من جهة خصائصه في الفضل وكذا ما نقل عنه من مآثر فيما يخص باب التربية والتعليم.

و يأتي في مقدمة ما جاء من الأخبار الأثرية عن عيسى عليه الصلاة والسلام الخبر الذي يفيد نزوله عليه الصلاة والسلام من السماء إلى الأرض قرب قيام الساعة فيقيم في الأرض مدة قائما بالحق حاكما بالعدل ناشرا للفضل والفضيلة حاميا بيضة الدّين والشريعة على الملة الإسلامية والطريقة المحمدية.

هذا وقد جاء في روايات هذا الموضوع من الروايات الإخبارية ما يعد فيه التوسع العريض ، فجاء من هذا أن عيسى عليه السلام ينزل إلى الأرض على حين فساد فيها فيكون الدجال الأكبر قد عاث فيها فسادا بفتنته للناس ، فيقتله عيسى عليه الصلاة والسلام ويقوم بعد ذلك عليه السلام بإصلاح الأوضاع فيبيد الخنزير ويضع شرعية الجزية فلا يقبلها من الكفار بل يلزمهم باعتناق الإسلام أو يقاتلهم فينتصر عليهم. ويكون عصره الذي يمكث فيه بالأرض عصرا مثاليا بأتم معنى من حيث صلاح الأحوال ماديًا وأدبيا حتى ورد أن الأمن في الأرض يمد رواقه فتسرح النمور مع البقر جنبا لجنب والذئاب مع الأغنام كذلك وتلعب الصبيان بالحيات السامَّة فلا يصل لهم منها أي أذى ويفيض المال على الناس فيضا بغير حساب إلى غير ذلك من أمثلة هذا الباب. وأن عيسى عليه السلام يقضي على هذا الحال في الأرض مدة من السنين جاء تعدادها أيضا بسبع سنوات وبأكثر ، حتى جاء عدد الأربعين سنة وأنه يتزوج وربما أنه يولد له. ثم يتوفى ويدفن بالمكان المعروف بالسهوة الشرقية من الحجرة النبوية التي دفن فيها

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

كل هذا وأكثر منه جاءت به الروايات الإخبارية وليس في القرآن العظيم ولا في السنة النبوية ما يعد قاعدة في العقائد المقطوع بها شيء من مسألة نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض بعد رفعه الوارد نصا صريحا في القرآن العظيم. إلا أنه جاء للكثير من الأئمة الاستدلال على مطلق نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض بما ورد في القرآن من الآيات التي أفادت حكاية نهايته بتوفيه ورفعه إلى الله عزَّ وجلَّ تخليصا له ممن حاول قتله كما وقع لكثير من الأنبياء قبله بأيدي اليهود. وجاء هذا في سورة آل عمران من قوله سبحانه وتعالى في معرض ذكر جرائم اليهود: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) ﴾...إلخ

وجاء أيضا من القرآن الكريم في هذا الموضوع من سورة النساء قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (157) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) ﴾.

فهذه الآيات من الكتاب العزيز في كل من سورتي آل عمران والنساء فيها الوضوح التام عن نهاية رسول الله عيسى عليه السلام وتمام أمره في مهمة رسالته في الأرض كما هو الشأن المعهود فيمن تقدمه من الأنبياء والمرسلين. فقد نجاه الله من كيد المتآمرين عليه من أعدائه اليهود فخابوا

فيما دبروا من قتله وقتلوا عوضه شخصا آخر ألقى الله شبه عيسى عليه ، فاليهود كاذبون فيما يدعون من قتل عيسى ومن صدقهم في هذا فهو في ضلال على أن دعوى اليهود قتله دعوى عن شك وارتباك ، وحكم بالظن منهم أنفسهم.

فقد جاء من روايات الأخبار هنا ما يطابق القرآن الكريم ، وهو أن عصابة اليهود الذين حاولوا قتل عيسى عليه السلام وقتلوا من شبه لهم به حاروا بعد ذلك في أمرهم حيث فقدوا الشخص الذي كان معهم وهو الذي شبه بعيسى. فكانوا يتساءلون: إذا كان المقتول عيسى فأين هو صاحبنا فلان ؟ وإذا كان المقتول صاحبنا فأين هو عيسى ؟ .

فالمأخوذ من القرآن الكريم عن عيسى عليه الصلاة والسلام من حيث انتهاء أمره في الدنيا هو أنه توفاه الله تعالى ورفعه إليه تخليصا له من أيدي اليهود الذين دبّروا عملية قتله ، كما فعلوا ذلك بعدد من الأنبياء قبله. ولكنهم خابوا في عمليتهم نحو عيسى عليه الصلاة والسلام.

يؤخذ هذا من القرآن كنص قطعي صريح لايقبل أي تأويل إلا ما كان لبعض من بحث في لفظ التوفي وكذلك لفظ الرفع ، وهو بحث يتناول اللفظ وما يحتمله من المعنى في كل من التوفي والرفع [يرى هنا فيما جاء عن عيسى عليه السلام من القرآن مما يخص لفظي التوفي والرفع الكثير من البحث وإيراد الروايات المختلفة المتباينة في المعنى من اللفظين. وبعدما عرف وأن لفظ التوفي يطلق على الموت نفسه كما يطلق ويراد به انتهاء الأمر وتمامه ، فجاء من روايات الأخبار ما يفيد أن عيسى عليه السلام توفي ومات قبل الرفع ، ثم رفع إلى السماء. فقيل رفع ميتا وقيل توفي ثم ردت إليه الحياة ورفع ، وقيل بل رفع حيا ثم توفي في السماء إلى غير ذلك من الأقوال المستوعبة لجميع أوجه الاحتمال في الموضوع. وعلى أن التوفي هو الانتهاء والتمام للأمر قيل أنه رفع حيا وأنه توفي أو سيتوفى في المكان الذي رفع إليه أي السماء إلى غير هذا من وجوه الاحتمال. وكل هذا

مصدره أخبار. وفيما يخص لفظ الرفع يوجد في المفسرين من مضى على تفسير الآيات في الرفع سواء بالنسبة إلى عيسى عليه السلام أو إلى إدريس عليه السلام بأنه رفع المكانة والمقام عند الله عز وجل مع الضرب صفحا عما ورد في الروايات الإخبارية من الرفع الحسّي].

و معلوم أنه جاء من آيات القرآن الكريم في نفس النسق للآيات الواردة في رفع عيسى عليه السلام ونفي القتل والصلب عنه ، وهي الآيات المسوقة آنفا من سورة النساء جاءت آية التعقيب على ما تقدم بقوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159) ﴾. فهذه الآية تناولها التأويل وذلك في خصوص إرجاع الضمير من لفظة "موته" ، فوقع خلاف بين أئمة التفسير من السلف. فورد عن ابن عباس رضي الله عنهما ومن وافقه بأن الضمير يرجع إلى الشخص من أهل الكتاب المفهوم من تركيب "وإن من أهل الكتاب" ، بمعنى أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا وهو يؤمن بعيسى عليه السلام ويتحقق رسالته وأنه عبد الله وروحه وأنه لم يقتل ولم يصلب وإنما خلصه الله برفعه إليه ، يؤمن بهذا الأمر الحق قبل الموت أي قبل مفارقة روحه لجسده ، وقبل أن يعد في الأموات خالصا فهو الإيمان الذي يحصل للكافرين عند حلول الموت بهم من حيث لا ينفعهم هذا الإيمان كما وقع لفرعون عندما أدركه الغرق ، فقال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ».

و قد جاء في روايات هذا النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لوحظ عليه بالموت المباغت كيف يمكن حصول الإيمان في تلك الحال. فأكد ابن عباس رضي الله عنهما حصول هذا الإيمان والشعور به لكل كتابي يموت كيفما كان موته ولو ضربت عنقه بسيف أو تردّىٰ من شاهق أو التهمته النار أو غرق أو غير ذلك...كلية شاملة للجميع من أهل الكتاب.

و هذا الوجه من التأويل للآية أخذ به جمع من مؤلفي التفسير ورجحوه على مقابله [ومن جملة دلائل هذا الترجيح ما تشير إليه قراءة الآية بحسب قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه ، وهو من أبرز قراء الصحابة فإنه يقرأ الآية بضمير الجمع في لفظة "موته" ، هكذا: " قبل موتهم "].

و الوجه الثاني من تأويل هذه الآية وهو وارد عن عدة من أئمة السلف أيضا يرى إرجاع الضمير في لفظة "موته" إلى عيسى عليه الصلاة والسلام بمعنى أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا وهو يؤمن بعيسى عليه السلام قبل موت عيسى.

فيستلزم هذا أن لعيسى عليه الصلاة والسلام حياة بعد حادث رفعه يتعارفهُ فيها أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كان اعتقادهم فيه على ضلالة فيؤمنون به على مقتضى عقيدة الحق ويشمل هذا الإيمان الجميع منهم لا يتخلف عنه منهم أحد.

هذا هو الوجه من التأويل للآية الذي أخذ به الفريق من العلماء الذين يرون ثبوت نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان كما وردت به روايات الأخبار على أنه النص القرآني على ثبوت الخبر الوارد في هذه المسألة ، ويظهر أن العدد الكثير من مؤلفي التفسير ومن يعتمد عليهم فيه من المتقدمين كالإمام ابن جرير الطبري يعتمدون هذا التأويل للآية ويرجحونه على مقابله الوارد عن ابن عباس والذي تقدم ذكره.

و للباحث المتأمل في كل من التأويلين أن يلاحظ ما بينهما من التفاوت (هذا التفاوت لا يفهم منه ترجيح لجانب على الآخر).

فعلى التأويل الأول يبقى العموم مطلقا كما هو ظاهر الآية من عبارة "وإن من أهل الكتاب...إلخ" إلا أن في إرجاع الضميرمن لفظة " موته "إلى غير المعنى بالخبر في السياق وهو عيسى تفكيكا للنسج الذي يقتضي توالي الضمائر الراجعة إلى المعني بالخبر من لفظ (به) و(موته) والضمير المستتر في ((يكون عليهم شهيدا)).

و على التأويل الثاني لا يبقى للعموم المفهوم من " وإن من أهل الكتاب...إلخ " إطلاقه الظاهر من الآية بل يرجع هذا العموم مقصورا على زمان مخصوص هو عصر إقامة عيسى عليه السلام بالأرض بعد نزوله إلا أن على هذا التأويل يبقى السياق في الكلام عن المخبر عنه متناسقا بتوالي الضمائر المكنى بها عنه لا فصل بينها بأجنبي.

و كل من التأويل للإشكال في فهم ما جاء فيه مادام الأمر يتعلق بخبر من الغيبيات إنما الإشكال فيما جاء من زيادة في بعض طرق رواية التأويل الثاني ، وهي عبارة عقب بها مفادها أن إيمان من يؤمن بعيسى عليه السلام من أهل الكتاب في أوان نزوله هو إيمان لا ينفع أصحابه أيضا مثل ما جاء في التأويل الأول الوارد عن ابن عباس. فما جاء من هذه الزيادة هو محل إشكال يُطلب تحريره ؟ (وعلى هذا نقل بعض المفسرين عمن تقدم من أئمة التفسير أن نزول عيسى عليه السلام الوارد في الأخبار إنما يكون حال رفع التكليف).

هذا الذي جاء في تأويل الآية على الوجه الثاني هو الدليل القرآني على نزول عيسى عليه السلام بعد رفعِه يسانِدُ ما جاء في الخبَر المسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم صريحا في نزوله وهو لا يعدو كونه وجها من التأويل ليس غير.

و يوجد مع هذا استدلال آخر بالقرآن الكريم أيضا على النزول وهو الآية الواردة في سياق عن عيسى عليه الصلاة والسلام من سورة الزخرف وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿59﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿60﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ... ﴾.

(جاء في تعريف هذه القراءة أنها قراءة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما).

فإنه يوجد في بعض قراءات القرآن من يقرأ لفظة: " لعلم " بفتحتين على العين واللام بمعنى العلامة والأمارة فيفيد أن عيسى عليه السلام علامة على قيام الساعة بتأويل هذا إلى أن عيسى عليه السلام يظهر في الوجود عند قرب قيام الساعة وانتهاء أمد الدنيا.

و هذا لا يعدو أن يكون وجها من التأويل للآية وليس فيه نص صريح على مسألة النزول [هو وجه يقابله وجه آخر مفاده أن وجود عيسى عليه السلام على تلك الصورة المعلومة من خرق العادة يولد من أم بغير أب ويتكلم في المهد ويجري ما يجري على يده من الآيات الخوارق وبالأخص إحياء الموتى هذا الأمر فيه علم للناس وذكر لهم ودليل وعلامة على قيام الساعة وفناء هذا العالم ثم تجديده بعد العدم لثاني مرة ذلك لأن الله على كل شيء قدير].

و هذا الوجه من تأويل هذه الآية من سورة الزخرف يبدو الأخذ به من عامة المفسرين حتى من الذين لم يروا في سورة النساء من هذا الموضوع دليلا على مسألة النزول هذه ، ولكن مع كل هذا فمسألة نزول عيسى عليه السلام لا يقوم لها دليل قطعي من القرآن الكريم وإنما المعتمد فيها هو الخبر المسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

الدرس 40

- تابع آيات المعراج -

ورد أنه صلّى الله عليه وسلّم بعد ما شاهد ما شاهد من الآيات والتلاقي مع الأنبياء في السماء الثانية ، عرج به إلى السماء الثالثة وكان الاستفتاح والسؤال والرد والترحيب والاستقبال من سكان هذه السماء له صلّى الله عليه وسلّم كما تقدم إيراده فيما قبلها. وورد هنا أن الذي استقبله صلّى الله عليه وسلّم في هذه السماء من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو يوسف * عليه السلام ومعه نفر من قومه.

و يقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن يوسف عليه السلام «و إذا هو قد أعطي شطر الحسن (و في لفظ من الرواية: وإذا هو صورته صورة القمر ليلة البدر). يقول صلّى الله عليه وسلّم: "فرحّب بي ودعا لي بخير". وجاء من صيغة هذا: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح».

و قد جاء للعلماء في ترجمة يوسف عليه الصلاة والسلام أنه يوسف الصديق بن يعقوب الذي هو إسراءيل بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام. وأنّه أرسل رسولا إلى صاحبي السجن اللذين سجنا معه (كما أفادته آيات القرآن) فآمن واحد منهما وكفر الآخر. ولكن يلاحظ على هذا بما جاء في القرآن من سورة المؤمن (سورة غافر) حكاية لمقال الرجل المؤمن من آل فرعون وهو: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾.

فإن هذا يدل على أن رسالة يوسف عليه الصلاة والسلام لم تكن قاصرة على صاحبي السجن بل هي رسالة إلى أمة كاملة. وما جاء في ترجمة يوسف عليه السلام الخبر عن موته وأنه توفي بمصر ودفن بالنيل حتى زمن موسى عليه السلام. فلما خرج موسى من مصر مع قومه بوحي من الله تعالى عندما أراد الله تنفيذ قضائه بهلاك فرعون وجنده. أحب موسى عليه

السلام أن يرفع تابوت يوسف معه ليدفنه بالأرض المقدسة وأن موسى عليه السلام تعرف إلى مكان التابوت بدلالة عجوز من قومه فحمله معه حتى دفنه بالأرض المقدسة التي هي مدفن آبائه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

و تفيد روايات المعراج المشهورة أنه صلّى الله عليه وسلّم بعد عروجه إلى السماء الثالثة ولقياه من لقي فيها من الأنبياء ، عرج به صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء الرابعة وتكرر ما تقدم ذكره من استفتاح جبريل عليه السلام وما تبعه من السؤال والترحيب به صلّى الله عليه وسلّم من طرف سكان هذه السماء (الرابعة) أيضا.

و ورد أنه صلّى الله عليه وسلّم لقي في هذه السماء من الأنبياء إدريس * عليه الصلاة والسلام يقول صلّى الله عليه وسلّم: "فرحب بي ودعا لي بخير". والوارد من الصيغة هنا أنه قال "مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح". ونص اللفظ الوارد في رواية عن قتادة أنه قال "مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح". ونقل عن الباحثين من العلماء أن الصيغة الواردة في رواية قتادة هي المطابقة للقياس من حيث أن إدريس عليه السلام له ولادة (أي أبوةٌ) على الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم.

و الوارد في الأخبار من ترجمة إدريس * عليه السلام أنه أرسل إلى الناس برسالة من الله عز وجل بعد آدم عليه الصلاة والسلام فتجول في الأرض كلها ودعا الأمم باثنتين وسبعين لغة حيث خاطب كل قوم بلغتهم وأنه نشر عدّة من العلوم ومنها على الأخص علم النجوم.

و نقل هنا عن محيي الدين بن العربي الحاتمي * المعروف أنه قال: «لم يأت في القرآن العظيم نص يفيد رسالة إدريس عليه السلام وإنما الذي جاء في القرآن عنه أنه صديق نبي ، قال والمعروف أن أول من فتحت به الرسالة من الأنبياء إنما هو نوح عليه السلام ، وهو إنما كان بعد إدريس ومن كان من الأنبياء قبل نوح إنما كانوا أنبياء على شريعة من ربهم فمن

دخل من الناس في شريعة نبي منهم ثم ارتد عنها صار كافرا.»

و المعروف في نهاية إدريس عليه السلام أنه رفع إلى السماء وهذا نص في القرآن العظيم ، فقد جاء في سورة مريم عند ذكر إدريس قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.

فمن لم يؤول اللفظ في الرفع إلى الرفع المعنوي الذي هو رفع الدرجة والقدر والمنزلة وأخذ بالظاهر من اللفظ وخصوصا بالنظر إلى لفظ المكان الذي هو الظرف المعروف بني على اعتقاد أن إدريس رفع إلى السماء ولم يبق بالأرض. وجاء من الأخبار على هذا التأويل أنه رفع إلى السماء الرابعة وأنه توفي بها وصلّت عليه الملائكة وبها مدفنه وإنّ قبره عليه السلام مصلى للملائكة كلما مروا به هبوطا وصعودا.

كما ورد أيضا أن إدريس عليه السلام رفع حيًّا وأنه لازال حيا بالسماء... إلى آخر ما جاء من هذه الروايات الإخبارية التي لا تفيد شيئًا من اليقين المقطوع به. بل جاء من هذه الروايات ما يفيد أن معنى الرفع لإدريس عليه السلام إنما هو إدخاله الجنة فهي المكان العلي الوارد في القرآن.

و يقابل هذا ما أوِّل به لفظ الرفع وأنه رفع الدرجة والمقام عند الله عزّ وجلّ كما تفيده الآيات القرآنية في حق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من أنهم يتفاوتون في المكانة.

فمن هذه الآيات ، ما في سورة البقرة: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ ﴾ وما في آية سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾. إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تفيد التفاوت في الفضل ورفع المكانة بين الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فمسألة الرفع الوارد في القرآن بالإضافة إلى كل من إدريس وعيسى عليهما الصلاة والسلام فيها مذهبان لأئمة التفسير ، مذهب الأخذ بظاهر اللفظ وأن الرفع رفع حسي وينصرف إلى رفع الجسد إلى السماء ، ومذهب التأويل بأن الرفع مراد به رفع المنزلة والتشريف على معنى العناية الخاصة من الله تعالى لمن رفعه من الرسولين المذكورين. وللترجيح بين المذهبين مجاله المعروف كما تناولته أنظار الأئمة الباحثين من أهل العلم والتحقيق.

و تتواصل روايات مشاهد المعراج بأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم عرج به ، بعد السماء الرابعة إلى السماء الخامسة وكان الاستفتاح وما تعلق به كما في السماوات قبلها.

و أفادت الروايات أنه صلّى الله عليه وسلّم لقي في السماء الخامسة هارون عليه السلام. فجاء هنا أنه صلّى الله عليه وسلّم أخبر عن صفة هارون *عليه السلام بأن له لحية تضرب إلى سرته وأن نصفها أبيض ونصفها الثاني أسود وهو بين نفر من قومه يحدثهم ويقص عليهم (و كماتقدم مع الأنبياء قبله) ، رحب بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير فقال: "مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح". وفي رواية هنا أن جبريل عليه السلام لما عرف بين الرسول وهارون قال عن هارون: " هذا الرجل المحبب في قومه هارون بن عمران ".

و من التعليق على هذا: " أن هارون كان محببا في قومه من حيث كان لينا سهل العريكة[1] معهم بخلاف موسى عليه السلام فقد كان معه بعض الشدة عليهم ولذلك أوذي منهم.

و ذكر من ترجمة هارون عليه السلام أنه كان يجمع إلى لين العريكة فصاحة اللسان وبلاغة اللفظ ، وأنه كان وزيرا لفرعون مع أبيه عمران

(1) العريكة: بفتح العين المهملة وكسر الراء وآخره كاف ، لفظ يطلق على طبيعة الشخص من حيث معاملته لغيره.

وأشركه الله في الرسالة مع موسى بدعاء موسى عليهما السلام.

واختلفت روايات الأخبار في وفاته ، ووفاة موسى. فجاء أنه مات قبل موسى في فترة التيه. وجاء خلاف هذا وأن هارون تخلف بعد موسى. كما جاء أن موسى مات هو أيضا زمن التيه قبل دخول بني إسراءيل الأرض المقدسة ولم يقع دخول الأرض المقدسة إلا بعد موسى على يد فتاه يوشع * ابن نون.

و ورد خلاف هذا وأن الأرض المقدسة فتحت في عهد موسى ودخلها ثم كانت وفاته بعد ذلك.

الدرس 41

- تابع مشاهد المعراج -

و ورد أنه صلى الله عليه وسلم تواصل به المعراج فبعد العروج إلى السماء الخامسة ارتقى إلى السماء السادسة ، فكان فيها الحال كما فيما قبلها من الإستفتاح وما تبعه وأنه صلى الله عليه وسلم ، لما وصل هذه السماء وكان يتابع سيره بها فيمر بالأنبياء فرادى وجماعات ، فيلقى النبي (الواحد) والاثنين ومعهم النفر من قومهم ، ويمر بالنبي (الفرد) والنبيين وليس معهم أحد. وهكذا حتى شاهد سوادا عظيما من الناس فسأل عن هذا الجمع من هم ؟ فأخبر بأن الجمع فيه رسول الله موسى عليه السلام وقومه. وعند ذلك قيل له صلى الله عليه وسلم: " ولكن ارفع رأسك (لزيادة النظر والاطّلاع) فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم إلى فوق فإذا هو يرى سوادا عظيما قد سد الأفق من جميع الجوانب من الناس فسأل عنه فأخبر بأن هذا جمع أمته الإسلامية المحمدية وإن فيهم سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وفي بعض ألفاظ الرواية هؤلاء أمتك وفيهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب!

و قد جاءت الروايات الإخبارية من الأحاديث النبوية عن هؤلاء السبعين ألفا الداخلين الجنة بغير حساب متغايرة العبارات. ففي البعض أنه صلى الله عليه وسلم لما سأل عن السواد الأعظم من الناس في هذه السماء وأخبر بأنه أمته وفيهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغيرحساب أخبر مع ذلك بأخص صفات هؤلاء بأنهم الذين "لايكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون"[1] .

---

(1) الرواية التي اتفق عليها أصحاب الصحاح من السند ليس فيها ذكر الاكتواء ، وإنما فيها صفات ثلاث هكذا: "لا يسترقون ، ولايتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون".

و تفيد ألفاظ أخرى من روايات هذا الموضوع أن الذي عين هذه الصفات إنما هو الرسول نفسه (عليه الصلاة والسلام). فعندما كان يحدث أصحابه حديث المعراج هذا وذكر السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب سئل عن صفتهم المميزة لهم فأخبر بما تقدم ذكره من الصفات الأربع لايكتوون، ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. فعند ذلك قام من أصحابه صلى الله عليه وسلم السيد عكاشة بن[1]* محصن رضي الله عنه فقال: " أنا منهم يا رسول الله!" وورد في لفظ آخر من الرواية أنه قال: "ادع الله لي يا رسول الله أن أكون منهم! فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما طلب فقال له: أنت منهم ".

و جاء في سياق رواية أخرى أنه بعدما أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم مطلب عكاشة قام رجل آخر (أبهم اسمه). فقال مثلما قال عكاشة. فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا له: «سبقك بها عكاشة!»، على معنى أنه لم يجب طلبه.

و قد بحث المؤلفون في هذه المسألة فأوردوا أنّ هذا الرجل الذي لم يجب الرسول صلّى الله عليه وسلّم طلبه وردّه بذلك الأسلوب الحكيم اللطيف بقوله: «سبقك بها عكاشة»، إنّما كان من فريق المنافقين الذين ليس لهم عقيدة حقيقية في الدين وإنّما هم أصحاب مظهر لقضاء مآربهم الخاصة. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يساير هذا الفريق بالإبقاء عليهم فلا يجابههم بما يفضح حالهم أمام الجمهور المسلم. وجاء في مبحث هذه الواقعة مما عثر عليه هؤلاء العلماء المحققون فيما يرد من الأخبار، الخبر الذي يقول أنّ الرجل الذي ردّ عليه الرسول بعدم إجابة طلبه هو

---

(1) عكاشة: بضم العين المهملة بعدها كاف جاء فيها التشديد والتخفيف بالفتح ثم شين معجمة ابن محصن بكسر الميم وإسكان الحاء المهملة وفتح الصاد المهملة وآخره نون. وذكر عن نسبه بأنه من قبيلة أسد بن خزيمة وأنه من حلفاء بني عبد شمس القرشيين ومعروف عنه أنه من السابقين في الإسلام المهاجرين.

سعد بن عبادة*[1] المعروف بسابقيته ومكانته في مجتمع الصحابة حتى عرف بسيد الخزرج.

فأفاد المحققون من هؤلاء العلماء بأنّ هذا الخبر ظاهر البطلان لا يحتاج في رفضه إلى كثير ولا قليل من النظر والاستدلال (فهو من الأغلاط العارضة أو من الأقوال المغرضة).

و قد دل السياق الواردة به الروايات فيما شاهده الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه السماء السادسة بأن هذا كله كان في هذه السماء. فإن السياق هنا يصل ما تقدم ذكره بما يأتي من لفظ: فلما خلصا أي كل من الرسول صلى الله عليه وسلم ودليله وهو جبريل عليه السلام (خلصا مما تقدم من المشاهد المذكورة) فإذا بموسى بن عمران عليه السلام أي فكان لقاؤه صلى الله عليه وسلم في السماء السادسة بموسى عليه الصلاة والسلام. وحكت الروايات -هنا- صورة موسى *عليه السلام بأنه رجل آدم طويل القامة بلفظ " طوال ". وكأنه من رجال شنوأة كثير الشعر (مع صلابة الشعر). لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر منهما ، إذا غضب يخرج شعر رأسه من قلنسوته!

و تمضي هذه الروايات في وصف موسى عليه السلام حتى تذكر أن قلنسوته كانت ربما تحترق نارا عندما يشتد غضبه عليه السلام! وأورد هنا حكاية فرار الحجر بثوبه حينما كان يغتسل فما كان منه عليه السلام إلا أن أخذ يلاحق الحجر ويضربه بعصاه حتى ضربه ست أو سبع ضربات ، جريا على العادة كضرب البهيمة. وهذه القصة واردة في واقعة إيذاء قومه له

---

(1) سعد بن عبادة: بضم العين المهملة وتخفيف الباء الموحدة التحتية بعدها دال مهملة ، من أبرز شخصية في الأنصار رضي الله عنهم يضاهي قرينه سعد بن معاذ* الذي كان أبرز شخصية في قبيلة الأوس من فريق الأنصار. فقد كان سعد بن عبادة زعيم قبيلة الخزرج ، وكثيرا ما يرد في حكاية أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أقبل أو توجه أو قام لكذا وكذا من المهمات وهو بين " السعدين "... أي زعيمي القبيلتين من الأنصار.

المشار إليه بالآية من سورة الأحزاب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ وكما مر ذكره في لقياه صلى الله عليه وسلم مع من يلقاه من الأنبياء من السلام والترحيب والدعاء، ورد عن موسى عليه السلام بأنه رحب به صلى الله عليه وسلم بصيغة "مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح" وجاء هنا أن موسى عليه السلام دعا له صلى الله عليه وسلم ولأمته بخير. وجاء في الرواية مما يخص اللقاء مع موسى عليه السلام وزيادة على الترحيب والدعاء أنه قال: « يزعم الناس أني أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله مني »[ساق البعض الرواية هنا بلفظ" يزعم بنوإسراءيل أني أكرم بني آدم على الله وهذا رجل من بني آدم خلفني في دنيا وأنا في أخرى. فلو أنه في نفسه لم أبال، ولكن معه أمته".

و مفاد هذا أن اغتباط موسى عليه السلام إنما كان من حيث الأمة التي فاقت أمته في درجات الفضل].

كما جاء أيضا أن موسى عليه السلام لما جاوزه الرسول صلى الله عليه وسلم بكى فقيل له ما يبكيك؟ فقال: هذا غلام بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي!

و قد كان موضوع هذه الزيادة الواردة عن موسى عليه السلام محل بحث تعرض له المعلقون من الباحثين في هذه الأخبار. فذكروا عن لفظ "الغلام " بأنه لاينبغي صرفه إلى معنى الاستصغار ونحوه بل يصرف إلى معنى القوة والفتوّة [1] وكذلك أوردوا التساؤل عما سأل موسى عليه السلام بقوله "ما يبكيك؟ " وأجابوا عن الكل بما يمكن أن يكون وجها ولو في

---

(1) الفتوة: بضم الفاء وضم التاء المثناة الفوقية ثم واو مشددة مفتوحة بوزن النبوَّة. وهو لفظ يؤدي معنى القوة والاقتدار على الأعمال ومنه أخذ لفظ الفتى للشاب المقتدر وممن تصدر عنه الآثار الجليلة.

الجملة لأن هذه الأخبار ليست بالمكانة التي تجعلها من الخبر المقطوع به والوارد نصا لا يقبل التأويل ولا النقاش. وقد تقدم في عرض آيات الإسراء قبل المعراج - وفيها كما هنا -، ملاقاة له صلى الله عليه وسلم مع موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام. وجاء فيها عن موسى عليه السلام ما هو من هذا المعنى مما خص به موسى دون بقية من لاقاه صلى الله عليه وسلم من الأنبياء وهو أنه كان يبدو عليه مظهر الاغتباط والطموح وطبقا لما كان عليه من حدة وحرارة سجية فيه جعل يعرب عن هذا الأمر بالمقال.

الدرس 42

- تابع مشاهد وآيات المعراج -

تتواصل الروايات في المعراج بأنه صلى الله عليه وسلم عرج به إلى السماء السابعة على غرار ما تقدم من الاستفتاح والسؤال عنه صلى الله عليه وسلم من طرف الملإ الأعلى سكان هذه السماء والترحيب به والتبجيل له عليه الصلاة والسلام.

و إن لقياه صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذه السماء كان مع إبراهيم*الخليل عليه الصلاة والسلام.

و جاء في وصف إبراهيم عليه السلام أنه رجل أشمط[1] (وفي لفظ) كهل جالس عند باب الجنة (أي باب جهتها) على كرسي مسند ظهره إلى البيت المعمور. فرحب به صلى الله عليه وسلم ودعا له. وجاء النص في هذا أنه قال" مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح".

جاء في التعليق على البيت المعمور أنه يسمى أيضا بالضراح[2] (بالضاض المعجمة مضمومة وتخفيف الراء وآخره حاء مهملة. وأن هذا اللفظ مأخوذ من مادة ضرح بمعنى البُعْد). والبيت المعمور مسجد يوازي في الجهة الكعبة المكرمة في الأرض بحيث لو وقع لوقع عليها.

و كون البيت المعمور في السماء السابعة هو القول المشهور [رواية كون البيت المعمور في السماء السابعة رجحها جمع من المحققين وأن عليها التعويل وما عداها لا يخلو من التخليط. هكذا جاء النقل].

---

(1) الأشمط: بالشين المعجمة والميم والطاء المهملة وصف من الشمط بفتحتين وهو اختلاط شعر الرأس مثلا بالسواد والبياض من الشيب.

(2) ضراح: هذه المادة من الضاد المعجمة والراء والحاء المهملة كالقطع في الوزن وربما حتى في المعنى لأنّ من معاني الضرح التنحية ودفع الشيء إلى بعيد فيقال في الشيء المنقطع في ناحية هو مضطرح.

وورد أنه في السماء الرابعة كما ورد أنه في السادسة ، بل ورد أن في كل سماء بيتا معمورا. وأورد هنا من الأخبار أن البيت المعمور يدخله كل يوم ألف من الملائكة من غير ما يعودون إليه (وفي رواية): أنهم سبعون ألفا (و في لفظ رواية أخرى): يدخله كل يوم سبعون وجيها ، أي رئيسامع كل وجيه سبعون ألفا من الملائكة يدخلون من باب ويخرجون من آخر. وأن الدخول من باب مطلع الكواكب ، والخروج من باب مغاربها. ونقل هنا عن بعض الأئمة أنه صلى الله عليه وسلم عندما وصل إلى البيت المعمور دخله فصلًى فيه ركعتين.

و قد ثبت من الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم أن الأطفال الذين يموتون قبل بلوغ الحلم سواء أولاد المؤمنين أو أولاد الكفار هم في كفالة إبراهيم الخليل عليه الصلاة السلام.

وورد هنا من أخبار المعراج أنه صلى الله عليه وسلم لما اجتمع بإبراهيم عليه السلام في هذه السماء وجده يرعى هؤلاء الأطفال. ولما سأل جبريل عنهم أخبره بأنهم أولاد الناس (هكذابلفظ "الناس").

و قد تقدم هذا في آيات الإسراء عند رؤيته صلى الله عليه وسلم إبراهيم عليه السلام بالأرض نواحي بيت المقدس.

وجاء من روايات آيات المعراج في هذه السماء (السابعة) أنه صلى الله عليه وسلم تمثل له حال أمته [أفادت رواية أخرى في مثال أمته صلى الله عليه وسلم أنه رأى عند إبراهيم قوما جلوسا وهم فريقان ، فريق بيض الوجوه أمثال القراطيس وفريق في ألوانهم شيء. فقام هؤلاء الفريق الأخير فدخلوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ثم قاموا ثانيا فاغتسلوا فخلص من ألوانهم شيء ثم قاموا ثالث مرة فاغتسلوا في النهر فخرجوا وقد خلصت ألوانهم ، فصارت مثل ألوان أصحابهم ، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم. وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عن هؤلاء الفريق وعن الفريق الأول. فأجابه بأن الفريق الأول قوم لم يلبسوا

إيمانهم بظلم والفريق الثاني قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ثم تابوا فتاب الله عليهم] ، فكانوا شطرين: الأول من كانوا يلبسون ثيابا بيضا ناصعة كالقراطيس ، والآخر من كانوا بثياب رمدة. ولما دخل صلى الله عليه وسلم البيت المعمور وصلّى فيه ، صلّى خلفه فريق الثياب البيض الناصعة وحجب عنه الفريق الآخر فلم يرهم وهم على خير.

وجاء من الروايات هنا أنّه صلى الله عليه وسلم تلقى وصية من إبراهيم عليه السلام وقت ما اجتمع به يقول له: «إنك ملاق ربك الليلة ، وأن أمتك آخر الأمم وأضعفها فإن استطعت أن تكون حاجتك في أمّتك فافعل». وجاء في رواية أخرى أنه قال له: «مُر أمتك فليكثروا من غراس الجنّة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة والغراس: " لا حول ولا قوة إلاّ بالله!».

وفي لفظ آخر من الرواية: «أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنّة طيبة التربة عذبة الماء وإنّ غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر».

و مما جاء من الأخبار مما يخص مشاهد الرسول صلى الله عليه وسلم في عروجه إلى السماء السابعة أنه عليه الصلاة والسلام عرض له أن استقبلته جارية لَعْسَاء[1] (فتاة حسناء بارعة الجمال) وأنه صلى الله عليه وسلم كلمها فقال لها: " لمن أنت يا جارية ؟ " فقالت "**لزيد بن حارثة** *"(الصحابي الجليل المعروف).

كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم عندما كان في هذه السماء (السابعة) شاهد فيما فوقه من الجهات بروقا وسمع رعودا وصواعق (و ورد هنا في بعض الروايات تكرار ما تقدم ذكره في آيات الإسراء من عرض آنية الشراب عليه صلى الله عليه وسلم وأنه اختار اللبن على غيره من الأشربة).

---

(1) لَعْسَاء: وصف من اللعس بفتح اللام والعين المهملة وآخره سين مهملة وهو حمرة تضرب إلى سواد في الشفة وهو مما يستملح في لون الشفاه.

وتفيد روايات المعراج الواردة في هذا المقام أنه صلى الله عليه وسلم شاهد هنا فيما شاهد من المناظر سدرة المنتهى. وجاء في وصفها أنها شجرة أوراقها كآذان الفيلة[1] وثمارها كقلال هجر[2]. (و في لفظ آخر): أوراقها كآذان الفيول والورقة منها تغطي الخلق.(وفي لفظ): الورقة منها تكاد تظل هذه الأمة.

وجاء في التعليق على هذا أن هجر قرية قرب المدينة تصنع بها القلال. والقلة تسع ملئ قربتين ونصفا من القرب المستعملة بالحجاز، وهذه القرب تحمل القربة منها من الماء مائة رطل بغدادي[3].

وجاء في رواية هذا الحديث عنه صلى الله عليه وسلم يخبر عن سدرة المنتهى فيقول: فلما غشيها[4] من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد يستطيع أن ينعتها (لو ينظر إليها) من حسن المنظر وجلالته.

---

(1) الفيلة: بكسر الفاء وفتح الياء المثناة السفلية صيغة جمع للفيل الحيوان الضخم المعروف.

(2) هجر: بفتحتين على الهاء والجيم آخره راء جاء أنها اسم لقرية قرب المدينة كانت عامرة ثم اندثرت كما هو اسم لمدينة أو ناحية بإقليم عمان من أرض اليمن، وأن المراد في الرواية هنا القرية التي قرب المدينة.

(3) بناء على ما ذكره البعض في مقدار الرطل البغدادي وأنه ينقص نحو الثلث عن المدّ الشرعي حيث قدر نصاب زكاة الحبوب بألف ومائتي مد وبألف وستمائة رطل بغدادي، وعلى أن المدّ الشرعي يساوي نصف الكيل المعروف في العصر الحاضر (بالليترة) فيتحصل من هذا -على حسب ما ذكر من مقدار ما تحمله القلة من قلال هجر- ، مقدرا بكيل الليترة، أن القلة من هذه القلال تسع قرب الثمانين ليترة.

(4) الإشارة بهذا إلى ما جاء في القرآن من سورة النجم: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾

الدرس 43

- تابع آيات المعراج -

ووردت الروايات تفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وصل إلى هذا المقام شاهد الجنة ، الدار التي أعدها الله جزاء لعباده المؤمنين المتقين ويخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عما شاهده من الجنة بأن فيها جنابذ[1] (أي قباب) اللؤلؤ المعقود والقلائد[2] وأن ترابها المسك ورُمَّانها كالدلاء[3] وطيرها كالبخت[4] (وما في الدنيا ثمرة إلا وهي في الجنة).

وجاء في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم عن سدرة المنتهى ينبع من أصل تلك الشجرة نهران ، باطنان يغيبان في الجنة ، ونهران ظاهران. فالباطنان هما الكوثر والسلسبيل ، والظاهران هما نهرا النيل والفرات المعروفان. (ومما يلاحظ هنا ما جاء في رواية مما شاهده الرسول صلى الله عليه وسلم في سماء الدنيا (أي الأولى) وأنه اطلع على منبع نهري النيل والفرات في هذا المكان الذي هو السماء الدنيا. وقد تقدم التعليق عليه في الدرس التاسع والثلاثين).

ويحكي بعض مؤلفي السيرة هنا ما جاء من روايات إخبارية في تعريف ما غشي سدرة المنتهى (والقرآن العظيم لم ينص على ماهية هذا الشيء الذي غشي السدرة ؟ بل أبهمه فجاءت الآيه هكذا: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا

---

(1) جنابذ: بالجيم والنون والباء الموحدة التحتية وآخره ذال معجمة جمع جنبذة بضم الجيم وإسكان النون وضم الباء وفتح الذال على وزن سنبلة وسنابل. وجاء في تعريف الجنابذ بأنها القباب جمع قبة فهذا فيه إشارة بتقريب الفهم إلى معنى جمال المباني وفخامتها.

(2) القلائد: جمع قلادة بكسر القاف وهي العقد المنظوم من اللآلئ مما يلبس حليا في العنق.

(3) الدلاء: بكسر الدال المهملة صيغة جمع لدلو وهو الوعاء المعروف الذي يستقى به الماء.

(4) البخت: بضم الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وآخره تاء مثناة فوقية اسم جنس لنوع من الإبل ضخمة ولها سنامان ويقال أنها الإبل الخراسانية غير الإبل المسماة بالعراب بكسر العين وهي ذات السنام الواحد والواحد من البخت يقال فيه بختي وجمعه بخاتي كما جاء ذلك في لفظ من هذه الرواية.

يَغْشَىٰ ﴾. غير أن في روايات الأخبار ما عين هذا المبهم. فقيل: كذا.... وقيل كذا.... وقيل ملائكة يغشونها كالغربان....إلخ. ما جاء من هذه الأخبار التي لا تفيد شيئا معيّنًا مِمّا يجزم به ويعتمد عليه [لبعض المؤلفين ممن ألف في خصوص المعراج قوله هنا ما معناه: أن ما جاء في تعيين ما يغشى السدرة لا يقال فيه أنه تكلف لأن القرآن لم يعيّنه لأنا نقول أن ما ثبت يقينا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قاله فيه لا كلام فيه. أما ما قاله غيره من الصحابة - مثلا - فهو توقيفي إذ هذا الباب لا يقال فيه بالرأي. وإذن فالمراد على ثبوت ما يروى في مثل هذا الموضوع]. واشتهر في روايات هذا الباب ما جاء يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد في هذا المكان عند سدرة المنتهى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية التي خلقه الله تعالى عليها وأن له ستمائة جناح ، الجناح الواحد يسد الأفق.

ويزيد في بعض الروايات هنا أن أجنحة جبريل عليه السلام هذه يتناثر منها تهاويل[1] الدر والياقوت. وهذا الخبر في رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل مستند إلى ما جاء في القرآن من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿13﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿14﴾ ﴾. بناء على عود الضمير المفعول في (رآه) إلى جبريل عليه السلام ، فقد تواردت الأخبار المتداولة فيما يتعلق بلقاء

(1) الظاهر من صيغة هذا اللفظ " تهاويل "أنه جمع تهويل مأخوذ من الهول بفتح الهاء وإسكان الواو آخره لام ومعناه الفزع والخوف مما يستعظم. فالتهويل هو التفزيع بمعنى إدخال الفزع على الرائي. ولم يعلق فيما وقع الاطلاع عليه من مؤلفات السيرة هنا بشيء على هذا اللفظ الوارد في الرواية. وربما يوجد بعض التعليق على نفس اللفظ الوارد في هذه الرواية في كتب أخرى بما يبقى معنى اللفظ على ظاهره أي كونه التفزيع ولكن يظهر وربما يكون أقرب أن يجعل اللفظ مأخوذا من الهيل بالياء المثناة التحتية والهيل بالياء معناه صب الشيء مما يكون مثل الرمل والدقيق وإرساله إرسالا بغير كيل ولا تقدير ومعروف في صيغ كلمات الواو والياء. قلب الحرفين بعضهما إلى البعض. فيما وقع الاطّلاع عليه عن بعض من كتب اللغة أن لفظ التهاويل جمع تهويل يطلق على الألوان المختلفة المجتمعة فيقال: تهاويل الربيع للزهور التي تنبت متنوعة اللون في فصل الربيع.

الرسول صلى الله عليه وسلم مع جبريل عندما يتصل به ، بأنه كان يتمثل له بصورة غير صورته الأصلية. وكثيرا ما كان يتمثل له بصورة إنسان ، واشتهر من ذلك صورة أحد أصحابه صلى الله عليه وسلم وهو دحية الكلبي[1] وكان هذا الصحابي على صورة من أجمل ما يعرف في صور الرجال. ولذلك اشتهر أنه صلى الله عليه وسلم لم يشاهد جبريل عليه السلام في صورته الأصلية الملكية إلا مرتين فقط. المرة الأولى حذو جبل حراء حين افتتاح الوحي والمرة الثانية هذه الواقعة ليلة المعراج عند سدرة المنتهى.

وجاء فيما شاهد عليه الصلاة والسلام من المشاهد في هذا المكان أن جبريل عليه السلام انطلق به صلى الله عليه وسلم إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد ، وعليه طير خضر نعم ما يرى الناظر من الطير. فقال له جبريل هذا الكوثر الذي أعطاك الله ، وإذا في هذا النهر آنية الذهب والفضة وإذا هو يجري على رضاض[2] من الياقوت والزمرد ماؤه أشد بياضا من اللبن ، يقول صلى الله عليه وسلم: "فاغترفت منه فإذا هو أحلى من العسل وأذكى رائحة من المسك".

واشتهر فيما جاء هنا مما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه صلى الله عليه وسلم رأى على باب الجنة مكتوبا (كالإشهار) «الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر». على معنى الجزاء للعامل بمضاعفة الثواب.

و أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام عن سر تفوق ثواب القرض على ثواب الصدقة ، فأخبره بما معناه أن السائل في الصدقة أو المتصدّق عليه قد يكون مع ذلك في غير حاجة ملحة ، بخلاف سائل القرض فإنه لا يسأل القرض إلا من حاجة ملحة.

---

(1) دحية الكلبي رضي الله عنه تقدم بعض ترجمة له في الدرس الخامس عشر.

(2) رضاض: بضم الراء ثم ضاد معجمة مفتوحة وآخره ضاد كذلك ، و هو كما يقال فتات ، وزنا ومعنى اسم للقِطع الصغيرة مما ينكسر من مثل الحجارة.

وكما ورد في هذا المقام رؤيته صلى الله عليه وسلم الجنة ورد أيضا رؤيته صلى الله عليه وسلم منظر لنار جهنم الدار التي جعلها الله تعالى وأعدها لعقاب الكافرين الظالمين من عباده. فجاء من وصفها أن فيها غضب الجبار عز وجل ولو طرح فيها الحجر الصلد والحديد لأكلتهما. وجاء هنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى في النار قوما يعذبون ومن ذلك أنهم يأكلون الجيف. وسأل جبريل عنهم فأخبره بأنهم الذين كانوا يأكلون لحوم الناس (بمعنى المغتابين الذين يتناولون ما حرم الله من أعراض الناس).

ويلاحظ هنا أن هذا المنظر مكرر. فقد ذكر مثله في آيات ضرب الأمثال مما شاهده الرسول صلى الله عليه وسلم في طريق مسراه من مكة إلى بيت المقدس (وبحث بعض المؤلفين فيه بإبداء وجه لهذا التكرار، وحاصل أن الحكمة في تكرار هذا المنظر ربما تكون للمبالغة في الزجر عن الغيبة لكثرة وقوعها وقلة الاحتراز منها من العموم).

وورد مما رآه صلى الله عليه وسلم من مناظر النار أنه رأى في النار رجلا أحمر أزرق يعذب. وسأل عنه جبريل فأخبره أنه عاقر* ناقة صالح عليه السلام.

كما رأى صلى الله عليه وسلم كبير خزنة النار من الملائكة وهو الملك المسمى بمالك*، وهو عابس رهيب المنظر يعرف الغضب في وجهه، فكانت له صلى الله عليه وسلم ملاقاة معه وهو الذي ابتدأ بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم.

وورد هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ملاقاته لخازن النار هذا، سأل جبريل عنه وقال: " ما رأيت أحدا من سكان هذه السموات إلا رحب بي وضحك لي إلا واحد (وهو الخازن المذكور)، فإنه رحب بي ودعا لي ولم يقع منه ضحك ".

فأجاب جبريل يقول له صلى الله عليه وسلم: " ذاك مالك خازن النار ما ضحك قط ولو ضحك لأحدلضحك إليك! "

ثم إن النار أغلقت دون نظره صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد يرى من مناظرها شيئا (هذا وقد ساق البعض من مؤلفي السيرة هنا مسألة الخلاف الواقع بين علماء الأمة فيما يتعلق بالجنة والنار وهل هما موجودتان الآن أم لا ، وإنما سيوجدان يوم الجزاء ؟).

ومما ورد من الأخبار في باب المعراج من المناظر التي رآها الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صلّى الله عليه وسلم رأى تحت العرش سبعين مدينة ، كل مدينة منها مثل هذه الدنيا سبعين مرة ، وكل هذه المدائن مملوءة العمارة بملائكة يسبحون الله ويقدسونه ويدعون للمؤمنين ويقولون: " اللهم اغفر لمن شهد الجمعة (صلاة الجمعة المعروفة) ، اللهم اغفر لمن اغتسل للجمعة (الغسل المسنون الخاص لصلاة الجمعة). وجاء في روايات المعراج ما يذكر أن بعد شهوده صلى الله عليه وسلم ما شاهد من المناظر والآيات في السماء السابعة ووصوله عليه الصلاة والسلام إلى سدرة المنتهى توقف جبريل عليه السلام عن السير معه صلى الله عليه وسلم وقال له: " ها أنت وربك !هذا مقامي لا أتعداه ". وورد هنا تلاوة الآية من قوله سبحانه:﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴾. على أن الآية حكاية حال الملائكة عليهم السلام ، فتأخر حينئذ جبريل عنه صلى الله عليه وسلم (وورد فيما ورد عن هذا المكان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند ذلك: "ألك حاجة ؟ " قال "نعم! هي أن أبسط جناحي يوم القيامة على الصراط فتمر عليه أمتك ".

فتفيد الروايات هنا أن سدرة المنتهى غشيتها إذ ذاك سحابة ارتفعت به صلى الله عليه وسلم إلى حيث ظهر إلى مستوى سمع فيه صرير[1] الأقلام (وفي لفظ) صريف[2] الأقلام (بمعنى صوت الأقلام حال كتابتها ما

---

(1) الصرير: بالصاد المهملة والراء مصدر من الصيغة المستعملة للأصوات كالزئير والهرير والنهيق والأنين والرنين... إلخ والفعل منه مفتوح في الماضي وهو من المضاعف ومكسور في المضارع ومعناه الصوت.

(2) والصريف كذلك وآخره فاء ويستعمل في صوت الأشياء الصماء كصريف الباب وصريف القلم وما في معنى هذا. فالصرير والصريف ، بمعنى ووزن واحد.

تكتب في الألواح).

جاء فيما جاء من التعليق على ما ذكر من السحابة التي رفعته صلى الله عليه وسلم إلى المستوى الذي سمع فيه صرير الأقلام، بأن هذه السحابة هي المعبر عنها بالرفرف[1] (ويقول البعض في تقريب معنى الرفرف للفهم بأنه نظير المحفة[2]). وورد هنا أنه صلى الله عليه وسلم بعد ارتفاعه إلى المستوى المذكور زج به صلى الله عليه وسلم في النور وقطع في هذا الزج حجبا عدتها سبعون ألف حجاب، كل حجاب منها غلظه مسيرة خمسمائة عام. وهنا ترد الرواية التي تحكي عنه صلى الله عليه وسلم بأنه لحقه في هذا المقام استيحاش وإذا به يسمع صوتا على أتم ما يكون شبها بصوت صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يناديه ذلك الصوت فيقول: " يا محمد قف إن ربك يصلى!".

وتفيد هذه الرواية حكاية عنه صلى الله عليه وسلم بأنه بينما هو يفكر في وجودأبي بكر في هذا المكان وفي صلاة الرب جلّ جلاله (فكل من هذين الأمرين له غرابة تدخل الدهشة والحيرة بمقدار عظيم). فبينما هو صلى الله عليه وسلم يفكر في هذا الشأن إذا بالحق عز وجلّ[3] يدنيه الدنو

---

(1) الرفرف: فسر لفظ الرفرف بعدة وجوه من حيث الشكل والأصل فيه أنه ثياب جيدة لينة ناعمة ثم تجعل بسطا أو وسائد ومتكآت.

(2) المحفة: بكسر الميم وفتح الحاء المهملة ثم فاء مشددة بالفتح. جاء في تعريفها بأنها مركب يهيأ للنساء وأكثر ما يجعل للعروس، فهي كالهودج وإنما الهودج بشكل مقبب من أعلاه والمحفة بغير قبة.

(3) تطرق من تصدى للاطناب في البحث والتعليق على وقائع المعراج في هذا الموضع إلى إيراد الحديث الوارد عنه صلى الله عليه وسلم والذي يقول فيه: " لا تفضلوني على يونس بن متى " فذكروا أن ما يومئ إليه هذا النهي منه صلى الله عليه وسلم إنما هو على معنى خاص وعلى تقييد بحال معين وذلك ليحصل من هذا علم بعقيدة ترجع إلى معرفة صفات الله تعالى التي اختص بها من مخالفة الحوادث. وبيان ذلك أنه صلى الله عليه وسلم في حال ترقيه في الملإ الأعلى حتى سدرة المنتهى ووصوله إلى مقام قاب قوسين في القرب من الله وخرقه ما خرق من حجب النور هو مع ذلك ليس أقرب إلى الله من يونس عليه السلام في حال ابتلاع الحوت له وهبوطه به إلى أقصى دركات البحر في الظلمات المتعددة، فإن الحق جل جلاله لا يقاس القرب إليه بالجهات والأبعاد.

الخاص البالغ أقصى درجات القرب والزلفى إليه سبحانه وتعالى ، ويوحي إليه ما يوحي من آيات الكرامة ورفعة المقام وجليل العطايا والمنن التي حباه بها واختصه بها.

وقد جاء في روايات هذا الموضع سوق آية سورة النجم من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿8﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿9﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿10﴾ ﴾ [يؤخذ مما جاء للعلماء المحققين من البحث في آية سورة النجم هذه التي تشير إلى الدنو بأن الراجح في الأقوال والذي جاءت به الآثار الثابتة أن الضمير في فعل الدنو يرجع إلى من تقدم ذكره في أول السياق للآية وذكرت أوصافه بأنه شديد القوى ، ذو مرة ، وهو الملك الموكل بالوحي جبريل عليه السلام وما ذكر من إرجاع الضمير إلى الرب عز وجل هو وجه مرجوح والأثر الوارد به متكلم فيه بما يجعله ضعيفا لا يعادل مقابله] .

وقد جاء للمفسرين في إرجاع الضمير الفاعل في فعل دنا لمن ؟ ، فقيل لجبريل عليه السلام وقيل للرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي بعض الأقوال أنه يرجع إلى الرب عز وجلّ ويرجع المعنى حينئذ في الدنوّ إلى التنزل والتلطف منه عز وجل ، كما ورد ذلك في الحديث الذي يقول (ينزل الرب عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل كذا ؟ ...هل كذا ؟ إلخ).

والمتحصل مما جاء في الروايات الواردة في هذا المشهد الذي بلغ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج أنه مشهد القرب الخاص من رب العزة جلّ جلاله كما هو الحال الذي جاء به القرآن عن موسى عليه السلام عندما رأى النار ، فلما دنا منها فاجأه الوحي من رب العزة سبحانه يناديه بالرسالة إلى فرعون ، ويوحي إليه ما يوحي من الأمر الذي كلفه به ويسدي إليه ما يسدي من نعم التكريم والاصطفاء.

فحال محمد صلى الله عليه وسلم في هذا المشهد من المعراج شبيه بحال موسى عليه السلام وهو في الواد المقدس ، على ما بين المشهدين

من الفوارق.

و جاء من الروايات في هذا الموضع أنه صلى الله عليه وسلم قال: "سألني ربي فلم أستطع أن أجيب ، فوضع الرب جلّ جلاله يده بين كتفيّ ، فأورثني ذلك علم الأولين والآخرين ".

كما ورد أنه صلّى الله عليه وسلّم سأل ربّه عزّ وجلّ عما كان اشتبه عليه أول الحال في هذا المقام مما سمع من صلاة الرب وصوت أبي بكر في هذا المكان. فجاءه الوحي بالجواب عن ذلك: بأن صلاة الرب عزّ وجلّ معناها ما في الآية من سورة الأحزاب من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ... ﴾الخ. وأنه سبحانه الغني عمّا سواه وإنما معنى صلاته تعالى هو رحمته لعباده ، فصلاته تعالى هي ثناؤه على نفسه بنفسه يقول "سبحاني سبحاني ! سبقت رحمتي غضبي!".

و أن صوت أبي بكر هنا إنما كان لإدخال الأنس عليه صلّى الله عليه وسلّم بالمألوف لديه ، كما كان الحال مع موسى عليه السلام وعصاه التي كانت بيده حينما فاجأه الوحي بالرسالة ، فأدخل عليه الأنس في هذا المقام الرهيب بالسؤال عمّا بيده إذ قال له الرب جلّ وعلا: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿17﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿18﴾ ﴾.

و هكذا كان إيناس موسى عليه الصلاة والسلام بعصاه. وكان إيناس محمد عليه الصلاة والسلام بصاحبه العزيز أبي بكر الصديق الذي لم يزل يستأنس به في مواقف الرهبة والشدّة ، ومنها واقعة الاختفاء بالغار في طريق الهجرة حيث كان عليه الصلاة والسلام هو وأبو بكر رضي الله عنه (اثنين ثالثهما ربّ العزّة جلّ شأنه).

ومما أفادته بعض الروايات عن هذا المقام أنه صلّى الله عليه وسلّم عزب عن ذاكرته حاجة جبريل عليه السلام التي طلبها منه قبل مفارقته له

عندما غشيته صلّى الله عليه وسلّم السحابة التي ارتقت به إلى المستوى الذي لم يكن معه فيه أحد وهي أن يساعد الأمة يوم القيامة في المرور على الصراط ببسط جناحه لهم فيمرون عليه تسهيلا لهم!.

فجاءه صلّى الله عليه وسلّم الوحي بتذكيره بهذه الحاجة فاعتذر عليه الصلاة والسلام عن هذا النسيان الصادر عمّا هو فيه من رهبة المقام. وجاءه الوحي بأنه تعالى أجاب هذه الحاجة ومنّ بقبولها ولكن فيمن صحب الرسول ومن أحبّه من المؤمنين. وورد أنه مما أوحى الله تعالى إلى نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم في هذا المكان وهو ما تشير إليه الآية من سورة النجم بقوله عزّ وجلّ: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾، خواتيم سورة البقرة ابتداء من الآية: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ... ﴾، والبعض من سورتي الضحى والانشراح وكذا الآية الآنفة الذكر من سورة الأحزاب: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ... ﴾ وهنا أيضا كان فرض الصلوات الخمس المعروفة، وقد علم مما تقدّم ذكره في هذا الدرس أنه صلّى الله عليه وسلّم رأى من آيات ربه في مشهد المعراج بعد بلوغه عليه الصلاة والسلام سدرة المنتهى العدد الآتي سرده:

1) رؤيته صلّى الله عليه وسلّم الجنّة دار النعيم وما كتب للإشهار على بابها.

2) الأنهار النابعة من تحت سدرة المنتهى.

3) نهر الكوثر واغترافه منه عليه الصلاة والسلام.

4) اطلاعه صلّى الله عليه وسلّم على النّار دار العقاب وما وصفها به وما رأى فيها من أشخاص كعاقر ناقة صالح عليه السلام وآكلي الجيف من مقترفي جريمة الغيبة.

5) رؤيته صلّى الله عليه وسلّم كبير خزنة النار من الملائكة المسمّى بمالك.

6) مشاهدته صلّى الله عليه وسلّم مدائن الملائكة الداعين للقائمين بصلاة الجمعة.

7) رؤيته صلّى الله عليه وسلّم جبريل على صورته الأصلية عند سدرة المنتهى.

8) مشاهدته صلّى الله عليه وسلّم السدرة في حال ما غشيها من أمر الله فتغيرت إلى منظر يجلّ وصفه عن العباد.

9) ارتقاؤه عليه الصلاة والسلام بالسحابة التي عرفت باسم (الرفرف) إلى حيث بلغ مستوى سمع فيه صرير الأقلام بالكتابة لمقدورات الله تعالى في الخلق.

10) الزج به صلّى الله عليه وسلّم في النور وخرقه العدد العديد من الحجب ثم يلحقه عليه الصلاة والسلام في هذا المكان استيحاش وشعور بالوحدة المطلقة ثم يدخل عليه الأنس بسماع ما سمع من الصوت الشبيه بصوت صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

11) الدنو الخاص وعظيم القرب والزلفى من رب العزة سبحانه جلّ جلاله وتعالى شأنه.

12) سؤال الحق تعالى له عليه الصلاة والسلام وتعليمه إياه ما علمه من شتى العلوم.

13) تذكير الله سبحانه له عليه الصلاة والسلام بحاجة جبريل عليه السلام وإجابتها منه تعالى.

14) تلقيه صلّى الله عليه وسلّم ما تلقى في هذا المقام الجليل من الوحي الخاص بآيات من القرآن العظيم كخواتم سورة البقرة وبعض آيات سورة الضحى وسورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ والآية في سورة الأحزاب في بيان معنى صلاة الرّب سبحانه.

15) الوحي الخاص بفرض الصلوات الخمس المعروفة.

الدرس 44

تكملة وتعقيب فيما ورد من أخبار بآيات وقعت في المعراج وكانت محلّ بحث

1) من ذلك مسألة صرير الأقلام الذي سمعه الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما وصل إلى مستوى لم يكن فيه معه أحد. فقيل أن هذا يحتمل ما يكتب في ألواح المحو والإثبات من الأقضية والأحكام والمقادير كما تشير إليه الآية من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ واللوح المحفوظ هو المعنى بما جاء في أعقاب الآية: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فلا محو في اللوح المحفوظ وإليه الإشارة بالحديث الوارد عنه صلّى الله عليه وسلّم والقائل فيه: « رفعت الأقلام وجفّت الصحف».

هذا قول مما جاء من الأقوال في هذا الموضوع.

2) ومن ذلك مسألة سماعه صلى الله عليه وسلم كلام الله تعالى كما سمع ذلك موسى عليه الصلاة والسلام هذا قول [ويظهر فيما يظهر من تحرير بعض من ألف في السيرة أن ما جاء من أخبار آيات المعراج الصحيح الإسناد المتداول ثبوته ليس فيه مسألة الكلام ولا مسألة الرؤية] ويقابله قول آخر يفيد أن ما سمعه الرسول صلى الله عليه وسلم في مقام القرب ليلة المعراج إنما هو وحي أوحي به إليه من الله عز وجل بغير واسطة الملك أي فهو نوع من أنواع الوحي وقسم من أقسامه كما يعبر بذلك البعض.

3) ومن ذلك مسألة الرؤية (أي رؤية العبد للرب تعالى) ثم نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه رأى ربه عز وجل ليلة المعراج في جملة ما رأى من آيات ربه الكبرى! وهذه المسألة بوجه العموم وقع فيها بين علماء الأمة خلاف واسع عريض، ونزاع حاد شديد، ففريق يرى استحالتها مطلقا وفريق يرى جوازها.

و ينبني مذهب الفريق القائل باستحالة رؤية الخالق عزّ وجلّ على المتعارف في مسمى الرؤية الذي يستلزم المقابلة الحسية والجهة وانعكاس الأشعة مما هو معلوم في حصول الرؤية ومثل هذا معلوم بالضرورة بأنه مما يتنزه عنه الخالق سبحانه لأنه ينافي صفة مخالفته سبحانه للحوادث. هذا من جهة النظر. واستدلوا على ذلك من الدلائل السمعية بما جاء في القرآن العظيم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ في سورة الأنعام. وكذلك ما ورد في سورة الأعراف عن سؤال موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية فمنعها وهو ما في الآية من قوله عز وجل: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾.

و كذا ما يؤخذ ضمنا من عديد الآيات القرآنية [من هذه الآيات ما جاء في سورة النساء عن اليهود من قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ... ﴾ إلخ. ومنها آية سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿21﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ... ﴾] مما يدل على امتناع هذه الرؤية وإن التطاول إليها ممن تطاول إليها من الجهلة والكفار والمعاندين ، هو من عظائم المنكرات ومن أقبح ما اقترفوه من الجهالات [غير أنه يلاحظ على هذا احتجاجا على المستدلين بمثل هذه الآيات على استحالة الرؤية بأن كل هذا لا يفيد استحالة الرؤية بوجه الإطلاق بدليل ما جاء من مثل هذا الباب مما يخص كلامه عز وجل. فقد جاء من هذا حكاية عن تطاول المشركين والكفار وتعنتهم في طلب تكليم الله تعالى لهم وذلك ما في سورة البقرة من قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ ... ﴾. فقد تعنتوا بسؤال الكلام كما تعنت

الآخرون بسؤال الرؤية. ولكننا مع هذا وجدنا أن الكلام من الله تعالى لعبده ليس من المستحيل فقد أثبته الله تعالى لرسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، فدل ذلك على أن كلاً من الكلام والرؤية من قسم الجائز].

و حيث مضى هذا الفريق على أن رؤية الله تعالى ، إنما هي من الأمور المستحيلة عقلا فهي غير جائزة مطلقا لا دنيا ولا في عالم ما بعد الدنيا من الآخرة. فقد لزمهم على ذلك أن يأخذوا بالتأويل كل ما جاء من الأخبار الشرعية يشير إلى إثبات هذه الرؤية بالنسبة للمؤمنين في عالم الآخرة وأن الرؤية هي أعظم نعيم مما أنعم الله به على أهل الجنة (رؤية الله عزّ وجلّ بهذا القيد الذي هو كونها في عالم الآخرة وكونها خاصة بأهل الجنة كنعيم لهم هو نقطة القدر الذي يقول به من قال بالرؤية. ويستدل بما يستدل به من الدلائل على ثبوته.

أما ورود ما ورد في أخبار عن رؤية الله تعالى لعامة أهل الموقف يوم القيامة حتى الكفار وحتى تناول البعض ذكر الحيوانات وغيرها فهذا مما ليس من موضوع هذا المقام وإنما هو إخبار مطلق أخبار التأويل أولى بها على فرض صحتها. ورويت هذه الأخبار في تأويل ما جاء في القرآن من ذكر إتيان الرب عز وجل يوم القيامة لفصل الحساب كما في آية سورة البقرة: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ... ﴾ وما جاء من ذكر المجيء كما في آية سورة الفجر: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾. وما جاء في سورة "ن" و"القلم" من الكشف عن الساق: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ...إلخ ﴾. ففي كل هذه الآيات لم يرد لفظ الرؤية. وللأئمة من العلماء سلفا وخلفا وجوه في تأويل هذه الآيات من التفويض لعلم الحقيقة والحمل على الكناية أو المجاز مما هو معروف في كلام العرب الذي نزل به القرآن).

و مما جاء في القرآن من هذه الأخبار صريحا قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿22﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿23﴾ ﴾ في سورة القيامة.

وأما الأخبار النبوية الواردة بالأسانيد الصحيحة المقبولة فهي متعددة وصريحة في إثبات الرؤية بالقيد المذكور، وهو كونها في الآخرة ولخصوص أهل الجنة.

و من أشهر هذه الأخبار النبوية في إثبات الرؤية بمعناها المتقدم الذكر الحديث الوارد في صحيحي البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: «إنكم سترون ربّكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون[1] في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم الآية: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾.

و جاء في رواية أخرى مما ليس في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ناسا سألوه صلى الله عليه وسلم، فقالوا: " هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ " فقال عليه الصلاة والسلام: "هل تضارون[2] في القمر ليلة البدر ؟ " قالوا: "لا! يا رسول الله "، قال: "هل تضارون في الشمس ليس

---

(1) لا تضامون: بالضاد المعجمة جاء تفسيره بوجهين أولهما أنه من الضيم بوزن البيع ومعناه الظلم والانتقاص ويكون الفعل على هذا بالبناء للمفعول بضم التاء وتخفيف الميم أي لا يصيبكم ضيم ولا حرج. والوجه الثاني أنه من الضم وهو جمع الشيء بعضه إلى بعض مزدحما ويكون الفعل فيه إما بفتح التاء مع تشديد الميم باسقاط إحدى التائين لأن أصله لا تتضامُون أي لا يكون بينكم ازدحام على معنى التضايق، وجاء ضبط الفعل هنا أيضا بضم التاء مع تشديد الميم على صيغة البناء للمفعول والمعنى الأساسي في الجميع يرمي إلى معنى التمكن من غير ما حرج ولا تضايق وهذا يؤدي معنى تأكيد خبر الرؤية وثبوتها.

(2) تضارون: كما هو المعنى تماما في لفظ " تضارون " الوارد في الرواية الأخرى وهو يفيد نفي التضارر، فكل من اللفظين في تضارون وتضامون يرجع إلى معنى نفي الحرج وثبوت التمكن.

دونها سحاب ؟ " قالوا: لا يا رسول الله ! فقال: "فإنكم سترونه كذلك".

و في رواية مما جاء في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى ، (خطابا لهم): تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار...؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى ربّهم تبارك وتعالى» [وليس هذا كل ما ورد من الأخبار في ثبوت الرؤية ، فقد استدل القائلون بها بأخبار نبوية كثيرة ، ويقول البعض أن رواتها تجاوزت عدتهم العشرين صحابيا ، وكذلك كان الاستدلال من القرآن بآيات أخرى ليست صريحة في الباب ، ولكن جاء من طريق الأخبار تفسيرها بما يثبت الرؤية ومن هذا لفظ الزيادة في آية سورة يونس: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ، فقد جاء في الأخبار تفسير الزيادة بأنها الرؤية].

فقد عمد هذا الفريق المانع للرؤية إلى تأويل آية سورة القيامة الآنفة الذكر بصرف النظر فيها إلى الانتظار بمعنى انتظار الثواب والكرامة وما وعدت به من الجزاء بالنعيم هكذا. وجوه يومئذ ناظرة إلى ربّها أي منتظرة من ربّها ثوابه ونواله ورحمته...و ما هو مثل ذلك.

و إذا كانوا قد أولوا الآية القرآنية فتأويل الأخبار الأثرية كذلك بل هو أهون.

و طبعا لا يقبل الفريق المقابل القائل بالرؤية هذا التأويل للآية ، فقد جاء عنهم في رد هذا التأويل أنه لم يعرف في كلام العرب إطلاق لفظ النظر إذا ما عدي بحرف " إلى " كما هو في الآية إلا وهو مراد به الرؤية البصرية.

غير أنه يلاحظ على هذا الردّ ما ورد عن بعض أئمة السلف من حمل الآية على ما يوافق قول المانعين للرؤية المؤولين للآية على "الانتظار" [ومن أئمة السلف هؤلاء الذين أولوا آية سورة القيامة تأويلا يرجع إلى معنى الانتظار ، فلا يكون في الآية دليل على ما يسمى بالرؤية ، الإمام مجاهد بن

جبر * الذي ينتسب بالولاء إلى قبيلة بني مخزوم القرشية ، وهو معروف بأنه من أجل الأئمة الأعلام في التابعين. هذا ويوجد تأويل لآية سورة القيامة هذه بوجه آخر يغاير الوجه الأول من جهة اللفظ ولكنه يرجع إليه في المعنى وذلك بجعل لفظ " إلى " في جملة " إلى ربّها " اسما هو مفرد لجمع الآلاء التي هي النعم ، فقد عرف في اللغة أن الألى بفتح الهمزة بعدها لام مفتوحة مخففة ثم آخره ألف مد مقصورة وقد تكسر همزته فيشبه لفظ "إلى " المستعمل حرفا أشهر معانيه ابتداء الغاية ، هذا اللفظ إذا جعل اسما دل على مفرد الآلاء التي هي النعم ، فيكون المعنى على هذا الوجه في الآية " إلى ربّها ناظرة " نعمة ربّها ناظرة فيعرب لفظ "إلى" على أنه مفعول مقدم وهو بهذا المعنى بوزن مِعَى مفرد الأمعاء].

و على هذا فإن مستند القائلين بالرؤية إنما هو الأثر الإخباري الثابت بالسند الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقدم ذكره في إيراد الأخبار الواردة بذلك ، وقد استدل القائلون بالرؤية من القرآن العظيم أيضا بما جاء في آية سورة الانشقاق ، حكاية عن حال الكفار يوم القيامة في قوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فاستخرجوا من الآية دليلا على الرؤية بطريق المفهوم أي حيث كان الكفار محجوبين فإن المؤمنين غير محجوبين فهم يرون ربّهم عزّ وجلّ.

و غير خفي أن مثل هذا الدليل لا يقنع الفريق المخالف فهو أولى بالتأويل مما في آية سورة القيامة.

كما أن الفريق القائل بالرؤية لزمه كذلك تأويل الآية التي هي عمدة المانعين للرؤية ، وهي آية سورة الأنعام في قوله عزّ وجلّ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾. ففرقوا بين الرؤية والإدراك المنفي في الآية وأفادوا أن الإدراك معناه الإحاطة بالشيء وهذا مسلّم نفيه في حق الخالق عزّ وجلّ ، لا خلاف فيه ، وعلى هذا فليس في آية سورة الأنعام دليل على نفي رؤية الباري عز

وجلّ. ولكن مما يؤخذ على هذا الوجه من تأويل الآية وما يلاحظ به عليه ما صح في الأثر الوارد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث استدلت بهذه الآية على إنكار الرؤية بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وأفصحت أم المؤمنين رضي الله عنها بأن رؤية الله تعالى ممتنعة في جملة ما يمتنع في حق الله تعالى كعلم الغيب ونحوه ، فهي إذ استدلت بالآية ، استدلت بها على مطلق الرؤية [ولعل مما يحتمله تأويل هذه الآية الكريمة في منع الرؤية كما استدلت به أم المؤمنين رضي الله عنها ، ويبقى للآية ظاهرها من منع مطلق الرؤية من غير احتياج إلى التقييد بالإدراك وتفسير الإدراك بالإحاطة أن يفهم أنّ القرآن العظيم يكون خطابه للخلق على المتعارف عندهم فدلت هذه الآية على امتناع الرؤية بما تعارف عليه الناس في الرؤية المعهودة عندهم]. ومما أجاب به الفريق القائل بالرؤية على ما استدل به فريق المانعين لها من آية سورة الأعراف الواردة عن موسى عليه السلام وذلك ما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (143) قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (144) ﴾فإن هذه الآية مما تمسك به فريق المانعين للرؤية من الدلائل القوية ورأوا أن نفي الرؤية في جملة " لن تراني " يفيد التأكيد ويفيد التأبيد أيضا ، فلم يسلم فريق القائلين بالرؤية بهذا الرأي من التأكيد والتأبيد وأنه رأى لا دليل عليه بل استخرجوا من الآية نفسها دليل جوازها ، حيث علقت بجائز وهو استقرار الجبل [كما استخرجوا أيضا من الآية نفسها دليل جوازها بسؤال موسى عليه السلام إياها ، يقولون لا يجوز أن يسأل موسى

عليه السلام ما هو من المحال عقلا] فهي إذ امتنعت في حق موسى عليه السلام وقوعا غير ممتنعة جوازا فيثبت بذلك وقوعها في عالم الآخرة لخصوص المؤمنين كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة.

و يقول فريق المثبتين للرؤية بمعنى جوازها في توجيه مذهبهم هذا ما محصله: أن رؤية الله عزّ وجلّ عبارة عن نوع من العلم بالله تعالى ومعرفته ودرجة من القرب منه تعالى خص به الله تعالى من اختصه به من عباده ، فلا تستلزم الإدراك الذي معناه الإحاطة وحيث وردت بها الأخبار النبويّة الصريحة الدلالة الصحيحة الإسناد ، فنعتقد وقوعها في الآخرة للمؤمنين خاصة ممن أنعم الله بها عليهم ونفوض كيفيتها إلى الله تعالى ولا نتقيد بالحصر الواقع في مسمى الرؤية المتعارف.

و من هذا التوجيه لهذا المذهب يفسر أصحابه ما جاء في أحاديث الرؤية المتقدمة الذكر مما يوهم التشبيه أو يكون فيه شبهة وإشكال كما في الفقرة التي تذكر الحجاب (في حديث صهيب).

فجاء في توجيه المعنى من الحجاب بأنه الحجاب بالنسبة للعبد لا بالنسبة إلى الربّ سبحانه ، فإن العبد هو الذي يحجبه الحجاب ، فالمعنى من الحديث أن الحجاب يرفع عن العبد حتى يمكنه رؤية خالقه عزّ وجلّ.

و كذلك جاء لهم تفسير ما في الحديث المتعلق بالرؤية والذي ذكر فيه القمر والشمس طالعين ليس دونهما سحاب وهو الحديث المروي عن جرير بن عبد الله من رواية الصحيحين ، وكذا الحديث المروي عن أبي هريرة مما جاء في غير صحيحي البخاري ومسلم ، وكلا هذين الحديثين فيه ما يوهم تشبيه رؤية الله عزّ وجلّ للمؤمنين يوم القيامة برؤيتهم الشمس طالعة في رابعة النهار والقمر مضيئا ليلة البدر.

فقد جاء لهؤلاء العلماء ، القائلين بإثبات الرؤية الآخذين بما جاء في هذه الأخبار النبوية توجيه المعنى في التشبيه المذكور بأنه تشبيه خاص ينحصر في مجرد مسمى الرؤية لا يتعدى إلى المرئي وهو الله سبحانه وتعالى

فما في الحديث مما يوهم التشبيه إنما هو تأكيد لمعنى الرؤية من حيث هي رؤية فقط. ولذلك فالمأخوذ من الحديث إنما هو ثبوت الرؤية دون تحديد للمرئي.

هذا وللاستناد الإمام محمد عبده* (نقلا من كتابه المسمى برسالة التوحيد) أشهر أئمة الإسلام في العهد القريب رأي في هذا الخلاف الواقع بين مذاهب الإسلام في مسألة الرؤية هذه حيث يقول ما معناه أنه لا مجال للنزاع في هذه القضية، وإنما هي بلوى قوم ولعوا بالخلاف والله فوق ما يظنون ذلك لأن القائلين بها (الرؤية) لا يرون أنها تكون على المعهود في الرؤية بالبصر العادي المتعارف عندنا اليوم في عالم الدنيا بل هي من أمور الآخرة في عالم مغاير تماما لما في الدنيا، وهذا الأمر مما لا يتوصل إليه علم العباد اليوم فالتصديق بوقوع الرؤية حسبما وردت به الأخبار هو من جملة ما يجب التصديق به من عالم الغيب متى صحت الأخبار الواردة به وإنكار من أنكر هذه الرؤية إنما هو بالقياس على عالم الشهادة الحاصل في الدنيا. ونرى أن المنكرين لمطلق رؤية الله تعالى هم مع ذلك لا ينكرون انكشافا يطلق عليه اسم الرؤية سواء قيل فيه أنه ببصر غير ما هو معهود في البصر المتعارف عليه في عالمنا أو قيل أنه انكشاف بحاسة أخرى مما يرجع إلى أمور عالم الغيب الذي هو عالم الآخرة. ثم أنه من المعلوم أن هذا الخلاف الواقع بين المذاهب في مسألة رؤية الله عزّ وجلّ والذي أغلظ فيه كل فريق القول للفريق المقابل إنما حدث بعد الصدر الأول من الإسلام، وبعد أن حدثت الاصطلاحات الكلامية وانتشر الجدل ويفهم من هذا أن عهد السلف وإن تداول الكلام في هذه المسألة، كما يدل على ذلك ما ورد في الآثار المنقولة وكما سيأتي ذكره في خبر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الذي أجابت فيه من سألها عن الرؤية وما سألها إلاّ وحديث الرؤية هذا متداول بينهم، فيفهم حينئذ أن حديث الرؤية هذا كان معروفا عند السلف، فمع هذا لم ينقل عنهم كبير جدل في المسألة ولا كثر فيها الأخذ

والرّد وتشعب البحث فيها بمثل ما وقع في العهد الذي خلفهم.

و من هذا يمكن للناظر المستنتج أن يفهم أن السلف إذا ما قالوا بالرؤية فإنهم يفهمونها على أنها مما يرجع إلى عالم الغيب الذي لا يقاس على عالم الشهادة المعهود عند الخلق اليوم كسائر ما جاء في الأخبار الشرعية من مسميات تعرف ولكن حقيقتها من الغيب المجهول للعبد. وهذا هو المعروف من مذهب السلف في كل ما جاء في أخبار الشرع من المتشابه لا بحث ولا جدال فيما لا يتوصل إليه علم المخلوق.

أمّا ما يخص خبر الرؤية بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه عليه الصلاة والسلام رأى ربّه عزّ وجلّ ليلة المعراج في جملة ما رأى من آيات ربّه الكبرى ، فهي مسألة وقع فيها اختلاف بين علماء الأمة حسبما جاء في النقول التي أوردها المؤلفون وأنها محل خلاف ابتداء من عهد السلف حتى عهد الخلف والذي يتعين فهمه فيها قبل كل شيء أنها مسألة نقل وسمع من الآثار الشرعية الثابتة لا مجال فيها للرأي والنظر ولا يقال فيها بالعنديات.

و الناظر فيما جاء لمن تعرض لبحثها من المؤلفين فيما خطوا من وجوه الاستدلال للفريق القائل بإثباتها ، يرى من تلك الوجوه الكثير بل الأكثر مما هو ليس من الدلائل الشرعية السمعية في شيء إلاّ ما كان من دليل واحد وهو النقل عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وأنه كان يقول بإثبات الرؤية للنبيّ صلى الله عليه وسلم لربّه عزّ وجلّ ليلة المعراج وأن جمعا من علماء الصحابة والتابعين يوافقه في رأيه هذا. ثم أن هذا الأثر الوارد عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يرد في منطوقه من حيث المتن بصيغة واحدة بل ورد تارة بإطلاق الرؤية وورد تارة بتقييدها برؤية الفؤاد والقلب. وجاءت رواية عنه بالتصريح برؤية البصر ، قال فيها بعض الحفاظ [هو عماد الدين ابن كثير * من أشهر الحفاظ والمفسرين وممن يعدُّ في العلماء المحققين. فقد قال فيما قاله في هذه المسألة أن تقييد الرؤية

بالبصر فيما روي عن ابن عباس لا يصح منه شيء عن الصحابة]: أن راويها أغرب (أي أتى بالغريب حيث ذكر البصر). كما أنه جاء في هذه الروايات الواردة عن ابن عباس بإثبات الرؤية ما ذكر فيه تعدد الرؤية وأنها وقعت مرتين. فجاء فيها ما معناه أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربّه مرتين ، وفهم هذا على أنه يشار به إلى ما جاء في سورة النجم مما دل على الرؤية مرتين: المرة الأولى هي ما تشير إليه الآية من قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) ﴾ ، والمرة الثانية هي ما في الآية التالية: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (14) ﴾. وقد تواردت الأخبار الصحيحة المشتهرة عنه صلى الله عليه وسلم بأن المرئي في كل من المرتين إنما هو جبريل عليه السلام على صورته الأصليَّة ، وهو الشيء الذي يطابق سياق الآيات الوارد في وصف جبريل عليه السلام ابتداء من آية: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ... ﴾. وماعدا هذا الدليل من طريق النقل على إثبات الرؤية من أخبار أخرى كحديث "رأيت ربي" كله ضعفه الحفاظ وردوه إلى حيث لا يقوم به دليل ولا يثبت به خبر للخلل الواقع فيه في كلٍّ من السند والمتن حتى جاء فيه أنه في البعض منه حكاية عن رءيا المنام.

أما الأثر الوارد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها المفيد لنفي هذه الرؤية فقد ورد بالإسناد الصحيح الذي لا خدش فيه ، كما هو في متنه على درجة من القوة وصريح الدلالة مما يجعله أصح ما ورد في هذا الباب.

و قد جاء لبعض أئمة التفسير المحققين قوله أن هذا الأثر قاطع لكل تأويل. جاء هذا الأثر عن مسروق [1] بن الأجدع * أنه قال: "قلت لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، : "يا أم المؤمنين ، هل رأى محمد صلى

---

(1) مسروق بن الأجدع الهمداني: أشهر أئمة التابعين في الفقه والحفظ.

الله عليه وسلم ربّه ؟ " ، فأجابت: "سبحان الله! لقد قفّ[1] شعري مما قلت! أين أنت من ثلاث من حدثك بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية[2] من زعم أن محمدا رأى ربّه ، فقد كذب ، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ، ومن زعم أنه يعلم ما في غد فقد كذب والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ... ﴾ ، ومن زعم أنّ محمدا كتم شيئا من الوحي فقد كذب ، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾".

يقول مسروق: فقلت لها "يا أم المؤمنين أو لم يقل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ فقالت: "أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا ، فقلت يا رسول الله ، هل رأيت ربّك ؟ فقال ذلك جبريل رأيته منهبطا".

جاء هذا الأثر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بطرق عديدة من الرواة مع بعض تغاير في اللفظ من غير ما تغاير في المعنى [فجاء في لفظ من إحدى الروايات أن عائشة رضي الله عنها زادت على آية سورة الأنعام آية سورة الشورى من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا... ﴾...إلخ. وفي طريق آخر أن مسروقا قال عندما أجابته الجواب الأول: "وكنت متكئا فاستويت جالسا وقلت لها: يا أم المؤمنين انظريني

---

(1) القفت: بالقاف والفاء من المضاعف والفعل منه من باب جلس مفتوح الماضي مكسور المضارع "يقف" ومصدره القفوف بالضم عرف بأنه قيام الشعر عند الانفعال من الفزع ونحوه.

(2) الفرية: بكسر الفاء وإسكان الراء هو اسم من مادة (فرى) بمعنى كذب وافترى بمعنى اختلق واصطنع الخبر الكاذب.

ولا تعجليني ، أولم يقل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ و﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ ، فقالت: "إنما هو جبريل رآه مرة أخرى رآه على صورته التي خلق عليها". وفي لفظ آخر قالت: "أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقال: " لم أر جبريل على صورته إلاّ هاتين المرتين منهبطا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ".

و جاء في أحد طرق الرواية لهذا الأثر ما يدل على أن مسروقا إنما سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها السؤال المذكور بعدما سمع عن كعب الأحبار* بأنه يقول: "أن الله تعالى قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فكلمه موسى مرتين ورآه محمد مرتين " فذهب مسروق إلى عائشة فسألها السؤال المذكور فأجابت بما تقدم ذكره].

و على ما في هذه المسألة من خلاف بالنفي والإثبات فإنه يظهر مع ذلك أن الفريق الذي لا يرى ثبوتها لم يتحمس لرأيه ولم يكثر الجدل نحوها كما فعل الفريق المقابل الذي يثبتها ، فإن هؤلاء قد أكثروا من إيراد الوجوه الاستدلالية بمختلف الطرق ، وحاولوا شتى المحاولات ليضعفوا من الأثر القوي الوارد عن أم المؤمنين عائشة المتقدم ذكره ، غير أن ذلك كله لم يكن ليصل درجة ما يعتمد عليه بالوجه العلمي المقبول.

و لهذا فقد ذهب فريق آخر من العلماء الى القول بالوقف في هذه المسألة وأن الأولى بها أن لا يقال فيها لا بالإثبات ولا بالنفي. يقول هذا الفريق ليس في الباب دليل قاطع وغاية ما يستدل به الفريقان المتقابلان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل.

الدرس 45

تفسير إجمالي مختصر للآيات الفاتحة

من سورة النجم المتعلقة بآية المعراج

نقلا - بتصرف - من بعض مؤلفات التفسير المتداولة قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ مقسم به على أنه نجم الثريا المعروف بإطلاق اسم النجم عليه.

" إذا هوى[1]": غرب مع الصبح فيحصل به الاهتداء حينئذ إذ لا يتأتى معنى الاهتداء بالنجم إلاّ عند هويه ، فعند ذلك تظهر معالم الاهتداء به في السير وبيان الجهة وتعريف الوقت وغير ذلك.[جاء من البحث هنا فيما يخص الهوي وما فائدة ذكره دون الطلوع لأنه إذا كان الاهتداء بالنجم لا يتأتى إلاّ بميله دون استوائه في كبد السماء ، فالطلوع كذلك يتأتى به الاهتداء.

فقيل هنا أن في ذلك لطيفة حيث أن النجم مما يعبد من المعبودات الباطلة عند الكثير من الأقوام ، فأشير إلى هويه وسقوطه وأفوله كما استدل بذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فهو مع ما يرشد إليه من الهداية به ينطق بلسان الحال بأنه عبد مخلوق يفنى ويتغير فليس مستحقا لأن يتخذ معبودا] وهذا التفسير على قول من جعل أداة " الـ" الداخلة على "نجم" مفيدة للعهد أي النجم المعهود وهو الثريا وأما على

---

(1) فعل "هوى" بمعنى سقط ، ووقع ، ونزل ، من باب المفتوح في الماضي المكسور في المضارع "يهوي" مثل "رمى يرمي" ، وجاء في مصدره (الهوي) بضم الهاء وكسر الواو فتشدد الياء في آخره . فيكون بوزن النزول كما يقال "نزل ينزل نزولا" ، كما جاء في هذا المصدر فتح الهاء وكسر الواو فتشدد الياء كذلك فيكون وزنه كوزن المصادر المستعملة للسير والصوت مثل الدَّبيب والحنين(فَعِيل) بفتح فكسر ، هذا هو المشتهر من السماع. وربما كان من يجعله على القياس على باب "مَشَىٰ يمشي مشياً". فيكون بفتح فسكون فيقال "هَوى يَهوي هَوْياً" بفتح الهاء وإسكان الواو فتكون الياء في آخره مخففة كما في الرمي والمشي.

قول من جعلها مفيدة للجنس ففيه أربعة وجوه:

الوجه الأول: أن النّجم مراد به جملة نجوم السماء وهويها هو غروبها إذ لا تحصل فائدة الاهتداء بها إلاّ عند هويها للغروب (كما تقدم بيانه قريبا). وجاء هنا في الهوي أنه الانتثار الحاصل للنجوم عند قيام الساعة المشار إليه بآية الانفطار: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ ﴾

الوجه الثاني: أن النّجم هو النّجم الخاص برجم الشيطان والهوي هنا هو الانقضاض على المرجوم وإصابته.

الوجه الثالث: أن النّجم هنا هو النبات مما يطلق عليه اسم النّجم، والهوي هو سقوط هذا النبات على الأرض وذلك عند بلوغ غاية نشوئه.

الوجه الرابع: أن النجم هنا هو أحد نجوم القرآن. فإن القرآن نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة، أي مقدّرا بالآيات والأوقات فيكون- على هذا- أن القسم وقع بالقرآن.

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾: الخطاب لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم وهم قريش.

و الضلال نقيض الهدى. والغيّ نقيض الرشد. والضلال أعمّ من الغيّ. فالضّال من لا يجد الطريق أصلا. والغاوي من ليس له إلى المقصد طريق مستقيم.

وفي نفي الضلال نفي الجنون والكهانة وفي نفي الغواية نفي الشاعرية وأيضا نفي الضلال عمن نفي عنه يفيد صلاحه في أمور المعاد. ونفي الغواية يفيد صلاحه في أمور المعاش، فأقواله كلها على سنن الصواب. وإذ كان يمكن أن تستند إلى الاستنباط من العقل أو العرف أو العادة أخبر أنها مستندة إلى أخص من ذلك وأشرف وهو الوحي:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾: فاجتهاد الأنبياء من

الوحي أيضا والهوى هو المحبة النفسانية ، تركيبه يدل على السقوط والنزول ومنه الهاوية..

تركيب الآية أبلغ مما لو قيل هو وحي "يوحى" لتحقيق الحقيقة كمثل طائر يطير مبالغة في رفع المجاز..

"علمه": بيان طريق هذا الوحي والضمير لمحمد عليه الصلاة والسلام أو للموحىٰ.

" شديد القوى ": القوى جمع قوة كمثل حُبَىٰ جمع حبوة ورُبَا جمع ربوة. ويقال في القوى أيضا قوى بالكسر كما يقال مثل ذلك في رشوة ورشا بالضم والكسر في كل من المفرد والجمع.

و الوارد في فاعل "علمه" أنه جبريل عليه السلام وفيه الردّ على من زعم أنه يعلمه بشر.

"ذو مرة"[1]: المرة جمال الصورة وحسنها. وقيل هي القوة أيضا وقيل أن الظاهر هنا أنها القوة الجسمانية خاصة. وقيل عكس هذا: شديد القوى الجسمانية(ذو مرة) القوى العقلية.

" فاستوى": المشهور أن فاعله جبريل عليه السلام استقام على صورته الحقيقية.

" وهو بالأفق الأعلى ": الأشرف أي الشرقي.

" ثم دنا فتدلى": قرب ونزل. قيل هنا أن فيه تقديما وتأخيرا. أي تدلّى ، فدنا. فهو من باب: (أكرم فأحسن) على أن الأصل: (أحسن فأكرم). وقيل بل هو تأكيد. فالدنوّ والتدلي هنا بمعنى واحد. وزاد التأكيد بقوله:

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾: من باب حذف المضافات ، أي فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين... ، والقاب والقيب والقاد والقِيدُ

(1) المِرّة: بكسر الميم و تشديد الراء تطلق على أشياء و المراد هنا القوة و الشدة و يظهر من كلام الكثير من المفسرين أنها ترجع الى القوة المعنوية أكثر مما ترجع الى القوة المادية. فقد جاء أن العرب تقول: هو رجل مرير ، بوزن حكيم و عليم ...إلخ لمن كان مشهورا برجاحة العقل و حسن التدبير و جاء أن مأخذ اللفظ من إمرار الحبل والخيط مثلا أي فتله الفتل الشديد المستحكم فيقال أمررت الحبل لذا أحكم فتله شديدا بحيث يعسر حله.

والقيس ، كلها تستعمل للمقدار [1] . والعرب تقدر بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع ونحو ذلك...(ومنه الوارد في الصلاة النافلة أنها تصلى عندما ترتفع الشمس قيد رمح أو رمحين). ولفظ "أو أدنى" هو على معنى أو أدنى في تقديركم. كما في آية ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ وثم قول بأن فاعل استوى هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو بالأفق الأعلى ، بالرتبة العليا الإنسانية. وجاء من الأقوال في معنى القوس أنه إشارة إلى ما تعورف عند العرب حينما يتعاهد الفريقان منهم عهدا أن يطرحوا بين الجانبين قوسا أو قوسين ، رمزا لتأكيد العهد بين الجهتين. فأخبر بهذه الآية من القرآن بأن ما بين محمد وجبريل من المحبة وقرب المنزلة مثل ما تعرفونه بينكم عند المعاهدة. وجاء من الأقوال في فاعل "دنا " أنه محمد صلى الله عليه وسلم..

كما جاء منها أيضا أنه يعود على الربّ جلّ جلاله وعزّ شأنه.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾: الضمير في الفعلين إما لله تعالى وإما لجبريل. والعبد إما محمد صلى الله عليه وسلم أو جبريل عليه السلام ، ويحصل من هذا ستة وجوه من التقدير:

1) **الوجه الأول:** أوحى الله إلى محمد ما أوحى ، وفي "ما أوحى " تفخيم أي تفخيم لشأن الموحى به(لفظ "مَا" هنا اسم موصول بمعنى الذي مفعول لفعل فأوحى). وبعد قيل ما قيل في "**ما**" هذه...إلخ ، قيل هي أسرار وحقائق ومعارف لا يعلمها إلاّ الله سبحانه [تقدم في الدرس الثالث والأربعين ، ذكر ما وردت به الأخبار مما يدخل في الموحى به إليه صلى الله عليه وسلم في هذا المقام وأن منه خواتيم سورة البقرة ، والبعض من سورتي الضحى والشرح وأضيف إليه في بعض الروايات آية سورة الأحزاب في بيان صلاة الربّ سبحانه على عباده كما جاء في عموم الروايات أن من

---

(1) المقدار: هي ستة ألفاظ تستعمل للمقدار القاب و القيب بكسر القاف و القاد و القيد كذلك بكسر القاف و القاس و القيس بالكسر كذلك.

الموحى به هنا ، فرض الصلوات الخمس ، وزيد في بعض الروايات ذكر مزايا خص الله تعالى بها أمته عليه الصلاة والسلام] .

2) **الوجه الثاني**: أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحاه إليه جبريل أوّلاً.
وهذا يؤدي معنى أحد أنواع الوحي وهو الوحي بغير واسطة جبريل عليه السلام ، وتحتمل هنا لفظة "**ما**" أن تكون مصدرية أي بمعنى الإيحاء. ويفهم المعنى هكذا: (أوحى الله إلى محمد ما كان أوحى به إليه جبريل قبل. فيفيد معنى الوحي بغير واسطة جبريل عليه السلام).

3) **الوجه الثالث**: أوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى.

4) **الوجه الرابع**: أوحى الله إلى جبريل ما أوحى جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام وإلى سائر الأنبياء قبله عليهم صلوات الله وسلامه ، وهذا يفيد معنى تقرير أمانة جبريل عليه السلام.

5) **الوجه الخامس**: أوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله تعالى به إليه (أي إلى جبريل).

6) **الوجه السادس**: أوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى هو(أي جبريل).

- ملحق في استدراك لتتميم ما تقدم-

- من تأويل لهذه الآيات-

على القول بأن المراد بالنجم المقسم به هو القرآن من كونه نزل منجما أي مفرقا ، مقدرا بمقادير وأوقات فمعنى الهوي حينئذ النزول من الأعلى إلى الأسفل. فالمعنى من الآية القسم بالقرآن حال نزوله.

و القول الذي يجعل النّجم في الآية هو نجم الثريَّا المعروف قال به جمع من المحققين جازمين بأنه الصحيح من جملة الأقوال ، بينما يرى البعض من أئمة العلم المعروفين بالتحقيق(كالإمام ابن قيم * الجوزية) أن القول بأنه النّجم الخاص برجم الشياطين هو الوجه الأظهر والأكثر مناسبة ، وبيان ذلك أن الله تعالى أقسم بهذه الآية الظاهرة للعيان المشاهدة للعموم والتي نصبها آية وحفظا للوحي وحراسة له من استراق الشياطين.

أقسم بذلك على أن ما أتى به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم حق لا سبيل للشيطان ، ولا طريق له إليه ، بل هو محروس بالنجم إذا هوى رصدا بين يدي الوحي وحرسا له. فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. كما أن في المقسم به دليلا على المقسم عليه.

هذا وتوجد أقوال أخرى غير ما ذكر في المراد بالنّجم فنقل من ذلك عن البعض بأن المراد بالنّجم هنا هو الرسول محمد نفسه وأن هويه هو نزوله صلى الله عليه وسلم إلى الأرض بعد رقيه ما رقي من مراقي المعراج ، (وعلى ما يبدو من بعد ، في وجه تأويل هذا القول إلاّ أنه فيه ما تحصل به المناسبة للموضوع).

و مما جاء من تأويل الآية في نفي الضلال والغيّ ليثبت الهدى والرّشد ، أن الهدى في علمه صلى الله عليه وسلم والرّشد في عمله ، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد وبهما سعادته وصلاحه.

و جاء في تأويل "الاستواء بالأفق الأعلى" على أن فاعله جبريل عليه السلام. أن هذا إشارة إلى ما وقع للرسول صلى الله عليه وسلم من الرؤية لخلقة جبريل على الصورة الأصلية له ، وذلك في الأرض حذو جبل حراء أيام مبدإ المبعث ، إذ تبدّى له صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في صورته الأصلية طالعا من الأفق الشرقي ، ناشرا أجنحته ، قد سدّ جناحه الأفق من المشرق إلى المغرب ، ولم يطق الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المشهد ، فوقع مغشيا عليه. فرجع جبريل إلى صورة ما كان يأتيه به من شكل الآدميّ فضمه إلى نفسه وأخذ يمسح أثر الغبار الذي لعق به عندما وقع على الأرض. فهذه هي المرة الأولى التي رأى صلى الله عليه وسلم فيها جبريل على صورته الأصلية وهي في الأرض. ثم كانت له صلى الله عليه وسلم رؤية ثانية مثلها في السماء عند سدرة المنتهى ليلة المعراج. وإلى الرؤية الأولى تشير الآية من سورة التكوير ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾. وإلى الرؤية الثانية تشير آية سورة النّجم: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (14) ﴾.

و جاء للبعض في وصف الأفق هنا بالأعلى بأنه ليس المراد الأعلى في السماء ، وإنما المراد جانب المشرق وهو فوق جانب المغرب لأن الجانب الشرقي من الأرض أعلى من الغربي. وفي بحث لفظ كلّ من الدنوّ والتدلي جاء ما يأتي:

- الدنوُّ هو القرب إما حساً وإما معنى.
- والتدلّي هو الامتداد من العلوّ إلى الأسفل. هذا هو الأصل.

ثم جرى استعمال التدلّي في القرب الآتي من العلوّ إلى الأسفل (ويكون حسًّا ومعنى).

و يفهم أن القرب الحاصل من التدلي أخص من القرب الحاصل من الدنوّ. وبهذا حسن عطف أحدهما على الآخر (أي الدنوّ والتدلّي). فتقديم

الدنوّ- كما في الآية- من باب تقديم العام على الخاص. وهذا الوجه في تفسير الآية الأولى من الوجه الذي يجعل الآية من باب التقديم والتأخير (أي تقديم المؤخر وتأخير المقدم) على معنى: تدلّى فدنا. وهو أولى أيضا من الوجه الذي يجعل اللفظين بمعنى واحد، على أن ذلك من باب التأكيد.

والمعروف الذي يكاد لا يصح غيره في ضمير فاعل هذه الأفعال الثلاثة من الاستواء والدنوّ والتدلّي أنه يعود إلى جبريل عليه السلام، أي بعد استواء جبريل بالأفق الأعلى دنا من الرسول صلى الله عليه وسلم وتدلّى عليه. وفيما يتعلق بالآية ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ أن المعنى فكان بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم مقدار قوسين أو أقل تمثيلا للقرب.

و مجرى هذا على الاستعمال المعروف عند العرب في الرسوم التي أقاموها عندهم في حياتهم العامة عندما يقع بين فريقين تعاهد على أمر وتعاقد على إجراء من الإجراءات في شئونهم يرعاه الجانبان، فيخرج زعيم الفريق منهم قوسه ويقابله زعيم الفريق المقابل بقوسه كذلك، ويجعل كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه. وما عدا الزعيمين من عامة الفريقين يجعل الواحد منهم كفه بكف الآخر (رمزا لتوثيق العهد بين الجانبين) وعند ذلك تجري مراسيم المبايعة على عقد ما تعاهدوا عليه من شأن.

و جاء للبعض في أداة "أو" ....من "أو أدنى" أنها هنا لتحقيق قدر المسافة، وأنها لا تزيد على قوسين البتة. وكذلك "أو" في آية: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾.

تفيد تحقيق عدد المائة ألف وأنه لا ينقص البتة، وكذلك هذه الأداة أيضا في الآية: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، أي

لا تنقص شدة عن قسوة الحجارة ، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها.

يقول وهذا المعنى للأداة المذكورة في هذا المكان هو أحسن والطف وأدق من الوجه الذي يجعل للأداة معنى(بل) فيكون في الكلام إضراب وانتقال.

و كذلك هذا المعنى أولى من جعل الأداة للشك (ولكنه بطبيعة الحال شك عند العباد).

و هو أيضا أولى من الوجه الذي يجعل أداة "أو" هنا بمعنى "الواو" ، والمعنى -على كل وجه- جار على عادة المخاطبة عند الناس. والله سبحانه عالم بوضع الأشياء كما هي عليه. لا تردد عنده.

و جاء فيما يتعلق بالآية الأخيرة: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ، من الضمير البارز المضاف للعبد وهو العائد على الربّ سبحانه وتعالى بأن هنا إضمارا قبل الذكر لأنه لم يتقدم في الكلام ذكر لله تعالى. فهذا من المعلوم في المقام بالضرورة ، ومن هذا ما جاء في الآيتين من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾من سورة النحل. و قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ من سورة الملائكة (سورة فاطر). فكل من الضميرين في "عليها" و"ظهرها"يعود على الأرض ولم يتقدم في السياق ذكر للأرض.

و فيما تقدم من الوجوه التقديرية في عود الضمير في الفعلين: "أوحى " الأول و"أوحى " الثاني ، اختار الإمام ابن جرير الطبري* أحد أئمة التفسير المحققين المعتمد عليهم اختار الوجه الخامس من تلك الوجوه الستة الآنفة الذكر ، بأن الضمير الفاعل في فعل "أوحى " الأول يعود على جبريل عليه السلام ، وفي فعل "أوحى " الثاني يعود على الربّ جلّ وعلا فيكون المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى الله إليه (أي إلى جبريل).

الدرس 46

تابع تفسير الآيات الفواتح لسوة النّجم المتعلقة بالمعراج

قوله عزّ وجلّ: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾:

هذا إخبار عن تصديق قلب الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأته عيناه ، لمّا رأى وشاهد من آيات ربّه ليلة المعراج. وجاء في قراءة لفظة " كذب " رواية الجمهور أن الفعل بالتخفيف وهو متعد مفعوله الجملة من " ما رأى ". كما جاءت رواية في قراءة الفعل بالتّشديد "ما كذَّب" و"الفؤاد" و"القلب" بمعنى واحد على أنه مستودع العقل والعلم من الشخص ، والمشتهر في أداة " الـ" في الفؤاد أنها للعهد الفؤاد المعهود هنا وهو فؤاد محمد عليه الصلاة السلام. ومقابل المشتهر أنها للجنس فتشمل سائر الأفئدة من حيث هي تفقه وتعقل.

فالمعنى على الأول ، أي على قراءة التخفيف ، ما كذب فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام ما رآه بصره بل أن الفؤاد صدق وصادق على ما رآه البصر ، فالقلب صدق البصر فيما رأى ولم يكذبه. وهذا على خلاف ما إذا رأى راءٍ مثلا شيئًا على خلاف ما هو به في الحقيقة ، ففؤاده يكذب بصره في تلك الرؤية.

هذا...و قد يبدو اشتباه بين معنى فعل، **كذب** ، بالتخفيف **وكذَّب** بالتشديد ويدق الفرق بين معنى كلٍّ منهما فلذلك جاء لبعض المفسرين قوله وقد فسر الثاني بما هو مثل الأول فلتوضيح معنى الأول ينبغي أن يفهم أن مادة "كذب" تتصرف إلى وجوه عديدة متغايرة المعنى بحسب اختلاف مبناها ،

[بل وتكون الصيغة الواحدة من المبنى لها معان متغايرة كما في "كذب عليه" فقد يكون معناه أخبره بما هو باطل ، وقد يكون معناه قال عنه ما لم يقل] ، وفعل "كذب" بالتخفيف يستعمل غالبا متعديا بحرف "علَى". فيفيد الإخبار بغير الواقع أو يغير ما هو حقيقة مسندا ذلك إلى من

ألقي إليه الخبر فإذا استعمل هذا الفعل كما هو في هذه الآية على قراءة الجمهور بالتّخفيف ولكنه متعدٍّ بنفسه إلى مفعوله [بل يستعمل تارة متعديا إلى مفعولين فيقال مثلا: كذَبه الوعدَ أو الخبرَ أو نحو ذلك. وإن كان الاستعمال الجاري تعديته إلى المفعول الثاني بحرف الجرّ ، فيقال كذبه في الوعد أو كذبه في الحديث ونحو ذلك ، وهو وضده الذي هو صدق مثل ذلك تماما].

أفاد معنى الإنكار وعدم الموافقة والتصادق مع مفعوله ، وربما تحسن هنا عبارة المناكرة بين الفاعل والمفعول. فيقال " كذَبه "بالتخفيف بمعنى لم يخلص معه ولم يكن موقفه معه موقف صدق ومصافاة ، ويفهم هذا بمثال ما جاء في الآية من سورة التوبة في موقف الفريق من الأعراب الذين تخلفوا عن إجابة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للجهاد في سبيل الله في غزوة تبوك. فناكروه ولم يصدقوا معه الموقف ، وهي الآية من قوله سبحانه: ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. فالفعل فيها من "كذبوا"هو كما هنا في سورة النّجم كانت قراءة الجمهور له بالتخفيف ، فيفيد معنى الآية على هذا أن هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله ناكروا الرسول وأنكروا ما جاءهم به الرسول من عند الله ولم يقفوا منه ومعه موقف صدق وقبول وذلك لأنهم قعدوا وتخلفوا من حيث لم يستجيبوا. ومع ذلك فلم يعتذروا كما اعتذر المعتذرون سواء عن صدق أو كذب. وليس معنى الآية - على هذا - أنهم كذَّبوا ، بالتّشديد ، الله ورسوله بجعلهم ما جاءهم من الله على لسان رسوله باطلا وليس بحق فنسبوا الله ورسوله إلى الكذب. وقد عرف أن هذه الآية جاءت فيها قراءة بالتّشديد لفعل كذَّبوا ولكنها غير قراءة الجمهور كما هو الحال في آية النّجم تماما. فمفاد الآية على قراءة التخفيف نفي التناكر بين الفؤاد والشيء الذي رآه البصر ، بل أن الفؤاد اعترف واطمأن وصدّق بمعنى آمن وتحقق بما رآه

البصر ، وبعبارة أن الفؤاد والذي رآه البصر كانا على موافقة ومصادقة.

أما على قراءة الفعل بالتّشديد فالمعنى واضح وبسيط أي أن الفؤاد لم يكذب ما رآه البصر ، بمعنى لم يكذب به أو لم يكذب صاحبه على اعتقاد أن ما رآه باطل أو خيال...إلخ بل صدقه فيما رأى. ولعل فيما يبدو عند التأمل أن المعنى على قراءة التخفيف أعمق وألطف وأشمل ، ولعل هذا مما جعلها مكان أخذ الجمهور بها.

و جاء على اعتبار أن الفؤاد للجنس ، أن الفؤاد لا يكذب ولا ينكر ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم لأنه الحق الذي تذعن إليه الأفئدة المخلوقة على فطرة الله التي فطر الناس عليها.

و جاء في هذا أيضا عبارة القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم ، كما جاء هنا للبعض أن النفي الذي في هذه الآية " ما كذب " هو من النفي الذي يقتضي نفي الجواز وليس هو من نفي الوقوع فقط ، ونفي الجواز هو مثل ما في الآية: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾وآية ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾.[وساق من تعرض لهذه الجزئية من المفسرين فيما يدخل في نفي الجواز آية الأعراف من قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ فالنفي فيها يشمل الجواز أيضا] بخلاف نفي الوقوع كما في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ، وآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾. وقد فهم مما تقدم أن الضمير الفاعل في "رأى" يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن حاسة الرؤية هي البصر.

و لكن جاء أيضا أن الضمير في "**رأى**" يعود على الفؤاد أيضا فيكون المعنى على هذا: ما كذب الفؤاد ما رأى الفؤاد نفسه أي بإسناد الرؤية إلى الفؤاد. وأمّا ما يتعلّق ببيان المرئي في آية ما رأى وما هو؟ فالذي تداولته الأقوال المأثورة فكان يبدو أنه المشتهر فهو رؤيته صلى الله عليه وسلم

جبريل عليه السلام على الصورة الأصلية له التي بدأه الله عليها. وجاء مع هذا قول من عمّم ولم يخصص وبأنّ المرئي ينصرف إلى عموم ما رآه صلى الله عليه وسلم من الآيات العظام وما شاهده في هذه الرحلة القدسية من عجائب ما صنع الله تعالى في ملكوته.كما يوجد - مع هذا - قول من يثبت للرسول صلى الله عليه وسلم رؤيته لربّه تبارك وتعالى في مشهد آية المعراج. وقد تقدم بسط ما يتعلق بهذه المسألة في الدرس السابق المرقم بعدد أربع وأربعون. وقد فهم من ذلك أن القول بالرؤية هنا هو قول في الحقيقة ضعيف ، ومرجوح بالنسبة لمقابله الذي لا يثبت هذه الرؤية رغم ما أكثر المدعون لها من متنوع الأقوال وما تزيدوا به من الاحتجاج والاستدلال والآية من قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ تضمنت استفهاما إنكاريًا لموقف المكابرة[1] وجحود الحق ، من طرف قوم الرسول صلى الله عليه وسلم الذين أنكروا وجحدوا ما جاءهم به من الحق وخبر الصدق الذي منه هذه الآية التي هي آية الإسراء والمعراج وما يتلقّاه من الوحي بالقرآن الذي كان الحجة البالغة والبينة الدامغة على عنادهم ومكابرتهم.
وجاء من القراءة في هذا الفعل قراءتان:
الأولى: " أفتمارونه" بصيغة المفاعلة بين جانبين وهو من "المراء"[2]

---

(1) لفظ المكابرة هو في معنى الجحد والعناد فيما هو حق لا يقبل الجدل من حيث يحاول المكابر غلبة مقابله بغير ما حجة ولا دليل وإنما هو عناد محض.

(2) المرآء: أخص من الجدال لأنه إذا أطلق يكون غالباًبمعنى الجدال بالباطل وبالملاحاة وبالعناد وجحد الحق. وجاء فيه أن إشتقاقه من المري بفتح الميم وسكون الراء بوزن الرمي والمشي. فيقال "مرى يمري" وهو من المتعدي يقال "مريت الناقة" مثلاً إذا مسحت على ضرعها لتدر اللبن ، وكذا مريت الفرس إذا أكثرت عليه الهمز والضرب بالسوط مثلاً ليزداد في السير ، فهو فعل بقصد إستخراج شيء يراد خروجه. هذا هو أصل المعنى ابتداء في لفظ المرْي. ثم استعمل بعد ذلك فيما يذكر من المري والمراء بمعنى الغلبة على المفعول فيتناول الجدال لأنه يقال ماريته فمريته بمعنى غالبته في الجدال فغلبته وظهرت عليه.و مراه ، يمريه حقه بالتعدية إلى مفعولين بمعنى جحده وهو في معنى الغلبة والتغلب.

بكسر الميم ومعنى "المِراء" الأصليّ هو المجادلة الملاحاة[1] ، فالمعنى على هذا: أفتجادلونه ؟ .

و القراءة الثانية: " أفتمرونه " بفتح التاء وإسكان الميم (فعلا مجردا من حروف الزيادة): والمعنى على هذه القراءة هو الجحود ، لأنه يقال مراه حقّه يمريه من باب رَمَىٰ. لكنه يتعدى إلى مفعولين بمعنى جحده حقّه وهو يعلم أنه حق.

وتوجد قراءة ثالثة غير مشهورة وترجع في الأصل إلى معنى القراءة الثانية وهي " أفتُمْرُونه" بضم تاء المضارعة على جعل الفعل رباعيًّا بزيادة الهمزة بمعنى "أمراه حقه" عوض "مراه" فيتحصل من مجموع القراءتين معنى المجادلة والملاحاة. ومعنى الجحود والمناكرة وفي كل ذلك يتضمن المعنى أيضا قصد الغلبة ، فلذلك وجه البعض من أئمة التفسير معنى هذا الفعل في الآية "أفتمارونه" إلى صيغة (أفتغلبونه في المراء).

وقد جاء للمفسرين من التعليق على هذه الآية أن خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركين تجاه دعوته عليه الصلاة والسلام بوجه العموم ، وفيما يخص آية الإسراء بوجه أخص كان شأنهم دومًا الإنكار والجحود مع المماراة والجدال ولكن في حادث الإسراء كان منهم المزيد من الجدال والمراء بقصد الغلبة والظهور عليه صلى الله عليه وسلم إذ رأوا في الحادث ما هو أبعد عن المألوف وما هو أعجب وأغرب مما كانوا أنكروه عليه قبل ذلك.

---

(1) فسرت الملاحاة التي هي صيغة مشاركة في الفعل بأنها الجدال ولكنه بنزاع وعبارات جارحة فلذا قيل من لاحاك فقد عاداك. واللفظ مأخوذ من اللّحي " بفتح فسكون ، فالفعل المجرد " لحَا ، يلحَى ، لحيًا " مثل "سعى" ولكنه متعد فيقال لحاه الله أي قبحه وأبعده ونحو ذلك. وجاء أيضا في " لحاه" أنه بمعنى لامه من اللوم على الشيء وعدم الرضا به. كما يستعمل هذا الفعل أيضا في إزالة اللحاء (بالكسر) وهو قشر العود ، فيقال لحاه بمعنى قشره.

و مجمل التأويل لهذه الآية هو الإنكار والتقريع والتبكيت لمعارضي الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بما رأى من آيات الإسراء من حيث كانوا يجادلون ويجحدون قاصدين التغلب عليه بذلك ، وهيهات لهم ذلك وهو قد تحقق وتيقن بما رأى مما هو حق ثابت قائم العين لاسبيل إلى نفيه والجدال والمراء والجحود والإنكار فيما هو ثابت قائم معاين من أشد أنواع الجهل وأفحش أصناف العبث والغرور.

و جاء لمن تعرض للبحث ما في هذه الآية من التعبير بالفعل المضارع في " على ما يرى" مع أن الرؤية مضت أي فيأتي التعبير بالماضي: (على مارأىٰ) ، بأن هذا يحتمل أن يكون من وضع المضارع موضع الماضي ، وجاء في تأويل الآية من قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ...﴾. وجه من هذا التأويل في فعل "تتلو" المضارع على أنه وضع موضع الماضي أي اتبعوا ما تلت الشياطين. ومعلوم أن ثم في العربية مذهب من يجيز وضع المضارع موضع الماضي مطلقا غير أن هذا الوجه من البحث في هذه المسألة لا يعدو موضوع الصناعة اللفظية خاصة.

كما يحتمل التعبير بالمضارع في هذه الآية أن يكون مفيدا لقوة تأثير تلك الرؤية (وإن مضى وقتها). فنزلت منزلة الحال المستمر الحاضر.

ولا يخفى أن مبنى هذا البحث إنما هو على حصر الرؤية في "على مايرى" فيما تقدم من السياق الخاص بمرأى آيات المعراج. ولكن يظهر أنه لا مانع من التعميم في لفظ "مايرى" بصيغة المضارع الذي يفيد الاستمرار ، فيفيد كل ما يرى بمعنى ما يتحقق به ويتيقنه من مطلق الآيات والوحي.فلا يجادل ولا يمارىٰ ولا يشكّك ولا يغالَب بالجدال والمراء والتشكيك من كان شأنه أن يرى ويتحقق بما يرى من الحق الذي لاسبيل إلى الريب فيه (وإنما يمكن أن يجادل ويمارىٰ ويغالب من كان على ظن أو وهم أو ادعاء).

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾: المعروف أن الضمير الفاعل هنا في فعل رآه يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والضمير المفعول يعود على جبريل عليه السلام. والنزلة هي المرة من النزول أقيمت مقام المرة فنصبت مثلها على الظرفية للإشعار بأنها كما في المرة الأولى كانت بنزول ودنوّ ، كما أعرف لفظ نزلة أيضا بأنه منصوب على المصدرية الواقعة موقع الحال بمعنى رآه نازلا نزلة أخرى. وقد فهم من لفظ "أخرى" أن هذه الرؤية تقدمتها رؤية أخرى وهي التي كانت بالأفق المبين في الأرض. وهذا ما دلت عليه الأخبار الصحيحة من كونه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورة خلقته الأصلية مرتين ، أولاهما في الأرض والثانية في السماء. والأولى كانت حول جبل حراء أوائل أيام المبعث ، والثانية كانت عند سدرة المنتهى في السماء السابعة ليلة الإسراء والمعراج.

"عند سدرة المنتهى": "عند" هو الظرف المكاني لهذه الرؤية. وفيه إشارة إلى قطع كل احتمال من حيث أن هذا المكان لا يحضره إنس ولا جان ولا خيال ولا شيطان ولا غير ذلك. و"السدرة " بالكسر هي شجرة النبق [1] وقد دلت أخبار المعراج بأن الرسول صلى الله عليه وسلم رآها كذلك في السماء السابعة كما مرّ ذكره في آيات المعراج. و"المنتهى" اسم مكان بمعنى موضع الانتهاء والغاية كما يقال المنتدى لمكان الندوة [2] والمجتمع لمكان الاجتماع.

---

(1) النبق: بالنون والباء الموحدة التحتية آخره قاف. جاء أنه يلفظ به مفتوح النون ، ساكن الباء للتخفيف والأصل كسر الباء والواحدة منه نبقة بوزن كلِمَة وهو ثمر شجر السدر المعروف.

(2) الندوة: ، بفتح النون وإسكان الدال المهملة هي المرّة من الندو بفتح فسكون الذي هو مصدر فعل ندا ، يندو ، بوزن عدا ، يعدو عَدْوًا ، و نصر ، ينصر نصرًا ، أي من المفتوح في الماضي ، المضموم في المضارع ، ومعناه الاجتماع لتداول الحديث ومن هذا جاء اسم الندوة المعروفة بمكة على عهد قريش.

كما جاء أيضا أن "المنتهى" مصدر ميمي كما يقال مثلا "انتهى هذا الشيء منتهى حسنا". فيكون المنتهى بمعنى الانتهاء نفسه. والمشتهر في معنى هذه التسمية للسدرة أن ذلك لكون علم المخلوق ينتهي إليها فلا يعلم ما وراءها إلاّ خالقها عزّ وجلّ.

و جاء أيضا في هذه التسمية أن ما يصعد من السفل لا يتعداها ، وما يهبط من العلو ينتهي إليها. وفي إضافة السدرة إلى المنتهى ، ومعنى هذه الإضافة ، جاء القول بأنها من إضافة الشيء إلى مكانه ، فيكون المعنى في المنتهى أنه الموضع الذي لا يتعداه شيء من الأشياء بإطلاق ، وجاء قول بأنها من إضافة المحل إلى الحال فيه فيكون المعنى أن السدرة فيها المنتهى لجميع الأمور من العلوم وغيرها. ويوجد بجانب هذا قول بأنها من إضافة الملك إلى مالكه على تقدير اللفظ هكذا: سدرة المنتهى إليه ، والمنتهى إليه هو الربّ سبحانه وتعالى بدليل ما جاء في الآية: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ ، فيكون المعنى كما في: بيت الله ، وناقة الله ، ونحوه ، فهي إضافة للتشريف.

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾: المعنى أن جنّة المأوى كائنة عند سدرة المنتهى ، فهو تعريف لمكان جنّة المأوى. وجاء في تعريف "جنّة المأوى" أنها المكان الذي تأوي إليه أرواح الشهداء. كما جاء التعميم وأنها مأوى أرواح المؤمنين جميعا عندما تفارق أجسادها بالموت.

كما جاء قول مأثور عن علماء الصحابة بأنها جنّة مبهمة من الجنان على أن المعنى المراد في الموضوع هو تعظيم مكان سدرة المنتهى التي وقعت عندها الرؤية ، بأن جعلها الله عند الجنّة.

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾: جاء للمفسرين أن الظرف الزماني في لفظ "إذ" هو ظرف للرؤية المتقدمة الذكر في ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي أن الرؤية

وقعت عند السدرة وقت ما كان يغشى هذه السدرة الأمر الذي غشيها بمعنى سترها وتلبس بها وأتاها وحلّ بها.

و جاء أنّ التعبير بأداة "ما" يفيد التعظيم والتكثير أي أن ما يغشى السدرة هو أمر عظيم كما هو كثير. وقد تقدم في ذكر أخبار المعراج أن السدرة لما غشيها ما غشيها من أمر الله تغير حالها إلى ما لا يدرك كنهه[1] ولا يستطاع نعته ووصفه. فالمتحصل للفهم من لفظ الآية هو جلالة ما غشي السدرة وعظمته وكثرته مع إبهام حقيقته والعدول عن تعريفه وتحديده.

هذا وقد ورد في روايات الأخبار عما شاهده الرسول صلى الله عليه وسلم من وصف السدرة ، وما اكتنفها من الأحوال في هذا المقام عدة من الروايات: منها أنه صلى الله عليه وسلم شاهد السدرة وقد غشيها المقدار الجم من الفراش[2] و كان من ذهب ، ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم رأى الجموع الضخمة من الملائكة يتعلقون بالسدرة على كل ورقة ملك يسبح الله ويقدسه.

كما جاء أن السدرة غشيتها أنوار وألوان لا يستطيع العقل تكييفها وتمييزها.

---

(1) الكُنه: بضم الكاف وسكون النون وآخره هاء يستعمل في نهاية الشيء وفي واقع حقيقته التي هو عليها ، فيقال مثلا عرفت الشيء الفلاني كنه المعرفة أي غاية المعرفة وعلمت كنهه أي حقيقته كما هو. كما ذكر أيضا أن هذا اللفظ يستعمل في الوقت كما يقال مثلا هذا الأمر ليس هذا كنهه أي ليس وقته.

ويستفاد من مؤلفات اللغة أن هذا اللفظ لا يتصرف منه الفعل ، وأن ما جرى من استعمال فعل الافتعال منه كما يقال اكتنه الشيء ويكتنهه هو استعمال مولّد في اللغة ليس من أصالتها.

(2) الفراش: بفتح الفاء وتخفيف الراء مفتوحة ممدودة آخره شين معجمة اسم جنس الواحدة منه فراشة ، يطلق على جنس الطير المعروف بتهافته وتساقطه على النار والضوء وله بعض الشبه بالجراد حتى أنه جاء في بعض روايات هذا الخبر التعبير بلفظ الجراد عوض الفراش (أي أنه صلى الله عليه وسلم شاهد السدرة يغشاها جراد من ذهب). فيفهم أن المعنى الذي يرمي إليه القصد هو الكثرة المتجاوزة حد التقدير.

كما جاء من هذه الروايات ما فيه التعبير بلفظ الخلق والخلائق (للإبهام) أي أن السدرة كانت مطلب ومبتغى خلق من خلق الله يهرعون إليها يتعلقون ويتشبثون بها في كثرة عدد لا يتصور حصره.

"ما زاغ البصر وما طغى": جاء في هذه الآية أنها أفادت بيان أدب الرسول صلى الله عليه وسلم وثباته في هذا المقام البالغ نهاية الجلال وغاية الرهبة والاحتشام.

و "الزيغ" هو الميل والطغيان ومجاوزة الحد الواجب الوقوف عنده. و"البصر" هو بصره عليه الصلاة والسلام في رؤيته ما رأى في هذا المشهد من المعراج.

و جاء من عبارات تأويل هذه الآية أنها تفيد قوة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم ويقين قلبه في تحققه بما رآه ونفي وجوه الريب عنه ، فلم يلتفت جانبا لا يمينا ولا شمالا ولا قصر عن كشف حقيقة الأمر ولا جاوزه ولامد بصره إلى شيء آخر غير المقصود مما رآه من الآيات ولاعدل عن رؤية عجائب الملكوت التي أمر برؤيتها ولا تعدى ولا تطلع إلى ما لم يؤمر به بل كان على غاية رباطة الجاش وسكون القلب وهذا غاية الكمال.

و قد أفادت هذه الآيات من سورة النّجم أن الله سبحانه وتعالى نزه علم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغي ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان.

"لقد رأى من آيات ربه الكبرىٰ": هذه الآية هي خاتمة ما جاء في سورة النّجم مما يتعلق بالمعراج النبويّ على صاحبه وآله أفضل الصلاة وأكمل السلام. وجاءت مؤكدة بالقسم. كما فتحت الجملة من هذه الآيات بالقسم أيضا وقد عرف جليًّا مما جاء في القرآن عن آية الإسراء والمعراج أن المدار فيه على العموم إنما هو على الرؤية ، رؤيته صلى الله عليه وسلم ما رأى وتحقق به من آيات الله عزّ وجلّ ، الجليلة القدْر ، الضخمة الشأن ، الدالة على قدرة الخالق الحكيم وعظمة سلطانه وعجيب صنعه في ملكه وملكوته

والمتضمنة كذلك التكريم السامي المقدار والتشريف الشامخ المكانة من العناية والزلفى منه سبحانه لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام.

و الذي جاء في تأويل هذه الآية أنّ "الكبرى"صيغة اسم تفضيل تأنيث الأكبر. وفي الإعراب وجوه عدة:

1) **الأول** منها (وهو الذي يظهر اشتهاره) أن "الكبرى" مفعول "رأى" ، و"من آيات ربّه" في موضع الحال على التقديم ولفظ "من" للبيان ، فالتقدير على هذا الوجه " لقد رأى الكبرى من آيات ربّه" على أن "الكبرى" وصف للآيات التي هي جمع آية ، لأن هذا الجمع يوصف بصيغة المفرد المؤنث هكذا: الآيات الكبرىٰ عوض الآيات الكبريات.

2) **الوجه الثاني**: أن يكون مفعول "رأىٰ" هو "من آيات ربه" فيكون لفظ "من" للتبعيض والتقدير على هذا الوجه: "لقد رأىٰ بعض آيات ربه الكبرى" ، ويبقى لفظ "الكبرى" وصفا لجمع الآيات.

3) **الوجه الثالث**: يجعل فعل " رأىٰ" متعديًا لمفعول ثان وحذف في السياق والتقدير على هذا الوجه "لقد رأى شيئًا عظيما...من آيات ربه الكبرى ".

4) **الوجه الرابع**: "الكبرى" هو مفعول" رأىٰ" مع كونه نعتا لمفرد أي الآية الكبرى ، والتقدير على هذا الوجه: "لقد رأىٰ من بين آيات ربه الآية الكبرىٰ" فتكون الرؤية منصبة على آية واحدة ولكنها هي أكبر الآيات وأعظمها.

و قد جاء في ماهية المرئي مثل ما تقدم في آيات الرؤية من هذه الآيات. فجاء قول من أخذ بالعموم وأن ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى هو جملة ما رأى من الآيات ابتداءً من أول مسراه من مكة إلى أن رجع إليها من تلك الليلة بما في ذلك آيات الإسراء وآيات المعراج.

وجاء قول من خصص رؤية جبريل عليه السلام بالصورة الأصلية له كما تقدم ذكره ، وقول من خصص مرأى السدرة وما غشيها ، وقول من خصص آيات العالم العلوي الراجعة إلى آيات المعراج دون الإسراء.

و استحسن بعض الأئمة القول الأول الذي يفيد عموم الآيات من كل من الإسراء والمعراج ، وأنها كلها يصدق عليها الوصف بالكبرى.

هذا وقد أخذ من يثبت للرسول صلى الله عليه وسلم رؤيته لربه عزّ وجلّ في هذه الليلة التي هي ليلة المعراج من هذه الآية الأخيرة من آيات سورة النّجم على الوجه الأخير المحكي من تأويلها بكون لفظ "الكبرى" هو مفعول "رأىٰ" وعلى أنه نعت لمفرد كما تقدم بيانه ، أخذ المثبت للرؤية دليلا عليها من هذا الوجه من التأويل.

و لكن الغريب في الأمر هنا أن نفس هذه الآية اعتمدها القائلون بنفي الرؤية كدليل تام الوضوح كامل الدلالة على أن ما يذكر من مقال الرؤية المذكور ليس له مجال في هذا المقام من حيث أن آيات سورة النّجم المتعلقة بالمعراج ختمت برؤية الآيات كما ختمت آيات الإسراء في سورة سبحان برؤية الآيات أيضا.

و كأن مرمى هذا الاستدلال على نفي الرؤية يشير إلى أن رؤية الربّ عزّ وجلّ أمر أعظم وأفخم وشأنه أكبر وأخطر. فلا يقال فيه بالاحتمال بل الشأن أن يخصص بالذكر ويفرد بالبيان مع أن ما جاء في هذه الآية من وصف الآيات بالكبرى ، جاء مثله بالنسبة إلى كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام كما دلت عليه الآيات من سورة "طه" في قوله عزّ وجلّ خطابا لموسى عليه السلام: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (17) قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (19) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (21) وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (22) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا

ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿23﴾...إلخ.

و على كل حال فالمتعين من المقال في خاتمة هذا المجال ، هو أنّ لله تعالى في كل شيء آياته الكبرى [1] . وفي هذا المقام بالخصوص دلت هذه الآية الكريمة على عزّة ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم وجلالة قدره وفخامة شأنه وفي هذا إشعار وأي إشعار بعظم ما أولى الله سبحانه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من الفضل وما حباه به من التشريف والإكرام فعليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

[1] وجاء في القرآن الكريم من سورة "النازعات" حكاية عن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام فرعون إلى الإيمان وإقناعه على ذلك بآيات الله المعجزات ، الآية من قوله تعالى "فأراه الآية الكبرى".

الدرس 47

رجوع إلى تكميل ما يتعلق بالمعراج

تقدم أنّ مما أوحي به إليه صلى الله عليه وسلم في هذا المكان عند سدرة المنتهى ، وإرتقائه إلى المستوى الذي سمع فيه صرير الأقلام ، خواتيم سورة البقرة [لا يحصل أي إشكال في ذكر آيات ختم سورة البقرة هنا ، وهي مما نزل بالمدينة بعد الهجرة. وكذلك آية سورة الأحزاب المذكورة هنا وهي مما نزل بالمدينة أيضا ، لأنّ المعنى فيما حصل هنا هو مضمون تلك الآيات ومدلولها. كما تقدم بيان هذا في المعنى في باب بدء الوحي من غير احتياج إلى القول بأنه مما تكرر نزوله] ، والبعض من سورة الضحى وسورة الشرح وكذا الآية من سورة الأحزاب المبينة لصلاة الربّ على عباده وأنّها الرحمة ، وكذلك مما أوحي إليه هنا فرض الصلوات الخمس المعروفة عليه وعلى أمّته. وأفادت روايات أخرى من روايات هذا الموضوع أنه مما أوحي إليه أيضا أنه تعالى غفر لمن لم يشرك بالله من أمّته عليه الصلاة والسلام المقحمات[1] (وصف للذنوب الكبيرة).

وفي رواية من هذه الروايات أنّه صلى الله عليه وسلم بعد هذا تم له المشهد ، وأنجلت عنه السحابة التي أقلته ، فالتقى بجبريل عليه السلام بالمكان الذي توقف فيه قبل ، فأخذ جبريل بيده عليه الصلاة والسلام ورافقه منصرفا سريعا في الرجوع.فمرّ على الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمكانه في السماء السابعة فلم يقع شيء من المقال مع إبراهيم.ثم مرّ بموسى عليه الصلاة والسلام بمكانه في السماء السادسة. فكان مع

(1) المقحمات: بالقاف والحاء المهملة والميم وهي بصيغة اسم الفاعل بضم الميم وسكون القاف وكسر الحاء. والفعل المجرد منه من باب المفتوح في الماضي والمضارع ومصدره القحوم بضم القاف بوزن الدخول والخضوع ، ومعناه الارتماء في الشيء والدخول عليه من غير مبالاة وأكثر ما يستعمل في الدخول على المصاعب والمخاطر.فالمقحمات هي ما يرمي بصاحبه في الهلكة أي الذنوب التي ترمي بفاعلها في العقاب الشديد.

موسى عليه الصلاة والسلام حوار بينه وبين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. فسأله موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ما فرض عليك ربّك...؟ (وفي لفظ آخر من الرواية: بم أمرت ؟) فأجاب عليه الصلاة والسلام بقوله: خمسين صلاة في اليوم والليلة! فقال له موسى عليه الصلاة والسلام: ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك!.

و جاء هنا أنّ موسى عليه الصلاة والسلام زاد في كلامه هذا مع الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أشار عليه بطلب التخفيف من كلفة الصلاة فقال: "فإني بلوت[1] بني إسرائيل وخبرتهم[2]" (أي على تقدير تمام الكلام بأنّ بعد الاختبار ظهر من بني إسرائيل التقاصر عن أداء ما يكلفون به من التكاليف).

و جاء تمام الكلام في رواية أخرى مما رواه البخاري أنّ موسى عليه الصلاة والسلام قال هنا: " أنّ أمّتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وأنّي - والله- قد جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة فإنه فرض عليهم صلاتان فما قاموا بها.

و تفيد الروايات أنه صلى الله عليه وسلم اقتنع بما أشار به عليه موسى عليه الصلاة والسلام. فيروى عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "فرجعت إلى ربّي (رجع إلى حيث السدرة وغشيته السحابة ، كما في أول الأمر ، وخرّ ساجدا لربّه عزّ وجلّ ، فقال: يا رب خفف عن أمّتي). يقول صلى الله عليه وسلم فحط الله تعالى عنّي منها خمسا (أي من الخمسين).

---

(1) بلوت: بمعنى جربت واختبرت وهو فعل متعد من المفتوح في الماضي المضموم في المضارع والمصدر منه بفتح فسكون هكذا ، "بلا ، يبلو ، بلوًا" بوزن "عدا ، يعدو ، عدوا".و يأتي الاسم من هذه المادة بصيغة البلاء والبلوىٰ والبَليّة والمعنى منه التجربة والاختبار لإظهار حقيقة ما ينطوي عليه الشيء المبتلىٰ.

(2) خبر ، يخبر: بالفتح في الماضي والضم في المضارع بوزن "نصر ، ينصر" ، من الفعل المتعدي يقال "خبر الشيء ، يخبره" بمعنى اطلع على حقيقته لأن الاسم من هذا هو "الخُبْر" بضم الخاء وسكون الباء وهو العلم بحقيقة الأمر كما هو.

ورجعت إلى موسى فقلت "قد حط الله تعالى عنّي من الخمسين خمسا".

فأعاد موسى عليه الصلاة والسلام مقاله الأول: "أمّتك لا تطيق ذلك ، فارجع الى ربّك فاسأله التخفيف".

يقول صلى الله عليه وسلم: "فلم أزل أرجع بين ربّي تبارك وتعالى وبين موسى صلى الله عليه وسلم حتى قال الله تعالى: " يا محمد! إنّهنّ خمس صلوات في اليوم والليلة. لكلّ صلاة عشر فذلك خمسون. (و في لفظ رواية أخرى) زيادة من مقال الرّب سبحانه: " ما يبدّل القول لديّ ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة ".

وتوصل الروايات هنا بقوله صلى الله عليه وسلم "فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربّك فسأله التخفيف. فقلت قد رجعت إلى ربّي حتى استحييت".

جاء هذا في إحدى روايات هذا الموضوع ومفادها أن الحط من الصلوات كان في كل مرّة بقدر خمس منها ، فيفهم أنّ تردّده صلى الله عليه وسلم بين نبيّ الله موسى وبين المرجع الذي يرجع إليه لطلب التخفيف كان لعدد عشر مرّات.

و لكن جاءت رواية أخرى هنا تفيد بأنّ الحط في كل مرّة كان بمقدار عشر صلوات.

و أفاد علماء دراية الحديث أنّ الرواية الأولى من أفراد صحيح الإمام مسلم. وأنّ الرواية الأخيرة المفيدة بأنّ الحط كان بقدر العشر من المتفق عليه في صحيحي البخاري ومسلم. ولذا فقد رجح البعض الرواية الأخيرة.

هذا وقد جاء فيما روي من روايات أخرى في هذا الموضوع رواية مسندة إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، أنّه فرض في أول الأمر من الصلاة خمسون صلاة في اليوم والليلة ومن الغسل للجنابة سبع

مـرّات ، وفـي غـسل الثـوب مـن البـول والنجاسـة سـبع مـرّات كـذلك. وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزل يطلب التخفيف حتى آل الأمر في النهاية إلى الخمس في الصلاة والمرّة الواحدة في غسل الجنابة والمرّة الواحدة كذلك في غسل الثوب من البول.

و جاء في تمام هذا المشهد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين أخيه موسى صلى الله عليه وسلم من الروايات ما يفيد أنّه صلى الله عليه وسلم عندما رجع إلى موسى عليه الصلاة والسلام للمرّة الأخيرة ، وهو مقتنع بنهاية التخفيف وكان موسى عليه الصلاة والسلام على موقفه الأول من زيادة الطلب في التخفيف حيث قال له: "ارجع فاسأل التخفيف"فقال عليه الصلاة والسلام "قد رجعت حتّى استحييت". زاد عليه الصلاة والسلام على هذا ، فقال: ولكنّي أرضى وأسلّم!

فجاء النداء من قبل الحق سبحانه وتعالى: "أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي". فعند هذا ، رجع موسى عليه الصلاة والسلام إلى التسليم أيضا فقال له: "اهبط باسم الله".

و قد جاء من روايات أخبار المعراج مما حدّث به الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم عن هذا المشهد الخاص بلقياه مع كليم الله موسى صلى الله عليه وسلم ، رواية قوله صلى الله عليه وسلم: "فرجعت إلى موسى ونعم الصاحب كان لكم". ورواية قوله صلى الله عليه وسلم "أكثروا من الصلاة على موسى فما رأيت أحدًا من الأنبياء أحوط على أمّتي منه". و رواية قوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عمن لقيه من الأنبياء: " كان موسى أشدّهم عليّ حين مررتُ ، وخيرهم إليّ حين رجعت".

و دلّت جملة الروايات على أنّ ختام مشهد المعراج النبويّ كان عند هذا. فرجع الرسول صلى الله عليه وسلم يرافقه جبريل عليه السلام آخذا بيده نازلا من سماء إلى سماء حتّى انتهى إلى السماء الدنيا ، فورد أنّه لمّا انتهى إلى السماء الدنيا ، نظر صلى الله عليه وسلم إلى ناحية السفل (حيث

الأرض) فإذا هو يرى رهجا[1] ودخانا ويسمع ضجيجا من مختلط أصوات. فسأل جبريل عن هذا ، فأخبره بأنّ هذه الشياطين تحوم على أعين بني آدم حتّى لا يتفكرون في ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب.

وتفيد الروايات الإخبارية هنا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم نزل بالمسجد الأقصى ، ثم ركب البراق فرجع به إلى مكة كما تقدم ذكره في حديث الإسراء.

(1) الرَهج: بفتح الراء ثم الهاء بالفتح أيضا وآخره جيم ، جاء أنه اسم للغبار. وربما جاء هنا هذا اللفظ بتقديم الهاء (الهَرْج) بفتح الهاء وإسكان الراء وآخره جيم. فهذا اللفظ يستعمل في اختلاط الأمور المختلفة ويطلق على ما يكون من الفتنة بين الأقوام وقد فسر أيضا بالقتل.

الدرس 48

تعليق على بعض أمور المعراج وذكر بعض الحكم فيه

من آراء بعض من كتب في المعراج من المؤلفين.

تعرض البعض من مؤلفي السيرة ومن ألف في المعراج بالخصوص إلى ذكر بعض الحكم في الأحداث والمشاهد الواقعة في المعراج على سبيل الإيجاز مرتبة بالأرقام. لكل موضوع على حدة لإفادة البيان مع الاختصار.

أولا: السؤال عن المعراج هل هو من خصائص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؟ والجواب: على أنّه بمجموع الروح والجسد فهو من خصائصه عليه الصلاة والسلام.

ثانيا: كرامته صلى الله عليه وسلم بالمعراج (أي والإسراء كذلك) كانت عن مفاجأة خلاف ما كان لموسى عليه الصلاة والسلام من المناجاة فإنّ هذا كان عن ميعاد واستعداد.

ثالثا: ما ورد من شق صدره عليه الصلاة والسلام وغسله على يد الملائكة عند التهيؤ للإسراء فيه حكمة جليلة. فقد علم من سنية الغسل لداخل الحرم فما بالك بداخل الحضرة المقدسة ؟ ولما كانت الحضرة المقدسة من عالم الملكوت الغيبي أنيط الغسل بداخل البدن وباطن القلب.

رابعا: يقول الإمام الحافظ ابن دحية*" لعل السّر في الإسراء ركوبا على البراق هو إظهار للكرامة العرفية.

خامسا: وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له بالصلاح فيه تنويه عظيم بقدر هذا الوصف. فالصالح هو الذي يقوم بحقوق الله وحقوق العباد معاً. فكانت كلمة "الصالح" كلمة كاملة شاملة. ثم أنّ صلاح الأنبياء له معناه الخاص لا يتناول عموم الصالحين. والدليل سؤال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الإلحاق بالصالحين (الوارد في القرآن الكريم عن عدة منهم).

و لا يتمنى الأعلى الإلحاق بالأدنى. فهذا يحقق أنّ الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم.

سادسا: تخصيص أولئك الأنبياء الوارد ذكرهم في السموات بالملاقاة دون غيرهم من الرسل كنوح وهود وصالح...إلخ عليهم الصلاة والسلام فيه الإشارة إلى حال أمته عليه الصلاة والسلام. فلم ير من الأنبياء من أستؤصل قومه بالعذاب.

سابعا: اختصاص كل نبيّ بالسماء التي هو فيها للتنبيه على الحالات الخاصة بهؤلاء الأنبياء وتمثيل لذلك بما سيقع له صلى الله عليه وسلم مع قومه ، و قد كان شأنه صلى الله عليه وسلم أنّه يحب الفأل الحسن ويستدل به على حسن العاقبة فيما يزاوله من الأمور. والفأل في اليقظة نظير الرءيا في المنام.

ثامنا: حكمة كون آدم عليه الصلاة والسلام في السماء الأولى لأنّه أول الأنبياء وأول الآباء. وللتنبيه على ما سيقع له صلى الله عليه وسلم في السنة الأولى(القابلة بعد المعراج). فكان له صلى الله عليه وسلم فيها الهجرة ومفارقة وطنه بمكة ومشقة فراق الألف بعد تواطؤ الأعداء عليه وهمّهم بقتله. وهكذا آدم كان في الجنة فكاد له العدوّ إبليس وأخرجه منها ونزل إلى الأرض.

تاسعا: كون عيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام بالسماء الثانية لأنّهما الممتحنان باليهود الذين همّوا بقتل عيسى فمنعه الله ورفعه وتوصلوا إلى قتل يحيى فقتلوه. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد امتحن هو أيضا باليهود في المدينة فقد همّوا بقتله عندما حاولوا إلقاء الصخرة عليه (في قصة مع بني النضير). فنجاه الله سبحانه من كيدهم ثم أعادوا الكرة ثانيا عندما سمّوا له الشاة والله عاصمه. وأيضا للمقابلة بين الحواريين أصحاب عيسى والأنصار أصحابه عليه الصلاة والسلام فقد كانت السنة الثانية موعد

تنفيذ الوعد بالنصر الذي وعد به الأنصار وهو ما وقع في غزوة بدر الكبرى.

عاشرا: ملاقاته صلى الله عليه وسلم مع يوسف عليه الصلاة والسلام وهو في السماء الثالثة ، أشبه الرسول صلى الله عليه وسلم يوسف عليه الصلاة والسلام في العفو الذي عفا به عن قومه عندما ظفر بهم في الفتح ، وقال لهم اذهبوا لا تثريب عليكم أنتم الطلقاء. وقد قال يوسف لاخوته عند ظهور أمره عليهم: لا تثريب عليكم اليوم...إلخ.

و في مناسبة السنة الثالثة للسماء الثالثة كان في هذه السنة إشاعة قتله صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد وحصل ما حصل من الأسف العظيم لهذا النبأ في مشابهة ما وقع من الأسف لفقد يوسف عليه الصلاة والسلام. وكان الكيد ليوسف بإلقائه في الجب وكان الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم هذه السنة بما وقع له في وقعة أحد حيث وقع في الحفائر التي حفرها له الأعداء وخدش جسمه وسقط من أسنانه.

حادي عشر: في ملاقاته صلى الله عليه وسلم بإدريس عليه الصلاة والسلام وهو في السماء الرابعة الإيذان برفع مقامه صلى الله عليه وسلم. وإدريس هو أول من خط بالقلم. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اتخذ الخاتم لختم كتبه التي كاتب بها الملوك والعظماء لتبليغ الدعوة.

ثاني عشر: الملاقاة بينه صلى الله عليه وسلم وبين هارون عليه الصلاة والسلام في السماء الخامسة. فمن حيث شبه الشخصية فهو صلى الله عليه وسلم قد أحرز فصاحة اللسان وبلاغة البيان إلى أعلى مستوى كما أنّه في لين العريكة وجمال الخلق ، حاز المكانة التي لا يشق لها غبار ، فكان المحبب في قومه المحبوب لكل من عرفه. وما وقع من اليهود في خلافة هارون عليه السلام من نقض العهد وعبادة العجل فعوقبوا بالقتل ، وقع نظير ذلك في السنة الخامسة للهجرة حيث من يهود بني النضير وبني قريظة (على الخصوص) من خيانتهم عهده صلى الله عليه وسلم وتحزبهم

مع المشركين في غزوة الأحزاب فعوقبوا بالقتل الذي أشار به سعد بن معاذ رضي الله عنه حيث حكموه في الأمر ونزلوا على حكمه.

ثالث عشر: لقياه صلى الله عليه وسلم بموسى عليه الصلاة والسلام في السماء السادسة للإيذان بالحالة التي تشبه الحالة من حيث المعالجة والمقاساة للشدائد مع القوم وكان له صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة أن أراد دخول مكة لأداء العمرة وليقيم بها شريعة الله على سنة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في محاولة اتفاقية خاصة مؤقتة بينه وبين فئة المشركين المتسلطين على الحرم. فصدوه هو وأصحابه رضي الله عنهم وأبوا عليه ذلك في تعنت وعناد. فلم يدخلها في تلك السنة. وتمكن من الدخول كذلك في السنة المقبلة. ثم تبدل الحال ، وجاءت الظروف بما آل إليه الأمر من فتحه صلى الله عليه وسلم مكة وتطهير الحرم من رجس الظالمين وقهر الطغاة والمعاندين. وكذا وقع لموسى عليه الصلاة والسلام في قصده فتح الأرض المقدسة إذ تقاعد عنه المثبطون من قومه وتمسكوا بالقنوط فخذلوه فعوقبوا بالتيه إلى مدة حتى آل الأمر في الأخير إلى فتح الأرض المقدسة وتطهيرها من الجبارين.

رابع عشر: لقياه صلى الله عليه وسلم مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو في السماء السابعة ، من الحكمة في ذلك أن إبراهيم عليه السلام هو الأب الأخير له (في أعلى عمود النسب) فناسب أن يجدد له بلقياه الأنس وكذا مناسبة السنة السابعة للسماء السابعة أنّه صلى الله عليه وسلم اعتمر فيها عمرة القضاء للعام الماضي الذي صد فيه عن دخول مكة ، فدخلها صلى الله عليه وسلم في هذه السنة هو وأصحابه الكرام محييا لسنة إبراهيم مقيما لرسمه الذي أماته فريق الضلال والجاهلية ، وفي هيأة إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند الملاقاة وكونه مسندا ظهره إلى البيت المعمور مما يشير إلى تمكنه صلى الله عليه وسلم من البيت الحرام ، وأن يحصل له

المراد من الطواف به (على الشوق إليه). فإنها أول دخلة كانت له صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد مفارقتها بالهجرة.

الى هنا إنتهى البعض ممن أثبت هذا التعليق ببيان الحكم والمناسبات بين وقائع المعراج وأحداث العهد النبوي الشريف فيما بعد المعراج. ولكن كان لبعض آخر ممن تصدى لنفس التعليق همته في الإتمام وإكمال ما بقي من العهد الشريف بمقابلته ومناسبته مع وقائع المعراج حتّى يكون الموضوع مستوعبا مستوفىً إلى النهاية.

فواصل التعليق كما يلي:

خامس عشر: بلوغه صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى يعتبر معراجا ثامنا ووجه المناسبة بين هذا وبين السنة الثامنة للهجرة أن هذه السنة وقع فيها فتح مكة المكرمة وهي أم القرى وإليها منتهى القصد. وقد غشي مكة جند الإسلام المظفر كما غشي السدرة جموع الفراش الذهبي ، وغشي السدرة ما غشيها من أنوار وألوان لا تكيف ، كما غشي وكما يغشى مكة والبيت الحرام ألوان وأصناف من الخلق في موسم الحج.

سادس عشر: ارتقاؤه صلى الله عليه وسلم إلى المستوى الذي سمع فيه صرير الأقلام هو المعراج التاسع والسنة التاسعة كانت فيها غزوة تبوك وخرج إليها صلى الله عليه وسلم في عدد من الصحابة لم يبلغ مثله في السابق حيث قدر بثلاثين ألفا من المهاجرين. وكانت الشقة بعيدة والحالة عسيرة من حيث الظرف الزماني ، وآثر الرسول صلى الله عليه وسلم - لذلك - أن يصرح بالمقصد يفصح عنه خلاف ما سبق من التورية[1] في الغزوات

(1) التوْرِيَة: مصدر ورّىٰ ، يورّي من باب التفعيل ومن معنى التغطية والإخفاء أخذًا من الوراء الذي هو خلاف الأمام. فالتورية فن من فنون الكلام يعبر المتكلمُ فيه بلفظ وهو يريد في نفسه لفظا آخر مغايرا لما تكلم به مع ما يكون من التناسب والملاءمة من حيث صورة اللفظ بين ما تكلم به وما يريده.

قبلها.و لم يلق عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة حربا ولا فتح فيها بلدا فانحل العزم إلى ما سبق به القدر. وما جرى وجف به القلم. فرجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وعلى المسلمين كامل الوقار والسكينة في هذا الإياب. وكلهم على رضا وعزيمة من غير اضطراب.

سابع عشر: ارتقاؤه صلى الله عليه وسلم إلى الرفرف ونزوله المقام الذي كان فيه الدنو من رب العزّة ، وتلقيه هناك ما تلقى من الوحي وجليل الخطاب ذلك هو المعراج العاشر. والمناسبة هنا أن السنة العاشرة كانت فيها حجة الوداع وخطبته صلى الله عليه وسلم تلك الخطبة الفذة الشاملة الكاملة وكان إكمال الدين وإتمام النعمة على المسلمين. وتلا هذا لقاء الله والانتقال إلى دار الخلود والبقاء والعروج بالروح الشريفة الكريمة إلى مقعد صدق وموعد حق. والوسيلة وهي المنزلة الرفيعة.

ثامن عشر: الحكمة في تردده صلى الله عليه وسلم بين ربه عز وجل وموسى عليه الصلاة والسلام لتكرار نعمة سماع الخطاب في ذلك المقام. ولإمام الشعراء وشاعر العلماء المعروف الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعيد الصنهاجي المشهور بنسب البوصيري* (الملقب بشرف الدّين) في إحدى قصائده البليغة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهي القصيدة الهمزية الأبيات التالية فيما يخص آية الإسراء والمعراج من بين الآيات النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة وأتم السلام.

و طوى الأرض سائرا والسمواتِ العُلا فوقها له اسرآء.
فصف الليلة التي كان للمختار فيها على البراق استوآء.
و ترقى به إلى قاب قوسين وتلك السيادة القعسآء[1].

---

(1) القعساء: بالقاف والعين المهملة والسين المهملة تأنيث الأقعس وهو وصف يفيد المناعة والعزة كما يفيد أيضا الثبوت والتمكن. فيقال مثلا عزة قعساء أي ثابتة ومجد أقعس ، ولهذه المادة معان أخرى من حيث المعاني المحسوسة فيقال تقاعس الرجل في الأمر بمعنى تصعب فيه ولم

رتب تسقط الأمانيُّ حسرى دونها ما وراءَهن ورآء.
و تلقىّ من ربه كلمات كل علم في شمسهنّ هَبآء.
زاخراتِ البحار يغرق في قطرتها العالِمون والحكمآء.

يلن ، وكذلك تقاعس الفرس بمعنى جمح ، ولم ينقد لقائده ومن أشهر المعاني في هذه المادة القَعس بفتحتين وهو أن يكون الشخص خارج الصدر فيوصف بأنه أقعس مقابل الأحدب الذي يخرج ظهره.

الدرس 49

نبذة من التعليق على فرضية الصلوات الخمس

بناءً على ما عرف من أن الرحلة القدسية له صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج رجع منها عليه الصلاة والسلام بتحف ربانية لا يدرك كنهها ولا يحصى عدها ، وأن من أبرز ما عرف من هذه التحف الجليلة هو التكليف له صلى الله عليه وسلم ، ولأمته بإقامة خمس صلوات في اليوم والليلة. فقد جعل البعض من مؤلفي موضوع السيرة ختام باب الإسراء والمعراج منها بالتعرض لنبذة من الكلام في الصلوات الخمس قصرا على بعض الجهات منها كبيان الهيئة المشروعة لها والميقات المحدد لإقامتها وشرعية عدد الركعات وما ألحق بذلك... اعتمادا على الوارد من الأخبار والحاصل من العمل المشاهد المقرر من السنّة النّبوية.

«صلاة جبريل عليه السلام الصلوات الخمس إماما يَؤُم الرسول ﷺ فيها»

الوارد في الأخبار الثابتة أن في صبيحة ليلة الإسراء نزل جبريل عليه السلام عليه صلى الله عليه وسلم فعلمه وقوت الصلاة وكيفيتها ، فصلى به إماما يؤمه والمسلمون خلفه صلى الله عليه وسلم يقتدون به عليه الصلاة والسلام.

-في رواية: أنه صلى الله عليه وسلم أمر فصيح في أصحابه: "الصلاة جامعة!". فاجتمعوا ، فصلى به جبريل والصحابة يصلون بصلاته صلى الله عليه وسلم (اقتداء). وأنّ تلك الصلاة كانت صلاة الظهر.

و جاء من التعليق هنا: لأنها أول صلاة ظهرت في الإسلام أو لأنها كانت في وقت الظهيرة (وقت اشتداد الحرّ أوعند نهاية ارتفاع الشمس وظهورها ، [وفسر **الظهور*** هنا بمعنى الصعود والاعتلاء ، قالوا ومن هذا المعنى ما جاء في الآية من سورة الزخرف: "و معارج عليها يظهرون"].

و ورد في الرواية أيضا أنه صلى بهم أربع ركعات لا يجهر بالقراءة فيها...و أنّ في وقت العصر صلى بهم مثل ذلك (عدد الركعات والإسرار

بالقراءة). ولما غابت الشمس صلى بهم ثلاث ركعات يقرأ في الركعتين الأوليين علانية ولم يعلن بالقراءة في الركعة الأخيرة (الثالثة). ثم في وقت العشاء صلى بهم أربع ركعات يقرأ في الأوليين علانية ويسر القراءة في الأخريين. ثم في وقت الصبح صلى بهم ركعتين يقرأ فيهما علانية. وكان هذا كلّه عند البيت (أي الكعبة) مستقبلا بيت المقدس.

و جاء من التعليق هنا أنّ الصلاة كانت معروفة بهيأتها عند الصحابة رضي الله عنهم بقيام الليل المشروع ، وأن قيام الليل نسخت فرضيته بالصلوات الخمس.

و كانت صلاته صلى الله عليه وسلم في عهد مقامه بمكة من حيث الاستقبال إلى بيت المقدس.

[المتداول أنه صلى الله عليه وسلم كان أول الأمر بمكة يستقبل في صلاته بيت المقدس ، واستمر الأمر كذلك بعد الهجرة. فصلى بالمدينة مستقبلا بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا بعد الهجرة ثم حولت القبلة إلى الكعبة.ولكن يوجد بجانب هذا المتداول القول الذي يقول أنه صلى الله عليه وسلم كان طول مقامه بمكة يستقبل الكعبة فلما هاجر إلى المدينة ، تحول إلى استقبال بيت المقدس فصلى المدة المذكورة في بضعة عشر شهرا إلى بيت المقدس ثم تحول إلى الكعبة. فعلى هذا يكون التحويل وقع مرتين. ومع ما يظهر من غرابة هذا القول الأخير فقد اعتمده البعض من الأئمة].

وأنه كان لا يستدبر الكعبة ويجعلها بينه وبين بيت المقدس فيصلي بين الركن اليماني وركن الحجر الأسود. ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة تمحض استقباله لبيت المقدس واستدبر الكعبة. ومعلوم أنّ هذا كان قبل تحويل القبلة إلى الكعبة وقد تحولت القبلة إلى الكعبة كما هو معلوم وذلك في السنة الثانية الهجرية.

ومما جاء هنا أن صلاة جبريل عليه السلام هذه لم تكن فيها إقامة.لأنّ الإقامة للصلاة لم تشرع إلاّ بالمدينة (وكذلك الأذان). وجاءت الروايات تفيد أن صلاة جبريل هذه كانت مرتين ، أي في يومين ، لتعليم

وقوت الصلاة. أي فكانت في المرّة الأولى في أول الوقت ، وفي المرّة الأخيرة في آخر الوقت (لتمييز الوقت وتحديده).

فجاء بيان ذلك بأنه صلى به الظهر في اليوم الأول حين زالت الشمس (أي عقب الزوال) ، وصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله (وفسر هذا بأن ظل الشيء المذكور يقاس زائدا على ظل الاستواء وهو المسمى بظل الزوال وظل الزوال هذا يختلف قدره باختلاف فصول العام واختلاف أقاليم الأرض بالطول والقصر ، كما هو مبيّن في علم الميقات والتخطيط).

و صلى المغرب حين أفطر الصائم (و فسر هذا بأنه عند مغيب كامل قرص الشمس).

و صلى العشاء حين غاب الشفق. وصلى الفجر (أي الصبح) حين حرّم الطعام والشراب على الصائم (و فسر هذا بأنّه عند بزوغ ضوء الفجر أول ما يظهر منتشرا على الأفق الشرقي).

و أمّا في اليوم الثاني فصلى به الظهر حين صار ظل كل شيء مثله(حسبما تقدم ذكره في صلاة العصر للمرّة الأولى) ، وصلى العصر حين كان ظل الشيء مثليه (أي مضاعفا بالنسبة لوقت صلاة الظهر في هذه المرّة الثانية). وصلى المغرب حين أفطر الصائم (وهذا يفيد وحدة مقدار الوقت بالنسبة لصلاة المغرب وأنه مغيب قرص الشمس لا يتغير). وصلى العشاء ثلثَ الليل الأول (أي عند مضي الثلث الأول من وقت الليل). وصلى الفجر حين أسفر الاسفار (وهو ظهور الضوء وبياض النهار فيما قبل بزوغ الشمس).

و ورد فيما ورد من روايات هذا الصدد أن جبريل عليه السلام بعدما أتم الصلاة للمرّة الأخيرة ، التفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: " يا محمد هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك والوقت بين هذين الوقتين (أي لإقامة تلك الصلوات).

و جاء لأئمة الفقه من البحث فيما تقدم ذكره من روايات هذا الباب المتعلق بالصلوات الخمس ، والقول بحمل الوقت الوارد في الروايات على ما عرف (اصطلاحا فقهيًا) بالوقت الاختياري. فيبقى ما يعرف بالوقت الضروري خارجا عن التحديد الواردة به الروايات المذكورة في الباب. وهذا رأي لفريق من الأئمة [هذا الفريق الأول يظهر أنه الجمهور ولمذهبه دلائل ترجحه منها الأخبار الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم بأن من أدرك ركعة من الصبح قبل طلوع الشمس فقد أدرك الصبح وكذا العصر قبل الغروب وكذلك جاء أنّ الليل جميعه وقت لصلاة العشاء]. ويخالفهم فريق آخر تمسك بالظاهر مما ورد في الروايات المذكورة ، أي أنّ التوقيت الواردة به الروايات في المرّة الأخيرة هو آخر ما يسمى وقتا للصلاة. فأيُّ صلاة خرجت عنه تعتبر في غير وقتها ، ومثال ذلك أنّ بعد مجاوزة الظل مقدار مثليه (مضاعفا) بالنسبة لصلاة العصر تعتبر الصلاة فائتة وقد خرج وقتها ، وكذلك الأمر في مجاوزة الثلث الأول من الليل بالنسبة لصلاة العشاء. وكذلك الأمر في مجاوزة الأسفار لصلاة الصبح.

وممّا جاء للإمام أبي بكر ابن العربي * قوله في التعليق على ما جاء في الروايات من خبر جبريل عليه السلام القائل فيه للرسول صلى الله عليه وسلم: " هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك". يقول الإمام المذكور في معنى هذا الخبر أنّه لا يدل على أن الصلوات الخمس كانت مفروضة على الأمم والأنبياء السابقين. وإنما معنى الخبر المذكور هذا وقتك المحدود الطرفين مثل وقت الأنبياء قبلك ، المحدود الطرفين هو أيضا. ويقول الإمام المذكور ولم تكن هذه الصلوات الخمس على هذه المواقيت إلاّ للأمة المحمدية خاصة وإن كان قد شاركهم غيرهم في بعضها.

و يستفاد من بحث الأئمة أيضا أن ما جاء في هذه الروايات من كون البدء في الصلاة بصلاة الظهر هو المعروف المتواترة به الأخبار. مع أنّه يقابله ما جاء قليلا من ذكر البدء بصلاة الصبح.

و فيما تقدم ذكره من مشاركة الأمم السابقة لهذه الأمّة في مسمى الصلوات الخمس ما جاء في إحدى الروايات مسندا إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بلفظ: " تيب على آدم عليه السلام عند الصبح فصلى ركعتين. وفدي إسحاق[1] عليه السلام عند الظهر فصلى أربعا ، و بعث عزير عليه السلام من موته قرب الغروب فصلى أربعا ، وغفر لداود عليه السلام عند المغرب فقام يصلي أربعا ولكنه جهد بعد الركعة الثالثة فجلس(أي فصلى ثلاثا). وأما صلاة العشاء فكانت من خصائص رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

كما ورد من مثل هذه الروايات أنّ صلاة العصر كانت صلاة سليمان عليه الصلاة والسلام. وصلاة المغرب كانت صلاة يعقوب عليه الصلاة والسلام. وصلاة العشاء كانت صلاة يونس عليه الصلاة والسلام (وعلى هذا فلا خصوصية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء كما ذكر في رواية أخرى).

و ورد أيضا أن صلاة المغرب كانت صلاة عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت أربعا يصلي اثنتين عن نفسه واثنتين عن أمّه مريم عليها السلام. وأنّ صلاة الظهر كانت صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأنّ صلاة العصر كانت صلاة يونس أيضا. وأنّ صلاة العشاء كانت صلاة موسى عليه الصلاة والسلام إلى غير هذا من مثل هذه الأخبار.

و على هذا يرد ما عرف من القاعدة الأصولية التي مفادها أنّ ما ثبت (من التكاليف) في حق رسول من الرسل يثبت كذلك في حق الجميع من أمّته ، إلاّ أن يقوم دليل على الخصوصية. وفيما يتعلق بعدد الركعات من الصلوات الخمس ، وردت الرواية التي تفيد أنّ الصلاة بجملتها لمّا فرضت ليلة الإسراء كانت بعدد ركعتين في الجميع حتى المغرب ثم شرعت الزيادة

---

(1) هكذا لفظ الرواية بأنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام ، وهو أحد قولين ولكن المعروف المعتمد عند المحققين أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

فيها بالنسبة للحاضر المقيم غير المسافر. فأكملت الظهر أربعا (باستثناء صلاة الجمعة الباقية على الفرض الأول ركعتين). وأكملت صلاة العصر أربعا وصلاة العشاء كذلك (أي أكملت أربعا) وأكملت صلاة المغرب بزيادة ركعة واحدة فكانت ثلاثا (أي وبقيت صلاة الصبح على الأصل الأول ركعتين). وتفيد هذه الرواية أنّ صلاة السفر أقرت كلها على الأصل الأول ركعتين في الجميع حتى صلاة المغرب.

و الرواية بهذا وردت بالإسناد إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: " فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتين (أي مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة) فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأقام بها شهرا (و في لفظ من الرواية: شهرا وعشرة أيام) زيد في صلاة الحضر ركعتان وتركت صلاة الفجر فلم يزد فيها وزيد في صلاة المغرب ركعة فصارت ثلاثا لأنها وتر النهار لتعود على المصلي بركعة الوترية وأنّ الله تعالى وتر يحب الوتر".

و جاء من تعليق الأئمة على ما تضمنته هذه الرواية بأنّ هذا يفيد أنّ القصر في صلوات الظهر والعصر والعشاء هو عزيمة وليس برخصة وهذا لا يحسن ولا يتلاءم مع ما يؤخذ من آية القصر الواردة في القرآن بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ... ﴾ إلخ ، مع ما عرف من تاريخ نزول آية القصر هذه وأنّها نزلت في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة (أي بعد عام كامل لمقامه صلى الله عليه وسلم بالمدينة).

و مع ما ورد أيضا من الأثر الذي يفيد أنّ الصلوات الخمس فرضت (أول ما فرضت) أربع ركعات إلاّ المغرب فثلاثا وإلاّ الصبح فركعتين وإلاّ الجمعة فركعتين ثم شرع القصر في السفر لما هو منها أربع.

و جاء من قول بعض العلماء على هذا بأنّه المناسب لما في الآية من:

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾..إلخ. وهو ما يقتضيه ظاهر القرآن وهو المأخوذ عن

جمهور علماء الأمّة. وقد جاء من الآثار ما رواه يعلى بن أمية* قال: " سألت عمر بن الخطاب (في عهد خلافته) عن الآية في القصر ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فقلت له كيف هذا وقد آمن الناس (اليوم)؟ فقال عمر: قد عجبتُ مما عجِبتَ منه (أنت). فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته".

أي فيؤخذ من هذا أنّ القصر رخصة وأنّ سببه هو مجرد السفر وليس الخوف ، غير أنّه يوجد القول بأنّ القصر سببه الخوف الحاصل في السفر وأنّ الآية نزلت في هذا.

و من الآثار في هذا الموضوع ما ورد ثابتا عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بأنّه كان يقول: "صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والغداة(أي الصبح) ركعتان غير قصر تامة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم".

كما جاء في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: " فرضت الصلاة في الحضر أربعا ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة واحدة (أي يصليها المأموم مع الإمام وينفرد بصلاة الركعة الأخرى)".

و ممّا جاء في هذه النبذة من التعليق على مشروعية الصلوات الخمس ما أفاده البعض من أنّ الحكمة في تحديد عدد الصلوات بالخمس لكون الحواس التي تقع المعاصي بواسطتها خمسا.

و ساق هنا الحديث المعروف عنه صلى الله عليه وسلم إذ قال لأصحابه رضي الله عنهم: " أرأيتم لو كان بباب أحدكم نهر يغتسل منه في اليوم والليلة خمس مرات أكان ذلك يبقي من درنه شيئا". قالوا: لا. قال: فذلك مثَل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا".

و جاء من هذا المعنى من حيث عدد الركعات في مجموع الصلوات وأنّه جعل مثنى وثلاث ورباع لا يزيد على أربع ، ولا ينقص عن اثنتين وبأنّه

موافقة لأجنحة الملائكة كما جاء في السورة المسماة بالملائكة في قول البعض ، آية: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾...إلخ.

فكأن الصلاة بركعاتها أجنحة للمصلي يطير بها إلى حيث مبتغاه من رضا الله والقرب منه تعالى.

و جاء من الروايات الإخبارية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه سئل عن مأخذ وقوت الصلاة من القرآن العظيم فأجاب: " نعم هو في قوله تعالى من آية سورة الروم: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) ﴾. أي على أنّ المساء في "حين تمسون" للوقت في صلاتي المغرب والعشاء ، والصبح في "حين تصبحون" لوقت صلاة الصبح ، والعشي في "وعشيا" لوقت صلاة العصر ، والظهر في " وحين تظهرون" لوقت صلاة الظهر".

و ممّا ورد أيضا أنّ التسبيح يطلق لفظه وكثيرا ما يراد به معنى الصلاة.

و في الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يفيد أنّ كلّ ما يوجد في القرآن من لفظ التسبيح فالمراد من معناه هو الصلاة.

فهرس لأسماء بعض شخصيات وأماكن لها بعض الترجمة على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الثالث

فهرس في أعلام أشخاص وأسماء قبائل

على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الرابع

فهرس في مفردات لغوية وأسماء أماكن وبلدان على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الثالث

فهرس في مفردات لغوية وأسماء أماكن وبلدان على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الثالث

الكلمة	الصفحة
الشعب	51
الشحط	85
الشقة	124
حرف الصاد المهملة	
الصبْوة	39
صأْصَأ (فعل)	64
الصخب	83
صفا الثغرة ؟ (لم يظهر معناه)	150
حرف الضاد المعجمة	
يتضاغون (فعل)	54
حرف الطاء المهملة	
الإطراء	74
الطبق	105
استطير(فعل)	120
حرف العين المهملة	
يعلّل (فعل)	54
العتبىٰ	110
العكظ	120
العُراق	124
أعضل (فعل)	129
حرف الغين المعجمة	
الغرانيق	27

فهرس في مفردات لغوية وأسماء أماكن وبلدان على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الرابع

194	هنيهة
220	التهاويل
242	الهُوي
268	الهرج
	حرف الواو
178	الأورق (وصف)
273	التوْريَة

فهرس الأبواب والموضوعات



ولد الشيخ محمد الصالح بن طيار بمدينة باتنة يوم 07 ديسمبر سنة 1900م في بيت علم وثقافة حيث استقى منه التعاليم الأولى للإسلام. لقد كان أبوه الشيخ الأخضر بن طيار قاضيا شرعيا (في كل من باتنة - خنشلة- عين البيضاء- القالة - عزابة ولاية سكيكدة وسوق أهراس) وكان عمه العلامة الشيخ سليمان بن طيار إماما بمدينة تبسة، وكان عمه الحاج البشير بن طيار أول أمين المالية لأول جمعية دينية لمدينة ميلة أي "جمعية حياة الشباب" التي أسسها العلامة مبارك الميلي في فبراير 1936.

نال الشيخ الفاضل أكبر قسط من العلم والتكوين من تتلمذه على يد شيوخ أجلاء بمدينة قسنطينة وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد بن باديس إذ كان يلازمه ويرافقه في كل حركاته الإصلاحية عبر الوطن ومن أبرز زملائه نذكر: الشيخ العباس بن الشيخ الحسين- محمد العيد آل خليفة- زهير الزاهري- نعيم النعيمي- الشيخ بيوض- الصادق حماني....

زيادة على تخصصه في العلوم الإسلامية تحصل الشيخ في 27 ماي 1941 على شهادة الكفاءة لوظيفة "عادل" (موثق).

أظهر في الفترة ما بين -1931إلى 1945 نشاطا كبيرا في التربية والتعليم بتأسيس وإدارة المدارس الحرة، إنشاء الجمعيات الدينية والنشاط كمرشد في الكشافة الإسلامية في كل من مدينة سوق أهراس وضواحيها ومدينة عزابة (نذكر من تلاميذه: الشيخ عبد الرحمان العائب- علي منجلي- عبد الحميد لطرش- محمد الشريف مساعدية....).

اعتقلته السلطات الفرنسية إثر حوادث 08 ماي 1945 ونقل من سجن مدينة عزابة إلى سجن مدينة سكيكدة ونفي من مدينة عزابة بعد إطلاق سراحه فاستقر بمدينة ميلة مسقط رأس أسرته وتولى فيها إمامة المسجد ورئيس فرع جمعية العلماء المسلمين ورئيس الجمعية الدينية حياة الشباب.

في سنة 1964 أدمج الشيخ محمد الصالح بن طيار في هيئة أساتذة التعليم من طرف وزارة التربية الوطنية ولكنه رفض التوظيف، وبقي الشيخ محمد الصالح بن طيار الإمام الواعظ والمرشد الأمين للأمة إلى أن وافته المنية يوم 11 أكتوبر سنة 1984 بمدينة ميلة.

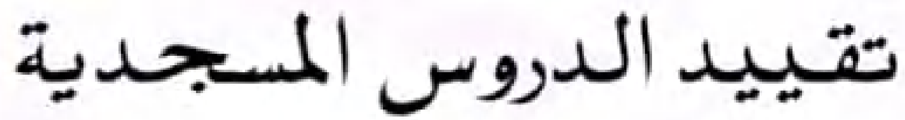
نشير إلى أنه تم بناء مسجد باسم الشيخ محمد الصالح بن طيار بحي العربي بن رجم (500 مسكن) بميلة وبتاريخ 23 جوان 2013 تخرجت دفعة أئمة تحمل اسم الشيخ محمد الصالح بن طيار على مستوى المعهد الوطني للتكوين المتخصص للأسلاك الخاصة بإدارة الشؤون الدينية والأوقاف بمدينة التلاغمة ولاية ميلة.

ISBN: 978-9947-36-546-5



نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع

22. شارع فيطوني عبد المالك
قسنطينة- الجزائر
هاتف فاكس: 213.31.92.25.61 +
E.mail: dar_numidia@yahoo.fr



في

السيرة النبوية المحمدية

الجزء الثالث

على صاحبها وآله وصحبه
أفضل الصلاة وأشرف السلام
وأجل التحية

تأليف: الأستاذ الشيخ
محمد الصالح بن طيار رحمه الله

منشورات نوميديا

تقييد الدروس المسجدية

في

السيرة النبوية المحمدية

على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة

وأشرف السلام وأجل التحية

الجزء الثالث

تأليف: الأستاذ الشيخ محمد الصالح بن طيار رحمه الله





عنــوان الكتــاب: تقييد الدروس المــسجدية فــي السيرة النبوية المحمدية
(الجزء الثالث)
تـــــــــأليف: الشيخ محمد الصالح بن طيار
عــــدد الـــصفحات: 448
قيـــاس الكتـــاب: 16 × 24

ردمـــــك / ISBN: 2- 547- 36- 9947- 978
الإيــداع القــانوني: السداسي الثاني 2018.



22 شارع قيطوني
عبد المالك قسنطينة
تلفاكس: 031.92.25.61
E.mail: Dar_numidia@yahoo.fr

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، وأفضل الصلاة وأشرف السلام على الرسول الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم الذي هو بالمؤمنين رءوف رحيم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المبعوث من أمّة العرب رحمة من الرّب لسائر العالمين ، وهداية وبشرى لعباد الله المؤمنين ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وأنصاره والتابعين لنهجه إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وبعد فهذا تابع التقييد لدروس السيرة النبوية في المجلدات الأربعة السابقة تيسر بحمد الله ابتداؤه يوم الاثنين الثالث من شهر جمادى الأولى من العام (1393) الثالث والتسعين بعد الثلاثمائة وألف للهجرة النبوية الموافق للرابع من شهر يونيه من السنة 1973 الثالثة والسبعين بعد تسعمائة وألف للميلاد المسيحي ، فعلى الله قصد السبيل وهو نعم المولى ونعم الوكيل.

الدرس 50
بعد عرض الرسول صلى الله عليه وسلم
الدعوة على عامة قبائل العرب

إسلام الأنصار رضي الله عنهم:

تقدم فيما قبل أنّ الدّعوة الإسلامية أول ما قامت كانت بصفة سرّية واستمر ذلك ثلاثة أعوام.

ثم كان الجهر والإعلان بها ، واستغرقت مدّة هذا الجهر عشرة أعوام كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم طول هذه المدة بمكة بتبليغ الدعوة إلى عامة القبائل العربية في مواسم الحج وغيرها من المناسبات للتجمعات المختلفة كالأسواق ومنها سوق **عكاظ** *وسوق**مجنة*** وسوق **ذي المجاز*** فأبلغ عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى مختلف القبائل العربية.

فذكر من أسماء هذه القبائل: كندة ، كلب ومنهم بنو عبد الله ، حنيفة ، عامر ، عبس ، سليم ، غسان ، محارب ، فزارة ، النضر ، مرة ، عُذرة ، الحضارمة ، ثقيف ، شيبان ، بكر.

وقد تقدم في مبدإ الكلام في هذا الموضوع من الدرس الرابع والثلاثون أنّ الجواب على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم من طرف هذه القبائل التي أبلغها الدعوة كان سلبيا لم تحصل منه أي نتيجة مع تفاوت بين القبائل في أسلوب الرّد من حيث الأدب ، فكان ردّ البعض جميلا ، وردّ البعض بين ، بين وأغرق البعض في قبح الرّد ووسم من هذا البعض قبيلتا بني حنيفة وبني ثقيف ، ولذلك كان فريق الأوس والخزرج من المدينة المنورة هو الوحيد من بين سائر القبائل العربية الذي فاز بالسبق وربح الرهان وامتاز بالقبول والإيجاب. فكانت دعوته صلى الله عليه وسلم النفر من زعماء قبيلتي الأوس والخزرج عند العقبة المفتاح الذي فتح باب العهد الجديد للإسلام.

وهكذا كان إسلام الأنصار رضي الله عنهم بداية بناء هيكل الدولة الإسلامية.

وقد جاء في عامة كتب السيرة في ابتداء الكلام في هذا الفصل من أحداث السيرة تقديم الموضوع بنص العبارة المأثورة عن أئمة علم السيرة من السلف وهي:

لمَّا أراد الله إظهار دينه وإنجاز وعده لرسوله صلى الله عليه وسلم - خرج الرسول صلى الله عليه وسلم كعادته في العمل لتبليغ الدّعوة - في موسم الحج فأتى مكان العقبة التي تضاف إليها الجمرة يسار الطريق لقاصد منًى من مكة ، فلقي بها رهطا من قبيلتي الأوس والخزرج [الأوس - بفتح الهمزة وسكون الواو آخره سين مهملة. والخزرج بفتح الخاء المعجمة ثم زاي ساكنة ثم راء مفتوحة وآخره جيم.

وجاء في أصل معنى ، الأوس أنّه العطيّة والمنحة ونحو ذلك ، وأكثر ما في كتب اللغة أنّ الأوس اسم للذئب. ومما يدل على أنّه في اسم القبيلة مراد به المعنى الأول ما ذكر في نسب الأوس وأنّه يقال " أوس الله" أي عطاء الله. وجاء في أصل معنى الخزرج أنّه يطلق اسما على الريح الباردة أو أنّها خصوص ريح الجنوب. والأوس والخزرج هما أبوا قبيلتي الأنصار المعروفتين بهذين الاسمين وهما أخوان شقيقان أبوهما **حارثة بن ثعلبة بن عمرو*** الملقب **مزيقيا بن عامر*** المدعو **بماء السماء*** ، ينتهي نسبهما إلى **الأزد*** الذي ينتهي نسبه إلى **سبإ*** الذي ينتهي نسبه إلى **قحطان***من العرب اليمانية وقد تقدم في الدرس الثاني من هذه الدروس ذكر الخلاف الواقع بين علماء التاريخ والأنساب في نسب قحطان وهل هو من ولد إسماعيل عليه السلام ؟ أو هو من غير ولد إسماعيل وإنّما هو من ولد هود عليه السلام......؟

وجاء في أمّ الأوس والخزرج أنها تسمى **قَيْلة*** بفتح القاف فياء مثناة تحتية ساكنة فلام مفتوحة وآخره تاء التأنيث ، واختلفوا في نسبها فقيل هي بنت عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقيا المذكور ، وقيل بنت الأرقم بن

عمرو بن حفنة المذكور وجفنة *بفتح الجيم وسكون الفاء ثم نون مفتوحة آخره تاء التأنيث هو جدّ بني غسان ملوك الشام.

وآخرون يرون أنّ قيلة هذه ترجع في النسب إلى قبيلة **حمير*** اليمنية على أنّها بنت كاهل بن عذرة بن **قضاعة***، وقضاعة من ولد حمير، ويبدو فيما يبدو أنّ الكثرة العددية هي في بني الخزرج لأنّ الأوس لم يعقب من الولد إلاّ ولدا واحدا هو مالك، بينما الخزرج أعقب خمسة بنين.

مما يلاحظ هنا تعدد الأسماء بلفظ الخزرج مثلا لأشخاص كثيرين في آماد مختلفة وقد يفرق بينهم للتعريف تارة فيقال الخزرج أو جرهم أو تبع الأول أو الأكبر أو الثاني والأصغر، وجاء ذلك في قبيلة الأوس فإنّ في بني الأوس من يسمى بالخزرج فيعرف بأنّه متأخر عن الخزرج الأعلى الذي تنسب إليه القبيلة المسماة باسمه]. وجاء في رواية أن عدة الرهط ستة وفي رواية أخرى ثمانية. فاتصل بهم صلى الله عليه وسلم ولما سألهم ممن هم؟ أجابوا: نفر من الخزرج!(هكذا بخصوص لفظ الخزرج لأنّه الذي يقع به التغليب فيقال * الخزرجيْن لما يشمل الأوس والخزرج معًا*.فزاد صلى الله عليه وسلم السؤال قائلا: " أمن موالي يهود؟ ".قالوا "نعم!".

- (معنى الموالي الحلفاء لأنّهم كان لهم حلف مع يهود المدينة من بني قريظة وبني النضير).

وخلص صلى الله عليه وسلم إلى أصل الغرض فقال لهم: " ألا تجلسون أكلمكم؟ "- قالوا: " بلىٰ!" فجلسوا معه صلى الله عليه وسلم فخاطبهم خطابه الذي كان يتوخاه في تبليغ الدّعوة.

وفي إحدى الروايات أن الجماعة كانوا يحلقون رءوسهم عند العقبة (من أفعال مناسك الحج)

والذي أطبقت عليه الروايات الأخبارية هنا يفيد حصول الإقتناع الكامل والقبول التام كما عرضه الرسول صلى الله عليه وسلم من طرف هؤلاء المدعوين بادئ ذي بدء، ولأول وهلة بعد سماع ما سمعوا فلم يكن

هناك تردّد ولا مراجعة بينه صلى الله عليه وسلم ، وبين هؤلاء الثلة من الرجال.

فورد أنّه بمجرد ما سمع هؤلاء الجماعة مضمون الدّعوة التي عرضها عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقع ذلك من قلوبهم موضع العناية التامة والقبول وتقبلوها بالتصديق الذي لا يتطرق إليه شك فأخذوا يتداولون بين بعضهم البعض الحوار ، يقول البعض للبعض " تعلمون -والله-أنّه النّبيّ الذي توعدكم به اليهود ، فلا تسبقنكم إليه!" وإذ ذاك تقدموا إليه صلى الله عليه وسلم بإعلان إيمانهم به والتصديق لما جاء به ، وعرضه عليهم ، وشهدوا بين يديه عليه الصلاة والسلام شهادة الإسلام [قد مرّ في الدرس الرابع عشر في ذكر ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم مما نطق به الأحبار والرهبان قبل ظهور الدّعوة بيان هذا ، وفي ذلك رواية أولى عن **سلمة بن سلامة*** بن وقش ، ورواية ثالثة عن **عاصم بن عمرو*** بن قتادة الأنصاري مما يتضمن هذا المعنى وأنّ الأنصار تلقّوا خبر الرسول صلى الله عليه وسلم من أحبار اليهود قبل ظهور الإسلام. وكانت اليهود تهدّد الأنصار عندما يحدث بين الجانبين نزاع وقتال -يهدّدونهم بالاستئصال والإهلاك النهائي على يد الرسول المنتظر على معنى أنّهم يكونون من أتباعه لأنّهم أهل كتاب ، وأنّ العرب أي الأنصار يكونون في شق المعارضة لأنّهم أهل جاهلية.

فلمّا جاء الوعد وحضر أوان الاختيار وانقلب الوضع فآمن الأنصار وكفر اليهود بدافع الحسد والسير مع الأنانية الممقوتة والانقياد للغرض السافل الرخيص.]

وأفادت الروايات هنا أنّه كان مما دار بينه صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء الجماعة من الأنصار بعد تمام الأمر بإعلان إسلامهم الحديث الآتي نصه: -» يا رسول الله إنا تركنا قومنا وراءنا بينهم ما بينهم من الشّر والعداوة فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك!"

هذه مشيئة الرّب الحكيم يهدي من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم ، ولا شك أنّه يهدي من هو أهل للهداية ، ويوفق من هو أحق بالعناية (الله أعلم حيث يجعل رسالته) توفق فريق الأوس والخزرج من بين القبائل العربية العديدة التي أبلغها الرسول صلى الله عليه وسلم الدّعوة ولم يات في النقل أنّه صلى الله عليه وسلم زاد في الدعاية بالنسبة لهؤلاء القوم الذين أجابوا واستجابوا وسارعوا وبادروا من غير طول حوار ولا كثير أخذ وردّ بينه وبينهم من الكلام. لم يزد صلى الله عليه وسلم على ما كان دعا به الأقوام الآخرين من الدّعوة الحسنة والأسلوب اللطيف وما رصع به ذلك من تلاوة آيات القرآن الكريم ولم يكن ثم إلاّ مجلس واحد كان به الافتتاح وكان به الإتمام. وخرج القوم بعدما ودعوه صلى الله عليه وسلم التوديع اللائق بمقامه العظيم ، وكأنّهم كانوا على موعد للإنجاز وكأنّ الأمر كان في انتظار الوقت المعيّن للإمضاء.

هذا ومن الضروري أن يتساءل المتسائل - نظرا للميزة التي اكتسى بها الحادث - عن الأسباب العادية والعوامل الطبيعية التي كان لها الأثر في سرعة الاستجابة والبدار للقبول من جهة هؤلاء الزعماء على نقيض ما كان من عامة قبائل العرب الأخرى...؟

و إذا كان أول ما يأتي في الجواب عن هذا التساؤل ما عرف قبلا من سياق هذا الموضوع ، وأنّ قبيلتي الأوس والخزرج الذين كانوا يحاورون اليهود بالمدينة تلقوا فيما تلقوا عن أحبار اليهود خبر النبي المنتظر وأنّه يخرج بأرض العرب ويكون له ما يكون من شأن فلخصوص هاتين القبيلتين من بين قبائل العرب فكرة انتظار نبيّ يبعث في الأمّة العربية اعتمادا منهم على ما تلقوه من علماء اليهود وهم يثقون بهم ويقرون لهم بفضل العلم من حيث هم (الأوس والخزرج) أمّيّون كعامة العرب.

نعم! إذا كان هذا وجيها ليجعل سببا وعاملا قويًا في استجابة النفر المذكورين للدّعوة وإقبالهم على التصديق بتلك اللهفة الملحوظة -فينبغي-

مع ذلك- أن لا يغفل عن الميزة الخاصة التي أنفد بها هؤلاء الزعماء من قبيلتي الأوس والخزرج دون سائر القبائل العربية التي وردت الأخبار عنها في تلقيها دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وما ذلك إلاّ الروح البدارية والعزيمة الماضية وهو شيء يدل على سداد نظر وذكاء وقاد وسمو في المدارك وما تلك المبادرة إلاّ ظاهرة من ظواهر الحزم والجدّية في مزاولة الأمور وقد أفادت أخبار التاريخ الإسلامي الشواهد العديدة على ما ذكر من هذه الميزة التي تميز بها شعب الأنصار في مواقفهم نحو الأحداث الخطيرة بعد اعتناقهم الإسلام الأمر الذي أقام الدليل على صدق الاسم على مسماه بأنّهم الأنصار حقًّا وصدقًا.

وفيما يخص هؤلاء النفر الذين كان لهم فضل السبق ومزية الأولية لحسن الاختيار يلاحظ على ما جاء في حديثهم الذي ودّعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم مما عبّروا به وأبدوه من بالغ التذمر والاستياء لحالة الشقاق والعداوة الواقعة بين قومهم من قبيلتي الأوس والخزرج وما أظهروه من لهفة على إصلاح هذه الحالة بجمع الكلمة وإحلال السلام والأخوة في مجتمعهم بفضل تبعيتهم له صلى الله عليه وسلم يلاحظ في هذا أنّ هؤلاء الزعماء الذين كانوا يجمعون بين طرفي القبيلتين فمنهم الأوسي ومنهم الخزرجي [الروايات مختلفة في العدد من الجماعة الذين كان ابتداء الإسلام على أيديهم ولبّوا دعوته صلى الله عليه وسلم من الأنصار ويظهر أنّ المشتهر منها القول بأنّهم ستة والقول الذي يقول أنّهم ثمانية لا أكثر من ثمانية وكذلك الخلاف واقع في تدينهم من حيث القبيلة التي ينتسب كل فرد منهم إليها ويبدو أنّ ما عليه الاعتماد هو أنّهم يجمعون بين القبيلتين ولكن الأغلبية للخزرج - ولكن يوجد في مؤلفات السيرة القول بأنّ هؤلاء الجماعة كانوا كلّهم من قبيلة الخزرج.

ويوجد في مؤلفات السيرة أيضا من اقتصر على ذكر الأوس فقط. ويظهر عند التأمل أنّ هذا القول الذي يخص الأوس هو البعيد في الاحتمال

بل يبدو أنّه من انخلاط النسّاخ ومن سبق القلم (كما يقال). وسيأتي في الموالي من الدروس تعيين أسماء الجميع من رجال الأنصار الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في المحاضر الثلاثة التي كان فيها ابتداء إسلام الأنصار رضي الله عنهم] هم -ولا شك- من صنف عظماء الرجال وخيرة الزعماء المخلصين وأنّهم على قدر عظيم من سموّ الفكر وشرف العاطفة مما يتسامى عن مدارك زعماء القبيلة الضيقة إلى ذروة الفكرة الجماعية العامة. وأفاد البعض من مؤلفي السيرة تعليقًا على ما تقدم من مقال زعماء الأنصار المذكورين والذي أظهروا فيه الإشفاق على الحالة التي عليها قومهم من العداوة والشقاق بما يأتي:

الأوس والخزرج قبيلتان يجمعهما الأب والأم ، فهما أبناء أخوين شقيقين وقعت بينهما عداوة وتطاولت بينهما الحروب (القبلية) مدّة مائة وعشرين سنة. ومن أعظم وقائع هذا القتال بينهم ما وقع **ببُعاث*** (بضم الباء الموحدة وفتح العين المهملة مخففة ممدودة وآخره ثاء مثلثة) وهو مكان على مسيرة ليلتين من المدينة به حصن للأوس في بني قريظة حلفاء الأوس من اليهود وقعت فيه معركة ضارية بين الأوس والخزرج قبل خمس سنين من مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرًا. قتل في هذه المعركة عدة من الزعماء [أورد البعض من مؤلفي السيرة عند ذكر حرب بعاث هذه أثرًا نقل عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّها كانت تقول: -"إنّ يوم بعاث كان يومًا قدّمه الله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام - بمعنى أنّه كان في صالح الدّعوة معينًا لها من حيث أنّ عامة الزعماء الذين كانوا متصلبين لعقيدتهم الشركية وكانوا مع ذلك أرباب نفوذ في أقوامهم قتلوا وأبيدوا في هذه الوقعة فأزيحوا كعوارض من طريق الدّعوة الإسلامية] البارزين وكان الظفر فيها ابتداء للخزرج ثم كان للأوس في كرّة ما بعد. وممن قتل من الزعماء البارزين في هذه الواقعة من زعماء الأوس الزعيم الممتاز باسم السيّد وهو **حضير*** والد أسيد بن حضير

الصحابي المشهور في زعماء الأنصار ومن أفراد الطائفة الممتازة بالسيادة في قبيلة الأوس وفضله في الإسلام معلوم (حضير كان يلقب بحضير الكتائب).

والسبب الذي كان به اندلاع حرب بعاث هذه هو مسألة مراعاة قواعدالحلف المعمول بها عند القوم ذلك أنّه كان من هذه القواعد أن لا يقتل الأصيل بالحليف قصاصًا - فكأنّهم يعتبرون عدم التكافؤ بين الأصيل والحليف أي أنّ الحليف في درجة أدنى بحيث أنّه إذا ما وقع أن قتل الأصيل حليفا من فريق آخر غير فريقه الأصلي فلا يقتل به مكافأة بل يفدى مثلا بالدّية وما يقع به التراضي من التعويضات دون الوصول إلى الأخذ بالثأر وقتل القاتل.

فحدث أن رجلاً من الأوس وهو المسمى **سويد بن الصامت*** قتل رجلاً حليفًا للخزرج وهو المسمى ذياد[1] ، ولبعض الاعتبارات في جانب المقتول جعلت له مكانة عند الخزرج طالب فريق الخزرج بقتل القاتل الذي هو أصيل في الأوس ، فأبى ذلك فريق الأوس متمسكين بالقاعدة الجارية وأيضًا لاعتبار شيء زائد على ذلك وهو المكانة التي عليها القاتل سويد بن الصامت المذكور فقد كان له ثقافة بين قومه حتى صار يلقب بينهم بالكامل. وجاء من ترجمة سويد هذا أنّه ابن خالة عبد المطلب جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم فأمّه أخت **سلمى النجارية*** والدة عبد المطلب وأنه كان له سفر إلى مكة وقت ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ الرسالة ويدعو الجماعات والأفراد إلى الإسلام ، فاتصل سويد هذا بالرسول صلى الله عليه وسلم وعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام وكان بينهما حوار في الموضوع ، فقال سويد للرسول صلى الله عليه وسلم: " لعل الذي معك مثل الذي معي...! " فقال الرسول صلى

(1) ذياد: جاء للبعض في ضبطه أنّه بالذال المعجمة مكسورة ثم بياء مثناة تحتية مخففة مفتوحة ممدودة وآخره دال مهملة ، وضبطه البعض بفتح الذال وتشديد التحتية. وأنّه كان حليفًا لبطن من الخزرج وهم بنو غنم* بالعين المعجمة المفتوحة وسكون النون آخره ميم.

الله عليه وسلم: " ما هو ؟ ".قال: " حكمة لقمان! " - وأخذ يلقي على الرسول صلى الله عليه وسلم جملا من هذه الحكم. فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: " هذا حسن ، والذي معي أفضل" وتلا الرسول صلى الله عليه وسلم عليه شيئًا من القرآن الكريم ، وهنا بدا على سويد التأثر بالإعجاب لما سمع من القرآن.

واختلفت روايات الأخبار هنا ، ففي أخبار أنّه قارب ولم يعلن إسلامه صريحًا - وفي أخبارأخرى أنّه تم إسلامه إذ ذاك ، ومن هذا ما ورد حديثًا عن جماعات الأنصار من الأوس بعد انتشار الإسلام بالمدينة بأنّهم كانوا يقولون: " ما كنّا نرى سويدًا بعد رجوعه من مكة إلاّ وهو مؤمن (الإيمان الحق الذي اعتنقوه هم من بعد).

فلما رجع سويد من سفره هذا إلى موطنه بالمدينة عدا عليه فريق الخزرج فقتلوه- قتل الغيلة[1] - وورد أنّ القاتل له هو المجذر بن ذياد[2] أي ابن القتيل الحليف.

وعند هذا لم يبق مجال للأخذ والرّد بين القبيلتين إلاّ مجال القتال الجماعي ، فكانت بينهما حرب بعاث ، ولمّا قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرًا وعمَّ الإسلام قبيلتي الأوس والخزرج جميعا كان ممن

---

(1) غيلة: الغيلة بكسر الغين المعجمة ، تقدم بيانه في الدرس الثالث والثلاثين وأن القتل غيلة معناه أن يكون عن خديعة ومغافلة المقتول.

(2) ممّا ينبغي التنبيه إليه وملاحظته بإمعان كثرة الاختلاف والتغاير في ضبط أسماء الأشخاص خصوصًا عند سرد النسب وتعداد الآباء ، فاسم المجدر* هذا ورد في بعض المراجع النص على أنه بصيغة اسم المفعول بضم الميم وفتح الجيم وفتح الدال المعجمة مشددة آخره راء ، وأنّ اسمه الشخصي الأصلي عبد الله ، ولقب بالمجدَّر لقصره وغلظ أطرافه ثم أنّ صاحب المصدر المذكور ذكره في موضع آخر بكسر الذال المعجمة ، وجاء رسمه في مرجع آخر المجزر بالزاي ، كما أنّ اسم أبيه ذياد المذكور رسم في بعض المراجع بالذال المعجمة ، وفي نفس المرجع في موضع آخر رسم بالزاي (زياد) - وجاء في مرجع آخر رسمه دثار بالدال المهملة ثم ثاء مثلثة ممدودة آخره راء ، والمسألة في أصلها راجعة إلى أغلاط النسّاخ والتصحيف ، والظاهر أنّه الصواب: والمجذر بالذال من الجذر الذي هو الأصل ، وذياد من الذود الذي هو الذب والمنع والدفع.

أسلم الحرث بن سويد بن الصامت الأوسي المذكور - ابن القتيل غيلة - كما أسلم قاتل أبيه أيضا وهو المجذر بن ذياد حليف الخزرج المذكور ، فكانا من عداد الصحابة الذين حضروا (لم يذكر في تعداد البدريين من الصحابة اسم **الحرث بن سويد*** ، وأما المجذر فقد ذكر اسمه فيهم) غزوة بدر الكبرى ، غير أنّ الحرث كان مصرًا على الأخذ بثأر أبيه سويد ويطالب بالقصاص من القاتل الذي هو المجذر بن ذياد ، ولم يتم له ذلك حتى كانت واقعة غزوة أحد وما وقع فيها من أحداث كريهة نالت المسلمين ، فأقدم على تنفيذ رأيه وعدا على المجذر فقتله غيلة[1] - وسيأتي بسط الحادثة في أحداث غزوة أحد - وكذلك قتل من رجال قبيلة الأوس في معركة بعاث المسمى **إياس بن معاذ***. وجاء عن إياس هذا أنّه كان في وفد من رجال الأوس قدموا مكة قبل المعركة يلتمسون الحلف من قريش على مقابليهم قبيلة الخزرج. وجاء من أسماء أفراد هذا الوفد مع إياس المذكور اسم أبي الحيسر أنس بن رافع. وكما علم من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم في حرصه وبمثابرته على تبليغ الدّعوة للأفاقيين الذين يقدمون مكة فإنّه صلى الله عليه وسلم تعرف إلى أفراد هذا الوفد وكلّمهم بعرض الإسلام عليهم في مجلس معهم فدعاهم وتلا عليهم آيات القرآن العظيم ، وورد فيما ورد من الحوار الذي جرى بينه صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء الجماعة أنّه قال لهم: « هل لكم فيما هو خير لكم ممّا جئتم لأجله ؟ ».

فلمّا سألوه عمّا هو ذلك الأمر ؟ أفصح لهم بمضمون دعوة الإسلام وتلا عليهم الآيات القرآنية ، وعند ذلك تكلم إياس بن معاذ المذكور وكان

(1) ملخص قصة الحرث هذا أنّه أقر بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم بإقدامه على قتل صاحبه انقيادًا مع الغريزة وطاعة لشيطان الحميّة مع ثباته على عقيدته في الإسلام ، وطلب أن يدفع الديّة المضاعفة في دم القتيل غير أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه ذلك ونفذ فيه حكم القصاص وتولى قتله أبو دجانة* الأنصاري الخزرجي.

هو أصغر القوم سنًّا فقال للقوم: -" أي[1] قوم! والله إنّ هذا خير ممّا جئنا إليه! " ولكن أبا الحيسر المذكور - بما كان عليه من حجاب الجمود - عمد إلى حفنة تراب تناوله ورمى به وجه إياس وانتهره قائلا: " دعنا ممّا تقول فقد جئنا لغير هذا...!"

فما كان من إياس إلاّ أن صمت - وأسرّها في نفسه - وعند هذا قام الرسول صلى الله عليه وسلم مفارقا للمجلس.

فورد أنّه لمّا وقعت معركة بعاث وأصيب فيها إياس المذكور الإصابة التي قتلته صار يلهج بذكر الله عزّ وجلّ ويحمد الله ويسبحه ويكبره حتى فارقته الحياة! (فيلاحظ هنا أنّ قصة سويد بن الصامت المتقدم ذكره وقصة إياس بن معاذ هذا متشابهتان تماما[2]".

الرجوع إلى أصل الموضوع الذي هو مبدأ إسلام الأنصار رضي الله تعالى عنهم وعن جميع الصحابة:

عرف ممّا تقدم بيانه أنّ هذا المجلس الذي عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين قبيلة الأنصار وكان به ابتداء اعتناق العقيدة الإسلامية لسكّان المدينة المنورة وكان عند العقبة (موضع رمي الجمار في مناسك الحج) وأفادت الأخبار أيضًا بأنّه المكان نفسه الذي جرت فيه البيعة من طرف زعماء الأنصار له صلى الله عليه وسلم في اجتماعهم به صلى الله عليه

---

(1) أيْ: بفتح الهمزة وإسكان الياء المثناة السفلية تقدم في غير ما مرّة بيانه كما في الدرس التاسع عشر(19) والدرس الحادي والثلاثون (31)، وأنّه حرف نداء يستعمل في نداء القريب.

(2) يستفاد ممّا جاء من هذه الأخبار المتعلقة بمسعى قبيلة الأوس للحصول على الحلف مع قريش أنّه لم تحصل لهم من ذلك نتيجة وفشل المسعى تمامًا.

وممّا يلاحظ من هذه الروايات الواردة في المسعى المذكور أنّه يؤخذ منها ضعف وشذوذ القول الذي يقول أنّ أول مجلس للرسول صلى الله عليه وسلم مع الأنصار وكان به ابتداء إسلامهم كان يتركب من أفراد من قبيلة الأوس قدموا مكة للحصول على الحلف مع قريش لمحاربة الخزرج. فقد جاءت بهذا رواية أوردت فيما أورد من روايات ابتداء اسلام الأنصار فيبدو أن هذا من الروايات الإخبارية التي لم يراع فيها التحقيق.

وسلم للمرّة الثانية بعد عام من تاريخ الملاقاة الأولى ، وبالمكان نفسه أيضا كانت البيعة الكبرى كذلك بعد عام لوقوع الملاقاة الثانية.

ولهذا فقد جرى فريق من مؤلفي السيرة على إطلاق لفظ العقبة على المجالس الثلاثة ، يقولون - العقبة الأولى (وهي أول مجلس كانت فيه استجابة الدّعوة) والعقبة الثانية بعد عام من الأولى وفيها - أي الثانية - كان الجمع متضاعف العدد من الزعماء على المجلس الأول. وهذا المجلس الثاني هو الذي كانت فيه البيعة الأولى (كما سيأتي ذكره). ثم كانت بعد عام العقبة الثالثة وفيها كانت البيعة الكبرى وبها تمّ تأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة ، (كما سيأتي ذكر خبره مفصلا).

غير أنّ فريقًا آخر من مؤلفي السيرة لا يطلقون اسم العقبة على المجلس الأول ويرون أنّ العقبة اثنتان فقط: الأولى هي التي وقعت فيها المبايعة والثانية هي الكبرى والأخيرة.

وقد علم ممّا تقدم ذكره أيضًاأنّ عدد السّادة الذين كانوا النواة الأولى للمجتمع الإسلامي بالمدينة المنورة لم يزد على ثمانية ولم ينقص عن ستة. فأفادت رواية أنّهم ستة ، وأفادت أخرى بأنّهم سبعة ، وأفادت أخرى بأنّهم ثمانية. والخلاف واقع كذلك بين الروايات في تعيين أسماء هذه النخبة من رجال الأنصار رضي الله عنهم.

والذي وردت به الأخبار من التعيين بالاسم على سبيل الجملة فيمن ذكر باسمه معينًا يبلغ اثني عشر اسمًا. خصت بعض الروايات منهم ستّة وخصت روايات أخرى سبعة ، وخصت أخرى ثمانية مع الاختلاف بين تلك الروايات ، فكان الحاصل من مجموع ما ذكر من الأسماء الأسماء الآتي ذكرها:

أبو أمامة أسعد بن زرارة[1].

---

(1) أبو أمامة: بضم الهمزة وتخفيف الميم ، هي كنيته ، واسمه أسعد بوزن أحمد ، وزرارة بضم الزاي وتخفيف الراء ممدودة بعدها راء وتاء تأنيث اللفظ: وهو من قبيلة بني النجار الخزرجية وفضله في الإسلام معروف بالأسبقية وقد كانت وفاته عن قرب من ابتداء الإسلام حيث أنه توفي بعد مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا بقليل أيام بناءالمسجد النبوي.

عوف بن الحارث بن رفاعة المعروف بابن عفراء[1].

رافع بن مالك بن العجلان[2].

قطبة بن عامر بن حديدة[3].

عقبة بن عامر بن ناب[4].

جابر بن عبد الله بن رئاب[5].

معاذ بن الحرث (المعروف بابن عفراء - أخو عوف المذكور)[6].

---

(1) عوف: بن الحارث بن رفاعة من فرقة بني سواد* بفتح السين المهملة ثم واو مخففة بالفتح والمد وآخره ذال مهملة ، وترجع إلى قبيلة الخزرج. وذكر عن عوف هذا بأنه من شهداء غزوة بدر ، وهم ثلاثة أخوة يعرفون بأبناء عفراء بوزن حمراء وهي أمّهم والثاني هو معوذ بضم الميم ثم عين مهملة مفتوحة مشددة وآخره ذال معجمة ، وهو أيضا كأخيه عوف شهيد بغزوة بدر. والثالث هو معاذ الذي سيأتي ذكره قريبا.

(2) رافع: براء ممدودة ثم فاء مكسورة وآخره عين مهملة ، ابن مالك بن العجلان بفتح العين المهملة وإسكان الجيم ثم لام ممدودة وآخره نون وهو من فرقة بني زريق* بضم الزاي ثم راء مفتوحة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة وآخره قاف على صيغة التصغير ، وهي من بطون قبيلة الخزرج ، وهو من شهداء غزوة أحد التي استشهد فيها كثير من الصحابة ومنهم حمزة عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم.

(3) قطبة بن عامر: بضم القاف وإسكان الطاء المهملة ثم باء موحدة تحتية وآخره تاء التأنيث اللّفظي ويكنى بأبي زيد وهو خزرجي من فرقة بني سواد المتقدم ذكرها ، شهد المشاهد كلها مع الرسول ووقع الخلاف في تاريخ وفاته فقيل توفي في خلافة عمر بن الخطاب وقيل بعدها أي في خلافة عثمان بن عفان.

(4) عقبة بن عامر: بضم العين المهملة ثم قاف ساكنة ثم باء موحدة تحتية ، وابن ناب بالنون وآخره باء موحدة تحتية ورسم أيضا بالياء المثناة بعد الباء نابي ، وهو خزرجي من فرقة بني سلمة* بفتح السين المهملة ثم لام مكسورة ثم ميم ، وهو ممن قتل في وقعة اليمامة في قتال أهل الردة سنة اثنتي عشرة للهجرة.

(5) جابر بن عبد الله بن رئاب: بكسر الراء ثم ياء مثناة تحتية تارة تهمز مفتوحة بالمد وآخره باء موحدة تحتية (بوزن كتاب) وهو خزرجي من بني النعمان وذكر عنه أنه ممن شهد كل المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم وليس هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام* المشهور برواية الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

(6) معاذ: بضم الميم وفتح العين مهملة ممدودة بالفتح آخره ذال معجمة ، ابن الحارث وهو الثالث من الإخوة المعروفين بأبناء عفراء بفتح العين وإسكان الفاء ثم راء بالمد والهمز ، وهم من

يزيد بن ثعلبة البلوى [1] .

أبو الهيثم مالك بن التيهان [2] .

عويم بن ساعدة [3] .

عبادة بن الصامت [4] .

الخزرج من فرقة بني سواد (ضد البياض) وفي وفاته خلاف فقيل توفي متأثرا بجراحه من غزوة بدر ، وقيل بل بقي إلى أن توفي في خلافة عثمان. وقد وقع هنا إشتباه وتخليط فيما ذكر من ترجمة معاذ هذا ومعاذ بن عمرو بن الجموح بفتح الجيم ، والميم مضمومة بالمد آخره جاء مهملة ، والظاهر فيما يتعلق بالوفاة لكل منهما أنّ أحدهما توفي بعد بدر والآخر توفي في خلافة عثمان.

(1) يزيد بن ثعلبة: يزيد بصيغة الفعل المضارع من الزيادة. وثعلبة: بفتح الثاء المثلثة وإسكان العين المهملة ثم لام مفتوحة ثم باء موحدة سفلية آخره تاء التأنيث اللفظي ، واشتهر بكنيته بأبي عبد الرحمن البلوى بفتح الباء الموحدة السفلية ثم لام مفتوحة ثم الواو المكسورة لحركة النسبة آخره الياء المثناة السفلية المشددة المعروفة باللحاق للنسب ، وهو منسوب إلى فرقة بليّ* بفتح الباء وكسر اللام وآخره ياء مثناة تحتية مشددة بوزن عَليّ وهي فرقة من قبيلة الخزرج.

(2) أبو الهيثم: بفتح الهاء ثم الياء المثناة التحتية ساكنة ثم الثاء المثلثة المفتوحة آخره ميم ، واسمه مالك واشتهر بكنيته ، والتيهان بفتح التاء المثناة الفوقية ثم الياء المثناة التحتية ساكنة وضبطت أيضا بالكسر مشددة ثم الهاء ممدودة بالفتح آخره نون ، وهو من فرقة عبد الأشهل* بالشين المعجمة ، إحدى فرق الأوس. ووقع خلاف في وفاته على ثلاثة أقوال ، فقيل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل سنة عشرين في خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل بل بقي إلى خلافة عليّ بن أبي طالب حيث قتل في وقعة صفين في القتال الواقع بين فريق عليّ وفريق معاوية ، وهي الفتنة المشهورة.

(3) عويم بن ساعدة: بضم العين المهملة وفتح الواو وإسكان الياء المثناة التحتية وآخره ميم (على صيغة التصغير) وهو من فرقة بني أمية بن زيد من قبيلة الأوس ، والاتفاق حاصل على أنه ممن شهد مع الرسول المشاهد حتى وقعة الخندق ثم الخلاف في وفاته ، فقيل توفي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل بل توفي أيام خلافة عمر بن الخطاب.

(4) عبادة بن الصامت: بضم العين المهملة ثم الباء الموحدة مخففة ، والصامت فاعل من الصمت (خلاف الكلام) وهو من فرقة بني غنم بفتح الغين المعجمة وإسكان النون آخره ميم ، إحدى فرق قبيلة الخزرج ، وهو ممن شهد جميع المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم وممن حفظ جملة القرآن على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتوفي في سنة أربع وثلاثين للهجرة في خلافة عثمان ، قيل توفي ببيت المقدس ، وقيل ببلدة الرملة من أرض الشام.

ذكوان بن عبد القيس[1].

و يظهر فيما جاء من متعدد مؤلفات السيرة أنّ ما اتفقت عليه الروايات في تعيين أسماء هذه النخبة من الأنصار الواقع بها ابتداء إسلامهم أنّه أربعة -أبو أمامة أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن ناب. والثمانية الباقون ذكر منهم البعض على الرواية التي عددت النخبة تتركب من ستّة، على خلاف أيضًا في التّعيين.

والرواية التي عدت النخبة ثمانية ذكر فيها **أبو الهيثم * مالك بن التيهان**، وصاحبه عويم بن ساعدة وهما الشخصان اللذان ينتميان إلى قبيلة الأوس وما عدا هما ممن جاء اسمه في الجماعة فهم من قبيلة الخزرج إمّا بالنسب وإمّا بالحلف.

ومنشأ الخلاف المذكور هو الاشتباه والتخليط بين الجماعة الأولى والجماعة الثانية التي تتركب من اثني عشر واجتمعوا به صلى الله عليه وسلم بعد عام من الاجتماع الأول حسب الموعد الذي تقرر بينه صلى الله عليه وسلم وبين الجماعة الأولى - (كما سيأتي ذكره). هذا والمتحصل من عموم الروايات في هذا المكان أنّ هذه الجماعة من الأنصار الذين كان ابتداء إسلام الأنصار رضي الله عنهم على أيديهم بعد أن أعلنوا إسلامهم بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، جرى بينه وبينهم التفاوض فيما يتعلق بشأن إبلاغ الدّعوة وانتشارها في أقوامهم وما يتعلق خصوصا بشأن

---

[1] ذكوان: بفتح الذال المعجمة، وضبط أيضا بضمها وإسكان الكاف ثم واو ممدودة بالفتح آخره نون، وهو من فرقة بني زريق التي تقدم ذكرها من الخزرج، وقد عرفه البعض بابن عبد القيس وعرفه البعض بابن عبيد بضم العين (تصغير عبد) كما جاء في ترجمته بأنه ممن يعرف بالوصفين معا، مهاجر وأنصاري لأنه من قبائل المدينة وأقام بمكة ثم هاجر إلى المدينة كباقي المهاجرين، وهذا التعريف بالوصفين من الهجرية والأنصارية معًا ورد إثباته لعدد من الصحابة ممن هم في الأصل من الأنصار وسكنوا لمدة ما مكة ثم هاجروا عملاً بواجب الهجرة الدينية المطلوبة، وذكوان هذا من جملة الشهداء بغزوة أحد.

الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان من لوازم قبول الدّعوة وهو حمايته صلى الله عليه وسلم ونصرته والدّفاع عنه لصالح الدّعوة نفسها ، فقد كان هذا الأمر من مضمون ما يتصل بالدّعوة وكان عليه الصلاة والسلام يدعو إليه نصًا عندما دعا جميع قبائل العرب إلى الإسلام.

فتمّ الاتفاق بينه صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء الجماعة على أن يمكث هو صلى الله عليه وسلّم على حاله بمكة حتى الموسم القادم للحج وبمضي عام وذلك لكي يتمكن الجماعة المذكورون من إبلاغ الدّعوة ونشرها في أقوامهم بالمدينة ، وتمّ الاتفاق على تحديد الموعد المقبل في نفس الزمان والمكان اللذين وقع الاجتماع الأول بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم فيهما (موسم الحج ومكان العقبة). وجاء من صيغة مقال الجماعة له صلى الله عليه وسلم في هذا -" تمكث يا رسول الله على حالك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله عزّوجلّ ورسوله لعل الله يصلح ذات بينهم ونواعدك الموسم من العام المقبل ". ورضي الرسول صلى الله عليه وسلم رأيهم هذا فودّعوه ورجعوا إلى بلادهم.

وممّا جاء في بحث علماء السيرة هنا أنّ هذه الجماعة الأولى من الأنصار لم تصدر عنهم مبايعة للرسول صلى الله عليه وسلم (و إن سمّاها البعض بيعة العقبة الأولى).

والوارد في الأخبار أنّه لمّا حضر الموسم للحج من العام المقبل قدم الوفد من الأنصار حسب الموعد الذي صدر بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يتركب من اثني عشر رجلاً فيهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، وكان في هذا الوفد خمسة من الوفد الأول الذي كان به افتتاح إسلام الأنصار.

و أفادت الروايات بأن اجتماعهم به صلى الله عليه وسلم كان - كالمرّة الأولى - عند العقبة ، وصدر في هذا الاجتماع التعاهد والمبايعة بينه صلى الله عليه وسلم وبين هذا الفريق الثاني من الأنصار (و ممّا بحث به بعض مؤلفي

السيرة لفظ المعاهدة والمبايعة أنّ المعاهدة سميت مبايعة تشبيهًا بالمعاوضة المالية وما يقع فيها من تبادل الالتزام بين الطرفين المتعاهدين).

وقد أفادت بعض روايات هذا الموضوع أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تلا على هذا الجمع الآيات من سورة "الامتحان" "الممتحنة" المتضمنة لما سمي ببيعة النساء وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

و الملاحظ على هذا أنّ هذه الآيات مدنية وكانت بيعة النساء هذه يوم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

وقد فهم من آيات بيعة النساء هذه أنّها تضمنت الالتزام بمجانبة ستّة من الأمور المقبوحة ، وهي الشّرك بالله والسّرقة والزّنا وقتل الأولاد وافتراء الكذب والعصيان فيما يطلب عمله من أعمال المعروف.

وجاء من تعليق العلماء على ما في بيعة النساء هذه أنّ المراد بقتل الأولاد هنا هو عادة "وأْد البنات"[1] الذي كان يتعاطاه بعض العرب في الجاهلية وكذلك قتل الذكور أيضا خوف الإملاق.

وساق من بحث من مؤلفي السيرة في هذا الموضوع كلام الإمام **أبي حيان الأندلسي** * هنا حيث قال: -" الجمهور من العرب لا يتعاطى وأد البنات وإنّما هي خطة شاذّة في البعض من قبيلتي ربيعة ومضر ، يفعلها البعض خوف العَيْلَة[2] والفقر ، ويفعلها البعض خوف عار السبي (الذي يقع على الإناث).

---

(1) الوأد: بفتح الواو وإسكان الهمزة وآخره دال مهملة بوزن الوعد ، هو أن يقتل الحيوان بدفنه حيًا ، وعرف إطلاقه في خصوص البنات لما كان يتعاطاه البعض من قبائل العرب في الجاهلية.

(2) العيلة: بفتح العين المهملة بعدها ياء مثناة تحتية ساكنة ثم لام... لفظ يطلق على الافتقار والفعل منه عال - يعيل.

وجاء تفسير "البهتان" بأنّه الكذب وأنّ افتراءه بين الأيدي والأرجل هو على معنى اصطناع الكذب فيما يتعلق بالحال وفيما يتعلق بالاستقبال.

وهذه الرواية التي ذكر فيها بيعة النساء في محضر الأنصار الثاني ومبايعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت عن عبادة بن الصامت أحد أعضاء هذا الوفد، فقد جاء عنه أنّه قال: -" بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة النساء".

و قد تعقب الحافظ **ابن حجر العسقلاني*** ما في هذه الرواية حيث قال أنّ المبايعة على ما ذكر في هذه الرواية لم تكن يوم العقبة وإنّما نص ما وقعت عليه المبايعة في العقبة هو ما جاء عن **إبن اسحاق*** وأهل علم المغازي وذلك قوله صلى الله عليه وسلم للقوم: -" أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم". وهي الحماية والدّفاع عنه لصالح الدّعوة كما تقدم ذكره في المواقف التي كان صلى الله عليه وسلم يدعو فيها القبائل دعوته للإسلام.

وكذلك ممّا وقعت عليه المبايعة في هذا المحضر بينه صلى الله عليه وسلم وبين فريق الأنصار أن يرحل صلى الله عليه وسلم هو وأتباعه من مكة إلى المدينة (موطن الأنصار).

وزيد في بعض روايات هذه المبايعة النّص على: " السمع والطاعة في العسر واليسر والمَنْشَط[1] والمَكْرَه[2] وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم".

---

(1) المنشط: بفتح الميم ثم نون ساكنة ثم شين معجمة مفتوحة وآخره طاء مهملة، يبدو أنه مصدر ميمي من النشاط وهو خفة النفس وإقبالها على العمل.

(2) وكذلك المكره: بفتح الميم وإسكان الكاف وفتح الراء وآخره هاء، مصدر ميمي من الكُره بضم الكاف وهو المشقة والثقل الذي تشعر به النفس في عمل ما يكون لها فيه كلفة، " فالمنشط" و"المكره" أمران متقابلان على التضاد، كما في العسر واليسر، والسراء والضراء، والرخاء والشدة والمعنى المأخوذ في الجملة من هذا أنّها " البيعة على الطاعة والثبات".

وهذا من الالتزام الراجع إلى جانب الأنصار من جملة ما التزموا به من الواجب عليهم.

و جاء في أخبار هذا الموضوع أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما تمّت هذه المبايعة بينه وبين فريق الأنصار هذا وجه إليهم بيانًا قال فيه: - " ومن وفى فأجره على الله. ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو طهرة* له" (وفي لفظ "فهو **كفارة*** له"). وفي لفظ آخر من الرواية: " ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه".

و في لفظ آخر من إحدى الروايات: " فإن رضيتم فلكم الجنّة وإن غَشِيتم من ذلك شيئًا فأصبتم بحدّ في الدنيا فهو كفارة لكم في الدنيا وإن سترتم عليه فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر".

و جاء من بحث العلماء لما في هذا الحديث ما نقل عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: " لا أدري الحدود كفارة لأهلها أو لا...؟ ".

كما جاء من التعليق على الموضوع أيضًا أنّ الكفارة والطهرة بالحدود مخصوص بغير الشّرك كما جاء من التعليق على ما في هذا الحديث أنّ فيه الردّ على من يقول بوجوب التعذيب لمن مات بغير توبة ، وفيه الرّد كذلك على من يقول بكفر المقترف للكبيرة من الذنوب.

و فيما يخص تعيين أسماء هذا الفريق الثاني من الأنصار الوافد على الرسول صلى الله عليه وسلم حسب الموعد الذي حدد في الاجتماع الأول - أفادت أكثر الروايات بأنّه يتركب من اثني عشر رجلاً وأنّه كان يضم خمسة ممن حضر الاجتماع الأول ، وتفيد بعض الروايات تعيين الفريق المذكور كما يلي:

1 - أسعد بن زرارة (أبو أمامة)

2- عوف بن الحارث بن عفراء

3- رافع بن مالك بن العجلان

4 - قطبة بن عامر بن حديدة
5 - عقبة بن عامر بن ناب
6 - معاذ بن الحارث بن عفراء
7- ذكوان بن عبد القيس الزرقي
8 - عبادة بن الصامت
9 - يزيد بن ثعلبة البلوي
10 - أبو الهيثم بن التيهان
11 - عويم بن ساعدة
12 - العباس بن نضلة بن مالك بن العجلان [1].

(1) عباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان: من قبيلة الخزرج فرقة بني زريق وهو ممن يوصف بالوصفين مهاجر وأنصاري ، فإنه أقام بمكة مدة ثم هاجر إلى المدينة. وعند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار جعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع عثمان بن مظعون وهو من الشهداء في غزوة أحد ، ونضلة بفتح النون وإسكان الضاد المعجمة ثم لام وآخره تاء التأنيث اللفظي ، وذكر في مصادر أخرى عن نسبه بأنه من بني سالم بن عوف.

الدرس 51

"إسلام الأنصار رضي الله عنهم"(تابع)

ورد في الأخبار بأن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث مع هؤلاء الوفد الثاني من الأنصار عند منصرفهم من عنده راجعين إلى بلادهم، صاحبيه عبد الله **بن أم مكتوم**[1]* **ومصعب بن عمير**[2]* يعلمان من يسلم من أهالي المدينة القرآن ويفقهانهم في الدين ويقومان بالدعوة إلى الإسلام. ورد هذا في أكثر الروايات.

و تفيد بعض الروايات بأن الأنصار بالمدينة هم الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم هذا البعث فكتبوا إليه يطلبون البعث إليهم بمن يعلمهم أحكام الدين ويقرئهم القرآن، وعلى خلاف هذا توجد رواية تفيد أن توجه ابن أم مكتوم إلى المدينة إنما كان بعد غزوة بدر بمدة يسيرة.

و رواية أخرى تذكر أن مقدم ابن أم مكتوم المدينة إنما كان بعد غزوة بدر بعامين، وقد أفاد البعض من علماء السيرة ما يرفع الخلاف بين هذه الروايات ويجمع بينها، وذلك أن ابن أم مكتوم ومصعبا بعد توجههما إلى المدينة كما ذكر إبتداء كانا قد رجعا إلى مكة مع الوفد الثالث من الأنصار حيث كانت بيعة العقبة الكبرى- ولما رجع هذا الوفد إلى المدينة صحبهم مصعب وتخلف بمكة ابن أم مكتوم - حتى رجع إلى المدينة بعد بدر (كما أفادت الروايتان الأخيرتان).

---

(1) تقدم في الدرس الثالث والعشرين التعريف "بأبي أم مكتوم "هذا وأنه الأعمى الذي نزل القرآن في عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم في شأنه وقصته مشهورة في هذا وهو من أفاضل الصحابة ويرجع في النسب إلى قبيلة بني عامر من قريش وله قرابة من جهة الأم مع أم المؤمنين " خديجة " رضي الله عنها.

(2) مصعب: بكسر الميم وإسكان الصاد المهملة ثم عين مهملة مفتوحة آخره باء موحدة تحتية، وضبط أيضا بضم الميم، " ابن عمير": بصيغة التصغير، من قبيلة بني عبد الدار من قريش من أبرز الشخصيات في الصحابة، وأحد من فقه في الدين واشتهر بلقب المقرئ، وهو أحد الشهداء الأبرار في غزوة أحد.

و جاء فيما يتعلق ببعث الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبيه المذكورين في مهمة التعليم والدعوة في الأنصار أن مصعب بن عمير (وهو العضو البارز في البعث) لما حل بالمدينة كان مقره بمنزل أبي أمامة أسعد بن زرارة ، وكان هو الذي يؤم الجميع من قبيلتي الأنصار في الصلاة (و ذكر هنا فيما يذكر أن تقديم مصعب لإمامة الصلاة إنما كان لكراهية فريقي الأنصار أن يؤمه من هو من الفريق الأخر - أي يكره الخزرجي أن يؤمه الأوسي ، ويكره الأوسي أن يؤمه الخزرجي).

كما جاء أن **سالما**[1] **مولى أبي**[2] **حذيفة***كان هو الذي يلي الإمامة في الصلاة بالمهاجرين الذين قدموا المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا بمنزل قباء.

ومما جاء هنا من الأخبار أن أول جمعة أقيمت في الإسلام كانت بإمامة مصعب بن عمير بالمدينة قبل مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم إليها.

وجاء فيما نسب قوله إلى الإمام **أبي حامد الغزالي*** أن صلاة الجمعة فرضت بمكة قبل الهجرة ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتمكن من إقامتها بمكة حتى هاجر فأقامها بالمدينة ، غير أن هذا القول استغربه الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني.

---

(1) سالم مولى أبي حذيفة: جاء من التعريف به أنه سالم بن معقل بفتح الميم وإسكان العين المهملة وكسر القاف وآخره لام. وأنه كان مولى لزوجة أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة من بني عبد شمس القبيلة الشهيرة في قريش ، وسالم هذا من فضلاء الصحابة ومن أهل السابقية ويعرف بالتفوق في قراءة القرآن ، وهو من شهداء وقعة اليمامة في قتال أهل الردة وشيعة الدجال المعروف بمسيلمة الكذاب.

(2) أبو حذيفة: اشتهر اسمه بكنيته هذه بضم الحاء المهملة وفتح الذال المعجمة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ثم فاء ثم تاء التأنيث اللفظي (بصيغة التصغير) ، وأبوه هو عتبة بن ربيعة الزعيم المعروف في قريش ، وقد تقدم ذكره مع أخيه شيبة في قصة خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وكان أبو حذيفة من أشهر الصحابة فضلا وسابقية وثباتا في عقيدة الدين ، وهو من شهداء وقعة اليمامة أيضا.

و جاء هنا أيضا من الروايات ما يخالف نسبة أَوَّلِيَّة صلاة الجمعة بالمدينة إلى مصعب بن عمير وذلك في رواية وردت عن كعب بن مالك[1]، الخزرجي (الصحابي المعروف) قال: " أول من جمع بنا في المدينة (أمَّنا في صلاة الجمعة) أسعد بن زرارة قبل مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم " (ويخبر عن مكان إقامة الصلاة هنا) بأنه نقيع الخَضْمان[2]، وهي قرية من قرى المدينة ، ويخبر عن عدد المصلين بأنهم كانوا أربعين رجلا.

و قد ساق هنا البعض من مؤلفي السيرة مما يتعلق بإقامة صلاة الجمعة في ابتداء التشريع أحد الأقوال الغير المقبولة ويظهر سقوطها عن الاعتبار واضحا لإخفاء به ، وهو ما قيل من أن إقامة الجمعة بالمدينة توفق إليها الأنصار باجتهادهم وتخيروا كذلك باجتهادهم يوم الجمعة من بين الأيام...فبعد ما أشار إلى بطلان هذا القول أورد ما جاء من الروايات عن أصل إقامة الجمعة بالمدينة وأنه كان بأمر منه صلى الله عليه وسلم حيث كتب كتابا إلى مصعب بن عمير يقول له فيه: " انظر اليوم الذي يليه اليوم

---

(1) كعب بن مالك: مشهور بقصته في غزوة تبوك وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عنها وتاب الله عنهم.

(2) نقيع الخضمان: علق عليه البعض من مؤلفي السيرة "نقيع " بفتح النون ثم قاف مكسورة وآخره عين مهملة - والخضمان" بالخاء المعجمة ثم ضاد معجمة وميم وهو صيغة جمع تزاد في آخره النون كما يقال الولدان والبلدان ، فالخضمان جمع خضمة.

ويستفاد مما جاء في كتب اللغة أن هذه المادة " خ. ض. م" من معانيها القطع ، والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع ، ومصدره الخضم بفتح فسكون. ويرجع أيضا إلى معنى مخصوص وهو الأكل وتناول الطعام بجميع الفم والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع ، ومصدره بفتح وسكون كالذي قبله ، فيقال " خضم الطعام" إذا أكله بمجمع الفم والماشية تخضم الكلأ تأكل بملء الأفواه ، كما جاء أن الخضيمة بفتح فكسر (فعيلة) يطلق على الكلأ الأخضر كما يطلق على الأرض الكثيرة النبات - وجاء في النقيع بأنه يطلق على الماء وعلى البئر الممتلئة بالماء ، فيرجع المعنى في اسم هذا المكان إلى كونه ماء أرض بها رقاع الكلا والعشب المتوفر(و ما في معنى هذا) ، هذا والذي جاء في تعليق مؤلف السيرة يفيد أن الخضمان جمع خضمة وهي الماشية تخضم الكلأ أي تأكل بملء أفواهها ، وعلى هذا جاء اسم الجمع المذكور بصيغة المؤنث المعروف هكذا " نقيع الخضمات".

الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم ، فأجمعوا نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عن شطره فتقربوا إلى الله بركعتين..."

و مما جاء من الأخبار في انتشار عقيدة الإسلام بين الأنصار على يد مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير إسلام سيدين من أبرز الشخصيات في الأنصار من قبيلة الأوس وهما أسيد [1] بن حضير وسعد بن [2] معاذ ، وبحكم التبعية لهما أسلم بإسلامهما الكافة من قبيلتهما الخاصة المعروفة ببني **عبد الأشهل** * أحد فروع قبيلة الأوس.

وجاء من خبر بدء إسلامهما ما يحكى من أنّه ذات يوم - ومصعب بن عمير يقوم بالدعوة بمآزرة أبي أمامة أسعد بن زرارة - يجتمع سيدا الأوس سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فيتذكران ما جدَّ من شأن الدعوة فيقول سعد لأسيد: " لا أبالك! انطلق بنا إلى هذين الرجلين (يعني أبا أمامة ومصعب بن عمير) اللّذيْن أتيا دارنا (رسم في كثير من نسخ كتب السيرة هنا لفظ الدار بالتثنية "داريْنا") ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهَهَما! ".

(و في لفظ آخر) من رواية الحكاية تخصيص أبي أمامة بإلقاء التبعة فيما حدث عليه ، حيث أنّه الذي أتى بهذا الرجل الغريب يسفه الضعفاء

---

(1) أسيد بن حضير وسعد بن معاذ: ابنا عمّ من بني عبد الأشهل فرقة من قبيلة الأوس ، وأسيد بصيغة التصغير للفظ أسد ، وحضير بالحاء المهملة والضاد المعجمة آخره راء ، كذلك بصيغة التصغير أيضا ، وهو شخصية بارزة في الصحابة. شهد المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم وكان له مواقف جليلة في عدة وقائع ، وآلت إليه زعامة قبيلة الأوس بعد وفاة ابن عمه سعد بن معاذ ، وعاش بعد الرسول صلى الله عليه وسلم.

(2) وسعد بن معاذ: بضم الميم وعين مهملة ممدودة آخره ذال معجمة ، هو المعروف بسيد الأوس ، ومقامه جليل في الصحابة حتى قيل أنه بمنزلة أبي بكر الصديق في الأنصار كمنزلة أبي بكر في المهاجرين ، وكانت وفاته بعد واقعة بني قريظة حيث تولى الحكم في قضيتهم ، ويعدُّ من شهداء غزوة الخندق المسماة بغزوة الأحزاب حيث أصيب فيها بسهم وبقي يعاني جراحه حتى انتهى أمر بني قريظة الذي كان من لواحق غزوة الخندق.

(أي ويغير الأوضاع ويبلبل الأفكار[1]....إلخ).

- (وأشير هنا إلى أنّ أبا أمامة أسعد بن زرارة قريب لسعد بن معاذ من جهة الأم، فهو بن خالته). وجاء أن أسيد بن حضير قام إثر هذا الحديث بينه وبين سعد بن معاذ فأخذ حربته وقصد مكان مصعب بن عمير عند أبي أمامة وعندما رأى أبو أمامة أسيداً مقبلا كلّم مصعب بن عمير فقال له: " هذا سيد قومه قد جاءنا فأصدق الله فيه ".

فأجابه مصعب: " أن يجلس إلينا كلمته!".

و لما وصل المكان أسيد وقف وخاطبهما (بما لا يخلو من جفاء) يقول: " ما جاء بكما ؟ تسفهان الأحلام وتفسدان كذا... وكذا (إلى ما في هذا المعنى)... فيقول: " اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة...!" (تهْديد)!.

(و في لفظ آخر) أنّه خصص الخطاب لأبي أمامة فقال له: " يا أسعد أتيتنا بهذا الغريب يسفه أحلام ضعفائنا ويفسد علينا أمرنا..." (إلى ما في معنى هذا الحطّ...)، وهنا تكلم مصعب بن عمير فخاطب أسيد قائلا له: " أو تَجْلِسُ فَتَسْمَعَ ؟ فإن رَضِيتَ أمرا قبلتَه! وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره! " فما كان من أسيد إلاّ أن أجاب قائلا له: " أنصفتَ!" وركز حربته وجلس إليهما ففتح مصعب معه الكلام وأبلغ إليه الموعظة ثم تلا عليه قدرا من آيات القرآن الكريم.

(و فعلت الموعظة مفعولها في قلب أسيد) فقال: " ما أحسن هذا وما أجمله!!" ثم سأل: " كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا الدّين ؟ " فأجابه مصعب: " تغتسل وتتطهر وتغسل ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي " [هكذا جاءت هذه الرواية فيما أشار به مصعب من أداء هذه التكاليف على أسيد بن حضير كجواب له عما سأل في الإجراء الذي يتعين على من أراد الدخول في الإسلام، وجاء مثل هذا مع صاحبه الذي أسلم

(1) عبارة تؤدي المعنى الوارد في الحديث.

من بعده وهو سعد بن معاذ وليس مما ينبغي فهم لزوم ما ذكر من الأفعال المذكورة على كل من أراد الدخول في الإسلام إذ من المعروف في عموم ما ورد من الأخبار عمّن يدخل في الإسلام على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه صلى الله عليه وسلم لم يكلف واحدا منهم بمثل هذا بل أنّ الدخول في الإسلام كان يتقرر بأداء الشهادة وإعلانها ليس غير ، إذن فالمحتمل فيما ورد هنا عمّا كلف به أسيد وسعد أنّه مسايرة من مصعب للسؤال - حيث كان الرجلان يسألان عمّا يلزمهما من عمل تهيئة للدخول في الإسلام سيما وقد جاء في الروايات عن إسلام هذين الزعيمين بأنّ الواحد منهما كان يتحقق إسلامه بمجرد ما يسمع من الموعظة التي يتلقاها من مصعب ، إذ أفادت الروايات عن حاضري المجلس من المسلمين قولهم: " ولقد رأينا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم ".

إنّما يبقى محل البحث فيما يتعلق بالصلاة فلا بدّ أن يكون في حكاية الرواية طيّ في الكلام مثل أن يقال أنّه علمه الصلاة وهي كما جاء في بعض الروايات صلاة ركعتين ولينظر ما يلزم للصلاة من قراءة القرآن ؟ وغير ذلك مما يتمكن فعله ارتجالا...

و المفهوم حينئذ من القصة إرادة مصعب التوثّق البالغ من صاحبيه في إسلامهما على يده سيما وهما زعيمان بارزان في المجتمع].

و فعلا فقد بادر أسيد بفعل ما أشار به عليه مصعب ، وأشهد على نفسه باعتناق دين الإسلام.

ثم جرى بين أسيد وبين مصعب وصاحبه أبي أمامة ما يقتضيه الحال من الحديث فقال لهما: " إنّ ورائي رجلا إن يتبعكما لم يتخلف من قومه أحد وسأرسله إليكما (يعني سعد بن معاذ) ثم أخذ حربته وانصرف يريد سعدا.

و كان سعد بن معاذ - إذ ذاك -في مجلس مع وجوه قومه بناديهم ، فلما أقبل عليهم أسيد ورمقه سعد عن بعد قال للقوم: " لقد جاءنا أسيد

بغير الوجه الذي ذهب به!!".

وعندما وصل أسيد إلى المجلس سأله سعد: " ماذا كان في الأمر ؟ "، فأجاب أسيد: "كلمتُ الرجلين فو الله ما وجدت بهما بأسًا" (ثم عدل بالحديث إلى ما يستميل به سعدا إلى رأيه ويثير فيه عاطفة الحنان على أبي أمامة - فواصل معه الحديث قائلا له:

" وقد سمعتُ أن بني حارثة[1] مضوا إلى أسعد (أبي أمامة) ليقتلوه وقد عرفوا أنّه ابن خالتك ليخفروك[2]" وهزّ سعدا العضب فأخذ الحربة من يد أسيد وقال له: "ما أراك أغنيت شيئًا" وبادر بالذهاب إلى حيث يوجد أبو أمامة ومصعب (وهو نفس المكان الذي قابلهما فيه أسيد بن حضير وعُرف في الرواية بأنّه حائط[3] لبني ظفر[4]، وكان بمعية مصعب وأسعد أبي أمامة نفر ممن أسلم على يد مصعب). وتذكر الرواية هنا مثل ما وقع في مقدم أسيد على المجلس فإنه لما تراءى سعد لمن بالمجلس قال أبو أمامة لمصعب: "ها هو جاء سيد قومه أن يتبع (يقبل الدعوة) لم يتخلف عنها من قومه اثنان فأصدق الله فيه"- ويفهم من هذا أنّ سعد بن معاذ هو الحائز على رتبة التفوق في الزعامة على القبيلة- ولمّا انتهى سعد إلى المكان لاحظ عن صاحبيه المقصودين (مصعب وأبي أمامة) سيما الطمأنينة وهدوء البال، وعرف من هذا أنّ أسيد استدرجه ليسمع من الرجلين مثل ما سمع هو (أي فيقتنع- ولابد- كما اقتنع هو) ووقف سعد على أبي أمامة ومصعب بن عمير متبسما (و رسم في نسخ أخرى"

---

(1) بنو حارثة: أحد فروع قبيلة الأوس.

(2) الخفر: بالخاء المعجمة والفاء وآخره راء بوزن الضرب الفعل منه مفتوح ماضياً مكسور مضارعاً مأخذه من الخفرة بضم الخاء وإسكان الفاء وهي الذمة، يقال خفره بمعنى أجاره وأولاه ذمته بالحماية، فإذا استعمل الفعل منه رباعياً مزيداً بالهمزة بصيغة أخفره رجع إلى معنى نقض العهد والغدر، فالفعل هنا في مقال أسيد يفهم على أنه من الرباعي الذي معناه "المساس بالعهد".

(3) يطلق لفظ الحائط على البستان، وهو المراد هنا.

(4) بنو ظفر: بفتح الظاء المعجمة المشالة ثم فاء مفتوحة كذلك وآخره راء، وهم فرع من الأوس.

متشتما") ووجه كلامه إلى أبي أمامة فقال له: " يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت مني هذا... يغشانا هذا (يشير إلى مصعب) في ديارنا بما نكره!".فكلّمه مصعب بمثل ما كلّم صاحبه قبله أسيدا... قال له: " أوتقعد فتسمعَ...؟ فإن أعجبك فذاك وإن كرهت كففنا عنك ما تكره...".

و تفيد الرواية بأنّ ما جرى لسعد بن معاذ مع مقابلته لمصعب كان طبق ما جرى لصاحبه أسيد - فإنّه لما سمع خطاب مصعب يعرض عليه الجلوس للسماع اقتنع بذلك فركز حربته بالأرض وجلس ، وتفرغ إليه مصعب فوجه إليه ما وجه من الدعوة إلى الإسلام ، وتلا عليه ما تلا من آيات القرآن العظيم ، وما كاد يفرغ مصعب من خطابه معه حتى اقتنع الاقتناع التام ولان قلبه وإطمأن بقبول الدعوة - وذكر في الرواية أنه كان يقول عقب كل جملة يلقيها عليه مصعب " ما أجمل هذا وما أحسنه!" وفي الأخير سأل عن الإجراء اللاّزم لمن يريد الدخول في هذا الدّين (كما ذكر ذلك عن صاحبه أسيد). فعرفه مصعب بما يتعين من التطهر ثم الإشهاد والإعلان بأداء الشهادة المعروفة في الإسلام من الوحدانية لله تعالى بالألوهية والرسالة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وأدى سعد بن معاذ ما أرشد إليه بكامل الانقياد والإذعان (و يلاحظ هنا ما تقدم ذكره أول هذا الباب من روح المبادرة وقوة المضاء في الوجهة لزعماء الأنصار وإنّها ميزة لهم عن غيرهم). وتفيد الرواية الإخبارية هنا أن سعد بن معاذ بعد ما أعلن إسلامه على يد مصعب بن عمير قفل راجعا إلى مكانه بالنادي حيث كان الجمع ينتظره وفيهم ابن عمه أسيد بن حضير فلما أقبل عليهم ورمقوه من بعيد توسموا فيه ما توسموا قبل ذلك في ان عمه أسيد فقال قائلهم (وربما كان هو أسيد نفسه): " والله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به " (وفق ما قال سعد عن أسيد سابقا).

و تفيد الرواية أنه لما وصل سعد إلى مجمع قومه وابتدروه ينتظرون

ما يكون منه كان هو السابق بالمقال يقول: " يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ "، فأجابوا على لسان واحد: " سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا وأبركنا نقيبة[1] وأمرا! " فقال لهم: " فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله!" (دعوة إلى الإسلام)[2].

فجاء أنه ما كاد يمضي اليوم حتى أمسى كل رجل وكل امرأة من قبيلة بني عبد الأشهل مسلما ومسلمة (استجابة لدعوة سعد بن معاذ)، وهكذا فقد انتشر الإسلام في المدينة ولم يبق من ديار الأنصار دار ليس فيها مسلم.

و تفيد الرواية أنّه لم يتخلف عن الإسلام في هذا الأثناء من قبيلة بني عبد الأشهل الأوسية إلاّ الملقب " بالأصيرم "[3] وهو عمرو بن ثابت، فقد تأخر بإعلان إسلامه حتى كان يوم واقعة أحد في السنة الثالثة للهجرة فخرج مع من خرج للقتال مع المسلمين فأعلن إسلامه حينئذ وشارك في القتال فاستشهد فيه، فكان يقال فيه أنّه شهيد ولم يسجد لله سجدة. كما ورد أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر عنه بأنّه من الشهداء، وأنّه في الجنّة.

وكذلك تأخر الإسلام عند سكان عوالي المدينة من ناحية نجد وتأخر إعلان الإسلام أيضا في طائفة من الأوس وكان فيهم أبو قيس صيفيّ بن الأسلت[4]، وهو شخصية بارزة فيهم كان شاعرا قد ترهب وتنسك وخالف

---

(1) النقيبة: بفتح النون وكسر القاف بوزن الفعيلة يطلق على نفس الإنسان، وربما يطلق مع ذلك على العقل والرأي، يقال فلان ميمون النقيبة ومبارك النقيبة، من حيث إصابة الرأي الصواب والوقوع على الأحسن في التدبير.

(2) مما جاء من الروايات في إسلام سعد بن معاذ أنه عندما جاء فوجد قومه ينتظرون ما يكون منه في شأن الدعوة فأعلن إسلامه بينهم وقال" من شك في هذا من صغير أو كبير فليأتنا بأهدى منه فوالله لقد جاء أمر لَتُحَزَّنَّ فيه الرقاب (يشير إلى القتال في الإسلام) وإنه أمر تبذل فيه النفوس".

(3) الأصيرم: صيغة تصغير للأصرم وهو لقب له.

(4) صيفي: بفتح الصاد المهملة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ثم فاء مكسورة وآخره ياء مثناة تحتية بالتشديد.

المألوف من ديانة العرب بما يشبه المسيحية ، ولما كان مسموع الكلمة في قومه فقد توقف بهم عن المبادرة باعتناق الإسلام خلافا للجمهور من سكان المدينة. وتفيد رواية بأنّه زيادة على هذا فإنّ الرجل إنّما توقف عن الإسلام متأثرًا بدعاية ابن أُبَيّ بن سلول[1] والمشهور بأنّه رأس النفاق في المدينة ، فتأخر إسلام هذه الطائفة من قبيلة الأوس حتى أسلم زعيمهم المذكور صيفي بن الأسلت ، وهو إذ ذاك شيخ متقدم في السّن وذلك بعد وقعة غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة. وتفيد هذه الرواية بأنّه لمّا أسلم كان ممن يوصف بلفظ "حسن إسلامه".

هذا وبجانب هذا توجد رواية أخرى تفيد أن إسلام ابن الأسلت هذا إنما كان عندما حضرته الوفاة ، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سمع باحتضاره أرسل إليه يحثه على قبول الدعوة ويرغبه في الإسلام بأن قال له: " قل لا إله إلاّ الله أشفع لك بها عند الله ". فامتثل وأسلم وبإسلامه أسلم قومه[2].

و مما جاء من الروايات هنا أنّ ابن الأسلت هذا لمّا توفي أراد ابنه أن يخلفه زوجا للزوجة التي توفي عنها كالعادة الجارية في الجاهلية وهي استحقاق الولد الأكبر للهالك الذي يترك زوجة أن ينكحها خلفا لأبيه وأنّ هذا هو السبب الذي نزل به القرآن بتحريم نكاح زوجة الأب من الآية في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

(1) ابن أبيّ بن سلول: / أبي بضم الهمزة وفتح الباء الموحدة التحتية ثم آخره ياء مثناة تحتية مشددة ، صيغة تصغير "أب" والمشهور في اسمه أنه عبد الله ، وسلول بفتح السين المهملة ثم لام مضمومة بالتخفيف والمد وآخره لام ، وجاء أن لفظ "سلول" علم لأنثى "كحنون" وهو أبرز زعيم في قبيلة الخزرج قبل الإسلام ، وخبر هذا الرجل معروف مشهور بموقفه المعادي للإسلام.

(2) مما يستغرب في ورود الأخبار وتناقلها ويدعو إلى التمسك بالتحفظ والاحتراز منها ما أورده نور الدين السمهودي* في كتابه تاريخ المدينة المنورة المسمى "وفاء الوفا". فقد أورد عن ابن الأسلت هذا أنه لما أراد اعتناق الإسلام صده عنه ابن سلول المعروف وقال له "تريث بعض الوقت لا تتسرع" فأحجم ابن الأسلت عن إعلان إسلامه حتى وافته منيته ، ومات على الكفر!".

إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾. فانتهى عند ذلك الابن ولم يتمّ هذا النكاح[1].

و تفيد الروايات عن مصعب بن عمير بأنّه واصل مهمته في المدينة بالقيام بالدعوة للإسلام وتعليم شرائعه لمن أسلم[2] وأقام حتى حل وقت موسم الحج (وهو موعد الاجتماع الثالث للأنصار بالرسول صلى الله عليه وسلم فخرج فيمن خرج من الحجاج من أهالي المدينة في جمع يشمل المسلمين منهم وغير المسلمين ممن لازال على دينه ، وتفيد بعض الروايات بأنّ غالبية هؤلاء الحجاج من أهالي المدينة كانت من المشركين الذين لا زالوا لم يهتدوا إلى الإسلام[3].

وجاءت هنا رواية عن كعب بن مالك أحد الشخصيات المعروفة في الأنصار من قبيلة الخزرج قال: " خرجنا في حجاج قومنا من المشركين (أي كان الجمع مختلطا بين المسلمين والمشركين) ومعنا البراء[4] بن معرور

---

(1) جاءت رواية في هذا بما مفاده أنه لما توفي أبو قيس* وكان من صالحي الأنصار أراد ابنه المسمى قيسا (و في لفظ آخر) المسمى محصنا - أن يخطب زوجة أبيه كالعادة ، فكان مما قالت له المرأة: " إنما اتخذتك ولدا وأنت من صالحي قومك ، ولكني أستأمر الرسول صلى الله عليه وسلم. فأتت النبي صلّى الله عليه وسلّم فذكرت له النازلة فأمهلها حيث قال لها " ارجعي إلى بيتك" (أي حتى يأتي حكم النازلة) فنزلت الآية من سورة النساء بتحريم هذا النكاح ووسمه بنكاح المقت.

(2) أفادت بعض الروايات أن مصعب بن عمير الذي كان مقامه عند أبي أمامة أول الأمر انتقل بعد ذلك أي بعد إسلام سعد بن معاذ إلى منزل سعد بن معاذ وذلك بسبب أن بني النجار الذين كان أبو أمامة في محلتهم ناكروه وضايقوه (أي من أجل دعوة الإسلام) فأدى ذلك إلى خروج مصعب من ساحتهم تخفيفا عن أبي أمامة.

(3) و أفادت في هذا رواية تذكر أن عدد المشركين الذين حجوا مع المسلمين من المدينة يبلغ خمسمائة شخص بينما عدد المسلمين لايتجاوز خمسة وسبعين.

(4) البراء: بفتح الباء الموحدة التحتية ثم راء مفتوحة ممدودة بالتخفيف وآخره همزة ، جاء أن الأصل في هذا الاسم هو لأول ليلة من الشهر أي ليلة استهلال الهلال الجديد من الشهر ، دعي به لأنه ولد فيه. ومعرور بصيغة اسم المفعول بفتح الميم ثم عين مهملة ساكنة ثم راء مضمومة بالمد والتخفيف وآخره راء. وجاء في تفسيره بأن معناه " المقصود " وذلك لأنه يقال عراه يعروه بمعنى قصده طالبا منه النوال من غير سؤال باللفظ - ولهذه المادة معان أخرى. والبراء هذا من فضلاء

سيّدنا وكبيرنا ، فلمّا خرجنا قال لنا البراء: " إني قد رأيت رأيًا لا أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ " " قلنا وما ذاك ؟ " قال: " رأيت أن لا أدعَ هذه البَنِيَّة[1] مني بظهر وأن أصلي إليها. (خالفهم في قبلة الصلاة) قال كعب فقلنا له: " والله ما بلغنا أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم يصلي إلاّ إلى الشام (بيت المقدس) ، وما نريد أن نخالفه!".

يقول كعب "فصمم البراء على رأيه وخالفناه حتى قدمنا مكة وقد عبنا عليه فقال لي: " يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسأله" (في أمر هذا الخلاف في القبلة) ، يقول "فخرجنا نسأل عنه صلى الله عليه وسلم لأننا لم نكن نعرفه من قبل فسألنا عنه رجلاً فقال لنا " أتعرفانه ؟ " قلنا: " لا ". قال: " أتعرفان العبّاس عمّه ؟ " قلنا: " نعم " (لأنّه كان يقدم المدينة للتجارة) فقال: " هو في المسجد مع العبّاس ". فدخلنا المسجد فوجدناه مع عمّه العبّاس فسلمنا حين جلسنا إليه فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّه العبّاس يقول له: " يا أبا الفضل هل تعرف الرجلين ؟ " قال: " نعم: " هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ". قال كعب: فوالله ما أنسى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " الشاعر ؟ " (أي أنّه صلى الله عليه وسلم كان يسمع عن كعب بأنّه شاعر). فأجابه العبّاس " نعم " ، ثم أنّ البرّاء تقدم بالسؤال للرسول صلى الله عليه وسلم فقال: " يا رسول الله أني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله بالإسلام فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر (أي في الصلاة) فصليت إليها وخالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء... فماذا ترى يا رسول الله ؟ (أي طلب الفتوى في القضية)".

الصحابة وأجل الشخصيات في فريق الأنصار وتوفي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في مبدإ عهد الهجرة النبوية إلى المدينة.

(1) المراد من " البنية " الكعبة المشرفة ، واللفظ بفتح الباء الموحدة التحتية وكسر النون وتشديد الياء المثناة التحتية بالفتح وآخره تاء التأنيث اللفظي المعروف وهو بوزن الفِعيلة ومأخذه من البناء.

و أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم البرّاء فقال له: " قد كنتَ على قبلة لو صبرتَ عليها!" (المعنى هنا في القبلة يرجع إلى قبلة أصحابه وهي قبلة بيت المقدس التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم عليها في ذلك الوقت) فرجع البرّاء (من ذلك الحين) إلى قبلة بيت المقدس.

و جاء من التعليق لبعض المؤلفين على هذا الموضوع بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أرشد البرّاء إلى ما هو الواجب من استقبال بيت المقدس لم يأمره بإعادة ما صلى إلى الكعبة مخالفا للمشروع مع أنه كان مسلما لأنّه كان متأولاً وأنّ هذه المسألة محل تأمل.

و تختم رواية كعب بن مالك هذه بقوله: " ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة (و هو المكان الذي وقع فيه الاجتماع للبيعة الكبرى).

الدرس 52

"البيعة الكبرى"

و أطلق عليها العقبة الثانية باعتبار المبايعة كما أطلق عليها العقبة الثالثة وذلك باعتبار الاجتماع ويفهم هذا مما تقدم بسطه فإن اجتماع زعماء الأنصار به صلى الله عليه وسلّم عند العقبة كان ثلاث مرات ، وكانت مبايعتهم له صلى الله عليه وسلم مرتين أي في الاجتماع الثاني وفي الاجتماع الثالث. وللعقبة الثالثة هذه مزية جليلة القدر فاخرة الشأن ، وكان أصحابها من الأنصار رضي الله عنهم يتميزون بها عن غيرهم فيقال في الواحد منهم " وهو ممن شهد العقبة الثانية على غرار ما يقال: " هو ممن شهد بدرًا...إلخ "[1].

و تفيد الأخبار بأنه لمّا حل بمكة وفد الأنصار الذي انعقدت به هذه البيعة ، وتقابل من تقابل منه مع الرسول صلى الله عليه وسلم حصل الاتفاق بين الطرفين على أن يكون الاجتماع الذي تجري فيه المبايعة بمكان العقبة أيضا حيث وقع الاجتماعان السابقان ، وأن يكون الزمان بعد مضيّ الثلث الأول من ليلة النفر[2] الأول من منى (أي بعد قضاء مناسك الحج المعروفة إذ ذاك...).

---

(1) معلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم متفاضلون في المزية فلأهل السابقية فضل على غيرهم وقد جاء الخبر بأفضلية أصحاب العقبة على غيرهم سواء العقبة الأولى أو الثانية أو الثالثة ، ومعلوم أفضلية شاهدي غزوة بدر وكذا غزوة أحد وأصحاب بيعة الرضوان بالحديبية ، وهذا الفضل إنما هو باعتبار الجملة والجماعة وليس باعتبار الأفراد.

(2) النفر الأول: النفر بوزن الضرب بفتح النون وسكون الفاء وآخره راء والفعل منه مفتوح ماضيا مكسور مضارعا أي الإقلاع خروجا من مكان توجهًا إلى وجهة أخرى. وقد جاء في لفظ من رواية أخرى هنا التعبير عن اليوم بأنه أوسط أيام التشريق فالنفر الأول هو مبارحة الحجاج منى يوم الثاني عشر ذي الحجة ويليه يوم النفر الثاني وهو ثالث عشر الشهر فيوم النفر الأول لمن تعجل ويوم النفر الثاني لمن تأخر في الإقامة بمنى لرمي الجمار المعروف ومناسك الحج ، وقيل فيه يوم النفر مقابلة ليوم القرّ بفتح القاف وتشديد الراء ، وهو اليوم الحادي عشر من ذي الحجة لأن الحجاج يقرون فيه بمنى لا يبارحونها.

و أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم تعليماته للقوم بهذا على أن يكون العمل على تمام السريّة وبالغ الحيطة وأشار عليهم بأن لا ينبهوا نائما من نومه ولا ينتظروا غائبا ليحضر. وجاءت هنا رواية كعب بن مالك الصحابي المعروف يقول (بعد تمام حديث القبلة مع **البراء بن معرور***): " ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة في ليلة اليوم الذي هو يوم النفر الأول ، وكنا نكتم أمرنا على من معنا من قومنا من المشركين وكان منهم أبو جابر[1] عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتنا فكلمناه وقلنا له أنك سيد فينا وشريف من أشرافنا وإنّا لنرغب بك عما أنت فيه (أي من عقيدة الشرك وضلالة الجاهلية) فتكون حطبا لنار جهنم غدا ثم دعوناه إلى الإسلام ورغبناه فيه. فاستجاب وأعلن إسلامه فأخبرناه (خبر البيعة) وعرفناه بالميعاد (الذي نحن عليه) فكان ممن شهد العقبة معنا (و عين نقيبا[2] فيمن عين من النقباء بإثر عملية المبايعة) فمكثنا مع قومنا في رحالنا تلك الليلة حتى مضى ثلث الليل فخرجنا للميعاد مستخفين يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطا[3] حتى اجتمعنا عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان". وأفادت الروايات هنا أن عدة الثلاثة والسبعين من الرجال كان منهم أحد عشر من قبيلة الأوس واثنان وستون من قبيلة الخزرج.

---

(1) أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام: بفتح الحاء المهملة ثم راء مخففة وآخره ميم ، وهو من فرق بني سلمة الخزرجية ، وابنه جابر هو الصحابي المشهور برواية الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعبد الله هذا من شهداء غزوة أحد بل قيل أنه أول شهيد بها.

(2) النقيب: بفتح النون وكسر القاف آخره باء موحدة تحتية بوزن الكفيل وبمعناه أيضا مأخوذ من النقابة بالكسر... وبالفتح بمعنى الكفالة والولاية والضمان ، ويرجع معنى النقيب على جماعة إلى أنه ينقب بالتشديد للقاف عن أحوالهم أي يتعهدها ، وجاء في معنى النقيب عدة تعاريف متقاربة في المعنى لبعضها البعض فقيل فيه: العريف والشهيد والوكيل والناظر والضامن وهو الكفيل حتى الرئيس... إلخ.

(3) القطا: بفتح القاف والطاء المهملة آخره ألف مقصورة اسم جمع ومفرده قطاة وهو طير معروف قيل أنه في حجم الحمام يضرب بمشيه المثل في الخفة والمقاربة.

و جاء من التعريف بالمرأتين بأن احداهما أم عُمارة* نسيبة (بصيغة التصغير) بنت كعب من بني النجار* (و في لفظ أنها من بني مازن). والثانية أم منيع أسماء[1] بنت عمرو بن عدي من بني سلمة.

يقول كعب: " ولازلنا ننتظر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمكان حتى جاءنا" (وفي رواية أخرى أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان هو السابق بالمجيء إلى المكان ولا مخالفة بين الروايتين. فقد قيل كان هو صلى الله عليه وسلم السابق وانتظرهم ثم ذهب فحضر الجماعة حال تغيبه وانتظروه حتى قدم إليهم لثاني مرة من مجيئه للمكان).

و قد أفادت جميع روايات هذه البيعة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان معه في هذا المجلس مع الأنصار من جهته عمّه **العبّاس بن عبد المطلب*** ، ليس معه آخر من جهته غير العبّاس ، وأن صاحبه أبا بكر الصديق وبن عمّه عليّ بن أبي طالب وإن كانا قد حضرا المكان إلاّ أنهما لم يشهدا المجلس ، بما أن عليًا قام على باب الشعب[2]

---

(1) بنو مازن: فرع من بني النجار وهم من قبيلة الخزرج. وأورد البعض من مؤلفي السيرة فيما يخص ترجمة أم عُمارة هذه بأنها كانت تحضر مواقع القتال مع الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجها زيد بن عاصم* وابنيهما عبد الله* وحبيب* ، وقد وقع لحبيب هذا أنه وقع بيد مسيلمة الكذاب* الدجال المعروف الذي خرج في بني حنيفة* باليمامة* ، وادعى النبوة فقتل حبيبا حيث أنه حاول أن يفتنه بأن يشهد له بالنبوة فأبى حيث كان يقول له " أتشهد أني رسول الله؟ " فيأبى ، فيقطع منه عضوا ، ثم يعيد عليه السؤال ، فيأبى كذلك فيقطع منه عضوا آخر حتى مات من ذلك.
والوارد في الأخبار أن أخاه عبد الله بن زيد بن عاصم هو الذي قتل مسيلمة في يوم وقعة اليمامة المشهورة. مع ما ورد من الأخبار بأن القاتل لمسيلمة هو وحشي بن حرب* ، قاتل حمزة ، كما ورد أن قاتله هو أبو دجانة الصحابي المعروف ، وجمع بين هذه الروايات بأن الثلاثة اشتركوا في قتل الدجال المذكور. وبنو سلمة: بفتح السين المهملة وكسر اللام ، فرع من قبيلة الخزرج أيضاً.

(2) الشعب: بكسر الشين المعجمة وإسكان العين المهملة آخره باء موحدة يطلق على المسلك بين الجبال أو المرتفعات وقد جاء في الروايات تحديد المكان الذي وقعت فيه البيعة بأنه الشعب من العقبة.

عينًا[1] للحراسة ، وأمّا أبو بكر فقد رأى أن يقوم على مدخل الطريق عينًا كذلك.

و جاء في الروايات أنّ العبّاس لم يكن إذ ذاك موسومًا بالإسلام بل كان تظاهره بالدّين الذي عليه قريش ومع ذلك فقد تقدم ليلي شأن المعاهدة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين فريق الأنصار ، ويشهد إبرام هذا العقد بدافع ولاية القربى للرسول صلى الله عليه وسلم ، وشارك في المداولة لإبرام هذه المبايعة بصفته ممثلا لجانب الرسول صلى الله عليه وسلم.

و أجمعت الروايات هنا على أنّ العبّاس كان هو أول من أخذ الكلمة في ابتداء المداولة وافتتاح المفاوضة بين الطرفين.

فجاء من مقال العبّاس عندما افتتح المفاوضة أن قال: " يا معشر الخزرج إنّ محمدًا منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده وقد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك! وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنّه في عزّ ومنعة من قومه وبلده. " وهنا تكلم البرّاء بن معرور فقال: " أنا - والله- لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

و في رواية أن العبّاس قال: " قد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة فأروا رأيكم وائتمروا بينكم ولا تفرقوا إلاّ عن ملإ منكم واجتماع فإنّ أحسن الحديث أصدقه". وبعد كلمة العبّاس هذه قام

---

(1) عين: لفظ العين بفتح العين المهملة وإسكان الياء المثناة التحتية وآخره نون ، له إطلاقات عديدة ومنها المراد هنا وهو المراقب للأخبار والحارس كالجاسوس.

من تكلم بلسان الأنصار (و ربما كان المتكلم هنا جمعًا منهم) فقالوا للعبّاس: "قد سمعنا مقالتك فتكلم أنت يا رسول الله! فخذ لنفسك ولربّك ما أحببت!" (و في لفظ) " فخذ لنفسك ما شئت واشترط لربّك ما شئت". فتكلم الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: " أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم".

فتكلم عبد الله بن رواحة[1] فقال: " فما لنا يا رسول الله -إذا فعلنا؟ "... فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " لكم الجنة!!!" فقالوا جميعًا بصوت واحد: " ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل!"[2].

و جاء في رواية أخرى (أنه عندما طلب الأنصار الكلمة منه عليه الصلاة والسلام قال بعدما أثنى على الله تلا آيات من القرآن ووعظ ورغب في الإسلام)" أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم". (و في رواية أخرى) لما قالوا له " نبايعك " قال: " أن تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله! لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة!" وهنا أخذ البرّاء بن معرور بيد الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: " نعم! والذي بعثك بالحق لنمنعنّك

(1) عبد الله بن رواحة: بفتح الراء ثم واو مفتوحة بالمد والتخفيف ثم حاء مهملة ، من فرقة بني الحرث من الخزرج وهو شاعر كان ثالث الشعراء الثلاثة من الصحابة والثاني كعب بن مالك والثالث وهو أشهرهم حسان بن ثابت*. وعبد الله هذا من فضلاء الصحابة وشهد كل المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سنة ثمان من الهجرة فتوجه في سرية إلى بلاد الروم فاستشهد فيها ، وهو قائد السرية بعد استشهاد القائدين قبله زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ، وهي السرية المعروفة بمؤتة.

(2) الإقالة: بوزن الإرادة - معناه "فسخ البيع" "و الاستقالة" هي طلب الفسخ المذكور ، فالمعنى من الكلام هنا أنهم لا يقبلون الفسخ ممن طلبه ولا يطلبونه.

مما نمنع منه أُزُرنا[1] فبايعنا يا رسول الله فنحن - والله - أصحاب الحروب وأهل الحلقة[2] ورثناها كابرا عن كابر[3]".

وتدخل في الكلام أبو الهيثم بن التيهان فقال: " نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف ".

وهنا تكلم العباس بن عبد المطلب معترضا كلام القوم قائلا لهم: " أَخْفُوا جرسكم[4] فإن علينا عيونا..!"[5]

و واصل أبو الهيثم كلامه فخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له: " يا رسول الله إن بيننا وبين رجال حيالا وإنا قاطعوها (يشير بهذا إلى ما بين الأنصار وبين اليهود من معاهدات وحلف كان سبق قبل اليوم عقدها فيتعين اليوم فسخها) فيسأل الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر فيقول له: " فهل عسيتَ[6] إن نحن فعلنا ذلك (أي الفسخ) ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا ؟ " فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال جوابا لأبي الهيثم: " بل الدّم الدّم ، والهدم الهدم[7] (هذه الكلمات الأربع

---

(1) أُزُرنا: بضم الهمزة وضم الزاي بعدها راء جمع "أزار" وهو الثوب المعروف ، وذكر هنا أن هذا كناية يراد بها الحريم من النساء لأن العرب تكني " الأزار" عن المرأة ، كما أن اللفظ يدل أيضا على النفس وهو أيضا مما يجري في كلام العرب يطلق الأزار ويراد به نفس الشخص.

(2) الحلقة: بكسر الحاء المهملة واسكان اللاّم بعدها قاف ويطلق هذا اللفظ على " السلاح وآلات الحرب".

(3) عبارة كابرا عن كابر: يراد منها عراقة الشيء الموروث في سالف الزمان البالغ الغاية في القدم ، فقد جاء تعريف الكابر بأنه "الجدّ الأعلى" كما جاء أنه الشريف في النسب.

(4) الجرس: بفتح الجيم واسكان الراء آخره سين مهملة ويقال بكسر الجيم أيضا ، معناه " الصوت " أما الآلة التي يضرب بها للإعلام والتنبيه فهو بالفتح في كل من الجيم والراء.

(5) عيونا: جمع عين ، أي جواسيس.

(6) عسيت: هو فعل عسى المعروف تكسر فيه السين إذا أسند للضمير كما هو هنا ، ويستعمل بفتحها أيضا ومعلوم أنه موضوع للأطماع والترجي وللتوقع والتخوف مما سيقع ، وهو هنا للتوقع والتخوف فالمعنى الأساسي المراد من كلام أبي الهيثم هو السؤال عما إذا كان يتوقع من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرجع إلى بلده ويترك الأنصار إذا ما استغنى عن نصرتهم وظهر على أعدائه كما وقع ذلك بفتح مكة حيث انهارت القوة المعادية له.

(7) الهدم: بفتح الهاء وإسكان الدال المهملة آخره ميم وبفتح الدال أيضا.

هي نص جواب الرسول صلى الله عليه وسلم على سؤال أبي الهيثم ، اجتمعت عليها الروايات في هذا الموضوع كما هي عليه من وجازة اللفظ وشمول المعنى في أعلى ذروة من البلاغة).

وجاء في تفسير هذه الألفاظ عدة وجوه من العبارات المختلفة من حيث اللفظ وأداء المعنى فمن ذلك في لفظ " الدم ": " دمي دمكم ودمكم دمي " وفي لفظ الهدم (على أنه بفتح الهاء وإسكان الدال المهملة وآخره ميم) أن معناه "إهدار دم القتيل وترك المطالبة بثأره ، فالمراد من الحديث "إن طلب دمكم ولم يهدم فقد طلب دمي كذلك ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي كذلك ".

(و على أن الهَدَم بفتح الدال) ومعناه القبر ، ومعناه أيضا المنزل والمكان المستقر به. فالمراد من الحديث: " أُقْبَر حيث تُقْبَرُون ، وأستقر وأنزل حيث تنزلون وحيث تستقرون". وجاء من التفسير للألفاظ المذكورة على سبيل إطلاق المعنى الإجمالي ، عبارات " أنا منكم ، وأنتم مني والمحيا محياكم والممات مماتكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، ذمَّتي ذمتكم ".

و قد جاء في بعض الروايات مما يتعلق بالألفاظ المذكورة لفظ " اللَّدَم " بفتح اللام وفتح الدال المهملة آخره ميم ، عوضا عن لفظ " الهدم " بالهاء وفسر " اللَّدم " " بالحرم " بفتح الحاء والراء بمعنى الشيء المحترم وخصص هنا بقرابة ". كما ذكر أن من الألفاظ الجارية عند العرب في تأكيد الميثاق قولهم: " اللَّدَمَ، اللَّدَمَ!"* إعتبارا لحرمة الأمر. وعلى هذا فيكون معنى الحديث: " حرمي ، حرمكم ، وقرابتي قرابتكم " ، إلى غير هذا مما يدخل في معنى الصلة والاتحاد والالتحام والارتباط ... إلخ...

هذا ويؤخذ مما جاء في معاجم اللغة أن لفظ " الهدم " بالهاء بمعنى هدر الدم وإضاعته " يستعمل بفتح الدال وبإسكانها وأن أصل هذه العبارة في الجمع بين لفظ " الدم " ولفظ " الهدم " مستعمل ومعروف في كلام العرب لتوثيق العهد بين الجانبين المتعاهدين ، ويقول الواحد منهما

للآخر: " دمي دمك ، وهدمي هدمك".

و جاء من روايات حديث البيعة هذا أنه عندما تهيأ الجمع من الأنصار رضي الله عنهم لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم تقدم قبل ذلك أبو أمامة أسعد بن زرارة وهو أصغر القوم سنا (أو هو من أصغرهم سنا) فأخذ بيد الرسول صلى الله عليه وسلم بتناول الكلام قصد المزيد من شد العقدة فقال: " رويدًا يا أهل يثرب أنا لن نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم (أي من موطنه بمكة إلى موطنهم بالمدينة) مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم وأن تعطكم[1] السيوف فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خياركم ومفارق العرب كافة (لكم) فخذوه وأجركم على الله. وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله (عزّ وجلّ).

فأجاب الجمع من الأنصار أبا أمامة على كلامه هذا بأن قالوا له: " يا أسعد أَمِطْ عنا يدك! فو الله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها".

و جاء في رواية أخرى أن ممن تكلم من الأنصار في هذا المجلس للزيادة بالتأكيد في شدة عقد البيعة عباس بن عبادة بن نضلة من بني سالم بن عوف الخزرجي. فجاء[2] من نص كلمته قوله: " يا معشر الخزرج

---

(1) تعطكم السيوف: أورده في السيرة الحلبية ولم يعلق على لفظ "تعطكم" بضبطه ولا ببيان معناه ، وهو على كل حال فعل مضارع وأقرب ما يتراءى من المعنى فيه على أن الفعل مسند إلى " السيوف " وهي فاعله أنه فعل " عطا " ماضيا " يعطو" مضارعا ومصدره " العطو " بفتح العين المهملة وإسكان الطاء المهملة وآخره واو كلفظ "عدا. يعدو - عدوا " وهو متعد للمفعول يقال "عطاه يعطوه" ومعناه تناول الشيء ، فيكون المعنى على هذا: " وأن تتناولكم ، أو تنالكم السيوف " فيضبط الفعل بفتح التاء وإسكان العين وضم الطاء مجرورا بحذف آخره وهو الواو ، ثم كان العثور على رسم هذا الفعل في نسخة من كتاب " فقه السيرة " للأستاذ محمد الغزالي* المصري على صورة " تعضكم " بالضاد المعجمة من العض وهو تناول الشيء بالأسنان.

(2) تفيد المصادر التي أوردت نص كلام هؤلاء الصحابة الأنصار فيما يخص تأكيد عهد البيعة أن هذا التفسير للكلام المذكور بأنه مقصود به مزيد التوثق للعهد هو من جملة النقل عن رواة الخبر حيث يقول الراوي منهم ما تكلم عباس بن نضلة بهذا إلا ليشد العقدة في أعناق الصحابة الأنصار ، إلا أنه جاء في بعض المصادر ما يفيد النقل عن راوي حديث عباس هذا بأن مراد عباس

هل تدرون على مَ تبايعون هذا الرجل ؟ ".

قالوا: " نعم!" - فقال: " إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود[1] من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن!! فهو - والله - إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على ما ذكرت لكم فهو - والله - خير الدنيا والآخرة ".

وأجاب الجمع من الأنصار على كلام عباس بن نضلة فقالوا: " فإنا نأخذه على ما قلت ، فما لنا بذلك يا رسول الله - إن نحن وفينا ؟ ". فقال صلى الله عليه وسلم: " رضوان الله والجنة!" فقالوا: "أبسط يدك نبايعك!" فبايعوه.

وعندما انتهت المفاوضة إلى عملية المبايعة تكلم العباس بن عبد المطلب يخاطب الأنصار فقال: " عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم لَتَجِدُنَّ في نصرته ولَتَشْهَدُنَّ من أزره ".

فقالوا جميعا (بصوت واحد): " نعم ". فقال: - "اللهم إنك سامع شاهد أن ابن أخي قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه اللّهم كن لابن أخي عليهم شهيدا ".

بما تكلم إنما هو تأخير عملية المبايعة إلى وقت يحضر فيه عبد الله بن أبيّ بن سلول ، أبرز زعيم في الخزرج ليكون التوثق أقوى. وظاهر من هذا النقل عدم ملاءمته للسياق لأن الزعيم المذكور لم يكن مسلما في هذا الوقت.

(1) الأحمر: مراد به العجم والأسود مراد به العرب ، وجاء من التعليق على هذا بأن المراد بالحرب حرب الدفاع ضد من بدأ بالحرب فهذا هو الأمر الذي وقعت عليه المبايعة.

الدرس 53

عَمليّة المُبايَعة وتَعيينُ النُّقَباء

الوارد في مجمل روايات هذا الباب أنه عقب كلمات من تكلم من الأنصار لتأكيد العهد وشد الميثاق التفت الجمع إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فخاطبوه يقولون: " ما لنا بذلك يا رسول الله - إذا نحن وفينا ؟ "فقال عليه الصلاة والسلام: " رضوان الله والجنة!" فقالوا بصوت واحد: "رضينا! أبسط يدك نبايعك" فبسط الرسول صلى الله عليه وسلم يده فبايعوه(بالمصافحة المعهودة) فبايعه الرجال أولا ثم بايعته المرأتان الحاضرتان. وقد عرف من الأخبار أن بيعة النساء له صلى الله عليه وسلم لا تكون بعملية المصافحة ، وإنما بالتوثق اللفظي بأخذ العهد. فإذا تم ذلك قال لهن: " قد بايعتكنَّ!" فبايعه الثلاثة والسبعون من الرجال ثم المرأتان.

واختلفت الروايات في أول من بايعه صلى الله عليه وسلم واشتهر من هذا ثلاثة أقوال لثلاثة من الأنصار ، فقيل أولهم " أسعد بن زرارة " ، وقيل: " البرّاء بن معرور" (وهما من الخزرج) وقيل أبو الهيثم بن التيهان (و هو من الأوس) ومما جاء من النقل عن ابن إسحاق (الإمام في علم السيرة) قوله: " فبنو النجار(بطن من الخزرج) يقولون أول من ضرب على يد الرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو أمامة أسعد بن زرارة. وبنو عبد الأشهل (بطن من الأوس) يقولون أول من ضرب على يد الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو أبو الهيثم بن التيهان. ويقابل هذا الرواية الواردة عن كعب بن مالك التي يقول فيها: " أول من بايع الرسول صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور" (وهو من الخزرج) ، ورواية كعب هذه أخذ بها الكثير ممن كتب في السيرة[1] .

---

(1) وعلى كل حال فالاتفاق حاصل على أن هؤلاء الثلاثة هم أول المبايعين من الجمع الحاضر..

ومما جاء من الأخبار في هذه البيعة العبارات التي نطق بها كل فرد من المبايعين عندما بايع ، فمن ذلك عبارة أبي الهيثم بن التيهان إذ قال: "أبايعك يارسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر نقيبا من بني إسراءيل موسى عليه الصلاة والسلام ".

وقال عبد الله بن رواحة: " أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى عليه الصلاة والسلام ".

وقال أسعد بن زرارة: أبايع الله فأبايعك على أن أتم عهدي بوفائي وأصدق قولي بفعلي في نصرتك ".

وقال النعمان [1] بن حارثة: " أبايع الله وأبايعك على الأقدام في أمر الله ولا أرأف فيه القريب ولا البعيد ". وقال عبادة بن الصامت: " أبايعك على أن لا تأخذني في الله لومة لائم ".

وقال سعد [2] بن الربيع: " أبايع الله وأبايعك على أن لا أعصي لكما أمرا ولا أكذبكما حديثا".

والظاهر من صنيع الكثير ممن كتب في السيرة أن عملية تنقيب النقباء كانت بعد تمام عملية المبايعة.

فقام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الاجراء التنظيمي للمجتمع الإسلامي من الأنصار وقد برز به هيكل الشوكة للدولة الإسلامية لأول مرة

---

(1) النعمان بن حارثة: هكذا ذكر في هذا الموضع من مجلس البيعة في كلّ من نسختي السيرة الحلبية لنور الدين الحلبي والسيرة النبوية لدحلان. وفي نفس الموضوع ذكر - بعد بضعة سطور حارثة بن النعمان* وأنه رأى الشخص الغريب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنه جبريل فهل هما اثنان ؟ ... أو هو واحد ؟ وإنما وقع القلب من النساخ بين اسمي الابن والأب ؟ والذي ذكره الكثير من المؤلفين في وقائع السيرة هو حارثة بن النعمان ، وأنه من فرقة بني مالك بن النجار من قبيلة الخزرج وممن أسلم في أول إسلام الأنصار وممن حضر غزوة بدر.

(2) سعد بن الربيع: بفتح الراء وكسر الباء الموحدة التحتية آخره عين مهملة ، من بني الحرث يرجع إلى الخزرج ، وقصته مشهورة في الوفاء والبذل حينما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ، واستشهد سعد هذا بغزوة أحد.

في تاريخها. فورد في هذا أنّه عليه الصلاة والسلام قال للأنصار: " أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم (وفي لفظ) يكونون على الناس بما فيهم ".

- (وفي رواية أخرى) قال: " أن موسى عليه الصلاة والسلام أخذ من بني إسراءيل اثني عشر نقيبا فلا يحدث أحد في نفسه (أي فلا يجد أحد منكم في نفسه الحرج) أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لي جبريل (الوارد أن جبريل عليه السلام حضر مجلس البيعة هذا)[1] . وجاء أن الأنصار رضي الله عنهم أخرجوا من بينهم لوظيفة النقابة هذه تسعة من قبيلة الخزرج وثلاثة من قبيلة الأوس. وتولى الرسول صلى الله عليه وسلم تعيين الأشخاص الاثني عشر. فكان أبو أمامة أسعد بن زرارة النقيب على بطن بني النجار من الخزرج. وسعد بن الربيع على بني الحارث من الخزرج.

- وعبد الله بن رواحة على بني الحارث أيضا من الخزرج.
- ورافع بن مالك بن العجلان على بني زريق من الخزرج.
- والبراء بن معرور على بني سلمة من الخزرج.
- وأبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام على بني سلمة أيضا.
- وعبادة بن الصامت على القبائل ومنهم بنو عديّ من النجار.
- وسعد بن عبادة[2] على **بني ساعدة*** من الخزرج.

---

(1) أوردوا هنا رواية عن حارثة بن النعمان* أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم - بعد إتمام عملية المبايعة وتنقيب النقباء-: " يارسول الله قد رأيت بجانبك رجلا عليه ثياب بيض أنكرته " ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " أو قد رأيته ؟ " ، قال: " نعم! " ، قال صلى الله عليه وسلم: " هو جبريل " وحارثة بن النعمان معروف في الصحابة كما تقدم قريبا في التعليق.

(2) سعد بن عبادة: بضم العين المهملة ثم باء موحدة تحتية مخففة بالفتح والمدّ ودال مهملة. وهو من أبرز شخصيات الصحابة وصاحب السيادة في قبيلة الخزرج مقامه في الفضل معروف. قيل أنه توفي سنة خمسة عشرة هجرية في خلافة عمر بن الخطاب وهو إذ ذاك يسكن أرض الشام. وذكر في وفاته وسببها ما يعدّ غموضا.....

- والمنذر[1] بن عمرو على بني ساعدة أيضا.
ومن قبيلة الأوس: -
- أبو الهيثم بن التيهان[2] على بطن بني عبد الأشهل.
- وأسيد بن حضير على بني عبد الأشهل أيضا.
- وسعد بن خَيْثَمَة[3] على بني عمرو بن عوف*. وتفيد إحدى الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما عين هؤلاء النقباء على قومهم عيَّنَ أسعد بن زرارة نقيبا على النقباء المذكورين. كما أفادت جميع الروايات أنه لما تم تعيين النقباء خاطبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: " أنتم كفلاء على قومكم كفالة الحواريين لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وأنا كفيل على قومي " (و يعنى بقومه فريق المهاجرين).

و جاء فيما جاء من روايات مجلس البيعة هذا أنه بعد تمام المبايعة تكلم حارثة بن النعمان مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال له: " يا رسول الله لقد رأيت بجانبك رجلا عليه ثبات بيض فأنكرته ".

---

(1) المنذر: بضم الميم وإسكان النون وكسر الذال المعجمة آخره راء: ابن عمرو بفتح العين وسكون الميم ورسمه البعض بضم العين وفتح الميم وهو خزرجي معدود من حاضري غزوة بدر، فهو في الأنصار من ذوي السابقية.

(2) النقباء من قبيلة الأوس الثلاثة هم هؤلاء: أبو الهيثم، أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة.
هذا هو المشتهر المأخوذ به من طرف المحققين، ويوجد في الروايات ما يفيد إبدال أبي الهيثم بأبي لبابة رفاعة بن عبد المنذر على أن هذا هو النقيب على بني عمرو بن عوف* من الأوس - وأبو لبابة* بضم اللام وتخفيف الباء الموحدة السفلية ثم باء ثانية ورفاعة بكسر الراء وتخفيف الفاء ثم العين المهملة وهو معروف في الصحابة وله قصة تشبه قصة كعب بن مالك حيث ربط نفسه بسارية المسجد وبقي أياما لا يطعم ولا ينام حتى تاب الله عليه وتولى الرسول صلى الله عليه وسلم حل وثاقه، و هو أوسي من فرقة بني أمية بن زيد.

(3) سعد بن خيثمة: بفتح الخاء المعجمة وإسكان الياء المثناة التحتية وفتح المثلثة ثم الميم، ويبدو أن هذا الضبط في اسمه هو الصواب، ولكن يوجد في مصادر أخرى " سعد بن أبي الخيثمة " وذلك اسم أبيه اشتهر بخيثمة دون زيادة لفظ الأب (أبي) وسعد هذا من سابقي الأنصار في الإسلام وبمحلتهم " عمرو بن عوف " من الأوس نزل الرسول صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة.
وذكر أن الصحيح في وفاة سعد هذا أنه شهيد غزوة بدر من بين شهدائها الأربعة عشر، وأن والده خيثمة بن الحارث* بن مالك شهيد غزوة أحد المشهورة.

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " أوَ قَدْ رَأيْتَه ؟ "

قال: " نعم!" فقال صلى الله عليه وسلم: " إنّه جبريل ".

كذلك[1] مما جاء من روايات هذا المجلس أنه بعد تمام عملية المبايعة والمجلس لما ينفض بعد ، فإذا بصرخة بأعلى صوت وأبعده تسمع من رأس الجبل يقولها: " يا أهل الجباجب[2] (و في لفظ) يا أهل الأخاشب[3] هل لكم في مُذَمَّم[4] والصُّباة[5] معه فإنهم قد أجمعوا على حربكم ؟ ".

فتكلّم الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: " هذا إِزْبُ العقبة[6]!" ثم قال: " أسمع عدُو الله أما والله لأفرغَنَّ لك " ، ثم قال للجماعة: " انفضوا إلى رحالكم ".

---

(1) و أول ما يلاحظ على رواية الصرخة الشيطانية هذه أن في مؤلفي السيرة من أغفلها فلم يتعرض لها بالمرة.

(2) الجباجب: بجيمين موحدتين سفليتين ، صيغة جمع ، وفسر اللفظ من تعرض لذكر الرواية بأن الجباجب هي المنازل أي منازل منىً. ولكن الذي جاء في كتب اللغة في معنى هذه المادة يفيد عن " الجباجب " بأنها جمع " جبجبة " وهي وعاء يتخذ من الجلد كبير شبه " الزنبيل " والخُرْج" أو هي " الطبول " " أو هي النوق الضخمة " إلخ...

(3) الأخاشب: لم يعلق عليها بالمرة ، واللفظ صيغة جمع " أخشب " بخاء معجمة وشين معجمة آخره باء موحدة سفلية ، والأخشب يطلق على " الجبل الشامخ " والمادة مرجع المعنى فيها إلى الغلظ واليبوسة ونحو ذلك.

(4) لفظ مذمم: هو تحريف للفظ " محمد " بالضد استعملها أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم زمان المقاومة للدعوة الإسلامية ، وكذلك.

(5) الصباة: بضم الصاد المهملة جمع " صابئ " بمعنى " الخارج عن دينه إلى دين آخر ، استعملها القوم أيضا لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ممن يعتنق الإسلام بعد أن كان مشركا.

(6) إزب العقبة (تركيب إضافي) العقبة الموضع المعروف بمنىً ، وجاء ضبط الإزب بكسر الهمزة وإسكان الزاي وآخره باء موحدة سفلية ، وجاء في معنى اللفظ أنه "شيطان العقبة" وفي اللغة يطلق الإزب على القصير من الأشخاص " فهو بمعنى " القزم "* بفتح القاف والزاي آخره ميم. كما أن كلا من الإزب والقزم يطلق على اللئيم من العباد" ، كما جاء هنا ضبط الأزبّ بفتح الهمزة والزاي مع تشديد الباء آخره ، وعلى هذا فهو وصف لأن الأَزَبّ هو الشخص صاحب الشعر الكثير المتزايد بوجهه مأخوذ من الزبب بفتحتين وهو كثرة شعر الوجه ، وتمام الحديث في هذه الرواية تضمن التهديد والتوعد من الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك الشيطان الصارخ.

وجاء فيما يتعلق بهذا الحادث[1] رواية بصيغة أخرى مفادها أنه بعد تمام البيعة سمع الجماعة صرخة عظيمة على رأس الجبل يقول فيها قائلها: " يا معشر قريش هذه الأوس والخزرج تحالف على قتالكم!" - ففزع الجماعة لهذا الحادث فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا يروعنكم هذا الصوت فإنما هو عدوّ الله إبليس وليس يسمعه أحد مما تخافون ".

وجاء هنا أيضا أنه عند هذا قال العباس[2] بن عبادة بن نضلة للرسول صلى الله عليه وسلم: " والذي بعثك بالحق نبيًّا لئن شئتَ لنميلَنَّ بأسيافنا غدا على منى!" فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: " لم أُومر بهذا ، لكن ارجعوا إلى رحالكم ".

وأفادت الروايات أنه بعد هذا رجع الجمع من الأنصار إلى رحالهم حيث أتمو باقي الليل بها.

والذي جاء في الروايات بوجه الجملة فيما يتعلق بتطرق الخبر في حادث البيعة إلى مسامع الملإ من قريش جاء بصيغة أن الحديث بعد ذلك نما[3] حتى بلغ مسامع القوم من قريش (و هذه الصيغة ليس فيها دلالة على

---

(1) ألجأ التغاير بين روايتي صرخة الشيطان هذه من أوردهما إلى البحث فيما يقع به الجمع بين الروايتين فقالوا - من ذلك- أن لفظ إبليس هنا يراد به " أزب العقبة " المذكور أولا على أن لفظ إبليس جنسي فيكون المعنى أنه إبليس من الأبالسة.

(2) تذكر مقالة عباس بن نضلة هذه بما تقدم أول الباب عن ميزة المضاء والروح البدارية التي تميز بها شعب الأنصار رضي الله عنهم وعن جميع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.

(3) يستعمل فعل " نما " بالألف فيكون واويًّا ويستعمل بالياء نمى فيكون يائيًا ، والأول مضارعه ينمو ومصدره النمو بضمتين وتشديد آخره ، والثاني مضارعه ينمي بكسر الميم ومصدره النمي على رمى ، يرمي والمصدر الرمْيُ ، وله مصدر " النماء " بفتح النون ومدّ الميم آخره همزة. - والجميع معناه " الزيادة والانتشار " إلا أنه يظهر في الأول كثرة استعماله في الذوات المادية مثل: " نما الزرع " والجسم ونحو ذلك. وهو فعل قاصر لا يتعدى إلى المفعول - وأما اليائي " نما- ينمي- نماء " فهو من المتعدي للمفعول ، فيقال " نمى الخبر والحديث إلى كذا..." ونمى فلان الحديث " ينميه بمعنى بلغه وأوصله إلى الغير ومن هذا جاء لفظ " النميمة " وهي نقل الحديث للإفساد في العلائق المعنوية بين الجانبين.

أن الخبر بلغ بواسطة الصرخة المشار إليها سابقا...)، وعليه فالمتبادر للفهم عن بلوغ الخبر إلى مسامع قريش إنما كان على مجرى العادة في تسرب الأخبار ولو أحيطت بالتكتم غير أنه توجد رواية تفيد بأن صوت الصارخ المذكور سمعه اثنان من زعماء قريش وهما أبو جهل[1] بن هشام **وعمرو بن العاص** * فراعهما الأمر، وتفيد هذه الرواية المسندة إلى عمرو بن العاص بأن الصوت كان بالنغمة المعروفة لمنبه بن الحجاج[2] وهو معروف في العصبة المناوئة للدعوة الإسلامية وأحد أفرادها البارزين. يقول عمرو بن العاص: " فذهبنا إلى عتبة بن ربيعة فأبلغناه الأمر، فلم يحفل به ولم يرعه ماراعنا وقال لنا " هل أتاكم منبه بن الحجاج وتلقيتم منه الحديث؟ "، فقلنا " لا!" (وقد علق ناقلو هذه الرواية الواردة عن عمرو بن العاص على ما فيها من الحديث بأنه حديث طويل جدا وفيه الغرابة وأضربوا عن ذكر ما تضمنته من باقي الحديث).

والذي تفيده الجملة من روايات حديث البيعة أنه لما أصبح الصباح من تلك الليلة مضى الزعماء من قريش إلى منازل الأنصار واقتحموا عليهم منازلهم يحتجون ويلومونهم في شأن ما تطرق إليهم من خبر البيعة.

وفي هذا جاءت الرواية عن كعب بن مالك يقول (بعدما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الجماعة بالإيواء إلى رحالهم)، "فرجعنا إلى منازلنا

---

(1) أبو جهل: هو عمرو بن هشام المعروف عند قومه بأبي الحكم ودعي بأبي جهل عند المسلمين لما كان عليه من العداء والعناد نحو الإسلام، وهو ممن قتل بغزوة بدر، كما سيأتي ذكره... وأما عمرو بن العاص* فهو من قبيلة بني سهم القرشية، وشخصيته من أبرز الشخصيات سواء في الجاهلية أو بعد إسلامه لأنه أعلن إسلامه مع نفر آخرين كانوا ذوي فكر ونباهة، وذلك في الفترة ما بين صلح الحديبية وفتح مكة أي ما بين سنتي ست وثمان من الهجرة. واشتهر عمرو بن العاص بتفوق عظيم في مجال السياسة وتدبير الشؤن العامة، وهو الذي فتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب وتولى إمارتها حتى توفي بها في سنة ثلاث وأربعين للهجرة.

(2) منبه بن الحجاج: هو أيضا من قبيلة بني سهم القرشية وهلك على عقيدة الشرك كأخيه نبيه بن الحجاج.

وأخذنا مضاجعنا فنمنا عليها فلما أصبحنا غدت علينا جلة[1] قريش حتى جاءونا في منزلنا فقالوا يا معشر الخزرج[2] إنه بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستحرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وأنه - والله - ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تشب[3] الحرب بيننا وبينهم منكم... إلخ!".

يقول كعب "فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون لهم الأيمان ما كان من هذا شيء وما علمنا شيئا من هذا الأمر" يقول كعب: " (عن قومه) وقد صدقوا فهم لا يعلموه ".

وجاء في رواية أخرى أنه لما جاء القوم من قريش إلى عبد الله بن أُبَيّ بن سلول يكلمونه في هذا الحدث وهو الرجل الذي كان يتراءى له أنه الزعيم الأوحد على كامل شعب الأنصار - قال لهم: " إن هذا الأمر لجسيم وما كان قومي ليتفوتوا[4] عليّ (و في لفظ: وما كان قومي ليفتاتوا[1] عليّ)

---

(1) جلة القوم: بكسر الجيم وتشديد اللام بمعنى واحد مع لفظ " الأَجِلَة " الذي هو صيغة جمع " جليل " مثل الأعزة. والمعنى في الجلة أنهم الكبراء والعظماء في القوم.

(2) لفظ الخزرج: هنا لا يفيد تخصيص القبيلة وأخراج الأوس. بل هو جار على الاستعمال الغالب بتغليب لفظ الخزرج مع إفادة الجمع بين الأوس والخزرج معا كما تقدم بيانه سابقا.

(3) تشب الحرب: هكذا رسم في بعض النسخ بالشين المعجمة مع الباء الموحدة السفلية مشددة ، والفعل هنا مفتوح في الماضي مضموم في المضارع ومصدره " الشبُّ " بالفتح " والشبوب " بالضم ومن معناه الزيادة والارتفاع وكثيرا ما يستعمل هذا الفعل مسندا إلى النار فيقال " شبت النار " و" شب الحريق " إلخ... وجاء في بعض النسخ رسمه بالنون ثم الشين والباء " تنشب الحرب " والفعل منه مكسور في الماضي ، مفتوح في المضارع " نشب " ، " ينشب " ومصدره " النُشوب " بالضم والوارد في كتب اللغة عن معنى اللفظ أنه في الأصل يرجع إلى تعلق الشيء بالشيء وإشباكهما من حيث لا تناسب بينهما ، فإسناد النشوب إلى الحرب ملاحظ فيه اشتباك الطرفين فيما بينهما بالقتال.

(4) ليتفوتوا: هكذا رسم في بعض النسخ بتشديد الواو من التفوت وهو من باب التفعُّل كلفظ التقدُّم: " وهو بمعنى " التغلب " على الأمر وأخذه دون صاحبه يقال من هذا " تفوّت عليه في كذا " بمعنى تغلب عليه وتفرد به وفوّته على صاحبه" - ورسم في نسخ أخرى بصيغة:

بمثل هذا ".

و أكد لهم بأن الخبر باطل ولو كان له نصيب من الصحة لعلمه !.

و تفيد الروايات أنه بعد ارتحال الأنصار من منى بإتمام أعمال الحج تعاطى الملأ من قريش البحث في خبر البيعة فتحقق لديهم وقوعه وإذ ذاك جهزوا منهم ركبا لاقتفاء آثار الأنصار ليلحقوا بهم في الطريق فلم يلحقوا إلا باثنين منهم وهما سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، فأفلت منهم المنذر وأعياهم اللحاق به ، وتمكنوا من سعد بن عبادة ، فأوثقوه ورجعوا به إلى مكة وتناولوه بالإهانة فكانوا يلطمونه ويجذبونه بجمته [2] لأنه كان كثير الشعر ، فأقام مدة في الاعتقال حتى أشار عليه البعض بأن يطلب الجوار ممن يجيره فطلب الجوار من رجلين منهم وهما الحرث [3] بن حرب بن أمية أخو أبي سفيان [4] الزعيم المعروف والثاني جبير [5] بن مطعم بن عديّ ، فأجاراه وخلصاه من الاعتقال وذلك لأنه كان له عليهما يد عندما يقدمان المدينة للتجارة بها(وهذا هو ما جاء في رواية اشتهرت).

---

(1) ليفتاتوا: وهو من باب الافتعال لفعل " فات " يقال " افتات " " يفتات " ومصدره " الافتيات " ومعناه " السبق إلى الشيء " من غير مراعاة ولا استشارة لمن هو أحق به ، يقال: أفتات فلان على فلان" في مثل الكلام أو التصرف فيما هو من شأن المفتات عليه ، فكأن الافتيات بمعنى الاستبداد. والمعنى في كل من لفظي التفوّت والافتيات متقارب جدا كما هو ظاهر.

(2) الجُمة: بضم الميم وجمعها " جُمَم " بضم ففتح وهي مجتمع شعر الرأس.

(3) الحرث بن حرب: أورد بعض مؤلفي السيرة بأن الحرث هذا لم يعرف عنه بأنه أسلم فيمن أسلم من عامة مشركي قريش.

(4) و أما أخوه أبو سفيان فهو معروف بشخصيته البارزة في زعامة قريش قبل إسلامه. وقد أسلم يوم فتح مكة ، وخبره معروف وعاش إلى أن حضر بعض الفتوحات الإسلامية بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

(5) وجبير بن مطعم: تقدم شيء من ترجمته في الدرس الواحد والثلاثين عند ذكر عقد زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين عائشة. فهو ممن أسلم وحسن إسلامه قيل في فترة صلح الحديبية ، وقيل في أوان فتح مكة.

وتوجد بجانبها رواية أخرى تفيد أن كلاً من المنذر بن عمرو وعباس بن عبادة بن نضلة وهما من قبيلة الخزرج ممن بايع الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، كانا قد تخلفا عن ركب الأنصار الذي قفل راجعا إلى المدينة بعد الحج لبعض شئونهما الخاصة فألقي عليهما القبض من طرف زعماء قريش بعد تحقيق خبر البيعة ، وعجز حملة قريش عن اللحاق بركب الأنصار ثم قام من قريش الحرث بن حرب وجبير بن مطعم فقدما جوارهما للمنذر وللعباس فلحقا بعد ذلك بأصحابهما إلى المدينة[1].

" ظهور الإسلام بالمدينة المنورة"

اجتمعت الروايات الإخبارية على أنه عندما حل وفد الأنصار الذي بارح مكة بعد بيعة العقبة بالمدينة المنورة ، شاع بها الإسلام بالمظهر الإجماعي العام واكتست المدينة من يومه الصبغة الإسلامية البارزة. فقد عمد زعماء الأنصار الذين كان يتركب منهم الوفد المذكور إلى التجاهر بالعقيدة الإسلامية ونشرها في الأوساط العامة من سكان المدينة ونواحيها بحيث كان هذا الظهور المسند للإسلام بالمدينة غير ما عبر عنه بظهور الإسلام بمكة المكرمة عند الجهر بالدعوة ، بل كان الظهور المدني هذا هو

---

(1) ما ذكر في حديث البيعة إلى آخر ما تعلق بها هو كل ما أوردته الروايات المشتهرة ويوجد معها ما لم يشتهر من الأخبار في الموضوع ، فمن ذلك الخبر الذي يفيد أن بعد تمام أمر البيعة عرض الأنصار على الرسول صلى الله عليه وسلم الخروج معهم في نفس الوقت إلى المدينة فأجابهم بأنه لم يؤمر بهذا (لم يؤذن له بعد في الهجرة).

ومنها الخبر الذي يذكر مداولة بين الأنصار وقريش عندما قدم هؤلاء منازل الأنصار يلومونهم في خبر البيعة ، فيذكر في هذه الرواية أن قريشا أبلغوا الأنصار فيما يتعلق بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة بأنه إن كان ولا بد وخرج فإنهم لا يقبلون بتاتا أن يخرج في الوقت الحاضر وفي موكب الأنصار ، وقالوا لهم لا نرضى أن يتحدث عنا العرب بأنكم غلبتمونا عليه ، وله أن يخرج إليكم فيما يستقبل من شهور السنة - فلم يلتزم الأنصار بقبول هذا الأمر وردوا فيه الاختيار إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن سامعون لأمره على أي حال.

ظهور الاستعلاء وليس هو ظهور البروز المكيّ. فقد كان ظهور الإسلام بمكة يتصاعد رويدا من القاعدة بينما كان ظهوره بالمدينة يتنازل مسارعا من الذروة إلى القاعدة ومن هذا يعلم أن مبدأ كيان الإسلام بما فيه المجتمع والوطن والشوكة كان من حيث الوقت في مفتتح السنة القمرية المعمول بها في التقويم عند العرب ، بل يصح أن يعتبر تاريخه بالضبط شهر المحرم أول شهور السنة.

و بناء على المعروف في حادث هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأنه صلى الله عليه وسلم حلّ بها في شهر ربيع الأول يتضح أن ظهور الإسلام من حيث هو دولة كاملة المقومات لم يتقدم في الزمن إلا بشهرين وعدة أيام على حادث الهجرة الذي اتخذ رسميًا مبدأ للتاريخ الإسلامي وسميّ بالهجري فالتسمية فيها المراعاة لعظمة حادث الهجرة والتذكير به والحساب مع ذلك مطابق بالضبط لمبدإ ظهور الإسلام من مفتتح العام.

هذا والذي جاء مأثورا من العبارات في ظهور الإسلام بالمدينة منه الصيغة التي تناقلها مؤلفو السيرة ونصها: " ولما قدم المدينة جمع الأنصار أظهروا الإسلام إظهارًا كليًا وجاهروا به ".

و علق البعض من مؤلفي السيرة على هذا بأنه لا منافاة بينه وما تقدمه من كون الإسلام فشا في المدينة قبل هذا الأوان. فالمفهوم من هذا التعليق يتلخص في الفرق بين الظهور الأول والأخير.

فالظهور الأول يعتبر بمعنى سريان الفكرة في القوم واعتناق من يعتنقها من الأفراد ، ويعتبر الظهور الأخير على المعنى الجماعي العام وكأنه بالمفهوم السياسي المعروف.

و كذلك لا منافاة بين الظهور المذكور وبين ما تقدم ذكره من تخلف بعض الطوائف والأفراد عن اعتناق الإسلام ، فقد كانت منطقة المدينة إذ

ذاك تضم طوائف من اليهود لها ذاتياتها الخاصة بها. كما يعرف ذلك مما سيأتي ذكره من عقد معاهدات بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين هذه الطوائف من اليهود أول ما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة.

و قد ألحق البعض من مؤلفي السيرة بهذا الفصل حكاية قصة **عمرو بن الجموح** * أحد سادات بني سلمة وأشرافهم من قبيلة الخزرج. فتفيد رواية من هذه القصة بأن الرجل كان في هذا الأثناء شيخًا طاعنًا في السّن متصلبًا في عقيدته الشركية، فكان له صنم يعبده ويتبرك به في منزله الخاص وهو صنم من الخشب يسمى المناة بفتح الميم لأنه كان يمنى[1] عنده الدم (تذبح له الذبائح قرابين).

و بما أن العقيدة الإسلامية قد عمت وسادت المدينة وللشباب - كما هو الشأن المعروف من طبيعة الكون - دور النشاط الحاد في الحركات الانقلابية. فقد عمد جمع من فتيان المدينة ومنهم ابن صاحب القصة نفسه وهو معاذ[2] بن عمرو بن الجموح، وسمي منهم أيضا معاذ[3] بن جبل، وكلهم من فرقة بني سلمة. فكانوا يدلجون[4] بالليل على الصنم

---

(1) وما ذكر هنا عن اسم الصنم " بالمناة " هو غير مناة ثالثة الأصنام المشهورة عند العرب بعد اللآت والعزى لأن هذه الثلاثة كانت للجماهير وأمكنتها ليست بالمدينة وإنما هي بمكة ونواحيها.
يمنىٰ: بالبناء للمجهول، والماضي منه " أمنى " على وزن " ألقى "، ومصدره الإمناء، فإذا أسند إلى الدم كما هو هنا فمعناه إراقة الدم وإسالته.

(2) معاذ بن عمرو بن الجموح: ورد عنه بأنه من السابقين إلى الإسلام في فريق الأنصار وقد تقدم في الدرس الخمسين عند التعريف بالنفر الذين كان بهم افتتاح إسلام الأنصار ذكر ما وقع في روايات الأخبار من الاشتباه والتخليط في ترجمة كل من معاذ بن عمرو هذا ومعاذ بن الحارث المعروف بابن عفراء، وكلاهما من ذوي السابقية وممن أبلى البلاء الحسن في الجهاد.

(3) ومعاذ بن جبل: مشهور الخبر بفضله في الصحابة، وأنه كان يعد من علماء الصحابة وأكثرهم فقها، ومآثره الجليلة لا تعد كثرة، وتوفي سنة ثمان عشرة في خلافة عمر بن الخطاب في طاعون الشام.

(4) يدلجون: بالدال المهملة واللام والجيم، من الفعل المزيد بالهمزة ومصدره " الإدلاج " وهو " السير بالليل " فإن الحصة من آخر الليل يطلق عليها اسم " الدلجة " بفتح الدال واللام.

المذكور ويلقون به في بعض الحفر التي تطرح فيها الأوساخ والقاذورات بأطراف المدينة ، ويهينونه بالتلويث والتنكيس.

فإذا أصبح عمرو وتفقد الصنم فلم يجده مضى إلى التفتيش عنه فيجده على تلك الحال ، فينظفه غسلا وتطييبا وينصبه مكانه. وتكررت العملية أكثر من مرة ، فلما كان في المرة الأخيرة ، غسله وطيبه ونصبه بمكانه وجاء بسيف فعلقه به ، ثم خاطب الصنم فقال له: " أنا لا أعلم من يصنع بك ما يصنع فإن كان فيك خير فامنع عن نفسك فهذا السيف معك..." فلما جاء الفتيان في الليل - كالعادة - ووجدوا السيف فأخذوه ، ثم قرنوا الصنم بكلب ميت مربوطًا بحبل وألقوا به في بئر من آبار بني سلمة تلقىٰ بها الأقذار والفضلات الآدمية.

و لما أصبح الصباح والتمس عمرو الصنم فوجده بالبئر مقرونًا بجيفة الكلب ، فتأمل المنظر وتيقظ منه هذه المرة شاهد العقل ، فتغير موقفه من عقيدته الخرافية ، وانتهزها فرصة سانحة من كان من قومه يدعوه قبل ذلك إلى الإسلام فجدّدوا له الدّعوة بهذه المناسبة فاستجاب وأعلن إسلامه إثر هذا ، وذكر أنه أنشد شعرًا يخاطب به الصنم ، منه قوله: " والله لو كنتَ إلـٰها لم تكن *أنت وكلب وسْط بئر في قرَن". وأفادت الروايات أن عمرو بن الجموح هذا بعد أن أسلم كان ممن حسن إسلامه.

الدرس 54

هجرة الصحابة رضوان الله عليهم

من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

جاء في مؤلفات السيرة تقديم هذا الفصل بما مؤدَّى المعنى منه أن الملأ من قريش لما تحققوا استناد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قوم من العرب ذوي شوكة وصرامة في مزاولة الحرب مع توفر الإمكانيات لها من العدة المادية من السلاح ومن المران والدربة في فن القتال والروح العسكرية التي كانت طابعهم الذي يتميزون به وهم فريق الأوس والخزرج الذين اصطفاهم الله تعالى لأن يكونوا الأنصار لدينه والحماة الأكفاء لرسوله حتى يؤدي مهمة الرسالة المقدسة ويقوم بالدعوة المباركة لشريعة الإسلام الحنيفية في أمن من غوائل الأعداء الظالمين.

عرف الملأ من قريش هذا الأمر بعدما تحقق لديهم من خبر البيعة الجليل ، فما كان منهم إزاء هذا من ردّ الفعل إلاّ أن ضاعفوا مما كانوا عليه من الأذى والعدوان على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة وأمعنوا في هذا الصنيع كل الإمعان.

و قد جاء في المأثور تصوير ما كان عليه الحال بالنسبة للصحابة من أهل مكة بأن مجتمع هؤلاء الصحابة - في هذا الأوان- إنما كان بين مفتون في دينه يلحقه الأذى صباحا ومساء أو مستضعف تحت أيدي القوم يقاسي العذاب والإهانة. أو متشرد خارج الوطن (كما هو حال مهاجري الحبشة ، ثلاثة أقسام لا رابع لها).

و هكذا تهيأت الظروف ، وتوفرت الدواعي لهجرة المسلمين من مكة فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة وهي دار إسلام بأتم معنى الكلمة.

و من التعليق على هذا الموضوع الذي هو هجرة الصحابة إلى المدينة المنورة أن في بعض مؤلفات السيرة ورد التعبير بالإذن (إذن الرسول صلى

الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة)، وهو يقتضي أنه صلى الله عليه وسلم كان يمانع في هجرتهم قبل هذا الأوان، كما جاء في سياق بعض الروايات حيث تقول أن الصحابة رضوان الله عليهم لما شكوا إليه صلى الله عليه وسلم تزايد الأذى عليهم بمكة مكث أيامًا لا يجيبهم ثم قال لهم مصبرًا لهم: " أُريتُ[1] دار هجرتكم أُريتُ سبخة[2] ذات نخل بين لابتين[3] (و اللابة هي الحرة[4]) ولو كانت السراة[5] ذات نخل وسباخ لَقُلتُ هيَ هيَ[6] ". ثم بعد مدة خرج صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه مسرورًا فقال لهم: " قد أُخبرتُ بدار هجرتكم هي يَثْرِبَ ".

(1) أُريتُ: بالبناء للمجهول والمفهوم مما جاء في النقل أنه من رءيا المنام.

(2) السبخة: بفتح السين المهملة وإسكان الباء الموحدة بعدها خاء معجمة ويستعمل فيه أيضا فتح الباء الموحدة " اسم للأرض الرخوة ترابها به ملح وبلل من نزِّ الماء.

(3) اللأَبة: بتخفيف الباء الموحدة مفتوحة، ويقال فيها أيضا " اللوبة " بضم اللام مع تخفيف الباء الموحدة هو إسم للمنطقة من الأرض إذا كانت حجارتها سُودًا لأنه يقال " هذا الشيء أسود لوبي ".

(4) الحرة: بفتح الحاء المهملة وتشديد الراء هي نفس اللابة الناحية من الأرض حجارتها سوداء نخرة سهلة التفتيت كأنها حرقت بالنار، وهو كذلك لأن سوادها من أثر البراكين المنفجرة قديما والمدينة المنورة تكتنفها حرتان. فمن جهة الشرق الحرة المعروفة " بحرة واقم " بالواو القاف آخره ميم اسم حصن من حصون الأوس، ومن جهة الغرب الحرة المعروفة " بحرة الوبرة " بالواو والباء الموحدة والراء، وتعرف أيضا " بحرة العقيق ".

وقد جاء في الأخبار الشرعية فيما يتعلق بتعيين حرم المدينة المنورة الذي له نفس الخصائص التي لحرم مكة المكرمة بأنه ما بين لابتيها شرقا وغربا، كما جاء في تحديد الحرم المديني من ناحيتي الجنوب والشمال بأنه ما بين جبلي عير وثور* " عير "*: بفتح العين المهملة وإسكان الياء المثناة آخره راء. وهو جبل عظيم جنوبها ويسمى أيضا " عاير "* بمد العين، و"ثور"* بالمثلثة، وهو شمالها، ويقع شمالي جبل أحد المعروف، وعرف بأنه جبل صغير يضرب لون تربته إلى الحمرة، ووقع اشتباه بينه وبين جبل ثور المعروف بمكة وهو جبل الغار.

(5) السراة: بفتح السين المهملة وتخيف الراء، اسم مؤنث جمعه " سروات "، يطلق على المرتفع، وهو هنا مراد به سلسلة الجبال التي تشق الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب، فتبقى شرقيها أرض نجد، وغربيها أرض تهامة.

(6) هي، هي: أحد الضميرين يرجع إلى السراة والآخر يرجع إلى دار الهجرة.

فما جاء في هذه الرواية لا يناسب البتّة ملابسة الحال في الظرف الذي تمت فيه البيعة بينه صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار.

وعليه فما جاء في هذه الرواية ومثيلاتها إنما كان حكاية لما تقدم من الوقت قبل صدور ما صدر من إسلام الأنصار ومبايعتهم له صلى الله عليه وسلم. وصدور ما صدر منهم من الحوار معه صلى الله عليه وسلم في شأن هجرته إلى موطنهم بالمدينة.

ومن هذا جاء التعبير في مؤلفات أخرى عن هجرة الصحابة إلى المدينة بإثر عملية البيعة بلفظ الأمر هكذا، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى المدينة. فالتعبير بلفظ الأمر أنسب بالمقام وإن كان التعبير بالإذن له وجهه الصحيح أيضًا.

والمفهوم هنا من هجرة الصحابة إلى المدينة أنها الهجرة الجماعية لأنه قد علم مما جاء في بعض الأخبار أن البعض من الصحابة هاجروا إلى المدينة قبل هذا الأوان، وذكر عن هجرة البعض منهم في الفترة ما بين بيعتي العقبة الثانية والثالثة.

والمأخوذ من عموم الروايات عن هجرة الصحابة هذه أنها كانت - بوجه الجملة- عامة شاملة بحيث لم يتخلف عنها إلا القليل ممن لم يستطع إليها سبيلا أو من تخلف لمهمات يقوم بها بمكة.

أورد مؤلفو السيرة هنا خبر المؤاخاة التي أجراها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه قبل ما كان منهم التهيؤ للهجرة، فآخى بين الصاحب والصاحب لأجل الإرفاق والمواساة بينهما.

فجاء أنه صلى الله عليه وسلم آخى بين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب[1]، وبين حمزة[2] بن عبد المطلب وزيد[3] بن حارثة، وبين

---

(1) أبو بكر وعمر: الخليفتان المعروفان.

(2) حمزة: عم الرسول صلى الله عليه وسلم المعروف.

(3) زيد بن حارثة: مولى الرسول صلى الله عليه وسلم المعروف.

عثمان[1] بن عفان وعبد الرحمـن[2] بن عوف ، وبين الزبير[3] بن العوام وعبد الله[4] بن مسعود ، وبين عبيدة[5] بن الحارث بن عبد المطلب وبلال[6] بن رباح ، وبين مصعب[7] بن عمير وسعد بن أبي وقاص[8] ، وبين أبي عبيدة[9] عامر بن الجراح وسالم[10] مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد[11] بن زيد وطلحة[12] بن عبيد الله. فكان صلى الله عليه وسلم يقول لكل من الاثنين: " هو أخوك وأنت أخوه (و ما في معنى هذا).

وجاء في هذا الخبر أنه صلى الله عليه وسلم آخى بين نفسه وبين عليّ[13] بن أبي طالب ، فتحكي هذه الرواية أنه لما تمت عملية المؤاخاة ، وكان عليّ متغيبا لم يحضرها ثم حضر فجعل يبكي لما فاته منها فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " أما ترضى أن أكون أخاك ؟ " ، فقال: " بلىٰ يارسول الله!" ، قال: " فأنت أخي في الدنيا والآخرة ".

وعلى هذا الخبر فإن المؤاخاة بين الصحابة رضوان الله عليهم أجراها

---

(1) عثمان: الخليفة المعروف.

(2) عبد الرحمـن بن عوف: أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو من فريق والدة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(3) الزبير بن العوام: أحد العشرة المبشرين بالجنة وابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(4) عبد الله بن مسعود الهذلي: أحد فقهاء الصحابة وممن نال شهرة رواية الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

(5) عبيدة بن الحارث: ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وشهيد غزوة بدر.

(6) بلال الحبشي: مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم المشهور.

(7) مصعب بن عمير: المتقدم ذكره قريبا.

(8) سعد بن أبي وقاص: أحد العشرة المبشرين بالجنة وهو يرجع في النسب إلى بني زهرة فريق والدة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(9) أبو عبيدة عامر بن الجراح: أحد العشرة المبشرين بالجنة والمعروف بأنه أمين هذه الأمة.

(10) سالم بن معقل: مولى أبي حذيفة ، تقدم التعريف به قريبا.

(11) سعيد بن زيد: ابن عمرو بن نفيل من بني عدي أحد العشرة المبشرين بالجنة.

(12) طلحة بن عبيد الله: من بني تيم من فريق أبي بكر وهو من العشرة المبشرين بالجنة.

(13) عليّ بن أبي طالب: الخليفة الرابع وأحد المبشرين بالجنة وشأنه معروف.

الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم مرتين ، مرة بمكة بين المهاجرين ومرة بالمدينة بين المهاجرين والأنصار إلا أن المؤاخاة المدنية خبرها معروف صحيح ، والمؤاخاة المكية ليست على هذه الدرجة من تواتر الخبر بها.
ومن هذا وقع الخلاف بين أئمة العلم في إثبات المؤاخاة المكية ، فجاء عن شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية* إنكار المؤاخاة هذه وربما شدد إنكاره على ما ورد فيها خاصة من مؤاخاة الرسول صلى الله عليه وسلم لعليّ بن أبي طالب ، وربما يكون هذا ردًّا لما يمكن أن يتخذه حجة من يرى تفضيل عليّ رضي الله عنه على سائر الصحابة بما فيهم أبو بكر وعمر ، وهو رأي فريق الشيعة ، ومما نقل من توجيه ابن تيمية لإنكاره هذا الخبر قوله (ما معناه): " لا معنى لمؤاخاة المهاجرين ، وإنما المؤاخاة التي لها المعنى إنما هي المؤاخاة الواقعة بين المهاجرين والأنصار عند نزول المهاجرين بالمدينة لما تقتضيه من الارتفاق بين الجانب القوي وهو الأنصار والجانب الضعيف وهو المهاجرون ، وذلك من حيث المادة وكذلك لها معنى التأليف بين الفريقين لتوثيق رابطة العطف والمودة بينهما. ويرى ثبوت المؤاخاة المكية المذكورة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني فردَّ على ابن تيمية وجاء في رده عليه قوله: " رأي ابن تيمية هو ردٌّ للنص بالقياس ".

و وجّه ما أثبته من خبر المؤاخاة المذكورة عن طريق النظر بقوله: "أن المهاجرين كان بعضهم أقوى من البعض من حيث المال والعشيرة وغير ذلك ، فآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأعلى والأدنى للعون والارتفاق (شخصيًّا). وفيما يخص مؤاخاة الرسول صلى الله عليه وسلم لعليّ يظهر المعنى المذكور وهو الإرفاق فيما عرف عنه صلى الله عليه وسلم بأنه كان الذي يلي الإنفاق والكفالة لعليّ بن أبي طالب من عهد الصبا حيث ضم الرسول صلى الله عليه وسلم عليًّا تخفيفا عن أبي طالب من مؤنة العيال ، ومن حيث السند لخبر المؤاخاة هذه يشهد لصحتها ما جاء

في الصحيح عن زيد بن حارثة لما وقع الحديث في شأن زواجه من ابنة حمزة بن عبد المطلب فقال: " هي ابنة أخي لا تحل لي". (و هذا الحديث ورد في سياق أحداث عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة) وفي تسميتها بعمرة القضاء بحث للعلماء إذ أن العمرة الأولى كانت هي الأخرى صحيحة بنظر مزيد البيان في موضعه - [عمرة القضاء هي العمرة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم عما فاته من عمرته في العام السابق حيث قصد مكة في جمع من أصحابه للعمرة وصدته قريش عن دخول مكة ، وكادت تندلع بذلك حرب بين الفريقين ثم وقع الصلح المعروف بصلح الحديبية وكتبت بذلك وثيقة معاهدة بينه وبين قريش من جملة موادها أنه يرجع هذا العام ولا يدخل مكة ، وإنما له أن يرجع للعمرة في العام الموالي ، وكان هذا الصلح في السنة السادسة للهجرة فلما دخلت السنة السابعة توجه الرسول صلى الله عليه وسلم بجمع من الصحابة معه إلى مكة لقضاء العمرة الفائتة ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة السابعة.

فدخل مكة حسب شروط المعاهدة وأدى مناسك العمرة ، وجاء أن وجهاء قريش لم يطيقوا رؤية المسلمين وهم يتجولون بمكة فخرجوا منها إلى الضواحي وأخلوا للمسلمين البلد فأدى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مناسك العمرة المدة المقررة في عقد الصلح وهي ثلاثة أيام.

فلما ارتحل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عائدين إلى المدينة فجاءت ابنة حمزة بن عبد المطلب ، وهي فتاة كانت تقيم بمكة وهي يتيمة حيث أن والدها حمزة قد استشهد في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة وماتت أيضا أمها **سلمى بنت عميس*** ، واسم هذه البنت **عمارة***، وقيل **أمامة*** ، فأخذت تنادي باسم الرسول صلى الله عليه وسلم ملتجئة إليه لتذهب معه إلى المدينة وأدركها عليّ بن أبي طالب فدفعها إلى زوجه فاطمة الزهراء وهي في حال ركوب للسفر فضمتها إليها ، فلما حل

الركب بالمدينة اختصم في البنت ثلاثة من الصحابة كل يريد ضمها إليه: وهم عليّ بن أبي طالب وأخوه **جعفر*** وزيد بن حارثة ، وكانت المحاجة بينهم لدى الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقال عليّ أنا الذي خلصتها وأخرجتها من بين ظهراني المشركين وهي ابنة عمي ، وقال جعفر هي ابنة عمي وخالتها وهي **أسماء بنت عميس*** تحتي (أي زوجته) وقال زيد هي ابنة أخي (مؤاخاة المهاجرين المذكورة) وقضى الرسول صلى الله عليه وسلم بضمها إلى خالتها قائلا إن الخالة بمنزلة الأم.

فكان القضاء في جانب جعفر بن أبي طالب - فهذا الأثر هو ما صحح حديث المؤاخاة المكية].

- ومما يؤخذ من عموم أخبار هذه الهجرة أن الصحابة كانوا يخرجون من مكة مستخفين يتسللون خوف الأذى والمشاغبة ، والمنع من طرف قريش كما يستفاد أن إمكانيات الأفراد من المهاجرين كانت متفاوتة في هذه الهجرة. فكان البعض تمكن من السفر بأهله ، وكان منهم من لم يتوصل لاستصحاب أهله فتركهم بمكة.

ومن المعلوم - طبعا- أن الأموال من غير ما يمكن حمله للمسافر اللاجئ كلها بقيت بمكة بأيدي قريش.

وجاء مما نقل من الأخبار في تعيين أشخاص كانت لهم السابقية في الهجرة خبر **أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي*** ، وهو أخو الرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاع ، فقد أرضعتهما ثويبة جارية أبي لهب كما تقدم ذكر ذلك في حديث رضاعه عليه الصلاة والسلام وأبو سلمة هذا هو أيضا ابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي **برة بنت عبد المطلب*** ، وكانت هجرته في الفترة ما بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية الكبرى. كان من مهاجري الحبشة ورجع إلى مكة فوجد الظرف غير مساعد فهم بالرجوع إلى الحبشة ، وفي هذا الأثناء أسلم الأنصار ووقعت بيعة العقبة الأولى ، فولى وجهه شطر المدينة فهاجر إليها. فجاء من خبر أبي سلمة أنه خرج مهاجرا يقود بعيره راكبة عليه زوجته **أم سلمة*** وفي

حجرها ولدهُ (سلمة)، وأم سلمة هذه اسمها هند بنت **أبي أمية*** حذيفة بن المغيرة المخزومي أحد زعماء قريش البارزين، مات قبل الإسلام وكانت أم سلمة هذه من فضليات النساء قبل الإسلام وبعده، وقد صارت من بعد زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبي سلمة.

وفيما كان أبو سلمة يريد السفر حضر نفر من قرابة أم سلمة فقالوا له: " قد غلبتنا على نفسك فصاحبتنا هذه لا نتركك تتشرد بها في البلاد "، فمنعوه من استصحابه لزوجته حتى أنهم نزعوا خطام[1] البعير من يده وأنزلوها، وسمع الحادث نفر من قرابة أبي سلمة فجاءوا هم أيضا فقالوا لقوم أم سلمة: "إذا أنتم منعتم من صاحبنا زوجته فإن معها ابننا فننزع منها الولد"، ووقع التشادُّ بين الطرفين على الولد وتجاذبوه بينهم حتى خلعوا يده وأفتكُ قوم أبي سلمة الولد فأخذوه عندهم، ومضى قوم أم سلمة بها، فكانت عندهم، وذهب أبو سلمة في وجهة مهاجرا بمفرده.

فما كان من أم سلمة إلا أن صارت تخرج أول النهار إلى **الأبطح*** فتجلس تبكي حتى المساء، واستمرت كذلك لمدة عام كامل حيث كان أوان هجرة الصحابة الجماعية، وفي هذا الأثناء قام البعض ممن رثى لحالها فكلم قومها يقول لهم: "أما ترحموا هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وولدها؟ " وأقنعهم برأيه فأذنوا لها باللحاق بزوجها يقولون لها: " لك أن تلحقي بزوجك!" فلما بلغ الخبر بهذا مسامع قوم أبي سلمة ردُّوا إليها الولد. وفور ذلك خرجت أم سلمة مهاجرة تحمل ولدها على بعير لها منفردة لا يصاحبها أحد وسارت حتى بلغت التنعيم[2] فلقيها به **عثمان بن طلحة*** الحجبي من بني شيبة الذين لهم حجابة البيت الحرام بأيديهم مفتاح

---

(1) الخطام: بكسر الخاء المعجمة، وتخفيف الطاء المهملة آخره ميم، هو الحبل الذي يقاد به البعير يلوى بعنقه، ويثنى منه بأنفه.

(2) التنعيم: بصيغة التفعيل من مادة النون والعين المهملة والميم وهو موضع يبعد عن مكة بنحو ستة أميال في طريق المدينة، وقد جاء في السنة تعيينه موضعا للإحرام بالعمرة لمن كان مقيما بمكة وهو أحد الموضعين اللذين يسن لمن يحرم بالعمرة الإحرام منه والثاني هو الجعرانة.

الكعبة وهو في هذا الوقت على دين قريش وقد أسلم بعد ذلك في أيام صلح الحديبية مع نفر من المفكرين من قريش منهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد*.

وتأثر عثمان لحال أم سلمة وهي تسافر في القفار منفردة فكلمها قائلاً: " إلى أين ؟ " ، قالت: "إلى زوجي!" ، قال: " وما معك أحد ؟ " ، قالت: " ما معي أحد إلاّ الله ، وابني هذا (وهو بحجرها صبيّ) " ، فقال: " والله لا أتركك هكذا!" فرافقها آخذًا بخطام البعير يقوده بها حتى بلغ قباء من ضواحي المدينة ففارقها حيث أمنَ عليها.

وجاء في حديث عن أم سلمة تحكي قصة هجرتها هذه فقالت: " ما رأيت صاحبا أكرم من عثمان بن طلحة سار معي آخذًا بخطام بعيري يقوده فإذا وصلنا المنزل أناخ[1] بي ثم استأخر ، فإذا نزلتُ جاء فأخذ البعير فحط عنه الرحل ثم قيده في الشجرة ثم ذهب إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى البعير فرحله وقدّمه إليَّ ثم استأخر وقال: " اركبي " ، فإذا ركبتُ أخذ بخطامه فقاد بي ، وهكذا حتى وافينا قباء فقال: " هذا زوجك هنا ، وانصرف ".

ومما جاء من بحث المؤلفين هنا ذكرهم لأول امرأة دخلت المدينة مهاجرة (لمزية السابقية في النساء) فقيل هي أم سلمة ، وقيل هي **ليلى**[2] **بنت أبي حَثْمَة*** وهي زوجة **عامر بن ربيعة*** فجمع بين القولين بأن أم سلمة أول ظعينة[3] دخلت المدينة منفردة ، وليلى بنت أبي حَثْمَة أول ظعينة دخلت المدينة مصاحبة لزوجها وهو عامر بن ربيعة لأنه من

(1) أناخ البعير: بمعنى أبركه وهذا الفعل بالنون وحرف العلة وسطه وآخره خاء معجمة يستعمل هكذا رباعيا بزيادة الهمزة في أوله.

(2) هي ليلى العدوية: كما تقدم ذكرها في الهجرة إلى الحبشة.

(3) الظعينة: هي المرأة حال ركوبها في الهودج على ظهر البعير ، وقد يطلق على المرأة من غير تقييد بالركوب واللفظ مأخوذ من " الظعن " بفتح الظاء المعجمة المشالة وإسكان العين المهملة ويستعمل بفتح العين أيضا والفعل منه مفتوح في الماضي والمضارع ومعناه السير والتنقل.

السابقين للهجرة مع زوجته. وبجانب هذا يوجد قول بأن أول امرأة دخلت المدينة مهاجرة هي أم كلثوم[1] بنت عقبة بن أبي معيط.

ومِمن جاء اسمه من الصحابة في تعداد السابقين بالهجرة سالم بن معقل مولى أبي حذيفة، وقد تقدم ذكره في الدرس الواحد والخمسين وأنه كان يَؤُم المهاجرين بقباء قبل مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة وكذلك مصعب بن عمير.

ومما ورد من هذه الأخبار المتعلقة بهجرة البعض من الصحابة الخبر الوارد عن عمر بن الخطاب، فيفيد هذا الخبر أن عمر بن الخطاب انفرد من بين المهاجرين بإعلان هجرته وإشهارها بين الجماهير والأعيان من قريش بل وبالغ في التحدي للقوم على أن يحاولوا التعرض له فيها. وجاءت الرواية بهذا عن عليّ بن أبي طالب يقول: " ما علمت أحدًا من المهاجرين هاجر إلاّ مختفيا إلاّ عمربن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه[2] وتنكب[3] قوسه وانتضى[4] في يديه أسهما واختصر[5] عنزته، ومضى قبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا ثم أتى المقام فصلى ركعتين

---

(1) أم كلثوم: هذه هي المتقدم ذكرها في الهجرة إلى الحبشة، وهي مهاجرة مع زوجها أبي سبرة* بن رهم (ويقال ابن أبي رهم) وقد مر التعريف به في الدرس السابع والعشرين في سياق حديث الهجرة الأولى إلى الحبشة.

(2) تقلد السيف: بمعنى علقه بعنقه.

(3) تنكب القوس: بمعنى جعله على منكبه والمنكب بفتح الميم وإسكان النون وكسر الكاف آخره باء موحدة سفلية هو مجمع الكتف والعضد من الإنسان.

(4) انتضى السهم: فعل انتضى من المزيد من باب الافتعال مأخوذ من فعل " نضا "، ينضو ومصدره " النضو " بفتح فسكون بالنون والضاد المعجمة آخره حرف علة وهو فعل متعد يقال: " نضا السيف " بمعنى سله من غمده، والسهم بفتح السين المهملة وإسكان الهاء هو النبل الذي يرمى به بواسطة القوس، فانتضاء السهم بمعنى استلاله مما كان فيه تهيؤا ليرمي به.

(5) اختصر العنزة: بمعنى جعلها على خاصرته، الخاصرة بالخاء المعجمة والصاد المهملة آخره راء هي موضع الخواء فيما بين رأس الورك وضلع الجنب وهما خاصرتان يمنى ويسرى - والعنزة: بفتح العين المهملة وفتح النون ثم زاي من نوع السلاح حديدة الرأس، يطعن بها كالرمح وهي أصغر من الرمح وتسمى أيضا بالحربة.

ثم صار يقف على الخلق واحدة واحدة فيقول: " شاهت[1] الوجوه! لا يرغم الله إلاّ هذه المعاطس[2]! من أراد أن تثكله أمّه أو يوتم ولده أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي ". يقول عليّ "فما تبعه أحد ثم مضى لوجهه".

وأفادت الروايات أن هجرة عمر بن الخطاب كانت في رفقة من الصحابة تشمل عشرين راكبا منهم رفيقه الخاص عياش بن أبي ربيعة. وكان **هشام بن العاص*** واعد عمر بن الخطاب ليكون هو أيضًا رفيقا له. واتفقا على تعيين المكان الذي تكون فيه الملاقاة بينهما فمن سبق إليه انتظر صاحبه ، غير أن هشامًا هذا تفطن له قومه فمنعوه وحبسوه.

وجاء في هذه الهجرة الجماعية ذكر معظم أعيان الصحابة رضوان الله عليهم ، كعثمان بن عفان وعبد الرحمٰن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح وعمار[3] بن ياسر وبلال بن رباح وعبد الله بن مسعود وزيد[4] بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب وابن أخيه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وغيرهم ، بحيث لم يبق بمكة إلاّ من كان محبوسا أو مريضا أو غير مستطيع أو من تخلف لمهمة كعليّ بن أبي طالب ، وكذلك الشأن في أبي بكر الصديق.

---

(1) شاه الوجه: بمعنى قبح وساء ، والمضارع منه مضموم " يشوه " بوزن "ساء ، يسوء " ومصدره " الشَّوْه " بفتح الشين المعجمة وإسكان الواو وآخره هاء ، وهذه العبارة خبرية كما هو الظاهر وقد تضمن معنى الإنشاء فتكون دعائية.

(2) المعاطس: صيغة جمع وهي " الأنوف "كعبارة " أرغم* الله أنوفهم " أي جعلها لاصقة بالرغام بفتح الراء والغين المعجمة مخففة وآخره ميم وهو " التراب ".

(3) عمار بن ياسر: المعروف من بين الصحابة الذين تحملوا التعذيب من أيدي كفار قريش ، وقد ماتت أمه سمية في التعذيب قتلت بيد أبي جهل كما مات في الوقت بالتعذيب كذلك أبوه ياسر.

(4) زيد بن الخطاب: شقيق عمر ، وهو من شهداء وقعة اليمامة وكان عمر يغبطه بأنه سبقه إلى الإسلام وسبقه إلى الشهادة.

ونزل المهاجرون على الأنصار بالمدينة المنورة. فكان تلقيهم لهم على أفضل ما يكون عليه الاستقبال وكريم الوفادة فأفسحوا لهم المنازل وقاسموهم الأرزاق بل وآثروهم على أنفسهم في عامة مرافق المعاش وذهبوا معهم في مجال الإيواء والتعطف والحفاوة المذهب الذي يعز نظيره فيما سجله تاريخ الإنسانية في هذا الباب. [أورد بعض مؤلفي السيرة رواية عن فريق المهاجرين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في امتنانهم واعترافهم بجميل ما قدمه لهم من كرم الوفادة إخوانهم فريق الأنصار، حيث قال قائل المهاجرين عنهم للرسول صلى الله عليه وسلم: " يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير، كفونا المؤنة وأشركونا في المهنة - يعني الخدمة - حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله!" فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا! ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم "، بمعنى أن ثناءكم عليهم ودعاءكم لهم فيه معنى المكافأة لهم].

ومما جاء من هذه الأخبار المتعلقة بهجرة الصحابة رضوان الله عليهم، أنه بعد نزول الصحابة بالمدينة في هجرتهم هذه واستقرارهم بها ارتأى **أبو جهل بن هشام*** الذي كان أجرأ من عرف بالعداء والمقاومة للدعوة الإسلامية - من مشركي قريش - أن يسافر إلى المدينة لما بيته من كيد للمهاجرين. فسافر إليها مرافقا لشقيقه **الحرث بن هشام*** (وقد أسلم الحرث هذا يوم فتح مكة) فلما نزلا بالمدينة اتّصالا **بعياش بن أبي ربيعة*** المتقدم ذكره بأنه رفيق عمر بن الخطاب في الهجرة، وكان عياش أخا للأم لأبي جهل وللحرث كما هو أيضا ابن عم لهما فأبوه أبو ربيعة أخ لهشام والد أبي جهل والحرث. وكان هذا الاتصال بقصد الإيقاع به برده إلى مكة. فكلماه في الرجوع إلى مكة بطريقة الخداع والتغرير. فأخبراه أن أمّه قد تضررت جد التضرر بغيبته. وجاء في شرح هذا التضرر أنها نذرت بأن لا تغتسل من وسخ ولا تمتشط ولا تستظل من حر شمس ولا يؤويها سقف

منزل ولا تأكل ولا تشرب (على طريقة اعتصاب الجوع) ما لم تره بجانبها في مكة!... ومما حاجَّاه به (والباع الطويل في هذا - طبعا- للداهية الطاغية أبي جهل) أن قال له: " أنت دخلت في دين من تعاليمه البر بالوالدين فما عليك إذا بررت أمَّك؟ ولك الحريَّة في التدين بدينك لا يمنعك من ذلك أحد وأنت مع ذلك بجانب أمك تبرها، فارجع إلى مكة ودن بما شئت من الدين ". وجاء من روايات هذه القصة أن عياشا لم يكن ليقنعه استهواء أخويه بادئ الأمر ولكن الرجلين عالجاه المدة الطويلة وأكثرا عليه المراجعة بضروب المخادعة حتى لان عوده بتأثير العاطفة على أمّه، وأن رفيقه عمر بن الخطاب- وقد كان على اطلاع من الأمر- حذره من الوقوع في الشرك ومما قال له: " إن يريدا إلاّ فتنتك عن دينك فاحذرهما ولا تسمع لهما لقول، فإن أمَّك لو آذاها القمل لامتشطت ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت فلا يغرنك ما يقولان لك في شأنها." ولما كان عياش قد تملكته العاطفة واقتنع بالذهاب مع أخويه أخذًا بخاطر أمه، فإنه مع ذلك لم يقبل ما طلبا منه إلاّ بعد أن أخذ عليهما العهود المغلظة وأستوثق منهما أن لا يغشياه بسوء فيما يتعلق بدينه وما ارتضاه لنفسه من العقيدة، وعندما عزم عياش على العود إلى مكة-وكان يبلغ رفيقه عمر بن الخطاب كل ما يدور بينه وبين أخويه من الكلام في القضية - ولم ينفك عمر يؤكد له التحذير وينهاه عن الوقوع في المكيدة، فقال عياش لعمر: " إني ذاهب إلى مكة أبرّ أمي ثم إن لي حاجة أخرى أقضيها فإن لي مالا بمكة آخذه ". فرد عليه عمر - في هذا - بأن قال له: " هذا مالي الذي بيدي لك شطره فخذه عن طيب نفس ولا تذهب مع المخادعين ". ورغم هذا فقد ذهب عياش مع عاطفته واختار ما فيه المخاطرة. وجاء في الرواية أن في النهاية قال عمر لعياش: " أما وقد صممت على الذهاب فخذ ناقتي هذه فإنها نجيبة [1]

(1) النجيب: من الإبل هو الممتاز بحسن السير وتقع به المسابقة وجمعه نجائب كما يقال العتاق في الخيل.

ذلول [1] فالزم ظهرها ، فإن رابك منهما ريب فانج عليها".

وتفيد روايات القصة أنه لما خرج عياش من المدينة مع أخويه يركب كلٌ منهم مركوبه الخاص كان الطاغية أبو جهل يرقب سير ناقة عياش فدبر من المكر لتنفيذ مكيدته عليه لإنزال عياش عن ظهر الناقة ، فبعد ما قطعوا مسافة في السير غير قليلة نادى أبو جهل عياشا فقال له: " يا أخي إني استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني [2] على ناقتك هذه ؟ " وأنعم له عياش بذلك فقال " بلى " ، وإذ ذاك أناخ كل منهم مركوبه ليمكن لأبي جهل التحول متعاقبا لعياش على ناقته. وهنا حل أوان تنفيذ المؤامرة فما كادت أقدامهم تستقر بالأرض حتى انقض المتآمران على عياش انقضاض الجارح على فريسته ، فأوثقاه كتافا بأن جعلا يديه إلى ظهره مربوطتين وأهاناه الإهانة الشديدة فجلداه بالعصيّ كل منهما عددا. وأفادت الروايات هنا أنه ما تم التغلب على عياش من طرف أخويه إلا بإعانة رجل ثالث كان معهما ، وعرف هذا الرجل باسم **الحرث بن يزيد*** القرشي وهو من قبيل كنانة. وهكذا دخل أبو جهل وأخوه الحرث مكة بعياش على تلك الحال الشنيعة في مقتبل النهار للتشهير به. وأبو جهل ينادي: " يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا ". فلما نزلوا بمكة زيد من التعذيب والإهانة لعياش بأن ألقى في حر الشمس مكتوفا وأودع الحبس مع التعذيب مع من كان محبوسا مثله كهشام بن العاص المتقدم ذكره.

واختلفت روايات الأخبار في مدة حبسه ، فجاء أنه لم يزل محبوسًا حتى كان يوم فتح مكة ، ولكن ضعف ما جاء في هذه الرواية بأنها لم يراع فيها التحقيق الذي أفادته الرواية المقابلة لها ، وهي التي تفيد أن الوليد بن

---

(1) الذلول: بفتح الدال المعجمة وتخفيف اللام وصف يطلق هكذا على المذكر والمؤنث ، ومعناه سهل مطواع ينقاد.

(2) التعاقب: على الراحلة هو التناوب في الركوب يركب هذا عُقْبة (بضم العين وسكون القاف) ويركب الآخر عقبة يقال عاقبة البعير وأعقبه بمعنى ركب مرة ثم نزل فركب صاحبه.

الوليد بن المغيرة (وهو أخو خالد بن الوليد البطل الإسلامي المشهور) كان هو الآخر محبوسا مع عياش وهشام. وقد تمكن الوليد هذا من الخلاص بمسعاه الخاص ، وأفلت من قبضة حابسيه فلحق بالمدينة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وتعلقت همة الوليد هذا بفكرة تخليص صاحبيه عياش وهشام من الحبس (كما تخلص هو) فرجع إلى مكة مستخفيا ودبر ما دبر من الخطة لتخليصهما حتى تم له ذلك فخلصهما ولحق الكل بالمدينة على سلامة ، وسُرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بصنيعه هذا وشكر له سعيه. وكل هذا إنما وقع في زمان ما قبل الفتح بل قبل السنة السادسة التي وقعت فيها معاهدة الحديبية. هذا وقد اشتهرت رواية القنوت والدعاء منه صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة للمستضعفين من أصحابه الذين كانوا في الحبس بمكة لمنعهم عن الهجرة ، وهي الرواية التي تقول مكث الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة أربعين صباحا يقنت في صلاة الصبح بعد الركوع الأخير ، فيقول في قنوته: " اللهم أنج **الوليد بن الوليد**" ، وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص والمستضعفين من المؤمنين بمكة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا".

ومما ألحق من الأخبار المتعلقة بقصة عياش بن أبي ربيعة في المكيدة التي وقع فيها أنَّ صدمة عياش بما كان من غدر أخويه لم تبلغ مبلغ ما صدم به وتملكه من الحنق[1] بموقف ذلك الرجل الأجنبي الذي أعان عليه أخويه - سيما وقد ذكر في لفظ من إحدى روايات القصة أن ذلك الرجل الكناني واصل المعونة لأبي جهل والحرث على عياش حتى أثناء حبس عياش بمكة فكان ممن يباشر تعذيبه. فتفيد الرواية أن عياشا أقسم الأيمان المؤكَّدة إن أمكنه الله من ذلك الرجل ليقتلنه.

[1] الحنق: بفتح الحاء المهملة وفتح النون آخره قاف والفعل منه مكسور الماضي مفتوح المضارع بوزن غضب ويطلق على الغيظ المضمر في الصدر.

وكان من مقدور الله عزّ وجلّ أن استحال الحال وتقلب الزمان ووقع لذلك الرجل الكناني الحرث بن يزيد القرشي أن اعتنق الإسلام وتحلى بالإيمان.

ولما تخلص عياش من الحبس وهو لا يعلم شيئا عن إسلام الرجل، فاتفق له أن صادفه في ملاقاة بينهما فلم يمهله أن عاجله بما قضى به عليه وقتله. وأبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم نبأ الحادث وتبين حينئذ أنها كانت من عياش عملية مؤسفة. وتفيد رواية هذا الخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حكم في القضية بأنها قتل خطأ وبأن الآية من سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ نزلت في هذا الحادث فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عياشا بأداء الكفارة فأداها.

وأورد البعض من مؤلفي السيرة هنا مما يتعلق بأخبار هجرة الصحابة إلى المدينة خبر صُهَيْب[1] بن سِنَان المعروف في الصحابة بنسبته إلى الروم فيقال "صهيب الرومي"، كما يقال "سَلْمَان الفارسي"، "وبلال الحبشي". وصهيب معروف في الصحابة بفضله وسابقيته إلى إجابة الدعوة أول ما ظهرت (كما تقدم ذكره في باب ذكر السابقين إلى إجابة الدعوة).

---

(1) صهيب: بضم الصاد المهملة وفتح الهاء بعدها ياء مثناة سفلية ساكنة آخره باء موحدة على صيغة التصغير و"سنان" بكسر السين المهملة بعدها نون مخففة بالفتح والمدّ وآخره نون، وذكر في نسبته إلى الروم بأن والده كان عاملا للفرس على ناحية من أرض الشام. وذكر أيضا في هذه النسبة أن صهيبا كان قد أخذ وهو صبي من طرف الروم عندما أغاروا على المكان الذي كان به فأخذوه سبيا وتربّى بينهم ثم باعوه لأحد القرشيين فجاء به مكة فكان من جملة العبيد الذين بادروا إلى اعتناق الإسلام أول ما ظهر، وكانت وفاته بالمدينة فيما بين سنة ثمان وثلاثين وتسع وثلاثين للهجرة وقد تقدم في الدرس الثامن عشر عند ذكر السابقين إلى الإسلام قدر من التعريف بصهيب بأوسع مما هنا.

فورد أن صهيبا لما تهيأ للهجرة تفطن له الملأ من قريش فمنعوه ومما قالوا له: " إنك أتيت بلدنا صعلوكا[1] فحصلت المال به والآن تريد أن تذهب بما معك من المال الذي حصلته عندنا ؟ "

فما كان من جواب صهيب إلاّ أن افتدى نفسه منهم بما عنده من المال فدفعه إليهم وبذلك خلّوا سبيله فهاجر. وكانت هجرته بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الرواية تحكي أن صهيبا كان على وعد مع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرافقه في السفر للهجرة كأبي بكر الصديق ، فعاقه عن ذلك ما كان من قريش من المشاغبة حتى افتدى بالمال.

وورد هنا من الأحاديث النبوية أنه لما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم نبأ افتداء صهيب نفسه من قريش بما له من مال ، قال عليه الصلاة والسلام: " ربح صهيب! ".

كما ورد من الأخبار أيضا في قضية هجرة صهيب وافتدائه نفسه بالمال أن الآية القرآنية من سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾...الخ إنما نزلت بسبب حادثة هجرة صهيب هذه.

ومن الأخبار في باب هجرة الصحابة إلى المدينة ما ورد عن أبي بكر الصديق الذي حباه الله تعالى بأن يكون الصاحب للرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقه في أداء مهمة الهجرة الجليلة ، بأن أبا بكر كان كثيرا ما يستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم ليهاجر كباقي الأصحاب رضي الله عن جميعهم ، فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: " لا تعجل لعل الله

---

[1] الصعلوك: بضم الصاد المهملة ثم عين مهملة ساكنة ثم لام وآخره كاف يطلق في الأكثر على الفقير المعدم وربما يطلق على ضعيف الحال في الجملة ، وفيه استعمال آخر بإطلاقه على اللّص ، والمراد هنا هو الأول.

أن يجعل لك صاحبا".

فيدخل الطمع على أبي بكر بأن يكون الصاحب هو الرسول صلى الله عليه وسلم. ولهذا كان أبو بكر يعد العدة للهجرة ويتجهز لها أحسن ما أمكنه ، فأعدَّ راحلتين اشتراهما لهذا الغرض بثمانمائة درهم ، وعلفهما ورق السمر[1] لمدة أربعة أشهر ، وعلى هاتين الراحلتين كانت الهجرة النبوية المباركة الشريفة برفقة صاحبه الأفضل أبي بكر الصديق.

ومما أفاده البعض من مؤلفي السيرة فيما يتعلق بالتاريخ ما بين هجرة الصحابة وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن المدة بين ابتداء هجرة الأصحاب وهجرته عليه الصلاة والسلام هي شهران ونصف بالتحرير.

(1) السمر: بفتح السين المهملة وضم الميم وآخره راء شجر بري معروف جيد الخشب وورقه من أحسن ما ترعاه الماشية.

الدرس 55

المؤامرة الشنعاء وقرار[1] المقت والخسران الصادران عن الملإ من قريش ضد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم

جاء في مؤلفات السيرة تقديم هذا الفصل بالعبارات التالية:

لما رأت قريش أن أمره صلى الله عليه وسلم صار يهددهم من حيث وجد له أنصار أقوياء أهل سلام وبأس وأن أصحابه قد أصابوا منعة خافوا العاقبة بأن يخرج منهم ويجمع على حربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره عليه الصلاة والسلام.

دار الندوة من المؤسسات العمومية بنيت خصيصا لاجتماع الزعماء وأهل الرأي للمداولة والشورى في المسائل والنوازل المهمة ذات الشأن الجماعي وكانت قرب الحجر (وهي اليوم داخلة في المسجد). وكان من قانون صلاحية الدخول لدار الندوة للمشاركة في الشورى أن يكون العضو من كبراء القوم أو من اشتهر بوفرة الحِجَىٰ[2] وجودة الرأي وأن يكون قد استكمل من العمر أربعين سنة إلاَّ إذا كان من ذرية **قصي بن حكيم*** (حكيم الملقب **بكلاب** لولعه بالصيد) فأولاد قُصَي مستثنون من هذه القاعدة فيما يتعلق بالسن. ولهذا كان أبو جهل بن هشام من بين المشاركين في المآمرة ضد الرسول صلى الله عليه وسلم في دار الندوة. فقد ورد من العبارات في هذا أن أبا جهل دخل دار الندوة وما استدارت لحيته ، وفي لفظ ، دخلها وماطرّ[3] شاربه. والوارد في انعقاد اجتماع دار الندوة للمؤامرة والمداولة في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يوم سبت

---

(1) قرار كان مبعثه العتو والطغيان ، ومادته الإثم والعدوان ، فكانت نتيجته المقت والخيبة والخسران.

(2) الحِجَىٰ: بكسر الحاء المهملة ثم جيم مفتوحة آخره ألف مد مقصورة اسم يطلق على جودة العقل وكمال الإدراك للأمور.

(3) طرَّ الشارب: وطرَّ النبات بمعنى طلع وظهر ، وهذا الفعل من المضموم مضارعه ، "يطُرُّ" ومصدره "الطرّ" بفتح الطاء المهملة ، والطرُور بالضم وزنا ومعنى مع الطلوع والظهور.

من شهر صفر (أول سنة للهجرة) فاجتمع الكافة من كبراء القوم وأهل الحل والعقد منهم فكانوا نحو مائة شخص فيهم القرشيون وغير القرشيين. فلما كان وقت دخول المكان حضر شيخ ذو هيئة ممتازة يلبس الطيلسان[1] تبدو عليه سيما أهل نجد[2] (ولم يكن معروفا من القوم). فطلب المشاركة في حضور الاجتماع والمداولة فيه.

وورد من نص عبارة هذا الشيخ في طلب حضوره الاجتماع ، قال: "رأيتكم حسنة وجوهكم طيبة ريحكم وأنا شيخ من نجد سمعت بالذي اجتمعتم له فأحببت أن أحضر مجلسكم وعسى أن لا يعدمكم مني رأي فإن كرهتم ذلك خرجت عنكم ".

ويؤخذ من روايات هذا الخبر أن القوم لم يكونوا - ابتداء- ليقبلوا مشاركة الأجنبي المجهول الحال عندهم إلا بعد مداولة في شأنه بينهم حيث قال البعض منهم: " هذا نجدي ولا عين عليكم منه " وقالوا: " لا يدخلن معنا أحد من أهل تهامة[3] فإن هواهم مع محمد ". وقرَّ قرارهم في الأخير على قبول الشيخ النجدي المذكور.

ولما التأم الجمع وافتتحت المداولة تقدم من تعين لتناول الكلام فقال - يخاطب الجمع في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم -: " إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم! - وإنا- والله- لا نأمنه من الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا! فأجمعوا أمركم ورأيكم فيه! وتشاوروا (ودبروا." .. إلخ)

(1) الطيلسان: بفتح الطاء المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وتثليث اللام فتحا وضما وكسرا ، ثم سين مهملة وآخره نون ، قيل فيه أنه " لباس " ككساء من فوق مخصص اللون مثل الأخضر والأحمر يعرف به الخواص ممن له مكانة كالشيوخ في العلم والمقدمين في معرفة شيء ما ، وقد لوحظ عليه أنه من استعمال الأعاجم.

(2) نجد: بفتح النون وسكون الجيم آخره دال مهملة اسم للمنطقة من الأرض المرتفعة في وسط جزيرة العرب وتقع شرقي الحجاز.

(3) تهامة: بكسر التاء المثناة الفوقية هي المنطقة من الأرض المحاذية للحجاز: وتحسب من الحجاز لأنه شمالها واليمن جنوبها.

(وفتح باب إبداء الرأي وإبداء النظريات)... فقال **أبو البحتري*** (وهو يتكلم باسم فريق من يرى رأيه)قال: " الرأي أن يحبس في الحديد (يوثق) ويغلق عليه الباب (بما معناه الحبس) ويتربص به ما يتربص بأمثاله من الشعراء من هذا الأمر" (الأمر مراد به الموت) فهي نظرية السّجن المؤبد ".

ورد الشيخ النجدي على كلام أبي البحتري معارضا له فقال: " ما هذا برأي! لو حبس لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتم ، إلى أصحابه! فلا تشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم عن أمركم! انظروا رأيا غير هذا!"

فتكلم **الأسود بن ربيعة*** (يمثل الفريق الذي يرى رأيه) فقال: -" الرأي أن نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من أرضنا (ونبعده عن بلادنا). فإذا خرج عنا - فوالله ما نبالي به أين يذهب " (نظرية مجرد الإبعاد). وردَّ الشيخ النجدي على كلام الأسود بن ربيعة معارضا له أيضا فقال: -" ما هذا برأي! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال؟ لو فعلتم ذلك - يعني مجرد الإبعاد- ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب بما له من حديثه وقوله عليهم فيبايعونه ويسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذون أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد! "، وقال: أديروا فيه رأيا غير هذا! "، ثم تواصل الحوار والأخذ والردّ في الحديث بين القوم...إلخ ".

وبعد ذلك قام أبو جهل بن هشام فقال: -" والله إن لي فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد! "،

قالوا: " وما هو يا أبا الحكم؟ "، قال: " الرأي أن تأخذوا من كل قبيلة شابًا جلدًا[1] حسيبًا[2] في قومه نسيبًا[3] وسطًا[4] في عشيرته ثم يعطى

---

(1) الجلد: بفتح الجيم وإسكان اللام آخره دال مهملة ، وصف من الجلادة " وهي " القوة.

(2) الحسيب: وصف كذلك من الحسب بفتحتين ، وهو " مجد القوم وشرفهم " ، وكذلك:

(3) النسيب: بمعنى معروف النسب عاليه.

(4) الوسط: بفتح السين المهملة المراد به هنا مختارا لمزايا زائدة.

كل فتى منهم سيفا صارما ثم يفدون عليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه!".

قال: " فإذا فعل به ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيرضوا منا بالعقل [1] (الديّة) فعقلنا لهم!!!".

فقام هنا الشيخ النجدي فقال: " القول ما قال هذا الرجل هذا هو الرأي ولا أرى غيره!" (ربما الأولى) " ولا رأي غيرة " (نظرية القتل والاغتيال) وتمت المصادقة من الجميع على هذا الرأي والأخذ به وتفرق الجمع على اتخاذ هذا القرار وتنفيذه فورا.

ومما ورد هنا أن يوم المؤامرة هذه عرف - من بعد- عند قريش بيوم "الزحمة" (بالزاي المعجمة") لكثرة عدد الواردين من كبراء القوم والمؤتمرين على دار الندوة. وأن أبا جهل بن هشام تولى الإجراء اللازم لعملية الاغتيال.

فهو الذي عين الشبان الذين يباشرون القتل واختارهم وحدد عددهم بخمسة من خمس قبائل (أكثر ما يمكن عادة ، أن يؤثر بضربة واحدة في مكان واحد).

ويأتي من التعليق والملاحظات هنا: -

الشخص الغريب (الشيخ النجدي) وإن سيطر على المجلس وامتلك زمام الأمر فيه واستولى على مشاعر القوم واستهواهم حتى أوقعهم في الهوة الأفحش عمقا من الشناعة والفظاعة ، إلا أنه مع ذلك لم يبد من عندياته أيّ رأي فلم يكن له على القوم أي سلطان لإخضاع إراداتهم أو توجيه أفكارهم ، واقتصر على خطة الاستهواء والتزيين والتخويف تاركا للقوم تحمل تبعة ما

(1) العقل: بفتح العين المهملة وإسكان القاف وآخره لام من معانيه - وهو المراد هنا - الدية التي تدفع لأولياء القتيل عوضا عن القصاص بقتل القاتل والفعل منه مفتوح ، في الماضي وفيه الكسر والضم في المضارع.

يتخذونه من قرار (خطة أشبه ما يكون بخطة إبليس! ").

ما جاء من الروايات في حادث المؤامرة هذه وأن الحوار فيها كان يدور على ثلاثة اقتراحات - السجن والإبعاد والقتل- يطابق تماما ما جاء في الآية الكريمة من سورة الأنفال في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ [1] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

فقد جاء أن هذه الآية نزلت عليه صلىّ الله عليه وسلّم في هذه الحادثة. ويقتضي هذا أن تكون الآية مكية مع أن المعروف المتداول هو كون آيات سورة الأنفال إنما كان نزولها بالمدينة إبان واقعة بدر. ولهذا كان هذا موضع بحث للعلماء أظهروا فيه وجوها من الاحتمالات. وعلى كل حال فدلالة هذه الآيات على المؤامرة الواقعة من الكفار عليه صلّى الله عليه وسلّم دلالة تامة الوضوح سواء قيل أنها نزلت في ذلك الوقت أو نزلت من بعد حكاية للتذكير.

والوارد من الأخبار عن اطلاع الرسول صلى الله عليه وسلم على ما بيّته القوم الظالمون من المكر به يفيد أن ذلك كان بطريق الوحي السماوي نزل به عليه جبريل عليه السلام.

فتفيد الرواية هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم بينما كان بمنزله حيث آوى إليه للمبيت إذا بالوحي ينزل عليه بخبر ما دبره المتآمرون ضده فقام عليه الصلاة والسلام في مواجهة الحادث بأن أمر عليّ بن أبي طالب الذي كان معه عضوا من أعضاء منزله أن يأخذ مكانه المعتاد(مكانه صلى الله عليه وسلم) فيضطجع نائما على سريره ، وزاد على ذلك بأن أمره بأن

---

[1] فقد جاء للمفسرين تفسير لفظ " ليثبتوك " بأنه بمعنى " ليحبسوك " و" ليوثقوك ". ومن الجاري في اللغة أنه يقال " أثبتته الجراحة " أو " أثبته المرض " بمعنى حبسه عن القيام ومنعه الحركة.

يتشح[1] بردائه المعروف به. (وقد جاء في وصف ردائه صلى الله عليه وسلم هذا بأنه كان من نوع الرداء الحضرمي طوله أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان وشبر ، كان صلى الله عليه وسلم يلبسه في المناسبات كالعيدين قيل أنه أحمر اللون وقيل أخضر) وعرف الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر لعليّ وقال له - مطمئنا له -: " إنه لن يخلص إليك منهم شيء تكرهه! ".

ويؤخذ من خبر هذا الإجراء أن عليّ بن أبي طالب أمضى تلك الليلة مضطجعا على سرير الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرعه شيء حتى أصبح الصباح.

وجاء في صورة محاولة القيام بتنفيذ الجريمة وما كان من رد الفعل تجاهها من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم أنه بعد العتمة[2] عند مضي ثلث الليل الأول أقبل الجمع من المعنيين بأمر تنفيذ الخطة وكانوا نحو المائة شخص كلهم مسلحون وذكر من أسماء البعض منهم على الخصوص أبو جهل وأبو لهب والحكم بن أبي العاص ، وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود. فأحاطوا بمنزله عليه الصلاة والسلام ، جاء أنهم جاؤوا يرصدونه إلى الصباح فيقتلونه في وضح النهار حتى تشهد قبيلته تفرق دمه في القبائل!.

فكان أبو جهل يحدث القوم في هذا الوقت يقول لهم: " يزعم محمد أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن[3] ، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها! ".

---

(1) فعل يتشح: ومثله " يتوشح " مأخوذ من " الوشاح " وهو في الأصل من لباس الزينة يوضع على الصدر ، والتوشح والاتشاح هو اشتمال الثوب بحيث يغطي الصدر والكتفين.

(2) العتمة: بفتحتين على العين المهملة والتاء المثناة الفوقية ، اسم يطلق على المدة من ثلث الليل الأول كما يطلق على ظلمة الليل طلقا.

(3) الأردن: بضم الهمزة وإسكان الراء وضم الدال المهملة وآخره نون مشددة ، وهو اسم النهر المعروف بأرض فلسطين.

وفي هذه اللحظات كان خروجه صلّى الله عليه وسلّم من المنزل فخرج عليه الصلاة والسلام يتخطاهم قائلا (كجواب على مقال أبي جهل) " نعم! أنا أقول ذلك ".

وجاءت رواية تفيد أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج لم يخرج من باب المنزل وإنما تسور الحائط الخلفي فإن خادمته **مارية أم الرباب*** طاطأت له فصعد على ظهرها واعتلى الحائط ثم نزل إلى الأرض. وورد أنه صلى الله عليه وسلم عندما كان يتخطى القوم كان ينثر التراب على رءوسهم وهو يتلو سورة يسٓ، وانصرف حيث اختفى!.

وجاء في الروايات هنا أنه بينما كان القوم حول المنزل يرصدون خروجه صلّى الله عليه وسلّم حسب الخطة المرسومة عندهم إذ أتاهم شخص فأخبرهم بخروجه صلى الله عليه وسلم وأنه قد أفلت منهم. فورد أن هذا الآتي لما وصل إلى القوم قال لهم " ماذا ترصدون؟ أترصدون محمدا؟ ... إن محمدا قد مضى إلى حيث يريد!! (وفي لفظ) أنه قال لهم" قبح سعيكم "! أو قال: " خاب سعيكم " أو ما معناه " خاب فالكم! وطاش سهمكم!"

وأخبرهم خبر إفلاته صلّى الله عليه وسلّم من أيديهم وأكد خبره بأن قال لهم: "أنه قد نثر التراب على رءوسكم فالتمسوا رءوسكم!" فكان الواحد منهم يلمس بيده فوق رأسه فيجد به ترابا!.

ومن التعليق على هذا: - أبهم في الروايات اسم هذا الآتي... وجاء نص العبارة في بعض الروايات القول هكذا: " فأتاهم آت منهم! ".

وإذا كان الاحتمال في تعيين هذا الآتي - على مجرى العادة- يحتمل وجوها عدة. فإنه لن يعدو أن يكون مصدره من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو على تقدير أن المخبر كان على دين القوم عقيدة إلا أن عاطفته كانت نحو الرسول صلى الله عليه وسلم.

هذا أقل ما يقرب من وجوه الاحتمال، إما أن يكون المخبر ممن اطلع على الحادث بذلك الوجه الدقيق وهو مع ذلك من فريق المتآمرين، فهو الإحتمال البعيد أقصى البعد إلى حد الاستحالة.

وأفادت الرواية أن خبر هذا الآتي أوقع القوم في ارتباك واضطراب فأخذوا يتطلعون إلى داخل المنزل من صير[1] الباب ومن أعلى الحائط وكان الحائط قصيراً.

فكانوا يبصرون عليًّا مضطجعا على السرير وهو مسجى بالبرد المعروف له صلّى الله عليه وسلّم، فيقول بعضهم للبعض: "-هو- والله - إنه-والله- لهو!" وقد أوهن هذا عندهم خبر المخبر المذكور، ومع ذلك كان التشويش يسودهم. وهكذا استمروا في التردد بين الإقدام على اقتحام المنزل أو التريث إلى الصباح (كما هي الخطة المقررة)... إلى أن أصبح الصباح.

ومما جاء من الروايات هنا أن البعض من القوم تسور الجدار الذي كان قصيرا، فصاحت لذلك امرأة داخل المنزل فتراجعوا وقال بعضهم: "إنها لسُبَّة أن يتحدث عنا بأننا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمنا!".

فلما أصبح الصباح قام عليّ بن أبي طالب من المضجع وهم يرقبونه فعرفوه. وإذ ذاك تبلبل حالهم وأخذ منهم من يقول مقاله "صدق من أخبرنا أنه خرج!"

وأفادت رواية بأنهم أقتحموا المنزل إذ ذاك داخلين على عليّ شاهرين سيوفهم وثار عليٌّ في وجوههم فسألوه عنه صلى الله عليه وسلم يقولون: "أين صاحبك؟" فقال: "لا علم لي به!".

---

(1) صير الباب: بمعنى شقه، ولفظ الصير بكسر الصاد المهملة ممدودة آخره راء، يطلق على طرف الشيء كما يطلق على نهاية الأمر ومثله المصير.

وأفادت رواية بأنهم لما أيسوا من المنزل خرجوا بعليّ يضربونه حتى أودعوه المسجد فحبسوه هناك لمدة ثم خلوا عنه.

وفيما تعلق بالمكان الذي التحق به الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء اليل وأمضى به بقية الليلة روايات... منها ما تذكر أنه قصد منزل أبي بكر فأقام به إلى الصباح ، ومنها ماتذكر غار ثور* وأنه صلّى الله عليه وسلّم التجأ إليه لباقي الليل...ومنها ما أبهم المكان وأنه مجهول للجميع!.

الدرس 56

الإذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة إلى المدينة

(إذا أراد الله إنجاز أمر هيأ له أسبابه!)

فعندما تكوّن في المدينة مجتمع إسلامي كامل المقومات ، فصارت بذلك قاعدة للإسلام تنطلق منها الدعوة محمية بوافر الشوكة.

يقوم الملأ من قريش في مكة بإصدار ذلك الحكم المغرق في السفاهة المتجاوز كل حدود التهور والبشاعة ضد شخصية الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن دعاهم لما يحييهم وهداهم لما يسعدهم وينجيهم.

وقد سبق للقوم طوال مدة محاربتهم للدعوة التي استغرقت عشرة أعوام كاملة ، أن أوغلوا في اقتراف الموبقات وارتكاب العظائم من المنكرات من الأذى لشخص الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولأتباعه عامة وخصوصا المستضعفين منهم.

ولكن فضيحة مؤامرة دار الندوة وفظيعة القرار الناتج عنها ، نموذج من القبح ومثال من العار لم يتقدم له نظير. وقد عرف مما تقدم ذكره من أحداث السيرة أن الحديث بقتله صلّى الله عليه وسلّم لاكته ألسنة القوم وهددوا به مرارًا وتناولوه - على البعد - في مناسبات ثائرة ، وفي ملابسات أحوال عابرة. أما أن يتخذ كقرار صادر عن إجماع الجمع الغفير من ذوي الرأي والحجى بعد مداولة وتحرير ودراسة بمكر وتدبير ثم يوضع موضع التنفيذ بكل جدية وحماس ، في رابعة النهار بمشهد من عموم الناس ، فهذا ما جعل للطمع في صلاح القوم حدا ، ووضع في طريق الحوار معهم سدا.

وكشف القدر أثر هذا الحادث عن أن مهمة الرسول صلّى الله عليه وسلّم في إبلاغ الدعوة بمكة المكرمة قد بلغت النهاية وأن مدة الثلاثة عشر عاما - كاملة- قضاها عليه الصلاة والسلام في العناء مع القوم فيها الكفاية.

فنزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بالإذن له أن يهاجر إلى المدينة المنورة ليواصل مهمته الشريفة هناك ، وبوسائل أخرى على أسلوب جديد متطور ، وبإمكانيات لم يكن لها بمكة أن تتوفر.

فتفيد الأخبار أنه عندما خيب الله تعالى سعي أصحاب المؤامرة الدنيئة وباءوا في كل ما بيتوا من مكر وكيد بالفشل والبوار ، ولم يحصلوا من مكرهم إلاّ على الخزي والعار ، وإذْ أعمى الله أبصارهم كما عميت قلوبهم فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم وتركهم يحاصرون منزله ، فإثر هذا أذن له صلى الله عليه وسلم أو أمر بالهجرة إلى المدينة المنورة ، بل تذهب روايات إلى أن الأمر له صلى الله عليه وسلم بالهجرة نزل عليه في نفس اللحظات التي كان الأعداء الماكرون يحيطون بمنزله [سياق أحداث هذا الموضع جاء متغايرا في التنسيق بين تلك الأحداث. فبينما يفيد سياق -كما ذكر هنا - أن الإذن له صلى الله عليه وسلم بالهجرة أول ما أذن له بذلك كان بعد إقدام الأعداء على تنفيذ ما قرروه من الفتك به حتى جاءوا منزله وأحاطوا به. يفيد سياق آخر ، ومشى عليه كثير ممن ألف في السيرة ، أن الإذن له صلّى الله عليه وسلّم بالهجرة كان قد صدر له قبل هذا الأوان أي أنه كان عندما قرر القوم في دار الندوة عملية القتل وفي هذا الأثناء توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى دار أبي بكر فأخبره خبر الإذن بالهجرة ، وكان الاستعداد للسفر وإتخاذ الوسائل اللأّزمة لذلك ، حتى كانت ليلة حصار منزله صلى الله عليه وسلم من طرف الأعداء ، وهو به فخرج صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى غار ثور حيث التقى بصاحبه أبي بكر في الطريق ثم التحقا بالغار] فخروجه صلى الله عليه وسلم من المنزل إنما كان لأخذ الأهبة إلى السفر إلى المدينة.

وجاء في بعض الروايات هنا أنه صلى الله عليه وسلم لما أذن له بالهجرة سأل عمن يصحبه فيها ، فعين له صاحبه الصديق أبو بكر رضي الله عنه بوحي من الله عزّ وجلّ على لسان جبريل عليه السلام.

والرواية المشتهرة في خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا إلى المدينة هي ما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها ، تقول: " - بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة إذا بقائل يقول لأبي بكر: " هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا[1] (بباب المنزل). (وورد في تعيين هذا القائل أنه أسماء[2] بنت أبي بكر أوأنه عامر[3] بن فهيرة) ، والعادة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأتي منزل أبي بكر في أحد وقتين هما طرفا النهار (صباحا أو عشية).

فقام أبو بكر قائلا (بتلهف): "- فداء له أبي وأمي والله ما جاء في هذه الساعة إلاَّ لأمر...!"

فلما اقتبل أبو بكر الرسول صلى الله عليه وسلم واستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم ودخل المنزل تنحى له أبو بكر عن مجلسه فوق السرير فجلس فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لأبي بكر: " أخرج من عندك بالمنزل " - يريد إخلاء المنزل حتى ينفرد مع أبي بكر ، وأجاب أبو بكر عن هذا بقوله: " يا رسول الله إنما هي أهلك! " فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " إنه قد أذن لي في الخروج " ، فقال له أبو بكر: " الصحبة يا رسول الله! " ، قال: " نعم! ".

و إذ ذاك أخذ أبو بكر يبكي ، تقول عائشة: " وما كنت أعلم قبل ذلك أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي كذلك ".

---

(1) متقنعا: مأخوذ من القناع بكسر القاف وتخفيف النون مفتوحة وممدودة وآخره عين مهملة. والتقنع بالقناع هو تغطية كامل الرأس باشتمال الثوب عليه ، بحيث لا يبقى ما هو مكشوف من الرأس إلا الوجه.

(2) أسماء بنت أبي بكر: أخت أم المؤمنين عائشة وهي أكبر من عائشة ، وفضلها في الصحابة معروف ، وهي زوج الزبير بن العوام وأم ابنه عبد الله ، وعاشت طويلا إلى مدة ولاية عبد الملك بن مروان أي سنة أربع أو خمس وسبعين للهجرة.

(3) عامر بن فهيرة: بضم الفاء وفتح الهاء ثم ياء مثناة سفلية ساكنة ثم راء بصيغة التصغير. وورد في التعريف به بأنه كان من موالي بني تيم القرشيين ، وأنه كان أسود اللون ، ومن السابقين إلى اعتناق الإسلام ، وممن تحملوا التعذيب في ذلك وأعتقه أبو بكر الصديق حيث اشتراه من مواليه ومات شهيدا في سرية بئر معونة المشهورة سنة أربع للهجرة.

فقال أبو بكر للرسول صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين فإني قد أعددتهما للخروج". فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " بل بالثمن!" (وجاء من البحث في هذا أنه صلى الله عليه وسلم أحب أن تكون نفقة هجرته من ماله الخاص ومن مجهوده الذاتي وإلاّ فإنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل من إنفاق أبي بكر عليه الكثير، فقد ثبت أن أبا بكر أنفق الآلاف العديدة على الرسول صلى الله عليه وسلم.

تقول عائشة رضي الله عنها: " فجهزناهما أحسن الجهاز وأسرعه سفرة[1] في جراب[2] وكان ذلك شاة مطبوخة". قالت: " ولم نجد رباطا للجراب ولا للقربة فشقَّت أسماء نطاقها[3] شقَّين ربطت بأحدهما الجراب وبالآخر القربة[4]".

وجاء في حديث الهجرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه استأجرا رجلا ليكون لهما دليلا في الطريق (وفي رواية أن الذي تولى الاستئجار لهما هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي أخرى أنه عامر بن فهيرة. وجاء عن هذا الأجير أنه كان دليلا خريتا[5] وهو من بني

---

(1) السُّفرة: بضم السين المهملة وإسكان الفاء، يطلق على زاد المسافر الخاص بالطعام، وهو المراد هنا، كما يطلق أيضا على ما يفرش ليوضع الطعام عليه كالمائدة.

(2) الجراب: بكسر الجيم، تقدم بيانه غير ما مرة، وهو وعاء يتخذ من الجلد ويطلق عليه في بعض الاستعمال لفظ " المزود " بكسر الميم وإسكان الزاي ثم واو مفتوحة آخره دال مهملة مأخوذ من الزاد.

(3) النطاق: بكسر النون ثم طاء مهملة ممدودة ثم آخره قاف يطلق على ما يشد به الوسط كالحزام وهو المراد هنا. كما جاء أنه لباس خاص تلبسه النساء على وضع مخصوص.

(4) القربة: هي الوعاء المعروف لحمل الماء واللبن ونحو ذلك من الوسائل يتخذ من الجلود وأكثر ما يكون من جلد المعز وهو بكسر القاف وإسكان الراء.

(5) الخريت: بكسر الخاء المعجمة ثم راء مكسورة مشددة ممدودة وآخره تاء مثناة فوقية من أوزان المبالغة في اسم الفاعل مأخوذ من الخرت بفتح الخاء وإسكان الراء، والفعل منه مفتوح في الماضي مضموم في المضارع. " فالخريت " هو الذي يخرت الأرض بمعنى يعرف أخراقها وهي مسالكها الضيقة الملتوية الخفية، بمعنى الخريت على الجملة هو الدليل الحاذق الماهر العارف بمسالك الطريق.

الديل[1] يسمى عبد الله بن أريقط[2] أو أرقط (وعرف البعض هذا الدليل باسم الأريقط بن عبد الله الليثي). وأنه كان في هذا الأوان على دين الجاهلية, واختلفت الأخبار عن إسلامه فيما بعد فيقول البعض بأنه أسلم، ويقول البعض لم يعرف عنه أنه أسلم. وبعد الاتفاق مع هذا الدليل دفعت له الرواحل وعين موعد الخروج بعد ثلاث ليال من المكان الذي عين أيضا وهو جبل ثور[3].

ومما جاء من الأخبار هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعلم عليّ بن أبي طالب بخروجه هذا وكلفه بأن يخلفه في أهله وأن يتولى ردّ الودائع التي كانت مؤمنة عنده صلى الله عليه وسلم للناس (فقد أطبقت الأخبار على أنه لم يكن أحد بمكة عنده شيء يخاف عليه إلاّ وضعه بيد الرسول صلى الله عليه وسلم مستأمنا عليه).

ثم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه التحقا بغار في جبل ثور في ظلمة الليل.

وجاء في خبر بأن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر من دار أبي بكر كان من خوخة[4] في ظهر الدار. كما ورد أن أبا جهل

---

(1) بنو الديل: بكسر الدال المهملة ممدودة آخره لام، فرقة من بكر بن كنانة.

(2) أريقط: بضم الهمزة وفتح الراء ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ثم قاف وآخره طاء مهملة بصيغة التصغير، وجاء فيه صيغة المكبر (أرقط) كما جاء إبدال الطاء دالا مهملة (أرقد وأريقد) ومن الملاحظ في موقف ابن أريقط هذا أنها ظاهرة لخلق الأمانة والإخلاص للمهنة بما يدعو إلى المزيد من الإعجاب كما أنه بالتالي إشعار بما عليه المجتمع العربي من خلق الوفاء وحرمة العهد والصدق في الوعد كما يدل على ذلك تعاطي عقدة الاستئجار من دون ما خشية ولا تردد والظرف كما هو على أشد ما يكون معاكسة ومناوءة.

ومن إحدى الغرائب التي جاءت في كتاب (لباب الخيار) في السيرة للأستاذ مصطفى الغلاييني تسمية هذا الرجل دليل الرسول صلى الله عليه وسلم في طريق الهجرة باسم " بديل بن ورقاء ".

(3) عين جبل ثور: بفتح الثاء المثلثة وإسكان الواو اسم الحيوان المعروف بأنه يبعد عن مكة بأميال نحو الثلاثة أسفلها بحيث يكون جنوبا شرقيا والاتجاه إلى جبل ثور يعاكس الاتجاه إلى طريق المدينة تمام المعاكسة.

(4) الخوخة: بفتح الخاء المعجمة بعدها واو ساكنة ثم خاء أيضا هي هنا اسم للكوة (أي الفتحة) في جدار البيت تفتح لإدخال الضوء إليه، ويطلق الخوخة أيضا على الباب صغيرا يفتح في باب أكبر.

صادف الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء الطريق إلى الغار وأعمى الله بصر أبي جهل فلم يره.

ومن الروايات هنا أن أبا بكر في مسيره إلى الغار كان يمشي تارة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وتارة خلفه وتارة يمينه وتارة شماله!!! وسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا فقال: " أذكر الرصد[1] فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، لا آمن عليك في كل ذلك ".

و منها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يمشي في توجهه إلى الغار، على أطراف أصابعه حتى لا يظهر أثر قدميه وأنه صلى الله عليه وسلم تقطرت قدماه دمًا، وحمله أبو بكر حتى بلغ المكان. ومنها: - أنهما ضلا الطريق في مسيرهما هذا فما بلغا الغار إلاّ مع الصبح.

و منها: أنه صلّى الله عليه وسلّم ركب ناقته الجدعاء في مسيره هذا إلى الغار.[2]

و من هذه الروايات ما يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما توجه إلى الغار من منزله حيث كان به عليّ بن أبي طالب فأوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم بما أوصاه به وأمره أن يدل عليه أبا بكر ليلتحق به بالمكان المعروف **ببئر أم ميمون** * في الطريق إلى جبل ثور وكان الأمر كذلك فالتحق أبو بكر به صلى الله عليه وسلّم بذلك المكان ثم تابعا مسيرهما إلى الغار ولما بلغا الغار أقسم أبو بكر عليه صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل الغار إلا بعد أن يدخله أبو بكر ويتفقده حذرا مما قد يكون فيه

---

(1) الرصد: بفتحتين على الراء والصاد المهملة آخره دال مهملة هو كالحرس بفتحتين على الحاء المهملة والراء وآخره سين مهملة، يطلق على من يعترض الطريق ينتظر القادم لينال منه مناله، فيطلق على الواحد والجمع سواء، والفعل منه مفتوح الماضي مضموم المضارع ومصدره الرصد بفتح فسكون وقد يفتح الصاد في المصدر أيضا.

(2) جاء لبعض الأئمة تصحيح ما في هذه الرواية التي تذكر ركوبه صلى الله عليه وسلم ناقته الجدعاء في مسيره إلى الغار بأنه من خلط المواضيع، والركوب إنما كان عند الخروج من الغار وليس عند الدخول.

من حيَّات مؤذية. وهكذا دخل أبو بكر رضي الله عنه الغار ووجد به عدة من جُحْر[1] الحيات فشق ثوبه وجعل منه خرقا سد بها ما كان من الثقوب وتخلف له جحر لم يجد ما يسده به وهيّأ موضعا للرسول صلى الله عليه وسلم فاستقر به ومدّ أبو بكر رجله فسد بعقبه ذلك الجحر الذي بقي مفتوحًا.

وتعرض هنا رواية التماس الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه صهيبا الذي كان مواعدا أن يرافق الرسول صلى الله عليه وسلم في الهجرة.

فورد أنه في هذا الأثناء من التوجه إلى الغار التمس الرسول صلى الله عليه وسلم خبر صهيب فذهب إليه أبو بكر فوجده يصلي، وكره أبو بكر أن يقطع عليه الصلاة، وزاحم الوقت فتخلى عنه أبو بكر ورجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فأخبره بذلك وكان الدخول إلى الغار ففاتت صهيبا فرصة مرافقة الرسول في الهجرة، وقد هاجر بعدها بقليل. ومما جاء في الروايات هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما استقر مع أبي بكر بالغار كان على حالة إعياء شديد فنام في حجر أبي بكر، ولدغت حية عقب أبي بكر حيث كان يسدّ جحرها بعقبه، فكانت دموعه تتساقط من شدة ألم اللّدغ حتى أصابت وجه الرسول صلى الله عليه وسلم، فأيقظه ذلك، وسأل أبا بكر عن ذلك فأخبره، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يتفل على موضع اللّدغ ويمسحه، فسكن الألم وعوفي أبو بكر رضي الله عنه. كما جاء من الروايات هنا أيضا أن أبا بكر دميت إحدى أصابعه حينما كان ينظف الغار، فتمثل بالبيت المشهور من الشعر:

" هل أنت إلاَّ أصبع[2] دميت * وفي سبيل الله ما لقيت ".

---

(1) الجُحْر: بضم الجيم وإسكان الحاء المهملة آخره راء هو غار الحية ومقرها الذي تسكن فيه.

(2) الأصبع: بالصاد المهملة والباء الموحدة وآخره عين مهملة مفرد أصابع اليد أو الرجل. وفيه عدة لغات في حركات الهمزة والباء مع إسكان الصاد في الجميع وأكثر الاستعمال تأنيثه (كما هو هنا) ويستعمل تذكيره أيضا.

كما جاء من الروايات هنا الرواية التي تفيد أن الله سبحانه وتعالى أنبت على باب الغار شجرة من الشجر المسمى بأم غيلان[1] ويعرف بالطلح* وبالبان*. ونسجت العنكبوت نسجها على باب الغار. وجاءت حمامتان وحشيتان فباضتا حول باب الغار. [أفاد البعض ممن ألف في علم السيرة أن رواية نسج العنكبوت على الغار هي من الروايات التي إسنادها حسن ، وقد رواها الإمام أحمد بن حنبل ، ولم ترد في الصحاح لا هي ولا رواية الحمام ولا رواية نبات الشجرة ، ويظهر أن المشتهر في الذكر من بين هذه الآيات الثلاث هي رواية نسج العنكبوت]. هذا والذي أجمعت عليه روايات الأخبار من هذا المحل أن القوم مدبري خطة الفتك بالرسول صلى الله عليه وسلم جن جنونهم وطاشوا وبلغ منهم توتر الأعصاب أقصى حدود الاضطراب والبلبال عندما تبدى لهم شبح الخيبة في مسعاهم الأثيم بإختفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمعنوا كل الإمعان في طلبه والتفتيش عنه بمكة أعلاها وأسفلها وبثوا الجواسيس ووزعوا القافة[2] يقصون الأثر وبلغ القائف جبل ثور وانتهى عنده حيث عمي عليه الأمر إذ ذاك فقال لهم: " لا أدري بعد هذا ".

و ورد أن جمعا من القائمين بالتفتيش يتركب من أربعين رجلا يحملون السيوف والعصيّ وجاءوا جبل ثور حتى كانوا على نحو أربعين ذراعا من الغار.

---

(1) كل من شجر أم غيلان بكسر الغين المعجمة. و"الطلح" بفتح الطاء المهملة وإسكان اللام آخره حاء مهملة. و" البان" يرجع إلى جنس شجر " العضاه " بكسر العين المهملة وفتح الضاد المعجمة ممدودة بالتخفيف وآخره هاء ، وهو شجر بريّ يعظم وله شوك ، وقد عرف شجر البان بالطول واعتدال القوام.

(2) القافة: بفتح القاف ممدودة بعدها فاء مفتوحة مخففة وآخره تاء التأنيث اللفظي ، اسم جمع "للقائف" وفعله " القيافة " بكسر القاف وتخفيف الياء المثناة الفوقية وهذا الجمع كالجمع في " الصاغة " جمع " صائغ " و" القادة " جمع " قائد" و" الباعة " جمع " بائع " ، والقائف تقدم تعريفه في الدرس التاسع بأنه الذي ينظر في أعضاء الشخص ليعرف النسب وفي أثر الماشي في مثل الرمل يعرف به هوية الماشي.

وتعجل البعض منهم فقصد الغار نفسه فأبصر الحمامتين حوله ونسج العنكبوت عليه فقال لأصحابه أن الغار ليس فيه أحد.

و جاء في إحدى الروايات أن في القوم من قال لهم: " ادخلوا الغار " (ففتشوه) فقال أمية بن خلف: "- وما أرَبكم[1] بالغار ؟ إن عليه لعنكبوتًا (أي نسجها) أقدم من ميلاد محمد!" ثم جاء قبالة الغار فكشف عن عورته وأخذ يبول (وتفيد رواية أخرى) أن هذا كان من القائف الذي أتى به القوم معهم. وفي هذا الأثناء كان أبو بكر على حالة أشد ما يكون إشفاقا وتخوفا فطمأنه الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال له: " أنه لو كان أبصرنا ما فعل ما يفعل (أي من البول).

وجاء في رواية أخرى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما رأى القوم أقبلوا نحو الغار والقائف معهم يحدثهم ويقول لهم ويقسم لهم أن مطلوبكم لم يتجاوز هذا الغار ، فحزن حزنًا شديدًا حتى أدركه البكاء فأخذ يبكي...! فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يصبره ويشجعه. فأجاب أبو بكر يقول له: "- يا رسول الله ، والله ما على نفسي أبكي! ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره ، إن هلكتُ فإنما أنا رجل واحد وأن تصبْ أنت أصيبت الأمّة (جمعاء)!".وفي هذا المحل قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: " لا تحزن إن الله معنا!".

وجاء في رواية عن أبي بكر نفسه رضي الله عنه قال: " نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رءوسنا فقلت: " يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ " .

وفي هذا الموضع سياق الآيات من سورة التوبة في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ

---

(1) الأرب: بفتح الهمزة وفتح الراء وآخره باء موحدة ويقال أيضا الإرب بكسر الهمزة وإسكان الراء ، وهو بمعنى " الحاجة والغرض ".

هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

- وهكذا كانت هذه الحملة من قريش لطلب الفتك والإيقاع بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم على ما هي عليه من جهاز القوة الفكري والماديّ من قافة مهرة وعيون حذقة بل شاهرة يقظة ، وحشود من فتيان أجلاد ، وخيول جياد وسيوف صوارم وأسنة حداد تولي الأدبار وترجع القهقري بالهزيمة والانكسار وتبوء بالخيبة والفشل الذريع. وتعود أدراجها بالحسرة والعار الشنيع ، وقد كفى في ردّها على أعقابها رمح من غصن بان ، وترس من نسج عنكبوت ، وحرس من زَوْجَيْ حمام!.

وأفادت الأخبار بأن القوم بعدما أيسوا من الغار وأعياهم الطلب أنفذوا الرسل إلى مختلف النواحي خارج مكة ينادون في الأسواق والمجتمعات أن من قتل أو أسر محمدا أو صاحبه أو دلّ على واحد منهما ، فله جعل بمائة ناقة كما نادوا بهذا أيضا في داخل مكة أعلاها وأسفلها.

وفي رواية بلفظ: " من أتاهم بمحمد أوصاحبه فله الجعل بمائة بعير ، وأن من أصاب الاثنين فله الجعل مضاعفا بمائتين إلى غير ذلك مما بذلوه. والمعتمد في الأخبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مكثا مختفيين في غار ثور لمدة ثلاث ليال ، وكان يبيت معهما بالغار **عبد الله بن أبي بكر الصديق** *. وجاء فيه أنه كان غلاما في سن المراهقة على جانب ملحوظ من الفطانة والذكاء. فولي مهمة المخابرة فكان يأتي الغار إذا أظلم الليل ويدلج [1] بفجر ليصبح

---

(1) يدلج: من مادة دلج بالدال المهملة واللام والجيم إذا استعمل الفعل منها مزيدا بالهمزة " أدلج " أو كان من باب الافتعال " أدلج " بتشديد الدال للإدغام فمعناه " السير في الليل " وهو المراد هنا ، وهو مأخوذ من الدلجة بالفتح والدلجة بضم الجيم - وفي بعض كتب اللغة أن المزيد بالهمزة ينصرف إلى " السير أول الليل ". وما كان من باب الافتعال ينصرف إلى " السير في آخر الليل ".

مع قريش ويختلط بمجامعهم فلا يسمع شيئًا مما يدور من الحديث في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم مما يدبره القوم من التدابير والمكائد إلاّ أبلغه للرسول صلى الله عليه وسلم. وكان عامر بن فهيرة - رضي الله عنه- وهو يشتغل راعيا لأغنام أبي بكر - يريح*الغنم على باب الغار فيحلب لهما إذا مضت ساعة بعد العشاء[1] . كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تأتيهما بما يصلحهما من الطعام في جنح[2] الليل. وجاء في هذا من رواية عن عائشة رضي الله عنها تقول: " ما كان أحد يعلم مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من الغار إلا عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء وعامر بن فهيرة ".

وتفيد رواية أن في الليلة الرابعة لمكث الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه بالغار أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر هو الذي أمر ابنته أسماء أن تخبر عليّ بن أبي طالب بالمكان ، وأن تستأجر لهما دليلا ويأتي الدليل بالرواحل إلى أسفل الجبل بعد مضيّ حصة من الليل ، [ما جاء في هذه الرواية من وقت استئجار الدليل يخالف ما تقدم في الرواية التي تفيد أن الاستئجار تم قبل الدخول إلى الغار وحصل الاتفاق مع الدليل على تعيين موعد السفر بعد الاختفاء ثلاثة أيام يمكن فيها خمود حدة الطلب بمكة ونواحيها].

(1) يريح: مادة هذا الفعل الأصلية من الراء وحرف علة وآخره حاء مهملة فهو " الأجوف " ، والفعل هنا من المزيد بالهمزة فمصدره " الإراحة " يرجع إلى " الرواح " بفتح الراء وهو " العشي " المقابل للصباح فالمعنى هنا أنه كان يرجع بالغنم يريحها بالمراح بضم الميم وهو الموضع الذي تأوي إليه في الرواح ، وهذه المادة من أوسع ما يوجد في اللغة تعلقا بشتى المعاني وتنوعا في تصريف الكلمات ، ومما يلاحظ ما يوجد في الدارجة عندنا من فعل روّح بتشديد الواو ويروّح بمعنى رجع إلى المأوى والمستقر وهو مطابق لما هو هنا.

(2) جنح الليل: بضم الجيم وإسكان النون آخره حاء مهملة بكسر الجيم أيضا بمعنى "فترة من الليل".

والوارد من الروايات هنا مما أثبته البخاري في صحيحه أن الدليل أتى الغار بالرواحل صبيحة الليلة الثالثة لمكثهما بالغار [مما أفاده بعض مؤلفي السيرة أنه كثيرا ما يكون تخالف وتغاير في إيراد وقائع السيرة بين ما يثبته رواة السيرةالمختصون وبين ما يرويه رواة الحديث المعروفون بتخرج الأحاديث والبحث فيها من حيث السند وغيره. ويؤخذ من كلامه أن المتعين في هذا هو اعتماد ما صحت به الأحاديث المروية بأسانيد مقبولة].

وهنا أرسل أبو بكر ابنه عبد الله فأتاه بماله الذي كان بمنزله وكان عدة خمسة آلاف درهم فضة. وتذكر رواية هنا أن مال أبي بكر كان أول ما أسلم في مبلغ أربعين ألف درهم.

أورد البعض من مؤلفي السيرة في هذا المكان حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وما وقع بينها وبين جدها أبي قحافة[1] والد أبي بكر رضي الله عنهما ، تقول: " دخل علينا المنزل جدي أبو قحافة وكان قد كف بصره (بعد سفر أبي بكر للهجرة ، وأبو قحافة في الوقت لازال على دين قريش فإنه إنما أسلم يوم فتح مكة) - تقول أسماء: " فقال لنا ، والله إني لأراه (أي أبا بكر) قد فجعكم بماله مع بعد نفسه! فقلتُ: كلا يا أبتِ إنه ترك لنا خيرًا كثيرا!" ، تقول: " فأخذتُ أحجارًا فوضعتها في كوة البيت حيث كان أبو بكر يضع المال ووضعت على الأحجار ثوبًا وأخذتُ بيده وقلت له ضَعْ يدك على هذا فإنه المال الذي تركه لنا فلمسه بيده ، فقال لا بأس إن كان ترك لكم هذا ففي هذا بلاغ لكم " ، قالت: " ولم يكن أبو بكر ترك لنا شيئًا وإنما أردتُ أن أسكن قلب الشيخ!".

- وفي حادث دخول الغار هذا يقول شرف الدين البوصيري* في قصيدته الهمزية: -

---

[1] قحافة: بضم القاف وتخفيف الحاء المهملة بعدها فاء.

" وَيْحَ قـوم جفـوا نبيّـا بـأرض ألِفَتْـــه ضِـــبابها والظِّبـــاء

أخرجـــوه منهـــا وآراه غـــار رحمتـــه حمامـــة وَرْقـــاء [1]

وكفتْـــه بنـــسجها عنكبـــوت مـا كفتـه الحمامـة الحَـصْداء [2]

واختفى منهم وعلى قرب مرآ... ... هُ ومن شدة الظهور الخفاء "

وإلى هنا ينتهي الدور الثاني من السيرة في حياة الرسول صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه.

حسب الإصطلاح الذي مشى عليه البعض من مؤلفي السيرة من تقسيمها إلى ثلاثة أدوار: دور ما قبل النبوة ، ودور النبوة إلى الهجرة ، ودور الهجرة إلى الوفاة.

وهكذا يلاحظ على هذا الدور الثاني أنه ابتدأ بغار جبل حراء وانتهى بغار جبل ثور.

(1) الورقاء: قال شارحه هي ذات اللون الممتزج بياضا بسواد.

(2) الحصداء: قال هي كثيرة الريش.

الدرس 57

تعليق [1]

ببحث يتعلق بتاريخ أحداث الفصل الأخير من هذا الدور الثاني من السيرة النبوية وهو الفصل الذي يبتدئ ببيعة العقبة الكبرى إلى يوم استقرار الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء في هجرته إلى المدينة فإنه من المعلوم للمطلع أن أحداث السيرة بوجه الجملة لا يكاد يوجد منها حدث خلو من اختلاف الروايات فيه سواء من جهة التاريخ أو من حيث الانسجام والتنسيق بينه وبين حدث آخر مما يتضمنه السياق. وإذا كان الجمع والتوفيق ممكنا في كثير من وجوه ذلك الاختلاف فإنه يوجد فيها أيضا ما لا يمكن فيه الجمع ولا التوفيق فتكون المنافاة بين الروايتين أو القولين حاصلة لا محالة وهنا يتعين الاعتماد على ما يشهد له دليل دون ما لا وجه له من الدليل. وكذلك اعتماد ما كان دليله أقوى من دليل مقابله.

ووجوه الدليل متنوعة متعددة منها الشهرة المتواترة وتظافر الأخبار على صورة الحادث ومنها شهادة قرائن الأحوال وملابسات الظروف ونحو ذلك. ومنها شهادة الحساب المضبوط المستند إلى التاريخ الصحيح لواقع الحادث ، ومن الأمثلة على هذا حادث المولد الشريف والوفاة من حيث التاريخ ، فقد تواترت الأخبار بما يشبه الإجماع على أن المولد الشريف كان في شهر ربيع الأول ثم اشتهر تعيين اليوم بأنه يوم الاثنين اشتهارا بما يشبه الإجماع كذلك ثم وقع الاختلاف في عدد اليوم من الشهر. فبجانب ما جرى من تعيين اليوم الثاني عشر بأنه يوم المولد يوجد الخلاف بتعيين اليوم الثامن والتاسع وغيرهما. وكذلك الوفاة تواتر خبرها بأنها في شهر ربيع الأول أيضا واليوم هو الاثنين أيضا.

---

[1] ظاهر كل الظهور أن جميع ما أثبت في هذا الدرس ليس مما يتحمله الإلقاء الشفاهي وإنما هو تعليق كتابي أثبت في الدرس لمزيد الاطلاع الذي لا تعدم منه فائدة في الجملة ، فمضمون الدرس من حيث الإلقاء إنما هو نبذة مما يتعلق بالموضوعين اللذين حواهما هذا التعليق.

فيتعين من هذا أن عمر الرسول صلى الله عليه وسلم كانت سنواته القمرية تامة الضبط ليس فيها كسر اعتمادا على ما تواتر أيضا ، وأنه صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثا وستين سنة بالتقويم القمري ، قضى منها قبل النبوة أربعين سنة ، وثلاث عشرة بمكة يدعو إلى الإسلام [استغراق الدعوة بمكة مدة ثلاث عشرة سنة قمرية يقال في مقام الإلقاء على الاحتمال والتقريب إذ الواقع أقل من ذلك إذا روعي التحديد والضبط في الزمان إذ المعروف في الأخبار المعتمدة عن بدء نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم أن ذلك إنما وقع في أثناء شهر رمضان بعد تمام ستة أشهر من السنة الحادية والأربعين من عمره عليه الصلاة والسلام.

ثم كانت فترة الوحي لمدة أيام ، ثم نزلت آية الرسالة والأمر فالتبليغ ، فقام عليه الصلاة والسلام حينئذ بالدعوة بمكة وواصلها إلى الهجرة.

فمدة الدعوة بمكة لا تستغرق ثلاث عشرة سنة كاملة بالضبط ، وإنما هي على سبيل التقريب].

وهاجر إلى المدينة المنورة عند تمام ثلاث وخمسين سنة. فأقام بالمدينة عشر سنين بالضبط.

فيعرف من هذا الوجه في بيان تاريخ المولد إلى الوفاة بحسب التقويم القمري أنه الواقع المتعين الأخذ به. ويتعين لذلك اعتباره أصلا يرجع إليه في الحساب بالنسبة إلى التقويم الشمسي لما هو معروف من زيادة السنة القمرية على السنة الشمسية بعشرة أيام ، فينجم عن ذلك أن الثلاث والستين سنة قمرية يساويها من السنوات الشمسية إحدى وستون سنة وثلاثة أشهر. والملاحظ من عامة الأخبار المأثورة في تاريخ المولد الشريف وباقي أحداث السيرة هو إغفال ذكر التقويم الشمسي ، وهذا معروف طبعا من حال العرب إذ ذاك في استعمال الحساب القمري للبساطة والوضوح دون الحساب الشمسي ، على أنه قد جاء في البعض من

هذه الأخبار أن المولد الشريف كان في فصل الربيع.

وإنما كان التعرض للتقويم الشمسي في تاريخ أحداث السيرة في مؤلفات المتأخرين حتى أنه يوجد في المعاصرين ممن ألف في السيرة من استوعب بتعيين التاريخ بالحساب الشمسي جميع أحداث السيرة فردا فردا إلاّ أنه مع اتفاق جميع الذين تعرضوا للحساب الشمسي على اعتبار تاريخ الميلاد المسيحي مبدءا له فإنهم اختلفوا في تعيين الوقائع وفي هذا الاختلاف ما لا يمكن فيه الجمع والتوفيق بين القولين. وكذلك يوجد في القول الواحد عدم التلاؤم والانسجام بين ما يذكر ابتداء وما يذكر بعده من الأحداث اللازم تناسقها.

ففيما يخص المولد الشريف والوفاة يظهر اشتهار القول بأن المولد كان في شهر أبريل[1] من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة للميلاد المسيحي. وجاء عن البعض تحديد اليوم بأنه العشرون من شهر أبريل. ويرى البعض أنه اليوم الثالث من أبريل. وبجانب هذا يوجد في المعاصرين من أثبت المولد في شهر أغسطس[2] وفي اليوم العشرين منه وأن السنة هي السبعون بعد الخمسمائة للميلاد. واشتهر عنهم تأريخ الوفاة بشهر يونيه[3] من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة للميلاد وعين البعض اليوم بأنه الثامن من شهر يونيه.

---

[1] أبريل: في السنة الميلادية رابع شهورها، وهو الثاني من شهور فصل الربيع الثلاثة ويعرف في التقويم الرومي باسم نيسان، ويقارن من شهور السنة القبطية الشهر المسمى برمودة ثامن شهورها.

[2] شهر أغسطس: ويقال "أوت" و"أغشت" و"غشت"، وهو ثامن شهور السنة الميلادية وثالث شهور الصيف ويسمى "آب" في تقويم آخر ويقارن من شهور السنة القبطية الشهر المسمى "مسرى" آخر شهورها.

[3] شهر يُونْيه بالنون في الوسط، ويقال "يونيو" "وجوان" وهو سادس شهور السنة الميلادية والأول في فصل الصيف، ويعرف في تقويم آخر باسم "حزيران" ويقارن من شهور القبط شهر "بؤنه" العاشر منها.

ومنهم من أرخ للوفاة باليوم الثامن من شهر ربيع الأول على أنه يوافق اليوم الثالث من شهر يونيه... إلخ.

ويثبت البعض أنه اليوم التاسع منه وهذا التاريخ للوفاة مشى عليه من أثبت المولد في أبريل ومن أثبت في شهر أغسطس ، وبجانب هذا يوجد من أرّخ الوفاة بشهر فبراير[1].

ويظهر للمتأمل في جميع ما ذكر من هذه الأقوال أنها لا تفيد - ولا واحد منها - صورة من الانسجام والضبط الكامل بين تاريخ المولد وتاريخ الوفاة وأن ما يمكن الاعتماد عليه منها لا يؤخذ به إلا على سبيل التقريب والاحتمال.

ويؤخذ كمثال لهذا ما أثبته أحد مؤلفي السيرة من المعاصرين الذي توخى كامل التحرير والضبط لتاريخ المولد الشريف والوفاة وهو الأستاذ محمد **الخضري*** المصري المفتش بوزارة المعارف المصرية ومدرس التاريخ بالجامعة المصرية في كتابه المسمى "نور اليقين في سيرة سيد المرسلين"[2]. فإنه عندما تعرض لتاريخ المولد النبوي اعتمد القول بأنه يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول من السنة الواقعة بها حادثة الفيل بمكة. واعتمد في التقويم الشمسي على القول بأن اليوم هو العشرون من شهر أبريل من السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمائة للميلاد المسيحي.

وعندما تعرض لتاريخ الوفاة أثبت بأن ذلك كان ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول بسنة إحدى عشرة للهجرة الموافق للثامن من شهر يونيو سنة اثنتين وثلاثين وستمائة لميلاد المسيح. ثم أوضح

---

(1) شهر فبراير: ثاني شهور السنة الميلادية وهو الثالث من شهور فصل الشتاء ، وهو الناقص في شهور السنة فيعد 28 يوما في السنة البسيطة و29 يوما في الكبيسة ويعرف باسم " شباط " في التقويم الرومي ويقارن من شهور القبط شهر " أمشير ".

(2) نسخة الطبعة الحادية عشرة ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، بتاريخ سنة 1372هـ ، 1953 م.

بنص العبارة الآتية: " فيكون عمره عليه الصلاة والسلام ثلاثا وستين سنة قمرية كاملة وثلاثة أيام ، وإحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يوما ". فعد الأيام الزائدة على الإحدى والستين سنة شمسية بأربعة وثمانين يوما. ومقتضى الحساب أن تكون تسعين يوما ولكن لا بأس بذلك فيرجع الأمر إلى التقريب لا إلى التحديد (ولو أن المقام يقتضي التحديد المضبوط ، فالمؤلف استوعب التاريخ حتى بالأيام القليلة). ولكن كيف يعقل عدّ أربعة وثمانين يوما ما بين العشرين أبريل (كما اعتمده) والثامن يونيه ؟ وما هي إلا تسعة وأربعون يوما ؟ .

أما باقي ما تقدم ذكره من الأقوال فظاهر كل الظهور عدم الانسجام في كل منها بين تاريخ المولد وتاريخ الوفاة مع ما في بعضها من الغرابة والشذوذ كما في جعل المولد في شهر أغسطس من فصل الصيف ، وجعل الوفاة في شهر فبراير من فصل الشتاء. هذا ومما ينبغي ملاحظته هنا أنه يوجد من الأخبار ما كثر تداوله إلى حدّ الاستئناس به ثم هو مع ذلك مما قام الدليل القطعي على بطلانه ، وربما كان علة رواجه اعتبارات أخرى أجنبية عن الموضوع ترجع حتى إلى الاعتبارات العاطفية والعقائدية المذهبية ونحو ذلك. ففي موضوع تاريخ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث التقويم القمري ثبت بالتواتر القطعي أن ذلك كان في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة وأن اليوم هو يوم الاثنين. ثم كان الخلاف في حساب اليوم من الشهر على عدة أقوال فيها مما اشتهر ذكره أنه اليوم الثاني عشر فيلزم عليه عند ذكر ابتداء مرضه عليه الصلاة والسلام بأنه كان في يوم الأربعاء الذي هو آخر يوم من شهر صفر [1] . فأفاد تنسيق هذه الصورة زيادة على تعيين اليوم الثاني عشر من ربيع الأول بأنه يوم الوفاة الإشارة إلى يوم الأربعاء بأنه آخر يوم من صفر ، وكان فيه ظهور مرضه صلى

[1] بناء على الرواية المشهورة بأن مرضه صلى الله عليه وسلم كان لمدة ثلاثة عشر يوما.

الله عليه وسلم الذي توفي فيه [1].

والواقع من الحقيقة ينقض تماما كل ما جاء في هذه الصورة فلا يثبت قطعا شهر صفر بيوم الأربعاء ولا حتى بيوم الثلاثاء ليكون الأربعاء آخره على التمام ، وبذلك ينتفي أيضا دخول ربيع الأول بالخميس ليوافق يوم الاثنين عدة الثاني عشر منه ، والدليل على هذا هو الحساب المضبوط المستند إلى الواقع التاريخي الصحيح. فقد ثبت بالتواتر الذي انعقد عليه الإجماع أن يوم عرفة الذي هو التاسع من شهر ذي الحجة الذي كانت به حجة الوداع سنة عشر من الهجرة صادف هذا اليوم يوم الجمعة. فثبت بذلك شهر ذي الحجة بيوم الخميس وبذلك يثبت شهر المحرم فاتح السنة الحادية عشرة للهجرة إما بيوم الجمعة إذا كان ذو الحجة قبله ناقصا ، أو يثبت المحرم بيوم السبت إذا كان ذو الحجة قبله كاملا.

وعلى كلا الاحتمالين لا يثبت شهر صفر بالثلاثاء ولا بالأربعاء ، بل يحتمل ثبوته بالسبت أو بالأحد أو بالاثنين ، وبذلك ينتفي ثبوت ربيع الأول بالخميس ، وإنما يحتمل ثبوته بيوم الأربعاء على اعتبار أن الشهور الثلاثة قبله كلها كاملة وإذ ذاك يصادف يوم الاثنين عدد الثالث عشر من ربيع الأول [2]. وعلى هذا اعتمد من توخّى التحقيق في تاريخ وفاة الرسول

---

(1) وشهر صفر ويوم الأربعاء ، وخصوصا إذا كان آخر أربعاء من الشهر ، وبالأخص إذا كان يوم الأربعاء هو آخر يوم من صفر ، كلها هذه أوقات نحس في مذهب الخرافيين.

(2) على أنه جاء في الأخبار المأثورة ما يفيد تعيين تأريخ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بكامل الضبط ، فورد مما نقل عن سعيد بن جبير من أئمة التابعين في معرض ذكر ما هو ختام ما نزل من آيات القرآن فأفاد أنه الآية من آخر سورة البقرة: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ ... إلخ ، فقال: " لم يعش الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزولها إلا تسعة أيام وتوفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. ، ويوافق التاريخ المذكور عن سعيد بن جبير ما ورد عن ابن عباس وغيره من أئمة التابعين بأن الآية في إكمال الدّين من سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ ... إلخ ، النازلة يوم عرفة من سنة عشر الهجرية لم يعش الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزولها إلا إحدى وثمانين ليلة.

صلى الله عليه وسلم[1] . وأما ما يخص تاريخ وقائع الفصل الأخير من هذا الدور الثاني من السيرة (وهو المقصود بالذات من هذا البحث) ويشتمل ابتداء على بيعة العقبة الثانية المعروفة بالعقبة الكبرى إلى يوم نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء حيث قضى سفره للهجرة ، فإنه يوجد هنا معالم ثابتة يمكن الاستناد إليها في التعرف إلى أوقات تلك الأحداث ولو على وجه الاحتمال والتقريب. فمن الثابت بالأخبار المتواترة أن بيعة العقبة الكبرى جرت ليلة الثاني عشر من شهر ذي الحجة وأن نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء كان أوائل أيام شهر ربيع الأول ، وتواتر أيضا تعيين يوم هذا النزول بأنه يوم الاثنين فأفاد هذا أن سنَّه صلى الله عليه وسلم كانت أيام الهجرة في استكمال الثلاث وخمسين سنة قمرية بالتحرير.

كما يؤخذ مما اشتهر من الأخبار عن يوم مؤامرة دار الندوة بأنه كان يوم سبت من شهر صفر ، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يلبث عقب ذلك أن اختفى في الغار بجبل ثور ، وأن المكث في الغار لم يتجاوز ثلاث ليال ، وأنه صلى الله عليه وسلم خرج من الغار صبيحة الليلة الثالثة منها ، وواصل فور ذلك السفر إلى المدينة ، وأن هذا اليوم كان يوم خميس (يوم خميس على أحد وجهي الاحتمال). فيفيد هذا أن سفره صلى الله عليه وسلم استغرق فيما بين مكة والمدينة أحد عشر يوما ، وهو مطابق لما جرت عليه العادة إذ ذاك في السفر لتلك المسافة (وقد ورد في بعض الروايات الإخبارية التصريح بتحديد المدة من حين دخوله صلى الله عليه وسلم الغار إلى يوم نزوله بالمدينة ببضعة عشر يوما).

---

[1] كل هذا من أجل اعتبار دلالة مسمى اليوم في الخبر أقوى من دلالة عدد اليوم من الشهر لأن الأولى أقرب إلى الضبط وأبعد عن مظنة الخطإ والغلط ولا سيما إذا كان في الموضوع كما هو هنا ما يؤيد تعيين اليوم كالخبر المتواتر المستفيض ، فقد ورد كذلك تعيين يوم الاثنين لكثير من الأحوال الملابسة للرسول صلى الله عليه وسلم.

كما يفيد - ضرورة- تحديد المدة الزمانية بين يوم المؤامرة ويوم النزول بقباء وأنه خمسة عشر يوما بالضبط.

فهذا النسق يفيد صورة كاملة للأحداث على ترتيبها الطبيعي بوجه الإجمال، وإنما يظهر الخلاف عند التعرض لتعيين الأيام بالتسمية وتحديد الأوقات للوقائع بوجه الضبط. فوقع الخلاف فيما ذكر بين رواة الأخبار من المتقدمين وهم يعتمدون - كما هو معلوم- التقويم القمري فقط. كما وقع الخلاف كذلك بين المتأخرين ممن كتب في السيرة في تحديد أوقات الوقائع بحسب التقويم الشمسي مع أن الضبط فيه أيسر مما هو في التقويم القمري. ومن هذا الخلاف ما يمكن فيه التوفيق بين القولين ومنه ما لا يمكن فيه توفيق فيكون مما ينافي بعضه البعض إلا أنه مما يصح أن يتخذ كمستند يرجع إليه في معرفة وجوه الخلاف وترجيح ما يرجح من الأقوال النقط الآتية:

أولا: ما يؤخذ من مضمون الأخبار المأثورة ودل عليه عمل أهل الحساب، وهو ثبوت أول السنة الهجرية الأولى بيوم الجمعة وعليه فيكون فاتح شهر صفر إما بالسبت أو بالأحد، وشهر ربيع الأول أما بالأحد أو بالاثنين أو بالثلاثاء.

ثانيا: ما أثبته علماء الحساب والتاريخ من أن السنة الشمسية الميلادية الثانية والعشرين وستمائة هي السنة التي كانت فيها الهجرة النبوية وأن مفتتحها هي أيضا بيوم الجمعة.

ثالثا: ما ثبت بالتواتر بحيث صار مخالفه شاذا متروكا من تعيين يوم الاثنين لنزول الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة في الهجرة.

رابعا: ما تقدم ذكره من اشتهار تعيين يوم السبت من شهر صفر بأنه هو يوم عقد الملإ من قريش الاجتماع بدار الندوة وقرروا فيه ما قرروا من قتله عليه الصلاة والسلام.

فمما وقع الاختلاف فيه بين الروايات الإخبارية تعيين تاريخ خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ودخوله عليه الصلاة والسلام المدينة.

وينبغي أن يلاحظ مع هذا أن كلاً من الخروج والدخول فيه اشتباه. فالخروج يطلق تارة ويراد به مفارقته صلى الله عليه وسلم البلد للاختفاء بغار ثور، وتارة يراد به مغادرته البلد بعد الخروج من الغار.

وكذلك الدخول إلى المدينة يراد به تارة نزوله أول ما نزل من السفر بقباء بضاحية المدينة.

وتارة يراد به دخول البلد نفسه بعد الإقامة بقباء. وقد وقع الخلاف أيضا في تحديد مدة هذه الإقامة.

والخلاف في تعيين الحصة الزمانية التي كان فيها الخروج من الغار، فقيل كان في أثناء الليلة الرابعة لدخول الغار (كان الخروج في ظلمة اللّيل) والرواية الواردة في الصحيح تصرح بأن الخروج كان صبيحة الليلة الثالثة للدخول - فكان ابتداء السفر بكرة -.

ومثل هذا الخلاف في ساعة نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء، فذكر في الروايات لفظ الليلة، وحين بزغت الشمس، والوارد في الصحاح أنه في أثناء النهار حين زاغت الشمس أو في نحو الظهيرة. وجاء في تسمية يوم الخروج من مكة بإطلاق تعيين يوم الخميس، وتعيين يوم الاثنين.

وقد ساق الإمام نور الدين السمهودي في كتابه المسمى: "وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى" العديد من الأقوال والروايات في كل ما ذكر من خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ونزوله بالمدينة مع نسبة الأقوال إلى أصحابها وذكر من اعتمد منها ما اعتمد من المؤلفين الذين جاءوا من بعد. فجاء من الأقوال في خروجه صلى الله عليه وسلم بنص العبارة: "خرج صلى الله عليه وسلم من مكة لثلاث بقين من شهر صفر." وجاء كذلك نص: " خرج صلى الله عليه وسلم من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول ".

وفي نزوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة[- النزول هنا محمول على النزول الأول بقباء ضاحية المدينة المنورة ، مجموع هذه الأقوال تسعة ، أوردها نور الدين السمهودي في كتابه " وفاء الوفا"-]:

1 - أنه يوم فاتح ربيع الأول -(الأول رواية **موسى بن عقبة***عن **ابن شهاب*** ، وموسى بن عقبة من أئمة علم السيرة المشهود لهم بالتحقيق).

2 - وأنه يوم الثاني من ربيع الأول - (الثاني رواية **جرير بن حازم*** عن محمد بن إسحاق من أشهر أئمة علم السيرة ، وأخذ بهذا القول **أبو معشر*** ونقل عن **ابن البرقي*** ، وثبت في أواخر كتاب الصحيح لمسلم).

3 - وأنه يوم السابع منه - (هذا القول الثالث أشار إليه السمهودي إشارة عابرة ولم يعلق عليه).

4 - وأنه يوم الثامن منه -(هذا القول الرابع تواترت به الأخبار).

5 - وأنه يوم الثاني عشر منه -(الخامس رواية **إبراهيم بن سعد***عن ابن إسحاق ، وممن أخذ به **النووي*** و**ابن النجار*** وغيرهما ، ونقل عن الزهري أيضا بل أخذ به الكثير ممن ألف في السيرة).

6 - وأنه الثالث عشر منه -(السادس مروي عن طريق **أبي بكر بن حزم***).

7- كما جاء ذلك بلفظ نزل في النصف من شهر ربيع الأول -(السابع نقله **ابن زبالة***عن ابن شهاب).

8- وجاء في إحدى الروايات أنه صلى الله عليه وسلم نزل بالمدينة لليلتين بقيتا من ربيع الأول - ولاحظ السمهودي على ما فيها بأنه يمكن أن يكون غلطا وأن صوابه لليلتين خلتا من ربيع الأول ليوافق الرواية المشتهرة (الثامن نص الرواية فيه: - نزل صلى الله عليه وسلم على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول - وبالتصويب الذي جعله السمهودي يرجع هذا القول إلى القول الثاني من هذه الأقوال).

9-كما جاءت رواية بلفظ نزل صلى الله عليه وسلم بالمدينة يوم

الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول. ونقل عن الحافظ بن حجر بأن هذا القول شاذ من حيث خالف الجمهور المستفيض في تعيين اليوم وأنه يوم الاثنين ، مع أن ما في هذه الرواية من ذكر عدد اليوم من الشهر وأنه الثاني عشر منه وهو المطابق للواقع بحسب دخول الشهر بيوم الاثنين - (هذا القول التاسع نسبه **الأقشهري*** في كتاب الروضة إلى **هشام ابن الكلبي*** كما نسب أيضا إلى ابن إسحاق ، وهو محتمل لأن يكون المراد النزول بداخل المدينة).

والملاحظ في عموم ما تقدم ذكره من الروايات والأقوال: - منه ما يستفاد من كلام السمهودي وغيره من مؤلفي السيرة في اعتماد تعيين يوم الاثنين [1] لخروجه صلى الله عليه وسلم الخروج الأخير من الغار فيكون حينئذ خروجه من مكة إلى الغار هو يوم الخميس ونسب هذا إلى الحافظ بن حجر ، فيلزم عليه أن تكون المدة بين ليلة عزم القوم على تنفيذ المؤامرة ضده صلى الله عليه وسلم ، وليلة دخوله الغار طالت ببضع ليال أربع أو خمس وهذا على مراعاة القول بأن المؤامرة كانت يوم سبت.

أو أن من يرى اعتماد الخروج إلى الغار كان يوم خميس ، لا يقول برواية خبر أن المؤامرة كانت يوم سبت.

كما أن تعيين يوم الاثنين للخروج من الغار والشروع في السفر يقتضي أن يكون عليه الصلاة والسلام قطع المسافة بين مكة والمدينة في أسبوع (سبعة أيام فقط) أو أنه قطعها في أسبوعين اثنين (-أربعة عشرة

---

(1) عندما تعرض نور الدين الحلبي* في كتابه " السيرة الحلبية " إلى هذا المحل فحكى الخروج من مكة الوارد به الخبر بأنه يوم الاثنين وحمله على الخروج الأخير من الغار ثم أورد الخبر الذي يذكر الخروج يوم الخميس وحمله على أنه الخروج من مكة إلى الغار ، قال وعليه يكون مكثه صلى الله عليه وسلم بالغار ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد ، فيكون خروجه من الغار صبيحة يوم الأحد. وأورد من الروايات ما يفيد أن الخروج من الغار كان ليلا بل أول الليل. وما جاء في صحيح البخاري وأن الدليل جاء بالراحلتين قرب الغار صبيحة ليلة ثلاث ثم عقب على هذا كله بالإشارة إلى أنه موضع نظر وتأمل فقال بنص اللفظ " فليتأمل هذا المحل ".

يوما) [والذي ذكره نور الدين السمهودي في كتابه " وفاء الوفا " في هذا المحل قوله: " وجزم ابن حزم بأنه صلى الله عليه وسلم خرج من مكة - أي الخروج الأول - لثلاث ليال بقين من صفر".

قال: " وهذا يوافق قول هشام ابن الكلبي بأنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من شهر ربيع الأول ".

ويقول السمهودي فإن كان هذا محفوظ فلعل قدومه قباء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول.

فهو يجوز قطع المسافة بين مكة والمدينة هنا في مدة أسبوع واحد على سبيل الاحتمال ، ولم يجزم بشيء أو يعتمده مما حكي من الأقوال.

هذا وقد جاء للبعض ممن كتب في السيرة من علماء العصر الحالي اعتماد صورة منسقة للوقائع من دخوله صلى الله عليه وسلم الغار إلى نزوله بداخل المدينة مؤرخا لها بالتقويم القمري آخذا من مجموع الروايات الواردة في هذا الموضع بعضا منها تاركا البعض الآخر وهو الأستاذ محمود محمد عرنوس* رئيس تفتيش القضاء الشرعي بوزارة العدل المصرية حسبما نقله عنه في مقاله بعنوان " حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة في مدة عشر سنين " الحاج **عباس كرارة*** المصري في كتابه " الدين والتاريخ " الطبعة الرابعة بتاريخ سنة 1387هـ -سنة 1968 م ، طبع دار مصر للطباعة ، فيقول الأستاذ محمود عرنوس: " بعد أن اشتدت وطأة مشركي مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من آمن به أذن له بالهجرة إلى يثرب فخرج صلى الله عليه وسلم من مكة في آخر شهر صفر واختبأ في غار ثور من المشركين ثلاث ليال. وخرج من الغار آخر الليل غرة ربيع الأول يوم الاثنين. فوصل إلى المدينة يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع ، وأقام في بني عمرو بن عوف بقية يوم الاثنين وأيام الثلاثاء والأربعاء والخميس أسس في تلك " المدينة "...(هكذا - ويظهر أنه تصحيف صوابه: - "المدة") مسجد قباء الذي ورد فيه أنه أول مسجد أسس على التقوى وفي صباح يوم

الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سار عليه الصلاة والسلام قاصدا نحو المدينة مع بعض الصحابة الأطهار فأدركته صلاة الجمعة في منازل بني سالم بن عوف وصلاّها في المسجد الذي في بطن وادي رنوناء، فكانت أول جمعة في الإسلام.

وبعد الصلاة ركب ناقته طالبا المدينة فوصل إليها في اليوم نفسه فحفلت بمقدمه أيما احتفال... إلخ...- ولمزيد الاطّلاع على ما جاء في هذا الموضوع المتعلق بأحداث الهجرة النبوية إلى المدينة الصورة الآتي بيانها وتعتبر مما جاء للمتقدمين، وهي ما أورده الأستاذ محمد أبو زيد* من علماء الأزهر، أحد علماء العصر الحالي في كتابه " هدي الرسول" وهو الكتاب الذي اختصره من كتاب " زاد المعاد"[1] للإمام ابن القيم أحد أئمة العلم المحققين في القرن الثامن الهجري ونص اللفظ من كلام إبن القيم* - بعد ذكر هجرة الصحابة -: " ثم أذن الله لرسوله في الهجرة فخرج من مكة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول وقيل في صفر، وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة ومعه أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي، فدخل غار ثور هو وأبو بكر فأقاما فيه ثلاثا ثم أخذوا على طريق الساحل، فلما انتهوا إلى المدينة وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، نزل بقباء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف، وقيل نزل على كلثوم بن الهرم وقيل على سعد بن خيثمة، والأول أشهر، فأقام عندهم أربعة عشر يوما، وأسس مسجد قباء، ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين وهم مائة ثم ركب ناقته وسار، وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة، فيقول: " خلوا سبيلها فإنها مأمورة" فبركت عند مسجده اليوم].

---

[1] نسخة الطبعة الثالثة بالمطبعة الرحمانية بالقاهرة.

وأما مختلف الأقوال في نزوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المتقدم ذكره آنفا ، فمن حيث وقت النزول يبدو بوضوح رجحان الروايات التي تفيد آن ذلك كان في وضح النهار ، بما أفادته من تصوير وتفصيل للوقائع حين ذاك كخروج الفوج من الأنصار ناحية المدينة ينتظرون ويترقبون مجيئه صلى الله عليه وسلم لمدة ثلاثة أيام من ضحوة النهار حتى يردهم شديد الحر وسط النهار ، وحديث الرجل اليهودي الذي أبصر ركب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع المنتظرون آيسين في اليوم الثالث وغير ذلك من الأحداث الدالة على أن الوقت نهار تشرق فيه الشمس بأنوارها ، وتلقي بأشعتها على المكان (كما سيأتي ذكر ذلك مفصلا في حديث الهجرة).

وأما من حيث تاريخ نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء فالقولان الأول الذي يقول أنه يوم فاتح ربيع الأول ، والثاني الذي يقول أنه ثاني يوم منه فالتوفيق بينهما حاصل من جهة أن الأول يعتبر أول الشهر بالاثنين ، والثاني يعتبره بالأحد فهما كالقول الواحد.

ويظهر من السياق الذي أورده نور الدين السمهودي في هذه الأقوال أن القول الذي يقول بنزوله صلى الله عليه وسلم بقباء يوم الثاني من ربيع الأول هو قول له العدد الجم من المستندات ، وأخذ به الكثير من أهل العلم ، كما أنه ثبت في صحيح مسلم ، وجاءت به رواية عن ابن إسحاق رواها عنه جرير بن حازم.

والقولان الثالث والرابع (في هذا الترتيب) وهما القول الذي يقول أن النزول كان يوم سابع ربيع الأول ، والقول الذي يقول أنه كان يوم الثامن من الشهر ، فكذلك هما معتبران كقول واحد حاصل بينهما التوفيق لاحتمال أن يكون خلافهما جاء من حيث إثبات الشهر بالثلاثاء أو بالإثنين.

والذي اشتهر منهما إنما هو القول الذي يذكر اليوم الثامن من الشهر ، فنقل نور الدين السمهودي أنه قول تواترت به الأخبار كما يظهر

أنه المأخوذ به من عدة من أهل العلم قديما وحديثا.

وأما القولان [1] الخامس والسادس في هذا الترتيب وهما القول الذي يقول بأن اليوم هو الثاني عشر من ربيع الأول ، وتاليه الذي يقول أنه اليوم الثالث عشر فهما القولان اللذان يبدو بهما الخلاف في هذا الموضوع شاسع البعد والمنافاة على أتمها بما يدعو إلى العجب!!.

وإذا كان الثاني من هذين القولين لم يشتهر وإنما ساقه نور الدين السمهودي في قول واحد فإن الأول منهما الذي يقول أن اليوم هو الثاني عشر من ربيع الأول وعلى أنه يوافق يوم الاثنين جرى به القول في كثير من المؤلفات كما أنه نسب لكثير من أئمة العلم ، وذكر نور الدين السمهودي أنه رواية عن إبن إسحاق أيضا! ولكن من طريق آخر غير الطريق الأول ، إذ رواه عنه إبراهيم بن سعد خلافا لما رواه عنه جرير بن حازم المتقدم آنفا.

فهذا القول يقتضي ثبوت شهر ربيع الأول بيوم الخميس مع أن عموم ما جاء في روايات هذا الموضع يشير إلى دخول ربيع الأول تارة بيوم الاثنين ، وتارة بيوم الأحد ، وهو ما يوافق ما حققه علماء الحساب حتى أن الرواية التي تذكر أن حلول الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء في الهجرة كان يوم جمعة ، أفادت مع ذلك بأنه اليوم الثاني عشر من ربيع الأول موافقة لثبوت الشهر بالاثنين. والذي يتبادر للنظر بادئ ذي بدء أن ما اشتهر هنا من عدد يوم الثاني عشر من ربيع الأول ، وأقحم عليه يوم الاثنين ليقارنه ، إنما هي شهرة الرواج المطلق ، هي نفس الشهرة في تاريخ

---

[1] هذان القولان يظهر لهما وجه من الاحتمال إذا كان الخبر بهما يقصد به النزول بالمدينة بعد الإقامة بقباء على أن إقامته صلى الله عليه وسلم بقباء كانت لمدة قصيرة ، أي أنه نزل بقباء يوم الاثنين فأقام إلى يوم الجمعة وسافر فيه إلى المدينة ، كما جاءت روايات بذلك ، فعلى هذا يكون نزوله بالمدينة يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول باعتبار الشهر بالاثنين ، أو يكون اليوم الذي هو الجمعة ثالث عشر الشهر باعتباره ثبت بالأحد.

المولد الشريف ووفاته عليه الصلاة والسلام وكل ذلك لم يثبت لدى أهل التحقيق.

وإنما الذي يبقى التساؤل عنه هو السر في شهرة هذا الرقم "12" من ربيع الأول وربطه مع يوم الاثنين كذكرى لسائر الوقائع الخاصة الملابسة لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ؟.

مع أن معظم المأثور من الأخبار وأن عين يوم الاثنين وشهر ربيع الأول كتاريخ لشيء من تلك الوقائع فإنه لم يحدد التحديد المذكور بالرقم الخاص " 12" (اثنى عشر)؟ .

- وهكذا يستخلص من مجموع هذه الأقوال في تحديد اليوم لنزول الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء في هجرته إلى المدينة المنورة أن القول بأنه يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول هو قول شاذ لمخالفته يوم الاثنين، وأن القول بأنه يوم الثاني عشر وهو الاثنين وقد أخذ شهرة وتداولا مطلقا (كتقليد).- هو القول الأكثر بعدا عن الواقعية.

والقول بأنه اليوم الثالث عشر غير مطابق للحساب بدخول الشهر، والقول بأنه نصف الشهر هو قول ليس فيه تحديد، والقول بأنه اليوم الثاني من الشهر والقائل بأنه اليوم الثامن هما القولان اللذان لهما الوجاهة من الدليل [1] وقد فهم مما تقدم من هذا السياق أن هذين القولين يدخل في مضمونهما ثلاثة أقوال مما ذكر من هذه الأقوال البالغ عددها تسعة في تاريخ نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء.

فالقول بأنه يوم فاتح ربيع الأول والقول الذي يقول أنه لليلتين بقيتا من الشهر ووقع تصويبه إلى لفظ " خلتا" هما قولان يرجعان إلى القول الأول من هذين القولين المعتمدين وهو القائل بأن اليوم هو الثاني من الشهر والقول الذي يذكر النزول يوم سابع الشهر يرجع إلى القول الثاني من

(1) قد تعرض هنا ملاحظة لطيفة في الاشتباه والتقارب بين لفظ " الثاني " ولفظ " الثامن " في النطق عند الإملاء مثلا، ومثل ذلك أيضا في رسم الكتابة وربما في هذا أكثر.

المعتمدين وهو القائل بأن النزول كان يوم ثامن الشهر.

ويبدو فيما يبدو أن الرجحان بين هذين القولين متكافئ، فلذا نرى الفريق من الذين توخوا التحقيق في مؤلفي السيرة المتأخرين انقسموا إلى من اعتمد القول الأول وإلى من اعتمد القول الثاني، والقولان - كما هو ظاهر- يختلفان في أسبوع بالتقديم والتأخير، وفي اعتبار ثبوت الشهر، فالأول اعتبره بالأحد والثاني اعتبره بالاثنين.

هذا ما يتعلق بتاريخ أحداث هذا الفصل من السيرة النبوية باعتبار التقويم القمري المأخوذ به عند رواة الأخبار من المتقدمين. والذين تعرضوا فيه باعتبار التقويم الشمسي وهم فريق ممن ألف حديثا في السيرة لم يكونوا هم أيضا على اتفاق فيما ذهبوا إليه عند التحديد لتاريخ الوقائع.

والذي يظهر كأنه المعتمد المأخوذ به من طرف الكثير يفيد عن يوم نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء في هجرته إلى المدينة المنورة بأنه يوم الاثنين الموافق لليوم العشرين من شهر سبتمبر[1] من سنة 622 اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد المسيحي.

ثم أن هؤلاء الآخذين بهذا التاريخ اختلفوا عند مقارنته بالتقويم القمري في أسبوع من الأيام بالتقديم والتأخير، ومنشأ خلافهم هو الخلاف الواقع بين أهل التقويم والحساب الذين اختلفوا هم أيضا في مبدأ السنة الأولى للهجرة المقارنة لسنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد. فجمهور يجعل مبدأ السنة الهجرية الأولى يوافق يوم الجمعة السادس عشر من شهر يوليه[2] وفريق ممن عرف عنهم الحذق في هذا الفن واشتهروا فيه بالضبط والتحرير يجعل مبدأ السنة الهجرية هو يوم الجمعة الثالث والعشرين من

---

(1) ويقال: " شتنبر " بالشين المعجمة ويعرف أيضا باسم " أيلول " في تقويم آخر، ويقارن شهر " توت " في السنة القبطية وهو الأول في فصل الخريف.

(2) يوليه: باللام ويقال " يوليو " و"جويلية " ويدعى في تقويم آخر باسم " تموز " ويقارن من شهور القبط شهر " أبيب " وهو الثاني في فصل الصيف.

شهر يوليه (فهو خلاف في أسبوع من الزمن). فاختلف هؤلاء المتفقون على تعيين يوم العشرين من شهر سبتمبر تاريخا لنزول الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء في الهجرة عند مقارنة هذا التاريخ لمثله من التقويم القمري على قولين: -

- الأول: ما اعتمده الأستاذ محمد الخضري مؤلف "نور اليقين" وأفاد أنه من تحرير إمام محقق في هذا الفن في هذا العصر وهو الأستاذ محمود باشا المصري المعروف بالفلكي*، مؤلف مجلة "طوالع الملوك" قائلا أنه نتيجة حساب دقيق ومجهود بالغ في التحري والضبط.

ومفاده أن يوم عشرين سبتمبر من سنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد المسيحي يوافق من الحساب القمري اليوم الثاني من شهر ربيع الأول في السنة الهجرية الأولى وهو يوم الاثنين، وهو اليوم الذي نزل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء ظاهر المدينة المنورة في هجرته إليها.

فبناء على هذا القول يمكن أن تستخرج صورة كاملة منسقة للأحداث الواقعة في هذا الفصل من يوم بيعة العقبة الكبرى إلى يوم نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء بحسب التاريخ المحدد المضبوط بكلٍّ من التقويمين القمري والشمسي.

والأمر في ذلك كله مداره على الاحتمال المبني على التقدير بالحدس[1] و التخمين،[2] إذ كل ما جاء في هذا الموضوع من روايات

---

(1) الحدْس: بفتح الحاء المهملة وإسكان الدال المهملة وآخره سين مهملة، والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع، وقد يضم أيضا، والمصدر "الحدس" بفتح فسكون، ومعناه الظن وتقدير الشيء في الفكر فهو من صنع الفكر ومن هذا جاء قول حدس في الأرض بمعنى ذهب فيها على غير هدى، فمعنى حدس في الشيء ظنه وقدره في نفسه.

(2) التخمين: بصيغة التفعيل والفعل منه مجردا "خمن" بالخاء المعجمة ثم الميم ثم النون آخر، يفتح في الماضي ويضم ويكسر في المضارع، والمصدر "الخمن" بفتح فسكون، ويستعمل بصيغة التفعيل فيكون متعديا، فيقال خمن الشيء بمعنى قال فيه استنادا إلى مجرد الظن، فالحدس يرجع إلى الفكر والتخمين يستعمل في القول بالظن.

وأقوال يرجع إلى الاحتمال وإلا فما هذا الاختلاف المتباعد الجوانب المنافي لبعضه البعض ؟ فيستفاد من القول المذكور: -

1- أن بيعة العقبة الكبرى الواقعة ليلة الثاني عشر من شهر ذي الحجة توافق ليلة الاثنين الخامس من شهر يوليه سنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد المسيحي (هذا ما يظهر أنه الواقع بناء على أن شهر ذي الحجة بالخميس وجائز مع ذلك أن يكون شهر ذي الحجة بالأربعاء ويكون مع ذلك-ولا بد - كاملا فتكون البيعة ليلة الأحد الرابع من شهر يوليه).

2- وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر يوليه المذكور كان مفتتح السنة الأولى الهجرية وفي هذا الأثناء قام بالمدينة المنورة الكيان الإسلامي بدولته الكاملة المقومات ، وفيه كانت هجرة الصحابة الجماعية من مكة إلى المدينة.

3- وفي يوم السبت الحادي والعشرين من شهر أغسطس كان استهلال شهر صفر ثاني شهور السنة الهجرية الأولى باعتبار شهر المحرم قبله ناقصا.

4- وفي يوم السبت الخامس عشر من صفر الموافق لليوم الرابع من شهر سبتمبر كان عقد اجتماع دار الندوة من طرف الملأ من قريش لتدبير المؤامرة الشنعاء ضد شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، واعتبارا لقرائن الأحوال مع الاستناد إلى ما جاء من روايات إخبارية أيضا من أن عصابة البغي المتآمرين عمدوا إلى المبادرة والفورية لتنفيذ ما قرروه من الجريمة.

5- فإن ليلة حصارهم لمنزل الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مساء يوم المؤامرة نفسه أي ليلة الأحد سادس عشر صفر خامس سبتمبر.

6- وفي هذا اليوم نفسه الأحد كان قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم منزل أبي بكر الصديق ليخبره بالإذن له بالهجرة ، ذلك القدوم المفاجئ في وقت الظهيرة على خلاف المعتاد منه صلى الله عليه وسلم في زيارة منزل أبي بكر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وقتها متخذا

إجراءات التوقي والحذر من فريق المتآمرين الذين كانوا إذ ذاك يطلبونه كما يدل على ذلك ما جاء في الرواية وأنه صلى الله عليه وسلم قدم المنزل وهو متقنع.

7- وفي ساعات هذا اليوم (الأحد) وربما في تاليه يوم الاثنين أيضا كان أخذ العدة للسفر إلى المدينة في الهجرة وما تعلق بذلك من تهيئة الزاد واستئجار الدليل في الطريق والتواعد مع الدليل على أن يأتي بالرواحل إلى الغار بعد ثلاث (أي ثلاث ليال أو ثلاثةأيام).

8- وعلى هذا يتعين أن يكون يوم خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة للاختفاء بالغار حتى تسكن ثائرة القوم في الطلب والتفتيش هو يوم الاثنين سابع عشر صفر سادس شهر سبتمبر، فهذا ما تقتضيه طبيعة الحال الراهنة على اعتبار تصديق ما شاع من الخبر بأن يوم المؤامرة كان يوم سبت، إذ من المستبعد مكثه صلى الله عليه وسلم بمكة بعد حصار القوم لمنزله لمدة بضع ليال أي نحو خمس ليال كما ذكر بأنه خرج من مكة للاختفاء بالغار يوم الخميس، كما هو من المستبعد أيضا تباطؤ القوم المتآمرين في تنفيذ قرارهم لمدة بضع ليال بعد الإقرار له بحماس وإجماع منهم.

9- ولهذا يتعين أن تكون الليالي الثلاث التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضي الله عنه بالغار كما جاءت بذلك الرواية الصحيحة المشتهرة هي ليلة الثلاثاء ثامن عشر صفر سابع سبتمبر وليلتي الأربعاء والخميس التاليتين.

10- فيكون خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار للشروع في السفر صبيحة الليلة الثالثة لمكثه في الغار، كما جاءت بذلك رواية الصحيح المشتهرة يوافق يوم الخميس العشرين من شهر صفر المقارن لليوم التاسع من سبتمبر تاسع شهور سنة اثنتين وعشرين وستمائة الميلادية.

11- وفي يوم الأحد التاسع عشر من سبتمبر كان استهلال شهر ربيع

الأول على اعتبار شهر صفر ناقصا ذا تسعة وعشرين يوما.

12- وفي يوم الاثنين التالي ثاني ربيع الأول العشرين من شهر سبتمبر كان نزوله عليه الصلاة والسلام بقباء ظاهر المدينة المنورة على فريق بني عمرو بن عوف من الأنصار.

فهذه الصورة في ترتيب الأحداث لها مستند من الروايات الإخبارية المأثورة ومن تعاليق من علق عليها من العلماء وذلك بالنظر إلى كل حادث منها بمفرده ، وإن خالفت البعض مما ورد في الموضوع كما سيأتي بيان ذلك قريبا.

والقول الثاني: مما اعتمده من كتب في السيرة حديثا لتاريخ نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء في هجرته إلى المدينة المنورة ، وربما يظهر أن الآخذين به أكثر.

وممن اعتمده العلامة المشهور بالتحقيق الأستاذ **مبارك بن محمد الميلي** * أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (مؤلف كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" وكتاب " الشرك ومظاهره" وغيرهما).

جاء ذلك منقولا عنه من إملاءاته في السيرة على تلامذة مدرسة "حياة الشباب بميلة" يفيد بأن نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء في الهجرة إلى المدينة المنورة كان في الثامن من شهر ربيع الأول الموافق لليوم الحادي والعشرين من شهر سبتمبر سنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد المسيحي.

هكذا جاء في النقل لفظ "الحادي " والغالب أنه غلط بوجه ما....؟ من وجوه الغلط فقد يكون عن شكل الرقم[1] ؟ أو غير ذلك.....؟ ذلك لأن

---

[1] فالأرقام الهندية - وبها كان العمل - يكثر فيها الشبه ، فيكون الصفر كرقم الواحد ، وقد يكون عن الذهول عن إتمام شهر أغسطس الذي يعد أحد وثلاثين يوما مثل شهر يوليه قبله ، فهما شهران متواليان ، وكل يعد أحد وثلاثين يوما ، وقد عرف أن مفتتح شهر أغسطس في هذه السنة كان بيوم الأحد.

يوم الاثنين إنما يوافق العشرين من سبتمبر الذي مفتتحه بيوم الأربعاء في السنة المعروفة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد.

فالقولان - كما تقدم ذكره- متفقان على اعتبار يوم العشرين سبتمبر بأنه هو يوم نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء. وإنما الخلاف بينهما في قران الحساب القمري مع الحساب الشمسي كما اختلفا في ثبوت شهر ربيع[1] الأول أهو بالأحد أو بالاثنين ؟

فلذلك تنسق صورة جريان الأحداث على القول الأخير كما يلي: -

1- ليلة بيعة العقبة الكبرى التي هي ليلة الثاني عشر من ذي الحجة توافق ليلة الاثنين الثامن والعشرين من شهر يونيه.

2- ويوم الجمعة السادس عشر من شهر يوليه هو أول شهر المحرم فاتح السنة الهجرية الأولى.

3- ويوم الأحد الخامس عشر من شهر أغسطس هو فاتح شهر صفر (فاتح صفر بيوم الأحد باعتبار شهر محرم كاملا كما هو الاحتمال الأقرب).

4- ويوم السبت الحادي والعشرين من صفر الموافق لليوم الرابع من سبتمبر هو يوم مؤامرة دار الندوة.

5- فليلة الأحد الخامس من سبتمبر الواقع فيها حصار منزله عليه الصلاة والسلام تقارن الثاني والعشرين من شهر صفر.

6- فقدوم الرسول صلى الله عليه وسلم منزل أبي بكر الصديق في وقت الظهيرة وهو متقنع ليخبره بالإذن له بالهجرة وما وقع بعد ذلك من أخذ الأهبة للسفر واستئجار الدليل والمواعدة معه ليأتي بعد ثلاث بالرواحل عند غار ثور كل هذا وقع فيما بين يوم الأحد ويوم الاثنين خامس وسادس شهر سبتمبر، ولكنه يقارن في الحساب القمري يومي الثاني والعشرين والثالث والعشرين من شهر صفر.

---

(1) أما شهر صفر فيمكن الاتفاق بينهما على إثباته بالسبت وإنما الأول يجعله ناقصا والثاني يجعله كاملا.

7- فيوم خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ليختفي بغار ثور هو يوم الاثنين سادس شهر سبتمبر ويوافق الثالث والعشرين من شهر صفر.

8- والليالي الثلاث التي قضاها بالغار وهي ليالي الثلاثاء والأربعاء والخميس ، سابع وثامن وتاسع سبتمبر توافق الرابع والعشرين والخامس والعشرين والسادس والعشرين من شهر صفر.

9- فيوم خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار ليأخذ طريقه إلى المدينة وذلك صبيحة يوم الخميس التاسع من شهر سبتمبر يوافق اليوم السادس والعشرين من صفر ، وبذلك يكون قد خرج - أخيرا - من مكة لثلاث بقين من شهر صفر.

10- ويوم الاثنين الثالث عشر من شهر سبتمبر هو مستهل شهر ربيع الأول.

11- وفي يوم الاثنين الموالي الموافق للثامن من شهر ربيع الأول وللعشرين من شهر سبتمبر كان حلوله عليه الصلاة والسلام بقباء بعوالي المدينة المنورة.

فهذا الوجه من تنسيق الأحداث المذكورة بهذه الصورة على كلا القولين المعتمدين في تاريخ نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء ، وإن كان فيه مخالفة لكثير مما ورد وما قيل في الموضوع إلا أنه - مع ذلك - لا يعدم سندا مما ورد من مجموع ما ورد كذلك مأثورا ونظريا كما أن فيه الاعتبار - أكثر ما يمكن - للوارد مأثورا ولما تقتضيه قرائن الأحوال والغالب من جاري العادة ، والذي تأتي فيه الملاحظة ويتعلق به بحث من مواضع الخلاف هو النقط الآتية:-

1- تعيين يوم السبت من شهر صفر ورد به خبر - أيًّا ما كان طريقه - بأنه هو يوم مؤامرة دار الندوة والمعتقد - طبعا-أنه نهار اليوم ولم يرد فيما يظهر ما يخالفه من أخبار وآراء فباعتباره مع ما تفيده الأخبار عن أصحاب المؤامرة بأنهم كانوا على حرص شديد للمبادرة بتنفيذ ما قرروه من عملية

الاغتيال والفتك به صلى الله عليه وسلم يقتضي هذا أن يكون يوم الخروج الأول من مكة إلى الغار هو يوم الاثنين الموالي ، وليس يوم الخميس كما اشتهر وأخذ به الكثير.

والذي يبدو هنا في هذا الخلاف أن القول بأن الخروج الأول كان يوم خميس هو قول أسقط من الإعتبار خبر تعيين يوم السبت للمؤامرة هذا أقرب ما يتبادر للاحتمال.

وظاهر كل الظهور ما يحصل من الانسجام والملاءمة في سياق حادثي المؤامرة والخروج إلى الغار إذا ما اعتبر الأول يوم السبت والآخر يوم الاثنين بعده.

2- وفيما بين صدور قرار دار الندوة حتى الدخول للغار تقدم في صورة تنسيق الأحداث تمشيا مع السياق المتضمن روايات هذا الموضع ترتيب أحداث هذه الفترة ، وهي اجتماع الملإ المتآمرين في دار الندوة وما كان منهم من اتخاذ القرار الغاشم وحصارهم لمنزله صلى الله عليه وسلم مساء اليوم ، ونزول الإذن له صلى الله عليه وسلم بالهجرة وخروجه صلى الله عليه وسلم من منزله في نفس الوقت. ثم قدومه صلى الله عليه وسلم من الغد في وقت الظهيرة منزل صاحبه الصديق رضي الله عنه. فأخبره بالإذن بالهجرة وبإثر ذلك كان الإجراء اللازم للسفر واستئجار الدليل والتواعد معه على الوقت المعين للسفر مؤجلا بعد ثلاثة أيام ، وتعيين مكان التلاقي بجبل ثور ، ثم كان الخروج من مكة للاختفاء بغار ثور. ولكن يوجد هنا من الروايات الإخبارية ما يخالف هذا النسق ومنها ما كثر تداوله أيضا كالخبر الذي يذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما خرج على القوم المحاصرين لمنزله توجه رأسا إلى غار جبل ثور وما قضى ليلته تلك إلاّ بالغار (ومعلوم أنه بدخوله الغار ، غادر نهائيا ديار مكة ولم يرجع من الغار إلى البلد). فكيف ينسجم ما في هذه الرواية مع الرواية المشتهرة المتداولة التي حكت صورة اتخاذ الأهبة للسفر مما تقدم ذكره ؟ فهل كان نزول

الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بالإذن له بالهجرة قبل حصار القوم لمنزله.......؟ ولكن بعد تقرير ما قرروا من جريمة القتل ؟

فكان توجهه صلى الله عليه وسلم إلى منزل أبي بكر واتخاذ ما اتخذ من الإجراءات اللازمة للسفر ثم رجوعه صلى الله عليه وسلم إلى منزله ليلا ، وهو عالم بما القوم عازمون عليه من الفتك به فكأنه كان ينتظرهم ! [صورة مما جاء في هذه الرواية التي تتضمن اتخاذ الأهبة للسفر في الهجرة قبل حصار المنزل وكون الخروج إلى الغار في أثناء ليلة الحصار كما ساقه نور الدين السمهودي في كتابه "وفاء الوفا" هكذا بنص اللفظ مما به الحاجة: - "وجاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ - وبعدما أشار إلى من أخرج هذا الحديث- تابع نص الرواية: -"فعطف عليه: فذهب أبو بكر إلى عبد الله بن أريقط (وأفاد ما أفاد في تعريف هذا الدليل) وتابع الحديث: " فاستأجره وكان هاديا خريتا أي ماهرا بالهداية وكان على دين الكفار ، فأمره أن يأتيهما بعد ثلاث في غار ثور ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله فجاءه عليّ رضي الله عنه ، واجتمعت قريش على باب الدار ليقتلوه بزعمهم - وعطف على هذا ماجاءت به الروايات من حديث أبي جهل وأنه أمر القوم أن يمسكوا عن عملية مباشرة القتل حتى يحضر الشبان المخصصون للعملية وماجاء كذلك من كلام أبي جهل واستهزائه بما تتضمنه رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم من الوعد بالجنة والوعيد بالعذاب ، وماجاء من جواب الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: -"نعم والله أنا أقول ذلك "ثم أنه صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من تراب فرماها في وجوههم فأخذ على أبصارهم ولمَّ على أضمختهم فجعل على رأس كل رجل منهم ترابا وهو يقرأ سورة يٓس يستتربها منهم وتلي ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ . ثم أتى منزل أبي بكر فخرجا من خوخة كانت

له وأتيا غار ثور.... إلى آخر ماجاء في الروايات].

-وهل كانت مدة الوقت كافية لجريان مثل هذا كله ؟ .

-أو هل يحتمل أن الإذن له بالهجرة نزل قبل اجتماع دار الندوة ؟

وعلى كلٍ فالثابت المعروف أنه صلى الله عليه وسلم كان ينتظر الإذن له من ربه عزّ وجلّ بالهجرة بالمدينة المنورة بعد وقوع ما وقع من بيعة العقبة وهجرة من هاجر من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

ولكن الإذن له صلى الله عليه وسلم بالهجرة لم يأته إلاّ بعد أن صدر ماصدر من المؤامرة الشنعاء والاتفاق من فئة البغي والطغيان من الأعداء على اتخاذ قرارهم باقتراف جريمة القتل نحوه عليه الصلاة والسلام وسواء كان نزول الإذن له بذلك قبل حصارهم لمنزله عليه الصلاة والسلام أو كان في نفس الوقت الذي كانوا يحاصرون فيه المنزل. ثم أن هذا الخبر المفيد كون الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج على القوم الذين كانوا يحاصرون منزله توجه من فوره إلى الاختفاء بجبل ثور فقضى به تلك الليلة. ورد متعدد الطرق وبصيغ مختلفة وترجع في الأصل إلى الرواية الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما عند التعرض لتأويل الآية من سورة الأنفال في قوله تعالى: - ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ .... إلخ.

فجاء من لطف هذه الرواية: -" لما تشاور المشركون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلع الله نبيه على ذلك - وبات عليّ على فراشه صلى الله عليه وسلم ، وخرج هو حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ورأوا عليًا ردّ الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدري!.فاقتصّوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخل هٰهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال ".

جاء هذا الخبر من طرق متعددة وهو يفيد: - في بادئ النظر - خروجه صلى الله عليه وسلم على القوم الذين كانوا يحاصرون منزله وذهابه على الفور إلى الاختفاء بغار ثور، ولكنه في عبارة اقتضاب وقد أورد نور الدين السمهودي في كتابه " وفاء الوفا " نصه وأشار إلى وروده أيضا من طرق أخرى، وعلق عليه بقوله: " وكله مقتض لأن الخروج إلى الغار كان في بقية تلك الليلة - أي ليلة حصار المنزل-".

و أما نور الدين الحلبي مؤلف "السيرة الحلبية "فيظهر من تعليقه على هذه الرواية أنه يعتمد الرواية الأولى التي تفيد أن الخروج للغار لم يكن في ليلة الحصار، وإنما في الليلة الموالية وقد ذهب إلى جواز تأويل ما جاء في الرواية المخالفة بما يرجع بها إلى التوافق مع الرواية الأولى، فإنه بعدما ساق هذه الرواية المخالفة قال بما نصه: - وهو مخالف لما تقدم من أن خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الغار كان في الليلة الثانيةلا في ليلة خروجه على قريش. وقد يقال لا منافاة لأن قوله...(حتى لحق بالغار) غاية لمطلق الخروج من بيته لا في خصوص تلك الليلة أي خرج من بيته واستمر على خروجه حتى لحق بالغار وذلك في الليلة الثانية.

ثم أشار إلى ما تقدم في الرواية التي تذكر مجيئه صلى الله عليه وسلم إلى منزل أبي بكر في وقت الظهيرة وهو متقنع. وعقب على الموضوع بأنه محل تأمل فقال: -" فليتأمل "[1].

وقد يرد أيضا على هذه الرواية التي تذكر الخروج إلى الغار في نفس الليلة التي وقع فيها حصار المنزل ما جاء بما تقدم ذكره في الرواية التي تحكي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين مسيره مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الغار وأنه كان يمشي تارة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وتارة خلفه وتارة يمينه وتارة شماله حرصا منه على سلامة الرسول صلى الله عليه وسلم كما مرّ بيان ذلك بالتفصيل.

فإن هذا مما يقتضي أنه في الوقت الذي استفحل فيه الطلب والتفتيش عنه صلى الله عليه وسلم من جانب أصحاب المؤامرة ، وما كان ذلك إلا بعد أن تحققوا إفلاته منهم ولم يقع ذلك إلا في صبيحة ليلة حصار المنزل كما مرّ بيان ذلك بالتفصيل ، فلم يكن ثم طلب ولا رصد في نفس ليلة الحصار إذ كانوا كامل ليلتها منكبين على مراقبة المنزل وهم على اعتقاد أنه صلى الله عليه وسلم محاصر بالمكان. ومن البعيد كل البعد أن يحتمل تخوف أبي بكر كل ذلك التخوف وهو يعلم خروج الرسول صلى الله عليه وسلم على القوم من حيث لا يشعرون وأنه تركهم في عماهم يحاصرون المنزل إلى الصباح.

3- علم مما تقدم في سياق هذا الموضوع أن الرواية الواردة في الصحيح الشهيرة التداول منطوقها أن مكثه صلى الله عليه وسلم مع صاحبه في الغار إنما كان لمدة ثلاث ليال ، وأنه خرج من الغار صبح الليلة الثالثة كما استفيد مما ورد هنا بوجه العموم أن الوقت الذي كان فيه الخروج إلى الغار هو الليل.

لكن يوجد - مع هذا - من روايات الأخبار مايذكر فيه الليلة الرابعة ، وكذلك الرواية التي تذكر أن مسير الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه إلى الغار استغرق من الوقت ليلة كاملة ومابلغا الغار إلاَّ مع الصبح لأنهما ضلا الطريق!!...

فعلى اعتبار ما في هذه الرواية الأخيرة يمكن حملها على أنها هي الليلة الرابعة (الرابعة بالنظر لمطلق العدّ وهي الأولى في الترتيب كما هو ظاهر) التي ورد ذكرها ويحمل ماجاء في الرواية المشتهرة التي تعد الليالي ثلاثا على مدة الاستقرار بالغار بغض النظر عن ليلة المسير.

وينسجم هذا مع القول الذي يقول أن خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار كان يوم الاثنين بتقدير أنه صلى الله عليه وسلم مضى في طريقه إلى الغار مساء يوم الأحد ثاني يوم المؤامرة أي ليلة الاثنين ثانية

ليلة حصار المنزل واستغرق المسير كامل هذه الليلة فكان الدخول للغار صبح يوم الاثنين واستمر المكث به حتى صبيحة يوم الخميس. فكانت ليالي المكث بالغار ثلاثا هي: -ليلة الثلاثاء وليلتي الأربعاء والخميس. فكان المكث بالغار يشمل ثلاثة أيام وثلاث ليال. وقد جاءت بعض الروايات بنص هذا اللفظ تماما " ثلاثة أيام وثلاث ليال". وإما على القول بأن الخروج إلى الغار كان يوم الخميس ليوافق الخروج منه يوم الاثنين فلا يخلو تنسيق الصورة فيه من بعض تكلف فيحتمل - حينئذ- أن يكون الخروج ليلة الجمعة التي هي مساء يوم الخميس(ومعلوم من الاصطلاح الجاري أن مسمى اليوم يبتدئ من الغروب لليوم قبله فيكون إطلاق اسم الخميس على ليلة الجمعة إنما هو على سبيل تجوز ، فتكون ليلة الجمعة هي الليلة التي استغرقت المسير إلى الغار حتى الصبح فكان الدخول الفعلي للغار يوم الجمعة واستمر المكث بالغار إلى صبيحة يوم الاثنين ، فمدة المكث ثلاثة أيام وثلاث ليال- كما تقدم فيما ذكر قبل.

أما على أن الخروج إلى الغار كان ليلة الخميس ، كما جاء التصريح بذلك في بعض الأقوال ، فتبلغ المدة خمس ليال. والوارد المأثور من الأخبار لم يرد فيه ذكر الخمس ليال ، وأكثر ما ورد أنها أربع على أن البعض من المؤلفين ذكر قولا يحدد مدة الإقامة بالغار بليلتين فقط.

4- وفيما يتعلق بتعيين اليوم الذي خرج فيه صلى الله عليه وسلم من مكة مغادرا لها إلى الاختفاء بغار جبل ثور من حيث تعيين اليوم بالاسم ، فقد تداول النقل للأثر الوارد عن ابن عباس رضي الله عنهما بما نص اللفظ منه: -" ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين واستنبئ[1] يوم الإثنين ورفع الحجر[2] يوم الاثنين وخرج مهاجرا من مكة

(1) استنبئ: أول ماجاءه الوحي بالنبوة.

(2) الحجر الأسود: فوضعه موضعه يوم حكم في النزاع الذي قام بين قبائل قريش على رفع الحجر عندما جددوا بناء الكعبة.

يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبض يوم الاثنين". وقد روي هذا الأثر بصيغ مختلفة في بعضها زيادة: - "وحملت به أمّه يوم الاثنين ، وفتح مكة.يوم الاثنين "إلى غير ذلك.

فتعيين يوم الاثنين للخروج من مكة جاء في هذا الأثر مطلقا لم يقيد بالخروج إلى الغار ولا بالخروج من الغار فحمله على الخروج الأول أو على الخروج الأخير إنما هو بطريق النظر وليس بطريق الأثر.

وظاهر مما تقدم في هذا الموضوع أن من يأخذ بالاعتبار خبر وقوع المؤامرة بدار الندوة يوم سبت لا مندوحة له عن القول بأن الخروج الأول كان يوم الاثنين الموالي ، وفي ضمن ذلك يتعين القول بأن يوم الخروج الأخير كان يوم الخميس الموالي.وقد تقدم فيما أثبت من قبل ما يفيد بظاهره أن الإمام ابن القيم مشى في كتابه "زاد المعاد" عند تعرضه للهجرة على القول بأن خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار (أي الخروج الأول) كان يوم الاثنين. وفي معنى هذا ما أفاده نور الدين السمهودي في كتابه "وفاء الوفا" بأن **محمد بن موسى***(يعرف بمحمد بن موسى الخوارزمي - من متقدمي أئمة العلم) يذكر وأن خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار في طريقه إلى المدينة كان يوم خميس.

غير أن الذي شاع تداوله وكثر القائلون به هو عكس ما تقدم وأن الخروج الأول كان يوم الخميس والخروج من الغار كان يوم الاثنين فاتح ربيع الأول.

ويبدو في هذا أن الشهرة المذكورة تخص الخروج الثاني أي أنه صلى الله عليه وسلم خرج من الغار لابتداء السفر في الهجرة يوم الاثنين ، وحل بالمدينة يوم الاثنين موافقة للمأثور في ذلك ويظهر هذا من صنيع الكثير من المؤلفين قديما وحديثا حيث تعرضوا لذكر الخروج الأخير خاصة وأغفلوا ذكر الخروج الأول ، وإنما جاء ذكر يوم الخميس على أنه يوم الخروج

الأول للبعض من الأئمة محاولة للجمع بين القولين في الخروج ، وأنه يوم الخميس أو يوم الاثنين.

والملاحظة على هذا أن ما نقله السمهودي عن محمد بن موسى وذكره البعض من غير تعيين قائله مفاده تعيين يوم الخميس للخروج الأخير نصا بالتقييد وليس طلقا للخروج.

فالخلاف قائم في هذا المحل بين القولين وإنما أخذ الشهرة القول بالخروج الأخير يوم الاثنين مع ما ينتج عليه - إذا أضيف إليه تعيين يوم الخميس للخروج الأول - من طول المدة الأمر الذي لا يطابق منطوق الأخبار الصحيحة الشهيرة التداول التي تحدد المدة بثلاث ليال كما تقدم بيانه في كلام مؤلف السيرة الحلبية وجعله محل نظر وتأمل.

5- وفيما يخص خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار آخذا في السفر إلى المدينة أهو في شهر صفر أو في ربيع الأول ؟ .

فهذا القول الذي كثر تداوله بتعيين يوم الاثنين لهذا الخروج أضاف إلى تعيين اليوم كونه فاتح ربيع الأول ، وهو مخالف لما تقدم بيانه في تنسيق صورة الأحداث على كلا القولين المعتمدين في تعيين يوم نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء ، فقد تقدم أن خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار قدر بيوم العشرين من صفر على القول الأول الذي يرى نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء يوم الثاني من ربيع الأول.

وقدر (أي الخروج من الغار) على القول الثاني الذي يرى نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء يوم الثامن من ربيع الأول - قدر على أنه في اليوم السادس والعشرين من صفر.

فمما يلاحظ به على هذا ما جاء في خبر نقله نور الدين السمهودي في كتابه " وفاء الوفا "في حديث يذكر فيه وقت دخوله صلى الله عليه وسلم الغار بعبارة: -" وكان ذلك بعد العقبة (أي البيعة) بشهرين

وليال ". ثم أورد بعد هذا قول من قال [1] أنه بعد العقبة بثلاثة أشهر أو قريبا منها وفنده حيث قال برجحان القول الأول بناء على القول المشتهر بأن الخروج كان في فاتح ربيع الأول ، فحدد المدة ما بين البيعة ودخول الغار نبضعة عشر يوما تزيد على الشهرين.

وبإمعان النظر في عبارة هذا الخبر بلفظ ليال يفهم بادئ ذي بدء أنه يقصد القلة بحيث لا تبلغ الشطر من الشهر وإلا لقال بشهرين ونصف مثلا ، ومعلوم مما تقدم أن في اليوم الحادي عشر من شهر صفر تبلغ المدة ما بين البيعة وبينه شهرين كاملين ، فتكون المدة إبتداء من اليوم الثاني عشر صفر إلى يوم الدخول للغار هي المحددة في هذا الخبر بلفظ " ليال " زيادة على الشهرين.

وقد تقدم في تنسيق صورة الأحداث على القول الأول من القولين المعتمدين في تاريخ نزول قباء أن دخوله صلى الله عليه وسلم الغار كان يوم الاثنين السابع عشر من صفر. وعلى القول الثاني كان دخوله يوم الاثنين الثالث والعشرين من صفر.

فتكون المدة الزائدة على الشهرين المعبر عنها في هذا الخبر "بليال" ست ليال على القول الأول واثنتي عشرة ليلة على القول الثاني.

وإما على القول بأن خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار كان يوم

---

(1) هذا القول الذي يذكر المدة هنا بأنها ثلاثة أشهر أو قريبا منها نسبه نور الدين السمهودي إلى الحاكم • أحد أئمة الحديث ورجح عليه مقابله ، والمعتقد أنه أورد في غير محله وليس هو بمكان ما يرجح عليه مقابله بل هو صحيح ولكن في محله ، ومحله هو نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فلعل الأمر هنا يكون من خلط المواضيع أو من أغلاط النساخ في روايات الأخبار كلها على اتفاق أن بيعة العقبة كانت ليلة الثاني عشر ذي الحجة ، وأن نزوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة كان في الشطر الأول من شهر ربيع الأول على الخلاف في تعيين اليوم منه فعلى أنه يوم الثاني عشر تكون المدة فيما بينه وبين بيعة العقبة ثلاثة أشهر بالضبط وعلى أنه في اليوم الثامن تكون المدة قريبا من ثلاثة أشهر أما على القول بأن النزول بالمدينة كان أوائل شهر ربيع فالمدة تكون أقصر.

فاتح ربيع الأول فتبلغ المدة مالا ينقص عن نصف شهر (إن لم تكن الزيادة) وإذا صح ما تقدم ذكره من أن لفظ هذا الخبر يقصد التقليل بعبارة "ليال" فهو مما يرجع إلى ترجيح القول الأول من القولين المعتمدين في الباب.

ومما يلاحظ به أيضا في الخلاف بين قولي الخروج من الغار أهو في صفر أو في ربيع الأول ما تقدم ذكره في الخبر القائل بنص عبارة: -" خرج صلى الله عليه وسلم من مكة لثلاث بقين من شهر صفر".

فلفظ هذا الخبر محتمل للخروج الأول وللخروج الأخير، فحمله القائلون بما اشتهر من القول بأن الخروج الأخير كان يوم فاتح ربيع الأول على أنه الخروج الأول إلى الغار ليوافق ما ذهبوا إليه من أن الخروج الأخير كان في أول ربيع الأول، وقد لزم عليه طول المدة في الغار خلاف ما صرحت به الأخبار المشتهرة بأن مدة المكث بالغار لم تتجاوز ثلاث ليال.

فإذا حمل على أنه الخروج الأخير كما جاء في صورة تنسيق الأحداث على القول الثاني من القولين المعتمدين في الباب أفاد أن الليالي الثلاث الباقية من صفر إنما نقضت في أثناء السفر بعد الخروج من الغار.

وفي أخذ ما جاء في هذا الخبر بعين الاعتبار مع حمل لفظ الخروج فيه على الخروج الأخير ترجيح للقول الثاني من القولين المعتمدين في مسألة النزول بقباء.

6- ومن مواضع هذا الخلاف أيضا تقدير المدة الزمانية التي استغرقها سفره صلى الله عليه وسلم من حين خروجه من الغار إلى أن نزل بقباء، فقد عرف مما تقدم في تنسيق الأحداث على كل من القولين المعتمدين في تاريخ نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء أن هذه المدة كانت إحدى عشرة ليلة بناء على أنه خرج يوم الخميس صباحا ونزل بقباء نهار يوم الاثنين. وليس الاثنين الموالي ليوم الخروج المقتضي قطع المسافة في أربع ليال لأن هذا خلاف العادة الجارية إذ ذاك.

والمتداول الشائع في تقدير المسافة بين مكة والمدينة على الطريق الساحلية وهي التي سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم في الهجرة أنها تقطع بسير الإبل المعتاد في مدة عشر ليال. والأخبار الواردة في سفره صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة لفتح مكة سنة ثمان من الهجرة تذكر أنه خرج من المدينة لعشر ليال مضين من رمضان ودخل مكة يوم العشرين منه.

وفي حجة الوداع سنة عشر من الهجرة خرج من المدينة عشية يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة ، ودخل مكة صباح يوم الأحد الرابع من ذي الحجة. وهكذا كانت مدة سفره صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة في غزوة الفتح عشر ليال ، وفي سفره لحجة الوداع ثمان ليال.

وقد أفاد الإمام حسين الديار بكري* في كتابه تاريخ الخميس عندما تعرض لتاريخ حجة الوداع ، وذكر مدة الثمان ليال في سفره صلى الله عليه وسلم ، فقال أنها المسافة الوسطى فيستفاد منه أن المسافة بين المدينة ومكة تقطع في مدة ثمان ليال وفي أكثر وفي أقل ، وذلك بحسب ما هو معهود في ذلك الوقت من السير على الإبل.

وقد عرف - في وقتنا الحالي - عن مقدار المسافة بين مكة والمدينة على الطريق الساحلية أنه لا ينقص عن أربعمائة وخمسين "كيلو متر" والكيلو متر لا ينقص عن ألفي ذراع إن لم يزد.

فالمستخلص مما تقدم ذكره أن تقدير مدة سفر الرسول صلى الله عليه وسلم في هجرته من مكة إلى المدينة بإحدى عشرة ليلة هو مما تجري به العادة على الوجه المألوف.

هذا وقد جاء في المنقول من الأخبار المأثورة ، ومن تعاليق البعض من العلماء ما يشير ضمنا إلى إثبات المدة المذكورة في سفره صلى الله عليه وسلم للهجرة.

فمن ذلك ما تقدم ذكره في هذا الباب وأثبت فيما سبق من هذا التقييد أنه جاء في بعض الروايات الإخبارية التصريح بتحديد المدة ما بين دخوله صلى الله عليه وسلم الغار إلى نزوله بقباء ببضعة عشر يوما ، فإذا ضمت ليالي الغار الثلاث إلى الإحدى عشرة المنقضية في السفر كان المجموع أربعة عشر فهو المعبر عنه ببضعة عشر (وقد عرف أن البضع في العدد هو من الثلاثة إلى التسعة).

ومن ذلك ما جاء في تعليق لبعض الأئمة على رواية حديث كان فيه إشكال.

فقد جاء في حديث عرف بأنه حديث مرسل[1] عنه صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن مكثه بالغار نصه: -" لبثتُ مع صاحبي في الغار بضعة عشر يوما ما لنا طعام إلاَّ ثمر البرير[2] ". فهذا الحديث زيادة على أنه لم يرد في الصحاح ، فهو فيه مخالفة لما جاءت به الأخبار الصحيحة المتواترة في تعيين مدة المكث بالغار وأنها لا تزيد على ثلاث ليال وكذلك ما يتعلق بمسألة الزاد فقد ثبت ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن هو

---

(1) مرسل: بصيغة اسم المفعول من الإرسال وهو الإطلاق والحديث المرسل في اصطلاح علم الحديث من حيث الدراية والبحث في الإسناد عرف بأنه الذي يسقط من سنده الصحابي بحيث يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم التابعي فيقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ، وهذا التعريف للحديث المرسل هو المشهور المتداول ، ولكن يوجد قول فيه يشترط في التابعي أن يكون من الكبار وهم الذين اشتهروا بأنهم لا يروون إلا عن الصحابة ، فإذا كان التابعي من الصغار وهم عامة التابعين ممن لم يكن شأنهم التقيد بالقيد المذكور فلا يسمى الحديث الذي يرفعه هذا الصحابي مرسلا بل يسمى منقطعا. ويوجد قول آخر في تعريف الحديث المرسل يقول فيه هو الحديث الذي يسقط من سنده راو من رُواته مطلقا سواء كان في أوله أو وسطه أو آخره.

(2) البرير: بفتح الباء الموحدة وكسر الراء ممدودة مخففة وآخره راء ، جاء في تعريفه أنه ثمر شجر الأراك المعروف بالسواك. وقد تقدم في باب رعايته صلى الله عليه وسلم الغنم حديث عن ثمر الأراك وأنه يسمى "الكباث" بفتح الكاف والباء الموحدة الممدودة مخففة وآخره ثاء مثلثة ، فهما صنفان من ثمر الأراك.

وصاحبه في الغار في حاجة إلى الطعام إذ كان يأتيهما ما يصلحهما من التغذية على حسب العادة من منزل أبي بكر بواسطة ابنته أسماء ويغدو عليهما عامر بن فهيرة بما يحلب لهما من لبن الأغنام التي كان يرعاها قرب الغار ، وكذلك ما ثبت بأنهما حملا ما يلزم من زاد السفر قبل الدخول للغار.

وقد كان للمخالفة الشديدة بين ما في هذه الرواية وما صح واشتهر في حديث الغار المعروف أن جعلت البعض من الأئمة يذهب إلى تجويز أن يكون الأمر يتعلق بقصة أخرى غير قصة الغار المشهورة (مجرد احتمال)[1] ولكن يرد عليه إن كان الأمر كذلك فهو مما تتوفر الدواعي على تناقله ، والحال أنه لم يرد شيء من ذلك فيما يتناقل من الأخبار.

ولذلك عمد البعض من الأئمة إلى البحث في هذه الرواية وتأويلها إلى ما يرجع بها إلى المعروف من حديث الغار ، ذلك أنه من الاحتمال القريب يقول أصحاب التأويل أن يكون لراوي الحديث تصرف من عنده في نص اللفظ الأصلي للحديث.فربما اختصر شيئًا منه. وما يخص لفظ "بضعة عشر يوما" للمدة يرجع معناه إلى كامل المدة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق في الاختفاء عن أعين المشركين ومبدؤها من الدخول للغار إلى يوم النزول بقباء.

وهكذا أفاد هذا التعليق تحديد المدة من حين الدخول للغار إلى يوم النزول بقباء ببضعة عشر يوما وهو مطابق تمام المطابقة لما قدر في صورة

---

(1) والذي جاء في روايات الأخبار عن مسمى الغار غير غار حراء وغار ثور هو ما جاء من ذكر اسم غار منى البلد المعروف في مناسك الحج ففي بعض الأخبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نزلت عليه السورة من القرآن المعروفة " بالمرسلات " كان إذ ذاك بغار منى حتى أنه عرف هذا الغار باسم " غار المرسلات ". وَرَوَى هذا الخبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأنه كان مصاحبا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الغار. وعلق البعض على ما في هذا الخبر بأنه صلى الله عليه وسلم ربما كان يدخل هذا الغار في أيام الإقامة بمنى لأداء مناسك الحج وهي أيام رمي الجمار المعلومة.

تنسيق الأحداث المتقدم بيانه بأربعة عشر يوما.

وليس هذا هو كل ما جاء من النقل يفيد ما ذكر عن تحديد المدة لسفره صلى الله عليه وسلم في الهجرة بل يوجد من الأخبار والأقوال - غير ما ذكر هنا - ما يفيد نفس المعنى ضمنا (وفيما ذكر كفاية).

والمخالف لهذا هو ما ترتب عن القول بأن خروجه صلى الله عليه وسلم من الغار كان يوم الاثنين فاتح شهر ربيع الأول، وأخذ شهرة ملحوظة.

فهذا يفيد أن مدة سفره صلى الله عليه وسلم من مكة إلى أن نزل بقباء لم يزد على سبع ليال بناء على أحد القولين المعتمدين في تعيين يوم النزول وهو القائل بأنه كان يوم ثامن ربيع الأول.

وقد عرف مما تقدم ذكره عن نور الدين السمهودي أنه أشار إلى هذا على وجه الاحتمال الجائز فإنه بعدما ساق قول هشام ابن الكلبي بأنه صلى الله عليه وسلم خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول، قال السمهودي: " فإن كان محفوظا فلعل قدومه (صلى الله عليه وسلم) قباء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ".

كما عرف مما تقدم أن ممن جزم بالقول أنه صلى الله عليه وسلم خرج من مكة يوم الاثنين مسافرا إلى المدينة فاتح ربيع الأول ونزل بقباء ثامن الشهر أحد من كتب في السيرة من علماء العصر الحالي وهو الأستاذ محمود عرنوس المصري.

هذا ومما يلزم ملاحظته أن كثيرا (أو عددا) ممن كتب في السيرة تعرضوا لتعيين يوم النزول بقباء على أنه يوم ثامن ربيع الأول وأغفلوا تاريخ الخروج من الغار والشروع في السفر، فمن الجائز أن يكون ترتيب الأحداث عندهم بحسب ما تقدم بيانه في التنسيق على القول الثاني، ومن الجائز أن يكون الترتيب عندهم على القول الذي يعتمد الخروج من الغار يوم الاثنين فاتح الشهر نظرا للشهرة التي نالها هذا القول.

7- ومما يلحق بمواضع الخلاف الواقع بين الأقوال في عموم ما جاء في هذا الفصل من السيرة الخلاف بين القولين المعتمدين في تاريخ نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء، وهو الخلاف في تحديد المدة الزمانية لما بين بيعة العقبة الكبرى وبين حلوله صلى الله عليه وسلم بقباء. فعلى القول الأول الذي يرى النزول بقباء يوم الثاني من ربيع الأول هي 76 ستة وسبعون يوما، وعلى القول الثاني الذي يرى النزول بقباء يوم الثامن من ربيع الأول هي 83 ثلاثة وثمانون يوما وهو الخلاف الناشئ من التقديم والتأخير لأسبوع من الأيام، وقد تقدمت إليه الإشارة آنفا.

وقد فهم مما جاء في تنسيق صورة أحداث هذا الفصل من حيث التاريخ على كلا القولين المعتمدين في الباب ليوم النزول بقباء أن أساس ما بني عليه والمرجع فيه هو ما تقرر واعتمد من مؤلفي السيرة المتأخرين في يوم حلوله صلى الله عليه وسلم بقباء بالتقويم الشمسي، وأنه اليوم العشرون من شهر سبتمبر تاسع شهور سنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد المسيحي.

ونظرا لاشتهار القول المخالف في البعض من وجوه تنسيق الأحداث لما تقدم بيانه في صورة التنسيق المذكورة فيتعين تنسيق الصورة على الوجه المطابق لهذا القول المخالف كما يلي: -

1- بيعة العقبة الكبرى ليلة الاثنين الموافق للثاني عشر ذي الحجة يوافق من التقويم الشمسي ليلة الثامن والعشرين من شهر يونيه (من السنة الميلادية المعلومة).

2- يوم الجمعة السادس عشر من شهر يوليه هو فاتح المحرم من السنة الأولى الهجرية.

3- يوم الأحد خامس عشر شهر أغسطس هو فاتح شهر صفر (باعتبار كمال شهر المحرم قبله).

4- يوم الأربعاء الخامس والعشرون من شهر صفر الموافق للثامن من شهر سبتمبر هو يوم مؤامرة دار الندوة (على أقرب الاحتمالات).

5- يوم الخميس بعده السادس والعشرون من صفر التاسع من سبتمبر هو يوم توجه الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه إلى غار جبل ثور للاختفاء به.

6- ليالي المكث بالغار هي ليالي الجمعة والسبت والأحد سابع وثامن وتاسع عشري صفر ، عاشر وحادي وثاني عشر سبتمبر.

7 - ليلة الإثنين فاتح ربيع الأول ثالث عشر سبتمبر الخروج آخر الليل من الغار للشروع في السفر إلى المدينة.

8- يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول الموافق للعشرين من سبتمبر نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء.

- والخلاصة من جميع ما تقدم من هذا البحث أن ما يطلب من تحصيل صورة ثابتة متكاملة الانسجام من أحداث هذا الفصل من السيرة النبوية (من بيعة العقبة إلى الحلول بالمدينة المنورة) هو أمر حاصل كما تقدمت إليه الإشارة في أول البحث. وقد مشى على هذا الأسلوب الكثير ممن كتب في السيرة قديما وحديثا ، وإنما هو حصول على وجه الإجمال والتقريب ، وفيه كفاية على كل حال. وما دعا إلى البحث والنقاش في الموضوع إلاَّ ما يرد في تحديد وتعيين في الوقائع يظهر فيه التنافي بين بعضه البعض.

وقد تبين مما مرّ من البحث أن ما يعتبر في الواقع خلافا في الموضوع ليس هو إلاَّ في تقديم أو تأخير تاريخ بعض الوقائع بمدة أسبوع من الأيام أو زيادة على الأسبوع بما لا يتعدى ثلاثة أيام مع الاتفاق على تاريخ المبدأ الذي هو الثاني عشر من ذي الحجة ، وعلى تعيين حادثي المؤامرة ودخول الغار في بحر شهر صفر ، وعلى الحلول بالمدينة في شهر ربيع الأول ، والخلاف في يوم مؤامرة دار الندوة أهو الخامس عشر من صفر ؟ أو يوم الحادي والعشرين منه ؟ أو يوم الخامس والعشرين منه ؟ خلاف في عشرة أيام بالتقديم والتأخير وهي كلها في صفر.

وفي دخول الغار أهو يوم السابع عشر صفر؟ أو يوم الثالث والعشرين منه؟ أو يوم السادس والعشرين؟ وفي الخروج من الغار والسفر إلى المدينةأهو يوم العشرين من صفر؟ أو يوم السادس والعشرين منه؟ أو هو يوم فاتح ربيع الأول؟.

وفي النزول بالمدينة (قباء) أهو يوم الثاني من شهر ربيع الأول؟ أو الثامن منه؟ ...إلخ...

فهذا هو محل الخلاف وهو لا يتجاوز بضعة أيام تقديما وتأخيرا.

ويضاف إليه الخلاف الواقع بين علماء التقويم في مقارنة التاريخين الشمسي والقمري، وهو خلاف في أسبوع أيضا تقديما وتأخيرا كما مرّ بيانه في إثبات شهر المحرم أول السنة الهجرية الأولى أهو يقارن اليوم السادس عشر من شهر يوليه؟ أو اليوم الثالث والعشرين منه؟

وما عدا هذا مما يظهر فيه مخالفة لبعضه البعض فلا أهمية له وفيه ما يمكن الجمع بين بعضه البعض. كما أن ما ذكر في بعض روايات إخبارية تتعلق ببعض أحداث هذا الفصل وفيه غرابة وعليه طابع الوضع القصصي، وهو مع ذلك يخالف المشهور التداول في هذا الباب قد أغفل إيراده في هذا التقييد إذ ربما يكون في إيراده تشويش على الثابت المعروف: [كل متخالفين يشوش الواحد منهما على الآخر وإنما جعل هنا الثابت في مكان المفعولية والزائف في مكان الفاعلية لأن هذا بمثابة الخصم المبطل تجاه خصمه المحق فناسب أن يجعل المحق في مكان المفعولية بمعنى أنه المشوش عليه من طرف مقابله. وفي العبارة مجاز، والحقيقة أن التشويش إنما يقع على السامع وربما يستهويه الزائف كما هو الشأن الغالب الوقوع مما يكتسيه الزائف من الزخرفة والتزويق دون الثابت المجرد من ذلك، ولا مخلص من التشويش لسامع الخلط بين الثابت والمزيف من الأخبار مادام فاقدا لأداة التفريق بينهما وليس في مقدور كل سامع ولا بميسور في كل حال تسليط ضوء المعرفة على الخليط المذكور فيزول التشويش بظهور زيف الزائف وصحة الصحيح].

ولم يتعرض لإيراده من مؤلفي السيرة إلاَّ النزر القليل ممن انفرد بتوخي طريق الاستيعاب للأخبار بإطلاق لمجرد الاطلاع.

وحيث كان الموضوع الأصلي لهذا التعليق على أحداث الفصل الأخير من الدور الثاني للسيرة النبوية إنما هو البحث لتلك الأحداث من جهة التاريخ خاصة.

وتقدم فيما يخص التاريخ بالتقويم الشمسي لأحداث السيرة النبوية أنه من صنيع مؤلفي السيرة المتأخرين والمعاصرين دون المتقدمين.

والمعتمد والمتفق عليه في تاريخ حادث نزول الرسول صلى الله عليه وسلم من سفره في الهجرة بالمدينة المنورة وهو أهم حادث في أحداث هذا الباب أنه في اليوم العشرين من شهر سبتمبر تاسع شهور السنة الميلادية الثانية والعشرين وستمائة 622.

فينبغي التعرض لذكر ما جاء من خلاف لهذا الاتفاق في التاريخ بالتقويم الشمسي للحادث المذكور وهو ما مشى عليه أحد مؤلفي السيرة من علماء العصر الحالي الأستاذ **محمد رضا أفندي** * المصري في كتابه المسمى "محمد رسول الله". وقد التزم في كتابه هذا باستيعاب جميع أحداث السيرة أن يؤرخ لها بالتقويم الشمسي على التاريخ الميلادي. فهو يثبت في حادث نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة في الهجرة التاريخ له كما يلي: "كان دخول الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول الموافق للثامن والعشرين من شهر يونيه سنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد ".(شهر يونيه (بالنون) أول فصل الصيف وسادس شهور السنة الشمسية!).

فالخلاف بين هذا وبين ما ذكر قبل مما اعتمده الجمع من مؤلفي السيرة المتأخرين خلاف شاسع البعد جدا (في هذا المقام) فهو في حكم الثلاثة أشهر تقديما وتأخيرا.

وليس هذا هو الخلاف الوحيد بين المؤلف المذكور وبين إخوانه مؤلفي السيرة المعاصرين في التاريخ لأحداث السيرة بالتقويم الشمسي.

فهم يتفقون في شبه إجماع على تاريخ المولد الشريف بأنه كان في شهر أبريل من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة للميلاد، ويؤرخه المؤلف المذكور بيوم العشرين من شهر أغسطس سنة سبعين وخمسمائة (تقديما بمدة تسعة أشهر!).

وليس في الملاحظة على هذا إلا أن يقال ما دامت المسألة تتعلق بعلم الحساب التقويمي فمرد الأمر فيها إلى أهل العلم المحققين في هذا الفن، فلهم خاصة الحكم في هذا الخلاف، وعلى كل حال وتقدير فعلم ما هو واقع حقيقة مما ذكر في الابتداء والانتهاء إنما هو عند الله.

والموضوع الثاني الذي يتضمنه هذا التعليق هو بحث نزول القرآن عليه صلى الله عليه وسلم من حيث الوقت بين مكة والمدينة.

فجاء أن تقدير ما نزل من القرآن بمكة هو بنسبة سبعة أجزاء من إثني عشر، والباقي وهو خمسة من اثني عشر هو ما نزل بالمدينة.

فباعتبار الاصطلاح الذي جرى به العمل في المغرب العربي الذي يجعل مجموع أجزاء[1] القرآن ستين جزءا يكون النازل منه بمكة خمسة وثلاثين جزءا وبالمدينة خمسة وعشرين.

ويلاحظ أن اصطلاح المشارقة في تجزئة القرآن يجعله في ثلاثين جزءا فيقال على هذا: - إن النازل بمكة هو سبعة عشر جزءا ونصف والنازل بالمدينة هو اثنا عشر جزءا ونصف وقد ألحقت على هذا ملاحظة بأن التقدير المذكور تقريبي وليس على تمام الضبط.[2] وأما نزول القرآن باعتبار السور فمنها ما حصل الاتفاق بين الأئمة على أنه مكيّ وكذلك الاتفاق على ما هو مدني، ووقع الخلاف في بعض السور فمن قائل أنه مكيّ ومن قائل أنه مدني.

---

(1) الأجزاء الجاري فيها التعبير بالأحزاب.

(2) و الذي أفاده الأستاذ محمد الخضري في كتابه تاريخ التشريع الإسلامي: - أن المكيّ من القرآن هو نسبة 30/19 تسعة عشر جزءا من ثلاثين ينقص قليلا. والمدني منه هو بنسبة 11 /30 أحد عشر جزءا من ثلاثين يزيد قليلا.

والقول المعتمد في تعريف كلٍ من المكيّ والمدني من القرآن العظيم أن المعتبر في الأمر هو الزمان أي زمان إقامة الرسول صلى الله عليه وسلم بالبلد.

فالمكيّ هو ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن أيام إقامته بمكة ، أي قبل هجرته إلى المدينة. والمدني هو ما نزل عليه من حين إقامته بالمدينة إلى آخر ما نزل من القرآن.

وعلى هذا يفهم أن ما نزل من الآيات حال خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ، وما نزل أثناء السفر إلى المدينة في الهجرة ونحو هذا كله مكيّ ، وأن ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم في أسفاره بعد الهجرة سواء في ذلك نواحي المدينة وما كان خارجا وبعيدا عنها كتبوك ومكة نفسها ، كما في أيام عمرة القضاء وغزوة الفتح وحجة الوداع ، كل هذا يعتبر مدنيا.

ويستفاد مما نص عليه بعض الأئمة كالإمام **أبي بكر الباقلاني** *أن تعريف ما هو مكيّ وما هو مدنيّ من القرآن لم يثبت فيه شيء مرفوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما جاء ذلك في أقوال بعض الصحابة وأئمة التابعين.

وكذلك مما أثبته الأئمة أن في السور المكية ما هو من الآيات مدنيٌّ ، تأخر نزوله إلى ما بعد الهجرة ويظهر ذلك بوضوح من دلالة الآيات عليه. وأما الآيات المكية في السور المدنية فقد قيل بثبوته ويظهر فيه أشكال وقد نقل فيه الحافظ جلال السيوطي في كتابه " الإتقان في علوم القرآن " ما قال فيه الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني من أن الآيات المدنية في السور المكية موجود بكثرة ويقول في العكس وهو الآيات المكية في السور المدنية ، لم أره إلاّ نادرًا!.

وكذلك مسألة تكرار نزول الآية أو السورة بحيث تنزل السورة أو الآية بمكة ثم يتكرر نزول ذلك بالمدينة لثاني مرة.

فهذا مما أثبته الكثير وعينوا لذلك عددا من السور والآيات قالوا أنها نزلت أولا بمكة ثم نزلت ثانيا بالمدينة.

ولكن يوجد من الأئمة من أنكر هذا واعترض عليه بوجوه من الدليل النظري. ويظهر الخلاف بين الأئمة فيما هو مكيّ أو مدنيّ من سور القرآن على غاية من بعد الشقة ويأتي تارة مزدوجا فيقع الخلاف ابتداء في السورة أهي مكيّة أم مدنيّة ، ثم يعقبه الخلاف في الترجيح. فبينما يرجح البعض مكية أو مدنيّة السورة ، يرجح البعض في نفس السورة خلاف ما رجحه الآخر.

ومستند الحكم بمكية السورة أو مدنيتها إنما هو في الأصل ، الأخبار المنقولة (كما تقدمت الإشارة إليه) فحصل الإجماع على طائفة من السور بأنها مكية وعلى طائفة منها بأنها مدنية.

وتعارضت الأخبار في طائفة أخرى من السور. فجاء فيها ما يدل على أنها نزلت بمكة. وجاء من جهة أخرى ما يدل على أنها نزلت بالمدينة. وهنا حصل في الموضوع مستند النظر والاجتهاد بترجيح ما يرجح من روايات الأخبار وتأويل ما يؤول منها حتى آل الأمر إلى الأخذ بمجرد النظر في مضمون الآيات ودلالتها وما تعطيه من معنى يناسب العهد المكيّ أو يناسب العهد المدنيّ.

وفي هذا الخلاف الواقع في المكي والمدني من سور القرآن العظيم جاء لبعض المؤلفين كلمة ذهبت مثلا يحتذى ويتمثل به في الخلاف الواسع الجوانب المتباعد الأطراف ، والذي ربما يكون مبناه واهيا لا ركيزة له. والمؤلف المذكور هو الإمام أبو الحسن **ابن الحصّار** * ، فقد نظم قصيدة عد فيها ما وقع عليه الاتفاق من السور بأنه مدنيٌّ ، وأنه عشرون سورة. وما وقع فيه الخلاف مما يستحق الالتفات إليه من الخلاف ، وحصر هذا القسم في اثنتي عشرة سورة وجزم بأن ما بقي غير ما عدَّ من السور فهو مكيٌّ - يقول -:

" وما سوى ذلك مكيّ تَنزّلُه

فلا تكُن من خلاف الناس في حَصَر[1]

فليس كلّ خلاف جاء معتبرا

إلاّ خلافٌ له حظٌّ من النظَر "

وقد نقل جلال الدين **السيوطي** * في كتابه " الإتقان في علوم القرآن" كامل هذه المنظومة لابن الحصار معينا فيها السور المدنية والمختلف فيها كما تقدم ذكره ، بحيث يكون المجموع من هذين القسمين اثنتين وثلاثين سورة ويبقى اثنتان وثمانون سورة هو مجموع السور المكية ، وإن كان في البعض منها بعض آيات نزلت بالمدينة ، غير أن جلال الدين السيوطي نظرا لما توخاه من طريقة الاستيعاب ، أورد بعد ذلك ما وقع فيه الخلاف من عدد السور فأوصله إلى اثنتين وثلاثين سورة ، فقد زاد على ماعدَّه ابن الحصار عشرين سورة.

والتزم بالملاحظة على ما يورده في كل سورة من القول بمكيتها أو مدنيتها بتصويب ما يراه صوابا وردّ ما يرده وتضعيف ما يراه ضعيفا ، واقتصر في البعض على مجرد ما يقال فيها من خلاف دون ما ترجيح. ومع استيعاب السيوطي هذا واستقصائه فقد زاد البعض عليه سورة أخرى مما وقع فيه الخلاف لم يذكرها السيوطي وهي سورة " شورى حَمعَسقَ " فعلى هذا تبلغ عدة المختلف فيه بالمكيّ والمدنيّ من السور ثلاثا وثلاثين سورة (بل الذي جاء في البعض من كتب التفسير في حكاية الخلاف الواقع في السور أهي مكية أو مدنية يزيد على ثلاث وثلاثين سورة). وفيما يلي ذكر هذه السور المختلف فيها بالقول أنها مكية أو مدنية وما جاء من الملاحظة على الخلاف المذكور ، وهي على ترتيب المصحف الذي به التلاوة.

---

[1] الحصر: بفتح الحاء المهملة وفتح الصاد المهملة آخره راء ، هو مصدر فعل حصِر يحصَر بالكسر في الماضي والفتح في المضارع بوزن طرب يطرب طربا - جاء في تعريفه أنه ضيق الصدر وقلق النفس من الشيء الذي يثقل على العبد ولا يرتاح إليه.

1) **الفاتحة**: فيها خمسة أقوال. فقيل أنها أول سورة - على الإطلاق- نزلت عليه صلى الله عليه وسلم تلقاها عن الملك قبل أن يتصل به مباشرة ويضمه إليه في غار حراء ويلقنه فواتح سورة العلق "اقرأ باسم ربك". وقيل أنها خامس سورة مما نزل من القرآن بمكة وأنها نزلت بعد سورة المدثر ولهذا القول شهرة معلومة. وقيل نزلت مرتين بمكة أوّلاً ثم تكرر نزولها بالمدينة. وقيل بل نزلت شطرين: الشطر الأول بمكة والثاني بالمدينة. وقيل هي سورة مدنية نزلت بالمدينة. وقد ردّ القول الأخير بما لا يخفى من وجوه الدليل.

2) **سورة النساء**: معروف بأنها مدنية ، ولكن حكي فيها قول مأثور بأنها مكية بحجة أن الآية فيها من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ نزلت بمكة أوان فتح مكة ، ولا يخفى ضعف هذا الدليل.

3) **سورة يونس عليه السلام**: معروف مكيتها ، وفي بعض الأقوال استنادا إلى بعض روايات قيل بمدنيتها وهو قول مما لا يلتفت إليه.

4) **سورة الرعد**: اعتمد كثير مدنيتها ولكن القول بأنها مكية له رجحان قوي (حكي الخلاف أيضا في سورة النحل بأنه قول بعضهم من غير تعيين).

5)**سورة الحج**: فيها اختلاف عريض حتى قيل أنها ممتزجة من المكي والمدني ، واختلف فيها في الترجيح فرجح البعض مكيتها ورجح البعض مدنيتها.

6) **سورة الفرقان**: المعروف هو أنها مكية ، وحكي قول بمدنيتها واعتبر متروكا (وحكي الخلاف كذلك في سورة " العنكبوت ").

7) **سورة يس**: مكية وما قيل عن مدنيتها فهو شاذ لا التفات إليه (وكذلك في سورة الصافات).

8) **سورة "صٓ"**: هي كسورة يٓس تماما ، القول بمدنيتها مردود.

9) **سورة شورى**: المأخوذ به أنها مكية وما ذكر عن مدنيتها ضعيف جدا (وكذلك في سورة " الزخرف ").

10) **سورة القتال**: المعروفة بسورة محمد صلى الله عليه وسلم مدنية ، وحكي فيها قول بالمكية واعتبر ساقطا لا اعتبار به.

11) **سورة الحجرات**: هي مدنية كسورة " القتال " (هكذا حكى السيوطي في الإتقان الخلاف في سورة الحجرات والذي جاء للبعض من المفسرين أنها مدنية بالإجماع) وفيها ما في " القتال " من القول المتروك بأنها مكية ، والدليل على سقوطه واضح كل الوضوح (ومما حكي من الخلاف بالمكية والمدنية في سور القرآن سورة "النجم" فمدنيتها من أغرب ما يسمع من الخلاف).

12) **سورة الرحمٰن**: الخلاف في مكيتها ومدنيتها معروف. وممن جزم بأنها مكية السيوطي ، وقد اشتهرت الرواية الواردة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأنه جهر بقراءتها في الملإ من قريش عند الكعبة أيام الجهر بالدعوة الإسلامية. فيظهر من هذا ومن غيره أيضا رجحان القول بمكيتها.

13) **سورة الحديد**: المتبادر مما مشى عليه جمهور الأئمة أنها مدنية ، ونقل عن البعض القول بأن الأشبه بمقدمها أنه مكي ، وفي هذا رواية عن حادثة بدء إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأنه عندما دخل منزل أخته **فاطمة*** زوج سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وقرأ فيه بطاقة من القرآن كان في تلك البطاقة الآيات الفواتح لسورة "الحديد" فقرأها حتى بلغ قوله تعالى: "آمنوا بالله ورسوله"...إلخ فقذف الله في قلبه الإيمان وهداه الله تعالى إلى الإسلام فأعلن إسلامه إذ ذاك. وقد تقدم ذكر القصة في باب إسلام عمر رضي الله عنه.

14) **سورة الصف**: كونها مدنية هو المشتهر المأخوذ به من عامة المحققين وتوجد بعض روايات إخبارية فيها ما يشير إلى أنها مكية. ويقول السيوطي: - المختار أنها مدنية.

15) **سورة الجمعة**: كذلك معروف مدنيتها ، ويحقق البعض بأن القول بمكيتها هو قول غير صحيح (وفي كلام البعض من مؤلفي التفسير أن سورة "الجمعة" مدنية بالإجماع).

16) **سورة التغابن**: الذي عليه الاعتماد أنها مدنية. والقول بأنها مكية منظور فيه إلى آيات منها أشبهت المكيّ.

17) **سورة الملك**: المعروف أنها مكية ، وجاء قول بأنها مدنية ، وحققوا أنه غريب لا دليل له.

18) **سورة الإنسان**: فيها القول بأنها مدنية وجرى العمل به في المصاحف ولكن الذي اعتمد من طرف الكثير أنها مكية ، وقال البعض مكية إلا آية واحدة فقط [في هذا الموضع تضارب فيما يوجد من نسختي كتابي "الإتقان" للسيوطي و"حاشية" الشيخ **سليمان الجمل** * على تفسير الجلالين فالأول الذي أثبت في هذا التقييد هو من " الإتقان" ويفيد أن السورة مكية إلاّ آية واحدة فمدنية. والثاني من " حاشية " الجمل يفيد أن السورة مدنية ، إلا آية واحدة فمكية ، وذكرت الآية المستثناة في كلا القولين بأنها قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾.

وإذا كان الأمر يرجع إلى أغلاط الطبع والنساخ ، فيظهر أن الصواب هو ما في "الحاشية" للجمل. ويظهر صواب ما في "الحاشية" لأن طبع كتاب " الإتقان" يظهر فيه كثير من الخطإ كما في جملة ما طبع بهذه المطبعة التي هي مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة. وعلى هذا فالوارد في الكتابين " الإتقان" وحاشية الجمل" - كما هو في باقي عدة من التفاسير -

حكاية قول من يقول أن السورة كلها مدنية إلا آية واحدة وهي: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ فهي مكية. وهذا كما تقدمت الإشارة إليه من المشكل والنادر على قول من قال به فيلزم عليه نزول آية متأخرة من سورة قبل نزول أول السورة ، ومن هذا الوجه جاء ترجيح القول بأن السورة مكية في جملتها ثم القول بأنها ممتزجة من المكي والمدني].

19) سورة التطفيف: تعددت الأقوال في مكيتها ومدنيتها ، فقيل - حسب بعض روايات الأخبارأنها أول سورة نزلت بالمدينة ، ويقابله القول بأنها آخر سورة نزلت بمكة. وجاء قول بأنها نزلت في أثناء سفر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة في الهجرة ويستخلص من كل ذلك اعتماد نزولها بمكة.

20) سورة سبح الأعلى: المعروف أنها مكية وجاء فيها قول من قال أنها مدنية مستنده ما ذكر فيها من ذكر التزكية والصلاة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾. على أن ذلك يشير إلى زكاة الفطر وصلاة عيد الفطر ، وهو مما شرع بالمدينة! وفي هذا الدليل ما فيه من الضعف فالقول بمدنيتها مما لا اعتبار به.

21) سورة الفجر: هي كسورة " الأعلى " مكية ، والقول بأنها مدنية مما لا يعتد به.

22) سورة البلد: معروف بأنها مكية وما قيل من مدنيتها مردود لا وجه له (وفي قول البعض من المفسرين أن سوارة "البلد" مجمع على أنها مكية).

23) سورة الليل: المعروف أيضا مكيتها. ووردت إحدى الروايات الإخبارية مما يشبه به كونها مدنية ، ولكن ضعف هذا القول واضح تمام الوضوح لا اعتبار به (ذكر بعض المفسرين الخلاف في سورة " التين " أيضا ، ويظهر رجحان مكيتها).

24) **سورة القدر**: المعتمد والمشتهر أنها مكية وما ورد فيها من رواية تدل على مدنيتها مردود وفيه نكارة شديدة.

25) **سورة البينة**: فيها اختلاف رجح الكثير من الأئمة منه أنها مكية ، وممن يرى أنها مدنية الحافظ **عماد الدين بن كثير***.

26) **سورة الزلزلة**: هي كسورة " البينة " يعتمد الكثير من المحققين أنها مكية ، بينما يعدها البعض من المدني.

27) **سورة العاديات**: يظهر بوضوح رجحان القول بأنها مكية ويعدها آخرون من المدني ولكنه غير مشتهر.

28) **سورة التكاثر**: المتداول المعروف أنها مكية. وأورد فيها بعض روايات أخبار تدل على أنها مدنية ولكن تلك الروايات لا تفيد نصا في مدنيتها بل هي مؤولة إلى ما يدل على أنها كباقي العموم من سور المفصل بكونه مكيًّا. ومن هذه الروايات القول بأنها نزلت في الأنصار. والرواية التي تذكر أنها نزلت في اليهود إلى غير ذلك (وجاء في بعض التفاسير ذكر الخلاف في سورة " العصر "أيضا ، وكما في سورة " التين " يظهر رجحان أنها مكية).

29) **سورة الماعون**: جاء فيها القول بأنها مكية ، ويظهر اشتهاره. والقول بأنها مدنية ، ويتداول القول بأن شطرها الأول نزل بمكة والأخير نزل بالمدينة ، (كذلك سورة " الهمزة " ذكر فيها الخلاف والراجح مكيتها وكذلك سورة " قريش " وظاهر رجحان مكيتها).

30) **سورة الكوثر**: يظهر اشتهار القول بأنها مكية وجلال الدين السيوطي اختار القول بأنها مدنية استنادا إلى الحديث المعروف بأنه صلى الله عليه وسلم بينما كان في إغفاءة نوم ثم أفاق وهو يضحك ، وذكر السورة قائلا: "أنها أنزلت عليَّ آنفا " ، وتلا السورة. ويقابل رواية هذا الحديث رواية الحديث الذي يفيد أن السورة نزلت عليه بمكة إثر وفاة ابنه الأصغر

المسمى **عبد الله** * في أوائل عهد النبوة ، وشمت به بعض أعدائه من المشركين إذ قال أن محمدا صار اليوم أبتر فنزلت السورة (وحكي الخلاف أيضا في سورة " الكافرون " والمرجح أنها مكية. وكذلك سورة "الماعون" وأن قيل بأنها مشطرة بين مكة والمدينة. بأن الشطر الأول مكيّ والأخير مدنيّ).

31) **سورة الإخلاص**: يظهر الجمهور على أنها من السور المكية ونزلت في أوائل الدعوة بدلائل شتى على درجة من القوة. ويوجد القول بمدنيتها ، وأنها نزلت جوابا لسؤال اليهود بالمدينة وجنح السيوطي إلى ترجيح هذا القول الأخير.

32) **سورة الفلق**: يبدو اشتهار أنها مكية وفيها القول بأنها مدنية.

33) وكذلك **سورة الناس**: وأنها نزلت بأثر سورة الفلق وهما قرينتا بعضهما البعض كالتوأمتين (بل جاء في إحدى روايات الأخبار أن سورتي المعوذتين كان نزولهما في دفعة واحدة متصلتين ببعضهما). ويظهر من صنيع السيوطي أنه يرجح مدنيتهما استنادا إلى رواية قصة السحر الواقعة بالمدينة المنورة. ومما يبدو من غريب ما ورد التفريق بين السورتين فإن البعض يجعل سورة " الفلق " مكية ، وسورة " الناس " مدنية!.

هذا وقد جاء للبعض أن هذه السور الخمس تكرر نزولها بمكة ثم بالمدينة وهي: -

الفاتحة ، والإخلاص ، والكوثر ، والفلق ، والناس والذي جاء في عد المكي والمدني من سور القرآن بوجه الإجمال اعتمادا على ما يرجح من الخلاف:

1) - القول بأن المكيّ ثلاث وثمانون سورة ، والمدني إحدى وثلاثون.

2) - المكيّ سبع وثمانون ، والمدني سبع وعشرون.

3) - المكيّ ست وثمانون والمدني ثمان وعشرون. والذي أخذ به أحد أئمة

العلم المحققين من علماء العصر الأخير وهو الأستاذ محمد الخضري مؤلف كتاب " تاريخ التشريع الإسلامي " هو أن السور المدنية في القرآن الكريم لا يزيد على ثلاث وعشرين سورة ، وما بقي وهو إحدى وتسعون سورة فكله مما نزل بمكة.

وعيَّن السور الثلاث والعشرين المدنية حسب ترتيب المصحف الشريف كما يأتي: -

(1)سورة البقرة (2) سورة آل عمران (3) سورة النساء (4) سورة المائدة (5) سورة الأنفال (6) سورة التوبة (7) سورة الحجّ (8) سورة النور (9) سورة الأحزاب (10) سورة القتال المسماة بسورة محمد عليه وآله الصلاة والسلام(11) سورة الفتح (12) سورةالحجرات(13) سورة الحديد(14) سورة المجادلة (15) سورة الحشر(16) سورة الممتحنة(17)سورة الصف(18) سورة الجمعة (19) سورةالمنافقون (20) سورةالتغابن (21) سورة الطلاق (22) سورة التحريم(23) سورة النصر.

وفيما يلي خلاصة لما يتعلق بالمكيّ والمدني وما فيه الخلاف من السور القرآنية بتعيين السورة المختلف فيها ووصفها بالمكية أو المدنية بذكر مادة الاعتماد فيه إذا ما كان الخلاف فيها للاعتبار به وذكر مادة الرجحان إذا كان الخلاف له وجه من الاعتبار. وقد تبين مما مرّ ذكره أن المختلف فيه بلغ ثلاثا وثلاثين سورة من مجموع المصحف فكان المجمع على مكيته منه يبلغ ستا وستين سورة ، والمجمع على مدنيته خمس عشرة سورة.

33[1]) السور المختلف فيها.

(1) الفاتحة: مكية - على المعتمد.

---

(1) يلاحظ أنه إذا روعي الاستيعاب للأقوال فإن الخلاف في المكي والمدني من السور القرآنية يزيد على هذا العدد 33.

(2) النساء: مدنية - على المعتمد.
(3) يونس: مكية - على المعتمد.
(4) الرعد: مكية - على الراجح.
(5) الحج: مدنية - على الراجح.
(6) الفرقان: مكية - على المعتمد.
(7) يسٓ: مكية - على المعتمد.
(8) صٓ: مكية - على المعتمد.
(9) الشورى: مكية - على الراجح.
(10) القتال (سورة محمد صلى الله عليه وسلم): مدنية - على المعتمد.
(11) االحجرات: مدنية - على المعتمد.
(12) الرحمٰن: مكية - على الراجح.
(13) الحديد: مدنية - على الراجح.
(14) الصف: مدنية - على المعتمد.
(15) الجمعة: مدنية - على المعتمد.
(16) التغابن: مدنية - على الراجح.
(17) الملك: مكية - على المعتمد.
(18) الإنسان: مكية - على الراجح.
(19) التطفيف: مكية - على الراجح.
(20) سبّح "الأعلى": مكية - على المعتمد.
(21) الفجر: مكية - على المعتمد.
(22) البلد: مكية - على المعتمد.
(23) الليل: مكية - على المعتمد.
(24) القدر: مكية - على الراجح.
(25) البينة: مكية - على الراجح.
(26) الزلزلة: مكية - على الراجح.

(27) العاديات: مكية - على المعتمد.

(28) التكاثر: مكية - على المعتمد.

(29) الماعون: مكية - على الراجح.

(30) الكوثر: مكية - على الراجح.

(31) الإخلاص: مكية - على الراجح.

(32) الفلق: مكية - على الراجح.

(33) الناس: مكية - على الراجح.

66)[1] السور المجمع عليها بأنها مكية.

(1) سورة الأنعام (2) سورة الأعراف (3) سورة هود (4) سورة يوسف (5) سورة إبراهيم(6) سورة الحجر (7) سورة النحل (8) سورة الإسراء (9) سورة الكهف (10) سورة مريم (11) سورة طه (12) سورةالأنبياء(13) سورة المؤمنون(14) سورة الشعراء (15) سورة النمل (16) سورة القصص (17) سورة العنكبوت (18) سورة الروم (19) سورة لقمان (20) سورة الم "السجدة" (21) سورة سبأ (22) سورة فاطر(23) سورة الصافات(24) سورة الزمر(25) سورة غافر(26) سورة فصلت(27) سورة الزخرف(28) سورة الدخان(29) سورة الجاثية(30) سورة الأحقاف(31) سورة ق(32) سورة الذاريات(33) سورة الطور(34) سورة النجم(35) سورة القمر(36) سورة الواقعة(37) سورة القلم(38) سورة الحاقة(39) سورة المعارج(40) سورة نوح(41) سورة الجن(42) سورة المزمّل(43) سورة المدثر(44) سورة القيامة(45) سورة المرسلات(46) سورة النبأ (47) سورة النازعات(48) سورة عبس(49) سورة التكوير(50) سورة الانفطار(51) سورة الانشقاق(52) سورة البروج(53) سورة الطارق(54) سورة الغاشية (55) سورة الشمس(56)

(1) يلاحظ أنه إذا ما اعتبر مطلق ما جاء من الأقوال بالمكية والمدنية في سورالقرآن فإن المجمع عليه بأنه مكيّ منها أقل من هذا العدد "66".

سورة الضحى(57) سورة الشرح(58) سورة التين(59) سورة العلق(60) سورة القارعة(61) سورة العصر(62) سورة الهمزة(63) سورة الفيل(64) سورة قريش(65) سورة الكافرون(66) سورة المسد.

15) السور المجمع عليها بأنها مدنية.[1]

(1) سورة البقرة (2) سورة آل عمران (3) سورة المائدة (4) سورة الأنفال (5) سورة التوبة(6) سورة النور (7) سورة الأحزاب (8) سورة الفتح (9) سورة المجادلة (10) سورة الحشر (11) سورة الامتحان (12) سورة المنافقون(13) سورة الطلاق(14) سورة التحريم (15) سورة النصر.

"مسألة ترتيب الآيات والسور من القرآن الكريم"

موضوع الترتيب هذا يتصل بما تقدم من مسألة معرفة المكي والمدني من القرآن والمتخلص مما ينبغي معرفته من مسألة الترتيب هذه بوجه الجملة ، هو:

أولا: ترتيب الآيات القرآنية داخل السورة الواحدة. فهذا مما قام الدليل القطعي له والإجماع الكلي عليه بأنه توقيفي أي موكول للشارع وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. فإنه الذي تولى ترتيبه ، وذلك بطريق الوحي به إليه كذلك فهذا الترتيب من ذات الوحي نفسه ومنه حصل وجه من وجوه إعجاز القرآن العظيم. فإنه من الخبر المتواتر أن القرآن كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم في آيات مما يؤدي معنى كاملا ، فربما نزلت آية واحدة ، وربما تنزل آيتان ، وربما عدة آيات. وترجع هذه الآيات إلى سورة معينة. وجاء خبر النص على هذا بأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه شيء من القرآن يأمر الكتّاب من أصحابه رضي الله تعالى عنهم

---

[1] لعل أغرب ما جاء من روايات في تعيين المكيّ والمدنيّ من سور القرآن الرواية التي ساقها السيوطي من كتاب " فضائل القرآن " لأبي عبيد القاسم ابن سلام عن عليّ بن أبي طلحة وفيها ما يفهم منه ضم سورة المنافقون إلى السور المكية.

بكتابته وحفظه وترتيبه فيقول: " ضعوا هذه الآية أوالآيات في موضع كذا في سورة كذا أو موضع كذا من سورة كذا. وجاء من الأخبار ما يفيد أن البعض من سور القرآن العظيم نزل عليه صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة بحيث تنزل السورة بكاملها فيأمر عليه الصلاة والسلام بكتابتها كذلك وبموضعها الذي توضع به من بين سور القرآن السابق نزولها. وقد اشتهر من الأخبار في تعيين ما نزل من سور القرآن سورة كاملة باسترسال ذكر سورة الإخلاص وسورة الفلق وسورة الناس وسورة الأنعام. وربما ذكر البعض غير ذلك. فمسألة ترتيب الآيات داخل السور مما لا خلاف ولا نقاش فيه ، فهو كما هو معلوم مما جاء في المصحف الشريف المعروف بالمصحف " الإمام " الذي رتب بإشراف الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ثانيا[1] : ترتيب السور بين بعضها البعض داخل المصحف الشريف وهو المعروف بترتيب التلاوة وترتيب القراءة ، وهو الترتيب الثابت في المصحف الإمام المعروف بالمصحف العثماني. فهذا الترتيب الواقع بين السور لا علاقة له بترتيب النزول من حيث الوقت المتقدم ذكره في بيان المكيّ والمدنيّ من السور ، فلو كان الترتيب في المصحف للقراءة معتبرا فيه وقت النزول لكانت السور المكية مقدمة في المصحف على السور المدنية بحيث يكون جزء القرآن الأخير هو المشتمل على السور المدنية كالبقرة وآل عمران والمائدة والتوبة وشبهها ، ولكان الجزء الأول من

---

(1) لا يفهم من هذا وجوب قراءة من يقرأ ، وتلاوة من يتلو من القرآن السير على نسق الترتيب الواقع بالمصحف فليس هذا هو المراد بالترتيب هنا فلم يقم دليل على وجوب القراءة على حسب الترتيب المصحفي بل ورد ما يدل على جواز التلاوة بمطلق ما يتيسر. فللمصلي مثلا أن يقرأ في الركعة الأولى مثل سورة " سبح "الأعلى" وفي الثانية سورة " الشمس ".
وإنما المراد بالترتيب المصحفي المأثور تأليف الكتاب وتبويبه كما يقال فهو تأليف هيكل الكتاب العزيز على صورة نسق واحد لمجموع ما جاء فيه من السور.

المصحف يشتمل على السور المكية فقط كالعلق والمدثر والقلم ونحوها. ففهم من هذا أن ترتيب السور في المصحف هو أيضا مما لا مجال فيه للرأي والنظر ، والدليل على أنه توقيفيّ مسنون يتبع كما هو ثابت بغير تبديل ولا تغيير العمل المشاهد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في قراءته وتلاوته في صلواته. فقد وردت الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم بأنه كان يصلي في تهجده بالسور الطوال ، وإفتتاحه دائما في كل ذلك بسورة الفاتحة ثم يرتب عليها بما يليها من السور الطوال: - البقرة ثم آل عمران ثم النساء ثم المائدة.... إلخ [مما أفاده جلال الدين السيوطي في كتابه " الإتقان " نقلا عن العدد الجم من أئمة العلم التوضيح الموالي بيانه: - كل من ترتيب الآيات داخل السور وترتيب السور بين بعضها داخل المصحف هو شيء توقيفي مصدره الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما الفرق بين الأول والثاني أن الأول وهو ترتيب الآيات كان بنص قولي منه عليه الصلاة والسلام حيث يقول للصحابة: " ضعوا هذه الآية مكان كذا من سورة كذا " (لفظا صريحا) والثاني الذي هو ترتيب السور بين بعضها البعض كان معروفا عند الصحابة من فعله عليه الصلاة والسلام في قراءته وعرضه ما عرض من القراءة لآخر مرة على جبيرل عليه السلام ، ولم يتول الرسول صلى الله عليه وسلم ترتيب تلك السور فعلا بيده حتى كان زمان جمع القرآن ووضعه موضع كتاب مؤلف رتب الصحابة رضوان الله عليهم السور القرآنية في المصحف استناداًإلى العمل أي إلى ما كان فعلا من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم معروفا عند الجميع ولوأنه لم يكن قولا منه لأن المصحف لم يرتب رسما في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا انعقد الإجماع على ترتيب السور في المصحف العثماني كما هو معروف]بحيث دل دليل المشاهدة والاستقراء على أن التلاوة والقراءة بوجه الجملة كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث الترتيب بين السور على ماهو ثابت في المصحف المعروف الذي رتب في عهد الخليفة عثمان رضي

الله عنه. فيؤخذ من هذا أن ما رتبه الصحابة رضي الله عنهم بإشراف الخليفة عثمان بن عفان في المصحف المأمور بالأخذ به من السور القرآنية هو عمل كان معروفا عندهم من قبل بأنه المشروع في التلاوة من لدن الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه هو جملة ما نزل من الكتاب العزيز باشتماله على أربع عشرة ومائة سورة ابتداؤه سورة الفاتحة وختامه سورة الناس.

ومما يزيد في توضيح كون ترتيب المصحف المعروف دليله هو العمل عدم ورود أي خبر يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أو أن أحدًا من الصحابة أو الأئمة المقتدى بهم كان يقرأ القرآن بحسب ترتيب نزوله.

وقد أورد فيما أورد من روايات الأخبار أن أحد الصحابة[1] رضوان الله عليهم وربما عيّن اسمه بأنه **أبيّ بن كعب** * الذي هو من أبرز قراء الصحابة وكان في أول من اعتمده الخليفة عثمان بن عفان[2] للجماعة التي تولت وضع المصحف وترتيبه ، فنسب إليه بأن له مصحفا مرتبا على حسب النزول لسور القرآن. فعلى ثبوت هذا يحتمل أن يكون ذلك من العمل الشخصي الخاص كالمذكرات لأوقات النزول ، وليس هو مما يؤخذ به تشريعا في ترتيب المصحف بدليل اختفائه من الوجود ، والإجماع الشامل على مقابله على أن ما جاء من الأخبار والآراء في ترتيب السور القرآنية بحسب نزولها كان فيه خلاف كثير ، وجاءت فيه عدة صور من التنسيق كما سيأتي ذكره.

وها هي صورة ترتيب السور كما هو في المصحف الإمام.

يذكر الرقم والعدد والاسم ، مع الإشارة إلى بعض ما تعدد من اسم بعض السور.

---

(1) ما ذكر في هذه الرواية عن أبيّ بن كعب ورد مثله أيضا من آخرين من الصحابة منهم عبد الله بن مسعود وربما غير هذا أيضا.

(2) الوارد في التاريخ أن أبيّ بن كعب لم يعش إلى خلافة عثمان ، بل توفي في خلافة عمر بن الخطاب.

1) **الأولى:** " الفاتحة " و" الحمد " وقد ثبت تسميتها بعدة أسماء بلغت فيما ذكر إلى سبعة وعشرين اسمًا.

2) **الثانيــــة:** " البقــرة ". وورد أن البقــرة وتاليتهــا " آل عمــران " سُـميتا بالزهراويْن.

3) **الثالثة:** آل عمران.

4) **الرابعة:** النساء.

5) **الخامسة:** المائدة ، العُقود.

6) **السادسة:** الأنعام.

7) **السابعة:** الأعراف.

8) **الثامنة:** الأنفال ، وورد تسميتها بسورة بدر.

9) **التاسعة:** التوبة- براءة. وورد أن لها أسماء عديدة من حيث ما وصفت به.

10) **العاشرة:** يونس (عليه السلام).

11) **الحادية عشرة:** هود (عليه السلام).

12) **الثانية عشرة:** يوسف (عليه السلام).

13) **الثالثة عشرة:** الرعد.

14) **الرابعة عشرة:** إبراهيم (عليه السلام).

15) **الخامسة عشرة:** الحجر ، وربما جاء تسميتها بسورة " أصحاب الحجر ".

16) **الســادسة عــشرة:** النحـل ، وجـاءت بعـض الأخبـار بتـسميتها بـسورة "النعم" بكسر النون جمع نعمة لما جل فيها من تعداد النعم على العباد.

17) **السابعة عشرة**: الإسراء "سبحٰن". واشتهر فيها اسم سورة "بني إسراءيل".

18) **الثامنة عشرة**: الكهف. ويطلق عليها اسم سورة "أصحاب الكهف".

19) **التاسعة عشرة**: مريم (عليها السلام).

20) **العشرون**: طه. وتسمى أيضا سورة " الكليم " وهو موسى عليه السلام.

21) **الحادية والعشرون**: الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام).

22) **الثانية والعشرون**: الحجّ.

23) **الثالثة والعشرون**: المؤمنون. الفلاح.

24) **الرابعة والعشرون**: النور.

25) **الخامسة والعشرون**: الفرقان.

26) **السادسة والعشرون**: الشعراء. وجاء من الأخبار ما يذكر لها اسم "الجامعة".

27) **السابعة والعشرون**: النمل. وجاء في بعض الأقوال تسميتها بسورة سليمان (عليه السلام).

28) **الثامنة والعشرون**: القصص.

29) **التاسعة والعشرون**: العنكبوت.

30) **الثلاثون**: الروم.

31) **الحادية والثلاثون**: لقمان (عليه السلام).

32) **الثانية والثلاثون**: السجدة. المضاجع.

33) **الثالثة والثلاثون:** الأحزاب.

34) **الرابعة والثلاثون:** سبأ.

35) **الخامسة والثلاثون:** فاطر. الملائكة (عليهم السلام).

36) **السادسة والثلاثون:** يٓس. وورد وصفها بقلب القرآن.

37) **السابعة والثلاثون:** الصافات. وورد تسميتها بسورة الذبح وسورة الذبيح عليه السلام.

38) **الثامنة والثلاثون:** صٓ وسورة داود (عليه السلام).

39) **التاسعة** والثلاثون: الزُّمر - الغُرف.

40) **الأربعون:** غافر ، الطَّوْل ، المؤمن.

41) **الحادية والأربعون:** فصلت ، السجدة ، المصابيح.

42) **الثانية والأربعون:** الشورى.

43) **الثالثة والأربعون:** الزخرف.

44) **الرابعة والأربعون:** الدخان.

45) **الخامسة والأربعون:** الجاثية ، الشريعة. وورد أيضا تسميتها بسورة "الدهر"[1].

46) **السادسة والأربعون:** الأحقاف.

47) **السابعة والأربعون:** محمد ﷺ وتسمى أيضا بسورة "القتال".

---

(1) هذا ما ذكره السيوطي في كتابه " الإتقان " وذكر غيره أن المسماة بسورة " الدهر " هي سورة " الإنسان ".

48) **الثامنة والأربعون**: الفتح.

49) **التاسعة والأربعون**: الحجرات.

50) **الخمسون**: قٓ- الباسقات.

51) **الحادية والخمسون**: الذاريات.

52) **الثانية والخمسون**: الطور.

53) **الثالثة والخمسون**: النجم.

54) **الرابعة والخمسون**: القمر- اقتربتْ-

55) **الخامسة والخمسون**: الرحمٰن (جل جلاله). وورد في وصفها بأنها عروس القرآن.

56) **السادسة والخمسون**: الواقعة.

57) **السابعة والخمسون**: الحديد.

58) **الثامنة والخمسون**: المجادلة. يظهر أنه بكسر الدال اسم فاعل للمرأة، ويمكن أن يكون بفتح الدال على أنه مصدر من الجدال ولها اسم الظهار.

59) **التاسعة والخمسون**: الحشر. وورد في بعض الأخبار أنها تسمى سورة " بني النضير ".

60) **الستون**: الممتحنة -الامتحان - المودّة. وقد جاء في لفظ الممتحنة أنه بفتح الحاء وصفا للمرأة على أنه اسم مفعول وأنه بكسر الحاء اسم فاعل وصفا للسورة.

61) **الحادية والستون**: الصف -الحواريين (عليهم السلام).

62) **الثانية والستون**: الجمعة.

63) **الثالثة والستون:** المنافقون.

64) **الرابعة والستون:** التغابن - الجمع.

65) **الخامسة والستون:** الطلاق.

66) **السادسة والستون:** التحريم.

67) **السابعة والستون:** الملك.

68) **الثامنة والستون:** القلم - نٓ-.

69) **التاسعة والستون:** الحاقّة.

70) **السبعون:** المعارج -الواقع-.

71) **الحادية والسبعون:** نوح (عليه السلام)

72) **الثانية والسبعون:** الجنّ.

73) **الثالثة والسبعون:** المزمل.

74) **الرابعة والسبعون:** المدثر.

75) **الخامسة والسبعون:** القيامة.

76) **السادسة والسبعون:** الإنسان- وجاء تسميتها بسورة " الدهر" وسورة " الأمشاج ".

77) **السابعة والسبعون:** المرسلات.

78) **الثامنة والسبعون:** النبأ- التساؤل - المعصرات.

79) **التاسعة والسبعون:** النازعات.

80) **الثمانون:** عبس - السفرة - الأعمى.

81) **الحادية والثمانون:** التكوير.

82) **الثانية والثمانون:** الانفطار.

83) **الثالثة والثمانون:** التطفيف - المطففين -

84) **الرابعة والثمانون:** الانشقاق.

85) **الخامسة والثمانون:** البروج.

86) **السادسة والثمانون:** الطارق.

87) **السابعة والثمانون:** سبح "الأعلى".

88) **الثامنة والثمانون:** الغاشية.

89) **التاسعة والثمانون:** الفجر.

90) **التسعون:** البلد.

91) **الحادية والتسعون:** الشمس.

92) **الثانية والتسعون:** الليل.

93) **الثالثة والتسعون:** الضحى.

94) **الرابعة والتسعون:** الشرح.

95) **الخامسة والتسعون:** التين.

96) **السادسة والتسعون:** العلق. وجاءت تسميتها بسورة " القلم " أيضا.

97) **السابعة والتسعون:** القدر.

98) **الثامنة والتسعون:** البينة - القيّمة - البريّة. وورد تسميتها بسورة " أهل الكتاب " وسورة " الانفكاك " (وجاء التعبير بلفظ سورة المنفكين).

99) التاسعة والتسعون: الزلزلة - وجاء التعبير بلفظ " الزلزال ".

100) المائة: العاديات.

101) الواحدة ومائة: القارعة.

102) الثانية ومائة: التكاثر.

103) الثالثة ومائة: العصر.

104) الرابعة ومائة: الهمزة.

105) الخامسة ومائة: الفيل.

106) السادسة ومائة: قريش.

107) السابعة ومائة: الماعون - الدّين -

108) الثامنة ومائة: الكوثر - النَّحْر -

109) التاسعة ومائة: الكافرون - وورد في بعض الروايات تسميتها سورة " العبادة ".

110) العاشرة ومائة: النصر - وقد ورد تسميتها بسورة " التوديع " لما فيها من الإشارة إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

111) الحادية عشرة ومائة: المسد - الاهب -

112) الثانية عشرة ومائة: الإخلاص. وقد جاء الخبر بتسميتها "بالأساس" [1].

113) الثالثة عشرة ومائة: الفلق.

[1] وذكر البعض أن السورة التي تسمى " الأساس " هي سورة " الفاتحة ".

114) الرابعة عشرة ومائة: الناس.

وقد عرف أن هاتين السورتين لهما اسم المُعَوذتين (بكسر الواو على صيغة اسم الفاعل).

والوجه الثالث من الترتيب: هو ترتيب النزول - نزول السور -وهذا الوجه هو الذي له التعلق بمعرفة المكيّ والمدنيّ من السور، وهو الذي تناوله الخلاف ولم يثبت فيه شيء عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد فهم مما مرّ بيانه في التعريف بالمكيّ والمدنيّ من السور أن الخلاف في هذا الموضوع واسع الجوانب جدا والشقة فيه بين المتخالفين على مقدار ملحوظ من البُعد.

ورغبة في الاطلاع على ما جاء من الخلاف في المكيّ والمدنيّ من سور القرآن العظيم، وفي ترتيب السور من حيث النزول كما جاء ذلك من طريق الروايات المأثورة عن أصحابها من أئمة السلف، واعتمد منها ما اعتمد من علماء الخلف.....تأتي فيما يلي عدة من الصور نقلا من كتاب "الاتقان" لجلال الدين السيوطي في البعض منها واستيرادا في البعض الآخر من غير الكتاب المذكور مع إبداء ما يتيسر إبداؤه من الملاحظات فيما تدعو فيه الحاجة منها إلى الملاحظة والتعليق:

صورة أولى: مما ساقه جلال الدين السيوطي من الروايات في الموضوع، ويتضمن ما في هذه الرواية التعريف بالمكيّ والمدنيّ دون التعرض إلى ترتيب النزول، ولقصد الإيضاح تم نقلها هنا يتصرف في اللفظ جزئيًا مع المحافظة على مضمون المعنى- قال: روى **أبو جعفر النحاس*** في كتابه "الناسخ والمنسوخ" بسنده عن **أبي عمرو بن العلاء*** (أحد أئمة القراءة) قال: سألت **مجاهدا*** عن تلخيص آي القرآن المكيّ والمدنيّ فأجاب: سألت **ابن عباس*** عن ذلك فقال: -نزل بمكة من القرآن:

(1) سورة الأنعام إلاّ ثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ

﴿رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... ﴾ إلخ فهي مدنيات وكذلك ما تقدم سورة الأنعام من السور فهنّ مدنيات.

- ونزل بمكة أيضا: -

(2) سورة الأعراف (3) وسورة يونس(4) وهود(5) ويوسف (6) والرعد(7) وإبراهيم (8) والحجر (9) والنحل سوى ثلاث آيات منها نزلت في منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة أُحُدْ. من قوله تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ... ﴾إلخ [مما يلاحظ هنا بإمعان أن الكثير من مؤلفي علم الناسخ والمنسوخ من القرآن وكذا بعض مؤلفي التفسير يعمدون إلى ما جاء من آيات الأمر بالصبر- على الجملة- يقولون بأنه مما نزل بمكة وأنه لذلك منسوخ بآيات الأمر بالقتال النازل بالمدينة حتى ما جاء من آيات الصبر في السور المدنية جعلوه مستثنى وأنه مكيّ فيكون منسوخا بآية القتال التي أطلقوا عليها " آية السيف " فكان الأمر بالصبر لا مجال له مع الأمر بالقتال...

وما جاء في هذه الرواية عن ابن عباس في تلخيص الآيي المدنيّ من المكيّ... وذكر فيه سورة النحل وأنها مكية يستثنى منها الآيات الأخيرة منها لأنها مدنية ، ونزلت إثر ملحمة من القتال ضارية هي واقعة أُحُدْ في السنة الثالثة للهجرة ، وهذه الآيات تضمنت الأمر بالصبر والحث عليه والترغيب فيه بأسلوب من أبلغ ما تتلقاه الأسماع من أساليب بلاغة القرآن الفذة في بابها. فهل ثم فرق بين الصبر بمكة والصبر بالمدينة...؟ وإلا فما في هذه الرواية معاكس من جميع الوجوه لما في المؤلفات المذكورة].

- ونزل بمكة أيضا: -

(10) سورة بني إسراءيل (الإسراء) (11) والكهف (12) ومريم (13) وطه (14) والأنبياء (15) والحج سوى ثلاث آيات هي قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ... ﴾ إلخ فهي مدنيّات.

- ونزل بمكة أيضا:
(16) سورة المؤمنين (17) والفرقان (18) والشعراء سوى خمس آيات من قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنَ (224)﴾ إلى آخر السورة فهي مدنيات.
- ونزل بمكة أيضا:
(19) سورة النمل (20) والقصص (21) والعنكبوت (22) والرُّوم (23) ولقمان سوى ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿ وَلَوَ اَنَّمَا فِے اِلَارْضِ مِن شَجَرَةٍ اَقْلَٰمٌ ... ﴾ إلخ فهذا مدني.
- ونزل بمكة أيضا: (24) سورة الٓمٓ "السجدة" سوى ثلاث آيات منها من قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُومِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ... ﴾ إلخ فهو مدني.
- ونزل بمكة أيضا: -
(25) سورة سبأ (26) وفاطر (27) يٓس (28) الصافات (29) صٓ (30) الزمر سوى ثلاث آيات من قوله تعالى:
﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ ... ﴾ إلخ فهي مما نزل بالمدينة.
- ونزل بمكة أيضا الحواميم السبع:
(31) المؤمن (غافر) (32) السجدة (فصلت) (33) الشورى (34) الزخرف (35) الدخان (36) الجاثية (37) الأحقاف.
ونزل بمكة أيضا:
(38) سورة قٓ (39) الذاريات (40) الطور (41) النجم (42) القمر (43) الرحمٰن (44) الواقعة (45) الصف (46) التغابن إلا آيات من آخرها فهي مدنية.

- ونزل بمكة أيضا:

(47) سورة الملك (48) نٓ والقلم (49) الحاقة (50) سأل سائل (المعارج) (51) نوح (52) الجن (53) المزمل إلاّ آيتين وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ... ﴾ إلخ إلى آخر السورة فإن ذلك من المدنيّ.

- ونزل بمكة أيضا:

(53) سورة المدثر إلى آخر القرآن ما عدا خمس سور فهي مدنية (الزلزلة - النصر-الإخلاص - الفلق-الناس).

فيكون الباقي من السور المكية ما يأتي: -

(55) سورة القيامة (56) الإنسان (57) المرسلات (58) النبأ (59) النازعات (60) عبس(61) التكوير(62) الانفطار (63) التطفيف (المطففين) (64) الانشقاق (65) البروج(66) الطارق(67) سبح (الأعلى) (68) الغاشية (69) الفجر (70) البلد (71) الشمس (72) الليل(73) الضحى(74) الشرح(75) التين(76) العلق(77) القدر (78) البينة (79) العاديات (80) القارعة (81) التكاثر (82) العصر (83) الهمزة (84) الفيل(85) قريش(86) الماعون (87) الكوثر (88) الكافرون (89) المسد.

فجملة ما عد من هذه السور ابتداء من سورة الأنعام إلى المسد باستثناء ما استثني هو تسع وثمانون سورة نزلت بمكة.

وجاء في هذه الرواية عند تعداد ما نزل بالمدينة من السور كلامه مقتضبا حيث تقدم قوله: وما تقدم من السور (في المصحف) قبل سورة الأنعام فهنّ مدنيات.

فمعلوم أن المتقدم عن الأنعام هي سور: -

(1) الفاتحة (2) البقرة(3)آل عمران(4)النساء(5)المائدة.

ثم قال: ونزل بالمدينة:

(6)الأنفال(7) براءة (8) النور(9) الأحزاب (10) محمد صلى الله عليه

وسلم (11) الفتح (12) الحجرات (13) الحديد- قال وما بعدها إلى "التحريم". وقد تقدم له عند تعداد السور المكية المتقدم ذكرها عد سورتي "الصف" و"التغابن" في المكيّ، وهما من نسق السور الذي مبدؤه "الحديد" ومنتهاه "التحريم"، ولذلك تستثنى هاتان السورتان من القسم المدني، فيبقى من المدني: -

(14) سورة المجادلة (15) الحشر (16) الممتحنة (17) الجمعة (18) المنافقون (19) الطلاق (20) التحريم. ويضم إلى المدني أيضا ما استثني من سور الختم القصار الخمس وهي سور: -

(21) الزلزلة (22) النصر (23) الإخلاص (24) الفلق (25) الناس. فجملة السور المدنية (على هذه الرواية) خمس وعشرون والمكيّة تسع وثمانون، فذلك تمام المصحف.

وقد عقب جلال الدين السيوطي على ما في هذه الرواية بقوله "إسناده جيّد ورجاله كلهم ثقاة من علماء العربية المشهورين".

والملاحظ هنا هو فهم أن سورة الفاتحة مدنية أخذا من قوله عن سورة الأنعام وما تقدمها من السور هنّ مدنيات! ولم يعدد السور بأسمائها.

وربما من هذا (أو من غيره) اشتهر عن مجاهد القول بمدنية سورة "الفاتحة"، وقد جاءت هذه الرواية عنه كما مرّ ذكره.

والذي جاء لعامة المؤلفين هنا هو المعارضة الشديدة للقول بمدنية "الفاتحة" والرد بالخصوص على الإمام مجاهد، بل تخطئته ونسبته إلى الغلط. ونقل عن البعض من الأئمة القول بأن هذا يعدُّ هفوة من مجاهد عليه رحمة الله.

ومما يلاحظ أيضا فيما جاء في هذه الرواية وموضوعها- كما تقدم بيانه - هو تلخيص الآيي المكيّ والمدنيّ من القرآن الكريم أنه لم يذكر - ولا مرة واحدة- استثناء بعض آيات مكية من سورة مدنية في جميع ما نص عليه من الاستثناء بل كان الاستثناء كله يتناول الآيات المدنية من السور المكية.

صورة ثانية: مثل الأولى تتضمن التعريف بالمكيّ والمدني دون الترتيب في النزول.

وهي مما أورده جلال الدين السيوطي في كتابه " الإتقان " مما رواه **أبو عبيد*** في كتابه " فضائل القرآن ". يروي ذلك بسنده إلى **علي بن أبي طلحة*** قال: -" النازل من القرآن بالمدينة هو سور: -

(1) البقرة (2) آل عمران (3) النساء (4) المائدة (5) الأنفال (6) التوبة (7) الحج (8) النور (9) الأحزاب (10) القتال (11) الفتح (12) الحديد(13) المجادلة (14) الحشر(15) الممتحنة(16) الحواريين (وهي الصف)(17) التغابن (18) الطلاق (19) التحريم(20) الفجر (21) الليل(22) القدر(23) البينة(24) الزلزلة(25) النصر.

هذا ويقول: " وما بقي من السور فهو مما نزل بمكة ". فجاء في هذه الرواية عدّ السور المدنية بخمس وعشرين سورة ، والمكية بتسع وثمانين. والملاحظ هنا ضم سورة " الحجرات " إلى النازل بمكة وكذلك سورة " الجمعة " وكذلك سورة " المنافقون " ، وضم سورة " الفجر " وسورة " الليل " إلى النازل بالمدينة.

صورة ثالثة: مما أورده كذلك جلال الدين السيوطي تفيد كالذي قبلها تمييز المدني من المكي من سور القرآن من غير تعرض إلى مسألة ترتيب النزول رواها **أبو بكر ابن الأنباري*** بالسند إلى **قتادة*** قال: " نزل من سور القرآن بالمدينة - السور الآتي ذكرها:

(1) البقرة (2) آل عمران (3) النساء (4) المائدة (5)

براءة[1] (6) الرعد (7) النحل (8) الحج (9) النور (10) الأحزاب (11) محمد صلى الله عليه وسلم (12) الفتح (13) الحجرات (14) الحديد[2] (15) الرحمن (16) المجادلة (17) الحشر (18) الممتحنة (19) الصف (20) الجمعة (21) المنافقون (22) التغابن (23) الطلاق (24) التحريم (قال: إلى رأس العشر) العشر آيات الأولى. (25) الزلزلة (26) النصر. قال: " وما بقي من السور فهو النازل بمكة ".

فهذه الرواية تفيد أن عدد السور المكية ثمان وثمانون سورة وعدد المدنية ست وعشرون.

يلاحظ هنا الاستثناء المذكور في سورة " التحريم " حيث جعل مقدمها من الآيات العشر مدنيا ، والباقي يفهم أنه مكيّ وهو مؤخر السورة ، ويلزم عليه نزول آخر السورة قبل مفتتحها بمدة ما بين المقام بمكة إلى المقام بالمدينة ، وهو ما تقدم ذكره من استثناء الآيات المكية من السور المدنية.

صورة رابعة: مما أورده جلال السيوطي في " الإتقان " من كلام الإمام أبي الحسن ابن الحصَّار الذي تقدم ذكره قريبا ، وقد نظم منظومة أشار فيها إلى الخلاف في المكيّ والمدني من السور ولم يتعرض لترتيب نزول السور.

وقد لخص هذا المؤلف موضوع المكيّ والمدني والمختلف فيه من السور على الاختلاف الذي له وجه من الاعتبار ، وعين السور

---

(1) لم يعد سورة " الأنفال " في المدني ويحتمل أنه ممن يرى إلحاقها بسورة " براءة " كما جاء ذلك في بعض الروايات ويحتمل أنه يعدها في المكيّ وهذا من الغريب فذلك بمده سورة " النحل " في المدني.

(2) هكذا بالنسخة المنقول منها تقديم " الحديد " على " الرحمن " خلاف ترتيب المصحف.

المدنية المتفق عليها ، وعين السور المختلف فيها ، وجزم بمكية ما عدا ذلك من سور القرآن ، فأفاد أن السور المدنية باتفاق هي عشرون سورة كما يلي: -

(1) البقرة (2) آل عمران (3) النساء (4) المائدة (5) الأنفال (6) التوبة (7) النور (8) الأحزاب (9) محمد صلى الله عليه وسلم المسماة القتال(10) الفتح (11) الحجرات (12) الحديد(13) المجادلة (14) الحشر(15) الامتحان (16) الجمعة(17) المنافقون(18) الطلاق(19) التحريم (20) النصر.

والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة هي: -

(1) الفاتحة (2) الرعد (3) الرحمن (4) الصف (5) التغابن (6) التطفيف (7) القدر (8) البينة (9) الزلزال(10) الإخلاص(11) الفلق (12) الناس.

فيبقى المتفق عليه بأنه مكيّ (على كلامه) اثنتان وثمانون سورة.

والملاحظ على هذا أنه يظهر من كلامه في المنظومة ترجيح القول بمكية سورة " الفاتحة " ترجيحا قويا.

كما يظهر أيضا أنه يرفض الرفض الكلي كُلَّ ما جاء من الخلاف فيما عدا الاثنتي عشرة سورة المذكورة ، فكل ما عداها فهو مكيّ.

صورة خامسة: فيما جاء للأئمة مما يخص تعيين المدني من المكيّ من سور القرآن من غير تعرض لترتيب نزول السور وهذه الصورة قد تقدم في أول هذا الفصل بيانها بتعداد السور المدنية فقط معينة بالاسم ، فيبقى ما سواها كله مكيّ ، فالمدنية ثلاث وعشرون ، والمكيّ إحدى وتسعون. وهذا من أحد علماء العصر المحققين الأستاذ محمد الخضري في كتابه "تاريخ التشريع الإسلامي" وقد مرّ تعيين السور في الصفحة "95" من هذا المجلد.

والملاحظ هنا أن المرحوم الأستاذ الخضري ممن له نظريات سامية وآراء على جانب عظيم من دقة التحرير وجودة الفهم والمسائل الكبرى من علم الشريعة كما يبدو ذلك من رأيه في مسألة الناسخ والمنسوخ من القرآن العظيم.

صورة سادسة: وهي ما جاء في تعيين المكيّ والمدني من السور القرآنية مع التزام الترتيب في نزول السور بحيث تذكر آداة الترتيب. (ثم) بين السورة الأولى والتي بعدها ، وهي مما ساقه من الروايات في هذا الباب جلال الدين السيوطي في كتابه " الإتقان " إسنادا إلى راويها: الحافظ محمد بن أيوب بن يحيى المشهور **بابن الضريس*** في كتابه " فضائل القرآن " بالسند إلى **عثمان بن عطاء الخراساني*** عن أبيه عطاء عن ابن عباس (ض/ض) ينقل عنه (بنص اللفظ): -

قال: " كانت إذا أنزلت فاتحة الكتاب بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء ، وكان أول ما أنزل من القرآن:

(1) اقرا بإسم ربك. ثم(2) نۤ. ثم (3) المزمل. ثم(4) المدثر. ثم(5) تَبَّتْ. ثم(6) إذا الشمس كورت. ثم(7) سبحْ. ثم(8) والليل. ثم(9) والفجر. ثم(10) والضحى. ثم(11) ألم نشرح. ثم(12) والعصر. ثم(13) والعاديات. ثم(14) الكوثر. ثم(15) التكاثر. ثم(16) الماعون. ثم(17) الكافرون. ثم(18) الفيل. ثم(19) الفلق. ثم(20) الناس. ثم(21) الإخلاص. ثم(22) النجم. ثم(23) عبس. ثم(24) القدْر. ثم(25) والشمس. ثم(26) البروج. ثم(27) التين. ثم(28) قريش. ثم(29) القارعة. ثم(30) القيامة. ثم(31) الهمزة. ثم(32) المرسلات. ثم(33) قۤ. ثم(34) البلد. ثم(35) الطارق. ثم(36) اقتربت. ثم(37) صۤ. ثم(38) الأعراف. ثم(39) الجن. ثم(40) يسۤ. ثم(41) الفرقان. ثم(42) الملائكة. ثم(43) كَهَيَعَصَ. ثم(44) طه. ثم(45) الواقعة. ثم(46) الشعراء. ثم(47) النمل. ثم(48) القصص. ثم(49) بني إسراءيل. ثم(50) يونس. ثم(51) هود. ثم(52) يوسف. ثم(53) الحجر.

ثم(54) الأنعام. ثم(55) الصافات. ثم(56) لقمان. ثم(57) سبأ. ثم(58) الزمر. ثم(59) حم المؤمن. ثم(60) حٰمٓ السجدة. ثم(61) حٰمٓعٓسٓقٓ. ثم(62) حٰمٓ الزخرف. ثم(63) حٰمٓ الدخان. ثم(64) حٰمٓ الجاثية. ثم(65) حٰمٓ الأحقاف. ثم(66) الذاريات. ثم(67) الغاشية. ثم(68) الكهف. ثم(69) النحل. ثم(70) نوح. ثم(71) إبراهيم. ثم(72) الأنبياء. ثم(73) المؤمنون. ثم(74) آلم السجدة. ثم(75) الطور. ثم(76) الملك. ثم(77) الحاقة. ثم(78) سأل سائل. ثم(79) عَمَّ يتساءلون. ثم(80) النازعات. ثم(81) إذا السماء انفطرت. ثم(82) إذا السماء انشقت. ثم (83) الروم. ثم (84) العنكبوت. ثم (85) المطففين ".

فعدّ في السور المكية خمسا وثمانين سورة لم يذكر فيها سورة " الفاتحة ".

قال: " ونزل بالمدينة ".

(1) سورة البقرة. ثم (2) الأنفال. ثم (3) آل عمران. ثم (4) الأحزاب. ثم(5) الممتحنة. ثم (6) النساء. ثم (7) إذا زلزلت الأرض. ثم (8) الحديد. ثم (9) القتال. ثم(10) الرعد. ثم (11) الرحمٰن. ثم(12) الإنسان. ثم (13) الطلاق. ثم (14) البينة. ثم(15) الحشر. ثم (16) النصر. ثم (17) النور. ثم (18) الحج. ثم (19) المنافقون. ثم (20) المجادلة. ثم (21) الحجرات. ثم (22) التحريم. ثم (23) الجمعة. ثم(24) التغابن. ثم (25) الصف. ثم(26) الفتح. ثم (27) المائدة. ثم(28) براءة ".

فعين السور المدنية بعدد ثمان وعشرين سورة. فإذا أضيفت سورة " الفاتحة " إلى السور المكية كما يظهر ذلك من مقدمة الكلام في هذه الرواية كان مجموع السور المكية ستا وثمانين سورة ، فكان الجميع هو ما يشتمل عليه المصحف الشريف. غير أن ما في هذه الرواية من مقدمتها يظهر فيه غموض حيث يقول فيها: - " كانت إذا أنزلت فاتحة الكتاب بمكة كتبت بمكة... إلخ "

فهو إذا فهم منه أن سورة " الفاتحة " نزلت بمكة ربما يفهم أيضا أنها أول ما أنزل، ويأتي الغموض بعد ذلك في قوله: " وكان أول ما أنزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ "

فلعل في النسخة بعض سقط أو زيادة حتى يستقيم الكلام ؟ وربما تؤدي عبارة قوله: " ثم يزيد الله فيها ما شاء " إلى فهم تكرر نزول " الفاتحة " مع كل سورة تنزل بعدها... ؟

فعبارة مقدمة هذه الرواية - كما هي منقولة من نسخة كتاب "الإتقان" للسيوطي من طبع مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة - تحتاج إلى بحث وتحرير... حتى يزول ما فيها من الغموض والإشكال... ؟

صورة سابعة: مما ساقه السيوطي في كتابه " الإتقان " وهي كما قبلها تفيد مع بيان المكيّ والمدني من السور ترتيب نزول السور أيضا. وهي من رواية الحافظ المعروف **بالبيهقي** * (وهو أبو بكر أحمد بن الحسين) في كتابه المسمّى "دلائل النبوَّة".

رواية بالسند إلى **عكرمة** * **والحسن بن أبي الحسن** * قالا: أنزل الله من القرآن بمكة: -

(1) إقرأ ياسم ربك. ثم (2) نۤ. ثم (3) المزمل. ثم(4) المدثر. ثم(5) تبت. ثم(6) التكوير. ثم(7) سبح "الأعلى". ثم(8) والليل. ثم(9) والفجر. ثم(10) والضحىٰ. ثم(11) ألم نشرح. ثم(12) والعصر. ثم(13) والعاديات. ثم(14) الكوثر. ثم(15) ألهاكم. ثم(16) الماعون. ثم(17) الكافرون. ثم(18) الفيل. ثم(19) الفلق. ثم(20) الناس. ثم(21) قل هو الله أحد. ثم(22) النجم. ثم(23) عبس. ثم(24) إنا أنزلناه. ثم(25) والشمس. ثم(26) البروج. ثم(27) التين. ثم(28) قريش. ثم(29) القارعة. ثم(30) القيامة. ثم(31) الهمزة. ثم(32) المرسلات. ثم(33) قۤ. ثم(34) البلد. ثم(35) الطارق. ثم(36) اقتربت. ثم(37) صۤ. ثم(38) الجن. ثم(39) يسۤ. ثم(40)

الفرقان. ثم(41) الملائكة. ثم(42) طه. ثم(43) الواقعة. ثم(44) طسم. ثم(45) طس. ثم(46) طسكم. ثم(47) بني إسرائيل. ثم(48) التاسعة (يقول البيهقي هي يونس). ثم(49) هود. ثم(50) يوسف. ثم (51) أصحاب الحجر. ثم(52) الأنعام. ثم (53) الصافات. ثم(54) لقمان. ثم(55) سبأ. ثم (56) الزمر. ثم (57) حم المؤمن. ثم (58) الدخان. ثم (59) حم السجدة. ثم (60) حم عسق. ثم (61) الزخرف. ثم (62) الجاثية.ثم (63) الأحقاف. ثم (64) الذاريات. ثم (65) الغاشية. ثم (66) أصحاب الكهف. ثم (67) النحل. ثم (68) نوح. ثم (69) إبراهيم. ثم (70) الأنبياء. ثم(71) المؤمنون. ثم (72) آلم السجدة. ثم (73) الطور. ثم (74) تبارك الملك. ثم (75) الحاقة. ثم(76) سأل سائل. ثم (77) عمَّ يتساءلون. ثم (78) النازعات. ثم (79) إذا السماء انشقت. ثم(80) إذا السماء انفطرت. ثم (81) الروم. ثم(82) العنكبوت ".

"ونزل بالمدينة: -

(1) ويل للمطففين. ثم (2) البقرة. ثم (3) آل عمران. ثم (4) الأنفال. ثم (5) الأحزاب. ثم(6) المائدة. ثم (7) الممتحنة. ثم (8) النساء. ثم(9) إذا زلزلت. ثم (10) الحديد. ثم(11) محمد صلى الله عليه وسلم. ثم(12) الرعد. ثم (13) الرحمٰن. ثم(14) هل أتى على الإنسان. ثم (15) الطلاق. ثم (16) لم يكن. ثم(17) الحشر. ثم(18) إذا جاء نصر الله. ثم (19) النور. ثم (20) الحج. ثم (21) المنافقون. ثم (22) المجادلة. ثم (23) الحجرات. ثم(24) لِمَ تحرم. ثم (25) الصف. ثم (26) الجمعة. ثم (27) التغابن. ثم (28) الفتح. ثم(29) براءة ".

وعلق الحافظ البيهقي على ما جاء في هذه الرواية بأن فيها سقطا لثلاث سور هي مما نزل بمكة وهي (1) الفاتحة (2) الأعراف(3) كهيعص- ولم يعين مواضع ترتيبها -

ثم أورد السيوطي رواية أخرى للبيهقي أيضا بالسند إلى مجاهد عن

ابن عباس عدَّ فيها السور المكية بالترتيب الذي في الرواية الأولى مبتدئا بسورة " العلق " (اقرأ باسم ربك) على أنها أول ما نزل ، وذكر فيها السور الثلاث المغفل ذكرها في الرواية الأولى على أنها مكية ولم يذكر السيوطي صورة هذه الرواية الثانية. فلذا يبقى ترتيب السور الثلاث المذكورة غير معلوم في هذه الرواية. وعليه فيكون عدد السور المكية في كل من روايتي البيهقي خمسا وثمانين ، والمدنية تسعا وعشرين.

والملاحظ هنا أن في هذه الرواية - وهي عن مجاهد يرويها عن ابن عباس- إثبات المكية لسورة " الفاتحة " على خلاف ما جاء في الصورة الأولى من هذه الصور ، وهو من رواية مجاهد أيضا عن ابن عباس وفيها عدّ سورة " الفاتحة " من المدني واشتهر القول بهذا عن مجاهد (كما تقدم بيانه).

صورة ثامنة: مما جاء في التعريف المكيّ والمدني وبترتيب النزول للسور وجاءت هذه الصورة للمفسر المشهور الإمام علاء الدين عليّ بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف **بالخازن*** في كتابه " التفسير". وأثبت الصورة من غير إسناد إلى راوٍ من الرواة مبينا عدد السور المكية بأنه ثلاث وثمانون سورة يقول: " على ما استترت عليه روايات الثقاة وعدد السور المدنية إحدى وثلاثون وأثبت صورة ترتيب النازل بمكة كما يلي:

(1)سورة العلق (2) نٓ (3) المزمل (4) المدثر (5) اللهب (6) التكوير (7) الأعلى (8) اليل (9) الفجر (10) الضحىٰ (11) ألم نشرح (12) العصر (13) العاديات (14) الكوثر (15) التكاثر (16) الماعون (17) الكافرون (18) الفيل (19) الإخلاص (20) النجم (21) عبس (22) القدر (23) البروج (24) التين (25) قريش (26) القارعة (27) القيامة (28) الهمزة (29) المرسلات (30) قٓ (31) البلد (32) الطارق (33) القمر (34) صٓ (35) الأعراف (36) الجن (37) يسٓ (38) الفرقان (39) فاطر (40) مريم (41) طه (42) الواقعة (43) الشعراء (44) النمل (45) القصص (46)

الإسراء (47) يونس (48) هود (49) يوسف (50) الحجر (51) الأنعام (52) الصافات (53) لقمان (54) سبأ (55) الزمر (56) المؤمن (57) حٰمٓ السجدة (58) الشورى (59) الزخرف (60) الدخان (61) الجاثية (62) الأحقاف (63) الذاريات (64) الغاشية (65) الكهف (66) النحل (67) نوح (68) إبراهيم (69) الأنبياء (70) المؤمنون (71) الٓمٓ السجدة (72) الطور (73) الملك (74) الحاقة (75) المعارج (76) النبأ (77) النازعات (78) الانفطار (79) الانشقاق (80) الروم (81) العنكبوت....."

هكذا... تخلف من العدد سورتان هما: (1) الفاتحة (2) والشمس وضحاها (وقد لاحظ ذلك في سورة " الشمس " بعض مصححي النسخ.

ثم قال:..." واختلفوا في آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس (العنكبوت) وقال **الضحاك** * وعطاء (المؤمنون) وقال مجاهد (التطفيف)

ثم قال: -" وأمَّا ما نزل بالمدينة فإحدى وثلاثون سورة.فأول ما نزل بها: -

(1) سورة البقرة (2) الأنفال (3) آل عمران (4) الأحزاب (5) الممتحنة (6) النساء (7) الزلزلة (8) الحديد (9) محمد صلى الله عليه وسلم (10) الرعد (11) الرحمٰن (12) الإنسان (13) الطلاق (14) البينة (15) الحشر (16) الفلق (17) الناس (18) النصر (19) النور (20) الحج (21) المنافقون (22) المجادلة (23) الحجرات (24) التحريم (25) الصف (26) الجمعة (27) التغابن (28) الفتح (29) التوبة (30) المائدة".

هكذا تخلف من العدد سورة واحدة وظاهر أنها " التطفيف " حيث ذكرها قبل ذلك في الخلاف ، قال: " ومنهم من يقدم " المائدة " على التوبة "".

قال: - "هذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة "- قال- "واختلفوا في " شورى ". فقيل نزلت بمكة وقيل بالمدينة".

والملاحظة على مافي هذه الصورة أنه على اعتبار ما وقع فيها من

تخلف سورتي " الفاتحة" و" الشمس" صادرا عن سقط القلم في النسخ ، فيكون ترتيب " الفاتحة " بين " المدثر " و" المسد " على أنها خامس سورة في النزول. وترتيب سورة " الشمس " بين " القدر " و" البروج " على أنها الرابعة والعشرون في ترتيب النزول. وسورة " البروج " هي الخامسة والعشرون. أما سورة " التطفيف" من حيث عدها من المدني فهو مأخوذ ضمنا لأنه لم يبق غيرها مما يحسب مدنياً ، ويبقى النظر في ترتيبها بين السور المدنية. وقد نص في كلامه صراحة على أن أوَّل ما نزل من السور بالمدينة هو سورة البقرة. والذين عدُّوا سورة " التطفيف " مدنية عدوها الأولى في النزول بالمدينة ، ولعل ذلك بالنظر لتقارب المدة حيث كان المخالف الذي يعدها مكية يجعلها هي آخر ما نزل بمكة. ومن هنا كانت هذه الصورة من الترتيب في نسخ تفسير الخازن - مما وقع عليه الاطلاع - فيها نقص بإغفال عدِّ سورة " التطفيف " وترتيبها.

صورة تاسعة: مأخوذة من المصاحف المطبوعة المتداول بها العمل من الطبع الشرقي برواية حفص ، والطبع المغربي بالمطبعة الثعالبية بالجزائر برواية ورش وهي في بيان المكيّ والمدني من السور مع ترتيب النزول مستوعبة كامل السور كما يبدو فيها ترتيب بعض السور على خلاف ما تقدم ذكره في الصور المتقدمة الذكر. ويبدو - مع ذلك- أن ما عليه هذه الصورة في هذا الخلاف له وجه الراجحية على مقابله والصورة مستندة - طبعا- إلى إحدى الروايات المأثورة في هذا الباب ، وفيما يلي عرضها: -

- أول ما نزل من القرآن بمكة المكرمة: -

(1)سورة العلق - اقرا باسم ربك...إلخ (2) القلم نۤ(3) المزمل (4) المدثر(5) ثم الفاتحة (6) ثم المسد (7) ثم التكوير (8) ثم سبح "الأعلى " (9) ثم الليل (10) ثم الفجر (11) ثم الضحى (12) ثم الشرح (13) ثم العصر(14) ثم العاديات (15) ثم الكوثر (16) ثم التكاثر (17) ثم الماعون (18) ثم الكافرون (19) ثم الفيل (20) ثم الفلق (21) ثم الناس (22) ثم الإخلاص (23) ثم النجم (24) ثم عبس (25) ثم القدر (26) ثم الشمس (27) ثم البروج

(28) ثم التين (29)ثم قريش (30) ثم القارعة (31) ثم القيامة (32) ثم الهمزة (33) ثـم المرسـلات (34) ثـم قٓ (35) ثـم البلـد (36) ثـم الطـارق (37) ثـم القمـر(38) ثـم صٓ (39) ثـم الأعـراف (40) ثـم الجـن (41) ثـم يـٓس (42) ثـم الفرقان (43) ثم فاطر (44) ثم مريم (45) ثم طه (46) ثم الواقعة (47) ثم الشعراء (48) ثم النمل (49) ثم القصص (50) ثم الإسراء (51) ثم يونس (52) ثم هود (53) ثم يوسف (54) ثم الحجر (55) ثم الأنعام (56) ثم الصافات (57) ثم لقمان (58) ثم سبأ (59) ثم الزمر (60) ثم غافر (61) ثم حـٓم "فصلت" (62) ثم الشورى (63) ثم الزخرف (64) ثم الدخان (65) ثم الجاثية (66) ثم الأحقاف(67) ثم الذاريات (68) ثم الغاشية (69) ثم الكهف (70) ثم النحل (71) ثم نوح (72) ثم إبراهيم (73) الأنبياء(74) المؤمنون (75) آلم "السجدة" (76) الطور (77) الملك (78) ثم الحاقة (79) ثم المعارج (80) ثم النبأ (81) ثـم النازعـات (82) ثـم الإنفطـار (83) ثـم الانـشقاق (84) ثـم الـروم (85) ثـم العنكبوت (86) ثم التطفيف.

والنازل بالمدينة المنورة أول ما نزل بها سورة: -

(1) البقـرة (2) الأنفـال (3) آل عمـران (4) الأحـزاب (5) الامتحـان (6) النـساء (7) الزلزلـة (8) الحديـد (9) القتـال (10) الرعـد (11) الرحمـٰن (12) الإنـسان (13) الطـلاق (14) البينـة (15) الحـشر (16) النـور (17) الحـج (18) المنـافقون (19) المجادلـة (20) الحجـرات (21) التحـريم(22) التغـابن (23) الصف (24) الجمعة (25) الفتح (26) المائدة (27) التوبة (28) النصر".

وقد أفادت هذه الصورة في عدد السور المكية بأنه ست وثمانون سورة ، وعدد المدنية ثمان وعشرون. وفيها بصراحة ترتيب سورة " الفاتحة " في المكيّ على أنها الخامسة في نزول سور القرآن.

ولم يظهر هذا في جميع ما تقدم من هذه الصور.

كما أفادت في ترتيب سورة "النصر" بأنها آخر ما نزل بالمدينة وهو الموافق لما اشتهر من الأخبار حيث قيل أن نزول هذه السورة كان فيه إيماء وهي كالإيذان بقرب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. بل جاء في بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم لم يعش بعد نزول هذه السورة إلاّ

أياما قلائل. وقد عرف مما مرّ ذكره في عرض هذه الصور الواردة في ترتيب النزول عدّ سورة " النصر" مقدما على كثير من السور النازلة بالمدينة. فعدّها البعض بأنها الثامنة عشرة والبعض بأنها السادسة عشرة، الأمر الذي يؤخذ منه أنها نزلت في أواسط مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

والخلاصة من هذا الفصل أنه بالنظر إلى مطلق ما جاء من الأقوال في الخلاف الحاصل في تعيين المكيّ والمدني في سور القرآن الكريم يتحصل أن المتفق على مدنيته من السور هو أربع عشرة سورة فقط.

والمتفق على أنه مكيّ هو ست وخمسون سورة فيبلغ المختلف فيه إلى أربع وأربعين سورة.

ويتضح بغاية الوضوح أن من بين ما جاء من الأقوال - في هذا الخلاف - بمكية السورة أو مدنيتها ما فيه الغرابة البالغةمنتهى الشدة.

ويفهم من ذلك أن منشأ الخلاف كما تقدم ذكره لبعض الأئمة هو الحكم بمستند الرأي والاجتهاد وربما يكون الاعتماد على مجرد الشبه الذي تتسم به الآيات المكية والآيات المدنية، كلٌّ في اختصاصها بل ربما نسبت السورة مثلا إلى المكية لما فيها من آية أو جملة واحدة تشبه المكيّ. وبالعكس. هذا مع ما يوجد من الجانب الآخر من ورود ما يرد من الأخبار المتضاربة في نسبة السورة إلى النزول بمكة لسبب كذا وإلى نزولها بالمدينة لسبب كذا...

ولهذا كان الإمساك من كثير من أئمة العلم المحققين عن خوض مسألة ترتيب نزول سور القرآن وتعيين المكيّ والمدنيّ فردا فردا إلاّ ما قام الدليل القاطع بالخبر الإجماعي على أنه مكيّ أو مدنيّ لأنه من المعلوم المجمع عليه أن المكيّ من القرآن العظيم هو أكثر من المدني.

وجاء من وجه التقدير الإجمالي في ذلك أنه بالنظر إلى القرآن أجزاء متساوية كما جرى به العمل في ثلاثين جزءا. فالمكيّ منه يبلغ الثلاثين

تقريبا ، والمدني ما بقى وهو نحو الثلث.

وبالنظر الى عدد السور خاصة ، فالمكيّ نحو الثلاثة أرباع الجملة ، والمدني ما بقى ، وهو حوالي الربع من سور المصحف ، وكل ذلك على سبيل التقريب.

ولعل محاولة التحديد القاطع والضبط المانع في هذه المسألة بعموم جوانبها ، هو أمر ليس في المقدور ولا هو من الميسور.

وهكذا يتجلى إعجاز القرآن العظيم في إحاطة وشمول لما جل ودق من فروع وأصول.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله بأفضل ما حمده الحامدون والشكر له أحسن ما شكره الشاكرون.

وأفضل الصلاة وأزكى السلام على نبي الإسلام ورسول السلام سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي رسول ربّ العالمين إلى كافة خلائقه المكلفين بدين الله القويم والهداية إلى الصراط المستقيم. وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين وآله الطيبين وصحابته الأكرمين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد ، فهذا تابع للتقييد لدروس السيرة النبوية لما تقدمه من المجلدات الخمس. قد يسر الله بعونه افتتاحه يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب الحرام من عام 1395 خمسة وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة النبوية الموافق للثامن والعشرين من شهر يوليه سنة 1975 خمس وسبعين وتسعمائة وألف لميلاد المسيح عليه السلام. فعلى الله قصد السبيل وهو نعم المولى ونعم الوكيل.

الدرس 58

الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

تقدم ذكر ما اصطلح عليه جمع من مؤلفي السيرة من تقسيم السيرة النبوية إلى ثلاثة أدوار:

الدور الأول: من المولد الشريف إلى البعثة المباركة.

الدور الثاني: من مبدإ الوحي إلى الهجرة إلى المدينة.

الدور الثالث: من الهجرة إلى إكمال الدين وتمام الأمر بوفاته عليه الصلاة والسلام واختياره جوار ربّه الكريم في الرفيق الأعلى.

كما تقدم قريبا الإشارة باقتضاب إلى جلالة حادث الهجرة هذا وما فيه من العبرة البالغة الأثر الأمر الذي جعل أولي الرأي من الصحابة رضوان الله عليهم بإشراف الخليفة عمر بن الخطاب يتخذون ذكرى هذا الحادث باتخاذه مبدأ التاريخ الإسلامي ، وفي تقديم هذا الباب من السيرة المتضمن حديث الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة جاء -للمناسبة-ذكر مسألتين مما يتعلق بهذا الباب.

الأولى: هجرة الرسل عليهم الصلاة والسلام من مواطنهم الأصليةإلى بقاع أخرى لم تكن لهم موطنا من قبل. فجاء هنا أن بهجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة تمت له صلى الله عليه وسلم سنة من قبله من إخوانه أنبياء الله ورسله من لدن أبي الأنبياء خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى روح الله عيسى بن مريم عليه وعلى جميعهم صلوات الله وسلامه.

فالهجرة من الموطن من سنن الله تعالى في رسله الكرام كما جاء في الآية من سورة الإسراء من قوله سبحانه: "سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا"

الثانية: فريضة الهجرة على من آمن به عليه الصلاة والسلام. فقد عرف من القواعد في الدين الإسلامي أنه بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة نزل القرآن العظيم بفرض الهجرة إلى الله ورسوله من دار الكفر إلى دار الإسلام التي هي المدينة المنورة على كل مكلف آمن بالرسالة المحمدية على وجه العموم لا يستثنى من ذلك إلاّ من أقعده العجز عنها وهم من جاء وصفهم بالمستضعفين. فقد جاء من آيات القرآن في هذا الآية من سورة النساء: " إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ".

[مما ينبغي أن يفهم عن هجرة المؤمنين هذه من مكة إلى المدينة أنها لم تكن لمجرد الفرار بالدين والخلاص من قبضة المشركين كما هو المتبادر والجاري في الكلام كثيرا لأن هذا المعنى للهجرة إن صح في هجرة أخرى غير الهجرة المدنية المعروفة للصحابة رضوان الله عليهم ، فليس هو كل المقصد من هجرة المدينة لأن هذا المعنى يتغلب فيه الجانب السلبي وليست كذلك الهجرة المدنية المفروضة على الصحابة بل إن هذه الهجرة المفروضة على صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كانت عملية إيجابية مثل الجهاد في سبيل الله سواء ، فهي وسيلة لتحصيل القوة لنصر الدين ، داخلة في الإعداد لمقاومة الأعداء. ويرشد إلى هذا المعنى ما جاء من التشديد في شأن هذه الهجرة من آيات القرآن بمثل ما جاء في الجهاد ، كما أنه يفهم هذا المعنى بغاية الوضوح من الآيات القرآنية الواردة في وصف المهاجرين والعلة ، فهجرتهم والمقصد منها ما في آيات سورة الحشر من قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .] وقد استمرت فرضية الهجرة على المسلمين من هجرته عليه الصلاة والسلام إلى يوم فتح مكة المكرمة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

وبذلك يعرف أن مدة فرضية الهجرة امتدت سبعة أعوام وسبعة أشهر ، وبفتح مكة انتهى حكم فرضية الهجرة بالمعنى الخاص المعروف في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومما جاء من الأخبار هنا أن أحد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ، وهو المسمى **ضمرة بن جندب*** لمّا بلغه النبأ بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجرا ، وكان في الوقت مثقلا بالمرض في منزله اهتم لذلك فقال لأهله: " أخرجوني (قصد اللّحاق بالرسول صلى الله عليه وسلم) فلا عذر لي اليوم بالمقام بمكة " ، فأخرجوه محملا ، فلما بلغ مكان **التنعيم**[1] بالطريق أدركته الوفاة فمات بالتنعيم. وقد قيل فيما قيل من الأقوال أن في هذا الصحابي جاءت الآية القرآنية في سورة النساء من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ . كما قيل أن الآية المذكورة تشير إلى حادثة صحابي آخر هو **خالد بن حرام*** بن خويلد الأسدي (ابن أخي أم المؤمنين خديجة) كان ممن هاجر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة فلما كان بالطريق نهشته[2] حية فمات بالطريق قبل الوصول إلى الحبشة.

حديث الهجرة الشريفة:

تقدم قريبا في مبحث تاريخ الأحداث تناول الأقوال في تاريخ خروجه صلى الله عليه وسلم مع صاحبه **أبي بكر الصديق*** رضي الله عنه من غار ثور إلى المسير إلى المدينة المنورة ، جاء من الأخبار أنه صلى الله عليه

(1) تقدم فيما قبل التعريف"" بالتنعيم "وأنه المكان الذي يحرم منه بالعمرة لمن كان مقيما بمكة وهو أحد المكانين المعينين لهذا الإحرام والآخر هوالجعرانة*. والتنعيم يقع على بضعة أميال من مكة في طريق المدينة.

(2) النهش: بالنون والهاء وآخره شين معجمة ، هو إصابة الحية للشخص بسمها ، والفعل منه مفتوح في الماضي والمضارع ومصدره النهش بفتح فسكون وكما يستعمل بالشين المعجمة يستعمل بالسين المهملة وربما الأكثر استعمالا هو ما بالمعجمة.

وسلم لما خرج من مكة متوجها إلى المدينة قال: " والله إني لأخرج منك وأني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله وأكرمها على الله ولولا أن أهْلك أخرجوني ما خرجتُ ".

وفي لفظ من رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم وقف على راحلته ونظر إلى الكعبة وقال: " والله إنك لأحب أرض الله إليّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك قهرًا ما خرجتُ." وتوجد صيغ أخرى من اللفظ فيما جاء من هذه الرواية (وحكى هنا بعض مؤلفي السيرة مسألة الخلاف بين العلماء في الأفضلية بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وما يستفاد هنا من تفرق جمهور الأئمة إلى طائفتين الأولى على تفضيل مكة وفيهم الإمام الشافعي والثانية على تفضيل المدينة وفيهم الإمام مالك).

وتفيد الروايات أن ركب الهجرة المبارك هذا كان يتركب من ثلاثة هم الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق ومعينهما **عامر بن فهيرة*** ، ويقود الركب الدليل **عبد الله بن أريقط*** (كما تقدم ذكر ذلك).

وقد جاء في بعض الروايات أنه عندما تحرك الركب مسافرا دعا الرسول صلى الله عليه وسلم ربه بالصيغة الآتية: " اللّهم أصحبني في سفري واخلفني في أهلي وبارك لي فيما رزقتني ولك فذللني وعلى صالح خلُقي فقومني وإليك ربّ فحببني ، وإلى الناس فلا تكلني ".

وأطبقت الروايات على أن الدليل أخذ في مسيره طريق الساحل أسفل مكة من **عسفان***.

أفاد الأستاذ **الحاج عباس كراره**[1] من كُتّاب العصر المؤلفين في كتابه " الدّين وتاريخ الحرمين الشريفين " صورة خط مسير ركب الهجرة

---

[1] ما أفاده المؤلف عباس كراره في صورة خط السير لا بد أن يكون مستنده الروايات المأثورة ويظهر أن خط السير هذا كان ملتويا.

النبوية ببيان المحطات والمنازل التي اجتازها الركب حتى منزل قباء ، فهو يقول: فأخذ بهم الدليل طريق السواحل أسفل من عسفان ثم عارض الطريق على **أمج**[1] ثم لقي الطريق **بناحيه***.

فنزل في خيام **أم معبد*** بنت الأشقر الخزاعية بأسفل **ثنية لفت** ثم على **الخرار**[2] ثم على **ثنية المره** ثم أستبطن **مديحه** ثم **محاح** ثم بطن **مرج محاح** ثم **مرج ذي القصوى** ثم بطن**كشد** ثم **الأجرد** ثم **ذا سلم**[3] ثم أعد **مديحه بعهن** ثم أجاز**القاحه** ثم هبط **العرج**[4] **ثنية العامر** عن يمين **ركوبه** (ويقال ركوبه نفسها) ثم بطن **ديم** حتى إنتهى إلى بني **عمرو بن عوف** بظاهر **قباء**.

(1) أمج: بفتح الهمزة والميم وآخره جيم.

(2) الخرار: بضم الخاء المعجمة وتخفيف الراء ممدودة وآخره راء.

(3) ذو سلم بفتحتين على السين المهملة واللام.

(4) العرج بفتح العين المهملة وإسكان الراء

ومما ورد في هذا المحل من الأخبارأنه فيما كان الركب يسير وكان أبو بكر الصديق معروفا في القبائل لما كان يشتغل به من التجارة والتعرف إلى الناس وليس كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان كلما لقي بعض الناس الركب فيتحدث مع أبي بكر ويسأله عن رفيقه (الرسول صلى الله عليه وسلم) فيجيب أبو بكر قائلا عن الرسول صلى الله عليه وسلم " أن هذا يهديني السبيل ".

(وجاء في هذا أنها تورية[1] في الكلام استعملها أبو بكر رضي الله عنه. فالهداية المرادة هي هداية الدّين وانصراف اللفظ إلى هداية طريق السير إنما هي بالنسبة لمن يسأل عن هوية الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكذلك ورد من الأخبارأنه لما وصل الركب إلى الجحفة[2] تذكر الرسول عليه الصلاة والسلام مكة واستحكم فيه الشوق إليها ، وفي نفس المكان أنزل الله عليه من آيات القرآن الآية من سورة "القصص" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾.

وقد عرف مما تداولته الأخبار أن في هذه الآية التي أزالت عن الرسول صلى الله عليه وسلم الوحشة وعدًا من الله سبحانه برد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى موطنه الذي كان يحن إليه وهو مكة المكرمة وقد تحقق ذلك كما هو معلوم.

ورد أن الركب نزل منزلا للاستراحة فنام الرسول صلى الله عليه وسلم في ظل صخرة كانت بالمكان ، وكان بالمكان أحد الرعاة فاستحلب أبو بكر

---

[1] التورية: تقدم في الدرس السابع والأربعين في باب المعراج تفسير التورية وأنها مصدر من فعل "ورّى" بالتشديد من باب التفعيل والمعنى فيه الإخفاء والتغطية. والتورية فن من فنون الكلام وباب من أبواب البلاغة وهي أن يتكلم المتكلم بلفظ مشترك وهو قاصد في نفسه المعنى البعيد عن المعنى القريب الذي يفهمه منه سامعه.

[2] الجحفة: بضم الجيم ثم حاء مهملة ساكنة ثم فاء ثم تاء التأنيث ، كانت إذ ذاك قرية وجاء أنها تبعد عن مكة بنحو خمس مراحل. والذي أفاده بعض العصريين قوله هي قرية ذهبت معالمها اليوم تقع في الشمال الغربي لمكة وتبعد عنها حوالي مائة وسبعة وثمانين كيلومتر.

الراعي لبنا مما لديه من الأنعام فحلب له قدرًا وجعل أبو بكر رضي الله عنه يبرد اللبن ، وينتظر استيقاظ الرسول صلى الله عليه وسلم فلما استيقظ ناوله اللبن.

وسار الركب حتى بلغ **قديد**[1] شمال **رابغ**[2] وكان بهذا المكان خيمة أم معبد اشتهرت بكنيتها ، وجاء أن اسمها عاتكة بنت خالد ، ويقول البعض بنت الأشقر وهي من قبيلة **خزاعة**[3].

وقد جاء في الروايات من التعريف **بأم معبد*** هذه ما يقرب مما جاء في أم المؤمنين خديجة بنت خويلد مما يعرف به أنها كانت ذات شخصية قوية. فجاء من ذلك أنها كانت إمرأة **برزة**[4] عفيفة جليلة **جلدة**[5] قوية تقري وتسقي وتطعم من يمرُ بها. وأفادت أخبار السيرة أن أم معبد هذه معدودة في الصحابيات ، فقد أسلمت هي وعامة أهل بيتها حينما وفدوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد مدة من يوم مروره صلى الله عليه وسلم بمنزلهم (وقد يحسن هنا الإشارة إلى أن قبيلة خزاعة كان هواهم من أول مرة مع الرسول عليه الصلاة والسلام).

وأفادت الأخبار أن في هذا الأوان كانت ناحية أم معبد في حال جدب.

فورد أنه لما اقتبلت أم معبد ركب الرسول صلى الله عليه وسلم طلبوا منها ما يصلح لهم زادا للسفر لبنا أو لحما أو تمرا أو غير ذلك يشترون

---

(1) قديد: بضم القاف وفتح الدال المهملة ثم ياء مثناة ساكنة ثم دال في الأخير على صيغة التصغير.

(2) رابغ: مكان ميقات الحج المعروف.

(3) خزاعة: بضم الخاء المعجمة وتخفيف الزاي ثم عين مهملة.

(4) برزة: بالباء الموحدة والراء والزاي ، وصف للمؤنث بفتح فسكون بوزن ضخمة ، والفعل منه مضمون في الماضي والمضارع ، ومصدره البرازة كأفعال السجايا ، ومعناه هنا هو التفوق والفضل والمعنى الأصلي في المادة يرجع إلى معنى الظهور والجلاء.

(5) والجلدة: بالجيم وصف كما في البرزة معناه القوة وتصدق على كل من قوة المادة وقوة المعنى.

ذلك منها شراء بالمال.

فلم يجدوا من ذلك شيئًا عندها وأبدت الأسف لذلك فقالت: "والله لو كان عندنا شيء ما **أعوزنا**[1] **القرَى**[2]".

فورد هنا أنه صلى الله عليه وسلم ألقى ببصره على شاة في **كسر البيت**[3] قد خلفها الهزال عن الغنم التي راحت لاقتيات ما يوجد من **الكلاء**[4] في الناحية وكانت هذه الشاة **حائلا**[5] (لم يطرقها الفحل) فقال صلى الله عليه وسلم لأم معبد " أتأذنين لي في حلب الشاة"؟ (وفي لفظ من الرواية أنه صلى الله عليه وسلم سأل أم معبد عن الشاة: "وهل بها من لبن"؟ فقالت له: "هي أجهد من ذلك"، وأجابت أم معبد وكأنها في تعجب عن سؤاله صلى الله عليه وسلم في حلب الشاة فقالت له: "بأبي أنت وأمي أن رأيت بها لبنا فاحلبها"، فدعا صلى الله عليه وسلم بالشاة فقدمت إليه فمسح ضرعها وسمى الله تعالى وأخذ يحلبها

---

(1) أعوزنا: هذه المادة من العين المهملة والواو والزاي المعنى الأصلي فيها هو الحاجة والافتقار ويأتي الفعل منها مجردا (كما في القول) "عاز يعوز عوزا" ويكون متعديا إلى المفعول فيقال مثلا: عاز الشيء الفلاني فلانا بمعنى أحتاج إليه ولم يجده، ويأتي الفعل منه مزيدا بالهمزة (كما هو هنا) «أعوز، يعوز إعوازا»، ويتعدى إلى المفعول أيضا، فمعنى الكلام هنا أن القرى لا يعوزهم وإنما أعوزهم الشيء الذي يكون به القرى.

(2) القرى: بكسر القاف وفتح الراء مقصورة ويقال فيه "القراء" بفتح القاف والراء الممدودة هو ما يقدم للضيف من الأكل وغيره على وجه الإكرام له والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع " قَرى يقرِي ".

(3) كسر البيت: بكسر الكاف وإسكان السين المهملة بمعنى جانب البيت ويجمع على إكسار وكسور".

(4) الكلأ: بفتحتين على الكاف واللام وآخره همز هو مطلق العشب الذي ترعاه الماشية سواء كان رطبا أو يابسا.

(5) حائلا: من أوصاف المؤنث ولا تلحقها تاء التأنيث، كالحامل والحائض والعاتق والعاقر... الخ.

فت.........ت [1] ودرّت [2] فدعا عليه الصلاة والسلام بإناء فجيء له بإناء يربض [3] الرهط [4] (يكفي لشرب الجماعة).

(1) فت.......ت: لم يتضح رسم هذا الفعل المسند إلى الشاة في مسودة التقييد فهو مشتبه بين أن يكون: فتآخت بالتاء المثناة الفوقية ثم ألف بعدها خاء معجمة فتاء التأنيث ، أو هو بالثاء المثلثة أو هو بالشين المعجمة ثم الخاء المعجمة: تاخت ، ثاخت ، شاخت.أما في نسخة السيرة النبوية فهو (فتفاجت) بالفاء بعدها ألف ثم جيم فتاء التأنيث. وأما في نسخة الحلبية: فهو "فتفاحجت"* بالفاء وبعد الألف حاء مهملة ثم جيم فتاء التأنيث. ولا يظهر للكلمة معنى مناسب إلاعلى ما في النبوية وما في الحلبية "فتفاجت"* بمعنى باعدت بين رجليها لأنه من فعل فجى مكسور في الماضي ، يفجى مفتوح في المضارع والمصدر الفجى بالقصر. وأما (فتفاحجت) فهو كذلك بمعنى تفريج الرجلين وتباعدهما عند الوقوف أو المشي والفعل منه "فحج" مكسور في الماضي ، يفحج مفتوح في المضارع ومصدره الفحج بفتح الحاء المهملة وهي لغة جارية في الدارجة.

وأما فعل(تاخ) بالتاء المثناة والخاء المعجمة فمعناه "غاص"كفوص الرجل في الطين والأصبع في العجين ونحو ذلك والمضارع منه مضموم (يتوخ) والمصدر (التوخ) بفتح فسكون والتوخ بالفتح وبمعناه تاما ما كان بالثاء المثلثة (ثاخ) والمضارع من هذا مضموم ومكسور فيقال: يثوخ ويثيخ ، ومصدره الثوخ والثيخ ، ومثله من جميع الوجوه فعل (ساخ) بالسين المهملة ، والذي يظهر كوجه يقرب من المعنى هنا هو فعل "شخ" بالشين المعجمة والخاء المعجمة مضعفا يقال "شخ اللبن" بمعنى كان له صوت عند الحلب والمضارع منه مضموم ، والمصدر الشخ بفتح الشين.

(2) درت: الدّر: بالدال المهملة وتضعيف الراء مع كون الدال مفتوحة يطلق اسما على نفس اللبن كما يطلق على كثرته يقال: درّ الضرع باللبن ، يدر بضم الدال ومصدره هنا الدّرور بالضم.

(3) يربض: هذه المادة من الراء والباء الموحدة والضاد المعجمة معناها الأصلي الإقامة والاستقرار بالمكان والفعل المجرد منها مفتوح في الماضي مكسور في المضارع والمصدر «الربض» بفتح فسكون و"الربوض" بالضم ويستعمل في بروك ما يبرك من الحيوان وفي الإيواء إلى المكان للاستقرار به ومن هذا جاء اسم "المربض" محل بروك الإبل في إيوائها إلى ما تستقر به والفعل هنا مزيد بالهمزة على معنى أن الرهط ارتووا حتى ثقلوا فسكنوا.

(4) الرهط: بفتح الراء وإسكان الهاء وآخره طاء مهملة ويستعمل بفتح الهاء أيضا اسم جمع لا واحد له من لفظه ويجمع على أرهاط ، يدل على الجماعة من الثلاثة إلى العشرة. قيل ويختص بالذكور. وجاء فيه استعمال آخر وهو أنه يطلق على عدد ما جاوز العشرة إلى الأربعين والمفهوم من المقام هنا أنه جار على الاستعمال الأول.

فحلب فيه **ثجًا**[1] (حلبا قويًا) وناول الإناء أم معبد فشربت ثم سقى الجماعة ال حاضرين فشربوا حتى ارتووا ثم شرب هو عليه الصلاة والسلام آخر القوم وهو يقول: «ساقي القوم آخرهم».

ثم أنه صلى الله عليه وسلم عاد مرة ثانية إلى حلب الشاة فحلبها وسقى القوم كما في المرة الأولى فشربوا **عللا**[2] بعد **نهل**[3] (ثانيا بعد أول)، ثم حلب الشاة لثالث مرة وترك اللبن في بيت أم معبد قائلا لها: "اتركي هذا لأبي معبد"، يعني زوجها وكان متغيبا عن المكان في رعاية أغنام له. ثم ارتحل ركب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وجاء في رواية أخرى زيادة مفادها أن أم معبد لما شاهدت ما شاهدت من هذه الآية في حلب الشاة الحائل العجفاء - وقد أفادت أخبار بأن هذه الشاة عاشت إلى زمن خلافة عمر بن الخطاب - **ألحت**[4] أم معبد على الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يسافر الركب حتى يطعم عندها فتسلفت من جيران لها شاة ذبحتها وأطعمت الجمع اللحم ولاحظت أم معبد آية أخرى في الشاة الثانية حيث أن القوم أكلوا من اللحم إلى منتهى

---

(1) ثجا: الثج بفتح الثاء المثلثة، وتشديد الجيم لأنه من المضعف مصدر يدل على انصباب السائل بقوة والفعل منه مضمون المضارع وهو متعد للمفعول، يقال ثج فلان بالماء صبه وأساله ويكون هذا الفعل لازما لا يتعدى فيكون مضارعه مكسور ومصدره الثجاج بفتح الثاء وتخفيف الجيم فيقال ثج الدم بمعنى سال.

(2) عللا: بفتح العين المهملة ثم لام بالفتح أيضا وآخر لام أيضا هو اسم للشرب الواقع بعد شرب قبله والفعل منه مضعف في الماضي فيقال «علَّ" والمضارع منه مضمون ومكسور فيقال "يعُل ويعِل» بضم العين وكسرها ومصدره "العَل" بالفتح "والعَلَل" بفتح العين واللام.

(3) نهلا: بفتح النون وفتح الهاء وآخره لام وهو اسم الشرب أول مرة. والفعل منه مكسور الهاء في الماضي، مفتوحها في المضارع والمصدر" النهل" بفتح الهاء.

(4) ألحت: هو من الفعل المزيد بالهمزة ومصدره" الإلحاح" وهو المداومة في السؤال والطلب، والمجرد منه مضعف الحرف الأخير "لح" والمضارع منه مكسور ومضموم، ومصدره "اللّح" بالفتح والمعنى الأصلي من هذه المادة هو اللصوق وملازمة الاتصال.

الشبع ثم ملأت أم معبد لأصحاب الركب **سفرتهم**[1] منه وبقي عندها ما فيه الكثرة.

و يؤخذ من مضمون الروايات أن مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزل أم معبد كان لوجه النهار وقضى به القيلولة وغادره آخر النهار، وبعد ارتحال ركب الرسول صلى الله عليه وسلم من المكان قدم رب المنزل عائدا بأغنام كان يرعاها وهي **عجاف**[2] وهو **أبو معبد*** أكثم بن أبي الجون الخزاعي. وأفادت الروايات الإخبارية أنه ممن أسلم في وفادته على الرسول صلى الله عليه وسلم (كما تقدمت الإشارة إلى ذلك). وتفيد الأخبار بأن أبا معبد هذا توفي زمن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأما أخو أم معبد واسمه **حبيش** وأسلم هو أيضا مع الوفد فقد شهد فتح مكة وأصيب فيما وقع من مناوشة القتال ذلك اليوم فمات يومئذ شهيدا.

وتحكي الرواية عن أبي معبد أنه لما دخل المنزل وأبصر اللبن أخذ منه العجب كل مأخذ، فقال لزوجه " يا أم معبد ما هذا اللبن الذي عندك ولا حلوب[3] عندنا؟ " فأجابته تقول: "مرّ بنا رجل مبارك" وقصت عليه كامل القصة مما وقع. فقال لها: " صفيه لي يا أم معبد"، فوصفت له الرسول صلى الله عليه وسلم بما جاءت به روايات الأخبار مما يعد آية من الآيات في باب البيان وأعجوبة من الأعاجيب في الرقة والدقة وعمق الملاحظة.

---

(1) السُّفرة: بضم السين المهملة وإسكان الفاء يطلق على زاد المسافرين من الطعام كما يطلق اسمًا على ما يوضع عليه الطعام عند الأكل توسعًا في هذا الإطلاق.

(2) العجاف: بكسر العين المهملة جمع العجفاء وهو وصف من العجف بفتحتين وهو الهزال والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع ويستعمل أيضا بالضم في الماضي والمضارع.

(3) الحلوب: بفتح الحاء المهملة وتخفيف اللام بالضم والمد يطلق على ما يصدر منه لبن من الأنعام فهو في الأصل وصف.

قالت أم معبد تصف الرسول صلى الله عليه وسلم:

"رأيت رجلا ظاهر الوضاءة[1] متبلج[2] الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة[3] ولم تزر به[4] صعلة[5] في صورته صحل[6] وفي عينيه دعج[7] وفي أشفاره وطف[8] ، وسيمًا[9]

(1) الوضاءة: بفتح الواو وبالضاد المعجمة ثم الهمزة هي مظهر الحسن والنظافة على الجسم ، والفعل منها مضموم في الماضي والمضارع يقال وضؤ ، يوضؤ بضم الضاد في كلّ والمصدر الوضوء بضم الواو والوضاءة بفتحها.

(2) متبلج: هذه المادة من الباء الموحدة واللام والجيم تطلق على الإضاءة والوضوح ويأتي الفعل منها مفتوحا في الماضي مضموما في المضارع والمصدر البلوج بضم الباء ، كما يأتي أيضا مكسورا في الماضي ، مفتوحا في المضارع والمصدر البلج بفتحتين ، يقال بلج وأبلج وتبلج الصبح إذا أشرق وظهر.

(3) ثجلة: بالثاء المثلثة والجيم واللام وهي بضم الثاء وإسكان الجيم ، اسم لعظم البطن ، والفعل من هذه المادة مكسور في الماضي مفتوح في المضارع ومصدره الثجل بفتحتين ويوصف صاحبه المذكر بأثجل والأنثى بثجلاء.

(4) تزر: بالزاي والراء وآخره حرف علة. الفعل منه مفتوح في الماضي زرى والمضارع مكسور يزري ومصدره الزرى بفتح فسكون وبضم الزاي أيضا. والزراية بكسر الزاي ويستعمل الفعل منه مزيدا بالهمزة فيقال أزرى بالشيء بمعنى عابه وحط من قيمته.

(5) الصعلة: بضم الصاد المهملة وإسكان العين المهملة ثم لام هي صغر الرأس ودقة العنق. والفعل منها مكسور في الماضي ، مفتوح في المضارع والمصدر الصعل بفتحتين و وصف المذكر أصعل والأنثى صعلاء.

(6) الصحل: بالصاد المهملة والحاء المهملة وآخره لام ، مصدر لفعل صحل مكسورا في الماضي مفتوحا في المضارع والمصدر الصحل بفتحتين ، و وصف المذكر أصحل والأنثى صحلاء ويطلق على بحّة في الصوت وبعض خشونة فيه.

(7) الدعج: بفتح الدال المهملة وفتح العين المهملة وآخره جيم يطلق على شدة سواد العين مع سعتها ، والفعل منه كما فيما قبله بالكسر في الماضي والفتح في المضارع والمصدر بفتحتين والوصف كما فيما قبله.

(8) وطف: الوطف بفتح الواو والطاء المهملة ، آخره فاء يطلق على كثرة شعر الأشفار وشعر الحاجبين والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع والمصدر بفتحتين ، و وصف المذكر منه أوطف والأنثى وطفاء ، ويطلق اللفظ أيضا على انهمار المطر.

(9) الوسيم: وصف من الوسامة بفتح الواو و هي أثر الحسن والجمال والمعنى الإجمالي في هذه المادة يرجع الى العلامة والأثر والفعل منه إذا كان متعديا مفتوح في الماضي مكسور في

قسيمًا[1] ، أحور[2] ، أكحل[3] ، أزج[4] أقرن[5] ، شديد سواد الشعر في عنقه سطع[6] ، وفي لحيته كثاثة[7] ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، كأن منطقه خرزات[8] نظمن طوال يتحدرن ، حلو المنطق لا نزر[9] ولا هذر[10] ، أجهر الناس إذا تكلم وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم

المضارع والمصدر بفتح فسكون وإذا كان الفعل منه لازما كأفعال السجايا فهو مضموم في الماضي والمضارع ومصدره الوسامة وهذا هو المراد هنا.

(1) القسيم: بالقاف والسين وصف كما في الوسيم تماما ، فالفعل منه مضموم في الماضي والمضارع ومصدره القسامة بفتح القاف وتخفيف السين ومعناه الجمال.

(2) الأحور: وصف من الحور بفتح الحاء المهملة وفتح الواو وآخره راء وهو وصف يتعلق بالعيون إذا كان بياضها ناصعا وسوادها شديدا ، والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع والمصدر بفتحتين وقد أورد على هذا ملاحظة بأن الوارد في وصف عيني الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه كان أشكل العينين أي شديد السواد يخالط بياضه قليل من الحمرة.

(3) أكحل: وصف من الكحل بفتح الكاف وفتح الحاء المهملة وهو سواد منابت شعر الأجفان خلقة ، والفعل منه مكسور في الماضي ، مفتوح في المضارع ومصدره الكحل بفتحتين.

(4) الأزج: بالزاي وتضعيف الجيم وصف من الزجج بفتحتين وهو وصف لحاجب العين حيث يكون رقيقا طويلا والفعل منه كما في الذي قبله مكسور في الماضي مفتوح في المضارع.

(5) الأقرن: وصف من القرن بفتح القاف وفتح الراء وآخره نون والمراد منه هنا قران طرفي الحاجبين والفعل منه كما فيما قبله.

(6) سطع: بالسين المهملة والطاء المهملة والعين المهملة ، المعنى الأصلي في هذه المادة الارتفاع والانتشار والمراد هنا طول العنق. فالسطع بفتحتين مصدر لفعل سطع بالكسر في الماضي يسطع بالفتح في المضارع ومعناه طول العنق.

(7) كثاثة: بفتح الكاف وتخفيف الثاء المثلثة وهو مصدر للفعل المضعف بالثاء والفعل منه مفتوح في الماضي ، مكسور في المضارع ويطلق على الشعر إذا كان مجتمعا متداخلا ببعضه البعض ، فكثاثة اللحية بمعنى اجتماع شعرها متلبدا من غير طول.

(8) خرزات: بالخاء المعجمة والراء وآخره زاي وهو جمع خرزة بفتح الراء وهي واحدة الفصوص والجواهر مما يثقب وينظم في سلك.

(9) نزر: بالنون والزاي والراء وهو هنا بفتح النون وإسكان الزاي مصدر للفعل المضموم في الماضي والمضارع ومعناه قلة الشيء وتفاهته.

(10) الهذر: بالهاء والذال المعجمة وآخره راء وهو بفتحتين ومعناه الشيء الكثير الرديء وأكثر استعماله في الكلام إذا كان في خطإ وما لا فائدة منه ويأتي الفعل منه مفتوح الماضي ومضموم أو مكسور المضارع ومصدره الهذر بفتح فسكون ، كما يأتي الماضي منه أيضا مكسورا والمضارع مفتوحا ومصدره الهذر بفتحتين.

وأحسنهم من قريب ، **ربعة**[1] **لا تشنؤه**[2] من طول ، **ولا تقتحمه**[3] عين من قصر غصن بين غصنين ، فهو **أنضر**[4] الثلاثة منظرا ، وأحسدهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا لأمره. **محفود**[5] **محشود**[6] **لا عابس**[7] **ولا مفند**[8].

فقال أبو معبد: "هذا - والله - صاحب قريش ولو رأيته لا تبعته" وفي رواية - قال: "ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا".

(1) ربعة: بفتح الراء وسكون الباء الموحدة بعدها عين مهملة وهو وصف لقامة الشخص حيث تكون وسطا بين الطول والقصر.

(2) تشنوه: هذا الفعل من الشين المعجمة والنون والهمز يأتي مفتوحا في كل من الماضي والمضارع كما يكون مكسورا في الماضي مفتوحا في المضارع ويأتي على عدة صيغ في مصدره ومنه الشنآن بفتحتين ومعناه البغض والعداوة.

(3) تقتحمه: من الفعل المزيد من باب الافتعال وأصله المجرد من القاف والحاء المهملة والميم بالفتح في الماضي والضم في المضارع ومصدره بفتح فسكون ومعناه على العموم والارتماء والدخول على الشيء بتهجم من غير تدبر وهو هنا جار على استعمال خاص معروف إذا أسند إلى العين فيدل على الاحتقار والازدراء بالمنظور إليه.

(4) أنضر: صيغة تفضيل ، بالنون والضاد المعجمة والراء ، هذه المادة مشتقة من النضار بضم النون وهو الذهب لما فيه من بهجة الرونق والإشراق ، ومصدره النضرة بفتح النون وإسكان الضاد والفعل منه يأتي في الماضي مفتوحا وقد يضم ، والمضارع مضموم.

(5) محفود: اسم مفعول من الحفد بفتح الحاء المهملة وسكون الفاء وآخره دال مهملة ، والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع ومعناه الأصلي هو الإسراع في السعي وما يزاول من العمل والخدمة ومنه أطلق اسم الحفدة على الخدام والأعوان ، فمعنى محفود مخدوم مطاع.

(6) محشود: اسم مفعول من الحشد بفتح الحاء المهملة وسكون الشين المعجمة وآخره دال مهملة والفعل منه مفتوح في الماضي ومكسور ومضموم في المضارع ومعناه الجمع ، فمعنى المحشود من لا يفارقه الجمع من الناس تعلقا به للقيام بما يجب من خدمته.

(7) لا عابس: بالسين المهملة من عبوس الوجه وجاء في بعض المصادر بالثاء المثلثة: لا عابث.

(8) مفند: بالفاء والنون وآخره دال مهملة ، وهذه المادة من الفند بفتحتين ويطلق على الضعف والعجز وقد جاء إطلاقه على الكذب وأكثر ما يستعمل في ضعف الرأي ، والفعل منه مجردا مكسور في الماضي ، مفتوح في المضارع ويستعمل رباعيا مزيدا بالهمزة وبتضعيف وسطه من باب التفعيل ويظهر أنه هنا اسم فاعل من باب التفعيل فقد جاء تفسيره بأن معناه غير لوّام.

وقد جاء في الأخبار أن مرور الرسول صلى الله عليه وسلم بأم معبد جعله القوم أهل تلك الناحية تاريخا يؤرخون به الأحداث يقولون " كذا وكذا من يوم نزول الرجل المبارك " ، كما جاء أيضا أنه قيل لأم معبد هذه "ما بال وصفك للرسول صلى الله عليه وسلم يفوق غيره مما وصفه به غيرك...؟ " فأجابت: " ألا تعلمون أن نظر المرأة من الرجل **أشفى**[1] من نظر الرجل إلى الرجل."

وجاء فيما جاء من الروايات في هذا المحل رواية عن **أسماء بنت أبي بكر** * قالت: " لما خفي علينا خبر الرسول صلى الله عليه وسلم أتانا للمنزل نفر من قريش فيهم **أبو جهل** * يسألون عنه ، فقلت لهم لا ندري من خبره شيئا. فلطم أبو جهل خدي لطمة خرج منها **قرطي**[2] ثم انصرفوا" قالت: "ولم نكن ندري أين توجه الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه بعد الخروج من الغار حتى كان بعد ذلك بثلاث ليال»(وفي لفظ آخر..." بعد خمس ليال) ، فإذا بهم يسمعون **هاتفا**[3] في جوف الليل بأسفل مكة (وفي لفظ على جبل أبي قبيس) يغني وينشد:

" جزى الله رب الناس خير جزائه * رفيقين حلا خيمة أم معبد

---

(1) أشفى: من مادة الشين المعجمة والفاء وآخره حرف علة ، وهو هنا صيغة تفضيل مأخذه من عبارة: الجواب الشافي أي الكافي لا يحتاج بعده إلى المراجعة. فأشفى بمعنى أنجع وهذا ما يتبادر حسب المتداول ، ولكن يظهر أن الأنسب هنا جعل أشفى آتيا من الفعل الرباعي: أشفى على كذا بمعنى أشرف عليه مأخوذا من تقدير قارب وألم به حتى بلغ شفاه أي حده وحرفه. وذلك لأن لفظ أشفى هنا أسند إلى النظر ولم يسند إلى الجواب أو البيان وربما يكون للفظ أشفى هنا تفسير غير ما ذكر.

(2) القرط: بضم القاف وإسكان الراء وآخره طاء مهملة ، مفرد الأقراط أو القروط ، وهو من الحليّ يعلق بشحمة الأذن.

(3) الهاتف: صيغة اسم فاعل من مادة الهاء والتاء المثناة الفوقية وآخره فاء ، والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع ومصدره الهتاف بضم الهاء بوزن الصراخ وبكسر الهاء بوزن الصياح. وجاء في تعريف الهاتف أنه الذي يسمع صوته من غير ما يرى شخصه.

هما نزلا بالبرّ ثم ترحلا * فأفلح من أمسى رفيق محمد."

جاء في هذه الرواية من صوت الهاتف البيتان الاثنان فقط.

وفي رواية أخرى زيد على البيتين عدة أبيات مما يرجع إلى قصيدة كاملة على قافية الدال المكسورة. تقول أسماء: "وعند هذا عرفنا أين توجه الرسول صلى الله عليه وسلم." كما جاء أن الملأ من قريش لمّا سمعوا ما سمعوا من الهاتف المذكور جدّدوا حملة أخرى لطلبه صلى الله عليه وسلم، فبلغوا منزل أم معبد فسألوها عنه و وصفوه لها فما كان من جوابها لهم إلاّ أن قالت: "ما أدري ما تقولون إلاّ ما كان صادفني من حالب الحائل." فقالوا: " ذلك هو الذي نريده". وأعياهم الطلب بعد ذلك، إذ لم يبق بعد ذلك إلاّ أن يتيهوا من حيث لا يهتدون فرجعوا بخيبة أخرى. أفادت الأخبار فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت أثناء سفره صلى الله عليه وسلم في الهجرة إلى حادثين هما نزوله صلى الله عليه وسلم خيمة أم معبد وتعرض سراقة بن مالك المدلجي للركب قصد الإيقاع به.

واختلف مؤلفو السيرة في ترتيب وقوع الحادثين، فقدم البعض قصة أم معبد على قصة سراقة وعكس آخرون الترتيب(وأفاد البعض ترجيح الترتيب الأول) وعلى كل فإن المكان المعروف بقديد هو ما وقع به الحادثان كلاهما، وقد أفاد البعض هنا أن منطقة قديد منطقة متسعة ففي أحد طرفيها كان منزل أم معبد وفي الطرف الآخر كان منزل سراقة.

الدرس 59

تعرض سراقة بن مالك لركب الرسول - صلى الله عليه وسلم -

تقدم فيما قبل أن قريشا جعلت جعلا لمن يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم أو يأسره أو يفعل ذلك بصاحبه أبي بكر الصديق و وزعوا الأعلام بذلك في النواحي.

فجاء في رواية عن **سراقة** [1] **بن مالك** المدلجي من قبيلة **كنانة***، قال: "جاءتنا رسل قريش بما ذكر من الإعلام فبينما أنا جالس في مجلس من قومي جاء رجل فقال إني رأيت **أسودة** [2] (أشخاصا) بالساحل مروا عليّ آنفا لا أراهم إلاّ محمدًا وأصحابه". قال سراقة: " فعرفت أنهم هم، فقلت للرجل أنهم ليسوا بهم، وإنما رأيت فلانا وفلانا يطلبون ضالة لهم (وفي لفظ آخر): إنما رأيت **ركبة** [3] ذهبوا يطلبون ضالة لهم".

في التعليق هنا أن سراقة غالط الرجل المخبر قصد **الاستئثار** [4] بالجعل ليكون له وحده. يقول سراقة: "ولبثت في المجلس ساعة ثم انصرفت إلى منزلي فأمرت جاريتي أن تخرج لي فرسي إلى بطن الوادي على خفية من الأنظار ثم لبست **لامتي** "[5] (بمعنى تسلح). قال: "و ركبت وبالغت في إجرائها» (يعني الفرس. فلفظ الفرس يطلق على الذكر والأنثى من الخيل) يقول: « حتى دنوت منهم فعثرت الفرس و وقعت بمنخريها ثم

---

(1) سراقة: بضم السين المهملة وتخفيف الراء.

(2) أسودة: صيغة جمع بفتح فسكون فكسر ففتح ثم تاء التأنيث اللفظي جمع سواد بوزن جواب وأجوبة. والسواد هنا يطلق على ما يتراءى من الشخص.

(3) ركبة: بفتحات ثلاث صيغة جمع راكب.

(4) الاستئثار: من باب الاستفعال وهو كالاستحواذ والاستبداد وزنا ومعنى ومأخذه من الأثرة بفتح الهمزة وفتح الثاء المثلثة بعدها راء وتطلق على فرط حب النفس وإهدار ما للغير من مراعاة حقه ويقابل الاستئثار بتمام الضدية الإيثار وهو تقديم الغير على النفس.

(5) اللامة: باللام وتخفيف الميم هي جهاز السلاح بوجه العموم.

قامت **تحمحم**[1]". قال: "**فخررت**[2] عنها واستخرجت الأزلام **فاستقسمت**[3] بها فخرج لي الذي أكره ، فعصيت **الأزلام*** وركبت (مسرعا السير) حتى قاربت الركب حتى كنت أسمع قراءته صلى الله عليه وسلم وكنت أراه صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت ، وأما أبو بكر فكان يكثر الالتفات فساخت يدا فرسي في الأرض حتى الركبتين وكانت الأرض جلدة فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها حتى ثار **عثان**[4] ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج لي الذي أكره ، فناديت: «بالأمان! أنظروني! لا أوذيكم! ، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه!".

(وفي لفظ آخر من الرواية): " أنا سراقة بن مالك! أنا لكم نافع غير ضارّ!" وزاد يقول: " ولا أدري لعل الحيّ فزعوا لركوبي وأنا راجع فرآدّهم عنكم!"

وهنا تكلم الرسول صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر فقال له: " قل له ماذا تبتغي ؟ " وتوقف ركب الرسول صلى الله عليه وسلم عن السير بأمره.

وهنا حصل الاتصال بين سراقة و ركب الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(1) تحمحم: بالحاء المهملة والميم مكرار مضارع حمحم ويستعمل بزيادة التاء فيقال تحمحم الفرس بمعنى ردد صوته وذلك في أوقات يتأثر فيها كطلبه العلف واستئناسه بصاحبه.

(2) خر: بالخاء المعجمة وتضعيف الراء مضارعه مكسور ومضموم ومصدره الخرّ بالفتح والخرور بالضم ومعناه السقوط من الأعلى إلى الأسفل.

(3) استقسم: بمعنى طلب القسم بكسر القاف وسكون السين وهو الحظ. و"الأزلام": جمع زلم بفتح الزاي وفتح اللام آخره ميم وعرف بأنه السهم من النبل قبل أن يركب فيه الريش يرمي به ، والاستقسام بالأزلام عملية اقتراع كان العرب في جاهليتهم يتعاطونها استفتاء لما يريد الشخص أن يقدم عليه من عمل كسفر وتجارة وزواج وغير ذلك ، فتدار الأزلام وهي مرقومة بالسلب والإيجاب حتى يخرج منها سهم مصادفة فينظر فيه أهو سلب أو إيجاب فيعمل بمقتضاه وهي عملية زيادة على ما هي عليه من الباطل والتخريف الذي لا يقره العقل والعلم فهي أيضا ملابسة للشرك بالله فلذلك أبطلها الإسلام وعدّها من الفسوق.

(4) العثان: بضم العين المهملة وتخفيف الثاء المثلثة ممدودة بعدها نون ويقال فيه أيضا العثن بفتحتين هو الدخان والغبار.

قال سراقة: "فأخبرتهم بما يريد الناس منهم" (وجرت المحاورة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وسراقة). فتفيد رواية هنا أن الفرس لم تزل يداها حاصلتين بالأرض فقال سراقة للرسول صلى الله عليه وسلم: "ادع لها بالخلاص"، فدعا فخلصت.

وهنا عرض سراقة على الرسول وصحبه شيئا من الزاد والمتاع مما كان معه يقول سراقة: "لما عرضت عليهما (أي من كلمه وهما الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر) ما عرضت من الزاد والمتاع لم **يرزئاني**[1] شيئا من ذلك!".

(وزيد في رواية): أن سراقة لما عرض الزاد ولم يقبله منه الرسول صلى الله عليه وسلم زاد على ذلك فقال للركب: "أن لي مواشي من إبل وغنم بموضع كذا في الطريق أمامكم فخذوا منها ما شئتم" ولم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا العرض أيضا.

وما أفادته هذه الرواية من كون الفرس عثرت المرة الأولى واستقسم سراقة بالأزلام عقبها فخرج له سهم "السلب" وعصى وعثرت الفرس المرة الثانية بأشد و أروع مما في الأولى...فأقلع سراقة عن عمله ونادى بالأمان هو الذي درج عليه المؤلفون وهو المأخوذ به.

ولكن حكي ما تفيده إحدى روايات الأخبار (باقتضاب) أن سراقة كانت تسيخ قوائم فرسه في الأرض فيستغيث ويعاهد فيخلص ثم ينكث ويعيد الكرة إلى عدد سبع مرات.

---

(1) يرزئاني: هذا الفعل من مادة الراء والزاي والهمزة يأتي مفتوحا في الماضي والمضارع فيكون متعديا لمفعولين ومعناه الإصابة والتحصيل من الشيء الذي ينقص بذلك فيقال رزأ فلان فلانا ماله أي أصاب منه وأنقصه إياه والمصدر فيه بفتح فسكون الرزْء وبضم الزاي أيضا الرزُء ويأتي هذا الفعل مكسورا في الماضي فيكون متعديا لمفعول واحد والمعنى على كل هو الحصول على الشيء مما يناله الآخذ من المأخوذ منه مع ملاحظة انتقاص ذلك الشيء المأخوذ منه بذلك الأخذ، من هذا جاءت كلمة الرزية.

وأفادت رواية أخرى (في حادث سراقة هذا) أنه لما أدرك سراقة ركب الرسول صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر للرسول صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله هذا الطلب! قد أدركنا!" - فقال له الرسول: "لا تحزن! ". فلما كان منهم على مقدار رمحين أو ثلاثة كرر قوله ذلك وأخذه البكاء. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم "ما لك تبكي؟ "فأجاب بما كان قاله من قبل حين الدخول إلى الغار: "ما على نفسي أبكي ولكن خيفة أن تصاب أنتَ فتصاب الأمة جمعاء"...الخ.

وهنا دعا الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: " اللّهم أكفناه بما شئتَ " وفور ذلك ساخت يدا فرس سراقة (المرة الأخيرة).

وجاء في خبر سراقة هذا أنه قال - بعد اتعاظه بما وقع له آخر الأمر -: " وعرفت أنه صلى الله عليه وسلم سيظهر أمره فطلبت إليه أن يكتب لي كتابا" (وثيقة عهد بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم لما يستقبل من الوقت).

فجاء أنه في الحوار بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "يا محمد إني لأعلم أن سيظهر أمرك في العالم وتملك رقاب الناس فعاهدني إذا أنا أتيتك يوم ملكك أن تكرمني!" فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا وأمر بكتابة العهد المذكور، قيل تولى الكتابة عامر بن فهيرة وقيل بل أبو بكر وكان ذلك في قطعة أدم [1] وقيل في عظم، وقيل في خرقة [2].

---

[1] الأدم: بفتح الهمزة وفتح الدال المهملة آخره ميم تقدم مرارا تفسيره بأنه الجلد

[2] خرقة: هذا الاختلاف في جنس ما كتب فيه الكتاب ساق البعض من مؤلفي السيرة فيه ما يفيد عدم المنافاة بين بعضه البعض، فأورد رواية تفيد أن سراقة بعد تناول عامر بن فهيرة الكتابة، طلب من الرسول أن يكون الكاتب هو أبا بكر الصديق وأجابه الرسول إلى ذلك فأمر أبا بكر أن يكتب الكتاب لثاني مرة (ولعل قصد سراقة زيادة التوثق)، فالكتابة كانت مرتين إحداهما في عظم والأخرى في قطعة الأدم. وأما لفظ "الخرقة" فقد أرجعوه إلى خرقة الأدم بمعنى قطعة وعلى هذا فلا منافاة فيما يظهر متخالفا في هذه الجملة.

ورد من الأخبار هنا أنه لما تسلم سراقة الكتاب ، وانتهى الحوار بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم وأراد سراقة الإنصراف قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "كيف بك يا سراقة إذا تسورت **بسواري**[1] **كسرى**[2]؟" ، قال سراقة (في اندهاش وتعجب للتحقيق) مستفهمًا: "**كسرى بن هرمز***؟ " قال الرسول صلى الله عليه وسلم "نعم"!

وفي تصديق هذه النبوءة من الرسول صلى الله عليه وسلم لسراقة - كما كان له صلى الله عليه وسلم من تنبؤات مثلها وفيرة العدد متواترة الخبر - جاءت أخبار التاريخ تفيد أنه لما تمت الهزيمة على جند الفرس واندكت صروح دولتهم من الأساس في المعارك التي وقعت بينهم وبين المسلمين وذلك في سنة....للهجرة على عهد خلافة عمر بن الخطاب واستولى المسلمون على ما كان للدولة من خزائن وذخائر وتحف بما فيها ما يخص شخص الملك **لشاراته**[3] الرسمية كالتاج والمنطقة والبساط والسوار الذي يلبس حسب نظام **الأوسمة**[4] المعروف. فلما جيء بالأسلاب المذكورة إلى المدينة المنورة وسلمت إلى يد الخليفة ليضعها موضعها الذي يجب حسب الشريعة - فكان من الأسلاب المذكورة السواران اللّذان كان يتحلى بهما في يديه الملك وهما كباقي التحف الأخرى من الذهب **الأبريز**[5] المرصع بالأحجار الكريمة العالية القيمة.

---

(1) السوار: بكسر السين المهملة وتخفيف الواو مفتوحة بالمد وآخره راء ، هو ما يلبس بزند اليد من الحليّ.

(2) كسرى: بكسر الكاف وإسكان السين المهملة ومن بعد راء ممدودة بالفتح هو اللقب الرسمي لملوك الفرس.

(3) الشارة: بالشين المعجمة وتخفيف الراء ، تطلق على الهيئة والزينة في اللّباس.

(4) الأوسمة: جمع "وسام" بكسر الواو وتخفيف السين المهملة ممدودة بالفتح وآخره ميم ، ومأخذه من الوسم بفتح فسكون ومن السمة بالكسر والمعنى في اللفظ يرجع إلى العلامة ، فالوسام بالمعنى الاصطلاحي المعروف داخل في مسمى الشارة

(5) الإبريز: بكسر الهمزة وإسكان الباء الموحدة ثم راء مكسورة بالمدة وآخره زاي يطلق على الذهب الخالص.

ومما لا شك فيه أن نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم تلك التي تنبأ بها لسراقة بن مالك كان خبرها معروفا متداول الذكر في مختلف الأوساط ، وإذ قد حل الوقت الذي تحققت فيه تلك النبوءة من الرسول صلى الله عليه وسلم لسراقة بن مالك وكشف واقع الحال عن صدقها يقينا لا مريّة فيه. وكان الخليفة - إذ ذاك -**عمر بن الخطاب*** وهو من عرف بالسياسي الماهر والإداري الحكيم فأحب أن يكون لصدق تلك النبوءة مظهره العياني الشامل للعموم ومرآه البارز في أنظار كافة أفراد الشعب فعرضها بأسلوب إعلامي عام وإذاعة مستوعبة السمع والبصر صورة تمثيلية كاملة التشخيص (طبق المنطوق النبوي المصدوق). فقد استحضر عمر بن الخطاب **سراقة بن مالك*** في مشهد بالغ الروعة والجلال وعلى مرأى ومسمع من جماهير الناس التي **اكتظ** [1] بها المكان دعا بسراقة فرقاه المنبر وألبسه السوارين في كلتا يديه (وربما جاء أنه ألبسه السوارين أولا ثم رقاه المنبر) ، فكان سراقة في مواجهة الجمهور يرفع يديه بالسوارين (ويلوح بهما)...

ثم أمر عمر سراقة فقال له قل: " الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة!" كما جاء أن عمر نفسه قال ذلك رافعا صوته في الجمهور وطبعا كان الجمهور الحاضر يرد على ذلك بالهتاف بتكبير الله تعالى وحمده.

وقد فهم مما تقدم في الحوار الذي وقع بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين سراقة أنه لم يرد فيه شيء مما يتعلق بمسألة الدّين ، ولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرض الدعوة الإسلامية على سراقة وغاية ما حصل هو وثيقة عهد أمان من الرسول لسراقة. ويفهم مثل ذلك أيضا

---

[1] اكتظ: من باب الإفتعال من مادة الكاف والظاء المعجمة المشالة مضعفا ومضارعه يكظ بضم الكاف والمصدر الكظ بالفتح ومعناه الامتلاء ، ففعل اكتظ بمعنى امتلأ والملاحظة في لفظ اكتظ أنه للامتلاء البالغ الزيادة.

بالنسبة لأم معبد. والثابت من الأخبار المعوّل عليها أن أم معبد إنما أسلمت هي و زوجها وأهل بيتها بعد مدة في وفادة على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة.

وأما سراقة فقد أسلم في الأيام التالية لفتح مكة سنة ثمان من الهجرة. وجاء في خبر إسلام **سراقة** * أنه بعد أيام فتح مكة وما تلا ذلك من وقعة حنين وحصار جيش الرسول صلى الله عليه وسلم لمدينة الطائف ثم التراجع عنها فلما كان الجيش **بالجعرانة**[1] وافى سراقة المكان يطلب مقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم فيحكي عن نفسه أنه قال: "دخلت **كتيبة**[2] الأنصار"(وهي التي كانت تحف بالرسول صلى الله عليه وسلم)قال: " فكان الأنصار يعترضونني يقولون: " **إليك**[3] ! إليك!" قال: " فكنت ألوح إليهم بالكتاب". وهكذا حتى وصل -تحت مراقبة الجند من الأنصار-إلى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "فاستقبلني عليه الصلاة والسلام بالترحيب فقال: "مرحبا بك ياسراقة يوم وفاء وبشر" وقربه الرسول إليه حيث قال له: "**أدنه** "[4] وهنا كان إعلان سراقة إسلامه واعتناقه الدّين الإسلامي بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(1) الجعرانة: جاء في ضبط لفظها صورتان الأولى بكسر الجيم وإسكان العين المهملة وتخفيف الراء مفتوحة في المد ثم النون - والثانية بكسر الجيم وكسر العين وتشديد الراء ، وهي مكان في طريق الطائف على بعد بضعة عشر ميلا من مكة ، وهو المكان الثاني المعين لمن يحرم بالعمرة من ساكني مكة.

(2) الكتيبة: بفتح الكاف وكسر التاء المثناة الفوقية بوزن الفعيلة وهي القطعة من الجيش متميزة.

(3) إليك: مستعمل هنا على أنه اسم فعل أمر بمعنى تباعد أو ارجع. ومن العبارات الجارية في هذا قول: «إليك عني أي أبعد عني.» ولهذا اللفظ معنى آخر على أنه اسم فعل أمر بمعنى خذ وتناول كما يقال "إليك الكتاب" بمعنى "خذ الكتاب".

(4) أدنُهْ: هو فعل أمر من الدنو أي القرب وزيد في آخره هاء ساكنة هاء السكت وقد رسم في نسخ أخرى ومصدره بالواو بين النون والهاء هكذا (أدنوه) فيكون بهمزة القطع في أوله فهو خطاب للصحابة أن يقربوا سراقة منه صلى الله عليه وسلم.

هذا - ومما ورد من قصة سراقة في تعرضه لركب الرسول صلى الله عليه وسلم أنه بعد انصرافه من ملتقاه مع الرسول وأخذه كتاب عهد الأمان فرجع أدراجه صار لا يرى أحد يسلك الطريق وراء الركب إلاّ رده إلى الوراء وأنه كان أول النهار على الرسول (أي حربا عليه) وكان آخر النهار نفسه له (أي نصيرًا له صلى الله عليه وسلم). و ورد في هذا من الروايات عنه قال: "خرجتُ وأنا أحبُ الناس في تحصيلهما (للرسول وصاحبه أبي بكر) ورجعتُ وأنا أحبُ الناس في أن لا يعلم بهما أحد".

ومما جاء من روايات الأخبار في هذا الموضوع رواية تفيد أن **أبا جهل*** دعا لعقد اجتماع عام بمكة - وذلك بعد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم بمدة يسيرة - فخطب أبو جهل في الجمع وبالغ في التحريض على اقتفاء أثر الرسول وصحبه قائلا: «وقد بلغنا أنه أخذ على طريق الساحل ومعه رجلان". وكان من حاضري الاجتماع **سراقة بن مالك*** المذكور فمن ذلك كان منه ما كان من تعرضه لركب الرسول كما ذكر آنفا. وقد بين الباحثون من مؤلفي السيرة أن ما في هذه الرواية لا ينافي الرواية المعروفة من أن سراقة لحق بالركب عندما أخبر ذلك المخبر بما رأى من ركب الرسول وذلك في مجلس بالحيّ الذي يسكنه سراقة بمنطقة قديد. لا منافاة بين الروايتين لاحتمال أن يكون سراقة بعد اجتماع مكة رجع مسرعا إلى منزله وجاء ذلك المخبر فأخبر بما أخبر.

وجاء من الأخبار ما يذكر أنه بعد الانقلاب الحاصل لسراقة في فكرته نحو الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب ما وقع من الحادث الواعظ له، ثم الملتقى الذي كان له مع الرسول صلى الله عليه وسلم اتفق له أن اجتمع بمكة بأبي جهل على رأس عصابة المناوئين للرسول ولدعوته (وكان قد تطرق للأسماع نبأ حادث سراقة المذكور).

فكان أبو جهل يشدد على سراقة التساؤل في الخبر وسلك سراقة - أول الأمر - طريق الإنكار الصرف، ولكن أبا جهل لم يزل به حتى أقر له

بالواقع من الحادثة ومن طبيعة الحال أن يكون سراقة بعد اعترافه هذا تعرض للوم شديد وتوبيخ وتقريع بالغ المرارة.

فجاء مما جاء في هذا الخبر أن سراقة لم يقصر في الدفع عن نفسه والرد على أبي جهل حتى أنه ببالغ التأثر الحاصل له في الموقف، عمد إلى إنشاء أبيات شعرية رد بها على أبي جهل فقال له: "

«أبا حكم[1] -والله- لو كنت شاهدا * لأمْر جوادي إذ تسوخ[2] قوائمه»

علمتَ ولم تشككْ بأنّ محمدًا * رسول ببرهان فمن ذا يقاومه »

وجاء في لفظ آخر من الرواية ذكر ثلاثة أبيات عوض بيتين مع تغاير في بعض ألفاظ بين ما في الصيغة الأولى وما في الثانية -(وربما ما في الثانية أجود)- ففي اللفظ الثاني من الرواية يقول سراقة مخاطبًا أبا جهل:

" أبا حكم - واللاّت[3] - لو كنت شاهدًا * لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه »

علمتَ ولم تشكك بأن محمدًا * رسول ببرهان فمن ذا يقاومه »

عليك بكف القوم عنه فإنني * أرى أمره يومًا ستبدو معالمه »

وفي مقابل ما جاء في هذه الرواية المستفاد منها أن المداولة بين سراقة وبين أبي جهل وإنشاد هذه الأبيات الشعرية من سراقة كان ذلك كله في مجلس مشافهة بينهما بمكة.

---

(1) حكم: بفتح الحاء المهملة وفتح الكاف، هكذا كانت كنية أبي جهل عند فريقه.

(2) تسوخ: من فعل ساخ بالسين المهملة وآخره خاء معجمة وهذا الفعل تأتي عينه واو و ياء فيكون مضارعه يسوخ كما استعمل هنا ويكون بالياء فيقال يسيخ كما استعمل في الرواية التالية ومصدره بالواو السوخ بفتح فسكون ومصدره يائيا السيخ بفتح فسكون والسيخان بفتح السين والياء وزيادة النون في آخره ومعناه غوص الشيء في الرخو كالطين والعجين.

(3) اللات: هو اسم الصنم المعروف الذي كان يعبد ويقدس عند القوم مثل العزّى ومناة وهبل الخ... وهذا قسم أقسم به، وما في هذه الرواية مغاير لما في سابقتها من القسم بالله.

توجد رواية أخرى تفيد أن كل ذلك إنما وقع بينهما مراسلة بالكتابة من غير مشافهة ، فإن سراقة كاتب أبا جهل بكتاب ذكر له فيه القصة وضمنه الأبيات الشعرية المذكورة.

قد عرف مما تقدم في إيراد أحداث السيرة النبوية الشريفة أن البعض من مؤلفيها كالإمام **نور الدين الحلبي** * صاحب الكتاب االمسمى "إنسان العيون "المعروف بالسيرة الحلبية التزم في الأحداث أن يعقب على كل حادث منها أو موضوع بما جاء من ذلك من أبيات القصيدة العصماء العذبة الأسلوب الذائعة الصيت في بلاغة التعبير وجمال الموقع المعروفة بالمنظومة الهمزية في مدح خير البرية للإمام **شرف الدّين البوصري** *.

ففي خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة ميممًا المدينة المنورة جاء منها:

" ونحا المصطفى بالمدينة واشتا * قت إليه من مكة الأنحاء "

وفي الإشارة الى **راحة**[1] الرسول صلى الله عليه وسلم التي مسح بها على ضرع الشاة الحائل عند أم معبد:

" درت الشاة حين مرت عليها * فلها **ثروة**[2] بها ونماء »

وفي حادث الهاتف الذي سمع بمكة يغني:

"وتغنتْ بمدحه الجن حتى * أطرب الأنس منها ذاك الغناء »

[1] الراحة: بالراء وتخفيف الحاء المهملة هي باطن اليد المعروف بالكف.

[2] ثروة: هذه المادة من الثاء المثلثة والراء حرف علة في الأخير ، المعنى منها بوجه العموم هو الكثرة.

وفي حادث تعرض سراقة لركبه صلى الله عليه وسلم:

" واقتفى أثره سراقة فأستهــ[1] * وته في الأرض صافن[2] جرداء[3]

" ثم ناداه بعدما سيـ * مت[4] الخسف وقد ينجد الغريق النداء

أورد هنا في هذا المحل مؤلفو السيرة ذكر شيء مما هو من شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو التفاؤل بالفال الحسن. فقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يتفاءل ولا تشاءم ولا تطيّر قط.

فمما جاء من ذلك عنه عليه الصلاة والسلام في طريقه للهجرة أن الركب لاقى راعيا كان يرعى غنما وحادث الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(1) استهوته: والذي جاء لشرح هذا البيت من القصيدة يفيد أن معناه في فعل أستهوته أن الفرس هوت إلى الأرض بسراقة. فليس لفظ الاستفعال هنا على بابه من إفادة الطلب. والذي يتبادر للنظر أن عبارة الناظم هنا كالاقتباس من الآية القرآنية من قوله تعالى في سورة الأنعام: " كالذي إستهوته الشياطين في الأرض "

(2) صافن: بالصاد المهملة والفاء والنون. هو هنا وصف يستوي فيه المذكر والمؤنث توصف به الخيل حيث تقف على قوائمها الثلاث بينما تترك رابع القوائم غير متمكن من الأرض إلاّ على طرف الحافر.

(3) الجرداء: مؤنث الأجرد وهو ما كان من الخيل رقيق الشعر قصيره ، وهذه الأوصاف مما يحمد في وصف الخيل.

(4) سيمت الخسف: فعل مبني للمجهول ومفعوله الأول ضمير الفرس والثاني لفظ الخسف وماضيه للمعلوم سام ومضارعه يسوم والمصدر السوم بفتح فسكون وله إطلاقات مختلفة فإذا كان كما هنا يتعدى لمفعولين ويفيد معنى تكليف المفعول الأول ماهو في الغالب من المكروه ، فيقال سامه العذاب أي كلفه أو أولاه أو أوقعه أو أوقع به العذاب أو المشقة أو العنت ونحو هذا الخسف: بفتح الخاء المعجمة وإسكان السين المهملة آخره فاء وتضم الخاء أيضا وهو في الأصل الهبوط في الأرض والغيبوبة فيها. ولكن الاستعمال المتداول في عبارة سامه خسفا يعني بها الذلة والهوان وما في معنى هذا فهو استعمال على طريق المجاز. فيقال سامه الخسف بمعنى أذله وأهانه ومن المفهوم طبعا هنا أن المعنى في هذا يرجع في الحقيقة إلى الفارس وليس إلى الفرس.

وقد جاء لشراح المنظومة تفسير العبارة بالمعنى المتداول الجاري على المجاز كما أفاد البعض منهم أن عبارة الناظم هنا تحتمل الحقيقة من لفظ الخسف فالفرس هنا سليمة الخسف الحقيقي كما هو الواقع وربما يظهر أن حمل عبارة الناظم على هذا هو الأولى.

الراعي فسأله: " لمن هذه الغنم ؟ " فقال الرجل: " من قبيلة **أسلم** " (أسلم: اسم جدّ القبيلة كأحمد وأيمن).فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وقال له: "سلمتَ إن شاء الله!" ثم سأله: " ما اسمك ؟ " قال: "مسعود" ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: " وسعدتَ إن شاء الله!"

ثم أن الركب كان على مقربة من ناحية المدينة المنورة فالتقى إذ ذاك **ببُريدة**[1] بن **الحُصَيْب** الأسلمي في جمع من قومه ورد أنهم كانوا نحو الثمانين بيتا.

فذكر في بعض الأقوال من الروايات أن اعتراض بريدة هذا لركب الرسول صلى الله عليه وسلم كان كاعتراض سراقة قبله وأنه كان ممن بلغه خبر الجعل الذي جعلته قريش لمن يوقع بالرسول فخرج في قومه لهذا الغرض.

ولكن الذي تفيده عامة الأخبار الأخرى ليس فيه من أمر الجعل شيء ، وأن اعتراض بريدة للركب لم يكن إلاّ صدفة فهو ملاقاة اتفاقية حسب جاري العادة في طريق المسافرين.

فجاء في خبر بريدة هذا أنه كان له مع الرسول صلى الله عليه وسلم محادثة أدت في الأخير إلى إسلامه وإسلام من معه من القوم. ومما ورد من ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل بريدة عن اسمه وعندما أجابه بأنه بُرَيْدة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر متفائلا كذي قبل " برد أمرنا وصلح ".

ثم سأل الرسول بريدة عن قبيلته وقال له: " ممَّنْ ؟ " فقال: " من أسلم من بني سهم " ، فقال صلى الله عليه وسلم: " سلمنا وخرج سهمك يا أبا بكر ! ".

---

[1] بريدة: بضم الباء الموحدة وفتح الراء وإسكان الياء المثناة التحتية ثم دال مهملة على صيغة التصغير ، وكذلك "الحصيب" بضم الحاء المهملة وفتح الصاد المهملة وإسكان الياء المثناة التحتية وآخره باء موحدة.

و ورد أنه بعد هذا أقبل بريدة على الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله عمن هو ؟ (وربما يكون في هذا دليل على صحة ما في الروايات المشهورة من كون التلاقي المذكور بريئا من غرض الجعل).

فجاء في هذا الخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرف بنفسه لبريدة كامل التعريف بما في ذلك أمر الرسالة الإسلامية...

ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا بريدة إلى الإسلام وأبلغه دعوته . فكان من بريدة الإيجاب الكامل والقبول التام وتقدم عامة من كان في المكان من قوم بريدة فأسلموا أيضا ولما قام صلى الله عليه وسلم بصلاة العشاء مساء ذلك اليوم صلى خلفه القوم المذكورون كلهم.

ومما جاء من الأخبار هنا أنه لما تهيأ الركب للسفر نحو المدينة قال بريدة للرسول صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء» . فأخذ عمامته فحلها وشدها في رمح وتقدم أمام الركب يمشي وهو يحمل اللواء.

كما ورد أن بريدة لما مشى يتقدم الركب سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن المنزل الذي سينزل به ؟ فأجابه الرسول صلى الله وسلم (بالإشارة إلى الناقة التي تحمله): " إنها مأمورة ". وأفادت الأخبار أن بعد ملاقاة بريدة المذكورة التقى الركب بركب من التجار يريد الشام[1] كان فيه من الصحابة **الزبير بن العوام*** و**طلحة بن عبيد الله*** من أبرز شخصيات الصحابة . وهما ممن يحترف التجارة فكسوا الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ثيابا بيضا مما كان معهم من البضاعة ، وبهذه الثياب البيض دخل الركب النبوي المدينة المنورة.

(1) ويظهر في بعض المصادر ما يفيد عكس هذا وأن الركب كان قادما من الشام.

الدرس 60

وصول الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة ونزوله بقباء[1]

وسرى السرور إلى القلوب بوصول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة.

هذه هي العبارة التي قدمها ودرج عليها عامة مؤلفي السيرة في تقديم هذا الفصل عنوانا له ، والوارد والمشتهر في روايات هذا الباب يفيد أن الأنصار والمسلمين بالمدينة المنورة كان قد بلغهم خبر مخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إثر حادث حصار منزله صلى الله عليه وسلم من عصابة المتآمرين عليه بدار الندوة ، تطاير هذا الخبر مسرعا في حينه إلى أسماع أهل المدينة المنورة فكانوا يعدون عدة أيام السفر المعهودة بين مكة والمدينة ، ليستقبلوه صلى الله عليه وسلم يوم حلوله بالمدينة. فلما انقضت المدة المذكورة خرجوا غداة اليوم الأول إلى ظهر **الحرة**[2] في انتظاره وانتظروه كامل الوقت المتوقع القدوم. فأيسوا ذلك اليوم وعادوا اليوم الثاني كذلك فأيسوا أيضا وعادوا اليوم الثالث فانتظروه من الغداة إلى أن ردهم شديد الحر بالظهيرة.

وكانت هذه الأيام الثلاثة هي الأيام الزائدة على المدة المعهودة في السفر بين مكة والمدينة ، وهي أيام اختفائه صلى الله عليه وسلم بغار ثور.

---

[1] قباء: بضم القاف وفتح الباء الموحدة ممدودة مخففة ، ويلفظ به ممدودا بالهمز ومقصورا بغير همز ، وهو اسم للنَّاحية التي كانت بها مساكن بطن عمرو ابن عوف من الأوس ، وتقع جنوب المدينة المنورة مع ميلان بعض الشيء إلى الغرب. وجاء أن اسم قباء كان في الأصل لبئر هناك ثم أطلق على كامل الناحية ويبعد مكان قباء عن المدينة بضعة أميال.

[2] الحرة: بفتح الحاء وتشديد الراء تقدم التعليق في الدرس الرابع والخمسين بتعريفها وأنها الحجارة السوداء في ناحية المدينة.

بعد رجوع جموع المستقبلين في اليوم الثالث بحصة يسيرة من الزمن ، كان رجل من اليهود المجاورين عرض له أمر دعاه إلى الطلوع فوق أطُم[1] بالمكان ، فأبصر الركب النبوي يسير في الصحراء وأعضاؤه بثيابهم البيض تلمع يزول بهم السراب[2] يظهرهم ويرفعهم ، وطبعا كان اليهودي على علم من حال القوم فيما يترقبونه من مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يملك الرجل نفسه أن صاح بأعلى صوته يقول: " يا معشر العرب (وفي لفظ "يابني قيلة"[3] وسبق أن قيلة إسم للجدة العليا لشعب الأنصار) يقول:..." هذا جدكم الذي تنتظرونه!" (معنى الجد هو الحظ)[4]

وقد أفادت رواية أخرى -هنا- أن في هذا الوقت وصل مبعوث من الرسول صلى الله عليه وسلم بشيرا بقدومه أبلغ الخبر إلى **أسعد بن زرارة*** (وحصول الأمرين ظاهر الجواز). وإثر هذا تسارعت الحشود من الناس إلى لبس السلاح وخرجوا ركبانا ومشاة في سباق وبدار تغمرهم فرحة اللقاء وتهزهم لهفة الشوق إلى اقتباله عليه الصلاة والسلام ، فتلقوا الركب النبوي بظهر الحرة في ظل نخلة.

فكان من الحشد المستقبل ما كان من الهتاف بالترحاب وعبارات التكريم والإكبار-بلفظ: " ادخلوا آمنين مطمئنين! ، ادخلوا آمنين مطاعين! "... إلى آخر ذلك.

---

(1) الأطُم: بضم الهمزة ، وضم الطاء المهملة وآخره ميم هو الحصن الذي يبنى محكما ويرفع عاليا.فالأطام هي نفس الحصون مع بعض الفارق بينها وبين الحصون بزيادة المرافق والضخامة في الحصون.

(2) السراب: بفتح السين المهملة وتخفيف الراء ممدودة بالفتح وآخره باء موحدة هو الخيال الذي يتراءى كالماء في الصحراء عند اشتداد الحر بإلقاء الشمس أشعتها وسط النهار.

(3) قيلة: بفتح القاف وإسكان الياء المثناة السفلية ثم لام وتاء التأنيث وهو اسم الجدة العليا لشعب الأنصار من الأوس والخزرج جميعا.

(4) الجدّ: بمعنى الحظ بفتح الجيم وتشديد الدال المهملة.

ورد أنه لما التقى الموكب الحاشد من أهالي المدينة بالركب النبوي بظهر الحرة (وربما كان المعتقد من الجمع أن يتابع الرسول صلى الله عليه وسلم الطريق إلى داخل المدينة)، إذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يعدل في سيره إلى يمين الطريق متصاعدا في عوالي المدينة ويتبعه الحشد مواكبا له حتى قباء حيث كان النزول بها.

وقد مرّ في الدرس السابع والخمسين في مبحث تاريخ الأحداث أن الثابت في يوم نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء (أول نزول بالمدينة) كونه في منتصف النهار من يوم الاثنين في مقتبل شهر ربيع الأول ثاني يوم منه على أن الشهر ثبت بالأحد أو ثامن الشهر على أن الشهر ثبت بالاثنين فهما قولان معتمدان لم يمكن ترجيح أحدهما على الآخر، وأما من حيث التاريخ بالتقويم الشمسي فإن ذلك يوافق اليوم العشرين من شهر سبتمبر * أول شهور فصل الخريف من السنة الثانية والعشرين وستمائة من ميلاد المسيح عليه السلام (حسب تحقيق المحققين من علماء التقويم والتاريخ).

وقد تواردت الأخبار العديدة عن العدد من الصحابة رضوان الله عليهم ممن كانوا شهدوا مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة كما جاء ذلك عن **البراء**[1] بن عازب **وأنس بن مالك*** وغيرهما أنه لم يعرف في سابق عهد المدينة المنورة يوم عمت فيه البهجة والسرور وغمر فيه الأنس والحبور الكافة من السكان، كيوم نزوله صلى الله عليه وسلم بالمكان في هجرته المباركة.

والثابت في منزله صلى الله عليه وسلم بقباء أنه نزل في حيّ بني **عمرو بن عوف*** أحد بطون قبيلة الأوس، وشيخ الحيّ وزعيمه إذ ذاك هو

---

[1] البراء: بفتح الباء الموحدة وتخفيف الراء ممدودة، هو وأنس بن مالك من الصحابة المشهورين في الأنصار، ومن رواة الحديث.

كلثوم بن الهدم[1]. فكان النزول بمنزله. (وقد اختلفت روايات الأخبار في كون كلثوم المذكور ممن أسلم فيمن أسلم من الأنصار أو ليس كذلك، فكان في هذا الأوان لا يزال على دينه القديم). وعلى هذا القول الأخير فإن إسلام كلثوم إنما وقع بعد مدة زمانية حصل له فيها الاستئناس بالتعرف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعاشرته.

وعلى كلّ فإن كلثوم بن الهدم توفي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك قبل غزوة بدر بقليل.

ورد أنه في حال نزول الرسول صلى الله عليه وسلم منزله بقباء كان كلثوم بن الهدم يصيح بغلام له: " يانجيح!" و واصل الرسول صلى الله عليه وسلم تفاؤله فقال لأبي بكر: "نجحت (أو قال نجحنا) يا أبا بكر!".

و ورد أن منزله صلى الله عليه وسلم الخاص به شخصيّا مدة مقامه بقباء كان عند الزعيم المذكور كلثوم بن الهدم وكان مجلسه العام الذي يقتبل فيه الناس ويتحادث مع العموم هو دار **سعد بن خيثمة** الذي هو شخصية بارزة في قبيلة الأوس من الأنصار، وتقدم ذكره بأنه أحد النقباء الذين جعلهم الرسول صلى الله عليه وسلم كفلاء على أقوامهم وأسند إليهم هذه المهمة ليلة بيعة العقبة الكبرى.

وإنما اختار الرسول صلى الله عليه وسلم لمجلسه العام دار سعد بن خيثمة لأن هذا كان عزبا لا أهل له (حتى عرف منزله بنادي العزاب). كما ورد في منزل أبي بكر الصديق حين الهجرة أنه كان بنفس الناحية بالمكان الذي يعرف بالسنح[2] على من كان له معهم علاقة وهم بنو الحارث بن

---

(1) الهدم: يوجد تغاير في رسم "الهدم" فهو بالدال المهملة بعد الهاء في أكثر المصادر، و رسم في مصادر أخرى بالراء " الهرم" ويظهر أن المعتمد هو الأول وفي قوة الشبه بين شكلي الدال والراء مدعاة للتصحيف.

(2) السنح: جاء ضبطه بضم السين المهملة وإسكان النون وآخره حاء مهملة وهو من محلات بني الحارث من الخزرج بحوالي المدينة.

الخزرج*. فقيل كان منزله عند **حبيب بن أساف**، وقيل عند قريبه **خارجة بن زيد** وفرقة بني الحارث هذه ترجع إلى الخزرج.

ومما ورد هنا أنه لما استقر المجلس لاقتبال الوافدين لتحية الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يكن يعرفه من قبل فكان سيلهم متتابعا جماعات وفرادى، وأخذ **أبو بكر** مهمة التقديم للرسول صلى الله عليه وسلم والتعريف، وأبو بكر إذ ذاك شيبه ظاهر خلاف ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يظهر فيه شيب، فكان مظهر أبي بكر هذا في دلالته على كبر السن (وهو في الواقع زائف لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسنُّ منه) مبعث خطإ وقع فيه عامة من لم يكن له معرفة سابقة بالرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه مع ما لمنظر الرسول صلى الله عليه وسلم من الجاذبية للأنظار وبهجة الوضاءة التي كانت تعلوه مما لم يسبق لكل راء رآه أول مرة أن رأى مثلها قط (كما جاء ذلك في أخبار وصفه عليه الصلاة والسلام ومنها وصف أم معبد المتقدم ذكره). فإن القوم المذكورين كان يوقعهم في الغلط الخضوع لما تمليه عليهم فكرة تَرْبَوِيّة درجوا عليها هي نسبة القداسة والكمال لِعلوّ السن والشيخوخة، وعليه فليكن الشيخ أولى بالنبوة من الشاب. فمن هنا كان الرجل من داخلي المجلس يبادر إلى أبي بكر فيحييه (على أنه هو الرسول).

غير أن أبا بكر كان هو الآخر يبادر برد الرجل إلى الصواب فيعرفه بالرسول صلى الله عليه وسلم (وما من شك في أن بهذا التعريف كان يدخل على مشاعر الرجل مزيد أنس وابتهاج باجتماع ما كان قد تفرق من أحاسيسه قبل ذلك، وبالتالي يزداد حبه للرسول صلى الله عليه وسلم والتعلق به أكثر فأكثر).

وجاء في هذا الخبر أن الحال استمر هكذا يخطئ الداخل ممن لم تكن له معرفة بالرسول صلى الله عليه وسلم، فيبدأ بالسلام على أبي بكر (على أنه الرسول) فيهديه أبو بكر بتعريفه بالرسول. وكان المجلس - طبعا -

في العراء فمال الظل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصابته الشمس فقام أبو بكر فجعل مظلة على الرسول صلى الله عليه وسلم بما وجد من قطاع النسيج هناك (أزدية أو ثيات...) فعند ذلك زال الإيهام الذي كان يوقع الناس في الخطإ ، فكل من دخل المجلس بعد ذلك كان يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء لما يرى من المظلة المميزة له.

وفي تقدير المدة التي أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء اختلاف كثير بين روايات الأخبار ، فمنها ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم نزل بقباء يوم الاثنين فأقام بها إلى ضحى يوم الجمعة الموالي ، فسافر من قباء راكبا نحو داخل المدينة وأدركه وقت الجمعة بالطريق فصلاها بمسجد بني سالم بن عوف ، ثم واصل سيره وحل بالمدينة المنورة في نفس اليوم الذي هو يوم الجمعة.

وقد اعتمد هذه الرواية جمع من المؤلفين ومنهم - فيما يظهر - عامة من ألف في السيرة حديثا ، ولكن وردت أخبار بالإسناد الصحيح المعروف تذكر عن المدة بأنها بضع عشرة ليلة وفي بعض هذه الروايات التصريح بلفظ أربع عشرة ليلة ، و يوجد مع هذا من الروايات ما يفيد أن المدة بلغت اثنين وعشرين يوما.(ومما يلاحظ هنا أن الرواية التي تصرح بأربع عشرة ليلة لا تطابق ما اشتهر من أن الخروج من قباء كان يوم الجمعة وأنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الجمعة في طريقه إلى المدينة و وصلها في نفس اليوم ، وهذا بالنظر إلى المشتهر المتواتر في يوم النزول بقباء وأنه الاثنين).

وإنما يطابق ما في هذه الرواية التي تحدد مدة الإقامة بقباء بأربع عشرة ليلة كون الحلول بقباء أول الأمر كان يوم الجمعة أيضا ، وهذا - كما عرف - مخالف للمعتمد المشهور الذي عين النزول يوم الاثنين ، وكذلك الحال في عدم المطابقة أيضا إذا ما كان الاعتبار بالمشهور في يوم النزول وأنه الاثنين فإنه يقتضي الخروج من قباء يوم الاثنين أيضا ، وهو مخالف

للوارد المشهور من كونه صلى الله عليه وسلم صلى الجمعة يوم خروجه من قباء في طريقه إلى داخل المدينة. وأما الرواية التي جاءت تعبر في الإقامة بقباء ببضع عشرة ليلة فهي أيضا لا تطابق المعروف في يومي النزول والخروج إلا إذا قصد بالبضع عشرة الإحدى عشرة فهذا - فقط - هو المطابق ليوم الاثنين نزولا وليوم الجمعة خروجا.

والرواية التي تذكر عن مدة الإقامة بقباء بأنها اثنان وعشرون يوما هي الأخرى كمثل الروايتين الواردتين بلفظ البضع عشرة والأربع عشرة يرد عليها عدم المطابقة للثابت في يومي النزول والخروج.

ولعل من هذا اعتمد الكثير من مؤلفي المتأخرين الرواية الأولى - ولو خالفتها الروايتان الواردتان في الصحيح فهي تفيد أن الإقامة بقباء كانت أربع ليال أو بضع ليل (بإسقاط لفظ عشرة).

هذا و يرد أيضا على الروايات التي تفيد طول مدة الإقامة بقباء بما يزيد على أربع ليال نقاش وسؤال عن صلاته صلى الله عليه وسلم صلاة الجمعة حال تلك الإقامة لأنه كما لا يخفى على أن الإقامة كانت لبضع عشرة ليلة فإن اليوم الخامس منها هو يوم جمعة وعلى أن الإقامة بلغت اثنتين وعشرين ليلة تكون هذه المدة اشتملت على ثلاث جمع.

فهل أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصل الجمعة مدة إقامته بقباء؟ وإذا كان كذلك فما هو المانع؟ وإذا قيل باحتمال كونه صلى الله عليه وسلم صلى الجمعة أثناء تلك الإقامة - وقد قيل ذلك فعلا (على وجه الحدس) [1] - فلماذا لم ينقل ذلك؟ مع أن المعروف المتداول في الأخبار المعتمدة أن صلاة الجمعة التي صلاها عليه الصلاة والسلام بمسجد بني سالم بن عوف* في طريقه إلى باطن المدينة هي أول صلاة جمعة في الإسلام (أي بإمامته صلى الله عليه وسلم).

[1] الحدس: بفتح الحاء المهملة وإسكان الدال مهملة وآخره سين مهلة هو كالظن تماما وقد تقدم التعليق عليه مستوفي في الدرس السابع والخمسين.

وربما يجاب في مانع الصلاة بقباء بأنه لفقد شرط من شروطها كالمسجد فيرد عليه أن ذلك إنما يتأتى إذا كانت مدة الإقامة يسيرة جدا ، مع أن الوارد المعروف -حتى على القول بأن الإقامة لم تتجاوز أربع ليال- أنه صلى الله عليه وسلم ما خرج من قباء حتى كان المسجد بها قائما ، وأيضا قد أفادت الأخبار أن المسجد بقباء (مطلق لفظ المسجد) كان موجودا قبل مقدم الرسول إليها ، إذ كان ثم جمع من المهاجرين والأنصار يقيمون الصلاة به ويؤمهم **سالم مولى أبي حذيفة**.

وهكذا يبقى ما ورد من الأخبار يفيد طول إقامته صلى الله عليه وسلم بقباء بزيادة عن بضع ليال (أو أربع) على التحديد - محل إشكال من حيث تعيين يوم النزول و يوم الخروج من قباء ومحل توارد تساؤلات عن صلاته صلى الله عليه وسلم صلاة الجمعة طيلة تلك المدة -

فالمخلص من هذا كله إنما هو في مضمون الرواية التي تفيد أن نزوله صلى الله عليه وسلم بقباء كان يوم الاثنين ، وخروجه منها إلى داخل المدينة كان يوم الجمعة الموالي فصلى صلاة الجمعة في الطريق كما سيأتي ذكره. وقد تواردت الأخبار الصحيحة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسس بقاء مدة إقامته بها مسجدها المعروف "بمسجد قباء" و أنه عليه الصلاة والسلام صلى فيه جماعة بمن كان بالمكان من الصحابة ، ويعرف من هذا أن أول مسجد-على الإطلاق- أسس على يد الرسول صلى الله عليه وسلم هو مسجد قباء هذا.

ولهذا فيظهر أن الجمهور من أئمة العلم يذهبون إلى أن ما جاء في الآية القرآنية من سورة "التوبة" في قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ، أنه مراد به مسجد قباء. وإن وردت أخبار تدل على أن ما في الآية مراد به مسجد المدينة (المسجد النبوي المؤسس على يد الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك).

ولهذا جاء لبعض الأئمة القول بأن ما في الآية يصدق على كلا المسجدين بالسواء.

ومن الأخبار الواردة عن تأسيس مسجد قباء على يد الرسول صلى الله عليه وسلم الرواية الواردة عن الشموس[1] بنت النعمان قالت: " نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم قباء وأسس مسجدها يأخذ الحجر أو الصخرة بيده حتى يهصره[2] الحجر (وفي لفظ آخر: يأخذ الحجر قد صهره[3] إلى بطنه)، فيلقاه الرجل من أصحابه فيقال له بأبي أنت وأمي يارسول الله أعطني أكفك! فيقول الرسول: " لا! خذ مثله ".

ومما تواردت به الأخبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد سكناه المدينة واستقراره بها، كان يتعهد مسجد قباء فيأتيه تارة راكبا وتارة مشيا فيصلي فيه.

وتفيد تلك الروايات أنه كان يزور مسجد قباء كل يوم سبت. ومن الروايات هنا الرواية التي تذكر أنه لما نزلت الآية من سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قباء وتحدث مع الجماعة الذين كانوا رواد هذا المسجد (مسجد قباء)

---

(1) الشموس: بفتح الشين المعجمة.

(2) يهصره: بتقديم الهاء ثم الصاد المهملة وآخره راء، والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع والمصدر الهصر بفتح فسكون وهو متعد للمفعول فمعناه إمالة الشيء، يقال هصر الغصن إذا أماله وعطفه إلى جانب، وهكذا يرى حامل الثقيل يميل وينعطف إلى الجانب المقابل.

(3) صهره: بتقديم الصاد المهملة ثم هاء ثم الراء في الأخير، والفعل منه مفتوح في الماضي والمضارع والمصدر بفتح فسكون، وهو متعد كذلك ومعناه على إطلاقات متعددة ومنها وهو المناسب هنا التقريب والإلصاق للشيء بغيره. فمعنى صهره إلى بطنه أدناه وألصقه ببطنه. وجاءت رواية الشموس بنت النعمان هذه من طريق آخر بلفظ فيه مغايرة لمعنى ما تقدم في بعض الجمل حيث تقول: " كان الرسول يأتي بالحجر قد صهره إلى بطنه فيضعه فيأتي الرجل من الصحابة يريد رفع ذلك الحجر فلا يستطيع حتى يقول له الرسول: " دعه وخذ غيره ". فهذا يفيد خاصية الرسول صلى الله عليه وسلم بحمل الحجارة الثقيلة.

وأخبرهم خبر الآية المذكورة وسألهم: " ما هذا الطهور الذي أثنى الله تعالى به عليكم ؟ " فأجابوا أنهم يعقبون الاستحمار بالحجر بالاستنجاء بالماء وأنهم لا ينامون على جنابة. فقال: " هو هذا ".

والوارد في عموم الأخبار عن خروجه صلى الله عليه وسلم من قباء قاصدا المقر بالمدينة المنورة أن ذلك كان ضحوة يوم جمعة ، فركب صلى الله عليه وسلم ناقته [مما جاء من الروايات هنا أنه عندما تهيأ الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج من قباء بلغ الخبر إلى قبيلة **بني النجار*** أخوال جده عبد المطلب بداخل المدينة فقدم منهم جمع شاهرين السيوف لتشييع ركبه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة] وتجمعت جموع الناس تشايع ركبه ما بين راكب وراجل وهم يتنازعون زمام ناقته ويتسابقون لذلك ، وتعلق به صلى الله عليه وسلم الكبراء والزعماء من حيّ **بني عمرو بن عوف*** فقالوا له: " يا رسول الله! أخرجت ملأ لأ لنا ، أو تريد دارا خيرا من ديارنا ؟ " فأجابهم عليه الصلاة والسلام بما لاطفهم به وأقنعهم بما قال لهم: " إني أمرت بقرية تأكل **القرى**[1] ". وسار ركب الرسول صلى الله عليه وسلم وسط جموع الناس التي كانت تحف به حتى وصل حيّ بني **سالم بن عوف*** وهم فرع من قبيلة الخزرج وكان وقت الظهر قد حلّ فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم بالمكان حيث صلى صلاة الجمعة بمن كان من الصحابة معه بمسجد بني سالم المذكورين وهو اقع في بطن وادي **رانونا*** ويقع على يمين [2] القاصد قباء ، وقد عرف هذا المسجد باسم

(1) القرية التي تأكل القرى أي المدينة المنورة. وقد جاء في تفسير هذه العبارة النبوية وجوه من التأويل وإن كان المعنى الإجمالي منها ظاهرا غاية الظهور. وفي أول ما يتبادر للفهم من تلك الوجوه مسألة الظهور على غيرها من أماكن المعارضين للدعوة حتى بلغ الأمر إلى مدائن الملوك من الأكاسرة والقياصرة.

(2) وادي رانونا: براء ممدودة بالفتح ثم نون مضمومة ممدودة ثم نون ممدودة بالفتح وهو غربي جنوب المدينة.

"مسجد الجمعة"[1]. والأخبار متواترة على أن هذه الصلاة هي أول صلاة جمعة كانت في الإسلام بمعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان هو الإمام بها ، لأن المعروف من الأخبار يذكر أن الصحابة بالمدينة المنورة كانوا يقيمون صلاة الجمعة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي لما ذكر فإن أول خطبة خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم في الإسلام هي خطبة صلاة الجمعة الواقعة في مسجد بني سالم بن عوف.

وقد تناقلت الأخبار نص هذه الخطبة فأوردتها بعض الروايات بتمامها ابتداء وانتهاءًا ، وأوردت روايات أخرى بعض فقرات منها اقتصارا على ذلك ، ويوجد في هذا النقل -طبعا -بعض تغاير في صيغ الألفاظ والجمل.

والذي نقله أكثر مؤلفي السيرة هو الجمل الآتية: قوله صلى الله عليه وسلم: "فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزئ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة". وقوله في ختام الخطبة: " والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته ". وفي لفظ آخر من الروايات أنه قال في الختام: " والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ".والمفهوم من عموم الأخبار الواردة هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم في سيره هذا إلى داخل المدينة ، كان يجدّ السير فإنه لم يلبث بعد صلاة الجمعة في جامع بني سالم بن عوف أن ركب ناقته يريد المقر المقدر له من القدر الإلهي أن يستقر به من أمكنة المدينة المنورة. وأردف صاحبه أبا بكر معه تكريما له وتشريفا ، وإلاّ فإن أبا بكر كانت له راحلته الخاصة التي هاجر عليها. وكان من زعماء بني سالم بن عوف نحوه صلى الله عليه وسلم ما كان قبل ذلك من زعماء بني عمرو بن عوف حين خرج من قباء ، فتعلق به صلى الله عليه وسلم من زعماء بني سالم **عتبان ابن مالك***

[1] يقع مسجد الجمعة على يمين القادم من المدينة إلى قباء بحسب الطريق القديم الذي ذكره المؤلفون القدامى. و قد حدث لقباء طريق آخر غربي الطريق القديم فيكون مسجد الجمعة بالنسبة لقاصد قباء من المدينة على اليسار في هذا الطريق الغربي.

ونوفل بن عبد الله* بن مالك بن العجلان **وعبادة بن الصامت*** يقولون: "يارسول الله أقم فينا فإن فينا العدد والعدة **والحلقة**[1] فنحن كذا... ونحن كذا..." ويذكرون ما يتميزون به من مناعة وقوة ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقابل ذلك منهم بالملاطفة والدعاء بالخير والبركة ويقول لهم: " خلّوا سبيلها فإنها مأمورة " لناقته التي كان يركبها (وهي المعروفة باسم **القصواء**)[2]. ولماّ ركب صلى الله عليه وسلم من بني سالم أرخى لناقته **زمامها**[3] وتركها تسير على هدى ما تلهم إليه.

وقد أطبقت روايات الأخبار وأجمعت على أن هذا اليوم الذي كان فيه مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة حيث كان نزوله الأخير من سفره في هجرته الشريفة كان يوما فذا وفريدا في جلال الروعة التي كسته ، والاحتفال النادر المثال في البهجة الذي قوبل به ركبه في دخول ديار المدينة المنورة.

فمن ذلك أن ديار الأنصار التي كان يمر بها الركب كانت كلها مفتحة الأبواب ، وحشود الناس تكتظ بها سكك المدينة وقد اصطف زعماء كل قبيلة حذو منزلهم ينتظرون وصول الركب نحوهم فيتعلقون به في حماس

---

(1) الحلقة: بكسر الحاء المهملة وإسكان اللام ثم القاف كان يطلق هذا الاسم على عموم آلات القتال والأسلحة وربما خص تارة بالدروع.

(2) القصواء: وصف من القصو بفتح فسكون آخره واو وهو القطع والفعل منه مضموم المضارع (يقصو)وهو وصف للناقة إذا كانت مقطوعة الأذن بقدر قليل. والذي جاء مثبتا في الأخبار أن ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم القصواء هذه لم يكن بها شيء من القطع ، وإنما هو مجرد لقب لفظي لقبت به. والقصواء هي أشهر ما جاء في مركوب الرسول صلى الله عليه وسلم من النوق وهي التي هاجر عليها. وقد جاء في ذكر نوقه عليه الصلاة والسلام اسم "الجدعاء" و"العضباء" فقيل هي ثلاث وقيل هما اثنتان القصواء والجدعاء ، والعضباء لقب للثانية. وصحح البعض بأن الألقاب الثلاثة لواحدة هي القصواء المعروفة. والألقاب الثلاثة كلها لفظية. "الجدعاء": بالجيم والدال المهملة هي مقطوعة الأنف أو لكامل الأذن. "العضباء" بالعين المهملة والضاد المعجمة مشقوقة الأذن.

(3) الزمام: بكسر الزاي ثم ميم مخففة ممدودة بالفتح وآخره ميم هو المقود الذي تقاد به الناقة.

متدفق يناشدونه في استعطاف أن ينزل عندهم ولا يتجاوزهم. و قد امتلأت **الأجاجير**[1] و سطوح المنازل والآطام بمن اعتلاها من النسوة و ربات الخدور المحجبات وكانت أمواج الخلائق التي غمرت طرق البلد من مختلف الأسنان والطبقات من الخدم والصبيان وغيرهم تتعالى منها في مختلف الجهات صرخات الهتاف بعبارات الترحيب والتكريم والإكبار **والإعجاب**[2] فكان ثم هتاف: " الله أكبر!"و هتاف " جاء رسول الله!" وهتاف: "جاء محمد!" وكان مع هذا من **الولائد**[3] فرق الأناشيد و دق الدفوف. وحبرت ألعاب فروسية بالحراب من فرقها المختصة.

وكان الركب النبوّي وسط الموكب الحاشد الذي يحف به يسير على قيادة الناقة التي أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم لها الزمام، فكانت وسط تلك الحشود تسير سيرها وتلتفت يمينا وشمالا من دون ما حادت عن خطها السويّ حتى المكان الذي بركت فيه (مكان المسجد الشريف).

وقد جاءت الأخبار الصحيحة المعتمدة متظافرة على صورة مسير الرسول صلى الله عليه وسلم في مدخله إلى باطن المدينة المنورة منطلقا من قباء حتى مبرك الناقة به في مكان المسجد، فإنه صلى الله عليه وسلم أطلق للناقة زمامها تسير على هداها وما يلهمها إليه خالقها.

---

(1) الأجاجير: صيغة جمع واحدها الأجار. وجاء ضبطه بكسر الهمزة وتشديد الجيم مفتوحة بالمد وآخره راء وهو نفس السطح يبنى فوق البيت. ومأخذ الكلمة من الأجر الذي هو الطين المطبوخ.

(2) الإعجاب: عبرة شامخة القدر وموعظة سامية الخطر في المقابلة بين ظروف مخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة في هجرته. ومدخله المدينة ومابين الخروج والدخول من الزمن إلاّ بضعة عشر يوما وما بين المكانين إلاّ بضع مآت من الأميال فأين ظرف الخروج الذي كان يكسوه جو التعرض للأخطار والتوقع من الأضرار والتدرع بالتجافي عن العمران والتستر بظلام الليل والتواري في الغار؟ أين ذلك من ظرف الدخول الذي كان فيه الأمن في أوج اعتزازه والنور في تزايد إشراقه والآلاف المؤلفة تستقبل بالمودة والسرور وتبتهج بالتلاقي في غبطة وحبور وكلها أعين ترنو بإجلال وإكرام وألسنة تهتف بموالاة وإكبار........؟

(3) الولائد: جمع للمؤنث مفرده الوليدة ويطلق على الصبيان من الإناث كما يطلق على الخدم والمماليك من الإناث.

فنزل صلى الله عليه وسلم بحيّ بني سالم بن عوف حيث أدى صلاة الجمعة و واصل السير بعد ذلك إلى داخل المدينة.[تقدم غير ما مرة في التعليق على تقييد هذه الدروس التنبيه إلى ما في هذه الروايات الإخبارية من أخبار يتعين مقابلتها بالاحتراز والتحفظ ، ومن هذا ما جاء في روايات هذا السياق الخاص بمدخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة في هجرته إليها وهي رواية خبر لم يذكره الكافة ممن ألف في السيرة وفيما وقع اطلاعنا عليه من المصادر لم توجد هذه الرواية إلا فيما ذكره نور الدين" السمهودي " في كتابه «وفاء الوفاء». وإلا فيما أشار إليه نور الدين الحلبي في كتابه السيرة الحلبية.... وحاصل ما تذكره هذه الرواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أقلع ركبه من بني سالم بن عوف بعد أن صلى بالمكان صلاة الجمعة عدل عن الطريق إلى اليمين حتى جاء حيّ **بني الحبلي** * وهم قوم **عبد الله بن أُبيّ ابن سلول** * وكان إذ ذلك ابن سلول جالسًا محتبيًا عند الأطم الذي هو له ويسمى أطم مزاحم.فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل على ابن سلول. فلما رآه ابن سلول قال له: " اذهب فانزل على الذين دعوك " ، فقال **سعد ابن عبادة** * للرسول صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله لا تجد في نفسك من قوله فإن أهل هذه البحيرة كانوا قد أجمعوا على أن يتوجوه ملكا عليهم ، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذي جئت أنت به شرق الرجل لذلك ". وجاء في لفظ آخر من هذه الرواية زيادة في مقال سعد بن عبادة بقوله: " وهذه داري يا رسول الله فانزل بها". ومقتضى طبيعة الحال على هذا أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم بعد اتصاله بابن سلول هذا رجع إلى طريقه و واصل سيره ، فمرّ بالجموع من الأنصار الذين كانوا يدعونه إلى النزول عندهم حتى بركت به الناقة في مربد بني مالك بن النجار.

هكذا أقحمت هذه القصة في سياق أجنبي عنها ، فلم ينسجم معها ووضعت بسذاجة خالية من الحذق يتفطن لها المغفل ويدركها الغبيّ

ولفقت بما هو مسروق من مواضعه الأصلية. وما يدرك بالبداهة للجميع أنه عند المقابلة بين ما جاء في هذه القصة وما ورد في حديث الهجرة المعنى به الفصل المتضمن ركوبه صلى الله عليه وسلم من قباء يريد المدينة حتى نزوله بدار أبي أيوب.

كل مما جاء من ذلك على اختلاف رواياته وصيغ عباراته يتبين بالوضوح التام ما بين الجانبين من التناقض والتنافي إلى حد استحالة الجمع بينهما ، بل عند استعراض السياق العام لأخبار هذا الفصل من السيرة فإن من يتأمله فقرة فقرة يظهر له أنه لا تكاد توجد فقرة واحدة منه تخلو من دلالة على بطلان هذه القصة السلوكية وتكذيبها ، هذا من حيث الأثر. وإما عند الرجوع إلى النظر فالأمر أدهى وأمرّ ، والخطب فيها بلغ الخطر ، فكيف يعقل ردّ الرسول صلى الله عليه وسلم على حماس تلك الجماهير الغفيرة في دعوتهم للنزول عليهم بما أقنعهم به من أن الأمر ليس بيده وأن الناقة مأمورة (وليس بأمره هو صلى الله عليه وسلم) ، ثم يخالف إلى كل ذلك و يريد النزول على ابن سلول ؟ والحقيقة التي يتعين الأخذ بها في هذا الموضوع هي أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنّما كان في مسيره إلى داخل المدينة ينتظر مكان النزول من الوحي الإلهي ولم يرد النزول على ابن سلول ولا على غير ابن سلول ، وأن عدوله في الطريق إلى ذات اليمين إنما كان ذلك عند وصوله إلى الحرة في مقدمه من مكة ، واستقبله الفوج الأول من أهالي المدينة فكان المعتقد أن يواصل سيره إلى داخل المدينة ، فإذا به يعدل ذات اليمين لينزل بقباء على بني عمرو بن عوف ، وإن مقال سعد بن عبادة الذي أبداه للرسول صلى الله عليه وسلم في شأن ابن سلول إنما كان هذا في واقعة أخرى بعد سكنى الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة بمدة تزيد على العام بشهور. والرواية المختارة من روايات هذه الواقعة الأكثر ضبطا هي التي تفيد أنه في أيام ما قبل غزوة بدر بقليل بلغ مسمع الرسول صلى الله عليه وسلم مرض **سعد بن عبادة*** الذي كان

مسكنه خارج المدينة فركب الرسول صلى الله عليه وسلم حمارا وأردف معه **أسامة بن زيد بن حارثة*** مولاه يريد عيادة سعد المذكور وحيث كان منزل **ابن سلول*** يحاذي الطريق فإن البعض من الصحابة ممن كان له حرص على إسلام ابن سلول لما له من الأتباع الذين يدخلون في الإسلام إذا ما أسلم فأقترح هذا البعض على الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له: «يا رسول الله لو عرجت على مجلس عبد الله إبن أبيّ ابن سلول فدعوته للإسلام فلعل الله يهديه».وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الاقتراح حيث كان لا يألوا جهدا في تبليغ الدعوة.

فلما نزل صلى الله عليه وسلم على مجلس ابن سلول سلّم وشرع يتكلم في القوم الحاضرين الذين كانوا أخلاطا بين مسلمين ومشركين ومنهم ابن سلول و يهود و ربما كان المنافقون أيضا. وتكلم الرسول كالمعهود منه في تبليغ دعوة الإسلام. و قام بعد ذلك ابن سلول بالردّ على الرسول صلى الله عليه وسلم في مقال كان ظاهره لا يخلو من التحفظ ولكنه مع ذلك كان فيه سوء أدب وجفاء بالنسبة لمقام الرسول صلى الله عليه وسلم. فقام من المسلمين من ردّ على مقال ابن سلول وذكر منهم عبد الله ابن رواحة وأعقب هذا - طبعا - تراشق بالكلمات بين فريق المسلمين من جهة وغير المسلمين من الجهة الأخرى ، فآل الأمر إلى معركة لم ينقصها إلاّ استخدام السلاح وأبى الرسول صلى الله عليه وسلم إلاّ أن يهدئ الفتنة فمازال يهدئ القوم حتى سكنت ثائرتهم ، وعند ذلك ركب صلى الله عليه وسلم مركوبه و واصل سيره حتى منزل سعد بن عبادة. وفي الرواية هنا لفظان الأول يقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي أبدى الأمر لسعد وشكى ابن سلول واللفظ الآخر يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذكر الحادث بل أن سعدا هو الذي توسم في ملامح وجه الرسول صلى الله عليه وسلم أثرا أنكره فسأله يقول: " إني أرى في وجهك شيئا كرهته فهل هناك من حادث ؟ ".فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بالحادث.

فعند ذلك قال سعد مقاله في شأن ابن سلول من أنه متوتر ينبغي الإعراض عما يصدر منه.

والذين تعرضوا لذكر حادثة ابن سلول هذه التي جاء فيها مقال سعد بن عبادة المذكور من مؤلفي السيرة أدرجوها في باب مواقف اليهود والمنافقين نحو الرسول صلى الله عليه وسلم فهي مبسوطة في مكانها ذلك تمام البسط بعرض نص مقال ابن سلول الذي أساء به الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم وما ردّ به عليه إبن رواحة وغيره. ومحل هذا من تقييد هذه الدروس هو الدرس الحادي والتسعون ، فقصة ابن سلول هذه بما فيها من مقال سعد ابن عبادة بوضعها في فصل مدخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة في الهجرة إذا كان المراد منها - كما هو الظاهر - مجرد تعداد هنات ابن سلول على سبيل التكديس ، فإن ما جاء في الصحاح من بوائق هذا الرجل فيه الكفاية. أما يوم دخول الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة في هجرته المباركة إليها فابن سلول لم يكن في ذلك اليوم إلاّ مغمورا لا يسمع له حس ولا يرفع له ذكر ولعل أن يكون كل ما في هذه القصة من صدق هو الكلمات الثلاث في تصوير حال ابن سلول بأنه كان جالسا محتبيا عند أطم له ، فربما يكون - والعلم لله - الرجل كذلك إبان دخول موكب الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة ؟ ؟ ؟ وإذا كان الإمام **نور الدين السمهودي*** رحمه الله قد تعقب ما في هذه القصة عندما ساقها بمجرد قوله: الذي في الصحيح مقال سعد إنما كان في قصة عيادة الرسول له في مرضه بعد سكناه صلى الله عليه وسلم بالمدينة. فالمتمنّى أن لو محص التمحيص الكافي هذه القصة كل من أوردها].

وقد تقدم ذكر ما حاوله بنو سالم من النزول عندهم والمقام بمحلتهم فأجابهم صلى الله عليه وسلم بما أقنعهم به وسلاهم ولاطفهم وشكر لهم وقال لهم عن الناقة التي تحمله: " خلوا سبيلها فإنها مأمورة ". وكان بعد بني سالم منازل **بني بياضة*** ، فلما وصل الركب محلتهم وكانوا في انتظاره

والأمل يحدوهم أن يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم النزول عندهم فاعترضوا الركب وكان في المقدمة منهم طبعا زعماؤهم و وجهاؤهم ، وجاء تعيين **زياد بن لبيد***و **فروة بن عمرو*** من زعمائهم فناشدوه صلى الله عليه وسلم بمثل ما تقدم عن بني سالم ، فكان جوابه عليه الصلاة والسلام هو نفس ما تقدم مع من قبلهم يبارك ويشكر متبسما ويقول: " خلّوا سبيلها فإنها مأمورة ".

ثم بلغ الركب حيّ **بني ساعدة***فهب[1] إليه زعماؤهم وعين منهم **سعد بن عبادة*** الذي كان يعرف بسيد قبيلة الخزرج المرموق **والمنذر بن عمرو*** و **أبو دجانة***. فكان منهم ما كان من **النشدة**[2] والمحاولة والاستعطاف لينزل عليهم إذْ كان الطمع في هذه الأمنية من كافة قبائل الأنصار مستحكما في قلوبهم والأمل فيها بالغ التمكن من نفوسهم لا يألون جهدا في استعمال أقصى ما لهم من طاقة توسلا للحصول عليها حتى يقنعهم جواب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك الجواب الذي يعرفون به أن الأمر فيما يتعلق بالمنزل والمقام ليس بيد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا هو من متعلقات إرادته وتصرفه ، وإنما هو للوحيّ السماوي المنتظر منه تعيين المكان بوقوف الناقة التي كانت تسير على هداها.

وهكذا فبعد بني ساعدة وصل الركب إلى حيّ **بني الحارث بن الخزرج*** فاعترضه الزعماء والوجهاء منهم وعين منهم أسماء **سعد بن الربيع*** و **عبد الله بن رواحة*** و **بشير بن سعد***و**خارجة بن زيد***.فكان

---

(1) هبّ: بالهاء وتضعيف الباء الموحدة فعل له معان عدة. فإذا كان -كما هنا- معناه النشاط والإسراع إلى الفعل فهو مكسور في المضارع ومصدره الهبّ بفتح الهاء

(2) النشدة: بكسر النون وإسكان الشين المعجمة ثم دال مهملة وفي آخره تاء التأنيث. الفعل منه مفتوح في الماضي مضموم في المضارع ويكسر أيضا ، والمصدر النشد بفتح فسكون والنشدان ومعناه هنا يرجع إلى الطلب الملح وهو في معنى القسم ويتعدى الفعل فيه إلى مفعولين ويستعمل من باب المفاعلة فيقال نشده كذا وناشده أن يفعل وأن لا يفعل فكأن الناشد يقسم على المنشود أن يقبل طلبه.

منهم مثل ما كان ممن قبلهم من التوسل إليه صلى الله عليه وسلم لينزل عليهم وكان الجواب منه كذي قبل: " خلّوا سبيلها فإنها مأمورة ".

وبعد بني الحارث هؤلاء وصل الركب حيّ **بني عديّ بن النجار** * ، وهذه الفرقة من الأنصار هي فرقة **سلمى بنت عمرو** *أم عبد المطلب جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم (كما تقدم ذكره في فصل ترجمة أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم).

فالتف بالركب سكان هذا الحيّ وتقدم منهم الزعماء والكبراء الذين جاء تعيين أسماء البعض منهم **كأبي سليط**[1] و **صرمة**[2] **ابن أبي أنيس** و **سليط**[3] **بن قيس** ، فتعلقوا به عليه الصلاة والسلام وكان لهذه الفرقة من الأنصار مزيد رجاء وأمل لنزول الرسول صلى الله عليه وسلم عندهم بما أنهم ذَوُو مزية زائدة لكونهم كأخوال له عليه الصلاة والسلام. ولذلك فقد كان منهم الحوار الطويل معه صلى الله عليه وسلم. فجاء من جملة مقالهم له صلى الله عليه وسلم بعد ما عدّوا ما لهم من منعة وقوة وثروة أن قالوا: "ولنا زيادة القرابة فنحن أخوالك لا تجاوزنا لغيرنا - يا رسول الله - فليس أحد من القوم أولى بك منا "...الخ.

وهكذا لم يكن له صلى الله عليه وسلم ليقنعهم إلاَّ بما تقدم مما يقنع الجميع ويخضع له الكافة ألاَ وهو كون الأمر مرجعه إلى الوحي. فكانت الكلمة الفاصلة في النهاية: " خلوا سبيلها فإنها مأمورة ".

---

(1) أبو سليط: بفتح السين المهملة وكسر اللام ممدودة ثم طاء مهملة ، وجاء أن اسمه أُسَيْرة بصيغة التصغير بضم الهمزة وفتح السين المهملة وإسكان الياءالمثناة التحتية ثم راء وآخره تاء التأنيث اللفظي.

(2) صرمة: بكسر الصاد المهملة وإسكان الراء ثم ميم وتاء التأنيث. "وأنَيْس" بصيغة التصغير مضموم الهمزة وفتح النون ثم ياء مثناة تحتية وآخره سين مهملة.

(3) سليط بن قيس: ضبط سليط كالأول.

وقد جاء في موضع آخر في تعداد زعماء بني عدّي اسم أبي صرمة قيس ممن شهد المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبعد بني عديّ بن النجار وصل الركب حيّ اخوتهم **بني مازن بن النجار*** فكان الشأن معهم كما كان مع من قبلهم تماما.

وكان الحيّ الذي يلي منازل بني مازن هو حيّ **بني مالك بن النجار***، فهي ثلاثة أحياء لفرق ثلاث كلها إخوة من بني النجار. فتهيأ الجمهور من فرقة بني مالك بن النجار هؤلاء ينتظرون الركب بعدما فصل من حيّ بني مازن وكان الركب النبوي يشايعه من حين إقلاعه من قباء الجماهير العديدة وفيها الجميع من المهاجرين الذين كانوا هاجروا إلى المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ويتزايد عدد الموكب بمن يمرّ عليهم من ديار الأنصار والكل في انتظار مكان النزول أين يقع...؟

فلما طلع الركب على ديار بني مالك و **رمقته**[1] الأعين **وهشت**[2] له النفوس فكان في مقدمة اقتباله الزعماء. جاء تعيين أسماء **أسعد بن زرارة*** **وأبي أيوب*** **وعمارة بن حزم*** **وحارثة بن النعمان*** منهم، فتعالت الأصوات بالترحيب وتقديم العرض - كما كان ممن قبلهم: "إلينا يا رسول الله!" وأقبلت الناقة بالرسول صلى الله عليه وسلم تسير بين ديار بني مالك حتى وصلت المكان الذي كان عندهم يعرف **بالمربد**[3]، فبركت به **وتريث**[4] الرسول صلى الله عليه وسلم فلم ينزل عنها. وهنا حدث ما حدث من جوّ السرور

---

(1) رمق: بالراء والميم والقاف، والفعل الماضي منه مفتوح والمضارع مضموم والمصدر الرمق بفتح فسكون معناه المراد هنا إطالة النظر.

(2) هشت: هش بالهاء وتضعيف الشين المعجمة ويأتي الفعل المضارع منه مفتوحا ومكسورا والمصدر الهش بالفتح والهشاشة بفتح الهاء وتخفيف الشين والمعنى فيه على العموم هو اللبونة والخفة والرخاوة وما يرجع إلى هذا المعنى والمراد هنا الارتياح والانبساط يقال هش له وهش به أي ارتاح له وانبسط.

(3) المربد: بالراء والباء الموحدة آخره دال مهملة وهو هنا بكسر الميم وإسكان الراء وفتح الباء بوزن منبر جاء أنه فضاء معدّ لحبس الإبل وغيرها من المواشي وكذلك يستعمل لتجفيف الثمر.

(4) تريث: من باب التفعل والفعل منه مضارعا مكسور يقال راث يريث والمصدر الريث بفتح فسكون ومعناه الإبطال والتمهل فمعنى تريث تمهل ولم يسرع.

والاستبشار في أوساط بني مالك بن النجار ثم أن الناقة لم تلبث أن نهضت. ويذكر في الرواية أنها نهضت كأنها **مذعورة**[1]. فسارت طريقها ويظهر أنها في سيرها هذا أخذت وجهة الشرق الجنوبي فذكر في الرواية أنه عند هذا انقلب الحال عند بني مالك - كأنه نكسة عظيمة- فاستاءوا لذلك أيّما استياء وأخذ الرجال منهم يسيرون بجانبي الناقة يعدون **عدوا**[2] مشايعين لها. فسارت الناقة سيرها الثاني لمسافة لا تتجاوز البضع من عشرات الأذرع وبركت مبركها الثاني والرسول صلى الله عليه وسلم عليها في حالة تريث وانتظار مرسل لها الزمام، والتفتت الناقة في مبركها الثاني تنظر خلفها ثم نهضت مسرعة راجعة **أدراجها**[3] في نفس الخط حتى مبركها الأول فبركت به ثانيا، **وأرزمت**[4]

---

(1) مذعورة: من الذعر بضم الذال المعجمة وإسكان العين المهملة وآخره راء وهو الخوف والفزع. والفعل المعلوم منه مفتوح ماضيا ومضارعا ومصدره الذرع بفتح فسكون وهو متعد للمفعول فيقال ذعره، وجاء في لفظ آخر من هذه الرواية أن الناقة عند ما ثارت من مبركها الأول كانت كالمذعورة وهي ترجّع الحنين.

(2) عدوا: العدو من مادة العين المهملة والدال المهملة وآخره حرف علة وهي مادة تسع عدة معان في اللغة. والعدو المراد هنا بفتح العين وسكون الدال وآخره واو هو مصدر للفعل الماضي عدا والمضارع يعدو ومعناه أقصى السرعة في المشي.

(3) أدراجها: جمع درج بفتح الدال المهملة وفتح الراء وآخره جيم وتسكن الراء أيضا وهو الطريق. وهذه العبارة تستعمل في القادم من طريق ثم يرجع في نفس الطريق يقال رجع أدراجه ورجعوا أدراجهم كما يقال رجع طريقه. فالأدراج منصوب على الظرفية فكأنه قيل رجع في طريقه.

(4) أرزمت الناقة: بمعنى صوتت من غير أن تفتح فاها، فهو صوت داخل جوفها ويطلق عليه اسم الحنين وهو بتقديم الراء ثم الزاي ثم الميم، والفعل منه مفتوح ماضيا ومضموم مضارعا والمصدر الرزم بفتح فسكون ومعناه على العموم يرجع إلى جمع الشيء وضمه إلى بعضه البعض. فإذاأسند إلى الناقة كما هو هنا استعمل مزيدا بالهمزة فيفيد سماع الصوت مضموما إلى داخل الجوف. هذا ما يستفاد من مصادر عدة في متن اللغة لمعنى هذه المادة. وقد رسم الفعل المذكور في كل من نسختي السيرة الحلبية والسيرة النبوية الموضوعة بهامش الحلبية في الطبعة الأولى المؤرخة بسنة عشرين وثلاثمائة وألف هجرية بالمطبعة الأزهرية المصرية هكذا: "أزرمت" بتقديم الزاي على الراء وما من شك في أنه تصحيف في النسخ ولا يفيد أي معنى هنا لأن مادة "زرم" بتقديم الزاي معناها على العموم هو القطع والفعل منها متعد للمفعول يفتح ماضيا ويكسر مضارعا ومصدره الزرم بفتح فسكون ويستعمل مزيدا بالهمزة فيقال أزرمه بمعنى قطعه أو قطع عليه كذا...

وألقت بجرانها[1] على الأرض (علامة الركون وإشارة الاستقرار).

نقل عن بعض الأئمة من التعليق على ما جاء من بروك الناقة بالمكانين أن هذا إشارة إلى منزله صلى الله عليه وسلم حيّا وميّتا على أن المكان الأول هو محل منبره صلى الله عليه وسلم، والمكان الثاني هو حجرته صلى الله عليه وسلم حيث دفن وهي حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وجاء من الروايات في بروك الناقة مبركها الأخير الذي استقرت به وهو محل المنبر أنه عند هذا نزل صلى الله عليه وسلم عنها وهو يقول: " ربّ أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين "، قال هذا أربع مرات.

وتغير حاله صلى الله عليه وسلم إلى ما هو معتاد منه عند تلقيه الوحيَ ثم بعد ما سُرِيَ[2] عنه قال صلى الله عليه وسلم: " هذا إن شاء الله يكون المنزل "، وهنا تقدم **أبو أيوب** * الأنصاري فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله إن منزلي هو أقرب المنازل فأذن لي أن أنقل رحلك." فأنعم له الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فأخذ أبو أيوب رحله

---

(1) الجران: بكسر الجيم ثم الراء ممدودة بالفتح وآخره نون هو باطن عنق البعير من المذبح إلى المنحر. وقد جاء هنا أن الناقة عندما بركت مبركها الأخير تجلجلت* بالجيم ثم اللام مكررا رباعيا وفسره من ذكره بمعنى ارتعدت واضطربت، وجاء رسم الفعل في مصادر أخرى بالحاء المهملة واللام مكررا كذلك " تحلحلت "* وهو قريب من معنى ما بالجيم، فتحلحلت بالحاء بمعنى تحركت وتزحزحت في المكان، والذي يظهر أنه بعيد من المعنى هنا هو ما جاء في بعض النسخ من رسم الفعل بلفظ «تحلجت» بالحاء المهملة ثم اللام ثم الجيم فلعل أن يكون هذا تصحيفا. فالمعنى المراد على الجملة أن الناقة عند بروكها أخذت تمكن أعضاءها من الموضع لتستقر به. فقد جاء في بعض الروايات زيادة عبارة فبركت وعدلت ثفناتها*أي سوت ثفناتها، جمع ثفنة بفتح الثاء المثلثة وكسر الفاء وآخره نون. وقد جاء في تعريف "الثفنات" من البعير أنها أطراف أعضائه التي تقع على الأرض عندما يبرك وأول ما يظهر من ذلك الركبتان.

(2) سري عنه: بضم السين المهملة وكسر الراء ثم ياء مثناة تحتية مخففة وهو فعل ماض مبني للمجهول يستعمل بتخفيف الراء وبتشديدها، جملة تستعمل هكذا بالبناء للمجهول اكتفاء بالجار والمجرور بعدها، ومعناها انكشاف ما كان أصاب المخبر عنه و زواله من مثل الخوف والغضب وغير ذلك من الأعراض العابرة التي تثقل على صاحبها.

صلى الله عليه وسلم فأدخله منزله[تبدو هنا ملاحظة في حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما سوى فيه بين عنصري الأنصار الأوس والخزرج من التنافس بينهما في المكارم والمفاخر ومن ذلك نزوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة الذي يعتبر نزول ضيافة قبل اتخاذه صلى الله عليه وسلم منزله الخاص به ، فإنه صلى الله عليه وسلم في أول ما حل ركبه بظاهر الحرة حول المدينة واستقبله أول فوج من أهاليها وكان من طبع الحال أن يتابع سيره إلى داخل المدينة فإذا به يعدل إلى ذات اليمين للنزول بقباء فكان هذا النزول على فرقة من الأوس لعدة أيام ثم لما دخل عليه الصلاة والسلام باطن المدينة كان نزوله على بني النجار وهم فرقة من الخزرج ، ولو لم ينزل بقباء لفات الأوس حظهم من تكريمه صلى الله عليه وسلم بالنزول عليهم ، وفي ذلك ما فيه من غضاضة عليهم أو على الأقل تفوق الخزرج عليهم بتلك المزية. فللّه ما لهذا الرسول الكريم من الخلق العظيم والتصرف الحكيم ، فعليه وعلى آله من الرب الرحيم أفضل الصلاة و أزكى التسليم].

هذه إحدى الروايات في هذا المحل وتوجد فيه عدة روايات بتغاير بينها في تصوير الواقع - فمن ذلك أن أبا أيوب بادر في أول ما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الناقة فحمل الرحل إلى منزله ثم قال للرسول صلى الله عليه وسلم: « إن رحلك بمنزلي قد أخذته فهيًّا إلى المنزل ". فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بما ذهب مثلا حيث قال: " نعم! المرء مع رحله ".

وتوجد صيغ أخرى في الموضوع حتى ورد أن أبا أيوب لم يكن ليحصل على نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزله إلاّ بحكم القرعة حيث نازعه الجماعة الذين مساكنهم قريبة من مبرك الناقة ، فاقترعوا لذلك وخرج سهم أبي أيوب.

وما جاء من التعريف **بأبي أيوب*** أنه اشتهر بكنيته هذه ، واسمه خالد بن زيد من فرقة بني مالك ابن النجار من قبيلة الخزرج ، وأنه عاش

إلى سنة خمسين أو إحدى وخمسين من الهجرة حيث توفي قرب القسطنطينية* (استانبول) وهو في الجيش الذي كان يقوده يزيد بن معاوية* بن أبي سفيان لقتال الروم في خلافة معاوية، فدفن أبو أيوب رضي الله عنه بالمكان وأعفي قبره خوف أن ينبش من طرف العدو.[1]

ومما جاء من روايات الأخبار هنا أنه عندما بركت الناقة مبركها الأخير وازدحام الناس حولها على أشد ما يكون جاء خلفها جبار بن صخر[2]، المعروف في الصحابة من بني سلمة* بأنه من صالحي المؤمنين، فأخذ ينخسها طمعا أن تثور فتسير طريقها لعل أن تبرك بمنازل بني سلمة الموالية للمكان بالطريق غير أن الناقة لم تثر وفطن للعملية أبو أيوب فعاتب جبارا أعنف عتاب يقول له: " أعن منزلي تنخسها يا جبار؟".

ويقول له ما معناه: " لولا الإسلام بيننا لكان لي معك شأن"...الخ.

وأفادت الأخبار أن نزوله صلى الله عليه وسلم بدار أبي أيوب كان يرافقه فيه مولاه زيد بن حارثة* وأن ناقته صلى الله عليه وسلم استلمها أبو أمامة أسعد بن زرارة* فكانت عنده يرعاها.

كما أفادت الأخبار أيضا أنه عندما تم نزوله صلى الله عليه وسلم بدار أبي أيوب تفرقت الحشود التي كانت حولها في مظاهرات تجوب طرق المدينة من غلمان وخدم يصيحون بالتكبير والهتافات: « جاء رسول الله!

---

(1) جاء في خبر إعفاء قبر أبي أيوب أن أمير الجيش يزيد بن معاوية أمر كوكبة من الخيالة أن تمر بالخيل على المسافة التي بها القبر لعدة كرات إمعانا في الإعفاء. وجاء في خبر آخر ما يخالف هذا وأن يوم دفنه كان يوما مشهودا شهده حتى الروم فسألوا عن الأمر فأخبروا بمكانة أبي أيوب عند المسلمين وأنه صاحب رسول الله الذي نزل عليه في الهجرة، وحذر المسلمون الروم من أن يصاب القبر بإهانة من طرفهم بأن ذلك سيكون فيه رد فعل بمنع طقوس الروم الدينية في بلاد الإسلام التي في حكم المسلمين ومنها دق الناقوس، فكان الروم بعد ذلك يحترمون القبر... حتى أوقدوا عليه المصابيح وكانوا يستسقون به إذا قحطوا فلينظر الجمع بين الخبرين فلعل هذا كان بعد الهدنة والأول كان أول الأمر؟.

(2) مما جاء في ترجمة "جبار بن صخر" رضي الله عنه أنه توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

جاء محمد رسول الله! جاء محمد!»... الخ.

واصطف جمع من فتيات بني النجار حول المنزل يضربن بالدفوف وينشدن ما يقلن فيه: «نحن جوار من بني النجار * يا حبذا محمد من جار».

و ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج من المنزل الى الجواري اللاتي كنَّ ينشدن حول المنزل فحادثهنَّ ولاطفهنَّ وسألهنَّ " أتحببنني ؟" فأجبن: " نعم يا رسول الله!" فقال لهنَّ: " وأنا والله أحبكنَّ " ، وفي لفظ أنه قال: " الله يعلم أن قلبي يحبكنّ ".

الدرس 61

ما يتعلق بمقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة

(فمن ذلك معاملة أبي أيوب معه صلى الله عليه وسلم فيما يخص الأحوال الشخصية طوال مقامه صلى الله عليه وسلم بالمنزل).

فتفيد - في هذا - رواية عن أبي أيوب رضي الله عنه يقول فيها: « لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بداري - أحب أن يكون بالبيت الذي في السفل فكنت أنا وأم أيوب (زوجه)في الغرفة فوقه" ، يقول: "فجئته صلى الله عليه وسلم فقلت له: بأبي أنت وأمي يانبيّ الله إني أكره وأُعظم أن تكون تحتي وأكون فوقك فاظهرْ أنت لتكون في العلوّ وننزل نحن فنكون في السفل."فأجابني صلى الله عليه وسلم: « يا أبا أيوب إن الأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في السفل"،. يقول أبو أيوب: « فكان الحال تلك الليلة كذلك نحن في العلوّ فوقه صلى الله عليه وسلم ، فلما خلوت بأم أيوب تحادثنا في الأمر فقلت لها: كيف ترين ؟ رسول الله أحق بالعلوّ تنزل عليه الملائكة ويتنزّل عليه الوحي ونكون فوقه! فما بَتُّ أنا ولا أم أيوب بليلة هنيئة تلك الليلة بل بتنا بشر حالة لتلك الفكرة".(وفي لفظ من الرواية يقول: «نمشي فوقه صلى الله عليه وسلم! فتحولنا إلى جانب البيت حتى التصقنا به").

ومن هذه الرواية ما جاء عن أبي أيوب أنه قال: " وحدث ذات ليلة أن انكسر لنا بالغرفة حُبٌّ به ماء ("**الحُبُّ**"* بضم الحاء المهملة وتشديد الباء الموحدة هو إناء كبير من الطين كالجرَّة والقلَّة).

فأسرعت أنا وأم أيوب إلى تنشيف الماء بقطيفة لنا ما لنا غطاء غيرها خوف أن يتقاطر الماء من سقف البيت السفلي الذي به الرسول صلى الله عليه وسلم" ، يقول: «فلما أصبحت من تلك الليلة جئته صلى الله عليه وسلم فقلت له: يا رسول الله ما بتُّ أنا ولا أم أيوب بليلة هنيئة...!»فقال: «وما ذاك يا أبا أيوب ؟ " فقلت: « يا رسول الله أنت تتلقّى الملائكة وينزل

عليك الوحيّ وتتلو القرآن وتكون في سفل المكان ونحن فوقك ؟ » فأجاب صلى الله عليه وسلم بما كان أجاب به من قبل ، فقال: " يا أبا أيوب أن الأرفق بنا وبمن يغشانا (من جموع الناس التي ترِد عليه صلى الله عليه وسلم)أن نكون في السفل".

وهنا اضطر أبو أيوب أن يبدي للرسول صلى الله عليه وسلم تصميمه البات على فكرته التي ليس في استطاعته مخالفتها بكل وجه. قال: "فقلت له صلى الله عليه وسلم: « لا يكون هذا والذي بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبدًا. ثم لازلت أتضرع إليه صلى الله عليه وسلم حتى قبل أن يتحول الى العلوّ وتحولنا الى السفل".

فهم من هذا أن أبا أيوب ركز في آخر الحوار فكرته على إمتناعه القاطع أن يعلو منزل الرسول صلى الله عليه وسلم بمعنى أنه ولو أدّى الحال الى ترك العلو شاغرا فيما إذا بقي الرسول صلى الله عليه وسلم بالبيت السفلي وفي نزول الرسول صلى الله عليه وسلم هذا عند رغبة أبي أيوب مثال مما تتغلب فيه العاطفة - أحيانا - على النظام وذلك عندما يكون للعاطفة مزيد شرف.

وجاء من هذا الموضوع من الروايات مما روي عن أبي أيوب رضي الله عنه أنه قال: " وكنا نبعث إليه صلى الله عليه وسلم بالطعام فإذا ردّ علينا فضله يممت أنا وأم أيوب مكان يده صلى الله عليه وسلم منه فنتناول منه نبتغي بذلك البركة ، حتى كان ذات يوم بعثنا إليه بطعام كان فيه ثوم أو بصل فلما رده علينا لم نجد فيه أثرا ليده صلى الله عليه وسلم (لم يتناول منه شيئا بالمرة)» ، يقول أبو أيوب: « فذهبت فزعا إليه صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك ، فقال إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة (يعني الثوم أو البصل) وأنا رجل أناجي أمَّا أنتم فكلوه»(و في لفظ من الرواية إن أبا أيوب قال للرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك الطعام: «أحرام هو ؟ » فقال له الرسول: « لا أمَّا أنتم فكلوه " ، يقول

أبو أيوب: «فلم نضع له - بعد ذلك- طعاما فيه شيء من تلك البقول (كل ما فيه رائحة كريهة).»

وجاء من هذا الموضوع مما ورد عن أم أيوب[1] رضي الله عنها أنها سُئِلت من طرف الذين يريدون تقديم هدايا الطعام إليه صلى الله عليه وسلم أيام مقامه بمنزلها فقيل لها: "أي الطعام كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم عرفتم ذلك منه لمقامه عندكم ؟" فأجابت تقول: « ما رأيته صلى الله عليه وسلم أمر بطعام يصنع له بعينه ولا رأيناه أتي له بطعام فعابه قط ».

تقول: «ولقد أخبرني أبو أيوب ذات ليلة كان تعشى فيها مع الرسول صلى الله عليه وسلم من قصعة أرسل بها سعد بن عبادة وكان بها طفيشل[2] ، فقال أبو أيوب «فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهل من تلك القدر مارأيته ينهل من غيرها». قالت: « فكنا بعد ذلك نصنع له من هذا الطعام وكنا نصنع له الهريس وكانت تعجبه.»

هذا والذي تواردت به الأخبار عن قرى الأنصار وتكريمهم الرسول صلى الله عليه وسلم حينما استقر بمنزل أبي أيوب أنهم كانوا يتسابقون في تقديم الأطعمة له من عديد البيوت ، الأمر الذي أدى إلى أن يتخذوا لذلك خطة منظمة فكانوا يتناوبون بحسب الأيام والعدد ممن يقدم الهدية فلم يكن ينقص عن الثلاث والأربع قصع تقدم من أصحابها كل يوم طوال مقامه صلى الله عليه وسلم بمنزل أبي أيوب الذي تجاوزت مدته العدد من الشهور بل ورد أن تقديم هذه الهدايا تواصل من بيوت الأنصار حتى ما بعد اتخاذه منزله الخاص به. وذكر من أسماء الذين أداموا تقديم القرى إليه صلى الله عليه وسلم بصفة مسترسلة لم تنقطع ولو ليلة اسم سعد بن

(1) أم أيوب: وفي نسخة كتاب الوفاء للسمهودي " أم أبي أيوب".

(2) طفيشل: اسم لصنف من أصناف المرق ، جاء في ضبط الكلمة أنه بالطاء المهملة مفتوحة ثم فاء مفتوحة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ثم شين معجمة مفتوحة وآخره لام.

عبادة* **وسعد بن معاذ*** **وأسعد بن زرارة***.

كما جاء الخبر بتعيين أول هدية طعام قدم إليه صلى الله عليه وسلم بإثر نزوله بمنزل أبي أيوب وأنه كان قصعة طعام من الفاخر الممتاز عند العرب بعثت بها أم **زيد بن ثابت**[1] الخزرجي أحد شباب الصحابة والذي كان له من بعد شأن وشهرة من بين الصحابة في علم قراءة القرآن والفقه وعلم الفرائض والكتابة على الخصوص. فورد أنه جاء يحمل القصعة حتى دخل بها على الرسول صلى الله عليه وسلم فوضعها بين يديه وقال: « يا رسول الله أرسلت إليك بهذه أمي». فقال صلى الله عليه وسلم: « بارك الله فيك وفيها». ودعا بأصحابه فتناول معهم من ذلك الطعام.

وهكذا تفيد أخبار هذا الصدد بأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو أصحابه لتناول الطعام معه بمنزل أبي أيوب في كل مجلس من مجالس الطعام ولم ينقص العدد - ولو مرة واحدة -ممن يرافقه صلى الله عليه وسلم في تناول الطعام عن خمسة نفر فما فوق ذلك إلى ستة عشر.

و المفهوم من مضمن الأخبار أن هؤلاء الأصحاب المدعوين لتناول الطعام معه صلى الله عليه وسلم إنما كانوا من المهاجرين خاصة.

ومما أورده البعض من مؤلفي السيرة في هذا الفصل الخبر المنقول عن **محمد ابن إسحاق*** الإمام في علم السيرة وهو من الأخبار التاريخية الواردة عن الأخباريّين ويتعلق بدار أبي أيوب التي نزل بها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما حل بالمدينة المنورة في هجرته إليها ، فيفيد هذا الخبر أن هذه الدار كان بناها **تُبَّع الحِمْيَري**[*تُبّع بضم المثناة الفوقية وتشديد الباء الموحدة السفلية مفتوحة وآخره عين مهملة. وقد تقدم في الدرس الرابع عشر أن لفظ "تبّع" ليس اسمًا شخصيًا وإنما هو لقب ملوكي لملوك من العرب وهم أولاد "حمير" الراجعون إلى قحطان وموطنهم بلاد

[1] جاء في تعيين اسم أم زيد بن ثابت أنها تدعى النوار بنت مالك*.

اليمن وذلك كلقب "كِسْرى " لملوك الفرس "وقيصر"لملوك الروم و"النجاشي " لملوك الحبشة. والمستفاد من بعض مصادر التاريخ أن دولة التبابعة هي الثانية من دول قحطان ومبدؤها قبل الميلاد المسيحي بعدة قرون وعدة ملوكها ممن لقب "بتبع " بلغ واحدا وعشرين ملكا وانقرضت حوالي القرن السادس الميلادي ، وقد عرف أن اسم "تبع " ذكر في القرآن مرتين في سورتين الأولى سورة "الدخان" الرابعة والأربعون في ترتيب المصحف والسورة الثانية سورة "ق" وهي الخمسون في الترتيب. و ذكر في كل مضافا إلى قومه مخبرا عنهم بأنهم ممن كذب بدعوة رسل الله و ممن نالهم العقاب على ذلك بالهلاك.

ثم جاءت الأخبار متباينة مختلفة طبعا في ترجمة "تبع" هذا حتى قيل بِنُبوتِه ويظهر أن عامة ما جاء فيه هنا يقول أنه من الزعماء المصلحين. وجاء لبعض المفسرين قوله هو ملك باليمن دعا قومه إلى الإيمان بالله.

وعلى ما جاء عن "تبع" بأنه هو الذي بنى الدار التي كان نزول الرسول صلى الله عليه وسلم بها في مقدمه المدينة في الهجرة وهي إذ ذاك ملك أبي أيوب الأنصاري.

نذكر نبذة مما أثبت في بعض المصادر عن مسمى" تبع" مما يخص التعريف بشخصيته وما كان له من مآثر ومنها بناؤه دار أبي أيوب ومن محتوى هذه النبذة يظهر مبلغ الاختلاف والتباين بين هذه الأخبار الواردة عن "تبع" ففي تفسير الخازن عند تعرضه لتفسير الآيتين الواردتين في "تبع" يقول: تبع هو **أبو كرب أسعد*** الحميري بن مليك.

وفي تفسير النسفي بهامش الخازن يقول عن "تبع" هو ملك باليمن دعا قومه إلى الإيمان ، وفي حاشية سليمان الجمل على تفسير الجلالين يقول: تبع الأكبر أبو كرب أسعد بن ملكيكوب(هكذا بالميم ثم اللام ثم الكاف ثم ياء مثناة سفلية ثم كاف ثم واو ثم الباء الموحدة في الأخير ويظهر أن الواو تصحيف في النسخ أو في الطبع وإن الصواب جعل مكانها

راء فيكون الاسم هكذا "**ملكيكرب**"* كما في معد يكرب) وعقب في حاشية الجمل على هذا التعريف بما كان لتبع من مآثر بأنه كسا الكعبة. و من الذي جاء عن "تبع" من المصادر الحديثة: - فمن كتاب "لِباب الخيار في السيرة "للأستاذ مصطفى الغلاييني "تبع" الأول هو **ابن الأقرن***.
والذي أفاده الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في كتابه آثار المدينة المنورة عند تعرضه لذكر دار أبي أيوب الأنصاري أن تاريخ بناء هذه الدار مجهول. ثم يقول: وجاء في رواية أن الذي بناها هو "تبع أبو كرب "حين قدومه إلى المدينة.

والذي أفاده مؤلف كتاب المنجد في الأدب والعلوم القس "**فردينان توتل**"* في ترجمة "تبع" ولكن بلفظ " أبو كرب" في باب حرف الكاف - أبو كرب أسعد كامل حياته على سبيل التخمين فيما بين سنة 385 ثلاثمائة وخمس وثمانين وسنة 420 أربعمائة وعشرين بعد الميلاد المسيحي ملك حمير جنوب الجزيرة العربية يقال أنه غزا فارس واعتنق الديانة اليهودية.

وأمّا ما جاء عن تبع بأنه قدم المدينة وبأنه غزاها وأراد تخريبها ثم ما كان منه من بناء الدار التي آلت إلى ملك أبي أيوب الأنصاري و ما أظيف إلى ذلك من إسلامه وإيمانه بالنبيّ محمد عليه الصلاة والسلام وكتابه الكتاب...الخ. فقد جاء في هذا روايات عديدة بينها تغاير وتخالف وفيها تارة تضارب بين بعضها البعض. فجاء من ذلك ما ساقه نور الدين السمهودي في كتابه" وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى" (وهو تاريخ لِلْمدينة المنورة) فساق من ذلك عدة روايات منها رواية مفادها أن **تُبعا هو ابن حسان*** وهو تبع الأصغر آخر التبابعة وهو الذي كسا الكعبة وهو الذي غزا يثرب(المدينة المنورة)، وسبب غزوه المدينة هو انتصار لقومه العرب القحطانيين من سكانها حيث شكوا إليه سوء الجوار من جيرانهم اليهود.فقدم المدينة بالجيش وألحن في اليهود قتلا ومضى إلى حيث عزم على تخريب المدينة وعند ذلك خرج إليه حبر من أحبار المدينة وكان من المعمرين حتى قيل

أنه بلغ سن مائتين وخمسين عاما فتقدم إلى تُبع وكان يصحب معه حبرا آخر. فكلم الحبران تبعا في الإبقاء على المدينة وسكانها و وعظاه ، ومما عرفاه به عن المدينة أنها مهاجر النبيّ المنتظر من العرب ونجع كلام الحبرين في تبع فأقلع عما كان يريده من تخريب المدينة وحيث كان للحبرين موقع من نفسه فقد نقلهما معه إلى موطنه باليمن و دان باليهودية على خلاف ما كان عليه قومه من الوثنية.

وفيما جاء في السياق الذي حكاه السمهودي في كتابه "الوفاء "عن التعريف بالحبرين اللذين تعرضا لتبع في تخريب المدينة أن اسم أحدهما "**سحيت**"*واسم الآخر "**منبه**"*و هما من قريظة.

والذي نقله مؤلف السيرة النبوية في اسم الحبر المسن أنه "**شامول**"*. وقد تقدم ذكره في الدرس الرابع عشر. وفي نقل السمهودي في كتاب "الوفاء" أيضا من التعريف بتبع الذي غزا المدينة أنه **تبع تبان*** أسعد (تبان بالتاء المثناة ثم باء موحدة سفلية مشددة بالفتح وآخره نون) وأنه ابن "**كلكيكرب**"*(لفظ كلكي بكافين مضافا إلى كرب). وفي سياق آخر من كتاب "الوفاء" أن تبعا هو كرب بن حسان بن أسعد وهو تبع الأخير في التبابعة وهو الذي اغتيل ابنه بالمدينة فغزاها انتقاما من أهلها جميعا سواء منهم اليهود والعرب.فقاتلهم وقاوموه أياما ثم عزم على تخريب المدينة فتقدم إليه من أهلها حبران من أحبار اليهود فوعظاه وكلماه بما أسكن من غضبه وعرفاه بما لهذه المدينة من حرمة وأنها دار هجرة الرسول المنتظر فاقتنع بما سمع من الحبرين وقربهما إليه حتى صحبهما معه عند مغادرته المدينة قافلا إلى بلاده اليمن ومن هنا كان ابتداء ظهور الديانة اليهودية بأرض اليمن.

وأما الخبر المعروف عن ابن إسحاق في كون "تبع "هو الذي على يده بنيت دار أبي أيوب فالذي أورده السمهودي في كتابه "وفاء الوفا" من مضمون هذا الخبر مفاده أن تبعا الذي بنى دار أبي أيوب هو تبع الأكبر

واسمه "**تبان أسعد بن كلكيكرب**"* ، قدم المدينة في موكبه الذي يحتوي على عدة مآت الآلاف من الجند وغيرهم ومن بينهم أربعمائة من رجال العلم والحكمة. والسبب الذي كان به بناؤه للدار وكتابته الكتاب الذي ضمنه إيمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وما أنشأ من أبيات شعرية في الكتاب هو أن أولئك العلماء لما حلوا بالمدينة ائتمروا فيما بينهم في شأن المدينة ثم اتفقوا على أن لا يبرحوها بل أنهم يتخذونها مقرهم إلى الموت وتواصوا على ذلك وتعاهدوا عليه بالإجماع منهم حتى حل أوان مغادرة تبع للمدينة وامتنع فريق العلماء المذكور من الخروج منها ، فكان من الطبيعي أن يسألهم تبع عن ذلك فعرفوه بالأمر وأن هذه البلدة مهاجر الرسول المنتظر فأقرّهم على ذلك واتخذ ما اتخذ من إجراءات بناء الدار وكتابة الكتاب الذي شهد فيه بالإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك مما ورد في الخبر.

وفيما نقله مؤلفا السيرة الحلبية والنبوية نور الدين الحلبي وأحمد زيني دحلان من خبر ابن إسحاق هذا المتعلق بتبع وأنه هو الآمر ببناء دار أبي أيوب ، وأنه آمن بالنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وسجل ذلك في كتاب إلى آخر ما في القصة -فمفاده أن تبعا هذا هو الأول ابن حسان خرج في عسكر يضم مائة وثلاثين ألفا من الفرسان ومائة وثلاثة عشر ألفا من الرجالة. وكان أول الأمر يقصد تخريب الكعبة بمكة فأصيب بداء في رأسه كان يسيل منه القيح والصديد وأعيا الأطباء علاجه حتى اهتدى إلى التوبة مما كان يريده من أذى للبيت الحرام فنذر لله أن يكسو الكعبة إن شفي وكان الأمر كذلك. فلما شفي كسا الكعبة وعظمها وكان أول من سَنَّ سُنة كسوة الكعبة.

ثم قفل بجيشه ذلك فاجتاز بالمدينة المنورة فنزلها وبلغه حينئذ عن طائفة العلماء والحكماء الذين كانوا في عداد جيشه وهم في عدد أربعمائة رجل - بلغه الخبر بأنهم قرروا أن لا يفارقوا هذه المدينة وأنهم تبايعوا فيما

بينهم على أن لا يخرج واحد منهم منها.

فلما استحضر تبع جمع أولئك العلماء واستفسرهم عما بلغه من ذلك الخبر ، أجابوه بما عرفوه به من شأن المدينة وأنها دار هجرة الرسول المنتظر وتوسع الحوار بين الجانبين بما يوجه تبع من الأسئلة على العلماء وما يجيبونه به في شأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والدين الإسلامي الذي أرسل به ، حتى اقتنع تبع بما سمع منهم فأعلن عن إيمانه بالرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه بالدين الإسلامي ، وكتب بذلك كتابا أمضاه وختمه بختمه وأودع ذلك الكتاب عند كبير تلك الطائفة من العلماء على أن يحفظ حتى وقت ظهور الرسول فيسلم إليه ، وأعطى الأوامر ببناء الدار التي عيّنها لاستقرار الرسول بها عندما يقدم المدينة. وأقر أولئك الجمع من العلماء على ما عمدوا إليه من سكنى المدينة فاتخذ الإجراءات اللازمة لتوطينهم بها فأمر ببناء سُكْنَى لكل واحد واشترى قطيعا من الإماء ممن تخيّرهنّ كزوجات لهم وأعتقهن و زوج الجميع و أجزل العطاء للعلماء بما يكفل رغد المعاش واستقرار المقام. ثم بعد هذا غادر تبع بجيشه المدينة متابعا طريقه حتى أرض الهند وبها أدركته الوفاة. والتاريخ ما بين موته ومولد الرسول صلى الله عليه وسلم هو ألف سنة بالضبط. وجاء في هذه الرواية التعقيب على ما ذكر بأن أولئك الجماعة من العلماء الذين استوطنوا المدينة من جيش تبع هم الذين كانت منهم النواة لشعب الأنصار من الأوس والخزرج وأن أبا أيوب الأنصاري من سلالة ذلك العالم الذي استودعه تبع كتابه الذي كتبه كرسالة منه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم - هذا مع ما تقدم ذكره في باب الأخبار المتعلقة بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وشيوع أمره قبل زمنه عليه الصلاة والسلام فيما ورد عن أحبار اليهود و رهبان النصارى وكهان العرب وحكمائهم مما نقل في هذه الدروس في الدرس الرابع عشر منها كخبر الحبر المسمى "بشامول" وخبر تبع في عداد حكماء العرب.

وإذ قد عرف مما تقدم إيراده من هذه الروايات الواردة في خبر تبع ما هو حاصل بينها من التخالف المتباعد الجوانب فإنه يلاحظ مع ذلك ما ازداد به الخلاف تشعبا، والتنافي شدة بما تعلق بالموضوع من زيادات بالتعليق أو التلفيق قصد الجمع بين ما جاء متغايرا بين الوقائع. فمن هذه الأقوال القول بأن تبعا صاحب القصة هو الأول أبو كرب وهو ابن أسعد، والذي اشتهر عنه كسوة الكعبة هو أبوه أسعد. ويقول البعض الآخر أن صاحب القصة هو تبع الأوسط وهو الذي كسا الكعبة بعدما تراجع عما كان عزم عليه من غزو مكة وهو نفسه الذي غزا المدينة وأراد تخريبها، فرده عن ذلك حبر اليهود المسن و وعظه فتراجع عن رأيه الأول فآمن بالرسول محمد اعتمادا على ما سمع من الحبر، وهو الذي بنى الدار وكتب الكتاب. وإذا كان الخلاف في تحديد المدة بين تبع وبين عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مما يمكن فيه الجمع بين الأقوال ولا ينافي بعضه البعض حيث قيل في المدة أنها ألف سنة وقيل أنها تسعمائة سنة وقيل سبعمائة فيحمل الكثير بالنسبة لتبع الأول والأخير بالنسبة لتبع الأوسط الذي ذكر هو أيضا في إحدى روايات الخبر. وإنما الخلاف الذي يبدو متباعد الجوانب وكأنه متعذر الجمع بين أطرافه هو فيما بقي من الوجوه. فمن ذلك أن الرواية التي تذكر قدوم تبع إلى المدينة ومعه الجمع من العلماء ليس فيها ذكر الغزو، ولا كلام حبر اليهود، وتفيد أن إيمان تبع بالرسول صلى الله عليه وسلم وما تبع ذلك من كتابته الكتاب وبنائه الدار إنما كان عن تلقي ما تلقى من أولئك العلماء الذين كان لهم من سابق العهد العلم بما أبدوه اليوم في شأن المدينة بأنها مهاجر الرسول المنتظر. وقد جاء في سياق مما سيقت به هذه الرواية صورة ما أجاب به العلماء عن سؤال تبع لهم عما دعاهم للمكث بالمدينة بأن قالوا له: إنا نجد فيما لدينا من العلم ومما بأيدينا من الكتب أن هذه المدينة موطن النبي الذي يبعث من البلد الحرام مكة بدين الإسلام ملة الخليل إبراهيم واسمه أحمد ويهاجر من بلده

مكة إلى هذه المدينة حيث يتخذها مقره الأخير. ومن كلام العلماء هذا كان اقتناع تبع برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وإيمانه فاتخذ ما اتخذ من إجراءات بناء الدار وكتابة الكتاب وتوطين أولئك الجمع من العلماء بالمدينة الخ. أوردت هذه الرواية كما هي في مضمونها هذا باختصار تارة وببسط تارة في عدة مصادر مجردة عن كل ما جاء في الموضوع عن روايات أخرى تخالفها وتنافيها غير أنه جاء للبعض في سياق ساقها فيه وعقب بزيادة تشبه أن تكون محاولة للجمع بينها وبين الرواية المخالفة لها وهي الرواية التي تذكر الغزو قصد تخريب المدينة ومقال الحبر اليهودي لتبع في الدفاع عن المدينة. فجاء في هذا التعقيب القول بأن العلماء الذين اتخذوا قرار مكثهم بالمدينة إنما صدر ذلك منهم بتأثير كلام الحبر. وظاهر كل الظهور أن هذا التلفيق بين الروايتين المتغايرتين لم يحصل به انسجام للجمع بينهما وبقي الخلاف كما هو إن لم يكن ازداد بما زيد من التلفيق. وهكذا يزداد الخلاف اتساعا بين ما تخالف من الروايات بما يزاد من التعاليق. فهذه الرواية التي تذكر أن تبعا غزا المدينة انتصارا لقومه العرب لما شكوا إليه ظلم جيرانهم اليهود فأثخن في اليهود قتلا وقتل جمعا كثيرا من أشرافهم وعزم على تخريب المدينة فخرج إليه الحبر المسن فوعظه وكان ذلك سببا في كف تبع عن المدينة... وتخالفها الرواية التي تذكر أنه غزا المدينة انتقاما من أهلها جميعا من اليهود والعرب على السواء وذلك لما حدث من اغتيال إبن له بالمدينة. فجاء في بعض السياق لهذه الرواية زيادة يذكر فيها أن قبيلة **بني النجار*** من الأنصار كانت من أشد من قاوم جيش تبع من بين القبائل ورمى جيش تبع حصون بني النجار بالنبل رميا مكثفا جدا. ولقد جاء الإسلام والنبل لا يزال موجودا بتلك الحصون.

وعلى هذا الخلاف الواسع فيتساءل بالقول: فهل هم بمتابعة متفرقون ؟ وكل منهم قدم المدينة وفيهم الغازي لها وفيهم المجتاز ؟ وهل الغزو تكرر لأكثر من مرة ؟ وهكذا أيضا التعقيب الذي عقب به على الرواية

التي تذكر استقرار طائفة العلماء الذين كانوا مع تبع بالمدينة ، ومفاد هذا التعقيب أن شعب الأنصار كله من الأوس والخزرج منحدر من طائفة العلماء المذكورة. فيقول مؤلف كتاب "وفاء الوفاء" نور الدين السمهودي فيما يخص التعقيب المذكور أنه غريب ، ويبين الغرابة فيقول: "وكتب التواريخ متظاهرة على ما قدمناه في أمر الأنصار ونسبهم" ، يشير إلى ما قدم ذكره في نزول فرق الأنصار من الأوس والخزرج بالمدينة ونواحيها وأن ذلك كان في كرات وفترات من الزمن بعد أن جلا هذا الشعب عن موطنه باليمن بسبب حادث سيل العرم. وفيما جاء من روايات بناء دار أبي أيوب بأنه كان على يد تبع وردت زيادة على هذا أيضا يذكر فيها أن تبعا اشترى البقعة التي تحتوي على مكان الدار والمسجد وما حوله فبنى الدار و أوقف البقعة على أنها تابعة للدار. فيقتضي هذا أن بقعة المسجد النبوي هي أيضا تابعة لملكية الدار التي خصها تبع للرسول صلى الله عليه وسلم. وقد تعقب نور الدين الحلبي في كتابه "السيرة الحلبية" ما جاء من هذه الزيادة بما هو معروف من حديث بناء المسجد ، وأنه صلى الله عليه وسلم اشترى البقعة من اليتيمين المالكين لها وأبى أن يقبل الهبة من المالكين فاشترى البقعة منهما بعشرة دنانير كما هو مفصل في حديث بناء المسجد المتواتر خبره.

وأما روايات هذا الكتاب الذي كتبه تبع للرسول صلى الله عليه وسلم يعلن فيه إيمانه به ففيها الشيء الكثير من الغرابة مع التخالف الشديد بينها. ففي الطريق الذي بلغ به الكتاب والكيفية في ذلك حكيت رواية تفيد أن الأنصار لما بلغهم ظهور النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام أول ما قام يدعو بمكة عمدوا إلى إرسال الكتاب إليه فأرسلوه إليه مع رجل يدعى **أبا ليلى***(هكذا من غير زيادة في تعريف هذا الرجل). ولما اتقى أبو ليلى بالرسول صلى الله عليه وسلم كان الرسول هو البادئ بالكلام فقال للرجل " أنت أبو ليلى ومعك كتاب تبع فهات الكتاب!... »

واندهش لهذا أبو ليلى وقد تطرق لفكره أن الرسول صلى الله عليه وسلم رجل ساحر ثم تراجع وخاطب الرسول قائلا له: "من أنت ؟ فإني قد توهمت أنك ساحر ولكن عرفت أن وجهك ليس وجه ساحر". فأعاد الرسول صلى الله عليه وسلم أمره له بقوله «هات الكتاب». فدفعه إليه. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم من يقرأ بقراءة الكتاب عليه فقرأ عليه فكان عليه الصلاة والسلام يقول: «مرحبا بتبع ، ثلاث مرات!.»

وفي رواية أخرى أن الكتاب بلغ للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مسافر في الطريق بين مكة والمدينة سفر الهجرة حيث أرسل إليه من المدينة إلى مكة وكان قد خرج من مكة.

وبجانب هذا ، الرواية التي تفيد أن هذا الكتاب توصل به الرسول صلى الله عليه وسلم على يد أبي أيوب الأنصاري وذلك عندما استقر الرسول صلى الله عليه وسلم بدار أبي أيوب ، فإن أبا أيوب كان الكتاب في حوزته حيث توارثه الخلف عن السلف من لدن تبع إلى أن كان بيد أبي أيوب كما هو الأمر في الدار أيضا. ولما قرأ الكتاب على الرسول صلى الله عليه وسلم رحب بتبع وأثنى عليه.... الخ.

والذي جاء في صورة مضمون الكتاب يفيد أنه رسالة كمطلق ما يكتب من الرسائل بين الجانبين ، فهو يثبت اسمه كباعث واسم المبعوث إليه بأنه الرسول من الله بدين الإسلام باسم أحمد ، وأن الكتاب مختوم بختم تبع بالذهب ، ومن فقرات هذا الكتاب: أما بعد يا محمد فإني آمنت بك وبربك و رب كل شيء وبكل ما جاءك من ربك من شرائع الإسلام والإيمان... فإن أدركتك فيها ونعمت وإن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة ولا تنسني ، وإني بايعتك قبل مجيئك وقبل أن يرسلك الله وأنا على ملتك وملة إبراهيم".

كما جاء في هذا المضمون ذكر الدار فيقول: وإني قد بنيت لك دارا لتنزل بها وتسكنها إذا هاجرت إلى المدينة..... الخ!

وأما الأبيات الشعرية التي يذكر أنها من مضمون كتاب تبع هذا ذيل بها الكتاب وأشهد فيها على نفسه بالإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وما تبع ذلك من تعظيمه للرسول وتمني لقائه فقد ذكر فيها صورتان ، الأولى هي قوله:

"شهدت على أحمد أنه * رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري الى عمره * لكنت وزيرا له وابن عم ".

وجاءت زيادة بيتين آخرين بقوله:

"وجاهدت بالسيف أعداءه * وفرجت عن صدره كلّ غم"
"له أمة سميت في الزبور * وأمته هي خير الأمم"

هذا وقد ذكرت الأبيات في سياق آخر بصورة مغايرة لهذه. فذكر من ذلك بيتان على سياق سابق لم يذكره ما قبله فكانت صورة البيتين هكذا:

"ويأتي بعدهم رجل عظيم * نبي لا يرخص في الحرام "
"يسمى أحمداً يا ليت أني * أعمر بعد مبعثه بعام"

هكذا تتغاير الأبيات ، فالأولى على وزن المقارب والأخرى على وزن الوافر. فهل هما قصيدتان ؟ ثم إن الوضوح تام في التكلف وطابع إنشاء المولدين للجميع. فالمتحصل من خبر تبع هذا إنما هو خالوطة من الأخبار والأقاويل تجمع بين الغرابة والتضارب فيما بينها ولعل كل ما يستفاد مما جاء عن مسمى تبع هو ما تداول ذكره في روايات إخبارية من كتب الحديث وأنه كان مؤمنا وأنه كان على ملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام] ، أحد ملوك اليمن المعروفين بالتبابعة عند مقدمه إلى المدينة وبلغ الى علمه أن هذه المدينة هي مهاجر النبي المنتظر خروجه من الأمة العربية. فأعلن إيمانه بهذا النبي في كتاب أمضاه بيده كشهادة منه على ذلك ، وضمن الكتاب أبياتًا شعرية أنشأها في الموضوع و أودع ذلك

الكتاب عند البعض من سكان المدينة وديعة يحتفظ بها إلى وقت ظهور النبي فتسلم إليه ، وبنى الدار خصيصا للنبي المذكور على أن يسكنها يوم يقدم المدينة.

وقد تقدم ذكر هذه القصة في الدرس الرابع عشر من هذه الدروس في باب ما جاء من خبر الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زمنه. فأشير إليها في الرواية السابعة مما ورد عن أحبار اليهود ، و في الرواية الرابعة مما ورد عن حكماء العرب وكهانهم.

وإذا كان للبعض أن يبني على احتمال ثبوت هذا الخبر اكتشاف مزية من مزايا الرسول صلى الله عليه وسلم وهي كونه عليه الصلاة والسلام في نزوله دار أبي أيوب إنما نزل في الحقيقة بمنزل نفسه وبالمنزل الذي هو على ملكه خاصة. فالمقام -ولا شك- في غنى عن هذا وعن شبهه والمحققون يرون في هذا الخبر غرابة متزايدة الشدة وخصوصا في البعض مما جاء فيه مما يتنافى تمام المنافاة مع الثابت المعروف من الأخبار الواردة في هذا الموضوع.

ومن المفهوم هنا أنه لا توجد غرابة ولا نكارة في مجرد خبر يفيد أن دار أبي أيوب التي نزل بها الرسول صلى الله عليه وسلم في مقدمه المدينة كان بناؤها على يد الملك تُبع ، وإنما الغرابة كل الغرابة فيما اكتنف هذا الخبر من زيادات هي شئون مما تقتضي طبيعة العادة أن تتواتر أخبارها وينتشر ذكرها وتكون لها مع ذلك -ولا بد- شواهد تصدقها من قريب أو من بعيد ولو اختلفت طرق ورودها وتغايرت الصيغ في نقلها لأن لها من الشواهد ما يثبت الأصل على كل حال.

وليس الأمر كذلك في خبر كتاب تبع هذا وما تضمنه هذا الخبر من أمور بالغة القدر العظيم من الأهمية ثم هي مع ذلك بالغة الدرجة القصوى من الغرابة ولم يحفل بها في المصادر الموثوق بها ولا تداول ذكرها بالمرة في غير مكانها الذي سيقت فيه ، الأمر الذي جعلها لا تتجاوز حظ القصص

على نمطه المعهود من الوضع الاصطناعي والذي أفاده أحد محققي العلماء في هذا العصر وهو الأستاذ **عبد القدوس الأنصاري** * فيما يتعلق بدار أبي أيوب الأنصاري هذه التي كانت منزل الرسول صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة في هجرته إليها.

فإن الأستاذ المذكور الذي هو في الوقت أستاذ العلوم الشرعية بالمدرسة المختصة بها في المدينة المنورة يذكر في كتابه الذي سماه "آثار المدينة المنورة" عن الدار نبذة صدرها بقوله: "تاريخ بناء هذه الدار مجهول" ، ثم يقول: "وفي رواية أنه بناها تبع أبوكرب حين قدومه إلى المدينة."ويذكر عن موقعها وحدودها بأنها تقع في الجنوب الشرقي للمسجد النبوي ويحدها من جهة الشمال زقاق الحبشة ومن الجنوب دار جعفر الصادق ، (وهي في العهد الحالي دار نائب الحرم) ، ومن الغرب الطريق ، ومن الشرق ما يليها من بيت البالي.

ويذكر المؤلف المذكور عن التطورات التي وقعت لهذه الدار بعد عهد صاحبها أبي أيوب فيقول: أنّها انتقلت الى ملك **مولى أبي أيوب** المسمى **أفلح** * ، ومسها الخراب على يد أفلح هذا فباعها ، ثم يقول: " ثم لج تاريخها في الغموض حتى أصبحت عرصة من **العرصات**[1] بالبلد وبقيت هكذا حتى اشترى البقعة **الملك غازي شهاب**[2] **الدين بن الملك العادل** *.فبنى مكانها المدرسة التي عرفت باسم المدرسة الشهابية نسبة إليه ، واستحالت

---

(1) العرصة: بفتح العين المهملة وإسكان الراء ثم صاد مهملة هي ما كان من قطع الأرض خاليا من البنيان ويقع بين الأبنية وشأنه أن يكون به بناء.

(2) الملك شهاب الدين غازي: من الملوك الأيوبيين * الأسرة الكردية المعروفة وقد اشتملت مملكتهم على الأقطار الثلاثة مصر والشام واليمن ابتداء من أواسط القرن السادس الهجري فما بعد حتى بحر القرن السابع.

وكان شهاب الدين من المنتصبين بالشام وهو ابن الملك العادل الكبير سيف الدين أبي بكر بن أيوب المنتصب بمصر.

الأحوال وتعطلت المدرسة المذكورة حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري فأعيد بناؤها بصفة مسجد للصلاة جعل بناؤه مقببًا ، فهي إلى الآن على هذا الشكل في القسم الجنوبي الغربي من دار آل البالي*- يقول: " وعلى الجدار الخارجي حجر منقوش فيه بحروف بارزة مذهبة ما صورته: هذا بيت أبي أيوب الأنصاري ، موفد النبي عليه الصلاة والسلام في 7 سنة 1291 هـ ، أي عام واحد وتسعين ومائتين وألف للهجرة".

وإذ كنا نعلم أن تاريخ كتاب "آثار المدينة المنورة" للمؤلف المذكور هو العام الثالث والخمسون بعد ثلاثمائة وألف للهجرة فما بالعهد من قدم ، فدار أبي أيوب رضي الله عنه هي في الوقت مسجد من مساجد المدينة المنورة.

ومما وقع فيه الخلاف بين روايات الأخبار مدة إقامة الرسول صلى الله عليه وسلم بدار أبي أيوب ففي رواية أنه أقام سبعة أشهر وفي رواية أخرى أنه أقام إلى شهر صفر من السنة الثانية للهجرة فتكون الإقامة على هذا تجاوزت العام كاملا.فتذكر هذه الرواية الأخيرة أنه صلى الله عليه وسلم ما تحول من دار أبي أيوب إلا بعد أن تم بناء المسجد وبناء البعض من بيوته صلى الله عليه وسلم (وهي الحجرات المختصة بأزواجه أمهات المؤمنين).

وساق البعض من مؤلفي السيرة في هذا الفصل خبر نزول المهاجرين على الأنصار ، ذلك أنه كان جمع عديد من الصحابة الذين هاجروا إلى المدينة قد نزلوا بقباء واستقروا بها. فلما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم باطن المدينة ونزل بدار أبي أيوب تحول ذلك الجمع من المهاجرين الذين كانوا بقباء إلى داخل المدينة أيضا فكان نزولهم على الأنصار من سكان المدينة.

وهنا يأتي ذكر المآثر الخالدة لشعب الأنصار فيما قاموا به من صنائع البرّ والمكرمات النادرة المثال في تاريخ البشرية لإيواء المهاجرين

وإسعافهم وبذل المعونة الشاملة كل النواحي والوجوه لهم. فأفادت الأخبار هنا أن الأنصار تنافسوا فيما بينهم في إيواء المهاجرين للنزول عليهم حتى آل الأمر إلى عملية الاقتراع ، ذلك أن الفرد من المهاجرين يتنازعه الجمع من الأنصار كل يريد أن يكون النزول عنده والإيواء إليه والحمل عليه فلم يكن أي فصل في هذه القضية إلا حكم القرعة. فاقترع الأنصار فيما بينهم على الحصول على نزول المهاجرين عندهم **بالسُهْمان**[1].

فأفادت الأخبار أنه لم ينزل مهاجر على أنصاري إلا بحكم القرعة. ومن هذا يمكن أن يقال ربما يكون الرجل من الأنصار قد شارك في الاقتراع المرات العديدة ليحصل على نزول مهاجر من المهاجرين عليه ليؤويه ويواسيه!.وهكذا نزل المهاجرون في دور الأنصار قاسموهم أموالهم وتبع ذلك - طبعا- المواساة الأدبية بسائر وجوهها.

ويشهد لهذا ما جاء في القرآن العزيز من التنويه بخصال الأنصار في هذا الصدد ، وهو ما في سورة الحشر من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

ومن مواضع هذا الفصل هجرة آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ولحاقهم به بالمدينة المنورة.

فجاء من ذلك رواية تذكر أنه بحسب ما كان من وصية الرسول صلى الله عليه وسلم **لعلي بن أبي طالب** * رضي الله عنه بأن يؤدي الودائع التي كانت بيده صلى الله عليه وسلم لأهلها من سكان مكة ، فقد قام عليّ رضي الله عنه بعد مغادرة الرسول صلى الله عليه وسلم مكة بردّ تلك الودائع إلى أهلها. فكان يخرج كل يوم إلى الأبطح حيث مجتمع الناس فينادي: "ألاَ من

---

[1] السهمان: بضم السين المهملة وإسكان الهاء ثم ميم ممدودة بالفتح وآخره نون صيغة جمع لسهم بفتح فسكون ويجمع أيضا بصيغة أسهم ومعناه الحظ والنصيب. أما السهم الذي يرمى به فيجمع على سهام بكسر السين.

كان له عند رسول الله وديعة فليتقدم إليّ لأديها له!" جاء أنه قام بهذه المهمة لمدة بضعة أيام، ذكر في بعض الروايات أنها لم تتجاوز ثلاثة أيام. فرد جميع ما كان من الودائع لأصحابها وكان في ذلك الأثناء ينتظر كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إليه بالأمر بالسفر مهاجرا إلى المدينة يرافق الجمع من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. وفعلا فقد ورد عليه كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم بالشخوص إليه بالمدينة حسبما كان وقع بوصيته صلى الله عليه وسلم إليه. فابتاع عليّ رضى الله عنه رواحل لحمل أعضاء الأسرة الشريفة وهم[1]: **أم المؤمنين سودة*** بنت زمعة، وأم **كلثوم*** و **فاطمة الزهراء*** إبنتاه صلى الله عليه وسلم وخادمة الرسول صلى الله عليه وسلم وحاضنته **أم أيمن*** بركة الحبشية وابنها **أسامة بن زيد*** بن حارثة. فسافر عليّ رضي الله عنه بأعضاء أهل البيت إلى المدينة وكان يسير ليلا ويكمن بالنهار وهو يمشي راجلا، فما وصل الى المدينة حتى كانت قدماه تتقاطر دما. فجاء في هذه الرواية أنه لما وصل عليّ واجتمع بالرسول صلى الله عليه وسلم اعتنقه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما رأى ما بقدميه تأثر لذلك حتى بكى، ثم أخذ صلى الله عليه وسلم يتفل بيديه ويمسح بذلك على قدمي عليّ فلم يشك بعد ذلك عليّ ألم الورم الذي كان يتوقع طول مدته...

ومفاد رواية أخرى في هذا الموضوع أنه صلى الله عليه وسلم لما استقر بمنزل أبي أيوب كلف كلاً من **زيد بن حارثة*** **وأبي رافع*** مولى

---

(1) أفاد بعض مؤلفي السيرة هنا استطرادا بذكر باقي أعضاء أهل البيت فذكر البنت الكبرى للرسول وهي زينب* بأنها كانت في الوقت بمكة ومنعها عن الهجرة زوجها أبو العاص بن الربيع*حيث كان لا يزال على دين الجاهلية حتى كان من أمره ما كان حيث أسر بغزوة بدر فيمن أسر من المشركين. وقدمت زينب فداءه ثم هاجرت بمفردها وطلقت منه ثم قدم المدينة مسلما فأرجعها الرسول صلى الله عليه وسلم إليه كزوجة ثم توفيت. وأما البنت الأخرى رقية*فقد كانت هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عن جميعهم.

الرسول صلى الله عليه وسلم ودفع لهما من المال خمسمائة **درهم**[1] ، ذكر أنها من مال **أبي بكر الصديق** * رضي الله عنه وأعطاهما أيضا بعيرين فكلفهما بالسفر الى مكة ليقدما بأهل البيت آله صلى الله عليه وسلم وانضم أبو بكر إلى هذا البعث من حيث الإجراء اللازم لاستقدام أهله هو أيضا ، فاستأجر شخصا آخر يرافق زيدا وأبا رافع وكان هذا الأجير هو عبد الله **بن الأريقط** * دليل الركب النبوي في سفر الهجرة كما تقدم ذكره سابقا. وأرسل أبو بكر لركوب أهله مع ذلك الدليل بعيرين أيضا وقيل بل ثلاثة أبعرة. وكانت أسرة أبي بكر هذه التي استقدمها من مكة تتكون من زوجه **أمّ رومان** * وابنته **عائشة أم المؤمنين** * وأختها **أسماء** * وأخيها **عبدالله**[2] .و سافر هذا الركب المتركب من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وعائلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع زيد بن حارثة وأبي رافع

---

(1) إذا علم أن الدرهم في ذلك العهد يطلق على العملة الفضية والدينار على الذهبية وأن صرف الدينار هو عشرة دراهم فالخمسمائة درهم تساوي خمسين دينارا كما هو معروف من تقدير نصاب زكاة المال حيث قدر ذهبا بعشرين دينارا وفضة بمائتي درهم. وما أفادته الأخبار عن قيمة بقعة الأرض التي خصصت لبناء المسجد النبوي وأنها كانت عشرة دنانير.

فيؤخذ من هذا أن مبلغ النفقة لسفر أهل البيت في الهجرة إلى المدينة المقدر بخمسمائة درهم كان ولا شك مبلغا ذا بال.

(2) استطرد بعض مؤلفي السيرة هنا فيما يتعلق بأسرة أبي بكر الصديق بأن كلاً من عائشة وعبد الرحمن* ولدي أبي بكر أمهما أم رومان فهما شقيقان وكلاً من أسماء وعبد الله من امرأة أخرى لأبي بكر بقيت بمكة على دين الجاهلية وكذلك عبد الرحمن بقي بمكة على دين الجاهلية ثم أسلم من بعد.

ويتابع ما استطرد بذكر خبر قدوم أم أسماء المدينة وهي على الجاهلية فأتت بهدية إلى ابنتها ولكن أسماء قاطعتها فلم تقابلها و ردت عليها الهدية. فسألت عائشة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر فأفتى عليه الصلاة والسلام بالتزام حسن المعاملة ، حيث هذا من مكارم الأخلاق و أمر أسماء أن تؤوي أمها وتقبل هديتها.

وكذلك خبر عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه بعث إلى أبيه يسأله النفقة وهو لا يزال بمكة على دين الشرك ، وامتنع أبو بكر أول الأمر من إجراء النفقة عليه حتى سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمره بإجراء النفقة عليه وهو الأمر الذي يفيد شرعية الإنفاق على الأقارب ولو كانوا مخالفين في الدين.

مبعوثي الرسول صلى الله عليه وسلم بدلالة عبد الله بن الأريقط مهاجرا إلى المدينة المنورة حتى كان النزول بقباء.ويلاحظ هنا الشبه بين صحبة أبي بكر للرسول في الهجرة ومصاحبة الأسرتين في سفر الهجرة كذلك. وكذلك الجمع بين هذه الرواية وبين التي قبلها المفيدة كون عليّ بن أبي طالب هو القيم على آل البيت في هذا السفر فلا تنافي بين الروايتين.كما يلاحظ أنه لم يرد في متداول الروايات هنا ما يشير إلى تعرض مشركي مكة لمنع سفر هذا الركب ، ولم يرد كذلك ما يذكر أن السفر كان على اختفاء أو على إعلان مع ملاحظة ما جاء في الرواية الأولى التي تذكر أن عليًّا رضي الله عنه كان في سفره بأهل البيت يسير ليلا ويكمن بالنهار.

ومما يلحق بالملاحظة أن أم **المؤمنين عائشة*** رضي الله عنها كانت في سفر الهجرة هذا من ضمن أعضاء بيت أبيها أبي بكر الصديق ولو هي في الوقت معقود عليها زوجا للرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الدخول بها كان بالمدينة بعد مدة ذات عدد من الشهور كما تقدم بيان ذلك في خبر زواج الرسول صلى الله عليه وسلم منها.والوارد من الأخبار يفيد أن نزول هذا الركب المتركب من آل البيت النبوي وآل صاحبه صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق من سفر الهجرة كان أيضا بقباء[1] ثم نقل أبو بكر أهله إلى المنزل الذي هو به ، وهو السنح على **بني الحرث بن الخزرج***.

(1) مما أورده في هذا الفصل استطراد بعض مؤلفي السيرة الخبر الذي يفيد أن أسماء بنت أبي بكر الصديق* ما كادت تنزل بقباء* من سفر الهجرة هذا حتى وضعت حملها بالمكان بولدها عبد الله بن الزبير* بن العوام أحد مشاهير رجال الصحابة ، و كان هو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة ، ولكن هذا الخبر معارض بما أثبته جمع من المؤرخين الذين يثبتون خلافه يقولون أن عبد الله ابن الزبير إنما ولد بالمدينة بعد عشرين شهرا من الهجرة...

الدرس 62

بناء المسجد النبوي الشريف

المأخوذ من عموم الأخبار المعتمدة أن المبادرة ببناء المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة كان ذلك في أول ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم من أعماله في الميدان العام.بل يبدو أنه أول عمل على الإطلاق في تلك الأعمال.

وحديث بناء المسجد النبوي جاءت فيه روايات بينها بعض التغاير وسيق فيه مواضيع ربما هي أجنبية عن الأصل منه. والأصل من الموضوع وما يتعلق بهذا الأصل مما له به صلة تشير إليه الروايات الآتية:

- رواية تفيد عن صلاته صلى الله عليه وسلم قبل أن يقام المسجد بأنه كان يؤدي الصلاة حسبما يتيسر ، فيصلي أينما أدركته الصلاة (أي أنه لم يخصص للصلاة مكانا قبل بناء المسجد).وفي تعيين البقعة التي بني بها المسجد ورد أنها مبرك الناقة به صلى الله عليه وسلم حسبما تقدم ذكره في دخوله صلى الله عليه وسلم باطن المدينة ، و أن هذه البقعة كانت مربدا معدا لتجفيف التمر كما تقدم ذكره أيضا.

وفيما يتعلق بتعيين الرسول صلى الله عليه وسلم للبقعة واختياره إياها جاءت الرواية التي تذكر بأنه صلى الله عليه وسلم استحضر الجمع من **بني مالك بن النجار** * الواقع المكان بحوزتهم فقال لهم: " يا بني النجار ثامنوني بحائطكم".المثامنة من الثمن بمعنى ساوموني بتعيين القيمة والحائط هو البستان. فأجاب القوم: " لا نطلب ثمنه إلاّ الى الله ". فتطوعوا بثمن البقعة احتساباً لله.ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقبل منهم العطاء وأبى إلاّ أن تكون البقعة مأخوذة بعوض ماليّ فاشترى البقعة منهم.

-وتذكر رواية أخرى وتظهر أنها المشتهرة أن البقعة كانت ملكا ليتيمين أخوين من بني مالك ابن النجار وهما **سهل** * **وسهيل ابنا رافع بن عمرو** * من فصيلة **غنم** * المتفرعة عن بطن مالك ابن النجار وأن هذين

اليتيمين كانا في كفالة أبي أمامة **أسعد بن زرارة***. وفي لفظ آخر أنهما في ولاية **أبي أيوب*** ، وفي أخرى أنهما في كفالة **معاذ بن عفراء*** وأن الرسول صلى الله عليه وسلم استحضر الغلامين المالكين للبقعة وجذب معهما حديث شراء البقعة وأخذ يساومهما ، فما كان من الغلامين إلاّ أن أكدا له أنهما يهبان له البقعة ولا يأخذان عوضا عنها وأبى الرسول ذلك منهما إلاّ بثمن.

-ويؤخذ من روايات أخرى أن الكلام في أخذ هذه البقعة من مالكيها لبناء المسجد كان يدور بين ثلاثة أطراف ، طرف المشتري وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وطرف المالكين على الأصل وهما الغلامان اليتيمان وطرف من له الولاية عليهما.فلما صمم الغلامان على الهبة وكان عدم قبولها من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم لا مراجعة فيه قام من له الولاية على اليتيمين بالتوسط في الأمر و ذلك بأن يجعل لبقعة الأرض عوض ماليّ ولا بدَّ مراعاة لموقف الرسول صلى الله عليه وسلم ويدفع ذلك لليتيمين كجزاء لهما ومعونة تقدم لهما اعتبارا لحالتهما أيضا. فتفيد الأخبار أن الأمر تم بتعيين مبلغ عشرة دنانير ثمنا للبقعة دفعت لليتيمين [(1)] ويؤخذ من بعض الأخبار أنه كان **لأبي بكر الصديق*** رضي الله عنه يدٌ في الوصول إلى هذه النتيجة لأن المال كان من ماله وكان حريصا على أن يلي قضاء هذه المهمة. هذا وتفيد الأخبار الواردة في هذا الموضع أن هذه القطعة من الأرض التي بها المربد كانت تحتوي على مسجد اتخذه **أسعد بن زرارة*** خاصا به كان يصلي فيه بأفراد من قومه وحتى صلاة الجمعة كان يقوم بها فيه ، وكان هذا المسجد جدارا بغيرسقف.وذكر في بعض الأخبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلّى في هذا المسجد قبل أن يبنى المسجد النبوي.

---

(1) ليس هذا هو كل ما جاء في مسألة بقعة بناء المسجد النبوي ، بل جاءت أخبار أخرى غير ما ذكر هنا منها خبر يذكر أن وليّ اليتيمين أسعد بن زرارة عوض اليتيمين عما أخذ منهما من قطعة الأرض بقطعة أخرى على ملكه بها نخيل.

وتحتوي البقعة أيضا على بستان على ملك بني النجار ، ويحتوي- مع هذا - على ساحة فيها قبور قديمة. وجاء من الأخبار ما يفيد أن القطعة من الأرض كانت بها خرب [1] وكان فيها ماء مسحل [2] وفي لفظ كان بها ماء مستنجل. [3]

فلما تهيأ العمل في بناء المسجد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتمهيد البقعة حتى تصلح للبناء. فكان بأمره عليه الصلاة والسلام قطع ما هو قائم من الشجر حيث جعل منه عمد و سواري للمسجد. و وقع نبش القبور ، ونقيت البقعة من العظام التي بها ونقلت تلك العظام الى خارج البقعة حيث غيبت في الأرض وسوِّي ما كان من الخرب و وقع تسيير الماء الذي كان مستنقعا بالمكان حتى جفّ. وأجمعت الروايات الإخبارية في بناء المسجد الشريف هذا البناء الأول على أنه كان أساسه من الحجارة وجدرانه من اللَّبِن. فعند الشروع في العمل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصنع اللَّبِن [4].

فجاءت هنا رواية ساقها البعض في هذا المحل وربما يكون محلها هو البناء الثاني الواقع بالمسجد في أثناء السنة السابعة للهجرة ، حيث كانت الزيادة لتوسيع المسجد على يده صلى الله عليه وسلم. ومفاد هذه الرواية أنه كان حين العمل في صنع اللبن بأيدي الجمع من الصحابة الذين

---

(1) خرب: بضم الخاء المعجمة وفتح الراء آخره باء موحدة صيغة جمع خربة بضم فسكون أو خرابة بضم الخاء أو خرب بضم فسكون وهو الثقب المستدير.

(2) مسحل: بالميم والسين المهملة والحاء المهملة وآخره لام ، فالماء المسحل هو بمعنى المستنقع مما يتحلب من باطن الأرض يقال سحلت العين بالفتح في الماضي ، تسحل بالفتح في المضارع أيضا والمصدر السحل بفتح فسكون والسحول أيضا بالضم بمعنى سالت بالدمع.

(3) المستنجل: من "النجل" بفتح النون وسكون الجيم وآخره لام وهو الماء الذي يتحلب من باطن الأرض ويطلق لفظ المستنجل وصفا للمكان أيضا إذا كان فيه ماء مستنقع.

(4) اللبن: بفتح اللام وكسر الباء الموحدة آخره نون يُستعمل أيضا بكسر اللام والباء وكذلك بكسر اللام وإسكان الباء هو ما يتخذ من عجين الطين قطعا مربعة للبناء كالآجر وهو الجاري في اللغة الدارجة باسم الطوب بضم الطاء.

باشروا هذا العمل يحضر رجل ليس هو من نسب الأنصار أهل المدينة من الأصل ولا من فريق المهاجرين القادمين من مكة وإنما هو أجنبي قيل من حضر موت* وقيل من اليمامة* من قبيلة بني حنيفة*. وذكر في بعض طرق الرواية أنه يسمى طلق بن عليّ* وكان له مزيد حذق في صناعة البناء ، فكأنه لم يعجبه أسلوب الجماعة العاملين فاستنقصه أو استقصره ، ودفعه ضميره المهني إلى أن تناول الآلة من المسحاة من أيدي البعض منهم وطفق يعمل حسب المنوال الذي كان له في فن الصنعة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم - في الوقت- حاضر المقام ينظر سير العمل ويلاحظه وأعجب عليه الصلاة والسلام بصنيع ذلك الرجل.

وقد جاء في نص مقال الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المحل عدد من صيغ المقال وعباراته فمن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال: " رحم الله امرءًا أحسن صنعته ". ثم أقبل على الرجل فقال له: " الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه ".

وفي لفظ من رواية عن الرجل نفسه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر إليه ويقول: "إن هذا الحنفي لصاحب طين"، وفي لفظ آخر أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لأصحابه: " قربوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم منكبا "، وفي لفظ آخر أنه صلى الله عليه وسلم قال: " دعوا الحنفي والطين فإنه من أصنعكم للطين " وجاء أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: " يحب الله من العامل عملا أن يحسن فيه ".

فجاء هذا الأثر النبوي مضافا إلى ما جاء معروفا من تعاليم الشرع وقواعده الأساسية في اعتبار الكفاءة وإسناد الأمور إلى أهلها المختصين وتقديم من هو أكثر كفاءة على من له كفاءة بوجه الإطلاق اعتبارا للدرجات داخل الكفاءة نفسها كما هو مفهوم من صورة الحادث إذ ليس جمع الصحابة الذين كانوا يعملون في بناء المسجد ممن يجهل صنعة البناء.

ومما أورده البعض في هذا الباب الخاص ببناء المسجد النبوي الخبر الذي يفيد صورة وضع حجر الأساس الأول ، فيذكر هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم تقدم فوضع بيده الحجر الأول ثم أمر صاحبه **أبا بكر الصديق*** أن يضع الحجر الثاني. ثم أمر صاحبه **عمر بن الخطاب*** أن يضع الحجر الثالث.

و زيد في بعض طرق الرواية ثم أمر **عثمان بن عفان*** أن يضع الحجر الرابع ثم أذن لباقي الجماعة الذين يحملون الحجارة أن يضعوا بإطلاق.

وزيد في لفظ آخر أنه بعد عثمان أمر الرسول صلى الله عليه وسلم **عليّ بن أبي طالب*** فوضع حجره بعد عثمان ، ثم أطلق الأمر لعامة الحاملين للحجارة أن يضعوا كيفما شاءوا.

وقد جاء مثل هذا تماما في حديث بناء مسجد قباء ، والباحثون من المؤلفين الذين ساقوا هذا الخبر يقرون أنه لم يرد في الصحاح المعتمدة ، وإن أفاد البعض أن إسناد هذا الخبر لا بأس به في الجملة ولكن يذكر آخرون أن في إسناده مجاهيل وكذلك المتن منه فيه اضطراب كما هو ظاهر.

ولعل أن يكون ملخص القول فيه أنه خبر لم يشتهر وأغفله الكثير من مؤلفي السيرة ، و مضمونه مما يستحق - عادة - أن تتواتر به الأخبار.

والذي جاءت به الأخبار مجمعة عليه فيما يخص حادث بناء المسجد الشريف بالمدينة المنورة هو عمل الرسول صلى الله عليه وسلم ومشاركته العمال في عملية البناء كواحد منهم. فمما ورد من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان ينقل اللبن وكثيرا ما اغبرَّ صدره من ذلك.

كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم فيما كان ينقل اللبن يلقاه الرجل من أصحابه فيشفق عليه قائلا له: "يا رسول الله أعطنيها (أي اللبنة)أحملها عنك ". فيقول صلى الله عليه وسلم: " اذهب فخذ غيرها فلستَ بأفقر الى الله مني ".

وقد كان عمل الرسول هذا بنفسه في عملية بناء المسجد له مفعول عظيم في إلهاب حماس الصحابة رضوان الله عليهم للمثابرة واستفراغ الجهد في مزاولة العملية. فكان منهم من أنشأ رَجَزًا من الشعر يترنم به أثناء العمل وهو:

" لـئن قعـدنا والنبـيُّ يعمـلُ * لـذاك منَّـا العمـلُ المـضلّلُ"

و ممن جاءت الأخبار بتمييزه من بين الصحابة بالمزيد من الحماس في العمل وطول الباع من الطاقة فيه الصحابي المهاجر المعروف **عمار بن ياسر*** العنسي رضي الله عنه. فبينما كان الرجل منهم يحمل اللبنة الواحدة كان عمار يحمل اللبنتين معًا.[1]

وكذلك من الوارد أن جمع الصحابة الذين كانوا يعملون في بناء المسجد النبوي الشريف كانوا يروحون على أنفسهم بما يدخل عليهم الأنس والتسلية (وهي عادة طبعية عامة[2]) وذلك بما يترنمون به من نشيد بالأشعار المرتجزة ، فجاء من ذلك قولهم:

" هذا **الحِمَالُ*** لاحمال **خَيْبَرْ*** هذا أبرُّ ربَّنا وأطهرْ"

يشيرون إلى حمل اللبن الذي كانوا يحملونه للبناء والحمال بكسر الحاء المهملة وتخفيف الميم ممدودة معناه المحمول ، وحمال خيبر وهي المدينة المعروفة بالحجاز التي كان يحمل منها إذ ذاك غلل التمور والزبيب لأن أهلها اليهود كانوا يصدرون الشيء الكثير من تلك الغلل يبيعونه إلى الأعراب فتحمل منه الأحمال.

ولفظ "ربنا" في بيت الشعر منصوب على أنه منادى محذوف حرف النداء ، فهم يقولون "يا ربّنا هذا الذي نحمله من اللبن والصخر لبناء

---

(1) بل جاء في بعض الألفاظ من هذا الخبر أن عمارًا كان يحمل اللبنتين والثلاث لبنات وأن الرسول صلى الله عليه وسلم سأله في ذلك فأجاب بأن غرضه زيادة الأجر. فأعجب الرسول صلى الله عليه وسلم به وقال له ما معناه: أن أجرك لمضاعف.

(2) بالنسبة للجماعات وللأفراد ، وأكثر ما يشاهد هذا في العمل اليدوي المتكرر باستمرار.

المسجد ابتغاء لوجهك أبرّ وأكرم وأطهر مما يحمل من أحمال غلل التمر والزبيب من خيبر*."

وجاء أيضا أنه مما كانوا يرتجزون به قولهم:

" اللهـم [1]إن الأجـر أجـر الآخـرة * فـارحم الأنـصار والمهـاجره"

وقد جاء في هذا البيت صيغ مختلفة منها:

"اللهـم لا خيـر إلاّ خيـر الآخـره * فـاغفر للأنـصار والمهـاجره "

ومنها لفظ: " فانصر الأنصار والمهاجره "...الخ. ونسب هذا الشعر إلى الصحابي الأنصاري المعروف المشهور بالشعر وهو عبد الله بـن رواحـة* الخزرجي. و يقول البعض بل إنه لامرأة من الأنصار بزيادة فيه بلفظ:

"وعـافهم مـن حـرّ نـار سـاعره" * فإنهـا لكـافر وكـافره "

والمشتهر أن صاحب هذه الأراجيز هو عبد الله ابن رواحة. فقد جاء أنه كان يرتجز من إنشائه عندما كان البناء يجري في المسجد ، قيل المسجد النبوي بالمدينة وقيل مسجد قباء (ومن الجائز أن يتكرر هذا في بناء المسجدين). فجاء من هذا الرجز قوله:

" أفلـح مـن يعـالج المـساجدا * يتلـو القـرآن قائمـا وقاعـدا "

" ولا يبيت الليل عنه راقدا"

وأفادت الروايات في هذا الموضوع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتابع كلمات ما يرتجز به الجماعة من الأبيات الشعرية.ففي هذا الرجز الأخير الذي هو على قافية الدال الممدودة ، جاء أنه صلى الله عليه وسلم كان يحاكي الكلمة الأخيرة من كل شطر فحاكى لفظ: المساجدا - ولفظ: وقاعدا - ولفظ: راقدا.

---

(1) ظاهر من صيغة هذا البيت أنه غير كامل الوزن المعهود.فذكر هنا أن الأصل في لفظ " اللهم " هو "لأهُمَّ " بحذف همزة الوصل وتخفيف اللام وأن همزة الوصل في فعل الطلب في كل من لفظ "فارحم واغفر وانصر " ينطق بها مقطوعة لضرورة الوزن.

كما جاء أنه صلى الله عليه وسلم كان يتابع ويحاكي جميع ما قيل من هذه الأراجيز إلاّ أنه صلى الله عليه وسلم كان يدخل على الرجز تعديلا يخرجه عن الوزن المعهود في الشعر.

وقد استطرد بعض مؤلفي السيرة في هذا المحل بذكر البحث الواقع في مسألة تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر وإنشاده إياه بعد العلم الحاصل بأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن لينشئ شعرا ولا يتعاطى هذه الصنعة بتاتًا بنص الآية القرآنية من سورة "يس" في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

وجاء في هذا البحث حكاية عدة من الأقوال والآراء والمستخلص الذي عليه الاعتماد في هذه المسألة هو أنه صلى الله عليه وسلم كان في بعض الأحيان والمناسبات يتمثل بالبيت الواحد مما قيل من الشعر معدِلاً له بتقديم أو تأخير يخرجه عن الوزن المعهود وحتى إذا ما حاكى الشطر الأول من البيت موزونا غيّر الشطر الأخير منه بما يخرجه عن الوزن

[أوردوا من الأمثلة الواقعة من هذا أنه فيما يقول الصحابة:

" لا هـمّ إن الأجـر أجـر الآخـرة * فـاغفر للأنـصار والمهـاجره"،

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

" اللهـم إن الأجـر أجـر الآخـره * فـاغفر للمهـاجرين والأنـصار "

وفيما قال قائلهم: "كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا..."،

يقـول صـلى الله عليـه وسـلم: "كفـى بالإسـلام والـشيب للمـرء ناهيا..."

وفيمـا قـال الـشاعر: " سـتبدي لـك الأيام مـا كنـت جـاهلا * ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ"

يقول الرسول: " ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا * ويأتيك من لم تزود بالأخبار"

ولما شكا **عباس ابن مرداس** * حظه من العطاء الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم أعطاه لكل من الزعماء الثلاثة عباس المذكور وهو من

قبيلة **بني سليم** *و **عيينة بن حص** * من قبيلة **فزارة** * **والأقرع بن حابس** * من قبيلة **تميم** * ، و رأى أن صاحبيه متفوقان عليه ، فأنشأ في هذا أبياتا شعرية تتضمن شبه عتاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيها:

" أتجعل نهبي ونهب العبيد * بين عيينة والأقرع "

" فما كان حصن ولا حابس يفوقان مردسا في مجمع "

إلى آخر ما قال. ولما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم الأبيات واتصل بعباس فسأله وقال له: "أنت القائل":

" أتجعل نهبي ونهب * العبيد بين الأقرع وعيينة ؟ " فحاكى البيت الشعري في صورة جملة من كلام مسرود.

هذا ومما يستفاد - استطرادا هنا - أن لفظ النهب في البيت هو بفتح النون وإسكان الهاء وآخره باء موحدة معناه الغنيمة.

ولفظ العبيد جاء أنه يريد به فرسه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم زاد العطاء لعباس حتى أرضاه ، وكانت هذه الواقعة عند قسمة غنائم غزوة حنين بعد فتح مكة أواخر السنة الثامنة للهجرة]

ومع هذا فإنه صلى الله عليه وسلم يميز بين جيّد الشعر و رديئه ويستمع إلى ما يعجبه من الشعر ويستزيد الشاعر من الإنشاد إذا ما أعجبه شعره.

ومما جاء في هذا البحث المقالة التي تزعم أنه صلى الله عليه وسلم كانت له الملكة على إنشاء الشعر بمعناه الاصطلاحي المعروف وإنماكان يمتنع عن ذلك. فزُيفت هذه المقالة وردّت لأنها تصادم الظاهر من نص الآية الواردة في سورة يس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ...﴾.

ومن المعلوم أنه يوجد في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير من الجمل مما جاء مسجعا ، وليس ذلك من الشعر في شيء بل جاء عفويًّا واتفاقيا فهو راجع إلى بلاغته وفصاحته عليه الصلاة والسلام.

الدرس 63

صورة بناء المسجد الشريف

الوارد في الأخبار أن أساس المسجد كان بمقدار نحو الثلاثة أذرع وجعل من الحجارة الصلبة ثم بني الباقي من الجدران باللبن وكان ارتفاع البناء في العلوّ نحو السبعة أذرع.

وجعلت العمد والسواري من جذوع النخل، وكان السقف **بالجريد**[1].

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب وبنيت **العضادتان**[2] من كل باب بالحجارة وكانت مساحة المسجد من الشمال إلى الجنوب نحو السبعين ذراعا.

وجاء من الروايات ما يفيد أنها نحو المائة ذراع ومن الشرق إلى الغرب نحو الستين ذراعا على اختلاف في الروايات بزيادة قدر على هذا العدد. فالمسجد على كل حال في هذه البناية الأولى ليس بكامل التربيع وإنما صار كامل التربيع في البناية الثانية التي أجريت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة السابعة للهجرة.

وجاء في الروايات عن فتح أبواب المسجد الثلاثة أنه جعل له باب في مؤخره وهو الواقع في الجنوب حيث كانت القبلة إذ ذاك إلى بيت المقدس (شمال المدينة)، وجعل البابان الآخران على الجانبين أحدهما على يمين المصلي والآخر على يساره. واستمر الحال على هذا الوضع حتى حولت القبلة إلى البيت الحرام فسدّ الباب الذي كان في القبلة وفتح عوضه باب في اتجاهه.

وجاء في الروايات عن فرش المسجد بأنه لم يكن ثَمَّ أي فراش له حتى كان ذات يوم كثر المطر فابتل المكان إلى حد تعذر أداء الصلاة على

(1) الجريد: بفتح الجيم يطلق على قضبان النخل المجردة من الخوص* بضم الخاء المعجمة وآخره صاد مهملة وهو الورق.

(2) العضادة: بكسر العين المهملة وتخفيف الضاد المعجمة آخره دال مهملة هي جانب الباب. فلكل باب عضادتان يمينا وشمالا.

الواحد من المصلين فجعل الواحد منهم يأتي بقدر من **الحصباء**[1] فيفرشه لمكانه ، ونظر الرسول صلى الله عليه وسلم عملية فرش الحصباء الفردية هذه فأعجبته حتى قال: " ما أحسن هذا ". فأجريت حينئذ عملية تحصيب المسجد بكامله.

و جاء من التعاليق هنا أن أول ما كان فرش المسجد هو ما أجراه **عمر بن الخطاب** * رضي الله عنه أيام خلافته فجعل للمسجد فراش **الحصر**[2].

والذي جاء في تنوير المسجد يفيد أنه كان في أول الأمر يقع تنويره في صلاة العشاء للظلمة بإيقاد سعف[3] النخل ، واستمر الحال على هذا حتى كان وفود تميم الداري على الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في السنة التاسعة للهجرة ، فكان **تميم الداري** * رضي الله عنه هو صاحب المبادرة بإنارة المسجد النبوي بقناديل[4] الزيت ، فعلقت القناديل في المسجد بالحبال.

و ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكبر شأن هذه المأثرة لتميم الداري ودعا له. وجاء من نص ما قال له الرسول صلى الله عليه وسلم "نورتَ مسجدنا نور الله عليك.لو كان لي بنت لزوجتكها".

هكذا صحت الأخبار متظافرة على إقامة المسجد النبوي بالمدينة المنورة في أول إقامة له على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة التي هي تمام البساطة.

---

(1) الحصباء: بالحاء المهملة والصاد المهملة آخره باء موحدة وهو ممدود اسم لما يعرف أيضا بالحصى مقصورا اسم لصغار الحجارة.

(2) الحصر: بضم الحاء والصاد المهملتين جمع حصير بفتح فكسر وهو البساط ينسج من النبات كالقصب والورق والحلفاء وغير ذلك.

(3) السعف: بفتح السين المهملة وفتح العين المهملة آخره فاء ، هو يرجع إلى ورق النخل قضبان دقيقة كالخيوط.

(4) القناديل: جمع قنديل بكسر القاف وإسكان النون بوزن فعليل وهو المصباح يستنار به وكلمة قنديل قيل فيها أنها ليست عربية خالصة.

و الملاحظة التي من الواجب هنا أن لاتغفل هي أن مع هذه البساطة بكل مافيها من الوجوه البدائية كان جانب الإتقان والنظام ومراعاة القواعد الأساسية لصناعة البناء وضروريات الأرفاق في المسجد كل ذلك كان مرعيا بكامل الدقة بحسب ما تقتضيه الحالة الراهنة والظرف الملابس.

فينظر من ذلك إلى مجهود الشغل في تمهيد مكان البناية حيث سويت الأرض وسدت الحفر وجفف الماء المتحلب في باطن أرض المكان وجعل الأساس بالمقدار الكافي لإرساء البناء وعين الحجر للأساس وحيث اتخذت الجدران من اللبن فإن حافتي الباب جعلت من الحجر حتى لا يتطرق الخلل في الجدار و ارتفاع السقف في مثل تلك البناية إلى سبعة أذرع فيه الكفاية بما لا تدعو الضرورة إلى الزيادة عليه سيما وقد جعلت للمكان نوافذ من الأبواب الثلاثة التي كان وضعها في يمين البناية و في شمالها و في الخلف وهو غاية ماتتطلبه الضرورة لتكيف الهواء وتطهير الجوّ في مثل ذلك المكان بحجمه المعروف.

ولمن أمعن النظر وأحسن التأمل في بناية المسجد النبوي هذه أن يستخلص نتيجة القول بأنها بناية روعي فيها سد الحاجة الضرورية الملحة بكامل الضبط و من الجهة المقابلة كان كذلك الوقوف عند الحاجة وعدم تجاوز حدها إلى الكماليات بكامل التَّحرّي.فهو السداد الجامع بين التقشف [1] والإحكام.

---

(1) التقشف: بالقاف والشين المعجمة وآخره فاء من باب التفعُّل ، وأصل المعنى في هذه المادة هو تغير حال الشيء بالرجوع إلى ما هو دون ما يعهد ، والفعل منه مجردا ويأتي لازما بالكسر في الماضي والفتح في المضارع ومصدره القشف بفتحتين ، ويأتي كذلك بالضم في الماضي والمضارع ومصدره القشافة كالطهارة والنظافة والمعنى منه تغير الحال كمن يتغير لونه وجلده من حر الشمس أو يشحب من خشونة العيش.

ثم وقع التوسع في هذا المعنى بإطلاق هذه المادة بصيغة التفعل على القناعة والاكتفاء بأقل ما يمكن من متطلبات المعاش ومرافق الحياة كالمأكل والملبس والمسكن والمركب وغير ذلك ، فيقال تقشف فلان في ملبسه إذا اكتفى بالمرقع مثلا أو في مأكله إذا اكتفى بالخشن....فالتقشف في الجملة هو المقابل للتنعم والتوسع.

وعلى ما جاء من صفة بناية المسجد النبوي هذه أورد البعض من مؤلفي السيرة هنا ما ورد من أخبار وآثار في هذه المسألة حتى كان الإطناب بالتطرق إلى موضوع ذم التطاول في البنيان والنهي عنه على أن ذلك يدخل في باب الزهد في متاع الحياة الدنيا وما في معنى هذا كالتأسي والاقتداء بمن أعرضوا عن الدنيا وزينتها...الخ.

فمن تلك الأخبار الخبر الذي ذكر فيه تشبيه المسجد في إقامته بعريش موسى عليه الصلاة والسلام وظلته.

وهذا الخبر ورد بصيغ متعددة متغايرة منها الخبر الذي نصه " ابنوا لي **عريشا**[1] كعريش موسى ". فقيل له وما عريش موسى ؟ "

قال " كان إذا قام أصاب رأسه السقف ".

وتدل هذه الصيغة في الخبر على أن هذا كان أول ما وقع الشروع في البناء. وجاء من صيغ هذا الخبر أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال في بناء المسجد " **ثمامات**[2] وخشيبات و**ظلة**[3] كظلة موسى "، فقيل له: " وما ظلة موسى "؟ قال: "إذا مدّ يده لمس السقف ".

ولهذا الخبر رواية فيها مزيد تفصيل (في جميع الصيغ من الأصل الواردة في هذا الخبر التعقيب على تشبيه المسجد بالعريش وبالظلة بجملة قوله: "والأمر أعجل من ذلك") ونصها: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا **بعبد الله بن رواحة*** و**أبي الدرداء*** ومعهما قصبة يذرعان بها المسجد فقال صلى الله عليه وسلم لهما: " ما تصنعان ؟ " قالا: "أردنا أن نبني مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنيان الشام، فيقسم ذلك على الأنصار" (أي نفقة البناء)، فقال لهما صلى الله عليه

---

(1) العريش: بفتح العين المهملة وكسر الراء وآخره شين معجمة وهو ما يبنى من البيوت من الخشب والأعواد كالخيمة.

(2) الثمام: بضم الثاء المثلثة وتخفيف الميم ممدودة وآخره ميم هو نبات له ورق كالخوص يظلل به.

(3) الظلة: بضم الظاء المعجمة المشالة ، اسم لما يظلل به من أي مادة كان.

وسلم: "هاتياها" (أي القصبة) فأخذها منهما ثم مشى بها حتى الباب فدحا[1] بها، وقال: "كلا! ثمام وخشيبات وظلة كظلة موسى والأمر أقرب من ذلك"، فقيل له: "وما ظلة موسى؟" قال: "إذا قام أصاب رأسه السقف". وما في هذه الرواية يفيد أن هذا كان بعد تمام بناء المسجد وإقامته.

ومن هذه الأخبار الخبر الذي يذكر أن الصحابة رضوان الله عليهم (والمراد بهم هنا فريق الأنصار بالخصوص) جمعوا مقدارا من المال وأتوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالوا: "يا رسول الله ابن هذا المسجد وزينه فإلى متى ونحن نصلي تحت هذا الجريد؟" فأبى الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم.

وزيد في لفظ آخر من هذه الرواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: "ما بي رغبة عن أخي موسى: عريش كعريش موسى".

ومن هذه الأخبار الخبر الوارد عنه صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: "ما أمرت بتشييد المساجد"، وكذلك الخبر الذي نصه "لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد". و الخبر الذي يقول: "من أشراط الساعة أن تتباهى الناس في المساجد كما تزخرف اليهود والنصارى كنائسهم وبيعهم".

وفيما يرجع إلى التواضع في البنيان بوجه العموم أورد هنا الأثر الثابت عنه صلى الله عليه وسلم في بناء بيوت[2] أزواجه أمهات المؤمنين التي تعرف بالحجرات، فإنها بنيت عن أمره عليه الصلاة والسلام على نمط

(1) دحا: فعل دحا بالدال المهملة والحاء المهملة آخره حرف علة يأتي بالواو في المضارع ومصدره الدحو بفتح فسكون بوزن عدَا يعدو عدوا، ومعناه بسط الشيء ونشره متسعا. ويأتي هذا الفعل مفتوحا في المضارع ومصدره الدّحي بفتح فسكون بوزن سعى يسعى سعيا، ومعناه البسط كذلك فيكون متعديا للمفعول بنفسه كما في عبارة دحا الله الأرض بمعنى بسطها فإذا استعمل متعديا بحرف الباء كما جاء هنا كان معناه الرمي بالشيء. فيقال دحا بالحجر بمعنى رمى به.

(2) والمستفاد من بعض الأخبار عن وضع هذه الحجرات أنها كانت حوالي المسجد على جوانبه الثلاثة جنوبا وشرقاو شمالا.

بناء المسجد فكانت جدرانها من اللبن وسقوفها من الجريد. وقد علم من الأخبار أن بناءها كان مرتبا بحسب الأوان والحاجة إليها. فأول ما بنى منها بأثر الفراغ من بناء المسجد حجرة أم **المؤمنين سودة*** بنت زمعة وحجرة **أم المؤمنين عائشة*** بنت الصديق لكونهما الزوجين في الوقت له صلى الله عليه وسلم ، ثم كان بناء الباقي من الحجرات يتخذ عندما تدعو إليه الحاجة وقتما يتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بالواحدة من أمهات المؤمنين.فتبنى لها الحجرة الخاصة بها حتى كانت النهاية بحجرة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث آخر سنة سبع من الهجرة [المعتمد من الأقوال في عدة أمهات المؤمنين أنهنَّ إحدى عشرة. أولاهنَّ**خديجة*** بمكة قبل البعثة حتى توفيت في سنة عشر من النبوة.ثم تزوج عليه الصلاة والسلام سودة بنت زمعة وعقد الزوجية على عائشة بنت الصديق. ثم بعد الهجرة تزوج عليه الصلاة والسلام **حفصة***بنت عمر بن الخطاب **وزينب بنت خزيمة*** الهلالية وتوفيت هي أيضا كخديجة ، وبعدها أم **سلمة*** بنت أبي أمية المخزومية.ثم **زينب بنت جحش*** **وجويرية بنت الحارث*** من بني **المصطلق***.و **أم حبيبة بنت أبي سفيان*** من **بني أمية***. **وصفية بنت حيي*** الإسرائيلية.ثم **ميمونة بنت الحارث*** الهلالية.فكان عدد هذه الحجرات الخاصة بأمهات المؤمنين تسع حجرات لأمهات المؤمنين اللاتي عشْنَ بعده عليه الصلاة والسلام.

و على ذكر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ينبغي- لعروض هذه المناسبة - التعرض إلى ما يخص ترجمة أم المؤمنين **ميمونة* بنت الحارث** الهلالية آخر أزواجه عليه الصلاة والسلام ، فإن الوارد المعروف التداول والذي أثبته العموم ممن ألف في السيرة والتاريخ من المتقدمين والمتأخرين يفيد أن أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها يرجع نسبها إلى **بني هلال*** القبيلة الأعرابية المعروفة وأنها شقيقة **لأم الفضل لبابة الكبرى** ***زوج العباس** بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم

وشقيقتهما الثالثة هي **لبابة الصغرى زوج الوليد بن المغيرة*** وأم **خالد بن الوليد*** سيف الله ، ولهن أخوات من الأم إحداهن **زينب بنت خزيمة أم المؤمنين*** الملقبة بأم المساكين المتوفاة في عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثانية **أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب*** وبعده تزوجها أبو بكر الصديق وبعده عليّ بن أبي طالب ، والثالثة **سلمى بنت عميس*** شقيقة أسماء وهي زوج حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم الملقب بأسد الله. وأم الجميع هي **هند بنت عوف بن الحارث*** التي كان يقال عنها أنها أكرم عجوز أصهارًا. وميمونة رضي الله عنها كان اسمها الأصلي برة بفتح الباء الموحدة والذي أبدل اسمها إلى ميمونة هو الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تزوجها. والوارد فيها أنها تزوجها أول مرة قبيل ظهور الإسلام رجل من **ثقيف*** يدعى **مسعود ابن عمرو*** ففارقته ثم تزوجها رجل من بني عبد العزى من قبيلة **بني عامر*** القرشية إختلف في تعيينه وأثبت البعض أن اسمه **أبو رهم بن عبد العزى*** ، فهو الذي توفي عنها وتزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قدم مكة لعمرة القضاء في شهر ذي القعدة سنة سبع من الهجرة.و تفيد أخبار بأن الرغبة والغرض في الزواج كان منها رضي الله عنها وكان الواسطة في الأمر هو العباس رضي الله عنه وزوجه شقيقتها. ومما جاء في الأخبار أن بناء الرسول صلى الله عليه وسلم بميمونة كان في أثناء طريقه إلى المدينة بموضع يبعد عن مكة نحو ستة أو تسعة أميال يعرف **بسرف***(بفتح السين المهملة وكسر الراء آخره فاء). ولعل هو ما عرف من بعد باسم أبي عروة ، ومن الاتفاق أنه الموضع الذي توفيت به ودفنت به ميمونة رضي الله عنها حيث كانت عليلة بمكة وأخرجت إليه بإشارة منها لذكرى ظرف الزواج. وذكر التاريخ هنا أنه سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ويظهر أن الأرجح هو ما أثبته آخرون وهو سنة إحدى وخمسين(هجرية). ذكرت هذه النبذة في ترجمة أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها للتنبيه والملاحظة على ما جاء في كتابين مما ألف في

السيرة حديثا وهما كتاب " نور اليقين " للأستاذ **محمد الخضري** * وكتاب "الخيار " للأستاذ **مصطفى الغلاييني** *. ففي كل من الكتابين القول بأن ميمونة رضي الله عنها كانت زوجا لحمزة بن عبد المطلب وتأيمت منه. و لم نطلع إلى حد الساعة على ما يوافق هذا في غير الكتابين المذكورين. والمعتقد أن هذه غلطة ربما مصدرها الوهم الحاصل من خبر زواج حمزة من أخت ميمونة وهي سلمى بنت عميس].

فكان بناء هذه الحجرات كلها بمثل ما بني به المسجد النبوي تماما إلاّ ما كان من حجرة أم المؤمنين **أم سلمة** * بنت أبي أمية المخزومي فإنها رضي الله عنها ربما كان لها الطموح الذي كان لفريق الأنصار تجاه بناء المسجد في تشييد البناء وإحكامه ومزيد الكلفة فيه بالتمتين والتحسين ، فأجرت تجديدا في بناء حجرتها على هذا النمط وكان ذلك في أيام غيبة الرسول صلى الله عليه وسلم لغزوة **دومة الجندل** [1] فلما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم من غيبته و رأى البنيان قال لها: " ما هذا البنيان يا أم سلمة ؟ " قالت: " أردت أن أكف أبصار الناس " ، فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث الذي قال فيه: « إن شرّ ما ذهب فيه مال المرء المسلم البنيان».

و من هذه الأخبار الخبر الذي جاء فيه ما معناه: " يؤجر العبد في كل ما ينفق إلاّ ما يضعه في هذا التراب " المراد به البنيان.

و أورد هنا أيضا ما روي عن **الحسن البصري** * أنه قال: « كنت وأنا مراهق زمن خلافة عثمان أدخل بيوت أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم فأتناول سقف البيت منها بيدي».

و قد كان من أمر هذه الحجرات أن هدمت [2] وأدخلت في المسجد وذلك بعد موت آخر أزواجه عليه الصلاة والسلام وهي **أم سلمة** *

[1] دومة الجندل: بلد في طريق الشام وكانت الغزوة أوائل سنة خمس للهجرة تغيب الرسول صلى الله عليه وسلم فيها نحو الشهر وسيأتي ذكرها في الغزوات.

[2] معلوم أن من هذه الحجرات حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وفي هذه الحجرة كان مدفن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

والمعروف في تاريخ وفاتها أنه بعد سنة ستين للهجرة وذلك في زمن خلافة **يزيد بن معاوية** *.فبقيت الحجرات شاغرة مغلقة[1] حتى زمن خلافة **الوليد بن عبد الملك ابن مروان**،* و كانت ولايته فيما بين سنتي ست وثمانين وست وتسعين هجرية. فهو الذي أمر بهدم الحجرات وادخالها في المسجد لتوسيعه.فورد من الأخبار في هذا عن **عبد الله بن زيد الهذلي** * أنه قال: «شاهدت بيوت أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم حين هدمها **عمر بن عبد العزيز بن مروان** * والي المدينة بأمر الوليد بن عبد الملك بن مروان ».

و في رواية أخرى عن آخر[2] قال: «حضرت كتاب الوليد إبن عبد الملك يقرأ (على الجمهور) في إدخال بيوت أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد النبوي" ، يقول: " فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم ".

و جاء في سياق هذا الموضوع التعقيب على خبر هدم الحجرات بحكاية مقال من أبهم اسمه حيث قال: " ليتها لم تهدم وتركت حتى يقصر الناس عن التفاخر بالبناء ويرون ما رضي الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام ومفاتح خزائن الأرض بيده [أبهم اسم من نقل عنه مقالة التمني لترك الحجرات ماثلة حتى يتعظ بها الناس. هكذا في الكتاب المنقول منه هذا التقييد وهو السيرة الحلبية **لنور الدين الحلبي** *. وأما صاحب كتاب "وفاء الوفا في أخبار المدينة المنورة"**نور الدين السمهودي** * فقد أورد الرواية عن **عطاء الخراساني** * بأنه سمع **سعيد ابن المسيب** * الإمام التابعي المعروف يقول ما معناه: وددت أن لو تركت هذه الحجرات على حالها ولم تهدم فيقدم القادم من الآفاق على المدينة فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها". وتابع السمهودي نقل هذه الرواية عن عطاء الخراساني بأنه لما فرغ

---

(1) نقل فيما نقل من الأخبار أن هذه الحجرات كانت في المدة التي بين شغورها وهدمها تفتح للمصلين يوم الجمعة فيؤدي البعض صلاة الجمعة بها لضيق المسجد.

(2) فيما نقله السمهودي في كتابه "وفاء الوفاء" عن اسم هذا المخبر بأنه عطاء الخراساني * التابعي المعروف.

عطاء من حديثه هذا تكلم **عمران بن أبي أنس** * فحكى شيئا مما رآه من شكل بناء الحجرات وذرعها ثم قال لعطاء: " وأما ما ذكرت من كثرة بكاء الناس (أي حين هدم الحجرات) فلقد رأيتني في المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: **أبو سلمة بن عبد الرحمن** * **وأبو أمامة ابن سهل** * وخارجة ابن زيد * وأنهم ليبكون حتى أفضل لحاهم الدمع". وقال يومئذ أبو أمامة: " ليتها تركت حتى ينقص الناس من البنيان ويروا ما رضي الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده. ولفظ "أفضل" من قوله: « حتى أفضل لحاهم الدمع» نقل هنا كما هو بالنسخة المطبوعة بمصر المطبعة للآداب والمؤيد بتاريخ 1326هجرية ولا يظهر له معنى في الكلام بل هو تصحيف وصوابه أن يكون محل الفاء خاء معجمة هكذا: "أخضل لحاهم الدمع" بمعنى "بلّ الدمع لحاهم".

و هكذا تنقل هذه المقالة في تمني الإبقاء على الحجرات بشكلها الأول لأجل التأسي بها ويتعدد مصدرها ومن الجائز أن يكون الحال كذلك من توارد الخواطر ومن الجائز أيضا وهو المستقرب أن تكون متحدة المصدر ثم تنوقلت ودخلها التصرف والتزيد. ففيما نقل منها عن سعيد بن المسيب لم يكن معها ذلك التعقيب الذي عقب به عليها في النقل عن أبي أمامة -و هو ما يقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار الله له سكنى تلك البيوت مع أنه بيده مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتح خزائن الدنيا.

و على كل حال فالمقالة تعبر عن فكرة شخصية خاصة ثم هي مع ذلك لا تكون ذات موضوع إلاّ بنسبة لفريق مخصوص من الناس ولمدة محدودة من الزمن. فليست الحجرات تلك مما يبقى على تطاول الزمان حتى يصح أن يكون محل تأسي بالوجه العام المطلق - فهي بشكلها ذلك ووضعها المعروف إن قدر لها أن أبقت عليها أيدي الإنسان فلا تبقي عليها أيدي الحدثان. ويبقى من الملاحظة في هذا الموضوع ما جاء في المقالة عن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه كان بيده مفاتح خزائن الأرض ومفاتح خزائن الدنيا ، فمثل هذه المقالة مما يبدو و كأنه غير معهود في

كلام السلف وإنما يوجد بكثرة فيما جاء بعد ذلك من كلام الخلف عندما يتناولون شأن الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث مقامه الجليل وخصائصه ومواهبه من ربه عز وجل. وتضمن الملاحظة هنا مجرّد سؤال يطرح على المختصين من علماء الشريعة الإسلامية ذلك هو: هل هذه المقالة في شأنه صلى الله عليه وسلم سليمة من المصادمة مع آية سورة "الأنعام" في قوله عز وجل: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ ؟ وفي معنى آية "الأنعام" هذه آيات قرآنية عديدة...هذا مع العلم بما تتضمنه آيات قرآنية كآية سورة " الفرقان " في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴾. ففي هذه الآية الردّ على مقال الكافرين المنكرين حيث قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا (7) أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا ﴾، فكان الردّ عليهم بأن أمر الرسول فوق ما يرون وبأعظم مما يتصورون فلو تعلقت إرادة الله بما هو خير وأفضل مما ذكروا من متاع الدنيا لكان ذلك حاصلا له صلى الله عليه وسلم ولكن هذا الأمر مما لم تتعلق به مشيئة الله. وكذلك الأمر فيما لو سأله الرسول صلى الله عليه وسلم من ربّه لأعطاه له كما تخبر به أخبار نبويّة كقوله صلى الله عليه وسلم بمعنى "لو دعوت ربّي لجعل لي الصّفا ذهبا" وغير ذلك من أحاديث في معنى هذا] بل سيقت في هذا الموضوع أخبار وآثار زيادة على ما فيها من الغرابة فهي مما لا يعرف له سند ولا مصدر كالأثر الذي يقول: " أن الشخص الذي يرفع بناءه فوق سبعة أذرع ينادى (أي من قبل الملائكة) "إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟".

و لعل أولى ما يقال في مقابلة هذا أن البنيان فرد من أفراد مرافق الحياة وهي خاضعة للظروف الزمانية والمكانية وتقلباتها وتطورها تأخرًا وتقدمًا ونزولاً وارتقاء تبعًا للحضارة والبداوة.فقد يكون الشيء من هذه المرافق كماليًا في وقت ثم يصير هو عينه ضروريًا في ظرف آخر. وقد قضت المشاهدة الفعلية بهذا التطور في نفس عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

في نفس بناء المسجد وإقامته.فلينظر ابتداء إلى القيمة التي اشتري بها مكان المسجد أول الأمر وهي عشرة دنانير فما كادت تمر مدة سبع سنوات من بعد حتى كانت قيمة القطعة من الأرض التي أضيفت إلى المسجد لتوسيعه تبلغ عشرة آلاف درهم (تضاعف المبلغ إلى مائة ضعف). وقد كانت إنارة المسجد أول الأمر بإيقاد سعف النخل ثم بعد مدة كانت الإنارة بقناديل الزيت تعلق في سواري المسجد. وهكذا سنة الله في الكون بالتطور في الارتقاء والتوسع إذا ما كان الأمر في أوان ابتدائه وعهد شبابه كما هو الحال هنا.

هذا...و الذي يلاحظه الملاحظ في خصوص بناية المسجد النبوي الواقعة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم أول مرّة هو أمران اثنان- حسبما يؤخذ من مضمون الأخبار الواردة في هذا الصدد- كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوخاهما بكل عناية واهتمام. الأول منهما هو الإسراع جهد الإمكان في إقامة المكان ويقتضي هذا مراعاة اختصار الزمن ، والثاني مراعاة الحالة المعاشية العامة للمجتمع إذ ذاك(المعبر عنها بالحالة الاقتصادية) وهي في الوقت تقتضي الاقتصاد في إنفاق المال جهد الإمكان أيضا.فالإسراع بإنجاز بناية المسجد من حيث كونه المكان والهيكل الذي يحصل به أداء المهمات الأصلية من الدعوة فتقام به الشعائر من الصلوات وفيه يتلقى التعليم والتوجيه ويتأتى الاتصال بالجمهور والأفراد للتفاهم والمشاورة إلى غير هذا مما ينجز فيه من المهمات ذوات البال فمن هذا كانت الحاجة إليه بالغة أقصى درجات الإلحاح والأهمية.و فيما يرجع إلى قصد الاقتصاد في صرف المال ضمن المعلوم أن الوقت إذ ذلك كان في أول ابتداء إقامة كيان الدولة الإسلامية و دواعي إنفاق المال هنا متعددة النواحي متنوعة وجوه الطلب. ويلاحظ مع هذا أن عبء صرف المال هنا إنما كان في واقع الحال يقع على كواهل فريق الأنصار بالخصوص إذ فريق المهاجرين مع قلته بالنسبة للأنصار فهو في الجملة فريق معوز الحال على

أن الأنصار كانوا في الوقت يتحملون عبء الارفاق والعيالة للمهاجرين كما هو معروف ، وإذ قد تحقق أن المسجد ببناية الرسول صلى الله عليه وسلم تلك قد أدى المهمات المطلوبة منه كاملة غير منقوص منها مثقال ذرة إلى المدة الطبيعية المعهودة. فماذا كان يقع لو بني على نظرية الطامحين للأناقة والتنميق فصرفت عليه المبالغ الضخمة من المال واستغرق من الوقت المدد العديدة. ثم هو بعد ذلك لا يؤدي من المهمات المطلوبة منه أيَّ زائد ولو جناح بعوضة عما أداه المبني على نظرية الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ اللهم لا شيء إلاّ ذهاب ما يذهب من المجهود المالي والزماني في أمور وهمية لا أكثر من ذلك. فالمسألة - إذن - مسألة التسيير الحكيم وسياسة الرشد المقتضية وضع الأشياء مواضعها وتقدير الظروف الحاضرة والأحوال الملابسة مقاديرها بغير إجحاف ولا إسراف وكيف لا؟ وهو تصرف من أنزل الله عليه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما.

و لمزيد توضيح في هذا الموضوع حتى يتبين أن مسألة التقشف في البنيات على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ليست مسألة مجرد الزهد والعزوف عن الدنيا و زينتها حتى يطلب فيها التأسّي بالشكل المادي الصرف ينبغي-أوّلا-أن لا يطرح من الاعتبار مقدار المدة الزمانية التي استغرقها هذا العهد الذي كان هو عهد الانطلاق للعمل في الميدان الاجتماعي بحرّية و إمكانيات ، فقد كان مقدار هذه المدة لا يتجاوز عشر سنوات قمرية بالضبط (من الهجرة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم). ففي هذه الحصة من الزمن كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبني العقول البشرية حتى قام منها صرح الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس.

و بجانت هذا كان أيضا الشغل الشاغل العظيم والمجهود الأكبر الجسيم الذي استبدّ بمعظم الزمان واستأثر بكل ما هو موجود من طاقة وإمكان ألاَ وهو مجهود الدفاع عن الدعوة والجهاد في سبيل حمايتها من

عدوان الأعداءالذين كانوا جبهات متعددة في واجهات مختلفة يجمعهم غرض واحد و يرمون إلى هدف واحد هو القضاء على دعوة الإسلام واستئصال القائمين بها والتابعين لها ، فهذه واجهة قريش وصلابتها وعنادها ، وهذه واجهة اليهود وكيدها ومكرها ، وهذه واجهة الأعراب واعتداؤها وتكالبها ، ثم واجهة الروم وحقدها و طغيانها.

فلم ينفك المجهود الدفاعي قائما طوال عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أيامه ولياليه من يوم أذن له صلى الله عليه وسلم في الدفاع و ردّ العدوان مفتتح السنة الثانية للهجرة حتى اليوم الذي عقد فيه عليه الصلاة والسلام اللواء للجيش الذي عينه للتوجه إلى واجهة الروم وأسند قيادته إلى **أسامة بن زيد ابن حارثة*** ، وفيما كان الجيش معسكراً بظاهر المدينة يكمل عدته ويتأهب للمسير ينزل قضاء الله بالحادث الجلل وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه فتوقف انطلاق هذا الجيش-طبعًا-و لكن لمدة أيام فقط ، فقد أبى **الخليفة الصديق*** رضي الله عنه-رغم الظرف المعاكس- إلاّ أن ينجز مهمة الجيش حسب ما كان رسمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانطلق الجيش و أدى مهمته التي كانت ناجحة فوق ما كان يؤمل ، فقد أحرز على الغنيمة و على السلامة معًا.

أفلا يستنتج مما تقدم ذكره أن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فما بعده - مما هو في حكمه- ليس عهد تشييد المباني وتأسيس منشآت العمران المادية ؟ إذ ليس فيه متسع لذلك لا من الوقت ولا من الإمكانيات الأخرى.

و من هذا يكون الجائز أن يفهم جواب الرسول صلى الله عليه وسلم في ردّه على أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى التشييد والأناقة في بناء المسجد بقوله: " عريش كعريش موسى" أو: " ظلة كظلة موسى" ، وقوله: "ثمامات وخشيبات ، والأمر أعجل من ذلك" ، ونحو هذا من الصيغ حسبما وردت روايات الأخبار ، يفهم هذا على أنه دلالة على حرص الرسول

صلى الله عليه وسلم على ربح الزمن وتخفيف المؤن. وأنه في معنى القول بأن ما يطمح إليه أولئك الطامحون هو أمر سابق لأوانه وفعلا فقد جل الأوان الذي أمكن فيه التوسع في بنيان المسجد فيما تعاقب بعد ذلك من الأزمنة.

و أول ما وقع من هذا التوسع هو الزيادة التي زادها الرسول صلى الله عليه وسلم في غربي المسجد وذلك في سنة سبع من الهجرة بعد مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة من غيبته في غزوة خيبر* وكانت البقعة من الأرض التي ضمت إلى المسجد هي ما تقدم الحديث عنها قريبا بأنها اشتريت بعشرة آلاف درهم ، وكان هذا المبلغ المالي من مال عثمان بن عفان* رضي الله عنه تبرعا منه حيث أنه أتم عقدة الشراء مع مالكي القطعة ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر واضعا القطعة بيده عليه الصلاة والسلام. وقد ورد في الروايات الإخبارية أن الرسول صلى الله عليه وسلم عوض عثمان عما قدمه من هذه القطعة الأرضية ببيت في الجنة وعدا بالجزاء من الله على صنيعه الجليل.

ثم جرى العمل في البناء لهذه الزيادة كما وقع في المرة الأولى. ويشهد لما تقدم ذكره من كون الرسول صلى الله عليه وسلم إنما سلك في بناء المسجد أول الأمر طريق الاقتصاد مراعاة لحالة الضيق المعاشية ما جاء هنا من الروايات الإخبارية صريحا في هذا المعنى ، ومنه الرواية التي وردت بهذا اللفظ: " بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده مرتين ، الأولى حين قدم المدينة أقل من مائة في مائة (أي من الأذرع) فلما فتح الله عليه خيبر بناه و زاد عليه". وإذا كانت الأخبار عن وقائع ما حدث أثناء العمل في البناء وردت في جملتها متشابهة بين ماهو في المرة الأولى وما هو في المرة الثانية وكثيرًا ما يرد الخبر في حكاية الحادث مطلقا من غير تعيين أهو في المرة الأولى أم في الثانية ؟ فإنه من الميسور معرفة ما هو قد تكرر وقوعه في المرتين معا وما هو خاص بإحداهما.

[كون الرسول صلى الله عليه وسلم مباشر العمل في بناء المسجد من حيث إعانته للعمال وحمله الحجارة واللبن ونحو ذلك وردت به الأخبار في كل بناء ، فورد ذلك في بناء مسجد قباء ومسجد المدينة في المرتين وكذلك طلب الصحابة ليحملوا عنه ما هو حامل من الحجارة شفقة منهم عليه وردّه عليه الصلاة والسلام على الواحد منهم بقوله: "اذهب فاحمل غيره" تكرر في الجميع ، وكذلك تعدد هؤلاء الذين طلبوا الحمل عنه وأبى عليهم هو من الثابت في جميع مرات البناء ، وجاء تعيين البعض منهم باسمه **كأسيد بن حضير*** و**أبي هريرة***و أبهم اسم البعض منهم. وأما إنشاد أبيات الشعر المرتجز من طرف العمال في البناء فيلاحظ أن نشيد ما قالوا فيه: " هذا الحمال لا حمال خيبر" إن الأنسب به كونه في البناية الأولى ، كما يلاحظ مع ذلك أن بناء المسجد في المرة الثانية كانت نفقته من غنائم غزوه خيبر].

فإن عمل الرسول صلى الله عليه وسلم في البناء بإعانة العمال وحمل الحجارة بنفسه ثابت في المرتين ، وكذلك ما ورد من ترويح العمال عن أنفسهم بإنشاد الأشعار المرتجزة هو مما تكرر وقوعه في المرتين. كما يظهر رجحان كون حادثة **عمار بن ياسر*** في حمله اللبن بزيادة عن أصحابه وما تبع ذلك من حدث أنه من وقائع المرة الأولى [حادث عمار بن ياسر في حمله الزيادة من اللبن ورد هكذا مجردًا في روايات. و ورد في روايات أخرى مضافا إليه حادث آخر مرتبط به هو أن عمارًا كان يرتجز رجزًا رأى فيه **عثمان بن مظعون*** لما سمعه ما عده تعريضًا به من حيث تقصيره في العمل فكان من ذلك تغاضب بين عثمان و عمار إلى آخر ما جاء في هذه الرواية.فعلى هذا يتعين أن يكون هذا الحدث من وقائع المرة الأولى للبناء لأن عثمان ابن مظعون لم يلبث أن توفي أثناء السنة الأولى للهجرة أو السنة الثانية على قول آخر].

و كذلك رجحان كون واقعة الرجل اليمامي الذي قدمه الرسول صلى الله عليه وسلم للعمل لمهارته أنها كانت في المرة الثانية. وكذلك من المقطوع به أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مع الرسول صلى الله عليه وسلم لما طلب منه أن يناوله الحجر ليحمله عن الرسول شفقة عليه وأبى الرسول ذلك وقال له: " اذهب فاحمل غيره "...إلخ هو من أحداث البناية الثانية لأن أبا هريرة لم يقدم المدينة مهاجرًا إلاّ في السنة السابعة للهجرة.

و الذي جاءت به الأخبار في صفة هذه البناية الثانية للمسجد النبوي أنها مثل الأولى من حيث إقامة الجدران باللبن إلاّ أنه يلاحظ أن في هذه البناية الثانية كان المجهود في العمل أوفر.فقد أفادت الأخبار أن البناء في المرة الأولى كان على النمط الذي سمي **بالسميط**[1] وهو وضع اللبنة على اللبنة طباقا حتى يقام الجدار. وأما في البناية الثانية فقد كان النمط على ما يسمى بالسعيدة وهو وضع النصف من اللبنة على النصف من أختها فيكون الجدار على هذا النمط متشابك اللبنات وبذلك يكون أكثر متانة ، كما يستغرق من الوقت ويستهلك من اللبن أكثر مما يبنى بالسميط ومثل نمط السعيدة نمط الذكر والأنثى وفسر بأنه البناء باللبنات متخالفات بشكل ما من الأشكال فيكون البناء بهذا أشدَّ إحكاما من بناء السميط. وقد جاءت الروايات الإخبارية بذكر كلّ من السعيدة والذكر والأنثى في البناية الثانية للمسجد النبوي تحت إشراف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن صورة ما جاء من لفظ هذه الأخبار لفظ: " بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده أول مرة بالسميط وبناه في المرة الثانية (أي بعد غزوة خيبر) بالسعيدة ، وفي لفظ: " وبناه في المرة الأخيرة بالذكر والأنثى ".

و قد علم مما تقدم أن بناية المسجد النبوي الثانية هذه إنما كانت مجرد زيادة فيه لتوسيعه وليست بناء تجديد ، ومن هذا يعرف أن ما تقدم ذكره من الخلاف بين الروايات في مقدار مساحة المسجد حيث ورد أنه

(1) السميط: بفتح السين المهملة وكسر الميم ممدودة آخره طاء مهملة بوزن فعيل.

مستطيل مساحته من الجنوب إلى الشمال أكثر مما هي من الشرق إلى الغرب ، وما ورد أن ذرعه سبعون ذراعا طولا و ستون عرضا ، وما ورد يخالف هذا و يفيد أن المسجد مربع وأن ذرعه مائة ذراع في مثلها ، فكل هذه الروايات جاءت على إطلاق و بتقييدها بما قبل الزيادة وبما بعدها يتبين أن ليس ثم خلاف ، وقد أفاد هذا المعنى ممن كتب في هذا الموضوع أحد المحققين وهو الأستاذ **عبد القدوس الأنصاري** * في كتابه "آثار المدينة المنورة " حيث يقول أنه بزيادة الرسول صلى الله عليه وسلم في بناية المسجد عام سبعة من الهجرة صار المسجد مربعا كامل التربيع.

فيستخلص في صورة بناية المسجد النبوي الشريف أنها بحسب ما تقدم ذكره من حيث الوضع والشكل ومادة البناء وما زيد فيه من التوسيع عام سبعة من الهجرة فصار مربعا مساحته في مقدار مائة ذراع طولا في مثلها عرضا وأن المسجد الشريف بقي على هذا الشكل حتى نهاية عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وطوال مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وصدرا من خلافة **عمر بن الخطاب** * رضي الله عنه أي حتى سنة سبع عشرة للهجرة ، فهي مدة استغرقت عشر سنين بالضبط. ومن هذا يعرف أن صورة المسجد النبوي بوجه العموم على ما وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم وجرى على مقتضى نظره وتحت إشرافه استغرق قيامها ست عشرة سنة من الزمن عشر منها على عهده وست منها من بعده عليه الصلاة والسلام.

و لما كان أمر الإسلام في هذا العهد آخذا في النماء والتقدم فقد أوجب الحال تغيير بناية المسجد النبوي بالزيادة فيه وحتى بتجديد البناية بالجملة.

و أول ما كان من ذلك هو ما وقع على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عهد خلافته ، وذلك بتاريخ السنة السابعة عشرة للهجرة حيث ضاق المسجد عن رواده بتزايد المسلمين.

و تفيد الأخبار هنا أن عمر رضي الله عنه قرر أن يزاد في المسجد لتوسيعه من غير ما تجديد لجملة البناء القديم.

و الذي جاء في بعض الأخبار أن هذه الزيادة في المسجد على يد الخليفة عمر بن الخطاب كانت في الجهات الثلاث جنوبا وغربا وشمالا وكانت مساحتها في الجميع بما يقرب من نصف المساحة القديمة. ومما أفادته الأخبار أيضا أن الضرورة دعت إلى هدم مباني كانت قرب المسجد حيث أدخلت بقاعها في المسجد و عوض عمر بن الخطاب أصحابها ما أرضاهم به من مال أو قطع أرض بدلها. ومن جملة هذه المباني دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم.[أفادت أخبار التاريخ عن دار العباس بن عبد المطلب هذه من حيث مطلب إدخالها في بناية المسجد النبوي عند زيادة **عمر بن الخطاب*** في المسجد وقوع حادث خلاف بين **العباس*** و عمر رضي الله عنهما في شأنها ولما لهذا الحادث من الأهمية وما فيه من عبر ينبغي استخلاصها. فقد تعددت روايات الأخبار عنه وجاء على طرق عديدة الرواة كما تغايرت الصيغ اللفظية في حكاية وقائعه والمأخوذ عن صورة المشكل الذي نتج عنه الخلاف هو أن من جهة العباس كانت هذه الدار على قطعة من الأرض أقطعها له الرسول صلى الله عليه وسلم فبناها و باركها الرسول صلى الله عليه وسلم و شارك في العمل بنائها فكانت للعباس باعتبار التراث المحتفظ به ، ومن جهة عمر ابن الخطاب الذي هو في وقت الخليفة للمسلمين وقد ارتأى أن يوسع المسجد حيث ضاق وكانت الدار تزاحمه كبعض المباني التي كانت حوله ، فهدمت هذه المباني و وقع إدخال بقاعها في المسجد وعوض أصحابها بما يرضيهم من مال أو قطع أرض أخرى فلم يبق في مزاحمة المسجد إلاّ دار العباس. فتقدم عمر بالطلب إلى العباس ليسلم الدار كما كان الأمر مع أصحاب المباني التي أدخلت في المسجد ، فمانع العباس رضي الله عنه أول الأمر الممانعة كلها وجرى بينهما الحوار الطويل والتفاوض. فمما جاء من الصيغ

الكثيرة في حكاية ما جرى بين عمر والعباس رضي الله عنهما الرواية التي تفيد: لما كثر المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه وضاق بهم المسجد فاشترى عمر ما حول المسجد من الدور إلاّ دار العباس بن عبد المطلب وحُجر أمهات المؤمنين. فتقدم عمر للعباس في ملاطفة وقال له: "يا أبا الفضل إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع بها على المسلمين في مسجدهم ولم يبق إلاّ دارك وحجرات أمهات المؤمنين. فأما حجرات أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين نوسع بها في مسجدهم". فأجابه العباس بقوله: "ما كنت لأفعل ذلك". فقال له عمر: "اختر مني إحدى ثلاث إما أن تبيعنيها بما شئت من بيت المال وإما أن أخطك (بمعنى يقطع له من الأرض) حيث شئت من المدينة وأبنيه لك من بيت المال (و في لفظ آخر: وأبنيها لك بأوسع مما كان لك) و إما أن تتصدق بها على المسلمين فتوسع عليهم في مسجدهم". فكان جواب العباس أن قال: "لا ، ولا واحدة منها". فلم يقبل من العروض الثلاثة شيئًا. ويتباين السياق هنا بين روايات القصة فبعض يذكر أنه عندما بلغ التفاوض بين الجانبين إلى هذا الحد برفض العباس جملة العرض الذي عرضه عليه عمر ، عمد حينئذ عمر إلى مسألة التحاكم لدى حكم ممن له هذه الصلاحية من الصحابة وعين لهذا **أبيّ بن كعب*** الأنصاري. ولكن جاء في العديد من الروايات الأخرى أن عمر بن الخطاب قابل العباس بعد رفض هذا لجميع العروض المذكورة بما يعد كتهديد باستعمال القوة والتصرف بوجه السلطة. فجاء من حكاية لفظ عمر للعباس أن قال له: "إني آخذها" (أي الدار). وفي لفظ: "إني لآخذُها" (أي لا محالة) وعلى كل حال و جاء لفظ "إذن أهدمها"، ولفظ "إذن أغلبك عليها". و كان ردّ الفعل من العباس هنا بكامل التحدي لعمر في ثبات وتصميم حيث قال له: "ليس لك ذلك" (و في لفظ: لن تستطيع ذلك). و هنا تراجع عمر فعرض مسألة التحكيم ، وعلى ما في هذه الروايات التي

تذكر تهديد عمر وتحدي العباس له ثم تراجع عمر بتلك السرعة ، فإنه يفهم -و لا بد- أن يكون ما صدر من عمر رضي الله عنه من ذلك التهديد ليس هو من العزيمة في شيء ولا ممّا يمكن فيه الإجراء الفعلي فهو حينئذ مما يطلق عليه في اصطلاح البعض اسم المناورة و هي ضرب من فن التفاوض يسير بها الجانب الذي يستعملها غور الجانب المقابل له ويستقصي بها ماله من مواقف إلى غير ذلك من وجوه استعمالها.

و روايات الأخبار مجمعة على أن المبادرة بعرض التحكيم كانت من عمر رضي الله عنه فإنه قال للعباس: " فاجعل بيني وبينك من يقضي بالحق ". وفي تعيين الحكم من هو جاء ما يدل على أنه كان من عمر ووافق عليه العباس ، كما يفهم من طريق آخر أن التعيين كان من العباس ووافق عليه عمر. و جميع الروايات على أن شخص الحكم هو أُبيّ بن كعب الأنصاري كاتب الوحيّ وآخر قراء الصحابة المعروف ، إلاّ ما جاء في رواية واحدة تذكر أن الحكم كان هو **حذيفة بن اليمان*** الذي كان يعرف بصاحب سرّ الرسول صلى الله عليه وسلم.

و تفيذ الأخبار أن عمر والعباس رضي الله عنهما قصدا الحكم الذي هو أبيّ بن كعب في منزله فأدخلهما وأفرش لهما وسادة جلسا عليها وأشار عليهما أن يعرضا عليه القضية بالتناوب في الكلام. فلما أخذ العباس يتكلّم تداخل عمر بكلامه فقال له أبيّ: " دعه يتكلم يا ابن الخطاب لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ".فافسح المجال للعباس ابتداء. فذكر العباس أن الدار خطة خطها له الرسول وأنه بناها وشارك الرسول صلى الله عليه وسلم في بنائها وهو الذي وضع الميزاب الذي بالسقف بيده وأن الرسول صلى الله عليه وسلم بارك هذه الدار(إلى نحو هذا مما يدعو إلى الاحتفاظ بها...).ثم تكلم عمر بما له من الحجة و لم يحك في الروايات ما هو من نص كلام عمر. وكان جواب الحكم الذي هو بإعتبار حكم حكم به في القضية أن أخبرهما بما كان سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم من

حديث نبويّ أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن نازلة لها تمام الشبه بنازلة ما حدث اليوم بين عمر والعباس رضي الله عنهما. وجاء هذا الحديث بصيغ متغايرة وتفاوت فيما بين جمله مع الاتحاد في أصل الموضوع ، ومن إحدى الروايات فيه ما يفيد أن الحكم أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال للخصمين- بعد أن أتمّا كلامهما-: "إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، فقال كلٌّ منهما "حدّثنا".فقال: " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " أوحى الله تعالى إلى نبيّه داود عليه السلام "أن ابن لي بيتًا أذكَرُ فيه"(المسجد الأقصى ببيت المقدس) ، و في رواية أن داود عليه السلام طلب إلى الله تعيين بقعة البناية فعينها له بعلامة ملك يقف شاهرا سيفا وإذا هي عند الصخرة ، ولما خط داود خطة البناية صادف تربيعها أن يقع على بيت سكنى رجل من بني إسراءيل ، وفي لفظ رواية أخرى أن البيت ليتيم ، وفي أخرى أنه ليتيمين أثنين. وتفيد روايات من هذا الحديث أن داود عليه السلام استفرغ جهده في إرضاء ربّ البيت وبذل له فيه مالا جزيلا ، فذكر أنه عدة من قناطير الذهب ولكن المحاولة آلت في النهاية إلى الفشل وأبى صاحب البيت أن يسمح به بكل وجه ، و عند هذا هم داود عليه السلام أن يأخذ البيت من صاحبه عنوة.

فنزل الوحيّ من الله تعالى على داود عليه السلام بالعتاب له على ما هم به. و جاء من صيغة ما نزل من هذا الوحيَ: " يا داود أمرتك أن تبني لي بيتا أذكر فيه فأردت أن تدخل في بيتي الغصب وليس من شأني الغصب" ، وفي لفظ رواية: " وأن أنزه بيت عن الظلم لبيتي..." ، وفي لفظ آخر: " وأن أغنى البيوت عن المظلمة بيتي". وجاء في هذا الحديث أن الله تعالى أوحى إلى داود -مع هذا العتاب-" وأن عقوبتك أن لا تبنيه..." بمعنى أن الله تعالى لم يكتب لداود أن يكون بناء المسجد الأقصى على يده ، فدعا داود ربّه أن يكون بناء المسجد على يد ولده فأجيب إلى

ذلك حيث تم بناء المسجد الأقصى -بعد ذلك- على يد ابنه سليمان عليه السلام".

و قد جاء في هذا الخبر أنه بعدما حدّث أبيّ بن كعب بهذا الحديث النبويّ الذي كان بمثابة الحكم الذي حكم به في خصومة ما بين عمر بن الخطاب والعباس إبن عبد المطلب رضي الله عن الجميع بدا على عمر رضي الله عنه ما يدل على قلة الاقتناع ولم ينشط لقبول الحكم الذي كان في جانب العباس ، فحدث بذلك شبه حادث خلاف تفرع عن حادث الخصومة و كان خلافا بين عمر والحكم الذي هو أبيّ بن كعب. فجاء من الأخبار في هذا أن عمر رضي الله عنه قال لأبيّ: " جئناك بشيء فجئتنا بما هو أشدّ منه..." بل جاء ما يذكر أنه قال له: "ومن لي بأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ؟ " وعند هذا خرج الجماعة من بيت أبيّ بن كعب إلى المسجد النبويّ حيث كان به جمع من الصحابة فوقف أبيّ على حلقة ممن كانوا جلوسا ونادى: " نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديث بناء داود المسجد الأقصى ببيت المقدس ألا ذكر ذلك". فنطق **أبو ذر الغفاري*** وقال" أنا سمعته" (أي بما حدث به أبيّ).ثم قام رجل آخر فقال مثل ذلك حتى قام عدد من الأنصار و غيرهم كلهم يشهدون بذلك الحديث ، وهنا أقبل أبيّ على عمر فقال له: "يا عمر أتتهمني على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ " وفي لفظ آخر قال له: " أتظن يا عمر أني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ " فأجابه عمر قائلا: " والله يا أبا المنذر ما اتهمتك ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرًا!..." وفي لفظ آخر فقال عمر لأبيّ: " أما والله لو لم يكن غيرك لأجزت قولك ولكني أردت أن أستثبت". ثم التفت عمر إلى العباس فقال له: " اذهب فلا أتعرض لك في دارك" ، فقال له العباس: " أما إذ قلت هذا فإني قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم في مسجدهم فأما وأنت تخاصمني فلا". وفي

لفظ رواية أخرى أن العباس قال للحكم: " أما إذ قضيت لي بالدار فهي صدقة على المسلمين".

وفي لفظ رواية أخرى أنه بعد أن أعلن عمر قبوله حُكْمَ ما حكم به الحَكَم أعلن العباس أيضا في الملإ تبرعه بالدار فقال: " اللهم إني لا آخذ لها ثوابا(أي ثمنا) وقد تصدقت بها على جماعة المسلمين". وجاء من الأخبار هنا أنه بعد أن أفرغ العباس الدار وسلمها لعمر بن الخطاب فحل وقت العمل بهدمها لتدخل في المسجد التمس عمر من العباس أن يكون العمل بالهدم ابتداء من العباس نفسه أي بيده وتحت إشرافه.

وكانت الدار فيما يذكر تزاحم المسجد على يمينه فتكون جهته الجنوبية إلى الغرب. و ما يوجد في إحدى روايات قصة دار العباس هذه من التعقيب عليها بأن عمر بن الخطاب أقطع للعباس دارا أخرى بالزوراء من نواحي المدينة ينبغي أن يصحح فهمه بأن هذا إنما كان في ظرف لاحق غير ما كان من حادث الخصومة فكأنها مكافأة من عمر حفظها للعباس حتى سنح حينها ، وإلاّ فالواقع أن دار العباس التي حدث فيها الخلاف بينه وبين الخليفة عمر بن الخطاب تبرع بها للمسجد صدقة ولم يأخذ عنها عوضا على الإطلاق لا مالا ولا عقارا كما هو ظاهر من عموم روايات القصة.

وفيما يلاحظ من هذا الحادث أنه وقع في المجتمع الذي يمثل الإسلام بتمام معنى الكلمة والشخصيات التي جرى بينها التداول فيه هي من النخبة المختارة من بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن حيث ما يستفاد منه من أحكام شرعية ويستخلص من عبر للتأسي والاتعاظ ، الدلالة على أن المصلحة العامة في أعلى ما هي عليه من درجات الاعتبار فهي -مع ذلك- لا تبلغ إلى إهدار حق الفرد في سبيلها ، والدلالة على ما للمساجد من قدسية وما يحب لها من تنزيه مطلق الشمول لما هو صغير أو كبير ظاهر أو خفي ، عما هو نقص أو مذمة أو مكروه في سائر الأحوال وكيفما كان جنسه حسيا أو معنويا. ومما يرجع إلى الاعتبار به

عظمة هذه الطائلة لسلطة القضاء في نظام الإسلام إذ يصدر الحكم على من يمثل السلطة العليا في المجتمع وهو الخليفة مع كونه إنما تداعى في القضية لكسب مصلحة عامة لا صلة لها بالشخصيات ولا بالخصوصيات وهي مع ذلك من أعظم ما يرجع إلى مقدسات الدين.

وأما العبرة في موقف العباس بن عبد المطلب حسبما حكي في هذه القصة فأقل ما يقال فيها أن الأمر هنا مما لا غرابة فيه وهو مما جاء من الأشياء على أهله صنيع العظماء الجامعين للفضائل بأطرافها المتباعدة فإلى العزة والشمم والآباء والشهامة والحلم والأناة والسخاء والسماحة ، مانع العباس في تسليم الدار للمسجد وتشدد حتى دفع بالقضية إلى الخصام ثم إلى التحاكم ولم يقبل أي عرض مما عرضه عليه الخليفة عمر من العروض البالغة منتهى حدود الإغراء والإقناع ولم يكن هذا منه عن ضنانة بشيء مما يرجع إلى المادة بتاتا وإنما اتخذ من النازلة ذريعة وسخت له منها فرصة ليقوم بالكشف عن حق من الحقوق كان مغمورا في أعين الجمهور حتى إذا ما تم له هذا الغرض بإحقاق هذا الحق وإبرازه للعموم بحكم مستند إلى الخبر الثابت عن الشارع عليه الصلاة والسلام تراجع حينئذ إلى ما هو الأصل من سجيته العريقة في السماحة والبذل والإيثار فتبرع بالدار صدقة لا يريد لها عوضا ولا ثوابا إلا من الله ، و قد يقال أن العباس في رجوعه إلى هذا الإجراء إنما راجع إلى عرض مما كان عرضه عليه عمر و إن كان هو الأعلى درجة من بين تلك العروض فضلا ونبلا. فلا يغفل مع ذلك عما بين الحالين الملابسين للعرض حال تقديمه من عمر وحال رجوع العباس إليه من تفاوت بعيد المدى كان العرض من عمر بإملاء منه وتسيير أو توجيه فرفضه العباس هنا و رجع إليه في الأخير لأنه كان عن تلقائية كاملة من نفسه وطواعية تامة الحرية وشتان ما بين هذا وذاك!فلا عبرة بالرجوع الشكلي هذا مع ما هو معروف طبعا من أن قبول العباس للعرض من أول الأمر فيه تفويت لإظهار ذلك الحق الذي كان حريصا على إظهاره وقيامه ومن أجله خاصم عمر.

و فيما يتعلق بهذا الخبر النبوي الذي كان هو مستند الحكم الذي قضى به الحكم في الخصومة بين العباس وعمر فهو نص شرعي تضمن حكما في قضية من القضايا التي يحصل فيها الادعاء بين حق المصلحة العامة وحق الفرد أو ما هو في حكم الفرد ولهذه القضية صور شتى من حيث ما تتمثل فيه من الأشياء وما بين الحقين من تفاوت أو تكافؤ في الاعتبار والأهمية والادعاء بطبيعة الحال عرفا إنما يكون من جانب المصلحة العامة على الجانب المقابل.

و أفاد هذا الخبر في صورة القضية بأن المصلحة العامة كانت تتمثل في المسجد الذي هو محل عبادة الله وأن حق الفرد كان يتمثل في مكان السكن الضروري و مادة ما فيه التنازع هي الأرض والادعاء من جانب المسجد لإقامته أو توسيعه أو ما يصلحه ويتعلق به عموما على حساب ما هو قائم فعلا من المكان السكني بيد مستحقه و أفاد الخبر عن الحكم في هذه القضية بما حاصله أن انتزاع مكان السكن من صاحبه بغير رضا منه ليجعل في مصلحة المسجد هو ظلم واقع على صاحب المكان والانتزاع هنا يعتبر غصبا في نظر الشرع و من جهة المسجد فإن المسجد من حيث هو مكان لعبادة الله مقدس ومنزه عن أن يقام أو ينتفع أو يضاف إليه أي شيء مما يشوبه الظلم والغصب وكل ما هو من هذا القبيل.

و يستفاد من الخبر ضمنيا أن القائم في المصلحة العامة هنا مطالب بالإمعان إلى أقصى ما يمكن في إرضاء صاحب الحق الفردي حتى يسمح بتسليم ما يسلمه للمصلحة العامة عن كامل طيب النفس. و هكذا كانت نازلة الخصومة بين عمر بن الخطاب والعباس ابن عبد المطلب رضي الله عنهما تنطبق تمام الانطباق على ما جاء في هذا الخبر النبوي فحكم الحكم الذي هو أبيّ بن كعب رضي الله عنه فيها بمقتضى ما جاء في الخبر و أنه لا يسوغ انتزاع محل السكن من صاحبه ليضاف إلى المسجد إلاّ إذا رضي بذلك رب المحل و أجازه. و يبقى من صور هذه القضية ما هو مخالف لهذه

الصورة وهو يتمثل في صور عديدة كون المصلحة العامة غير المسجد وحق الفرد غير محل السكنى الضروري ، أو أن المصلحة العامة لها خطورتها البالغة كما في بناء حصن للدفاع ضد العدو المتاخم أو بناء سد لرد الفيضان الداهم إلى غير ذلك من وجوه ما تتصور فيه القضية. فكل هذا له في الشرع حكمه والمرجع في ذلك إلى نظر الحاكم الشرعي وما يستند إليه من المستندات في حكمه حيث أن مثل هذه القضية بما لها من الصور العديدة المختلفة وما تتكيف به من ظروف الزمان والأحوال المتغايرة تبدو وكأنها قلما يوجد فيها نص شرعي معين كالذي حكم به أبيّ بن كعب. ومن الأمثلة الواقعية في هذا ما أثبته التاريخ من تصرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته من تحبيسه الأراضي التي غنمت في فتح بلاد العراق والشام ، و الواقعة في ذلك أنه لمّا فتح المسلمون في زمن خلافته كلاً من بلاد الفرس بالعراق وبلاد الروم بالشام و كان الاستيلاء عليها حربيا بقتال الجنود ، فمن المعلوم شرعا أن ما فتح هكذا يعتبر من غنائم الحرب من أموال وأملاك و حكم الغنيمة معروف بالنص الشرعي وهو أن تقسم أخماسا أربعة منها للجنود المقاتلين والخمس الخامس يرصد للمصلحة العامة الراجعة لعموم الأمة. فكان نظر عمر رضي الله عنه أن يستثنى من الغنيمة الأراضي بخصوصها فلا تقسم على المقاتلين بل توقف الوقف الشرعي فتبقى بأيدي مالكيها الذين هم غير مسلمين و في مقابل ذلك يضرب على الأراضي ضريبة ما يعرف بالخراج سنويا كما تضرب الجزية الشرعية على رقاب مالكي الأرض فيتحصل من هذا دخل سنوي دائم راجع إلى المصلحة العامة التي تتمثل أهميتها في المجهود العسكري لحماية البيضة والدفاع عن الكيان بخلاف ما إذا قسمت تلك الأراضي على الجنود المختصين فترجع من أملاك الخاصة لفريق خاص من الأمة سيما وقد صار الخمس لا يفي بمتطلبات الجانب العسكري بعد اتساع رقعة الوطن بما فتح من البلاد جديدا.

كانت هذه النازلة بنت وقتها (كما يقال) لم يتقدم لها نظير فلا يوجد فيها نص شرعي يرجع إليه ومستند ما ارتآه فيها الخليفة عمر رضي الله عنه إنما هو رأيه الخاص واجتهاده.

و تفيد الأخبار أنه لما طرح عمر المسألة للتفاوض والمشورة في مجلس من المهاجرين اختلف القوم بين موافق و معارض و لقي عمر معارضة ممن تكلم بلسان فريق الحق الفردي وهم الجنود المقاتلة و كان ذلك المتكلم هو **عبد الرحمن بن عوف*** أحد أعيان الصحابة البارزين و واحد العشرة المبشرين بالجنة. و كان في الموافقين على رأي عمر **عثمان بن عفان***و **عليّ بن أبي طالب*** و**طلحة بن عبيد الله*** و**عبد الله بن عمر ابن الخليفة***. ومع ما بدا من موافقة الأغلبية من أصحاب الشورى على رأي عمر فإنه كان رضي الله عنه لا يفتأ شديد الحرص على إقناع مخاطبيه بما يراه في القضية فيدلي بالحجج ويقيم الدلائل على سداد ما رآه من الإجراء مبينا ما فيه من المصالح عاجلا وآجلا وما يترتب على تركه من المخاطر كذلك في عبارة تجمع إلى قوة الوقع ونصاعة البيان روح الإخلاص والتواضع والبراءة من الاستبداد والتحكم.

فورد أن عمر رضي الله عنه عمد بعد مجلس الشورى من فريق المهاجرين الذي كان فيه الاختلاف ، إلى عقد مجلس آخر خصصه بفريق الأنصار من الصحابة كان عدده عشرة من الكبار والأعيان الممتازين فكانوا خمسة من قبيلة الأوس وخمسة من قبيلة الخزرج جمعا بين القبيلتين اللتين يتكون منهما شعب الأنصار.

و قد نقل الأستاذ **محمد الخضري المصري*** مدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية و أحد علماء العصر الحالي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى "تاريخ التشريع الإسلامي" ، نبذة من نص خطاب عمر بن الخطاب في هذا المجلس الذي عقده مع نخبة من الصحابة من فريق الأنصار المشار إليهم آنفا ، يقول: " فلما اجتمعوا خاطبهم عمر قائلا: "إني لم

أزعجكم إلاّ لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم و أنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني و وافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لإن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلاّ الحق"

فقالوا له: "قل نسمع يا أمير المؤمنين ؟ "قال: " قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم وأني أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت. ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضيهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه. و أنا في توجيهه و قد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم ، أرأيتم هذه الثغور لابدّ لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بدّ لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ؟ فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأراضي والعلوج...؟ "وهنا ردّ عليه الجماعة كلهم متفقين بكلمة واحدة حيث قالوا له: " الرأي رأيك يا أمير المؤمنين ، فنعم ما رأيت ونعم ما قلت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوّون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم". وعند هذا قرر عمر رضي الله عنه تحبيس الأرض كما كان يرى وقال: "قد بان لي الأمر الآن". وسكت المخالفون عند تنفيذ القرار نزولا على رأي الأغلبية ، فكان هذا الإجراء في هذه القضية مما رجح فيه جانب المصلحة العامة على الحق الشخصي.

يبقى مما يلاحظ فيه من هذه القصة الواردة في دار العباس بن عبد المطلب والخلاف في شأنها بين الخليفة عمر بن الخطاب وصاحبها العباس رضي الله عنهما ، ما ذكرته الروايات من حدوث مغاضبة بين الحكم

الذي هو أبيّ بن كعب الأنصاري وبين عمر رضي الله عنهما وذلك عندما حكم أبيّ في الخصومة لجانب العباس على عمر ، فجاءت الروايات هنا في حكاية ما نطق به كل من عمر و أبيّ في الحوار بينهما بعبارات مختلفة متغايرة و فيها ما يستوجب أن يقابل بالتحفظ والاحتراز و فيها ما هو مناقض لبعضه البعض تمام المناقضة ، الأمر الذي فيه دلالة على أن النقل هنا كان بتصرف فنتج التزيد عن التصرف ومن هنا كان التناقض.

فجاء في الرواية التي تقول أن عمر قال لأبيّ بعد أن سمع منه الحديث الذي رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء داود عليه السلام المسجد الأقصى ببيت المقدس ، فقال عمر لأبيّ: " جئناك بشيء فجئتنا بما هو أشدّ منه ".تذكر هذه الرواية هنا أن عمر أخذ بمجامع أبيّ (قابضا عليه) وقال له: " لتخرجنَّ مما قلت ؟ " هكذا يأمره بالتراجع عما سمع من الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كان عينه وأختاره حكما في القضية.وتقول هذه الرواية أن عمر أخرج أبيًّا يقوده حتى وقف به في المسجد على حلق الصحابة حتى إذا شهد من شهد من هؤلاء الصحابة بسماع الحديث كما سمعه أبيّ ، فعند ذلك أرسل عمر أبيّا من قبضته. وهنا قال أبيّ لعمر: "أتتهمني ؟ " فأجاب عمر: "والله يا أبا المنذر ماتهمتك ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله ظاهرا ".

أفلا يكون ما حكي هنا عن موقف عمر قبل سماعه شهادة الذين شهدوا بصحة ما أخبر به أبيّ محل ريبة إن لم يكن فيه تناقض مع موقفه الأخير بعد سماعه الشهادة ؟

و في رواية أخرى: أنه لما حدث أبيّ بن كعب بالحديث المذكور وكان المجلس في بيته كما تقدم ذكره قال له عمر: " ومن لي بأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ؟ ".

و واضح تمام الوضوح أن في هذه العبارة إبداء الارتياب بمقال أبيّ ، وكان ردّ الفعل من أبيّ على هذا بأن قال لعمر: " أتظن أني أكذب على

رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ " وأعقب ذلك أن قال لعمر: " لتخرجنَّ من بيتي! " ولما خرج عمر من منزل أبيّ توجه إلى المسجد حيث كان فيه جمع من الأنصار فسألهم عمر يقول: " أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا؟ "(أي حديث بناء داود مسجد بيت المقدس كما حدّث أبيّ).

فأجاب رجل منهم قائلا "أنا سمعته" وقام آخر فقال "أنا سمعته" حتى قال ذلك رجال فلما علم عمر ذلك قال لأبيّ مخاطبا له (وكان قد حضر): "أما والله لو لم يكن غيرك لأجزت قولك ولكن أردت أن أستثبت". فهذه الرواية كما في سابقتها فيها ما هو محل ريبة من مقال أبيّ فيما تحامل به على عمر كما في سابقتها من تحامل عمر على أبيّ، ويظهر في هذه الأخيرة ما يعد تناقضا فيما نسب إلى عمر من مقاله الأول الذي معناه الارتياب فيما رواه أبيّ من الحديث ثم بعد شهادة الشهود يرجع عمر فيقول له: "كنت مصدقا لك من أول مرة و لو لم يشهد بالحديث غيرك لكنت مجيزا لما أخبرت به وحدك."

فالذي يمكن عليه الاعتماد فيما جاء من مجموع هذه الروايات الواردة في هذه القصة وقد نقلها هكذا بنصها المذكور **نور الدين السمهودي*** في كتابه "وفاء الوفاء بأخبار دارالمصطفى" نقلا من غير تعليق ولا ملاحظة، إنما هو محصل المعنى الأصلي من الحادث مجردا مما جاء فيها من عبارات في حكاية الحوار بين جوانب أصحاب الحادث. ففيما يخص ما وقع بين عمر وأبيّ رضي الله عنهما يحسن أن لا يفهم أكثر من كون عمر رضي الله عنه إنما تريث بعدما سمع الحديث الذي حدث به أبيّ وكان يقتضي تبرير ما نظره العباس خلاف ما يراه عمر، فتريث عمر ولم يبادر إلى القبول والتسليم وتباطأ في هذا حتى سمع ما سمع من شهادة أفراد آخرين من الصحابة برواية الحديث المذكور، فعند ذلك أعلن القبول للحكم والتسليم به.و لا تلازم بين التريث حتى شهد الغير وبين الشك والارتياب

كما يشهد بذلك نص الخبر فيما جاء من قول عمر لأبيّ " والله ما اتهمتك ولكن أردت أن أستثبت".

و ربما يكون-و الظن قوي في ذلك- أن هذا الحديث بصورة ما وقع فيه بين عمر بن الخطاب وأبيّ بن كعب هو ما أشار إليه وأبهمه الأستاذ **محمد الخضري** * في كتابه "تاريخ التشريع الإسلامي" نقلا عن الإمام الحافظ **شمس الدين الذهبي** * في كتابه "تذكرة الحفاظ" في معرض ما جاء عن كبار الصحابة في أول عهد ما بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من التحفظ في رواية الأحاديث النبوية حتى كان الشيخان **أبو بكر و عمر** * رضي الله عنهما لا يقبلان من الحديث إلاّ ما شهد به اثنان من الرواة عنه صلى الله عليه وسلم. وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يستحلف الراوي الذي يخبر بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فأورد الأستاذ محمد الخضري من هذا عدة أمثلة مما أثبته الحافظ الذهبي في كتابه المذكور "التذكرة" فمنها ما صورته: و ذكر أن عمر بن الخطاب قال لأبيّ بن كعب و قد روى له حديثا: "لتأتيني على ما تقول ببينة"...فخرج فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم فقالوا: "قد سمعنا هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم". فقال عمر (لأبيّ): "أما أني لم أتهمك ولكني أحببت أن أتثبت". فهذه الصيغة من رواية هذا الحديث ليس فيها ما يستشكل مع الكفاية في إفادة المعنى سيما مع العلم بما هو من خطتهم في ذلك الوقت وهو مراعاة كامل التحري في رواية الأحاديث النبوية. وقد يحسن ختم الملاحظة على ما جاء في هذه القصة خاصا بما جرى بين عمر بن الخطاب وأبيّ بن كعب رضي الله عنهما بالإشارة إلى ما ثبت خبره واشتهر ذكره من تاريخ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وكان من الموافقات اللطيفة لما في هذا الصدد وهو ما يفيد أن هؤلاء الثلاثة من الصحابة الذين ذكروا في هذه القصة في مقابلة عمر بن الخطاب وهم العباس بن عبد المطلب وأبيّ بن كعب وحذيفة بن اليمان.كانوا (ثلاثتهم)

من أخص أصدقاء عمر بن الخطاب وممن لهم به صلة ممتازة ولهم لديه مكانة من التقدير والاحترام زمن خلافته. فتقديم عمر للعباس ليستسقى به في استسقاء عام الرمادة وثناؤه عليه وإشادته بفضله معروف.

و كذلك أبيّ بن كعب فإن عمر هو الذي خلع عليه لقبا تشريفيا عرف به في عهده حيث لقبه "بسيد المسلمين." وكذلك حذيفة بن اليمان فإن عمر كان يقربه لما عرف به من أنه صاحب سرّ الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت له فراسة خاصة عرف بها هي تمييزه المنافقين من بين المسلمين الصادقين. فكان عمر رضي الله عنه يناشد حذيفة أن يكاشفه بما عساه يكون فيه من علامات النفاق يقول له: "أناشدك الله أن تعرفني هل ترى فيّ شيئا من علامات النفاق ؟ ".

أما ما يلاحظ أخيرا على ما جاء في هذه القصة بوجه الجملة فهو النتائج النهائية بالنسبة للجميع من الأطراف المذكورين فيها بأنها كانت إيجابية للجميع. فالخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد تحصل على ما كان يسعى إليه من توسيع المسجد بإضافة الدر إليه على الوجه الأوفر يسرا وغنما فلم يتكلف دفع العوض ، والعباس رضي الله عنه أحرز على ما كان يبتغي من تبرير نظريته فيما يراه من حق مع ما حاز من جميل الأحدوثة وحسن المثوبة بفضيلة الجود والتضحية على ماهو أحسن الوجوه وأرفعها. وأبيّ بن كعب رضي الله عنه (على أنه القاضي في الخصومة) تدعم حكمه بما زاد من شهادة الشهود الذين أخبروا بمثل ما كان قضى به فتعزز بذلك رأيه وزاد في رفعة مكانته.

وحتى هذه الدار التي جاء فيها الخبر بأن الرسول صلى الله عليه وسلم باركها قد تحققت فيها هذه البركة بداية ونهاية حيث كان مصيرها الأخير أن أدخلت في المسجد النبوي الشريف وتخلدت فيه بقعة منه. وإذا كان غيرها من الدور قد شاركها في هذه المزية بضمها إلى المسجد فإن للدار هذه خصوصيتها بالبركة النبوية التي ظهرت في وجه ضمها للمسجد وهو

أنها كانت خالصة بغير معاوضة لصاحبها خلاف ما كان في غيرها التي ضمت بمعاوضة مادية.

هذا وقد تقدم من حكاية القصة فيما تكلم به العباس رضي الله عنه حال تمسكه بالدار عندما كان عمر رضي الله عنه يطالبه بتسليمها ، فقال في جملة ما قال: " قطعة قطعها لي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي وضع الميزاب لها موضعه الذي هو به الآن ".

فميزاب هذه الدار له قصة منفردة عن قصة مطلب تسليم الدار للمسجد ، فهما حادثان اثنان بين العباس وعمر رضي الله عنهما بسبب هذه الدار.

و الميزاب معروف وهو القناة لمجرى الماء كالذي يجعل بسقف المنزل ليدفع الماء إلى خارج ، أو ما يتخذ لصب الغسالة فيه فيدفعها إلى خارج المنزل.

وملخص ماجاء من الأخبار عن ميزاب دار العباس هذه أنه كان يدفع بالماء حول المسجد النبوي و ربما كان مما ينزل من المطر على السقف ومما يأتي من داخل المنزل من مجرى تراق فيه الغسالة. وحدث ذات يوم من الأسباب ما رأى منه الخليفة عمر رضي الله عنه ضرورة خلع هذا الميزاب وتنحيته بالمرة فأمر بقلعه ولم يكن ذلك بمحضر العباس رضي الله عنه. فلما حضر العباس أسف لقلع الميزاب و كلم عمر في ذلك فقال له فيما قال: " إن الميزاب وضع موضعه ذلك على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه صلى الله عليه وسلم حمل العباس على عاتقه حتى شد الميزاب بالسقف.فما كان من عمر رضي الله عنه بعد أن سمع هذا الخبر من العباس إلاّ أن أقسم على العباس ليردنّ الميزاب إلى موضعه وأن يشدّه كما كان وقال له: " لتشدنّه وأنتَ على عاتقي "(كما كان حمل الرسول صلى الله عليه وسلم للعباس).وكان الأمر كذلك فحمل عمر العباس على ظهره ليبلغ السقف وشدّ الميزاب مكانه الأول على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهكـذا تتـواتر أخبـار التـاريخ عمـا كـان عليـه أميـر المـؤمنين عمـر بن الخطاب رضي الله عنه من هذه الخطة في سيرته: المضاء والعزم في العمـل والإسراع فـي الرجـوع مـن أثنـاء الطريـق إذا مـا بـان لـه الـصواب فيما يرجع إليه، كما جاء في عبارة بعض الواصفين له بقوله "كان وقافًا عند الحدود".

فإيراد قصة الميزاب هذه بهذا التلخيص فيه الكفاية من الفائدة على كل حال ويستوفي استخلاص العبرة منها بوجه العموم وهذا هو المقصد الأساسي من استعراض القصص.

أما الـوارد مـن الأخبـار فيهـا بـنص اللفـظ ومـا يتعلـق بـالزمن و كـون حادث الميزاب هو الأول قبل حادث الخصومة أو العكس أو أن الحادثين وقعـا معًـا فـي وقـت واحـد، وهـل الميـزاب كـان يـصب فـي المـسجد أو فـي الطريق وما هو السبب الذي حمل عمر على قلع الميزاب إلى غير ذلك؟

فجاءت هنا روايات عديدة وهي-كالمعهود كثيرا-متغايرة في حكاية الألفاظ وفيها ما يتضارب مع الآخر في المعنى الواحد ومن حيث العلاقة بين حادث الخصومة على الدار وحادث الميزاب. فجاءت هذه الروايات تذكر البعض منها حادث الخصومة منفردا والبعض منها حادث الميزاب منفردا والبعض منها أدمج الحادثين في سياق واحد.

ومؤلـف تـاريخ المدينـة المنـورة المـسمى "وفـاء الوفـا بأخبـار دار المصطفى "الإمام السيد **نور الدين السمهودي** * رحمة الله عليه أورد في كتابه هذا الجملة من هذه الروايات ساق الأكثر منها بنص اللفظ وأشار إلى البعض منها بذكر من رواها من غير أن يسوق نص اللفظ منها وعلق ببعض التعليق في خصوص ما بينها من الخلاف محاولة للجمع بينها.

وفيما يلي نقل هذه الروايات مرتبة بالأرقام حسبما ساقه المؤلف مع التعقيب بعد ذكر النص الوارد من كل رواية بما تمس الحاجة إليه من ملاحظة أو تعليق.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى ملاحظة تتعلق بهذا النقل وهي أن النسخة المنقـول منهـا مـن الكتـاب المـذكور غيـر مـستوفية التـصحيح ، ففيهـا التصحيف وفيها السقط وفيها غير هذا من أغلاط غاية في الوضوح. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا قريبا في ذكر رواية بكاء الناس عند هدم حجرات أمهات المؤمنين لتضاف إلى المسجد النبوي ، فجاء من هذه الروايات:

1) أولا: ما رواه **الحـاكم*** في المستدرك عن **أبي يحيـى الـضرير*** عن **عبد الرحمن بـن زيد بـن أسلم*** عن أبيه عن جدّه ، يحكي خصومة عمر بن الخطاب والعباس بن عبد المطلب على الدار والتحاكم فيها إلى الحكم ، وذكر هنا أن الحكم هو **حذيفة بن اليمان***و أن حذيفة روى الحديث عن رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم في بنـاء داود عليـه الـسلام مـسجد بيت المقدس -كما تقدم بيان ذلك في قصة هذه الخصومة- فلما حدث حذيفة بالحديث المـذكور قـال لـه العبـاس: "هـل بقي شيء؟ "قـال: "لا..." فـدخل عمر المسجد فإذا ميزاب للعباس شارع في المسجد يسيل ماء المطر ، فقال بيده فقلع الميزاب. فقال: "هذا الميزاب لا يسيل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم" ، فقال العباس: " والذي بعث محمدًا بالحق أنه هو الذي وضـع الميـزاب فـي هـذا المكـان ونزعتـه أنـت يـا عمـر" ، فقـال عمـر: "ضـع رجليك على عنقي لترده إلى ما كان".

ففعل ذلك العباس ثم قال العباس:.....(هنا انقطاع في السياق) نبَّه عليه مصحح النسخة بأنه لخرق في النسخة ، ويقول أنه بعد مراجعة نسخ أخرى يفهم الكلام على أن العباس -بعد ذلك- أعلن عن هبته للدار لتضاف إلى المسجد كما جاء في الروايات الأخرى ، لفظ "شارع" يكون بمعنى داخل و يكون بمعنى منتصب ظاهر ماثل لفظ "قال بيده" تعبير عن حركة اليد بلفظ "قال" ، فليس المراد القول الذي هو الكلام ، هو كما يقال "قال بالسيف" هكذا أي ضرب به. وما في هذه الرواية يدل على تداخل حادثي الخصومة والميزاب في آن واحد وأن تسليم الدار للمسجد لم يقع إلاّ بعد

حادث الميزاب ، وفي السياق احتمال أن يكون ردّ الميزاب كما أراد عمر إنما كان رمزيا لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يطل الزمن حتى هدمت الدار بما فيها الميزاب...إلى غير ذلك من الاحتمالات.

2) ثانيا: رواية **يحيى** * (من مؤلفي التاريخ القدامى)عن **عبد الله بن عمر بن الخطاب** * يحكي قصة الخصومة على الدار كما تقدم ذكره سابقا وأن الحكم الذي حكم في الخصومة هو **أبيّ بن كعب** * ويحكي ما تكلم به العباس للإدلاء بحجته في التمسك بالدار في قوله: "أنها قطيعة قطعها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، وبناها معه وخصص ذكر الميزاب فقال: " وأنه الذي وضع الميزاب مكانه"...الخ ، ثم قال راوي الرواية: وأن العباس قال لأبيّ بن كعب: "أما إذ قضيت لي فهو صدقة على المسلمين" (و واصل حكاية مقال العباس متصلا بما قبله): "أما والله يا عمر لقد هدمت الميزاب و ما شدّدْتُه إلاّ و رجلاي على عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم". فقال له عمر: " فوالله لا تشدُّه إلاّ و رجلاك على عاتقي" ، قال ثم هدم الدار و وسع في المسجد.

وهذه الرواية في معنى سابقتها وليس بينهما خلاف إلاّ فيما يتعلق باسم الحكم الذي تولى الحكم في الخصومة ، وفي هذه الرواية التصريح بأن حادث الميزاب تقدم على هدم الدار لتدخل في المسجد.

3) ثالثا: رواية **رزين** * في كتابه (من مؤلفي التاريخ القدامى)عن عبد الله بن عمر راوي الرواية قبلها يحكي الخصومة على الدار كما تقدم فيما قبل ، وأن الحكم فيها كان أبيّ بن كعب وأنه حكم في الخصومة بما رواه من حديث بناء داود لمسجد بيت المقدس كما مرّ بيانه -ثم قال: " فقضى به أبيّ للعباس فقال العباس: " أما إذْ قضيت لي فهو صدقة على المسلمين ". فذهب عمر فهدم الميزاب فأسف العباس لما وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال: " والله لقد وضعه رسول الله و أن رجليه لعلى

عاتقي". فقال عمر للعباس: " والله لا تردّنه و رجلاك على عاتقي". فردّه ثم قال عمر للعباس: "أهدم الآن بيدك ".

وهذه الرواية فيها مخالفة لما في غيرها حيث تفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي كان محمولا على ظهرالعباس في وضع الميزاب وباقي الروايات تفيد العكس.

و إذا كان الاعتبار بظاهر السياق والالتزام بمراعاة نص اللفظ والوقوف عند الصيغة بالنسبة لهذه الروايات الثلاث المذكورة ، فهي كلها تفيد دمج كل من حادثي الخصومة والميزاب في آن واحد وأن حادث الميزاب متقدم على هدم الدار ، وهي كذلك توحي للفهم بأن مسألة ردّ الميزاب إلى ما كان عليه لا يراد منه بقاؤه لأن الهدم وقع بأثر ردّه ، فردُّه حينئذ إنما كان رمزيا فقط وكان هذا من عمر رضي الله عنه كراهية منه أن يغير ما وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويزيد فهم هذا بما ورد في الرواية من قوله للعباس (اهدم الآن بيدك).

4) رابعا: رواية أوردها رزين عقب بها على روايته المتقدمة فأورد مضمونها من غير أن يذكر راويها حيث قال: " و قد روي أنّ نزع الميزاب كان قبل ذلك لأجل أنّه كان يسكب الماء داخل المسجد للزوقة به(اللزوقة بضم اللام و بالزاي ثم القاف هي بمعنى واحد و وزن واحد مع الرطوبة).

وهذه الرواية تفيد فصل حادثي الخصومة والميزاب عن بعضهما ، وأن حادث الميزاب كان هو المتقدم في الزمن ثم جاء وقت الخصومة على الدار ولعل أن يكون هذا أقرب إلى المألوف من مجرى الأحوال وأنسب بما تقضيه العادة المتعارفة في العموم لأن إقدام عمر رضي الله عنه على نزع الميزاب أثناء الخصومة مع العباس أو بأثرها مباشرة كما يظهر من الروايات المتقدمة الذكر هو ممّا يتطلب بيان الوجه فيه ، ولماذا كان في هذا الأثناء بالذات ؟ والأذى الحاصل من الميزاب لم يكن طارئا في نفس الوقت بل هو من سابق. فإغفال ذكر هذا الوجه كما جاء في تلك الروايات ترك فراغا في

سياق الكلام وأخلّ بتناسق المعنى منه لأن الرابط بين الحادثين غير مذكور ، فصار ذكر حادث الميزاب عقب ذكر الخصومة كمجرد إقحام.

5) **خامسا**: رواية ليحيى بسند جيد عن **سفيان بن عيينه*** عن **موسى بن أبي عيسى*** قال: "كان في دار العباس ميزاب يصب في المسجد فجاء عمر فقلعه فقال له العباس أن النبي صلى الله عليه وسلم الذي وضعه بيده ، فقال عمر للعباس لايكن لك سلم إلاّ ظهري حتى ترده مكانه".

وهذه الرواية ذكرت حادث الميزاب مستقلا بعبارة موجزة وافية بالمعنى ، و من الجائز أن تكون مؤيدة للرواية قبلها التي تنص على أن حادث الميزاب كان متقدما في الزمن على حادث الخصومة.

6) **سادسا**: ما رواه **ابن إسحاق*** عن **أسباط بن محمد*** عن **هشام بن سعد*** عن **عبد الله ابن عباس*** قال: "كان للعباس ميزاب على طريق عمر فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة و قد كان ذبح للعباس فرخان ، فلمّا وافى عمر الميزاب صب فيه ماء فيه من دم الفرخين فأصاب عمر فأمر عمر بقلعه ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها. ثمّ جاء فصلّى بالناس فأتاه العباس فقال له: والله إنّه الموضع الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر للعباس: فأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ففعل ذلك العباس".

وهذه الرواية ممّا جاء يذكر حادث الميزاب مستقلاً و فيها أن الميزاب يصب في الطريق خلاف ما جاء في السابق من الروايات من أنه يصب في المسجد. وفي هذه الرواية مزيد تفصيل في تصوير وقوع الحادث ثمّ أن المؤلف أشار هنا إلى من روى حديث الميزاب هذا غير من تقدم و لم يورد مضمون هذه الروايات فقال و رواه **الإمام أحمد*** في مسنده من حديث هشام بن سعد المذكور في الرواية التي رواها ابن إسحاق و لكن عن **عبيد الله بن عباس** (بالتصغير) أي عبد الله المذكور في رواية ابن إسحاق وكذلك

روى الحديث **ابن سعد*** وأخرجه من طريق **موسى بن عبيدة*** عن **يعقوب*** أن عمر رضي الله عنه خرج يوم الجمعة.....الخ ، فذكره كما تقدم.

7)سابعا: رواية يحيى عن **أبي مصعب الزهري*** الفقيه قال: "حدثنا **يوسف بن الماجشون*** عن الثقة أنه كان في دار مروان ميزاب يصب على الناس إذا خرجوا من المسجد في المطر وكانت دار **مروان*** للعباس بن عبد المطلب ، فأمر عمر بذلك الميزاب فنزع ، فجاءه العباس فقال: أما والله لوضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده.قال: فأعاده عمر حيث كان وقال: والله لاتعيده إلاّ و أنت على رقبتي، فأعاده العباس يومئذ على رقبة عمر ".

و كان هنا تعليق مؤلف الكتاب **نور الدين السمهودي*** بما يلي: "قلت فهذه الدار بقية من التي وقع النزاع المتقدم فيها و نسبتها إلى مروان لما سيأتي أنها دخلت في داره و روي أنها مربدها ، فكأن هذا الميزاب كان في تلك البقية ، فيجمع بين الروايات بأنه كان للدار المذكورة ميزابان ، ميزاب يصب في المسجد و ميزاب يصب في الطريق ، واتفق في كل منهما قصة". هذا تعليق المؤلف تعليق مبني على مجرد الاحتمال محاولة للجمع بين ما تباعد من روايات حادث الميزاب والظاهر لدى صاحب الفكر البسيط أن هذا الاحتمال فيه بعد شاسع عن المعهود والواقعية و بقيامه تكون وقعت حادثة من أشد ما يعرف في الغرائب لايسمح العرف الجاري بتركها مغمورة بدون أن تتناولها النقول و تذاع أخبارها: ميزابان كل منهما وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم و يرقى العباس على ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم في كل منهما عند وضعه. ونقطة الغرابة المهمة أن ينزع عمر كلا من الميزابين في زمانين متعاقبين لا تفصلهما مدة طويلة. فكل ولاية عمر لا تتجاوز عشر سنين ولا تكون القصة الأخيرة مذكرة بالأولى. وينقسم رواة الأخبار فريقين أحدهما يذكر ميزاب المسجد من غير أي إشارة إلى ميزاب الطريق والآخر يذكر ميزاب الطريق ولا تلويح ولا حس لميزاب المسجد.

و عقب المؤلف رحمه الله على ما تقدم مما رآه احتمالا يجمع به بين الروايات بتعقيب يقول أنه يؤيد الاحتمال المذكور فساق في ذلك:

8) رواية ثامنة: رواية يحيى في ذكر زيادة **عثمان بن عفان*** رضي الله عنه في المسجد النبوي عن **الأعمش*** قال: "بنى العباس داره التي إلى جنب المسجد فجعل يرتجز و يقول: "بنيتها باللبن والحجاره* والخشبات فوقها مطاره* ياربنا بارك لأهل الداره" (فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: اللّهم بارك في هذه الداره).

قال: وجعل العباس ميزابها لاصقا بباب المسجد يصب عليه ، فطرحه عمر ابن الخطاب ، فقال العباس: أما والله ما شدّه إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لعلى منكبي. فقال له عمر: لاجرم والله لا تشدّه إلاّ وأنت على منكبي. فشده عمر....(كذا).

وابتاع عثمان بن عفان تلك الدار فزادها في المسجد إلاّ ثلاثة عشر ذراعا أو أربعة عشر ذراعا فقال: لا أدري كان ابتاع البقية أم لا..؟ " لفظ "مطاره" لم يتضح معناه في التركيب والمحتمل أنه يرجع إلى مسمى البئر أو الحوض. ففي بعض معاجم اللغة أن المطرة يطلق على الحوض والمطاره على البئر.

و في هذه الرواية أيضا أن العباس هو الحامل للرسول صلى الله عليه وسلم عند وضع الميزاب.

و يتابع المؤلف تعليقه ببيان الوجه الذي يحصل به التأييد لما رآه من الاحتمال للجمع بين الروايات مأخوذا من مضمون هذه الرواية ويعبّر في ذلك بعبارة الاستظهار ومعلوم أن الاستظهار هو أيضا يرجع إلى الاحتمال ونص كلامه كما يلي: قلتُ" فالذي يظهر أن العباس أبقى لنفسه بقية الدار بعد أخذ ما احتيج إلى زيادته منها وأنه كان في تلك البقية ميزاب ، فلما أحدث عمر الباب الذي عند دار مروان كما سيأتي صار الميزاب يصب على الباب في طريق المسجد ثم اشترى عثمان من تلك البقية ما احتاج إلى

إدخاله في زيادته". وظاهر من هذه الرواية أنها في ذكر دار العباس من غير ما تعرض لما حدث من قصة إدخالها للمسجد على يد عمر بل هي تدل في ظاهرها على أن الدار بقيت حتى اشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأنه هو الذي أدخل معظمها في المسجد ، و ما فيها- أي الرواية- من ذكر قصة الميزاب يدل على أن ذلك هو الحدث الوحيد الذي وقع لهذه الدار في عهد عمر رضي الله عنه. فكان توجيه المؤلف لهذا مما علق به هو تجزئة الدار جزء ما وقعت فيه الخصومة بين عمر والعباس وجزء ما حدثت فيه قصة الميزاب ، وهو الجزء الذي اشتراه عثمان وأدخله في المسجد. فيفهم حينئذ على هذا الاستظهار أو الاحتمال أن الدار ذات وجهين في موضوع إدخالها في المسجد. الأول منهما أنها أدخلت على يد عمر بوجه الهبة من مالكها العباس والوجه الثاني أن عثمان رضي الله عنه اشتراها في معظمها وأدخلها في المسجد ولم يذكر ممن اشتراها. و كل هذا التقدير إنما هو لأجل الجمع بين الروايات الإخبارية المتباينة غير أن الجمع يأتي معه بغرابة في الموضوع بالغة الشّدة أقل ما فيها أنّها تبعث على الحيرة.

ثمّ أورد المؤلف رحمه الله الرواية الأخيرة مما ساقه من هذه الروايات في قصة دار العباس رضي الله عنه وهي:

9) التاسعة: مما ساق في الكتاب و أوردها مقتضبة مختصا ما يتعلق بردّ الميزاب قال: "

و روى **ابن أبي الدنيا*** قصة دار العباس هذه مطولة وقال أن العباس قال لعمر: أما والله ما شده إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه حملني - والله-على عاتقه حين شده. قال: و بعض الناس يقول بل العباس حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال **محمد بن عقبة*** يعني رواية.....(كذا): ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع قدميه على رقبة أبيه أو عمه ، ولكنه حمل العباس على عاتقه». والملاحظ فيما جاء من هذه الرواية هو الرد الذي ردّ به الراوي محمد بن عقبة على الروايات

و عقب المؤلف رحمه الله على ما تقدم مما رآه احتمالا يجمع به بين الروايات بتعقيب يقول أنه يؤيد الاحتمال المذكور فساق في ذلك:

8) رواية ثامنة: رواية يحيى في ذكر زيادة **عثمان بن عفان*** رضي الله عنه في المسجد النبوي عن **الأعمش*** قال: "بنى العباس داره التي إلى جنب المسجد فجعل يرتجز و يقول: "بنيتها باللبن والحجاره* والخشبات فوقها مطاره* ياربنا بارك لأهل الداره" (فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: اللّهم بارك في هذه الداره).

قال: وجعل العباس ميزابها لاصقا بباب المسجد يصب عليه، فطرحه عمر ابن الخطاب، فقال العباس: أما والله ما شدّه إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لعلى منكبي. فقال له عمر: لاجرم والله لا تشدّه إلاّ وأنت على منكبي. فشده عمر....(كذا).

وابتاع عثمان بن عفان تلك الدار فزادها في المسجد إلاّ ثلاثة عشر ذراعا أو أربعة عشر ذراعا فقال: لا أدري كان ابتاع البقية أم لا..؟ " لفظ "مطاره" لم يتضح معناه في التركيب والمحتمل أنه يرجع إلى مسمى البئر أو الحوض. ففي بعض معاجم اللغة أن المطرة يطلق على الحوض والمطاره على البئر.

و في هذه الرواية أيضا أن العباس هو الحامل للرسول صلى الله عليه وسلم عند وضع الميزاب.

و يتابع المؤلف تعليقه ببيان الوجه الذي يحصل به التأييد لما رآه من الاحتمال للجمع بين الروايات مأخوذا من مضمون هذه الرواية ويعبّر في ذلك بعبارة الاستظهار ومعلوم أن الاستظهار هو أيضا يرجع إلى الاحتمال ونص كلامه كما يلي: قلتُ" فالذي يظهر أن العباس أبقى لنفسه بقية الدار بعد أخذ ما احتيج إلى زيادته منها وأنه كان في تلك البقية ميزاب، فلما أحدث عمر الباب الذي عند دار مروان كما سيأتي صار الميزاب يصب على الباب في طريق المسجد ثم اشترى عثمان من تلك البقية ما احتاج إلى

إدخاله في زيادته". وظاهر من هذه الرواية أنها في ذكر دار العباس من غير ما تعرض لما حدث من قصة إدخالها للمسجد على يد عمر بل هي تدل في ظاهرها على أن الدار بقيت حتى اشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأنه هو الذي أدخل معظمها في المسجد، و ما فيها- أي الرواية- من ذكر قصة الميزاب يدل على أن ذلك هو الحدث الوحيد الذي وقع لهذه الدار في عهد عمر رضي الله عنه. فكان توجيه المؤلف لهذا مما علق به هو تجزئة الدار جزء ما وقعت فيه الخصومة بين عمر والعباس وجزء ما حدثت فيه قصة الميزاب، وهو الجزء الذي اشتراه عثمان وأدخله في المسجد. فيفهم حينئذ على هذا الاستظهار أو الاحتمال أن الدار ذات وجهين في موضوع إدخالها في المسجد. الأول منهما أنها أدخلت على يد عمر بوجه الهبة من مالكها العباس والوجه الثاني أن عثمان رضي الله عنه اشتراها في معظمها وأدخلها في المسجد ولم يذكر ممن اشتراها. و كل هذا التقدير إنما هو لأجل الجمع بين الروايات الإخبارية المتباينة غير أن الجمع يأتي معه بغرابة في الموضوع بالغة الشّدة أقل ما فيها أنّها تبعث على الحيرة.

ثمّ أورد المؤلف رحمه الله الرواية الأخيرة مما ساقه من هذه الروايات في قصة دار العباس رضي الله عنه وهي:

9) **التاسعة:** مما ساق في الكتاب و أوردها مقتضبة مختصا ما يتعلق بردّ الميزاب قال: "

و روى **ابن أبي الدنيا*** قصة دار العباس هذه مطولة وقال أن العباس قال لعمر: أما والله ما شده إلاّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه حملني - والله-على عاتقه حين شده. قال: و بعض الناس يقول بل العباس حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال **محمد بن عقبة*** يعني رواية.....(كذا): ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع قدميه على رقبة أبيه أو عمه، ولكنه حمل العباس على عاتقه». والملاحظ فيما جاء من هذه الرواية هو الرد الذي ردّ به الراوي محمد بن عقبة على الروايات

ثم إن منع هذه الأفعال في المساجد معلّل بحرمة المساجد و قداستها ولو كان المسجد خاليا ممن يحضره. أما إذا كان في المسجد من يؤمه لأداء المهمات المتعلقة به كالمصلي و تالي القرآن والذاكر والداعي والمعلم والمتعلم والمتفكر فيزيد المنع علّة أخرى هي اتقاء الأشغال والتشويش على من بالمسجد يقوم بمهمته.

فمن المعلوم أن استكمال أداء تلك المهمات المذكورة لا يحصل إلاّ في سكينة وفي جوّ هادئ.

و أما ما جاء من قول عمر رضي الله عنه: " أو ينشد شعرا" فإن إنشاد الشعر في المسجد مسألة فيها بحث. فقد تواترت الأخبار الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يجالس أصحابه رضي الله تعالى عنهم مجالس يتناولون فيها أحاديث يعرض فيها إنشاد الشعر فينشدون ذلك على مسمع منه عليه الصلاة والسلام.

و الأخبار في استماعه صلى الله عليه وسلم إلى ما يلقى إليه وبين يديه من قصائد أو مقطوعات شعرية في مناسبات دعت إلى ذلك ولأغراض صحيحة هي أخبار شتى لا تكاد تحصر. فمن ذلك ما قدم إليه خصيصا لاستعطافه أو طلب شيء منه وغير ذلك ، أو ما أنشد بين يديه من إنشاء المتقدمين ناسبت المناسبة لذلك وكل هذا من الشعر الذي يعرف أو يعد من الشعر الجاهلي.

و لا وجه للتساؤل في هذا بأنه كان داخل المسجد أو خارج المسجد. فالمعروف أن مجلسه صلى الله عليه وسلم بالأصالة إنما هو المسجد. فمدار الكلام والاستدلال هنا إنما هو على استماعه عليه الصلاة والسلام مطلق الاستماع وقد ثبت الاستماع. أما الشعر الإسلامي فالأمر فيه واضح للعموم لا حاجة إلى طول الكلام فيه. فمن المعروف في علم السيرة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم كان له شعراء خصصوا بهذه النسبة إليه عليه الصلاة والسلام ، واشتهر منهم ثلاثة من فريق الأنصار وهم **حسان بن ثابت***

وكعب بن مالك * **وعبد الله بن رواحة** * رضي الله عنهم.

و قد ورد من صحيح الأخبار الثابتة المتواترة أن حسان بن ثابث كان ينصب له في المسجد منبر ينشد عليه القصائد الشعرية دفاعا عن الإسلام والمسلمين و هجوًا و ردًا على الأعداء من الكفار والمشركين ، وأن هذا كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتحت إشرافه.

و من هذا أيضا قصيدة **كعب بن زهير** * لما وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم يعلن إسلامه بعد ما كان له من وحشة نحو الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فأنشد بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدته تلك المعروفة "بانت سعاد" واستهلالها معروف بأنه غزل وكان ذلك في المسجد النبوي بمشهد الجمهور من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. فأكرمه الرسول صلى الله عليه وسلم وأجازه بما يعد من أفخر التحف وأرفعها حيث خلع عليه الصلاة والسلام بردته التي كان لابسها وكساها كعبًا.

و مما تقدم من هذه النبذة اليسيرة عن مسمى الشعر الإسلامي على عهده صلى الله عليه وسلم يفهم أن هذا الشعر كان بمثابة جهاز من أجهزة القيام بالدعوة الإسلامية دعاية لها ودفاعا عنها وإعلاما بها.

و في هذا كفاية من الدلالة على مكانة الشعر في ذلك العهد النبوي. وفي الرجوع إلى بحث ما تقدم من موضوع إنشاد الشعر في المسجد يحسن تلخيص القول هنا بإيراد المقالة المتداولة ، وهي: إن الشعر من حيث هو إنما هو كلام لا أقل ولا أكثر فما حسن من الكلام حسن من الشعر وما جاز فهو كذلك وما قبح فهو كذلك سواء بسواء.

و ما جاءت هذه النظرة الخاصة للشعر من حيث جوازه أو عدم جوازه في المساجد إلاّ من جهة ما كان معروفا من الشعر والشعراء من سابق إلى عهد ظهور الإسلام وهو غالبية الطغيان في المعاني والإسراف في الألفاظ واستعمال الخيال بإفراط فيكون من ذلك مبالغات كلها أكاذيب وأباطيل.

هذا مع ما يخالط بطبيعة الحال بحكم العقيدة الشركية الدارجة من كفريات وخرافيات مضللة. وعلى هذا المعنى يفهم ما جاء في الأثر الوارد عنه عليه الصلاة والسلام والمتضمن أنه صلى الله عليه وسلم عندما نشأ و فتح بصره على الحياة الاجتماعية التي عليها قومه إذ ذاك ألهم من ربّه سبحانه بغض الأوثان والأصنام المعبودة من دون الله وبغض الشعر أيضا. ورد هذا في حديث شريف صححه الحفاظ بلفظ: " لما نشأتُ بَغُضَتْ إليَّ الأوثان وبَغُضَ إليَّ الشعر".

و الذي جاء للعلماء في المحمل الذي يحمل عليه نهي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن إنشاد الشعر في المسجد يتمثل في وجهين: الأول منهما أن الشعر المنهي عنه هو ما تقدم ذكره من أشعار الجاهلية والذي تكون فيه بذاءة اللفظ أو ما كان من الضلالات والخرافات الجاهلية فينزه المسجد عن هذا النوع من الشعر. والوجه الثاني هو كون إنشاد الشعر في المسجد بحال الكثرة والغالبية بحيث يشغل عن المهمات الأخرى المعروفة للمسجد كالصلاة والتلاوة والذكر ونحو ذلك.

و إذا ما كان التطاول للترجيح بين هذين الوجهين فالمتبادر للفهم ترجيح الوجه الأول.

و من المعلوم أن هذه البطيحاء التي جعلها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، جاء الوقت الذي اقتضى إدخالها في المسجد نفسه لتوسيعه.

و هكذا تعد هذه البطيحاء من إحدى المآثر الجليلة في باب التنظيم وحسن الإدارة مما قام به الخليفة عمر رضي الله عنه في عهد ولايته وهي مآثر عديدة في شتى أبواب من وجوه الحياة العامة للمجتمع الإسلامي سجلها له التاريخ ببالغ مقدار من الإكبار والتقدير. وقد بقي من موضوع خصائص المسجد وحرماته وما يتعلق بذلك من أحكام بجواز ما يجوز فيه من عمل أجنبي عن مهماته الأصلية كالأكل فيه والنوم والمرور به من فاقد الطهارة الكبرى وغير هذا من مثل هذه الأعمال أو المنع من ذلك.

فهذا قد استُوفِي الكلام فيه في المصادر المختصة من كتب الفقه وغيرها بغاية التفصيل وسيأتي إيراد نبذة منه في الدرس رقم 221 (واحد وعشرين ومائتين)، عند التعرض لتجديد بناء مسجد قباء.

و المأخوذ من الأخبار عن صورة المسجد النبوي التي صار عليها بعد زيادة ما زاد فيه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن هذه الصورة استمر قيامها لمدة اثنتي عشرة سنة سبعا منها في خلافة عمر رضي الله عنه وخمسا على عهد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه أي من السنة السابعة عشرة للهجرة إلى تمام السنة الثامنة والعشرين.

و في أثناء السنة التاسعة والعشرين للهجرة أجري التجديد الكامل للمسجد النبوي على يد الخليفة **عثمان بن عفان*** رضي الله عنه.

و أفادت الأخبار أن تجديد بناء المسجد النبوي على يد عثمان رضي الله عنه كان هو أيضا بداعي الضرورة حيث ضاق بالمصلين حتى كان الجم الغفير منهم يصلي خارج المسجد على أطرافه.

و تكرر الطلب مرارا من الجمهور بتوسيع المسجد وبقي الخليفة عثمان رضي الله عنه يتريث في إجابة الطلب لمدة بضع سنين، أي من سنة أربع وعشرين إلى السنة التي أنجز فيها العمل وهي التاسعة والعشرون للهجرة.

و يستفاد من واقع الحال إذ ذاك أن توسيع المسجد كان يستدعي عمارة أوسع وإقامة أضخم، ولا يكفي فيه مجرد زيادة تزاد على القديم بحيث يتعين هدم البناء القديم كليًّا وتجديده ببناية أخرى لا يستكمل الغرض من التوسيع بدونها.

و قد أفادت الأخبار الموثوق بها أن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يقدم على إنجاز عملية هذا التجديد المهم إلاّ بعد أن أجرى مشاورة، و ربما لعدة مرات مع المختصين من ذوي الرأي من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ففي بعض الروايات من هذا ما يفيد أنه رضي

الله عنه قام بعد صلاة الظهر ذات يوم فخطب الجمهور بالمسجد على المنبر وكلمهم في شأن تجديد بناء المسجد. وجاء من نص ما خطب به عثمان رضي الله عنه الجمهور أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: « أيها الناس إني قد أردت أن أهدم بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه وأشهد لَسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة. وقد كان لي فيه سلف وإمام سبقني وتقدمني ، عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه وبناه وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه».(قال في الرواية): فحسن الناس يومئذ ذلك من عثمان و دعوا له. فأصبح فدعا العمال و باشر العمل معهم بنفسه.

و تفيد الرواية أن العمل في تجديد المسجد هذا استمر لمدة عشرة أشهر حيث كان الابتداء في شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين ، وكان الفراغ منه مستهل المحرم من سنة ثلاثين للهجرة.

هذا والذي تظافرت عليه الأخبار في بناية عثمان بن عفان رضي الله عنه للمسجد النبوي ، يفيد أنه كان شيئًا يزيد بكثير عما كان عليه سابقا من حيث توسيع المساحة وإحكام البناء ، فأقيمت الجدران بالحجارة المنقوشة وأضيف إليها **القصّة**[1] وجعلت العمد محشوة بالحديد وكان التسقيف بخشب **الساج**[2]. ومن حيث توسيع المساحة فقد جاء أنه زيد في المسجد زيادة كبيرة وجعلت له **أروقة**[3] على جهاته الأربع.

---

(1) القَصّة: بفتح القاف والصاد المهملة هي المادة من أجزاء الأرض البيضاء تبيض بها الجدران وتضاف إلى الحجارة والرخام مما تبنى به الجدران وتعرف أيضا باسم الجص بالجيم والصاد المهملة.

(2) الساج: بالسين المهملة والجيم شجر عظم صلب الخشب له رائحة طيبة ومنبته بلاد الهند يطلق على الشجرة الواحدة منه ساجة.

(3) الرواق: بفتح الراء وبكسرها وتخفيف الواو آخره قاف يجمع على أروقة و رواقات بوزن جواب وأجوبة فهو في البناء سقف يجعل في مقدم الحائط زائدا عليه.

فالمتحصل من معرفة تجديد المسجد النبوي في هذه المرة على يد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان على مقتضى التطور بالترقي الذي يوجبه الظرف الزماني الجاري إذ ذاك وهو عهد توسع و فتوحات و توفر إمكانيات لم تكن قبل ذلك ، ومع ذلك فإنه لم يخرج به إلى ما هو من مجرد الأناقة المنظرية كالنقش والتزويق ونحوه كما حدث بعد ذلك فيما تلا من الزمان [ورد فيما ورد من روايات الأخبار مما يتعلق بتجديد بناء المسجد النبوي على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه الرواية التي تذكر كراهية البعض من الناس لعملية البناء المذكور و ذلك من حيث المادة التي جعلت في البناء من الحجارة المنقوشة وإضافة الجص إلى غير هذا مما لم يكن في البناء قبله. فكان هذا الفريق يرى في التجديد انحرافا عما كان من البناء باللبن والتسقيف بالجريد الأمر الذي فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وأبقى عليه عمر بن الخطاب في تجديده عند زيادته في المسجد.

و الملاحظ على ما تضمنه هذا الخبر وما يقال تجاهه أنه مما قضت به المشاهدة في المعروف من الأزمنة والأمكنة ، ذلك أنه يوجد في الناس فئة يألفون القديم بكل ما فيه سواء كان صالحا للوقت الحاضر أو غير صالح فيكرهون التجديد ولو تبين صلاحه و يألفون القديم و لو ظهر فساده. فالمسألة هنا إنما هي مسألة مرافق الحياة المتطورة بحسب ما يقتضيه الزمان وتمليه الأوضاع القائمة. فما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد كان هو جهد الإمكان بحسب الحال الراهنة وما فعله خليفته عثمان رضي الله عنه في نفس العملية لم يكن إلاّ ما اقتضاه الظرف الحالي من تطور جاء به الوقت و فرضه فرضا.

فمسألة التأسي بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ليست من هذا الباب وقد علم مما جاءت به الأخبار المعتمدة هنا أن عثمان رضي الله عنه ما أقدم على تجديد بناء المسجد إلاّ بموافقة أهل الشورى وأصحاب الرأي من النخبة المختصة من الصحابة رضوان الله عليهم. فما وقع من عملية

البناء التي استمرت نحو عشرة أشهر كان تحت نظر هذا الجمع من الصحابة الذين عُرفوا بأهل الرأي والمشورة في الأمور العامة. كما أن المأخوذ من عموم الأخبار الواردة في بناية المسجد هذه على يد عثمان رضي الله عنه يشير إلى أن هذا البناء لم يكن إلاّ على النمط المحتشم الذي وقع على يد الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث كونه خاليا من التزاويق والزخرفة وإنما كانت مغايرته للبناء القديم بما كان عليه من إحكام البناء و متانته وصلابة المواد التي أقيم بها مع زيادة التوسيع في المساحة. ويشهد لهذا ما جاء في الأثر الوارد عن **أبان بن عثمان ابن عفان*** عندما استحضره الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان و سأله أن يبدي رأيه في المقابلة بين البناية القديمة التي كان عليها المسجد وبين البناية الجديدة الواقعة على يد الوليد، فكأن الوليد معجبا بما أنجزه من البناء على يده. فكان جواب أبان له أن قال له "نحن بنيناه بناء المساجد وأنتم بنيتموه بناء الكنائس". ومن هذا يفهم أنّ ما جاء في هذا الخبر من كراهية البعض لفعل عثمان ليس مما يقام له وزن ولا اعتبار و ما هو إلاّ من قبيل ما تمليه العواطف التي لا اعتبار بها في مثل هذا الموضوع.

بقي أن يلاحظ أيضا أنه من المحتمل أن يكون هذا الإنكار لفعل عثمان رضي الله عنه مصدره الفئة التي كانت في الوقت قائمة بالمعارضة والنقمة على تصرفات عثمان. فإنه من المعلوم حدوث ما حدث من هذه الفكرة المناوئة لعثمان رضي الله عنه بعد صدر من خلافته فكانت هي الجرثومة للفتنة الكبرى التي كاد بها الأعداء للمسلمين وللعرب بالخصوص. فلم تنته سنة خمس وثلاثين هجرية حتى كان الحادث الجلل بمقتل عثمان رضي الله عنه. وبذلك فتح على المسلمين باب الفتن الذي لم يمكن غلقه].

و قد أفادت الأخبار أن بناية المسجد النبوي هذه على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه كتب لها البقاء قائمة كما هي من غير تغيير لمدة نحو ستين سنة.

فلم يقع للمسجد تجديد ولا عملية بناء فيه حتى سنة ثمان وثمانين للهجرة ، حيث جدد بناءه الخليفة الأمويّ **الوليد بن عبد الملك بن مروان** *.

و المستفاد من الأخبار في بناية الخليفة الوليد بن عبد الملك للمسجد النبوي أنه كان بناء مقتضى الظرف المناسب بالتطور البليغ في التوسع والزيادة حتى خرج عن النمط المعهود في الصدر الأول بحيث كان البداءة لما حدث بعد ذلك في التالي من الأزمنة. فكان مع إحكام البناء ودقة الصنع والتفنن في الإتقان مراعاة جانب الأناقة والزينة في المظهر والجمال والزخرفة في المنظر.

فتفيد الأخبار أن الخليفة الوليد أنفذ من عاصمة الخلافة إذ ذاك دمشق الشام إلى العامل من جهته على المدينة المنورة قريبه وابن عمه **عمر بن عبد العزيز بن مروان** *، الأمر بتجديد بناء المسجد النبوي تجديدا كاملا حيث هدم البناء القديم بجملته و زيد في مساحة المسجد زيادة تناولت عدة مباني أدخلت في المسجد ومنها حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهُنَّ وقد تقدم ذكرها قريبا.

و جاء في مادة هذا البناء أنه كان بالحجارة والجص وكانت العمد محشوة بالحديد والتسقيف بخشب الساج ونقشت الجدران **بالفسيفساء**[1] **والمرمر**[2] وتولى الإشراف على عملية البناء وَالي المدينة عمر بن عبد العزيز. وقد استمرت عملية البناء من سنة ثمان وثمانين هجرية إلى سنة إحدى وتسعين.

---

[1] الفسيفساء: المادة من حرفي الفاء والسين المهملة مكررا بصيغة التصغير مختوما بالألف الممدودة يطلق على قطع صغيرة في قرب حجم الظفر من الرخام أو الصدف ونحوه تكون ملونة بألوان مختلفة فيؤلف منها أشكال كالأشجار وغيرها تلصق بالجدران في مواجهة النظر وفي ذلك زيادة على الزينة متانة للجدار.

[2] المرمر: مكررا من الميم والراء وبفتح الميم اسم لنوع من الرخام فيه زيادة صفاء.

و مما جاء من الأخبار في بناية الوليد للمسجد النبوي أنها البناية التي صنع فيها المحراب الذي يقوم فيه الإمام بشكله الخاص تجويفا في الجدار. فلم يكن قبله محراب بشكله هذا لا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد ما بعده مما جدد فيه بناء المسجد.

و كذلك كان لأول مرة في بناء المسجد اتخاذ المنارة للأذان بناء خاصا بالمسجد. ففي بناية الوليد هذه صنع المحراب وجعلت للمسجد أربع منارات[1].

و من مستقصى الأخبار في شأن بناية المسجد النبوي هذه ما أفاد أنه احتيج إلى استيراد عمال أجانب من الخارج كان فريق منهم من الروم وفريق من القبط زيادة على العمال من أهل المدينة، وذلك لما للأجانب من الاختصاص في فن التنميق والتزيين. فكان فريق الروم في جهة مخصوصة و فريق القبط في جهة أخرى ولاحظ الناس في ذلك تفضيل صنعة القبط على صنعة الروم.

كما جاء أن **عمر بن عبد العزيز***كان في إشرافه على عمليات البناء شديد الحرص على كمال الإتقان فيما يصنع الصناع، وجعل لذلك مكافآت زائدة على الأجرة الرسمية لكل من ولي من الصناع إقامة شكل من الفسيفساء مثلا و كان فيه مزيد إعجاب لناظره **فينفل**[2] عمر ذلك الصانع ثلاثين درهما لكل شكل. ومما ورد في مبلغ النفقة الخارجة في بناء المسجد أنه كان في بناء الدائرة المخمسة على الحجرة النبوية مزيد إبداع. فكان استعمال ماء الذهب للأصباغ وغير ذلك من زيادة تحسين امتاز بها المكان.

---

(1) وكان العمل قبل اتخاذ المنارات أن يرقى المؤذن على مرتفع مما يقرب من المسجد فيؤذن عليه.

(2) ينفل: من النفل بالنون والفاء واللام والفعل منه مفتوح في الماضي مضموم في المضارع والمصدر بفتح النون وسكون الفاء وهو فعل يتعدى مباشرة بنفسه إلى المفعول كما هو هنا في هذه العبارة والمعنى فيه على العموم يرجع إلى الزيادة في الشيء ومعنى التطوع من الفاعل كما يفهم من لفظ النافلة المقابل للواجب المحتم وإذا كان لفظ النفل بفتحتين فهو اسم للغنيمة ويجمع على أنفال.

و لما حج الوليد في سنة إحدى وتسعين وكان بناء المسجد قد تم قدم إلى المدينة ليطلع على البناية فجعل يطوف بالمسجد يقلب النظر في البنيان ومعه جمع منهم عمر بن عبد العزيز يجيبه عما يسأل عنه. ولما رأى سقف المقصورة قال لعمر: " هلاً عملت مثل هذا في البناء كله!" فقال له عمر: "يا أمير المؤمنين إذَن تعظم النفقة جدّا" فقال الوليد: "و إن كان ذلك ؟ " فقال له عمر: " أتدري يا أمير المؤمنين كم أنفق على عمل جدار القبلة وما بين السقفين ؟ " قال: "وكم ؟ " قال: "خمسة و أربعون ألف دينار". فقال له الوليد: " والله لكأنك أنفقتها من مالك!".

كما ورد من هذه الأخبار أن الوليد لما قدم المدينة لينظر بناء المسجد طلب حضور **أبان بن عثمان بن عفان*** ، فحمل إليه في كساء خز[1] . وبعد ما استنفد الوليد النظر في بنيان المسجد فكان به معجبا التفت إلى أبان فقال له: " أين بناؤنا من بنائكم ؟ " فأجاب أبان: "إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس". والمستفاد من الأخبار أن بناية المسجد النبوي هذه الواقعة على يد الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك بن مروان استمرت قائمة مدة تزيد على سبعين سنة. فلم يحدث شيء من التجديد للمسجد بعدها حتى سنة إحدى وستين ومائة للهجرة ، وكانت الأوضاع السياسية قد تغيرت بسقوط دولة بني أُميَّة وقيام دولة بني العباس في سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة.

و ذكر فيما يذكر من الأخبار التي لم يحققها المؤرخون الموثوق بهم أن الخليفة العباسي الأول **عبد الله السفاح*** قام بعملية تجديد لبناية

---

(1) الخز: بفتح الخاء المعجمة وتضعيف الزاي يطلق على الحرير وعلى ما ينسج من حرير وصوف. وإحضار أبان بن عثمان عليه الرحمة كما ذكر محتمل لأن يكون ذلك لهرمه أو لما هو عليه من مرض الفالج. فقد جاء في الأخبار أنه أصيب في آخر عمره بمرض الفالج. وهذه الرواية التي تنسب إلى الوليد استحضار أبان والحوار معه هي الأولى بالاعتماد خلاف ما جاء في رواية أخرى تنسب ذلك إلى عمر بن عبد العزيز. فالحادث بالوليد أشبه من عدة وجوه.

المسجد النبوي غير أن هذا لم يشتهر والذي اشتهر تداوله أن الخليفة العباسي الثاني وهو أبو جعفر المنصور* فكر في تجديد بناء المسجد النبوي وزيادة توسيعه وعزم على ذلك غير أنه لم يبلغ الأمنية حيث اخترمته المنيّة قبل الشروع في العملية.

فالمحقق من هذا أنه بعد بناية الخليفة الأمويّ الوليد التي تمت في سنة إحدى وتسعين لم يقع شيء للمسجد من البناء حتى كانت سنة إحدى وستين و مائة و كانت الخلافة في الوقت قد آلت إلى الخليفة الثالث من العباسيين و هو محمد المهدي* بن أبي جعفر المنصور، فهو الذي أنفذ الأمر من قاعدة الخلافة إذ ذاك مدينة بغداد من أرض العراق إلى عامله على المدينة المنورة بتجديد بناية المسجد النبوي. وتفيد الأخبار أن بناية المهدي هذه وإن لم تتناول البناء القديم بالهدم والتغيير فإنها كانت زيادة في المساحة وإدخال تحسينات على البناية وكان معظم الزيادة في الناحية الشمالية ولم يكن العمل في البناء من حيث التنميق والتزيين بأقل من سابقه إن لم يكن بزيادة. فنقشت الجدران بالفسيفساء وغيرها وكتب على الواجهات كتابة آيات قرآنية وغيرها نقشا يجمع بين الإبداع والإحكام. وأفادت الأخبار أن العمل في بناء الخليفة المهدي للمسجد النبوي هذا استغرق من الوقت من سنة إحدى وستين ومائة إلى سنة خمس وستين أي زهاء الخمس سنوات.

و بمراجعة ما تقدم ذكره مما يخص بناء المسجد النبوي بالمدينة المنورة يتحصل أنه تناوله البناء في خلال مدة مائة وستين سنة ست مرات هي:

1) البناء الأصلي الأول على يده صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة مهاجرا.

2) ثم زيادته فيه سنة سبع من الهجرة.

3) ثم زيادة عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة.

4) ثم تجديده على يد عثمان ابن عفان سنة تسع وعشرين.
5) ثم تجديد الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين.
6) ثم زيادة الخليفة المهدي العباسي سنة إحدى وستين ومائة.
ويتحصل أيضا معرفة مبدإ بناء المسجد بإدخال التحسينات المنظريَّة عليه بالنقوش والكتابة والأصباغ ونحو ذلك بأن هذا حدث لأول مرة في البناء الذي وقع على عهد الخليفة الوليد في سنة ثمان وثمانين ولم يكن معمولا به قبل ذلك ولكن الواقع بعد ذلك فيما تواصل من بناء المسجد طوال المدة إلى اليوم جعل هذا الجانب من البناء من الأمور المرعيّة بكل اهتمام.

فتواصل العمل به في كل بناء أقيم في المسجد من بعد و بزائد إبداع وترقية مسايرة لما تقتضيه سُنَّة التطور والإبداع في الصناعة، حتى صار المسجد النبوي في الآونة الحاضرة في الذروة العليا من بين الأبنية القائمة في المعمور أناقة في المنظر وفخامة في الهيكل وإبداعا في الشكل والصناعة [تعرض هنا ملاحظة للمتأمل فيما تقدم ذكره قريبا من روايات الأخبار عن فريق الصحابة من الأنصار الطامحين إلى بناء المسجد النبوي على نمط الأناقة والضخامة كما في الرواية التي تحكي عن جمع من هؤلاء الصحابة بأنهم جمعوا قدرا من المال وجاءوا به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقولون له: "يا رسول الله ابْنِ لنا المسجد وزيّنه فإلى متى ونحن نصلي تحت هذا الجريد؟ " والرواية التي حكت عن **عبد الله ابن رواحة*** و **أبي الدرداء*** في قولهما للرسول صلى الله عليه وسلم: " أردنا أن نبني المسجد على بناء الشام". ولم يوافق صلى الله عليه وسلم على الاقتراح. يلاحظ هنا بأن فكرة هؤلاء الصحابة قد كتب الله لها التحقق على أوفر ما يكون بعد مرور مدة من الزمن لم تتجاوز العقد التاسع من السنين.

و معتقدنا أن ما وقع من تحقيق هذه الفكرة الطموحة قد تجاوز ما كان يؤمله أصحابها بأضعاف مضاعفة ومراحل شاسعة عديدة ما كانت

لتخطر لأحد ببال أو يتخيلها خيال ، فسبحان من بيده مفاتيح الغيب وله خزائن الفضل].

و في الأخبار ما يفيد أنه بعد زيادة الخليفة العباسي المهدي المذكورة سنة إحدى وستين ومائة للهجرة للمسجد النبوي وقعت فيه زيادة أخرى سنة اثنتين ومائتين للهجرة وذلك على يد الخليفة العباسي **عبد الله المأمون** * سابع الخلفاء العباسيين غير أن هذا الخبر لم يكن محل اتفاق بين المؤرخين ويظهر أن العامة ممن أرخ للمدينة المنورة وتناول مسألة بناء المسجد النبوي لم يذكروا هذه الزيادة المنسوبة للخليفة المأمون سنة اثنتين ومائتين. وأفاد **نور الدين السمهودي** * في كتابه " وفاء الوفاء" في تاريخ المدينة المنورة عند تعرضه لما ورد من خبر زيادة المأمون فقال ما معناه: يحتمل هذا أنه مطلق عمارة للمسجد وقعت في زمان المأمون وليست زيادة بالمعنى المعهود".

و كذلك مؤلف الكتاب " آثار المدينة المنورة " الأستاذ **عبد القدوس الأنصاري** * وهو من علماء العصر الحالي لم يذكر في عداد ما عد من المرات الواقع فيها بناء المسجد النبوي أو ترميمه أو الزيادة فيه لم يذكر زيادة الخليفة المأمون وقد أوصل عدد هذه المرات إلى تسع عشرة ابتداء من بناية الرسول صلى الله عليه وسلم الأصلية الواقعة إثر مقدمه عليه الصلاة والسلام المدينة في هجرته حتى عهد تأليفه لكتابه المذكور وهو سنة 1353 ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة.

و قد عين كل من ولي عمارة المسجد بتجديد أو ترميم أو زيادة من ولاة الأمر بعد عمارتي الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كالوليد من خلفاء بني أميّة ثم ما كان من خلفاء بني العباس ثم ما كان من ملوك وسلاطين العجم المعروفين **بالمماليك**[1] **والجراكسة** * الذين انتصبوا بمصر.

---

(1) كان قيام دولة المماليك الجراكسة ابتداء من النصف الأخير للقرن السابع الهجري حتى الخمس الأول من القرن العاشر. فقد استمرت دولتهم ما يزيد على سبعين ومائتين من السنين.

ثم الأتراك من سلاطين **بني عثمان**[1] ذاكرا كل واحد بإسمه المعروف مع تعيين التاريخ الهجري لكل عمارة.

و ختم العدة بالعمارتين الواقعتين بمشهده في عهدنا الحاضر وذلك بعد أن آلت الولاية[2] على الحرمين الشريفين إلى أسرة **آل سعود*** النجديين القائمة دولتهم في الوقت باسم الدولة العربية السعودية أو المملكة العربية السعودية. وكانت أولى هاتين العمارتين للمسجد النبوي ما أجراه الملك **عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود*** الفيصل أول ملوك هذه الدولة من ترميم وإصلاح في سنة ثمان و أربعين من القرن الهجري الحالي وسنة خمسين بعدها.

ثم العمارة الثانية التي قامت بها الحكومة المصرية وهي الجارية في الحال أي في سنة ثلاث وخمسين.

و عقب مؤلف كتاب " آثار المدينة المنورة " في الأخير بقوله: "وبإلقاء نظرة بسيطة على هذه العمارات التي حدثت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لمسجده ندرك مبلغ عناية المسلمين و ولاتهم بالمسجد النبوي الشريف".

و اليوم وقد مرّ على تحرير مؤلف كتاب " آثار المدينة المنورة " المتعلق بالمسجد النبوي بضع عشرة سنة من الزمن، فنحن اليوم في السنة الخامسة والستين بعد ثلاثمائة وألف للهجرة النبوية والأنباء تتوارد متواترة عن قيام ولاية الأمر من السعوديين بأعمال التوسيع و إحكام البناء وتحسين المرافق المختلفة وإحداث الصالح منها على أبدع الأساليب

---

[1] كانت ولاية بني عثمان ابتداء من الخمس الثاني للقرن العاشر الهجري حتى انقراض دولتهم في الخمس الثاني من القرن الرابع عشر الحالي. فقد استمرت ولايتهم حوالي أربعمائة وعشرين من السنين.

[2] وآلت الولاية على الحرمين الشريفين إلى آل سعود في سنة 1343 ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة.

العصرية وأرقى ما وصلت إليه الصناعة الحديثة في كل من الحرمين الشريفين المكيّ والمدنيّ على السواء.

فقرآئن الأحوال تؤذن بأن هذين المكانين المقدسين سيكونان في مستقبل الزمن-الزمن القريب الذي في حكم الحال- آية مما لم يتقدم له مثيل من صنع الإنسان وإبداعه في البناء والتعمير. وإذ قد انتهت هذه النبذة في الكلام على مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فربما يكون من المستحسن ختمها بالإشارة إلى عبرتين مما يستخلصه المعتبر في هذا الموضوع بالنظر في تصاريف القدر والتدبر فيما يجري على أوضاع هذا الكون من أعراض في تجدد وتطور وتشابه وتخالف:

1) الأولى: فيما يشاهد اليوم في عهدنا الحاضر من الوضع الذي عليه المسجد النبوي الشريف من حيث هيكل البناء وتوابعه من المرافق ، فقد كانت المادة في الجميع من أرفع ما يوجد في الأرض جودة و قوة كالرخام والمرمر والصلب والنحاس وغيرها ، وفيما يشاهد مما عليه البناء من جهة الأناقة والإبداع في الأشكال الهندسية ومايحوي ذلك من مواد فاخرة ثمينة ، شيء عجيب يضاف إلى ذلك ما أدخل حديثا من المرافق العصرية المجهزة بآلات ومشاغل تستخدم بالكهرباء يشاهد هذا مع المقارنة بما جاءت به الأخبار عن عهد سابق جدد فيه بناء المسجد فبني بالحجارة وسقف بأخشاب الساج عوضا عما كان عليه من قبل من البناء باللبن والتسقيف بجريد النخل فلم يرق هذا التجديد لفريق من الناس و رأوا فيه تطاولا مذموما يحبون الإبقاء على بناء الطين!ففي هذه المقارنة عبرة وأيُّ عبرة!!

2) والعبرة الثانية هي فيما أفاده بعض علماء عصرنا الحاضر من الكتّاب الذين كتبوا فأجادوا والمؤلفين الذين ألفوا وأفادوا ، وقد عزب عن الذاكرة في هذه الساعة تعيين العالم المذكور ، إلاّ أن الظن قوي بأنه الأستاذ **محمد الغزالي المصري*** وأن كلمته المفيدة سجلها في كتابه الموسوم بفقه

السيرة النبوية ، وحاصل المعنى من الكلمة لعزوب الذاكرة أيضا في الحال عن نصها الحرفي هو مايلي: فيما كان المسجد كُوخًا متواضع البناء على بساطة في الشكل وسذاجة في المادة كان رواده عمالقة (في الوزن الأدبي)أطوادا في الأخلاق والآثار صنعوا المعجزات وخلدوا العظائم من الصالحات وفيما كان المسجد صرحا يشمخ بنيانه في السماء القِيدَ المديد ، وتعلو مناراته في الفضاء الشأو البعيد ، كان رواده أقزاما في المقياس العقلاني لا وزن لهم في الميزان العرفاني ولا صدى لهم في المحافل ولاظل لهم في المجتمعات ليس لهم ذكر في باب الأعمال من ذوات البال ولا يد في صنع المآثر والمهمات فهذه هي ثانية العبرتين ولعلها أكبر من أختها.....!!

الدرس 64

توعك أمزجة الصحابة المهاجرين من هواء المدينة عندما نزلوها

تعرض البعض من مؤلفي السيرة ممن توخوا الإطناب في مؤلفاتهم إلى ذكر هذا الحدث على أنه من أحداث الفترة الزمانية الأولى لعهد الهجرة ومضمون هذا الحدث كما جاءت به الأخبار أن الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجرُوا إلى المدينة المنورة **استوخموا**[1] هواءها ولم يلبثوا بعد نزولهم بها أن انحرفت أمزجتهم وأصابتهم الحمى، و المنقول من الأخبار هنا هو كما يأتي:

كانت المدينة في عهد ما قبل الإسلام معروفة بالوباء (على أن المراد بالوباء الحمى بالخصوص)، وكانوا يزعمون أن الداخل إليها إذا أشرف على واديها ونهق كنهيق الحمار لا يضره وباؤها [هذا كما لا يخفى من خرافات الجاهلية مع ما فيه من ملابسة أعمال السحر في تلك الألفاظ المجعولة تعاويذ، ولليهود في هذا المجال اختصاص زائد فإليهم يرجع في الأغلب وضع تلك التعاويذ حتى جعلوا منها النهيق وما هو من جنسه ولا زال هذا الصنيع الجاهلي يروج إلى الأوساط الجاهلة إلى اليوم.

وما كان لمثل هذه الخرافات السخيفة ليصدق به عاقل سليم الفطرة، و إنما ينقاد لتصديق هذه الخرافات والتأثر بها أصحاب النفوس الضعيفة الذين عطلوا فيهم مواهب الفطرة الإنسانية فعاشوا حياتهم في هلع ومخاوف ليس لها من مصدر إلاّ الخيال والوهم. وفيما جاء من بعض الروايات الإخبارية عن الشاعر المعروف **عروة بن الورد*** شاهد صدق وعبرة في هذا الموضوع، فقد ورد عن عروة بن الورد من قبيلة **بني عبس*** وهو

---

(1) يقال استوخم الشيء بمعنى عده وخيما من الوخم بفتح الواو والخاء المعجمة وآخره ميم وأصل المعنى في المادة هو الثقل والرداءة والفعل المجرد منه مضموم الخاء في الماضي والمضارع ومصدره الوخامة بفتح الواو وأكثر استعماله في أهوية الأمكنة وفي الأطعمة ويقال في المعنويات أمر وخيم العاقبة، أو عاقبة وخيمة بمعنى الرداءة والضرر.

ممن اشتهر بسليقة الشعر والفروسية والشجاعة البالغة درجة التهور ، فهو من أولئك الأبطال الواثقين بشخصياتهم وقوة نفوسهم وقد عاش فيما قبل الإسلام وهلك فيما يقال قبل ظهور الدعوة الإسلامية ببضع عشرة سنة.

فإنه عندما قدم المدينة (يثرب)أول ما دخلها فلما وافى مكان الدخول قيل له: عشر (نهيق عشر مرات) تعوذا من الوباء فأنف من الصنيع واستهجَى العملية وأنشأ يقول شعرا:

"لعمري لئن عشرت من خيفة الرَّدَى

نهيــق الحمــار إننــي لجــزوع "

و دخل كما أراد ولم يصب بأي أذى واتصل باليهود بالبلد فحاورهم في الموضوع وقال لهم: "يا معشر يهود ما لكم وللتعشير ؟ " فأجابوه: "ما دخلها واحد ولم يعشر إلاّ مات قبل أن يخرج منها و مادخلها واحد من غمر الثنية (ثنية الوداع) إلاّ قتله الهزال". ولكن عروة دخل سالما وخرج سالما. تقول الرواية: فلما رأى الناس ما كان من حال عروة تركوا التعشير ودخلوا المدينة حسبما يتيسر لهم من أي مدخل لها "].

وفي لفظ آخر إذا دخلها غريب قال له أهلها: إذا أردت السلامة من الوباء فانهق نهيق الحمار. وفي لفظ من إحدى الروايات كانوا إذا خافوا وباء بلد عَشَّروا كتعشير الحمار بمعنى النهيق عشرة أصوات في طلق واحد (وهذا يفيد أنها طريقة للوقاية عندهم عامة في كل مكان موبوء) فينهق الداخل إلى المكان حذوه قبل الدخول إلى حيّز المكان زعما منهم أن هذا الصنيع كالتعويذة يمنع الأذى.

ومن صيغة ما جاء من الروايات في توعّك [1] المهاجرين من هواء المدينة:

---

[1] التوعّك: من باب التفعّل من الوعك بفتح الواو وإسكان العين المهملة وآخره كاف وأصل المعنى منه يرجع إلى الشدة والضغط ، والفعل المجرد منه مفتوح العين في الماضي مكسورها في المضارع فهو بوزن الوعد ، يقال وعكة الحر بمعنى شدته ، وأكثر استعماله في المرض ينصرف إلى مرض الحمى.

استوخم المهاجرون هواء المدينة فمرض الكثير منهم وحمى الله الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يصبه من ذلك أي أذى. وبلغ الحال بالمصابين إلى أن كانوا يؤدون الصلاة من قعود. وقال صلى الله عليه وسلم: "صلاة القاعدة على النصف من صلاة القائم" **فتجشموا**[1] المشقة وصاروا يصلون من قيام.

ومن لفظ من هذه الروايات ما روي عن **عليّ بن أبي طالب*** رضي الله عنه قوله: "لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فأصابنا وعك و ممن أصيب **أبو بكر*** **وعامر بن فهيرة*** **وبلال***.[كان في ذكر عليّ رضي الله عنه تناول المأكولات من المدينة إشارة إلى أن هذا هو سبب ما أصابهم من التوعك ، أو هو واحد من الأسباب. وهذا شيء معلوم يكاد يكون ضروريا خصوصا ما كان من الفواكه في المكان الوخيم وهو ناشىء عن عفونة الهواء أو الماء ، حيث تكون ثمار المكان قد علقت بها الجراثيم المتولدة من تلك العفونات. وقد جاء في روايات أخرى مما حدثت به **أم المؤمنين عائشة*** رضي الله عنها عن توعك الصحابة لمّا نزلوا المدينة فأشارت إلى ما هو السبب في المرض من تعفن الماء والهواء.

ففي إحدى الروايات عنها تقول ما نصه: "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهي أوبأ أرض الله و واديها **بَطْحَان*** **نَجْل** يجري عليه الأثلُ ". وفي لفظ آخر من الروايات عنها تقول: " وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله وكان بطحان يجري نجلا ". وفسر مؤلف كتاب "الوفاء"نور الدين السمهودي لفظ النجل بأنه الماء الآجن بمعنى متغير الطعم واللون ، وبطحان بفتح الباء الموحدة السفلية وإسكان الطاء المهملة ثم حاء مهملة مختوما بزيادة النون إسم لواد من أودية المدينة ، **والنجل*** بفتح النون وإسكان الجيم وآخره لام يطلق اسما على الماء المتحلب من الأرض وعلى

---

(1) تجشموا: من باب التفعيل الراجع إلى التكلف والمادة من الجيم والشين المعجمة والميم في الأخير أصل المعنى فيه هو الثقل والصعوبة والفعل المجرد منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع والمصدر الجشم بفتح فسكون والجشامة بالفتح.

الماء السائل وعلى المستنقع أيضا.

والأثـل * بفتح الهمزة وإسكان الثاء المثلثة وآخره لام شجر ضخم صلب الخشب يشبه الشجر المعروف بالطرفا أو نوع منها. والآجن بمدّ الهمزة مفتوحة وجيم مكسورة وآخره نون وصف للماء المتغير ، ومثل **الآجن** * بالجيم **الآسن** * بالسين المهملة وزنا ومعنى ، فكما يقال ماء آجن يقال ماء آسن وبالسين جاء ما في القرآن الكريم].

وفي رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها سقم وصرف الله ذلك عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأصابت الحمى أبا بكر وعامرا وبلالا. فاستذنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم فأذن لي و كان ذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب".

(الحجاب المعروف الخاص بأمهات المؤمنين).

جاء للمؤلفين في حديث عائشة هذا بحث في استئذانها الرسول صلى الله عليه وسلم لعيادة المرضى هل هذا كان قبل دخوله صلى الله عليه وسلم بعائشة ؟ أو هو بعد الدخول بها ؟ لأنه من المعلوم أن الدخول بها كان بعد الهجرة وبعد استقراره صلى الله عليه وسلم بالمدينة لمدة تتجاوز العدة من الشهور. وقد اشتهر أن هذا الدخول كان في شهر شوال وفيه خلاف بين روايات الأخبار ، فقيل شوال من السنة الأولى وقيل بل من السنة الثانية.

وعلى أن هذا الاستئذان كان قبل الدخول فالأمر واضح وهو الأقرب وقد نص بعض المؤلفين عليه بأنه هو الأظهر. وأمّا على أن ذلك كان بعد الدخول فتكون مدة مرض الشخصيات المذكورة قد طالت أوان الحمى أقلعت عنهم ثم عاودتهم.

تقول أم المؤمنين عائشة في حديثها هذا: " فأذن لي الرسول صلى الله عليه وسلم فدخلت عليهم وكانوا في بيت واحد فقلت لأبي "يا أبت

كيف تجدكَ ؟ "[1] فكان ينشد:

" كـل امـرئ مُـصَبّح فـي أهلـه

والمـوت أدنـى مـن شِـراك[2] نعلـه "

قالت: "فقلتُ إنا لله... إن أبي ليهذي!"[3]. تقول: " ثم تقدمتُ الى عامر بن فهيرة فقلتُ له: " كيف تجدك ؟ "فكان يقول:

" لقـد وجـدت[4] المـوت قبـل ذوقـه

إن الجبـان[5] حتفـه[6] مـن فرقـه[7]

---

(1) كيف تجدك: هكذا... جاء استعماله بالوصل اختصارا وتوضيحه: " كيف تجد نفسك ؟ "

(2) شراك النعل: بكسر الشين المعجمة وتخفيف الراء مفتوحة آخره كاف هو قطعة كشريط من الجلد مفتولا كالخيط يوثق به النعل على ظهر القدم. ويجمع على أشْرُك بفتح الهمزة وإسكان الشين وضم الراء وعلى شُرُك بضمتين على الشين والراء بوزن أسهم وكتب الشراك بمعنى واحد على التمام مع لفظ "السَيْر"* بفتح السين المهملة وإسكان الياء المثناة التحتية وآخره راء، ويجمع على سيور بالضم بوزن قَيْد و قُيود.

و يذكر بعض مؤلفي السيرة هنا أن هذا الرجز تمثل به أبو بكر وهو لشاعر آخر لأن أبا بكر لم يعرف عنه أنه أنشأ شعرا قط.

(3) ليهذي: بالهاء والذال المعجمة والفعل منه مفتوح في الماضي مكسور في المضارع والمصدر الهذيان بفتحات وزيادة نون ويطلق على التكلم بغير وعي ولا تعقل.

(4) وجدت: وفي لفظ آخر: قد ذقت طعم الموت قبل ذوقه...

(5) الجبان بفتح الجيم والباء الموحدة التحتية مخففة وآخره نون هو وصف لضعيف القلب الكثير الهيبة والخوف. الفعل منه مضموم في الماضي والمضارع ومصدره الجبن بضم فسكون والجبانة بالفتح وتخفيف الباء.

(6) الحتف: بفتح الحاء المهملة وإسكان التاء المثناة الفوقية وآخره فاء هو اسم يطلق خاصة على الموت كما يطلق على الهلاك بوجه عام ويجمع على حتوف بالضم ولم يرد في جاري الاستعمال صياغة الفعل منه.

(7) الفرق: بفتح الفاء والراء وآخره قاف هو الفزع وشدة الخوف والفعل منه مكسور في الماضي مفتوح في المضارع وجاء هنا في الرجز بإسكان الراء لضرورة الوزن ويوجد في كثير من النسخ رسمه بالواو (فوقه)، عوض الراء وهو تصحيف لا معنى له.

كـــل امـــرئ مجاهـــد بطوقـــه[1]

كـــالثور يحمـــي أنفـــه بروقـــه[2]"

قالـت: " قلـت هـذا - والله - لا يـدري ما يقـول.ثـم تقـدمتُ إلـى بـلال فقلتُ له: "كيف تجدك ؟ "(وفي لفظ)"كيف أصبَحت ؟ فإذا هو لا يعقل.

ومما ورد في هذه الروايات ما يحكي عن بلال *رضي الله عنه أنه كان إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته[3] وينشد تشوقا إلى مكة:

ألا ليـتَ شـعري هـل أبيـتَنَّ ليلـة

بـواد وحـولي إذْخِـر[4] وجليـل[5]

"وهـل أرِدَنْ يومـا ميـاهَمجنـة[6]

وهل يُبْدُونَ لي شامة[7] وطفيل ؟"

[طفيل بفتح الطاء المهملة وكسر الفاء ممدودة وآخره لام ، جاء في تعريف "شابة" و"طفيل " أنهما جبلان من جبال مكة يشرفان على مجنة

---

(1) الطوق: بفتح الطاء المهملة وسكون الواو ، والقاف آخره. هو هنا بمعنى القدرة والقوة من الطاقة.

(2) الروق: بفتح الراء وإسكان الواو وآخره قاف هو هنا اسم للقرن من الحيوانات ذوات القرون ، وقد جاء في لفظ آخر كالثور يحمي جلده بروقه أي بقرنه.

(3) العقيرة: بفتح العين المهملة وكسر القاف اسم يطلق على الصوت.

(4) إذْخِر: بكسر الهمزة وإسكان الذال المعجمة بعدها خاء معجمة مكسورة وآخره راء هو نبات بري له رائحة طيبة يكثر بمكة.

(5) الجليل: بفتح الجيم ثم لام مكسورة وآخره لام هو نوع من الثمام وقد مرّ قريبا تعريف الثمام في حديث بناء المسجد النبوي.

(6) مجنة: بفتح الميم وكسرها وفتح الجيم وكسرها ثم نون مشددة بالفتح ، اسم مكان بأسفل مكة تقام فيه سوق.

(7) شامة: بشين معجمة ممدودة بالفتح بعدها ميم مفتوحة مخففة ، و يقال "شابة"بالباء الموحدة السفلية عوض الميم وقد صحح بعض العلماء هذا بأنه بالباء الموحدة.

وأنهما في الطريق إلى اليمن. وجاء من كلام أحد العلماء قوله: « كنت أحسب "شامة" و"طفيلا" جبلين فإذا هما عينان.» و وافق بعض آخر بين القولين بأن العينين كانتا بناحية الجبلين فأطلق الاسم على كل من العينين والجبلين. وفي عبارة شاعر البيت حيث أسند البدو إلى شامة وطفيل في قوله: " وهل يبدون لي شامة وطفيل" ما يرجح المشهور بأنهما جبلان. فإسناد البدو إلى الجبل أنسب وهو الأقرب للفهم في جاري الاستعمال. وقد جاء لفظ آخر في حكاية هذه الأبيات قوله «وهل يبدون لي عامر وطفيل". فذكر هنا عامراً عوض شامة وفسر **عامرا***بأنه جبل من جبال مكة أيضا. وممن جاء ذكر اسمه من الصحابة المهاجرين الذين أصابهم الحمى بالمدينة **أبو أحمد بن جحش***. فجاء في إحدى روايات الأخبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعود أصحابه المصابين بالحمى ، ففي يوم عاد أبا بكر فوجده ينشد الرجز المتقدم ذكره وعاد بلالا فكان ينشد البيتين اللتين تقدم ذكرهما في التشوق إلى مكة وعاد أبا أحمد بن جحش فلما جلس إليه إذا هو يقول: "و أحبذا مكة من وادي * أرض بها تكثر عوادي * أرض بها تضرب أوتادي * أرض بها أهلي و أولادي * أرض بها أمشي بلا هادي". العواد صيغة جمع بضم العين المهملة وتشديد الواو بالفتح والمد وآخره دال مهملة ومفرده عائد ومصدره **العيادة*** بكسر العين وهي زيارة المريض والفعل منه مضموم في المضارع 'عاد يعود'. والأوتاد جمع **وتد*** بفتح الواو والتاء المثناة الفوقية وآخره دال مهملة وهو ماكان من مثل خشب أو حديد يرشق في الأرض ليستحكم ويثبت ما يعلق به و يفهم هذا بمثال الأرض فإن لها أوتادا تمسكها لتستقر وترسخ. و أوتاد الأرض هي الجبال. وضرب الأوتاد المذكور في هذا الرجز هو عبارة عن التمكن والثبوت والاستقرار والرسوخ ، فهو كناية عن حال التمكن والاستقرار. وتفيد هذه الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عاد أصحابه هؤلاء وشاهد ما شاهد من حالهم ذهب من فوره إلى حيث دعا

الله سبحانه دعوته المباركة للمدينة المنورة فصح هواؤها وارتفعت الحمى عنها حيث نقلت إلى **الجحفة***] ثم يقول: " اللهم ألعن **عتبة بن ربيعة*** **وشيبة بن ربيعة*** **وأميّة بن خلف*** كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء".

علق بعض مؤلفي السيرة على ما جاء عن بلال رضي الله عنه هنا بقوله: تحنن بلال إلى مكة هو مما جبلت عليه النفوس من حب الوطن والحنين إليه.

ثم أورد الرواية الإخبارية الواردة عن **أصيل الغفاري*** فإنه قدم إلى المدينة في هذا الأثناء أول ما نزل بها المهاجرون وحلّ بها الرسول صلى الله عليه وسلم فتلقى الصحابة أصيلا وكان ذلك في مجلس لهم بمحضر الرسول صلى الله عليه وسلم فكان من بعض الحاضرين من سأل [1] أصيلا عن مكة قائلا له: كيف تركت مكة يا أصيل؟ "

فأجاب بقوله: " تركتها حيث ابيضت أباطحها **واحجرّ**[2] ثمامها **وأغدق**[3] أذخرها **وأبشر*سلمها**[4]"

(1) ورد في تعين السائل بأنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

(2) احجر ثمامها: هكذا رسم في النسخة المنقول منها بالحاء المهملة ثم الجيم وآخره راء فعلا ماضيا من المزيد بالهمزة والمعني العام لهذه المادة هو المنع والاكتناف. والذي جاء في معاجم اللغة يفيد أن الفعل إذا كان هكذا مزيدا بالهمزة فهو يفيد التغطية والستر فهو يرجع إلى الاكتناف ويكون حينئذ متعديا ، فيقال أحجره بمعنى غطاه ، فيكون المعنى على هذا ، أن الثمام تكاثر حتى غطى الأرض وحذف المفعول هنا اكتفاء بالفعل ليطابق صيغة الجمل الأخرى التي كان الفعل فيها لازما والثمام قد تقدم تعريفه قريبا بأنه نبات له أوراق يتخذ للاستظلال به

(3) أغدق الأذخر: بالغين المعجمة والدال المهملة وآخره قاف وهذا الفعل يجيء لازما سواء كان مجردا أو مزيدا بالهمزة كما هو هنا ومعناه الأشهر في تكاثر الماء مطرا كان أو غيره ويستعمل مجازا فيما يقال - مثلا- أغدق العيش بمعنى اتسع وتزايد نعيمه والأذخر نبات بري يكثر بمكة وقد تقدم قريبا تعريفه.

(4) أبشر سلمها: هذا الفعل من مادة الباء الموحدة التحتية والشين المعجمة وآخره راء المعنى الأصلي فيه هو الظهور والبروز ومنه سميت البشرة بفتحتين وهي ظاهر الجلد ومن العبارات الجارية في العربية قولهم أبشرت الأرض إذا ظهر عليها النبات. و" السَلَم" بفتحتين على السين المهملة واللام وآخره ميم هو شجر معروف من الشجر البري تسمى الواحدة منه سلمة بالفتح.

فما كاد أصيل يتم كلماته هذه حتى اغرورقت عينا الرسول صلى الله عليه وسلم بالدمع وقال لأصيل: " تشوقنا يا أصيل! دع القلوب تقر"[1].

كما أن هذا البعض [2] من مؤلفي السيرة الذي توخى الاستطراد والتعليق الواسع على ما يرد من أحداث السيرة أورد على ما جاء في حديث بلال هذا من لعن أولئك الأشخاص من كفار قريش بحثا في مسألة اللّعن فقال ما حاصله بإجمال ومجرد المعنى: اللّعن في الاصطلاح معناه الطرد من رحمة الله المقتضي الأياس منها وهذا هو اللّعن الواقع على إبليس. وهذا هو الإطلاق الحقيقي للعن. ويطلق اللعن بمعنى الإهانة والطرد من مواطن الكرامة (لا عن رحمة الله).ومن الإطلاق الثاني اللعن عن الوصف كلعن الفاسق ونحوه. وقد قيل بجواز اللعن بهذا الإطلاق. وليراع هنا ما ورد من الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم " ليس المسلم باللّعّان"[3] (أو كما قال عليه الصلاة والسلام).

ومحل البحث هنا هو ما عرف من التشريع من النهي عن لعن الشخص المعيّن وأن المرجح من الأقوال في ذلك هو أنه لا يجوز لعن المعيَّن و لو هو كافر كما قيل مع ذلك - إلاّ إذا علم يقينا موته على الكفر كأبي لهب وأبي جهل.

فجاء في توجيه لعن بلال المذكور بأنه ربما كان هذا منه قبل أن يشرع النهي عن لعن المعيّن! ويتمشى هذا على خصوص اللعن بالإطلاق الأول (الذي هو الطرد والبعد عن رحمة الله).

---

(1) تقر: بفتح القاف وبكسرها وهذا الفعل من المضاعف يأتي من باب المكسور في الماضي المفتوح في المضارع ويأتي من باب المفتوح في الماضي المكسور في المضارع. ويأتي مصدره بعدة صيغ منها القرار بالفتح والمقرور بالضم والقر بالفتح والمعنى فيه هو السكون والثبات والاطمئنان وما في هذا المعنى.وهذه المادة من القاف والراء مضاعفا لها معان عديدة أخرى غير ما ذكر هنا.

(2) هو هنا نور الدين الحلبي * في كتابه " إنسان العيون ".

(3) العبارة في هذا الحديث الشريف جاءت بصيغة ما يدل على الكثرة والشأن الدائم المستمر وهو الفعّال.

وإنما محل النظر هو لعن الكاذب المعيّن ونحوه ككاتم ما أنزل الله من البيّنات والهدى.

فإن اللعنة في هذا جاءت بصيغة الإضافة إليه سبحانه وتعالى ومن الآيات القرآنية في هذا قوله عز وجل: ﴿لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾....الخ.فهل لعن هؤلاء من الإطلاق الأول ؟ أو هو على الوصف فيكون من الإطلاق الثاني ؟ هذا ملخص ما أورده المؤلف المشار إليه من البحث في هذه المسألة. [الوارد في القرآن في مسألة اللعن هذه كله وارد على الوصف وما كان تخصيصا شخصيا فهو الواقع على إبليس. وجاء اللعن على الوصف بالوجه العام المطلق كلعن الكاذبين ولعن الكافرين ولعن الظالمين.وجاء لعن فرق مخصوصة من الناس على أوصاف لهم بوجه الجملة والمجموع منهم كلعن ناقضي الميثاق وكاتمي العلم مما أنزل الله من البيان والهدى لعباده والتاركين النهي عن المنكر. ومعظم ما ورد من هذا كان في أهل الكتاب المنحرفين المحرفين و ربما كان في اليهود أكثر.

كما جاء من هذا لعن فرعون وجنوده بصيغة الجمع ، ولعن قاذفي المحصنات ، ولعن قاتل النفس المؤمنة عمدا وغير هؤلاء من أصحاب أوصاف من الجرائم المتعاظم شرها وضررها. وأما الوارد في الأحاديث والآثار الشرعية ففيه تخصيص لأوصاف معينة كآكل الربا وشارب الخمر والراشي والمرتشي والمحتكر المذموم والسارق وغير ذلك كثير.

والمتحصل بالإجمال في الموضوع هو أن يقال أن اللعن بمعنى الإطلاق الأول- حسبما أفاده المؤلف- هو أمر عظيم وتبعته خطيرة جدا. ولذلك يفهم أن عامة ما يجري على ألسنة الناس منه سلفا وخلفا إنما هو من الإطلاق الثاني فهو على الاصطلاح اللغوي الذي يدل على الإهانة فهو بمعنى السب والشتم أو الدعاء بالشر على أبعد حد في معناه].

الدرس 65

دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة المنورة

تواردت الأخبار الثابتة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا للمدينة المنورة دعاء خاصا لرفع ما فيها من الوباء الذي هو مرض الحمى الذي ألمّ بالكثير من أصحابه ، كما دعا لها كذلك بمزايا أخرى من مثل البركة في الرزق والألفة بها لساكنيها ونازليها ، وغير ذلك. وقد عرف من هذا أن بهذا الدعاء منه صلى الله عليه وسلم للمدينة المنورة واستجابة ربه له صارت المدينة المنورة كمكّة المكرمة في الخصوصية والميزة من الحرمة والبركة التي دعا بها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لمكّة المكرمة. فمن الروايات الواردة عن دعائه صلى الله عليه وسلم هذا الرواية التي تفيد أنه صلى الله عليه وسلم رفع رأسه إلى السماء وقال: " اللّهم حَببْ إلينا المدينة كما حَبَبْتَ إلينا مكّة أو أشدّ". وفي لفظ آخر من الرواية قوله" وأشدّ"(بالواو[1]) وبارك لنا في مدها وصاعها وصححها لنا وانقل وباءها إلى **مَهْيَعة**[2] **الجحفة**"

ومما ساقه مؤلفو السيرة في هذا المكان الرواية التي تفيد أنه في هذا الأثناء أي قبل دعائه صلى الله عليه وسلم للمدينة برفع الوباء عنها فأفادت هذه الرواية أنه حدث أن أصابت العامة من الأنصار خصوصا حمى شديدة **برحت**[3] بهم واستمرت عليهم ستة أيام بلياليها.

---

(1) من الواضح أن يفهم من اللفظ الأخير الذي "بالواو" مزيد الفضل في شدة الحب لأن هذه العبارة فيها النص الصريح على زيادة الفضل.

(2) مهيعة: بفتح الميم وسكون الهاء وفتح الياء المثناة التحتية وآخره عين مهملة. والميم فيه زائدة لأن المادة من الهاء والياء والعين. ولها عدة معان ومنها المراد هنا وهو السعة والانبساط. يقال طريق "مهيع*" بمعنى واسع منبسط وهو اسم ثان للقرية المسماة أيضا بالجحفة بضم الميم وقد تقدم ذكرها في حديث طريق الهجرة.

(3) برّحت: بالباء الموحدة السفلية والراء والحاء المهملة بتشديد الراء من باب التفعيل ويتعدى بالباء فيقال برح به الأمر الفلاني بمعنى أتبعه وآذاه الأذى الكثير ، ومن هذا المعنى قولهم الضرب

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعودهم ويدخل عليهم دارًا دارًا وبيتًا بيتًا يدعو لهم بالعافية.

كما ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى من أم المؤمنين **عائشة*** رضي الله عنها مظهر هزال وضعف فقال لها: " مالي أراك هكذا ؟ " فقالت: " إنها الحمى!" وسبّتْها (أي سبت الحمى بعبارة ما يعدّ سبًّا). فقال لها صلى الله عليه وسلم " لا تسبيها فإنها مأمورة! ولكن إن شئتِ علمتُكِ كلمات إن قُلْتِهُنَّ أذهبها الله عنكِ" قالت: " فعلمني! "قال قولي: " اللّهم ارحم جلدي الرقيق وعظمي الدقيق من شدة الحريق. يا أم **مِلْدَمْ**[1] إن كنت آمنْتِ بالله العظيم فلا تصدعي الرأس ولا تنتني الفم ولا تأكلي اللحم ولا تشربي الدم ، وتحولي عني إلى من اتخذ مع الله إلهًا آخر". فلما قالت عائشة هذا الدعاء أقلعتْ عنها الحمى.

وجاء من التعليق على حديث عائشة هذا أن ما علمها به الرسول صلى الله عليه وسلم هو من العلاج بالرقى ، والذي يظهر من المتبادر للفهم أن هذا كان بعد دخوله صلى الله عليه وسلم بعائشة و بنائه بها وهو في الراجح إنما كان في أثناء السنة الثانية للهجرة ، ويتوافق هذا مع ما أفاده البعض بالاستناد إلى روايات إخبارية و مفاده أن دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة برفع الحمى عنها كليًّا حتى طاب هواؤها وصلح **مُناخها**[2] إنما كان عند قرب القيام بالجهاد ونزول الأمر والإذن بالقتال لردّ

المبرح بفتح الراء وبكسرها مشددة وهو الضرب الذي فيه أذى بجرح ونحوه.

(1) أم ملدم: بكسر الميم وإسكان اللام وفتح الدال المهملة وآخره ميم من اللّدْم* بفتح اللام وإسكان الدال وهو اسم لصوت وقع الشيء الثقيل على الأرض كالحجر ونحوه. ومن الوارد في اللغة أن يقال ألدمت عليه الحمى أي استمرت عليه وهذا لقب للحمى في كلام العرب كما لقبوا أشياء كثيرة مما لا يعقل. وأما إذا كان لفظ اللَدَم ينطق به بفتحتين على اللام والدال فله حينئذ معنى آخر قد تقدم بيانه في الدرس الثاني والخمسين عند الكلام في بيعة العقبة الكبرى ، وأنه يدل على الشيء المحترم ويختص غالبا بحرمة القرابة في النسب.

(2) المناخ: بضم الميم ثم نون ممدودة بالفتح وآخره خاء معجمة من الإناخة وهي بروك البعير ، والمناخ كالمقام وزنا ومعنى يطلق في الأصل على مبرك الإبل ثم جرى استعماله في مطلق مكان

العدوان ولم يكن ذلك قبل السنة الثانية للهجرة.

وقد أفادت أخبار أن في أول الأمر خيّر الرسول صلى الله عليه وسلم بين الحمى والطاعون أيهما يمكث بالمدينة ؟ فاختار الحمى [1].

هذا.... والأخبار الواردة في حفظ المدينة المنورة من الطاعون وعصمتها من الدجال أن يدخلها ، أخبار عديدة جاءت بعبارات مختلفة منها ما هو من الأخبار الصحيحة الإسناد ومنها ما هو دون ذلك. وقد أفادت بعض الروايات من هذه الأخبار تخصيص الذكر للمدينة المنورة بما ذكر من الحفظ والعصمة من كل من داء الطاعون وفتنة الدجال. وجاءت روايات أخرى في الموضوع تقرن مع المدينة مكّة أيضا. فالحرمان المكيّ والمدني كلاهما محفوظ معصوم من داء الطاعون ومن فتنة الدجال.

وكما اعتاد من مؤلفي السيرة الإطناب والاستطراد عند التعرض لبعض الأحداث فساق في هذا الموضع الحديث الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بوباء الطاعون و يتضمن هذا الحديث تعليما عاما اجتماعيًّا منه صلى الله عليه وسلم يقول ما معناه: " إذا وقع الطاعون بمكان وأنتم به فلا تخرجوا فرارًا إلى مكان آخر. وإذا سمعتم بالطاعون وقع بمكان فلا تقدموا ذلك المكان * ".

ثم أورد-كذلك-حكاية الحادثة التاريخية المعروفة المشهورة فيما يتعلق بالطاعون و هي ما وقع بين **عمر بن الخطاب** * و**أبي عبيدة** * **بن الجراح** رضي الله عنهما عندما خرج عمر بن الخطاب- في أول خلافته- بجنود المسلمين يريد أرض الشام. ثم تواردت أخبار وقوع الطاعون بالشام. فكان

النزول والإقامة.

(1) فالحمى هنا هي أخف الضررين. وقد أفادت أخبار أن الحمى هي حظ المؤمن من النار وأنها كفارة وتمحيص للمؤمن من ذنوبه ، ومن المعروف أن الحمى لا يقع بها الهلاك في الغالب كما يقع بالطاعون. فالطاعون أخص من الوباء لأنه نوع من الوباء خاص معروف بفائلته المريعة إذ لا يكاد يسلم من أصيب به.

من اجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يرجع بالناس ولا يدخل البلاد التي وقع بها الطاعون عملا بقاعدة الحماية والوقاية. وتفيد روايات هذا الحادث أنه لم يكن عند الجمع الحاضر من الصحابة بالمكان علم بأثر من الرسول صلى الله عليه وسلم يستند إليه في القضية (قضية مجانبة مكان الطاعون أو المضاء إلى المكان الذي به الطاعون حيث أنه مقصود من أول الأمر ومن أجله كان الخروج من الموطن).

ولما قرر عمر رضي الله عنه قراره بمجانبة المكان كان في الصحابة رضوان الله عليهم من انتقد العملية و أبدى معارضته حيث خاطب الخليفة عمر قائلا له: " أفرارًا من قَدَرَ الله يا أمير المؤمنين ؟ " وكان هذا الصحابي الذي أبدى معارضته لما قرره الخليفة هو الصحابي الجليل المعروف من العشرة الكبار السابقين المشهود لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالسعادة و دخول الجنة و هو أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه وعنهم. فأجابه عمر رضي الله عنه بقوله: "نعم! يا أبا عبيدة! فراراً من قدر الله إلى قدر الله!" ثم تابع عمر الكلام مع أبي عبيدة مبينًا له سداد الخطة بضرب مثال في ذلك قائلا له: " أرأيت لو أن راعيا كان يرعى قطيعا من الماشية و حوله أرض قاحلة لا كلأ بها ولا ماء و بجانبه واد به الكلأ والماء، أتراه ينزل الوادي بماشيته حيث المرعى أو هو يمكث حيث لا كلأ ولا ماء ؟" وفيما كان الحوار يجري بين عمر وأبي عبيدة قدم المكان أحد الصحابة ممن كان متغيبًا عن المكان، وتذكر إحدى روايات الخبر أن هذا الصحابي هو **أبو موسى الأشعري*** رضي الله عنه، فلما اطّلع على ما جرى من الحادث أخبر بأن له علما في هذه القضية من حديث نبوي سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحديث المتقدم ذكره الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام " إذا وقع الطاعون بأرض أنتم بها فلا تبرحوها وإذا بلغكم أن بأرض طاعونا فلا تقدموا عليها ".

وعند هذا حمد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما وفقه من

السداد والصواب في نظريته. وفي هذه الواقعة بين عمر وأبي عبيدة جاء أثر الكلمة التي ذهبت مثلا وهي من كلام عمر مما خاطب به أبا عبيدة يردّ عليه مقالته التي قال فيها: " أفراراً من قدر الله ؟ " فقال له عمر: " لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!"

هذا - ومما نبه إليه البعض من محققي العلماء المسلمين المعاصرين مما يتعلق بالحديث الشريف المشار إليه آنفًا في مسألة الحمية والوقاية من وباء الطاعون أن هذا الحديث الجليل هو القاعدة والمأخذ الأصلي لما هو واقع اليوم من النظام الدولي العام في الحجر الصحي المعروف بضرب الحصار على المكان الموبوء لا خروج منه ولا دخول إليه حتى يرتفع الوباء و يزول خطره ، الأمر الذي له دلالته الساطعة وحجته القاطعة على صلاحية التشريع الإسلامي المحمدي لمجموع الأجناس البشرية في جميع الأمكنة ومختلف الأزمنة!

ويتابع المؤلف المذكور ما اعتاده من الاستطراد فيتعرض-للمناسبة في الموضوع- إلى مسألة **العدوى**[1] في المرض... وأورد مما جاء من الأحاديث في هذا الموضوع الحديث الذي مفاده: " لا يدخل المريض على المصح ، و ليدخل المصح حيث شاء " ، والحديث الذي يقول: " لا عدوى ولا هام* ولا صفر* ولا يحلل المريض على المصح وليحلل المصح حيث شاء". [الهام: بالهاء الممدودة ثم الميم مخففة ، وفي لفظ آخر من هذا الحديث التعبير بالهامة بالتأنيث وهو بتخفيف الميم أيضا ، ويستفاد مما جاء من التعليق على الحديث أن الهام جمع للهامة. والهامة اسم لما كان العرب في جاهليتهم يطلقونه- بخرافاتهم- على خيال ، يقولون هو روح

---

(1) العدوى: بفتح العين المهملة وإسكان الدال المهملة ثم الواو مفتوحة بالقصر بوزن البلوى والدعوى والسلوى ونحو ذلك ، وهو اسم لمجاوزة الشيء من محله إلى غيره وتنقله من هنا إلى هناك وله معان منها المراد هنا الخاص بتنقل المرض من شخص إلى آخر بسبب الاختلاط والتقارب ، والفعل منه ثلاثي مزيد بالهمزة يقال أعدى ماضيا يُعدِي بالضم مضارعا.

القتيل الذي لم يؤخذ بثأره. فهذا الروح الذي يذكر و يؤنث و هو كالطير المعروف بالبوم يلازم قبر القتيل الذي لم يؤخذ بثأره ولا يزال يصيح قائلا " اسقوني..! "كأنه عطشان ، وما سقياه إلاّ دم قاتله يسفك أيضا عندما يؤخذ بثأره. فهي فلسفة للتحريض على الأخذ بالثأر- والصَفَر: بفتحتين على الصاد المهملة وعلى الفاء وآخره راء هو اسم لخيال أيضا كان العرب يزعمون في خرافاتهم أنه حيّة في بطن الجائع تلذعه على أن الإحساس بألم الجوع هو من لذعها. وهذا الحديث ورد بعبارات مختلفة منها ما فيه زيادة -كما في لفظ: لا عدوى ولا **طيرة** * ولا هامة ولا صفر. وجاء في التعليق على لفظ الطيرة أنه بكسر الطاء المهملة وفتح الياء المثناة التحتية ثم الراء وقد تكسر الطاء ممدودة وهو اسم لما يتطير به بمعنى يُتشاءم منه من الأشياء فيتوقع منه حدوث الشّر والمكروه ، وهو ضد التفاؤل والتيمُّن. وقد عرف من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يتفاءل ولا يتشاءم. وليست الطيرة خاصة بخرافات جاهلية العرب بل هي عامة في أوساط الناس. فلكل قوم ما يتطيرون به من أشياء حتى أنه ليكون الشيء عند قوم مما يتشاءم منه يكون هو نفسه مما يتفاءل به عند قوم آخرين- ثم إنه من الواضح البيّن أن هذه الأمور التي جاء هذا الحديث بنفيها هي أمور وهمية لا حقيقة لها ولا ثبوت. وإنما الذي ينبغي أن يفهم فيما يتعلق بالعدوى على الخصوص أن النفي فيها لا يراد به نفي ما أثبتته المشاهدة العامة في انتشار بعض الأمراض وامتدادها بالاختلاط والتقارب كما في داء الجرب والجذام ونحوهما. والحديث الوارد في الطاعون مما يدل على هذا المعنى. و إذا كان الحديث الوارد في الطاعون ليس فيه دلالة صريحة على ثبوت العدوى بالمعنى المشاهد في الاختلاط ، فإنه في الموضوع آثارًا أخرى لها دلالتها الصريحة على ثبوت العدوى بالمعنى المذكور كالأثر الوارد في الرجل المجذوم الذي كان في وفد **ثقيف** * الذين قدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم للمبايعة على الإسلام فبايع الرسول صلى الله عليه وسلم

بالمصافحةالجمع من الوفد ولم يبايع الرجل المجذوم و أمره بالرحيل مع الوفد عندما تمّت المقابلة معهم قائلا له: "ارجع فإنا قد بايعناك...!"اكتفاء بالمعنى الأساسي من المبايعة و روحها].

وأما دعاؤه عليه الصلاة والسلام للمدينة المنورة بالبركة في الأقوات والأرزاق فقد جاءت فيه روايات عديدة منها ما أورده مؤلفو السيرة بصيغة قوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعل من البركة بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة ". وفي لفظ آخر من رواية:..." واجعل من البركة بركتين". وما ورد بصيغة: " اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لمكة ، وإني عبدك ونبيك أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه ".

وما ورد من دعائه صلى الله عليه وسلم لغنم المدينة بلفظ ما نصه: "اللهم اجعل نصف أكراشها مثل ملئها في غيرها من البلاد ".

وجاء من التعليق على ما في هذا الحديث من الدعاء لغنم المدينة بأنه دعاء عام متواصل ليس خاصا بالغنم الموجودة في زمنه عليه الصلاة والسلام.

وما ورد من دعائه صلى الله عليه وسلم للثمار بالمدينة المنورة في رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان يؤتى للرسول صلى الله عليه وسلم بأول ما يبدو من التمر فيقول: اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارها و في مدّنا و في صاعنا بركة مع بركة" ثم يعطي التمر أصغر من يحضره من الصبيان". و في هذا السياق أورد البعض من مؤلفي السيرة الرواية الإخبارية التي جاءت بصيغة: " شكوا إليه صلى الله عليه وسلم نفاد طعامهم فقال: "قوتوا طعامكم يُبَارَكْ لكم فيه". أو بلفظ: أنهم شكوا إليه صلى الله عليه وسلم سرعة فناء طعامهم فقال لهم: " قوتو...الخ " [**قوتوا** *...، الوارد في معاجم اللغة أن هذا الفعل من وزن " قال ""يقول""قولاً" وأنه من المتعدي للمفعول بنفسه. يقال" قاته ، يقوته " بمعنى "أعطاه وأولاه القوت"بضم القاف وهو اسم لما يتغذى به الجسم وتقوم به بنية الشيء

فالطعام هو الذي يقوت البدن. وما في عبارة هذا الحديث يظهر من تركيبه كأنه جاء على القلب (قلب الفاعل مفعولا) ففيه بلاغة وإبداع و ربما يفهم هذا الفعل على أنه وارد من الإقاتة و معناها الاقتدار على الشيء والقيام عليه بالحفظ والرعاية. والفعل هنا رباعيّ بزيادة الهمزة يقال "أقاته بُقيته". واسم الفاعل منه "المقيت" وبه جاء الاسم من أسماء الله الحسنى" وكان الله على كل شيء مقيتا" ففسر بالمقتدر والحافظ.

وفهم الفعل بهذا المعنى هو المناسب لما فسروه به من أنه أمر بتصغير الأرغفة فالمعنى الأصلي فيه راجع إلى النظام والضبط والتقدير في تناول الطعام بأن يكون -مثلا- تناوله عند الحاجة الملحة و بتصغير اللقمة و إجادة المضغ و إطالته ونحو هذا مما يكون به الآكل متغلبا على الطعام ليس الطعام متغلبا عليه. وعلى كلّ حال فلفظ هذا الحديث في أعلى درجة من الجزالة وكذلك معناه من البلاغة وفيه هدي و إرشاد نبوي بالغ الدرجة القصوى في الجدوى].

وجاء من التعليق على هذا الخبر أن الظاهر منه هو أن الشاكين هم المهاجرون بالخصوص ، وأن ذلك كان في أول ما نزلوا المدينة و أن سرعة فناء الطعام ليس من القلة عن المقدار المعتاد و إنما هي حالة عارضة بالإحساس بالجوع وعدم الشبع. و لفظ الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم " قوتوا " مشتبه في معناه والأقرب في معناه أنه أمر بتصغير الرغيف و يرجع إلى معنى عام هو الاقتصاد والنظام في مزاولة الأكل.

هذا... وكما وردت به الأخبار وأثبتته المشاهدة الحسية العامة أن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم هذا للمدينة المنورة قد استجابه له ربّه على أتمّ ما يكون.فقد صح هواء المدينة المنورة من بعد فلم يعرف عنها حدوث وباء مريع بها كما يحدث بأماكن أخرى والنازلون بها من الآفاق يحكون عما يشعرون به عند الحلول بها من الارتياح البدني والاطمئنان النفسي ما لم يشعروا به في غيرها من الأماكن.

وكذلك ما يختص ببركة الرزق و مؤمنة الطعام فقد أثبتت المشاهدة الاستقرائية أن القليل من ذلك بالمدينة المنورة يقوم مقام ما هو أكثر منه بأضعاف في غيرها من الأمكنة.

أما الألفة بها وانجذاب العواطف بالمحبة والأنس إليها فشيء تواترت أخباره وأجمعت عليه آراء الجماهير سلفا وخلفا. ومن هذا ما نتلقاه من حجاجنا في عصرنا الحاضر على تعدد طوائفهم وأفرادهم ومختلف أزمنتهم وبقاعهم من كلمتهم المتحدة بالإجماع منهم فيما لاحظوه من خصائص المدينة المنورة عن سكانها والمقيمين بها من حيث المعاملة الجارية عندهم فيما يعاملون به النزلاء والوافدين عليهم، بأنها معاملة ممتازة بمزيد اللطافة وجميل الاقتبال ميزة تفردت بها المدينة لا توجد في غيرها... الأمر الذي يحاكي و يرجع بالأنظار إلى ما في الآية الكريمة عن الأنصار: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ ﴾...الخ.

وهكذا يتحصل من العلم في هذا الموضوع أن ما تحقق بالمشاهدة القطعية الدلالة في استجابة الله تعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمكّة المكرمة كان مثله كذلك لخاتم أنبياء الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما دعا به للمدينة المنورة.

الدرس 66

التطفيف في الكيل والميزان بالمدينة قبل قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إليها- وما قيل من نزول سورة المطففين بهذا السبب وأنها سورة مدنية وتفسير إجمالي لصدر هذه السورة للمناسبة

أورد البعض من مؤلفي السيرة ذكر هذا الوضع الاجتماعي الذي كانت عليه المدينة المنورة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وكان هذا الحدث مما واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحداث في الفترة الأولى لمقدمه إلى المدينة.

وجاء في هذا من الأخبار المأثورة ما لفظه: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في هجرته إليها وجد أهلها من أسوء الناس كيلا (أي وميزانا).

وجاء فيما يتعلق بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تغيير هذا الوضع الشائن وإلى إقامة الوزن والكيل بالقسط أنه عليه الصلاة والسلام لم يلبث بعدما شاهد من هذه الظاهرة السيئة بالمجتمع في المدينة أن قام بالدعوة إلى إزالتها والإقلاع عنها بحسب خطته المعروفة عنه عليه الصلاة والسلام في التبليغ ، فخرج على الناس و دعا و بشر و أنذر و قرأ عليهم ما أنزل الله سبحانه من الآيات في هذا الصدد وهو صدر السورة المعروفة بسورة المطففين: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) ﴾.

وتفيد بعض روايات الأخبار أن في هذا الموضع حدث الرسول صلى الله عليه وسلم بحديثه المعروف الذي قال فيه: "خمس بخمس".

فجاء هنا أنه عليه الصلاة والسلام بعدما دعا إلى إقامة العدل في الكيل والميزان وقرأ ما نزل في هذا الأمر من القرآن ، أتبع ذلك بقوله: " خمس بخمس" فقيل له: "وما خمس بخمس ؟ " فقال:

1/ ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم.

2/ وما حكموا بغير ما أنزل الله فيهم إلاّ فشا فيهم الفقر.

3/ وما ظهرت فيهم الفاحشة [1] إلاّ فشا فيهم الموت.

4/ ولا طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأخذوا بالسنين [2].

5/ ولا منعوا الزكاة إلاّ حبس عنهم القطر [3].

وتفيد الأخبار الواردة في ذكر هذا الحدث الذي واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم أول مقدمه إلى المدينة أنه كان لدعوته عليه الصلاة والسلام القوم إلى العدل في الكيل و في الميزان النجوع [4] الكامل، والأثر الإيجابي البليغ بحيث أن الوضع تحول بأسرع ما يشاهد من السرعة وفي أقصر ما يعرف من الزمن إلى المظهر العام في المجتمع من المدينة المنورة عدلا وحسنا وتقويما صارت به المدينة المنورة ذات ميزة ملحوظة في هذه الظاهرة الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في خاتمة الدرس السابق (رقم 65).

وأما ما يتعلق بسورة "المطففين" وما قيل أنها نزلت بالمدينة بهذا السبب الذي هو التطفيف الواقع من أهل المدينة في الكيل والميزان فقد

(1) الفاحشة: إذا أطلق اللفظ فيها هكذا مجردا انصرف المعنى فيه إلى فاحشة الزنا وما في معناه خاصة كما يؤخذ هذا من عبارة القرآن في عدة آيات عن قوم لوط ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ وغيرها من عدة آيات.

(2) لفظ "السنين" الذي هو جمع "سنة" إذا ورد هكذا مجردا ينصرف المعنى فيه الى سني الجدب وعسر العيش من حيث الرزق والغداء ومن آيات القرآن في هذا المعنى الآية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

(3) القطر: بفتح القاف وإسكان الطاء المهملة معناه نزول المطر المطلوب. وقد جاء هذا الحديث بعبارات متغايرة مع اتحاد المعنى في الموضوع الذي تناوله. ومحل البحث فيه هو العموم في لفظ القوم فهل هو عام مطلق يتناول الجميع من الناس أو عمومه خاص بالقوم المنتسبين إلى الإسلام كما يفهم ذلك من عبارة الحكم بغير ما أنزل الله فيهم. وعبارة منعهم الزكاة؟

(4) النجوع: من مادة النون والجيم والعين المهملة وهو مصدر الفعل الماضي، والمضارع منه مفتوح ومعناه الأصلي حصول الغرض المطلوب من الفعل. فيقال نجع الدواء في المرض إذا حصل منه الشفاء. ونجع الكلام في سامعه إذا تقبله واقتنع به....الخ.

جاء من الروايات الإخبارية ما لفظه: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد أهلها من أسوإ الناس كيلا فأنزل الله عليه سورة "المطففين" ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقرأها عليهم (أي و دعا إلى العدل في الكيل والميزان). فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

ولكن الأمر الواقع في ذكر نزول هذه السورة هو الخلاف بين أئمة العلم في مكان نزولها. ففي ذلك عدة أقوال ، فقيل أنها نزلت بمكة وأنها من أواخر ما نزل من السور(أي بمكة) ، وقيل (على التعيين) بأنها هي آخر سورة نزلت بمكة. وقيل نزلت في الطريق بين مكة والمدينة أي في حال سفره صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة. هذا مع ما ذكر في الرواية آنفا بأنها نزلت بالمدينة. وقد تقدم في الدرس(57) السابع والخمسين من هذه الدروس في مبحث نزول القرآن ذكر ما رجحه أئمة هذا الشأن من هذه الأقوال بأنهم رجحوا القول بنزولها بمكة على أنها من آخر ما نزل من القرآن بمكة إن لم تكن هي الأخيرة فعلا.

ومن هنا فيتعين أن يفهم ما جاء في الرواية التي تذكر نزولها بالمدينة بأنه وارد على مطلق لفظ النزول وأن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاها على القوم في جملة ما يتلو من القرآن عند الحاجة حين التبليغ للأحكام والدعوة إلى الهدى.

وفيما يتعلق بالقراءة مِمَّا جاء في هذه السورة أن قراءة الجمهور من القراء وهي المشتهرة إعراب لفظ "هم" من "كالوهم أو وزنوهم" على أنه في محل نصب على المفعولية وأنه ضمير عائد على الناس تقدير اللفظ فيه هكذا: "وإذا كالوا الناس أو وزنوا الناس يخسرون". وفي مقابل هذا وردت قراءة أخرى قرأ بها البعض من القرآء وهي غير مشهورة وفيها جعل لفظ "هم" في الموضعين على أنه ضمير يرجع إلى المطففين وهو في محل رفع توكيدًا للضمير الفاعل المتصل بفعل "كالوا" و"وزنوا" وعلى هذه القراءة يكون الضمير المفعول العائد على الناس محذوفا في الكلام لدلالة الفعل عليه.

ولزيادة توضيح المعنى في الفرق بين هاتين القراءتين أن يقدر الكلام على وجه القراءة الأولى هكذا: "ويل للمطفف الذي إذا اكتال على الناس يستوفي وإذا كالهم أو وزنهم يخسر" وعلى وجه القراءة الثانية: " ويل للمطفف الذي إذا اكتال على الناس يستوفي وإذا كال هو أو وزن هو يخسر".

وقد ورد أن قارئ هذه الآيات بالقراءة الثانية يقف وقفة خفيفة على اللفظ من كلٍّ من فعل "كالوا" و"وزنوا" ليكون لفظ "هم" في الموضعين شديد الاتصال بفعل " يخسرون" بالنسبة للسامع.

وفيما يتعلق ببحث الألفاظ في هذه الآية من حيث اللغة ومن حيث الصناعة جاء مما يخص لفظ "**التطفيف***" أنه من مادة "**طف**"[1] بالطاء المهملة والفاء مضعفة ويطلق لفظ "الطف" بفتح الطاء على جانب الشيء مثل طف الوادي وطف الصاع بمعنى قرب الامتلاء ولكنه ينقص قليلا عن الامتلاء. فاللفظ بالمعنى الإجمالي يدل على القرب من الكمال ولكنه غير تام الكمال. ومن المثال على هذا قولهم "طفف على عياله" بمعنى قتر وبخل في النفقة."وطففت الشمس" إذا قربت من الغروب (ولم تغرب فعلا).

فالتطفيف فعل المطفّف الذي ينقص الشيء الذي يستحق الكمال ولا يكون هذا النقص إلاّ شيئا يسيرا لأنّ لفظ "الطفيف" الذي هو وصف إنما يطلق على الشيء القليل والحقير وحتى على الخسيس الذي لا يعبأ به.

وفعل "اكتال" من باب الافتعال والفعل المجرد منه "**كال***" كما في لفظ "باع" و"ابتاع".

والجاري في الاستعمال أن فعل "باع" يسند إلى البائع وفعل "ابتاع" يسند إلى المشتري. وكذلك الحال تماما في فعل "كال" وفعل "اكتال". وفيما يتعلق بالتعدية لهذين الفعلين " كال" و"اكتال" أنهما قد يكتفى

---

(1) طف: الوارد في معاجم اللغة أن فعل طفّ ماضيا يأتي مضارعه مضموم العين ومكسورها فيقال يطُف بالضم ويطِف بالكسر والمعنى فيه هو القرب.

بهما عن المفعول فيحذف مفعولهما لفظا لضرورة العلم به ويتعدى فعل "كال" الى مفعوله الأول مباشرة وباللام فيقال "كاله وكال له"، كما يتعدى إلى مفعوله الثاني تعيينا للمكيل يقال: "كاله أو كال له القمح" مثلا.

وأما فعل "اكتال" فيتعدى بحرف "من" وبحرف "على" وهو الذي وردت به الآية في هذه السورة. فهذان الحرفان "من وعلى" يتعاقبان في هذا الموضع على السواء في المعنى. وقد جاء من البحث أيضا أن في التعبير بحرف "على" دون "من" إشارة إلى معنى آخر وهو كون اكتيال هؤلاء المطففين على الناس فيه ضرر وحرج على البائعين لهم. كما جاء من البحث أيضا أنه يجوز في إعراب هذه الآية تعليق حرف "على" بفعل "يستوفون" لإفادة معنى الاختصاص فيكون في الجملة تقديم المفعول على الفعل. فتقدر العبارة هكذا: "على الناس **يستوفون** * إذا اكتالوا" أي على الناس وعلى غيرهم خاصة دون أنفسهم، فيكون هنا فعل "اكتالوا" مكتفى به عن ذكر مفعوله، وفعل "يستوفون" من باب الاستفعال وأصله من الوفاء بفتح الواو ومعناه الكمال والتمام. وفعل "يخسرون" من الرباعي بزيادة الهمزة من مادة الخاء المعجمة والسين المهملة والراء وهو يتعدى إلى المفعول، فيقال "أخسر البائع الميزان" بمعنى نقصه، والفعل المجرد منه مفتوح العين في الماضي مكسورها في المضارع ومصدره "**الخسر**"* بفتح فسكون "والخسران" بضم الخاء و زيادة النون والمعنى الإجمالي فيه يرجع إلى النقص والضياع والهلاك ونحو هذا المعنى.

فإذا جعل الفعل منه مكسور العين في الماضي مفتوحها في المضارع كانت دلالته في المتبادر للفهم على ضد الربح، فيكون مصدره الخسارة بالفتح والخسار كذلك والخسران بالضم والخسر بالضم من غير زيادة النون.

فكلٌّ من الفعلين "يستوفون" و"يخسرون" يتعدّان الى المفعول. و وردا في هذه الآية على الاكتفاء بحذف المفعول.

وظاهر كل الظهور ما هو حاصل من المقابل البعيد والضدية التامة في المعنى بين هذين الفعلين.

وفيما جاء من تفسير هذه الآيات من صدر هذه السورة المتعلق بجريمة أصحاب التطفيف أنها في موضوع اجتماعي عام مما يخص المعاملة الجارية بين الناس على اختلاف ما هم عليه من أحوال واعتبارات بناء على العرف العام الذي تعينت به قواعد تلك المعاملة ومنها تحديد المقادير في التبادل ، وبهذا التحديد تحصل معرفة الحق والواجب فتأتي - هنا - مسألة الكيل فيما يكال والوزن فيما يوزن والذرع فيما يذرع ...الخ.

فالمطففون الذين ذكروا في هذه الآية هم الذين يرتكبون الخيانة في المعاملة ، فأخبرت الآية القرآنية في هذه السورة بأن هؤلاء المطففين لهم الويل كل الويل. والويل هو الهلاك المحقق اللاحق بصاحبه. وقد جاء في المأثور من التفسير للويل بأنه اسم لوادٍ من أودية جهنم مسيله صديد[1] المعذبين فيها.

وأبرز - بغاية التوضيح - الوصف والصنيع الذي عليه هؤلاء المطففون وبه استحقوا هذا الويل وهو أنهم متقلبون بين حال الأخذ وحال العطاء في المعاملة. ففي حال الأخذ عندما يكونون هم المشترين يحرصون كل الحرص على الوفاء بما لهم من الحق. وإذا ما كانوا في حال العطاء وبأيديهم الكيل والوزن لأنهم هم البائعون فعند هذا يخسرون وينقصون الحق في الكيل أو الوزن أو الذرع وشبه ذلك بدافع الحرص على المتاع ، فهم إذا ما اعترفوا بالحق إنما يعترفون به إذا كان في جانبهم ، وأما إذا ما كان في الجانب المقابل لهم فهم له منكرون ، متجاهلون فيخونون ويخسرون ولو بالقدر الطفيف من المتاع ليبقى بأيديهم ، وهو من حق المشتري.

---

(1) الصديد: بفتح الصاد المهملة اسم لما يسيل من الجراحة أو القرحة من الدم حال كونه مختلطا بالقيح رقيق المادة.

وقد أشبه صنيع هؤلاء المطففين صنيع أشباههم في موضوع التحاكم إلى العدالة ، وهم الذين يذعنون لحكم الشرع ما داموا يرون أنه في جانبهم على مقتضى أهوائهم. فإذا ما توقعوا أن الحكم في جانب المقابل لهم أنكروا وأعرضوا و ردّوا. وإلى هذا الإشارة في الآيات من سورة النور: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ (48) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (50) ﴾

فهذا الصنيع الذي اتسم به المطففون هو ما يطلق عليه اسم الأَثَرة بفتحتين على الهمزة والثاء المثلثة ، وهو خلق ذميم صادر عن الإسراف والإغراق في حب النفس حتى تحتقر كل ما هو غيرها ، فتعمى عن حق الغير. وقد جرى في عبارات الكتاب والمتكلمين-حديثا- إطلاق لفظ "الأنانية" على معنى الأثرة وهو مأخوذ من لفظ "أنا" الذي هو ضمير المتكلم المفرد. وقد كان مصدره الأصلي أول ما كان عن إبليس لعنه الله عندما قال: " أنا خير منه".

وقد حقق علماء الأخلاق والدارسون لعلم النفس أن خلق الأثرة * والأنانية * هذا يلازمه صنيع الحرص على حطام الدنيا ومتاعها والتكالب على ما يظن منفعة ومصلحة خاصة أيًا ما كان ذلك المتاع خسيسا و وضيعا وكيفما كان السبيل إلى هذا الغرض سافلا معيبا.

والحرص ظاهرة صادقة لأمراض قلبية أخرى منها الطمع والشّح كما هو مصدر و باعث على أدواء أخرى وأخصها الظُلامات [1] بالتعدي وإلحاق الأذى بالغير. ومجمل ما يقال في وصف المطفف أنه مرتكب للخيانة وأنه فاقد المروءة ساقط الهمة خرب الذمة وضيع الطبع خبيث النفس.

(1) الظلامات: بضم الظاء المعجمة المشالة وتخفيف اللام جمع "ظلامة" مأخوذ من الظلم بالضم ، والظلامة هكذا اسم لما هو بيد الظالم من حق المظلوم اكتسبه الظالم وتحمله ويشمل ما هو مادة وما هو معنى.

ويعد الإخبار- في هذه الآيات- عن الوعيد اللاحق بالمطففين وأنه الهلاك المحقق في العاقبة عقب على هذا بما هو وعيد شأنه بالغ العظمة وخطره جسيم الوقعة وهو له متزايد الشدة إلى حدّ لا يذكر بالتعيين ولا يعين بالتفصيل مع ما صيغ به من عبارات التوبيخ والتقريع والتهويل والتفزيع.

وذلك هو ما في آيات: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿4﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿5﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿6﴾ ﴾.

جاء من تفسير هذه الآيات أن الاستفهام في "ألآ يظن " هو المسمى بالاستفهام الإنكاري التعجبي ، فشأن هؤلاء المطففين بالغ النكارة والعجب من حيث أنهم يرتكبون ما يرتكبونه من هذا الجرم الشنيع ولا يخطر لهم على بال إعتقادا أو حتى مجرد ظن لقاؤهم لربهم يوم الحساب والعرض عليه فيحاسبهم على هذا الفعل وهو الرقيب على عباده المحيط بهم العالم بما يخفون وما يعلنون. فلفظ "الظن" في الآية يتناول معنى العلم كما يتناول معناه الأصلي الذي هو تجويز وقوع الشيء من غير قطع بوقوعه. فهذا التوبيخ الوارد في هذه الآية يتناول كل فريق من المطففين سواء كانوا ممن يعتقد و يقر بالبعث أو ممن لا يعتقدونه لأن هذا المطفف كالمنكر للبعث أفرط في الغفلة وأسرف في إهمال الفكرة وتجاوز الحدّ المعقول في إضاعة النظر إذ أنه لو لم يكن مفرطا كما ذكر لخطر له -ولو شيئا ما-خاطر البعث.فلا جرم كان شأن هؤلاء المطففين بالجملة منكرا عجيبا وصنعهم هذا أمرا غريبا.

واليوم العظيم هو المعروف باليوم الآخر وغير ذلك مما سمي به من الأسماء في العديد من الآيات القرآنية مثل يوم القيامة و يوم الفصل و يوم الحساب و يوم البعث ويوم الجزاء و يوم الجمع و يوم الدين و يوم التغابن و يوم الآزفة و يوم الحسرة إلى غير ذلك. وهو الحصة الزمانية التي جعلها الله بين وقت الحياة الدنيا وأمد الحياة الآخرة المستقرة بالخلود في النعيم

للصالحين من عباده ، والعذاب للكافرين الظالمين منهم. و وصف في هذه الآية يوم القيامة هذا بالعظمة وبصيغة التنكير مبالغة في تفخيم شأنه. كما ورد مثل ذلك كثيرا في آيات الكتاب العزيز وأخبار الرسول الكريم. فأهوال يوم القيامة وشدائده على العباد شيء تقرر نصه بتكرار في الآيات القرآنية وصحيح الأخبار النبوية فهو من المعلوم في الدين بالضرورة و من الإيمان باليوم الآخر.

وجاء من تفسير قيام الناس لرب العالمين أنه بمعنى رجوعهم وتوجههم إليه تعالى وإقرارهم بربوبيته و ألوهيته قانتين موحدين كلهم جميعا سواء من كان منهم في الدنيا مؤمنا ومن كان جاحدا أو مشركا بعدما تبين له الحق في اليوم الحق.

كما ورد أيضا من تفسير هذا القيام بأنه انتظار فصل الحساب والموقف الواقع بين البعث وفصل القضاء.

و من التعليق والبحث في تفسير آيات المطففين هذه الإشارة إلى ما يظهر بأدنى تأمل لمن يقرأ هذه الآيات أو يسمعها من الأسلوب الرائع المتعالي في درجات الإعجاز وقوة التأثير في النفوس اليقظة والضمائر الحيّة حيث قدم الخبر عن شأن أصحاب هذه الجريمة- في إيجاز بليغ- بأنه الهلاك المحقق ثم عرض صنيعهم هذا مكشوفا عن قبحه وبشاعته بأجلى بيان ثم عقب على ذلك بالوعيد الرهيب المؤذن بعقاب لم يكشف عنه النقاب مع ما تضمنه من توبيخ وقعه صاعق وتأنيب قرعه ماحق.

هذا ومما يرشد إلى خطر أمر الكيل والميزان في شرع الله حادثة قوم شعيب رسول الله عليه السلام حيث عوقبوا بالعذاب المعجل في الحياة الدنيا قبل العذاب المؤجل في الآخرة. ففي ذلك كفاية من العبرة والموعظة لمن غلظ حجابهم وخمد شعورهم حتى صاروا لا يتأثرون إلاّ بالعاجل المحسوس ولا ينتهون إلاّ بالواقع الملموس.

جاء من الآثار هنا ما نقل عن **عليّ بن أبي طالب** * رضي الله عنه أنه مرّ يوما برجل يبيع الزعفران فوقف يتأمله فإذا هو يرجح الميزان ابتداء فقال

له: " أقم الوزن أولاً ثم أرجح بعد ذلك ما شئت". فأرشده إلى الوقوف عند الأمر بإقامة الوزن أولا ثم له أن يرجح بعد ذلك مما هو فضل زائد على الواجب ، عملا بمنطوق الآية: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

ومما جاء من البحث في الموضوع حكاية قول حاصله أن الوعيد الوارد في التطفيف إنما يتناول من بلغ تطفيفه قدر نصاب السرقة من البضاعة [**النصاب** *: بكسر النون من مادة النون والصاد المهملة والباء الموحدة السفلية التي أصل معناها قيام الشيء. ويطلق لفظ النصاب على الأصل في الشيء كما يطلق على مبدئه و أول فرد منه. وإطلاق لفظ النصاب في اصطلاح الأحكام على الحد الأدنى في الشيء الذي يتعلق به الحكم. ففي باب الزكاة نصاب المال و نصاب الماشية و نصاب الحرث ، و منه نصاب المهر والصداق في الزواج و نصاب السرقة وهو الحدّ الأدنى في المال المسروق الذي يستوجب إقامة الحدّ على السارق بقطع يده. ونصاب السرقة هذا ليس من المجمع عليه من أئمة علم الشريعة ، فالجمهور على اعتباره ولكنهم مختلفون في تقديره. والبعض القليل من الأئمة لا يعتبرون النصاب في السرقة ويرون أن الحدّ يقام على سارق القليل والكثير. والذي جرى به العمل وتقرر سلفا وخلفا هو رأي الجمهور باعتبار النصاب في السرقة وإنما كان الخلاف في تقدير هذا النصاب لأنه لم يرد فيه نص من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم. فكان من المشتهر في تقدير هذا النصاب أنه ربع دينار أي الدينار الشرعي الذي كان هو العملة الجاري بها التعامل على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فما بعده من الخلفاء و هو القطعة الذهبية التي قدر وزنها تقريبا في زماننا هذا بخمسة قرامات ، وقد قدر نصاب الزكاة منها بعشرين دينارا ، فعلى هذا يكون نصاب السرقة هو الجزء من ثمانين جزءا من نصاب زكاة المال. وكان أيضا مما اشتهر و تواتر نقله عن عمل الخلفاء أن إقامة حدّ السرقة لا يثبت إلاّ فيما بلغ ثلاثة دراهم من الشيء المسروق ، والثلاثة دراهم تزيد على ربع الدينار لأن المعروف

من العمل سلفا أن الدينار صرفه عشرة دراهم ، والدراهم هي العملة الفضية الجاري بها العمل كما ذكر في الدينار. كما جاء أيضا في تقدير هذا النصاب ما يفهم منه أنه مقدار دينار كامل ومستند هذا هو ما نقل من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بمعنى أنه جرى في عهده عليه الصلاة والسلام وهو إقامة الحدّ على شخص سرق مجنا وكانت قيمة المجن إذ ذاك عشرة دراهم.

والمِجَنّ * بكسر الميم وفتح الجيم وآخره نون مشددة اسم لآلة في القتال تستعمل للوقاية من ضرب السيف أو وقع السهم وغير ذلك].

وقد ردّ هذا القول لأنه ظاهر الخطإ لأن الموضوع موضوع التطفيف بما يدل عليه نص اللفظ في اللغة وهو الشيء اليسير التافه القليل. هكذا جاء التعبير في الآية. فإذا ما غير المعنى بإطلاق وصف المطفف على من يختلس قدر النصاب المعلوم فما فوقه كان ذلك خروجا عن دلالة اللفظ لغة بغير دليل والحق أن يطلق على من ينقص الكيل والوزن بمقدار نصاب السرقة وصف مختلس وسارق ونحو هذا.

والمطفف إنما هو مختلس القدر القليل الضئيل وهذا هو ما عليه إجماع جماهير علماء الشريعة وقوفا عند النص اللفظي في الآية مطابقة للغة التي جاء بها القرآن.

ومما جاء من التعليق -أيضا- على تفسير هذه الآيات:

صيغة تساؤل صورته: إذا علم أن الوعيد الوارد في هذه الآية إنما هو مختص بالمطفف وهو المختلس لقدر تافه يسير يقرب -جدا- من الوفاء وإنما هو نقص على كل حال من حقوق الناس ، فماذا يكون وعيد المقتطع للمبالغ الجسيمة والمرتكب للظلامات الكبيرة حتى الاستحواذ على كامل المقدار من حقوق الغير...؟.

الدرس 67

دعا الحال في إلقاء هذا الدرس أن يكون جامعا لعدة مواضيع مختلفة وذلك بالتبع لما جرى عليه مؤلفو السيرة في جملتهم حيث أوردوا تلك المواضيع في سياق واحد على أنها من أحداث الفترة الأولى من مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة في هجرته إليها.

فترجع هذه الأحداث التي تضمنتها هذه المواضيع الى أحداث السنة الأولى من الهجرة ومن أجل هذا الجمع كان إلقاء هذا الدرس مقتضبا [1] موجزا

وهذه المواضيع التي جمعت في سياق واحد هي:

1/ أولا: المؤاخاة التي أجراها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار.

2/ ثانيا: وثيقة المعاهدة بينه صلى الله عليه وسلم قائما على جانب المسلمين وبين اليهود من سكان المدينة المنورة عن الجانب المقابل.

3/ ثالثا: ذكر وفيات لأفراد من الصحابة رضوان الله عليهم و وفيات أيضا لشخصيات بارزة من أهل مكة من المشركين وما تعلق بهذه الأحداث من وقائع غيرها احتواها الظرف الزماني أو دعت إليها المناسبة.

وإذا كان فيما وقع من إلقاء مواضيع هذا الدرس الاقتضاب والإيجاز والاختصار ، فلتورد -هنا- في هذا التقييد الكتابي ببعض بسط وشيء من التوسع بحول الله وعونه.

---

(1) الاقتضاب: من باب الافتعال ومادته القاف والضاد المعجمة وآخره باء موحدة. والقضب بفتح فسكون هو القطع. فالقضب والقطع الفعل فيهما مفتوح في الماضي والمضارع. والاقتضاب في مطلق العمل هو الإتيان بالشيء ارتجالا بمعنى من غير دراية به وإتقان له. والاقتضاب في الكلام خاصة يقرب من هذا المعنى كان صاحبه يتكلم متقطع الكلمات هنا وهناك من غير ترتيب ولا استيعاب ولا استقصاء.

1/ الموضوع الأول:

"المؤاخاة[1] بين المهاجرين والأنصار من الصحابة رضوان الله عليهم".

من المعلوم الذي لا يكاد يخفى على أحد أن صحابة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كانت بينهم المودة الوافية والألفة الكاملة وصلة الحب الصادق وعاطفة الحنان البالغة أقصى درجة الحرارة.

وتنص على هذا المعنى آيات عديدة من الكتاب العزيز منها آية سورة "الفتح" في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.

وفيما يتعلق بفريق الأنصار بين بعضهم البعض آية سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾.

وفيما يتعلق بالأنصار نحو المهاجرين آية سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾...

وفيما يرجع إلى عموم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين ناصروه وآزروه وضحوا في سبيل دعوته بكل عزيز و غال الآية من سورة "الأنفال" المفيدة معنى زائداً في الموضوع هو الإشارة إلى أن الفريق المتماسكة أعضاؤه بالألفة بينهم والجمع الحاصلة بين أفراده المحبّة والتعاطف هؤلاء هم المنتصرون على أعدائهم في معارك القتال والظاهرون على من حاربهم في ميادين النزال ، لأنهم بتلك الصفة فيهم - أي ألفة

---

[1] المؤاخاة: مصدر من فعل آخى يؤاخي مأخذها من لفظ الأخ ومن باب المفاعلة الدال على اشتراك الفعل بين جانبين فأكثر كل من الجانبين أو الجوانب فاعل ومفعول كالمصالحة والمعاملة والمقابلة والمعاهدة إلى غير ذلك بما هو فعل يقع متعدد الأطراف وهذا هو الأصل في وضع صيغة المفاعلة. إلاّ أنه يقع إطلاق لفظ هذه الصيغة تارة من غير أن يكون الفعل مشتركا كما في لفظ المعاقبة والمعاندة والمعاتبة ونحو ذلك.

القلوب- امتلكوا السبب الأصلي للنصر.

وذلك ما في خطاب الله سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿62﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿63﴾ ﴾

ومما تلزم ملاحظته هنا أن ألفة صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بينهم إنما كانت لها ميزتها الخاصة في عهده عليه الصلاة والسلام كما هو مفهوم بطبيعة الحال.

والمأخوذ مما جاءت به الأخبار في المؤاخاة الخاصة التي أجراها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، أنها عملية تدبير من تدابير الحكمة التي أنزلها الله على رسوله وتصرف من تصرفاته عليه الصلاة والسلام مما علمه الله تعالى مما لم يكن يعلم ، فهي سياسة نبوية فذة في بابها بديعة في شكلها وصورتها عديمة النظير في أثرها وجدواها. فبعد رباط الدّين المتين الذي جمع بين جموع المؤمنين وما وثقه حبل العقيدة الإسلامية الوثيق من الألفة والمودة بين الفئات المختلفة من المسلمين عمد الرسول صلى الله عليه وسلم -والظرف الحاضر يستدعي المزيد من الالتحام والالتئام- حيث ينزل شعب كامل بثقله على شعب آخر في موطنه وبينهما -ولا بد- كثير من الفوارق الطبيعية فاتخذ صلوات الله وسلامه عليه هذا الإجراء العجيب في عملية المؤاخاة الخاصة بين فريقي المهاجرين النازحين من موطنهم في سبيل الله و توسلا لاكتساب القوة لنصرة الدّين والأنصار الذين تقبلوا الدعوة و آزروها و بذلوا لها كل ما بأيديهم من طاقة حتى قام كيان الإسلام و كانت عملية هذه المؤاخاة لزيادة إحكام الربط بالمودة بين قلوب الفريقين وعواطفهم ربطا للخيوط الدقيقة وجمعا للأسلاك الرقيقة من الهيكل المتماسك من قبل بالرباط العام الوثيق. حيث كانت مؤاخاة على مستوى الأفراد شخصيًا

يجمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين الرجلين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار و يقول لهما: " تآخيا في الله أخوين أخوين ".

ومن تلك اللحظة يبدأ سريان مفعول حكم هذه المؤاخاة الخاص الممتاز بمزيد صلة بين الرجلين.

و الوارد في الأخبار عن صورة هذه المؤاخاة أنه صلى الله عليه وسلم كان هو الذي يتولّى التعيين ويختار الرجلين للتآخي بينهما فينادي الرجل من المهاجرين: " قم يا فلان ، فيقوم الرجل حتى **يجثو**[1] بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينادي الآخر من الأنصار كذلك فيقول لهما ما تقدم: " تآخيا في الله أخوين أخوين ".

وتفيد الأخبار فيما يخص الأحكام الشرعية لهذه المؤاخاة أنها كانت تجمع إلى جميع خصائص الأخوة النسبية ميزات أخرى منها التوارث بين المتآخيين دون قرابة النسب والرحم ، فإذا مات أحد المتآخيين فالآخر أحق بإرثه منفردا لا يشاركه أحد من قرابة الميت (فكأن الرجلين شخص واحد أو روح واحد ذو جسدين) إلاّ أن حكم التوارث هذا نسخ من بعد مدة ربما كانت تستغرق أكثر من عامين حيث تبدل الظرف ، وأستقر الأمر في الميراث على ما هو معروف في القرابة وذلك بنزول الآية من قوله تعالى:

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ وهما آيتان الأولى في خاتمة سورة الأنفال والثانية في فاتحة سورة الأحزاب.

ويلاحظ هنا ما أورده البعض من مؤلفي السيرة من حكاية رواية إخبارية مفادها أن **معاوية بن أبي سفيان*** ورث بحكم هذه المؤاخاة الرجل المآخي له من الأنصار وهو يدعى باسم **الحُتات*** (بضم الحاء

[1] يجثو: مضارع والماضي منه جثا ومصدره الجُثُو بضم الجيم والثاء المثلثة ويستعمل هذا الفعل أيضا بالياء المثناة عوض الواو فيكون مضارعه يجثي ومصدره الجثي بفتح الجيم وكسر الثاء المثلثة ، وهذا الفعل معناه الجلوس على الركبتين بحيث يكون الجاثي هذا ثانيا ساقيه معتمدا عليهما فتكون ركبتاه بارزتين أمامه.

المهملة ثم تاء مثناة مخففة بالمدّ المفتوح وآخره تاء مثناة كذلك ، كما في اسم الحباب بالباء الموحدة).

ومن المعروف أن معاوية رضي الله عنه ممن تأخر إسلامه عن هذا العهد بمدة عدة من السنين.

فعلى ما جاء في هذه الرواية تكون عملية المؤاخاة باقية متمادية و ربما كان رفع حكم التوارث فيها ليس بالكلية وإنما أخرت رتبته عن رتبة القرابة كما في إرث الولاء ، فإذا ما مات أحد المتآخيين ولم يكن له من القرابة وارث رجع إرثه الى المؤاخي له بهذه المؤاخاة النبوية. والله أعلم بحقائق ما في القضية.

وتفيد الأخبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم أجرى عملية هذه المؤاخاةعندما تمّ لإقامته بالمدينة نحو الخمسة أشهر ، وأنها كانت حينما كان بناء المسجد جاريا ، وفي رواية عندما كمل بناء المسجد وأنها كانت في المسجد ، وفي رواية أنها كانت بدارأبي **طلحة** * زوج **أم سليم** *أم **أنس بن مالك** *. ولا منافاة بين جميع ما في هذه الروايات وإنما يؤخذ من هذا أن عملية المؤاخاة تعددت في محاضر متفرقة.

والمفهوم مما جاء في الأخبار فيما يخص تعيين الشخصيات في هذه المؤاخاة أنه كان يتناول الرجال ممن لهم مكانة في المجتمع في أي مجال من مجالات الحياة ماديًّا أو أدبيًّا و بالجملة من تحصل بتآخيهما أي مصلحة كانت بوجه العموم.

والذي جاء نقله من الأخبار عن عدة المتآخين في إحدى الروايات أنهم تسعون رجلا ، خمسة و أربعون من المهاجرين وخمسة و أربعون من الأنصار ، وفي رواية أخرى أنهم مائة وليس هذا على سبيل الاستيعاب الشامل كما لا يخفى.

ولم نطلع فيما لدينا من مؤلفات السيرة على ذكر أسماء العدة من الصحابة المتآخين في هذه المؤاخاة المدنية الواقعة بين فريقي المهاجرين

والأنصار على خلاف ما كان في ضبط أسماء الصحابة المعدودين في غزوة بدر وقد تجاوزت عدتهم الثلاثمائة صحابي. إلاّ ما كان من مؤلف السيرة الحلبية في كتابه المسمى "إنسان العيون" وهو **نور الدّين الحلبي*** وكذا مؤلف السيرة النبوية **الشيخ دحلان***، فقد أوردا شيئا من أسماء صحابة هذه المؤاخاة فأفادا أنه صلى الله عليه وسلم آخى(1) بين **أبي بكر*** الصديق من المهاجرين وبين **خارجة بن زيد*** من الأنصار(و خارجة صهر لأبي بكر، ابنته زوج لأبي بكر)، و(2) بين **عمر بن الخطاب*** من المهاجرين **وعتبان ابن مالك*** من الأنصار، و(3) بين **عبد الرحمن بن عوف*** من المهاجرين **وسعد بن الربيع*** من الأنصار، و(4) بين **أبي عبيدة عامر بن الجراح*** من المهاجرين **وسعد بن معاذ*** من الأنصار. وفي رواية أخرى أن مؤاخاة أبي عبيدة كانت مع **أبي طلحة*** من الأنصار، و(5) بين **مصعب بن عمير*** من المهاجرين **وأبي أيوب*** من الأنصار، و(6) بين **أبي ذر الغفاري*** من المهاجرين **والمنذر بن عمرو*** من الأنصار، و(7) بين **زيد بن حارثة*** من المهاجرين **وأسيد بن حضير*** من الأنصار، و(8) بين **سلمان الفارسي*** على اعتباره من المهاجرين **وأبي الدرداء*** من الأنصار، و(9) بين **عمار بن ياسر*** من المهاجرين **وحذيفة بن اليمان*** من الأنصار، و(10) بين **بلال*** من المهاجرين **وأبي رويم الخثعمي*** من الأنصار، و(11) بين **جعفر بن أبي طالب*** من المهاجرين **ومعاذ بن جبل*** من الأنصار. ومعلوم أن جعفر بن أبي طالب لم يقدم المدينة مهاجرا إلاّ في سنة سبع من الهجرة، وكان جعفر ممن هاجر إلى الحبشة فأقام بها تلك المدة الطويلة. فينظر في مؤاخاة الرسول صلى الله عليه وسلم له مع معاذ أهيَ عيَّنَها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غائب؟ أو أنها إنما جرت فعلاً بعد مقدمه المدينة من الحبشة؟

وفيما يتعلق بأثر هذه المؤاخاة وما نتج عنها من الألفة والمودة والوحدة بين أصحابها وكيف اعتبروها وطبقوا مقتضياتها، يحسن أن ينقل

هنا ما أفاده في هذا الموضوع أحد مؤلفي السيرة من أئمة العلم المتأخرين وهو الأستاذ **محمد الخضري*** المصري في كتابه المسمى "نور اليقين" فقال رحمة الله عليه ما نصه: " ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضح للقارئ أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية بل فكل ذلك للإحساس الإسلامي فإنه أفصح منطقا من القلم. وعلى الإجمال فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئا واحدا في أجسام متفرقة".

ثم قال: " وعسى الله أن يوفق مسلمي عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون".

هذا ومما تحصل به الكفاية من الاعتبار ويفي بالغاية من معرفة مدى ما وصل إليه أثر هذه المؤاخاة في أصحابها من صحابة الرسول محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام من وثوق حبل المودة و عميق أثر الالتحام بالمحبة ذلك هو الخبر التاريخي المعروف المأخوذ **أُنموذَجًا**[1] من **الطراز**[2] يهدي لمعرفة ما وراءه من مجموع أفراد الجنس العديدة معرفة الجملة والعموم.

فقد أفادت الأخبار الثابتة أنه كان ممن آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهما من أصحابه في هذه المؤاخاة **عبد الرحمن بن عوف*** من المهاجرين **وسعد بن الربيع*** من الأنصار فعندما تمت المؤاخاة بينهما وانصرفا من بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم أقبل سعد على عبد الرحمن فقال له: " يا عبد الرحمن إني من أكثر الأنصار مالاً فهذا مالي فإني مقاسمك فخذ ما بدا لك منه ، ولي من الزوج امرأتان فأنا مطلق إحداهما

---

(1) الأنموذج: بضم الهمزة وإسكان النون ثم ميم مضمومة بالمد ثم ذال معجمة مفتوحة وآخره جيم كما يستعمل أيضا بلفظ "نموذج" بفتح النون وضم الميم بالمد وفتح الذال المعجمة ، وهذه الكملة معربة ليست أصلية في اللغة العربية والمعنى فيها المثال ، والصورة المفردة من مجموع ما هو من جنسها فبديلها في العربية هو لفظ المثال.

(2) الطراز: بكسر الطاء المهملة ثم راء مفتوحة بالمد وآخره زاي ، له معان متعددة متقاربة في المعنى منها الصنف والنوع من الجنس ومنها الشكل والصورة.

فإذا انقضت عدتها فهي لك زوج فتزوجها".فكان جواب عبد الرحمن له أن قال: "بارك الله لك في أهلك وفي مالك ولكن دُلَّني على السوق" (وفي لفظ "دُلُّوني" بصيغة الجمع).

فكان سعد يدل عبد الرحمن على بقاع الأسواق بالمدينة ونواحيها وأخذ عبد الرحمن يمارس التجارة فيها. فلم يمض إلاّ قليل من الوقت حتى أثرى وكان من أعظم أغنياء الصحابة كما هو معلوم من التاريخ. كذلك لم يلبث عبد الرحمن أن تزوج بالمدينة.

فأيّ إخلاص هذا؟ وأيّ وفاء؟ وأيّ تضحية وجدّيّة في العمل وصدق في المعاملة تضاهي صنع سعد بن الربيع رضي الله عنه؟.

وأيّ شمم وشهامة ونبل وكرامة وعزة نفس وهمة وشرف يضاهي ما عليه عبد الرحمن بن عوف؟ رضوان الله عليه وعلى الجميع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد كانوا بمثل هذا الصنيع يتعاملون و بمثل هذا التطبيق يأخذون تعاليم الدّين و ينفذون.

2/ الموضوع الثاني:

الذي تضمنه هذا الدرس: المعاهدة التي أوقعها الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين اليهود الساكنين بالمدينة ونواحيها (والمتبادر للفهم أن إجراء هذه المعاهدة كان بمبادرة و مسعى - ابتداء - من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم جريا على الأصل من سياسته وخطته عليه الصلاة والسلام في توفير أسباب الأمن والسلام وتحصيل التعايش الحسن والطمأنينة والاستقرار في الحياة بين مختلف الأجناس من الناس وخصوصا المتجاورين. وكان هؤلاء اليهود المجاورون للمدينة يكوّنون ثلاثة كيانات مستقلة عن بعضها وتجمعهم -طبعا- رابطة اليهودية، وهم **بنو قينقاع**[1] وموقعهم نحو وادي بطحان مما يلي عوالي المدينة جنوبا شرقيا، **وبنو النضير**[2] وموقعهم في العوالي أيضا إلى الجنوب، **وبنو قريظة**[3] في العوالي إلى الشرق.

والذي جاءت به الأخبار عن هذه المعاهدة بينه صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء اليهود أنها كانت على وجه التوزيع باعتبار كل فريق من الثلاثة مستقلا بعهد خاص بوثيقة مكتوبة مع اتحاد المواد في الجميع. فكانت مواد المعاهدة إقرار السلم بين الجانبين وحرية التديّن، ومجانبة أنواع الأذى بكل وجه وعدم إعانة العدوّ. وفيما إذا داهم عدوّ المدينة محاربا لجانب الرسول فعلى فريق اليهود أن يشارك في الدفاع إلى جانب المسلمين. هذا ما جاءت به معظم الروايات ولكن وردت روايات أخرى تذكر خلاف هذا في هذه المادة، فتفيد أنه فيما إذا حارب المسلمين عدوٌّ فعلى اليهود ملازمة الحياد فلا يظاهرون العدوّ ولا يناصرون المسلمين. ولم يطل زمان هذه

(1) قينقاع: بفتح القاف ثم ياء مثناة ساكنة ثم نون مثلثة الحركة ضما وهو المشهور وفتحا وكسرا ثم قاف ممدودة بالفتح وآخره عين مهملة، وموقعهم أقرب إلى المدينة من غيرهم.

(2) النضير: بفتح النون وكسر الضاد المعجمة.

(3) قريظة: بالقاف والراء والظاء المعجمة بصيغة التصغير.

المعاهدة وكان جانب اليهود هو الجانب الذي نقضها وبذلك حقت كلمة الله سبحانه عليهم بما في الآية من قوله عز وجلّ خطابا لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿55﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿56﴾﴾.

فلم تنته السنة الثانية للهجرة حتى نقض بنو قينقاع ما بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم من العهد وجاهروا بالعداوة ، فكانت الحرب بين الجانبين في غزوة قينقاع المعروفة ، وآل الأمر في النهاية إلى جلاء هؤلاء اليهود عن المدينة إلى أرض الشام.

و لم تنته السنة الرابعة للهجرة حتى كان الغدر و نقض العهد من يهود بني النضير ، و وقعت الحرب بين الجانبين في غزوة بني النضير كما هو معروف ، وكتب الله عليهم الجلاء أيضاً إلى الشام.

ولم تنته السنة الخامسة الهجريّة حتى صدر ما صدر من يهود بني قريظة من نقض للعهد زائد البشاعة وخيانة بالغة أقصى درجة في القبح حيث ظاهروا العدوّ ، وطعنوا طعنتهم للمسلمين من خلف في ظرف لم يعرف المسلمون نظيرا له في الضيق والشدّة والمرارة إذْ كانت المدينة محاصرة من طرف الأعداء من قريش وجموع الأعراب في الواقعة الحربية المعروفة بغزوة الأحزاب وهي الوقعة التي كان الغرض منها للأعداء هو استئصال المسلمين بالكلية والقضاء النهائي على دعوة الإسلام التي جاء بها الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. ولما نفذ حكم الله بفشل خطة الأحزاب و رُدُّوا على أعقابهم خائبين فانكشفوا عن المدينة خاسرين حلَّتْ نقمة الله و عقوبته على الغادرين الناقضين للعهد من يهود بني قريظة فغزاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر من الله غزوته المعروفة باسم " غزوة بني قريظة ".

فكانت لهم مقاومة لبضعة أسابيع ثم استسلموا لحكم ما يحكم به عليهم و من عجيب أمرهم وغريب شأنهم أنهم لم يقبلوا حكم الرسول صلى

الله عليه وسلم فيهم إمعانًا في العداوة له إغراقا في البغضاء والعناد. فتخلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحكم في قضيتهم و فوض إليهم اختيار القاضي فاختاروا **سعد بن معاذ*** الذي هو زعيم قبيلة الأوس من الأنصار ومقامه في الصحابة جليل وكانت مكانته في فريق الأنصار بمثابة مكانة **أبي بكر الصديق*** في فريق المهاجرين. وإنما اختار اليهود للحكم سعد بن معاذ لأنه كان حليفا لهم قبل الإسلام.

وأصدر سعد حكمه في بني قريظة بما كان وفاق حكم كتاب التوراة الذي يدينون به في مثل نازلتهم هذه ، ومضمونه أن يعدم الفريق ممن يستحق الإعدام ويسبى أسيرًا من يستحق الأسر ، و نفذ هذا الحكم فيهم على هذه الصورة بما فيه من القسوة.

فكانت عاقبة يهود بني قريظة أسوأ من عاقبة إخوانهم بني قينقاع و بني النضير ، وانتهى أمر اليهود بالمدينة وتخلصت من جوارهم السيء بانتهاء بني قريظة. وهكذا تكون مدة قيام المعاهدة التي أجراها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين وبين يهود المدينة مدة لا تزيد على أربعة أعوام أو ينقص منها مع ما تخللها من النقض في أثنائها ، و قصص هؤلاء اليهود مبسوط بتفصيل في مواضعه الخاصة به في كتب السيرة والتاريخ.

أما ما جاء عنهم في القرآن العظيم فهو كالمعهود في الأسلوب القرآني إنما يشير إلى ما تحصل به الهداية والعبرة ويتعظ به سامعه فيزداد إيمانا و يقينا وحرصا على الاستقامة والتقوى.

فالآيات القرآنية الواردة في شأن الأقوام الثلاثة المذكورين من يهود المدينة كانت كلها تتعلق بموضوع نقض العهد وخيانة الميثاق وبيان العاقبة الوخيمة والعقاب الأليم لأصحاب هذا الصنيع الشنيع.

فالآية القرآنية من سورة آل عمران في قوله عزّ وجلّ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.

والآية من سورة الأنفال في قوله تعالى خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾.

والآية من سورة الحشر في قوله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

جاء في الآثار عن السلف أن هذه الآيات الثلاث تشير إلى يهود بني قينقاع عندما نقضوا العهد بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم و جاهروا بالعداوة و هدّدوا و افتخروا بما لهم من شدّة بأس وقوة حربيّة حينما كلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم يعظهم ويحذرهم شرّ ما أقدموا عليه من نقض العهد.

ويلاحظ هنا أن الآية من سورة الحشر التي قيل عنها أنها في بني قينقاع إنما هي في معرض ذكر بني النضير وجاءت للتذكير بعاقبة بني قينقاع بعد انقضاء أمرهم.

أما بنو النضير فالوارد فيهم من القرآن إنما هو ما احتوت عليه سورة الحشر ، وكان ذلك في مفتتحها فما بعده متواصلا حتى كان معظم السورة في نفس الموضوع وحتى جاء أن بعض أئمة السلف كان يسمي السورة بسورة بني النضير ، وذلك ما في قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4) ﴾...الخ

وأما بنو قريظة فالوارد من القرآن عنهم هو ما في سورة الأحزاب. فعن نهاية وقعة الأحزاب وما آل إليه أمر المعتدين من الفشل والخيبة جاء من

الآيات قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾.

وعن بني قريظة و غدرهم و نقضهم العهد الآيات الموالية من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ[1] وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿26﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿27﴾ ﴾.

(1) الصياصي: صيغة جمع مفرده صيصة بكسر الصاد المهملة ثم ياء مثناة سفلية ثم صاد مهملة ويقال في مفرده أيضا صيصيَة بزيادة ياء أخرى بعد الصاد الثانية. ولفظ صيصة هذا يطلق على معان متعددة والمراد منها هنا الحصن و المعقل الذي يمتنع به ويتوقى به. فمعنى الصياصي الحصون . ومثله الليالي والفيافي* جمعا لليلة وفيف. المفرد في الجميع يتركب من حرفين.من جنس واحد بينهما حرف علة والفيف بفاءين معناه الأرض المتسعة خالية من المرافق فلا ماء فيها ولا عمارة.

3/ الموضوع الثالث:

الذي تضمنه هذا الدرس ما ساقه مؤلفو السيرة في سياق واحد على أنه من أحداث الفترة المتقدمة في مقامه صلى الله عليه وسلم بالمدينة في هجرته إليها فيكون من أحداث السنة الأولى للهجرة و يتضمن هذا السياق ذكر وفيات لبعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم و وفيات أيضا لبعض رءوس الشرك من أهل مكة وغير هذا ممّا يتعلق بهذا الظرف. فمن وفيات الصحابة رضوان الله عليهم:

وفاة **البراء بن معرور*** من الأنصار وقد تقدم التعريف به في ذكر بيعة العقبة الكبرى وأنه من أبرز الشخصيات ، في زعماء الأنصار من قبيلة الخزرج والسابقين للإسلام ويمتاز بما كان منه من إلهام في توجهه في الصلاة إلى قبلة البيت الحرام قبل أن يشرع الاستقبال إلى الكعبة وقد تقدم الكلام ببسط في هذه المسألة في الدرس الحادي والخمسين فيما تعلق بإسلام الأنصار. والوارد المعروف في وفاة البراء بن معرور رضي الله عنه أنها كانت قبل مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة في الهجرة ، فقيل توفي قبل قدوم الرسول بأربعين يوما. فلما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم توجه إلى قبر البراء في جمع من أصحابه فصلى عليه.

و جاء هنا بحث هذه الصلاة فقيل فيها أنها بمعنى الدعاء والترحم وليست الصلاة على الجنازة المعهودة شرعا ، ذلك لأن تاريخ شرعية صلاة الجنازة بهيأتها المعروفة لم يرد به خبر يعتمد عليه حتى قيل أنه لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة الجنازة المعروفة لا على أسعد بن زرارة ولا على عثمان بن مظعون وهما ممن توفي في عهد حضوره صلى الله عليه وسلم المدينة.

ومن وفيات الصحابة أيضا: وفاة **كلثوم بن الهدم*** زعيم قبيلة **بني عمرو بن عوف*** من الأوس ومساكنهم بقباء من ضواحي المدينة ، وهم الذين نزل الرسول صلى الله عليه وسلم عندهم أول مقدمه مهاجرًا. وفي

منزل كلثوم بن الهدم كان مقامه صلى الله عليه وسلم مدة مقامه بقباء كما تقدم ذكره في محله. هذا مع خلاف لهذه الرواية حيث تخبر رواية أخرى بأن وفاة كلثوم بن الهدم إنما كانت في السنة الثانية قبل غزوة بدر بقليل.

ومن وفيات الصحابة أيضا: وفاة **أبي أمامة أسعد بن زرارة*** من ألمع الشخصيات في زعماء الأنصار من قبيلة الخزرج ومن السابقين ذوي المآثر المشهودة كما تقدم إيراد ذلك فيما سبق من يوم بدأ إسلام الأنصار. وجاء هنا أن هذا الصحابي الجليل هو أول من دفن من المسلمين والأنصار بمقبرة البقيع من المدينة المنورة. كما ورد أن وفاته كانت مما تحمله الرسول صلى الله عليه وسلم من الأسى البليغ وتركت في نفسه أثرا عميقا من الأسف والحزن حتى أنه صلى الله عليه وسلم أبى أن يعوض **بني النجار*** نقيبا يخلف أسعد لأنه كان نقيب بني النجار كما تقدم ذكر ذلك في موضعه. ولما كلم بنو النجار الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن نقيب لهم يخلف أسعد قال لهم: " أما ترضون أن أكون نقيبكم ؟ " فعللهم بذلك و كفاهم المهمة بأفضل مما كانوا يتوقعونه.

وقد أدرج كثير من مؤلفي السيرة في هذا الفصل وفاة **عثمان بن مظعون*** الصحابي الجليل المعروف من أفاضل فريق المهاجرين ، ولكن يظهر أن وفاته على الراجح إنما كانت في السنة الثانية بعد انقضاء وقعة بدر الكبرى بقليل. فقد جاء تعداده رضي الله عنه في عسكر غزوة بدر وشهوده لها ثم توفي منصرفه منها فيحسن إيراد قصة وفاته في أحداث السنة الثانية للهجرة.

وأما وفاة من توفي بمكة من زعماء المشركين فقد ورد هنا موت اثنين منهم ، وهما **العاص بن وائل*** من قبيلة **بني سهم*** القرشية ، **والوليد بن المغيرة*** من **بني مخزوم*** من قريش. فمات العاص بن وائل وهو والد الصحابي المعروف **عمرو بن العاص*** رضي الله عنه وشأنه معروف في الإسلام ولا يكاد يخفى على العموم.أما أبوه العاص فقد عرف عنه أنه كان

من أشد المشركين عداوة و كيدا للإسلام والمسلمين.

وأمّا الوليد بن المغيرة فهو والد الصحابي اللامع الصيت الملقب بسيف الله **خالد بن الوليد*** رضي الله عنه. والوليد هذا أخباره معروفة ومواقفه معلومة مشهورة تجاه الإسلام و دعوته ، وكان المشركون يرجعون إلى رأيه ونظريته في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث الشخصية خاصة ومن حيث ما يدعو إليه من دعوة للإسلام. فكان من الوليد موقف العدوّ الصريح والمقاوم الصلب العنيد. وقد ورد من الأخبار عن الوليد هذا أنه لما حضرته الوفاة فدخل عليه جمع كلهم من رؤوس الشرك البارزين في المجتمع بمكة وكان يبدو على الوليد مظهر جزع فتقدم إليه قريبه **أبو جهل بن هشام*** وقال له: "لا تجزع يا عم ، وممَّ جزعك ؟" فقال الوليد: "ما جزعي من الموت وإنما جزعي مما أخشى أن يظهر أمر ابن أبي كبشة بمكّة".(**أبو كبشة*** اسم زوج **حليمة السعدية*** مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبيلة **بني سعد*** الأعرابية. فأبو كبشة أب من الرضاع له صلى الله عليه وسلم كان أعداؤه من قومه عليه الصلاة والسلام يعدلون عن اسمه ونسبته الرفيعة فيهم فيذكرونه بنسبته إلى أبي كبشة على سبيل **النَبْز**[1] **والحط**[2] وكراهية لذكر الواقع من نسبته العالية الشأن بينهم).

---

[1] النبز: بفتح النون وإسكان الباء الموحدة وآخره زاي هو مصدر لفعل نبز ينبز بفتح الباء في الماضي وكسرها في المضارع. والنبز بفتحتين هو اسم للقب الذي إطلاق إسم زائد للشيء لقصد مدحه أو ذمه ولكن لفظ النبز غلب استعماله في الذم والقبح. والفعل منه يتعدى للمفعول يقال نبزه بمعنى لقبه بلقب ينتقصه به ويعيبه. ومثل النبز اللَّمز والهمز وزناً وتقاربًا في المعنى فكلها تدل على العيب والانتقاص.

[2] الحط: بفتح الحاء المهملة وتضعيف الطاء المهملة مصدرٌ ، الفعل منه مفتوح الماضي مضموم المضارع ، من معناه وضع الشيء وإنزاله من أعلى إلى أسفل ، وما في معنى هذا مثل حط عنه أي تنحى وترك وأنزل.فإذا كانت تعديته بحرف "على" فيقال "حط عليه" فهو بمعنى تكلم فيه مما هو انتقاص له.

فلما قال الوليد مقالته هذه للقوم أجابه قصد الطمأنينة له من قال له منهم: لا تخش من هذا شيئا فأنا ضامن أن لا يظهر أمر ابن أبي كبشة بمكة أبدًا. وورد في هذا القائل أنه **أبو سفيان بن حرب*** الأُمويّ وقد علم أن أبا سفيان كتب له أن أسلم واعتنق دين الإسلام أيام فتح مكة وعاش بعد ذلك طويلا وشهد عددا من مشاهد الجهاد.

ويعلق بعض مؤلفي السيرة على موت هذين الرأسين من رؤوس الكفر بمكة في هذا الأثناء فيقول: و بموت العاص بن وائل والوليد بن المغيرة تناقص بعض الأذى على المسلمين و كفاهم الله شرًّا كانوا يقاسونه مدة من الزمن من طرف هذين الشقييْن.

ومما أورده في هذا الموضع بعض من كتب في السيرة على أنه من أحداث السنة الأولى للهجرة: ميلاد صحابي كان له شأن خطير في المجتمع الإسلامي وهو ابن صحابي جليل عالي المرتبة في صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك هو **عبد الله بن الزبير بن العوام*** من قبيلة **أسد بن عبد العزى*** القرشية قوم أم المؤمنين الكبرى **خديجة بنت خويلد***. وأمّ عبد الله هذا هي **أسماء بنت أبي بكر الصديق*** ذات المآثر المعروفة التي لقبت "أسماء ذات النطاقين" ، وقد تقدم شيء من التعريف بها في سياق الهجرة رضي الله عن الجميع.

والنكتة المقصودة من إدراج ميلاد عبد الله بن الزبير في أحداث السنة الأولى الهجرية هي كون هذا الميلاد أحدث رجة ابتهاج و سرور وارتياح في خصوص أوساط المسلمين من فريق المهاجرين بالمدينة المنورة ، فكان أول مولود يولد للمهاجرين بعد نزولهم بالمدينة فتفاءلوا به واستبشروا وتوسموا في المستقبل خيرا و يسرا لحالهم و فتحا و إقبالا في المعاش بموطنهم الجديد.

فتفيد هذه الرواية في ميلاد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن أمَّه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما نزلت في الهجرة بقباء في جملة من نزل من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وبيت أبي بكر حيث ترافق أهل البيتين في السفر إلى المدينة. فلم تلبث أسماء أن وضعت حملها بعَبْد الله بن الزبير وذهبت به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فباركه **وحنكه**[1] وتفل في فمه وهو الذي سماه عبد الله.

وقد تقدم شيء من خبر ميلاد عبد الله بن الزبير هذا في هجرة أهل البيت ضمن الدرس الحادي والستين من هذه الدروس.

وتأتي الملاحظة على ما ذكر هنا بأن رواية ميلاد عبد الله بن الزبير في أحداث السنة الهجرية الأولى، تخالفها رواية أخرى اعتمدها المؤرخون تفيد أن الميلاد المذكور لم يكن إلاّ في السنة الثانية وأنه ولد بالمدينة داخلها بعد عشرين شهرا من مفتتح السنة الهجرية الأولى.

ومما جاء من الروايات الإخبارية و أدرج في أحداث السنة الأولى الهجرية: إسلام **عبد الله بن سلام** * أحد كبار الأحبار من يهود المدينة المنورة ويظهر أنه من الوحيدين في الأحبار الذين طبقوا ما علموا من العلم فيما يتعلق ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بمقتضى ما عندهم من التراث العلمي في الكتب التي بين أيديهم و منها التوراة.

---

(1) هذه المادة من الحاء المهملة والنون والكاف يتنوع المعنى منها في إطلاقاتها تنوعا كثيرا مع تباعد بين معانيها التباعد الشديد، والفعل المجرد منها مفتوح في الماضي ويكسر ويضم في المضارع ومصدره بفتح فسكون وكذلك بفتحتين "الحَنْك والحَنَك" ومن معاني هذه الكلمة "الحُنْكة" بضم الحاء وإسكان النون وهي التجربة في الأمور والتدرب عليها مما يزيد في العقل والمعرفة فيقال رجل مُحَنَّك بتشديد النون مفتوحة، والاحتناك بمعنى الإتيان على الشيء والقضاء عليه. وكذلك الاحتناك بمعنى الاستيلاء والاستحواذ على الشيء ومنها "التحنيك"* من باب التفعيل، حنكه بمعنى هذب وربَّى التربية الحسنة، ومنها تحنيك المولود أول ما يولد وهو المراد هنا ذلك أن يمضغ شيء ممن هو حلو كالتمر فيدلك به حنك الصبيّ فيتذوقه أول ما يتذوق من الغذاء. فالحنك بفتح النون هو ما تحت الذقن وكذلك هو في باطن الفم من اللحي الأسفل وليس هذا هو كل معاني الكلمة فلها معان أخرى.

والوارد في الأخبار أنه كان لعبد الله بن سلام هذا منزلته المرموقة في اليهود فضلا ونسبا ودراية في العلم كما أن إسلامه كان من باعث نفسه وفكرته بعدما تبين له ما تبين من دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في أول مقابلة له مع الرسول.

فورد أن عبد الله بن سلام كان ممن بادر لمشاهدة الرسول فور نزوله صلى الله عليه وسلم المدينة وقبل أن يستقر بدار أبي أيوب.

فنقل عن عبد الله هذا أنه قال: " لقد رأيت في الرسول صلى الله عليه وسلم أول ما وقعت عيناي عليه أن هذا الوجه لن يكون أبدًا وجه كذاب؟" و رجع عبد الله من قريب لمقابلته عليه الصلاة والسلام في مجلس قار بدار أبي أيوب. فأعلن إذ ذاك إسلامه بشهادة "أن لا إله إلاّ الله وأن محمدا رسول الله". و يقال في رواية أخرى أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن مسائل من العلم قبل أن يعلن إسلامه فأجابه الرسول عنها.

فأسلم عبد الله بن سلام وجرى بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم حديث فيما هو يجري بين الرسول وبين أحبار اليهود في هذا الوقت من الحجاج والمناظرة مما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم به لتبليغ الدعوة وإقناع الأحبار بأحقية رسالته عليه الصلاة والسلام.

وكان مما جرى بين الرسول وبين عبد الله بن سلام من الحديث وتناولا فيه موقف أحبار اليهود نحو الدعوة وجحودهم للحق أن قال عبد الله للرسول: " يا رسول الله إن اليهود قوم **بهت**[1] فإنهم إن علموا بإسلامي

---

(1) قوم بُهت: بضم الباء الموحدة وضم الهاء كذلك آخره تاء مثناة فوقية ، وهو وصف في صيغة جمع مفرده "باهت" و"بَهوت" بفتح الباء اسم فاعل للمبالغة كما يقال "كذوب" للمكثار من الكذب. والفعل من هذه المادة مفتوح في الماضي والمضارع ومن معانيها الافتراء وهو الكذب على الغير والقول فيه بما ليس فيه وبما هو باطل لا وجود له. والمصدر من هذا هو "البُهت" بالضم و"البهتان" بزيادة النون ، وهو المراد هنا. ومن معانيها أيضا الحيرة والاندهاش. ويستعمل الفعل منه مبنيا للمجهول فيقال بهت بالبناء للمفعول فهو مبهوت. فالفعل من هذه المادة سواء بمعنى الافتراء أو بمعنى الدهش والإتيان بغتة مفتوح في الماضي والمضارع معا ، بَهَته يبهته بمعنى كذب عليه أو بمعنى أخذه فجأة فأدهشه.

قبل أن تسألهم عني بهتوني ، فاسألهم عني قبل علمهم بما كان مني من إسلام". فكانت عملية تدبير لكشف حال الأحبار في الجحود وطمس الحق وفضح خبثهم. فاختفى عبد الله بن سلام بمكان في مجلس للرسول مع أحبار اليهود للمفاوضة معهم في شأن الدعوة. وبعد أخذ و ردّ بين الرسول وأحبار اليهود في المحاجة قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: " ما ترون عبد الله بن سلام فيكم (من حيث مكانته وفضله ؟)"

قالوا: " هو خيرنا وابن خيرنا وأعلمنا وأفضلنا...و....و...."الخ. قال الرسول لهم: "فما ترون إن أسلم عبد الله وصدّق ما جئتُ به من هذه الدعوة ؟ "

قالوا: "معاذ الله! حاشاه أن يكون منه مثل هذا". وكرّر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا السؤال ثلاث مرات وهم يَرُدُّونَ عليه بما قالوا من استحالة وقوع هذا الأمر من عبد الله بن سلام.

وعند ذلك خرج عبد الله من مخبئه وأعلن كلمة الشهادة في وجوههم ، ثم توجه إليهم بخطاب يعظهم به و يدعوهم إلى الإقرار بالحق الذي يجدونه في كتبهم و يعرفونه حق المعرفة من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

فما كان من هؤلاء الأحبار إلاّ أن انقلبوا فجائيا على ابن سلام يوجهون إليه عبارات الشتم والقذف بشتى العيوب لا يعبؤن ولا يرعون حسابا لما كان منهم في نفس الساعة من مدح وتوثيق لابن سلام ، وانفض المجلس على هذا الحال العجيب وعند هذا قال عبد الله للرسول: " هذا يا رسول الله هو ما كنت أخشاه من القوم". جاء فيما يتعلق بإسلام عبد الله بن سلام أن ما في الآية من سورة الأحقاف من شاهد بني إسراءيل المذكور فيها أنه مراد به عبد الله بن سلام ، وهي الآية من قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

فظاهر كل الظهور أن الآية في معرض محاجة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين جمع من الجاحدين لما جاء به من عند الله وينطبق تمام الانطباق مضمون هذه الآية على ما ورد من حادث عبد الله بن سلام في إسلامه و ما كان من أحبار اليهود الذي حكته هذه الرواية. ولهذا قيل أن جمهور العلماء أخذوا بهذا القول الذي يفيد أن شاهد بني إسراءيل في الآية هو عبد الله ابن سلام غير أن المنقول عن بعض أئمة السلف هو خلاف هذا ، فإنه يقول أن الآية مكيّة ، فالمحاجة فيها إنما كانت بين الرسول وبين قومه من مشركي مكة والشاهد المذكور في الآية هو موسى عليه السلام بتأويل للآية على الوجه الآتي بيانه: "شهد موسى على التوراة الذي هو كتاب مثل القرآن مُنزّل من عند الله بأنه الحق وشهد محمد كذلك على القرآن فآمن من آمن بموسى واستكبرتم أنتم معشر قوم محمد فلم تؤمنوا..."

هذا و كما أدرج من أدرج هذه المواضيع من مؤلفي السيرة في أحداث الفترة الأولى من مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة ، أدرج فيها أيضا مبدأ خدمة **أنس بن مالك*** للرسول صلى الله عليه وسلم فإنه كان من أول ما وقع من الأحداث الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم شخصيا بعد نزوله بالمدينة مهاجرا.

و الوارد من الأخبار هنا يفيد أنه عندما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة أخذ الأنصار رضي الله عنهم ، رجالا ونساء ، يقدمون إليه الهدايا بمختلف الأنواع كلٌ حسب ذوقه و **رَويَّته**[1] متحمسين متسابقين حتى آل الأمر في إهداء الطعام إلى إجراء اتفاقية بينهم في الترتيب وتحديد الكمية وتعيين من يقدم الهدية باعتبار الأيام و الأوقات حتى لا يقع

---

(1) الرويّة: من مادة الراء والواو والياء المثناة السفلية وهي اسم مصدره التروّي من باب التفعل والمعنى فيه هو التفكر في الأمر وإمعان النظر فيه حتى يفعل فيه ما هو الأولى والأنفع. فالروية بفتح الراء وكسر الواو وتشديد الياء مفتوحة هي بمعنى القدرة في هذا الموضوع.

الفضول الزائد - وقد تقدم ذكر هذا فيما سبق من الدروس بموضعه.

و كانت أمّ سليم [1] زوج أبي طلحة من الأنصار من قبيلة الخزرج إمرأة راجحة العقل قويّة الشخصية تمتاز بخصال من المضاء وحسن الرأي والحزم مما يندر في عامة جنس الإناث طبعا ، كما يشهد لذلك ما أثر عنها في الأخبار في وقائع كثيرة مع ما هي عليه في حالة المعيشة من ثراء وبسطة رزق إذ كانت زوجا لأبي طلحة المعروف بأنه من أثرياء الأنصار بحيث لا توجد في الأنصار ثروة مال تفوق ثروته وهو الذي تبرع عندما سمع من آيات القرآن ما نزل من سورة آل عمران في الحثّ على الإنفاق من الجيد في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

فجاء أبو طلحة يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله إني سمعت ما أنزل الله من آية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأنا أقدم لك صدقة لوجه الله حديقتي بيرحاء" ، و كانت الحديقة المسماة بيرحاء [2] هذه تعدّ عروس الحدائق بالمدينة المنورة إذ ذاك. فبارك له الرسول صلى الله عليه وسلم عمله و شكر له و أثنى عليه و دعا له و لكنّه ردّ عليه الحديقة على أن يجعلها عطية تقسم ملكا لجميع أعضاء قرابة أبي طلحة أجزاء متساوية خارجة عن ملكية أبي طلحة و راجعة إلى ملكية الجمع من عشيرته دون غيرهم - هكذا تدبيراً نبويّا بالغًا أعلى الذروة في الحكمة.

تقول الأخبار عن أم سليم* أنها كانت تنظر فيما يقع من الأنصار من تقديم الهدايا للرسول صلى الله عليه وسلم ففكرت و تروت في اختيار ما تقدمه هي على أن يكون حسب ذوقها و همتها ، فاختارت ما كان بحق يعدّ

---

[1] أم سليم: هكذا تدعى بكنيتها واسمها الشخصي مغفل. وجاء في تعيينه عدة أقوال فهي بنت ملحان من قبيلة بني النجار الخزرجية.

[2] بيرحاء: جاء من التعليق على هذا اللفظ أنه كلمتان ركبتا تركيب إضافة بئر ماء أضيف إلى لفظ حاء بالحاء المهملة ممدودة بالفتح. هذا هو الأصل ابتداءً ، ثم نقل اللفظ فجعل اسما للحديقة من كلمتين بير حاء ركبتا تركيبا مزجيا.

من هدايا الحكماء للعظماء يغاير جنس غيره من أنواع الهدايا تفوقا في وفرة الجدوى و دوام الأثر.

فعمدت **أمّ سليم*** إلى ابنها **أنس*** الذي كان معها ربيبًا لأبي طلحة، وهو من زوجها الأول قبل **أبي طلحة***، المتوفى عنها **مالك بن النضر*** من فرقتها بني النجار.

و كان أنس إذ ذاك غلاما في نحو العاشرة من عمره يمتاز **بظرف**[1] وحسن أدب و ذكاء و نشاط في العمل قلَّمَا يرى ذلك في غيره من الغلمان. فمضت به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تقدمه له قائلة له: " يا رسول الله إن أنسًا غلام **كيس**[2] فهل تقبله أن يكون خادما لك ؟ " فتقبّل الرسول صلى الله عليه وسلم هدية أم سليم بما أهل له من حسن القبول والترحيب و دعا لها ولأنس بما هو من دأبه عليه الصلاة والسلام في شكر المحسنين.

وقد ورد في الأخبار المتواترة أن مما دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم لأنس أن يبارك الله له في العمر والنسل والرزق، وقد حقّق واقع المشاهدة هذا الدعاء من بعد بما هو معروف عن أنس، فكان من المعمرين الذي تجاوز سنّهم المائة سنة و صار له من الولد و الحفدة ما بلغ العدد من العشرات وكان في بسطة من الرزق والمعيشة بمكانة قليلة النظير في العموم.

---

(1) الظرف: بفتح الظاء المعجمة المشالة وإسكان الراء وآخره فاء من معانيه، وهو المراد هنا، حسن الأدب مع حسن الخلق وحسن الهيأة و رقة الطبع مع الذكاء والفطنة. والفعل منه مضموم الماضي والمضارع وهو من أفعال السجايا لا يتعدى للمفعول والمصدر منه "الظرف" بفتح فسكون و"الظرافة" بفتح الظاء وتخفيف الراء.

(2) الكيّس: بفتح الكاف وكسر الياء المثناة السفلية مشددة آخره سين مهملة هو وصف من اتصف بالكيس كالخيّر لمن اتصف بالخير والطيّب من اتصف بالطيب. ومعنى الكيس بفتح فسكون الذي هو مصدر يكاد يتحد مع معنى الظرف السابق ذكره وإنما يزيد معنى الكيّس على معنى الظريف بأن الكيس فيه معنى رجاحة العقل والحزم. وللكيس مصدر آخر هو الكياسة بكسر الكاف وتخفيف فتح الياء، وفعل الكيس "كاس، يكيس" من الفعل اللازم لا يتعدى.

و الوارد في خدمة **أنس*** للرسول صلى الله عليه وسلم يفيد أنّه استمر في عمله هذا مدّة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهي عشرة أعوام كاملة وانضم أنس إلى أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم كواحد منهم ، فحفظ الحديث عنه حتى كان من أكثر الرواة حديثا يضاهي **أبا هريرة*** **وعائشة*** رضي الله عن الجميع.

و جاء في رواية أخرى عن عرض خدمة أنس للرسول أن الذي قدمه للرسول يعرضه و يقول أنه غلام كيس بأنه زوج أمّه أبو طلحة نفسه. فجاء من التعليق على هذا بأنه لا منافاة بين الروايتين مع اعتبار أنّ التقديم الأول لابدّ كان من أمّ سليم ثم أحبّ أبو طلحة أن يشارك في العملية ولا يكون أجنبيًّا عن هذه المأثرة فقدمه للرسول زيادة على ما كان من أمّ سليم ، ولا يخلو الحال في روايات الأخبار من تزيد في عبارات الكلام و ترجمة الوقائع فيقع بذلك- تارة- ما يفهم على أنّه منافاة بين الروايتين وليس الواقع كذلك.

و ممّا جاء من مثل هذا التزيد بإيراد العبارات الكلامية الزائدة عن الأصل في واقع الحادث ، ما نقله البعض في قضية تقديم **أمّ سليم*** لابنها كخادم للرسول صلى الله عليه وسلم وكان شاذًّا من بين سائر ما نقل في ترجمة التقديم ، ذلك ما جاء في عبارة: لمّا رأت أمّ سليم الأنصار يقدمون هداياهم للرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن بيدها ما تقدمه فتأسفت لذلك و عمدت إلى تقديم ابنها أنس ليخدم الرسول صلى الله عليه وسلم. فالحقيقة فيما يقال في عبارة هذه الترجمة أنها تزيّد وكان تزيّداً في خطإ للمرمى و تشويهًا للمعنى لا صحة له بوجه من الوجوه في نظر المتأمل في ملابسات الأحوال و كذا في المعروف من الآثار إذ لم تكن أمّ سليم ممن **يعوزه**[1] تقديم هدية أيَّ هدية و لو بلغت من الفقر ما بلغت مع أنها زوج

[1] يعوزه: هذه المادة من العين المهملة و الواو ثم الزاي في الأخير يأتي الفعل منها مفتوح الماضي مضموم المضارع والمصدر بفتح فسكون."عاز ، يعوز ، عوزا" بوزن قال وهو فعل متعد للمفعول

عظيم من عظماء الأثرياء في المدينة وهو ممن يتفانى في بذل المال في سبيل الله و رسوله ، وإنما أرادت بتقديم ابنها كهدية لتتفوّق على هدايا الغير ، فهي هدية أرقى وأعلى وليست كما تدل عبارة التزيد بأنها نازلة القدر عن باقي الهدايا غيرها وهذا المعنى لا يكاد يجهله أحد له ملكة التمييز بين الأشياء. وهكذا أدرجت هذه المواضيع المختلفة في سياق واحد على أنها من أحداث السنة الأولى للهجرة و مع ذلك فإنها لم تف ولم تستغرق كامل أحداث هذه السنة فقد بقي عدد كثير من أحداث السنة الأولى للهجرة لم يتضمنه السياق المذكور ، ومنها ما له أهمية كبيرة ومن أهم الأحداث في السنة الأولى الهجرية: مسألة بدء شرعيّة الأذان للصلاة.

وإسناده غالبا إلى ما هو من الأشياء أو المعاني المطلوبة حال كونها مفقودة مستعصية الحصول عليها ، "عاز الشيء الفلاني فلانا" بمعنى احتاج إليه وطلبه فلم يحصل عليه. ويأتي هذا الفعل رباعيا بزيادة الهمزة فيكون مصدره الإعواز بكسر الهمزة فيكون لازما لايتعدى وإنما يدل على حال المسند إليه فيقال اعوز فلان بمعنى افتقر وأصابته الحاجة من حيث لا يقدر على تحصيلها. كما يكون الفعل في هذه الصيغة متعديا أيضا يقال "أعوزني طلب الشيء الفلاني" بمعنى عجزت عن تحصيله. وتصاغ صفة العاجز هنا بفتح الواو وكسرها فيقال فيه فلان معوَز بالفتح ومعيوز بالكسر. والعوز: بفتحتين على العين والواو اسم للاحتياج والفاقة وضيق المعيشة. وجاء لهذه المادة معان أخرى غير ما ذكر هنا. وقد تقدم شيء من التعليق على هذه المادة في الدرس الثامن والخمسين في قصة أمّ معبد.

الفهارس

فهرس في أعلام أشخاص وأسماء قبائل

على ترتيب حروف الهجاء

المجلد الخامس

فهرس بأسماء أشخاص وقبائل وأمكنة (حسب ترتيب الصحائف)

المجلد السادس

303	محمد الخضري المصري
306	نور الدّين السمهودي
307	محمد الخضري
307	شمس الدّين الذهبي
307	أبو بكر وعمر
310	نور الدّين السمهودي
311	أبو عبد الله الحاكم(من أئمة الحديث)
311	أبو يحيى الضرير
311	عبد الرحمن بن زيد بن أسلم
311	حذيفة بن اليمان
312	يحيى (مؤلف تا ريخ)
312	عبد الله بن عمر بن الخطاب
312	أبيّ بن كعب
312	رزين (مؤلف تاريخ)
314	سفيان بن عيينة
314	موسى بن أبي عيسى
314	محمد بن إسحاق
314	أسباط بن محمد
314	هشام بن سعد
314	عبد الله بن عباس
314	أحمد بن حنبل
314	عبيد الله بن عباس

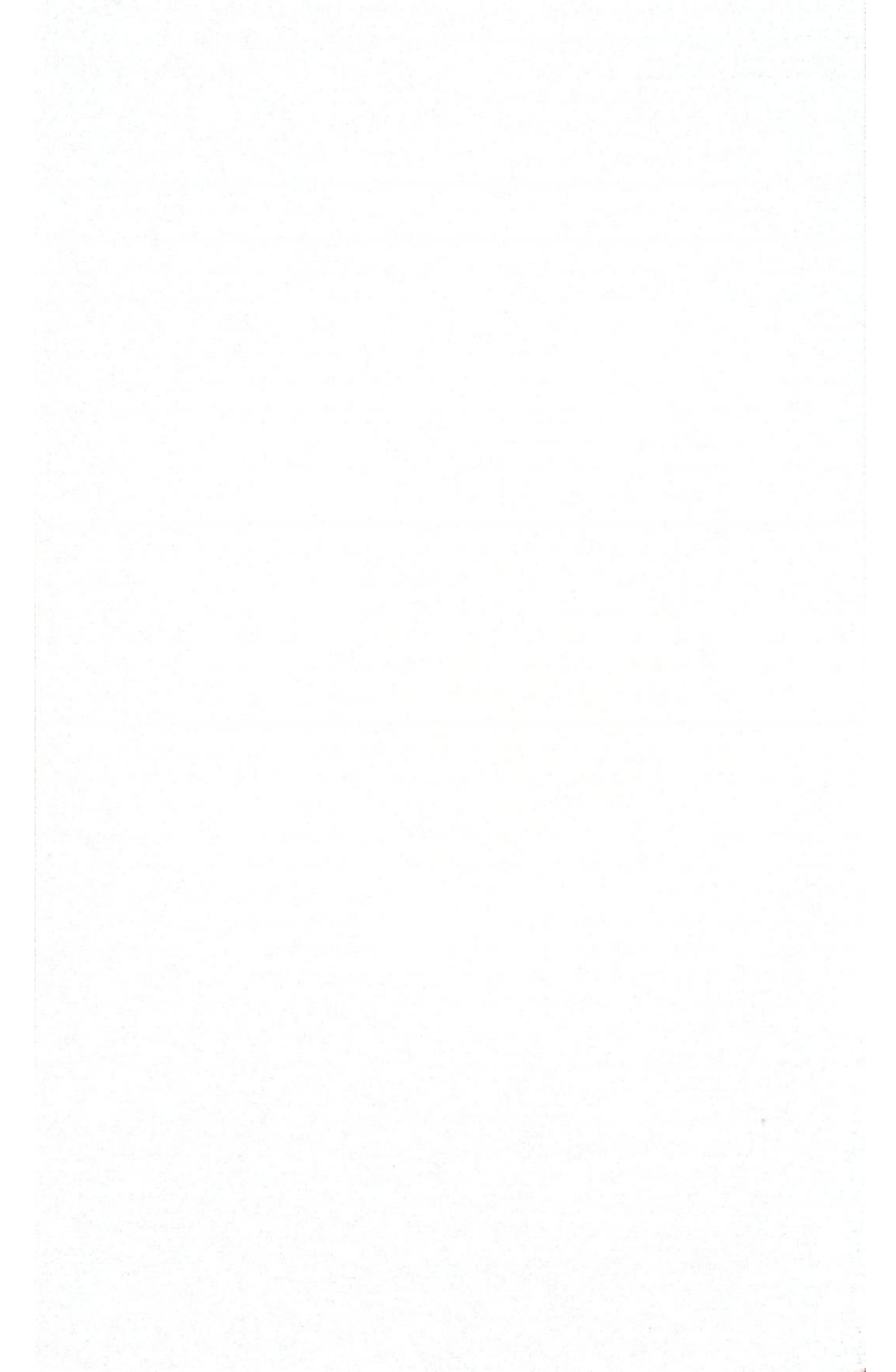
فهرس في مفردات لغوية وأسماء أماكن وبلدان على ترتيب حروف الهجاء

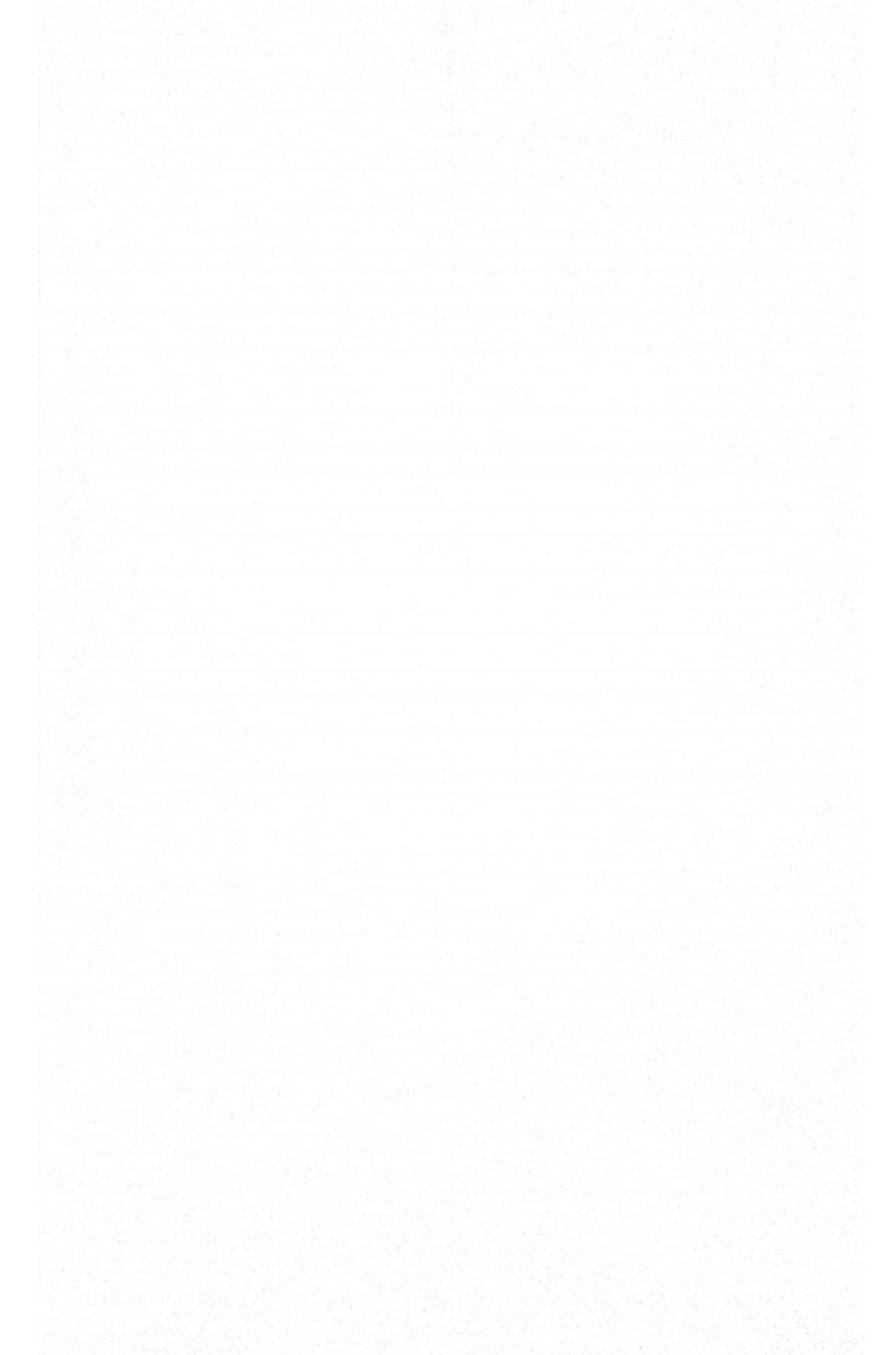
المجلد الخامس

فهرس في مفردات لغوية وأسماء أماكن وبلدان على ترتيب حروف الهجاء

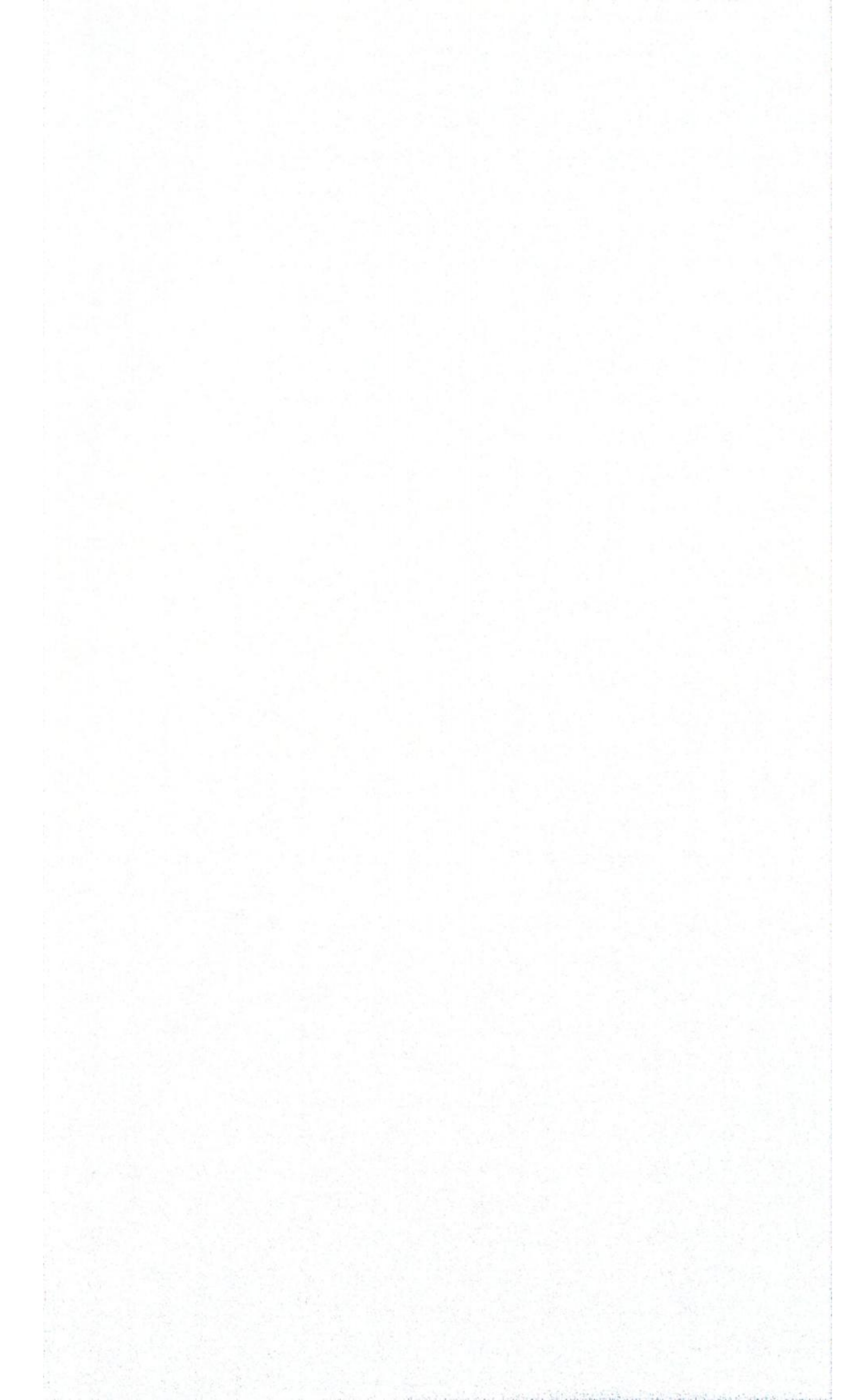
المجلد السادس

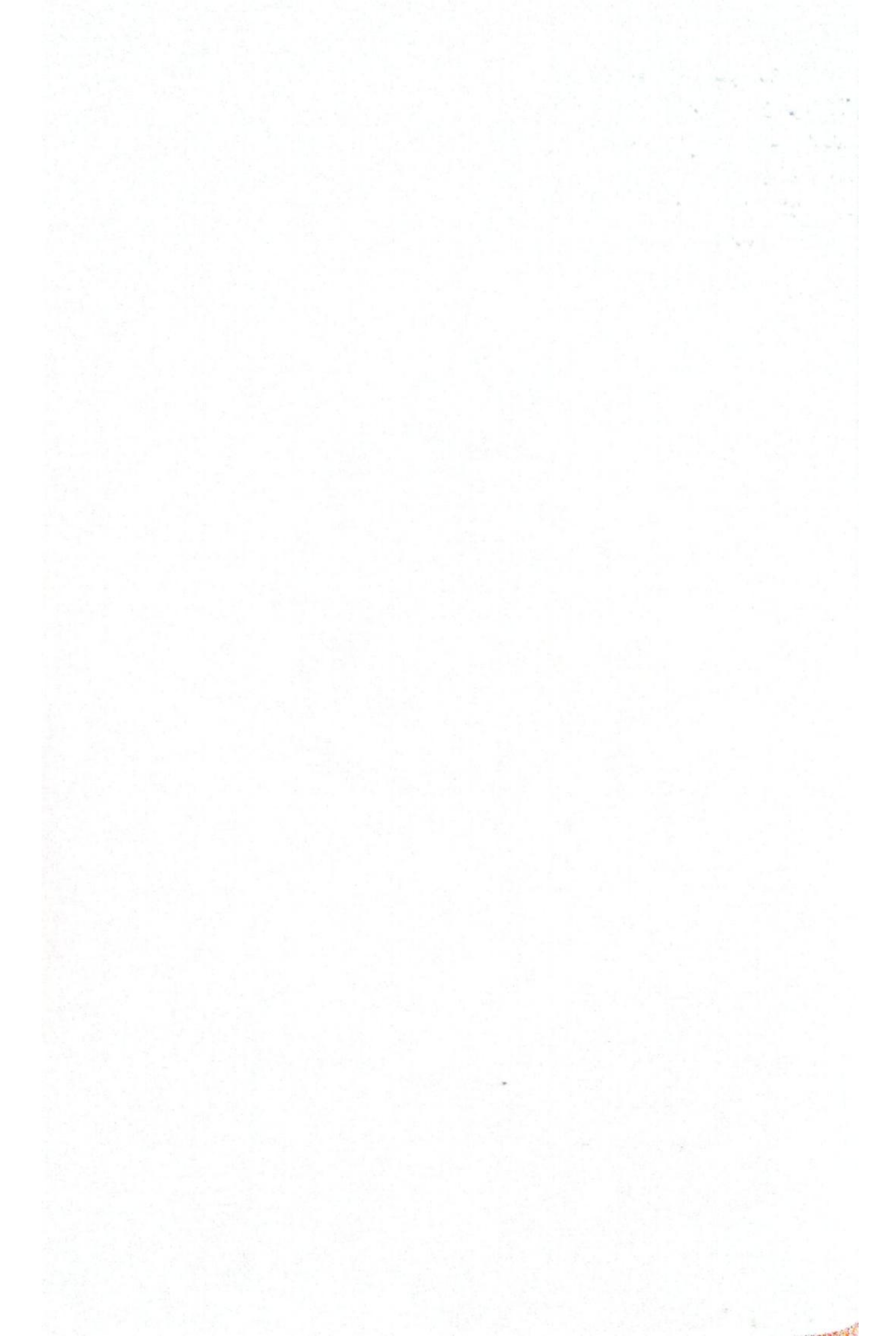
فهرس الأبواب والموضوعات













ولد الشيخ محمد الصالح بن طيار بمدينة باتنة يوم 07 ديسمبر سنة 1900م في بيت علم وثقافة حيث استقى منه التعاليم الأولى للإسلام. لقد كان أبوه الشيخ الأخضر بن طيار قاضيا شرعيا (في كل من باتنة - خنشلة- عين البيضاء- القالة - عزابة ولاية سكيكدة وسوق أهراس) وكان عمه العلامة الشيخ سليمان بن طيار إماما بمدينة تبسة، وكان عمه الحاج البشير بن طيار أول أمين المالية لأول جمعية دينية لمدينة ميلة أي "جمعية حياة الشباب" التي أسسها العلامة مبارك الميلي في فبراير 1936.

نال الشيخ الفاضل أكبر قسط من العلم والتكوين من تتلمذه على يد شيوخ أجلاء بمدينة قسنطينة وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد بن باديس إذ كان يلازمه ويرافقه في كل حركاته الإصلاحية عبر الوطن ومن أبرز زملائه نذكر: الشيخ العباس بن الشيخ الحسين- محمد العيد آل خليفة- زهير الزاهري- نعيم النعيمي- الشيخ بيوض- الصادق حماني....

زيادة على تخصصه في العلوم الإسلامية تحصل الشيخ في 27 ماي 1941 على شهادة الكفاءة لوظيفة "عادل" (موثق).

أظهر في الفترة ما بين -1931إلى 1945 نشاطا كبيرا في التربية والتعليم بتأسيس وإدارة المدارس الحرة، إنشاء الجمعيات الدينية والنشاط كمرشد في الكشافة الإسلامية في كل من مدينة سوق أهراس وضواحيها ومدينة عزابة (نذكر من تلاميذه: الشيخ عبد الرحمان العائب- علي منجلي- عبد الحميد لطرش- محمد الشريف مساعدية....).

اعتقلته السلطات الفرنسية إثر حوادث 08 ماي 1945 ونقل من سجن مدينة عزابة إلى سجن مدينة سكيكدة ونفي من مدينة عزابة بعد إطلاق سراحه فاستقر بمدينة ميلة مسقط رأس أسرته وتولى فيها إمامة المسجد ورئيس فرع جمعية العلماء المسلمين ورئيس الجمعية الدينية حياة الشباب.

في سنة 1964 أدمج الشيخ محمد الصالح بن طيار في هيئة أساتذة التعليم من طرف وزارة التربية الوطنية ولكنه رفض التوظيف، وبقي الشيخ محمد الصالح بن طيار الإمام الواعظ والمرشد الأمين للأمة إلى أن وافته المنية يوم 11 أكتوبر سنة 1984 بمدينة ميلة.

نشير إلى أنه تم بناء مسجد باسم الشيخ محمد الصالح بن طيار بحي العربي بن رجم (500 مسكن) بميلة وبتاريخ 23 جوان 2013 تخرجت دفعة أئمة تحمل اسم الشيخ محمد الصالح بن طيار على مستوى المعهد الوطني للتكوين المتخصص للأسلاك الخاصة بإدارة الشؤون الدينية والأوقاف بمدينة التلاغمة ولاية ميلة.



نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع

22. شارع قيطوني عبد المالك
قسنطينة - الجزائر
هاتف فاكس: 213.31.92.25.61 +
E.mail: dar_numidia@yahoo.fr